

ستيڤن كينج STEPHEN KING

مكتبة
الكتاب كاملا

رواية

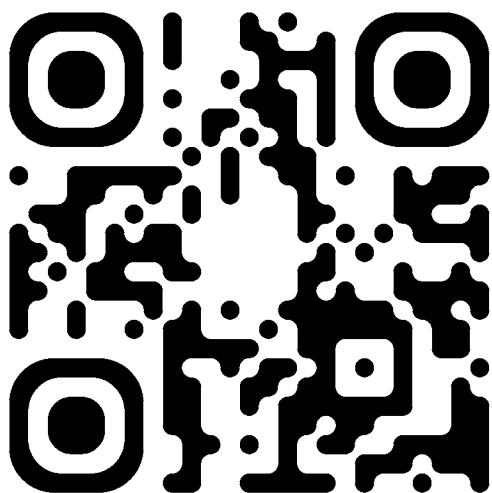
الصمود THE STAND

ترجمة: شيرين هنائي



الصمود THE STAND

الكتاب كاملا



سجل في مكتبة
اضغط الصفحة

SCAN





إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email: P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

● تأليف: ستيفن كينج

● العنوان الأصلي: The Stand

● ترجمة: شيرين هناني

● العنوان العربي: الصمود (المجلد الأول)

● تدقيق لغوي: كارم أحمد

● حقوق النشر:

Copyright © 1978, 1990 By Stephen

King

Illustrations Copyright © 1990 By

Bernie Wrightson

● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

● رقم الإيداع: 2024/2283 م

● الطبعة الأولى: يناير / 2025 م

● الترخيم الدولي: 3-383-992-977-978

● حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

مكتبة
t.me/soramnqraa

ستيفن كينج STEPHEN KING

مكتبة

t.me/soramnqraa



رواية

الصمود THE STAND

ترجمة: شيرين هنائي

إلى تَابِّي
صندوق الأعاجيب هذا..

إشارة من الكاتب

رواية الصمود عمل خيالي، وموضوعها يوضّح هذا تمامًا. أحداث كثيرة فيها وقعت في أماكن حقيقية مثل مدينة أوجونكويت في ولاية مَين، ولاس فيجاس في نيفادا، وبولدر في كلورادو، واخترت حرية تغيير بعض تفاصيل هذه الأماكن بما يناسب سير القصة. أتمنى ألا يتضايق القراء من ساكني هذه الأماكن الحقيقية المذكورة في الرواية من «وقاحتي الوحشية»، على حد قول دوروثي سايرز⁽¹⁾، التي انغمست بحرية في التغييرات نفسها في رواياتها. أماكن أخرى مثل أرنيث وتكساس وشويو خيالية مثل الحبكة ذاتها.

شكر خاص واجب إلى راسل دور (مساعد طبيب)، ودكتور ريتشارد هيرمان، كليهما من مركز بريدجتون لطب الأسرة، واللذين أجابا كل أسئلتني عن طبيعة الإنفلونزا، وطريققتها في التحوُّر كل عامين أو نحو ذلك، وشكر إلى سوزان أرتز ماننج من بلدة كاستين، التي صحَّحت المُسوِّدة الأصلية.

جزيل الشكر ليل ثومبسن، وبيتي بارشكر، اللذين أخرجوا هذا الكتاب في أحسن صورة.

ستيفن كينج

مكتبة

t.me/soramnqraa

(1) كاتبة روائية ومسرحية إنجليزية (الترجمة)

الشوارع تشتعل في الخارج
برقصة فالس مميتة
بين اللحم والخيال.
والشعراء هنا لا يكتبون شيئاً على الإطلاق
فقط ينسحبون، ويدعون ما يحدث يحدث.
وفي تسارع الليل يصلون إلى لحظتهم
ويحاولون الصمود بشرف.
لكن ينتهي بهم المطاف جرحى،
ليسوا حتى بالموتى،
الليلة في أرض الأدغال.

بروس سبرينجستين⁽¹⁾

وكان واضحاً أنها لن تستطيع الاستمرار!
فُتِح الباب وهبَّت الريح،
وانطفأت الشموع ثم اختفت،
وتطايرت الستائر ثم تبدَّى هو وقال:
«لا تخافي، تعالي يا ماري».
ولم تعد خائفة.
وجرت إليه

(1) مغني وكاتب كلمات أمريكي (المترجمة)

وبدأ في الطيران..
وأمسكت يده..
«تعالى يا ماري،
لا تخافى من حاصد الأرواح!».

طائفة المحار الأزرق⁽¹⁾

ما الهجاء؟
ما الهجاء؟
ما الهجاء؟

كنتري جو والسمة⁽²⁾

(1) فريق روك (الترجمة)

(2) غنى فريق كنتري جو والسمة أغنية ساخرة عن حرب فيتنام، يتجهون في مقطعها كلمة بذيئة حرفاً حرفاً، ثم يكررون للجمهور «ما الهجاء» لينطق الجمهور الكلمة كاملة، احتجاجاً على الحرب التي أثقلتهم وانتزعتهم من حياتهم (الترجمة)

الدائرة تنفتح

افترض الشاعر أننا في حاجة إلى عون.

إدوارد دورن⁽¹⁾

«سالي...»

غمغمة..

«استيقظي يا سالي...»

بغمغمة أعلى تنطق كلمات مُدغمة: «تُركني وشأنيني...».

«استيقظي. لا بُدَّ أن تستيقظي!».

تشارلي.

صوت تشارلي يناديها. منذ متى؟

سبحت سالي خارجة من الحلم.

نظرتُ أولاً إلى الساعة على المنضدة الجانبية، ورأتُ أنها تشير إلى الساعة الثانية والرّبع صباحاً. المفترض ألا يكون تشارلي هنا، يجب أن يكون في الوردية. نظرتُ إليه أول نظرة مدققة، وقفز شيء بداخلها، حدس مخيف.

كان زوجها شاحباً حد الموت. عيناه مشتّتان جاحظتان من محجريهما. مفاتيح السيارة في يده، ويده الأخرى تهزها حتى بعدما فتحتُ عينيها، كأنه لا يستطيع استيعاب حقيقة أنها استيقظت.

- تشارلي، ما الأمر؟ ماذا حدث؟

(1) شاعر ومعلم أمريكي (المترجمة)

لم يبدُ أنه يعرف ما سيقول. تحركت تفاحة آدم في عنقه إلى أعلى وأسفل، لكن لم يصدر عنه أي صوت، ولم يكن من صوت في جناح الخدمة الصغير إلا تكّات الساعة.

سألته في غباء: «هل اشتعل حريق؟».

هذا هو السبب الوحيد الذي استطاعت التوصل إليه ويمكن أن يضعه في هذه الحالة. كانت تعرف أن أبويه هلكا في حريق منزلي.

أجابها: «بشكل ما نعم، وبشكل ما هو أسوأ. لا بدُّ أن تبدي ملابسك يا حبيبتي. أحضري الصغيرة لاقون. يجب أن نخرج من هنا».

سألته وهي تنهض من الفراش: «لماذا؟».

تملكها الخوف من الظلام. لا شيء يبدو طبيعياً، كأنها في حلم.

- أين الحريق؟ في الباحة الخلفية؟

لكنها كانت تعرف أنه ليس في الباحة الخلفية. إنها لم ترَ تشارلي خائفاً إلى هذا الحد من قبل. أخذت شهيقاً عميقاً فلم تشم رائحة دخان أو احتراق.

- سالي حبيبتي، لا تسألني. لا بدُّ أن نبتعد. بعيداً جداً. أحضري الصغيرة لاقون وبدلي ملابسك.

- لكن هل يجب أن.. هل لدينا وقت لحزم الأمتعة؟

استوقفه سؤالها. كانت تظن أنها خائفة كما ينبغي لها أن تخاف، لكنها ليست كذلك كما هو واضح. لاحظت أن ما فسّرت به خوفه ليس إلا ذعراً خاماً.

مرّ يداً مرتعشة بين خصلات شعره وقال: «لا أعرف. يجب أن أختبر الريح».

وتركها مع عبارته الغريبة التي لم تعن لها شيئاً. تركها واقفة تشعر بالبرد والخوف والدهشة، حافية ترتدي رداء نوم قصيراً. ما علاقة اختبار الريح بحزم الأمتعة؟ وأين (بعيداً) الذي يقصده؟ رينو؟ فيجاس؟ سولت ليك سيتي؟ و...

وضعت يدها على حنجرتها وقد راودتها فكرة جديدة.

أوّل⁽¹⁾.. المغادرة في منتصف الليل تعني أنه سيكون أوّل.

AWOL Absent without leave (1)

تعبير صيغ في الجيش الأمريكي في الحرب العالمية الأولى ويعني (الغياب دون إذن) أو الفرار من الخدمة (الترجمة)

ذهبتُ إلى الغرفة الصغيرة؛ غرفة الصغيرة لاثون، ووقفت لحظة تنظر إلى الرضیعة الغافية تحت غطاءها الوردی. تمسكتُ بالأمل الخافت في أن يكون كل هذا حلمًا استثنائيًا متجلیًا. سيمُرُ، وستستيقظ في السابعة صباحًا كعادتها وتطعم نفسها والرضیعة وهي تشاهد أول ساعة من برنامج «اليوم»، وستطهو البيض لتشارلي عندما يعود من الوردية في الثامنة صباحًا، بعدما يُنهي جولته في برج المركز الشمالي لليلة أخرى. بعد أسبوعين سيعود إلى ورديات النهار، ولن يصير مضطربًا كما كان. لو أنه ينام إلى جوارها ليلاً لما راودتها تلك الأحلام الغريبة كتلك التي..

هَسَ زوجها فيها وكسر أملها الخافت هاتفاً: «أسرعي. لدينا وقت يكفي لجمع بضع حاجات سريعًا، لكن من أجل الله يا امرأة، لو أنك تحبينها...». وأشار إلى المهد وأردف: «بدلي ملابسها».

سعل في قبضته بعصبية، وبدأ في إخراج الأغراض من خزانتهما وكومها كيفما اتفق في حقيبتين قديمتين.

أيقظتِ الصغيرة لاثون وهي تهدئها، فقد كانت ذات الأعوام الثلاثة مرتبكة ناعسة بعدما أيقظوها في منتصف الليل. بدأت تبكي وسالي تبدل ملابسها. صوت بكاء الطفلة جعلها تخاف أكثر من أي وقت. ربطتُ ذلك بتلك المرات القليلة التي بكتُ فيها الطفلة الهادئة الملائكية في الليل بسبب حساسية الحفاضات، أو التسنين أو المغص. تبدل الخوف ببطء إلى غضب وهي ترى تشارلي يعبر الباب مكوّمًا ملابس التحتية بين يديه. رباط الصدرية يرفرف خلفه كأنه طرف زُمارة مزعجة عشية عيد الميلاد. حشر الملابس في الحقيبة وأغلقها على حافة سروالها التحتي المفضل، فأيقنت أنه تمزق.

صاحت: «ما هذا؟!». أيقظ صوتها الملتاع الصغيرة لاثون، وبدأت في وصلة بكاء عنيف جديدة بعدما كانت قد هدأت قليلاً.

- هل جننت؟ سيرسلون خلفنا الجنود يا تشارلي! الجنود!

قال بثقة مرعبة في صوته: «ليس هذه الليلة. المهم يا سُكرتي الصغيرة إنه ما لم نرحل مؤخرتنا ونتحرك، فلن نصل إلى القاعدة في الوقت المناسب. ثمة عطل في مكان ما على ما أعتقد. لمَ لا؟ كل شيء يتعطل بالتأكيد في لحظة بعينها».

ثم ضحك ضحكةً مختلةً طويلةً أرعبتها أكثر من أي شيء آخر فعله.

- هل بدلتِ الصغيرة ملابسها؟ جيد. ضعي بعضَ أغراضها في حقيبة أخرى. استخدمِي الحقيبة القماشية الزرقاء في الخزانة، ثم لنخرج من هنا على الفور. الريح تهبُّ من الشرق إلى الغرب. حمداً للرب على هذا. ثم سعل مرة أخرى في كفه. ألحَّت الصغيرة لاقون وهي ترفع ذراعيها عاليًا وتهتف: «دادي! أريد دادي! طبعًا! ركُبني الحصان يا دادي! ركُبني الحصان! طبعًا!».

- ليس الآن.

ثم اختفى داخل المطبخ. بعد لحظات سمعتُ سالي اصطكاكَ أوعية الطهي. كان يُخرج المال المُدخر من داخل وعاء طبخ الصلصة في الرف العلوي. ثلاثون أو أربعون دولارًا جنببتهم هناك، دولارًا أو نصف دولار في المرة من مصروف البيت. ما يحدث حقيقي فعلاً. أيًا كان، فهو حقيقي.

رفض «دادي» أن تركب الصغيرة لاقون كتفيه حصانًا، ونادرًا ما كان يرفض لها طلبًا، فبدأتُ تنتحب مجددًا. عانت سالي وهي تساعدُها على ارتداء سترتها، ثم حشرت باقي ملابسها في الحقيبة القماشية. فكرة وضع أي شيء آخر في الحقيبتين الأخريين فكرة سخيفة. سوف تنفجران. اضطرت إلى الركوع فوقهما كي تغلقهما. وجدتُ نفسها تشكر الرب أن الصغيرة لاقون تستطيع استخدام الحمام، ولن تضطرَّ إلى حمل عبوات الحفاضات.

عاد تشارلي إلى غرفة النوم، وهو الآن يجري وهو يحشر الأوراق المالية في جيوبه. حملتُ سالي الصغيرة لاقون. كانت مستيقظة الآن وفي وسعها المشي، لكنَّ سالي أرادتُها أن تحملها بين ذراعيها. أخيرًا انحنت وحملت الحقيبة القماشية.

سألت الصغيرة لاقون: «إلى أين نذهب يا دادي؟»

- يمكن للصغيرة أن تنام في السيارة.

قالها ثم حمل الحقيبتين، يرفرف من إحداها طرفُ سروال سالي الداخلي. في عيني تشارلي النظرة البيضاء المحملقة. بدأ يقينٌ يتزايد تدريجيًا في عقل سالي. همست: «هل وقع حادث؟ أوه، يا يسوع ويا مريم ويا يوسف النجار. ثمة حادث، أليس كذلك؟ هناك؟».

- كنت أَلعب سوليتير على الكمبيوتر. نظرتُ إلى أعلى لأرى الأرقام على شاشة العدّادات الرقمية قد تحولت من الأخضر إلى الأحمر. شغلت شاشات المراقبة. سالي، لقد كانوا كلهم...

توقف عن الكلام وهو ينظر إلى عيني الصغيرة لأقنن الواسعتين اللامعتين بالدموع والفضول. همس: «كلهم م- أ- ت- و- ا. كلهم باستثناء واحد أو اثنين، على الأرجح رحلوا الآن».

سألت الطفلة: «ما معنى م- أ- ت يا أبي؟».

أجابت سالي وصوتها يبدو لها قادمًا من وادٍ سحيق: «لا تكثرني يا حبيبتي».

ابتلع تشارلي ريقه، فشعر بشيء يسد حلقه. قال: «المفترض أن يعمل القفل الإلكتروني مغناطيسي حالما تتحول العدادات الرقمية إلى الأحمر. لديهم كمبيوتر «تشاب» يدير المكان والمفترض أنه مضاد للأعطال. رأيتُ ما رأيتُ على الشاشات، فقفزتُ إلى الباب. ظننتُ أن الباب اللعين سينزل من أعلى ليشطرنني نصفين. المفترض أن يُغلق لحظة تحول العدّاد إلى الأحمر، ولا أعرف منذ متى والأرقام حمراء قبل أن أنظر إليها وألاحظها. كنتُ قد وصلت إلى ساحة انتظار السيارات عندما سمعتُ صوت الانغلاق من خلفي. مع ذلك، لو كنتُ نظرتُ إلى الساعة متأخرًا ثلاثين ثانية كنتُ سأحبسُ في غرفة التحكم في البرج الآن، كأني حشرة في زجاجة.

- ما هذا؟ ماذا...

- لا أعرف. ولا أريد أن أعرف. كل ما أعرفه أنه قت.. ق- ت- ل- ه- م بسرعة. لو أنهم يريدونني، عليهم أن يلحقوا بي. إنهم يدفعون لي بدل أخطار، لكنهم لا يدفعون ما يكفي لأظل هنا. الريح تهبُّ إلى الغرب، وسوف نقود السيارة إلى الشرق. تعالي الآن.

تبعته وهي تشعر بعد أنها نصف نائمة، محبوسة داخل حلم. اتجهوا إلى سيارتهم الشيقروليه ذات عام الأعوام الخمسة عشر، الواقفة وسط ليل صحراء كاليفورنيا.

رمى تشارلي الحقيبتين في صندوق السيارة، والحقيبة القماشية على المقعد الخلفي. وقفتُ سالي لحظات إلى جوار باب الراكب، والطفلة بين

ذراعيها، تنظر إلى العشة التي أمضوا فيها آخر أربعة سنوات. عندما انتقلوا إليها كانت ابنتهما في بطنها، وكل ركوبات الحصان في المستقبل أمامها. قال تشارلي: «هيا. اركبي يا امرأة!».

ففعلت. تراجع بالسيارة إلى الخلف، ومسحت أضواء كشافاتها البيت للحظات. انعكاس الضوء على النوافذ جعلها تبدو كعيني وحش لامعتين. انحنى على المقود، وجهه غارق في ضوء العدادات الخافت. - إن كانت بوابات القاعدة قد أغلقت، فسوف أقتحمها.

كان يعني ما قال، استطاعت أن تميز هذا. فجأة صارت ركبتها رخوتين. لكن لا داعي إلى هذه المبالغة. بوابات القاعدة مفتوحة، وحارسها الوحيد يقرأ مجلة. لم تستطع سالي أن ترى الحارس الآخر. هذا هو الجزء الخارجي من القاعدة، وما يجري داخل القاعدة لا يهم أحدًا من أولئك الرفاق. نظرت إلى أعلى لأرى الأرقام على شاشات العدادات الرقمية قد تحولت من الأخضر إلى الأحمر.

ارتعدت، ووضعت كفها على ساقه. الصغيرة لاثون نائمة الآن. ربت تشارلي يدها وقال: «كل شيء سيكون على ما يرام يا حبيبتي». بحلول الفجر، كانوا ينطلقون شرقًا نحو نيفادا، وتشارلي يسعل باستمرار.

مكتبة
t.me/soramnqraa

كابتن ترييس

16 يونيو- 4 يوليو 1990

اتصلتُ بالطبيب على الهاتف.
قلتُ يا طبيب، يا طبيب أرجوك،
ينتابني ذلك الشعور بالرعدة والدوار
أخبرني، ماذا قد يكون؟
أهو مرض جديد؟

ذا سيلفرس

صغيرتي، هل تفهمين رجلك؟
إنه رجل صالح،
صغيرتي، هل تفهمين رجلك؟

لاري أندروود

الكتاب الأول

الفصل الأول

تقع محطة تزويد الوقود المسماة هابسكوم تيكساكو في شارع رقم 93 شمال بلدة أرنيت⁽¹⁾، وهو شارع حقير ذو أربع حارات، على بعد 110 أميال من هيوستن. بداخل المحطة الليلة الزبائن المعتادون، يجلسون قرب ماكينة الدفع، يشربون البيرة، يتحدثون في خدر، يراقبون الحشرات تطير حول اللافتة المضاءة الكبيرة.

المحطة مملوكة لبل هابسكوم، لذا يُدْعَن إليه الجميع حتى وهو أحمق تمامًا. كانوا يتوقعون إذعانًا مماثلًا لو كان تجمّعهم في محال أعمالهم. لكن ليس لأي منهم محل عمل. الوقت عصيب في بلدة أرنيت. كان فيها عام 1980 مؤسستان صناعيتان؛ مصنع ورقيات (يصنع أدوات طعام للرحلات وحفلات الشواء في الغالب) ومصنع آلات حساب إلكترونية. الآن مصنع الورقيات مغلق ومصنع آلات الحساب ينهار، فهم يصنعون آلات أرخص بكثير في تايوان، كما هي الحال مع أغلب الإلكترونيات مثل التلفزيونات وراديو الترانزستور.

ارتاح نورما برويت وتومي وانا ميكر -الذان كانا يعملان في مصنع الورقيات- وقد صارا عاطلين منذ وقت قريب. هنري كارمايكل وستو ريتمان عملا في مصنع آلات الحساب، لكنهما لا يعملان أكثر من ثلاثين ساعة أسبوعيًا إلا في ما ندر. فيكتور بولفري متقاعد ويدخن سيجارًا ملفوفًا يدويًا نثرَ الرائحة، وهو كل ما يستطيع توفيره لنفسه.

قال هاب وهو يستند إلى ركبتيه ويميل إلى الأمام: «ما أقول الآن هو أن عليهم يقولوا: إلى داهية خراء التضخم هذا، وإلى داهية خراء الدين القومي.

(1) بلدة خيالية (المترجمة)

معنا الصّحافة ومعنا الجرائد. نخطف خمسين ديشيلليون مليون دولار ونرميهم باسم المسيح هكذا إلى دورة العمل».

بالفيري -الذي عمل ميكانيكيًا منذ -1984 هو الوحيد الذي يحترم نفسه كفاية كي يشير إلى ما في عبارات هاب من هراء فاضح. لف سيجارة من سجائره النتنة وقال: «هذا لن يؤدي بنا إلى أي مكان. لو فعلوا هذا سنكون مثل ريتشموند⁽¹⁾ في آخر عامين من أعوام حرب الولايات⁽²⁾. في تلك الأيام لو رغبت في قطعة خبز زنجبيل، كنت تعطي الخبّاز دولارًا كونفدراليًا، فيضعه على الرغيف ويقطع لك قطعة في حجمه. المال مجرد ورق، أنتم تعرفون».

قال هاب وهو يخرج حاملًا أكواب أحمر مُدْهَن من مكتبه: «أعرف من لا يتفقون معك. أدين لهؤلاء وأعرف أنهم يتذمرون من هذه الأوضاع».

جلس ستورات ريتمان -أكثر الرجال هدوءًا في أرنيث- على واحد من المقاعد البلاستيكية المشققة، وعلبة بيرة بابست في يده، وينظر من خلال واجهة المحطة الزجاجية الضخمة. يعرف ستو الكثير عن الفقراء. لقد نشأ في فقر هذه البلدة، ابن طبيب أسنان، تُوفي وهو بعد في السابعة من عمره، تاركًا زوجة وطفلين بخلاف ستو.

عملت أمه في استراحة شاحنات ريد بول خارج أرنيث -كان سيرى ستو الاستراحة من حيث يجلس لولا احتراق الأخيرة عام -1979 وكان مالها يكفي إطعام أربعتهم ولا شيء سوى ذلك. نزل ستو ليعمل في عمر التاسعة لدى شركة شاحنات روج، التي تملك استراحة ريد بول، وساعد في تحميل الشاحنات وتفريغها بعد انتهاء يومه الدراسي، لقاء خمس وثلاثين سنّتًا في الساعة، ثم عمل في حظيرة مواشٍ في البلدة المجاورة؛ برينتري، بعدما كذب بشأن سنه كي يحصل على عشرين ساعة أسبوعيًا من العمل الذي يكسر الظهر، وبأقل أجر.

هو الآن ينصت لحوار هاب ووثيك بولفري عن المال وكيف شخّ، وهو يتذكر كيف أدمى يديه في أول يوم عمل يجر فيه عددًا لا نهائيًا من عربات اليد المُحملة بالجلود والأحشاء. حاول أن يخفي إصابته عن أمه، لكنها رأتها بعد

(1) ريتشموند: عاصمة ولاية فيرجينيا، وعاصمة الولايات الكونفدرالية الأمريكية؛ اتحاد الولايات التي انفصلت عن أمريكا في أثناء الحرب الأهلية (المترجمة)

(2) الحرب الأهلية (المترجمة)

أقل من أسبوع من بدء العمل. بكت من أجل ما حدث، ولم تكن ممن يبكون بسهولة، لكنها لم تطلب منه ترك الوظيفة، فقد كانت امرأة واقعية تعرف حقيقة الوضع.

بعض هدوئه الزائد سببه أنه لم يحظَ قطُ بأصدقاء، ولا وقت للصداقة. كانت لديه المدرسة، وكان لديه العمل. أخوه الأصغر ديف مات بالالتهاب الرئوي بعد أسبوع من عمله في الحظائر، ولم يتخطَ ستو موته قط. افترض أن السبب شعوره بالذنب. لقد أحب ديف للغاية... لكن موته معناه أن الأفواه التي عليه إطعامها قد قلّت واحدًا.

في المدرسة الثانوية أُغرم بكرة القدم، وقد شجعت أمه رغم أن الرياضة ستقتطع من وقت عمله. قالت: «العب. لو أن لك تذكرة خروج من هنا يا ستورات، فستكون من خلال كرة القدم. العب وتذكر إيدي وارفيلد».

إيدي وارفيلد بطل محلي، جاء من أسرة أكثر فقرًا من أسرة ستورات، وغطى نفسه بالمجد الذي جناه من اللعب ظهيرًا ربيعًا في فريق المدرسة الثانوية الإقليمي، ثم التحق بجامعة تكساس بمنحة رياضية، ولعب عشر سنوات مع فريق جرين باي باكرز ظهيرًا ربيعًا ثانيًا، لكنه في بضع مناسبات لا تنسى اشترك في اللعب الفعلي.

يملك إيدي الآن سلسلة مطاعم وجبات سريعة تغطي الغرب والجنوب الغربي، وفي أرنيث يُعرف بأنه أسطورة. في أرنيث إذا ذُكر النجاح، ذُكر إيدي وارفيلد.

لم يكن ستو ظهيرًا ربيعًا، ولم يكن إيدي وارفيلد كذلك، لكنه شعر في بدايات سنته الأولى من الدراسة الثانوية أن لديه ولو فرصة صغيرة في الحصول على منحة رياضية... ثم عُرض عليه برنامج الدراسة والعمل، وأخبره مستشار التوجيه في المدرسة بشأن برنامج قروض NDEA.

مرضت أمه بالسرطان، ولم تعد قادرة على العمل، ثم ماتت قبل شهرين من تخرجه في الثانوية، وترك ستو أخاه برايس ليعوله. تخلى ستو عن المنحة الرياضية، وذهب للعمل في مصنع آلات الحساب. ثم أخيرًا استطاع برايس أخوه الأصغر أن يخرج من البلدة إلى مينيسوتا، ليعمل محلل نظم في شركة IBM. لم ير اسل أخاه بانتظام، وآخر مرة رأى فيها برايس في جنازة زوجة ستو جراء المرض نفسه الذي قتل أمه. ظن أن لبرايس ذنبه الخاص الذي يثقله، وأنه ربما يشعر بالخجل من أن أخاه تحول من أجله إلى مجرد

رجل طيب آخر يعيش في بلدة تُحتَضَر في تكساس، يمضي صباحاته في العمل بالساعة لدى مصنع الإلكترونيات، ولياليه في محطة هاب، أو في حانة رأس الهندي يشرب بيرة لون ستار.

عاش أفضل أيامه وقتما كان متزوجًا، وهو زواج لم يدم سوى ثمانية عشر شهرًا. أنجب رحم زوجته الشابة طفلًا واحدًا، وكان هذا منذ أربعة أعوام. من وقتها وهو يفكر في مغادرة أرنيث، والبحث عن مكان أفضل. لكن حياة البلدات الصغيرة جمّدتَه. أحب أغنية الأماكن المألوفة والوجوه المألوفة الهادئة الطويلة. كان محبوبًا في أرنيث، وقال له فيك بولفري عبارة المجاملة الأعظم على الإطلاق؛ «أنت من أقوىاء الزمن الجميل».

بينما يتحدث فيك وهاب، كان شيء من ضوء الغسق ما زال معلقًا في السماء، لكن الأرض التحفتِ الظلال. لم تعد سيارات كثيرة تمر بشارع 93 الآن، وهو السبب الأساسي لتراكم ديون هاب، لكن ستو رأى سيارة تقترب.

كانت على بُعد ربع ميل، وآخر ضوء النهار يلمع على ما تبقى من طلاء الكروم على بدنِها. عينا ستو ثاقبتان، فتبيّن أنها سيارة شيفروليه عتيقة، ربما إصدار عام 1975. سيارة لا تضيء أنوارها، وتسير بسرعة خمسة عشر ميلًا في الساعة على الأكثر، وتترنح على الطريق. لم يرها أحد بعد سواه.

كان فيك يقول: «لنفترض أنك ستدفع قسطَ رهن هذه المحطة، ولنفترض أن القسط خمسون دولارًا في الشهر».

- بل هو أكثر من هذا بكثير.

- لنفترض جدًّا أنه خمسون. ولنقل إن الفيدراليين طبعوا لك حمولة سيارة من النقود. وقتها، سيلتفت إليك الناس في البنك، ويطالبونك بمائة وخمسين. ستفلس!

أضاف هانك كارمايكل: «هذا صحيح».

نظر إليه هاب في ضيق. كان يعرف أن لدى هانك عادة اختلاس علب الكوكا من الجهاز في المحطة دون أن يدفع، والأدهى أن هانك يعرف أنه يعرف، ولو أن هانك سيتخذ صف أحد في النقاش، فسيكون صفه هو.

قال هاب وهو يحاول إبراز عمق تعليمه الذي بلغ الصف التاسع: «ليس بالضرورة أن يحدث هذا». ثم انبرى يشرح الأسباب.

عرف ستو أنهم على وشك الدس به في نوبة صدام، خفض صوت هاب في عقله، وراح يراقب السيارة تشق طريقها. بهذه الطريقة التي تترنح بها لم يعتقد أنها ستتقدم أكثر. عبرت السيارة خط المنتصف الأبيض على الطريق، ثم جنحت عجلاتها إلى الرمال، ثم عادت إلى الحارة مرة أخرى للحظات قبل أن تتوقف عند حافة جرف الطريق بالكاد. بعد لحظة، وكأنما السائق أبصر لافتة محطة تيكساكو الضخمة واعتبرها منارةً، انطلق نحوها كقذيفة. يسمع ستو صوت محركها البالي الآن، والغرغرة المنتظمة، وصفارة احتضار الكبريتور، وشخشة الصمامات المفكوكة. فوّتت السيارة المدخل، وصعدت إلى الرصيف، فانعكست أنوار المحطة على زجاج السيارة المترّب المعتم، وصار تبين من بالداخل عسيرًا، لكنّ ستو رأى ظل السائق يترنح مع الحركة، ولم تُظهر السيارة أي علامة تباطؤ عن سرعة الخمسة عشر ميلًا في الساعة.

- ...لذا أقول إنه مع ضخ المزيد من الأموال في دورة الـ...

قال ستو: «الأفضل أن تغلق المضخات يا هاب».

- المضخات؟ لماذا؟

استدار نورم برويت لينظر خلال النافذة وهتف: «أيا يسوع!».

قام ستو من مقعده ومال من فوق تومي واناميكر وهانك كارمايكل، وضغط أزار غلق المضخات الثماني، أربعة مفاتيح لكل يد. لذا كان الوحيد الذي لم يَرِ السيارة ترتطم بمضخات الوقود ببطء لكنّ بقوة وإصرار. أقسم تومي واناميكر وهو في حانة رأس الهندي في اليوم التالي على أن مصابيح السيارة الخلفية لم تومض ولو مرة. ظلت السيارة تتقدم بسرعة خمسة عشر ميلًا تقريبًا كسيارة في عرض احتفالي. احتك هيكل المركبة السفلي بالجزيرة الخرسانية تحت المضخات، وعندما ارتطمت العجلات بها، رأى الجميع -ما عدا ستو- أن رأس السائق يتأرجح بحرية ثم يرتطم بالنافذة الأمامية للسيارة ويشرخها.

قفزت السيارة ككلب عجوز رُكِلَتْ مؤخرته، واصطدمت بمضخة الضغط العالي. انخلعت وتدرجت بعيدًا، ونثرت بضع قطرات وقود، وانفلتت فوهة الخرطوم من عقالها، وتمددت تلمع تحت أضواء مصابيح الفلورسنت.

رأوا جميعًا الشرر يتطاير من ماسورة عادم السيارة الشيفروليه وهي تحتك بالخرسانة، أما هاب -الذي شهد انفجار محطة وقود من قبل- فقد

حجب وجهه عن الانفجار المتوقع. إلا أن مؤخرة السيارة انزاحت لتنزل من فوق الجزيرة الخرسانية، واتجهت نحو يسار المحطة، وارتطمت مقدمتها بمضخة أرضية خلعتها من مكانها.

ودون أي سيطرة، دارت السيارة حول نفسها دورة كاملة، وضربت الجزيرة مرة أخرى بجانبها هذه المرة، وخلعت مؤخرتها مضخة وقود عادية، ثم توقفت الشيفروليه أخيرًا بعدما جرّت ماسورة العادم خلفها. كانت قد دمرت ثلاث مضخات على الجزيرة قرب الطريق السريع. ظل محركها يدور بضع ثوانٍ ثم توقف.

ساد الصمت صاخبًا إلى درجة الإزعاج.

قال تومي واناميكز متهدج الأنفاس: «يَالْهَوَلي! هل ستنفجر يا هاب؟».

- لو أنها ستفعل، لفعلت.

قام هاب فارتطمت كتفه بخزانة الخرائط، فبعثر تكساس ونيو مكسيكو وأريزونا في كل صوب. شعر هاب بنوع من الانتصار الحذر، فمضخاته مؤمن عليها، وستعوضه شركة التأمين. لطالما عوّلت ماري على مال التأمين قبل كل شيء.

قال نورم: «لا بُدَّ أن الرجل ثملٌ بحق».

وقال تومي بصوت عالٍ مفعم بالحماس: «لقد رأيتُ مصابيح الخلفية. لم تومض لحظة. يَالْهَوَلي! لو أنه كان يسير بسرعة ستين ميلًا لكنا جميعًا موتى الآن».

هَرَعوا إلى الخارج، هاب أولاً، وستو في النهاية. وصل هاب وتومي ونورم إلى السيارة معًا. شموا رائحة الوقود وسمعوا تكّات محرك السيارة إذ يبرد.

فتح هاب باب السائق، فانسكب الرجل خلفه كزكبية ملابس قديمة.

صاح نورم برويت صيحةً أقرب إلى الصراخ: «لعنة الرب!»، ثم استدار ممسكًا بطنه العارم، وتقياً. لم يكن السبب السائق الذي سقط إلى الخارج -فقد لحقه هاب قبل أن يرتطم بالرصيف- بل الرائحة المنبعثة من السيارة. رائحة نتنة هي خليط من الدم والبراز والقيء والتحلل. رائحة بشعة غنية مُمرضة حد الموت.

بعد لحظة استدار هاب مبتعدًا وهو يجر السائق من أسفل إبطيه، فأمسك تومي سريعًا بقدميه فنقله هو وهاب إلى داخل مكتب المحطة. على ضوء

مصاييح الفلورسنت العلوية بدا وجهاهما مشمئذين متغضنين، ونسي هاب كل شيء عن مال التأمين.

نظر الآخرون إلى داخل السيارة، ثم التفت هانك ويده على فمه، وإصبعه الصغرى مرفوعة كأنه يمسك كأس خمر وعلى وشك اقتراح نخب. هُرع إلى نهاية المحطة جهة الشمال، وترك عشاءه يُقَذَف إلى خارج معدته.

فحص فُيك وستو السيارة هنيئاً، وتبادلا النظرات، ثم نظرا إليها مرة أخرى. في مقعد الراكب شابة، طرف فستانها مرفوع إلى أعلى فخذيهما، يرتكن إليها طفل أو طفلة في عمر ثلاث سنوات تقريباً، وكلاهما ميت، عنقاهما منتفخان، بشرتهما بنفسجية مسوَّدة كأنها مكدومة. اللحم أسفل أعينهما داكن بارز أيضاً. قال فُيك لاحقاً إنهما بدوا له كلاعبى كرة القاعدة الذين يدهنون أسفل أعينهم بالأسود كي يقللوا تأثير وهج الشمس على بصرهم. كانت المرأة تمسك يد الطفل، والمخاط الثقيل المتصلب يغطي أسفل أنفيهما. أَرَّ الذباب حولهما، وحقَّ بخفة على المخاط، وخرج ودخل من فميهما المفتوحين وإليهما. حضر ستو الحرب، لكنه لم ير شيئاً بهذه البشاعة والبؤس. ظل بصره يعود دائماً إلى كفيهما المتعانقين.

تراجع هو وفُيك معاً وهما يتبادلان النظرات الخاوية، ثم استدارا عائدين إلى المحطة. لمحا هاب يتحدث خلال الهاتف مضطرباً، ونورم يسير إلى المحطة خلفهما، يسدد نظرات متكررة إلى الحطام من فوق كتفه. ظل باب السائق مفتوحاً حزيناً، وفردتا حذاء طفل تتدليان من المرأة الأمامية.

وقف هانك جوار الباب يمسح فمه بمنديل قذر وهو يردد في أسف: «إلهي، يا ستو». فأوماً ستو.

كان سائق السيارة ممدداً على الأرض. أغلق هاب خط الهاتف وقال مشيراً بابهامه إلى الشيفروليه: «الإسعاف ستصل خلال عشر دقائق. هل تعتقدون أنهما...».

قال فُيك: «لقد ماتا». وجهه مصفر شاحب، يده ترتجف فتناثر التبغ حوله وهو يحاول لف سيجارة أخرى ذات رائحة نتنة. أضاف: «إنهما أكثر اثنين رأيتهما مواتاً».

نظر إلى ستو، فأوماً الأخير وهو يدسُ كفيَّه في جيبيَّه شاعرًا بالقلق.

أنَّ الرجلُ على الأرض بصوت غليظ مختنق، فنظروا إليه جميعاً. بعد لحظة بدا لهم أنه يتكلم أو يحاول جاهداً أن يتكلم. ركع هاب إلى جواره، فهذه في النهاية محطته.

أياً ما أصاب المرأة والطفل في السيارة، فقد أصاب هذا الرجل. أنفه يسيل بالمخاط، وأنفاسه مبللة كأنه يتنفس ماءً، وصوت طقطقة يصدر من مكان ما من صدره. اللحم تحت عينيه متورم، لكنه ليس مسوداً بعد، بل أقرب إلى البنفسجي. بدا عنقه سميكاً والجلد مرفوعاً إلى أعلى فأضاف إلى ذقنه ذقنين جديدين. درجة حرارته عالية، شعر بها هاب وهو يقترب منه، كأنما يقترب من مشواة مليئة بالفحم المتأجج.

غمغم: «الكلب. هل قتلتموه؟».

قال هاب وهو يهزه برفق: «سيدي. لقد اتصلت بالإسعاف. ستكون بخير».

- صارت الأرقام حمراء...

ثم بدأ الرجل الممد يسعل بصوت كأنه سلسلة انفجارات، وانتثر من فمه المخاط السميك الوردي لزجاً. مال هاب مجفلاً إلى الخلف.

قال فيك: «الأفضل أن نقلبه. سيختنق بهذا المخاط».

وقبل أن ينفذوا، هدا السعال نوعاً وتهدجت أنفاسه. رمش بعينه ببطء، ونظر إلى الرجال المتحلقين حوله.

- أين... هذا؟

قال هاب: «نحن في أرنيث. محطة وقود تيكساكو لصاحبها بل هابسكوم. لقد حطمت بعض المضخات.. لكن لا بأس. المضخات مؤمن عليها».

حاول الرجل على الأرض أن يجلس، لكنه لم يستطع، واكتفى بوضع يده على ذراع هاب.

- زوجتي.. ابنتي الصغيرة...

ابتسم هاب ابتسامة كلب حمقاء وقال: «كلاهما بخير».

- يبدو أنني مريض للغاية.

شقيقه وزفيره صوتهما عالٍ كالهدير. أضاف: «كانتا مريضتين أيضاً. منذ خرجنا منذ يومين. مدينة سولت ليك.. مريضتين.. أعتقد أننا لم نتحرك بسرعة كافية رغم كل شيء...».

ثم غامت عيناه وانغلقتا.

من بعيد سمعوا صوت صفارة سيارة إسعاف أرנית التطوعي. غمغم تومي وناميكر: «يا رجل... أوه».

انفتحت عيننا المريض مرة أخرى، وصارتا واعيتين. حاول الجلوس مرة أخرى. العرق يجري على وجهه. أمسك هاب وسأل: «هل سالي والصغيرة لاقون بخير؟».

تناثر لعابه من بين شفتيه، وشعر هاب بحرارة الرجل تشع تجاهه. الرجل مريض، نصف مجنون، ورائحته نتنة. ربط هاب بين الرائحة وفراش الكلاب المبتل.

أجاب في إصرار: «هما بخير. فقط... تمدد، وارتح. اتفقنا؟».

تمدد الرجل. صارت أنفاسه أكثر خشونة الآن. تعاون هانك وهاب على قلبه على جانبه، فبدأت أنفاسه أكثر راحة. قال: «كنت بخير حتى ليلة أمس. كنت أسعل لكنني كنت بخير. لم نبتعد في الوقت المناسب. هل الصغيرة لاقون بخير؟».

تحولت أواخر عبارته إلى غمغمة لم يفهمها أيهم. اقترب صوت صفارة سيارة الإسعاف أكثر. ذهب ستو إلى النافذة لينتظرها، وظل الآخرون متحلقين حول الرجل على الأرض.

سأل هاب: «ممَّ يعاني يا فيك؟ هل لديك فكرة؟».

هز فيك رأسه وقال: «لا أعرف».

أضاف نورم: «ربما هو شيء أكلوه. هذه السيارة تحمل أرقام كاليفورنيا. ربما أكلوا شيئاً من العربات على جانب الطريق. ربما برجر مسمم. يحدث هذا...».

توقفت الإسعاف أمام المحطة، بينهما وبين بابها السيارة الشيقروليه المحطمة. راحت أضواءها العلوية الحمراء تدور وتمسح المكان في دوائر. كان الظلام قد حل بالكامل.

صاح الرجل على الأرض فجأة: «أعطني يدك وسأجذبك وأخرجك من هنا!» ثم صمت.

كرّر فيك: «هذا تسمم من طعام. نعم. لا بُدَّ أنه تسمم. أتمنى ذلك، لأنه...».

سأله هانك: «لأنه ماذا؟».

- لأنه إن لم يكن تسممًا، فلربما كان شيئًا معديًا.

نظر إليهم فيك بعينين مهمومتين وأضاف: «لقد عاصرتُ الكوليرا في عام 1958 قرب نوجاليس. بدت كهذا...».

دخل ثلاثة رجال يدفعون محفّة ذات عجلات. قال واحد منهم: «هاب.. أنت محظوظ لأن مؤخرتك المترهلة لم تنفجر. هذا هو الرجل، هه؟».

انفتحت الحلقة لتسمح لهم بالدخول. كلهم رجال يعرفونهم؛ بيلي فيريكر، مونتي سوليقيان، كارلوس أورتيجا.

قال هاب وهو يجذب مونتي جانبًا: «في السيارة شخصان. امرأة وطفل، كلاهما ميت».

- هل أنت متأكد؟

- نعم. هذا الرجل لا يعرف. هل ستنقلونه إلى برينتري؟

نظر إليه مونتي في حيرة وأجاب: «أعتقد. ماذا سأفعل مع الاثنين في السيارة؟ هل لديك فكرة عن التصرف في هذا الأمر يا هاب؟»

- يمكن أن يتصل ستو بدورية حرس الولاية. هل تمنع لو ركبت معك؟

- طبعًا لا.

نقلوا الرجل فوق المحفة، وبينما يُخرجونه ذهب هاب إلى ستو وقال له: «سأركب إلى برينتري مع هذا الرجل. هلا اتصلت بدورية الولاية؟».

- طبعًا.

- وبماري أيضًا. أخبرها بما حدث.

- حسنًا.

سار هاب إلى سيارة الإسعاف وصعد إليها. أغلق بيلي فيريكر الباب خلفهم، ثم نادى الرجلين الآخرين. كانا يحدقان إلى حطام السيارة في رعب. بعد لحظات أخرى، انطلقت سيارة الإسعاف وصفّارتها تدوي، تلقى أضواءها ظلًا لا حمراء على أسفلت مدخل محطة الوقود.

ذهب ستو إلى الهاتف العمومي، ودسّ في فتحته ربع دولار.

مات سائق الشيفروليه على بعد عشرين ميلاً من المستشفى. أخذ شهيقاً
أخيراً مُبْقِيّاً، ثم أخرجه، ثم سحب آخر أصغر، ثم استسلم.
أخرج هاب محفظة الرجل من جيبه وفحصها. وجد فيها سبعة عشر
دولاراً، ورخصة قيادة من كاليفورنيا باسم تشارلز د. كامبيون. ثمة بطاقة
جيش أيضاً، وصورتان لابنته وزوجته مغلقتان بالبلاستيك. لم يرغب هاب في
النظر إلى الصور.
أعاد المحفظة إلى جيب الرجل الميت، وطلب من كارلوس إسكات
الصفارة. كان هذا في التاسعة وعشر دقائق.

الفصل الثاني

يمتدُّ لسان صخري طويل من المدينة الساحلية أوجنكويت في ولاية مَين إلى المحيط الأطلسي. يذكُّرها اللسان الصخري الآن بإصبع رمادية مُتَّهمة، وعندما أوقفت فراني جولدسميث سيارتها في باحة الانتظار العامة، استطاعت أن ترى جيس يقف عند نهاية اللسان، مجرد ظل سلويت في نور شمس ما بعد الظهيرة. تطوف النوارس فوقه وتتصايح، لوحة تمثِّل نيو إنجلاند رسمتها الطبيعة، وتساءلت أكان أي نورس منها قد يجروُ على إفساد اللوحة بإسقاط لطخة (بي بِي) بيضاء على قميص جيس رايدر الأزرق. هذا متوقَّع على العموم، فهو شاعر على أيِّ حال⁽¹⁾.

كانت تعرف أنه جيس، لأن دراجته ذات السرعات العشر مُسلسلة إلى سور حديدي حول مبنى إدارة باحة الانتظار. هُرعَ جَس -وهو رجل أصلع ذو بطن من معالم المدينة- ليقابلها. تعريفه انتظار الزائرين دولار، لكنه يعرف أن فراني تعيش في البلدة، حتى دون أن ينظر إلى ملصق (مُقيم) المثبَّت على ركن نافذة سيارتها الفولفو الأمامي. فراني تأتي هنا كثيرًا.

فكرت في فران: «طبعًا آتي كثيرًا. لقد حَمَلْتُ هنا على هذا الشاطئ، على بعد اثنتي عشرة قدمًا عن خط المد. عزيزي انتفاخ البطن: لقد خُلِقَتْ في بطني على ساحل مَين، على بعد اثنتي عشرة قدمًا من خط المد العالي، وعشرين ياردة شرق حاجز الأمواج. ضَع علامة X عند هذه النقطة».

رفع جَس يده نحوها بعلامة السلام.

- صاحبك بالخارج عند نهاية اللسان يا آنسة جولدسميث.

- شكرًا يا جَس. كيف أحوال العمل؟

(1) باعتبار أن فضلات الطيور التي تسقط على الموهوبين هي وحي قادم (الترجمة)

أشار باسمًا إلى باحة الانتظار. كان فيها دستتا سيارات، ورأت على أغلب نوافذها ملصق (مُقيم).

- العمل راكِد في هذا الوقت من العام.

كانوا في السابع عشر من يونيو. أكمل: «انتظري أسبوعين وسوف نجلب للمدينة بعض المال».

- أراهن على أنك ستفعل. ما لم تختلسه كله.

ضحك جَس، ثم عاد إلى المبنى.

أسندتُ فراني يداً واحدة على معدن سيارتها الدافئ؛ وخلعت حذاءها الرياضي، ثم انتعلتُ خفًا مطاطيًا. هي فتاة طويلة، بشعر كستنائي يصل إلى منتصف فستانها القصير ذي اللون الرملي. قوامها جميل، تحظى ساقاها الطويلتان بنظرات الإعجاب. إنها (من نوعية فائقة) بحسب المصطلح الأدق كما تعتقد، من نوعية: انظر انظر، ها قد جاء المنظر. ملكة جمال الكلية لعام 1990.

ضحكتُ ساخرة من حالها، وجاءت الضحكة مرةً للغاية. قالت لنفسها: «ها أنتِ تستمرين في الحياة، كأن هذا هو الشيء الأهم في العالم. الفصل السادس: ها هي هيوستن براين تجلب خبر وصول اللؤلؤة المُستخرجة إلى الموقر ديميسديل⁽¹⁾. لكنه لم يكن موقرًا، بل هو جيس رايدر، عمره عشرون عامًا، أصغر بعام من بطلتنا فران الصغيرة. هو شاعر لم يتخرج بعد في الكلية. يمكنك معرفة هذا من قميصه الأزرق القطني.

توقفتُ عند حدود الرمال، تشعر بالحرارة تشوي أسفل قدميها حتى وهي تنتعل الخف المطاطي. الظل الجالس عند حافة اللسان ما زال يقذف الصخور إلى الماء. أفكارها جِزلة جزئيًا، قانطة عمومًا. فكرتُ في أنه يعرف كيف يبدو لمن يراقبه. لورد بايرون⁽²⁾، لكنه ليس خائفًا. يجلس في منفاه وحيد، يرمق البحر الذي يصل حتى إنجلترا البعيدة البعيدة. لكني أنا المنفي، لن...

(1) هيوستن وديميسديل هما بطلا رواية الحرف القرمزي للكاتب ناثانيل هوثورن. عن امرأة حملتُ سفاحًا من رجل، وتحاول استعادة كرامتها، وكعقاب على فعلتها، كان عليها أن تعلق حرفَ A قرمزيًا على صدرها يشير إلى أنها زنت، وللحرف إشاراته التاريخية والدينية عن العلاقات المحرمة (المترجمة)

(2) شاعر إنجليزي (المترجمة)

آه يا خصيتاي!

لم يكنْ خاطرها هو ما أزعجها إلى حد السَّب، لكنْ ما أشار إليه الخاطر من حالتها النفسية. الشاب الذي تظن نفسها تحبه يجلس هناك، وهي تقف هنا ترسمه بشكل هزلي من وراء ظهره.

مشَتْ على امتداد اللسان بحذر فوق الصخور والأحجار. اللسان قديم، وكان في زمنٍ جزءًا من حاجز الأمواج. الآن ترسو أغلب القوارب عند جنوبيّ المدينة، حيث ثلاثة مرافئ وسبعة موتيلات -من تلك التي ببالك- تصخب طوال الصيف.

مشَتْ بروية، محاولةً تقبل فكرة أنها وقعت في حبه في غضون الأحد عشر يومًا التي عرفتُ فيها أنها (حُبلى قليلًا) على حد قول رفيقتها آمي لودر. حسنًا، لقد كان هو المتسبب في هذه المشكلة، أليس كذلك؟

لكنه ليس المتسبب الوحيد بالتأكيد. لقد واضبْتُ على أقراص منع الحمل، هذا أبسط شيء في العالم. كانت قد زارت عيادة الحرم الجامعي، وشكَّت من أن دورتها الشهرية مؤلمة، وتتسبب في حبوب وجه مزعجة، فكتب لها الطبيب وصفةً بالأقراص، بل ومنحها مجانًا أقراصًا تكفي شهرًا.

توقفتُ مرة أخرى باقترابها من الماء. الأمواج تتكسر على الشاطئ عن يمينها ويسارها. خطر لها أن شكاوى الدورات الشهرية المؤلمة وحبوب الوجه ترد كثيرًا إلى طبيب الجامعة، كما ترد إلى الصيدلية طلباتُ شراء الواقيات الذكرية لأخي الأكبر. كان الأسهل أن تذهب إليه وتقول: «أعطني الحبوب، سأعاشر».

لماذا الاحتيال وقد وصلت سن الرُّشد؟ نظرت إلى ظهر جيس وتنهدت. الاحتيال قد يصبح طريقة حياة. مشَتْ نحوه مرة أخرى.

على أي حال، لم تؤثر الأقراص. أحدهم ممن يعملون في مراقبة الجودة في مصنع أوڤريل للأدوية كان نائمًا. إما هذا، وإما أنها نسيت أنها نسيت قرصًا.

مشَتْ برقةً من خلفه ثم وضعت كفيها على كتفيه.

صرخ جيس الذي كان يمسك الأحجار الصغيرة في يُسراه، ويرميها إلى الأطلنطي بيميناه، ونهض واقفًا. تناثر الحصى في كل مكان، وكاد يرتطم بفراني فيُسقطها إلى الماء، وكاد يسقط هو نفسه برأسه أولًا.

قهقهته دون سيطرة، وتراجعت ويداها على فمها وهو يستدير غاضباً بجسده القوي وشعره الأسود ونظاراته ذات الإطار الذهبي، وملامحه العادية التي لا تعكس شخصيته الحساسة.

صاح: «لقد أفزعني!».

قهقهته فراني وقالت: «أوه يا جيس. أنا آسفة، لكن كان هذا مضحكاً. كان مضحكاً بحق».

قال وهو يقترب منها بخطوات حذرة: «كدنا نسقط في الماء». خطت إلى الخلف لتتوازن، وتعثرت في حجر، فهوت جالسةً. اصطك فكاها، فعضت لسانها -يا له من ألم ماحق- فتوقفت عن الضحك فجأةً كأن الصوت قطعته سكين. فكرة صمتها المفاجئ - هل تغلقني كأنني راديو؟- بدت مضحكة أكثر من أي شيء، فبدأت تقهقه مجدداً رغم نزف لسانها، ودموع الألم التي تنهمر من عينيها.

ركع بجوارها وسأل في اهتمام: «هل أنت بخير؟».

فكرت: «أنا حقاً أحبه. هذا في مصلحتي».

- هل جرحت نفسك يا فران؟

أجابت وهي تتركه يساعدها على النهوض: «جرحت كرامتي فقط. وعضت لساني».

أخرجته له متوقعة أن يبتسم مثلاً، لكنه قطب جبينه.

- إلهي، يا فران. أنت حقاً تنزفين.

أخرج منديلاً قماشياً من جيبه الخلفي ونظر إليه في شك، ثم أعاده إلى جيبه مرة أخرى.

تخيلت صورتها وهما يمشيان يدًا بيد على خلفية باحة الانتظار. حبيبان شابان تحت شمس الصيف، ومنديله في فمها، ترفع يدها إلى موظف الباحة وتهتف: «انكسر يا جس»، وتعني: «انتظر يا جس».

بدأت تضحك مرة أخرى. لم يعد لسانها يؤلمها، لكن طعمًا صديًا في فمها أثار غثيانها. قالت: «انظر إلى الجهة الأخرى. سأفعل ما لا يليق بسيدة راقية».

ابتسم ابتسامةً باهتة، وغطى عينيه بحركة مسرحية. مدّت عنقها وبصقت بصقة حمراء قانية دامية. يّع! ثم بصقت مرة أخرى وأخرى حتى نُظِّفَ فمها، بعدها نظرت نحوه لتراه يسترق النظر من بين أصابعه.

- آسفة. أنا حمقاء حقًا.

- لا.

وكان واضحًا أنه يعني «نعم».

سألته: «هل يمكن أن نأكل بعض الآيس كريم؟ أنت قد، وأنا سأشتري».

- اتفقنا.

بصقت خلال الحافة مرة أخرى، بصقة حمراء قانية.

سألته فران: «أنا لم أقطع منه جزءًا، أليس كذلك؟».

- لا أعرف. هل ابتلعت كتلة؟

وضعت يدها على فمها تمنع انقلاب معدتها، وقالت: «هذا ليس مضحكًا».

- لا. أنا آسف. أنتِ عضضتِه فقط يا فراني.

- هل من شرايين في لسان الإنسان؟

كانا يسيران فوق اللسان الصخري، عائدين، يدًا بيد. توقفت من حين إلى

آخر لتبصق دمًا. لن تبتلع أيًا من هذا الشيء، أوه، لا!

- لا.

- عظيم.

ثم أضافت وهي تعتصر كفه: «أنا حامل».

- حقًا؟ جيد... هل تعرفين من قابلت في...

ثم صمت ونظر إليها بوجه جامد، وتعبير حذر للغاية. فطرت قلبها رؤية

هذا التعبير على وجهه.

- ماذا قلت؟

ابتسمت له في بشر وكررت: «أنا حامل».

ثم بصقت بصقة حمراء قانية.

قال غير واثق: «مزحة هائلة يا فراني».

- ليست مزحة.

ظل يحدق إليها. بعد هنيهة مشيا مرة أخرى. بينما يعبران باحة الانتظار
خرج جَس ولَوَّح لهما، فردَّت فراني تحيته، وكذلك چيس.

توقفا عند متجر دايري كوين، على طريق U.S 1 السريع. طلب چيس
كولا، ثم جلس يشربها مفكرًا خلف مقود السيارة الفولفو. طلبت منه فراني
أن يحضر لها آيس كريم قاربَ الموز، وارتكنت إلى باب السيارة، تفصل
بينهما قدمان، ترفع بملعقتها إلى فمها صوصَ المكسرات والأناناس مع آيس
كريم دايري كوين.

قالت: «أتعرف؟ أغلب آيس كريم دايري كوين مجرد فقاعات. هل تعرف
هذا؟ أغلب الناس لا يعرفون».

نظر إليها چيس ولم يقل شيئًا.

- الحقيقة أن ماكينات صنع الآيس كريم ليست سوى ماكينات صنع
فقايع. هكذا تبيع دايري كوين مثلجاتها بهذا السعر. لقد درسناها
ضمن نظريات الأعمال».

نظر إليها چيس ولم يقل شيئًا.

- والآن إن رغبت في آيس كريم حقيقي، عليك أن تذهب إلى مكان مثل
متجر ديرينج للآيس كريم، وها هو..

ثم انفجرت في البكاء.

انزاح نحوها ولف ذراعه من حول عنقها.

- فراني، لا تفعلي هذا أرجوك.

وقال وهي تنتحب بعد: «قارب الموز يسيل عليّ».

أخرج منديله القماشي مرة أخرى ومسح به ما لوثها. مع مرور اللحظات
تحول نحيبها إلى شهقات متقطعة.

قالت وهي تنظر إليه بعينين حمراوين: «قارب الموز بصوص الدم. لا
أستطيع أن أكل أكثر. أنا آسفة يا چيس. هلا تخلصت منه بعيدًا؟».

قال في جمود: «بالتأكيد».

أخذه منها، وترجل من السيارة، ثم رماه في صفيحة القمامة. فكرت
فراني في أن مشيته غريبة، كأنه ضُربَ بقوة في الأسفل؛ في المكان الذي يؤلم

الأولاد. بشكل ما افترض أن كلامها أصاب هذا المكان فعلاً. لكن إن كنت تريد النظر إلى الأمر بشكل آخر، فهذه هي الطريقة نفسها التي مشت بها بعدما حصد عذريتها على الشاطئ. شعرت كأنها تعاني تسلخ حفاضات شنيع، إلا أن الحفاضات لا تتسبب في الحمل.

عاد إلى السيارة، فسألها فجأة: «هل أنت جادة يا فراني؟».

- أنا جادة.

- كيف حدث هذا؟ كنت أظنك تواظبين على الأقراص.

- التفسيرات المتاحة هي؛ واحد: موظف مراقبة الجودة في مصنع الأقراص كان غافياً عندما صُنعت أقراصى. اثنان: أنهم يطعمونك في جامعة نيو هامبشير ما يقوي حيواناتك المنوية. ثلاثة: أنني نسيْتُ أنني نسيْتُ تناولَ واحد من الأقراص.

ابتسمت له ابتسامة رفيعة قاسية أقلقته نوعاً ما.

- مَمَ أنتِ غاضبة يا فراني؟ أنا فقط أسأل.

- سأجيب عن سؤالك بطريقة أخرى. في ليلة دافئة من ليالي أبريل، لا بدَّ أنها كانت ليلة الثاني عشر أو الثالث عشر أو الرابع عشر من الشهر، أقحمت عضوك في فرجى وانتشيت، فانطلقت منه ملايين الحيوانات المنوية، و...

هتف في حدة: «كفى. ليس ضرورياً أن...».

- أن ماذا؟!

الغضب والخذلان مكتومان بداخلها. إنها لم تستعد ما حدث ولو مرة بهذا الشكل الفج.

قال: «لماذا كل هذا الغضب وأنا لن أتخلى عنكِ؟».

- لا...

قالتها برقة. في لحظة كهذه كانت لتتزع يده من على المقود وتمسكها، فيزول ما يشغلها على الفور. لكنها لم تستطع أن تضغط على نفسها لفعل هذا. هو لا يريد أي مواجهة مهما كانت رغبته الدفينة في هذا. أدركت فجأة أن الضحكات والوقت الممتع قد انتهيا لفترة. جعلها هذا ترغب في البكاء مرة أخرى، فكبت الدموع في كآبة. إنها فراني جولدسميث، ابنة بيتر جولدسميث،

وهي تجلس في باحة الانتظار أمام دايري كوين وتبكي حتى تقفز عيناها الغبيتان من وجهها.

سألها وهو يخرج سجائره: «ماذا تريد أن تفعل؟».

- ماذا تريد أنت أن تفعل؟

أشعل السجارة، وللحظات بينما يتموج دخانها في الهواء، رأت فراني ولداً ورجلاً يتصارعان على السيطرة على الوجه نفسه.

غمغم: «أوه، يا للجحيم».

- الخيارات كما أراها: يمكننا أن نتزوج ونحتفظ بالطفل. يمكننا أن نتزوج ونتخلّى عنه. يمكننا ألا نتزوج ونحتفظ بالطفل. أو...

- فراني...

- ...لا نتزوج ولا نحتفظ بالطفل. أو أجهض نفسي. هل يغطي هذا كل الاحتمالات؟ هل نسيْتُ شيئاً؟

- فراني، ألا يمكن أن نتحدث فقط...

انفجرت فيه: «نحن نتحدث! جاء دورك فعلاً وقلت: يا للجحيم. هذه كلماتك بالضبط. أنا وضعتُ أمامك كل الاحتمالات، وطبعاً لديّ بعض الوقت لترتيب خُطة التنفيذ».

- هل تريد سيجارة؟

- لا. ستضر الجنين.

- فراني. اللعنة!

سألته بهدوء: «لماذا تصيح؟».

- لأنك مصممة على استفزازي!

تمالك نفسه ثم أضاف: «آسف. أنا فقط لا أستطيع أن أفكر في الأمر على أنه خطأ».

نظرت إليه بحاجب مرفوع وتساءلت: «لا تستطيع؟ ها العذراء تحبل وتلد ابناً⁽¹⁾».

(1) من سفر أشعياء- الكتاب المقدس (المترجمة)

- هل عليك أن تتمسكي بالسخرية اللعينة؟ أنتِ قلتِ إنكِ قد تناولت الأقرص، فأخذتُ كلمتكِ على محمل التأكيد. كيف أكون أنا المخطئ؟
- لا. لستُ مخطئًا. لكن هذا لا يُغير الحقيقة.
- قال في وجوم وهو يئد سيجارته التي لم يدخن إلا نصفها: «أعتقد أنه لا يغيرها. إذن، ماذا سنفعل؟».
- لا تنفك تسألني يا جيس. لقد أخبرتكِ بالخيارات كما أراها. ظننتُ أن لديك بعض الأفكار. أمامنا الانتحار، لكنني لن أفكر فيه الآن. إذن اختر ما يعجبك ولنتحدثُ عنه.
- قال فجأة بصوت قوي: «لنتزوج».
- قالها بجرأة من يرى أن الطريقة المثلى لفك العقدة قطعها.
- لا. لا أريد الزواج بك.
- بدا كأن أجزاء وجهه مثبتة إلى بعضها بعدد من المسامير التي انفكت كلها مرة واحدة فجأة. تهدل كل ملمح من ملامحه. المنظر مضحك حتى إنها اضطرت إلى دفع لسانها المصاب إلى سقف حلقها كي لا تقهقه مرة أخرى. لا تريد أن تضحك من جيس.
- لمَ لا؟ فراني...
- يجب أن أفكر في أسباب رفضي. لن أسمح لك بأن تجرني إلى مناقشة أسبابي لأنني لا أعرفها الآن.
- سأل في وجوم: «ألا تحبينني؟».
- في أغلب الأحيان، الحب والزواج أمران منفصلان. اختر شيئًا آخر.
- صمت مدة طويلة. عبث بسيجارة جديدة بين أصابعه لكنه لم يشعلها.
- قال أخيرًا: «لا يمكنني اختيار خيار آخر يا فراني لأنك لا تريدين مناقشة هذا. أنت تريدين خَصْمَ نقاطِ مني فقط».
- لمستها عبارته، فأومأت وقالت: «ربما أنت مُحِق. لقد خُصِمْتُ مني شخصيًا نقاط خلال الأسبوعين الماضيين. أنت يا جيس حاذق الكُلية، ولو أن مجرمًا هددك بسكين، ستطلب منه عرضًا أكاديميًا».
- أوه، من أجل الرب...
- اختر خيارًا آخر.

- لا. عليك أن تفكري في أسبابك. ربما أحتاج أيضًا إلى وقت لأفكر.
- حسنًا. هلا أعدتنا إلى باحة الانتظار؟ سأنزلك هناك وأجري بعض المهام.
- حدق إليها منزعجًا وقال: «فراني. لقد قدتُ دراجتي من بورتلاند إلى هنا. حجزتُ غرفةً في موتيل خارج البلدة. ظننتنا سنمضي عطلة نهاية الأسبوع معًا».
- في غرفتك في الموتيل؟ لا يا جيس. لقد تغير الوضع. اركب دراجاتك ذات السرعات العشر وعُد إلى بورتلاند، وتواصل معي عندما تكون قد فكرت أكثر. لسنا في عجلة من أمرنا.
- كفي عن الاستهزاء بي يا فراني.
- صاحت فجأة في غضب: «بل أنت من استهزأ بي».
- فلطمها بخفة على خدها بظهر يده، ثم حدق إليها ذاهلاً.
- أنا آسف يا فراني.
- قالت بلا اكتراث: «اعتذار مقبول. قُد».



لم يتكلما في أثناء عودتها إلى باحة انتظار الشاطئ العام. جلست ويدها معقودتان على حجرها، تراقب أجزاء المحيط البادية من بين الشاليهات على امتداد غرب حاجز الأمواج. بدت لها الشاليهات كشقق فقيرة، مقفلة أمام الصيف الذي سيبدأ رسميًا خلال أسبوع. أغلب ملاكها أساتذة من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، ومحاميو نيويورك. هذه المنازل صغيرة، أما الكبيرة الفاخرة على الساحل فملك من لديهم ثروات تتعدى الأرقام السبعة أو الثمانية. عندما تنتقل الأسر إلى هنا، سيصير جس هو صاحب أقل معدل ذكاء في المكان. سيكون مع أبناء الملاك دراجات ذات عشر سرعات مثل دراجة جيس. سيكون على أوجههم تعبير الضجر الدائم، وسيذهبون مع ذويهم لتناول غداء مكوّن من الاستاكوزا ويلعبون في ملعب أوجونكويت. سيجولون في الشارع الرئيسي، وسينظرون إلى ما يظهر من لون المحيط بين المنازل المتلاصقة، غير واعين أن المنظر تحجبه أيضًا غلالة دموع رقيقة.

وصلا إلى باحة الانتظار، فلوّح لهما جس، ولوّح له. قال لها جيس بصوت خافت: «أعتذر عن ضربتي لك يا فراني. لم أقصد قط أن أفعل هذا».

- أعرف. هل ستعود إلى بورتلاند؟
- سأبيت هنا الليلة، وأتصل بك في الصباح. لكنَّ القرار قرارك يا فران. لو قررت أن الإجهاض هو ما تريدين، فسأوفر لك المال.
- هل تقصد أي مواربة بما قلت؟
- لا، أبداً.
- ثم مال يقبلها قبلة بريئة وأضاف: «أحبكِ يا فراني».
- فكرت: «لا أصدق أنك تحبني. فجأة صرتُ لا أصدق هذا على الإطلاق.. لكنني سأقبل ما قيل. يمكنني مجاملته إلى هذا الحد».
- قالت بهدوء: «حسناً».
- سأبيت في موتيل الفنار. يمكنك الاتصال بي إن أردت.
- حسناً.
- ثم انتقلت إلى ما خلف المقود بعد ترجله، وقد شعرت فجأة بتعب شديد.
- ألما لسانها بشدة حيث عضته.
- سار إلى دراجته المربوطة إلى السور، ثم هتف: «أتمنى أن تتصلي يا فران».
- ابتسمت ابتسامةً مصطنعةً وقالت: «سأرى. مع السلامة يا چيس».
- أدارت محرك القوْلُقُو ثم استدارت، وخرجت من الباحة إلى طريق الساحل.
- رأت چيس يقف إلى جوار دراجته بعد، والمحيط من خلفه. وللمرة الثانية في اليوم نفسه اتهمته بأنه يعرف الصورة التي يُصدِّرها بحركاته، لكنها لم تتضايق هذه المرة، بل شعرت بحزن. ابتعدت وهي تفكر في أن المحيط لن يبدو لها كما كان من قبل. لسانها يؤلمها. فتحت نافذتها وبصقت. البصقة بيضاء هذه المرة.
- تستطيع الآن أن تشم رائحة الملح من المحيط قوية، مثل الدموع المرّة.

الفصل الثالث

استيقظ نورم برويت في العاشرة والرابع صباحًا على صوت أطفال يتشاجرون خارج نافذة غرفة نومه، وموسيقى الكنتري تصدح من الراديو في المطبخ.

اتجه إلى الباب الخلفي في سرواله القصير المتهدل وفانلته الداخلية، وفتحه وهو يصيح: «أيها الصغار، صمّتا!».

توقف الصوت لحظةً. أطلّ لوك وبوبي من داخل الشاحنة الصدئة التي يتشاجران عليها. كما هي العادة عندما يرى ابنيه، يشعر نورم بأن قوتين يتجاذبان. يؤلمه قلبه لمرأهما يرتديان ملابس مستعملة، أو تبرعت لهما بها مؤسسة جيش الخلاص، مثلهما كمثّل أبناء الزوج في شرق أرنيت. في الوقت نفسه يشعر بغضب عاتٍ يجتاحه، يدفعه إلى أن يخرج إليهما ويضربهما حتى يُزهق روحيهما.

قال لوك طائعا: «نعم يا أبي».

لوك في التاسعة من عمره. ردّد بوبي: «نعم يا أبي». وبوبي على مشارف العام الثامن من عمره.

وقف نورم لحظات يحدق إليهما في غضب، ثم صفق الباب. تجمد مكانه هنيهة ينظر إلى كومة الملابس التي ارتداها بالأمس حيث ألقاها تحت الفراش الثنائي المتهدّل.

قال لنفسه: «الغانية الزانية. إنها حتى لم تكثر لتعليق ملابسي».

زَعَق: «لايلا!».

لم يتلقَ ردًّا. فكر في فتح الباب مرة أخرى وسؤال لوك عن الجحيم الذي ذهبَ إليه أمه. اليوم ليس يوم السلع المُتبرّع بها، فموعه الأسبوع القادم،

ولو ذهبْتُ إلى مكتب التوظيف في برينتري مرة أخرى ستكون مغفلة أكثر مما يظن بها.

لم يكثرث لسؤال الولدين. شعر بتعب وتوعك مع صداع قوي. كأنه يعاني أعراض ما بعد الثمالة، لكنه لم يشرب إلا ثلاث علب بيرة فقط في محطة هاب ليلة أمس. لقد كان ذاك الحادث جحيمياً بحق. المرأة والطفلة الميتتان في السيارة، الرجل كامبيون الذي مات في الطريق إلى المستشفى. بوقت عودة هاب، كانت دورية الشرطة قد جاءت ورحلت ومعها الحطام وقطعتان إلى حانوتي برينتري. منح ثيك بولفري إفادته للسلطات بشأن ما حدث نيابة عن خمستهم. رفض الحانوتي -الذي هو أيضاً المُحقق في الوَفَيَات لدى المقاطعة- قول شيء عما عساه قد أصابهم.

- لكنها ليست الكوليرا، ولا تدرُ وتثير زعر الناس بتكرار أنها كذلك. سنجري تشريحاً وستعرف نتيجته من الصحف.

فكر نورم: «يا له من فلاح بائس»، ثم راح يرتدي ببطء ملابس أمس. بدأ صداعه يتحول إلى ألم يُعمي. على الصبيين أن يلزما الهدوء وإلا سيستحقان ذراعين مكسورتين يصخبان بشأنهما. لماذا بحق الجحيم لا تستمر الدراسة طوال العام؟

فكر في إدخال قميصه داخل سرواله، وقرر أن الرئيس لن يمر عليهم اليوم على الأرجح. دخل المطبخ منتعلاً جوربيه. ضوء الشمس القوي القادم من النافذة الشرقية جعله يزم عينيه.

الراديو المكسور فوق الموقد يصدح:

لكن يا حبيبي بي-بي-بتي يمكنك أن تخبريني لو
استطعت،

حبيبتني هل تفهمين رجلك؟

إنه رجل صالح،

أخبريني يا حبيبتني، هل تفهمين رجلك؟

إذاعة أغاني الروك أند رول التي يغنيها الزوج في إذاعة موسيقى الكنتري
دليل سيئ. أغلق نورم الأغنية قبل أن تفلق رأسه. ثمة وريقة جوار الراديو،
التقطها وضيق عينيه وهو يقرأ ما فيها.

عزيزي نورم

قالت سالي هودچيز إنها في حاجة إلى من يُجالس
أطفالها هذا الصباح، وقالت إنها ستمنحني دالار. سأعود
قبل الغداء. ثمة سُجُوق لو أردت. أحبك يا عسل.
لايلا.

أعاد نورم الرسالة إلى مكانها ووقف لحظات مكانه، يفكر في الأمر
ويحاول فهمه. صعب جدًا التفكير في وجود الصداق. مُجالسة أطفال...
دولار.. من أجل زوجة رالف هودچيز.

اجتمعت العناصر الثلاثة معًا ببطء في عقله. لايلا خرجت لتجالس أبناء
سالي هودچيز لقاء دولار واحد خائب، وتركْتُ له لوك وبوبي. بالله، يا له من
وقت يضطر فيه الرجال إلى المكوث في المنزل، ومسح أنوف الأطفال كي
تخرج الزوجات لتكسب دولارًا خائبًا لن يشتري لهم حتى جالون وقود. يا لها
من أوقات صعبة ابنة زانية.

غمره الغضب فتزايد ألم رأسه. زحف بصعوبة إلى البراد. أغلب أرففه
خاوية إلا من بواقي الأكل التي وضعتها لايلا في علب. لطالما كره تلك العلب
البلاستيكية الصغيرة. فاصوليا قديمة، ذرة⁽¹⁾ قديمة، بواقي صلصة شطة..
لا شيء مما يحب المرء أكله. لا شيء هنا إلا علب تبروير، وثلاث سُجُقات
صغيرة ملفوفة في بلاستيك. مال ينظر إليها، والغضب المألوف يصاحب
الألم المستمر في رأسه. تبدو هاته السُجُقات كأن أحدهم قطع أعضاء أقزام
البيجمي⁽²⁾ الذكورية ووضعهم في برّاده. فقد شهيته على أي حال، فقد كان
متوعكًا بشدة إن أردت الحقيقة.

(1)

(2) أقزام البيجمي هم جماعات عرقية ذات أطوال أقل من 150 سنتيمترًا، أغلبهم في
بعض أماكن آسيا وإفريقيا (المترجمة)

مشى إلى الموقد، وحكَّ عود ثقاب في قطعة صنفرة مثبتة إلى الحائط إلى جواره، فأشعل الشعلة ووضع القهوة، ثم جلس ينتظر في ضجر حتى تغلي. قبل أن تفعل، أخرج منديله بسرعة من جيبه الخلفي ليعطس فيه. فكَّر في أنه أصيب بالبرد. أليس هذا أمرًا جميلًا فوق الأمور الأخرى؟ لكن لم يخطر بباله أن يفكر في المخاط الذي كان يسيل من أنف الرفيق كابيون الليلة الماضية.

كان هاب في المرأب، يُركب ماسورة عادم جديدة لسيارة توني ليمونستر، وثيك بولفري يتأرجح بمقعد قابل للطّي وهو يراقبه، ويشرب بيرة دكتور بيبر، عندما دُقَّ الجرس.

قال ثيك: «إنها دورية الولاية. أحدهم بالخارج يشبه ابن عمك چو بوب». - حسنًا.

خرج هاب من تحت السيارة، ومسح يديه في كُرّة مخلفات ورقية. في طريقه خلال القاعة عطس بقوة. إنه يكره برد الصيف، فهو الأسوأ.

وقف چو بوب برنتود بقامته التي تربو على الأقدام الست ونصف إلى جوار سيارته، يُزودها بالوقود. خلفه المضخات الثلاث التي حطمها كامبيون ليلة أمس، مصفوفة جنبًا إلى جنب كشهداء حرب.

صاح هاب وهو يخرج: «أهلاً يا بوب!».

- هاب، ابن العاهرة أنت!

وضع بوب المضخة على وضع التزويد الأوتوماتكي، وخطا من فوق الخرطوم.

- أنت محظوظ كون المكان ما زال موجودًا حتى الآن.

- يا للخراء. رأى ستو ريديمان الرجل وهو يتقدم، فأغلقنا المضخات. انطلق الشرر في كل مكان.

- ما زلت محظوظًا لعينًا. اسمع يا هاب، جئتكَ لغرض آخر غير تزويد الوقود.

- نعم؟

انتقلتُ عينا چو بوب إلى ثيك الذي كان واقفًا عند باب المحطة.

- هل كان هذا الهَرَم غريب الأطوار هنا ليلة أمس؟

- مَنْ؟ فيك؟ إنه يأتي كل ليلة.
- هل يمكنه أن يحفظ السر؟
- بالتأكيد. هو ولد عجوز صالح.
- انتهى تزويد الوقود الأوتوماتيكي. اعتصر هاب وقودًا بقيمة عشرين سنتًا إضافية، ثم أعاد المضخة إلى مكانها وأغلقها، ثم التفت إلى چو بوب.
- ما الأمر؟
- حسنًا. لدخل المحطة. أعتقد أن الرفيق العجوز يحتاج إلى أن يسمع أيضًا. لو واثتكَ فرصة اتصل بالآخرين الذين كانوا هنا.
- مشواً على الأسفلت إلى المكتب. هتف فيك: «صباح الخير أيها الضابط».
- فأوماً چو بوب. سأله هاب: «هل لك في قهوة؟».
- أعتقد لا.
- ثم نظر إليهما نظرة مُقلقة وأضاف: «الأمر هو أنني أعرف أن رؤسائي لا يريدونني هنا على الإطلاق. لذا عندما يأتون، لا تخبرانهم أنني جئت. اتفقنا؟».
- سأل فيك: «من سيأتي أيها الضباط؟».
- رجال مكتب الصُّحة.
- أوه يا يسوع. إنها الكوليرا. كنت أعرف أنها كذلك.
- نظر هاب من واحد إلى الآخر وقال: «چو بوب؟».
- لا أعرف شيئًا.
- جلس على المقعد البلاستيكي المنخفض، فوصلت رُكبته النحيفتان إلى قرب عنقه، ثم أخرج علبه سجائر شيسترفيلد من جيب قميصه وأشعل منها واحدة مضيئًا: «فينيجن، الحانوتي كان هناك، وفحصه...».
- قال هاب بحدّة: «إنه لمتذاك. كان عليك أن تراه وهو يقتحم المكان يا بوب. كأنه ديك رومي في أول موسم تزاوج له. ظل يُخرس الناس ويتحكم فيهم».
- وافقه چو بوب قائلاً: «إنه كتلة خراء كبيرة في أمعاء صغيرة، أنا معك. طلب دكتور چيمس ليفحص هذا الكامبيون، وطلب الاثنان رأي طبيب ثالث لا أعرفه، ثم اتصلوا بهيوستون. في الساعة الثالثة صباحًا، وصلوا إلى المطار الصغير خارج برينتري».

- من الذي وصل؟

- العلماء؟ ثلاثة منهم. مكثوا مع الجثث لفحصها حتى الثامنة صباحًا. أضمن أنهم شرّحوهم، لكنني لست متأكدًا. بعدها اتصلوا بمركز الأوبئة في أتلانتا، وسوف يصل رجالهم إلى هنا بعد ظهيرة اليوم. لكنهم قالوا إن مكتب صحة الولاية سيرسل رجالًا ليقابلوا كل من كان في المحطة تلك الليلة، وكذلك مَنْ قادوا سيارة الإسعاف إلى برينتري. لا أعرف، لكن يبدو لي أنهم يضعونكم في حَجَرٍ صحي.

صاح هاب فزعًا: «يا موسى ويا يسوع!».

قال فيك: «مركز أوبئة أتلانتا فيدرالي. هل سيرسلون إلينا حمولة طائفة من العملاء الفيدراليين من أجل إصابات بالكوليرا؟».

أجاب بوب: «فتشني لتتأكد من أنني لا أعرف. أنا قلتُ إن من حقكم أن تعرفوا. مما سمعته، أنتم فقط أردتم المساعدة».

قال هاب ببطء: «أقدر ما فعلت يا چو بوب. ماذا قال چيمس والطبيب الآخر؟».

- لم يقولوا الكثير، لكنهم بدؤا مذعورين. لم أرَ من قبل أطباء مذعورون إلى هذا الحد.

هبط عليهم صمت ثقيل. ذهب چو بوب إلى ماكينة المشروبات وأخذ زجاجة فريسكا. هسيس فتح غطاء الزجاجة وتسرب الغاز منها كان مسموعًا. جلس مرة أخرى، بينما جذب هاب منديلًا من العلبة جوار آلة الدفع، ومسح أنفه الذي يسيل، ثم طوى المنديل ودسه في جيب الأقربول المتسخ الذي يرتديه.

سأل فيك: «ماذا وجدتم عن كامبيون؟ أي شيء؟».

أجاب چو بوب بإحساس الأهمية المتزايد فيه: «ما زلنا نتحقق. مكتوب في بطاقة هُويّته أنه من سان دييجو، لكنَّ أغلب ما كان في محفظته تاريخه يعود إلى عامين أو ثلاثة. ترخيص القيادة منتهٍ، ومعه بطاقة بنكية من عام 1986، وهي منتهية الصلاحية أيضًا. كانت معه بطاقة جيش أو شيء مثل هذا، ما زلنا نتحقق منها. لدينا حدس أن كامبيون لم يعيش في سان دييجو منذ أربع سنوات تقريبًا».

سأل فيك: «هل هو هارب من التجنيد؟».

ثم أخرج رابطة رأس حمراء كبيرة، فسعل وبصق فيها.

- لا أعرف. لكن بطاقة الجيش تقول إنه في الخدمة حتى 1997. لقد كان يرتدي ملابس مدنية وبردقة أسرته، وقد ابتعد كثيرًا جدًا عن كاليفورنيا، وها هو فمي يسيل بالتفاصيل كأنف مزكوم...

قال هاب: «حسنًا، سأتصل بالآخرين وأخبرهم ما قلت. شاكر لك».

وقف چو بوب وقال: «بالتأكيد. لكن أبعد اسمي عن الأمر. أنا طبعًا لا أريد أن أفقد وظيفتي. أصدقاؤكم لا يحتاجون إلى معرفة اسم من أخبركم».

قال هاب: «لا».

وردد فيك مثل ما قال. بينما يتجه چو بوب إلى الباب، قال هاب كأنما يعتذر: «حساب الوقود خمسة دولارات يا چو بوب. أكره أن أدعك تدفع، لكن الظروف لم تعد كما...».

- لا بأس.

وأعطاه بطاقة دفع مضيئًا: «الولاية ستدفع، وسيكون وصل الدفع هو إثبات سبب وجودي هنا».

بينما يصرف هاب ماله، عطس مرتين. قال چو بوب: «راقب تلك الأعراض. لا شيء أسوأ من برد الصيف».

- أعرف هذا.

فجأة قال فيك من خلفهما: «ربما ليس بردًا».

التفتا نحوه فنظر إليهما فيك مرتعبًا وقال: «لقد استيقظت هذا الصباح وأنا أعطس وأعاني صداعًا لعينًا. تناولت قرصين أسبرين ولم أتحسن إلا قليلًا، لكن أنفي مليء بالمخاط. ربما أصابتنا عدوى من كامبيون. المرض الذي قتله».

نظر إليه هاب طويلًا، وقبل أن يسرد أسبابه التي تقنعه أنهما غير مصابين بالمرض نفسه، عطس مرة أخرى.

نظر إليهما چو بوب في قلق للحظات، ثم قال: «أتعرفان، أرى أن إغلاق المحطة فكرة جيدة يا هاب. اليوم فقط».

نظر إليه هاب مرتعبًا، وحاول تذكر ما كان سيجادلها به، ولم يتذكر شيئًا. كل ما تذكره أنه هو أيضًا استيقظ بصداع وأنف مزكوم. حسنًا. الكل

يصاب بالبرد من وقت إلى آخر. لكن قبل ظهور كامبيون هذا كان بخير. حقًا بخير.

أبناء هودجيز الثلاثة في أعمار السادسة، والرابعة، والعام ونصف. كان الصغيران منهم يقيلان، والأكبر بالخارج يحفر حفرة، فيما لا يلا برويت في غرفة المعيشة تشاهد مسلسلًا تتمنى لو أن سالي لا تعود حتى ينتهي. اشترى رالف هودجيز تلفازًا ملونًا كبيرًا عندما كانت الأحوال أفضل في أرنيث، وأحبّت لا يلا مشاهدة مسلسلات ما بعد الظهيرة بالألوان. كل شيء يصير فيها أكثر وضوحًا.

أخرجت سيجارة أشعلتها بصعوبة نتيجة اهتزازات سعالها المتكرر. ذهبّت إلى المطبخ وبصقت كتلة البلغم التي صعدت إلى حلقها. كانت قد استيقظت تعاني السعال، وظلّت طوال اليوم تشعر كأن أحدهم يدغدغ نهاية حلقها بريشة.

عادت إلى غرفة المعيشة بعدما ألقت نظرةً من النافذة لتتأكد من أن بيرت هودجيز بخير. على الشاشة يُعرّض إعلان، فيه زاجاتا منظم مراقيض ترقصان. تركت لا يلا عينها تطوف بالغرفة، وتمنّت لو أن بيتها يبدو بهذا الجمال. زوج سالي كان يصنع لوحات تلوين بالأرقام تُمثّل يسوع المسيح. أحبّت تلك الكبيرة المعلقة فوق التلفاز، مرسوم فيها لوحة العشاء الأخير. يُباع التصميم ومعه ستون لونًا زيتيًا، هكذا أخبرتها سالي، واحتاجت إلى ثلاثة أشهر حتى تفرغ من تلوينها. إنها حقًا قطعة فنية.

بدأت الصغيرة شيريل في البكاء والانتحاب الذي يقطعه سعال عنيف. أطفأت سالي سيجارتها وهُرعت إلى غرفة النوم. كانت إيّثا ذات الأعوام الأربعة نائمة بعد، لكنّ شيريل مستلقية على ظهرها في مهدها، ووجهها يتحول إلى اللون البنفسجي المُقلق، مع صوت اختناق صيحاتها.

سالي لا تخشى مرض الخناق، خاصة بعدما أصيب به ابناها. أمسكت كعبي الطفلة ورفعتهما منهما، وبدأت تضرب بقوة على ظهرها. لم تكن لديها فكرة أكان دكتور سبوك قد أوصى بهذا النوع من العلاجات أم لا، لأنها لم تقرأ كتابه قط. نجحت المناورة مع الصغيرة شيريل، فأصدرت حشرة قوية ثم بصقت فجأة كتلة عظيمة من البلغم الأصفر على الأرض.

سألت سالي: «أفضل هكذا؟».

قالت الصغيرة شيريل: «نعم».

وغاصتُ في النوم مرة أخرى. مسحَ سالي الفوضى بمنديل ورقي. هي لا تتذكر حقًا أكانت قد رأَتْ من قبل طفلًا يبصق كتلة مخاط كهذه دفعة واحد. عادت لتجلس أمام المسلسل مرة أخرى وهي عابسة. أشعلتُ سيجارة أخرى، وعطستُ مع أول دُخانها، ثم انخرطتُ في السعال.

الفصل الرابع

بعد ساعة من انتصاف الليل.

جلس ستاركي إلى منضدة طويلة، يُقَلَّب في أوراق صفراء رقيقة. محتوياتها أفرعته. لقد خدم بلده ستة وثلاثين عامًا، بدأ بوظيفة مُجند مخلص في قاعدة ويست بوينت. تقلَّد الأوسمة، وتحدث إلى رؤساء وقدم إليهم النصيحة، وفي مرة أُخذ بنصيحته. مرَّ بلحظات عصيبة من قبل، الكثير منها، لكنَّ هذه...

كان مرتعبًا، مرتعبًا إلى حد أنه بالكاد اعترف بهذا لنفسه. نوع الخوف الذي قد يدفعه إلى الجنون.

بحركة غريزية قام ليتجه إلى الحائط حيث شاشات المراقبة الخمس المُطفأة. بينما هو ينهض ضربت ركبتيه المنضدة، فسقطت ورقة من الأوراق الرقيقة من فوق الحافة، وطففت في الهواء متأرجحة وهي تهبط ببطء خلال هواء الغرفة المُنقَّى ميكانيكيًا، حتى حطَّت على الأرض، نصفها تحت ظل المنضدة ونصفها في النور. لو أن أحدًا يقف جوارها لرأى هذا:

تأكيد التشريح

يبدو معقولًا

كود السلالة -848 أ ب

كامبيون، (و) سالي

التحوُّر والتحول الأنتيجيني

خطورة عالية - نسب وفاة مرتفعة للغاية

ينتقل بالتواصل بنسبة 99.4 %

مركز أوبئة أتلانتا يفهم.
ملف السرية الفائقة الأزرق
انتهى

ب - ت - 222312أ

ضغط ستاركي زراً أسفل الشاشة الوسطى، فظهرت صورة صحراء كاليفورنيا الغربية من جهة الشرق. تبدو مقفرة، وزاد من هذا المنظر اللون الأحمر البنفسجي المميز للتصوير بالأشعة تحت الحمراء. فكر ستاركي: «إنه هناك. أمامي. المشروع الأزرق».

حاول الرعب الاستحواذ عليه مرة أخرى. مد يده إلى جيبه وأخرج قرصاً أزرق مما تطلق عليه ابنته «المُريح». الأسماء لا تهم، المهم المفعول. ابتلعه دون ماء، وتقلص وجهه الجامد لحظة والقرص ينزل خلال بلعومه.

المشروع الأزرق.

نظر إلى شاشات المراقبة الخالية الأخرى، فشغلها. الكاميرا رقم 4 تظهر معمل الفيزياء، ورقم 5 معمل أبحاث الفيروسات. الأخير مليء بأقفاص حيوانات، أغلبها خنازير غينيا، وقرود الرَبص، وعدد من الكلاب. لم يبدو أن أيهم نائم. في معمل الفيزياء جهاز طرد مركزي صغير يدور ويدور. شكا ستاركي هذا. شكا في مرارة. ثمة شيء مشؤوم في دوران جهاز الطرد المركزي بلا توقف هكذا فيما دكتور إيزويك ميت على الأرض بالقرب منه، مُنبطح كخيال مآة عصفت به الريح.

وضَّحوا له أن جهاز الطرد المركزي موصول بدائرة الكهرباء نفسها التي تمد الأضواء بالطاقة، ولو أغلقوا جهاز الطرد المركزي ستنلق المصابيح أيضاً، والكاميرات بالأسفل غير مزودة بخاصية التصوير بالأشعة تحت الحمراء. تفهَّم ستاركي الأمر. قد يرغب زوار من واشنطن في النظر إلى العالم الفائز بجائزة نوبل الممد ميتاً تحت سطح الصحراء بأربعمئة قدم، وعلى بعد ميل تقريباً منهم. لو أغلقنا جهاز الطرد المركزي لأغلقنا العالم. هذا واضح، وهو ما تطلق عليه ابنته «الخَدعة 22»⁽¹⁾

(1) تعبير مستقى من رواية (الخدعة 22) للكاتب جوزيف هيلر، ويعني المعضلة التي لا مفر منها بسبب تضارب المصالح (الترجمة)

أخذ قرصاً مُريحاً آخرَ، ونظر إلى الشاشة رقم 2، وهي الشاشة التي يبغضها. لا يحب ما يظهر فيها من رجل وجهه مُندسٌ في طبق حَساء. افترض أن أحدهم قال لك إنك ستقضي الأبدية ووجهك في طبق حَساء. الموقف أشبه بمزحة ضرب الوجه بالكعكة. يتوقف عن أن يكون مضحكاً عندما تكون أنت الضحية.

تُبَيِّن الشاشة رقم 2 كافيتريا المشروع الأزرق. وقع الحادث بالضبط بين ورديتين، ولم يكن في الكافيتريا سوى عدد قليل. افترض ستاركي أن الأمر لم يفرقَ معهم، سواء ماتوا في الكافيتريا أم في غرف نومهم أم في معاملهم. مع ذلك، الرجل ذو الوجه في الحَساء...

رجل وامرأة يرتديان أقرولاً أزرقَ مكومان أسفل ماكينة بيع الحلوى. رجل في زي أبيض ممدد إلى جوار صندوق الموسيقى. حول المناضد نفسها تسعة رجال وأربع عشرة امرأة، بعضهم منكفئ جوار كعكات توينكيز، وبعضهم ميت وعلب الكولا في أيديهم المتصلبة.

خلف المنضدة الأخرى قرب نهاية القاعة رجل يُعرَف باسم فرانك د. بروس. وجهه مدفون في طبق الحَساء.

على الشاشة الأولى عدّاد بشاشة رقمية فقط. حتى يوم الثالث عشر من يونيو كانت الأرقام عليها كلها خضراء، أما الآن فكلها حمراء وقد توقفت عند الأرقام: 06:13:90:02:37:16.

13 يونيو 1990. في الساعة الثانية صباحاً وسبع وثلاثين دقيقة وست عشرة ثانية.

من خلفه سمع صوت طرقة قصيرة.

أغلق ستاركي الشاشات واحدة تلو الأخرى، ثم دار إلى الخلف. رأى الورقة الرقيقة على الأرض فأعادها إلى مكانها على المنضدة.

- ادخل.

بدا كرايتون مبهوئاً وبشرته بلون الملح. فكر ستاركي في حزن أنه لا بُدَّ سينبئه بالمزيد من الأخبار السيئة. أحدهم أخذ غطسة عميقة في طبق حَساء آخر.

قال بهدوء: «أهلاً يا لين».

أوماً لين كرايتون وقال: «بيلي، هذا.. إلهي. لا أعرف كيف أخبرك».

- ربما كلمة كلمة أيها المجند.
- الرجال الذي تعاملوا مع جثة كامبيون في أتلانتا في مراحل العدوى الأولى. الأخبار ليست جيدة.
- كلهم؟
- خمس إصابات مؤكدة. المدعو ستوارت ريدمان تحاليله سلبية حتى الآن. لكن حسب ما نعرف، ظل كامبيون سلبياً أكثر من خمس عشرة ساعة.
- قال ستاركي: «لو أن كامبيون لم يفر... التأمين سيئ يا لين. سيئ للغاية».
- أوما كرايتون.
- أكمل.
- أرنيث تحت الحجر الصحي. لقد عزلنا على الأقل ست عشرة حالة تعاني ما يشبه أعراض الإنفلونزا حتى الآن. هذا ما أعلنناه.
- ماذا عن الإعلام والأخبار؟
- حتى الآن لا مشكلة. حتى الآن يصدقون أنه مرض الجمرة الخبيثة.
- ماذا أيضاً؟
- مشكلة واحدة كبيرة. لدينا أحد رجال دورية تكساس على الطريق السريع، اسمه جوزيف روبرت رينتود. ابن عمه يملك محطة الوقود التي مات فيها كامبيون. مرّ أمس عليهم ليخبر هابسكوم أن رجال الصحة سيأتون. اعتقلناه منذ ثلاث ساعات، وهو الآن في الطريق إلى أتلانتا. قبلها كان يجوب نصف شرق تكساس خلال الدورية، ويعلم الرب كم قابل من الناس.
- أوه، سحَقًا.
- أُرعبه الضعف في صوته، وانكماش جلد خصيتيه الذي امتد إلى بطنه. نسبة العدوى 99.4%. ظل الرقم يتردد مرات ومرات في عقله. هذا يعني زيادة النسبة ذاتها في الوَفَيَات لأن الجسد البشري لا يمكنه إنتاج الأجسام المناعية الضرورية للتعامل مع فيروس سريع التحوُّر. في كل مرة ينتج فيها الجسم الأجسام المناعية المطلوبة، يتحوُّر الفيروس ببساطة إلى شكل آخر. للسبب نفسه سيستحيل تقريباً صنع مصل.

قال: «يا للمسيح! ما هذا؟».

- حسنًا...

- أكمل.

قال كرايتون: «هامر مات يا بيلي. انتحر. أطلق رصاصة على عينه من مسدس خدمته. معلومات المشروع الأزرق كانت على مكتبه. أعتقد أنه فكر في تركها هناك كرسالة انتحار قد يحتاج إليها أي شخص».

أغمض ستاركي عينيه. فيك هامر مات.. لقد كان.. زوج ابنته. كيف سيخبر سينثيا؟ آسف يا سيندي، فيك أخذ غطسة في طبق حساء بارد اليوم. هاك، خذي قرص «المريح» هذا. يبدو أنها هفوة. أخطأ أحدهم في التعامل مع صندوق. شخص آخر نسي غلق المفتاح الذي يعزل القاعدة. دامت تلك الفجوة الأمنية بضعة وأربعين ثانية، لكنها كانت كافية. يُعرف الصندوق بـ «المتشمم». يُصنع في بورتلاند، أوريجون، بعقد وزارة الدفاع رقم 164480966. تُجمّع هذه الصناديق على مراحل منفصلة بفنّيات، حتى لا تعرف واحدة منهنّ ما تفعله الأخريات. يبدو أن إحداهن كانت تفكر في ما ستطهوه على العشاء، ويبدو أن من ستراجع عملها كانت تفكر في تغيير سيارتها. على أي حال يا سيندي، آخر مصادفة كانت أن رجلًا في نقطة التأمين رقم أربعة يدعى كامبيون، رأى الأرقام تتحول إلى الأحمر فخرج من الغرفة قبل أن تُغلق الأبواب، ثم اصطحب أسرته في فراره من المكان. عبّر البوابة قبل انطلاق صفارة الإنذار بأربع دقائق وإتمام عزل القاعدة بالكامل. لم يبحث أحد عنه قبل ساعة لأنه ما من كاميرات مراقبة تراقب نقاط الأمن.. في نقطة ما على امتداد الخيط عليك أن تتوقفي عن حراسة الحراس، وإلا يصير كل واحد في العالم اللعين مُراقب، بالإضافة إلى أن الجميع افترضوا أنه بالداخل، ينتظر الكلاب المُدربة لتُحدد الأماكن المصابة من السليمة. لذا نجح في الفرار، وكان ذكيًا كفاية فاتخذ طريق المزرعة، ومحظوظ كفاية لأنه لم يمر بمن يوقّف سيارته. ثم اضطرّ أحدهم إلى إصدار أمر بتدخل الولاية أو مكتب التحقيق الفيدرالي أو كلاهما، فهُرع ذلك الكائن الأسطوري الموكل بذلك هنا وهناك وفوق وتحت، حتى قرر من سيتولى الأمر، كان هذا الوغد السعيد -هذا الوغد السعيد الموبوء- قد وصل إلى تكساس، وعندما أمسكوا به، كان قد توقف عن الهرب أخيرًا، واستلقى هو وزوجته وابنته على ألواح باردة

في بلدة صغيرة اسمها برينتري. برينتري، تكساس. على العموم يا سيدي، ما أحاول قوله أن هذه كانت سلسلة مصادفات تهدف إلى الفوز بالجائزة الكبرى. أضفنا بعض انعدام الكفاءة أيضًا من أجل الحظ الحسن -معدرة، أعني من أجل الحظ السيئ- لكن على الأرجح كان هذا ليحدث على أي حال. لم يكن أي من هذا خطأ زوجك، لكنه كان على رأس المشروع، وشهد تدهور الوضع، ثم...

قال ستاركي: «شكرًا يا لين».

- ببلي، هل تريد...

- سأكون مستعدًا خلال عشر دقائق. أريدك أن تنسق اجتماع عاملين عام بعد خمس عشرة دقيقة من الآن. إن كانوا في الفراش، اركلهم حتى يستيقظوا.

- أمرك يا سيدي.

- لين...

- أجل؟

- أنا مسرور أنك من أخبرتني.

- أجل يا سيدي.

غادر كرايتون. نظر ستاركي إلى ساعته، ثم اتجه إلى الشاشات المعلقة على الحائط. شغل رقم اثنين، وضم يديه خلف ظهره، وصدق مفكرًا إلى كافيتريا المشروع الأزرق الصامته.

الفصل الخامس

توقف لاري أندروُد عند المنعطف، ووجد مكانًا للتوقف بمساحة تكفي سيارته الداتسون Z بين صنبور حريق وصندوق قُمامة أحدهم الذي سقط داخل مجرور. ثمة ما لا يُسر بشأن صندوق القُمامة. حاول لاري أن يقنع نفسه أنه لم يرَ القطَّ الميتَ المتخشبَ بداخله، وفأرًا ينهش بطنه الفرائية البيضاء. فر الفأر عندما سقط عليه ضوء مصابيح سيارته الأمامية واختفى كأن لم يكن، ومكث القط مكانه. فكَرَّ وهو يطفئ محرك سيارته أنه إن صدق وجود شيء، عليه أن يصدق وجود الآخر. ألم يقولوا إن في باريس أكبر عدد فئران في العالم؟ لكنْ في نيويورك عدد ضخم أيضًا. لو أنه يتذكر جيدًا شبابه المُهدَّر، فليستْ كل فئران نيويورك تسير على أربع. ثم لماذا يوقف سيارته أساسًا أمام هذا المبنى المتحلل ويفكر في الفئران؟

قبل خمسة أيام، في الرابع عشر من يونيو، كان في جنوب كاليفورنيا المشمسة، وَطَنَ المساطيل، والأديان العجيبة، وملاهي موسيقى الكانترى والويسترن الوحيدة في العالم التي يرقص فيها راقصو الجوجو⁽¹⁾، وعالم ديزني.

في الساعة الرابعة إلا ربع من صباح اليوم، وصل إلى الجهة الأخرى من المحيط، ودفع تذكرة عبور جسر تريبرو. هبطتْ زخات المطر. في نيويورك فقط تستطيع أن ترى زخات الصيف منتفخة واضحة. رأى لاري القطرات ملتصقة بنافذة السيارة الأمامية الآن، فيما مشارف الفجر تلوح عند الأفق الشرقي.

(1) راقصون يعملون في الملاهي لتحفيز الحضور على الرقص، وهم ليسوا راقصين إباحيين ولا يرقصون بطلب الجمهور (المتجمة)

عزیزتی نیویورک: لقد عدتُ إلى الوطن.

ربما يكون فريق اليانكيز في المدينة. هذا يجعل الرحلة تستحق. اركب قطار الأنفاق إلى الإستاد، اشربْ بيرة، كُلْ هوت دوج، وشاهد فريق اليانكيز يهزمون فريق كليفلاند أو بوسطن..

انجرفتُ أفكاره، وعندما عاد إلى تركيزه رأى الضوء يشتد. الساعة على لوحة عدادات السيارة تشير إلى السادسة وخمس دقائق. لقد غفا. الفأر كان حقيقياً وقد رآه. الفأر عاد. الفأر يحفر لنفسه مكاناً داخل بطن القط الميت. انقلب بطن لاري الفارغ ببطء. فكر في أن يضغط النفير ليخيف الفأر فيبتعد إلى الأبد، لكنَّ المباني الغافية بصفائح قمامتها الخاوية تقف أمامه كخفير يثبط همَّته.

انزلق إلى أسفل قليلاً في مقعده كي لا يرى الفأر وهو يتناول إفطاره. كُلْ لقمة أيها الفأر الصالح ثم عُدْ إلى قطار الأنفاق. هل ستذهب لمشاهدة اليانكيز في الستاد الليلة؟ ربما سأقابلك هناك أيها الرفيق القديم، رغم أنني أشك في أنك ستراني.

واجهة المبنى مغطاة بشعارات مرسومة برش الطلاء. مُلغزة مشؤومة: شيكو 116، زورو 93، أبي الصغير #1! عندما كان صبيّاً، وقبل أن يموت أبوه، كانت هذه المنطقة جيدة، يحرس كلبان حجران الدرج المؤدي إلى الباب ذي الضلفتين. قبل عام من سفره إلى الساحل، كسر المخربون تمثال الكلب الأيمن من مِخْلَبيه حتى أعلى. زال الآن كلا التمثالين، إلا من مِخْلَب أيسر أمامي، أما الجسد الذي خُلِقَ لدعّمه فقد اختفى، ربما يزين الآن ركن نوم بورتوريكي متشرد. ربما أخذه زورو 93 أو أبي الصغير #1! ربما حملته الفئران بعيداً إلى محطة قطار أنفاق مهجورة في ليلة مظلمة. ربما أخذوا أمه معهم أيضاً. افترض أن عليه أن يصعد الدَّرَج على الأقل ليتأكد من أن اسمها ما زال مكتوباً تحت صندوق بريد شقة 15، لكنه كان مرهقاً للغاية.

لا. يمكنه أن يجلس هنا ويغفو، ويثق بآخر ما تبقى في دمه من (أحمر)⁽¹⁾ ليوقطه في السابعة. بعدها سيذهب ليرى أكانت أمه حية. ربما الأفضل لو أنها ماتت. ربما وقتها لن يكثرث لحضور مباراة اليانكيز. ربما سينزل في فندق بالتيمور، وينام ثلاثة أيام، ثم يعود إلى الغرب.

(1) الأحمر، أو الشيطان الأحمر، هو مادة الباربيتوريت المخدرة (الترجمة)

تحت هذه الإضاءة، وتلك الزخات، وبرأسه وساقيه الذين ينبضون بعد، يرى لنيويورك سحرَ عاهرة ميتة.

بدأ عقله ينحرف مرة أخرى، يُقلَّب وسط آخر تسعة أسابيع، يحاول أن يجد ما يوضح الأمور ويفسر سبب تخبطه في الجدران الحجرية لست سنوات طويلة، يعزف في الملهي الليلية، يسجل شرائط كاسيت دعائية، يحضر المواسم الموسيقية، ثم فجأة ينجح في تسعة أسابيع. محاولة استيعاب الأمر أشبه بمحاولة ابتلاع مقبض باب. لا بُدَّ من إجابة، تفسير يساعده على إبعاد استنتاجه الخاص أن كل شيء كان مجرد مصادفة، لعبة قدرية.

غفا بعمق أكبر وذراعه معقودان على صدره وهو يفكر ويفكر، ويغوص في كل تفاصيل هذا الشيء الجديد، كأنه يمزج الألحان المنخفضة المخيفة، نغمة على وشك الانطلاق تُعزف على جهاز توليف موسيقي، تُسمع بطريقة تستفز صداك النصفى كأنها نذير. الفأر الذي يحفر جسد القط الميت ويمضغ ويمضغ، يبحث فقط عن شيء لذيقه بالداخل. هذا هو قانون الغاب يا رفيق. إن كنت شجرة فعليك أن تتمايل مع الريح.

بدأ كل شيء حقًا منذ ثمانية عشر شهرًا. كان يعزف أغاني لفريق (الأشلاء الممزقة) في ملهى بيركلي، وناداه رجل من استوديو كولومبيا. ليس شهيرًا، مجرد شخص آخر يكبح في كرمه الأسطوانات الموسيقية. فكر نيل دايموند في تسجيل إحدى أغانيه بعنوان: «صغيرتي، هل تفهمين رجلك؟».

كان دايموند يجهز ألبومًا موسيقيًا، كله من ألحانه عدا أغنية «بيجي سو تزوجت»، وهي أغنية بادي هولي، وربما يضم إليه أغنية لاري أندروود هذه. السؤال هو، هل يريد لاري أن يسجل جزءًا دعائيًا من الأغنية ويرى أكان يمكن إلحاقه بالألبوم؟ أراد دايموند إضافة جيتار آخر، وقد أحب الأغنية للغاية. ووافق لاري.

استمر العمل ثلاثة أيام، قابل فيهم لاري نيل دايموند، وروبي روبرتسن، وكذلك ريتشارد بيرلي. كُتِبَ اسمه على غلاف الألبوم الداخلي، ودُفِعَ له بما يتوافق مع مقاييس السوق، لكن أغنية «صغيرتي هل تفهمين رجلك؟» لم تكن في الألبوم؛ في الليلة الثانية من جلسات العمل، جاء دايموند بأغنية جديدة تمامًا من ألحانه، وضَمَّنَها فيه.

ثم أخيرًا عاد الرجل من استوديو كولومبيا وقال له: «يا للأسف. أمور كهذه تحدث. أقول لك، لماذا لا نزيل أغنيتك من الألبوم، وسأرى ما يمكنني فعله حيال ذلك». لذا أزال لاري نسخة الأغنية التجريبية، ووجد نفسه في الشارع مرة أخرى. في لوس أنجلوس الزمن قاس. اشترك في عدة جلسات عمل أخرى، لكن ليست كثيرة.

أخيرًا عثر على وظيفة عازف جيتار ومغنٍ في ملهى، يقدم أغاني مثل «برقة كما تركتك» و«نهر القمر»، فيما القبط المسنة تتحدث عن الأعمال، وتلتهم الطعام الإيطالي. كتب الكلمات على قصاصات ورق وإلا اختلطت في عقله أو نسيها، وراح يلحن وهو يههمهم، ويحاول أن يبدو رقيقًا مثل توني بينيت، ويشعر كأنه أحرق. في المصاعد والمتاجر، صار أكثر وعيًا بموسيقى «الموزاك» التي تُعرّف في خلفياتها بلا انقطاع.

منذ تسعة أسابيع، ومن سماء صافية، اتصل به الرجل من استوديو كولومبيا. أراد أن يُطلق الأغنية التي لحنها له منفردة، فهل يمكنه أن يعود ويستكملها؟ قال له لاري: طبعًا. يمكنه أن يفعل ذلك. فعاد إلى استوديوهات كولومبيا في لوس أنجلوس في بعد ظهيرة يوم أحد. كرّر صوته بنموذج ثنائي في أغنية «صغيرتي هل تفهمين رجلك» وعمل على مدار ساعة، ثم تبعها بأغنية كتبها لفريق الأشلاء الممزقة. نفحه الرجل من استوديو كولومبيا شيكًا بخمسمائة دولار وعقدًا عفاً يربط لاري إلى شركة التسجيلات. صافح لاري وأخبره أنه سعيد لانضمامه إليهم، وابتسم في وجهه ابتسامة شفقة عندما سأله عن دعاية الأغنية المنفردة، ثم استأذن ورحل.

كان الوقت قد تأخر على صرف الشيك، لذا ظل في جيبه عندما عاد إلى ملهى جينو، وراح يعزف نسخة خافتة من أغنيته «يا صغيرتي هل تفهمين رجلك» ولم يلحظ أحدًا إلا مالك جينو الذي طلب منه أن يدخر أغنية الجاز الزنجية هذه لعمّال النظافة.

منذ سبعة أسابيع، اتصل الرجل من استوديو كولومبيا مرة أخرى، وطلب منه شراء نسخة من مجلة «بيلبور»، فهُرِعَ لاري، ووجد أن أغنيته واحدة من ثلاث أغانٍ ضمن الأكثر استماعًا هذا الأسبوع. اتصل لاري بالرجل من استوديو كولومبيا مرة أخرى، فسأل لاري أكان يرغب في تناول الغداء مع بعض الكبار لمناقشة الألبوم. كانوا جميعًا مسرورين من الأغنية المنفردة التي تُبث كثيرًا في محطات إذاعة ديترويت وفيلادلفيا وبورتلاند في مَين. بدا

إنه رجل صالح.
أخبريني يا صغيرتي، هل تفهمين رجلك؟»

قال: «يا يسوع! هذا أنا!».

رمى البسكويت على الأرض، ثم وقف مشدوهاً فيما يحييه ويشجعه أصدقاؤه.

منذ أربعة أسابيع، قفزت أغنيته إلى المرتبة الثالثة والسبعين في قائمة بيلبورد. بدأ يشعر كأنه دُفع بوقاحة إلى فيلم صامت قديم يتحرك كل شيء فيه بسرعة. رنَّ الهاتف. استوديو كولومبيا يطالب بالألبوم الكامل كي يبنوا فوق ما حققته الأغنية المنفردة من نجاح. اتصل به شخص مخبول من حانة A&R ثلاث مرات في يوم، وقال له إن عليه أن يُهرع إلى استوديو «ريكورد وان» ليس اليوم، بل أمس، ليسجل توزيعاً جديداً لأغنية مَكْوي «تماسك أيها الغامض» كي يتبع بها نجاح أغنيته. يا له من مسخ! ظل هذا الوغد يصرخ: فقط افعل يا لاري! (لم يقابل هذا الرجل من قبل قط، ولا يناديه لاري حتى، بل لاري!)

فقد لاري أخيراً صبره، وأخبر المسخ الصارخ أنه لو خُير بين إعادة توزيع «تماسك أيها الغامض» وبين أن يربطوه ويحقنوه شرجياً بكوكا كولا، لاختار الحقنة الشرجية، ثم أغلق الهاتف.

وظل القطار في مسيرته. صُبَّت في أذنيه المزيد من التأكيدات على أن هذه ستكون أفضل أغنية في السنوات الخمس التالية. اتصل به الوكلاء بالدسته، وبدؤا جميعاً شَرهين. في ذلك وقت بدا أنه يسمع أغنيته في كل مكان، في صباح سبت، سمع أغنيته في برنامج «قطار الروح»⁽¹⁾، فقضى بقية يومه يحاول أن يقنع نفسه بتصديق ما حدث.

صار فجأة يجد صعوبة في تحمل جولي، الفتاة التي يواعدها منذ كان يعمل لدى «جينو». قدَّمته إلى كل أنواع الناس، وقليل منهم من رغب في مقابلته حقاً. أصبح صوتها يُذكره بالوكلاء الصارخين خلال الهاتف، وفي خلال مناقشة طويلة صاخبة بينهما انفصل عنها. صرخت فيه أن رأسه سيكبر مع الوقت حتى يعجز عن الدخول إلى أي استوديو موسيقي، وأنه

(1) برنامج موسيقي شهير بدأ بثه عام 1971، واستمر خمسة وثلاثين عاماً (المترجمة)

مدين لها بخمسمائة دولار ثمن المُخدرات، وأنه يقلد فريق زاجر وإيفانس بطريقة التسعينيات. هددت بقتل نفسها. بعدها شعر لاري أنه كان متورطاً لمدة طويلة في شجار بالوسائد، وتلك الوسائد مُعالجة بغاز سام من نوع رديء.

بدأوا تنسيق الألبوم منذ ثلاثة أسابيع، وقاوم أغلب الاقتراحات تحت عنوان: «لمصلحتك». استخدم كل ما سمح له به العقد، وأحضر باري جريج وآل سبيلمان وچوني مَكُول وموسيقيين آخرين عمل معهما في الماضي؛ نيل جودمان، ووين ستوكي. أنجزوا الألبوم في تسعة أيام، واستغلوا كل الوقت الذي منحه لهم الاستوديو. أراد استوديو كولومبيا أن يكون الألبوم صالحاً لتغطية دعاية ونجاح يستمر عشرين أسبوعاً، بدءاً بـ«يا صغيرتي هل تفهمين رجلك»، ونهاية بـ«تماسك أيها الغامض».

غلاف الألبوم كان صورة لاري في مغطس حمام عتيق من المحمول على أربعة مخالب معدنية، تغطي جسده فقاعات الصابون، مكتوب على البلاط فوقه بأحمر الشفاه: «الْمُنْقَذ» و«لاري أندروُد».

أراد استوديو كولومبيا أن يطلق على الألبوم اسم «يا صغيرتي هل تفهمين رجلك؟» لكنَّ لاري رفض تماماً، واتفقوا أخيراً على أن يلصقوا على الغلاف البلاستيكي عبارة: «يحوي الأغنية المنفردة الأكثر شعبية».

منذ أسبوعين، وصلت الأغنية إلى المركز السابع والأربعين، وبدأ الحفل. استأجر منزلاً شاطئاً في ماليبو لمدة شهر، ثم غامت التفاصيل بعد ذلك إلى حد ما. دخل الناس وخرجوا منه، الكثير منهم. عرف بعضهم، لكنَّ أغلبهم كانوا غرباء. يتذكر مطاردة الوكلاء له، ممن يريدونه أن (يستمر أكثر في هذا النجاح). تذكر فتاة تعاطت حبوبَ هلوسة قوية، وخرجت تصرخ وتجري على الشاطئ الأبيض عارية كطائر خازن الجوز. تذكر شَمَّ الكوكايين وبعده خمر التيكिला. تذكر أنه أوقِظَ عَنوةً في صباح سبت، منذ أسبوع أو نحو ذلك، ليسمع أن أغنيته وصلت إلى المركز السادس والثلاثين في قائمة الأربعين الأمريكية. تذكر أنه تعاطى الكثير من أقراص الأحمر، وركب سيارته الداتسون Z ومعه شيك بأربعة آلاف دولار وصل إليه بالبريد.

ثم جاء يوم 13 يونيو، اليوم الذي طلب منه فيه وِين ستوكي أن يتمشَّى معه على الشاطئ. كانت الساعة التاسعة صباحاً فقط، لكنَّ كان الكاسيت يصدر، وكلا التلفزيونين، وبدا له كأن حفلَ جنس جماعي يُقام في قبو المكان.

كان لاري يجلس على المقعد الوثير في غرفة المعيشة، لا يرتدي سوى سروال تحتي، ويحاول أن يفهم شيئاً من مجلة سوبر بوي المصورة. كان يشعر أنه متيقظ، لكنَّ الكلام لا يترابط مع بعضه. مقطوعة لقانجر تذاق خلال السماعات الرباعية، واضطُرَّ وَين إلى أن يعيد الكلام صارخاً ثلاث مرات أو أربع حتى يُبين ما يقصد.

ثم أوماً لاري، وشعر كأنه يستطيع السير أميلاً.

لكنَّ عندما وخزت الشمس كُرتي عيني لاري كالدبايس، غيَّر رأيه فجأة. لن نمشي. لا، لا. تحولت عيناه إلى عدستين مكبرتين، وحالما تسطع الشمس فيهما كفايةً سيحترق مخه. مخه القديم المسكين الجاف القابل للاشتعال.

أصرَّ وَين وهو يمسك ذراعه بقوة. اتجها إلى الشاطئ، يسيران فوق الرمال الدافئة إلى الموضع الأكثر صلابة ودُكنة من رمل الشاطئ. رأى لاري أنها فكرة جيدة رغم كل شيء. صوت الأمواج المتكسرة مُهدئ. نورس مُحلَّق يطوف بالسموات الزرقاء، يشبه حرف M أبيض.

جذب وَين ذراعه بقوة وقال: «هيا».

مشى لاري قدر ما استطاع من أميال، لكنه شعر بصداق شنيع، وبعموده الفقري كأنما تحول إلى زجاج. عيناه تنبضان، وكليتاها تؤلمانها. أعراض ما بعد تعاطي الأمفيتامينات ليست مؤلمة كما يؤلم الصباح التالي لشربه خمس زجاجات من «الأزهار الأربعة»⁽¹⁾، لكنه ليس لطيفاً مثلها. لو أنه أخذ قرصين آخرين لاستطاع قطع المسافة التي تتحداه. مدَّ يده إلى جيبه ليخرجهما، لكنه اكتشف أنه ما زال بسرواله الداخلي الذي كان نظيفاً منذ ثلاثة أيام.

- وَين. أريد أن أعود.

- سنمشي قليلاً بعد.

فكر في أن وَين ينظر إليه نظرة غريبة، نظرة شفقة.

- لا يا رجل. أنا لا أرتدي سوى سروال داخلي. سيعتقلونني بتهمة المنظر الفاضح.

(1) خمر ويسكي البوربون القوي الذي يُصنع في كنتاكي. (المترجمة)

- في هذه المنطقة من الساحل يمكنك أن تلف قشرة موز حول شبيك وتترك كُرتيك تتدليان بحرية، ولا يعتقلك أحد بتهمة المنظر الفاضح. تعالَ يا رجل.

- أنا مرهق.

وبدا لاري يشعر بالضيق من وين. هذه هي طريقة تواصل وين معه. لاري لديه أغنية، ووين الوحيد الذي لديه سلطة على الألبوم الجديد. إنه لا يختلف عن چولي. الكل يكرهه الآن. الكل يرفع أمامه السكين. عيناه ترغرغت بالدموع سريعاً.

كرر وين: «هيا يا رجل».

ومشيا نحو الشاطئ مرة أخرى.

مشيا ميلاً آخر عندما أصيبت عضلتا فخذي لاري بتقلص. صرخ وسقط على الرمل. شعر كأن خنجرًا مزدوجًا غُرَزَ في كلتا الفخذين في آن واحد. صرخ: «تقلص عضلي. تقلص عضلي يا رجل!».

جثا وين إلى جواره، وجذب ساقيه يفردهما. ضرب الألم مرة أخرى، ثم بدأ وين يُدلك العضلات المعقودة. أخيراً استرخت العضلات المحرومة من الأكسجين.

شهق لاري الذي كان يحبس أنفاسه، وقال: «أوه يا رجل. شكرًا. كان هذا.. كان هذا رهيباً».

فقال وين دون تعاطف كبير: «بالتأكيد. أراهن على أنه كان كذلك يا لاري. كيف حال الآن؟»

- بخير. دعنا نجلس فقط، هه؟ ثم بعدها نعود.

- أريد أن أتحدث معك. يجب أن أخرجك من هنا، وأريدك متيقظًا كفاية كي تفهم ما أرميه عليك.

- ما الأمر يا وين؟

فكّر: ها قد جاء النكد. لكنّ ما قاله وين بدا بعيداً جداً عن النكد الذي توقعه، حتى إنه ظن لحظةً أنه عاد إلى مجلة سوبر بوي المصورة، يحاول أن يفهم كلمات العبارة الست.

- يجب أن توقف الحفل يا لاري.

- هه؟

- الحفل. عندما تعود، انزع كل السدادات، وأعط كل واحد مفتاح سيارته،
واشكر الجميع على الوقت الطيب، وأوصلهم إلى الباب الأمامي. تخلص
منهم.

قال لاري مصدومًا: «لا يمكن أن أفعل هذا!».

- الأفضل أن تفعله.

- لكن لماذا؟ لقد بدأ الحفل للتو يا رجل!

- لاري، كم دفعتُ لك كولومبيا مقدمًا؟

سأل لاري في خبث: «لماذا تريد أن تعرف؟».

- تظن أنني أريد أن أشفيط مالك يا لاري؟ فكر.

فكّر لاري، في ذهول مفاجئ أدرك أنه ليس من سبب يجعل وين يرغب في
السيطرة عليه. هو لم يصبح ثريًا بعد، وما زال يكافح من أجل العثور على
عمل مثله كمثل أغلب الناس الذين ساعدوا لاري في الألبوم، لكنه على عكسهم،
فأسرة وين ثرية، وهو على وفاق مع أهله. يملك والد وين نصف أكبر شركة
ألعاب إلكترونية في البلاد، وآل ستوكي لديهم منزل هائل في بل إير. في
ذهول أدرك لاري أن ثروته الصغيرة هذه لا شيء مقارنة بما لدى وين.

- لا. لا أعتقد هذا. أعتذر. لكن يبدو أن كل صرصار مقامر رخيص في
غرب لاس فيجاس يريد أن...

- كم دفع الاستوديو؟

فكر لاري ثم أجاب: «سبعة آلاف».

- هل يدفعون لك مقابل حق الانتفاع بالأغنية المنفردة ربع سنوي،
ونصف سنوي على الألبوم ككل؟

- نعم.

أومأ وين وقال: «الأوغاد. هل تريد سيجارة؟».

أخذ لاري واحدة، وطوى كفه على نهايتها ليشعلها.

- هل تعرف كم يكلفك هذا الحفل؟

- بالتأكيد.

- أنت لم تؤجّر البيت بأقل من ألف.

- نعم، هذا صحيح.

إيجار البيت في الحقيقة 1200 دولار، بالإضافة إلى 500 تأمين. دفع التأمين ونصف إيجار الشهر، 1100 دولار.

سأل وين: «وكم يكلفك المخدر؟».

- أوه يا رجل. يجب أن يكون لدينا بعضه، إنه كالجبن الذي يوضع على بسكوت ريتز...

- لديك نرجيلة، ولديك كوكايين. كم يكلفانك، هيا؟

- خمسمائة، وخمسمائة.

- وتنتهون منهما في يوم.

قال لاري مدهوشاً: «اللعة، هو كذلك! انتهى أغلب ما اشتريت أمس هذا الصباح، لكن...».

- ألا تتذكر الأحمق؟

ثم تحول صوت وين إلى تقليد هزلي ممتاز لصوت لاري نفسه وهو يقول: «أضفهم إلى حسابي يا ديوي».

نظر لاري إلى وين في رعب. إنه فعلاً يتذكر شاباً نحيلًا، بقصة شعر مميزة، (طائرة) كما كانوا يطلقون عليها منذ عشرة أعوام أو خمسة عشر. شاب ضئيل ذو قصة شعر طائرة، وتيشيرت مكتوب عليه (يسوع قادم، هل هو حانق؟) هذا الشاب كان معه مخدرات جيدة تتساقط من مؤخرته. يتذكر حتى أنه كان يدعوه ديوي الأحمق، ويطلب منه أن يزوده بالمخدر بانتظام على الحساب. لكن هذا كان منذ.. حسنًا، منذ أيام مضت.

قال وين: «أنت أفضل شيء حدث لديوي الأحمق منذ وقت طويل يا رجل».

- بكم أدين له؟

- ليس بكثير في ما يخص النرجيلة. ألف ومائتان. وثمانية آلاف ثمن الكوكايين.

شعر لاري لحظة أنه سيقيء. حذق بصمت إلى وين، وحاول أن يتكلم، ولم يستطع أن يتفوه بشيء إلا: «تسعة آلاف ومائتان؟».

- التضخم يا رجل. هل تريد الباقي؟

لن يرغب لاري في سماع الباقي، لكنه أوماً.

- كان في الأعلى تلفاز ملون. كسره أحدهم بكرسي. أعتقد أنه سيكلفك
تصليحاً ثلاثمائة دولار. زينة الخشب بالأسفل ذهبتُ إلى داهية.
ستكلفك أربعمائة لو أن حظك حسن. النافذة العريضة التي تواجه
الشاطئ كُسِرَتْ أول أمس. ثلاثمائة دولار. البساط في غرفة المعيشة
خُرِبَ بالكامل؛ حروق سجائر، بيرة، ويسكي. أربعمائة دولار. اتصلتُ
بمتجر الخمور، فوجدتهم سعداء بك سعادة ديوي الأحمق. أنت تدين
لهم بستمائة.

همس لاري والذعر قد غمر وجهه حتى العنق: «ستمائة من أجل الخمر؟!».
- كُنْ ممتناً أن أغلبها كان بيرة وخمراً عادية. لديك دَيْن بقيمة أربعمائة
دولار للسوبر ماركت، أغلبه بيتزا وشيبس وتاكو وكل هذا الهراء اللذيذ.
لكنَّ أسوأ ما في الأمر الضوضاء. قريباً ستصل الشرطة وتتهمك بإقلاق
الهدوء، وأنت قد اعتُقلتُ من قبل أربع مرات أو خمس بتهمة تعاطي
الهيروين. في المنزل ثلاث أونصات أو أربع من الهيروين المكسيكي
البُنِّي.

زعق لاري: «على الحساب أيضاً؟!».

- لا. الأحمق لا يتعامل في الهيروين. لكنَّ لو وصلت الشرطة، فما
سيجدونه عندك سيكون على حسابك!

- لكنني لم أكن أعرف...

- ما على حسابك بسبب هذا التفاخر الغبي أكثر من اثني عشر ألف دولار.
اخرج واركبُ سيارتك.. كم معك الآن؟

قال لاري وهو يكاد يبكي: «خمس وعشرون...».

- ماذا لديك حتى موعد الشيك التالي؟ ألفان؟

- تقريباً.

لم يستطع لاري أن يخبرَ وَين أن ما معه أقل من ذلك. ربما ثمانمائة ما بين
نقود سائلة وشيكات.

- لاري، اسمعني لأنك لا تستحق أن أكرر كلامي مرتين. ثمة حفل على
وشك الإقامة دائماً. لا يوجد في العالم سوى هراء متواصل وحفلات

متواصلة، تأتي جريًا، تبحث عنك كالحشرات على ظهر فرس النهر.
والآن هم هنا. انتزعهم عن قفاك، وأطلقهم إلى حالهم.

فكر لاري في العشرات في المنزل. هو لا يعرف أكثر من شخص من كل ثلاثة منهم. فكرة طرد كل هؤلاء المجهولين تغلق حنجرته. سوف يخسر آراءهم الجيدة. أمام هذا الخاطر، وردته صورة ديوي الأحقق يراعي ضيافة الموجودين، ويخرج دفترًا من جيبه يسجل فيه شيئًا على الحساب. عليه اللعنة هو وقصة شعره الطائرة وقميصه.

راقبة وين في هدوء وهو حائر بين تلكما الصورتين.
قال لاري أخيرًا: «سأبدو أكثر الحمقى حماقة في العالم».
كره الكلمات الضعيفة الحيرى التي تتساقط من فمه.

- نعم. سينعتونك بأفطع النعوت. سيقولون إنك ذاهب إلى هوليوود،
وأنك أُصِبتَ بالغرور ونسيْتَ أصدقاءك القدامى. إلا أن أحدهم لم يكن
صديقك يا لاري. أصدقاؤك رأوا ما يحدث منذ ثلاثة أيام وابتعدوا. ليس
مضحكًا رؤية صديق يبول في سرواله ولا يدرك هذا.

سأله لاري وقد غضب فجأة: «ولماذا تخبرني؟».

سبب غضبه الأساسي معرفته أن أصدقاءه الحقيقيين قد تخلّوا عنه،
وبأعذار كلها واهية. حاول باري جريج أن يتحدث معه، لكنَّ لاري كان فوق
السحاب، فأومأ وابتسم ولم يكثرث. والآن يتساءل أكان باري قد رغب في
الحديث عن الأمر نفسه معه. جعله هذا مُحَرَجًا وغازبًا.

كرر: «لماذا تخبرني؟ لديّ شعور أنك لا تحبني إلى هذا الحد اللعين».

- لا. لكنني حقًا لا أكرهك. إلى جانب هذا يا رجل، لا أعرف السبب. كان
يمكنني أن أتركك تُلْگَم من أجل هذا، لكنَّ مرةً واحدةً تكفيك.

- ماذا تعني؟

- ستخبرهم. لأنك بارع، تحفر في الصخر، ولديك ما يحتاج إليه المرء
لينجح. أمامك مستقبل جيد كمغنٍّ رقص على السلاالم، لن يتذكره
أحد بعد خمس سنوات. سيجمع مراهقين الثانوية ألبوماتك، وستجني
المال.

كوّر لاري قبضتيه وضرب بهما ساقيه. أراد أن يلکم هذا الوجه الهادئ. وين يقول أشياء تدفع إلى الشعور بأنك مجرد كومة خراء كلب جوار لافتة توقف.

قال وين بهدوء: «عُد وانزع السدّادة. بعدها خذ سيارتك وارحل. ارحل فقط يا رجل، وابقَ بعيدًا حتى تتأكد من وصول الشيك التالي».

- لكنّ ديوي...

- سأجد من يتحدث مع ديوي، ويطلب منه أن ينتظر ماله في أدب كولد لطيف صغير، وسيطيع ديوي في سرور.

توقف عن الحديث، وراقب طفلين في زي سباحة يجريان على الشاطئ، وكلب يجري إلى جوارهما تحت السماء الزرقاء.

قام لاري وأرغم نفسه على شكره. هواء البحر يدخل ويخرج من فتحات سرواله الداخلي. خرجت كلمة الشكر من فمه كقالب طوب.

نهض وين ووقف إلى جواره وهو يراقب الطفلين بعد وقال: «اذهب إلى أي مكان بعيد واستجمع شتات نفسك. لديك الكثير من الشتات لتجمعه. أي نوع من المديرين تريد، أي نوع من الجولات الترويجية، أي نوع من العقود تريده بعد نجاح ألبومك الأخير المدوي. أعتقد أنه سينجح، فهو يحوي تلك النغمات الصغيرة اللطيفة. لو أتحّت لنفسك فرصة، فسوف تصل إلى إجابة كل هذا. الرجال مثلك يصلون دائمًا».

الرجال مثلك يصلون دائمًا.

الرجال مثلي يصلون دائمًا.

الرجال مثل...

أحدهم يطرق النافذة بإصبعه.

فزع لاري، وانتصب جالسًا. شعر بألم عنيف في عنقه، وأجفل من شعور التتميل في لحمها. لقد نام، ولم يغف فقط. لقد كان في كاليفورنيا، لكنه الآن في نيويورك ذات صباح رمادي، والإصبع تطرق مجددًا.

أدار عنقه بحذر وألم، فرأى أمه، ترتدي وشاحًا شبكيًا أسود على رأسها، وتنتظر إليه.

للحظة حدقا إلى بعضهما من خلال الزجاج، وشعر لاري أنه عار، كحيوان يُنظر إليه في حديقة. ثم ابتسم فمه، وأنزل زجاج النافذة.
- أمي؟

قالت بصوت مسطح غريب: «عرفتُ أنه أنت. اخرج من هنا، ودعني أرى كيف تبدو وأنت واقف».

كانت ساقاه خدرتين، شكَّته دبابيس التنميل من أسفل قدميه إلى أعلى وهو يفتح الباب ويترجل. لم يتوقع قط أن يقابلها هكذا، غير مستعد، مكشوفًا. شعر كأنه جندي خرَّ نائمًا في أثناء مناوبته، ونودي فجأة.

توقع بشكل ما أن تبدو أمه أصغر حجمًا، وأقل ثقة بنفسها. خدعة الأعوام التي أشاхته، وتركتها كما هي.

لكنَّ الطريقة التي عثرتُ عليه بها طريقة سخيفة. عندما كان في العاشرة، اعتادت أن توقظه في صباحات السبت بعدما تظن أنه نال كفايته من النوم من خلال طرقات بإصبعها على باب غرفة نومه المغلق. أيقظته بالطريقة نفسها بعد أربعة عشر عامًا وهو نائم في سيارته الجديدة كطفل منهك حاول أن يظل مستيقظًا طوال الليل، وعثر عليه النوم فجأة.

والآن وقف أمامها، شعره مشعث، وابتسامة خافتة حمقاء على وجهه. الدبابيس ما زالت تشكُّ ساقيه، فتجعله ينقل وزنه من ساق إلى أخرى. تذكر أنها كانت تسأله أكان يريد أن يذهب إلى دورة المياه عندما كان يفعل هذه الحركة، والآن يوقفها ويتحمل التنميل.

قال: «مرحبًا يا أمي».

نظرتُ إليه دون أن تقول شيئًا. صرخ الرعب في قلبه كطائر شرس عاد إلى عشه القديم. رعب من أن تتخلى عنه، تنكره، توليه ظهر معطفها الرخيص وترحل إلى قطار الأنفاق عند المنعطف وتتركه.

ثم زفرتُ، بالطريقة التي يزفر بها المرء قبل أن يحمل حمولة ثقيلة. وعندما تكلمتُ كان صوتها عاديًا للغاية، ومسرورًا إلى حد لا يكاد يلاحظ، وسرعان ما نسي انطباعه الأول.

- مرحبًا يا لاري. تعال إلى الأعلى. عرفتُ أنه أنت عندما نظرتُ من النافذة. لقد أبلغتُ عملي أنني مريضة.

استدارت تقوده خلال الدرج بين التمثالين المختلفين. صعد ثلاث درجات خلفها، يلحقها، يجفل لألم التجميل.

- أُمي.

التفتت إليه، فعانقها. للحظة ظهر على وجهها الذعر، كأنها توقعت أن تُضرب لا أن تُعانق، ثم اختفى الذعر، وتقبلت عناقه ومنحته ضمة كبرى. راحتها تسالت إلى أنفه، استفزّت ذكريات غير متوقعة، حادة، حلوة، مرّة. للحظة ظنّ أنه سيبيكي، وكان متأكّداً من أنها ستفعل. تلك لحظة مثيرة للشعور. من خلف كتفها اليمنى المنحنية رأى القط الميت، نصفه داخل صفيحة القمامة ونصفه خارجها. عندما ابتعد عنها كانت عيناها جافتين.

- تعال، سأجهز لك بعض الإفطار. هل كنت تقود طوال الليل؟

أجاب بصوت متحشرج بالشعور: «نعم».

- حسناً. تعال. المصعد معطل، لكنهما طابقان فقط. الوضع أسوأ بالنسبة إلى السيدة هاسلي والروماتويد الذي أصابها. هي في الطابق الخامس. لا تنس أن تمسح قدميك. لو لطخت المدخل فسيهبط علينا السيد فريمان كالطلقة. أقسم إنه يشم التراب. التراب عدوه طبعاً.

صارا على السلم الآن. أضافت: «هل يمكنك أن تأكل ثلاث بيضات؟ سأصنع توسّتا أيضاً إن كنت لا تمانع في خبز بابمبرنكل⁽¹⁾».

تبعها من بين التمثالين المختلفين، ونظر في تعجب بعض الشيء إلى المكان الذي كان فيه ليؤكد لنفسه فقط أنهما زالا، وأنه لم ينكمش قدمين، وأن عَقْد الثمانينيات قد اختفى حقاً في مجرى الزمن. دفع الضلفتين ودخلا. حتى الظلال البنية الداكنة ورائحة الطهو كما كانت.

طهت له أليس أندروُد ثلاث بيضات، وبيكونا، وتوسّتا، وعصيراً، وقهوة. عندما أجهز على كل شيء عدا القهوة، أشعل سيجارة، ودفع مقعده عن المنضدة. رمقت السيجارة بنظرة رافضة، لكنها لم تقل شيئاً. أعاد هذا إلى نفسه بعض ثقته.. بعضاً فقط، لكن ليس الكثير. لطالما برعت في تحيُّن فرصها.

وضعت الطاسة الحديدية الكبيرة في ماء غسل الصحون، فأطلقت هسيساً. فكر لاري في أنها لم تتغيّر كثيراً. كبرت بعض الشيء - فقد جاوزت الحادية

(1) نوع من الخبز الداكن القاسي (الترجمة)

والخمسین- وصارت أكثر رمادية، لكن ما زال داخل وشاحها الشبكي شعر أسود كثير. كانت ترتدي فستاناً رمادياً بلا تفاصيل، في الغالب هو الفستان الذي تعمل به. صدرها عارم كما كان، يزهر داخل أعلى الفستان. ربما صار أكبر. ماما، أخبريني بالحقيقة، هل كبر صدرك؟ هل هذا تغيير عادي؟

هز السيجارة فتساقط الرماد منها على طبق كوب قهوته، أبعدته ووضعت بدلاً عنه المنفضة التي تحتفظ بها دائماً في الخزانة. كان الطبق مبللاً بالقهوة، وبدا له أن لا بأس من استخدامه كمنفضة رماد. المنفضة نظيفة بلا بقعة واحدة، نفّض فيها السيجارة بهزات بسيطة. يمكنها أن تتحين الفرص كما تريد وتتلاعب به، فتلسعه بالحزام لساعات خفيفة حتى تُدْمي كعبيه، ويبدأ في الثرثرة.

قالت أليس وهي تضع صابون الأطباق في المقلدة لتغسلها: «إذن عُدت. ما الذي جاء بك؟».

حسنًا يا ماما، صديقي هذا وضع أمامي حقائق الحياة. الأوغادُ يسافرون قطعاً، وهذه المرة جاءوا في أعقابِي. لا أعرف أكانت كلمة أصدقاء ثلاثتهم. إنه يحترمني موسيقياً، لكن قدر احترامي أنا لفريق شركة لبان الفواكه 1910. لكنه حثني على انتعال حذاء السفر. أليس روبرت فروست هو قائل عبارة: البيت هو المكان الذي تُقبلُ بالدخول فيه؟

قال جهراً: «أعتقد أنني افتقدتك يا أمي».

نخرت وقالت: «لهذا كنت تكتب لي دائماً؟».

- لستُ كاتبَ خطاباتٍ جيداً.

نفّض السيجارة ببطء. تكونت عند طرفها حلقات الدخان، ثم انجرفت بعيداً.

- يمكنك أن تقول هذا مرة أخرى.

قال باسمًا: «لستُ كاتبَ خطاباتٍ جيداً».

- لكنك ما زلت تتذاكى على أمك. هذا لم يتغير فيك.

- آسف. كيف حالك يا أمي؟

وضعت المقلدة في الحوض، ونزعت سدادته، ثم مسحت فقايق الصابون المغزولة حول ذراعيها.

- ليس بهذا السوء.

اقتربت من المنضدة ثم جلست مضيفة: «ظهري يؤلمني أكثر. أواظب على أدويتي. كل شيء على ما يرام».

- ولم تخرج الأمور عن السيطرة منذ رحلت؟

- أوه، مرة. لكن دكتور هولمز اعتنى بالأمر.

- أمي، مقوّمو العظام هؤلاء...

ثم عضّ لسانه كي لا يضيف: «نصابون».

- ما بهم؟

هزّ كتفيه حول ابتسامته الجانبية وقال: «أنت امرأة بيضاء حرة، بلغت سنّ الحادية والعشرين. إن كان علاجهم يلائمك، فلا بأس».

تنهدت، ثم أخرجت كيس أقراص نعناع وينترجرين من جيب فستانها وقالت: «أنا أكبر بكثير من سن الحادية والعشرين، وأشعر بعُمري. هل تريد واحدة؟».

هز رأسه رفضاً لقرص النعناع، فأخرجت واحداً وألقت به إلى فمها. قال مجاملاً بطريقته القديمة المتزلفة: «ما زلت فتاة صغيرة بعد».

لطالما أحببت هذه الطريقة، لكنها الآن لم تجلبُ إلى شفتيها إلا شبح ابتسامة.

- هل من رجال جدد في حياتك؟

- عدد منهم. ماذا عنك؟

قال جاداً: «لا. ليس في حياتي رجال جدد. بعض الفتيات، لكن لا رجال».

أملّ ضحكة، لكنه لم يحظَ إلا بابتسامة شبحية أخرى. فكّر في أنه يُثقل عليها. هذا هو الأمر. إنها لا تعرف ماذا أريد، ولم تتوقع أن أظهر بعد ثلاث سنوات. لقد رغبت حقاً في أن أظل مفقوداً.

قالت: «لاري القديم نفسه. لا تتحدث بجد أبداً. هل خطبت؟ هل تواعد أحداً بانتظام؟».

- ما زلتُ ألتقط من كل بستان زهرةً يا أمي.

- لطالما فعلت. على الأقل لم تُعدْ إليّ مرةً بفتاة لطيفة كاثوليكية تقيم معها أسرة. أشهد لك بهذا. إما أنك حريص للغاية، وإما محظوظ للغاية، وإما مؤدب للغاية.

جاهد كي يحافظ على تعبير وجهٍ محايدٍ. هذه أول مرة في حياته تُناقش فيها معه أمورًا جنسية بشكل مباشر أو غير مباشر.

قالت أليس: «على العموم ستتعلم. يقولون إن العُزَّاب يحظون بالمتعة كلها. لكن الأمر ليس كذلك. ستكبر، وستمتلئ بالرمل والقاذورات مثل السيد فريمان. إنه يعيش في شقة الطابق الأرضي، ويقف في نافذتها دائمًا على أمل مرور نسمة قوية».

نخر لاري.

- أسمع أغنيكَ في الراديو. أقول للناس: هذا ابني، هذا لاري. أغلبهم لا يصدقونني.

- هل سمعتها؟!

تعجَّب من أنها لم تذكر الأمر في البداية بدلًا من الخوض في كل هذا الضغط النفسي.

- طبعًا. تستمع لها الفتيات الصغار طوال الوقت على محطة موسيقى الروك أند رول.

- هل أعجبتكِ؟

- كما تعجبني أيُّ من هذه الأغاني.

نظرتُ إليه في حدة وأكملت: «أعتقد أن بعض كلماتها تحمل إحياءاتٍ بذيئة».

وجد نفسه يحرك قدميه، فأجبر نفسه على التوقف.

- المفترض أن تبدو الكلمات.. عاطفيةً يا أمي. هذا هو كل شيء.

احتقن وجهه بالدماء. لم يتوقع قطُّ أن يجلس في مطبخ أمه، يناقش العواطف.

قالت في قسوة لتغلق أي نقاش عقلائي: «مكان العواطف غرفة النوم. بالإضافة إلى أنك فعلت شيئًا في صوتك. صار كصوت زنجي».

سألها: «كيف؟».

- يبدو كذلك في الراديو.

حوّل لاري صوته إلى طبقة صوت بل ويثرس العميقة وقال بلكنة السود:
«هذا الصوت البني؟».

أومأت: «نعم، هكذا. عندما كنتُ صغيرة، كنا نحسب فرانك سيناترا وقحًا.
والآن لدينا أغاني الراب. يُطلقون عليها راب، أليس كذلك؟ أطلق أنا عليها
أغاني الصراخ».

نظرتُ إليه في غضبٍ وأكملتُ: «على الأقل لا صراخ في أغنيتك».

- أحصل على حق إذاعة. نسبة مئوية من كل ألبوم أبيعه. يدخل لي مبلغ...
أشارت بيدها كأنها تهش ذبابة وقالت: «أوه، أكمل. لستُ بارعة في
الحساب. هل دفعوا لك بعد، أم اشتريتَ سيارتك الصغيرة هذه بالدين؟».
حوّم حول حافة الكذب، لكنه لم يقع فيها، فقال: «لا يدفعون لي الكثير.
دفعْتُ مقدم السيارة والباقي على أقساط».

- آه، بالتقسيط المريح. هكذا أفلس أبوك. قال الطبيب إنه مات بأزمة
قلبية، لكن لم يكن الأمر كذلك. لقد مات مفطور القلب. لقد ذهب أبوك
إلى قبره بالتقسيط المريح.

هذا حديث قديم، تركه لاري يمر من جواره، وأوماً في المواضيع المضبوطة.
كان لأبيه دُكان خردوات، وافتتحوا بالقرب منه متجر روبرت هول الكبير،
فتدهورت تجارتُه خلال عام. لجأ إلى الطعام تعزيةً، وزاد وزنه 110 أرطال
في ثلاثة أعوام. سقط ميتاً في مطعم صغير عندما كان لاري في التاسعة،
ونصف شطيرة كفتة في طبقه. بعدها، حاولتُ خالته التسرية عن أمه
المكلومة التي لم تبدُ كذلك، قالت إن الوضع كان سيصير أسوأ، ونظرتُ من
فوق كتف أختها إلى زوجها الذي يشرب كثيراً.

استحوذتُ أليس على لاري، وتحكمتُ في حياته بحكمها وأمثالها حتى
غادر البيت. آخر ملاحظة قالتها له وهو يركب سيارة رودي شوارتز ليرحل.
قالت إن في كاليفورنيا منازل فقراء أيضاً. نعم، هذه هي أُمي التي أعرفها.

سألتَه بهدوء: «هل تودُ أن تمكث هنا يا لاري؟».

تفاجأ، لكنه قال: «هل تمنعيني؟».

- لديّ مكان. الفراش القابل للطّي في غرفة النوم الخلفية. أنا أخزّن الأغراض فيها، لكنّ يمكنك تحريك بعض الصناديق وتوسّعة المكان.
قال ببطء: «حسنًا. إن كنت متأكّدة من أنك لا تمانعين. سأمكث هنا أسبوعين تقريبًا، وأفكر في البحث عن أصدقاء قدامى. مارك.. جالين.. ديفيد.. كريس.. هؤلاء الرفاق.

قامت واتجهت إلى النافذة تفتّحها.

- أنت مُرحّب بك يا لاري، امكث كما تريد. لستُ بارعة في التعبير عن نفسي ربما، لكنني مسرورة لرؤيتك. لم تودّعني كما يليق، ودارت بيننا كلمات قاسية.

ثم التفتت فرأى وجهها. ما زال جامدًا، لكنه أيضًا مليء بحب رهيب مكبوت.
- من جانبي، أندم عليها. لقد قلتُ هذه الكلمات لأنني أحبّك. لم أعرف كيف أعبر بطريقة صحيحة، فخرج مني الكلام على عكس ما أردتُ.

قال بوجه محمر وهو ينظر إلى المنضدة: «لا بأس. اسمعي.. سأشارك في المصاريف».

- افعلي لو أنك ترغب في هذا، إن كنت لا ترغب فلست مجبرًا. أنا أعمل وآلاف لا يعملون. ما زلتُ ابني.

تذكر القط المتصلب، نصفه داخل صفيحة القمامة ونصفه خارجها، وتذكر ديوي الأحمق يبتسم ويُضيّف الأصدقاء، ثم انفجر باكياً فجأة. غامت يداها عن نظره خلف الدموع، وفكر في أن شيئاً لن يعود كما كان. لا شيء. لقد تغيّرت، وتغيّر هو لكن ليس كما توقّع. تبادل أدوار غير طبيعي. لقد كبرت، وتضاءل هو بشكل ما. لم يعد إلى البيت لأنه يحتاج إلى زيارة بعض الرفاق، بل عاد لأنه خائف ويحتاج إلى أمه.

وقفتُ جوار النافذة المفتوحة تراقبه. يداعب الهواء الستائر البيضاء فتخفي شيئاً من وجهها عنه، تجعلها تبدو كأنها شبح. تناهى إليه صوت السيارات بالخارج. أخرجتُ مندليها القماشي، ووضعتُه في كفه. ثمة شيء قاسٍ في لاري، لكنها لا تستطيع تحديده. لقد كان أبوه رقيقًا، وفي أعماق قلبها كانت تعرف أن رقة قلبه هي ما أرسلته إلى القبر. لطالما كان ينفق أكثر مما يكسب. إذن، مَنْ قد يلومه لاري أو يشكره سواه؟

لم تغيرُ دموعه القسوةَ الحجريةَ في شخصيته، أكثرَ مما تُلطّف الحرّ سحابةُ صيفٍ واحدةٍ. عرفتُ أن لهذه القسوةَ مزايا، عرفتُ لأنها امرأةٌ ربّت ولداً وحدها في مدينة لا تعبأ بالأمهات ولا أولادهنَّ.. لكنّ لاري لم يعثرَ على مزيةٍ للقسوة بعد. إنه كما قالت: لاري القديم نفسه. ينطلق بلا تفكير، ويوقع نفسه والناس في المشكلات، وعندما تسوء المشكلات يلجأ إلى القسوة ليُخلّص نفسه. ماذا عن الآخرين؟ يتركهم ليغرقوا، أو يسبحوا بمفردهم. الصخور قاسية، وثمة قسوة في شخصيته، لكنه يستخدمها للتدمير. ترى هذا في عينيه، وتقرأه في كل لفظة.. حتى في تلك الطريقة التي يمسك بها عود السرطان اللعين هذا وينفث دخانه على هيئة حلقات في الهواء. هو لم يشدّب قسوته ليطعن بها الناس، وهذا جيد، لكنّ عندما يحتاج إليها يضرب بها كطفل حانق حتى يخرج نفسه من الفخ. في مرة قالت لنفسها إن لاري قد يتغير، قالت إنه قد يتغير.

لكنّ مَنْ أمامها لم يعدُ صبياً، هذا رجل بالغ، وخشيتُ أن وقت التغيير -تغيير الروح الجوهري كما قال القس مرة- قد فاته. ثمة شيء في لاري يجعلك تقشعر كأنك تسمع صوت احتكاك طبشور بلوح كتابة. لا شيء في نفسه سواه، ولا يسمح لأحد بالدخول إلى قلبه إلا نفسه. لكنها أحبته.

أمنتُ أيضاً أن فيه خيراً في مكان ما، لكنه يحتاج إلى كارثة عظيمة كي يظهر. لكنّ ليست من كارثة في الأفق. قالت له: «أنت مُرهق. اغتسل، وسأحرك الصناديق إلى الجانب عندما ترغب في النوم».

قطعتِ الممرَّ القصيرَ إلى الغرفة الخلفية، غرفته القديمة، وسمعتها تُحرّك الصناديق بصعوبة. مسح عينيه ببطء. صوت الزحام يصل إليه من خلال النافذة. حاول أن يتذكر آخر مرة بكى فيها أمام أمه. فكر في القط الميت. إنها مُحقّة، هو مرهق. لم يُصبْ بإرهاق كهذا من قبل. ذهب أخيراً إلى الفراش ونام ثمانية عشر ساعة.

الفصل السادس

في آخر وقت ما بعد الظهر، خرجتُ فراني إلى حيث ينقي أبوها الحشائش الضارة من البازلاء والبقول. أنجبها في الكبر، وهو الآن في الستينيات، يخرج شعره الأبيض من أسفل قبعة البيسبول التي يعتمرها دائماً. كانت أمها في بورتلاند، تشتري قفازاً أبيض. صديقة عُمر فراني، آمي لودر، ستتزوج في بداية الشهر القادم.

نظرت إلى ظهر أبيها للحظات هادئة مُحِبَّة. يتخذُ الضوء في هذا الوقت من اليوم جمالاً خاصاً تحبه، جمالاً ليس في مكانٍ إلا في مَين وصيفه. أحياناً تفكر في درجة لون هذا الضوء في منتصف يناير، فيوجعها قلبها. ضوء بعد ظهيرة الصيف ضارب إلى الدُّكْنَة، يحمل الكثير من الذكريات؛ لعب البيسبول في متنزه ليتل ليج، البطيخ، أول حصاد الذرة، الشاي المثلَّج في زجاجات باردة، الطفولة.

جلتُ فراني حنجرتها وقالت: «هل تريد مساعدة؟». التفتت باسمًا وقال: «مرحباً فران».

ثم عقد حاجبيه وقال شاردًا: «هل عادتُ أمكِ بعد؟»، ثم أضاف وقد صفا وجهه: «لا، هذا صحيح. لقد خرجتُ للتو، أليس كذلك؟ ساعديني إن أردتِ، لكن لا تنسي أن تغتسلي بعد ذلك».

قالت فراني مازحة: «يد المرأة عنوان عاداتها».

جثتُ عند الصف المجاور له، وبدأتُ تقطع الحشائش. زقزقت العصافير، وهممت السيارات على طريق US 1 القريب. لم يصلُ بعد إلى حد الضجيج المألوف عنه في يوليو، عندما يقع عليه حادثٌ مميت كل يوم ما بين هنا وكيثري.

أخبرها بيتر عن يومه، وسألته الأسئلة المناسبة وأومات حيث كان عليها أن تومئ. كان منهمكاً في العمل فلم يرَ إيماءاتها، لكنه لمح حركة ظلها بركن عينية. عمل ميكانيكياً في مؤسسة قطع غيار كبرى في ستانفورد، أكبر مؤسسة قطع غيار في شمال بوسطن. بلغ الرابعة والستين، وبدأ في العام الأخير له في العمل قبل التقاعد، وهو عام قصير لأنه سيأخذ إجازة أربعة أسابيع من إجازاته السنوية المؤجلة خلال السنوات، وقد خطط لأن تكون في سبتمبر، بعدما يعود المصطافون الحمقى إلى بيوتهم. ظل يفكر كثيراً في التقاعد، وحاول ألا ينظر إليه كإجازة لا تنتهي. قال لها إن لديه أصدقاء متقاعدين كثر، أخبروه أن الأمر ليس كذلك على الإطلاق. لا يعتقد أنه سيمثل مثل هارلن إندرز، ولن يصير فقيراً مثل كارون أو بول المسكين الذي اضطر هو وزوجته إلى بيع بيتهما والانتقال للعيش مع ابنتهما وزوجها.

لم يقتنع بيل جولدسميث بالتأمين الاجتماعي، ولم يثق به قط، حتى قبل أيام انهيار النظام تحت وطأة الركود والتضخم وزيادة عدد العاطلين. لم يكن في مَن ديموقراطيون كثيرون في حقبتَي الثلاثينيات والأربعينيات، هكذا أخبر ابنته المُصغية، لكنَّ جدها كان منهم، وجعل أباه ديموقراطياً مثله.

في أيام خير أوجنكويت، جعل هذا الانتماء آل جولدسميث منبذين، لكن كانت لأبيه حكمة عتيقة عفاها الزمن من حكم فلاسفة الجمهوريين: لا تضع ثقةً بأمراء هذا العالم، لأنهم سيغتصبونك هم وحكوماتهم حتى لو كنت في آخر الأرض.

ضحكتُ فراني. إنها تحب الطريقة التي يتكلم بها أبوها عن أبيه، وهي الحرية التي يتكلم بها ولا تتقبلها أمها -زوجته- التي ستحرقه بالحمض الذي يقطر من لسانها.

قال لها إن على المرء أن يثق بنفسه، وأن يدع أمراء هذا العالم يمرحون مع من انتخبهم. هذا وضع سيئ، لكن بشكل ما يستحق كل منهما الآخر.

- الحل في السيولة. قال ول روجرز إن الحل في الأراضي لأنه الشيء الوحيد الذي لم يعودوا ينتجون، لكنَّ هذا المفهوم ينطبق على الذهب والفضة. الرجل الذي يحب المال وغد مكروه. الرجل الذي لا يستطيع الحفاظ عليه أحق، لا تكرهه لكنك تشفق عليه.

تساءلت فران أكان يفكر في بول كارون المسكين، الذي كان صديقه من قبل أن تولد هي، لكنها قررت ألا تسأل. هي لا تحتاج إلى أن يقول إنه ادخر

كثيرًا كي يعولهم. لطالما كان يُكرَّر لها أنها لم تكن عبثًا عليه قَطُّ، في السراء والضراء، وكان يفخر أمام أصدقائه بأنه أرسلها إلى المدرسة، وقال لهم أيضًا إن ما عجز ماله وعقلها عن إنجازهِ، حصَّلته بالعمل وانحناء الظهر. لم تفهم أمها هذا دائمًا. التغيرات تطرأ على المرأة سواء أرادت أم لا، وصعب على كارلا أن تستوعب أن فران لم تلتحق بالجامعة لتصطاد زوجًا قبل أن تلتحق التغيرات بجسدها.

قال بيتر: «لقد رأيت أمي لودر تتزوج، وترى أنك تستحقين أن تكوني مكانها. أمي جميلة، لكن لو قارنتها بفراني خاصتي ستبدو كصحن قديم مشروخ. هكذا كانت تقول لي أمك دائمًا، ولن تتغير الآن. عليك أن تتذكري هذا يا فراني. أنت كبيرة كفاية لتفهمي».

ثم عاد إلى عمله مرة أخرى، وراح يحكي لها كيف كاد أحد زملائه يفقد إبهامه مهروسة لأنه كان شاردًا، من حسن حظه أن ليستر كراولي جذب إصبعه في الوقت المناسب. ثم أضاف في حزن أنه سيأتي يوم لن يكون فيه ليستر كراولي هناك في المصنع، ثم زفر كأنه تذكر أنه أيضًا لن يكون هناك، ثم صفا مرة أخرى وراح يحكي لها عن فكرة هوائي سيارة مخفي داخل زينة غطاء المحرك.

تغيرت نبرة صوته من موضوع إلى موضوع، واستطال ظلاهما يمتد إلى صفوف النباتات أمامهما. لطالما هدأها هذا المنظر. كانت قد جاءت لتقول شيئًا، واعتادت طوال عمرها أن تأتي لتقول، لكنها تمكث وتصغي في النهاية. لم يشعرها قَطُّ بالملل، وعلى حد علمها لم يَمَلَّ منه أحد ربما باستثناء أمها. هو حگاء بارع.

أدركت أنه توقف عن الكلام، وجلس على صخرة عند نهاية صفه، يحشو غليونيه وينظر إليها.

- فيم تفكرين يا فراني؟

نظرت إليه لحظاتٍ في غباء، غير واثقة من أين تبدأ. لقد جاءت تخبره، والآن لا تعرف أكانت مستعدة. تعلَّق الصمت بينهما وراح يتضخم، وصار في النهاية غير محتمل.

قالت ببساطة: «أنا حامل».

توقف عن حشو غليونه ونظر إليها فقط. كرّر الكلمة كأنه لم يسمع بها من قبل.

- حامل؟ أوه يا فراني.. هل هذه مزحة؟ أو لعبة؟

- لا يا أبي.

- الأفضل أن تقتربي وتجلسي إلى جواري.

في طاعة قامت عن الصف وجلست جواره. ثمة سور صخري يفصل أرضهم عما جوارها. خلف السور شجيرات متشابكة ذات رائحة حلوة، تغوّلت حتى غطّت كل شيء. طنّ رأسها وشعرت بالغثيان. سألتها: «متأكدة؟».

- متأكدة.

وبدأت تبكي بكاء لا تتحكم فيه، بلا ذرة اصطناع. ضمها بذراع واحدة إلى ما بدا لها وقتاً طويلاً. عندما بدأت دموعها تقل، أجبرت نفسها على إلقاء السؤال الذي أهمّها.

- أبي، أما زلت تحبني؟

نظر إليها في حيرة وقال: «ماذا؟ طبعاً أحبك يا فراني».

جعلها هذا تبكي مرة أخرى، لكن هذه المرة تركها تعتني بنفسها فيما يحشو هو غليونه. بدأ دخان تبغ بروگم ريف يتصاعد تدريجياً، وتجرفه النسيمات. سألته: «هل خاب أملك فيّ؟».

- لا أعرف. لم تكن لي ابنة حامل من قبل، ولا أعرف كيف أتقبل الأمر. هل هو چيس هذا؟

أومأت إيجاباً.

- أخبرته؟

أومأت مرة أخرى.

- ماذا قال؟

- قال إنه يريد أن يتزوجني، أو يدفع أجر طبيب للإجهاض.

قال بيتر جولد سميث: «الزواج أو الإجهاض. إنه سام ذو المسدسين⁽¹⁾ المتوقع».

نظرتُ إلى كفيها المفرودتين على سروالها الجينز. التراب يوسخ أثناء أصابعها وما تحت أظفارها. يدا المرأة عنوان طباعها، هكذا رددتِ الأم في ذهنها. ابنة حامل. يجب أن أعزل كنيستي. يدا المرأة..

قال أبوها: «لا أريد أن أجعل الأمر تدخلًا في أمور شخصية أكثر مما يجب.. لكن.. هل كنتِ.. أو كان هو.. حريصين؟».

- كنتُ أواظب على أقراص منع الحمل. لكنها لم تعمل.

- إذن لا يسعني إلا أن ألومكما معًا. ولا يمكنني فعل ذلك يا فراني. لا أستطيع اللوم. لأعوامي الأربعة وستين طريقتها في نسيان حياة ذوي الحادي والعشرين عامًا. لذا لن نتحدث عن اللوم.

شعرتُ فراني براحة كبرى تغمرها، حتى كادت تفقد الوعي.

- سيكون لأمك الكثير مما ستقوله عن هذا، ولن أمنعها، لكنني لن ألومكِ معها. هل تفهمين هذا؟

أومأت. لم يحاول أبوها من قبل معارضة أمها. ليس جهزًا. لسانها حامضي، يخرج عن السيطرة إن عارضها أحد كما قال لفراني في مرة. وعندما يخرج عن السيطرة تجلد به أي شخص، ثم تفكر في ما فعلته بعد فوات الأوان. لدى فراني خلفية عن مواجهة أبيها خيارًا هامًا منذ سنوات؛ الطلاق أو الاستسلام، واختار الأخير.. لكن بشروطه.

سألته بهدوء: «هل أنت واثق من أنك قادر على عدم التدخل يا أبي؟».

- تطلبين مني الوقوف في صفك؟

- لا أعرف.

- ماذا ستفعلين؟

- مع أمي؟

- لا، مع نفسك يا فراني.

- لا أعرف.

(1) Two gun sam

شخصية كرتونية ذات ردود أفعال حادة (المترجمة)

- ستتزوجينه؟ يمكن لاثنتين أن يعيشا بميزانية واحد، هكذا يقولون على أي حال.

- لا أعتقد أنني أستطيع ذلك. أعتقد أنني لم أعد أحبه، كأنني لم أحبه من قبل قط.

تصاعد دخانُ الغليونِ ذو الرائحة السكرية في هواء الصيف وهو يسألها: «بسبب الطفل؟».

احتشدتِ الظلال في حُفَرِ الحديقة، وعلا صرير صراصير الحقل.

- لا. الحمل ليس السبب. كان ليحدث على أي حال. إن چيس...

ثم صممتُ تحاول أن تضع يدها على ما لا يعجبها في چيس، ذلك الشيء الذي تعاضم في عينيها مع الحمل، أو مع المطالبة باتخاذ قرار في وقت قليل تحت تهديد ظل أمها، التي هي الآن في السوق التجاري تشتري قفازًا أبيض لحضور زفاف صديقة طفولة فراني. الشيء المدفون الآن والذي سيظل كذلك ستة أشهر، أو ستة عشر شهرًا، أو ستًا وعشرين، لكنه سيُبعث يومًا ليقفز في وجهيهما. تزوجي بسرعة واندمي على رسلِك. واحدة من مقولات أمها المفضلة.

- إنه ضعيف. لا أستطيع أن أشرح أكثر من هذا.

- أنت لا تثقين بأنه سيتحمل المسؤولية، أليس كذلك يا فراني؟

- لا.

فكرتُ في أن ما قاله أبوها أقرب إلى جذر المشكلة مما قالتها. هي لا تثق بچيس الذي جاء من أسرة ثرية ويرتدي قمصانًا باهظة.

- نوايا چيس حسنة، ويريد أن يتخذ القرار الصائب حقًا. لكن... حضرنا

ندوة شعر منذ شهرين، المتحدث فيها رجل يُدعى تِد إنسلِن. كان المكان مزدحمًا، والكل يصغي في هدوء.. وبحرص.. كي لا يفوتوا كلمة. وأنا.. أنت تعرفني...

لف حولها ذراعه وقال: «قهقهتِ يا فراني...».

- نعم.. هذا صحيح. أنت تعرفني جيدًا.

- أعرف القليل.

- القهقهات.. خرجت مني دون قصد. بدا لي بائسًا وظللتُ أردد في عقلي: جئنا نصغي إلى هذا البائس، وظلتُ العبارة تتردد كأغنية تسمعها في الراديو. فضحكتُ. لم أقصدُ. لم أكنُ أقصدُ أي شيء له علاقة بشعر السيد إنسلن، بل بالطريقة التي ينظرون إليه بها.

نظرتُ إلى أبيها لتبين كيف يتقبل الأمر، فأومأ لها كي تكمل.

- على أي حال، اضطررتُ إلى أن أخرج من الندوة. أعني، أنني كنت مضطرةً حقًا. غضبَ جيس مني. أعرف أن لديه حقًا في هذا.. ما فعلته طفولي، وما شعرتُ به طفولي. أنا متأكدة.. لكن هذه شخصيتي عادة. ليس دائمًا. يمكنني أن أتولى مسؤولية....

- نعم، تستطيعين.

- لكن أحيانًا...

- أحيانًا يطرق الضحك بابك، وأنت ممن لا يستطيعون تركه يقف بالخارج.

- أعتقد أن عليَّ أن أتركه. عمومًا جيس ليس مثلي. ولو تزوجنا.. سيظل يعود إلى المنزل ليجد الضيف غير المرغوب فيه، الذي لا أنفكُ أدعوه. ليس كل يوم، لكن باستمرار إلى درجة تثير حنقه. ثم سأحاول.. و... وأعتقد...

- أعتقد أنك ستكونين تيسة.

ثم ضمها بيتر بقوة.

- أعتقد هذا.

- لا تسمح لي لأملك بأن تضغط عليك للموافقة إذن.

أغمضتُ عينيها، وشعرت براحة أكبر هذه المرة. لقد فهمها بمعجزة ما. سألته بعد حين: «ما رأيك في أن أجري عملية إجهاض؟».

- رأيي أن هذا ما كنتِ تريدين الحديث عنه من البداية.

نظرتُ إليه مدهوشةً. نظر إليها بدوره نصف متسائل، نصف باسم، بحاجب مشعَّت مرتفع. تعبير وجهه النهائي بالنسبة إليها كان جادًا للغاية.

- ربما لديك حق.

- أنصتي.

قالها ثم صمت في تناقض واضح لما قال. لكنها كانت تنصت، وسمعت صوتَ عصفور، وصراصير حقل، وهمهمة طائرة بعيدة، وأحدهم ينادي جاكى، وصوت آلة جز حشائش، وسيارة تنطلق على الطريق السريع.

كادت تسأله أكان بخير، لولا أمسك يديها وقال: «فرانى، لا ذنب لك في أن يكون والدك مسنّاً إلى هذه الدرجة، لكنّ ليس الأمر بيدي. أنا لم أتزوج إلا عام 1956».

نظر إليها مليّاً ثم أضاف: «كانت كارلا مختلفةً في تلك الأيام. كانت... أوه، يا للجحيم، كانت صغيرة. لم تتغير هكذا إلا عندما تُوفّي أخوك فريدي.. حتى وقتها كانت صغيرة لا تتصوري يا فرانى أنني أتحدث بالسوء عنها حتى لو بدا لك أنني أفعل. لكن بدا لي أن كارلا قد توفقت عن.. النمو.. منذ وفاة فريدي. راحت تطلي ما حولها بطبقات طلاء فوق بعضها حتى تنظر إليها وتغمغم: معقول. والآن هي كحارس متحف، لا تطيق أن ترى أحداً يعبث بأفكارها المعروضة فيه. تنظر إليهم نظرة متعالية. لم تكن هكذا من قبل. خذي كلمتي، لم تكن هكذا».

- كيف كانت يا أبي؟

نظر خلال الحديقة في شروود وقال: «كانت مثلك يا فرانى. تقهقه ضاحكة. كنا نذهب إلى بوسطن دائماً لمشاهدة فريق الريد سوكس يلعب، وخلال الاستراحات نخرج لشرب البيرة».

- أُمي.. تشرب البيرة؟

- نعم. وتمضي باقي الاستراحة في دورة المياه وتلعنني لأنني تسببتُ في تأخرها عن المتابعة، مع أنها هي التي طلبت مني البيرة. حاولتُ فرانى تخيلُ أمها بكوب بيرة ناراجانسييت في يدها، وتتنظر إلى أبيها مقهقهة كفتاة في موعد غرامي. ببساطة لم تستطع تخيلها.

- لم تحمل. فذهبنا إلى طبيب لنرى من فينا سبب المشكلة، فقال الطبيب إن كلينا بخير. ثم في عام 1960 جاء أخوك فريد. أحببتُ هذا الولد حدّ الموت يا فرانى. أسمته باسم أبيها، أنت تعرفين. أجهضت عام 1965، وتصورنا أنها النهاية، ثم جئتُ إلى العالم عام 1969 قبل شهر من موعد ولادتك، لكنك كنتِ بصحة جيدة. وأحببتكِ أنا حدّ الموت. كان لكل منّا طفله، لكنها فقدتُ طفلها.

جلس في سكيينة صامتاً. مات فريد جولد سميث عام 1973. كان في الثالثة عشرة وفراني في الرابعة. الرجل الذي صدم فريد بسيارته كان ثَمَلًا، وله صحيفة سوابق منها مخالفات سرعة والقيادة مخمورًا. عاش فريد سبعة أيام بعدها.

قال بيتر جولد سميث وشفته تتحركان ببطء مع كل كلمة: «الإجهاض تسمية نظيفة لوأد الأطفال ببساطة. آسف لقول هذا، ولكوني.. متصلب الرأي.. بشأن تصرف تفكرين فيه لأن القانون أجازه. لقد قلت لك إنني مسن». غمغمت: «أنت لست مسنًا يا أبي».

قال في خشونة: «بل أنا مسن! أنا رجل مسن يحاول إسداء نصيحة لابنته الشابة، كأنني قرد يحاول تعليم دب آداب المائدة. سائق ثمل أخذ روح ابني منذ سبعة عشر عامًا، وزوجتي لم تعد كما كانت من قبل. دائمًا ما أرى الإجهاض في ضوء ما حدث لفريد. لا حيلة لي في أن أراه بأي شكل مختلف، بلا حيلة مثلك أمام وقف قهقهاتك يا فراني. ستجادلك أمك بشأنه استنادًا إلى كل الأسباب القياسية. ستكلمك عن الأخلاق. الأخلاق التي تعود إلى ألفي سنة مضت. ستكلمك عن الحق في الحياة. كل أخلاقياتنا الغربية تعتمد على هذه النقطة. قرأت في الفلسفة كثيرًا، طفتُ بين كتبها كامرأة تطوف بأرفف البقالة تنتقي منها وتقارن. لم تقرأ أمك سوى الجرائد، لكنني في النهاية أجادل أنا استنادًا إلى العواطف وهي استنادًا إلى العرف الأخلاقي. أنا لا أرى إلا فريد الذي دمر الحادث جسده. لم تكن أمامه فرصة للنجاة. مناهضي حقوق الحياة يرفعون صورَ الأجنة الغارقة في الملح، بأطرافهم الممزقة على المناضد المعدنية. ثم ماذا؟ إنهاء الحياة ليس جميلًا أبدًا. أنا أرى فريد، ممددًا على الفراش سبعة أيام. كل ما أصيب منه ملفوف في ضمادات تثبتها إلى جسده. الحياة رخيصة، والإجهاض يجعلها أرخص. أنا أقرأ أكثر منها، لكنها هي الأقدر على الحديث العقلاني عن الأمر. ما نفعل وما نعتقد.. كلها أمور مبنية على أحكام مستبدة حتى إن كانت صحيحة. لا يمكنني تخطي الأمر. كأنه حجر في حلقي. كم يتضاءل المنطق أمام اللاعقلانية، أمام الإيمان. لا يبدو أن لكلامي معنى، أليس كذلك؟».

قالت فراني: «لا أريد الإجهاض. لأسبابي الخاصة».

- ما هي؟

قالت وهي ترفع ذقنها قليلاً: «طفلي هو أنا جزئياً. لو أن هذا تضخم ذات، فلا أبالي».

- هل ستتخلين عنه للتبني يا فراني؟

- لا أعرف.

- هل تريدین ذلك؟

- لا. أريد الاحتفاظ به.

صمت قليلاً، وظننت أنها استشعرت رفضه. سألته: «أنت تفكر في دراستي، أليس كذلك؟».

- لا.

قام وأسند أسفل ظهره إلى كفيه، ومال إلى الخلف يقطع فقراته.

- أعتقد أننا تحدثنا كفاية، وليس عليك أن تتخذي القرار على الفور.

- أمي عادت.

التفت إلى ما تنظر إليه، ليرى السيارة تدخل إلى الممشى، معدنها يلمع في ضوء آخر النهار. رأتهما كارلا فأطلقت النفير، ولوحت في سعادة.

قالت فراني: «يجب أن أخبرها».

- نعم. لكن امنحي الأمر يوماً أو اثنين.

- حسناً.

ساعدته في جمع أدوات البستنة، وسارا معاً نحو السيارة.

الفصل السابع

في الضوء الخافت الذي غطى الأرض بعد الغروب مباشرة، وقبل الظلام، وخلال واحدة من الأوقات التي يطلق عليها صناع السينما «ساعة السحر»، استفاق فيك بولفري من هذيانه الأخضر لوقت قصير.

فكر في أنه يموت، وظلت الفكرة ملتصقةً بعقله، فجعلته يظن أنه جَهَر بها حقًا، إلا أنه لم يفعل. نظر إلى ما حوله فرأى فراشَ مستشفى ظهره مائلًا كي يمنع رثتيه من إغراقه. جانبا الفراش مرتفعان، وهو مثبت بمشابك نحاسية. فكر: «يبدو أنني كنت مهتاجًا بعض الشيء. كنت أركل.. أين أنا؟». حول عنقه مريولة، والمريولة مغطاة بكتل البلغم. رأسه يؤلمه. أفكار غريبة ترقص في عقله، وأدرك أنه كان يخرف.. وسيخرف مرة أخرى. إنه مريض، وهذا ليس شفاءً أو بداية شفاء، بل هي مهلة قصيرة.

وضع رسغَه على جبينه، ثم أبعدَه مجفلاً كما يُبعد المرء يده عن فرن ملتهب. إنه يستعر، لا بأس. جسده مغطى بالخراطيم، اثنان شفافان يخرجان من أنفه، وواحد يخرج من أسفل الغطاء، موصول بزجاجة على الأرض، ومعروف طبعًا أين طرفه الآخر. زجاجتان معلقتان من حامل جوار الفراش، يخرج من كل منهما خرطوم رفيع، يتحدان في النهاية ليدخلا إلى ما تحت كوعه؛ خراطيم تغذية وريدية.

فكر في أن هذا يكفي لتحسين حالته، لكنَّ ثمة أسلاك مثبتة إلى فروة رأسه، وصدره، وذراعه اليسرى، وواحد منها مثبت إلى سُرته اللعينة. صار الآن متأكدًا أن شيئًا مندسًا في شرجه أيضًا. ماذا قد يكون؟ مراقب الغائط؟

- مهلاً!

انتوى أن يصيح صيحةً رنانةً ساخطةً، لكنَّ ما خرج منه كان همسةً ضعيفةً من رجلٍ عليلٍ، محاطةً من كلِّ جانبٍ بالبلغم الخانق.

ماما، هل أدخل جورج الحصان؟

كان هذا حديث التخاريف. خاطر لا عقلاني يهبط بسرعة النيازك ليضرب التعقل. لن يظلَّ متيقظًا طويلًا. ملأته الفكرة بالذعر. بالنظر إلى ذراعيه النحيلتين كعودين، يبدو أن وزنه ليس أكثر من ثلاثين رطلًا، وهو لم يكن ذا وزن يُذكر من الأساس. هذا الـ... أي كان.. يقتله. فكرة أن يموت وهو يخرف أفزعته.

جورج خرج بصحبة نورما ويليز. أدخل أنت الحصان بنفسك يا ثيك، ولا تنسَ تثبيت كيس طعامه على قم.

هذا ليس عملي.

فيكتور، أنت تحب ماما. هيا الآن.

أحبك، لكن..

يجب أن تحب ماما الآن. ماما تعاني الإنفلونزا.

لا يا ماما. أنت تعانين السلّ. السلُّ هو ما قتلِك عام 1947، وسيموت جورج بعد ستة أيام من وصوله إلى كوريا، وهو وقت كافٍ لكتابة خطاب واحد، ثم بانج بانج بانج..

ثيك، ساعدني الآن وأدخل هذا الحصان، هذا آخر كلام عندي.

همس: «أنا الذي أعاني الإنفلونزا، لا هي. أنا...».

كان ينظر إلى الباب، ويفكر في أنه باب غريب بالنسبة إلى مستشفى. الباب منحني الزوايا، محاط ببرشام معدني مكوّر، وعضّادته السفلية بارتفاع ست بوصات أو أكثر من الأرضية. حتى إن نجّارًا هاويًا مثل ثيك بولفري...

(أعطني المجلات المصورة يا ثيك. إنها معك منذ وقت كافٍ...)

(ماما، لقد أخذ قصصي! هاتهم! هاتهم!)

...يمكنه أن يصنع أفضل منها. شيء في هذا الخاطر دقّ مسمارًا في عقله، فحاول ثيك أن يجلس كي يرى الباب أفضل. إنه فعلاً باب معدني. لماذا وضعوه في مستشفى خلف باب معدني؟ ماذا حدث؟ هل يموت حقًا؟ هل الأفضل أن يفكر في ما سيقوله عندما يقابل الرب؟ إلهي، ماذا حدث؟ حاول

جاهدًا كي يزيح الغيمة الرمادية عن تفكيره، لكنَّ الأصوات ظلت تتردد من بعيد في عقله، أصوات بلا أسماء.

ما أقول الآن هو، أن عليهم أن يقولوا: إلى داهية خراء التضخم هذا، وإلى داهية خراء الدَّين القومي.

الأفضل أن تغلق المضخات يا هاب.

(هاب؟ بل هابسكوم؟ من يكون؟ أعرف واحدًا بهذا الاسم)

لقد ماتا...

أعطني يدك وسأجذبك وأخرجك من هنا!

أعطني المجلات يا فيك...

في هذا اللحظة، كانت الشمس قد غاصت إلى ما خلف خط الأفق، فشغلت دائرة إلكترونية مستشعرة للضوء (في هذه الحالة الدائرة مستشعرة لغياب الضوء) فأضيئت الأنوار في غرفة فيك. وتحت الضوء رأى صفوف الوجوه التي ترمقه في كآبة من خلف طبقتي زجاج، فصرخ في البداية ظنًا منه أن هؤلاء هم أبطال حواراته العقلية. أحد الواقفين -رجل في ملابس الأطباء البيضاء- كان يومئ في خطورة لآخر خارج مجال رؤية فيك، لكنَّ فيك كان قد تخطى ذعره. إنه أضعف من أن يظلَّ مرتعبًا مدة طويلة، لكنَّ الذعر تزامن مع سطوع الأضواء المفاجئ ورؤية الوجوه المكددة (كأشباح هيئة مُحلفين في ملابس المستشفى البيضاء)، فأجلى بعض غيام عقله وعرف أين هو. أتلاتنتا.. أتلاتنتا، جورچيا. لقد جاءوا وأخذوه هو وهاب ونورم، وزوجة نورم وابني نورم، وأخذوا أيضًا هانك كارمايكل، وستو ريدمان، ويعلم الرب مَنْ أخذوا من آخرين. كان فيك مذعورًا وناقمًا. إنه يعاني طبعًا السعال والعطس، وبالتأكيد ليس مصابًا بالكوليرا أو أيًا كان ما أصيب به كامبيون وأسرته. أصيب أيضًا بالحمى، ويتذكر أن نورم برويت تعثر واحتاج إلى مساعدة لصعود الطائرة. ذُعرت زوجته وبكت، وبكى أيضًا الصغير بوبي برويت.. بكى وسعل سعالًا متقطعًا قويًا. كانت الطائرة واقفة في ممر الهبوط الصغير خارج برينتري، لكنَّ الخروج من حدود بلدة أرنيث استوجب المرور من خلال حاجز الطريق. كانوا قد مدُّوا سور السلك الشائك حول مداخل البلدة ومخارجها حتى الصحراء...

ومض ضوء أحمر فوق الباب الغريب، وصدر صوت هسيس، ثم ما يشبه صوت المضخة. مَنْ دخل كان يرتدي بذلة عازلة ضخمة ذات قناع وجه شفاف. رأسه خلف القناع كبالون محبوس داخل كبسولة، يحمل خلف ظهره خزانًا ضغط. عندما تكلم جاء صوته معدنيًا مكتومًا، محرومًا من أي لمحة بشرية. ربما هو صوت من تلك الأصوات المنبعثة من ألعاب الفيديو.

قال الرجل: «كيف تشعر يا سيد بولفري؟».

لم يستطع فيك أن يجيب، فقد عاد إلى أعماق الهلوسة، ورأى وجه أمه من خلف واقى الوجه الشفاف. كانت أمه ترتدي الأبيض عندما أخذه أبوه هو وأخاه ليرياها مرة أخيرة في المصحّة. كان عليها أن تذهب إلى المصحّة كي لا يصاب أحد من الأسرة بما أصابها. السُّل مُعدٍ وقد يسبب الوفاة.

تكلم مع أمه.. قال إنه كان مطيعًا وأدخل الحصان.. أخبرها أن جورج أخذ المجلات المصورة.. سألها أكانت تشعر بتحسن.. سألها أكانت تعتقد أنها ستعود إلى بيتها قريبًا.. ثم حقنه الرجل الذي يرتدي الأبيض بمحقن فغاص أعماق وتبعثرت كلماته. نظر الرجل ذو البذلة البيضاء إلى الرجال خلف الحاجز الزجاجي وهزّ رأسه.

ضغط زر الإنترغم داخل خوذته بذقنه وقال: «لو لم يعمل هذا العقار، سنخسره بحلول منتصف الليل».

بالنسبة إلى فيك بولفري، انتهت ساعة السُّحر.

قالت الممرضة الحسنة ذات الشعر الأسود: «شمر كُمك فقط يا سيد ريديمان. لن يتطلب هذا إلا دقيقة».

كانت تمسك حزام جهاز قياس الضغط بيدين مُقفزتين، وتبتسم من خلف قناعها الشفاف البلاستيكي كأنها تشاركه سرًّا مُسليًا.

قال ستو: «لا».

بهتت الابتسامة شيئًا.

- سأقيس ضغط دمك فقط. لن أحتاج إلا إلى دقيقة.

- لا.

قالت بطريقة عملية: «هذه أوامر الطبيب. لو سمحت».

- إن كانت هذه هي أوامر الطبيب، فدعيني أتحدث إلى الطبيب.

- أخشى أنه مشغول الآن. لو أنك فقط...

قال ستو بلهجة قاطعة، ودون أن يُحرِّك زَرَّ كُم القميص حتى: «سأنتظر».

- أنا أؤدي عملي. أنت لا تريد أن تتسبب لي في المشكلات، أليس كذلك؟

هذه المرة منحتُه ابتسامة ربة منزل ساحرة وأضافت: «لو أنك تدعني

فقط...».

- لن أدعك. اذهبي وأخبريهم. سوف يرسلون أحدًا.

بوجه مكروب، اتجهت الممرضة إلى الباب المعدني، وأدارت مفتاحًا مربعًا

في القفل. عملت المضخة، وهسَّ الباب وانفتح. نظرت إلى ستو نظرة راجية

من خلف الزجاج، لكنه نظر إليها نظرة فظة.

عندما انغلق الباب، اتجه قَلْبًا إلى النافذة ذات الزجاج المزدوج والقضبان

الخارجية، فوجد الظلام يخفي كلَّ شيء بالخارج ولا شيء يُرى. عاد وجلس.

كان يرتدي سروالَ جينز كالحا، وقميصًا بنقشة المربعات، وحذاءً عالي

الرقبة، خياطتهما مهترئة عند الجانبين. مرَّ يده على جنب وجهه، وتضايق

من الملمس الخشن. لم يتركوه يحلق، وهو رجل ينمو شعره بسرعة.

لم يكن لديه اعتراض على التحاليل نفسها، ما اعترض عليه هو حبسه في

الظلام والرعب. هو ليس مريضًا، على الأقل حتى الآن، لكنه خائف للغاية. في

الأمر خَدْعَة، ولن يدعمهم يخدعونه بعد الآن. يجب أن يرسلوا إليه من يتحدث

معه ويخبره بحقيقة ما حدث في أرنييت، وعلاقة كامبيون هذا به. وقتها فقط

على الأقل سيستطيع أن يبني مخاوفه على قاعدة ثابتة.

لقد توقعوا أن يسأل قبل ذلك، ورأوا هذا في عينيه. إن لهم في المستشفيات

طريقة في إبعاد التفاصيل عنك. منذ أربع سنوات تُوَفِّيت زوجته بالسرطان

في عمر السابعة والعشرين. بدأ في رحمها ثم انتشر في جسدها كحريق

الغابات. رأى ستو كيف كانوا يلتفون حول أسئلتها، سواء بتغيير الموضوع أم

إعطائها إجابات صعبة مليئة بالتفاصيل التَّقْنِيَّة التي لن تفهمها. لذا لم يسأل،

ويرى أن ذلك لا يُقلقهم. والآن جاء وقت السؤال، وعليه أن يحصل على بعض

الإجابات في كلمات ذات مقطع واحد.

يمكنه أن يملأ بعض الفجوات بنفسه. أصيب كامبيون وزوجته وابنته

بمرض شنيع، يبدو شبيهًا ببرد الصيف أو الإنفلونزا، إلا أن أعراضه تتدهور

بسرعة، حتى يختنق المصاب ببلغمه ومخاطه، أو تحرقه الحمى. وهذا المرض مُعِدٌّ جدًّا.

جاءوا وأخذوه ظهر يوم السابع عشر؛ منذ يومين. كانوا أربعة من رجال الجيش وطبيبًا. مهذبون لكن حاسمون، ورجال الجيش منهم مُسلحون. كان هذا عندما بدأ ستو ريديمان يُذعر بحق.

ركب ستو مع فيك بولفري وهاب وآل برويت وهانك كارمايكل وزوجته إلى مهبط الطائرات. تكوّموا كلهم في عربة واحدة، ولم يتفوّه رجال الجيش بنعم أو لا أو ربما، مهما ازدادت هيستريا لايلا برويت.

باقي عربات القافلة كانت مزدحمة أيضًا، لم يرَ ستو من فيهم كلهم، لكنه لمح خمسًا من آل هودچيز، وكريس أورتيجا، شقيق كارلوس، وسائق سيارة الإسعاف المتطوع. كريس هو الساقى في حانة رأس الهندي. رأى أيضًا باركر ناسون وزوجته المُسنين صاحبي استراحة الشاحنات قرب منزل ستو. خَمَنَ ستو أنهم ربطوا كل من كانوا في محطة تزويد الوقود بمن اختلطوا بهم منذ حطّم كامبيون المضخات.

عند حدود البلدة شاحنتان زيتونيتا اللون تغلقان الطريق. خَمَنَ ستو مجددًا أن الطرق الأخرى المؤدية إلى أرنيث مغلقة أيضًا. كانوا وقتها يفردون الأسوار الشائكة وعندما ينتهون سيرسلون فرقَ التعقيم. إذن الأمر جادٌّ وخطِرٌ حد الموت.

جلس في صبر على المقعد المجاور لفراش المستشفى الذي لم يضطر إلى استخدامه، في انتظار أن تستدعي الممرضة أحدهم. أول (أحدهم) سيكون على الأرجح لا أحد. ربما يرسلون في الصباح من لديه صلاحية كافية لإخباره بما يريد أن يعرفه. سوف ينتظر. لطالما كان الصبرُ درعَ ستو ريديمان القويّة. على سبيل تزجية الوقت، بدأ مراجعة حالة من كانوا معه في رحلته إلى مهبط الطائرات. نورم الوحيد من بدا عليه المرض. كان محمومًا، يسعل ويبصق البلغم. بدا الآخرون كأنهم مصابون بدرجات مختلفة من البرد. عطس لوك برويت، وسعلت لايلا برويت وفيك بولفري. سال أنف هاب وظل يمسحه. لم يبدُ الوضع مختلفًا عن حالة الصفيين المدرسيين الأول والثاني اللذين حضرهما ستو طفلًا، عندما يصاب ثلثا التلاميذ بالأعراض نفسها معًا.

لكنَّ ما أخافه أكثر من أي شيء -أو ربما هي مصادفة- ما حدث وهم يتقدمون من مهبط الطائرات. عطس سائق العربة المُجَنَّد ثلاث عطسات مفاجئات. على الأرجح مصادفةً. يونيو وقت صعب في شرق تكساس بالنسبة إلى من يعانون الحساسية. وربما أصيب السائق ببرد عادي غير الشيء اللعين الذي أصيبوا به. لأن مرضًا يمكنه الانتقال من شخص إلى آخر بهذه السرعة قد يكون...

ركب المُجَنَّد المرافق الطائرة معهم، ورفض أن يجيب عن أي من أسئلتهم إلا عن مكان توجههم. إنهم ذاهبون إلى أتلانتا حيث سيخبرونهم هناك بالمزيد من الأكاذيب الوقحة. خلا ذلك، لم يجب أحد عن شيء.

جلس هاب إلى جوار ستو في الطائرة وكان مخمورًا. الطائرة طائرة الجيش أيضًا، لكنَّ الطعام والخمر كانوا مما يُقدَّم في رحلات الدرجة الأولى، لكنَّ بدلًا من أن تقدِّم لهما الخدمة مضيضة حسناء، طاف عليهم عريف متجههم في ما عدا ذلك يمكنك التوافق مع الأمر بسهولة. حتى لا يلا برويت هدأت بعدما جرعت كآسي مشروب كوكتيل نطااط الحقل⁽¹⁾.

مال هاب مقتربًا، فأفعم أنف ستو برائحة السكوتش المنبعثة من فمه وهو يقول: «هذه مجموعة طريفة من الأولاد العواجيز. كلهم فوق الخمسين، وكلهم بلا خواتم زواج. أولاد المهنة منخفضو الرُتَب».

قبل نصف ساعة من الهبوط، فقد نورم برويت وعيه، وصرخت لا يلا. اثنان من المتجهمين لفا نورم في غطاء، وانخرطت لا يلا في الصراخ أكثر، بعد قليل تقيأت كوكتيل نطااط الحقل وسلطة الدجاج والشطيرة التي أكلتها. هُرع اثنان من الجنود لتنظيف الفوضى بلا تعبير على وجوههم.

صاحت لا يلا: «ما الأمر؟ ما خطب رجُلِي؟ هل سنموت؟ هل سيموت طفلاي؟».

كانت تُجلس طفليها إلى جانبيها، وكل واحد يدفن وجهه في أحد نهديهما العارمين. بدا لوك وبوبي غير مرتاحين ومرتعبين، بل ومُخرجين من الجَلَبَة التي تُحدثها.

- لماذا لا يجيبني أحد؟ أليست هذه أمريكا؟

(1) شراب كوكتيل خمور أخضر اللون.

غمغم كريس أورتيجا من مجلسه عند آخر الطائفة: «هلا أخرسها أحد؟ إن المرأة أسوأ من مُشغّل موسيقى بأسطوانة مكسورة داخله».

أجبرها أحد الرجال على شرب كوب لبن، فسكتت لايلا. أمضت باقي الرحلة تنتظر خلال النافذة إلى الريف بالأسفل وتهمهم. خَمَن ستو أن في الكوب ما هو أكثر من الحليب.

عندما هبطوا كان في انتظارهم ثلاث سيارات ليموزين كاديلاك. ركب سكان أرنيث ثلاثاً منها، وركب مرافقوهم من الجيش الرابعة.

خَمَن ستو أن أولئك الجنود بلا خواتم زواج -وربما بلا أقارب أيضاً- ويبدو أنهم الآن في مكان ما من المبنى الذي هو فيه الآن.

ومض المصباح الأحمر فوق بابه، وعندما توقفت المضخة أو أيًا كان ما يهس، دخل رجل يرتدي واحدة من بذلات رواد الفضاء هذه. دكتور ديننجر، شاب أسود الشعر، زيتوني البشرة، ذو ملامح حادة وفم دقيق.

خرج صوت ديننجر من السماعة المثبتة إلي بذلته وهو يتجه نحو ستو: «زعمت باتي جرين أنك أتعبتها. إنها غاضبة حقاً».

قال ستو بهدوء: «لا داعي إلى الغضب».

صعب أن يبدو هادئاً، لكنه شعر بضرورة إخفاء خوفه عن هذا الرجل. إنه من النوع الذي قد يتكلم لو شعر بأن السوط في يدك، أما لو استشعر خوفك فلن يعطيك سوى العبارة القديمة إياها: «آسف، لا أستطيع إخبارك بالمزيد»، مع المزيد من الشكوى من المدنيين الحمقى الذين يطالبون بمعرفة تزيد على حاجتهم وما يفهمون.

قال ستو: «أريد بعض الإجابات».

- آسف، لكن...

- إن كنت تريدني أن أتعاون، فأعطني بعض الإجابات.

- في الوقت المناسب سوف...

- يمكنني أن أصعب الوضع عليك...

قال ديننجر مُتذاكياً: «نعرف هذا. أنا فقط لا أملك السلطة التي تُخَوِّلني بإخبارك أي شيء يا سيد ريتمان. أنا نفسي لا أعرف إلا أقل القليل».

- أخمن أنكم كنتم تحللون دمي، مع كل هذه العينات.

قال ديننچر بحذر: «هذا صحيح».

- لأي غرض؟

عادت النبرة المتذاكية مجدداً وهو يقول: «مرة أخرى يا سيد ريديمان، لا أستطيع إخبارك بما لا أعرف».

اضطر ستو إلى تصديقه. إنه لا شيء سوى تقني متضخم الأنا، وهو لا يحب هذا.

- لقد وضعوا بلدتي تحت الحجر الصحي.

- أنا لا أعرف شيئاً عن هذا أيضاً.

أبعد ديننچر عينيه عن وجه ستو، فتأكد الأخير من أنه يكذب. أشار إلى التلفاز المثبت على الحائط وقال: «كيف لم تشاهد شيئاً عن الأمر؟».

- معذرة؟

- عندما يغلقون مداخل مدينة ويسورونها بالأسلاك، فإنهم يذيعون هذا في الأخبار.

- سيد ريديمان. لو أنك فقط تدع باتي تقيس ضغط...

- لا. إن كنت تريد المزيد مني، فالأفضل أن ترسل إليّ رجلين قويين ينتزعانه. ومهما أرسلت، فسأحاول تمزيق بعض الثقوب في هذه البذلات المضادة للجراثيم. لا تبدو بهذه المتانة، هل تعرف هذا؟

ثم مد يده إلى بذلة ديننچر على سبيل الدعابة، فتراجع الرجل إلى الخلف بسرعة وكاد يسقط. تصاعد صخب من سماعة بذلته، تلتها ضجة خلف الزجاج المزدوج.

- أعتقد أن في إمكانك دس شيء لي في طعامي لتخديري، لكنّ هذا سيفسد تحاليلكم، أليس كذلك؟

حافظ ديننچر على مسافة بينهما وهو يقول: «أنت غير مُتعلّق يا سيد ريديمان. عدم تعاونك قد يتسبب لوطنك في ضرر مُهلك. هل تفهمني؟».

- لا. يبدو لي الآن أن وطني هو ما يتسبب لي في ضرر مُهلك. إنه يحتجزني في غرفة في مستشفى في جورجيا مع طبيب متحذلق معدوم الفائدة لا يعرف الخبراء من الفراء. أخرج مؤخرتك من هنا، وأرسل إليّ مَنْ

يتحدث معي، أو اثنين من أعتى رجالك ليأخذوا مني ما تريدون غصباً. سأصارعهم. يمكنك الاعتماد على هذا».

جلس ساكناً تماماً على كرسيه بعد مغادرة ديننجر. لم تعد الممرضة، ولم يأت رجلان شديداً ليغتصبا منه ما يريدون. والآن، وبعد تفكير، توصل إلى أن شيئاً بسيطاً مثل قياس ضغط الدم لن يفيدهم لو أخذ غصباً. تركوه ولو مؤقتاً يطهى على نار هادئة.

قام وشغل التلفاز، وشاهده دون أن يرى منه شيئاً. خوفه عظيم بداخله كفيل شارِد. ظل ينتظر يومين أن يبدأ العطس أو السعال، أو بصق بلغم مسودّ. تساءل عن الآخرين، الناس الذين عرفهم طوال حياته. تساءل أكان أحدهم قد صار إلى ما صار إليه كامبيون. فكّر في المرأة الميتة وطفلها في السيارة الشيقروليه القديمة، وظل يرى وجه لايلا برويت في وجه المرأة، ووجه الصغيرة شيريل هودجيز في وجه طفلتها.

همهم التلفاز وكركر. تباطأت نبضات قلبه في صدره. سمع صوت مُنقي الهواء الخافت ينفث زفيره في الحجرة. شعر بخوفه يتململ ويتقلب تحت وجهه الجامد. أحياناً يكون الخوف هائلاً مثيراً للذعر، يهز كل شيء كأنه الفيل إياه. أحياناً يكون ضعيفاً، يمزق بأسنانه الحادة كأنه فأر، لكنه ظل يرافقه دائماً.

بعد أربعين ساعة، أرسلوا إليه رجلاً يمكنه التحدث معه.

الفصل الثامن

في الثامن عشر من يونيو، وبعد خمس ساعات من تحدّثه مع قريبه بل هابسكوم، أوقفَ چو بوب سائقًا مُسرِّعًا على طريق تكساس السريع رقم 40، على بعد 25 ميلًا من أرنيث. المُسرَّع هو هاري ترينت من برينتري، يعمل في شركة تأمين. كان يسير بسرعة ستين ميلًا في الساعة في منطقة مُحددة السرعة بخمسين ميلًا في الساعة. حرَّر له چو بوب مخالفة سرعة تقبّلها ترينت بسعة صدر، ثم بدأ يسلي چو بوب بإقناعه بشراء وثيقة تأمين على بيته وحياته، لكنَّ الموت كان آخر شيء يخطر على بال چو بوب. بيد أنه كان رجلًا مريضًا فعليًا، فهو لم يتزوّد بالوقود فقط من محطة هابسكوم تكساكو، وأعطى هاري ترينت ما هو أكثر من مخالفة سرعة.

أما هاري -الرجل المتحمس الذي يحب عمله- فقد نقل المرض إلى أكثر من أربعين شخصًا خلال يومه ذاك واليوم التالي. إلى كم شخصًا نقل الأربعون المرض؟ لا يمكن أن تُجزم بالضبط. لو افترضت أن كل شخص نقل العدوى إلى خمسة، سيكون الناتج مائتين. بالطريقة نفسها، كل واحد من المائتين نقل المرض إلى خمسة آخرين، فأصيب ألف، والألف نقلوه إلى خمسة آلاف، والخمسة آلاف نقلوه إلى خمسة وعشرين ألفًا.

في صحراء كاليفورنيا، وبدعم من أوائل دافعي الضرائب، ابتكر أحدهم تفاعلًا متسلسلًا فعليًا. تفاعلًا قاتلًا.

في يوم التاسع عشر من يونيو، يوم وصل لاري أندروُد إلى نيويورك، ويوم تحدّثُ فراني مع والدها عن إجهاض الغريب الصغير، توقف هاري ترينت في مقهى شرق تكساس اسمه بيبي كويك إيت، ليتناول غداءه. طلب شطيرة برجر بالجبن، وقطعة فطيرة فراولة للتحلية. كان يعاني أعراض برد طفيفة،

ربما أعراض حساسية فقط، وظل يعطس ويبصق. في أثناء تناوله وجبته نقل المرض إلى المقهى نفسه، وعاملة تنظيف الأطباق، وسائق شاحنة يأكلان في ركن، والرجل الذي جاء يوصل الخبز، والرجل الذي غير الأسطوانات في مشغل الموسيقى. أخيرًا ترك المرض المميت على الدولار الذي تركه إكرامية على المنضدة.

في طريقه إلى الخارج توقفت سيارة كبيرة مملوءة بالأطفال، يعلوها رف يحمل الأمعة. تحمل السيارة لافتة أرقام من نيويورك، والسائق الذي أنزل زجاج نافذته ليسأل هاري عن الطريق المؤدي إلى الشمال يتحدث بلهجة أهل نيويورك. أوضح هاري تفاصيل الطريق للنيويوركي، وساق إليه وإلى أسرته حكم إعدام دون أن يعرفوا.

النيويوركي هو إدوارد م. نوريس، ضابط شرطة، يعمل مع فريق محققين. كانت هذه هي أول عطلة حقيقية له منذ خمس سنوات. قضى هو وأسرته وقتًا جيدًا، وسعد الأولاد للغاية في عالم ديزني في أورلاندو وهم لا يعرفون أن الأسرة كلها ستكون ميتة بحلول يوم الثاني من يوليو. خطط نوريس لإخبار ستيف كاريلاً ابن العاهرة أن في وسع المرء اصطحاب أسرته إلى مكان ما بالسيارة وقضاء وقت ممتع. يقول له ستيف إنه مُحقق جيد، لكن الرجل الذي لا يستطيع ممارسة شُرطيته على أسرته لا يستحق شيئًا.

تناول آل نوريس وجبه في المقهى، ثم تبعوا إرشادات هاري العظيمة إلى الطريق السريع رقم 21. أعرب إد وزوجته تريش عن تقديرهما لكرم الجنوب، فيما الأبناء الثلاثة يلونون في المقعد الخلفي. فُكر في أن كريس لا يعرف إلا ابنيه الشيطانين.

قضوا تلك الليلة في يوستاس، أو كلاهما. نقل إيد وتريش العدوى إلى موظف الفندق، ونقل الأبناء -مارشا وستانلي وهيكتور- المرض إلى الأولاد الذين لعبوا معهم في الملعب هناك، وهم أولاد من غرب تكساس وألاباما وأركانساس وتينيسي. أمرضت تريش كلتا المرأتين اللتين قابلتهما في المغسلة على بعد مجمعين سكنيين. أما إيد فقد نقل الموت إلى كل من مر بهم في رواق الفندق وهو في طريقه إلى ماكينة الثلج.

أيقظت تريش زوجها في الصباح الباكر، لتخبره أن هيكتور الصغير يعاني سعالًا قويًا وحمى. بدت لها الأعراض أشبه بأعراض الدفتريا أو (الخناق). اقترح عليها إد نوريس أن يعطي الطفل قرص أسبرين. لماذا لا

ينتظر الخناق أربعة أيام أو خمسة أخرى؟ يمكنه أن يمرض على رسله في بيته كي لا يشوّه ذكريات إد عن تلك العطلة المثالية. كان يسمع صوت الطفل خلال الباب الداخلي يسعل كأنه كلب ينبج.

توقعتُ تريش أن تهدأ الأعراض في الصباح، لكن بحلول يوم العشرين من الشهر، اعترفتُ لنفسها أن هذا لن يحدث. الأسبرين لا يؤثر في الحمى، وصارت عينا هيكتور المسكين زجاجيتين غير واعيتين. اتخذ سعاله صوتاً منفجراً أقلقها، وصار تنفسه ذا صوت بلغمي ثقيل. أياً كان ما يعانيه الصغير فقد التقطته مارشا أيضاً، وشعرتُ تريش بدغدغة في مؤخرة حلقها جعلتها تسعل، لكن سعالها كان بسيطاً، هدأت أقرص الاستحلاب.

قالت أخيراً: «يجب أن نعرض هك على طبيب».

توقف إد عند محطة خدّمات وتحقق من الخريطة هناك. كانوا في همر كروسينج في كانساس.

- لا أعرف. يمكننا على الأقل العثور على طبيب يحوّلنا إلى مختصّ.

ثم مرّر أصابعه على شعره وزفر ثم قال: «نحن في همر كروسينج، كانساس! يا يسوع! لماذا لم يمرض إلا في مكان ليس فيه شيء على الإطلاق؟!».

قالت مارشا التي كانت تنظر إلى الخريطة من فوق كتف أبيها: «يقولون إن جيس جيمس سرق المصرف مرتين هنا يا أبي».

زعق إد: «سحقاً لجيس جيمس. معذرة».

ثم أكمل طريقه.

بعد ستة اتصالات أمسك خلالها إد نوريس أعصابه بكلتا يديه، عثر على طبيب في بوليستون يمكنه معاينة الطفل لو نقلوه إليه قبل الثالثة عصرًا. بوليستون خارج طريقهم، على بعد عشرين ميلاً من غرب همر كروسينج، لكن ما يهم الآن هو صحة هيكتور، وقد تزايد قلق أبيه عليه، وهو لم يرَ من قبل طفلاً بهذا الحجم ممتلئاً بكل هذا البلغم.

كانوا ينتظرون في غرفة مكتب دكتور بريندن سويني الخارجية بحلول الثانية ظهرًا، وراح إد يعطس بقوة. غرفة الانتظار مكتظة، ولن يكشف الطبيب على هيكتور قبل الرابعة. لم تستطع تريش أن تعيد الوعي بالكامل

إلى هيكاتور، وكانت هي نفسها تشعر بارتفاع درجة حرارتها. ستان نوريس فقط هو الوحيد الذي كان بخير كفاية ليتحمل.

في أثناء انتظارهم، نشروا المرض الذي سيُعرف لاحقًا في البلاد باسم «كابتن تريبس» إلى خمسة وعشرين آخرين، منهم السيدة التي جاءت تدفع فاتورتها قبل أن تنقل المرض إلى نادي لعبة البريدج كله.

هذه السيدة تدعى السيدة روبرت برادفورد، أو سارا برادفورد بالنسبة إلى أعضاء النادي، وكوكي بالنسبة إلى زوجها وأصدقائها المقربين. لعبت سارا بمهارة تلك الليلة، ربما لأن شريكها في اللعب كانت أنجيلا دوبراي أقرب صديقاتها. استمتعنا بنوع من التخاطر بينهما وربحتا كل الجولات. ما نغص على سارا شعورها بأنها على وشك الإصابة بالبرد. هذا ليس عدلاً وكانت قد شُفيت منذ وقت قليل من دور مماثل.

خرجت مع صديقتها لشرب كوكتيل في حانة قريبة بعد الفوز. لم تتعجل أنجيلا العودة إلى المنزل، وكان دور ديفيد في إقامة مباراة البوكر في بيتهم، ولن تتمكن من النوم وسط كل هذا الصخب.. إلا إذا تناولت مهدئًا تصفه لنفسها أولاً، وفي هذه الحالة سيكون كأسّي جن مناسبتين.

خلال مناقشة السيدتين لعبة البريدج، نقلتا العدوى إلى كل من في حانة كوكتيل بوليستون، من بينهم شابان يشربان البيرة بالقرب منهما كانا في كاليفورنيا -مثلكم كمثّل لاري أندروود- يبحثان عن فرص الشهرة. وعدهما صديق لهما بعمل في شركة أفلام، وفي اليوم التالي قصدا الغرب لينشرا المرض في طريقهما.

فكرة الرسائل المتسلسلة⁽¹⁾ لا تُفلح. هذه حقيقة معروفة. مهما وُعدت بمليون دولار لو أنك أرسلت دولارًا واحدًا إلى الاسم في أعلى القائمة، ووضعت اسمك في نهايتها، ثم أرسلت الرسالة إلى خمس آخرين، فلن ينالك من الوعد شيء. في هذه المرة، رسالة كابتن تريبس المتسلسلة نجحت للغاية. لقد بُني الهرم هذه المرة ليس من القاعدة إلى أعلى، بل من القمة إلى أسفل. يقال إن القمة كانت مُجنّدًا في قاعدة عسكرية يُدعى تشارلز كامبيون.

(1) رسائل ظهرت قبل الإنترنت بفترة، فيها مضمون تسويقي أو تبشيري ما، يُطلب فيها منك أن ترسلها إلى عدد آخر غيرك على وعد بمكافئة معنوية أو مادية (الترجمة)

ملاً كابتين ترييس الغُرفَ والخنادقَ والمقابرَ بالجثث، ثم صارت الجثث تُلقى إلى المحيط عند كل ساحل، وإلى المحاجر وتحت أساسات المنازل غير المكتملة. وفي النهاية طبعاً، صارتِ الجثث تتعفن حيث سقط أصحابها موتى.

مشتْ سارا برافورد وأنجيلا دوبراي إلى سيارتهما، ونقلتا المرض إلى أربعة أو خمسة في الشارع، ثم تبادلتا القُبَل على الخدين وانطلقتا كل إلى طريق مختلف. عادت سارا إلى بيتها لتعدي زوجها وخمسةً من رفاق لعب البوكر وابنتها المراهقة سامانثا. ما لا يعرفه والداها أن سامانثا تخفي عليهما أنها قد أصيبتُ بالسيلان من حبيبها، لكنها الآن لن تُضطرَ إلى القلق بشأن ذلك بسبب ما نقلته إليها أمها.

في اليوم التالي ستنتقل سامانثا لتعدي كل مَنْ في حمام السباحة في نادي بوليستون.
وهلُمَّ جرّاً.

الفصل التاسع

هاجموه بعد الغروب بينما كان يمشي في بداية طريق رقم 27، المُسمى الشارع الرئيسي حيث كان يقطع البلدة قبل ميل. خطط إلى أن يتجه غربًا بعد ميل أو اثنين عند طريق 63، الذي سيؤدي به إلى الطريق الرئيسي السريع، فيبدأ منه رحلته الطويلة إلى الشمال. حواسه غائمة، ربما بسبب زجاجتي البيرة اللتين شربهما للتو، لكنه كان يعرف أن ثمة خطبًا ما. كان قد تذكّر المحليين الأربعة والخمسة الذين هاجموه فجأة في الحانة.

ضربهم نك بأفضل ما يستطيع، فصرع أحدهم وأدّى أنف آخر، وربما كسره أيضًا نظرًا إلى الصوت الذي صدر عنها. للحظة أمل أو اثنتين ظنّ أن في وسعه هزيمتهم. فكرة أن يصارعهم دون أن يطلق أي صوت على الإطلاق أرعبتهم قليلًا. كانوا غير مُتمرسين، وربما فعلوا ذلك من قبل، لكنّ بالتأكيد لم يتوقعوا رد الفعل هذا من شاب نحيل يحمل حقيبة ظهر.

لكمه واحد منهم أعلى ذقنه، وفتح شفته السفلى بخاتمه، فتدفق طعم الدم إلى فمه. ترنح إلى الخلف، فثبّت أحدهم ذراعيه. قاوم بشراسه وحرّر ذراعًا واحدة في اللحظة نفسها التي اندفعت نحوه فيها قبضة هائلة كقمر هارب. قبل أن تسحق عينه اليمنى رأى ذاك الخاتم مرةً أخرى يلمع. بزغت النجوم في عينيه وشعر بوعيه ينسحب إلى أماكن غير معروفة.

صارع أكثر وهو مذعور. عاد الرجل ذو الخاتم ليظهر أمامه، فركله نك في بطنه خشية أن يضربه مرةً أخرى. خرج شهيقه بقوة وتراجع إلى الخلف متهدّج الأنفاس ككلب يعاني التهاب الحنجرة.

تحلّق الآخرون حوله، وبالنسبة إلى نك لم يكن يرى منهم إلا ظلالًا الآن. ظلال رجالٍ لحيمين -أولاد صالحين كما يطلقون على أنفسهم- يرتدون

قمصاناً رمادية ذات أكمام مُشَمَّرة تبين سواعدهم التي لفحتها الشمس. ينتعلون أحذيةً عمل ثقيلة، تغطي حواجبهم خصلات شعر مدهنة. في آخر ضوء النهار شعر أن كل هذا حلم خبيث.

سال الدم على عينه المفتوحة. تمزقت الحقيبة وسقطت عن ظهره. أمطرته اللكمات حتى صار مرتخياً، دُمِية قُطِعَتْ خيوطها. لكن الوعي لم يهجره. الأصوات الوحيدة هي أصوات نخيرهم ولهائهم وهم يطوِّحون لكلماتهم نحوه، وصوت زقزقة طائر السُّبْد الذي يصدح من أشجار الصنوبر القريبة.

صاح ذو الخاتم: «أمكسوه جيداً. اقبضوا على شعره».

أوثقته الأيدي، وجذب أحدهم شعر نك الأسود بكلتا قبضتيه.

سأله أحد الآخرين في ضيق: «لماذا لا يصيح؟ لماذا لا يصيح يا راي؟».

قال ذو الخاتم: «أمرتكَ بالأ تذكّر أسماء. لا أهتم لسبب عدم صياحه. سأعجبه. المُخَفِّق ضربني».

وانطلقت القبضة، فمال رأس نك بقوة ومزّق الخاتم خدّه.

قال راي: «أمسكه جيداً، قلتُ لك هذا. ما أنتم جميعاً؟ مجموعة مخنثين؟».

هَوَّت اللكمة مرة أخرى فتحطم أنف نك ونزف فكَتِمَتْ أنفاسه. ضاق وعيه حتى صار كأنبوب قلم. انفتح فمه يعبُّ هواء الليل. غنى السُّبْد مرة أخرى أغنية منفردة حلوة. سمعه نك هذه المرة كما (لم) يسمعه المرة السابقة.

زقق راي: «ثبّتوه. ثبّتوه عليكم اللعنة».

هَوَّت القبضة، فتحطمت سنتان من أسنانه الأمامية إذ ضربهما الخاتم. عجز عن الصياح بألمه غير المُحتمل. ارتخت ساقاه، فحملته الأذرع كجُوال قمع.

- يكفي هذا يا راي! هل تريد أن تقتله؟

- أمسكوه. المُخَفِّق ضربني. سأعجبه.

أضيئت أنوار الطريق المحاط بالأجمات وأشجار الصنوبر الضخمة العتيقة.

- أوه، يا يسوع!

« ارموه.. ارموه...».

كان هذا صوت راي، لكنّ راي لم يعدّ أمامه. شعر نك بامتنان بما تبقى له من وعي. سحبه ألم فمه الرهيب. استطاع أن يشعر بطعم شظايا الأسنان على لسانه.

دفعته الأيدي فسقط في منتصف الطريق، تحيط به دوائر ضوء المصابيح كأنه ممثل على خشبة مسرح. حاول نك أن يرفع جسده على ذراعيه ويزحف، لكنّ ساقيه لم تُطيعا أوامره وقد ظننتاه ميتًا. انهار على الأرض وسط نفير السيارات وأصوات المكابح وصرير العجلات، فيما ينتظر أن يُدهم. على الأقل سيضع هذا حدًا لألم فمه.

ثم شعر بتناثر الحصى على وجهه، وأبصر إطار سيارة تتوقف عن الدوار على بعد أقل من قدم من رأسه، ورأى بين فجوات نقش الإطار حصوة بيضاء بدت له كعملة بين إصبعين.

فكّر في أنها قطعة حجر كوارتز. ثم فقد الوعي.

عندما استفاق نك كان راقداً على فراش حديدي قاسٍ، لكنّ خلال السنوات الثلاث الأخيرة نام على ما هو أقسى منه. جاهد ليفتح عينيه، وشعر كأنهما ملصقتان، والعين اليمنى -التي ضربها القمر الهارب- فُتحت إلى منتصفها فقط.

نظر إلى سقف أسمنتى رمادي مشقق، تجري المواسير المعزولة تحته. خنفساء كبيرة تُهرع من شق حول إحدى هذه المواسير. يحيط بمجال بصره سلسلة. رفع رأسه قليلاً، فبرق الألم خلالها، لكنه رأى سلسلة أخرى مربوطة في طرف الفراش الخارجي، ومثبتة إلى معلق على الحائط.

أدار رأسه إلى اليسار (طلقة ألم أخرى، أخف قليلاً) ورأى جداراً خرسانياً مشققاً، مغطى بكتابات بعضها قديم وبعضها حديث، أغلبها مرفق برسوم. في هذا المكان حشرات. لويس دراجونسكي 1987. الموسيقى ممتعة. جورج رامبلينج أحرق. ما زلت أحبك يا سوزان. هذا المكان مقرف، چيري. كلايد د. فريد 1981. على الحائط أيضاً رسوم أعضاء ذكرية كبيرة متدلّية، ونهود عملاقة، وفروج. كل هذا أعطى نك فكرة عن المكان. إنه في زنزانة.

بحرص رفع جذعه مستندًا إلى مرفقيه، وترك قدميه (داخل خُفين ورقيين) تنزلان عن حافة الفراش، ثم جلس. الألم الضخم ضرب رأسه مرة أخرى، وأطلق عموده الفقري صوتَ صريرٍ مُقلِّعًا. انقلبتْ معدته داخل أحشائه، وشعر بدوار من النوعية التي تدفع إلى الاستنجاد بالرب ليوقفه. بعد هنيهة توقّف الدوار. يمكنه الشعور باللاصق الطبي فوق جرح خده، وبتحريك عضلات هذا الجانب من وجهه تبين أن أحدهم خيَطَ الجرح.

نظر إلى ما حوله. كان في زنزانة صغيرة كعلبة بسكوت مملح تقف على طرفها. خلف نهاية الفراش باب ذو قضبان، وعند رأس الفراش مرحاض دون حلقة أو غطاء. فوقه نافذة صغيرة ذات قضبان أيضًا.

بعدما جلس عند طرف الفراش وقتًا كافيًا ليتأكد من أنه لن يفقد الوعي، أنزل سروال المنامة الرمادي الذي يرتديه حتى رُكبتيه، وجلس على المرحاض يبول إلى ما بدا له ساعة. عندما انتهى نهض واقفًا يتكئ على حافة الفراش كالمسنين. نظر إلى المرحاض في قلق بحثًا عن أثر دم، لكن بوله كان رائقًا، فضغط زر الطرد.

مشى بحرص إلى الباب، ونظر خلال القضبان إلى الممر القصير. على يساره غرفة حجز الثملين. رجل مسن ينام على واحد من فُرُشها الخمسة، وذراعه متدلية إلى الأرض. ينتهى الممر على اليمين بباب مفتوح. في منتصف الممر مصباح أخضر متدلّ من السقف.

ظهر ظل يتراقص عند الباب الأيمن المفتوح، ثم خرج رجل ضخم يرتدي زيًا عسكريًا صيفيًا كاكي اللون ومشى خلال الممر. حول خصره حزام بني ومسدس كبير. دسّ إبهاميه في جيبي سرواله، ونظر إلى نك دقيقة كاملة دون أن يتكلم، ثم قال: «عندما كنت صغيرًا، اصطدتُ أسدَ جبال وأطلقتُ عليه الرصاص، ثم جررته عشرين ميلًا خلال الطرق غير الممهدة إلى البلدة. ما تبقى من المخلوق عندما وصلت كان أكثر المناظر التي رأيتها بؤسًا. أنت في المرتبة الثانية بعده أيها الفتى».

شعر نك أن ما قال كان مُجهَّزًا من قبل بشكل ما، ومحفوظًا للإلقاء على مسامع الغرباء والتعساء الذين سيشغلون علب البسكوت المملح من وقت إلى آخر.

- هل لديك اسم؟

وضع نك إصبعًا على شفثيه المتورمة وهز رأسه، ثم وضع كفه على فمه، وقطع الهواء بحركة عرضية بسيطة وهز رأسه مرة أخرى.

- ماذا؟ لا تستطيع أن تتكلم؟ ما هذا الهراء.

الكلمات واضحة كفاية بالنسبة إلى نك، لكنه لا يستطيع أن يسمع النبيرة أو درجة علو الصوت. انتزع قلمًا غير مرئي من الهواء، وكتب به.

- تريد قلمًا؟

أومأ نك.

- إن كنتَ أحرص، فكيف لا تملك أيًا من تلك البطاقات؟

هز نك كتفيه، وقلب جيبه الخاويين. كَوَّر قبضته وراح يضرب الهواء مما ألمَّ رأسه وقلب معدته مرة أخرى. أنهى عرضه بضرب صدغيه برفق بقبضتيه، ثم رفع عينيه إلى أعلى ثم ارتمى على القضبان، وأخيرًا أشار إلى جيبه الخاويين.

- لقد سُرِقَتْ.

أومأ نك.

ابتعد الرجل في الزي الخاكي عائداً إلى مكتبه. بعد لحظات عاد ومعه قلم رصاص قصير السن ودفتر. دفعهما خلال القضبان. مكتوب على قمة كل صفحة من الدفتر (مذكرة - من مكتب الشريف چون بيكر).

أدار نك الدفتر بين يديه، ثم أشار بممحاة القلم إلى الاسم، ثم رفع حاجبين مُتسائلين.

- نعم، هذا أنا. مَنْ أنت؟

كتب: «نك أندروز»، ثم أدخل كفه من بين القضبان. هزَّ بيكر رأسه وقال: «لن أصافحك. أنت أصم أيضًا؟».

أومأ نك.

- ماذا حدث لك الليلة؟ دكتور سومز وزوجته كادا يسحقانك بسيارتهما كفرع شجرة أيها الصبي. لقد ضُربْتُ وسُرِقْتُ على بعد ميل من حانة سانت زاك. هذه الأماكن ليست للصبية من أمثالك. أنت طبعًا لست في السن التي تسمح لك بالشرب.

هز نك رأسه بقوة وكتب: «أنا في الثانية والعشرين. يمكنني شرب زجاجتي بيرة دون أن أضرب وأسرق من أجلهما. أليس كذلك؟».

قرأ بيكر هذا بنظرة تسلية على وجهه، ثم قال: «لا يبدو أن في وسعك هذا في بلدة شويو. ماذا تفعل هنا أيها الصبي؟».

مزق نك أول صفحة من الدفتر، ثم كورها وألقاها على الأرض. قبل أن يكتب إجابته، اندفعت ذراع من بين القضبان تقبض على كتفه بيد من حديد، فرفع نك رأسه سريعاً.

قال بيكر: «زوجتي نظفت هذه الزنازين، ولا أجد أيّ داعٍ إلى توسيح زنانتك. ارمها في المرحاض».

انحنى نك وهو يجفل لألم ظهره، والتقط كرة الورق من الأرض، ثم مشى إلى المرحاض ورمها فيه، ونظر إلى بيكر بحاجبين مرفوعين، فأوماً الأخير.

عاد نك، وهذه المرة كتب كثيراً والقلم يطير فوق الصفحة. فكر بيكر في أن تعليم طفل أخرس أصم الكتابة والقراءة حل ممتاز، ولا بدُّ أن لنك أندورز عقلاً قوياً لينجح في تعلم هذا. بعض الرفاق هنا في شويو، أركانساس، لم يفلحوا في تعلم أي شيء، وبعضهم في حانة زاك، لكنه لم يتوقع أن فتى دخل المدينة للتو قد يعرف شيئاً من هذا.

ناولته نك الدفتر خلال القضبان.

«كنت أسافر، لكنني لستُ مُخنئاً. أمضيتُ اليوم في العمل لدى رجل يدعى ريتش إيلرتون، على بُعد ستة أميل غرباً. نظفتُ حظيرته وفرشتها بالقش. في الأسبوع الماضي كنتُ في واتس، أولاهوما، أصلح الأسوار. من سرقوني أخذوا مني أجرَ الأسبوع».

مزق بيكر الصفحة ثم وضعها مطوية في جيبه الخلفي وهو يسأل: «هل أنت واثق من أنك كنت تعمل عند ريتش إيلرتون؟».

أوما نك.

- هل رأيت كلبه.

أوما نك.

- من أي نوع هو؟

كتب نك في الدفتر: «دوبرمان كبير. لكنه لطيف، ليس شرساً».

أوماً بيكر ثم ابتعد إلى مكتبه. وقف نك خلف القضبان يراقب في قلق. بعد لحظة عاد بيكر بسلسلة مفاتيح، ففتح الزنزانة.

- تعالَ إلى المكتب. هل ترغب في إفطار؟

هز نك رأسه، ومثّل إيماءه صَبٌّ وهو يردد: «قهوة؟ عندي منها. هل تريد الكريمة والسكر عليها؟».

هز نك رأسه نفياً عند العرض الأخير.

- تشربها كالرجال، هه. تعالَ.

ثم ضحك وسار خلال الممر، ورغم أنه كان يتكلم فلم يسمع نك مما يقول شيئاً وظهره نحوه وشفاته مخفيتان.

- لا أمانع في وجود صحبة. إنني أعاني الأرق إلى درجة إنني لا أنام إلا صباحاً ولثلاث ساعات أو أربع كل ليلة. زوجتي تريدني أن أذهب إلى طبيب كبير شهير في باين بَاف. لو استمر الوضع ربما أفعل ذلك. أعني، انظر إلى ما يحدث. هأنأ في الخامسة صباحاً ولا لمحة ضوء في الخارج، ومع ذلك أجلس وأكل البيض والبطاطس المقلية المزيّنة المصنوعة في استراحة شاحنات على الطريق.

استدار عند نهاية كلامه، فالتقط نك عبارة «في استراحة شاحنات على الطريق». رفع حاجبيه وهز كتفيه ليبين أنه حائر.

- لا يهم. بالنسبة إلى صبي مثلك على أي حال.

صَبٌّ بيكر له القهوة من وعاء حفظ حراري ضخّم. كان الشريف قد أنهى نصف إفطاره على مكتبه، فجلس وجذبه نحوه ليُكمّله. رشف نك قهوته. ألّمت فمه لكنها جيدة.

نكز كتف بيكر برفق، فاستدار له. أشار نك إلى القهوة، ثم دلك معدته وغمز في مرج. ابتسم بيكر وقال: «أحسن لك أن تعترف أنها جيدة. زوجتي حين صنعتها». دسّ نصف بيضة مقلية في فمه، ومضغ ثم أشار إلى نك بشوكته وأضاف: «أنت بارع كأحد أولئك الممثلين الصامتين. أراهن على أنك لا تجد مشكلة في التواصل مع الآخرين، هه؟».

حرك نك كفه متمائلة في الهواء بمعنى «أحياناً».

- لن احتجزك.

- مسح بيكر الدُهْن من الطبق بقطعه خبز وهو يكمل: «لكني أقول لك إنك لو مكثتَ هنا فربما نستطيع العثور على من فعل بك هذا. هل تلعب؟».
- أوماً نك وكتب: «هل تعتقد أن في وسعي استعادة راتب الأسبوع؟».
- لا طبعًا. أنا مجرد شريف محلي.
- أوماً نك، ثم ضمَّ كفيه معًا وصنع هيئة طائر يبتعد.
- نعم، مالك طار. كم شخصًا هاجمك؟
- رفع نك أربع أصابع، ثم هز كتفيه ورفع خمسًا.
- هل تعتقد أن في وسعك تعرّف أيهم؟
- رفع نك إصبعًا وكتب: «ضخم وأشقر. ربما في حجمك لكنّ وزنه أكبر. يرتدي قميصًا وسروالًا رماديًا وخاتمًا ذا فص بنفسجي في ثلاثة أصابعه. لقد جرحني به».
- عندما قرأ بيكر هذا، تغيّر وجهه. في البداية بدا عليه الاهتمام، ثم الغضب. ارتعب نك لأنه ظن أن الغضب موجّه إليه.
- أوه يا يسوع المسيح. هذا وصف دقيق كامل. هل أنت واثق؟
- أوماً نك في حماس.
- هل من شيء آخر؟ هل رأيت أي شيء؟
- فكّر نك جيدًا، ثم كتب: «لديه ندبة صغيرة على جبهته».
- نظر بيكر إلى الكلمات وقال: «هذا راي بوث. زوج أختي. شكرًا أيها الصبي. الساعة الخامسة صباحًا ويومي فسد فعلًا»، ثم أضاف: «لن يفيد هذا على أي حال. راي وأصحابه المخبولون سوف يشهدون لمصلحة بعضهم. كلمتك أمام كلمتهم. هل لديك دليل؟».
- كتب نك: «لقد ضربتُ بطنَ راي ولكمتُ أنفه، وربما كسرتُها».
- يجول راي دائمًا مع فينس هوجان، وبيلي وارنر، ومايك تشايلدريس. ربما يمكنني الانفراد بفينس وهزُّ ثقته. إنه ضعيف، وله كل مزايا قنديل بحر ميت. لو استطعت أن أخرج منه بشيء، فيمكنني ملاحقة مايك وبيلي. حصل راي على هذا الخاتم من احتفال أخوية الجامعة، لكنه لم ينجح في عامه الأول.

ثم توقف قليلاً عن الكلام، وهو يضرب حافة صحنه بأطراف أصابعه. أخيراً أضاف: «أعتقد أن في وسعنا أن نجرب أيها الصبي. لكنني أحذرك مقدماً، ربما لن نصل إليهم. إنهم خبثاء جبّاء كقطيع كلاب، لكنهم من أبناء البلدة، وأنت مجرد غريب أصم أبكم. لو نجوا بفعلتهم فسيلاحقونك».

فكر بك في الأمر. ظلت صورته وهو يُرمى من واحد إلى آخر كخيال مآتة تعود إلى ذهنه، وصورة شفّتي راي وهي تنطق: «سأعجنه». تذكر شعوره بحقيبة ظهره؛ رفيقة عاميه السابقين، وهي تتمزق وتسقط عن ظهره.

كتب في المفكرة كلمتين تحتها خط: «هيا نجرب».

زفر بيكر وأوماً ثم قال: «حسنًا. قينس هوجان يعمل في ورشة الخشب.. ليس هذا دقيقاً بالضبط، إنه يعبث فقط في ورشة الخشب. سوف نركب إلى هناك في التاسعة إن كان هذا يناسبك. ربما أمكننا إرعا به إلى حد الاعتراف».

هز بك رأسه. سأله بيكر: «كيف حال فمك؟ ترك لك الطبيب أقراصاً. قال إن الألم سيكون قوياً. سأحضرها. إنها...».

ثم توقف. في عالم بك الصامت رأى الشريف يعطس عدة عطسات متتالية في منديله، بعدها أكمل: «هذا شيء آخر...».

ثم استدار ولم يلتقط بك سوى قوله: «أنا مصاب ببرد قوي حقاً. أهلاً بك في أركانساس أيها الصبي».

أحضر الأقراص مع كوب ماء إلى حيث جلس بك، ثم حك بيكر ما تحت فكه. ثمة انتفاخ مؤلم هناك. غدد متورمة، سعال، عطس، حرارة.. كل هذا يُشكل بداية يوم رائع حقاً.

الفصل العاشر

استيقظ لاري بصداع ثمالة ليس سيئاً جداً، وبفم مليء بطعم بول التنانين الصغيرة، وبشعور أنه في مكان ما من المفترض ألا يكون فيه.

الفراش فردي، لكن عليه وسادتان. استطاع أن يشم رائحة لحم مقدد يُقلى. جلس ونظر خلال النافذة إلى يوم نيويورك رمادي آخر، وأول ما فكر فيه هو أنهم فعلوا شيئاً شنيعاً بمدينة بيركلي ليلاً. لقد صارت أقدر وأكبر عمراً. ثم عادت إليه ذكريات الأمس، وفطن إلى أنه ينظر خلال النافذة إلى مدينة فوردهام لا بيركلي. كان في شقة في الطابق الثاني، في شارع تريمونت، ليس بعيداً عن كونكورس. سوف تتساءل أمه عن مكان مبيتة ليلة أمس. هل اتصل بها أو أخبرها بأي عذر مهما كان واهياً؟

أنزل ساقيه عن الفراش، ووجد علبة سجائر وينستون منبعجة، فيها سيجارة واحدة تطل منها. أشعلها بقداحة بلاستيكية خضراء. طعمها كخراء حصان ميت. في المطبخ استمر صوت القلي كأنه تشويش راديو.

اسم الفتاة ماريا، وقالت إنها.. ماذا؟ مختصة في نظافة الفم؟ لا يعرف لاري كم تعرف هي عن النظافة، لكنها كانت ممتازة في ما يخص الفم. من جهاز الاستيريو الصغير يتصاعد صوت أغنية عن الأيام التي مرت والوقت الذي ضاع. لو أن ذاكرته صحيحة، فماريا لم تُضع وقتاً.

دُهِشَتْ عندما عرفت أنه هو لاري أندروُد حقاً. في وقت ما من الأمسية، خرجا بحثاً عن أقرب متجر شرائط كاسيت ليشتريا نسخة من ألبوم «يا صغيرتي، هل تفهمين رجلك؟».

أنَّ وهو يحاول أن يتابع أمس وبداياته البريئة، حتى نهايته الجامحة.

اليانكيز ليسوا في المدينة. كانت أمه قد خرجت إلى العمل عندما استيقظ، لكنها تركت جدول مباريات اليانكيز على منضدة المطبخ مع رسالة كتبت فيها: «لاري. كما ترى، اليانكيز لن يعودوا قبل الأول من يوليو. إن كنت لن تفعل شيئاً في ذلك اليوم، فلماذا لا تصحب أمك إلى المتنزه وتشتري لها البيرة وشطائر الهوت دوج؟ في الثلاثية بيض وسجق، وفي علبة حفظ الخبز لفافات مُحلاة إن كنت تفضلها. اعتنِ بنفسك يا صغيري».

ثم ملحوظة مما تحب أليس أندرو كتابتها: «أغلب الأولاد الذين كنت تخرج معهم رحلوا الآن، وإلى داهية كل معدومي التربية هؤلاء، لكنني أعتقد أن بادي ماركس يعمل في مطبعة في شارع سترايكر».

التفكير في هذه الملحوظة فقط أجفله. هي لم تكتب عزيزي قبل اسمه، ولا مع حبي قبل إمضائها. إنها لا تؤمن بهذه المظاهر. الشيء الحقيقي في الثلاثية. في وقت ما بينما كان نائماً، خرجت وكدّست كل ما يحبه في الثلاثية. ذاكرتها قوية إلى حد مرعب. لحم خنزير معلب، رطلاً زبد طبيعي. كيف يمكنها توفير كل هذا رغم راتبها الضئيل؟ دستتا كولا، سجق لحم منقوع في تتبيلة أليس السرية، التي رفضت أن تخبر ابنها نفسه بمكوناتها، وجالون آيس كريم باسكن روبنز بطعم الخوخ، بالإضافة إلى كيك جُبْن، من النوع المزيّن بالفراولة من أعلى.

دفعه حدسه إلى الذهاب إلى الحمام، لا للاعتناء بمثانته، بل للتحقق مما في خزانة الأدوية. وجد فيها فرشاة أسنان جديدة من ماركة بيبسودينت معلقة على الحامل القديم حيث علّق كل فرش أسنانه طوال طفولته، وعبوة شفرات وعلبة كريم حلاقة بارياسول، وزجاجة كولونيا أولد سبايس. يمكن لاري أن يسمعها تقول إن ما في الخزانة ليس فاخراً، لكنه ذو رائحة طيبة بالنسبة إلى سعره.

ظل يحدق إلى هذه الأشياء، ثم أمسك أنبوب معجون الأسنان. بلا كلمة «عزيزي» أو «مع حبي، ماما»، بل مجرد فرشاة أسنان وأنبوب معجون وزجاجة كولونيا. أحياناً يعتقد أن الحب الحقيقي أبكم أيضاً كما هو أعمى. غسل أسنانه وهو يسأل نفسه عن وجود أغنية بهذا المعنى في مكان ما.

جاءت مختصة نظافة الأسنان، ترتدي سروالاً داخلياً وردياً ولا شيء آخر. قالت: «هاي، لاري». كانت قصيرة، في جمال ساندرا دي الغامض، نهذاها يشيران نحوه، مشدودان بلا أثر لترهل. ماذا كانت النكتة القديمة؟ (لقد

نُهبنا، لقد كانت تحمل زوجي مدافع مُوجهين إلينا). ها ها.. مضحكة جدًّا.
لقد جاء ثلاثة آلاف ميل إلى هنا كي تلتهمه ساندر دي حيًّا طوال الليل.
قال لها وهو يقوم: «هاي!».

كان عاريًا، وملابسه على الأرض جوار الفراش، فبدأ يرتديها.
- عندي معطف منزلي يمكنك ارتداؤه لو أردت. لدينا على الإفطار سمك
مدخن وبيكون.

سمك مدخن وبيكون؟ بدأت معدته ترتجف وتطوى على نفسها.

- لا يا حلوتي، يجب أن أرحل. لدي موعد.

- أوه، مهلاً. لا يمكن أن ترحل عني هكذا...

- حقًا، إن الأمر هام.

- حسناً، أنا أيضًا هامة!

ازدادت حدتها، وآلم صوتها رأسه. بلا سبب محدد تذكر فريد فلينتستون⁽¹⁾
وهو يصرخ: «ويلمااااا» بأعلى صوته.

قال لها متهكمًا: «لكنة برونكس بادية في صوتك يا حبيبتي».

- ما المفترض أن يعني هذا؟

دسّت قبضتها على جانبي خصرها، والملعقة المدهنة تطل من بين
قبضتها كزهرة حديدية. اهتزّ نهذاها بلا توقف، لكنّ لاري لم يهتم. ارتدى
سرواله وزرّره.

قالت: «إذن، أنا من برونكس، هل يجعلني هذا زنجية؟ ما مشكلتك مع
برونكس؟ هل أنت عنصري من نوع ما؟!».

- لا مشكلة، ولا أعتقد أنني عنصري.

مشى نحوها حافيًا وأكمل: «اسمعي، لديّ موعد مع أمي. لقد وصلتُ إلى
هنا منذ يومين، ولم أتصلُ بها ليلة أمس..» ثم أضاف في أمل: «هل اتصلتُ
بها؟».

قالت: «أنت لم تتصلُ بأحد. وأراهن على أنها ليست أمك».

عاد ليجلس على الفراش، وانتعل حذاءه الخفيف.

(1) شخصية كرتونية من مسلسل آل فلينتستون. (الترجمة)

- بل هي حقًا. إنها تعمل في مبنى المصرف الكيميائي، تعمل في تدبير شؤون النظافة. أعتقد أنها الآن مديرة طابق.
- أراهن على أنك لست لاري أندروُد الذي سجَّل الأغنية أيضًا.
- صدقي ما تريدين. يجب أن أرحل.
- زعتُ فيه: «أيها الحثالة الرخيصة. ماذا أفعل بكل ما طهوت؟».
- ارميه من النافذة.

أطلقتُ جعجة غضب عالية، ورميتِ الملعقة نحوه. لو كان في يوم آخر من أيام حياته لما أصابته. من أوائل قوانين الفيزياء الطريفة أن الملاعق لا تطير في خط مستقيم إذا قذفتها مختصة نظافة فم غاضبة. لكن هذه المرة استثناء أثبت القاعدة. طارت، دارت، ثم ارتطمتُ بجهة لاري. لم تؤلمه كثيرًا، لكنه عندما مال يلتقط الملعقة رأى قطرات دمه تقطر على البساط.

اقترب خطوتين والملعقة في يده وصاح: «حري بي أن أُضرب بهذه».

قالت وهي تنكمش إلى الخلف على شفا البكاء: «طبعًا. لمَ لا؟ أيها النجم الكبير. تضاجع وترحل. ظننتك رجلًا لطيفًا. أنت لست لطيفًا».

جرتُ قطرات دموع على وجنتيها ثم سقطتُ من حافة فكها إلى صدرها. راقب مدهوشًا حركة إحداها إذ تنزلق على نهدها ثم تتوقف عند الحلمة. إن للقطرة قدرةً على التكبير، ورأى من خلالها المسام، وشعرة سوداء واحدة عند الحافة. قال لنفسه: «يا يسوع المسيح. أنا أُجن».

- يجب أن أرحل.

التقطتُ سترته البيضاء من على الأرض، ثم ارتداها.

صرختُ فيه وهو يخرج إلى حجرة المعيشة: «أنتَ لستَ رجلًا لطيفًا!».

منظر غرفة المعيشة يدفعه إلى الأنين. على الأريكة حيث تضاجعا على حسب ما يتذكر، دستتا نسخ من ألبومه «يا صغيرتي هل تفهمين رجلك»، وثلاثة نسخ أخرى فوق الاستيريو المترب.

وقفتُ تبكي عند باب الغرفة، بائسةً في سروال داخلي. يستطيع رؤية جرح على قصبة ساقها من الحلاقة.

قالت: «اسمع، اتصل بي. أنا لست غاضبة».

كان المفترض أن يقول: «بالتأكيد»، وليخلق بهذا الموضوع، لكنه سمع فمه يطلق ضحكة مجنونة عالية ويقول: «سمك المُدخن يحترق».

صرخت فيه، واندفعتُ خارج الغرفة فتعثرتُ في وسادة على الأرض وسقطتُ، ضربتُ ذراعها نصف زجاجة لبن، فاهتزَّت زجاجة خمر سكوتش فارغة إلى جوارها. فكر لاري: «إلهي! هل كنا نشرب هذين مختلطين؟».

خرج مسرعًا ونزل الدرج، عند آخر ست درجات سمع صوتها خارج شقتها تصيح: «أنت لستَ رجلًا لطيفًا! أنت لستَ...».

صفق البوابة خلفه، وغمره دفاء رطب يحمل عبق أشجار الربيع وعادم السيارات. بدتُ له الرائحة كالعطر مقارنةً برائحة القلي ودخان السجائر. كانت معه السيارة بعد، وقد احترقتُ قاعدتها، فرماها إلى المجرور وأخذ شهيقًا عميقًا من الهواء المتجدد. جميل أن تخرج من الجنون، وتعود إلى الأيام العادية الرائعة التي...

انفتحت نافذة خلفه بالأعلى، وعرف ما سيحدث تاليًا. صرخت فيه: «أتمنى أن تتعفن! أتمنى أن تسقط أمام قطار أنفاق مسرع لعين! أنت لست مغنيًا! أنت مقرف في الفراش! أيها المُخفق! دسَّ هذه في مؤخرتك! خذها إلى أمك أيها المُخفق!».

ونزلتُ عليه زجاجة اللبن من نافذة غرفة نوم الطابق الثاني. انحنى لاري، فتَهَشَّمتِ الزجاجة كقنبلة فوق شبكة المجرور، وملأت الشارع بالشظايا. تلتها زجاجة السكوتش، تهبط وهي تدور حتى تنهشم إلى جوار قدميه. تصويب سيئ على أي حال. انطلق يعدو وذراعه تقي رأسه. هذا الجنون لن ينتهي.

من خلفه صدح صوتها يصرخ بلكنة آل برونكس الممطوطة: «أيها الوضيع الرخيص!».

ثم استدار عند المنعطف وهو منحني، يضحك في هيستريا. قال لنفسه غير واعٍ إلى أنه يتكلم بصوت مسموع: «ألم يمكنكُ التعامل مع الأمر أفضل؟ أوه يا رجل، كان يمكنكُ التصرف أفضل ذلك. سحقًا لهذا يا رجل».

ثم أدرك أن صوته عالٍ، ففرتُ منه ضحكة مختلة أخرى. شعر فجأة بدوار وغثيان شديدين. أغمض عيني به قوة. قفزت ذكرى من مكتب تعذيب النفس في عقله، وسمع صوت وين ستوكي يقول: «لأنك بارع، تحفر في الصخر».

لقد تعامل مع الفتاة كأنها عاهرة رخيصة بعد ليلة مضاجعة.

أنت لست رجلاً لطيفاً.

بل أنا كذلك. أنا كذلك.

عندما احتجّ الناس في حفله على طردهم، هددهم بالاتصال بالشرطة، وقد كان يعني هذا. أليس كذلك؟ بلى. لقد كان يعني هذا. أغلبهم غرباء. هذا حقيقي، وما كان ليهتم لو أنهم داسوا لغماً أرضياً وانفجروا. لم يكن يعرف من المحتجين إلا أربعة أو خمسة ممن عرفهم منذ الأيام الخوالي. ووين ستوكي، هذا الوغد، يقف عند الباب عاقداً ذراعيه كقاضي تنفيذ في يوم الإعدام.

خرج سال دوريا من غرفة داخلية وهو يقول: «لو أن الشهرة تفعل هذا بمن هم مثلك، فأنا أتمنى لو أنك ما زلت تعزف في الحانات».

فتح عينيه، ونظر إلى الطريق بحثاً عن سيارة أجرة. لو أن سال صديق حقيقي، فماذا كان يفعل هناك وكيف يمتص ماله بهذه الطريقة؟ أنا أحقق، ولا أحد يحب أن يرى أحقق يتعقّل. هذه هي القصة الحقيقية.

أنت لست رجلاً لطيفاً.

غمغم: «أنا رجل لطيف. على أي حال، هذا ليس من شأن أحد».

اقتربت سيارة أجرة، فأشار لها لاري. تردد السائق قليلاً قبل أن يتوقف، وتذكر لاري الدم على جبهته. فتح الباب الخلفي وركب قبل أن يغير الرجل رأيه.

قال له: «مانهاتن. المصرف الكيميائي».

انطلقت السيارة، وقال السائق: «جبهتك مجروحة يا أخ».

قال لاري في شرود: «رمتني فتاة بملعة تقليب».

ابتسم له السائق ابتسامة غريبة مصطنعة، وأكمل طريقه تاركاً لاري يفكر في كيفية شرح ما حدث تلك الليلة لأمه.

الفصل الحادي عشر

وجد لاري امرأة سوداء مرهقة في ردهة الاستقبال، قالت له إنها تعتقد أن أليس أندروُد في الطابق الرابع والعشرين، تجرد المخزن. ركب مصعدًا إلى أعلى، والناس معه يسددون نظرات غريبة إلى جبهته. لم يعد الجرح هناك ينزف، لكنه تجلّط بشكل فوضوي.

يشغل الطابق الرابع والعشرين مكاتبُ موظفي شركة كاميرات يابانية. سار لاري خلال الأروقة عشرين دقيقة تقريبًا بحثًا عن أمه، شاعرًا بالحمق. أغلب الموظفين يابانيون، ف شعر أنه أحرق عملاق، بطوله الذي يربو على الأقدام الست وبوصتين. الرجال والنساء القصيرون بأعينهم المشقوقة ينظرون إلى جبهته وكُم سترته المدمى بأعين شرقية حادة.

أخيرًا وجد بابًا يحمل لافتة مكتوبًا عليها «الحراسة والخدمة». جرب المقبض، ووجد الباب غير مقفل فنظر إلى الداخل. أمه هناك، ترتدي فستانًا عملها الرمادي معدوم التفاصيل، وتنتعل حذاءً خفيفًا. شعرها مربوط داخل شبكة سوداء. كانت تمسك لوح كتابة وظهرها نحوه، وبدت كأنها تحصي زجاجات المنظفات المرصوفة فوق رف عالٍ.

شعر لاري برغبة مُلحة في الهرب، والعودة إلى المرأب على بعد مربعين سكنيين من بيتهم، وركوب سيارته. اللعنة على شهري الإيجار اللذين دفعهما مقابل إيقاف السيارة. اركبْ و(اخلعْ) من هنا إلى سولت ليك سيتي أو يوتاه. أي مكان سيكون أفضل من هنا ما دام على بُعد شاسع من ديوي وِدِلْ وخزانته الصغيرة التي تفوح برائحة الصابون.

اشتدَّ الصداغ، ولا يعرف أكان هذا بسبب ضوء مصابيح الفلورسنت، أم بسبب جرح جبهته.

كُفَّ عن النواح أيها الطَّريِّ اللعين.

قال: «مرحباً أُمي».

أجفلت، لكنها لم تلتفت نحوه.

- إذن لقد شققتَ طريقك يا لاري.

حرك ساقيه وهو يقول: «طبعاً. أردتُ فقط أن أعتذر لك. كان الأفضل أن أتصل به ليلة...».

- نعم. فكرة جيدة.

- بَتُّ مع بادي، و... أ.. خرجنا للنمشية. طفنا بالبلدة.

- عرفت أن هذا سيكون السبب، أو شيئاً مماثل.

ثم صعدتُ على مقعد صغير لعد عبوات ملمع الأرضيات على الرف العلوي، وراحت تمس كل واحدة برفق بطرفي سبابتها وإبهامها. كان عليها أن ترفع ذراعها إلى أعلى، وعندما فعلت، رأى ما فوق جوربيها الطويلين من لحم فخذيها الأبيض، فأبعد عينيه، وقد تذكر فجأة ودون سبب ما حدث لابن نوح الثالث عندما نظر إلى عورة أبيه المخمور⁽¹⁾. لقد تحول البائس هو ونسله إلى عبد يقطع الخشب ويجلب المياه إلى الأبد. ولهذا يا بُني لدينا اختلافات عرقية. مجَّد الرب.

سألته وهو ينظر إليها للمرة الأولى: «هل هذا فقط ما جئت لتخبرني به؟».

- أردتُ إخبارك بمكان وجودي أمس، وأردتُ أن أعتذر. نسياني موعدك أمرٌ شنيعٌ.

- نعم. لكن دُعْ شناعتك لنفسك يا لاري. هل تظنني نسيْتُ ذلك؟

احمرَّ وجهه وغمغم: «أُمي، اسمعي...».

- أنت تنزف. هل ضربتك راقصة خليعة بسرّوَال داخلي؟

ثم التفتتُ إلى الأرفف. بعدما عدَّت ما في الصف، نظرتُ إلى لوح الكتابة وقالت وهي تدوّن: «أحدهم اختلس لنفسه عُبُوتِي ملمع أرضيات الأسبوع الماضي».

قال بصوت عالٍ مبالغٍ: «جئتُ أعتذر».

(1) بحسب الرواية التوراتية (المترجمة)

لم تجفّل، لكنه فعل.. إلى حد ما.

- كما تقول.. السيد چوهان سينهال علينا بتقريعه لو لم يتوقف مُلمع الأرضيات عن الاختفاء.

- أنا لم أتورط في شجار حانة، ولم أكنُ في ملهى تعرّ. لا أفعل أيّا من هذا. الأمر فقط...

ثم صمت وخبا صوته.

التفتت إليه بحاجبين مرفوعين وتعبير ساخر يتذكره جيّدًا وقالت: «الأمر فقط ماذا؟».

- حسنًا...

لم يستطع أن يجد لنفسه كذبة سريعة مقنعة.

- إنها ملعقة تقليب فقط.

- هل حسبك أحدهم بيضة مقلية؟ يبدو أنها ليلة عظيمة تلك التي قضيتها في البلدة مع بادي.

لا ينفكُ ينسى أنها تستطيع إحكام الحلقات حوله وحبسه في أكاذيبه.

- بل فتاة. فتاة رمّنتي بها.

- يا لها من تصويبة.

ثم التفتت مجددًا إلى الأرفف مضيفة: «كونسويلا اللعينة تخفي أوراق الطلبات عني مرة أخرى. الأوراق لا تفيد في شيء، فنحن لا نحصل على كل ما نريد، لكننا نحصل على الكثير مما لا نحتاج إليه ولا أعرف ماذا أفعل به».

- أمي، هل أنت غاضبة مني؟

أنزلت ذراعيها فجأة إلى جانبيها وتهدّل كتفاها.

همس: «لا تغضبني مني. اتفقنا؟ هه؟».

استدارت، ورأى لمعة غير طبيعية في عينيها.. حسنًا، المفترض أنها طبيعية كفاية، لكنّ بالتأكيد لم يتسبّب فيها ضوء مصباح الفلورسنت، وسمع مختصة نظافة الفم تردد: «أنت لستَ رجلًا لطيفًا». لماذا عاد إلى أمه إن كان ينتوي فعل هذا بها.. ولا يهتم لما ستفعله هي به؟

قالت برقة: «لاري... لاري، لاري...».

للحظة ظنَّ أنها لن تقول شيئاً سوى ذلك، حتى إنه سمح لنفسه أن يأمل هذا.

- هل هذا كل ما تستطيع قوله؟ لا تغضبي مني يا أمي، لا تغضبي مني؟ أسمعك في الراديو، حتى وتلك الأغنية لا تعجبني، أفخر أنك تغنيها. يسألني الناس أكان هذا حقاً ابني، وأخبرهم أنك كنت بارعاً في الغناء طوال عمرك، وهذه ليست كذبة، أليس كذلك؟

هزَّ رأسه في بؤس، غير واثق من قدرته على الكلام.

- أخبرتهم كيف أمسكت بجيتار دوني روبرتس وأنت في المدرسة المتوسطة، وكيف عزفت أفضل منه ولمدة نصف ساعة، رغم أنه كان يدرس العزف منذ الصف الثاني. أنت موهوب يا لاري، ولا أحتاج إلى مَنْ يخبرني بذلك. أعتقد أنك تعرف هذا، لأنه الأمر الوحيد الذي سمعتك تشكو بسببه. ثم رحلت، وهأنا أقرّعك من أجل اختيارك. لا. الشباب والشابات يرحلون. هذه هي طبيعة العالم. الأمر مؤلم أحياناً، لكنه طبيعي. ثم ها أنت تعود. هل يجب أن يخبرني أحد سبب عودتك؟ لا. أنت عدتَ بسبب ورطة هناك في الساحل الغربي.

قال في عنده: «لستُ في ورطة».

- بل أنت متورط. أعرف العلامات. أنا أمك منذ سنوات طويلة ولن تتمكن من خداعي يا لاري. أنت تبحث دائماً عن المتاعب ما لم تُدرْ رأسك أولاً وتجدها أمامك. أحياناً أظنك تعبر الشارع فتطأ خراء كلب. ليسامحني الرب على قول هذا، لكنه يعرف أنه الحقيقة. هل أنا غاضبة؟ لا. هل خاب أُملي؟ نعم. أُمِلْتُ أن تتغير هناك، لكنك كما أنت. غادرت وأنت صبي في جسد شاب، وعدتَ كما غادرتَ، إلا أن الشاب عاد بشعر مُصفف. هل تعرف لماذا أظنك عدتَ؟

نظر إليها راغباً في الحديث، لكنه يعرف أن العبارة الوحيدة التي يستطيع التفوه بها هي: «لا تبكي يا أمي، هه؟».

- عدتَ لأنك لم تجدَ مكاناً آخر تذهب إليه، أو أحداً يقبلك. أنا لم أقلُ لأي شخص كلمة واحدة تسيء إليك يا لاري، ولا حتى لأختي، لكن لما كنت تدفعني إلى هذا، فسأخبرك بما أظن فيك. أنت نهم، ناقص، تأخذ ولا تمنح. كأن الرب ترك منك جزءاً في الخارج عندما زرعك بداخلي. أنت

لست سيئاً، ليس هذا ما أعني. لو أنك خبيث حقاً لأفسدك تأثرك ببعض الأماكن التي عشنا فيها بعد وفاة أبيك، والرب يعلم هذا. أتذكر أن أسوأ ما ضببتك تفعله هو أنك كنت تكتب كلمة خادشة على حائط المنزل الذي سكناه في كوينز. هل تتذكر هذا؟

إنه يتذكر. كتبت الكلمة الخادشة ذاتها بالطبشور على جبهته، وجعلته يدور معها حول المربع السكني ثلاث مرات. لم يكتب هذه الكلمة ولا أي كلمة أخرى في أي مكان بعدها.

- المشكلة يا لاري أن نيتك سليمة. أحياناً تقتضي الرحمة أن تكون سيئاً. أنت تعرف الخطأ لكنك تعجز عن إصلاحه، وأنا أيضاً لا أعرف لإصلاحه سبيلاً. جربت كل شيء وأنت طفل، والكلمة التي كتبتها على جبينك كانت إحدى المحاولات.. لكني كنت قد يئست وقتها.. ما كنت لأفعل شيئاً كهذا بك لولا اليأس. أنت نهم، هذا كل ما في الأمر. لقد عدت إليّ لأنك تعرف أنني سأمنحك، ولن أمنح أحداً سواك.

قال وكل كلمة ينطقها كأنها كُرة صوف: «سوف أرحل من بيتك. هذا المساء».

ثم خطر له أنه لن يستطيع توفير مال الانتقال، على الأقل ليس قبل أن يرسل إليه وين شيك مستحقاته التالي، أو ما تبقى منه بعدما يدفع للكلاب لوس أنجليس الجائعة. أما ما معه الآن، فقد دفع منه إيجار مرأب لشهرين، وبعد مغامرة أمس التي بدأت ببادي وخطيبته، ومختصة نظافة الفم التي تعرفها خطيبته - فتاة لطيفة من برونكس يا لاري، ستحبها - صار المال معه قليلاً. لا، إن كنت تريد الدقة، فقد صار (على الحديدة). أرعبته الفكرة. لو أنه ترك بيت أمه الآن فإلى أين سيذهب؟ فندق؟ سيطرده ركلًا بواب أقل فندق ترعى فيه البراغيث. إنه يرتدي ملابس جديدة، لكنهم يعرفون.. أبناء الحرام أولئك يعرفون المفلسين بطريقة ما. يمكنهم شم رائحة المحفظة الفارغة.

قالت برفق: «لا ترحل. تمنيت لو لم ترحل يا لاري من الأساس. لقد اشتريت لك طعاماً مخصوصاً. ربما رأيته. كنت أمل أن نلعب الكونكان الليلة».

قال مبتسماً قليلاً: «أنت لا تعرفين كيف تلعبينه يا أمي».

- مقابل مليم للنقطة، يمكنني هزيمة صبي مثلك.

- ربما لو أعطيتك أربعمائة للنقطة...

- ربما لو أعطيتك أنا أربعمئة لتمكث. ما قولك؟

- موافق.

لأول مرة اليوم يشعر أنه بخير. بخير حقًا. صوت صغير في عقله يهمس له بأنه يأخذ مرة أخرى، لاري القديم يركب مجانًا، لكنه رفض أن ينصت له. هذه أمه قبل كل شيء، وهي التي طلبت. صحيح أنها تفوهت ببعض الكلمات القاسية وهي تطلب، لكن الطلب طلب.

- أقول لك. سأدفع تذكرتينا لمباراة يوم الرابع من يوليو. سأدفعها مما سأسلخه منك الليلة.

- أنت لا تستطيع سلخ ثمرة طماطم.

ثم استدارت إلى الأرفف مضيئة: «في آخر الرواق دورة مياه للرجال. لماذا لا تذهب وتغسل الدم عن جبهتك؟ ثم خذ عشرة دولارات من حقيبتي وشاهد فيلمًا. في الشارع الثالث دور عرض جيدة، فقط ابتعد عن الأماكن المريبة في برودواي».

قال لاري: «سأعيد إليك المال سريعًا. الألبوم في المركز الثامن عشر هذا الأسبوع. لقد تحققت من الأمر في طريقي إلى هنا. رأيت الخبر في نسخة جريدة في مقهى».

- هذا رائع. إن كنت ثريًا هكذا، لماذا لم تشتري نسخة إذن؟

فجأة شعر بانسداد حلقه. تنحنح، لكنها لم تزل.

قالت: «حسنًا، لا بأس. لساني كحصان عكر المزاج. حالما يجري، سيظل يجري حتى يتعب. خذ خمسة عشر دولارًا يا لاري. اعتبرها سلفة. أعتقد أنني سأستعيدها بشكل أو بآخر».

مكتبة سر من قراء

- سوف تستعيدينها.

اقترب منها وجذب ذيل فستانها كطفل. نظرت إلى أسفل نحوه. وقف على أطراف أصابعه وقبّل خدها.

- أحبك يا أمي.

بدت مشدوهة، ليس بسبب القبلية، بل بسبب ما قال ونبرة صوته التي قاله بها.

- أعرف يا لاري.

- أما ما قلته عن كوني في ورطة. فأنا كذلك نوعًا، لكنها...
تغير صوتها وصار باردًا صارمًا فجأة، فقاطعتها: «لا أريد أن أسمع
التفاصيل».

- حسنًا. اسمعي يا أمي... ما أفضل قاعة عرض هنا؟
- قاعة لوكس توين. لكنني لا أعرف ما يُعرض عليها الآن.
- لا يهم. هل تعرفين فيم أفكر؟ ثلاثة أشياء يمكنك الحصول عليها في أي
مكان من أمريكا، لكنها الأفضل في نيويورك.
- حسنًا يا سيدي الناقد في جريدة التايمز. وما هي؟
- الأفلام، البيسبول، شطائر الهوت دوج من عند نيديك.
- ضحت ثم قالت: «أنت لست أحقق يا لاري.. ولم تكن قط».

ذهب إلى دورة مياه الرجال، وغسل الدم عن جبهته، ثم عاد إلى أمه وقبلها
مرة أخرى، وأخذ من حقيبتها السوداء المهترئة خمسة عشر دولارًا، ذهب
بها إلى السينما. شاهد فيلمًا عن مجنون خبيث يُدعى فيردي كروجر، يغرق
مجموعة مراقبين في رمال أحلامهم المتحركة، حيث يموتون جميعًا عدا
البطلة. بدا أن فيردي كروجر قد مات أيضًا في النهاية، لكن صعب التأكد إذ
إن الفيلم يحمل رقمًا بعد اسمه، وهذا ما يعني أن له أجزاء. ظن لاري أن الرجل
ذو الأمواس على أطراف أصابعه سيعود، وهو لا يعرف أن صوت السعال
الآتي من صف خلفي يعلن نهاية كل هذا. لن يكون في العالم أجزاء أخرى لأي
شيء، وخلال مدة قصيرة جدًا، لن تكون فيه أي أفلام.

الفصل الثاني عشر

في ركن غرفة الاستقبال البعيد ساعة عمودية عتيقة. ظلت فراني جولد سميث تسمع صوت تگّتها طَوّال حياتها. احتل صوتها الغرفة التي تکرهها، وفي يوم كهذا يزداد مقتها إياها.

ورشة أبيها هي غرفتها المفضلة، تقع في المساحة المظللة بين المنزل والحظيرة. تدخل إليها من باب صغير بارتفاع خمس أقدام تقريبًا، مخفي خلف فرن حطب قديم في المطبخ. يبدو الباب الصغير المخفي كالأبواب في القصص الخيالية. عندما كبرت وصارت أطول، اضطرت إلى الانحناء للدخول منه مثل أبيها، أما أمها فلم تكن تدخل الورشة إلا في حالات الضرورة القصوى. كان بابًا من أبواب رواية أليس في بلاد العجائب، ولعبتها الخيالية التي لم تخبر بها أبوها أنها كانت تتخيل أنها فتحتة ولم تجد خلفه ورشة بيتر جولدسميث، بل نفقًا يربط بشكل ما بين بلاد العجائب وهوبيتون⁽¹⁾، مممرًا منخفض الارتفاع لكن مريحًا بشكل ما، ذا جوانب دائرية، وسقفًا تبرز منه جذور الأشجار التي قد تضرب رأسك لو فردت قامتك. نفقًا لا يفوح برائحة التربة المبللة والحشرات والديدان، بل برائحة القرفة وفطيرة التفاح المخبوزة، أحد طرفي النفق يؤدي إلى باج إند، حيث كان يحتفل بيلبو باجنز⁽²⁾ بيوم مولده المائة وأحد عشر...

حسنًا، اتضح أن هذا النفق الخيالي ليس له وجود، لكن بالنسبة إلى فراني جولد سميث التي ترعرعت في هذا البيت، الورشة (التي يسميها أبوها «غرفة الأدوات» وتسميها أمها «ذلك المكان القذر الذي يشرب فيه أبوك البيرة»)

(1) المدينة التي يسكنها الهوبيت في رواية سيد الخواتم (المترجمة)

(2) أحد شخصيات رواية سيد الخواتم (المترجمة)

مكان فيه أدوات غريبة ومُعَدَّات عملاقة، وصندوق هائل ذو ألف دُرج، كلها ملأى بالمسامير والصواميل والأشياء التي لم يكن لها اسم بالنسبة إليها وقتها، وما زالت بلا اسم الآن.

الورشة مظلمة، لا يضيئها سوى مصباح مغطى بخيوط العنكبوت، مُدلى بسلك من السقف، يلقي الضوء فقط على المكان الذي يعمل فيه أبوها. المكان يفوح برائحة التراب والزيت ودخان الغليون، فخطر لها الآن قانون ينص على ضرورة أن يدخل كل أب. غليون، سيجار، لفافة تبغ، ماريجوانا، حشيش، ورق خس.. أي شيء، لأن رائحة التبغ جزء حميم من ذاكرة طفولتها.

«ناوليني هذا المفتاح يا فراني. لا.. الصغير. ماذا فعلت في المدرسة اليوم؟ حقاً؟ لماذا قد تريد رثي سيرز دفعك؟ نعم، هذه سحجة صعبة، سيئة للغاية، لكنها تتماشى مع لون فستانك، أليس كذلك؟ والآن لو دفعت رثي مرة أخرى وجرحت ساقك الأخرى، سيكون عندك سحبتان. ناوليني المفك الكبير لو سمحت... لا، ذا المقبض الأصفر».

«فراني جولدسميث! اخرجي من هذا المكان القذر الآن حالاً، وبدلي ملابس المدرسة! الآن.. حالاً! ستكونين قدرة!».

حتى الآن وهي في الحادية والعشرين يمكنها الانحناء والوقوف ما بين منضدة الورشة والفرن الكبير الذي يبعث حرارة هائلة في الشتاء، ورؤية ما كانت تراه فراني الصغيرة. يا له من شعور مُمرض، مخلوط بالحزن دائماً كونها تتذكر بالكاد أخاها فريد. يمكنها أن تقف وتشم رائحة الزيت ينبعث من كل شيء، ورائحة دخان غليون أبيها. إنها لا تتذكر تقريباً كيف بدت صغيرة، لكن في الورشة تتذكر وهو شعور جيد.

لكن غرفة الاستقبال...

غرفة الاستقبال...

لو أن الورشة نعمة طفولتها مجسدة في رائحة غليون أبيها (كان أحياناً ينفث الدخان في أذنها إن أَلَمَتها، بعد أن تعده بأنها لن تخبر كارلا التي ستصاب بنوبة غضب لو عرفت)، فغرفة الاستقبال هي تجسيد لكل شيء تتمنى أن تمحوه من طفولتها. عبارات مثل: «تكلمي فقط عندما يوجّه إليك الكلام!»، «الكسر أسهل من الإصلاح!»، «اصعدي وبدلي ملابسك حالاً، ألا تعرفين أن هذا غير لائق؟ ألا تفكرين أبداً؟»، «لا تهرشي هكذا في ملابسك

يا فراني، سيظنُّ الناس أن في جسدك قملًا! ماذا سيظن فيك الخال أندرو والخالة كارلين؟ لقد أخرجتني حد الموت!». .

غرفة الاستقبال هي حيث يجلدك فيه اللسان، وغرفة الاستقبال هي حيث تشعر بجِكة ولا تستطيع أن تهersh. في غرفة الاستقبال أوامر استبدادية، ونقاشات مملة، وأقرباء يقرصون الخدود، وعطسات لا يمكن إطلاقها، وسعال يجب كبته، وفوق كل هذا، تتأوَّب لا يصح أن تتثاءبه!

في منتصف هذه الغرفة تتجسد روح أمها في الساعة. صنعها ولد كارلا عام 1889، وتوارثتها الأسرة خلال السنوات، تُلف بحرص وتؤمن لتُنقل من مكان إلى آخر خلال البلاد (بدأت رحلة الساعة من بافالو، نيويورك، من ورشة توبياس، وهو بلا شك مكان مفعم بالدخان والوسخ مثل ورشة بيتر، لكنَّ تفصيلا كهذه قد تثير جنون كارلا)، وأحياناً تنتقل الساعة من فرع من الأسرة إلى آخر عندما يقصف السرطان أو الحوادث أحد تلك الفروع. انتصبت الساعة في بيت بيتر وكارلا عندما انتقلا إليه منذ ست وثلاثين عامًا، وظلت تدق وتُتكتك، تُشرف على شظايا الزمن في عصر قاس. في يوم ما ستؤول إليها الساعة لو أرادت، لكنها لا تريدها! لا تريدها ولن تأخذها.

في تلك الغرفة أزهار مجففة تحت أجراس زجاجية. في تلك الغرفة بساط رمادي فاتح منقوش بأزهار وردية في المنتصف. في تلك الغرفة نافذة هائلة مقوَّسة من أعلى تطل على التل وطريق رقم 1، يفصل بين البيت وبين الطريق سور من النباتات. ظلَّت كارلا تُلح على زوجها حتى زرعه بعد بناء محطة وقود إيكسون بالقرب منهم، ثم ألحَّت عليه بعدها كي يجعله ينمو أسرع. فكرتُ فراني في أن الأسمدة المشعة ستكون مقبولة لدى أمها لو أنها ستؤدي الغرض. خفَّ إلحاحها عندما نمت النباتات وحجبت عنها منظر محطة الوقود الذي يضايقها، وصارتُ غرفة الاستقبال معزولة مرة أخرى.

ورق الحائط مطبوع بنقشة أوراق الشجر الكبيرة والأزهار الوردية بدرجة لون أزهار البساط نفسها تقريبًا. باب الغرفة من أوائل إصدارات شركة الأثاث الأمريكي، مصنوع من خشب الماموجني. المدفأة الحجرية مجرد زينة، مُقامة فوق درجة من الطوب الأحمر النظيف، بداخلها خشب لم يُمس منذ عقود. فكرتُ فراني في أن تلك الخشب قد جفَّ حتى ليشتعل كورقة جريدة لو مسَّه لهب. فوق الحطب أصيص ضخم يتسع لاستحمام طفل، وقد ورثته أمها

عن جدتها الكبرى، وهو معلق هناك فوق المدفأة الأبدية. على رف المدفأة
بندقية فلينتلوك لاستكمال المشهد.

شظايا الزمن في عصر قايِس.

من أولى ذكرياتها، ذكرى تبوّلها على نقش الأزهار في منتصف البساط
الرمادي الفاتح. ربما كانت في الثالثة، ولم تتدرب كفاية على استخدام دورة
المياه، وعلى الأرجح لم يكن مسموحًا لها بالوجود في غرفة الاستقبال إلا في
المناسبات الخاصة بسبب فرصة حدوث مشكلات كهذه. لكنها بشكل ما دخلت
الغرفة، ورأت أمها لا تجري، بل تقفز إليها لتحملها قبل أن يقع المحذور،
لكنّ فعلتها عجّلت بوقوعه. ارتخت عضلات مئانتها وأغرقت البساط الرمادي
الذي تبقّع بلون أدكن اتسع تدرجيًا، فصرخت أمها. أزيلت البقعة أخيرًا، لكن
بعد كم غسلة؟ الرب وحده يعلم، لكنّ فراني جولد سميث لا تعرف.

في غرفة الاستقبال تكلمت أمها معها في وجوم ولوم مطولين، بعدما
ضبطت فراني ونورمان بورشتاين يتفحصان جسديهما في الحظيرة،
وملابسهما مكومة على كومة قش. سألت كارلا ابنتها -فيما تراقبهما ساعة
الجد- عن شعورها لو أخذتها في جولة بلا ملابس على الطرق رقم 1. كيف
سيكون الأمر؟ بكّت فراني -التي كانت في السادسة- لكنها بطريقة ما نجت
من الهيستريا المرافقة لهذا الموقف.

عندما بلغت العاشرة، ارتطمت بدارجتها في صندوق بريد فيما تصيح
بشيء لچورچيت مكجواير. جرحت رأسها وأدمت أنفها وحكّت رُكبتيها
وفقدت الوعي عدة لحظات من الصدمة. عادت إلى البيت تبكي وتتأرجح
بدراجتها على الممر، مرتعبة من منظر الدم الذي ينزف منها. كانت لتذهب
مباشرة إلى أبيها، لكنّ لما كان في العمل، اضطرّت إلى الدخول إلى غرفة
الاستقبال حيث تجلس أمها، تشرب الشاي مع السيدة فينر والسيدة براين.
صاحت فيها أمها: «اخرجي!»، وفي اللحظة التالية هُرعت إليها تضمها وتردد:
«أوه يا فراني العزيزة، ماذا حدث لك؟ انظري إلى أنفك!» إلا أنها كانت تقودها
إلى المطبخ حيث يمكن لأرضيته تحمّل النزف. حتى وهي تواسيها، لم تنس
فراني أول كلمة تفوهت بها؛ اخرجي! غرفة الاستقبال هي أول ما اهتمت به،
حيث يستمر العصر القاسي إلى الأبد، ولا يُسمَح بالدماء. ربما لم تنس السيدة
براين أيضًا، لأن فراني رأت خلال دموعها نظرة صدمة، وبعد هذا اليوم لم تزر
السيدة أمها إلا لمأما.

في أول سنوات دراستها المتوسطة، حصلت على نتيجة سيئة، وطبعاً دُعيتُ إلى غرفة الاستقبال لمناقشة درجاتها مع أمها. في آخر سنوات الدراسة الثانوية تلقَّت ثلاث عقوبات بسبب تمريرها ملاحظات إلى زملائها في أثناء الدرس، وطبعاً ناقشت الأمر مع أمها في غرفة الاستقبال، وفيها تحدثنا عن طموحات فراني التي اتضح أنها ضحلة، وهنا ناقشنا آمالها التي اتضح أنها تافهة، وهنا أفصحْتُ عن شكواها التي اتضح أنها مبالغ فيها، واتُّهمْتُ بالتهويل ونكران النعمة.

في غرفة الاستقبال وضعوا تابوتَ أخيها والزهور فوقه، يملأ عبق جفافها الغرفة، فيما في الركن الساعة المتجهمة تحرس المكان، تدق وتتكك، تشرف على شظايا الزمن في عصر قايِس.

كررتُ كارلا جولد سميث للمرة الثانية: «أنتِ حامل؟».

- نعم يا أمي.

صوت فراني جاف، لكنها لن تسمح لنفسها بأن تبلل شفيتها، فزمتها. فكرتُ: «في ورشة أبي فتاة صغيرة بفستان أحمر، وستظل هناك دائماً، تضحك وتختبئ أسفل المنضدة، وراء صندوق الأدوات الضخم، تضم ركبتيها المسحوجتين إلى صدرها. هذه الفتاة سعيدة للغاية، لكن في غرفة استقبال أمي فتاة أصغر لا تستطيع السيطرة على مثانتها، تبول على البساط ككلبة سيئة مشاغبة. وستظل هناك مهما تمنيتُ أن ترحل».

قالت أمها سريعاً وقد وضعت كفها على خدها كخالة عانس: «أوه يا فراني. كيف حدث هذا؟».

هذا سؤال جيس. أحققها هذا للغاية، فهذا هو سؤاله نفسه!

- لما كان لديك طفلان يا أمي، فأنتِ تعرفين كيف يحدث هذا.

صاحت كارلا: «لا تتذكري!».

اتسعتُ عيناها وأطلقت الشرر منهما الذي لطالما أربع فراني وهي طفلة. نهضت واقفة (وكانت هذه الحركة المبالغتة تفزعها أيضاً) فبدت ضخمة ذات شعر رمادي مصفف بعناية في صالون التجميل. امرأة طويلة ترتدي فستاناً أخضر وحزاماً سُكرياً. اتجهت إلى رف المدفأة كعادتها في تلك المواقف. تحت البندقية ألجوم صور كبير. كارلا مَوْلعة بشجرة الأسرة، وفي السجل صور لكل أفرادها.. منذ عام 1638 على الأقل، حيث نبتت أولى فروع الأسرة

من أصل لندني بلا اسم، أصل عتيق حتى لتجد أثره في الكنائس الأثرية، مذكورًا باسم ميرتون دونز، من البنائين الأحرار. نُشِرت شجرة أسرتها منذ أربع سنوات في مجلة نيو إنجلاند لعلم الأنساب، مرفقة بلقاء مع كارلا نفسها. والآن تتصفح السجل الذي يحوي أسماء أسرتها التي تُقرأ بِشِقِّ الأنفس، كأنه أرضها الآمنة التي لن يتطفل عليها أحد. تساءلت فراني كيف لا يوجد لص واحد وسط هؤلاء؟ لا مدمنو كحول؟ لا أمهات غير متزوجات؟

قالت أخيرًا: «كيف تفعلين شيئًا كهذا بأبيك؟ هل هو هذا الولد چيس؟».

- چيس هو الأب.

أجفلت كارلا لسماح الكلمة. كررت: «كيف تفعلين شيئًا كهذا؟ لقد فعلنا ما في وسعنا لتربيتك على الطريق القويم، وهذا.. هذا...». ثم غطت وجهها بكفيها وانتحبت.

- كيف تفعلين هذا. بعد ما فعلناه من أجلك، يكون هذ هو الشكر؟ أن تخرجي و... و... تتزوجين مع ولد كأنك كلبة في موسم التزاوج؟ أنت فتاة سيئة!

اختلطت كلماتها مع البكاء، ومالت تستند إلى الرف وذراع واحدة فوق عينيها، والأخرى تمسّد على غلاف السجل القماشي الأخضر. وبينما يحدث كل هذا، تدق الساعة وتتكثت.

- أُمي...

- لا تكلميني! لقد قلت ما يكفي!

وقفت فراني متصلبة. شعرت بساقها كأنها خشب، إلا أنها كانت ترتجف. بدأت الدموع تتسرب من عينيها، فتركتها. لن تدع الغرفة تهزمها مرة أخرى.

- سأرحل الآن.

- لقد أكلت على مائدتنا! لقد أحببناك.. ودعمناك.. وهذا ما نحصل عليه في النهاية؟ أيتها الفتاة الفاسقة!

ترنحت فراني التي أعمتها الدموع، ثم تعثرت وفقدت اتزانها فسقطت. ارتطم جانب رأسها بحافة المنضدة، وضربت يدها مزهرية، فتدحرجت على البساط. لم تنكسر، لكنّ الماء تدفق منها محوّلًا الرماذي الفاتح إلى رمادي كئيب.

صرخت كارلا في انتصار: «انظري إلى هذا!».

الدموع اختلطت حول عيني أمها بمحدد الأعين، فأحاطتهما بالسواد الذي انثال على خديها يحفر مكياحها. بدت منهكة نصف مجنونة.

- انظري، لقد أفسدت البساط. بساط جدتك...

جلست فراني على الأرض تحك رأسها وهي تبكي بعد، تريد أن تخبر أمها أن ما انسكب على البساط ماء فقط، لكنها الآن مشتتة غير واثقة مما عليها أن تقول. هل هو ماء فقط؟ أم هو بول؟ أيهما؟

مرة أخرى تتكلم كارلا بالسرعة المخيفة ذاتها وهي تلتقط المزهريّة وتلوح بها مهددة.

- ما هي حركتك التالية أيتها السيدة؟ هل تخططين للبقاء هنا؟ لا تتوقعي أن نطعمك فيما تفضحيننا في كل مكان في البلدة. هذا هو ما تخططين له كما أفترض. حسناً، لا. لا! لن تحصلي على مرادك. لن تحصلي على مرادك!

غمغمت فراني: «أنا لا أريد المكوث هنا. هل تتصورين أنني أريد ذلك؟».

- إلى أين ستذهبين؟ ستعيشين معه؟ أشك.

- سأذهب إلى روبي رينجارتن في دورشستر، أو ديبى سميث في سمرزورث..

نهضت فراني واقفة، ما زالت تبكي، لكن بكاءها بدأ يتحول إلى غضب. أضافت: «هذا ليس من شأنك بعد الآن».

كررت أمها وهي تمسك المزهريّة بعد: «ليس من شأنى؟ ليس من شأنى؟! ما تفعلينه وأنت تحت سقف بيتي ليس من شأنى؟ أيتها الكلبة الجاحدة!».

لطمت فراني بقوة، فلف عنقها وتوقفت عن حك رأسها وانتقلت يدها إلى خدها وهي تنظر إلى أمها غير مصدقة.

قالت كارلا كاشفة عن أسنانها في تكشيرة مخيفة: «هل هذا هو الشكر الذي نلقاه لإحماقك بكّلية جيدة؟ الآن لن تُتْمي دراستك بعدما تتزوجينه...».

- لن أتزوجه. ولن أترك الدراسة.

اتسعت عينا كارلا وحدثت إلى فراني كأن الأخيرة فقدت عقلها.

- عمّ تتكلمين؟ عن الإجهاض؟ هل تريدين أن تجهضي الجنين؟ تريدين أن تصيري قاتلة إلى جانب كونك عاهرة؟
- سأنجب الطفل. سأؤجل فصل دراسة الربيع، لكنني سأستكمل الدراسة في الصيف التالي.
- وبماذا ستستكملين دراستك؟ بمالي؟ إن كان الأمر هكذا، فعليك أن تفكري كثيرًا. فتاة متحضرة متحررة مثلك لا تحتاج إلى معونة والديها، أليس كذلك؟

قالت فراني: «أعتقد أنني سأستخدم.. المال. سأعيده إليكم».

- ألا تخجلين أبدًا؟! ألا تفكرين في أي شخص إلا نفسك؟ ربي، ماذا سيفعل هذا بي أنا وأبيك! لكنك لا تهتمين لحظة! سيكسر هذا قلب أبيك، و...

«لا أشعر أن قلبي مكسور».

جاءهما صوت بيتر جولدسميث من جهة الباب، فالتفتا نحوه. كان واقفًا عند المدخل، لكنه بعيد، طرف حذائه بعد نهاية بساط المدخل القديم، وقبل بداية بساط غرفة الاستقبال. أدركت فراني فجأة أن هذا هو المكان الذي رآته فيه مرات سابقة لا تحصى. متى كانت آخر مرة دخل فيها غرفة الاستقبال؟ لا تستطيع التذكر.

انبرت كارلا تقول غير مكترثة لما قد يسببه كلامها من كسر لقلب زوجها: «ماذا تفعل هنا؟ ظننتك ستعمل إلى وقت متأخر».

- بدّلت المواعيد مع هاري ماسترز. لقد أخبرتني فراني فعلًا يا كارلا. سنصير جدين.

زعقت كارلا: «جدين؟!».

وانطلقت منها ضحكة قبيحة حائرة، وأضافت: «اترك الأمر لي. لقد أخبرتك أولًا وأخفيت أنت الموضوع عني. حسنًا. هذا ما أتوقع منك. لكني الآن سأغلق الباب، وسوف أحل المشكلة أنا وهي فقط».

ثم ابتسمت لفراني ابتسامة مرة مرعبة.

- نحن فقط.. الفتاتين.

وضعت يدها على مقبض باب الغرفة، ودفعته بينما تراقب فراني وهي تحاول معرفة سبب حَنَق أمها المفاجئ.

مد بيتر يده ببطء وثقة، وأوقف انغلاق الباب.

- أريدك أن تترك الأمر لي يا بيتر.

- أعرف أنك تريد هذا. لقد تركت لك حرية التصرف في الماضي، لكن ليس هذه المرة يا كارلا.

- هذه ليست مسؤوليتك.

- بل مسؤوليتي.

- أبي...

استدارت كارلا نحوها، وجهها الشاحب كالورقة ملطخ بالأحمر. صاحت: «لا تتحدثي إليه! ليس هو من سيتصرف معك! أعرف أنك تستطيعين التلاعب به بكلامك المعسول لقبول أي فكرة مجنونة، وسيأخذ صفك مهما فعلت. لكن ليس هو من سيتصرف معك اليوم يا.. آنسة».

- كفى يا كارلا.

- اخرج!

- أنا لست بالداخل لأخرج. يمكنك أن تري كيف...

- لا تسخر مني! اخرج من غرفتي!

وبدأت تدفع الباب بكتفها وهي خافضة رأسها، حتى بدت كتور بشري أنثوي عجيب. قاومها بسهولة في البداية ثم دفع أكثر وأوتار عنقه بارزة مع أنها امرأة ووزنها يقل عن وزنه سبعين رطلاً.

أرادت فراني أن تصرخ فيهما ليتوقفا، وأن تطلب من أبيها أن يرحل كي لا يضطر كلاهما إلى النظر إلى كارلا على هذا النحو، إلى الغضب والمرارة التي كانت تلوح بهما ثم أطلقتهما الآن. لكن قمها تجمّد، وصدت مفاصله.

- اخرج! اخرج من غرفتي! اخرج! أيها الوغد، اترك باب غرفتي واخرج!

وكان هذا عندما لطمها.

صدر عن اللطمة صوت مسطح غير مهم. لم تتناثر ساعة الجد متحولة إلى غبار، واستمرت في التكتكة كما كانت منذ صُنِعت. لم يتأوّه الأثاث أيضاً،

لكنَّ عبارات كارلا الغاضبة بُثرت كأنما بمبضع. هوت على ركبتيها، وانفتح الباب عن آخره مرتطمًا بمقعد عالي الظهر على الطراز الفيكتوري، ذي الغطاء المطرز يدويًا.

هتفت فراني: «أوه، لا...».

ضغطت كارلا يدها على خدها، وحدقت إلى زوجها.

علّق بيتر بصوت مهتز قليلًا: «لطالما عرفتُ أن هذا سيحدث منذ عشر سنوات تقريبًا. قلت لنفسني إنني لن أفعل ذلك لأنني لا أتفق مع فكرة ضرب النساء.. وما زلت. لكن عندما يتحول شخص -رجل أو امرأة- إلى كلب ويبدأ في العض، على أحدهم أن يتصرف. فقط تمنيتُ يا كارلا لو أنني فعلتُ هذا مبكرًا».

- أبي...

قال بصرامة: «صمًا يا فراني...». ثم أضاف وهو ينظر إلى وجه زوجته الساكن المصدوم: «تقولين إنها أنانية. بل أنت الأنانية. لقد توقفتِ عن رعايتها منذ مات فريد، منذ قررتِ أن الرعاية تؤلم، وقررتِ العيش لنفسك. وهنا، في هذه الغرفة، ظللتِ تمارسين وفاءك لأسرتك الميتة ونسيتِ مَنْ يحيا منها، وعندما جاءتكِ تخبركِ أنها في ورطة وطلبتِ مساعدتكِ، أراهن على أن أول ما خطر ببالك رد فعل سيدات نادي الحقائق والأزهار، أو أنك ستضطرين إلى عدم حضور زفاف آمي لودر. الألم سبب للتغيير، لكن كل الألم في العالم لا يغير الحقيقة. لطالما كنت أنانية».

مد يده إليها ليساعدها على النهوض. قامت واقفة كأنها تمشي في أثناء النوم. لم يتغيرَ تعبير وجهها؛ عيناها متسعتان مُنكرتان، لم يعد إليهما الاستيعاب بعد، لكنَّ فراني كانت تعرف أنه سيعود في وقته.

- هذا خطأي لأنني تركتكِ تتمادين، ولأنني لم أرغب في المشكلات، ولأنني لم أشأ أن أثقب المَرْكَب. كنت أنانيًا أيضًا كما ترين، وعندما غادرت فراني إلى الكلية قلت لنفسني: حسنًا، يمكن لكارلا أن تتصرف كما تشاء الآن، ولن تؤذي تصرفاتها أحدًا إلا نفسها، لكنني كنت مخطئًا كما كنت من قبل.

مد يده وقبض على كتفي كارلا برفق لكنَّ في حزن وأكمل: «والآن، أقول لك هذا بصفتي زوجك. لو أرادتُ فراني مكانًا تقيم فيه، فهذا هو المكان،

كما كان طوال عمرها. لو احتاجت إلى المال، فيمكنها أن تأخذ منه ما تشاء كما اعتادت. ولو قررت أن تحتفظ بالطفل، فتأكدي من أنها ستحصل على احتفال لائق، وقد تظنين أن أحداً لن يأتي، لكن لفراني أصدقائها الصالحون، وسيأتون. سأخبركِ شيئاً آخر أخيراً، لو أرادت تعميده، فسيحدث هذا هنا، في هذه الغرفة اللعينة».

انفتح فم كارلا، وبدأ صوتٌ من نوع ما يخرج منه. بدا في البداية كصفارة غلاية ماء على موقد، ثم تحوّل إلى ولولة.

- بيتر.. نعش ابنك وُضِعَ في هذه الغرفة!

- نعم. ولهذا لا أجد سبباً أفضل لاختيار هذا المكان للاحتفال بحياة جديدة. فريد مات منذ سنوات طوال يا كارلا، وصار طعاماً للديدان من وقتها.

صرخت، ووضعت يديها على أذنيها، فانحنى نحوها يبعدهما.

- لكنّ الديدان لم تنل من ابنتكِ ولا طفلها. لا يهم كيف حصلت عليه، المهم أنه حي. يبدو أنك تريدين طردها يا كارلا، لكن ماذا لو فعلت؟ لن يتبقى لك سوى هذه الغرفة، وزوج يكرهكِ من أجل ما فعلت. لو فعلت هذا، فستخسريني أنا وهي كما خسرت فريد.

قالت كارلا: «أريد أن أصعد إلى غرفتي لأرتاح. أشعر بالغثيان. أعتقد أن عليّ أن أرتاح».

قالت فراني: «سأساعدكِ».

- لا تلمسيني. امكثي مع أبيكِ. يبدو أنكما قد اتفقتما على كل شيء، وعلى كيفية تدمير سمعتي في هذه البلدة. لماذا لا تقيمي في غرفة استقبالي يا فراني، وترمي الطين على البساط وتبعثري رماد المدفأة على ساعتِي؟ لم لا؟ هه؟

ضحكت وهي تبتعد عن بيتر إلى الردهة، تترنح كمخمورة. حاول بيتر أن يلفّ ذراعه على كتفيها لكنها كشفت عن أسنانها وهست فيه كقطعة.

تحولت ضحكتها إلى نحيب وهي تصعد الدرج ببطء، ترتكن إلى الدرابزين المصنوع من خشب الماهوجني. نحيبها ذو طابع ممزق بائس يدفع فراني إلى الصراخ والقيء. وجه أبيها بلون الكتان المتسخ. تمايلت أمها أعلى الدرج حتى ظنّت فراني أنها ستتعثّر وتهوي من أعلى. نظرت إليهما دون كلام، ثم

استدارت مبتعدةً. بعد لحظة سمعا صوتَ بابٍ غرفتها ينغلق ويحجب عنهما صوت حزنهما وألمها.

نظر بيتر وفراني إلى بعضهما ذاهلين، وساعة الجَدِّ تُتكتك بهدوء.
قال بيتر: «ستهدأ من تلقاء نفسها».

- حقًا؟

مشّت ببطء إلى أبيها ومالت على كتفه، فضمَّها. أضافت: «لا أعتقد هذا».

- لا تشغلي بالك. لن نفكر في الأمر الآن.

- يجب أن أرحل. إنها لا تريدني هنا.

- بل يجب أن تمكثي. يجب أن تظلي هنا عندما.. لو.. شعرتُ أنها تحتاج إلى وجودكِ هنا. وأنا أيضًا يا فران أحتاج إليك.

- أبي.. أوه يا أبي.. أنا آسفة حقًا. آسفة إلى حد...

- ششش...

مسّد شعرها، ومن فوق رأسها رأى ضوءَ ما بعد الظهيرة يتدفق من النافذة كما كان يفعل من قبل، ذهبياً ساكنًا، كالضوء الذي ينير محتويات المتاحف وقاعات الموتى.

- كفى يا فراني. أحبك.. أحبك...

الفصل الثالث عشر

استمرَّ الضوء الآخرُ، وهسَّتِ المضخة وانفتح الباب. الرجل الذي دخل منه لم يكن يرتدي واحدًا من تلك الأردية البيضاء، بل يضع في طاقتي أنفه مُنقّي هواء يبدو كشوكة ذات سنّين.

قال الرجل وهو يعبر الغرفة: «مرحبًا يا سيد ريتمان».

مدَّ يده المقفّرة إليه، تفاجأ ستو وصافحها.

- أنا دك دايتز. أخبرني ديننجر أنك ترفض استكمال اللعب ما لم يخبرك أحد بالنتيجة التي أحرزتها حتى الآن.

أومأ ستو.

- عظيم.

جلس دايتز على حافة الفراش. هو رجل أسمر ضئيل، بجلوسه وهو يرتكن بمرفقيه على ركبتيه، بدا كقزم من أحد أفلام ديزني.

- ماذا تريد أن تعرف؟

- أولًا، أعتقد أنني أريد أن أعرف لماذا لا ترتدي واحدة من بذلات الفضاء تلك؟

- لأن جيرالدو يقول إنك لست مُعدّيًا.

وأشار إلى خنزير غينيا خلف نافذة الزجاج المزدوج. الخنزير في قفص، وخلف القفص يقف ديننجر نفسه بوجه جامد.

- جيرالدو، هه؟

- كان چيرالدو يتنفس هواءك خلال الأيام الثلاثة الماضية. المرض الذي أصاب أصدقاءك ينتقل سريعاً من البشر إلى خنازير غينيا والعكس، لو أنك مُعدّ لكان چيرالدو ميتاً الآن.

قال ستو وهو يشير إلى مُنقي الهواء: «لكنك لن تغامر».

قال دايتز بابتسامة ساخرة: «المغامرة ليست ضمن بنود تعاقدي».

- ماذا عندي؟

قال دايتز كأنه يحفظ ما سيقول: «عندك شعر أسود، وعينان زرقاوان وبشرة برونزية.. مزحة سخيفة، أليس كذلك؟».

لم يقل ستو شيئاً.

- هل تريد أن تضربني؟

- لن يفرق هذا في شيء.

زفر دايتز، وحكّ جسر أنفه كأن الجهاز يؤلمه، ثم قال: «اسمع.. عندما تتأزّم الأمور، أمزح. البعض يدخن أو يأكل العلكة. هذه هي الطريقة التي أتمالك بها نفسي، هذا كل ما في الأمر. لا أشك في أن الآخرين طرّقاً أفضل. بالنسبة إلى المرض الذي أصبت به، بحسب ما توصل إليه ديننجر وزملاؤه، أنت لا تعاني أيّ شيء».

أوما ستو، وعرف أن هذا القزم رأى ما خلف وجهه الجامد، وأبصر الارتياح المفاجئ العميق.

- وماذا أصاب الآخرين؟

- آسف، هذه معلومة سرية.

- كيف أصيب هذا الرفيق كامبيون؟

- معلومة سرية أيضاً.

- تخميني أنه كان في الجيش، ووقع حادث في مكان ما، مثل الذي حدث للأغنام في يوتاه منذ ثلاثين عاماً⁽¹⁾، لكنه أسوأ.

- سيد ريديمان، قد أذهب إلى السجن لو أنني فقط أخبرتك أكنتُ بارداً أم ساخناً.

(1) في عام 1968 مات قطيع أغنام إثر تسرب من معمل أبحاث كيماوية وببيولوجية في يوتاه (المترجمة)

مرّر ستو يده على ذقنه الخشنة. قال دايتز: «لا بدّ أن تمتن لأننا لا نخبرك بأكثر ما نخبرك به. أنت تعرف هذا، أليس كذلك؟».

قال ستو بلهجة جافة: «بلى، كي أخدم بلادي بشكل أفضل».

- لا. هذا كلام قد يقوله ديننجر. أنا وهو رجلان صغيران، لكنه أصغر قليلاً مني. ثمة سبب نفعي أكبر لامتنانك. أنت أيضاً صرّت معلومة سرية. لقد اختفيت من على وجه الأرض، ولو أنك تعرف أكثر لقرر الكبار أن تختفي إلى الأبد.

ذهل ستو ولم يقل شيئاً.

- لكنني لم آتٍ لتهديدك. نحن نريد تعاونك يا سيد ريتمان. نحتاج إليه.

- أين باقي الناس الذين أتيت معهم إلى هنا؟

أخرج دايتز ورقة من جيب داخلي وقال: «فيكتور بولفري، تُوفي. نورمان برويت وروبرت برويت، تُوفيا. توماس وناميكر، تُوفي. رالف هودجيز، بيرت هودجيز، شيريل هودجيز، تُوفوا. كريستيان أورتيجا، تُوفي. أنتوني ليومينستر، تُوفي».

تتالت الأسماء في عقل ستو. كريس الساقى الذي كان يحتفظ ببندقية محشوة تحت المشرب، وسائق الشاحنة الذي كان يمزح بشأن استخدام كريس. تون ليومينستر الذي يقود شاحنة دولية، ويذهب أحياناً إلى محطة هاب، لكنه لم يكن هناك يوم دمر كامبيون المضخات. فيك بولفري.. إلهي، لقد عرف فيك طوال حياته، كيف يموت؟ لكنّ ما صدمه حقاً مصاب آل هودجيز. سمع نفسه يردد: «كلهم؟ أسرة رالف كلها؟».

أدار دايتز الورقة وقال: «لا. الطفلة إيثا، ما زالت حية».

- آسف. معلومة سرية.

ضربه الغضب على غير المتوقع. قام وقبض على قميص دايتز وراح يهزه أماماً وخلفاً. لمح بركن عينيه حركة خلف الزجاج المزدوج، وصوت بوق مكتوم بسبب الجدران المعزولة.

صاح: «ماذا فعلتم أيها الناس؟ ماذا فعلتم بحق المسيح؟!».

- سيد ريتمان...

- هه. ماذا فعلتم عليكم اللعنة أيها الناس؟!

هَسَّ الباب وانفتح، ودخل منه ثلاثة رجال ضخام يرتدون بذلات زيتونية اللون، وكلهم يضعون منقيات الهواء.

نظر إليهم دايتز وهتف: «اخرجوا من هنا!».

بدا الرجال الثلاثة غير متأكدين مما طُلب منهم.

- الأوامر أن...

- اخرجوا من هنا، وهذا أمر!

تراجعوا، وجلس دايتز على الفراش بهدوء. تلف هندامه وانسدل شعره على جبينه، وهذا كل شيء. نظر إلى ستو في تعاطف. للحظة جنون فكَرَّ ستو في نزع مُنْقَيِّ الهواء عن أنفه، ثم تذكر چيرالدو.. يا له من اسم سخيف يطلقونه على خنزير غينيا. هبط عليه اليأس ماء بارد، فجلس.

غمغم: «يا للمصيبة...».

- أنصت لي. لستُ مسؤولاً عن وجودك هنا. ولا ديننچر ولا الممرضة التي أتت تقيس ضغط دمك. لو أن أحداً مسؤول فهو كامبيون، لكن لا يسعك إلقاء اللوم كاملاً عليه. لقد هرب، وكنا أنا أو أنت لنهرب في ظروفه نفسها. لقد سمحت له مشكلة تَقْنِيَّة بالهرب، فحدث ما حدث. نحن نحاول التعايش مع الأمر، كلنا، لكن هذا لا يجعلنا مسؤولين.

- مَنْ المسؤول إذن؟

- لا أحد.

قالها وابتسم مردفاً: «في وضع كهذا تنتشر المسؤوليات في اتجاهات غير مرئية. كان هذا حادثاً، وكان ليقع بعدة طرق أخرى».

همس ستو: «حادثاً.. ماذا عن الآخرين؟ هاب وهانك كارمايكل ولايلا برويت؟ وابنها لوك؟ مونتي سوليڤان...».

- معلومات سرية. إن كنت تريد أن تضربني مرة أخرى إن كان هذا سيجعلك تشعر بتحسن، فافعل.

لم يقل ستو شيئاً، لكن الطريقة التي كان يرمق بها دايتز جعلت الأخير ينظر إلى أسفل ويعبث بكسرات سرواله.

- هم أحياء. ربما تراهم في وقت ما.

- ماذا عن أرنيث؟

- تحت الحجر الصحي.

- مَنْ مات هناك؟

- لا أحد.

- أنت تكذب.

- آسف لأنك تظن ذلك.

- متى أخرج من هنا؟

- لا أعرف.

سأل ستو في تهكم: «معلومة سرية؟».

- لا. فقط مجهولة. لا يبدو أنك مريض، ونريد أن نعرف لماذا لم تمرض.

بعدها ستكون حرًا لتعود إلى بيتك.

- هل يمكن أن أحلق ذقني؟

ابتسم دايتز وقال: «لو سمحت لدينجر باستكمال اختباراتك، فسوف

أطلب مَنْ يحلق لك حلاً».

- يمكنني أن أحلق بنفسني. أنا أفعل ذلك منذ كنت في الخامسة عشرة.

هز دايتز رأسه وقال: «لا أعتقد أن هذا مسموح».

ابتسم ستو في مرارة وقال: «تخشى أن أشق حلقي؟».

- لننقل فقط...

قاطعه ستو بسلسلة من السعال الحاد، مال إلى الأمام من قوتها. أتى تأثير

هذا في دايتز مروّعًا. وقف سريعًا ثم انطلق إلى الباب كالطلقة، كأن قدميه لا

تمسان الأرض. ثم راح يبحث في جيوبه عن المفتاح المربع ليُدخله في القفل.

قال ستو ساخراً: «لا تتعب نفسك. كنت أظاھر فقط».

استدار دايتز ببطء نحوه. تغيّر وجهه الآن، وزمّ شفّتيه غضبًا. حدّق إليه

هاتفاً: «كنت ماذا؟!».

أجاب ستو بابتسامة تتسع: «أظاھر».

خطا ستو خطواتٍ متشككةً تجاهه. كوّر قبضتيه ثم فتحهما ثم كوّرهما

مرة أخرى.

- لكن لماذا؟ لماذا قد تريد فعل شيء كهذا؟

قال ستو باسمًا: «أسف. هذه معلومة سرية».

غمغم دايتز متعجبًا: «أيها الخراء، ابن العاهرة...».

- هيا. اخرج وأخبرهم أن في إمكانهم إجراء اختباراتهم.

نام الليلة أفضل من أي يوم آخر مرَّ عليه منذ جاءوا به إلى هنا، ورأى حلمًا فائقَ التجلِّي. لطالما كان يحلم كثيرًا - كانت زوجته تشكو دائمًا غمغماته وكلامه في أثناء النوم - لكنه لم يَرَ قطُّ حلمًا كهذا.

كان واقفًا في طريق ريفي، في مكان محدد حيث ينتهي الأسفلت ويبدأ الطريق الترابي الأبيض. شمس صيف قوية تُشْرِف عليه من أعلى. على جانبي الطريق حقول ذرة خضراء، تمتد إلى ما لا نهاية. ثمة لافتة لم يتمكن من قراءتها. صوت الغربان يتناهى إلى مسامعه من بعيد. على مقربة شخص يداعب جيتارًا بأطراف أصابعه. كان ثيك بولفري يعزف بالطريقة نفسها.

قال ستو لنفسه: هذا هو المكان الذي يجب أن أقصده. نعم، هذا هو المكان.

ماذا يعزف الجيتار؟ «صهيون الجميلة»؟ «حقول ديار أبي»؟ «وداعًا يا حلوتي وداعًا»؟ الأغنية مألوفة من طفولته، ذات صلة بالمتعة والنزهات الخلوية.. لكنه لا يتذكر أيَّ واحدة هي.

ثم توقفت الموسيقى، وغطَّت الشمس سحابةً. بدأ يشعر بأن هولًا على وشك الوقوع. شيء أسوأ من الوباء، من الحريق، من الزلازل. شيء خلف الذرة يراقبه. شيء خبيث خلف الذرة.

نظر، فرأى عينين حمراوين مُتَّقِدَتَيْن بعيدًا وسط الظلال، وبين الذرة. شلَّته هاتان العينان، وملأته يأسًا ورعبًا كما يملأ اليأس والرعب قلبَ دجاجة أمام ابن عرس. فكَّر: هذا هو. الرجل بلا وجه. أوه، يا إلهي الرحيم.. أوه لا.

ثم اختفى الحلم تدريجيًا، واستيقظ بشعور بالضياح والحيرة والارتياح. ذهب إلى دورة المياه ثم إلى نافذته. نظر خارجًا إلى القمر. عاد إلى الفراش، ومرّت ساعة قبل أن ينام. فكر ناعسًا: «كل هذا الذرة؟ لا بدُّ أنه في مكان ما من أيوا أو نبراسكا، أو ربما شمالي كانساس»، لكنه لم يذهب إلى أيٍّ من هذه الأماكن من قبل في حياته.

الفصل الرابع عشر

الساعة الثانية عشرة إلا ربع. الظلام يضغط نفسه من خارج النافذة الصغير نحوه. جلس دايتز وحده في مكتبه، رابطة عنقه مفكوكة، زر قميصه العلوي مفتوح، ساقاه مرفوعتان على مكتب بلا لافتة تحمل اسم صاحبه، ممسكًا مكبر صوت. على المكتب بَكرتا مُسجل عتيق تدوران وتدوران.

قال: «أنا العقيد دايتز. مُتمركز في مرفق الحجر الصحي، رمز PB-2. هذا هو التقرير رقم 16، ملف المشروع الأزرق، ملف فرعي الأمير/الأميرة. هذا التقرير والملف والملف الفرعي سري للغاية، تصنيف 2-2-3، للتعامل بالنظر فقط، ولا يُطَبَع. إن كنت غير مُصنَّف ضمن متلقّي هذه المعلومات، اغرب عن وجهي يا چاك».

توقف وترك عينيه تغمضان لحظات. ظلت بَكرتا المسجل تدوران بنعومة، تسجلان كل التغيرات الكهربائية والمغناطيسية.

قال أخيرًا: «أفزعني الأمير للغاية اليوم. لن أخوض في التفاصيل؛ سيرفقا ديننجر في تقريره. هذا الرجل قادر على استعادة كل التفاصيل، بالإضافة إلى أن جوارِي مع الأمير مُسجل على قرص الاتصالات، الذي يحوي أيضًا هذا التسجيل الذي سُجِّل في الساعة 2345. لقد استفزني حتى كدتُ أضربه لأنه أزعجني. لستُ غاضبًا الآن. وضعني الرجل في مكانه وللحظة عرفتُ ما يشعر به. إنه رجل ذكي للغاية لو تفاضيتُ عن مظهره الشبيه بجاري كوبر، وهو ابن عاهرة مُستقل بنفسه. ليست له أسرة قريبة في أرنيث أو أي مكان آخر، لذا لا يمكننا الضغط عليه بأحد أقربائه. لدى ديننجر متطوعون سيسعدون للغاية باستخدام عضلاتهم لإقناعه بالتعاون لو اضطررنا إلى ذلك، لكن إن لم يكن ثمة مانع من البوح برأي شخصي، أعتقد أن الرجل سيحتاج إلى عضلات

أكثر مما يظن ديننجر. عموماً أنا ضد هذه الطريقة. تقول أمي إن في وسع المرء اصطياً ذباب أكثر بالعسل مما يمكنه اصطياً بالخل، وأعتقد أنني ما زلتُ مؤمناً بهذه المقولة.

- مرة أخرى، ومن أجل تسجيل الموقف، ما زال خالياً من الفيروس. علينا أن نعرف السبب».

توقف مرة أخرى، مقاوماً الرغبة في النوم. لقد نام فقط أربع ساعات خلال الاثنتين وسبعين ساعة السابقة.

قال بلهجة رسمية وهو يلتقط تقريراً من على المكتب: «بحسب التقرير المُسجل في الساعة 2200، مات هنري كارمايكل فيما كنت أتحدث مع الأمير. مات الشرطي جوزيف روبرت برينتود منذ نصف ساعة. لن يكون هذا في تقرير الطبيب لكن عندما يعرف سترتخي أمعاؤه. أظهر برينتود رد فعل إيجابي للمصل رقم.. أ.. ها هو.. -3 63-A. راجع الملف الفرعي لو رغبت. انخفضت حرارة برينتود، وقلَّ انتفاخ غدد عنقه، وقال إنه جائع، فأكل بيضاً وقطعة خبز بلا زبد. تحدث بوعي، وسأل عن مكانه، وهكذا، ثم في الساعة 2000، عادت الحمى بقوة، وهلوس، وكسر القيود التي تربطه إلى الفراش، وراح يجوب الغرفة يصرخ ويسعل ويبصق البلغم وكل شيء، ثم سقط ميتاً. رأي الفريق أن المصل قتله. حسّن حالته بعض الوقت، لكنه أمرضه مرة أخرى قبل أن يقتله».

ثم توقف.

- أحتفظ بالأسوأ للنهاية. الأميرة هي إيڤا هودجيز، أنثى، عمرها أربع سنوات، قوقازية. عربتها التي تجرها الخيول تحولت إلى يقطينة تجرها الفئران عند الظهيرة⁽¹⁾. لو نظرت إليها كنت ستظنها سليمة تماماً، بلا عطسة حتى. كان قلبها مفطوراً فعلاً، فهي تفتقد أمها، غير ذلك كانت سليمة. لكنها مصابة. قياس ضغط دمها بعد الغداء أظهر انخفاضاً، ثم ارتفع، وهذه هي الوسيلة المعقولة الوحيدة التي يملكها ديننجر للتشخيص حتى الآن. قبل العشاء، عرض عليّ ديننجر عينات البلغم الخاصة بها، وكانت ذات جودة فائقة، صدقني، ملأى بالجراثيم

(1) يشير الكاتب إلى عربة سندريلا السحرية، ويعني أن الطفلة ماتت (المترجمة)

التي يقول عنها إنها ليست جراثيمَ على الإطلاق، بل حاضنات. لا أفهم كيف يعرف هذه الأشياء وكيف تبدو، لكنني أشك في أنه يفهمها».

أشعل دايتز سيجارة، ثم أكمل: «إذن إلامَ توصّلنا الليلة؟ لدينا مرض له مراحل إصابة واضحة.. لكنّ البعض يفوّتون مرحلة، والبعض يتراجعون إلى مرحلة سابقة، والبعض يفعلون الأمرين. البعض يظلّون في المرحلة الأولى وقتًا طويلاً، والبعض ينزلقون خلال المراحل الأربعة كأنهم يركبون زلاجة فوق منحدر. واحد من عناصرنا غير المصابة اتضح أنه مصاب، والآخر فلاح في الثلاثين يبدو سليماً مثلي. أجرى ديننجر ثلاثين مليونَ اختبار عليه، ونجح فقط في عزل أربع شذوذات؛ على جسد ريتمان الكثير من الوحومات، ويعاني ارتفاعاً طفيفاً في ضغط الدم لا يستلزم علاجاً عاجلاً. أسفل عينه يختلج تحت الضغط النفسي. يقول ديننجر إنه يحلم كثيراً طوال الليل، أكثر من المعدل الطبيعي. عرفوا ذلك من رسم المخ الذي أجروه له قبل أن يعلن العصيان. هذا كل شيء. لا يمكنني أنا ولا دكتور ديننجر استنتاج أي شيء من هذا، ولا يمكن ذلك أيضاً لمن يراجعون عمل دكتور ديمينتو.

- إن هذا ليثير هلعِي يا ستاركي. يثير هلعِي لأن أفضل الأطباء لم يتمكنوا تشخيص تلك الأعراض إلا ببرد موسمي أو إنفلونزا، وبناء عليه سيستمر حاملو المرض في حياتهم العادية، ينشرونه في كل مكان. يا للمسيح. لا يذهب أحد إلى الطبيب ما لم يكن يعاني التهاباً رئوياً أو كتلة مريبة في الثدي أو حالة شديدة من الطفح الجلدي. صعب أن يزور أحد طبيباً من أجل برد. لذا سيمكثون في بيوتهم، يشربون سوائل دافئة ويرتاحون، ثم يموتون. وقبل أن يموتوا سيكونون قد نقلوا العدوى إلى كل من تواصلوا معه. كلنا نتوقع أن يصاب الأمير -لقد استخدمت اسمه الحقيقي في مكان ما من هذا التسجيل، لكنني لم أعد أبالي- بالمرض الليلة أو غداً أو بعد غد، وبهذا نتأكد من أن أحداً ممن أصيبوا به لن ينجو. لقد أتمّ أولئك الأوغاد في كاليفورنيا عملهم على أكمل وجه.

- دايتز، أتلانتا، الحجر الصحي 2-PB. انتهى التقرير».

أغلق المُسجِّل وحقق إليه طويلاً، ثم أشعل سيجارة أخرى.

الفصل الخامس عشر

دقيقتان قبل منتصف الليل.

كانت باتي جرير -المرضة التي حاولت قياس ضغط دم ستو- تتصفح عددًا جديدًا من مجلة مُكُول في غرفة الممرضات، وتنتظر موعد المرور على السيد سوليغان، والسيد هابسكوم. سيكون هاب مستيقظًا، يشاهد التلفاز ولن تحدث مشكلات. كان يحب مداعبتها بصدد قرصها من تحت رداء الممرضات الأبيض. السيد هابسكوم مذعور، لكنه متعاون، لا كذلك المخيف ستوارت رديمان، الذي ينظر إليك ولا يحرك ساكنًا. السيد هابسكوم هو مثال للطف عند باتي جرير. المرضى في رأيها ينقسمون إلى قسمين؛ «لُطاف» و«سُخاف». لم تُمرّض باتي في فراش قَطْ منذ كُسِرَتْ ساقها وهي في السابعة، لا تتحمل السُخاف. إما أن تكون مريضًا بحق وإما أن تكون لطيفًا، وإلا كنت سخيّفًا تتصنع المشكلات لتصعّب حياة فتاة عاملة مسكينة.

سيكون السيد سوليغان نائمًا، وسيستيقظ متعكر المزاج. ليس ذنبها أنها مضطرة إلى إيقاظه، لكنها تعتقد أنه سيتفهّم هذا. لا بُدَّ أن يكون ممتنًا لحصوله على أفضل رعاية يمكن للحكومة تقديمها، وكل هذا بالمجان، وستخبره بهذا لو أنه صار من «السُخاف» مرة أخرى الليلة.

الساعة تعلن انتصاف الليل، وقت العمل.

غادرت غرفة الممرضات، ومشّت إلى الممر نحو الغرفة البيضاء، حيث ستُعقّم أولًا، ثم ترتدي بذلتها. في منتصف الطريق إلى هناك، بدأت أنفها تسيل. أخرجت منديلها وتمخّطت ثلاثًا، ثم استبدلت المنديل.

لم تكثرث كثيرًا لما حدث وقد شُغِلَ عقلها بالتصرف الأمثل مع السيد سوليغان. يبدو أنها مصابة بلمسة حساسية قش. التعليمات في غرفة

التمريض تنص صراحة على ضرورة الإبلاغ عن أي أعراض برد مهما كانت طفيفة، وعلى الفور، لكنها لم تخطرُ ببالها. كانوا قلقين أكثر بشأن انتشار المرض خارج غرف أولئك المساكين من تكساس، لكنها كانت تعرف بشأن استحالة دخول أصغر فيروس إلى البذلة الواقية البيضاء.

على أي حال، وفي أثناء سيرها إلى الغرفة البيضاء، نقلت العدوى إلى عامل، وطبيب على وشك الانصراف، وممرضة أخرى في طريقها لتنفيذ مرورها الليلي على المرضى.
وبدأ يوم جديد.

الفصل السادس عشر

بعد يوم، في الثالث والعشرين من يوليو، انطلقت سيارة كُوني بيضاء خلال طريق US 180 في مكان آخر من البلاد، تجري بسرعة تسعين إلى مائة ميل في الساعة، طلاؤها الكورنثي⁽¹⁾ الناصع يلمع تحت الشمس، ويتألق معدنها الفضي. نافذتها الشَّرَاعِيَّة الخلفية تعكس الضوء وتحلله إلى أطياف.

المسار الذي اتخذته السيارة الكُوني، منذ سرقها لويد وبوك من صاحبها الذي قتلاه في جنوب هاشيتا، مسارٌ غريبٌ غير مفهوم. من الطريق رقم 81 إلى الطريق US 80، ثم الدوران، حتى توتر بوك ولويد. لقد قتلَا ستة أشخاص خلال الأيام الستة الماضية، من ضمنهم صاحب السيارة الكونتِيننتال، وزوجته وابنته، لكنْ لم يكنِ القتل هو ما أثار توترهم بشأن انتقالهم بين الولايات، بل المُخدَّرات والسلاح. خمسة جرائم حشيش، علبة صغيرة معدنية مليئة بكمية من الكوكايين لا يعرف قدرها إلا الرب، وستة عشر رطلاً من الماريجوانا. معهما أيضاً مسدسان عيار 0.38، وثلاثة مسدسات عيار 0.45، ومسدس ماجنوم عيار 0.375 يطلق عليه بوك اسم «الناكز»⁽²⁾، وست بنادق خرطوش -اثنان منهما ذات مقابض تعمير قابلة للانزلاق إلى الخلف- وبندقية شمايزر نصف آلية. القتل بالنسبة إلى مستوى ذكاءيهما تفاهة، لكنهما يفهمان المشكلة التي قد يتورطان فيها لو اعتقلتهما شرطة أريزونا ومعهما سيارة مسروقة مليئة بالمُخدَّرات والسلاح. بالإضافة إلى كل هذا، فهما فارَّان خلال الولايات منذ عبورهما حدود ولاية نيقادا.

(1) درجة لونية من درجات الأبيض ضاربة إلى الصفرة (الترجمة)

(2) نسبة إلى اسم الشخصية Poke بمعنى ينكز أو الناكز (الترجمة)

فأَرَان خلال الولايات.. أحب لويد هينريد جرس العبارة. رجال عصابات.
خذ هذه أيها الفأر القذر، شطيرة رصاص⁽¹⁾ أيها المُقَمَّل.

لذا اتجها شمالاً إلى ديمينج، وهما الآن على الطريق رقم 180، بعدما
مرّاً بهرلي، وبارايد، والبلدة الأكبر سيلف سيتي، حيث اشترى لويد شطائر
برجر وثمانية من مخفوق الحليب (لماذا بحق اسم المسيح اشترى ثمانية
من الشيء اللعين؟ سيبول شوكلاتة قريباً) وابتسم للنادلة بطريقة خاوية
مضحكة أرعدتها ساعتين تاليتين. قالت لرئيسها بعد ذلك: «ظننتُ هذا الرجل
سيقتلني وهو ينظر إليّ».

بعد سيلفر سيتي، الطريق ينحني غرباً مرة أخرى، إلى الاتجاه الذي لا
يرغبان في الذهاب إليه. عبرا بَكهون، ثم وجدا نفسيهما وقد عادا إلى البلد
الذي نسيه الرب؛ طريقه أسفَلتي ذي اتجاهين، يحيط به أعشاب المريمية
والرمال، في الخلفية الهُضبيات المستوية. كل هذه المناظر القديمة التي
تبقى على حالها تدفعك إلى التراجع والقيء عليها.

قال بوك: «الوقود قَلَّ».

فقال لويد: «لم يكن ليقلّ ما لم تكن تقود بهذه السرعة».

رشف رشفة من الكوب الثالث من الحليب المخفوق، ثم شعر بالغبثان،
فأنزل زجاج النافذة ورمى باقي المشروب، مع الثلاثة أكواب الأخرى التي لم
يشربها.

صاح بوك مقلداً صوت سوط رعاة البقر: «وُب! وُب!».

وضغط بدّال الوقود، فمالت السيارة إلى الأمام، ثم إلى الخلف ثم إلى الأمام
مرة أخرى.

زعق لويد: «اركبها يا راعي البقر!».

- وُب! وُب!

- هل تريد أن تدخن؟

- لو معك دخان، دَخْن! وُب! وُب!

(1) تعبير سوقي يعني رصاصة في الفم (المترجمة)

بين قدمي لويد كيس ذو حبل غالق، فيه ستة عشر رطلاً ماريجوانا. مدَّ يده فيه وأخرج حَفَنَةً، ثم بدأ يلف السجائر، فيما تترنح السيارة فوق الخط الأبيض الذي يفصل حارتي الطريق.

صاح لويد: «كفَّ عن الترنح! أنا أبعثره في كل مكان!».

- لدينا الكثير منه! وُوب!

- مهلاً يا رجل، علينا بيع هذا الصنف، وإلا أمسكوا بنا، وانتهى بنا المطاف في صندوق سيارة أحدهم.

- حسناً يا ظريف.

هدأت قيادة بوك مرة أخرى، لكنه تجهم وهو يقول: «هذه فكرتك. فكرتك اللعينة».

- وأنت رأيته فكرة جيدة.

- نعم، لكنني لم أكنُ أعرف أننا سنُضطر إلى الهرب خلال أريزونا اللعينة. كيف سنصل إلى نيويورك على هذه الحال؟

- نحن مطاردون يا رجل.

بعين خياله، رأى لويد مرأب الشرطة يُفتح، وآلاف من سياراتها تنطلق إلى الليل. كشافاتها تمسح الحوائط. اخرج يا كاناريسي، نعرف أنك هنا.

قال بوك وهو عابس بعد: «حظنا لعين سعيد. نحن نعمل عملاً رائعاً. هل تعرف ما لدينا غير الصنف والسلاح؟ معنا ستة عشر دولارًا، وثلاثمائة بطاقة ائتمانية لا نجرؤ على استخدامها».

«ما هذه المصيبة؟ ليس معنا ما نُرؤد به وقود هذه الخنزيرة».

قال لويد بعدما بصق ليلصق للفاقة الماريجوانا: «ريك سيرزُوق».

أشعل اللفاقة بقداحة السيارة وأكمل: «أيام لعينة سعيدة».

لم يهدأ بوك مع فكرة رزق الرب، فقال: «إن كنت تريد بيعه، فلماذا تدخنه؟».

- سنبيع الباقي. هيا يا بوك، دخن.

ضحك، ثم أخذ اللفاقة. كانت بينهما البندقية الشمايزر، معبأة بالرصاصات. قطعت السيارة الطريق، ومؤشر الوقود قرب الحافة.

تقابل بوك ولويد قبل عام في مركز براونزفيل مُخَفَّف الحراسة، وهو مزرعة في نيقادا، مساحتها تسعون فداناً من الأرض الزراعية المروية، فيها سجن مكوّن من سقيفات صاج على مسافة ستين ميلاً من شمال بلدة تونوبا، وثمانين ميلاً شمال شرق بلدة جابز. هذا المركز مكان سيئ لقضاء عقوبة قصيرة، ورغم أنه مزرعة، فلا ينبت فيه شيء. تضرب الشمس الساطعة في الجزر والخس، فتضعف بنيته ويموت. قد تنمو البقوليات والأعشاب، ويكرّس مجلس الولاية التشريعي جهده على أمل أن ينبت فول الصويا، لكنّ أفضل ما يقال عن الغرض الحقيقي من مركز براونزفيلفيها عن أسوأ رته كي لا انا رهما، فليكن إلى: ل تأكيد أن الصحراء تحتاج إلى وقت لا نهائي كي تنبت. يفخر أمر المركز (الذي يفضل أن ينادونه بـ«الزعيم») بأنه عنيد، ويوظف فقط من يعتبرهم رفاق العند. لطالما أغرم بشرح سبب اعتبار مركز لويسفيل مُخَفَّف الحراسة خياراً ممتازاً، فيخبر بأن الهرب منه يذكره بالأغنية التي تقول: «لا مفر يا صغيرتي، ولا مكان للاختباء». يحاول البعض على أي حال، لكنهم يُعتقلون بعد يومين أو ثلاثة، تغطيهم حروق الشمس، وتلتهب أعينهم، ويتوقون إلى بيع الزعيم - أرواحهم ذاتها من أجل شربة ماء. البعض جُن، وواحد من الشباب الفارين الذين أمضوا في الصحراء ثلاثة أيام حكي أنه رأى قلعة عظيمة على بعد عدة أميال من جابز، قلعة يحيطها خندق، والخندق كما يقول تحرسه عمالقة على ظهور خيول سوداء. بعد أشهر زار المركز واعظاً، والشاب ذاته عاد إلى أحضان يسوع عدواً بسبب ما رأى.

سُجن أندرو فريمان المعروف بـ«بوك» بسبب جريمة اعتداء صغرى، وأُفرج عنه في أبريل 1989. كان يشغل الفراش المجاور لفراش لويد هينريد، وقال له إن كان لويد مهتماً بضربة كُبرى، فإنه يعرف شيئاً مثيراً في فيجاس، وكان لويد مهتماً.

أُفرج عن لويد في أول يونيو، وكانت جريمته التي ارتكبها في رينو هي محاولة الاغتصاب. الضحية فتاة استعراض كانت في طريقها إلى بيتها، وقد رشّت الكثير من الغاز المسيل للدموع في عيني لويد. امتنّ لويد لحصوله على حكم بالإفراج المبكر، مع قضاء مدة خدمة في المزرعة والسّماح بالخصم من المدة لحسن السير والسلوك. الجو حار للغاية في براونزفيل لا يناسب سوء السير والسلوك.

ركب حافلةً إلى لاس فيجاس، وقابل بوك في المحطة. قال له بوك إن هذا اتفاقًا بينهما. هو يعرف رجلًا للتعاون مرة واحدة فقط، ويُعرف في أوساط معينة باسم جورج الرائع، وقد قدم تعاونًا رائعًا مع البعض، أغلبهم يحمل أسماءً إيطاليةً وصقليةً. جورج رجل يلتزم المساعدة في الوقت المطلوب فقط.

ما فعله بالضبط لأولئك الصقليين هو أنه أخذ أشياءً وجلب أخرى. أحيانًا يأخذ تلك الأشياء من لوس أنجلوس وينقلها إلى فيجاس، وأحيانًا العكس. تلك الأشياء تكون كثيرًا كميات صغيرة من المخدرات، ينقلها إلى كبار الزبائن كهدايا. أحيانًا ينقل الأسلحة، لكنه يجلبها فقط. كما فهم بوك (وفهم بوك لا يتعدى التركيز فقط) أولئك الصقليون يبيعون السلاح للصوص المستقلين. فكّر بوك في أنه لا بأس إن أخبرهم جورج بمكان ووقت تسليم هذه البضائع. طلب الرجل منه خمسًا وعشرين بالمائة مما سيغنمونه. سيهاجمه بوك ولويد وقتها، ثم يقيدانه ويكتمان فمه، ويأخذان كل شيء. ربما يركلانه ويلكمانه قليلًا كي يبدو الأمر مقنعًا، فقد حذرهما جورج من خطر انكشاف المخطط، فالصقليون لا يُخدعون بسهولة.

قال لويد: «مرحى. تبدو خطة جيدة».

ذهب بوك ولويد في اليوم التالي ليقابلا جورج الرائع، وهو رجل ضخم طوله ست أقدام، يستقر على كتفيه الشبيهتين بالمنصة رأس صغير، محمول على عنق لا يبدو منه شيء. شعره كثيف أشقر مموج، يجعله يبدو كمصارع مشهور.

فكّر لويد مرة أخرى في الاتفاق، لكنّ بوك غير قراره مرة أخرى كعادته. طلب منهما جورج أن يمُرّا عليه في بيته الجمعة المقبلة، في السادسة مساء. قال لهما: «ارتديا قناعين من أجل الرب. اضربا أنفي والكُما عيني أيضًا. إلهي، ليتني لم أتورط في هذا».

وجاءت الليلة الكبيرة. ركب بوك ولويد حافلةً حتى أول الشارع الذي يسكن فيه جورج، ثم ارتديا قناعي تزلج وهم يمشيان إليه. كان الباب مقفلًا، لكنّ جورج وعدهما أنه لن يقفله جيدًا. في الأسفل غرفة تخزين، وها هو جورج يقف فيها ومعه كيس المخدرات الكبير، وإلى جواره منضدة لعب بنج بونج مغطاة بالأسلحة، وكان جورج مذعورًا.

ظل يردّد فيما لويد يقيد ساقيه بحبل قماشي، وبوك يلصق يديه بشريط لاصق: «يا يسوع.. ليتني لم أتورط في كل هذا».

ثم لكم لويد أنف جورج فأدماه، وضرب بوك عينه فاسودّت كما طلب. صاح جورج: «ربي! هل كان عليكما أن تضرباني بهذه القوة؟!». أوضح لويد: «أنت من طلبت التأكد من أن الأمر سيبدو حقيقياً». لصق بوك قطعة شريط لاصق على فم جورج، وبدأ كلاهما يجمع البضائع. قال بوك وقد توقف عن الجمع: «هل تعرف شيئاً يا صاحبي؟». أجاب لويد مقهقهة في توتر: «لا. لا أعرف شيئاً».

- لا أعرف أكان جورج العزيز هنا قادر على كتم سر. كان هذا خاطراً جديداً لم يخطر على بال لويد. حدّق إلى جورج الرائع حيناً، فاتسعت عينا جورج في رعب مفاجئ. بعدها قال لويد: «طبعاً. لكنه متورط أيضاً».

لكنه بدا غير واثق. بعض البذور تنمو فور غرسها. ابتسم بوك وقال: «أوه، يمكنه أن يقول مثلاً: مهلاً يا رفاق، لقد قابلتُ صديقاً قديماً وصاحبه، تعاطينا بعض الخراء وشربنا، ثم استولى ابنا العاهرة على البيت وهاجماني. أتمنى أن تجدوهما. دعوني أخبركم كيف يبدوان».

هز جورج رأسه بقوة نافياً، وعيناه دائرتان متسعتان من الرعب. كانت الأسلحة إلى جوارهما، وضعاهما في كيس غسيل قماشي وجداه في حمام الطابق السفلي. حمل لويد الحقيبة الثقيلة مضطرباً وسأل: «ماذا سنفعل في رأيك؟».

قال بوك في ندم: «أعتقد أن علينا أن (ننكره) يا صاحبي. هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكننا فعله».

قال لويد: «يبدو هذا صعباً للغاية، خاصة بعدما ساعدنا».

- العالم صعب قاسٍ يا صاحبي.

زفر لويد وهو يسير نحو جورج ثم قال: «لديك حق...».

صاح جورج وهو يهز رأسه في جنون: «مففففف! مففففف!..».

هدأه بوك قائلاً: «أعرف. هذا سيئ، أليس كذلك؟ آسف يا جورج، الأمر ليس شخصياً أريدك أن تعرف هذا. ثبت رأسه يا لويد».

القول أسهل من الفعل. لفَّ جورج الرائع رأسه من جهة لأخرى بقوة، وضرب حائط الغرفة برأسه كأنه لا يشعر بقوة الضرب.

قال بوك في وجوم وهو يمزق قطعة لاصق أخرى: «أمسكه».

قبض لويد أخيراً على رأسه، واستطاع أن يثبتته قبل أن يلصق بوك الشريط على أنفه، وبهذا يسد كل منافسه. جُنَّ جورج وتدرج من مجلسه في الركن، ثم رقد على جانبه يصدر أصواتاً مكتومة المفترض أنها صرخات. استمر عذاب البائس خمس دقائق حتى سكن تماماً بعدما احمرَّ وجهه كسقف حظيرة. آخر ما فعله كان رفع ساقيه ثماني بوصات أو عشرًا عن الأرض، ثم الاسترخاء التام. ذكّر هذا لويد بموقف رآه في الرسوم المتحركة، فضحك ضحكة مكتومة وقد شعر بسرور نوعاً.

ركع بوك إلى جوار جورج يتحسس نبضه.

سأله لويد: «ها؟».

- لا شيء يتكّ إلا ساعته يا صاحبي. على ذكر الساعة...

رفع بوك ذراع جورج للحيمة، ونظر إلى رسغه ثم أضاف: «لا. مجرد ساعة ماركة تيمكس. كنتُ أظنها كاسيو مثلاً، أو شيئاً كهذا».

ثم ترك ذراع جورج تهوي.

كانت مفاتيح سيارة جورج في جيب سرواله الأمامي، ووجدوا في خزانة الطابق العلوي برطمان زبدة فول سوداني نصف ممتلئ بالعملات المعدنية، فأخذه أيضاً. كان فيه عشرون دولارًا وستون سنتًا.

سيارة جورج موستانج عتيقة، ذات أربع سرعات، وناقل سرعتها مثبت إلى أرضيتها. إطاراتها ممحوّة التفاصيل، صلعاء كرأس تيلي ساقلالاس⁽¹⁾. غادرا فيجاس إلى طريق 93 US، ومنه إلى جنوب شرق أريزونا. بحلول ظهيرة اليوم التالي، أول أمس، قطعاً طرق فوينكس الخلفية. توقفاً أمس في الساعة التاسعة عند متجر على طريق ترابي قديم، على بعد مائتي ميل من شيلدون، على طريق أريزونا السريع رقم 75. دقاً باب المتجر، و(نكزا) صاحبه المسنّ ذا الأسنان الصناعية الرخيصة. سرقا ثلاثة وستين دولارًا، وشاحنة الرجل.

(1) ممثل أمريكي. (الترجمة)

انفجر إطاران من إطارات الشاحنة هذا الصباح. اثنان في الوقت نفسه، ولم يجد أيهما أثرًا لمسامير على الطريق رغم أنهما أمضيا نصف ساعة يبحثان. قال بوك إن الأمر مصادفة، وقال لويد إنه سمع بأشياء أغرب تحدث بحق الرب. ثم جاءت السيارة الكوني البيضاء، كأنها استجابة لدعائهما. لقد عبرا الخط بين أريزونا إلى نيو مكسيكو خلال الوقت السابق، ورغم أن كليهما لا يعرف هذا، فقد أصبحا لحماً طرياً بالنسبة إلى مكتب التحقيق الفيدرالي. توقفت السيارة الكوني، ومال صاحبها على النافذة يسألهما: «هل تحتاجان إلى مساعدة؟».

قال بوك: «طبعاً» ثم (نكز) الرجل فأسقطه صريعاً. أطلق على ما بين عينيه الرصاصَ بالمسدس الماكنوم. يبدو أن المسكين لن يعرف أبداً ما الذي قتله.

قال لويد المسطول مشيراً إلى التفرع القادم: «لماذا لا تدخل من هنا؟». قال بوك في جزل: «بكل سرور». قلَّ سرعة السيارة من ثمانين إلى ستين ميلاً في الساعة، ثم مال إلى التفرع؛ الطريق رقم 78 المتجه غرباً. عادا إلى أريزونا مرةً أخرى، غير عالمين أنهما الآن قد أصبحا ما تطلق عليه الصحف (سفاحين خلال الولايات). بعد ساعة، ظهرت لافتة عن يمينهما مكتوب عليها (بُرَّاك 6). قال لويد بطريقة ضبابية: «مبارك؟». - بل بُرَّاك.

وبدأ بوك يدير مقود السيارة يميناً ويساراً، فيتعرَّج مسارها خلال الطريق. - وُوب! وُوب! - هل تريد أن تتوقف هنا؟ أنا جائع يا رجل. - أنت دائماً جائع. - سحقاً لك. عندما أُسْطَلَّ يَحْطُ عليَّ الجوع. - يمكنك أن تأكل الهوت دوج بطول تسع بوصات خاصتي. ما رأيك؟ - وُوب! وُوب! - أتكلم بجذ يا بوك. لنتوقف.

- حسنًا. يجب أن نحصل على بعض السيولة أيضًا. لنحصل على المال ثم ننتقل شمالًا. هذه الصحراء لا تلائمني.

- موافق.

لم يكن يعرف أن ما به من تأثير المخدر، لكنه فجأة شعر بارتياح غريب، ربما أكثر مما شعر به في أثناء هربهما. بوك مُحِق. لنتوقف خارج بُرَّاك هذه، ثم نسرق كما فعلنا خارج بلدة شيلدون. لنحصل على مال وخرائط، ونتخلص من هذه السيارة اللعينة ونستبدل بها ما يتماهى مع المحيطات، ثم ننتقل شمالًا ثم شرقًا خلال الطرق الثانوية، ونخرج من أريزونا اللعينة.

قال بوك: «سأخبرك بالحقيقة يا رجل. أشعر أنني مضطرب فجأة كقط ذيله طويل في غرفة مليئة بالمقاعد المتأرجحة».

قال لويد في حزن: «أفهم ما تقول يا حلاوة بالفول....».

ثم فطنًا إلى ما في عبارته من سجع، فانفجرا ضاحكين.

بُرَّاك مكانٌ كبير على الطريق، دخله بالسيارة إلى حيث مقهى ومتجر ومحطة تزويد وقود. في باحة الانتظار الترابية سيارة فورد قديمة، وأخرى أولدزموبيل مُبْقَعَة بالغبار والبلل، تجر خلفها عربة نقل خيول. تُحَدِّقُ الخيول من نوافذها إليهما، فيما بوك يُوقِفُ السيارة الكوني.

قال لويد: «يبدو أن هذه تذكرة عبورنا».

وافقه بوك، وأخرج المسدس الماجنوم، وتحقق من حشوه.

- مستعد؟

- أعتقد....

ثم أمسك لويد البندقية الشمايزر، ثم ترجَّلا ومشيا خلال ساحة الانتظار. كانت الشرطة قد عرفت هُويَّتَهما منذ أربعة أيام، فقد تركا بصماتهما في كل مكان من منزل جورج الرائع، وفي المتجر حيث نكزا العجوز ذا الأسنان الصناعية الرخيصة. عثروا على شاحنته على بعد خمسين قدمًا من جثث ركاب السيارة الكونتيننتال الثلاثة، فصار واضحًا أن مَنْ قتل جورج الرائع وصاحب المتجر هم مَنْ قتلوا الثلاثة. لو أنهما كانا يستمعان لراديو السيارة الكوني بدلًا من شرائط الأغاني، لعرفا أن رجال شرطة أريزونا ونيو مكسيكو ينسّقون أكبر مطاردة خلال الأربعين عام الماضية، وكل هذا من أجل لصين مُستجدين قد لا يفهمان أساسًا ما فعلاه لتبدأ هذه الفوضى.

محطة الوقود ذاتية الخدمة، وعلى الموظف أن يُشغّل المضخة فقط. لذا دخلا إلى المتجر حيث ثلاثة ممرات من المعلبات تقود إلى الكاونتر. عند الكاونتر رجل يرتدي زيّ رعاة البقر، يدفع حساب عُبُوءة دُخَّان، ونصف دسّة سلّم چيم⁽¹⁾. عند منتصف الممر الأوسط امرأة مرهقة ذات شعر أسود مشعث، تُفاضل بين نوعي صلصلة سباجيتّي. رائحة المكان خليط من الريبسوس القديم وحرارة الشمس والتبغ والقَدَم. الموظف رجل ذو نَمَش يرتدي قميصاً رمادياً، ويعتمر قبعةً مطبوعاً عليها اسم شركة شل بالأحمر على خلفية بيضاء. نظر إلى الباب، فاتسعت عيناه.

أسند لويّد قاعدةً البندقية المعدنية إلى كتفه، وأطلع زخة رصاص على السقف. انفجر المصباحان المتدليان كالقنابل. بدأ الرجل في زي راعي البقر يستدير.

صاح لويّد: «اثبتوا، ولن يؤذّي أحد».

سرعان ما أكّد بوك كذب رفيقه بإطلاق النار على السيدة التي تفاضل بين أنواع الصلصة، فطارت إلى الخلف لتسقط أرضاً.

زَعق لويّد: «بربك يا بوك! لم تكن مضطراً إلى...».

هتف بوك: «لقد وكزتها يا صاحبي! لن تشاهد الوُعَاز في التلفاز مرة أخرى! وُب! وُب!».

استمرّ الرجل في زي رعاة البقر في الالتفاف إلى الخلف ببطء، وهو ممسك سبائره بيُسراه. الضوء القوي من الواجهة الزجاجية الكبيرة، ومن الباب رسم نجومّاً ساطعة على سطح عدستي نظارته الشمسية. مُثبّت إلى حزامه مسدس ذو ساقية دوّارة عيار 0.45، وقد أشهره ببطء فيما ينظر بوك ولويّد إلى القتيلة. صوّب، وأطلق الرصاص، فاخفى نصف وجه بوك الأيسر تحت ستار دماء وأنسجة وأسنان.

صرخ بوك: «لقد أصِبت!».

ورمى البندقية وهو يترنح إلى الخلف، تطيح ذراعه بأرْفَ أكياس البطاطس المقلية ورقائق التاكو والشعيرية سريعة التحضير فتتناثر على الأرض.

(1) أصابع لحم مجفّفة مصنّعة، ذات فترة صلاحية طويلة (الترجمة)

زقق بوك: «لقد أطلق النار عليّ يا لويد! لقد أطلق النار! أطلق النار!».

ارتطم بالباب السلكي فانفتح، وسقط بوك جالسًا على المدخل بالخارج وقد كسر مفصلات الباب القديمة.

أطلق لويد الزاهلُ المزيدَ من طلقات الدفاع عن النفس، كرد فعل لا أكثر. ملأ صوتُ هزيمِ البندقية الشمايزر المكانَ. تطايرتِ المعلباتُ، وتهشمتِ الزجاجات فسُكِبَ ما فيها، وانكسر زجاج برّاد المياه الغازية. انفجرتُ زجاجات العصير والبيرة كأنها دُمى تصويب خرفية، وأغرقتِ الرغوة الأرضَ. أطلق الرجلُ في زي رعاة البقر مسدّسه مرة أخرى بهدوء وتركيز. شعر لويد بمرور الرصاصة قريبة منه حتى لتكاد تفرق شعره، فأمطر المكان من اليسار إلى اليمين ببندقيته.

اختبأ الرجل ذو قبعة شل خلف الكاونتر بسرعة، حتى ليظن الرائي أن بابًا انفتح من تحته فابتلعه. تهشمتُ ماكينة بيع اللُّبان، فانتثرتُ منها الكُرات الحمراء والزرقاء والخضراء، وتدحرجت في كل مكان. انفجرتِ البرطمانات على الكاونتر، أحدها كان فيه بيض مخلل، وفي آخر أقدام خنزير مخللة، فامتلاّت القاعة فجأة برائحة الخل الحادة.

أصاب الشمايزر قميصَ راعي البقر الخاكي بثلاث طلقات، اخترقت صدر الرجل وخرجتُ من خلفه لتخترق ملصق سبَد مَكْنَزِي⁽¹⁾. سقط راعي البقر وهو يمسك بعد بمسدسه في يد، وعلبة السجائر في يده الأخرى.

سيطر الخوف على لويد، فاستمر في إطلاق الرصاص. زادت حرارة البندقية الآلية في يده. هوى صندوق مليء بمرتجعات زجاجات المياه الغازية. أصيبت فتاة ترتدي زيَّ السباحة على تقويم حائط برصاصة في فخذهما السمرء. سقط رف كتب بلا أغلفة. بعدها فرغتِ البندقية من الطلقات، وخيم صمت جديد يصم الأذان. رائحة البارود ثقيلة عفنة.

هتف لويد: «سحقًا...».

ثم نظر بحذر إلى راعي البقر، وبدا له أن وجوده لن يمثل مشكلة في المستقبل القريب أو البعيد.

صاح بوك وهو يدخل مترنحًا: «لقد أطلق عليّ الرصاص!».

(1) كلب أبيض استُخدم في الثمانينيات للدعاية لشركة بيرة سبَد. (المترجمة)

كان قد خلع الباب السلكي ليفسح طريقه، ورماه خلفه في المدخل.

- لقد أُصِبتُ يا لويد. أنظر!

قال لويد مهدئاً: «أنا تخلصتُ منه يا بوك».

لم يبدُ أن بوك ينصت؛ كان مظهره فوضوياً. عينه اليمنى تلمع كحجر زفير، واليسرى زالت واختفى خده الأيسر، فيمكنك رؤية حركة فكه من الداخل وهو يتكلم. انخلعتُ أغلب أسنانه أيضاً، وأغرقتِ الدماء قميصه. إن أردتِ الصراحة، بوك صار حقاً كتلة فوضى.

زَعَق: «ابن الزانية الأحمق أصابني!».

ثم مال ليلتقط البندقية من على الأرض، وأكمل: «سأعلمك كيف تطلق عليّ النار أيها الغبي!».

اقترب من راعي البقر، كأنه دكتور ساردونيكوس⁽¹⁾. وضع قدمه على ردف القتل كأنه صياد يضع قدمه فوق صيده ويستعد لالتقاط صورة له، واستعد لإطلاق رصاص الماجنوم على رأسه. وقف لويد يشاهد بفم مفتوح البندقية تتدلى من يده صاحبه، محاولاً أن يفهم كيف حدث كل هذا.

في تلك اللحظة ظهر الرجل ذو قبعة شل من خلف الكاونتر، كأنه عفريت العلبة، وبوجه يسوده التصميم والخوف، صوّب بندقية الرش خاصته نحوهما. نظر بوك نحوه في الوقت نفسه الذي تلقى فيه ذخيرة البندقية كاملة. سقط، ووجهه في أبشع صورهِ الممكنة.

قرّر لويد أن وقت الرحيل قد آن. سحّاقاً للمال. المال في كل مكان. هذا هو وقت الهرب. هُرعَ خارجاً من المتجر بخطوات واسعة متعثرة، يكاد حذاءاه لا يمسان الأرضية من فرط السرعة.

كان عند منتصف الدَّرَج، عندما دخلت سيارة شرطة أريزونا إلى ساحة الانتظار. ترجّل منها شرطي وأشهر سلاحه هاتفاً: «اثبت مكانك! ماذا يحدث بالداخل؟».

صاح لويد: «مات ثلاثة! يا لها من فوضى! القاتل هرب من الباب الخلفي! أنا راحل من هنا!».

(1) فيلم رعب أمريكي قديم، يحكي عن شخص ابتسامته متصلبة مُرعبة تصل إلى خديه، يطلب من طبيب إجراء عملية تجميل له (الترجمة)

جرى نحو السيارة الكوني، وحالما جلس خلف المقود تذكر أن المفتاح في جيب لويد. هتف الشرطي: «توقف! توقف وإلا أطلقت عليك الرصاص!». فتوقف لويد. بعد فحص جرح وجهه بوك الخطر، لم يحتج إلى وقت ليذكر أنه ميت لا محالة.

قال في تعاسة وشرطي آخر يصوب بندقية إلى صدغه، فيما يُصفده الأول: «يا للجحيم....».

- هيا إلى السيارة يا حلو.

خرج الرجل ذو قبعة يشل من المتجر وهو يحمل بعد بندقية الرش. هتف بصوت عالٍ عجيب: «لقد قتل بل ماركسون! والآخر قتل السيدة ستورم! الدنيا بالداخل خراب! لقد أطلقت النار على الثاني! إنه ميت أكثر من كيس روث! أريد أن أقتل هذا أيضًا، ابتعدا عنه يا أولاد!».

قال أحد الشرطيين: «اهدأ يا بوب. انتهى الحفل».

صاح العجوز: «سأقتله حيث يقف! سأجعله يسف التراب!».

ثم مال أمامًا كرئيس خدم إنجليزي ينحني احترامًا، وتقياً على حذائه. هتف لويد: «أبعداني يا شباب عن هذا الرجل، هلا فعلتما؟ أعتقد أنه مجنون».

قال الشرطي الأول: «لقد رأييناك تخرج من المتجر يا حلو».

ثم رفع بندقيته إلى أعلى، وأعلى حتى عكست أشعة الشمس، وهوى بها على رأس لويد هينريد، ففقد الوعي ولم يستعده إلا مساءً، في عيادة سجن مقاطعة أباتشي.

الفصل السابع عشر

وقف ستاركي أمام الشاشة رقم 2، يراقب التقني فرانك د. بروس. آخر مرة رأينا فيها بروس كان وجهه منكفئاً داخل صحن حبوب الإفطار. لم يتغير شيء من وقتها. الوضع طبيعي، كل شيء قد خرب.

عقد ستاركي يديه خلف ظهره، ومشى كلواء يفحص الجنود -اللواء بلاك جاك بيرشينج⁽¹⁾ تحديداً، مثل طفولته الأعلى - نحو الشاشة رقم 4، حيث تغير الوضع إلى الأفضل. ما زال البروفيسور إيمانويل إزيوك ممدداً على الأرض، لكنّ جهاز الطرد المركز قد توقف. في الساعة 1940 ليلة أمس، بدأ الدخان يصدر من الجهاز، وفي الساعة 1995، تحول صوته وُنجا- وُنجا- وُنجا، إلى الصوت المريح المرضي رونك! رونك! رونك! في الساعة 2017، أصدر الجهاز آخر (رُونكاته) ثم توقف. هل نيوتن هو صاحب مقولة: «في مكان ما، وراء أبعد النجوم، ربما نجد جرماً ساكناً تماماً»؟ فكر ستاركي في أن نيوتن كان محقاً بشأن كل شيء إلا مسألة المسافة. ليس عليك أن تبتعد إلى هذا الحد. لقد سَكَن المشروع الأزرق تماماً، وسعد ستاركي بهذا. جهاز الطرد المركزي آخر معالم الحياة، والسؤال الذي طلب من ستيفنس طرحه على جهاز الكمبيوتر المركزي كان: كم يتوقع أن يظل جهاز الطرد المركزي مستمراً في الدوران، وجاءت الإجابة بعد 6.6 ثانية: أكثر أو أقل قليلاً من ثلاث سنوات. احتمالية التعطل خلال الأسبوعين القادمين 0.009%. احتمالية التعطل الكامل 38% احتمالية تعطل المحرك 16%. هذا كمبيوتر ذكي. طلب

(1) لواء في القوات المسلحة الأمريكية في أثناء الحرب العالمية الأولى، وهو من أهم العسكريين الأمريكيين، تميز بقدرته الفائقة على تنظيم جيش من مليون جندي (المترجمة)

ستاركي من ستيفنس سؤاله مرة أخرى بعد توقف الجهاز. تواصل الكمبيوتر مع بنك نظام هندسة المعلومات، وأكد أن محور دورانه قد احترق. تذكر ستاركي كل هذا وجهاز استدعائه يطن من خلفه، وتذكر أن آخر صوت يصدر عن احتراق محور الدوران هو رونك- رونك- رونك. ضغط زر جهاز الاستدعاء، وهتف: «نعم يا لين».

- بيلي، وصل إليّ أمر عاجل من أحد فرقنا في بلدة تدعى سايب سبرينجز، تكساس. تبعد عن أرنيث أربعمئة ميلاً. يقولون إنهم يريدون التحدث إليك للضرورة، فالأمر يحتاج إلى قرارك. سأل ستاركي بهدوء: «ما الأمر يا لين؟». كان قد ابتلع ستة عشر قرصاً مهدئاً خلال الساعات العشر السابقة، وبشكل عام كان يتكلم جيداً ويتحكم في توتره، بلا أي مظهر من مظاهر النعاس.

- الصحافة.

- يا يسوع.. أوصلني بهم.

سمع صوت تشويشٍ مكتومٍ مختلطاً بصوت همهمات. قال لين: «انتظر دقيقة».

ثم اختفى التشويش ببطء.

- ...الأسد. فريق الأسد، هل تسمعينني أيتها القاعدة الزرقاء؟ هل تسمعنني؟ واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة.. هذا هو فريق الأسد...

قال ستاركي: «أسمعك يا فريق الأسد. معك القاعدة الزرقاء رقم واحد».

- رمز المشكلة في دليل الطوارئ: المزهرية. أكرر: المزهرية.

- أعرف معنى المزهرية اللعين. ما الوضع؟

تكلم الصوت الضعيف القادم من سايب سبرينجز بلا توقف لمدة خمس دقائق. الوضع نفسه كما يرى ستاركي غير مهم، لأن الكمبيوتر تنبأ به منذ يومين، وأن هذا النوع من المشكلات سيقع قبل نهاية يونيو، باحتمالية 88%. لا تهم التفاصيل. إن كان ما أمامك ذو ساقين وخصر بحلقات تثبيت الحزام فهو سروال. لا يهم لونه.

خمن أحد أطباء سايب سبرينجز بضعة تخمينات جيدة، وربط مراسلان من مراسلي جريدة هيوستن اليومية ما حدث في سايب سبرينجز مع ما حدث

في أرْنيت وقيرونا وبلدة تُدعى بوليستون في كانساس. هذه هي الأماكن التي تدهور فيها الوضع بسرعة، وأُرسل الجيش لعزلها. عرض الكمبيوتر قائمة بخمس وعشرين بلدة أخرى في عشر ولايات ظهرت فيها علامات (الأزرق).

الوضع في سايب سبرينجز ليس مهمًا لأنها ليست بلدة فريدة. كانت فرصتهم في أرْنيت، لكنَّ الأمور خرجت عن السيطرة. المهم هو أن «الوضع» قد وصل أخيرًا إلى النشر خلال وسيط آخر سوى تقارير الجيش الصفراء. ما زال أمام ستاركي فرصة لمنعه، لكنه لم يكن قد قرر بعد أكان سيفعل هذا أم لا. لكنَّ عندما توقف الصوت الضعيف عن الكلام، أدرك ستاركي أنه قد توصل إلى قرار فعلاً، وربما توصل إليه منذ عشرين عامًا مضوا.

لو أننا سنتحدث عن الأهمية، فالمهم ليس المرض نفسه، ولا حقيقة أن نزاهة أتلانتا قد تزعزعت، وهم مضطرون إلى تغيير العملية الوقائية إلى نوع أقل فعالية تديره منشآت في ستوفينجتون في ولاية فيرمونت، ولا انتشار المرض (الأزرق) بتلك الطريقة الخبيثة، متنكرًا في هيئة أعراض برد.

-المهم هو...

قال الصوت في قلق: «كرّري ما قلتِ مرة أخرى أينها القاعدة الزرقاء. لم نسمع».

المهم هو الحادث المؤسف الذي وقع من قبل. عاد ستاركي بالزمن إلى عشرين عامًا مضت، إلى سنة 1968. كان في نادي الضباط في سان دييجو عندما جاءته أخبار كالي، وما حدث في مَي لاي⁽¹⁾. كان ستاركي يلعب البوكر مع أربعة رجال، اثنين منهما يعملان في قيادة الأركان المشتركة. نُسيَت اللعبة تمامًا في غمار نقاشهما عن تأثير هذا الحادث على الجيش -لا على فرع واحد منه، بل عليه ككل- خاصة تحت فترة رئاسة واشنطن الرابعة ذات الأجواء الهجومية. واحد منهم -وهو الآن يعمل قائدًا ثانيًا منذ 20 يناير 1989 وضع بطاقات اللعب الخاصة به على المنضدة المفروشة بالنسيج الأخضر وقال: «أيها السادة. لقد وقع حادث مؤسف. وعندما يقع حادث مؤسف يتورط فيه أي فرع من فروع جيش الولايات المتحدة، لا نسأل عن جذور هذا الحادث، بل عن كيفية تشذيب هذه الفروع. الخدمة العسكرية هي أبونا وأمننا، ولو

(1) أُدين الملازم ويليام كالي بقيادة المذبحة التي أقامها في حق المدنيين الفيتناميين في مَي لاي (المترجمة)

وجدت أن أمك اغتصبت أو أن أباك ضرب وسرق، تغطي ما تعرى منهما قبل أن تتصل بالشرطة أو تبدأ التحري، وهذا لأنك تحبهما».

لم يسمع ستاركي من يتكلم بهذه البراعة من قبل وحتى الآن.

فتح ستاركي درج مكتبه السفلي، وأخرج ملفاً أزرق رقيقاً مربوطاً بشريط أحمر، مكتوباً على غلافه: لو مُزّق الشريط، بلغ كل أقسام الأمن على الفور.

مزّق ستاركي الشريط.

سأل الصوت: «هل أنت هنا أيتها القاعدة الزرقاء؟ لا نسمعك. أكرر، لا نسمعك».

- أنا هنا أيها الأسد.

فتح آخر صفحات الملف، ومرّر إصبعه إلى أسفل عمود بعنوان: عملية مضادة سرية للغاية.

- هل تسمعي أيها الأسد؟

- أسمعك بوضوح أيتها القاعدة الزرقاء.

قال ستاركي بتأنٍ: «طروادة. أكرر أيها الأسد: طروادة. كرر ما سمعت. انتهى».

صمت. تشويش استاتيكي بعيد. تذكر ستاركي أجهزة الاتصال التي كانوا يصنعونها وهم أطفال بعلبتين صفيحتين، وحبل مدهون بالشمع بطول عشرين ياردة.

هتف صوت شاب من سايب سبرينجز: «أوه، يا يسوع!».

قال ستاركي: «كرّر ما سمعت».

- ط... طروادة.

ثم أضاف بصوت أكثر قوة: «طروادة».

قال ستاركي بهدوء: «ممتاز. باركك الرب يا بني. انتهى».

- وباركك يا سيدي. انتهى.

صوت تكة تبعها صوت تشويش، ثم صوت تكة أخرى وصمت، بعدها جاء صوت لين يقول: «بيلي؟».

- نعم يا لين.

- لقد سمعتُ كل شيء.

قال ستاركي متعبًا: «لا عليك يا لين. اكتب تقريرك كما ترى».

- أنت لا تفهم يا بيلي. لقد اتخذت القرار الصحيح. ألا تظنني أعرف هذا؟

ترك ستاركي عينيه تنغلقان. للحظاتٍ هجره تأثير كل أقراصه المهدئة.

- باركك الربُّ يا لين.

صوته على شفا الانهيار. أغلق الخطَّ، ثم عاد ليقف أمام الشاشة رقم 2. شبَّكَ كفيه خلف ظهره مثلما كان يفعل بلاك چاك وهو يراقب الجنود. نظر إلى فرانك د. بروس ومثواه الأخير. بعد قليل هدأ مرة أخرى.

لو ذهبَتْ إلى جنوب شرق سايب سبرينجز، تصل إلى الطريق US 36، وتتجه صوب هيوستون التي تبعد مسافة يوم من القيادة المستمرة.

تلهب الطريقَ سيارةُ بونتياك بونفيل في عمر الثالثة، بسرعة ثمانين ميلًا في الساعة، وعندما اعتلتِ السيارةُ منحدرَ الطريق، رأتِ السيارةُ الفورْد التي تقطعه، وكادتْ تصطدم بها.

ضغط السائق -وهو رجل في السادسة والثلاثين، يعمل لدى أحد صحف هيوستون الكبرى- مكابحَ السيارة، فصرَّت الإطارات وغطست مقدمة سيارته في الطريق أولًا، ثم حادثٌ يسارًا.

صاح مرافقه المصوِّر: «إلهي الرحيم!»، ثم رمى كاميرته على الأرض وحاول ربط حزام الأمان.

رفع السائق قدمه عن المكابح وقد شعر بإطاريه الأيسرين يحتكان بالتراب على جانب الطريق. ضغطَ دواسة الوقود وأدار المقود، فعاد إلى الأسفلت والدخان الأزرق ينبعث من تحت الإطارات.

يصدح الراديو بلا انقطاع:

«صغيرتي، هل تفهمين رجلك؟

إنه رجل صالح،

صغيرتي، هل تفهمين رجلك؟».

ضغط المكابح مرة أخرى، فتوقفت السيارة وسط حر الظهيرة ووحشيتها. تهدجت أنفاسه لحظاتٍ، ثم سعلَ مرارًا. بدأ يغضب. عاد بالسيارة البونتياك إلى الخلف، نحو السيارة الفورد والرجلين الواقفين إلى جوارها.

قال المصور مضطربًا، فهو سمين ولم يدخلَ شجارًا منذ كان في التاسعة: «اسمُ. ربما الأفضل لو أننا...».

قُدِفَ إلى الأمام بقوةٍ إذ توقفتِ السيارة فجأة، ورفع زميله مكابح اليد بقوة، ثم خرج.

مشى مكوّرًا قبضتيه نحو الشابين بجوار الفورد، ثم صاح: «حسنًا يا ابني الزانية! كدتما تقتلانا، وأريد أن...».

كان قد أتمَّ خدمةَ الجيش أربع سنواتٍ متطوِّعًا، فعرف أن أسلحة الشابين من نوع M-3A عندما أخرجها من سيارتهما. وقف ذاهلاً تحت أشعة شمس تكساس، وبلَّل سرواله.

بدأ يصرخ، وهو يظنُّ أنه يعدو تجاه سيارته، لكنَّ ساقيه لم يتحركا قط. أطلقا النارَ عليه فأصابا صدره وحوضه. هوى على ركبتيه وهو يرفع يديه طالبًا الرحمة. أصابته طلقةٌ أخرى فوق عينه اليسرى، فمزقتُ أعلى رأسه.

كان المصورُ قد التفتَ إلى الخلف في مقعده، ووجد صعوبةً في فهم ما يحدث، حتى خطا الشaban من فوق جثة قتيلهما، ومشيا نحوه ببندقيتين مُشهرتين.

انتقل إلى ما خلف مقود السيارة، واللعب يتكوّم في ركني فمه. المفتاح في مكانه بعد، فأدار المحركَ وصرخَ وهما يطلقان عليه وابل الرصاص. شعر بالسيارة تميل إلى اليمين كأنَّ عملاقًا ركل جانبها الأيسر، وغدا المقود بين يديه بلا تحكم. ترجرج جسّد المصورِ والسيارة تتحرك فوق إطارَيْها المثقوبين. بعد ثوانٍ ركل العملاق الجانب الأيمن، فزادتِ الرجرجة، وانبعث الشرر من الأسفلت خلف السيارة.

ناح المصور وإطارات السيارة تدور طرية رخوة كأكياس سوداء. عاد الرجلان إلى سيارتهما سريعًا، التي تحمل لوحة أرقام مسجلة ضمن أخرى كثيرة تابعة لقسم المَرَكبات العسكرية في البنтажون. قاد أحدهما السيارة، ودار بها دورةً ضيقةً. تمايلت السيارة بقوة وهي تسحق جثة المراسل الصحفي. عطس الرقيب عطسةً غطّت الزجاج الأمامي بالرداذ.

ظلتِ السيارةُ البونتيك أمامهما تجري على إطارين فارغين، تتأرجح وتتمايل بقوة. ولؤل المصورُ البدينُ خلفَ المقود لمرأى السيارة الفورد تقترب منه أكثر. دواسَةُ السرعة مضغوطةٌ إلى أقصى ما يمكن، لكنَّ السيارة غير قادرةٍ على السير بسرعة أكبر من أربعين ميلاً في الساعة. استبدلتُ مادوناً بلاري أندروُد في الراديو، وظلَّت تغني وتؤكد في أغنيَّتها أنها فتاة واقعية.

تخطَّت السيارة الفورد السيارة الأخرى، وللحظة أمل ظنَّ المصورُ أنها ستكمل طريقها حتى تختفي خلف الأفق وتتركه وشأنه.

لكنها توقفت، وارتطمتِ السيارةُ البونتيك بحاجز الوحل. صرختِ الإطاراتُ وارتطم رأس المصور بالمقود، ونزف أنفه.

ألقي نظرات متوجسة قلقة من وراء كتفه، وانزلق منتقلاً إلى مقعد الراكب، ثم ترجَّل وجرى نحو المنعطف، ثم طار من فوق سور سلكي كالْمُنطاد وهو يفكر: سأنجح.. سأجري إلى الأبد...

سقط على الجهة الأخرى، وعلقت ساقه في السلك. صرخ رافعاً وجهه إلى السماء وهو يحاول تحرير سرواله، فجرح لحمه الأبيض، لكنَّ الرجلين نزلا عند المنعطف حاملين سلاحيهما.

حاول أن يسألهما عن سبب ما يفعلان، لكنَّ ما خرج منه لم يكن سوى صوت ضعيف عاجز، ثم خرج مخه من مؤخرة رأسه.

لن يُكتَب في سايب سبرينج ذاك اليوم أخبار عن المرض، أو عن أي مشكلة أخرى.

الفصل الثامن عشر

فتح نك الباب بين مكتب الشريف بيكر والزنانة، فبدأوا يسخرون منه. يسكن فينس هوجان وبيلي وارنر الزنانتين الصغيرتين كعلب البسكويت على يسار نك، ويسكن مايك تشايلدريس في واحدة من الزنانتين على اليمين، والأخرى خالية لأن راي بوث، ذا خاتم الأخوية المميز، قد هرب.

صاح تشايلدريس: «مرحى يا عبيط! أنت أيها العبيط اللعين! ماذا سيحدث لك عندما تخرج من هنا؟ هه؟ ماذا سيحدث لك بحق الجحيم؟».

قال له بيلي وارنر: «أنا شخصياً سأنتزع خصيتيه وأحشو بهما حلقة حتى يخنق بهما. هل تفهمني؟».

لم يشارك فينس هوجان في السخرية، ولم يكن ذا نفع لبيلي ومايك يوم 23 يونيو، عندما نُقلوا إلى عاصمة مقاطعة كالهون، وحققوا معهم. مال الشريف بيكر على فينس، فاعترف بكل شيء. أخبر بيكر نك أن في استطاعته توجيه اتهام لهم، لكن عندما يصل الأمر إلى المحكمة، ستكون كلمة نك بمفردها أمام كلمتهم هم الثلاثة، أو الأربعة لو عثروا على راي بوث.

زاد احترام نك للشريف چون بيكر خلال اليومين الأخيرين. بيكر مزارع سابق، يزن مائتين وخمسين رطلاً، أطلق عليه أقرانه في الماضي لقب چون الخبيث الضخم. لم يزد احترام نك له لأنه منحه وظيفة تنظيف المكان لتعويضه عن أجر الأسبوع الذي فقده، بل لأنه لاحق من ضربوه وسرقوه. فعل ذلك كأن نك فرد من أفراد أقدم الأسر وأكثرهم احتراماً في البلدة، ولم يعامله على أنه غريب أصم أبكم. نك يعرف أن في الجنوب كثيراً من رجال الشرطة الذين قد يعتقلونه ليقتضي عقوبة ستة أشهر في مزرعة أو في تعبيد الطرق.

كانا قد انتقلنا بسيارة بيكر الخاصة - بدلاً من ركوب سيارة قوة الشرطة - إلى ورشة نشر الخشب حيث يعمل فينس هوجان. أسفل لوحة عدادات سيارة بيكر بندقية محشوة وجاهزة للإطلاق كما قال، ومصباح إضاءة ملوثة يُثبِّته بيكر فوق لوحة العدادات عندما يخرج في مهمة عمل. ثبَّته هناك عندما دخلا إلى ساحة الخشب الخاصة بالورشة قبل يومين.

توقف بيكر، وبصق خارج النافذة، وأفرغ أنفه، وفرك عينيه الحماوين بمنديل. صوته متحشرج أشبه بإنذار السفن. لم يسمعه نك طبعاً، لكنه لم يكن في حاجة إلى هذا. كان واضحاً أن الرجل يعاني برداً قوياً.

قال بيكر: «والآن، عندما تراه سأمسك ذراعه وسأسألك: «هل هذا أحدهم؟»، فتومئ إيجاباً، ولا يهم أكنت تقصد هذا أو لا، المهم أن تومئ. اتفقنا؟».

فأوماً نك وقد فهم فعلاً.

كان فينس يدسُ الخشب في المكشطة، ويقف وسط نشارة الخشب التي تصل إلى منتصف رقبتَي حذائه. ابتسم لـجون بيكر ابتسامة مضطربة، وهو ينقل عينيه بينه وبين نك الذي وقف جوار الشريف. وجه نك نحيف، مضروب، شاحب بعد.

- مرحباً يا جون الضخم. ماذا تفعل هنا بين العمَّال؟

العمال الآخرون يراقبون كل هذا، ينقلون أبصارهم في خوف من نك إلى فينس إلى بيكر، ثم بالعكس، كأنهم يشهدون نوعاً جديداً مُعقّداً من مباريات التنس. بصق أحدهم دفقة تبغ ممزوج على نشارة الخشب، ثم مسح فمه بقاعدة كفه.

أمسك بيكر بذراع فينس هوجان الضخم التي دبغتها الشمس وجذبه إلى الأمام.

- مهلاً! ما الأمر يا جون الضخم؟

أدار بيكر رأسه نحو نك ليرى شفتيه، ثم قال: «هل هو أحدهم؟».

أوماً نك في حماس، وأشار إلى فينس زيادة في التأكيد. احتجّ الأخير هاتفاً: «ما هذا؟ أنا لا أعرف هذا الأخرس».

- إذن كيف عرفت أنه أخرس؟ تعالَ يا فينس، سنذهب في نزهة.. حالاً. أرسل أحد الرجال ليجلب لك فرشاة أسنانك.

قاد بيكر فينس المحتج إلى السيارة، ورماه داخلها. احتج وهو يُنقل إلى البلدة، واحتج وهو يُحبس ويترك على نار لساعتين. لم يكثر بيكر لتلاوة حقوقه القانونية عليه. قال لنك: «لن يفهم منها شيئاً، ذلك الأحمق». عندما عاد بيكر عند الظهيرة، وجد فينس جائعاً وخائفاً إلى حد لم يقدر معه على الاعتراض بأي شكل، فقط اعترف بكل شيء.

كان مايك تشايلدريس في الزنزانة بحلول الواحدة ظهراً، وجلب بيكر إلى الحبس بيلى وارنر عندما كان الأخير يجهز سيارته الكرايزلر للذهاب إلى مكان ما، وهو مكان بدا بعيداً بسبب ما يحمله فيها من صناديق الخمور التي تستخدمها الحانات، والأمتعة المحزومة. إلا أن أحدهم تكلم مع راي بوث، وكان راي ذكياً كفاية ليتحرك مبكراً.

أخذ بيكر نك إلى بيته ليقابل زوجته ويتعشى. في السيارة كتب نك في الدفتر: «أنا واثق يا للأسف من أنه أخوها. كيف تتقبل الأمر؟».

أجاب بيكر بصوت ولغة جسد رسميين: «إنها متماسكة. أخمن أنها بكت عليه قليلاً، لكنها تعرف حقيقته، وتعرف أنه ليس بوسع المرء اختيار أقربائه كما يختار أصدقاءه».

حين بيكر امرأة ضئيلة جميلة، وكانت تبكي فعلاً. النظر إلى عينيها الغائرتين يُشعر نك بعدم الراحة، لكنها صافحت يده بقوة وقالت: «سعيدة لمقابلتك يا نك، وأعتذر بشدة عما حدث لك من متاعب. أشعر بالمسؤولية كون أحد أقربائي متسبباً في ذلك».

هز نك رأسه وحرك ساقيه مُخرجاً.

قال بيكر: «عرضتُ عليه عملاً عندي. انحدر حال القسم إلى الجحيم منذ انتقل برادلي إلى ليتل روك. مهمة نك الطلاء والتنظيف بشكل أساسي. سيظل معنا مدةً على أي حال.. من أجل الـ... أنتِ تعرفين».

قالت: «من أجل المحاكمة. نعم».

مرت لحظاتٌ ثقل الصمتُ فيها إلى حد رآه نك مؤلماً. بعدها قالت وقد أجبرت نفسها على الابتهاج: «أتمنى أن تكون محبباً أكل لحم الخنزير المشوي يا نك. هذا ما لدينا، إلى جانب بعض الذرة وصحن كبير من سلطة الكرنب. سلطتي لا ترقى إلى ما كانت أمه تعدّه. هذا ما يزعم على أي حال».

دَلَّك نك معدته وابتسم.

عن الحلوى (كيك الفراولة. كان نك يتناول وجبات محدودة خلال الأسبوعين السابقين، فأكل من الكيك قطعتين) قالت جين بيكر لزوجها: «يبدو أن أعراض البرد عندك قد تدهورت. أنت تتحمل الكثير على حساب صحتك يا جون بيكر، ولا تأكل ما يبقى ذبابة حيّة».

نظر بيكر إلى طبقه شاعرًا بالذنب لحظة، ثم قال: «يمكنني تحمل تفويت وجبة من أن إلى آخر»، ثم داعب لُغده فترجرج.

نظر إليهما نك متسائلًا عن كيفية تواءم شخصين متباينين الحجم هكذا في الفراش. قال لنفسه بابتسامة داخلية إنهما لا بدَّ يتصرَّفان في الأمر، فهما يبدوان مرتاحين معًا بما يكفي، وهذا ليس من شأنه على أي حال.

- وجهك محمر أيضًا. هل أنت محموم؟

أجاب بيكر: «لا.. حسنًا. ربما قليلًا».

- إذن لن تخرج الليلة. هذا قرار نهائي.

- لديَّ سجناء يا عزيزتي. إن لم يكونوا في حاجة إلى مراقبتي بشكل خاص، فهم يحتاجون إلى طعام وماء.

قالتُ بطريقة قاطعة: «يمكن أن يفعل نك هذا. اذهب أنت إلى الفراش، ولا تتحجج بالأرق، لن ينفعك التحجج».

رد بيكر في وهن: «لا يمكن أن أرسل نك. إنه أبكم أصم. إلى جانب هذا، هو ليس مُنتدبًا».

- إذن قُمْ وانتدبه.

- هو ليس من سكان البلدة!

- لن أخبر أحدًا ما لم تخبر أنت أحدًا.

قامت وبدأت تُخلي المنضدة وهي تضيف: «والآن افعلْ هذا يا جون».

وهكذا تحوَّل نك من سجين بلدة شويو إلى منتدب شرطة بلدة شويو في أقل من أربع وعشرين ساعة. بينما يتجهَّز للذهاب إلى مكتب الشريف، دخل بيكر إلى صالة الطابق الأرضي، ضخماً شبحياً في رداء الحمام القديم. بدا محرَّجاً من الظهور أمام غريب بهذا المظهر.

قال: «ما كان لي أن أتركها تقنعني بهذا، وما كان لي أن أطيعها أيضًا ما لم أكن متوقعًا هكذا. صدري مسدود تمامًا، وحرارتي مرتفعة كالتخفيضات النارية قبل الكريسماس. أنا أيضًا واهن».

أومأ نك متعاطفًا.

- أنا عالق بين المنتدبين. برادلي كيد انتقل إلى ليتل روك هو وزوجته بعد وفاة طفلهما في مهده بلا سبب. أمر فظيع. لا ألومه على الرحيل.

أشار نك إلى صدره نفسه وصنع دائرة من التقاء سبابته وإبهامه.

- طبعًا سأكون بخير. اعتن فقط بالعمل، مفهوم؟ في ثالث درج من أدراج مكتبي مسدس عيار 0.45 لكن لا تأخذه إلى الزنازين، ولا المفاتيح. هل تفهم؟

أومأ نك.

- لو ذهبنا إلى الزنازين، فابتعد عن طائلتهم. لو تمارض أيهم، فلا تصدق. هذه أقدم خدعة في العالم. لو مرض أحدهم حقًا، فيمكن لدكتور سومز أن يعاين المريض في الصباح، وسأكون قد عدت وقتها. أخرج نك الدفتر من جيبه وكتب: «أقدر ثقّتك. شكرًا على حبسهم، وشكرًا على الوظيفة».

قرأ بيكر ما كتبه بحرص، ثم قال: «التزم الحيلة التامة. من أين أنت؟ وكيف تترك هكذا وحدك؟».

كتب نك: «هذه قصة طويلة. سأكتبها لك الليلة لو أردت».

- افعل هذا. أعتقد أنك تعرف أنني سجلت اسمك في كشف التحقق من الشخصية.

أومأ نك. هذا إجراء نموذجي، لكن لا غبار على اسمه أو شخصه.

- سأطلب من جين أن تتصل بمطعم استراحة الشاحنات على الطريق السريع. هؤلاء الشباب سيخربون الدنيا لو لم يأتهم عشاؤهم.

كتب نك: «اطلب منها أن تخبر من سي جلب العشاء أن يدخل مباشرة. لن أسمع له لو طرق الباب».

- حسنًا.

ثم تردّد لحظةً قبل أن يضيف: «ضع فراشك في الركن. هو صلب لكنه نظيف. تذكر فقط أن تلزم الحذر يا نك. لن تستطيع أن تصرخ طلبًا للنجدة لو وقعت في مشكلة».

أوماً نك وكتب: «أستطيع أن أعتني بنفسِي». - نعم. أعتقد هذا. مع ذلك، كنت لأجلب أحدًا من البلدة لو أنني أظنهم قد...

ثم قطع عبارته بدخول جين التي قالت: «ما زلتَ تقلب دماغ هذا الولد المسكين؟ اتركه يذهب قبل أن يعود أخي الأحق ويحررهم جميعًا». ضحك بيكر في مرارة ثم قال: «سيكون قد وصل إلى تينيسي الآن على ما أظن».

تنهّد تنهيدةً طويلةً سرعان ما تحولت إلى أزيز فسلسلة من السعال المتواصل البلغمي.

- أعتقد أنني سأصعد لأرتاح قليلًا يا جين. - سأجلب لك بعض الأسبرين لعلاج الحمى. نظرتُ من فوق كتفها إلى نك وهي تصعد مع زوجها وقالت: «مسرورة للقائك يا نك، أيًا كانت الظروف. خذْ حذرَكَ فقط كما طلب منك». انحنى نك تجاهها، فنثنت ركبتيها تحيةً له، وظنَّ أنه رأى في عينيها لمعة دموع.

جلب صحافَ العشاء صبيّ فضوليّ ذو بثور، يرتدي سترةً نُدلُ قدرة، وقد وصل بعد نك بساعة. أشار له الأخير أن يضع الطعام على الفراش، وبينما يفعل، كتب نك: «هل دُفِعَ ثمنه؟».

قرأ النادل ما كُتب بتركيز طالب مُستجد يقرأ رواية موبى دك، ثم أجاب: «طبعًا. حساب مكتب الشريف على الفاتورة. أقول لك، ألا تستطيع الكلام؟». هزَّ نك رأسه.

- يا خسارة. ثم غادر النادل مسرعًا كأن حالة نك مُعدية.

أخذَ نِك كلَّ صحفةٍ على حدة، ودفعها خلال الفتحة أسفل باب الزنزانة باستخدام عصا مكنسة. نظر إلى أعلى في الوقت المناسب ليلتقط باقي عبارة: «...ابن الحرام، أليس كذلك؟» يتكلم بها مايك تشايلدريس. باسمًا، رفع له نِك إصبعه الوسطى.

هتف تشايلدريس بابتسامةٍ خبيثة: «لك إصبعي أنا أيضًا أيها الأخرس. عندما أخرج من هنا سوف...».

واستدار نِك مبتعدًا، ولم يتابع باقي ما قيل. عاد إلى مكتب الشريف، وجلس على مقعد بيكر، ثم وضع الدفتر أمامه، وفكّر حينًا، ثم كتب:

قصة حياة بقلم نِك أندروز

ثم توقف وابتسم. لقد مر بأوقات غريبة كثيرة، لكن لم تخطر في أكثر أحلامه جموحًا فكرة أن يجلس إلى مكتب الشريف، وقد صار منتدبًا، ويتولى مسؤولية ثلاثة رجال ضربوه، بل ويكتب قصة حياته. بعد لحظة كتب مستكملًا:

وُلِدْتُ في بلدة كاسلين، ولاية نبراسكا، في الرابع عشر من نوفمبر 1968. كان أبي مزارعًا مستقلًا، وكان هو وأمي على شفا الإفلاس دائمًا. كانا مدينين لمصرفين مختلفين. كانت أمي حاملًا بي في شهرها السادس وأبي يذهب بها إلى طبيب في البلدة عندما انفكَّ عمود الربط في شاحنته، وسقطتُ بهما المَرْكَبَة في مصرف المياه. أصيب أبي بنوبة قلبية ومات. بعد ثلاثة أشهر، وُلِدْتُ كما أنا. كان هذا صدمةً لأمي فوق صدمتها لفقد أبي.

أدارتِ المزرعة حتى عام 1973، ثم فقدتها لمصلحة (الكبار) كما كانت تدعوهم. لم تكن لها أسرة، لكنها كتبتُ لأصدقاء في بيج سبرينجز، أيوا، وعشر لها واحد

منهم عليّ عمل في مخبز. عشنا هناك حتى عام 1977 عندما تُوفيت في حادث. صدمها رجل على دراجة بخارية فيما كانت تعبر الطريق في طريقها من العمل إلى البيت. لم يكن الحادث ذنبه، ولم يكن مسرعاً حتى، لكنّ مكابحه تعطلت. منحت الكنيسة المعمدانية ماما جنازةً خيريّةً، وأرسلتني الكنيسة نفسها إلى ملجأ أيتام أبناء يسوع المسيح في دي موين. هذا هو المكان الذي تدعّمه كل الكنائس، وهناك تعلمت القراءة والكتابة...

توقف هنا. أَلَمته يده من كتابة كل هذا القدر، لكنّ لم يكن هذا سبب توقفه. السبب أنه شعر بعدم راحة لاضطراره إلى سرد كل هذا مرة أخرى. عاد إلى الزنازين ليطمئن على مَنْ فيها. تشايلدريس ووارنر نائمان. فينس هوجان يقف خلف القضبان يدخن سيجارة وينظر خلال الممر إلى الزنازاة الخاوية التي كان ليشتغلها راي بوث الليلة لو أنه لم يهرب بهذه السرعة. بدا هوجان كأنه كان يبكي، وهذا ما أعاده في الزمن إلى فتات البشرية الأُكْم؛ نك أندروز. ثمة كلمة تعلمها من الأقلام وهو صغير، وهي كلمة (محبوس انفرادياً). لطالما أدهشت نك هذه الكلمة، وبدت له ذات سمت لا تُكَرّفتي مرعب، يتردّد صداها في العقل. كلمة تصف كل الفروق الدقيقة بين أنواع الخوف التي لا تعيش إلا خارج الكون المتعقّل، وداخل النفس البشرية.

لقد كان محبوباً انفرادياً طوال حياته.

جلس ليقرأ آخر ما كتب..

وهناك تعلمتُ القراءة والكتابة..

لكنّ الأمر لم يكن بهذه البساطة. لقد عاش في عالم صامت. الكتابة شفرة. الكلام حركة شفاه وارتفاع وانخفاض أسنان ورقصة لسان. علمته أمه قراءة الشفاه، وعلمته كتابة اسمه بخط حاد الزوايا. قالت له: «هذا اسمك. هذا أنت. نك». لكنها طبعاً قالت هذا صامتة بلا معنى. جاء الاتصال الأول عندما نقرت على الورقة ثم على صدره. أسوأ ما في الأمر أن تكون أصمّ أبكّم ليس لك إلا أن تعيش في فيلم صامت، بل جهلك بأسماء الأشياء. لم يفهم فكرة تسمية الأشياء حتى وصل إلى سن الرابعة. لم يعرف أن الأشياء الخضراء الطويلة

أسمها أشجار إلا في عمر السادسة. كان يريد أن يعرف، لكن لم يفكر أحد في إخباره، ولم يكن له سبيل إلى السؤال، فهو في حبس انفرادي.

عندما ماتت انعزل تمامًا. الملجأ مكان يهدر بالصمت، يسخر فيه الأولاد ذوو الوجوه الكثيبة من صمته. يجري نحوه صبيان، واحد يغطي فمه، والآخر يغطي أذنيه، ويضربانه لو كانا بلا مراقب. لماذا؟ بلا سبب. ربما لأن تصنيف الضحايا الأبيض الشاسع يتفرع منه تصنيف ضحايا الضحايا.

توقف عن الرغبة في التواصل، وعندما حدث هذا، تدهورت عملية التفكير نفسها وصدئت. جال من مكان إلى آخر بلا هدف، ينظر إلى الأشياء بلا اسم التي تملأ العالم.

في أحيان راقب مجموعات أطفال في الملعب يحركون شفاههم وأسنانهم وألسنتهم وهم يتحدثون. وجد نفسه في أحيان أخرى ينظر إلى سحابة واحدة ساعة تقريبًا.

ثم جاء رودي؛ رجل ضخّم أصلع، وجهه مغطى بالندبات. طوله ست أقدام وخمس بوصات، ربما بدا في العشرين من عمره في عينيّك أندروز الذي توقف عن النمو. تقابلًا لأول مرة في القبو حيث منضدة وستة مقاعد أو سبعة، وتلفاز يعمل حسب مزاجه. قرقص رودي لتقابل عينيّه عيناك، ثم رفع يديه الضخمتين المشوهتين ووضعهما على فمه وأذنيه.

أنا أصم أبكم.

أشاح بك وجهه بعيدًا بمعنى: مَنْ يكثرث؟
لطمه رودي.

سقط بك، فمه مفتوحًا، والدموع الصامته تتسرب من عينيّه. لم يكن يريد أن يظل هنا مع هذا العملاق المشوّه، هذا العوّ الأصلع. هو ليس أصمّ أبكم، بل يمزح مزحةً سخيفة.

ساعده رودي برفق على النهوض وقاده إلى المنضدة حيث ورقة بيضاء. أشار رودي إلى الورقة ثم إلى بك. حذق بك واجمًا إلى الورقة، ثم إلى الرجل الأصلع. هزّ رأسه. أومأ رودي وأشار إلى الورقة البيضاء مرة أخرى، وأعطى بك قلمًا. رماه بك بسرعة كأنه ساخن. هزّ رأسه رافضًا. أشار رودي إلى القلم ثم إلى بك ثم إلى الورقة. هزّ بك رأسه، فلطمه رودي.

المزيد من الدموع الصامته.

ينظر إليه الوجه المشوّه في صبر مميت. أشار رودى إلى الورقة مجدداً.
إلى القلم. إلى نك.

قبض نك على القلم، وكتب أربع كلمات يعرفها، استدعاها من آلية التفكير
الصدئة المكسوة بشباك العناكب في عقله. كتب:

نيكولاس أندروز

سحقاً لك.

ثم كسر القلم ونظر في تحدٍ إلى رودى. لكنّ رودى ابتسم. فجأة مد
ذراعيه خلال المنضدة وأمسك رأس نك بين كفيه القاسيتين الخشنتين. كفاه
دافئتان، رفيقتان. لم يستطع نك أن يتذكر آخر مرة لمسه فيها أحد بحب. أمه
كانت تلمسه بالطريقة نفسها.

أبعد رودى يديه عن وجه نك، ثم التقط نصف القلم ذا السن. قلب الورقة
ونقر المساحة الخالية بسن القلم، ثم نقر صدر نك. كرّر ما فعل مرة تلو
الأخرى، وأخيراً فهم نك.

أنت هذه الورقة الخالية.

وبكى نك.

وظل رودى يزوره لست سنوات تالية.

...حيث تعلمت القراءة والكتابة. ساعدني رجل يدعى

رودى سباركمان. كنتُ محظوظاً للغاية لأنه كان معي. في

عام 1984 أفلس الملجأ. وزّعوا الأولاد قدر استطاعتهم

على متبنين، لكني لم أكن منهم. قيل لي إنني سأعثر

على أسرة قريباً، وستدفع لهم الولاية مقابل معيشتي

عندهم. أردتُ أن أذهب مع رودى، لكنّ رودى كان في

إفريقيا يعمل مع قوات حفظ السلام.

لذا هربتُ. كنت في السادسة عشرة، ولا أعتقد أنهم

بحثوا عني بجد. فكرتُ في أنني لو ابتعدتُ عن المشكلات

فسأكون بخير. حضرت دوراتٍ تعليمية استعدادًا للالتحاق بامتحان معادلة المدرسة الثانوية لأن رودي أخبرني أن التعليم هو الأمر الأهم على الإطلاق. عندما استقر قليلًا سأمتحن معادلة الثانوية، وسأستطيع اجتيازه قريبًا. أنا أحب المدرسة، وربما ألتحق بالجامعة يومًا ما. أعرف أن هذا يبدو جنونًا بالنسبة إلى أصم أبكم مثلي، لكنني لا أظنه مستحيل. على أي حال، هذه هي حكايتي.

صباح أمس جاء بيكر في الساعة السابعة والنصف تقريبًا، فيما كان نك يفرغ سلال الزباله. بدا الشريف في حال أفضل.

كتب نك: «كيف تشعر؟».

- أفضل بكثير. كنت أحترق ليلة أمس. هذه هي أسوأ حمى أصبتُ بها منذ طفولتي. لم يبدو أن الأسبرين يؤثر. أرادتُ جيني أن تتصل بالطبيب، لكن الحمى شَفِيَتْ في الثانية عشرة والنصف تقريبًا. نمتُ بعدها كلوح خشب. كيف حالك أنت؟

صنع نك دائرة بالتقاء إبهامه وسبابته.

- كيف حال نزلتك؟

فتح نك فمه وأغلقه عدّة مراتٍ محاكيًا الثثرة، ثم تصنّع الغضب وراح يضرب قضبانًا غير مرئية. رفع بيكر رأسه إلى أعلى وضحك، ثم عطس عدّة مراتٍ قبل أن يقول: «يجب أن تظهر في التلفاز. هل كتبت قصة حياتك كما أخبرتني؟».

أومأ نك، وناولهُ الصفحتين. جلس الشريف وقرأهما بعناية. عندما انتهى نظر إلى نك مطوّلًا نظراتٍ ثاقبة، حتى إن نك نظر إلى قدميه لحظةً في حرج وحيرة.

عندما رفع عينيه مرة أخرى، قال بيكر: «أنت وحدك منذ كنت في السادسة عشرة؟ ست سنوات؟».

أومأ نك.

- والتحقّت فعلاً بكل تلك الدورات للالتحاق بالمدرسة الثانوية؟

كتب نك في الدفتر: «كنت متأخرًا لأنني بدأتُ تعلم الكتابة والقراءة في عمر كبير نسبيًا. عندما أغلق الملجأ كنت قد بدأتُ ألحق بأقراني. درستُ ست دورات تعليمية هناك، وستة أخرى من وقتها في لا سال بشيكاغو. أحتاج بعد إلى أربع دورات أخرى».

- إلى أي دورات تحتاج؟

ثم رفع رأسه وصاح: «صمًا يا مَنْ هناك! ستحصلون على فطائركم الساخنة وقهوتكم عندما أتحدّث وأستعد، وليس قبل ذلك!».

كتب نك: «الهندسة. الرياضيات المتقدمة. عاَمان من اللغات. هذه هي متطلبات الدراسة الجامعية».

- لغات؟ مثل الفرنسية والألمانية؟

أومًا نك.

ضحك بيكر وهز رأسه وهو يقول: «أليس هذا أغرب شيء على الإطلاق؟ أصم أبكم يتعلم اللغات الأجنبية. لا أقصد إساءةً أيها الصبي. أنت تفهم هذا». ابتسم نك وأومًا.

- إذن لماذا انجرفتَ هكذا بعيدًا؟

كتب نك: «عندما كنتُ قاصرًا، لم أكنُ أتحمّل المكوث في مكان واحد طويلًا. خشيتُ أن يرسلوني إلى ملجأ آخر. وعندما كبرتُ وبدأتُ البحث عن عمل ثابت، ساءت الأوضاع. قالوا إن البورصة انهارت أو شيئًا من هذا القبيل، لكن لما كنتُ أصم فلم أسمع ما قيل. (ها ها ها)»

قال بيكر: «أغلب الأماكن كانت لتدعك تتخبط فقط. لا يتدفق لبن العطف الإنساني غزيرًا يا نك في الأوقات العصيبة. بالنسبة إلى الوظيفة الثابتة، يمكنني أن أعثر لك على عمل في البلدة، إلا إن كان أولئك الأوغاد قد أفسدوا عليك شويو وأركانساس إلى الأبد. لكن.. لسنا جميعًا مثلهم».

أومًا نك مُظهرًا تفهُمه.

- كيف حال أسنانك؟ يا لها من ضربة تلك التي أصابتها.

هز نك كتفيه.

-- هل تناولتَ أيًا من تلك المسكنات؟

رفع نك إصبعين.

- حسنًا. اسمع، يجب أن أنهي إجراءات أولئك الأولاد. أكمل ما كنت تفعل. سنتحدث أكثر لاحقًا.

جاء دكتور سومز -الرجل الذي كاد يدوس نك بسيارته- في نحو الساعة التاسعة والنصف من الصباح نفسه. هو رجل ستيني، شعره أبيض مهوَّش، عنقه رفيع كعنق الدجاجة، وعيناه زرقاوان حادثان.

قال له: «چون الضخم قال لي إنك تقرأ الشفاه. وقال أيضًا إنه يريد أن يراك موظفًا بأجر جيد، لذا أعتقد أن الأفضل أن أتأكد من أنك لن تموت بين يديه. اخلع قميصك».

فك نك أزرار قميص عمله الأزرق وخلعه.

هتف بيكر: «يا يسوع! انظر إليه!».

قال سومز بطريقة جافة وهو يعاين جسد نك: «لقد عملوا عملاً عظيم بالتأكيد. يا فتى، لقد كدت تفقد حلمتك اليسرى».

أشار إلى خدش هلالى فوق الحلمة. بدا صدر نك وبطنه كأنهما صورة لشروق الشمس في كندا. نكز سومز وضغط، وفحص حدقتي عينيه بحرص، ثم نظر إلى أسنان نك الأمامية المهشمة، وهي الجزء الوحيد الذي يؤلمه بحق الآن رغم كل كدماته الظاهرة.

قال: «لا بُد أن ألمها غير مُحتمَل».

أوماً نك.

- ستفقدنها يا للأسف...

ثم عطس ثلاث مرات، وأضاف: «معذرة».

أعاد أدوات الفحص إلى حقيبته السوداء وهو يكمل: «هل مشكلة الكلام عندك مشكلة عضوية أم بسبب كونك أصم؟».

كتب نك: «وظيفية. عيب خلقي».

أوماً سومز وقال: «يا للخسارة. مع ذلك ففكر بإيجابية، واشكر الرب على أن مخك سليم. ارتد قميصك».

فأطاع نك. لقد أحب سومز، فهو بشكل ما أشبه برودي سباركمان الذي أخبره في مرة أن الرب منح كل الصم البكم بوصيتين إضافيتين في ما هو أسفل الخصر، للتعويض لما نقص فوق الكتفين.

قال سومز: «سأطلب منهم في الصيدلية أن يعطوك علبة مسكن أخرى. زكية المال هذا سيدفع الحساب».

فضحك بيكر ضحكة قوية.

- إن لديه خُميرة يخبئها في برطمانات المربى أكثر مما لدى القنفذ من أشواك.

عطس سومز مرة أخرى، ومسح أنفه، ثم بحث في حقيبته وأخرج المِسمع. قال بيكر: «احترس يا جدّي، قد أحبسك بتهمة التَّمَل ونشر الفوضى».

- نعم، نعم.. سأفتح فمك عن آخره يومًا ما وأسقط فيه. اخلع قميصك يا جون، ولنرَ أكان ثدياك ضخمين بعد كما كانا».

- أخلع قميصي؟ لماذا؟

- لأن زوجتك ترغب في أن أفحصك. هذا هو السبب. هي ترى أنك مريض ولا تريد أن تتدهور حالتك، ولا يعرف السبب إلا الرب. ألم أخبرها أن نكفَّ عن التسلل للقاءاتنا السرية ما دمت في العمل؟ هيا يا جوني. أرنا بعض جسدك.

قال بيكر وهو يفك أزرار قميصه: «إنه مجرد برد. بأمانة، أشعر أنني بخير هذا الصباح يا أمبروز. حالتك تبدو أسوأ من حالتي».

- لا تشخّص الطبيب، الطبيب هو الذي يشخصك.

فيما يخلع بيكر قميصه، التفت سومز إلى نك وقال: «هل تعرف مدى غرابة انتقال البرد من شخص إلى آخر؟ السيدة لاثروب مريضة، وكل أسرة ريتشي، وأغلب الخائبين في شارع باركر يسعلون حتى تكاد رؤوسهم تنفجر. حتى حالة السجين ببلي وارنر هنا تتدهور».

خلع بيكر قميصه. سأل سومز: «هاك، ماذا قلت لك؟ أليس ثدياه رائعين؟ حتى هَرِمٌ مثلي قد يُستثار من النظر إليهما».

شهق بيكر والمِسمع يمس صدره.

- أوه، يا يسوع! إنه بارد! ماذا تفعل لتحفظه متجمدًا هكذا؟

قال سومز مقطبًا: «شهيق.. زفير».

تحول زفير بيكر إلى سعلة ضعيفة. فحص سومز الشريف مدَّةً طويلةً، وسمع رثتيه من الأمام والخلف. أخيرًا أبعد مسماعه، واستخدم خافض اللسان ليفحص حلق بيكر. بعدما انتهى كسره ثم رماه في سلة الزُّبالة.
سأل بيكر: «حسنًا؟».

ضغط سومز إصبعين من يده اليمنى على لحم رقبة بيكر تحت الفك، فأجفل بيكر من الضغطة.

قال سومز: «لست مضطرًا إلى أن أسأل أكانت الضغطة آلمتك. عد إلى بيتك يا چون ونم. هذه ليست نصيحة، بل أمر».

رمش الشريف وقال بهدوء: «أنت تعرف يا أمبروز أنني لا أستطيع فعل ذلك. لا بدُّ أن أنقل ثلاثة سجناء اليوم إلى كامدين. تركتُ هذا الفتى معهم ليلة أمس رغمًا عني، ولا أنتوي أن أكرر هذا مرة أخرى. إنه أبكم. ما كنت لأوافق على هذا ليلة أمس لو فكرتُ بحكمة».

- لا تكثرُ لهم يا چون. لديك مشكلاتك الخاصة. من صوت صدرك أقول لك إنك تعاني عدوى تنفسية قوية مع حمى. شُعبك الهوائية مسدودة يا چون، لأكون صريحًا تمامًا معك، هذا أمر خطر بالنسبة إلى شخص بدين مثلك. اذهب إلى الفراش، ولو تحسنتَ غدًا فتخلص منهم. لكن الأفضل أن تتصل بدورية الولاية ليأخذوهم من هنا».

نظر بيكر معتذرًا لنك وقال: «أنت تعرف. أشعر فعلًا أنني مرهق. ربما بعض الراحة...».

كتب نك: «اذهب إلى البيت وارتح. سأكون حريصًا. بالإضافة إلى أن عليَّ أن أحصل على بعض المال لأدفع تلك الفواتير».

أخذ بيكر الصفحتين التي كتبهما نك عن حياته وسأله: «هل يمكن أن آخذ هاتين لتقرأهما جين؟ إنها معجبة بك للغاية يا نك».

كتب نك: «بالتأكيد. إنها سيدة لطيفة جدًا».

- فريدة من نوعها.

ثم أكمل بيكر وهو يزرر قميصه: «تعود الحمى مرة أخرى قوية. كنت أظنها زالت».

قال سومز وهو يغلق حقيبته: «خذ بعض الأسبرين. ما يقلقني هذا الالتهاب الغدي».

قال بيكر: «في الدرج السفلي علبة سيجار، فيها بعض المال للمصروفات النثرية. خذ منها لغدائك واشترِ الدواء. هؤلاء الأولاد صوت بلا فعل. سيكونون بخير. اترك فقط فاتورة بالمال الذي ستنفقه. سأتصل بشرطة الولاية وسيأتون لك في نهاية النهار».

صنع لك دائرة بالتقاء طرفي سبابته وإبهامه.

قال بيكر: «لقد صرْتُ أثق بك كثيرًا خلال وقت قصير. لكنَّ چيني أخبرتني أن لا بأس بهذا. اعتنِ بنفسك».

أومأ بك.

جاءته چين بيكر أمس في السادسة مساء، تحمل طبق عشاء مغطى وعلبة لبن.

كتب لك: «شكرًا جزيلاً. كيف حال زوجك؟».

ضحكت المرأة الضئيلة ذات الشعر الكستنائي، التي ترتدي قميصًا بنقشة المربعات وسروالَ چينز، وقالت: «أراد أن ينزل لك بنفسه، لكنني أثنيته عن قراره. اشتدت الحمى بعد الظهيرة وأرعبتني، لكنَّ حرارته عادت طبيعية في المساء، أعتقد أن هذا حدث بسبب شجاره مع دورية الولاية. لا يشعر چوني أبدًا بتحسّن إلا بعدما يتشاجر معهم».

نظر إليها بك متسائلاً.

- أخبروه أنهم لن يستطيعوا إرسال أي شخص ليأخذ سجناءه قبل التاسعة من صباح غد. أغلب رجالهم مرضى، ومن يعمل منهم ينقل المرضى إلى المستشفيات في كامدين أو حتى إلى باين بلُف. هذا المرض منتشر. أعتقد أن سومز قلق أكثر مما يُبدي.

بدت قلقَةً هي الأخرى. أخرجتْ صفحتين مطويتين من جيب قميصها وأضافت وهي تعطيها إياه: «يا لها من قصة. أنت صاحب أكثر حظ سيئ رأيته في حياتي. أعتقد أن سموك فوق إعافتك أمر مذهل يثير الإعجاب، وعليّ أن أعتذر مرة أخرى مما فعله أخي».

هز نك المَحْرَج كتفيه.

- أتمنى أن تمكث في شويو. يحبك زوجي، وأنا أيضًا. احترس من الرجال هناك.

كتب نك: «سأفعل. بلغني الشريف تمنياتي له بالشفاء».

- سأنقل له أمنياتك الطيبة.

غادرت، وقضى نك ليلته في راحة متقطعة، يقوم كل مدة ليطمئن على الزنازين الثلاث. هم صوت بلا فعل حقًا، وبحلول العاشرة مساءً كانوا قد ناموا جميعًا. جاء رجلان من البلدة ليطمئنا على الوضع ويتأكدوا من سلامة نك، ولاحظ الأخير أن كليهما مريض.

زارته أحلام غريبة، كل ما استطاع تذكره منها بعدما استيقظ أنه كان يسير بين صفوف ذرة خضراء لا نهائية، يبحث عن شيء، وخائف من شيء آخر يلاحقه.

استيقظ هذا الصباح مبكرًا، ونظف السجن متجاهلاً وارنر وتشالدريس. بينما يكمل عمله، هتف ببلي: «سيعود راي كما تعرف. وعندما يمسك بك ستتمنى لو أنك أعمى أيضًا!».

فوّت نك أغلب ما قيل وقد أولى ببلي ظهره.

عاد إلى المكتب، والتقط عددًا من مجلة تايم، وشرع يقرأ. فكر في رفع ساقيه فوق المكتب، ثم قرر أن هذه أفضل طريقة للوقوع في مشكلة لو جاء الشريف فجأة.

بحلول الثامنة تساءل في قلق أكان الشريف بيكر قد انتكس ليلاً. توقع نك وصوله في هذا الوقت ليسلم السجناء لدورية الولاية. بالإضافة إلى هذا، معدة نك مضطربةٌ جوعًا. لم يظهر أحد من مطعم استراحة الشاحنات. نظر إلى الهاتف في ضيق.

نك مغرم بالخيال العلمي، وكان يجمع الكتب المهترئة من وقت إلى آخر من أرفف المنازل القديمة مقابل نكلة ومليم، ووجد نفسه يفكر -ليس للمرة الأولى- في أن اليوم الذي يتحول فيه الهاتف إلى هاتف ذي الشاشة كما تنبأت قصص الخيال العلمي، سيكون يومًا عظيمًا للصُم البكم.

في التاسعة إلا ربع زاد قلقه، فقام إلى الباب المفضي إلى الزنازين، ونظر خلاله.

بيلي ومايك واقفان خلف القضبان، يضربانها بأحذيتهما. كان فينس هوجان مستلقيًا، ولم يُدِرْ رأسه إلا عندما اقتربَ نِك من الباب. وجه هوجان منتفخ شاحب إلا من احمرار قوي على خديه، تحت عينيه رقعتان داكنتان، العرق ينبت من جبهته. التقت عينا نِك بعينيه المحمومتين وأدرك أن الرجل مريض، فوصل قلقه إلى حد غير مسبوق.

هتف به مايك: «أيها الأبكم، ماذا عن بعض الإفطار؟ فينس العجوز يحتاج إلى طبيب. الوشاية أمرضته، أليس كذلك يا بل؟».

لم يحتج بل إلى تقريع، فقال: «أنا آسف لأنني صحتُ بك من قبل يا رجل. فينس مريض، وفي حاجة إلى طبيب».

أوماً نِك وابتعد وهو لا يعرف ما عليه فعله بعد ذلك. مال على المكتب وكتب في الدفتر: «إلى الشريف بيكر، أو أي من سيقراً الرسالة، خرجتُ لأجلب إفطارًا للسجناء، ولأرى أكان في وسعي العثور على دكتور سومز ليفحص فينس هوجان. يبدو أنه مريض حقًا ولا يدعي. نِك أندروز».

انتزع الورقة من الدفتر، ووضعها في منتصف المكتب، ثم دس الدفتر في جيبه، وانطلق إلى الشارع.

أول ما قابل حرارة النهار، ورائحة النباتات. الظهيرة ستكون لاهبة الحرارة. إنه نوع الأيام الذي يفضل فيه الناس إنهاء مهامهم مبكرًا، حتى يتمكنوا من قضاء الظهيرة وما بعدها بهدوء قدر الإمكان. لكن بالنسبة إلى نِك، بدا شارع شويو الرئيسي خاليًا بطرقية غريبة، أقرب لصباح الأحد منه إلى صباح يوم عمل عادي.

أغلب الأماكن المخصصة للسيارات أمام المتاجر خالية، سيارات وشاحنات مزارع قليلة تمر على الطريق. بدا متجر الأجهزة مفتوحًا، لكن أستار المصرف مُسدلة بعد مع أن الساعة جاوزت التاسعة.

استدار نِك يمينًا نحو استراحة الشاحنات، على بعد خمسة مربعات سكنية. كان عند منعطف المربع الثالث عندما رأى سيارة دكتور سومز تتحرك ببطء نحوه، تتمايل قليلًا من جهة إلى أخرى كأنها مُرهقة. لوَح نِك بقوة غير واثق أكان الطبيب سيتوقف أم لا، لكن سومز توقف إلى جوار الرصيف واحتلَّ

أربعة أماكن توقف مائلة. لم يترجل، وظل جالسًا خلف المقود. منظر الرجل صعقك. شاخ سومز عشرين عامًا منذ رآه يشاكس الشريف. بعض تلك الشيخوخة بسبب الإرهاق، لكنَّ الإرهاق ليس السبب الوحيد.. حتى نك استطاع أن يرى هذا. وكأنه يؤكد ما ظنه الأخير، أخرج الطبيب منديلًا مجعدًا من جيب قميصه، كأنه ساحر قديم يُقدم حيلة سحرية لم تعد تثيره، وأفرغ أنفه فيه. بدا جلده لامعًا جدًّا ومصفّرًا، وذكَر نك بالموتى.

ثم فتح سومز عينيه وقال: «الشريف بيكر مات. إن كان هذا ما أوقفتني بسببه، فانسه. مات بعد الساعة الثانية صباحًا بقليل. والآن جيني مصابة بالمرض نفسه».

اتسعت عينا نك. الشريف بيكر مات؟ لكنَّ زوجته قالت ليلة أمس أنه تحسن. وهي الآن.. كانت بخير. لا، هذا غير ممكن.

قال سومز كأنما أعلن نك خواطره بصوت عالٍ: «مات، نعم. وهو ليس الوحيد. وقَّعت اثنتا عشرة شهادة وفاة خلال الاثنتي عشرة ساعة السابقة، وأعرف عشرين شخصًا سيموتون بحلول الظهيرة ما لم يرحمنا الرب. لكني أشك في أن هذا من فعل الرب».

أخرج نك الدفتر من جيبه وكتب: «ماذا أصابهم؟».

- لا أعرف.

كوَّر المنديل ببطء، ورماه إلى البالوعة مضيئًا: «لكن يبدو أن كل من في البلدة مصابين بالمرض نفسه، وأنا مذعور أكثر من أي وقت. أنا نفسي مصاب به، لكني لا أعاني الآن إلا من الإرهاق. لم أعد شابًا. لن أستطيع الاستمرار كل هذه الساعات دون أن أدفع الثمن، أنت تعرف».

زاد على صوته نبرة رعب لم يسمعها نك من حسن حظه وهو يقول: «ورثاء نفسي لن ينفع».

نظر إليه نك في حيرة، ولم يكن قد أدرك أن سومز كان يشعر بالأسف تجاه نفسه.

ترجل الطبيب وهو يستند إلى ذراع نك للحظات. قبضته قبضة مُسن، ضعيفة مهتزة.

- تعالَ معي إلى هذا المقعد يا نك. مريح الحديث معك. أعتقد أن كثيرًا أخبروك بالشيء نفسه.

أشار نك إلى السجن، فقال سومز: «لن نذهب إلى أي مكان، ولو أنهم مصابون بالمرض، فهم الآن في نهاية قائمتي».

جلسا على المقعد المدهون بالأخضر الزاهي، ويحمل على ظهره إعلان شركة تأمين محلية. رفع سومز وجهه نحو دفة الشمس وقال: «رعدة وحمى. أصبت بالأعراض في العاشرة مساءً، لكنني لا أعاني سوى الرعدة فقط الآن، وأشكر الرب على أنني غير مصاب بإسهال».

كتب نك: «يجب أن تعود إلى بيتك».

- يجب، وسأفعل. أردت فقط أن أرتاح لدقائق أولاً..

وانغلقت عيناه، فظن نك أنه نام. فكر في أن يذهب إلى استراحة الشاحنات ويجلب لبيلي ومايك إفطاراً، ثم تكلم دكتور سومز مرة أخرى دون أن يفتح عينيه. راقب نك شفتيه وهو يقول: «الأعراض شائعة جداً» وبدأ يعد على أصابعه حتى فرد العشرة. قال: «رعدة، حمى، صداع، ضعف ووهن عام، فقدان شهية، ألم في أثناء التبول، تورم غدد بسيط إلى شديد، انتفاخ الإبطين وخُن الفخذ، ضعف وإخفاق تنفسي».

ثم نظر إلى نك.

- هذه هي أعراض البرد والإنفلونزا والالتهاب الرئوي. يمكننا شفاء كل هذا يا نك ما لم يكن المريض صغيراً جداً أو مسناً جداً، أو واهناً فعلاً نتيجة مرض سابق، فالمضادات الحيوية تنهي حياتهم. لكن هذا المرض مختلف. إنه يهاجم المريض بسرعة أو ببطء. لا يهم. لا شيء ينفع معه. يزيد هجوم هذا الشيء، ثم يتراجع، ثم يزداد مرة أخرى. يزداد الوهن، وتساءل حالة التورم، ثم في النهاية يأتي الموت. أحدهم أخطأ، وهم يحاولون التغطية على الأمر».

نظر إليه نك في شك، متسائلاً أكان قد فهم الكلمات بشكل دقيق من قراءة الشفتين، وهل كان سومز يخرف.

سأله سومز وهو ينظر إليه باسمًا: «يبدو كلامي ارتيابياً، أليس كذلك؟ كنت أخاف من ارتياب الجيل الأصغر، هل تعرف هذا؟ هم دائماً خائفون من أن يكون أحدهم يتنصت على مكالماتهم.. يتبعهم.. يبحث وراءهم.. والآن أرى أنهم محقون وأنا المخطئ. الحياة حلوة يا نك، لكن الشيخوخة تأخذ رسوماً عالية من تحيزات المرء التي طالما تمسك بها».

كتب نك: «ماذا تعني؟».

- لا تعمل أي من هواتف شويو.

ليس لدى نك فكرة أكانت هذه هي إجابة سؤاله، فالطبيب لم يدقق في ما كتب، أو أن الحمى قد أثرت في عقله.

حدق الطبيب إلى وجه نك الحائر، وفكر في أن الأسم الأبكم ربما لن يصدق.

- هذا حقيقي. لو جربت الاتصال بأي رقم خارج البلدة فلن تسمع سوى رسالة مسجلة. أزيدك أكثر.. مدخلا شويو ومخرجاه مغلقان بمتاريس مكتوب عليها (أعمال صيانة طريق)، لكن ليس من أعمال صيانة. فقط المتاريس. كنت هناك. أعتقد أن إزاحة المتاريس سهل، لكن السيارات قليلة جداً هذا الصباح، أغلبها عربات جيش وشاحنات وسيارات دفع رباعي.

كتب نك: «ماذا عن الطرق الأخرى؟».

- طريق 63 في الشرق محفور لتغيير الأسلاك تحت الأرض. في غرب البلدة حادث رهيب؛ سيارتان اصطدمتا وأغلقتا الطريق تماماً. الدخان يتصاعد منهما لكن لا أثر لدورية الشرطة ولا مركبات إنقاذ. توقف عن الكلام، ثم أخرج منديلاً آخر وأفرغ أنفه.

- الرجال الذين يعملون في تغيير الأسلاك بطيئون للغاية بحسب ما قال چو راكمان الذي يسكن قرب الطريق. كنت في منزله منذ ساعتين، أفحص ابنه الصغير الذي وجده مريض حقاً. قال لي چو أنه يظن أن عمال الحفر جنود يرتدون زي عمال طرق الولاية ويقودون شاحنات الولاية.

كتب نك: «وكيف عرف؟».

قال سومز وهو يقف: «العمال لا يحيون بعضهم بتحية عسكرية».

وقف نك أيضاً ثم كتب: «ماذا عن الطرق الخلفية؟».

أوما سومز وهو يقول: «ربما. لكنني طبيب ولست بطلاً. قال چو أنه رأى أسلحة جيش داخل سياراتهم لو حاول أحدهم مغادرة شويو من خلال الطرق الخلفية، ماذا يحدث لو عثروا عليه؟ من يعرف؟ وماذا قد يجد المرء خارج

شويو؟ أكرر: أحدهم ارتكب خطأ، وهم الآن يحاولون تغطيته. هذا جنون. طبعا سيتسرب خبر شيء كهذا، ولن يتطلب الأمر وقتاً طويلاً، لكن كم شخصاً سيموت حتى وقتها؟».

نظر نك المرتعب إلى دكتور سومز وهو يعود إلى سيارته، ويركبها ببطء. قال وهو يطل من النافذة: «وأنت يا نك. بَمَ تشعر؟ أعراض برد؟ تعطس؟ تسعل؟».

هز نك رأسه نفياً لكل الأعراض.

- هل ستحاول مغادرة البلدة؟ أعتقد أنك تستطيع ذلك لو اتخذت سبيلاً بين الحقول.

هز نك رأسه وكتب: «هؤلاء الرجال محبوسون، ولا يمكن أن أتركهم هكذا. فينس هوجان مريض، لكن الآخرين بخير. سأجلب لهم إفطارهم ثم أذهب إلى السيدة بيكر».

- أنت شهم أيها الصبي، وهذا نادر. صبي في عمرك ولديه حس المسؤولية هذا أكثر نُدرة. ستُقدَّر هذا يا نك. الكاهن بريسمان قال إنه سيمر عليها أيضاً. أخشى أن عليه تلبية دعوات كثيرة قبل أن ينتهي يومه. ستحترس ممن تحبسهم، أليس كذلك؟
أوماً نك إيجاباً.

- جيد. سأحاول أن أمر عليك بعد الظهيرة.

وتحركت السيارة مبتعدة بقائدها المتعب محمر العينين. حذق إليها نك بوجه مهموم، ثم أكمل طريقه إلى استراحة الشاحنات مرة أخرى. كان المطعم مفتوحاً، لكن أي من الطاهين لم يكن هناك، ولم تصل بعد ثلاثة من النادلات الأربع ليتسلمن وردية الساعة السابعة حتى الثالثة. اضطر نك إلى الانتظار طويلاً حتى يحصل على طلبه. عندما عاد إلى السجن، وجد بيلي ومايك مرتعبين بشدة. فينس هوجان يخرف، وبحلول السادسة مساء سيكون قد مات.

الفصل التاسع عشر

مر وقت طويل منذ زار لاري ميدان التايمز آخر مرة، حتى إنه ظنه مختلفاً بشكل ما، سحرياً. تبدو الأشياء أصغر، لكن أفضل، وشعر بالضيق من ازدحام

المكان الخطر النتن كما كان يشعر وهو صغير، عندما كان يتسكع مع بدي ماركس أو وحده هنا ليشاهد عرض فيلمين بـ 99 سنتًا، أو للتحديق إلى واجهات المتاجر اللامعة وصالات الرقص.

لكن كل شيء بدا كما كان، ربما أكثر من اللازم لأن بعض الأشياء قد تغيرت فعلًا. بائع الصحف عند مخرج محطة قطار الأنفاق غير موجود. على بعد نصف مربع سكني اختفى جهاز اللعب المحاط بالأضواء والأجراس والشباب الخطرين الذين تتدلى سبائهم من أطراف أفواههم وهم يلعبون (جزيرة جوتليب الصحراوية) و(سباق الفضاء)، وحل محلهم مطعم أورانج جوليوس وأمامه مجموعة شباب سود، تتمايل أنصاف أجسادهم السفلية كأن أحدهم يعزف موسيقى جايث لا تسمعها سوى آذان السود.

ما زالت في المكان عدة صالات تدليك وأفلام فاضحة.

مع ذلك، ما زال كما هو، وأحزنه هذا. بشكل ما شعر أن الاختلافات الحقيقية التي طرأت جعلته سائحًا غريبًا، مُتَقَرِّمًا، يريد أن ينظر إلى أعلى ليقرأ عناوين الإعلانات الإلكترونية وهو يجول هنا وهناك. لقد نسي كيف يكون المرء جزءًا من نيويورك، ولا رغبة عنده لتعلم الأمر مرة أخرى.

لم تذهب أمه إلى العمل هذا الصباح، فقد كانت تصارع أعراض البرد لأيام، واستيقظت مصابة بالحمى. سمعها من فراشه الضيق في غرفته القديمة، تدور في المطبخ وتسعل وهي تردد: «سحقًا!» بأنفاس متهدجة، فيما تجهز الإفطار، وسمع صوت التلفاز يذيع الأخبار خلال برنامج (اليوم). محاولة انقلاب في الهند. انفجار محطة طاقة في وايومينج.

بمخرج لاري إلى المطبخ وهو يزرر قميصه، كانت الأخبار قد انتهت، وچين شاليت تحاور رجلًا أصلع يعرض مجسمات حيوانات صغيرة صنعها بحرفة نفخ الزجاج، وهي هوايته منذ أربعين عامًا، وسيصدر كتابه عن تلك الحرفة عن دار نشر راندوم هاوس. أخيرًا سعل، فقالت چين شاليت: «عذرًا لك»، ثم ضحكت.

سألت أليس أندروود وهي ترتدي بعد رداء الحمام: «هل تريده مقلدًا أم مخلوطًا؟».

- مخلوط.

أجاب لاري وهو يعرف أن لا سبيل للاحتجاج على البيض. لا إفطار بلا بيض من وجهة نظر أليس. (تسمي البيض «توت القوقاة»⁽¹⁾ عندما تكون في مزاج مناسب للمزاح)، فهو غني بالبروتين والمغذيات. فكرتها عن المغذيات ضبابية، لكن شاملة. تحتفظ بقائمة مغذيات في عقلها كما يعرف لاري، كما تحتفظ بقائمة غير المغذيات مثل حلوى العناب، ولحم سليم جيم المُصنَّع، وقطعة اللبَّان الوردية في علبة بطاقات البيسبول، وغيرها الكثير.

جلس ينظر إليها وهي تطهو البيض، تصبه في المقلاة السوداء القديمة ذاتها، تُقلِّب بالمضرب السلكي القديم الذي كانت تستخدمه منذ كان في الصف الأول من الدراسة.

جذبت منديلها من جيب رداء الحمام، وسعلت وعطست فيه، ثم غمغمت: «سحقًا» قبل أن تعيده إلى مكانه.

- لن تذهبي إلى العمل اليوم يا أمي؟
- طلبتُ إجازةً مرضيةً. هذا البرد يريد أن يحطمني. أكره أن أطلب إجازةً مرضيةً يوم الجمعة كما يفعل الكثيرون، لكن يجب أن أصْلُبْ عودي. أنا محمومة وغُددي متورمة أيضًا.
- هل اتصلتِ بالطبيب؟
- عندما كنتُ صبيةً ساحرةً، كان الطبيب يزور المرضى في البيت، لكنك لو مرضتَ الآن سيكون عليك الذهاب إلى الطوارئ في المستشفى، أو إلى واحدة من تلك العيادات دون حجز⁽²⁾، وستنتظر فيها دهرًا حتى يعاينك واحد من أولئك الحاذقين، وستكون مزدحمة أكثر من مراكز استبدال الكوبونات الخضراء⁽³⁾ قبل الكريسما. سألزم البيت وأخذ بضعة أقراص أسبيرين، وبحلول الغد سأكون قد تحسنت.

(1) يسمى الأمريكيون البيض باسم توت القوقاة في العامية.

Cracklberries وهي كلمة مكونة من مقطعين، أولهما يشير إلى صوت الدجاج وهو يبيض، والثانية إلى التوت. (الترجمة)

(2) العيادات دون حجز سابق هي مقدم خدمات صحية دون حجز. تقدم فيها الخدمة ممرضات على الأرجح، وتكون أسعارها أقل بكثير من الأماكن الأخرى (الترجمة)

(3) الكوبونات الخضراء تمنح كهدايا عند الشراء من أماكن معينة بمبالغ محددة سابقًا، ويمكن للمشتري منح الكوبونات للمحتاجين لاستبدالها بطعام أو وقود (الترجمة)

مكث في المنزل أغلب الصباح يحاول المساعدة، فحمل التلفاز إلى جوار فراشها وأوتار ذراعيه نافرة. قالت له: «ستتسبب لنفسك في ناصور كي أستطيع مشاهدة التلفاز؟». ثم عطست. جلب لها عصيرًا ودواءً مسكنًا، ثم ذهب إلى السوق ليشتري لها كتابين.

بعد ذلك لم يبقَ لهما من شيء يفعلانه إلا الضغط على أعصاب بعضهما. قالت له إن الإرسال سيئ في غرفة النوم، فقال لها إن إرسالًا سيئًا أفضل من لا إرسال على الإطلاق وقد فهم ما تلمح له. أخيرًا، أخبرها أنه ذاهب لجولة في المدينة.

قالت له في راحة واضحة: «هذه فكرة حسنة. سأغفو أنا قليلًا. أنت ولد صالح يا لاري».

لذا، نزل الدرج الضيق (المصعد ما زال معطلًا) إلى الشارع وهو يشعر بالذنب كونه ارتاح من رفقتها. اليوم ملكه، ومعه بعض المال.

لكنه الآن وهو في ميدان تايمز لا يشعر بالسعادة المتوقعة. جال طويلاً، ومحفظته في جيبه الأمامي. توقف عند متجر خصومات يبيع ألبومات موسيقية، وقد جمده صوته المنبعث من السماعات يتغنى بالمقطع:

«لم آتٍ لأطلب منك البقاء طوال الليل،
أو لمعرفة أكنتِ قد رأيتِ النور.
لم آتٍ لأثير جدلاً أو أستفز شجراً،
أردتُك فقط أن تخبريني أكنتِ تستطيعين
فهم رجلك؟
افهميه يا صغيرتي..
يا صغيرتي، هل تفهمين رجلك؟».

قال لنفسه: «هذا أنا»، وهو ينظر إلى خواء إلى الألبومات، لكن الصوت اليوم أتعسه، بل جعله يشعر بالحنين إلى بيته. إنه لم يعد راغبًا في البقاء أكثر تحت هذه السماء الرمادية، يشم رائحة عوادم نيويورك، ويتحسس بلا انقطاع محفظته ليتأكد من أنها في مكانها. نيويورك، الاسم الأصلي: جنون

الارتياب. شعر فجأة أن المكان الذي يتوق إلى أن يكون فيه الآن هو الاستوديو، يسجل ألبومًا جديدًا.

أسرع لاري الخطى ودار من حول جهاز اللعب. الأجراس تدق في أذنيه. ثمة مكبر صوت يذيع أصوات الألعاب المزعجة غير المحتملة، وصرخات الضحايا الإلكترونية. اتجه إلى كابينة الفكة، وحصل على أربعة أرباع دولار. ثمة هاتف عام جوار مطعم خلال الشارع، فطلب منه رقم جين من الذاكرة، وجين هو صالة قمار يتسكع فيها وين ستوكي كثيرًا.

دس لاري أرباع الدولار في فتحة الهاتف، ورن الجرس على بعد ثلاثة آلاف ميل. أجابه صوت أنثوي: «صالة جين. المكان مفتوح».

سألها بطريقة مغوية وضيعة: «أي مكان بالضبط المفتوح؟».

- اسمع، هذا ليس.. لحظة! أنت لاري؟

- نعم، هذا أنا. مرحبًا آرلين.

- أين أنت؟ لم يركَ أحد منذ مدة يا لاري.

أجاب في حذر: «أنا في الساحل الشرقي. أخبرني أحدهم أن علقة دماء ملتصقة بي، فاضطرت إلى الخروج من مغطس السباحة حتى تسقط عني».

- الأمر متعلق بالحفل الكبير؟

- نعم.

- سمعت بما حدث أيها المُسْرِف.

- هل وين وحده يا آرلين؟

- هل تقصد وين ستوكي؟

- لا أقصد چون وين طبعًا، فهو ميت.

- ألم تعرف بالأمر؟

- أي أمر؟ أنا على الساحل الآخر. هل هو بخير؟

- إنه في المستشفى مصاب بفيروس الإنفلونزا هذا. يدعونه كابتن تريبس

هنا، وكأن التسميات ستشكل فارقًا. مات الكثير بسببه كما يقولون.

الناس مذعورة، يمكنون في منازلهم. لدينا ست مناضد خاوية، وأنت

تعرف أن الصالة لا تخلو أبدًا من زبائننا.

- كيف حاله؟

- مَنْ يعرف؟ كثيرون في العنابر، ممنوع عنهم الزيارة. الموضوع مرعب يا لاري. الجنود في كل مكان.
- في إجازة؟
- الجنود في إجازة لا يحملون أسلحتهم أو يركبون مَرَكَبات الجيش. الكثير مرتعب فعلاً. أنت بخير حيث أنت.
- ألم يذكروا شيئاً في الأخبار؟
- لا شيء سوى تنويه في الصحف لأخذ حقن مصل الإنفلونزا، لكن الناس يتهايمسون عن إخفاق إحدى تجارب الجيش مع الأوبئة. أليس هذا مرعباً؟
- هذا كلام من خائفين لا أكثر.
- لا يوجد شيء مشابه حيث أنت؟
- لا يوجد شيء.
- ثم تذكر أمه، وتذكر كيف مر بالكثير من العطس والسعال في قطار الأنفاق. تذكر كيف بدت له تلك الأصوات كصوت عنبر سُل. لكن إن كان السعال والعطس بهذه الكثافة في المدينة، فجراثيم البرد سخيّة، تحب المشاركة.
- قالت آرلين: «چيني نفسها تقول إنها تعاني الحمى وتورم الغدد. ظننتُ تلك العاهرة العجوز أقوى من أن تمرض».
- قطع الاتصال عبارة: «انتهت ثلاث دقائق».
- قال لاري: «حسناً، سأعود خلال أسبوع مثلاً يا آرلين. سنتواصل».
- لا بأس. لطالما أردتُ أن أخرج مع نجم.
- آرلين، ألا تعرفين شخصاً يدعى ديوي الأحمق؟
- قالت آرلين فجأة في صدمة: «أوه! لاري!».
- ماذا؟
- الشكر للرب أنك لم تغلق الخط. أنا رأيت وين فعلاً منذ يومين، قبل أن يذهب إلى المستشفى. نسيت الأمر تماماً! أوه، إلهي!
- وما الأمر؟

- ترك ظرفاً لك، وطلب مني الاحتفاظ به في دُرج نقودي لأسبوع تقريباً، أو أعطيه لك لو قابلتك. قال شيئاً على غرار: «يا له من وغد كون ديوي الأحمق لا يجمع هذا المال بدلاً عنه».

نقل لاري الهاتف إلى يده الأخرى وهو يسأل: «وماذا في الظرف؟».

- لحظة.

مرت لحظة صمت، ثم صوت تمزيق، بعدها قالت آرلين: «فيه سجل حسابات التوفير من مصرف كالفورنيا التجاري الأول. رصيدك.. واو! أكثر من ثلاثة عشر ألف دولار. لو طلبت مني مقاسمك دفع الحساب مرة أخرى سأفتح رأسك!».

قال باسمًا: «لن تضطري إلى هذا. شكرًا يا آرلين. احتفظي به من أجلي».

- لا، بل سأرميه في بالوعة صرف الأمطار أيها العبيط.

- ما أجمل أن يحبك الناس.

تنهدت آرلين وقالت: «المبلغ كبير يا لاري. سأضعه في ظرف يحمل اسمينا، كي لا تخدعني عندما تأتي».

- لن أفعل يا سُكر.

أغلَقَ الخط، ثم ظهر عامل الاتصال يطالب بثلاثة أرباع دولار إضافية تُدفع للمتجر صاحب الهاتف. ظل لاري سعيدًا باسمًا وهو يضع المبلغ المطلوب في فتحة الهاتف.

نظر إلى باقي العملات على رف كابينّة الهاتف، فأخذ واحدة ووضعها في الفتحة، وبعد لحظات رن هاتف منزل أمه. أول ما سترغب فيه بعد خبر مشابه هو مشاركة الأخبار الجيدة، وثاني ما سترغب فيه هو إثارة غيظ أحدهم بها. فكر -بل آمن- أن الأول هو ما يريد. أراد أن يريح كليهما بالأخبار وأنه صار مستقرًا مرة أخرى.

خبتِ الابتسامة على شفّتيه تدريجيًا والهاتف يرن ويرن. ربما قررتِ الذهاب إلى العمل رغم كل شيء. فكر في وجهها المحموم المحمر، وفي سعالها وعطسها. لا يبدو أنها ذهبت. الحقيقة هي أنه لا يظنها قادرة على الحركة.

أغلق الخط وأزال العُملة في شرود من داخل الهاتف. خرج من الكابينة يهز العملات في يده. عندما أبصر تاكسيًا أشار له، فتوقف وسط زحام الطريق، وبدأت السماء تمطر.

الباب مُوصد، وبعد طرده مراتٍ تأكد أن الشقة خالية. كان قد قرع الباب كثيرًا حتى قرع أحدهم في الطابق الأسفل بابَه، كأنه شبح مُحاكٍ، لكنه كان مُضطربًا إلى الاستمرار كي يتأكد، ولم يكن معه مفتاح. استدار لينزل إلى شقة السيد فريمان، لكنه سمع صوت أنة خافتة من وراء الباب.

على باب أمه ثلاثة أنواع أقفال مختلفة، لكنها لم تكن تستخدمها كلها. ضرب لاري الباب بكتفه فارتج في إطاره بقوة. ضربه مرة أخرى قرب القفل، فانفتح الباب وارتطم بالحائط.

- أمي؟

وصل إليه صوت الأنين مرة أخرى.

الشقة مظلمة، وقد غام النهار وأعمت فجأة، وعلا هزيم الرعد وخريف الأمطار. نافذة غرفة المعيشة نصف مفتوحة، والستائر البيضاء تنتفخ فوق المنضدة، ثم تُشفط إلى الخارج بسبب تيار الهواء خلفها. على الأرض رقعة مبلة لامعة حيث تصل مياه الأمطار.

- أمي، أين أنت؟

أنين أعلى. عبر المطبخ، وهزم الرعد مرة أخرى. كاد يتعثّر فيها وهي ممددة على الأرض، نصفها داخل غرفة نومها ونصفها خارجها.

- أمي! يا يسوع، أمي!

حاولت أن تنقلب على ظهرها لدى سماعها صوته، لكن رأسها فقط هو ما تحرك. نفّسها يغط بالبلغم، لكن أسوأ ما في الأمر، وهو ما لن ينسأه أبدًا، كيف تُحرّك عينيها نحوه لتتظر إليه. كانت عيني خنزير في المذبح في وجه محتقن بالحمى.

- لاري؟

- سأعيدك إلى فراشك يا أمي.

مال محاولاً السيطرة على رعدة ركبتيه، ثم حملها على ذراعيه. انفتح رداء الحمام ليكشف عن قميص نوم كالح، وساقين بيضاوين كبطن السمك، تغطيهما عروق زرقاء منتفخة. حرارتها لا تحتل. أربعه هذا. لا يمكن أن يكون المرء محمومًا إلى هذه الدرجة وحيًا في الوقت نفسه. لا بدُّ أن مخها يُقلَى في جمجمتها الآن.

وكأنما تأكد هذا، همست: «لاري، اذهب وأحضر أباك، إنه في الحانة».

- اهدئي. اهدئي فقط ونامي يا أمي.

زعقتُ وسط عَتَمَة ما بعد الظهيرة وهزيم الرعب: «إنه في الحانة مع المصور!».

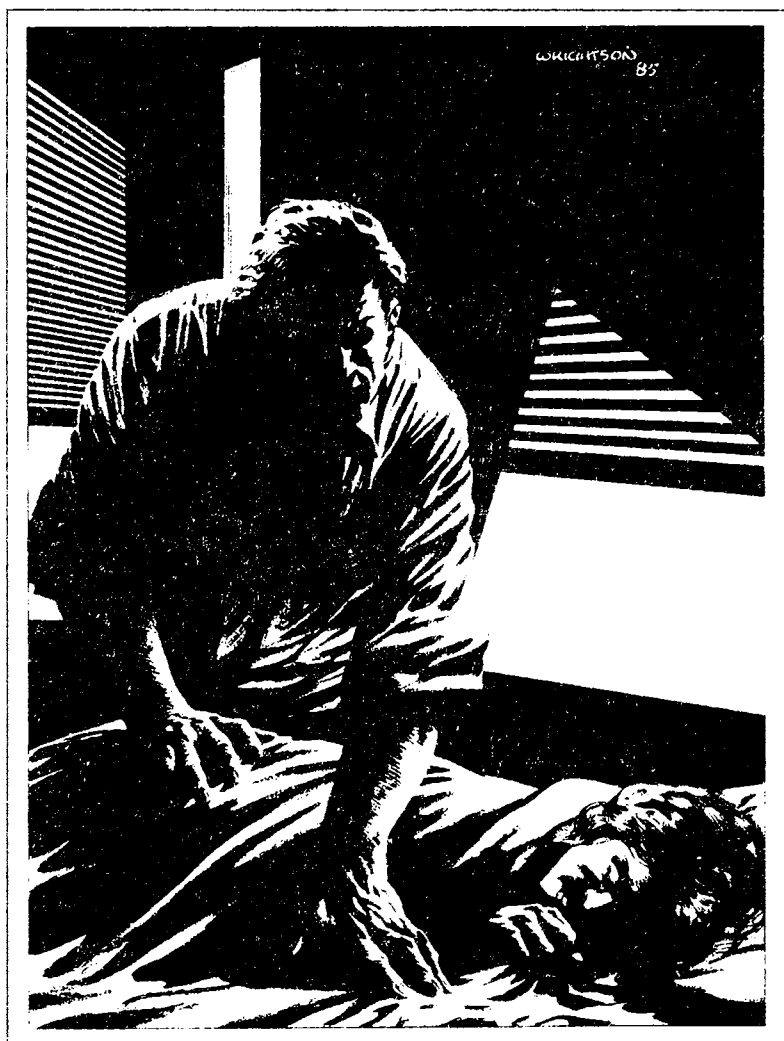
شعر لاري كأن جسدها مغطى بالهلام الذي يسيل ببطء. نسمة باردة تتحرك وسط الشقة، تهبُّ من النافذة نصف المفتوحة. ارتجفتُ أليس بفعلها وصار جلدها كجلد الإوزة واصطكَّت أسنانها. وجهها كالبدن وسط ظلام غرفة نومها. أبعد لاري الأغطية ثم وضع أمه وغطاها حتى نذقنها. على ذلك ظلت ترتجف بلا سيطرة، وتُرجف الأغطية معها. وجهها جاف بلا عرق.

صاحت: «اذهب وأحضره إلى هنا!» ثم صمتت تمامًا إلا من صوت حشجة تنفسها.

عاد إلى غرفة المعيشة قاصدًا الهاتف، لكنه دار حوله وأغلق النافذة أولاً ثم عاد إليه. دليل أرقام الهاتف في رف تحت المنضدة. بحث فيه عن رقم مستشفى ميرسي واتصل به على خلفيه صوت الرعد بالخارج. وهج البرق حوّل النافذة التي أغلقها للتو إلى لوح أشعة سينية. في غرفة النوم أمه تصرخ بأنفاس متقطعة تجمد الدم في عروقه.

رنَّ الهاتف في المستشفى مرة، ثم تلا ذلك صوت أزيز ثم صوت تكَّة وصدح الصوت الآلي: «هذه رسالة مسجلة من مستشفى ميرسي. جميع خطوطنا مشغولة الآن. لو انتظرتَ فسنجيب مكالمتك في أسرع وقت ممكن. شكرًا لك. هذه رسالة مسجلة من...».

زعقتُ أمه: «هل سَكَن ذوو الشعر الشبيه بشراشيب الممسحة؟! هؤلاء البويرتوريكويين لا يفهمون شيئًا!».



أغلق لاري الخط بضغطة إصبع وهو يتعرق. أي نوع من المستشفيات اللعينة هذه، حيث يرد على الهاتف تسجيل آلي فيما أمك تموت؟ ماذا يحدث هناك؟

قرر لاري أن ينزل ليرى أكان في وسع السيد فريمان المكوث معها فيما يذهب إلى المستشفى. أم المفترض أن يطلب سيارة إسعاف خاصة؟ يا للمسيح.. كيف لا يعرف المرء شيئاً عن هذه الأمور والمفترض أن يعرف؟ لماذا لا يدرسون هذه التفاصيل في المدارس؟ استمرت أنفاس أمه المختنقة وهو يغمغم: «سأعود».

كان مذعوراً، خائفاً عليها، لكنَّ أسفل كل هذا صوتاً خفيضاً يهمس: «هذه الأشياء لا تحدث إلا لي. لماذا يحدث هذا بعدما وصلت إليَّ أخبار جيدة؟ إلى أي مدى سيفسد ما يحدث خططي؟ كم من أمور سأضطر إلى تغييرها في حياتي؟».

كره هذا الصوت وتمنى أن يموت سريعاً ميتة سوء، لكنه استمر. هبط الدرج إلى شقة السيد فريمان والرعْد يزلزل السحب. عندما وصل إلى الطابق الأول، انفتح الباب واقتحمته ستائر المطر.

الفصل العشرون

فندق هاربورسايد هو الأقدم في أوجونكويت. لم يعد يطل على منظر جيد منذ بنوا نادي اليخت الجديد على الجهة الأخرى، لكن في ظهيرة كهذه، والسماء ملبّدة بغيوم عاصفة رعديّة، يصير المنظر جميلاً بما يكفي.

كانت فراني جالسة قرب النافذة منذ ثلاث ساعات، تحاول كتابة خطاب لجريس دوجان، رفيقة المدرسة العليا التي ستلتحق بجامعة سميث. لم يكن ما تكتبه خطابَ اعتراف بحملها، أو حديثاً عما وقع بينها وبين أمها، فالكتابة عن تلك الأمور لن تؤدي إلا إلى الكآبة، وقد افترضت أن جريس ستعرف التفاصيل قريباً من خلال مصادرها في البلدة. كانت تحاول فقط أن تكتب لصديقة عن ذكريات قديمة وعن أخبار صديقاتهما، وعن زواج أمي لودر.

لكنّ الخطاب لن يسمح لنفسه أن يكتب. يبدو أن أحداث اليوم النارية قد أدت دوراً.. خاصة أن أغلب الأخبار في الخطاب ليست صادقة بالقدر الكافي. أحداث كسكين حادت عن مسارها فجرحتك بدلاً من تقشير البطاطس كما توقعت لها. أمي لودر ستتزوج، لكن سألد أنا. هاهها.

شعرت أنها ترغب في إنهاء الخطاب حتى لا تحتاج إلى مصارعته بعد الآن، فكتبت:

لديّ مشكلاتي الخاصة، لكنّ ليست لديّ رغبة في كتباتها. كيفيني ما أشعر به وأنا أفكر فيها! لكني أتوقع مقابلتك يوم الرابع من يوليو، إلا إن كنت قد غيّرت خطتك منذ آخر خطاب تلقّيته منك. (خطاب واحد في ستة أسابيع؟ بدأت أعتقد أن أحدهم قد قطع أصابعك

يا صبيّة!). عندما أراكِ سأحكي لكِ كل شيء، وطبعًا
سأستفيد من نصيحتك.

آمني بي، وسأومِن بكِ..
فران.

وقَّعت اسمها بخط مرسوم كخطوط المجلات المصورة، فاحتل نصف
المساحة الخالية من الخطاب. فعلتها هذه أشعرتها بأنها مُدعية أكثر من أي
وقت مضى. طوِّت الخطاب ووضعت في ظرف وكتبت عليه العنوان، ثم ثبتته
ما بين المرآة وإطارها. انتهت المهمة.

والآن، ماذا بعد؟

تغيم السماء مرة أخرى. قامت تذرّع الغرفة، تفكر في ضرورة خروجها
قبل أن تمطر السماء مجددًا، لكنْ إلى أين ستذهب؟ إلى السينما؟ لقد شاهدتِ
الفيلم الوحيد المعروض فيها. إلى بورتلاند لتسوّق الملابس؟ ليس ممتعًا.
الملابس الجيدة التي يمكنها الاختيار منها الآن هي تلك ذات الخصور المطاطة
التي تتسع لاثنتين.

تلقتُ ثلاث مكالمات اليوم، الأولى تزفُّ أخبارًا جيدة، والثانية بين بين،
والثالثة تحمل أخبارًا سيئة. تمنّت لو أنها قد تلقتها بالعكس. بالخارج يهطل
المطر والسماء تكفهر. قررتُ أن تخرج لتسير تحت المطر. الهواء النقي
ورطوبة الصيف يجعلانها تتحسن. ربما تتوقف في مكان ما لتشرب زجاجة
بيرة. السعادة في زجاجة.

وردتها المكالمات الأولى من ديبى سميث، من سومرزورث. رحّبت ديبى
باستضافة فراني. في الواقع هذه الإقامة أنقذتها، فقد رحلتُ فتاة من الثلاث
اللاتي يتشاركن إيجارَ الشقة التي انتقلت إليها في مايو. هي ورودا لن
تستطيعا تحمل الإيجار مقسومًا على اثنتين فقط.

أضافت ديبى: «وكلتانا من أُسر كبيرة العدد، ورضيع باكٍ لن يضايقنا».
أخبرتها فران أنها ستكون مستعدة للانتقال إلى شقتهم في بداية يوليو.
عندما أغلقتِ الخط شعرتُ بالدموع الدافئة تبلل خديها. دموع الارتياح. لو
استطاعتِ الخروج من البلدة التي تربّت فيها، ستخرج على الفور. ستبتعد
عن أمها وعن أبيها حتى. حملها عازبة أضاف مسؤولية إلى حياتها وغرضًا،

وله عامل كبير في رغبتها في الابتعاد، لكنه ليس العامل الوحيد. ثمة حيوان يتضخم إلى ضعف حجمه عندما يشعر بالخطر، ربما حشرة أو ضفدع، لا تتذكر. يراه المُفترس على هذه الحال فيخاف وينصرف. هي الآن تشعر بما تشعر به تلك الحشرة، لكنَّ الخطر بالنسبة إليها هو البلدة كلها، المحيط كله. هي تعرف أن لا أحد سيجبرها على تعليق حرف قرمزي، لكنها تحتاج إلى أن تقنع أعصابها بهذه الحقيقة. عندما خرجت شعرت بالناس يحدقون إليها، بل لا يحدقون إليها، إنما يستعدون لذلك. هي تقصد بالتأكيد أهالي البلدة، لا المصطافين. يبحث الأهالي دائماً عن شخص يحدقون إليه؛ ثمل، ثري بالوراثة، فتاة ذات بطن منتفخ.

المكالمة الثانية البين بين وصلت إليها من چيس رايدر. اتصل بها من بورتلاند وقد حاول الاتصال ببيتها أولاً. أجاب اتصاله بيتر من حسن الحظ، وأعطاه رقم فران في الفندق دون أي تعليق إضافي.

مع ذلك قال لها: «الأجواء مكهربة في البيت، أليس كذلك؟».

أجابت في حذر دون أن تخوض في تفاصيل تجعلهما متآمرين: «بعض الشيء».

- أمك؟

- لماذا تفترض هذا؟

- تبدو أنها من النوعية التي تصاب بالذعر. يبدو هذا في عينيها يا فراني. صمتت، فأضاف: «معذرة. لم أقصد أن أزعجك».

- لا عليك.

ما قاله صحيح، لكنها تحاول أن تستوعب كلمة (أزعجك) هذه، فهي كلمة لم تسمعها من قبل. يكفُ الحبيب عن أن يكون حبيباً عندما يتكلم عن الإزعاج. - عرضي ما زال قائماً يا فراني. لو وافقتِ فسأشتري خاتمين وأكون عندك بعد الظهيرة.

قالت فراني لنفسها: «على دراجتك؟»، وكادت تقهقه. القهقهة شيء فظيع غير ضروري الآن، فغطت سماعة الهاتف ثواني كي تتأكد من أن الضحكات لن تفر. انتحبت وقهقهته كثيراً خلال الأيام الستة الماضية أكثر مما فعلت منذ تخطت السادسة عشرة وبدأت المواعدة.

قالت بصوت هادئ: «لا يا جيس».

هتف مصدومًا كأنما رآها تقهقهه: «أنا أعني هذا!».

- أعرف. لكنني لست مستعدةً للزواج. أعرف هذا عن نفسي يا جيس، وليس للأمر علاقة بك.

- ماذا عن الطفل؟

- سأحتفظ به.

- ثم تعرضينه للتبني؟

- لم أقرر بعد.

صمت للحظات، واستطاعت أن تسمع أصواتًا أخرى في الغرفة. إن لهم مشكلاتهم الخاصة يا صغيرتي. العالم مسلسل درامي صباحي. نحن نحب حيواتنا، ونبحث عن الضوء المُرشد كما نبحث عن الغد.

قال جيس أخيرًا: «أنا أتساءل عن مصير الطفل».

إنها تشك في أنه يفعل، لكن ربما هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكنه قوله.

- جيس...

- إذن إلى أين ستذهبين؟ لا يمكنكِ قضاء الصيف كله في هاربورسايد.

لو أنك تحتاجين إلى مكان، فيمكنني البحث لك عن واحد في بورتلاند.

- لديّ مكان.

- أين، أم المفترض ألا أسأل؟

- المفترض ألا تسأل.

قالت عبارتها ثم عضت لسانها ندمًا على عدم تفوهها بشيء أكثر دبلوماسية.

قال بصوت مسطح إلى حد غريب: «أوه...». ثم أضاف في حذر: «هل يمكنني أن أسألك عن شيء دون أن أضايقك يا فراني؟ لأنني أريد أن أعرف فعلًا. هذا ليس سؤالًا ملتحقًا أو أي شيء».

- سَلْ.

وحاولت أن تجبر نفسها على ألا تغضب، فجيس لا يبادر بقول كهذا إلا لو كان سيقترح شيئًا بغضبًا نابغًا من حب الذات.

سألها: «أليس لي حق في أي من هذا على الإطلاق؟ ألا يمكن أن أشاركك المسؤولية أو اتخاذ القرار؟».

للحظة تضايقت، لكن الشعور اختفى سريعاً. إن چيس ليس سوى چيس، وهو يحاول حماية صورته أمام نفسه، وهي الطريقة التي يتبعها كل مفكر كي يستطيع النوم ليلاً. لطالما أحبته لذكائه، لكن في موقف كهذا قد يصير الذكاء مصدرَ إزعاج. أمثال چيس - وأمثالها أيضاً - لم يتعلموا في حياتهم سوى الالتزام والفعالية. أحياناً عليك أن تؤذي نفسك حقاً لتكتشف أن الأفضل أن تستلقي وسط العشب وتُسوّف. لطيف منه أن يعاني مثلها، لكنها معاناة رغم كل شيء. هو لا يريد أن يتخلى عنها.

قالت: «چيس. لا يريد أُنينا هذا الطفل. لقد اتفقنا على استخدام الأقراص كي لا يوجد هذا الطفل من الأساس. ليست عليك أي مسؤولية».

- لكن...

قالت في حزم مترقق: «لا يا چيس».

فتنهّد.

- هل ستصلين بي عندما تستقرين؟

- أعتقد هذا.

- هل ما زلتِ تخططين للعودة إلى الدراسة؟

- نعم. لن ألتحق بهذا الفصل الدراسي.

- إن احتجتِ إليّ يا فراني فأنتِ تعرفين أين تجدينني. لن أتهرّب.

- أعرف يا چيس.

- لو احتجتِ إلى مال...

- نعم...

- كلميني.. لن أضغط عليك... أريد أن أراك.

- حسناً يا چيس.

- مع السلامة يا فران...

- مع السلامة.

بعدما أغلقتِ الخط، بدتُ لها السلامة الأخيرة قاطعةً أكثر من اللازم، والحوار لم ينتهِ. تساءلت لماذا لم يضيفا كلمة «أحبك»؟ شعرتُ بالحزن، وطلبت من نفسها ألا تشعر بذلك، لكنَّ الطلب لم يؤثر.

وردتها آخر المكالمات ظهرًا، وكانت من أبيها. كانا قد تناولا الغداء معًا قبل يومين، وأخبرها أنه قلق من تأثير ما يحدث في كارلا. لم ترافقه إلى الفراش الليلة السابقة وأمضتِ الليل في غرفة الاستقبال مع سجلات الأسرة. نزل إليها في الحادية عشرة والنصف ليسألها عن موعد نومها. وجد شعرها مُسدلاً على كتفيها وصدر رداء نومها، وقال بيتر إنها بدت وحشيّة غير واعية بما حولها. السجل الضخم على فخذيها ولا تنظر إليه حتى، فقط تُقلّب صفحاته. أخبرته أنها لا تشعر بالنعاس وستظل مستيقظة فترة. كانت تعاني أعراض البرد كما أخبرها بيتر وهما جالسان في مطعم «كورنر لَنش» يحدقان إلى شطائر البرجر ولا يأكلانها. عندما سألها بيتر أكانت ترغب في كوب لبن، لم تُجبه. وجدها صباح أمس نائمة على المقعد والسجل على حجرها.

عندما استيقظتُ أخيرًا بدتُ أفضل، أقرب إلى نفسها، لكنَّ حالة البرد ساءت. رفضتُ فكرة طلب دكتور إدمونتون، وقالت إنه مجرد برد في الصدر. دهنتُ فيكس على صدرها ووضعت فوقه قطعة قماش قطنية، وظننتُ أنها تتحسن فعلاً. رغم أنها رفضت أن يقيس بيتر حرارتها، فإنها بدتُ له محبومة. اتصل بفران اليوم بعد بدء أول عاصفة رعديّة. السحب الرمادية والبنفسجية محتشدة فوق الميناء، والأمطار تهطل في البداية خفيفة ثم تتحول إلى سيل. كانت تنظر خلال النافذة إلى البرق الذي يطعن المياه مرة تلو الأخرى، وفي كل مرة ينطلق صوت أزيز من خط الاتصال، أشبه بإبرة فونوجراف تحتك بالأسطوانة.

قال بيتر: «إنها في الفراش اليوم. أخيرًا وافقت على أن يفحصها توم إدمونتون».

- هل وصلَ بعد؟

- غادرَ للتو. يعتقد أنها مصابة بالإنفلونزا.

قالت فراني وهي تغمض عينيها: «أوه يا ربي. الإنفلونزا ليست أمرًا يسيرًا على امرأة في سنّها».

- لا. ليست سهلة. لقد أخبرته كل شيء يا فراني عن الطفل، وعن شجاركما. لقد كان توم طيبك منذ وُلِدَ، وسيحفظ السر. أردتُ فقط أن أعرف أكان الشجار هو ما تسبب في المرض، فنفى الرابط بينهما وقال إن الإنفلونزا مجرد إنفلونزا.

- مَن صنع الإنفلونزا...

- معذرة؟

- لا عليك.

والدها خبير في الكثير من الأمور، لكنه لم يكن من متابعي فريق AC-DC (1). أضافت: «أكمل...».

- لا يوجد ما أضيف يا حبيبتي. قال إن الإنفلونزا تصيب الكثير مؤخرًا، سلالة متوحشة منها. يبدو أنها جاءتنا من الجنوب. نيويورك تُعج بها. قالت فراني في شك: «لكنَّ النوم في غرفة الاستقبال...».

- لقد قال الطبيب إن الوضع الرأسي الذي نامت عليه أفاد رئتَيْها وشعبها الهوائية. لم يقل شيئًا آخر. ألبرت إدمونتون عضو في كل المنظمات التي تعمل بها كارلا، لذا لم يضطر إلى قول شيء إضافي. كلانا يعرف يا فران أن أملك ترهق نفسها، فهي رئيسة جمعية البلدة التاريخية، وتقضي أكثر من أربع وعشرين ساعة أسبوعيًا في المكتبة، وهي سكرتيرة نادي السيدات ونادي محبي الأدب، وتدير مسيرة الزكاة (2) في بلدتها من قبل موت فريدي، بالإضافة إلى كل هذا جهودها في مجتمع جنوب مَين للدراسات علم الأنساب. لقد أُنْهَكْتُ، وهذا سبب من أسباب انفجارها فيك. كل ما قاله إدمونتون أنها كانت أرضًا خصبة لأول مرض يعترض طريقها. هذا هو كل ما قاله. إنها تشيخ يا فراني وهي ترفض هذا. لطالما كانت تكدح أكثر مني.

- كم بلغ منها المرض يا أبي؟

(1) تقصد فراني أغنية الفريق «مَن صنع مَن» Who made who (المترجمة)

(2) مؤسسة غير ربحية تهدف إلى جمع تبرعات لمصلحة النساء وتعليمهنَّ والتوعية بالإجهاض وأخطاره وأمراض النساء والأمومة والطفولة وغيرها (المترجمة)

- هي في الفراش، تشرب العصير وتواظب على الأدوية التي كتبها لها توم. لم أذهب إلى العمل اليوم، وستأتي السيدة هاليداي لتجالسها غداً. هي التي طلبت السيدة هاليداي كي تتمكن من العمل معها على جدول اجتماعات الجمعية التاريخية لشهر يوليو.

زفر بقوة، وأزّ الخط مرة أخرى بفعل البرق. أكمل: «أحياناً أحسبها تريد أن تموت وهي تعمل».

قالت فران في أدب: «هل تعتقد أنها ستمانع لو...».

- الآن، ربما تمانع. امنحها بعض الوقت يا فران. ستُجاوز الأمر.

والآن، وبعد ربع ساعة من المكالمات، تربط فران وشاح مطر حول شعرها وتتساءل أكانت أمها ستجاوز الأمر حقاً.. ربما لو تخلت عن الطفل لن يعرف أحد في البلدة. لكنّ هذا غير وارد في المجتمعات التي يستشعر فيها الناس ما يجري من أدق التفاصيل. طبعاً ستحتفظ بالطفل.. لكنها لم تفكر في التخلي عنه بجدية، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟!

الشعور بالذنب يلتهمها فيما ترتدي معطفها. أمها استنزفت، هذا حقيقي. رأت فران هذا عندما كانت تعود من الجامعة وتتبادل هي وأمها القبلات على الخدين. أسفل عيني كارلا جيبان منتفخان، بشرتها مُصفرة شاحبة، شيب شعرها الذي تُصففه بعناية عند صالون التجميل قد ظهر أكثر رغم الثلاثين دولاراً التي تدفعها أسبوعياً هناك. لكنها بعد...

لطالما كانت هستيرية تماماً. تُركت فراني وحدها تتساءل ماذا ستفعل لو تطورت الإنفلونزا لتصيبها بالالتهاب الرئوي، أو أصيبت بانهايار عصبي من نوع ما... أو حتى ماتت. إلهي، يا له من خاطر مروّع. لا يمكن أن يحدث هذا. رجاءً يا ربي، رجاءً. أدويتها ستهزم المرض، وحالما تبتعد فراني عن مجال إبصارها وتستقر في هدوء في سومرزورث، ستكون قد تعافت من الضربة... رن جرس الهاتف مرة أخرى.

نظرت إليه في خواء لحظة، وفي الخارج يضرب البرق فيومض، يتبعه هزيم قوي يُرجفها.

رن.. رن.. رن..

لكنها تلتقت مكالماتها الثلاث، فمن سيتصل بها؟ لن تحتاج ديبي إلى أن تتصل بها، ولا تظنه چيس أيضًا. ربما هي مكالمه ترويجية. ربما چيس رغم كل شيء يحاول أن يقنعها بالعودة إلى الجامعة القديمة.

تأكدت وهي ترفع السماعة أن المتصل أبوها، وأن الأخبار التي يحملها لها ستكون أسوأ. قالت لنفسها إن المسؤولية وأعمال الخير التي تقدمها لن تمرّ دون أن تتجرع الجانب المُر من تلك الحياة.

- مرحبًا.

لا شيء سوى الصمت للحظات. عقدت حاجبها في حيرة وكررت كلمتها السابقة. أخيرًا قال أبوها: «فران؟»، ثم أصدر صوتًا غريبًا، ثم بلع. «فراني؟»، وأدركت في فزع أنه يغالب الدموع. تسلّلت إحدى يديها إلى حنجرتها لتقبض على عقدة وشاح المطر.

- أبي، ما الأمر؟ أمي؟

- فراني، يجب أن آتي لأخذك. أنا... فقط سأتي. هذا ما سأفعله.

صرخت في الهاتف: «هل أمي بخير؟».

هزم الرعد فوق ميناء هاربوسايد مرة أخرى، فأفزعها وبكت.

- أخبرني يا أبي!

قال بيتر: «لقد تدهورت حالتها. هذا كل ما أعرف. زادت حرارتها وبدأت تخرف. حاولت أن أ جلب توم.. وأخبرتني راشيل أنه بالخارج، وأنا الكثير مرضى حقًا.. لذا اتصلت بمستشفى سانفورد، وقالوا لي إن سيارتي الإسعاف لديهم مشغولتان، كليهما.. لكنهم أضافوا كارلا إلى قائمة الانتظار. قائمة انتظار يا فراني.. أي قائمة لعينة؟! وهكذا فجأة؟ أعرف چيم وارينجتون الذي يقود إحدى سيارتي الإسعاف، وأعرف أنه لا يفعل شيئًا طوال اليوم ما لم يقع حادث مروع على الطريق السريع. فأني قائمة تلك؟».

كان يصرخ بكلماته، فقالت فراني وهي تنفجر بالبكاء: «اهدأ فقط يا أبي. اهدأ.. اهدأ...». تركت يدها عقدة الشاح ومسحت عينيها وهي تضيف: «الأفضل أن تنقلها بنفسك».

- لا.. لا، لقد جاءوا منذ خمس عشرة دقيقة. يا للمسيح يا فراني، لكن كان في سيارة الإسعاف ستة غير كارلا. واحد منهم ول رونسون الذي يعمل

في متجر الأدوية. كارلا.. أمك.. ظلتُ تكرر وهم يودعونها بالداخل: «لا أستطيع أن آخذ نفسي يا بيتري. لماذا لا أستطيع أن أتنفس؟». ثم أنهى كلامه ببكاء طفولي أروعها.

- هل يمكنك القيادة يا أبي؟ هل يمكنك القيادة إلى هنا؟
أجاب وهو يتمالك نفسه: «نعم. نعم بالتأكيد».

- سأنتظرك بالخارج.

أغلقتِ الخط وهُرِعَتْ تنزل الدرج، ركبها ترتجفان. عند المدخل رأت السحب قد بدأت في الانقشاع، وشمس ما بعد الظهيرة تبزع من بينها. بحثت لاشعوريًا عن قوس قزح ورأته بعيدًا فوق الماء، قوسًا غائمًا غامضًا. التهمها الشعور بالذنب وقلب معدتها فبدأت تبكي مرة أخرى.

أخبرت نفسها أن عليها أن تتجرّع الجانب المُر من المسؤولية. تجرعي المُر يا فراني.. تجرعي المُر.

الفصل الحادي والعشرون

كان ستو ريديمان مرتعياً.

نظر خلال نافذة حجرته الجديدة ذات القضبان في ستوفينجتون، في ولاية فيرمونت، ولم ير سوى بلدة صغيرة بعيدة بالأسفل. لافتات محطات وقود صغيرة، مصنع من نوع ما، شارع رئيسي، طريق سريع، نهر، وخلف كل ذلك عمود نيو إنجلاند الفقري الغربي؛ جبال جرين.

كان مرتعياً لأن المكان أشبه بزنزانة، لا غرفة في مستشفى. كان مرتعياً لأن ديننجر رحل، ولم يره منذ انتقل السيرك كله من أتلانتا إلى هنا. رحل دايتز أيضاً. فكّر ستو في احتمالية أن يكون الرجلان مريضين، أو حتى ميتين فعلاً.

أخطأ أحدهم. إما هذا، وإما أن المرض الذي جلبه تشارلز د. كامبيون إلى أرنيث كان أخطر مما خمن أي شخص. في كلتا الحالتين، سُمعة مركز أتلانتا للأوبئة قد تلطّخت، وكل من كان هناك لديه فرصة للبحث وراء الفيروس الذي يطلقون عليه اسم برايم، أو الإنفلونزا الفائقة.

ما زالوا يجرون فحوصاً عليه، لكنها تبدو مفككة، وجدول فحصه صار عشوائياً، وأصبح يشك في أن من يتابع النتائج في فضول يهز رأسه ثم يلقيها إلى أقرب ماكينة فرم ورق.

هذا ليس الأسوأ بعد، الأسوأ الأسلحة. الممرضات اللاتي يأخذن منه عينات الدم أو البول أو البصاق يرافقهِنَّ دائماً جندي في زي أبيض، يحمل مسدساً في كيس بلاستيكي، والكيس مثبت إلى رسغ قفاز الجندي الأيمن. المسدس عيار 0.45، ولم يكن من شك لدى ستو في أنه لو جرب أياً من الألاعيب التي

مارسها على دايتز، سيمزق رصاص المسدس الكيس وسيصير ستو ريتمان جزءاً من الماضي.

واظب على مشاهدة أخبار الساعة السادسة بحرص شديد كل مساء.. أطلق النار على مَنْ حاولوا الانقلاب على الحكم في الهند، والشرطة ما زالت تبحث عمن فجر محطة الطاقة في لارامي أمس.

وبدأت تسريبات أخرى تظهر...

نفى المسؤولون في مقاطعة ميلر، في أركانساس وجود تسريب من مفاعلها الذي يبعد عن حدود تكساس ثلاثين ميلاً، وأن وجود الجيش في هذه المنطقة إجراء احترازي، وتساءل ستو عن نوعية الإجراءات الاحترازية التي يحتاجون إليها إن كان المفاعل بخير. توصل إلى أن وجود الجيش في هذه المنطقة قد يكون لسبب آخر تماماً، والمفاعل ليس بعيداً عن أرنيث.

ذكر خبر آخر أن وباء الإنفلونزا القادم من الساحل الشرقي في مراحله الأولى، ولا يؤثر بقوة إلا في المسنين وصغار السن. عُرض لقاء مع طبيب مُرهق من نيويورك في رواق مستشفى ميرسي في بروكلين، وقال إن فيروس الإنفلونزا هذا قوي بشكل استثنائي بالنسبة إلى فيروس الإنفلونزا الروسية-A، وطالب المشاهدين بأخذ مصل الإنفلونزا، ثم بدأ يقول شيئاً آخر فجأة، لكن الصوت انقطع وظلت شفتاه تتحركان حتى عادت الصورة إلى الاستوديو، وقال مقدم الأخبار: «وقعت عدة وفيات في نيويورك نتيجة هذا المرض الأخير، لكن أسهمت أسباب أخرى في هذه الوفيات، مثل نسبة تلوث الهواء، والإصابة بالإيدز في عدد من الحالات. أكد مسؤولو الصحة أن الوباء هو فيروس الإنفلونزا الروسية-A، وليس الوباء الأخطر إنفلونزا الخنازير.

في الوقت نفسه، ينصح الأطباء المصابين نصيحتهم المعتادة الفعالة: الزم الفراش، ارتح، اشرب سوائل كثيرة، وعالج الحمى بالأسبرين».

ابتسم مقدم الأخبار ابتسامة مطمئنة.. ومن خلف الكاميرا عطس أحدهم. الشمس الآن تمس الأفق، تصبغه بلون ذهبي سيتحول إلى الأحمر والبرتقالي الباهت قريباً. الليالي هي الأسوأ على الإطلاق. لقد نقلوه إلى بقعة غريبة عليه من البلاد. في هذا الوقت المبكر من الصيف، يرى من نافذته رقعا خضراء كثيرة غير معتادة بالنسبة إليه، ترعبه أحياناً. لم يعد لديه أصدقاء، وحسب علمه، كل من كانوا معه على متن الطائرة من برينيري إلى أتلانتا قد

ماتوا. يحيط به من كل صوب أشباه آلات يستنزفون دمه تحت تهديد السلاح. كان يخشى على حياته رغم أنه بخير حتى الآن، ويبدو أنه لن يصاب بالعدوى أيًا كانت.

ومن وقت إلى آخر، يسأل ستو نفسه أكان قادرًا على الفرار من هذا المكان.

الفصل الثاني والعشرون

عندما وصل كرايتون يوم 24 يونيو، وجد ستاركي يحدق إلى الشاشات ويديه معقودتين خلف ظهره. استطاع أن يرى الخاتم الذي يحمل شعار ويست بوينت يلمع في إصبع كفه اليمنى، وشعر بموجة شفقة عليه. عاش ستاركي على المهدئات عشرة أيام، وهو الآن على شفا الانهيار. فكر كرايتون في أنه إن صدق ما جاء في مكالمة الهاتف، فالانهيار قد وقع فعلاً.

قال ستاركي كأنه تفاجأ: «لين. مسرور لمجيئك».

ابتسم كرايتون ابتسامةً واهيةً، فأضاف ستاركي: «هل تعرف مَنْ كان على الخط؟».

- كان هو حقاً؟

- نعم، رئيس الولايات. لقد ارتحتُ أخيراً. أراحني الرأس الكبير القذر. طبعاً كنت أعرف ما سيحدث، لكنَّ الأمر مؤلم. مؤلم كالجحيم. مؤلم أن يأتي من كيس الخراء المبتسم هذا.

أوما لين كرايتون.

مسح ستاركي وجهه بيده وقال: «حسنًا. لقد انتهى الأمر. أنت المسؤول الآن. يريدك أن تذهب إلى واشنطن حالما تصل إلى هناك. سيأكل دماغك، لكن اصمد وكرز «نعم يا سيدي» حتى ينتهي من هرائه. لقد أنقذنا ما يمكن إنقاذه، يكفي هذا».

- على الأمة أن تركع شكرًا لك.

- أحرق المقود يدي، لكنني.. لكنني تمسكتُ به قدر استطاعتي يا لين. تمسكت به حقاً.

كان يتكلم بحدّة، وعيناه زائغتين، تعودان دائماً إلى الشاشات. للحظة ارتجفت شفتاه وهو يضيف: «لم أكن لأفعل لولاك».

- لقد قطعنا معاً طريقاً طويلاً يا بيلي، أليس كذلك؟

- كرر هذا كما تشاء أيها الجندي. والآن اسمع. أهم شيء أن تذهب للقاء جاك كليفلاند في أقرب فرصة. إنه يعرف ما أمعنا في إخفائه خلف كل الستائر. هو يعرف كيف يتواصل معهم، ولن يلتزم ما يجب فعله، وسيعرف أن عليه أن يُسرّع.

- لا أفهم يا بيلي.

- يجب أن نتوقع الأسوأ.

قال عبارته ثم ظهرت على وجهه تكشيرة غريبة رفعت شفته السفلى وجعّدتها فبدا فمه كخطم كلب يدافع عن مزرعته. أشار إلى الأوراق الصفراء الرقيقة على مكتبه وقال: «خرج الأمر عن السيطرة الآن، وانتشر في أوريجون ونبراسكا ولويسيانا وفلوريدا، وبعض مناطق المكسيك وتشيلي. عندما فقدنا أتلانتا، فقدنا ثلاثة من أفضل من يستطيعون التعامل مع الوضع. نحن لا نصل إلى شيء مع السيد ستورات ريتمان؛ الأمير. هل تعرف أنهم حقنوه بالفيروس الأزرق؟ حسبه مهدئاً. قتله جسده ولا يعرف أحد كيف حدث هذا. لو أننا معنا ستة أسابيع أخرى لاستطعنا الفهم أكثر، لكنّ ليس لدينا أي وقت. قصة فيروس الإنفلونزا جيدة، وضرورية كي لا ترى باقي الدول أن الوضع مُفتعل وصناعة أمريكية، لكنّ بهذا لن يعرفوا السبب الحقيقي. لكليفلاند ما بين ثمانية إلى عشرين رجلاً وامرأة في الاتحاد السوفيتي، ومن خمسة إلى عشرة آخرين في الدول التابعة لأوروبا، ولا أعرف كم بالضبط في الصين الشيوعية».

ارتجف فم ستاركي أكثر وهو يضيف: «عندما تقابل لكليفلاند هذا المساء، أخبره فقط أن روما تنهار. لا تنس».

- لا، لن أنسى. لكن هل تتوقع أنهم سينفذون فعلاً؟ أولئك الرجال والنساء؟

- حصل رجالنا على تلك الأنايب قبل أسبوع. هم يعتقدون أنها تحوي جزيئات مشعّة يمكن تتبعها من خلال قمرنا الصناعي سكاي كروز. هذا هو كل ما احتاجوا إلى معرفته، أليس كذلك يا لين؟

- نعم يا بيلي.

- ولو أن الأوضاع قد تدهورت من سيئ إلى أسوأ، فلن يعرف أحد. المشروع الأزرق لم يكن قابلاً للاختراق منذ البداية، ونحن واثقون من هذا. فيروس جديد، طفرة.. قد يشك الآخرون، لكن لن يكون لديهم وقت. مساواة في المعرفة والجهل يا لين.

- نعم.

قال ستاركي وهو ينظر إلى الشاشات مرة أخرى: «أعطتني ابنتي كتاب شعر منذ سنوات، كتبه رجل يدعى يتس. قالت لي إن على كل رجل جيش قراءة يتس. أعتقد أن هذه هي فكرتها عن المزاح. هل سمعت بيتس من قبل يا لين؟».

- أعتقد يا سيدي.

فكر حيناً، ثم رفض فكرة تصحيح نطق اسم الشاعر لستاركي، فهو يُنطق: يتس.

قال ستاركي وهو ينظر إلى سكون الكافيتريا اللانهائي: «قرأت كل سطر لأنها كانت تظنني لن أفعل. خطر أن تكون قابلاً للتنبؤ بأفعالك إلى هذا الحد. لم أفهم أغلبه.. أعتقد أن الرجل لا بُدَّ مجنون.. لكنني قرأته. شعر غريب، غير مسجوع دائماً، لكن في الكتاب قصيدة لم أفلح في إخراجها من عقلي، كأنه وصف فيها كل ما كُرِّست حياتي من أجله. قال إن كل شيء ينهار. قال إن المركز غير ثابت. أعتقد أنه كان يقصد أن كل شيء تقشّر وتبعثر. هذا ما أعتقد أنه يعنيه. عرف يتس أنه عاجلاً أو آجلاً سينتشر شكل شيء لعين ويفتت، حتى لو لم يكن يعرف أي شيء آخر».

غمغم كرايتون: «نعم يا سيدي».

- نهاية القصيدة أثارت قشعريرتي عندما قرأتها لأول مرة، وما زالت تفعل. أحفظ هذا الجزء عن ظهر قلب. «وأي وحش فظ دنت ساعته أخيراً، يزحف نحو بيت لحم ليولد».

وقف كرايتون صامتاً. ليس لديه ما يقول.

أكمل ستاركي وهو يدور وينتحب ويكشّر: «الوحش في طريقه، وهو أكثر فظاظاً مما تخيل يتس. الأمور تتداعى. لا بُدَّ أن يتماسك عملنا أطول فترة ممكنة بقدر استطاعتنا».

- نعم يا سيدي.

ولأول مرة شعر بوخز الدموع في عينيه. أضاف: «نعم يا بيلي».

مدَّ ستاركي يده، فأخذها كرايتون بين كفيه. كف ستاركي عجوز باردة كجلد ثعبان مات فيه حيوان بري صغير، فخَلَفَ عمودًا فقريًّا هشًّا داخل جلد الزاحف. قطرتِ الدموعُ من حافة جَفَن ستاركي السفلي، وجَرَّت على خده الحليق.

قال ستاركي: «لديَّ عمل أنجزه».

- نعم يا سيدي.

خلع ستاركي خاتمَ ويست بوينت من يده اليمنى، وخاتم زواجه من اليسرى وقال: «من أجل سيندي. من أجل ابنتي. تأكد من أنهما سيصلان إليها يا لين».

- سأفعل.

اتجه ستاركي إلى الباب. ناداه لين كرايتون: «بيلي؟».

التفت ستاركي نحوه.

وقف ستاركي منتصبًا متصلبًا والدموع تجري على خديه، وحيَّاه تحية عسكرية، رُدَّها ستاركي، ثم خرج.

هَمَّهم المصعد، تعرض لوحته أرقام الطوابق. دسَّ ستاركي مفتاحه الخاص ليفتح الباب، فانطلق جرس الإنذار مولولًا، كأنه يعرف بشكل ما أنه إنذار من موقف خارج عن السيطرة. خرج إلى مساحة وقوف عربات الجيش. تخيل لين أن كرايتون يراقبه على إحدى تلك الشاشات وهو يأخذ سيارة جيب ويقودها خلال طابق المرأب الأرضي، ويخرج بها من البوابة التي تحمل لافتة (مِنْطَقة فائقة الحراسة. لا دخول بلا إذن خاص). نقاط التفتيش تشبه أكشاك تحصيل الرسوم على الطرق السريعة. ما زالت مأهولة، لكن الجنود خلف الزجاج المصفر موتى، حنَّط صهد الصحراء جثثهم. الأكشاك مضادة للرصاص، لكنها ليست مضادة للجراثيم. أعينهم الغائرة تحقق إلى ستاركي وهو يعبر بسيارته. كان هو الشيء الوحيد المتحرك على الطرق الترابية بين أكواخ كونكويست ومبانيها المنخفضة.

توقف عند مبنى قصير، على بوابته لافتة (ممنوع الدخول نهائياً دون تصريح مباشر). استخدم مفتاحاً للدخول، وآخر لاستدعاء المصعد. حذر إلى حارس ميت مُتصلّب من خلف نافذة مكتب الأمن على يسار المصعد. عندما وصل الأخير وانفتح بابه، دخل ستاركي سريعاً. كان يشعر بثقل تحديق الحارس الميت إليه، بعينين كحجرتين مُتربين.

هبط المصعد بسرعة، فانقلبت معدته. عندما توقّف دق جرسُ بخفة. انفتح الباب، فضربتُه رائحةُ التحلل كلطمة خفيفة على الوجه. لم تكن قوية لأن أجهزة تنقية الهواء لا تزال تعمل، لكن حتى تلك لم تكن قادرة على صرف الرائحة بشكل كامل. عندما يموت أحد، فهو يريدك أن تعرف بموته.

دسته جثث ممددة أمام المصعد، مشى ستاركي بحذر بينها، محاذراً أن يطاءً يداً شمعية متحللة، أو أن يتعثّر في ساق ممدودة. سيجعله هذا يصرخ، وطبعاً هو لا يريد فعل هذا. لا يريد المرء أن يصرخ في مقبرة لأن صوت صراخه قد يقوده إلى الجنون، وهو فعلاً في مقبرة. بدا المكان مقرّاً لمشروع بحث علمي جيد التمويل، لكنه الآن مقبرة.

انغلق باب المصعد خلفه، ثم صدر منه صوت همهمة وهو يصعد تلقائياً إلى أعلى. يعرف ستاركي أنه لن يهبط مرة أخرى إلا لو استخدم أحدُ المفتاح. حالما تعطل نظام التحصين، شغلت الكمبيوترات نظام الحجر العام. لماذا يستلقي أولئك الرجال والنساء هنا؟ واضح أنهم كانوا يأملون أن تُخفّق الكمبيوترات في تشغيل إجراءات الطوارئ. لم لا؟ هذا منطقي، فقد أخفق كل شيء آخر.

مشى ستاركي خلال الممر المؤدي إلى الكافيتريا، يصدح صدى صوت خطواته في الخواء. من فوقه تلقى مصابيح الفلورسنت الطويلة -في حاوياتها الشبيهة بعبوات تجميد مكعبات الثلج- بضوء قوي يبدد الظلال. في الممر جثث أخرى. رجل وامرأة عاريان بفجوات في رأسيهما. فكر ستاركي في أنهما قد تضاجعا، ثم أطلق عليها الرصاص وانتحر. الحب وسط الفيروسات. مسدس الجيش عيار 0.45 في يده بعد. الأرضية مبقعة بالدم ومادة تشبه الشوفان المطهو. رغم الشعور المروّع، واثته رغبة عابرة في أن ينحني ويمس صدر المرأة ليرى أكان طرياً أم متصلباً.

في آخر الرواق رجل جالس، ظهره مسنود إلى خزانة، ولافتة متدلّية من عنقه برباط حذاء. ذقنه يمس صدره كأنه ينظر إلى المکتوب. دفع ستاركي

رأس الرجل بإصبعه إلى الخلف، فتراجعت عينا الرجل في تجويف رأسه مصدرة صوت ارتطامٍ لحميٍّ مكتوم. الكلمات على اللافتة مكتوبة بقلم ماركر أحمر.

الآن تعرفون أنه فعّال. أي أسئلة أخرى؟

ترك ستاركي رأس الرجل، لكنه ظلّ كما هو، تحديق فجوتا عينيه المظلمتان إلى أعلى. تراجع ستاركي. بكى مرة أخرى. شكّ في أنه يبكي لأنه ليست لديه أي أسئلة أخرى.

باب الكافيتريا مفتوح. خارجه لافتة معوجة عليها إعلان إعادة مباراة بين فريقَي جريم جَتربولرز وفيرست ستاريكرز يوم 2 يونيو. على اللافتة أيضًا طلب من أنا مالا لتوصيلة يوم 9 يوليو من دينقر إلى بولدر، وتؤكد أنها ستشارك في مصاريف السفر. ثمة إعلان آخر عن عرض ريتشارد بيتس جروين للتبني، خليط بين سلالتَي سانت بيرنار وكولي، وتنويه بصلوات دينية أسبوعية غير طائفية في الكافيتريا.

قرأ ستاركي كل إعلان على اللوحة، ثم دخل.

الرائحة هنا أسوأ. خليط من رائحة الطعام الفاسد والجثث. نظر ستاركي حوله في زعر.

بدا أن بعضهم ينظر إليه.

همّ ستاركي بقول شيء، لكنه اختنق بكلماته. لم تكن لديه فكرة من الأساس عما يريد قوله.

مشى ببطء تجاه مجلس فرانك د. بروس ذي الوجه المغمور في حَسائه. نظر إلى فرانك د. بروس لحظاتٍ، ثم قبض على شعر فرانك د. بروس ورفع رأسه. ارتفع الصحن ملتصقًا بوجهه وقد تجلّط الحَساء فيه منذ زمن. ضربه ستاركي في زعر، فسقط الصحن أخيرًا على الأرض مقلوبًا. أغلب الحَساء ملتصق بوجه فرانك د. بروس كأنه قالب هلام. أخرج ستاركي منديله القماشي ومسحه قدر استطاعته. عينا فرانك د. بروس مغمضتان، وقد ألصق الحَساء جفنيهما. خشي أن تهوي عينا فرانك د. بروس إلى داخل الجمجمة كما حدث مع الرجل ذي اللافتة. خشي أكثر أن ينفكّ التصاق الجفنين فينفتحان، ويرى تعبيرَ عيني فرانك د. بروس.

قال ستاركي برفق: «استرخِ، أيها المجند بروس».

وضع المنديل بحرص على وجه فرانك د. بروس، فالتصق به. استدار ستاركي خارجاً من الكافيتريا بخطوات واسعة منتظمة أنه في أرض الطابور. في نصف المسافة إلى المصعد مرَّ بالرجل ذي اللافتة المعلقة. جلس ستاركي إلى جواره. حرَّر مسدسه، ووضع الفوهة في فمه. خرج صوت الرصاصة مكتوماً. لم يلاحظه أي من الجثث. تولى مُنقّي الهواء أمر الدخان.

ممرات المشروع الأزرق صامتة.

انزلق منديل ستاركي عن وجه المُجنَّد فرانك د. بروس إلى الأرض. لم يمانع فرانك د. بروس، لكنَّ لين كرايتون وجد نفسه يحدق إلى الشاشة التي تُظهر بروس مراراً، وتساءل لماذا لم يمسح ستاركي الحساء عن حاجبي الرجل. سيقابل رئيس الولايات المتحدة الأمريكية قريباً، قريباً جداً، لكن الحساء المتجلط على حاجبي فرانك د. بروس شغل باله أكثر. أكثر بكثير.

الفصل الثالث والعشرون

اتجه راندال فلاج، الرجل الغامض، جنوبًا على طريق US 51، يستمع لأصوات الليل حول ذلك الطريق الضيق الذي سيؤدي به عاجلاً أو آجلاً إلى نيفادا. من نيو أورلينز إلى نوجاليس، من بورتلاند في أوريجون إلى بورتلاند في مَين. هذه بلاده، ولن يعرفها أو يحبها أحد أكثر منه. إنه يعرف إلى أين تؤدي الطرق، ويقطعها ليلاً. هو الآن، وقبل ساعة من الفجر، في مكان ما بين جراسمير وريدل، غرب توين فول. ما زال في شمال محمية دك قالي التي تمتد خلال ولايتين.

مشى بسرعة، يقرع بكعبي حذائه سطح الطريق المُعبَّد، ولو ظهرت أضواء سيارة من جهة الأفق، يبتعد أكثر وأكثر نحو ستار الحشائش العالية حيث تسكن حشرات الليل.. وتمر به السيارة، وربما يشعر سائقها برعدة خفيفة كأنه خلال جيب هواء، وتتململ زوجته وأبناؤه الغافون كأن كابوسًا مسَّهم في اللحظة ذاتها.

مشى إلى الجنوب على طريق US 51، يقرع كعبا حذائه البالي طويل الرقبة ذو المقدمة الحادة سطح الرصيف. رجل طويل غير محدد العمر، يرتدي سروالَ جينز كالحا مهترئًا، وسترةً من الجينز. جيباه محشَّوان بأكثر من خمسين نوعًا من النصوص المتضاربة.. منشورات من كل نوع، وبكل أصناف البلاغة. عندما يعطيك هذا الرجل منشورًا خذه مهما كان موضوعه، سواء كان عن أخطار محطات الطاقة النووية، أم دور اتحاد اليهود العالمي في الحكومات الصديقة، أم علاقة وكالة الاستخبارات الأمريكية والكونترا⁽¹⁾

(1) جماعات متمردة ممولة من الأحزاب اليمينية ومدعومة من الولايات المتحدة، وكانت نشطة حتى 1979 في نيكاراغوا (المترجمة)

والكوكايين، أم اتحاد عمال المزارع، أم جماعة شهود يهوه (إن أجبتَ عن عشرة أسئلة بنعم فقد ضمنتَ الخلاص!)، أم حركة السود من أجل المساواة، أم جماعة كو كلوكس⁽¹⁾. إنه يحمل منشورات عن كل شيء والكثير غيرها. على كل جيب من جيبي سترته شارة. على الجيب الأيمن وجه أصفر باسم، وعلى الأيسر خنزير يعتمر قبعة شرطة، مكتوب تحته بحروف تشبه لطخات الدماء: (كيف تحب أن تُضاجع).

أكمل طريقه بلا توقف ولا تباطؤ. عيناه محمومتان باحتمالات الليلة. يحمل على ظهره كيس نوم قديم مبقع من الذي يستخدمونه في الكشف. في ملامحه مرح غامض، وربما تظن المرح في قلبه أيضاً، وستكون محقاً. هذا وجه رجل سعيد كرية، وجه يشع وسامةً دافئةً شنيعةً، وجه يُهشم كوب الماء في يد نادلة استراحة الشاحنات المُتعبة، ويجعل الأطفال يتعثرون في الأسوار الخشبية ويهرعون إلى أمهاتهم وشظايا الخشب مغروسة في رُكبتهم. إنه وجه يحيل نقاشات الحانات العادية إلى شجارات دامية.

اتجه جنوباً، يسير في مكان ما على طريق US 51 بين جراسمير وريدل، وهو الآن أقرب إلى نيقادا. قريباً سيخيّم وينام طوال اليوم، ويستيقظ مع قدوم الليل. قد يقرأ فيما عشاؤه يُطهى على نار تخييم بلا دخان، ولا يهم ما يقرأ. قد يقرأ كلمات من رواية مصوّرة فاضحة بلا غلاف، أو كتاب كفاحي، أو مجلة مصورة، أو جريدة صفراء. فلاج يقرأ أي شيء مطبوع بلا انتقاء.

بعد العشاء سيكمل مسيرته مرة أخرى إلى الجنوب، يمشي على طريق سريع ذي حارتين يقطع البرية المقفرة، يرى ويشم ويصغي إلى الحرارة تتزايد، وتخنق كل شيء حتى نباتات المريمية والعشب الجاف، يشاهد الجبال تنبثق من الأرض كأنها حَسَك ظهر ديناصور. بحلول فجر الغد أو بعد الغد سيصل إلى نيقادا، سيدخل أويهي أولاً، ثم ماونتن سيتي، وفي ماونتن سيتي رجل يُدعى كريستوفر براندينتون سيزوده بسيارة نظيفة وصحف نظيفة، ثم ستحيا البلاد بكل إمكاناتها الرائعة، كجسد حكيم بشبكة طُرُقهِ الراسخة على جلده كشعيرات دموية عظيمة، مستعد لتقبله، هو؛ بقعة المادة المظلمة. البلاد مستعدة لضمه إلى أي مكان وكل مكان؛ القلب، الكبد، النور، العقل.

(1) كو كولوكس كلان، هي عدد من المنظمات الأخوية الأمريكية تؤمن بتفوق البيض ومعاداة السامية والكاثوليكية والعنصرية وكرهية المثلية، وهي جماعات متطرفة عنيفة (المترجمة)

هو جُلُطَة تبحث عن موضع لتسده، شظية عظام تسعى لثقب عضو، خلية مجنونة وحيدة تبحث عن وليف لتستقر وتنجب معه وربما خبيثًا.

شق طريقه، ذراعه تتأرجحان حول جسده. هو معروف في الطرق السريعة الموحشة التي يسافر عليها الفقراء والمخابيل والثوار المحترفون، وأولئك الذي تعلموا البغضاء حتى ظهر البغض على وجوههم كَشَفَةً أَرْنَبِيَّةً، ولا يبتغيهم أحد إلا أمثالهم، ممكن أن يرحبوا بهم في الغرف الرخيصة ذات الشعارات والملصقات على الجدران، أو في الأقبية المبطنة بالمواسير المكشوفة المملوءة بالمواد سريعة الانفجار، أو في الحجرات الخلفية حيث تُنْسَج المؤامرات المجنونة لقتل أحدهم أو خطف طفل أو اقتحام اجتماع مجلس إدارة شركة ستاندارد أويلز بالقنابل اليدوية والبنادق الآلية باسم الشعب ونيابة عنه. كان معروفًا هناك، ولا يسع أكثرهم جنونًا إلا النظر إلى وجهه الغامض المكشّر نظرة غير مباشرة. حتى المرأة التي اصطحبها إلى فراشه قد تقبّلته حتى لو لم تكن مضاجعته سوى شيء عادي كتناول وجبة خفيفة من البرّاد. تقبّلته بجسد متصلب وبتحاشي التطلع إلى مُحيّاه. كلهم يتقبلونه ويستوعبون وجوده كما قد يتقبل المرء كبشًا بعينين ذهبيتين، أو كلبًا أسود. وبعدهما يبتعد يشعرون بالبرد، بالبرد الشديد، ويبدو لهم أنهم لن يشعروا بالدفع مرة أخرى. عندما يدخل إلى مكان تجمع، تتوقف المهمات الهستيرية، والنميمة والالتهامات والالتهامات المضادة، والخُطب الفكرية. للحظات يعم صمت تام، ويحدقون إليه، ثم يبعدون أنظارهم عنه، كأنه جاءهم يحمل الخراب بين يديه، خرابًا أكبر من قوة تدمير مقذوفة باليستية صنعها طلبة كيمياء مارقون في معمل تحت الأرض، أو حصل عليها رجال السوق السوداء من رقيب إمدادات طامع. كأنه جاءهم بجهاز صدى بالدماغ، مُخَمَّر منذ قرون في زيت الصرخات، لكنه الآن مستعد للعمل مرة أخرى، يُحْمَل إلى اجتماعهم هدية جحيمية، كعكة عيد ميلاد بشموع من الديناميت. وعندما يبدأ الحديث مرة أخرى، سيكون حديثًا عقلانيًا منضبطًا، في عقلانية وانضباط حوار المجانين، وسيتوافق الحضور أخيرًا.

ضرب الأرض بحذائه، يرفض ما تحته بلا عناء. قدماه وحذاؤه عشيقان منذ زمن.

يعرفه كريستوفر براندينتون في ماونتن سيتي باسم ريتشارد فراي. عمل براندينتون مرشدًا في أحد خطوط قطارات الأنفاق السرية التي تنقل

اللاجئين. مرث عليه أكثر من نصف دسنة من المنظمات المختلفة، من ويثيرزمن إلى لواء جيقرارا. هو شاعر، يدرّس أحياناً في الجامعة، أو يسافر إلى ولايات الغرب مثل يوتاه ونيقادا وأريزونا، يدرس الإنجليزية إلى طلبة المدارس العليا، ويذهل أبناء الطبقة المتوسطة (كما يأمل) بخبر أن الشعر حيٌّ.. للدقّة (متعقّق)، لكنّ ما زال يسكنه نوع من الحياة. هو في أواخر خمسينياته الآن، لكنّ إحدى كليات كاليفورنيا فصلته منذ بضعة وعشرين عاماً لتورطه أكثر من اللازم في حركة (طلبة من أجل مجتمع ديمقراطي)، وقد اعتقل في احتجاجات اتفاقية الخنازير الكبرى في شيكاغو عام 1968، وثق بعدها صلاته مع جماعة راديكالية تلو الأخرى، وقد اعتنق أولاً بجنون تلك الجماعات، ثم ابتلعه بالكامل.

مشى الغامض وابتسم. لا يمثل براندنتون سوى طرف واحد من قناة واحدة، غيره آلاف القنوات التي يمر من خلالها المجانين، يحملون كتبهم وقنابلهم. القنوات متداخلة، إشارات المرور مخفية، لكنها مرئية للأعضاء. يُعرّف في نيويورك باسم روبرت فرانك، ويزعم أنه رجل زنجي لا يُختلف عليه، رغم بياض بشرته. قتل هو وجندي أسود سابق من حرب فيتنام -في نفسه كراهية تعوّض ساقه اليسرى المقطوعة- ستة شرطيّين في نيويورك ونيو جيرسي. اسمه في جورجيا رامزي فوريسست، من نسل ناثن بيدفورد فورست⁽¹⁾، وقد شارك في جريمتي اغتصاب، وجريمة إخصاء، وحرّق بلدة يعيش فيها الزنوج في عيش. لكنّ وقع هذا منذ زمن طويل، في بداية الستينيات، خلال الحركة الأولى لحقوق الأهالي. أحياناً يظن نفسه قد وُلد وسط هذا الصراع. بالتأكيد لا يتذكر شيئاً مما حدث له قبل ذلك، إلا أصوله من نبراسكا، وأنه حضر فصول المدرسة العليا مع ولد ذي شعر أحمر مقوّس الساقين اسمه تشارلز ستاركويثر⁽²⁾. تذكر مسيرات حقوق الأهالي عامي 1960 و1961 على نحو أوضح.. الضرب، الهرب ليلاً، الكنائس التي انفجرت كأن معجزة بداخلها كبرت حتى لم تعد الكنيسة قادرة على احتوائها. تذكر الانتقال إلى نيو أورلينز عام 1962، ومقابلة الشاب المعتوه الذي كان يوزع منشورات يطالب فيها أمريكا بترك كوبا وشأنها. هو بالتأكيد من مؤيدي

(1) لواء كونفدرالي من أبطال الحرب الأهلية الأمريكية (المترجمة)

(2) قاتل مراهق أمريكي شهير (المترجمة)

أوزولد⁽¹⁾، بل ومعه منشورات أوزولد ذاتها، وما زال يحمل اثنين منها، قديمتين مجعّتين، في واحد من جيبيه. حضر مئات من لجان المسؤولية، ومشى في مسيرات مضادة للجان نفسها في مئات الجامعات. كتب الأسئلة التي تُوَرَّق مضاجع ذوي السلطة لتلقى عليهم، لكنه لم يُلْقها بنفسه قطُّ، فأصحاب السلطة قد يرون في وجهه الباسم المتوهج سبباً للقلق، فيهربون خارجين من قاعات المؤتمرات. لهذا السبب لم يخطب علناً وإلا انفجرت الميكروفونات برّج الصوت، لكنّ الخطب التي كتبها في مناسبات متعددة أدت في النهاية إلى تمردات، وسيارات مقلوبة، وإضراب طلبة، واحتجاجات عنيفة. صاحب في فترة من الزمن رجلاً يدعى دونالد ديفريز⁽²⁾، واقترح عليه الاسم الحركي (شينكوي). ساعد في رسم خطط سَفَرَت عن اختطاف وارثة حُكم، وهو من اقترح أن يُفقدوها عقلها بدلاً من مبادلتها بفدية كالعادة. ترك المنزل الصغير في لوس أنجليس حيث احترق ديفريز ومن معه قبل عشرين دقيقة من مباغته الشرطة لهم، فرَّ خلال الشوارع، يقرع الأرضفة بحذائه المترّب، وابتسامة مخيفة على وجهه، جعلتِ الأمهات يجذبن أولادهنَّ إلى داخل البيوت. ابتسامة جعلتِ الحوامل يشعرن بألم الولادة المبكرة. في النهاية لم يعدّ يتذكر من بقي من هذه الجماعات، إلا أن أحدهم كان موجوداً، وذا صلة بهم، ربما شخص مهم، ربما طفيلي. رجل غير محدد العمر، رجل يُدعى (الماشي)، وأحياناً (البُعْبُع).

يمشي بخطوات منتظمة تلتهم الأرض تحته. منذ يومين كان عضواً في جماعة تدميرية في لارامي بولاية وايومنغ، وقد فجرُوا محطة طاقة. واليوم هو على طريق US 15، بين جراسمير وريدل، في طريقة إلى ماونتِن سيتي. غداً سيكون في مكان آخر. وكان سعيداً أكثر من أي وقت مضى، لأن...

توقف عن السير.

لأن شيئاً على وشك الحدوث. إنه يستشعره، يكاد يتذوق طعمه في هواء الليل. له مذاق سُخامي حار يأتيه من كل مكان، وكأن الرب يجهّز لشواء يطهو فيه الخلق جميعاً. الفحم ساخن فعلاً، أبيض مفتت من الخارج، أحمر كعيني شيطان من الداخل. ما سيحدث عظيم، هائل.

(1) المقصود هارفي أوزولد، قاتل الرئيس الأمريكي كينيدي (الترجمة)

(2) مجرم أمريكي ينتمي إلى اليسار المتطرف (الترجمة)

وقت تحوُّله قد حان. سيولد مرة أخرى، سيخرج من فَرْج وحش عظيم بلون الرمال، ممد الآن، يتمخض، ساقاه تنفرجان ببطء إذ تتدفق دماء الولادة، عيناه الحارتان كالشمس تحدقان إلى الخواء.

لقد وُلد عندما تغيَّر الزمن، والزمن سيتغير مرة أخرى.

حان وقت الولادة الثانية. إنه يعرف. لأي سبب آخر يتوهج سحره؟

أغمض عينيه. وجهه الحار يرتفع نحو السماء المظلمة التي تستقبل الفجر. ركَّز. ابتسم. حذاؤه البالي المُترَب يرتفع عن الأرض. بوصة. اثنتين. ثلاث بوصات. تحوَّلت ابتسامته إلى تكشيرة. المسافة الآن بينه وبين الأرض قدم.. قدمان. ظل معلقًا على الطريق، والتراب يدور من تحته كإعصار صغير. شعر بأول بوصات من الفجر تلطخ السماء، فهبط مرة أخرى. لم يحن الوقت بعد.

لكنه اقترب.

بدأ يمشي مرة أخرى، يبحث الآن عن مكان يرقد فيه نهارًا. الوقت اقترب، وهذا ما يكفيه معرفته الآن.

الفصل الرابع والعشرون

قاد لويد هاينريد حارسان، لُقْبته صحف فوينكس بـ (القاتل المُتصَلِّف ذي الوجه الطفولي) عبروا الرواق إلى جناح سجن فوينكس مُشدد الحراسة. يسيل أنف أحد الحارسين، وبدا كلاهما مريضًا. يزف لويد قاطنو الجناح الآخرون على طريقتهم، فهو نجم مشهور.

«مرحى يا هاينريد!».

«هيا يا فتى!».

«قل للمدعي العام إنه لو أطلق سراحى لن أدعك تؤذيه!».

«اثبت يا هاينريد!».

«تشجّع! تشجّع! تشجّع!».

هتف الحارس ذو الأنف الراشح: «أيها الحقراء ذوو الأفواه النتنة!». ثم عطس.

ابتسم لويد في سعادة. شهرته الجديدة أبهرته. طبعًا لم يكن السجن شبيهًا ببراونزفيل، حتى الطعام أفضل. عندما ترتكب جريمة ثقيلة تحظى ببعض الاحترام. تخيل أن توم كروز يشعر بشعور مماثل في أثناء حضوره العرض الأول لأفلامه.

في نهاية الرواق، عبروا بوابة كهربية مزدوجة التحصين. فتشّوه مرة أخرى. الحارس المريض أنفاسه ثقيلة متهدجة كأنه كان يعدو صاعدًا درجًا عاليًا. مرراه من خلال كاشف معادن للاحتياط، ربما للتأكد من أنه لا يحمل شيئًا محشوًّا في شرحه مثل الرجل المدعو (الفراشة) في ذاك الفيلم الشهير. قال ذو الأنف الراشح: «حسنًا».

وَأَذِنَ لَهُمْ فِي الدخول جندِيٌّ فِي كَابينة خَلْفَ زجاج مُضاد لِلرصاص. مشَوْا خِلال رِواقٍ آخَرَ حِوائِطُهُ مَطْلِيَّةٌ بِالْأخْضَر. المِكانُ هادئٌ لِلغاياةِ هُنا، وَلا صِوتٌ إِلا صِوتُ قِرْعِ أَحْذيةِ الحارِسينَ (كانَ لَويدُ يَنتَعلُ خُفًّا ورَقِيًّا) وَصِوتُ حَشْرَجَةٍ أَنفاسِ الحارِسِ عَن يَمينِ لَويد. جَندي آخَرَ يَنتَظرُ عَند نِهايةِ الرِواقِ، أَمامَ بابٍ مَغلُوقٍ. لِلبابِ نافِذَةٌ صَغيرةٌ واحِدة، بِالكَادِ أَكْبَرُ مَن كُوةٌ، ذاتُ زِجاجٍ مَقوَّى.

سَأَلَ لَويدُ عَلى سَبيلِ الحِوارِ: «لِماذا تَفوَحُ رائِحةُ السِجونِ بِالْبُولِ هِكذا؟ أَعْني أَنَّهُ حَتى الأَماكِنُ الَّتِي لا يُحْبَسُ فِيها أَحَدٌ تَفوَحُ بِالرائِحةِ نَفسِها. هَلْ تَبولونَ فِي الأَركانِ يا رِجال؟».

ضَحِكُ مَن الخاطِرُ الهِزَلِيُّ. قالَ لَه الحارِسُ بِبرودٍ: «أَخرَسُ أَيُّها القاتِلُ».

- لا تَبدو بِخِيرٍ أَبْداً. المِفتَرَضُ أَن تَرْتاحَ فِي بَيتِكَ وَفِي فِراشِكَ.

قالَ الحارِسُ الآخَرُ: «أَخرَسُ».

فَخَرَسَ لَويدُ. هِذا ما يَحدُثُ عَندما تَحاوِلُ التَحَدُّثَ مَعَ أَوَّلِئِكَ الرِفاقِ. قالَ حارِسُ البابِ: «مَرَحى أَيُّها الحَقيرُ».

سَأَلَهُ لَويدُ: «كِيفَ حالُكَ أَيُّها القَبيحُ؟» لا يَوجَدُ أَفْضَلَ مَن تَحِيَّةِ حَميمِيَّةٍ لَتَوطيدِ الرِوابِطِ. مَرَّ يَومانَ عَليه فِي الحَبسِ، وَالآنَ يَباغِثُهُ الشَّعورُ بِانْعِدامِ التَركِيزِ.

قالَ حارِسُ البابِ: «سَتَفقدُ سِنًّا مَن أَجَلَ تَطاوَلُوكَ. واحِدةٌ فَقَط، بِالضَبْطِ».

- اِسمَع، لا يَمِكنُكَ أَن...

- بَلْ يَمِكنُني. فِي الفِناءِ رِجالٌ قَد يَقتُلونَ أُمَهاثَهم الحَبيباتِ مَن أَجَلَ

عَلَبَتِي سِجائِرُ أَيُّها الداعِرُ. هَلْ تَجربُ فَقَدَ سَينينَ؟

صَمَتَ لَويدُ.

- حَسَنًا إِذْن. سَنَ واحِدةٌ فَقَط. يَمِكنُكما إِدخالُهُ أَيُّها الرَفِيقانُ.

فَفتحَ الحارِسُ المَريضُ البابَ بِاسِمْماً، وَقادَ لَويدُ إِلى الدِاخلِ، حِثْ يَجلِسُ المِحامِي الَّذي عَيَّنَتَهُ المِحاكِمَةُ لِلدِفاعِ عَنهُ خَلْفَ مَنضَدَةٍ مَعدَنِيةٍ، يَنظرُ إِلى أَوراقٍ أَخْرَجَها مَن حَقِيبَتِهِ.

- ها هُوَ رِجْلُكَ أَيُّها المِستِشارُ.

نظر المحامي إلى أعلى. رأى لويد أنه عمره كبير بالكاد ليبدأ حلقة ذقنه، لكن لا يمكن للمتسولين أن ينتقوا. لقد طهوه على نار هادئة على أي حال، وأدرك لويد أنه سيحكم عليه بعشرين عامًا أو نحو هذا. عندما يمسون بك، لا يسعك سوى إغماض عينيك وكز أسنانك.

- شكرًا جزيلاً...

قاطع لويد مشيرًا إلى الحارس عند الباب:

- هذا الرجل، نعتني بالداعر، وعندما رددت عليه، قال إنه سيُحرّض بعض الرجال على كسر سنّي! ألا يندرج هذا تحت قائمة عنف الشرطة؟

مسح المحامي وجهه بكفه وسأل حارس الباب: «هل هذا صحيح؟».

رفع الحارس عينيه كأنه يقول: «إلهي، هل تصدق هذا؟» ثم أجاب: «هؤلاء الرجال أيها المستشار مؤلفون بارعون، لا بدّ أن يكتبوا حلقات تليفزيونية. قلت له مرحبًا، فقال مرحبًا. هذا كل شيء».

هتف لويد بطريقة مفتعلة: «هذه كذبة لعينة!».

قال الحارس وهو ينظر إلى لويد نظرة قاسية: «أنا أحتفظ بآرائي لنفسي».

غمغم المحامي: «طبعًا، لكنني واثق من أنني سأعدّ أسنان السيد هينريد قبل أن أغادر».

بدا غضب خافت على وجه الحارس، وتبادل النظرات مع الآخرين الذين أحضروا لويد. ابتسم لويد. ربما الفتى المحامي جيد رغم كل شيء. آخر محامين مثله كانا خائبين مُسنّين، واحد منهما حضر إلى المحاكمة يحمل كيس فُجرة القولون. هل تصدق هذا؟ كيس فُجرة قولون؟ الخائبان المسنان لا يعبان بك. شعارهما: ترفع وارحل. لتخلص من المتهم لنعود سريعًا إلى تبادل القصص الفاضحة مع القاضي. ربما يقلل هذا الشاب أعوام سجنه إلى عشرة، ويخفف الاتهام إلى سرقة مسلحة. هو لم (ينكز) أحدًا سوى زوجة الرجل صاحب السيارة الكوني البيضاء، وربما يستطيع رمي الجريمة على بوك المسكين. لن يمانع بوك، فهو ميت. اتسعت ابتسامة لويد قليلًا. يجب أن ينظر المرء إلى الجانب المشرق. الحياة أقصر من فعل أي شيء آخر.

أدرك أن الحارس تركهما وحدهما، وأن محاميه -اسمه آندي ديفنز كما يتذكر لويد- ينظر إليه نظرة غريبة، كأنه ينظر إلى حية ذات جرس مكسورة الظهر، لكن عضتها قاتلة بعد.

قال ديقنز فجأة: «أنت غائص في خراء عميق يا سيلقرس».
قفز لويد هاتفاً: «ماذا تعني بأنني غائص في خراء عميق؟ ظننتك عاملت
الحارس الرخو هذا بما يستحقه. بدا غاضباً كفاية حتى...».

- اسمعني يا سيلقرس، وانصت جيداً.

- اسمي ليس...

- لا فكرة لديك عما أنت متورط فيه يا سيلقرس.

عينا المحامي لا تطرفان. صوته هادئ واضح. شعره أشقر قصير للغاية،
مجرد زغب تلمع فروة رأسه الوردية من تحته. يرتدي خاتم زواج ذهبي حول
خنصره اليسرى، وخاتم أخوية أنيق في خنصره اليمنى. ضربهما ببعضهما
فأصدرا صوتاً جعل أسنان لويد تصطك.

- ستحاكم بعد تسعة أيام يا سيلقرس بسبب قرار المحكمة العليا منذ
أربع سنوات.

سأل لويد في قلق: «أي قرار؟».

- قضية ماركام ضد كارولينا الجنوبية. شروط تطبيق حكم الإعدام على
المُدانين حسب حالتهم.

زعق لويد في زعر: «حكم الإعدام؟! هل تعني الكرسي الكهربى؟ مهلاً يا
رجل، أنا لم أقتل أحداً! أقسم بالرب!».

- لا يهم القسم في عيني القانون. لو كنت هناك في محل الجريمة، فأنت
الفاعل.

- ماذا تعني بأن القسم لا يهم؟ بل يهم! أنا لم أقتل هؤلاء الناس، بوك
قتلهم! قد كان مجنوناً! إنه...

- هلا خرس يا سيلقرس؟

قالها ديقنز بصوت هادئ واضح، فخرس لويد. نسي في خضم خوفه
هتافات رفاق السجن وخطر فقدته سناً. فجأة خطر له صورة تويتي
العصفور يقيم فخاً للقط سيلقرس. لم يره لويد يضرب القط البائس بمطرقة
ضخمة على رأسه، أو يضع فخ فئران أمام مخالفه، بل رأى القط مقيداً إلى
الكرسي الكهربى، والطائر الأصفر جالساً على مقعد جوار مفتاح توصيل
الكهرباء. يستطيع أن يرى قبعة الحارس فوق رأس تويتي الأصفر الصغير.

هذه ليست صورة مبهجة.

ربما رأى ديقنز شيئاً منها على وجهه، لأنه بدا لأول مرة مسروراً. فرد يديه على كومة الأوراق التي أخرجها من حقيبته، وقال: «لا شفاعاة عندما يصل الأمر إلى جريمة قتل من الدرجة الأولى ارتُكِبَتْ في أثناء ارتكاب جنائية أخرى. لدينا ثلاثة شهود على أنك وأندرو فريمان كنتما معاً. هذا كافٍ ليشوي مؤخرتك النحيلة على المقعد الكهربائي. هل تفهم؟».

- أنا...

- جيد. لنعد إلى قضية ماركام ضد كارولينا الجنوبية، وسأشرح لك كيف يؤثر الحكم في تلك القضية في موقفك. لكن أولاً، يجب أن أذكرك بحقيقة تعلمتها بالتأكيد في الصف التاسع من المدرسة: يمنع دستور الولايات المتحدة الأمريكية العنف والعقوبات الاستثنائية.

قال لويد موافقاً: «نعم، مثل عقوبة الكرسي اللعين الكهربائي».

أوماً ديقنز وأكمل: «القانون هنا غير واضح، وحتى أربع سنوات مضت، دارت المحاكم ولفتت وصعدت وهبطت محاولة فهمه. هل يقصد القانون أن العنف والعقوبات الاستثنائية قرارات مثل الإعدام بالكرسي الكهربائي وغرفة الغاز؟ أم إنه يقصد مدة الانتظار بين الحكم والتنفيذ؟ الاستئناف، التأخير، الحبس، والأشهر والسنوات التي تمر على مجرمين بعينهم مثل إدجار سميث وكاريل تيسمان وتيد بندي وهو الأشهر، والتي يتعرضون فيها للعيش في صفوف المحكوم عليهم بالإعدام دون تنفيذ؟ شرعت المحكمة العليا الحكم بالإعدام في أواخر السبعينيات، لكن صفوف انتظار التنفيذ ظلت مكتظة، وظل التساؤل حول مفهومي العنف والعقوبات الاستثنائية. حسناً. في قضية ماركام ضد كارولينا الجنوبية حُكِمَ على رجل بالإعدام لارتكابه جريمة اغتصاب وقتل ثلاث طالبات جامعات. تأكدت الجريمة بذكرها في يوميات كتبها القاتل، وحُكِمَ عليه بالموت».

همس لويد: «يا للحظ».

أوماً ديقنز، وابتسم ابتسامة شرسة نوعاً وهو يضيف: «وصلت القضية إلى المحكمة العليا، التي أكدت أن الحكم ليس عنيفاً ولا استثنائياً تحت ظروف معينة، وأوصت المحكمة بالتنفيذ العاجل.. من وجهة نظر قانونية. هل بدأت تفهم يا سيلفرس؟ هل بدأت ترى؟».

ولم يكن لويد يفهم أو يرى.

- هل تعرف لماذا حُكم عليك في أريزونا، وليس في نيو مكسيكو أو نيفادا؟

هز لويد رأسه.

- لأن أريزونا واحدة من الولايات الأربع المقام فيها دائرة محاكم الجرائم الكبرى، والتي تنعقد فيها المحاكمات التي يُطالب فيها بالإعدام، ويُقر به.

- لا أفهم.

- ستقام محاكمتك خلال أربعة أيام. للولاية قضية قوية تقدمها لهيئة المحلفين الاثني عشر. سأحاول تخليصك من الورطة قدر الإمكان، لكن هيئة المحلفين ستحضر المحاكمة من اليوم الأول. ستقدم الولاية قضيتها في اليوم الثاني. سأحاول أن آخذ ثلاثة أيام، وسوف أزيد في مقدمة مرافعتي ونهايتها حتى يقاطعني القاضي. لكنني لن أستطيع أن أفعل هذا إلا ثلاثة أيام على الأكثر. سنكون محظوظين لو نجحنا في ذلك. سيجدك المحلفون مذنبًا في أقل من ثلاث دقائق، إلا لو وقعت معجزة لعينة. سيُحكم عليك بالإعدام بعد تسعة أيام من اليوم، وبعد أسبوع ستكون ميتًا كاللحم المفروم. سيروق هذا لأهالي أريزونا وللمحكمة العليا، لأن السرعة في التنفيذ تُسعد الجميع. يمكنني أن أمدد هذا الأسبوع، لكن قليلًا فقط.

صاح لويد: «يا يسوع المسيح! هذا ليس عدلًا».

- إنه عالم قاسٍ يا لويد. خاصة بالنسبة إلى «الكليين المجنونين القاتلين» كما تُطلق عليهما الصحف ومقدمو البرامج. أنت شهير في عالم الجريمة، حتى إن أخبارك أُلقت بأخبار الوباء إلى الصفحات الداخلية. ردّد لويد في حُزن: «أنا لم أنكرُ أحدًا قط. بوك فعل كل هذا، حتى إنه هو الذي صاغ كلمة (ينكرز) هذه».

- لا يهم. هذا هو ما أحاول حشره في دماغك الغبي يا سيلقرس. سيغادر القاضي القاعة لمدة استراحة واحدة، واحدة فقط. سأستأنف، وتحت ظل القوانين الجديدة، لا بدّ أن يصل استئنافي إلى يد دائرة محاكم الجرائم الكبرى خلال سبعة أيام، وإلا ستغادر على الفور. في حالتك،

سأرفع دعوى الاستئناف متأخرًا قدر الإمكان. في الغالب ستوافق دائرة
محاكم الجرائم الكبرى على الاستماع لنا، فالنظام ما زال جديدًا، وهم
يريدون أقل قدر من الانتقاد. قد يستمعون لاستئناف جاك السفاح
نفسه.

غمغم لويدي: «وكم سيمرُّ من الوقت حتى يصلوا إليّ؟».

- وقت قليل...

ثم صارتِ ابتهامته ذنبيةً وهو يكمل: «دائرة المحاكم مؤلفة من خمسة
قضاة من أريزونا، ولا يفعلون شيئًا سوى الصيد واللعب وشرب البوربون،
وانتظار ظهور جُوال خراء تعس مثلك في قاعات محكمتهم، وهي مجموعة
أجهزة مودِم متصلة بالمجلس التشريعي، ومكتب الحاكم، وبيعضها. في
سياراتهم ومنازلهم ويخوتهم هواتف مُوصلة بأجهزة مودِم. أعمارهم في
حدود الثانية والسبعين...».

أجفل لويدي.

- هذا يعني أن بعضهم مسن حتى إنه لحق الترام ذا الخط الكهربائي
الواحد، ولم يكونوا وقتها إلا محامون أو دراسو قانون. كلهم يؤمنون
بقانون الغرب.. محاكمة متعجلة ثم الشنق. هذه هي السُّنة هناك حتى
الخمسينيات. وعندما يصل الأمر إلى قتل عدد من الضحايا، فهذا هو
القانون الوحيد.

- يا يسوع المسيح المجيد! هل كان عليك أن تشرح لي الأمر على هذا
النحو؟!

- أنت في حاجة إلى معرفة ما أنت مقدم عليه. ما يهمهم هو ألا تعاني
العنف أو العقاب الاستثنائي يا لويدي. المفترض أن تشكرهم.

- أشكرهم؟ أود لو...

سأل ديفنز بهدوء: «لو تنكرهم؟».

قال لويدي في غير اقتناع: «لا، طبعًا لا».

- سترفض مطالبتنا بمحاكمة أخرى، وكل توقعاتي ستضيع هباء. لو كنا
محظوظين، فستدعوني المحكمة لتقديم شهود. لو منحوني الفرصة
فسأدعو كل مَنْ شهد في الجريمة الأصلية بالإضافة إلى أي شخص آخر

يخطر ببالي. سأستدعي حتى زملاء دراستك في المدرسة المتوسطة
شهوذا لو استطعتُ العثور عليهم.

قال لويد في غباء: «لقد تركتُ المدرسة وأنا في الصف السادس».

- بعدما ترفض دائرة المحاكم طلبنا، سأطالب بالمثول أمام المحكمة
العليا، وأتوقع أن ترفض طلبي في اليوم نفسه.

توقف ديثينز ليشعل سيجارة. سأله لويد: «ثم؟».

سأل ديثنز: «ثم؟».

بدا مدهوشاً ممتعضاً من غباء لويد.

- ثم تنتظر في صفوف المحكوم عليهم وتستمتع بكل الخيرات هناك
حتى يأتي يوم تركب فيه البرق. لن يطول الانتظار.

- لن يفعلوا هذا حقاً. أنت فقط تريد أن تفزعني.

- الولايات الأربع المقامة فيها دوائر محاكم الجرائم الكبرى يفعلونها
طوال الوقت. أربعون رجلاً وامرأة أُعدموا طبقاً لهذا القانون. طبعاً

يدفع دافعوا الضرائب زيادةً طفيفة من أجل المحكمة الإضافية، لكن
ليس إلى هذا الحد، لأنها لا تحكم إلا في نسبة قليلة لغاية من جرائم

الدرجة الأولى. بالإضافة إلى هذا، دافعوا الضرائب لا يمانعون حقاً في
فتح جيوبهم لعقوبات كبرى. إنهم يحبونها.

بدا لويد كأنه سيقىء.

- على أي حال. لن يحاول المدعي العام شيئاً سوى حصار المدعى
عليه طبقاً لقانون ماركام لو أنه بدا مذنباً تماماً. لن يكفي وجود ريش

الدجاج على خطم الكلب لإدانته، بل يجب الإمساك به في الخم، وهذا هو
المكان الذي أمسكوا بك فيه.

وجد لويد نفسه يحدق إلى هاوية سوداء تنتظره بعد أسبوعين أو ثلاثة
على أقصى تقدير، بعدما كان يستمتع بهتاف رفاق السجن منذ خمس عشرة
دقيقة.

سأله ديثنز في رافة: «هل أنت خائف يا سيلقرس؟».

اضطرب لويد إلى لعق شفثيه كي يستطيع أن يجيبه قائلاً: «يا للمسيح،
نعم. أنا خائف. أنا رجل ميت بناء على ما تقوله».

- أنا لا أريدك ميتًا، أريدك فقط أن تخاف. لو دخلت قاعة المحكمة متفاخرًا متبخترًا، فسوف يُقيدونك إلى الكرسي الكهربائي ويوصلون الكهرباء. ستكون رقم واحد وأربعين في قائمة الذين أُعدموا طبقًا لقانون ماركام. لكن لو أنصت لي، فربما استطعنا التملص. لا أقول إننا سنفعل ذلك، بل أقول ربما.

- أكمل.

- هيئة المحلفين هو ما سنعتمد عليه. اثنا عشر شخصًا من الشارع. أريد أن تمتلئ هيئة المحلفين بالعجائز اللاتي يحفظن أفلام ويني الدب عن ظهر قلب، ويقيم مراسم دفن لطيوهرن النافقة في حدائقهن الخلفية. هذا ما أريده. كل عضو في هيئة محلفين يكون واعيًا بعواقب ماركام عندما يُدرج في قوائم الهيئة. هم لن يحكموا بحكم بالموت لن يُنفذ خلال ستة أشهر أو ست سنوات بعدما ينسونه. الرجل الذين يحكمون عليه في يونيو سيكون تحت التراب يدفع الأزهار من أسفل قبل منتصف يوليو.

- لك طريقة عجيبة في وصف الأمور.

تجاهله ديقنز وأكمل: «أحيانًا العلم بالعواقب قد يدفع هيئة المحلفين للحكم بالبراءة. هذا من سلبيات ماركام. أحيانًا تترك هيئة المحلفين عتاة المجرمين يفرون بفعلتهم، فقط لأنهم لن يتحملوا دماءً على أيديهم بهذه السرعة».

رفع ورقة ثم أضاف: «رغم إعدام أربعين شخصًا بسبب هذا القانون، فلم يُطالب بالإعدام إلا في سبعين قضية. من بين الثلاثين الذين لم يُعدموا، برأت هيئة المحلفين ستًا وعشرين منهم. أربعة فقط حكمت عليهم دائرة محاكم الجرائم الكبرى بالبراءة. واحد منهم في كارولينا الجنوبية، واثنان في فلوريدا، وواحد في ألاباما».

- ولم يحدث هذا في أريزونا؟

- قَطُّ. لقد أخبرتك. قانون الغرب. أولئك العجائز الخمسة يريدونك مصلوبًا على لوح. لو لم نخرجك من القضية من خلال هيئة المحلفين، فأنت هالك.

- كم شخصًا حكمتُ عليه هيئات محلفي المحاكم العادية بالبراءة طبقًا لقانون أريزونا؟
- اثنان من أربعة عشر.
- احتمالات سيئة للغاية أيضًا.
- ابتسم ديقنز ابتسامته الذئبية وقال: «يجب أن أوضح أنني كنت محامي واحدٍ من الاثنين. كان مذنّبًا كالخطيئة نفسها يا لويد، مثلك بالضبط. احتدّ القاضي بيكرت على النسوة العشر والرجلين عشرين دقيقة، حتى حسبته سيصاب بسكتة دماغية».
- لو قالوا إنني لست مذنّبًا، فلن يعيدوا محاكمتي، أليس كذلك؟
- لا، أبدًا.
- هذه لعبة من دور واحد، إما الفوز وإما لا.
- نعم.
- مسح لويد جبهته وغمغم: «إلهي...».
- ما دمت تفهم الوضع، فسنعامل مع الأمور.
- أفهم. لكنه لا يعجبني.
- تكون مجنونًا لو كان يعجبك.
- ضمّ كفيه ومال أمامًا وهو يكمل: «والآن. لقد أخبرتني وأخبرت الشرطة أنك...». وأخرج من حقيبته مجموعة أوراق مثبتة بدبوس، بحث فيها ثم أردف: «آه.. ها نحن. قلت: أنا لم أقتل أيّ أحد. بوك هو من قتل. القتل كانت فكرته، لا فكرتي. بوك كان مجنونًا كبقة فراش، وأعتقد أن موته أراح العالم».
- قال لويد مدافعًا: «هذا صحيح. ماذا في ذلك؟».
- هذا هو ما نريد إبرازه؛ كونك كنت مذعورًا من بوك فريمان. هل كنت مذعورًا منه؟
- حسنًا، ليس بالضبط...
- كنت خائفًا على حياتك في الحقيقة.
- لا أعتقد أنني...

- كنت مرتعّبًا. صدّق هذا يا سيلفُرس. لقد كنتُ مرتعّبًا حتى إنك تغوطتَ في ملابسك.
- قطّب لويِد حاجبيه تقطّيبه طالبٍ غبيٍّ يريد أن يكون تلميذًا نابهاً لكنه لا يفهم شيئاً من الدرس.
- لا تدعني أقودك يا لويِد. لا أريد أن أفعل هذا. ربما تظنّني أحاول تقديمَ فكرة أن بوك كان مسطولاً طوال الوقت...
- بل كان كذلك! كلانا!
- لا. أنت لم تكن كذلك، بل هو الذي كان مسطولاً، ولطالما كان يفقد عقله عندما يُسَطّل...
- إلهي، أنت لا تمزح...
- وفي أرجاء ذاكرة لويِد، تردّد صوت بوك فريمان يصيح: «وُب! وُب! وُب!» في سعادة، ويقتل المرأة في المتجر».
- نعم، وقد هددك بالسلاح أكثر من مرة...
- لا، هو لم...
- بل فعل. أنت فقط نسيّت لفترة. الحقيقةُ هو أنه هددك بالقتل لو لم تساند أفعاله.
- حسنًا، كان معي سلاح...
- قال ديفنز وهو يحدّق إليه عن قرب: «أعتقد أنك لو بحثتَ في ذاكرتكَ جيّدًا، ستجد أن بوك أخبرك أن سلاحك محشوٌّ بطلقات فارغة. هل تتذكر ذلك؟».
- الآن وقد ذكرته...
- ولم يتفاجأ أحدٌ مثلك عندما ضغط الزناد فخرجتُ من السلاح طلقات حقيقية، أليس كذلك؟
- طبعًا.
- أومأ في حماس مضيّفًا: «كدتُ أصاب بنزف مخي».
- وكدتُ أيضًا تدير فوهة السلاح نحو بوك فريمان لكنه قُتِل وأعفاك من المشقة.

نظر لويد إلى محاميه نظرة أمل غارق، ثم قال في إخلاص: «سيد ديقنز.. هذا ما حدث بالضبط».

كان في فناء التريُّض في وقت لاحق من الصباح ذاته، يشاهد مباراة سوفتبول، ويفكر في ما قاله له ديقنز، حتى اقترب منه سجين ضخم اسمه ماذرس وجذبه من ياقته ليقف. رأس ماذرس حليق مثل رأس تيلي ساقلاص، تلمع صلعته في هواء الصحراء الحار.

قال لويد: «انتظر لحظة الآن. عدّ محاميّ كلَّ سن من أسناني. سبع عشرة. لذا لو...

- نعم. هذا ما قاله شوكلي. لذا، طلب مني أن...

ضرب ماذرس منفرج لويد بركبته، فانفجر ألمٌ مُعمٍ هناك حتى عجز عن الصراخ. هوى متكورًا مكومًا يقبض على خصيتيه المنسحقتين. العالم في عينيه ضباب أحمر من العذاب.

بعد مدة لا يعلمها أحد، استطاع أن ينظر إلى أعلى. كان ماذرز ينظر إليه وصلعته تلمع. الحرس ينظرون بعيدًا عامدين. أن لويد وتلوى أَلْمًا، تنصبُّ الدموعُ من عينيه، يشعر بكُرة رصاص حارة في معدته.

قال ماذرس بصدق: «الأمر ليس شخصيًا. مجردُ شغل، أنت تفهم. أتمنى بحق أن تخرج. قانون ماركام هذا قانون داعر».

ومشى مبتعدًا. رأى لويد حارس الباب يقف على منصة عند ركن تحميل الشاحنات على الجهة الأخرى من الفناء، يدسُ إبهاميه في طوق حزامه ويبتسم له. بعدما تأكد من أنه أتمَّ عقاب لويد، رفع له إصبعي كفيه الوسطيين. اتجه ماذرس نحوه، فأعطاه حارس الباب علبة سجائر تاريتونز، وضعها ماذرس في جيبه، وحيّاه تحية عسكرية مُرتجلة، ثم رحل. ظلَّ لويد متكورًا على الأرض، ويداه تمسكان بطنه المتقلص، تتردّد كلمات ديقنز في عقله: إنه عالم قاسٍ يا لويد.

هذا صحيح.

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل الخامس والعشرون

أزاح نك أندروز الستار جانبًا ونظر إلى الشارع. من الطابق الثاني من منزل الراحل چون بيكر، يمكنك أن ترى وسط بلدة شويو بالنظر إلى اليسار، وبالنظر إلى اليمين سترى الطريق رقم 63 الخارج من البلدة. الشارع الرئيسي خالٍ تمامًا. ستائر مكاتب الأعمال والمتاجر مسدلة.

جلس كلب مريض في منتصف الطريق، رأسه إلى أسفل، يلهث، ورغوة بيضاء تسيل من بين شذقيه إلى الرصيف الساخن. عند المجرور على بعد نصف مربع سكني كلب آخر ميت.

المرأة خلف نك تتنُّ بصوت مختنق، لكنَّ نك لا يسمعها. أغلق الستار، وفرك عينيه لحظاتٍ، ثم عاد إليها. كانت چين بيكر متدثرةً بالأغطية لأنها تشعر ببرد شديد منذ ساعتين، لكنَّ العرق الآن يقطر من وجهها، فركلت الأغطية. رأى نك في حرج أن ملابس نومها الخفيفة قد ابتلت بالعرق، فصارت شفافة في أكثر من موضع. لكنها لم تكن تراه، ولم تهتمَّ لما انكشف منها. إنها تموت.

صاحت: «چوني. هاتِ الحوض. أعتقد أنني سأتقيأ!».

أخرج نك الحوض البلاستيكي من تحت الفراش ووضعه إلى جوارها، لكنها دفعته بقوة فأسقطته على الأرض، فأصدر ضجَّة عالية لم يسمعها نك أيضًا. انحنى يحمله، ووقف ينظر إليها.

صرخت: «چوني! لا أجد علبة الحياكة خاصتي! ليست في الخزانة!».

صب لها كوب ماء من دورق على الكومود، وقربه من شفيتها فأزاحته بعيدًا وكادت تسقطه من قبضته. وضعه قريبها بحيث تصل إليه إن هدأت.

لم يَجِ قَطُّ مرارة صممه إلا في اليومين السابقين. كان الكاهن السيد بريسمان معها في يوم الثالث والعشرين عندما زارها نك، وقرأ من الكتاب المقدس معها في غرفة المعيشة، لكنه بدا عصبياً قلقاً يريد أن يرحل سريعاً. خَمَّن نك السبب. منحتها الحمى لوناً محمراً صبيانياً تزايد مع هلوستها. ربما خشي الكاهن أن تعديه، لكنه على الأرجح كان يتوق إلى جمع أسرته والهرب خلال الحقول. الأخبار تنتشر سريعاً في البلدات الصغيرة، وقرر الكثيرون الخروج من شويو.

منذ غادر بريسمان غرفة معيشة آل بيكر، قبل ثمان وأربعين ساعة، تحوّل كل شيء إلى كابوس حي. ساءت حالة السيدة بيكر أكثر مما حسب نك، حتى إنه يظنها ستموت قبل الغروب.

الأسوأ أنه لا يستطيع المكوث معها باستمرار. لقد ذهب إلى مطعم استراحة الشاحنات ليجلب لسجنائه الثلاثة إفطارهم، لكن عجز فينس هوجان عن تناوله. كان يهلوس. طالب مايك تشايلدريس وبيلي وارنر بالخروج، لكن نك لم يجرؤ على الخضوع لهما، ليس بسبب الخوف، فهو يعرف أنهما لن يُضيعا وقتهما في ضربه لينتقما، وسيفرّان في أسرع وقت من شويو كالآخرين، بل لأنهما مسؤوليته. لقد وعد الرجل الذي مات. بالتأكيد ستصل دورية الولاية عاجلاً أو آجلاً وتتولى الأمر.

كان قد وجد مسدساً في جرابه داخل دُرج مكتب الشريف السفلي، وبعد لحظات تفكير أخذه. نظر الآن إلى أسفل، ورأى مقبض المسدس الخشبي مستنداً إلى عظام حوضه النحيف، فشعر بالسخف.. لكن ثقل المسدس طمأنه.

فتح زنزانة فينس في ظهيرة يوم الثالث والعشرين، ووضع كمادات الثلج المرتجلة على جبهة الرجل وصدره وعنقه. فتح فينس عينيه ونظر إلى نك في رجاء صامت تعس، حتى تمنى نك لو يقول أي شيء - كما يتمنى الآن بعد يومين مع السيدة بيكر - أي شيء قد يمنح الرجل لحظة راحة. أي شيء مثل: ستكون بخير، أو أعتقد أن الحمى تتحسن.

طوال الوقت الذي مكث فيه مع فينس ليعتني به، ظلّ بيلي ومايك يتصايحان. لم يهَمَّ هذا، لكن كلما رفع عينيه عن المريض، رأى وجهيهما المذعورين وقرأ على شفاههما عبارة: «أخرجنا من هنا». حرص نك على

الابتعاد عنهما. هو صغير في العمر، لكنه كبير بما يكفي ليعرف أن الذعر يجعل الرجال خطرين.

جال بعد ظهيرة ذاك اليوم في شوارع البلدة الخالية، يتوقع دائماً أن يجد فينس هوجان ميتاً عند أول شارع، وچين بيكر ميتةً عند نهايته. بحث عن سيارة دكتور سومز لكنه لم يرها. بعض المتاجر كانت مفتوحةً وقتها، لكنه كان مقتنعاً أن البلدة تفرغ تدريجياً من سكانها. يتخذ الناس سُبُلًا وسط الغابات والطرق الخلفية، وربما يبحرون أيضاً خلال جدول شويو الذي يؤدي إلى ماونت هولي. وسيرحل المزيد ليلاً..

غربت الشمس حالما وصل إلى بيت آل بيكر، ليجد چين ترتعش في المطبخ وتغلي الأعشاب مرتديةً رداء الحمام. نظرت إلى نك ممتنةً، ورأى أن حُماها قد زالت.

قالت له بهدوء: «أريد أن أشكرَك على عنايتك بي. أشعر بتحسن كبير. هل تود كوبَ مغلي أعشاب؟».

ثم مسحَ دموعها. اقترب منها، خشي أن تفقد الوعي أو تسقط فوق الموقد الساخن. أمسكتُ ذراعيه لتوازن نفسها، ثم أسندتُ رأسها عليه، شعرها الداكن يتهدّل على رداثها الأزرق الزاهي.

همستُ وسط المطبخ الذي بدأ يُظلم: «چوني.. حبيبي چوني». تمنى نك في تعاسة لو أنه يستطيع الكلام، لكنه لم يستطع سوى أن يلفّ ذراعه حول كتفها ويقودها خلال المطبخ إلى مقعد جوار المنضدة.

- الأعشاب...

أشار إلى نفسه، ثم دعاها إلى الجلوس. قالت: «لا بأس. أنا أشعر بتحسن واضح. المشكلة أنني.. أنني...».

ثم غطّت وجهها بكفيها.

صنع لهما نك كوبَي أعشاب مغلية وحملهما إلى المنضدة. شربا هنيهةً دون حديث. أمسكتُ كوبها بكفيها كطفل. أخيراً أعادته إلى المنضدة وقالت: «كم بلدةً تعاني هذا يا نك؟».

كتب: «لم أعد أعرف. لكنّ الوضع سيئ».

- هل رأيت الطبيب؟

« لم أره منذ الصباح ».

- قد يهلك نفسه ما لم يحترس. سيكون حذرًا، أليس كذلك يا نك؟ لن يهلك نفسه؟

أومأ نك وحاول أن يبتسم.

- ماذا عن سجناء جون؟ هل جاءت دورية الولاية؟

كتب نك: «لا. هوجان مريض بشدة. أفعل ما أستطيع. يريدني الآخرون أن أطلق سراحهما قبل أن ينقل هوجان العدوى إليهما».

هتفت في وهن: «لا تطلق سراحهما! أتمنى ألا تفكر في الأمر».

كتب نك: «لا»، ثم أضاف بعد لحظات: «يجب أن تعودي إلى الفراش. أنت في حاجة إلى الراحة».

ابتسمت له. رأى نك انتفاخات تحت فكها عندما حركت رأسها، وتساءل في قلق أكانت قد عبرت مرحلة الخطر حقًا.

- نعم، سأخلد إلى النوم. يبدو لي أن النوم وچون ميت فعل غريب حقًا.. بالكاد أصدق أنه رحل، أنت تعرف.. أظن أتعثر في الفكرة كأنها شيء نسيته أن أزيحه من طريقي.

اعتصر كفها في كفه، فابتسمت في وهن وأضافت: «ربما في الحياة ما أحيأ من أجله بعد. هل جلبت لسجنائك عشاءهم يا نك؟».

هز نك رأسه نفيًا.

- يجب أن تفعل. لماذا لا تأخذ سيارة جون؟

كتب نك: «لا أستطيع القيادة. لكنني أشكر. سأسير إلى استراحة الشاحنات. ليست بعيدة. سأطمئن عليك في الصباح لو أنك لا تمانعين».

- لا بأس بهذا.

قام وأشار إلى الكوب، فوعده قائلة: «سأشرب كل قطرة منه».

همَّ بالاتجاه نحو الباب لولا شعر بلمسة مترددة على ذراعه.

- جون...

ترددت هنيهة قبل أن تكمل: «أتمنى لو أنهم.. نقلوه إلى مدافن كُرتس. هذا هو المكان الذي يُدفن فيه أهله وأهلي. هل تعتقد أنهم نقلوه إلى هناك؟».

أوماً نك. سالت الدموع على خديها وبدأت تنتحب مرة أخرى.



عندما رحل عنها تلك الليلة، اتجه مباشرة إلى استراحة الشاحنات، فوجد لافتة (مغلق) معوجة معلقة على باب المطعم. دار حول المبنى إلى الباب الخلفي فوجده مغلقًا والمكان مظلمًا. لم يجب أحد طرقاته. شعر أنه لو اقتحم المكان في هذه الظروف لن يلومه أحد، وفي صندوق المال في مكتب الشريف ما يكفي لدفع ما سيفسده.

كسر زجاج النافذة فوق قفل المطعم ودخل. المكان مخيف حتى بعدما أضاء أنواره. جهاز تشغيل الموسيقى صامت مرعب، ولا أحد جوار منضدة اللعب أو ألعاب الفيديو. الكبائن خاوية وكذلك المقاعد، والمشاة مغلقة الغطاء.

ذهب نك إلى المطبخ وطها بعض البرجر على موقد غاز ووضعه في كيس، وأضاف علبة حليب ونصف فطيرة تفاح وجدها تحت الغطاء على الكاونتر. عاد بعد ذلك إلى الحبس بعدما ترك رسالة في المطعم توضح ما فعل وسببه. مات فينس هوجان. وجده ممدداً على أرضية الزنزانة، حوله مكعبات ثلج ذائبة ومناشف مبتلة. كان قد خدش عنقه بقوة كأنه قاوم خائفاً خفياً. أطراف أظفاره دامية، يحط الذباب على جسده ويدور حوله. عنقه مسود متورم كأنه بالون نفخه طفل إلى حد الانفجار.

سأله مايك تشايلدريس: «هل ستطلق سراحنا الآن؟ لقد مات أيها الأخرس
الماجن. هل ارتحت الآن؟ هل حصلت على ثأرك؟ لقد أصيب بالعدوى أيضًا». وأشار إلى بيلي وارنر الذي بدا مرتعبًا، وبقع حمراء تغطي رقبته وخديه.
كُم قميصه متصلب بالمخاط من كثرة ما كان يمسح به أنفه.

هتف في هياج: «هذا كذب! كذب! كذب لعين!».

ثم بدأ يعطس فجأة، وينحني من قوة العطس، فينشر رذاذ اللعاب والبلغم الكثيف.

هتف مايك: «هل ترى؟ هه؟ هل أنت سعيد الآن أيها الأخرس العبيط العاهر؟ أخرجني! احتفظ به لو أردت، لكن اتركني. هذا قتل عمد. قتل بدم بارد!..»

هز نك رأسه، فاهتاج مايك أكثر، وراح يرمي نفسه على القضبان، ويضربها بوجهه، ويُدْمِي مفاصل يديه. حذق إلى نك بعينين جاحظتين فيما يضرب رأسه بالقضبان مرارًا. انتظر نك حتى تعب، ثم دفع له الطعام من أسفل باب الزنزانة بعصا المكنسة. نظر إليه بيلي وارنر مُخَذَّرًا للحظات، ثم بدأ يأكل.

قذف مايك زجاجة اللبن نحو القضبان، فتهشمت وتناثر السائل الأبيض في كل مكان. رمى قطعتي البرجر خاصته إلى حائط الزنزانة المغطى برسوم الجرافيتي. التصقت واحدة منهما بالمُسْطَرْدَة والكاتشب، وزينت الجدار بما يشبه لوحات چاكسن بولوك. قفز فوق قطعة الفطير حتى سحقها، وانتشرت قطع التفاح في كل مكان، وانشرح الطبق البلاستيكي الأبيض.

زعق: «أنا مُضْرِب عن الطعام! مُضْرِب عن الطعام اللعين! لن أكل شيئًا! سأكل خرائي قبل أن أفكر في أكل أي شيء تقدمه لي أيها الأسم المعتوه! سوف....»

التفت نك بعيدًا عنه، فساد الصمتُ عقله. عاد إلى المكتب ولا يعرف ماذا سيفعل، يضربه الخوف. لو أنه يستطيع أن يقود سيارة لنقلهما بنفسه إلى كامدين، لكنه لا يستطيع. ثم ماذا عن فينس؟ لا يمكن أن يتركه ممددًا هنا يجذب الذباب.

في المكتب بابان، باب خزانة الملابس، والآخر يؤدي إلى الدّرج. نزله نك ليكتشف أنه يقود إلى قبو وغرفة تخزين. درجة الحرارة منخفضة بالأسفل. ستؤدي الغرض ولو مؤقتًا.

صعد مرة أخرى. مايك جالس يلتقط قطع التفاح من الأرض وينظفها ثم يأكلها. لم ينظر إلى نك.

أحكم نك ذراعيه حول الجثة وحاول حملها. رائحة عفنة تنبعث منها، تجعل معدته تؤدي عرضًا بهلوانيًا تدور فيه كعجلة ثم تقف على ذراعيها. فينس ثقيل بالنسبة إليه. نظر إلى الجثة في عجز للحظات، وأدرك أن الآخرين يراقبانه في إعجاب مرعب. خمن نك ما يفكرون فيه. كان فينس واحدًا منهم، مجرد ثرثار متذمر، لكنه واحد من رفاقهم أيضًا. لقد مات كفأر في مصيدة، بمرض مروّع نفّخه، ولا يعرفون عنه شيئًا. تساءل نك -ليس للمرة الأولى هذا اليوم- عن موعد إصابته هو الآخر بالرشح والحمى وتورم العنق.

قبض على ذراعِي فِينس هوجان اللحيمتين بقوة، وجَرَّه إلى خارج الزنزانة. مال رأس فِينس نحوه بسبب وزن كتفيه، فبدا كأنه ينظر إلى نك، يطلب منه بلا كلمات ألا يُورجحه أكثر من اللازم.

تطلَّب نقل ما تبقى من الرجل الضخم إلى أسفل قرابة عشر دقائق. أراحه نك على الأرضية الأسمنتية تحت مصباح الفلورسنت، ثم غطَّاه سريعًا بلحاف قديم من الحِفة الجيش، أخذه من فراشه في الزنزانة.

حاول أن ينام بعدها، لكنَّ النوم لم يأتِ إلا في أول النهار الذي تحول فيه يومُ الثالث والعشرين من يونيو إلى يوم الرابع والعشرين؛ أمس. لطالما كانت أحلامه مُتجلية، وأحيانًا تخيفه. تزوره الكوابيس نادرًا، لكنها صارت تراوده مرارًا، وكلها مشؤوم مُنذر، تعطيه انطباعًا أنها تعني شيئًا غير ما تُظهره، وأن العالم الحقيقي تشوُّه فصار مكانًا يُقدِّم فيه الأطفال ضحايا خلف الستائر المُسدلة، وحيث تهدر آلات سوداء غامضة ضخمة في الأقبية المغلقة.

وطبعًا لديه ما يروِّعه بشكل خاص.. أنه قد يستيقظ مصابًا بالمرض.

نام قليلًا، والحلم الذي زاره كان حلمًا رآه من قبل: حقل الذرة، رائحة ما تنمو في الدفء، الشعور بأن شيئًا أو شخصًا خيرًا أمينًا بالقرب. شعور بأنه في وطنه، في بيته. تحوَّل كل هذا إلى رعب بارد حين وعى في حلمه أن شيئًا وسط حقل الذرة يراقبه. خطرت على باله عبارة: «أمي، ابن عِزِّيس دخل خم الدجاج!»، ثم استيقظ على ضوء الصباح الباكر، وقطرات العرق تلمع على جسده.

أعدَّ القهوة ثم ذهب يتفقَّد سجينيه. كان مايك تشايلدريس يبكي، خلفه البرجر ملتصق بغراء مكوناته بالحائط، يجف تدريجًا.

- ارتحت الآن؟ لقد أُصِبتُ أنا أيضًا. أليس هذا ما أردتَه؟ أليس هذا انتقامك؟ اسمعْ، صوتي كأنه قطار شحن لعين يصعد تلاً!

لكنَّ بيلى وارنر هو ما أهمَّ نك الآن. كان راقداً فاقداً الوعي على فراشه، عنقه متورمًا مسودًا، يرتفع صدره ويهبط متهدِّجًا. هُرِعَ عائداً إلى المكتب. نظر إلى الهاتف، وفي خضم نوبة غضب وشعور بالذنب ضربه فأسقطه عن المكتب. ارتطم الهاتف بالأرض معلقًا من سلكه. أغلق موقد القهوة وانطلق إلى منزل بيكر. ضغط زر الجرس إلى ما بدا له ساعة قبل أن تنزل جين بيكر

متدثرةً برداء منزلي. عاد عرق الحمى إلى وجهها، ولم تكن تهلوس، لكنَّ كلماتها بطيئةً وشفيتها متقرحتان.

- ادخل يا نك. ما الأمر؟

كتب: «هوجان مات الليلة الماضية. وارنر يُحتَضَر كما أعتقد. إنه مريض للغاية هل رأيتِ دكتور سومز؟».

هزت رأسها نفياً، وارتعشت بسبب تيار الهواء. عطستُ ثم ترنَّحت. لفَّ نك ذراعه حول كتفها وقادها إلى مقعد، ثم كتب: «هلاً اتصلتِ به نيابة عني؟».

- نعم، طبعاً. هاتِ الهاتف يا نك. يبدو.. يبدو أن حالتي انتكست في الليل.

جلب لها الهاتف واتصلتُ برقم دكتور سومز. بعدما وضعت السماعة على أذنها نصفَ دقيقة، عرف أن لن يجب الاتصال أحد.

جربتِ الاتصال بمنزله، ثم بمنزل ممرضته. لا إجابة.

قالت بعدما أعادت السماعة إلى الهاتف، ثم رفعتها وطلبت رقم 1: «أحاول الاتصال بدورية الولاية لكنَّ يبدو أن خدمة الاتصال بخارج البلدة معطلة بعدما طلبتُ رقم 1 لم أسمع شيئاً سوى تشويش».

ابتسمتُ له ابتسامةً شاحبةً، ثم جرتِ الدموع على وجنتيها بلا سيطرة. أكملت: «يا لك من مسكين يا نك. يا لي من مسكينة.. نحن جميعاً مساكين. أعتقد أنني سألحق بـجون قريباً».

نظر إليها متمنياً لو يستطيع الكلام.

- أعتقد أنني سأرقد قليلاً، هلا ساعدتني؟

ساعدتها في الصعود إلى غرفتها، ثم كتب: «سأعود».

قالت وهي تنجرف إلى نوم عميق: «شكراً لك يا نك. أنت فتى شهيم...». غادر نك المنزل ووقف على الرصيف يتساءل عما عليه فعله. لو أنه يستطيع قيادة السيارات فلربما فعل شيئاً، لكن...

لمح دراجة طفل عند مدخل بيت خلال الشارع. ذهب إليها. نظر إلى البيت ذي الستائر المسدلة الذي يشبه بيوت كوابيسه، ثم طرق بابه. لم يجبه أحد رغم أنه طرق أكثر من مرة.

عاد إلى الدراجة. كانت صغيرة، لكنها ليست أصغر مما يمكنه ركوبه، ما لم يمانع في أن تمس ركبتاه مقودها. سيبدو سخيًا طبعًا، لكنه لا يظن أن أحدًا تبقى في شويو ليراه.. وحتى لو رآه أحد، فلن يكون في مزاج ملائم للسخرية.

ركب الدراجة وراح يُبدّل على الطريق الرئيسي. مر بالحبس ثم بشرق طريق 63، حيث رأى چو راكمان رجال الجيش المتنكرين في هيئة عمال طرق. لو أنهم هناك بعد، ولو أنهم حقًا جنود، سيطلب منهم نك أن يعتنوا ببيلي وارنر ومايك تشايلدريس لو أن بيلي ظل حيًا. مرضى شويو مسؤوليتهم لو أنهم يعزلونها.

احتاج الطريق إلى ساعة تبديل متواصل. الدراجة تتمايل بجنون على خط منتصف الطريق. رُكبتاه تضربان المقود باستمرار. حالما وصل إلى هناك حتى تبين أن الجنود أو عمال الطرق أو أيًا كانوا غير موجودين، لكنه وجد بضع آلات حفر، والطريق محفورًا لكن يمكن عبوره إن لم تكن تهتم لسلامة إيايات السيارة.

لمح بجانب عينه حركة، وفي اللحظة نفسها هبّت نسمة صيفية، لكنها كانت كافية لنقل رائحة المرض والتعفن إلى أنفه. الحركة كانت حركة سحابة ذباب لا تتوقف عن التمايل. مشى إلى جوار الدراجة نحو الساتر الرملي على جانب الطريق، فرأى خلفه أربع جثث ذات وجوه وأعناق مسوّدة متورمة. لم يتبين أكانوا جنودًا أم لا، ولم يستطع أن يقترب أكثر. قال لنفسه إن عليه أن يعود إلى الدراجة فلا شيء يخيف هناك. إنهم موتى والموتى لا يؤذون. عاد إلى شويو مذعورًا على ظهر دراجته. على مشارف البلدة تعثرت الدراجة في حجر، فطاربت الأخيرة وسقط هو ضاربًا رأسه بالأرض. ظل ملقى هناك على قارعة الطريق للحظات يرتجف.

في أثناء أول ساعة ونصف من صباح أمس، دق نك الأبواب وقرع الأجراس. لا بُدّ أن أحدهم بخير. هو نفسه بخير، ولا يمكن أن يكون هو الوحيد غير المصاب. لا بُدّ من أحد، رجل، امرأة، ربما مراهق يستطيع القيادة، فيقول أو تقول له: «أوه، هيا لننقلهم إلى كامدين. سنركب السيارة الأسرية».

لم تُجِب طرقاته إلا أقل من عشر مرات، وفي كل مرة يُفتح الباب بمقدار فرجة، يطل من خلالها شخص مريض ينظر إلى نك. يتحرك الوجه متفحصًا

في شرود، ثم يُغلق الباب. لو أن نك يتحدث لطلب منهم أن يقودوا سيارة ما داموا قادرين على المشي، ولأخبرهم أنهم لو نقلوا سجناءه إلى كامدين سينجون بأنفسهم وسيُنقلون إلى المستشفى ويتحسنون، لكنه لا يستطيع الكلام.

سأله البعض أكان رأى دكتور سومز. واحد ممن قابلهم فتح باب بيته ومزرعته عن آخره، وخرج بسرواله الداخلي مندفعاً نحو نك يريد خنقه في أثناء نوبة هلوسة. قال: «عليّ أن أفعل ما كان عليّ فعله بك في هيوستون»، وبدأ أنه يحسب نك شخصاً آخر اسمه چينز. سار حثيثاً خلف نك كأنه زومبي من أفلام الدرجة الثالثة. خُنا فخذه متورمان، سرواله الداخلي يبدو كأنه منتفخ ببطيختين. انهار أخيراً وهوى على الأرض. راح نك ينظر إليه في زعر وقلبه يدق بسرعة وهو واقف في الشارع. لَوَّح الرجل بقبضتيه في ضعف، ثم زحف عائداً إلى الداخل ولم يكثرث لغلق الباب.

أغلب المنازل صامئة غامضة، فلم يرَ سبباً يدفعه إلى الاستمرار في البحث. يُخَيِّم عليه إحساس مرعب أنه يحلم، وعجَزَ عن صرف فكرة أنه الآن يدق أبواب قبور. يدق ليوقط الموتى. عاجلاً أو آجلاً سيجيبونه. لم يساعده كثيراً أن يخبر نفسه أن أغلب البيوت خالية، وأن سكانها فروا إلى كامدين أو إلدورادو أو تكساركانا.

عاد إلى بيت آل بيكر. كانت چين بيكر نائمة بعمق وحرارتها منخفضة، لكنه لم يتفائل هذه المرة.

انتصفتِ الظهيرة. عاد نك إلى استراحة الشاحنات وهو يشعر بأرق ليلته يؤثر فيه. جسده يؤلمه من سقطته عن الدراجة. مسدس بيكر يضرب جانبه. سخَنَ علبتي حَساء في مطعم الاستراحة ووضعهما في وعاء حراري. بدا له اللبن في البراد سليماً، فأخذ زجاجة منه أيضاً.

مات بيلي وارنر، وعندما رأى مايك نك ضحك بهستيرية وهو يشير بإصبعه، ثم قال: «سقط اثنان وتبقى واحد! سقط اثنان وتبقى واحد! أنت تتأثر منا! أليس كذلك؟ أليس كذلك؟».

دفع نك وعاء الحَساء خلال فرجة الباب بعصا المكنسة، ثم زجاجة الحليب. بدأ مايك في شرب الحَساء مباشرة من الوعاء الحراري برشقات قصيرة. أخذ نك وعاءه وجلس في الرواق. سينقل بيلي إلى أسفل، لكن بعدما يتناول غداءه. كان جائعاً. نظر إلى مايك مفكراً وهو يشرب حَساءه.

سأل مايك: «تتساءل عن حالي؟».

أوماً نك.

- كما تركتني هذا الصباح. لا بدُّ أنني تمخطُ رطلَ مخاط. قالت أُمِّي إنك إن تمخطت على هذا النحو فأنت تتحسن. ربما أُصِبتُ إصابةً بسيطةً، أليس كذلك؟ هل تعتقد أن هذا ما حدث؟

هز نك كتفيه. كل شيء ممكن.

- أنا قوي كنسر نحاسي. أعتقد أنني سأشفى. اسمع يا رجل. دعني أخرج. أرجوك. أنا أرجوك الآن!

فكر نك في الأمر.

- اللعنة، أنت من يملك السلاح. لا أريد منك شيئاً على أي حال. أريد فقط أن أخرج من هذه البلدة. أريد أن أطمئن على زوجتي أولاً...

أشار نك إلى يد مايك اليسرى العارية من أي خواتم زواج.

- نعم، نحن منفصلان، لكنها ما زالت في البلدة قرب طريق ريديج. أودُّ أن أطمئن عليها. ما قولك يا رجل؟

بكى مايك مضيئاً: «امنحني فرصة. لا تُبقني حبيسَ فخ الفئران هذا».

وقف نك ببطء، وخرج إلى المكتب. فتح الدرج الذي يحتفظ فيه بالمفاتيح. منطّق الرجل صلب؛ لا يوجد ما يجعله يظن أن أحداً سيأتي ويأخذ السجين ويخرجه من ورطته. حمل المفاتيح وعاد. رفع المفتاح الكبير الذي أراه له جون بيكر، ذلك الذي يحمل علامةً بيضاء، ثم ألقاه إلى مايك تشايلدرس من خلال القضبان.

غمغم مايك: «شكراً. أوه، أشكرك. آسف لضربك. أقسم بالرب، كانت هذه فكرة راي. حاولتُ أنا وقينس منعه لكنه كان سكراناً، وجُن....».

دسَّ المفتاح في القفل. تراجع نك إلى الخلف واضعاً يده على مقبض المسدس.

فُتِحَ باب الزنزانة، وخرج مايك وهو يقول: «أنا أعني هذا الاعتذار. لا أريد سوى الخروج من هذه البلدة».

عَبَرَ من جوار مايك وابتسامة ترتعش على شفتيه، ثم مرَّ من الباب بين الزنازين والمكتب. تبعه نك ليرى فقط باب الخروج ينغلق من خلفه.

خرج نك. مايك واقف على الرصيف، مستندًا إلى عَدَاد مَوْقف السيارات، ينظر إلى الشارع الخالي.

همس وهو يدير وجهه نحو نك: «ربي. كل هذا؟ كل هذا؟!».

أومأ نك ويده على باب المقبض بعد. بدأ مايك في قول شيء، لكن انخرط في نوبة سعال قوي. غطى فمه ثم مسح شفتيه وهو يقول: «لا بُدَّ أَنْ أخرج من هنا. أنت حكيم وستفعل الشيء ذاته أيها الأخرس. يبدو هذا كوباء الموت الأسود أو شيء مثل هذا».

هز نك كتفيه، وابتعد مايك ماشيًا أسرع فأسرع حتى كاد يعدو. راقبه نك حتى اختفى عن نظره، ثم عاد إلى الداخل، ولم يرَ مايك مرة أخرى. شعر بخفة قلبه. تمدد على فراشه، ونام على الفور.

نام طَوَال وقت ما بعد الظهيرة بلا غطاء، ثم استيقظ متعرقًا لكنه شعر بأنه أفضل. العاصفة الرعدية تضرب التلال -لا يستطيع سماع الهزيم، لكنه يرى البرق يطعن المرتفعات- ويبدو أنها لن تصل إلى شويو الليلة.

قبل الغروب مشى إلى متجر بولي للراديو والتلفاز، واقتحمه آسِفًا. ترك رسالة إلى جوار ماكينة الدفع، وعاد بتلفاز سوني إلى المكتب. شغله وبحث بين القنوات. تبث محطة CBS عبارة (مشكلة في البث. تابعونا). وتذيع محطة ABC فيلمًا، وتعيد محطة NBC عرض حلقة من مسلسل عن فتاة أنيقة تحاول أن تعمل ميكانيكية سيارات. أما محطة تكساركانا -المختصة بإذاعة الأفلام القديمة والمباريات وبرامج چاك قان إمب الدينية المسلية- فخارج الخدمة.

أغلق نك التلفاز، ثم قصد استراحة الشاحنات ليجلب ما يكفي اثنين من حَساء وشطائر. رأى أن شيئًا غريبًا في استمرار مصابيح الشارع مضاءة على هذا النحو، تغرق اتجاهي الشارع الرئيسي في برك الضوء الأبيض. وضع الطعام في سَلَّة، وفي الطريق إلى منزل چين بيكر رأى ثلاثة كلاب أو أربعة يتضورون جوعًا يقتربون منه على هيئة قطيع وقد جذبتهم رائحة ما في السلة. أَسْتَلَّ نك مسدسه، لكن لم يطاوعه قلبه على استخدامه حتى همَّ أحد الكلاب بعَضُّه. وقتها فقط ضغط الزناد وانطلقت الرصاصة على بعد خمس أقدام منه، احتكَّت بالرصيف الأسمنتي مخلَّفة خطأ فضيًّا من الرصاص. لم

يسمَعُ صوت الإِطلاق، لكنه شعر بذبذبته. تفرَّقت الكلاب وانطلقت تعدوا في كل صوب.

كانت چين نائمةً. جبهتها وخداها ساخنان، تنفَسها بطيء ثقيل. بدت مُنهكةً تمامًا بالنسبة إلى نِك. بلل منشفة بماء بارد ومسح وجهها. ترك نصيبها من الطعام على الكومود، ثم نزل إلى غرفة المعيشة وشغّل تلفازَ آل بيكر الكبير ذا الصندوق الخشبي.

لم يعدْ إرسال قناة CBS، وأكملتْ محطة NBC بثها المعتاد، لكنَّ صورة ABC ظلَّت مشوّشة، تتحول إلى خدوش بيضاء أحيانًا، ثم تعود فجأة. تذيع قناة ABC في العادة برامجَ ترويجية قديمة كأنها منفصلة عن شبكة البث العام. لا يهم. نِك ينتظر الأخبار.

وَجَم عندما شاهد أخبارَ (وباء الإنفلونزا الفائقة) كما يطلقون عليه الآن يتصدر العناوين الأخرى، لكنَّ مقدمي الأخبار أكدا أنه تحت السيطرة. طوّر مركز أتلانتا للسيطرة على الأوبئة لقاحًا، يمكن للمرء الحصول عليه من خلال الأطباء مع بداية الأسبوع القادم. انتشر الوباء بقوة في نيويورك، وسان فرانسيسكو، ولوس أنجلوس، ولندن، لكنه مُسيطر عليه. أضاف مقدم الأخبار أن التجمعات العاملة حُظرت مؤقتًا.

فكر نِك في أن شويو بالكامل قد حُظرت. مَنْ يخدعون؟

أكمل مقدم الأخبار تقريره الذي يصرح بمنع السفر من أغلب المدن الكبرى وإليها، لكن سيُسمح بالسفر مرة أخرى مع انتشار اللقاح. بعدها انتقلت الأخبار إلى تحطم طائرة في متشيجن، واعتراض بعض أعضاء الكونجرس على آخر ما أقرّته المحكمة العليا.

أغلق نِك التلفاز، وخرج إلى شرفة آل بيكر الخارجية، وجلس على المقعد الهزاز هناك. حركة تأرجح المقعد إلى الأمام والخلف مُهدئة، خاصة وهو لا يسمع الصرير الصديء، إذ ظلّ چون بيكر ينسى تزييت مفصّلاته. راقب اليراعات تحوُّم في غير انتظام وسط الليل. يومض الضوء خافتًا داخل السحب الرعدية في الأفق، كأنها يراعات من نوع خاص. يراعات ضخمة في حجم الديناصورات.

ولأن التلفاز وسيط مرئي بالكامل بالنسبة إلى نِك، فقد لاحظ شيئًا لن يلاحظه سواه في الغالب. لاحظ أنهم لم يذيعوا أيّ مواد فيلمية. ولا حتى

لقطات من مباريات البيسبول. ربما لأنهم لم يقيموا أي مباريات على الإطلاق. عرضوا أيضًا تقريرَ حالة جو منقوص، بلا درجات حرارة عظمى أو صغرى.. وكان مكتب الأرصاد الجوية الأمريكية مغلق.

بدأ كلا مقدمي الأخبار منزعًا قليلًا. واحد منهما مصاب بالبرد، سعل مرة في الميكروفون واعتذر. ظل كلاهما ينظران إلى يمين الكاميرا ويسارها كأن أحدهما معهما في الاستوديو ليتأكد من أنهما سيقولان ما عليهما قوله. كان هذا في ليلة الرابع والعشرين من يونيو. نام متصلبًا على مقعد آل بيكر في الشرفة الأمامية، وزارته أحلام مروعة.

والآن، وفي ظهيرة اليوم التالي، وجب عليه توديع السيدة العزيزة جين بيكر.. ولم يستطع حتى أن ينطق بكلمة مواساة. كانت تجذب يده، فنظر إلى وجهها الشاحب المتغصن. بشرتها جفت وتبخر عرقها. إنها ترحل، وهو يعرف هذا المظهر جيدًا. - نيك...

قالتها وابتسمت. أمسكت كفه بكلتا كفيها وأكملت: «أردتُ أن أشكرك مرة أخرى. لا يرغب أحد في أن يموت وحده. أليس كذلك؟».

هزَّ رأسه بعنف، وفهم أنَّه لا يختلف مع عبارتها، إنما مع معناها الخفي. - نعم، أنا أموت. لكن لا تتضايق. في الخزانة فستان يا نيك ستعرفه لأنه...

قاطعتها نوبة سعال، وعندما سيطرت عليها أضافت: «...لأنه مزين بالدانتيل. إنه الفستان نفسه الذي ارتديته ونحن مسافران لقضاء شهر العسل. ما زال يلائمني.. أو لا.. أعتقد أنه يكون واسعًا عليَّ الآن بعض الشيء، فقد فقدت وزنًا، لكن لا يهم حقًا. لطالما أحببتُ هذا الفستان. ذهبتُ أنا وچون إلى بحيرة بونتشارلترين. كانا أسعد أسبوعين في حياتي. أسعدني چون دائمًا. هل ستتذكر الفستان يا نيك؟ أريد أن أدفن وأنا ارتديه. لن تخجل من أن.. من أن تبديل ملابسني، أليس كذلك؟».

ابتلع ريقه وهزَّ رأسه وهو ينظر إلى الغطاء. لا بُدَّ أنها استشعرت خليط حزنه وحرجه لأنها لم تذكر أمرَ الفستان مرة أخرى. تحدثت بدلًا عن ذلك في أمور أخرى أخف وطأة. حكَّت عن فوزها في مسابقة الخطابة في المدرسة العليا، وسافرت إلى أركانساس لحضور النهائيات، وكيف سقط سروالها الداخلي من حول خصرها، وتهذَّل فوق قدميها بعدما وصلت إلى ذروة قراءتها

من رواية شيرلي چاكسن (العاشق الشيطاني). حكّت أيضًا عن شقيقتها التي سافرت إلى فييتنام ضمن إرسالية الكنيسة المعمدانية، وعادت بثلاثة أطفال مُتبّنين، واستعادت ذكرى يوم تخييمها مع چون منذ ثلاثة أعوام، عندما أرغمهما حيوان موز على اعتلاء شجرة طوال الليل هربًا منه.

قالت ناعسة: «تضاجعنا بالأعلى كمراهقين في شرفة. رباه، كنا في حالة.. عندما نزلنا. كنا.. متحابين.. عاشقين.. الحب هو ما يحرك العالم. أنا مؤمنة بهذا. الحب هو الشيء الوحيد الذي يسمح للرجال والنساء بالصمود أمام عالم تسعى جاذبيته إلى أن تحني ظهورهم.. أن تجعلهم يزحفون على بطونهم.. كنا.. كنا عاشقين...».

غابت عن الوعي، ونامت حتى أيقظها نور الشمس أو صوت صرير الأرضية. استفاقت محمومةً تهلوس وتصرخ بصوت مختنق بالبلغم: «چون! أوه يا چون! لا بدّ أن تساعدني...».

ضاعت كلماتها وسط سعال قوي، جعلته لا يستطيع فهم ما تقول لكنه فهمه جيدًا. رأى قطرتي دم تنزفان من أنفها. هوت نحو الوسادة وتأرجح رأسها خلفًا وأمامًا مرةً واثنين وثلاثًا حتى سكنت.

وضع نك يده على جانب عنقها، ثم على صدرها. لا شيء. لقد ماتت. تكّثت الساعة على الكومود باستمرار، لا يسمعها كلاهما. دسّ رأسه بين ركبتيه دقيقةً، بكى في صمته المعتاد. قال له رودي في مرةٍ إن كل ما يستطيع فعله هو تسريب الدموع الصامت.

عرف ما يلي ذلك، ولم يرغب في فعله. صرخ جزءً من نفسه أن هذا ليس عدلًا. ليست مسؤوليته. لكن لما كان لا أحد سواه هنا -وربما لا أحد سواه في مساحة أميال حوله- عليه أن يتحمل المسؤولية. إما هذا، وإما أن يتركها لتتعفن مكانها، وهو أمر لا يقبله. لقد أحسنتُ إليه وانتمنت. قرر أن يبدأ على الفور. كلما جلس أكثر لا يفعل شيئًا ثقّلت عليه المهمة. هو يعرف مكان دار جنازات كُرتس.. على بعد ثلاثة مربعات سكنية جنوبًا، ومربع واحد إلى الغرب. سيكون المكان هناك حارًا.

أجبر نفسه على النهوض والتوجه إلى الخزانة، وهو يأمل أن يكون فستان شهر العسل الأبيض مجرد هלוسة، لكنه وجده، وقد اصفرّ قليلًا بمرور السنوات، لكنه تعرّفه من الدانتيل. أنزله وفرده على المقعد عند طرف

الفراش. نظر إلى الفستان، نظر إلى المرأة، ثم فكَّر في أنه سيكون واسعاً للغاية عليها. المرض كان أقسى عليها مما ظنَّت.

سار نحوها مرغمًا، وبدأ يخلع عنها رداء نومها. عندما تعرَّت أمامه زال عنه الرعب، وحلَّت محله الشفقة التي آلمته وأبكته مرة أخرى. غسل جسدها ثم ألْبَسَهَا الفستان، وحملها بعد ذلك بين ذراعيه إلى دار الجنازات مرتديةً الدانتيل. أوه، الدانتيل. كان كعريس يحمل عروسه المحبوبة، يخطو بها خلال عتبات لا نهائية.

الفصل السادس والعشرون

عكفت أخوية جامعية، لا تتبع في الغالب حركة طلبة من أجل مجتمع ديمقراطي، ولا شباب الماويّة⁽¹⁾، على ماكينة طباعة يدوية خلال ليلتي 25 - 26 يوليو. في الصباح أُلصقت المنشورات التي طبعوها في كل أرجاء جامعة كِنْتَاكِي.

رجاء الانتباه!

إنهم يكذبون عليكم! الحكومة تكذب عليكم! الصّحافة المدعومة من ميليشيا الخنازير تكذب عليكم! إدارة هذه الجامعة تكذب عليكم، وكذلك أطباء المستشفى تحت إمره الإدارة!

- 1 - لا وجود للقاح الإنفلونزا الفائقة.
- 2 - الإنفلونزا الفائقة ليست مرضًا خطيرًا، بل مميتًا.
- 3 - احتمالية الإصابة أكثر من 75%.
- 4 - الإنفلونزا الفائقة مرض صنّعه قوات ميليشيا الخنازير، وتسبّب من خلال الخطأ.
- 5 - تنتوي ميليشيا الخنازير الأمريكية تغطية جريمتهم بأي وسيلة حتى لو مات جراء ذلك 75% من الناس.

(1) حركة تتبع فكر ماو تسي تونج الذي تطور من الماركسية اللينينية لتحقيق ثورة اشتراكية في المجتمع الزراعي ما قبل الصناعي في الصين (المترجمة)

إلى كل الثوريين. مبارك! آن وقت كفاحنا! اتحدوا،
ناضلوا، انتصروا!

الاجتماع في صالة الرياضة. الساعة 7:00 مساءً!
ناضِل! ناضِل! ناضِل! ناضِل!

ما حدث في تليفزيون WBZ في بوسطن خطط له ثلاثة مقدمي أخبار وستة فنيين قبل ليلة، كلهم يعلمون في استوديو 6. اعتاد خمسة منهم لعب البوكر معًا، ستة من التسعة مرضوا فعلاً. شعروا أن لا شيء لديهم يخشون خسارته. جمعوا ستة مسدسات صغيرة، أدخلهم مقدم أخبار الصباح بوب بالمر مخفيين في حقيبته المعتادة.

أحيط مبنى إذاعة الأخبار بمن زعموا أنهم من الحرس الوطني، لكن بالمر أخبر جورج ديكرسون في الليلة السابقة أنه لم ير حرسًا أعمارهم تفوق الخمسين من قبل.

في تمام التاسعة ودقيقة صباحًا، وبعدما بدأ بالمر في قراءة ما أعطوه له منذ عشر دقائق، حدث الانقلاب، واستحوذ التسعة على محطة التلفاز. باغتوا الجنود الذين لم يتوقعوا أبدًا انقلابًا من مدنيين رخوين يذيعون الأخبار، خاصة وأنهم كانوا غير مسلحين. انضم آخرون من المحطة إلى الثورة الصغيرة، فأجلوا الطابق السادس سريعًا وأغلقوا الأبواب. استدعيت المصاعد إلى الطابق السادس قبل أن يتبين الجنود ما يحدث. حاول ثلاثة الصعود خلال سلم الحريق الشرقي، فأطلق عليهم عامل النظافة تشارلز يوركن الرصاص من قربينة جيش معه، فأصاب رؤوسهم. كانت هذه هي الرصاصات الوحيدة التي أطلقت.

مشاهدو القناة رأوا بوب بالمر يقطع قراءة الأخبار، سمعوه يقول: «حسنًا، الآن!»، ثم صوت شجار خلف الكاميرا. عندما توقف الصوت، رأى آلاف المشاهدين بالمر يرفع بندقيته.

صاح أحدهم: «لقد نلنا منهم يا بوب! نلنا من الأوغاد! نلنا منهم جميعًا!». قال بالمر: «حسنًا، جيد»، ثم واجه الكاميرا مرة أخرى وأكمل: «السادة مواطنو بوسطن، والأمريكيون في نطاق بثنا. وقع أمر مهم للغاية في هذا الاستوديو، وأنا مسرور أنه حدث هنا أولاً، في بوسطن؛ مهد الاستقلال

الأمريكي. كانت هذه المحطة تحت سيطرة الحرس الوطني وحراسه طوال الأيام السبعة الماضية. رجال يرتدون زيًا موحدًا باللون الخاكي، يقفون خلف الكاميرات وفي غرف التحكم مسلحين. هل زُيِّتِ الأخبار؟ أقول لكم في حزن إن هذا ما حدث. لقد أُجبرت على القراءة من تقارير فُرِضت عليّ بسلاح موجه إلى رأسي. ما كنت أقرأه له علاقة بما يطلقون عليه وباء الإنفلونزا الفائقة، وكل ما ورد فيه باطل».

بدأت أضواء لوحة التحكم تومض، وخلال خمس عشرة ثانية أضيئت المصابيح كافة.

- أتلّف كل ما صورته مصورونا من أفلام، واختفت تقارير مراسلينا. مع ذلك، ما زالت معنا أفلام أيها السيدات والسادة، معنا هنا شهود عيان على أكبر مصايب البلاد على الإطلاق.. وأنا أعني جيدًا وقع كلماتي ومعناها. سنعرض عليكم بعض الأفلام الآن. كلها مصوّرة عشوائيًا، وبعضها منخفض الجودة. لكن ها نحن قد حررنا محطتنا، وعلينا أن نبثّ لكم الحقيقة.

نظر إلى أعلى وأخرج من جيبه منديلًا، وتمحّط. من لديه تلفاز ملون تبين أنه محموم محمر الوجه.

- لو كنتَ مستعدًا يا فريدي، بثّ الأفلام.

اختفى وجه بالمر وحلّت محله لقطات من مستشفى بوسطن العام. العنابر مكتظة. المرضى ممددون في الممرات. الأروقة ممتلئة بالمرضات المريضات بدورهم، يهرعون هنا وهناك، بعضهم يبكي في هيستريا، وبعضهم على شفا الانهيار.

لقطات للحرس في الشوارع يحملون السلاح. لقطات لمبانٍ اقتُحمت. ظهر بوب بالمرز مرة أخرى وقال: «لو أن لكم أطفالًا أيها السادة والسيدات، أنصحكم بأن تطلبوا منهم مغادرة الغرفة».

ظهرت على الشاشة لقطات مُشوَّشة لشاحنة تتراجع إلى الخلف على رصيف ميناء بوسطن، شاحنة جيش لونها زيتوني. بالأسفل زورق بخاري مغطى بالقماش. نزل من الشاحنة جنديان يغطيان وجهيهما بقناع غاز. تراقصت الصورة وتشوّشت، ثم عادت مرة أخرى لتُظهر الجنديين يكشفان الغطاء عن صندوق الشاحنة ثم يقفزان إلى داخله، يُخرجان جثث النساء

والعجائز والأطفال والشرطيين والممرضات، ويلقونهم إلى القارب. خلال لحظة ما في الفيلم، يظهر أن الجنديين يستخدمان مِذْراً يُخرجان بها الجثث من صندوق الشاحنة.

استمر بالمر في البث ساعتين، يقرأ بصوته المبحوح التقارير ويُعلّق على الأفلام والصور، ويحاور أعضاء الفريق. استمر حتى أدرك أحدهم بالأَسفل أنهم لا يحتاجون إلى اقتحام الطابق السادس كي يُوقفوا البث. في الساعة 11:16، أُغلق بث قناة WBZ إلى الأبد باستخدام عشرين رطلاً من المتفجرات. حُكِمَ بالإعدام الفوري على مَنْ في الطابق الثالث بتهمة خيانة حكومة الولايات المتحدة الأمريكية.

(المُطالبة) هي جريدة بلدة دُبرين الصغيرة في غرب فيرجينيا، تصدر أسبوعياً، أصدرها محام متقاعد اسمه جيمس د. هوجليس، وراجت الجريدة لأن هوجليس كان مدافعاً قوياً عن حقوق عمال المناجم خلال حقبة الأربعينيات والخمسينيات، ولأن محرريه مناهضون للمؤسسات الحكومية، تمتلئ أنفسهم بالصواريخ والمتفجرات الموجهة إلى خدع الحكومة على كافة المستويات.

لهوجليس عدد معروف من موزعي الصحف، لكنّ في ذلك الصباح الصيفي الرائق، قرّر أن يوزع بنفسه، بسيارته الكاديلاك موديل 1948. تهمس إطاراتها فوق شوارع دُبرين.. والشوارع يا للأسف خالية تماماً. الصحف مكدسة فوق مقعد الكاديلاك وداخل صندوقها. كان يوماً غير مناسب لإصدار عدد (المُطالبة) الأسبوعي، لكنها لم تكن سوى صفحة واحدة، ذات كتابة كبيرة مؤطرة بالأسود، أعلاها عبارة (عدد خاص)، وهو أول عدد خاص يُصدره هوجليس منذ عام 1980، وقت انفجار منجم ليدبيرد، ومقتل أربعين عاملاً فيه.

عنوان العدد الخاص: قوات الحكومة تحاول إخفاء تفشي الوباء!

تحت: حصرياً لجريدة المُطالبة. بقلم جيمس د. هوجليس.

وتحت ما سبق:

«تُكشّف لكتاب الخبر من مصدر موثوق به أن وباء الإنفلونزا الفائقة (الذي يطلقون عليه أحياناً في غرب فيرجينيا المرض الخنّاق أو مرض العنق الأنثوبي) هو في الحقيقة تحوُّر مميت من فيروس الإنفلونزا العادية صنعتها

الحكومة لأغراض حربية، وبهذا خرقت شروط معاهدة جينيف بخصوص استخدام الأسلحة الفيروسية والكيمياوية، والتي وقّعها ممثلو الولايات المتحدة منذ سبع سنوات. صرّح المصدر، وهو ضابط جيش متمركز في ويلينج، أن الوعود بلقاح قريب محض أكاذيب فاجرة. لن تُطوّر أيُّ لقاحات بعد بحسب المصدر.

أيها المواطنون، إن ما نمرُّ به أكثر من كارثة أو مأساة، بل نهاية كل أمل في حكومتنا. لو أننا فعلنا في أنفسنا شيئاً كهذا حقاً...».

هوجليرس مريض وضعيف للغاية. يبدو أنه استهلك آخر قواه في الكتابة، فخرج ألمه على هيئة كلمات. صدره مليء بالبلغم، والتنفس العادي صار في صعوبة تسلق تل. لكنه ظل يتنقل من بيت إلى آخر، يترك صحفه، ولا يعرف حتى أكان في البيوت سكان، أو أكان سكانها قادرين على الحركة لالتقاط ما ترك.

أخيراً وصل إلى آخر البلدة من جهة الغرب، حيث الفقراء في عششهم ومقصوراتهم ذات الرائحة الخبيثة. ظلت الصحف في صندوق السيارة كما هي، وترك بابه مفتوحاً يُرفرف مع حركة السيارة بين ألواح الغسيل المتناثرة على الطريق. كان يحاول تحاشي التفكير في الصداق المهلك الذي يشعر به، ويجعل نظره مُشوَّشاً مُزدوجاً.

بعدما وصل إلى آخر عشة قرب مفارق البلدة، وجد أن معه بعد قرابة خمسة وعشرين عددًا. قطع الخيط الذي يربطها بسكين جيب قديمة، وترك الريح تبعثرها إلى حيث تستطيع، وهو يفكر في مصدر أخباره؛ الضابط عالي الرتبة ذي العينين الداكنتين المثقلتين، الذي سُرَّح منذ ثلاثة أشهر من مقر سري في كاليفورنيا باسم المشروع الأزرق. ظل الضابط يداعب زناد مسدسه المعلق حول خصره وهو يحكي لهوجليرس، وفكّر هوجليرس في أنه لن يمرَّ وقت طويل حتى يستخدم الرجل مسدسه على نفسه، ما لم يكن قد استخدمه بالفعل.

عاد ليجلس خلف مقود الكاديلاك؛ السيارة الوحيدة التي امتلكها منذ بلغ عامه السابع والعشرين، واكتشف أنه غير قادر على القيادة. لذا مال ناعسًا، منصتًا للصوت المائي القادم من صدره، وشاهد الريح تنثر أوراقه على الطريق حتى علق بعضها بين أغصان الأشجار كفاكهة غريبة.

سمع صوتَ خريرِ جدولٍ دُبرينَ القريب حيث كان يصطاد وهو صبي. لم يعد فيه أسماك الآن طبعًا. لقد تولّت شركات تصنيع الفحم أمره، لكنّ صوت الجدول ما زال مُهدّئًا. أغمض عينيهِ ونام، ثم مات بعد ساعة ونصف.

طُبِعَ عمال المطبعة 26.000 نسخة فقط من العدد الخاص ذي الصفحة الواحدة لجريدة لوس أنجليس تايمز، قبل أن يكتشف الضباط المسؤولون أنهم لا يطبعون منشورًا دعائيًا كما زعموا.

رواية مكتب التحقيق الفيدرالي الرسمية أن ثوارًا متطرفين، تلك الفزاعات القديمة، قد فجّروا مطبعة جريدة لوس أنجليس تايمز وتسببوا في مقتل ثمانية وعشرين عاملًا. لم يُضطر مكتب التحقيق الفيدرالي إلى شرح كيفية إصابة العمال برصاصات في أدمغتهم لو أن المتفجرات ما قتلهم، لكنّ الجثث اختلطت بآلاف أخرى من ضحايا الوباء، ودُفِنَ الجميع في قاع البحر.

مع ذلك، وُزِعَتْ عشرة آلاف نسخة قبل التفجير، وهو عدد كافٍ لتكتب عشرات الصحف الأخرى في عناوينها الرئيسية:

الساحل الغربي في قبضة الوباء.
آلاف يهربون من الإنفلونزا الفتاكة القاتلة.
الحكومة تغطي على الفضيحة.

لوس أنجليس.

زعم عدد من الجنود أنهم من الحرس الوطني، ويساعدون خلال المأساة الجارية، لكن تبين أنهم ضباط جيش مخضرمون، جزء من مهمتهم طمأنة سكان لوس أنجليس المرتعبين وإخبارهم أن الإنفلونزا الفتاكة، المعروفة باسم كابتن تريس بين الشباب، مجرد متحوّر أقوى بعض الشيء من إنفلونزا لندن وهونج كونج.. بيد أن تلك العبارات المُطمئنة خرجت من وراء أقنعة واقية. سيلقي الرئيس خطابًا الليلة في السادسة مساءً، وأشاع سكرتيره الإعلامي أنه سيتحدّث من مكان يبدو

كأنه المكتب البيضاوي، فيما الرئيس مذعور في مكان آخر داخل مخبأ في البيت الأبيض.
تشير نسخ مُسَرَّبة من حُطّة الرئيس إلى أنه (سيصفع مؤخرات) الأمريكيين تأديبًا لهم على ردود أفعالهم المبالغ فيها، ويقارن الذعر الحالي بالذعر الذي تلا إذاعة حلقات أورسون ويليز عن حرب العوالم في بداية الثلاثينيات.

لصحيفة التايمز خمسة أسئلة تود أن يجيب عنها الرئيس في خطبته.

1 - لماذا مُنِعَتِ الصحيفة من نشر أخبار البلطجية في زي الجيش، وفي هذا خرق مباشر لحقها المؤسسي في فعل هذا؟

2 - لماذا تغلق سيارات مصفحة وحاملات جنود الطُرق US5 وUS10 وUS15؟

3 - إن كان هذا (تفشيًا بسيطًا) للإنفلونزا، فلماذا أُعلِنَت الأحكام العرفية في لوس أنجلوس وما حولها؟

4 - إن كان هذا (تفشيًا بسيطًا) للإنفلونزا، فلماذا تُنقل الصنادل البحرية لتلقى في المحيط الهادي؟ وهل تحمل هذه الصنادل ما نخشى أنها تحمله، وما أبلغتنا به مصادرنا؛ جثث ضحايا الوباء؟

5 - أخيرًا، إن كان لقاء ما سيوزّع على الأطباء والمستشفيات في بداية الأسبوع المقبل، فلماذا لا يعرف أي من الأطباء الأربعة وستين الذين تواصلت معهم الجريدة شيئًا عنه أو عن خطط توزيعه؟ لماذا لم يعلن مستشفى واحد عن التطعيم؟ لماذا لم تتلقَّ أيُّ من الصيدليات العشر التي تواصلنا معها منشورات عن اللقاح؟

نطالب الرئيس بإجابة هذه الأسئلة في خطابه، وقبل كل شيء نناشده أن ينهي وجود الجيش في الشارع ومحاولته إخفاء الحقيقة...

في دولوث، مشى رجل يرتدي شورطاً خاكياً وينتعل صندلاً، رائحاً غادياً على امتداد شارع بيدونت. وجهه ملطخ بالرماد، يتدلى من كتفيه لوحين خشبيين، مكتوب على اللوح الأمامي:

آن أوان الزوال.
سيعود يسوع المسيح قريباً.
استعدّوا لمقابلة ربكم!

ومكتوب على الخلفي:

انظر، ها هي قلوب الخاطئين تنفطر.
سُيذِلُّ العزيز، وَيُعَزُّ الذليل.
اقترب زمن الشيطان.
الويل.. يا صهيون.

التفَّ حوله أربعة شباب يرتدون سترات الدراجين، كلهم يعانون السعال وسيلان الأنف، وضربوه بلوحيه الخشبيين حتى فقد الوعي، ثم هربوا وواحد منهم يصيح في هستيريا: «لا تخف الناس! لا تخف الناس أيها المسخ!».

برنامج (تكلم) الصباحي هو أكثر برامج سبرينجفيلد مشاهدة، يقدمه راي فلاورز. لديه في الاستوديو ستة خطوط هاتف يتلقى عليها مكالمات المستمعين. في صباح يوم 26 يونيو، كان أول من ظهر في العمل ممن يعملون في محطة KLF. لقد فطن إلى ما يحدث في العالم الخارجي وأفزعه هذا. لم يكن من جنود في سبرينجفيلد، لكنه سمع أنهم استدعوا الحرس

الوطني إلى كانساس وسانت لويس كي «يوقفوا انتشار الوباء» و«يمنعوا النهب». لا يشعر راي فلاورز بأي أعراض. نظر مفكرًا إلى أجهزته؛ هواتف، جهاز تأخير الإرسال الذي يعالج المكالمات التي تخرج عن حدود اللياقة، وأكوام من شرائط الكاسيت الإعلانية (إن كان يفيض مرحاضك، ولا تعرف ما يجري، اتصل برجلك ذي الخرطوم المعدني، اتصل برجل التسليك!) وطبعا الميكروفون.

أشعل سيجارة، واتجه إلى باب الاستوديو وأغلقه، ثم أغلق على نفسه باب الغرفة العازلة للصوت. أغلق الموسيقى المنبعثة من الكاسيت، وشغل مقدمته الموسيقية الخاصة، ثم جلس خلف الميكروفون.

- مرحبًا جميعًا. أنا راي فلاورز وبرنامجكم (تكلم). أعتقد أنه لا يوجد ما تتصلون بشأنه هذا الصباح سوى شيء واحد، أليس كذلك؟ تطلقون عليه مرض العنق الأنبوبي، أو الإنفلونزا الفائقة، أو كابتن ترييس، بيد أنها مرادفات مختلفة للشيء نفسه. سمعت قصصًا مرعبة عن استيلاء الجيش على كل شيء، وإن كنتم ترغبون في الحديث عن الأمر، فأنا مستعد للإنصات. ولما كنت هنا وحدي هذا الصباح، فسنفعل شيئًا مختلفًا. سأغلق جهاز تأخير الإرسال، وسنسغني عن الإعلانات. لو أن سبرينجفيلد التي ترونها هي ذاتها التي أراها من نافذة المحطة، فلن يرغب أحد في شراء أي شيء.

حسنًا، إن كنتم بخير، فلنستمز. أرقامنا المجانية هي 555-8600 و555-8601. لو وجدتم الخط مشغولًا، فاصبروا قليلًا. تذكروا، أنا أقدم البرنامج وحدي تمامًا.

في كارثاج -على بعد خمسين ميلًا من سبرينجفيلد- وَحْدَة جيش، فيها عشرون جنديًا مُخَوَّلِينَ باتخاذ اللازم مع راي فلاورز. رفض رجلان منهم الأوامر، فقتلوهما في التو.

في أثناء الوقت الذي احتاجوا إليه للوصول إلى سبرينجفيلد، تلقى راي فلاورز مكالمةً من طبيب قال إن الناس يتساقطون موتى كالذباب، وأن لقاح الحكومة كذبة. قالت ممرضة خلال اتصال آخر إن الجثث في مستشفى مدينة كانساس تُنقل في شاحنات، وأكدت امرأة تخرف أن الجثث تنقل على متن سفن فضائية. ادعى مزارع أن حفارين تابعين للجيش انتهوا من حفر خندق

هائل في حقل قرب الطريق 71 جنوب كانساس. شارك ستة متصلين آخرين بحكاياتهم المشابهة.

سُمِعَ صوت طرقات قوية على باب الاستوديو الخارجي، وصاح صوت مكتوم: «افتح الباب! افتح باسم الولايات المتحدة!».

نظر راي إلى ساعة. الساعة الثانية عشرة إلا ربع. قال: «حسنًا. يبدو أن قوات البحرية قد وصلت. لكننا سنستمر في استقبال المكالمات، أليس...».

علا صوت طلقات بندقية آلية، وتدحرج مقبض الباب على البساط، وتصاعد الدخان من الثقب. دُفِعَ الباب من الخارج، ودخل نصف ستة جنود يثبتون على وجوههم أقنعة تنفس، ومعهم عتاد عسكري كامل.

قال راي: «اقتحم المكتب الخارجي للتو عدد من الجنود. مسلحين.. يبدو أنهم مستعدون لبدء عملية تصفية. بخلاف أقنعة التنفس، على وجوههم...».

هتف رجل ضخم بشارة رقيب على كُم زِيَّه: «أغلق البث!».

ظل يحدق إليه من وراء واجهة غرفة البث الزجاجية ويشير له بطرف بندقيته.

هتف راي هو الآخر: «لا!». شعر ببرد شديد، ولاحظ ارتعاش يده وهو ينفذ سيجارته في المنفضة. أكمل: «هذه المحطة مرخصة، وأنا...».

- أنا أبطل رخصتك اللعينة! والآن أوقف البث!

كرر راي رفضه، وعاد إلى ميكروفونه قائلاً: «أيها السيدات والسادة، لقد أُمِرْتُ بوقف البث، ورفضت الأمر بشكل لائق على ما أظن. هؤلاء الرجال يتصرفون كالنازيين، لا كجنود أمريكيين. أنا لست...».

هتف الرقيب رافعًا بندقيته: «هذه آخر فرصة».

قال له أحد الجنود عند الباب: «سيدي الرقيب. لا أعتقد أن في استطاعتك...».

- لو قال هذا الرجل شيئاً آخر، أجهزوا عليه.

قال راي فلاورز: «أعتقد أنهم يطلقون عليّ الرصاص».

في اللحظة التالية تهشم زجاج واجهة غرفة البث، فاحتُمى بأجهزة التحكم. تعالى من مكان ما رَجَع صوت راح يعلو ويعلو. أفرغ الرقيب كل ذخيره في أجهزة التحكم فانقطع الصدى، واستمر وميض أضواء الأجهزة.

استدار الرقيب هاتفاً: «حسنًا. أريد أن أعود إلى كارثيدج بحلول الساعة الواحدة، ولا أَرغب...».

فتح ثلاثة من رجاله النار عليه، أحدهم كان يحمل بندقية معدومة الارتداد، تطلق سبعين رصاصة بضغط الغاز في الثانية الواحدة. رقص الرقيب رقصة الموت المترنحة، ثم هوى إلى الخلف فوق ما تبقى من زجاج واجهة غرفة البث. تقلصت إحدى ساقيه وركل حذاؤه العسكري الشظايا عن إطار الواجهة. وقف عريف ذو وجه مغطى بالبنثر يحدق في ارتياح تام، ثم انفجر بالبكاء، فيما وقف الآخرون مذهولين لا يصدقون ما حدث. رائحة الكوردايت المتفجر ثقيلة خانقة تفعم الهواء.

بكى العريف وهو يصرخ: «لقد قتلناه! يا إلهي! لقد قتلنا الرقيب بيترز!». لم يُجب أحدٌ. وجوههم ذاهلة بعد، غير مستوعبة، إلا أنهم لاحقًا قد يتمنون لو أنهم قتلوه مبكرًا. كل هذا لعبة مميتة، لكنها ليست لعبتهم.

خشخش الهاتف الذي أوصله راي فلاورز إلى مكبر الصوت قبل موته، ثم انبعث منه صوت مَنْ تسأل بصوت مُتعب: «راي؟ هل أنت هنا يا راي؟ أنا أستمع لبرنامج طَوال الوقت، أنا وزوجي. أردنا فقط أن نشجعك على الاستمرار. دعهم يسخرون منك ولا تأبه. حسنًا؟ راي؟... راي؟...».

بيان رقم: 234 المِنْطَقة: 2 الزحف السري.

من: لندن. المِنْطَقة 2 نيويورك.

إلى: قيادة كرايتون.

بخصوص: العملية كارنيفال.

نطاق جنود نيويورك ما زال فعالًا. يستمر التخلُّص من الجثث. المدينة هادئة نسبيًا. الأخبار تتسرب بسرعة، لكن تحت السيطرة. الإنفلونزا الفائقة تحبس الناس في بيوتهم. الجنود يضعون المتاريس لغلق المداخل والمخارج (جسر جورج بوش - جسر تريبيورو - جسر بروكلين - قناتي لينكولين وهولاند، بالإضافة إلى بعض الطرق السريعة). مع الإصابة بالإنفلونزا الفائقة، أغلب القوات ما زالت قادرة على أداء مهامها على نحو جيد.

ثلاث وقائع إطلاق نار خارج السيطرة في هارلم، الشارع السابع، استاد شيا. الهرب من الخدمة صار مشكلة كبرى. يُعَدَم الهاربون على الفور رأيي أننا قادرون على الاستمرار لكن ببطء. انتهى الاتصال. لندن. المِنطقة: 2 نيويورك.

أشيع في مدينة بولدر، بولاية كلورادو، أن مركز الأرصاد الأمريكي ما هو إلا مؤسسة أبحاث بيولوجية. كرّر مذيع محطة دينقر شبه المُخَرَّف الشائعة. في الساعة الحادية عشرة من ليلة السادس والعشرين من يونيو، بدأ الخروج العظيم من بولدر. أرسل جنود من أرقادا بدينقر لمنعهم، لكن الأمر كان أشبه بإرسال رجل بمكنسة يدوية لتنظيف حظيرة أوجين⁽¹⁾. أكثر من أحد عشر مواطنًا مريضًا مذعورًا لا يفكرون في شيء إلا في الابتعاد قدر الإمكان عمّا يظنونه مركز الوباء.

في الحادية عشرة والربع، أضاء انفجار عظيم السماء فوق مركز الأرصاد في برودواي. زرع متطرف يدعى ديزموند رامايچ أكثر من ستة عشر رطلًا من المتفجرات في مدخل المركز. كان الانفجار رهيبًا لكن مؤقتات التفجير رديئة، فتبخر رامايچ مع كل أجهزة الأرصاد وقياس التلوث البريئة. في الوقت نفسه، استمر الخروج الكبير من بولدر.

بيان رقم: 771 المِنطقة: 6 الزحف السري.

من: جاريت. المِنطقة: 6 ليتل روك.

بخصوص: العملية كارنيغال.

حَيِّد برودسكي. أكبر حَيِّد برودسكي. عُثِرَ عليه يعمل في عيادة صيدلية هنا. أُعِدِم في التوبة بتهمة خيانة الولايات المتحدة الأمريكية. حاول البعض التدخل فتعاملنا معهم. قُتِلَ 14 مدنيًا. جُرِحَ 3 من رجال جروحا طفيفة. قوات المِنطقة 6 تعمل بطاقة 40%، 25% ممن في

(1) حظيرة أوجين الملك، مكان ضخم فيه قطعان ماشية لم ينظف منذ سنوات. طلب في هرقل في الأساطير تنظيفه، فحوّل مسار نهرين إلى الحظيرة لتنظيفها (الترجمة)

الخدمة مصابين بالإنفلونزا الفائقة، و15% فروا. يبدو أن الرقيب ت. ل. بيترز المتمركز في كارثيج قد اغتيل على يد رجاله. تكررت وقائع أخرى مشابهة لكنها غير مؤكدة. الوضع يتدهور بسرعة. انتهى الاتصال.
جارفيلد المنطقة: 6 ليتل روك.

عندما استلقى الليل على صفحة السماء، كمريض مُخدَّر مستلقٍ على فراش العمليات، استعدَّ ألفا طالب من طلبة جامعة كنت في أوهايو للحرب الكبرى. يتكون الألفان من طلبة الفصل الدراسي الصيفي، وأعضاء ندوة مستقبل صحافة الجامعة، ومائة وعشرين من حضور ورشة الدراما، ومائتي عضو من أعضاء جمعية مستقبل مزارعي أمريكا فرع أوهايو، تزامن وجودهم هناك مع انتشار الإنفلونزا الفائقة. اجتمع هذا الحشد في الجامعة منذ أربعة أيام، في يوم 24 يونيو. التالي هو بث لاسلكي الشرطة في المنطقة من الساعة 7:16 إلى 7:22 مساءً.

- الوَحْدَة 16. الوَحْدَة 16. هل تسمعني؟ حوّل.

- آه، أسمعك. حوّل.

- لدينا مجموعة صبية في المركز التجاري هنا، الوَحْدَة 16. نحو سبعين شخصًا. أقول... و... انظري أيتها الوَحْدَة 16، لدينا مجموعة أخرى تتقدم من الجهة المقابلة.. ربا، مائتان أو أكثر. حوّل.

- أيتها الوَحْدَة 20، هنا القاعدة، هل تسمعني؟ حوّل.

- أسمعك جيدًا أيتها القاعدة. حوّل.

- سأرسل تشام وهاليداي. سد الطريق بسيارتك. لا تفعل شيئًا آخر. لو هاجموك، افرج ساقيك واستمتع. لا تقاوم. هل تسمعني؟ حوّل.

- أسمع. لا مقاومة. ماذا يفعل أولئك الجنود عند جانب المركز التجاري الشرقي أيتها القاعدة؟ حوّل.

- أي جنود؟ حوّل.

- هذا ما أسألك عنه أيتها القاعدة. إنهم...

- أيتها القاعدة، معك دَدلي تشام. أوه، سَحَقًا، هذه الوَحْدَة 12. آسَف. مجموعة صبية يقتربون من جهة طريق بوروز. مائة وخمسون تقريبًا. يتجهون نحو المركز التَّجاري. يغنون أو ينشدون نشيدًا لعينًا. لكننا -ويا للمسيح- نرى جنودًا أيضًا. يرتدون أقنعة الغاز كما أعتقد. آه.. يبدو أنهم يناوشون.. أعتقد هذا. حوّل.
- من القاعدة إلى الوَحْدَة 12. انضموا إلى الوَحْدَة 20 عند المركز التَّجاري. التعليمات نفسها. لا مقاومة. حوّل.
- عُلِمَ وينفَّذ. حوّل.
- أيتها القاعدة. هنا الوَحْدَة 17. أنا هاليداي أيتها القاعدة. هل تسمعني؟ حوّل.
- أسمعك يا 17، حوّل.
- أنا خلف تشام. مانتا صبي آخرين يتجهون من الغرب إلى الشرق في اتجاه المركز التَّجاري. معهم لافتات، كأننا في الستينيات. مكتوب على أحدها: ارموا أسلحتكم أيها الجنود. أرى أخرى مكتوب عليها: الحقيقة، كل الحقيقة، ولا شيء سوى الحقيقة. إنهم...
- لا يهمني المكتوب على اللافتات أيتها الوَحْدَة 17. اذهب مع تشام وبيتريز واعترضوا طريقهم. حوّل.
- عُلِمَ. انتهى.
- هنا أمن الحرم الجامعي. أنا رئيس الأمن ريتشارد بورليف أود التحدث مع رئيس قوات الجيش جنوب الحرم. أكرر، أنا رئيس الأمن بورليف. أعرف أنكم تتابعون اتصالاتنا، لذا أعفوني من اللَّف والدَّوران. حوّل.
- معك الكولونيل ألبرت فيليبس، من الجيش الأمريكي. نحن نستمع أيها الرئيس بورليف. حوّل.
- أيتها القاعدة، هنا الوَحْدَة 16. الصبية يجتمعون عند نصب الحرب التذكاري. يبدو أنهم ينقلبون على الجنود. يبدو الأمر مقلِّقًا. حوّل.
- معك بورليف أيها الكولونيل فيليبس. صرَّح بنواياك. حوّل.

- أوامري هي احتواء الموجودين في الحرم الجامعي وإبقاؤهم داخله. نيتي الوحيدة اتباع أوامري. لو أنهم مجرد متظاهرين فلا بأس. لو أنهم ينتوون محاولة كسر الحجر الصحي، فهذه هي المشكلة. حوّل.
- أنت بالتأكيد لا تعني...
- أنا أعني ما قلت أيها الرئيس بورليف. حوّل وانتهى.
- فيلبس! فيلبس! أجبني، عليك اللعنة! هم ليسوا مجرمين! إنهم مجرد صبية! ليسوا مسلحين! إنهم...
- من الوَحْدَة 13 إلى القاعدة. الصبية يتجهون رأسًا إلى الجنود. يلوحون بلافاتهم. ينشدون تلك الأغنية التي غنتها بايز⁽¹⁾. أوه، سحقًا. أعتقد أن بعضهم يلقي الحجارة. يا يسوع! يا يسوع المسيح! لا يمكن أن يفعلوا هذا!
- من القاعدة إلى الوَحْدَة 13! ماذا يحدث عندك؟ ماذا يجري؟
- أنا تشام. سأخبرك بما يجري هنا. إنها مذبحة. أتمنى لو أنني أعمى. أوه، أيها الداعرون! إنهم.. إنهم يسحقون هؤلاء الصبية، يمتطرونهم برصاصات البنادق الآلية على ما يبدو. أعتقد أنهم لم يحذروهم حتى. الصبية الأحياء حتى الآن.. يتفرّقون.. يجرون في كل اتجاه. يا للمسيح! رأيت للتو فتاة شُطرت نصفين! الدماء.. لا بُدَّ أنهم سبعون أو ثمانون صبيًا ممدّدون على العشب هناك.. إنهم...
- اقتحم يا تشام! الوَحْدَة 12، اقتحم!
- أيتها القاعدة، هنا الوَحْدَة 17. هل تسمعني؟ حوّل.
- أسمعك عليك اللعنة، لكن أين تشام؟ حوّل سحقًا لك!
- تشام و... هاليداي... أعتقد... خرجا من سيارتهما ليلقيا نظرة أفضل. نحن نعود يا دك. يبدو لي الآن أن الجنود يطلقون النار على بعضهم. لا أعرف من يفوز، ولا أهتم. أيًا كان ما يحدث، فنحن التاليون. عندما يعود منا من يستطيعون العودة، سنختبئ في قبو جميعًا حتى يفرغوا كل ذخيرتهم.

(1) Joan Baez مغنية أمريكية أصدرت 30 ألبومًا غنائيًا مثلاً خلفية موسيقية لأغلب الحركات الثورية والاحتجاجات في حقبة الستينيات. (المترجمة)

- اللعنة...

- صيد الديك الرومي مستمر يا ديك. أنا لا أُمزح. انتهى.

خلال الحوار السابق، يستطيع المستمع أن يسمع صوت طلقات في الخلفية كأنها حرب، وسيسمع أيضًا صرخات رفيعة.. وأخيرًا، وبعد أربعين ثانية تقريبًا، صوت انفجار قذائف هاون.

التالي تفريغ ما بُث على نطاق راديو خاص عالي التردد في جنوب كاليفورنيا. التفريغ يغطي ما أذيع من الساعة 7:17 إلى الساعة 7:20 مساءً.

- ماسينجل من المنطقة 10، هل تسمعي أيها القاعدة الزرقاء؟ كود الرسالة: آني أوكلاي. الأهمية: 10+. أجب إن كنت هناك.

- معك لين يا ديفيد. يمكننا تخطي الرطانة والمصطلحات على ما أظن. لا يسمعنا أحد.

- الأمر خرج عن السيطرة يا لين. كل شيء. لوس أنجلوس تشتعل. المدينة اللعينة كلها وما حولها. كل رجالي مرضى أو فرّوا أو يذهبون المدنيين. أنا أعلى بنك أمريكا، الفرع الرئيسي. ستمائة شخص يحاولون اقتحام المكان والإمساك بي. أغلبهم من الجيش.

- الأمور تتداعى. لا، بل المركز يتفتت...

- لم أسمعك، كرر.

- لا عليك. هل يمكنك الخروج؟

- سحّقا، لا. لكنني سأمنح أول الداخلين شيئا خاصًا. معي بندقية معدومة الارتداد. حثالة! مجرد حثالة!

- حظ موفق لك يا ديفيد.

- ولك أيضًا. تماسك قدر استطاعتك.

- سأفعل.

- لست واثقًا...

انتهى الحديث بينهما في تلك اللحظة. انطلق صوت تحطم، ثم صوت دفع معدن ثقيل وتهشم زجاج. أصوات كثيرة تتصايح. صوت إطلاق نار بعيد يقترب من مكان البث، قريب كفاية ليشوش على صوت إطلاق بندقية

معدومة الارتداد. صوت التصايح والزعيق يقترب. صوت صرخة قريبة للغاية.
ثم صوت ارتطام، ثم صمت.

التالي تفريغ ما بُثَّ على نطاق راديو الجيش الاعتيادي في سان فرانسيسكو، من الساعة 7:28 إلى الساعة 7:30 مساءً.

- أيها الجنود، أيها الإخوة. لقد استولينا على المحطة، ومقر القيادة! لقد مات قامعوكم! أنا الأخ زينو، وقد كنتُ منذ لحظات الرقيب رونالد جيبز، أعلن نفسي أول رئيس لجمهورية شمال كاليفورنيا! نحن مسيطرون! اقتلوا ضباطهم في الشوارع كالكلاب! كالكلاب التي يجف الخراء على أفخاذها! جرّدوهم من رتبهم وشاراتهم! قيدوا أسماء كل مَنْ يخون جمهورية كاليفورنيا الشمالية أو يتآمر عليها! فجر يوم جديد يشرق! يوم انتهاء القمع والقامعين! نحن...

صوت إطلاق نار من بندقية آلية. صرخات. ضربات وطرقات. صوت رصاصات مسدس. المزيد من الصراخ. أنينٌ مُحْتَضِرٌ. ثلاث ثوانٍ من الصمت التام.

- هذا الرائد ألفريد نُن، من الجيش الأمريكي. أتولى الآن قيادة قوات الجيش الأمريكي في مِنطَقة سان فرانسيسكو. لقد تعاملنا مع الخونة في مقر القيادة. أنا أتولى القيادة. أكرر. أنا أتولى القيادة. ستستمر العملية الجارية، وسنتعامل مع الخونة بكل حزم. أكرر. بكل حزم. أنا الآن...

المزيد من الطلقات. صراخ.

صوت من الخلفية: «...كلهم! اقبضوا عليهم كلهم! الموت لخنازير الحرب...».

صوت إطلاق نار كثيف. صمت وانتهاء البث.

في الساعة 9:16 مساءً بتوقيت الساحل الشرقي، استطاع كل من شاهد محطة WCSH-TV أن يرى رجلاً أسودَ ضخماً، عارياً تماماً إلا من منثر جلدي وردي يغطي عورته وقبعة ضباط البحرية، ويبدو عليه المرض، يُنفَّذ سلسلة مكونة من اثنين وستين حكماً بالإعدام العلني.

زملأوه السود عرايا أيضًا إلا من قطعة الجلد، ما زالوا يرتدون شارات تُبين انتماءهم إلى الجيش في وقت ما. كانوا جميعًا مسلحين بأسلحة آلية ونصف آلية. في المنطقة استوديو لحضور الجمهور، كان مخصصًا للمناظرات السياسية المحلية وبرامج المسابقات، لكنه الآن مليء بالجنود السود، يبلغ عددهم قرابة مائتي جندي يرتدي الزي الخاكي ويحمل سلاحه، ويحيطون بالجمهور الفعلي.

يحمل الرجل الضخم الأسود -الذي يُكشّر كثيرًا مُبدئًا أسنانًا بيضاء نضيدة في وجهه الفحمي- بندقية آلية عيار 0.45، ويقف إلى جوار منصة تقديم زجاجية. في زمن بدا بعيدًا، حملت هذه المنصة قصاصات دليل الهاتف من أجل مسابقة (اتصل واربح).

لَفَّ المنصة، ثم أخرج رخصة قيادة وقرأ ما فيها بصوت عال: «المجنّد فرانكلين ستيرن. بوو-لييس...».

مال الجنود المتفرجون لينظروا إلى شارات الأسماء، فيما يحرك المصور -الذي بدا جديدًا في المهنة- كاميرته خلال الحشد.

أخيرًا قام شاب لم يتعدَّ التاسعة عشرة من عمره، أشقر الشعر، يصيح ويحتجّ وهو يُقاد إلى المنصة، ثم يرغمه أسودان على الركوع.

كشّر الرجل الأسود، عطس، بصق بلغمًا، ثم وجّه فوهة بندقيته إلى صدغ ستيرن. صرخ الأخير في هستيريا: «لا! أقسم بالرب إنني سأنضم إليكم. سأفعل... س...».

ردّد الضخم الأسود كلماته المُدغمة: «بسمالآبوالابنوالروحالقدس». ثم ضغط الزناد. تلطخ ما وراء ستيرن بالدماء والمخ.

عطس الأسود مرة أخرى وكاد يسقط. ضغط جندي أسود آخر في غرفة التحكم زر (الهتاف)، فرأى الحضور لافتة تومض تحثهم على التصفيق. رفع الجنود بنادقهم مهددين الحضور / الأسرى من الجنود البيض، فصَفَّقوا وشجعوا.

صاح الأسود الذي يرتدي رقعة الجلد: «التالي!» ثم التفت إلى المنصة مرة أخرى. نظر إلى البطاقة وهتف: «الرقيب روجر بيترسن، تقني، بوو-لييس!».

حاول واحد من الحضور الفرار من الباب الخلفي. بعد ثوانٍ كان على المسرح. في أثناء الفوضى حاول أحد الرجال من الصف الثالث إزالة شارة الاسم المثبتة على قميصه. انطلقت رصاصة واحدة، فهوى في مقعده، وشخصت عيناه.

ظل هذا العرض مستمرًا حتى الحادية عشرة إلا ربع، عندما اقتحم الاستوديو أربع فصائل من الجيش النظامي، يرتدون أقنعة تنفس ويحملون أسلحة آلية. انضم إليهم على الفور الجنود المهدّدون.

سقط الأسود الذي يرتدي الرقعة الجلدية على الفور وهو يسب ويتعرق ويطلق بندقيته الآلية في جنون. أصيب الجندي المخوّل بالتصوير بطلقة في بطنه، وإذ مال يمك أمعاءه المنسكبة، دارت الكاميرا ببطء لتعرض على المشاهدين الجحيم.

أطلق الجنود أشباه العرايا الرصاص في المقابل، وأمطر الجنود خلف أقنعة التنفس منطقة الجماهير بوابل من الطلقات.

وبدلاً من تأمين سلامة الجنود الأسرى، وجدوا أن ما حدث عَجَل بإعدامهم. تسلق أظهر صفوف المقاعد الستة شابٌ ذو شعر بلون الجزر، كأنه لاعب في سيرك، قبل أن تزل قدمه وقد أصابتها الطلقات. زحف الآخرون خلال الممرات المفروشة بالبُسْط بين الصفوف، بالطريقة نفسها التي تعلموا بها الزحف في التدريبات الحربية لتفادي إطلاق النار الكثيف. وقف رقيب أشيب فاردًا ذراعيه صائحًا بعلو صوته: «توقفوا!». انطلقت إلى أحضانه عشرات الرصاصات، فتمايل كدمية خشبية مقطوعة الخيوط. هزيم الرصاصات وصراخ المُحتَضرين رفع الصوت في غرفة التحكم إلى درجة تخطت الـ 50 ديسيبل.

سقط المصوّر فوق ذراع تحريك الكاميرا، فأظهرت شاشات المتفرجين سقف الاستوديو، ورحمتهم من مشاهدة الهول. دام إطلاق النار أكثر من خمس عشرة دقيقة، ثم تحوّل إلى تفجيرات متفرقة قبل أن يسكن تمامًا، وتستمر الصرخات.

في الحادية عشرة وعشر دقائق، تبدّل سقف الاستوديو على الشاشات بصورة شخصية كرتونية تحقّق إلى تلفاز كرتوني مكتوب عليه: «نعتذر، لدينا مشكلات!».

ومع انقضاء الليل، صارت هذه حال الجميع تقريبًا.

في مدينة دي موين، وفي الساعة الحادية عشرة والنصف بتوقيت وسط شمال أمريكا، سارت سيارة بويك قديمة، مغطاة بملصقات دينية، منها (أطلق النفير إن كنت تحب يسوع) وغيرها، في شوارع وسط البلدة بلا توقف. كان حريق قد اندلع في دي موين صباح اليوم، وأحرق أغلب الناحية الجنوبية من شارع هل، ومدرسة جراندفيو. لاحقًا دُمّرت أعمالُ شغب ما تبقى من المكان. عندما غابت الشمس، امتلأت تلك الشوارع بجموع الناس، أغلبهم تحت سن الخامسة والعشرين، كثير منهم يركب دراجات مروحية. كسروا واجهات العرض وسرقوا أجهزة التلفاز، وملأوا خزانات الوقود من المحطات فيما يخشون اقتراب أي شخص مسلح.

الشوارع خاوية الآن. بعض الدراجين انطلقوا خلال طريق 80 بين الولايات، لكن أغلبهم تسللوا إلى البيوت وأغلقوا الأبواب، وقد أصيبوا فعلًا بالإنفلونزا الفائقة أو بالذعر منها، فيما يغادر نور النهار الأرض الخضراء المنبسطة. تبدو دي موين الآن كنيويورك ممسوخة بعد احتفال أهوج بليلة رأس السنة. دارت إطارات البويك، تطحن شظايا الزجاج في الشوارع، تستدير نحو الغرب من شارع 14 إلى شارع يوكليد. تمر بسيارتين متصادمتين وجهًا لوجه، مائلتين، متشابكتي المصدّات كأنهما عاشقان انتحرا معًا. فوق سقف البويك مكبر صوت يُزمر ويصفّر ويطلق صوت خشخشة احتكاك إبرة بأسطوانة. في صمت شوارع دي موين، يصدح من السيارة صوت غناء الأم مايبل كارتر تغني: «انظر إلى الجانب المشرق».

انظر إلى الجانب المشرق،
دائمًا في الجانب المشرق،
انظر إلى الجانب المشرق من الحياة،
حتى لو تكاثرت همومك،
سيبدو أنك بلا هموم،
لو نظرت إلى الجانب المشرق من الحياة.

أكملت البويك القديمة طريقها، تدور راسمةً على الأرض علامة اللانهاية، أحياناً تدور حول المربع السكني نفسه ثلاث مرات أو أربع. لو ارتطمت بمَصَد (أو عبرت من فوق جثة) يفوَّت الصوت مقطّعاً من الأغنية.

قبل انتصاف الليل بعشرين دقيقة، توقفتِ البويك إلى جوار الرصيف، ثم تحركت مرة أخرى. سماعاتها تطلق صوت إقيس بريسلي يغني: «الصليب القديم القوي». خلَّتْ رياحُ ليلية أغصانَ الأشجار، حاملةً آخر نفحات الدخان المنبعث من أطلال المدرسة المحترقة.

من خطاب الرئيس في التاسعة مساء بتوقيت الساحل الشرقي، وهو خطاب لم يصل إلى أماكن كثيرة.

«...كما لأمة عظيمة كهذه أن تفعل. لا يمكن أن نقفز ذعرًا من الظلال كأطفال في غرفة مظلمة، لكننا أيضًا لن نتعامل مع تفشي هذا الوباء باستخفاف. لو شعرتم بالمرض، فابقوا في الفراش، تناولوا الأسبرين، واشربوا سوائل كثيرة. ثقوا بأنكم ستتحسنون خلال أسبوع على الأكثر. دعوني أكرر ما قلت في بداية خطابي الليلية: لا صحة لما يُشاع من أن ذلك المرض مميت. يعود المريض إلى حياته الطبيعية في أغلب الأحيان خلال أسبوع. بالإضافة إلى...».

(نوبة سعال)

«...بالإضافة إلى تفشي شائعة خبيثة أطلقتها جماعات إرهابية متطرفة، مفادها أن سلالة الإنفلونزا الحالية قد طُوِّرت بأوامر الحكومة لاستخدامات عسكرية مُحتملة. أيها الإخوة الأمريكيون، هذا كذب وإضلال، وأريد أنؤكد هنا والآن أن بلادنا وقَّعت على اتفاقية جينييف التي تنصُّ على حظر استخدام الغاز السام وغاز الأعصاب والأسلحة البيولوجية، وقد وقَّعنا عليها بضمير متيقِّظ وإيمان قوي. نحن لم ولن...».

(نوبة عطس)

«...نحن لم ولن نشارك في تصنيع أو استخدام ما تحظر اتفاقية جينييف. ما يجري تفشٍّ معتدل للإنفلونزا، لا أكثر ولا أقل. سنحصل الليلة على تقارير انتشار المرض في بلاد أخرى، منها روسيا والصين، لكننا...».

(نوبة سعال وعطس).

«...نطالب بالتزام الهدوء، وبأن تطمئنوا إلى أن لقاح الإنفلونزا سيصدر خلال هذا الأسبوع أو بداية الأسبوع التالي. استدعينا الحرس الوطني في بعض الأماكن لحماية المواطنين من مثيري الشغب والمخربين ومشيعي الذعر، لكن لا صحة لما قيل من احتلال قوات الجيش بعض المدن. أيها الإخوة الأمريكيون، هذه أكاذيب وأباطيل، وأريد أن...».

كتابة يدوية برذاذ الطلاء الأحمر على واجهة الكنيسة المعمدانية الأولى في أتلانتا:

«عزيزي يسوع. سأراك قريبًا. صديقك من أمريكا. ملحوظة: أتمنى أن تكون عندك أماكن خالية بعد بنهاية هذا الأسبوع».

الفصل السابع والعشرون

جلس لاري أندروُد على المقعد في سنترال بارك صباح يوم 27 يونيو، ينظر إلى حديقة الحيوان. خلفه الشارع الخامس مكتظ بالسيارات الساكنة، راكبوها ماتوا أو فروا.

أغلب متاجر نهاية الشارع صارت حطامًا ينبعث منها الدخان. من حيث يجلس لاري يستطيع أن يرى أسدًا، وظيفيًا وحمارًا وحشيًا ونوعًا من القردة. كلهم موتى ما عدا القرد. استنتج لاري أنهم لم يموتوا من الوباء، بل من الجوع والعطش لمدة لا يعلمها إلا الرب. قتلهم هذا، عدا القرد الذي تحرك أربع مرات أو خمسًا فقط. القرد ذكي كفاية لينجو من الجوع والعطش حتى الآن، لكنه بالتأكيد مصاب بحالة متقدمة من الإنفلونزا الفائقة. هذا قرد يتعذب. العالم قاسٍ.

عن يمينه، تشير الساعة المزينة بمجسمات الحيوانات إلى الحادية عشرة. كانت تلك الساعة مصدرَ سرور الأطفال، والآن تدور أمام الخواء. مجسم الدب ينفخ في بوقه، مجسم القرد الذي لن يمرض أبدًا (لكن أكيد سيبلَى) يضرب الدف، والفيل يقرع الطبل بخرطومه. تنبعث من الساعة نغمات ثقيلة لعينة. يا صغيرتي.. لا تروق نهاية العالم إلا لمجسمات الساعة فقط.

بعدما سكن صوت الساعة، سمع الصراخَ الأَجَشَّ مرةً أخرى وقد صار أنينًا خافتًا عن بعد. الصارخ في مكان ما عن يسار لاري، ربما في ملعب هيكشير. ربما يسقط أخيرًا في حمام السباحة ويفرق.

صرخ الصوت الضعيف: «الوحوش قادمة!».

انقشعتِ السحب هذا الصباح، وغدا النهار حارًا مشمسًا. حوَّمت نحلة أمام أنف لاري، ثم دارت حول مجموعة أزهار قريبة، وحطَّت على زهرة فاونيا.

يحتشد الذباب فوق حيوانات الحديقة الميتة، ويترُّ بلا انقطاع أزيزًا يبعث على الاسترخاء.

«الوحوش قادمة الآن!».

الصارخ رجل طويل يبدو أنه في منتصف ستينياته. سمعه لاري أول مرة الليلة الماضية، والتي قضاهما في فندق شيري نيثرلاند. تردَّد صوت الصراخ في الليل الهادئ غير المعتاد، المخيم على المدينة. الصوت غامض مُنذر، صوت جيرميا⁽¹⁾ المجنون يطفو فوق شوارع مانهاتن.

رقد لاري على فراش مزدوج ضخم، وكل مصابيح جناحه مضاءة، وقد صار متيقنًا من أن الصارخ المجنون قادم إليه، يبحث عنه كما تفعل المخلوقات المخيفة في كوابيسه المتكررة. بدا الصوت يقترب مدةً طويلةً -الوحوش قادمة! الوحوش في الطريق!- وظنَّ لاري أن باب الجناح المغلق بثلاثة مزاليج سينفجر إلى الداخل، وسيقتحم المكان الصارخ.. لن يكون بشريًا، بل عملاقًا برأس كلب، وعينين في حجم طبقين، وأسنان حادة.

لكنَّ لاري رآه صباحًا في المتنزه، ولم يكن سوى مجنون مسن، يرتدي سروالًا ونظارة نظر ذات إطار أسود، إظهارها مثبت بلاصق. حاول لاري التحدث إليه، لكنَّ الصارخ فرَّ مذعورًا، وهو يصرخ من وراء كتفه بأن الوحوش ستكون في الشوارع في أي لحظة. تعثَّر في سور سلكي بارتفاع الكاحل، وسقط على ممر الدراجات. طارت نظارته لكنها لم تتحطم. ذهب إليه لاري، لكنَّ قبل أن يصل إليه، التقط الصارخ نظارته وانطلق نحو المركز التجاري يصرخ بتحذيراته اللانهائية. لذا، تغيرتُ نظرة لاري إليه من الذعر التام إلى الملل والضيق الكاملين خلال اثنتي عشرة ساعة.

في المتنزه آخرون، تحدث لاري إلى بعضهم. كانوا متماثلين، وظنَّ لاري أنه لا يختلف عنهم كثيرًا. كلهم مُتخبِّطون، كلامهم غير مترابط، غير متحكمين في رغبتهم في الإمساك بكُميك وهم يتحدثون. لديهم قصص تُروى. وكل القصص واحد. أصدقاءه وأقرباؤهم ماتوا أو يُحتَضَرُونَ. أُطلقت الرصاصات في الشوارع. الجحيم يندلع في الشارع الخامس، وزال متجر تيفاني، هل يمكن أن يكون هذا حقيقياً؟ من سينظف هذه الفوضى؟ من سيجمع القمامة؟ هل المفترض أن يخرجوا من نيويورك؟ لقد سمعوا أن الجنود يحرسون كل المخارج. امرأة ممن

(1) شخصية مختلة من مسلسل جوثام، المأخوذ عن عوالم باتمان (المتجمة)

التقاها كانت تخشى خروج الجرذان من المجاريير فترث الأرض. ذكّر لاري هذا بخواطره الخاصة عندما عاد إلى نيويورك آخر مرة. قال شاب يأكل مقرمشات فريتوس من كيس عملاق إنه سيحقق حلم حياته؛ سيذهب إلى استاد اليانكيز، ويدور حوله عاريًا، ثم يستمني على المنصة. قال للاري وهو يغمز بكتلتا عينيه: «فرصة العمر يا رجل» ثم ابتعد وهو يأكل الفريتوس.

كثير من رواد المتنزه مرضى، لكن لم يمت هناك إلا القليل. ربما راودتهم مخاوف أن تلتهم الحيوانات جثثهم، فزحفوا إلى داخل المباني عندما استشعروا قرب النهاية. واجه لاري الموت مرةً هذا الصباح، ومرةً واحدةً تكفي. فتح الباب فوجد ميتًا تزحف الديدان عليه وتخرج وتدخل من فتحات وجهه. عيناه غائصتان في رأسه، يداه مفرودتان على فخذه. لفحت لاري رائحته الغريبة، كأن الجالس هناك خمر بوربون فاسدة تركت عُرضة للذباب. أغلق لاري الباب، وتقيأ إفطاره ثم راح يقيء معدته الفارغة حتى خشي أن يمزق أحشاءه.

دعا وهو يتجه نحو حديقة الحيوان: «إلهي، لو أنك هنا، لو أنك تستقبل مسائلك اليوم، أريد ألا يقابلني شيء كهذا الذي رأيت اليوم. ما يجري سيئ كفاية، ولن أتحمّل أكثر. أشرك».

وهو جالس الآن على المقعد، وبعد ابتعاد الصارخ عن مرمى سمعه، وجد لاري نفسه يفكر في العالم منذ خمس سنوات. سرّه التفكير في هذا الأمر لأنه بدا له آخر وقت كان سعيدًا فيه، وحالته الصحية ممتازة، وعقله يدور بسلاسة ولا ينقلب عليه.

كان وقت انفصاله عن رفيقه رودى. الانفصال أمر سخيّف. لو أنه رأى رودى مرة أخرى (قال له عقله بعد مدة إن هذا لن يحدث) سيعتذر له. سيقوم ليقبّل طرفي حذائه إن كان هذا ما يريد رودى لتقبل اعتذاره.

كانا قد ركبا سيارة ميركوري قديمة موديل 1968 خلال البلاد، ولفظت أنفاسها في أوماها. من الآن فصاعدًا سيعملان لأسبوعين، ويركبان مجانًا إلى الغرب مع آخرين، ثم يعملان أسبوعين آخرين، ثم يركبان مجانًا بعض الوقت. عملا مدةً في مزرعة غربّي نبراسكا، وخسر لاري ستين دولارًا في دور بوكر واحد. اضطرّ إلى طلب قرض من رودى في اليوم التالي ليعوّض خسارته. وصلا إلى لوس أنجلوس بعد شهر، وحصل لاري على عمل أولًا -إن كنت تسمي غسل الأطباق براتب بخس عملاً- وفي ليلة بعد ثلاثة أسابيع، فتح

رودي موضوع سداد القرض. قال له إنه قابل شخصاً نصحه بوكالة توظيف ممتازة، لكنَّ مصاريف الالتحاق بها خمسة وعشرون دولارًا، وهو المبلغ نفسه الذي اقترضه منه لاري بعد لعبة البوكر. قال رودي إنه لم يكن ليطلب منه المال في الظروف العادية، لكن...

احتجَّ لاري، وقال إنه سدَّ القرض. إن كان رودي يريد خمسة وعشرين دولارًا، فلا بأس، لكنه فقط تمنى ألا يخدعه صديقه بهذا الشكل كي يرد الدين ذاته مرتين.

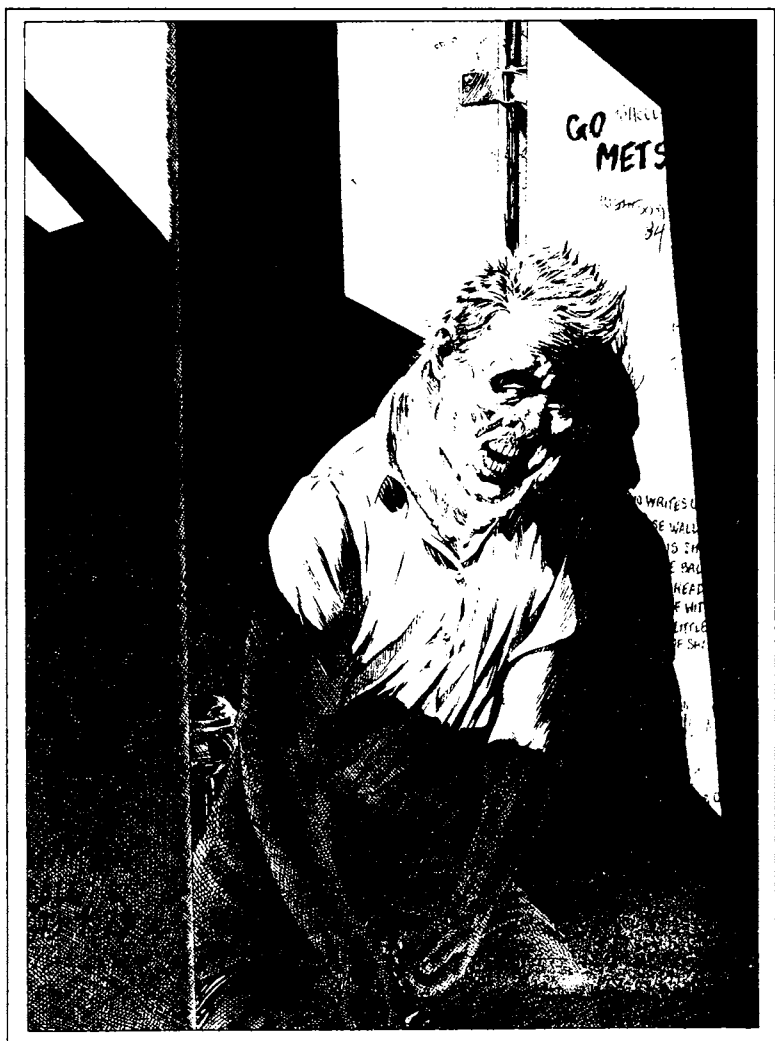
قال رودي إنه لا يريد منحة، بل يريد المال الذي يدين له به، ولا يهمه ما يفعل لاري أندروُد بنفسه. قال له لاري: «يا يسوع المسيح!»، وحاول أن يضحك وهو يضيف: «لم أتصور أنني سأحتاج إلى إيصال تسلم منك يا رودي، لكنني كنت مخطئًا».

تصاعد الحديث بينهما إلى شجار كاد ينفجر. في النهاية احمَرَّ وجه رودي وهو يصيح: «هذا أنت يا لاري. كل شيء انتهى. هذه طبيعتك. لطالما عرفت أنني لن أتعلم الدرس، لكنُ أعتقد أنني تعلمته أخيرًا. غُرِّ يا لاري».

غادر رودي، وتبعه لاري على درج مبنى السكن المتواضع، يُخرج محفظته من جيبه الخلفي. في جيب المحفظة الصغير دولارات من فئة العشرة، مطوية بعناية خلف الصور. رماها تجاه رودي وهو يهتف: «هيا أيها الرخيص الكاذب! خذها! خذ المال اللعين!».

دفع رودي البابَ الخارجيَّ بضربة، وخرج إلى الليل، إلى أي مصير قد ينتظر أمثاله في هذا العالم. لم يلتفت خلفه وقف لاري أعلى الدرج، يلهث. بعد دقيقة جمع دولاراته الثلاثين وأعادهم إلى مكانهم.

التفكير في تلك الواقعة الآن، وبعد مرور سنوات أكد له أن رودي كان محقًا. حتى لو سدَّ له الدين. لقد كانا صديقين منذ المدرسة الابتدائية، وبدا أن لاري كان يعاني ضائقةً ماليةً مستمرةً دفعته إلى الاقتراض مرارًا حتى في تلك السن الصغيرة. لا بُدَّ أنه مدين لرودي خلال السنوات بخمسين دولارًا أو مائة. عندما طالبه رودي بالخمسة وعشرين دولارًا، تذكر لاري الطريقة التي فكر بها. خَصَم عقله الدولارات الخمسة من الثلاثين، وقال له: سيبقى لك خمسة دولارات. أنت رددت المال من قبل، لست واثقًا من التوقيت، لكنك رددته. لا مزيد من النقاش في الأمر. ولم يعد في الأمر نقاش مرة أخرى بعدها.



ثم صار وحيداً في المدينة. لم يكن له أصدقاء، ولم يحاول عقد صداقات من الحانة أو مكان عمله. الحقيقة أنه آمن أن كل مَنْ يعمل هناك، من الطاهي الخبيث إلى النادلة متمائلة الردفين، مجرد حمقى. حقاً ظن أن كل الناس حمقى عداه، هو لاري أندروُد الواعد بالنجاح. وحيد في عالم مليء بالحمقى، شعر بأنه متألم ككلب مضروب، يحنُّ إلى الوطن كرجل منفي إلى جزيرة مهجورة. بدأ يفكر أكثر في شراء تذكرة حافلة جرايهاوند عابرة للولايات والعودة إلى نيويورك.

في شهر آخر، أو ربما بعد أسبوعين، كان ليفعلها.. لولا إيقون. قابل إيقون وتُترِلن في السينما، على بعد مربعين سكنيين من الملهى الذي تعمل فيه راقصة تعرّ.

عندما بدأ عرض النصف الثاني من الفيلم، بدأت تبحث حولها وتحت المقعد عن حقيبتها وهي تبكي، ففيها بطاقتها الشخصية، وبطاقة الأمن الاجتماعي، وبطاقة الائتمان، ورخصة القيادة، ودفتر الشيكات، وصورة من شهادة ميلادها. مع أنه كان متأكداً من أنها سُرقت، لم يصارحها لاري بما يظنه، وساعدها في البحث عنها. أحياناً يبدو أنهم يعيشون في عالم العجائب، لأنه وجدها بعد ثلاثة صفوف وبعدها يتّسا. خَمَن أنها انتقلت إلى هناك بسبب حركة أقدام المشاهدين تملُلاً، فالفيلم حقاً ممل.

عانقته وبكت وهي تشكره. شعر لاري كأنه كابيتن أمريكا، وأخبرها أنه يودُّ لو يدعوها على برج أو شيء ما على سبيل الاحتفال، لكن ليس معه ما يكفي من مال. قالت إيقون إنها ستدعوه. كان لاري، الأمير العظيم، واثقاً من أنها ستفعل.

تواعدة أسبوعين وصارت بينهما مقابلات منظمة. وجد لاري وظيفة أفضل؛ موظفاً في مكتبة، وتلقى عرضاً للغناء مع فريق اسمه «حراس النغم البارعون والراقصون على الدوام». اسم الفريق أفضل ما فيه في الواقع، لكنّ عازف الجيتار فيه كان چوني مَكُول الذي انطلق بعد ذلك وانضمَّ إلى فريق أفضل.

انتقل لاري وإيقون للعيش معاً، وتغيّر كل شيء بالنسبة إلى لاري. أحد أسباب التغيير استقراره في مكان ملكه، يدفع نصف إيجاره. علّقت إيقون بضعة ستائر، واشترت أثاثاً مستعملاً نسّقته مع بعضه، وبدأ أعضاء الفريق وأصدقاء إيقون في التوافد على الشقة من آن إلى آخر. كان المكان مضيئاً في الصباح، يدخله نسيم كاليفورنيا المعطرّ بزهر البرتقال في الليل. أحياناً لا

يزورهم أحد، فتشاهد إيفون التلفاز، أو تجلب له علبة بيرة وتجلس على ذراع المقعد تلك عنقه. كان هذا مكانه الخاص، بيته، وأحياناً كان يستلقي في الفراش مستيقظاً في الليل وإيفون نائمة بجانبه، ويفكر في الشعور الرائع الذي يشعر به. عندما ينام أخيراً كالأطفال هانئاً بلا قلق، لا يفكر في رودي ماركس على الإطلاق. على الأقل ليس كثيراً.

عاشا معاً أربعة عشر شهراً، كلها جيدة عدا آخر ستة أسابيع منها، عندما تحولت إيفون إلى متدمرة لا تُطاق. اعتاد أن يقضي نهاره في المكتبة، ثم يذهب إلى منزل چوني مَكُول، ليعملاً معاً على أغنية جديدة، أو يعيدا تسجيل بعض الأغنيات القديمة التي يسميها چوني «أغاني الحانات الأصلية»، مثل: «لا أحد سواي»، و«جُرعة مزدوجة من حبيبي».

ثم يعود إلى المنزل، منزله، وتكون إيفون قد حضّرت العشاء. ليس عشاءً مما يُتناول أمام التلفاز، بل عشاء حقيقي، طهو منزلي. الفتاة ماهرة حقاً. بعدها ينتقلان إلى غرفة المعيشة لمشاهدة مباريات البيسبول. هذا معقول، ولا شيء يورق عقله. لم يعد شيء بهذا الاكتمال من وقتها. لا شيء.

لاحظ أنه يبكي، وشعر بالاشمئزاز من نفسه وهو يجلس هنا على مقعد في سنترال بارك، يبكي تحت الشمس كعجوز في دار مسنين. ثم خطر له أن من حقه أن يبكي على ما فقد، وأن من حقه أن يكون في صدمة إن كان هذا ما يعانيه الآن.

ماتت أمه منذ ثلاثة أيام. كانت راقدة في فراش في ممر مستشفى ميرسي عندما ماتت وسط آلاف المحتضرين. كان لاري راكعاً إلى جوارها عندما رحلت، وظن أنه سيُجنّ وهو يشاهد أمه تموت فيما من حولها يفوحون برائحة البول والبراز، ويخرفون ويختنقون ويفقدون عقولهم، ويصرخون صراخ المُعذّبين. لم تتعرفه في النهاية، ولم تمر بلحظة وعي أخيرة. توقف صدرها عن الحركة وسط الشهيق، ثم فرغ من الهواء ببطء شديد كإطار سيارة مثقوب. ظل مُتكوّراً إلى جوارها عشر دقائق، لا يعرف ماذا يفعل، ويتساءل في حيرة أكان عليه الانتظار حتى استخراج شهادة وفاة موقّعة، أو حتى يسأله أحد عما حدث. لكن اتضح له أن ما يحدث يحدث في كل مكان، وواضح أن المكان قد تحوّل إلى مستشفى مجانيين. لم يأت طبيب شاب ويظهر له التعاطف، ثم يبدأ الإجراءات. عاجلاً أو آجلاً ستُحمَل أمه إلى الخارج كجُوال شوفان، وهو لا يريد أن يرى هذا يحدث. وجد في حقيبتها تحت الفراش قلماً ودفتر شيكات وديبوساً. مزّق منه صفحة وكتب عليها اسمها وعنوانها، وبعد

دقيقة تفكير أضاف سنّها. ثَبَّتْهَا إلى صدر ملبسها بالدبوس وبدأ ينتحب. قَبْلَ خدّها وفَرَّ يَبْكِي. شعر بالتحسن وهو في الشارع، حتى والشوارع مكتظة بالمجانين والمرضى ودوريات الجيش المسلحة. والآن يستطيع أن يجلس على مقعد المُتَنَزِّه، وينعى العديد من الأمور: فقدان أمه خُطَّةً تقاعدها، ضياع مستقبله المهني، الوقت الذي قضاه مع إيقون يشاهدان مباريات البيسبول وهما يعلمان أن بعدها سيمارسان الحب، علاقته برودي. أغلب حزنه كان على فقدّه رودي. تمنى لو أعاد إليه الخمسة والعشرين دولارًا بابتسامة وهزّة كتفين، وتوفير ستة أعوام ضاعت سدى من عمره.

مات القرد في الثانية عشرة والربع.

مات جالسًا كما كان، وكفاه أسفل ذقنه، وعيناه شاخصتين، ثم سقط إلى الأمام وارتطم بالأرضية الأسمنتية.

لم يرغب لاري في الجلوس هنا أكثر من هذا. نهض ومشى بلا هدف تجاه المركز التجاري. كان قد سمع صوت الصارخ منذ خمس عشرة دقيقة، صوته بعيد للغاية، لكن الآن الصوت الوحيد في المتنزه هو صوت دقات كعبيه على الرصيف، وزقزقة العصافير. يبدو أن العصافير لم تلتقط المرض. هنيئًا لها. باقترابه من المركز التجاري رأى امرأة جالسة على مقعد من المقاعد أمامه. ربما هي في الخمسين، لكنها كابدت مشقة عظيمة لتبدو أصغر. كانت ترتدي سروالًا باهظ الثمن، أخضر مائلًا إلى الرمادي، وبلوزة حريرية تكشف كتفها. نظرت حولها وقد سمعت صوت خطوات لاري. في يدها قرص دواء، ألقته دون اكتراث في فمها كحبة فول سوداني.

قال لها لاري: «مرحبًا».

وجهها هادئ، عيناها زرقاوان تبرقان بالذكاء الحاد، أمامهما نظارة ذات إطار ذهبي. في أصابعها أربعة خواتم؛ دبلّة زواج، خاتمان بفصين ماسيين، وخاتم بفص زمرد.

أضاف لاري: «آه.. لستُ خطرًا».

وهو قول سخيف كما افترض، لكنها بدت له كأنما ترتدي في أصابعها مائتي ألف دولار. يمكن أن تكون خواتمها تقليدًا، لكنها لا تبدو امرأة تستخدم فصوص الزيركون.

قالت: «لا. لا تبدو خطرًا. ولا تبدو مريضًا».

علا صوتها بعض الشيء في الكلمة الأخيرة، وهذا ما حوّل عبارتها إلى سؤال مهذب. لم تكن هادئة كما تُظهر من النظرة الأولى. جانب عنقها يرتعش، وخلف عينيها الذكيتين الصدمة ذاتها التي رآها لاري في عينيه هذا الصباح وهو يحلق لحيته.

- لا. لست مريضًا على ما أعتقد. وأنت؟

- على الإطلاق. هل تدرك أن غلاف آيس كريم ملتصق بحذائك؟

نظر إلى أسفل ورآه. شعر بالخل كأنها أخبرته أن سحّاب بنطاله مفتوح. وقف على ساق واحدة ورفع الأخرى لينتزعه.

- اجلس وانتزعها. اسمي ريتا بلاكمور.

- مسرور للقائك. أنا لاري أندروود.

جلس. مدت له يدها فصافحها بخفه، أصابعه تلمس خواتمها. انتزع بعد ذلك غلاف الآيس كريم ورماه في صفيحة زباله جوار المقعد، مكتوب عليها: «هذا متنزحك، حافظ على نظافته!». بدت له العبارة مُضحكة، بل إن الموقف كله مُضحك. رفع رأسه وضحك. هذه هي أول ضحكة يطلقها منذ عاد إلى البيت ووجد أمه على الأرض، وارتاح لمعرفته أن الشعور المصاحب للضحك لم يتغيّر. صعدت الضحكة من بطنه، وفرت من بين أسنانه بطريقة (ليذهب الكل إلى الجحيم) الجزلة التي اعتادها.

ابتسمت ريتا بلاكمور معه وله، وأذهله جمالها وأناقته التلقائيان. بدت كامرأة من روايات إيروين شو.

قالت له: «عندما سمعتك تضحك، كدت أختبئ. ظننتك الرجل ذا النظارة المكسورة والفلسفة الغريبة».

- الصارخ منذرًا بالوحوش؟

- هل هذا ما تطلقه عليه، أم إن هذا ما يسمي به نفسه؟

- ما أطلقه عليه.

فتحتُ حقيبتها مزينَةً الحواف بفراء المِنك (ربما) وأخرجتُ علبة سجائر
نعناع ثم قالت: «وصفُ ذكيّ. الرجل يذكرني بديوجينيس⁽¹⁾ المجنون».

- نعم، إلا أنه يبحث عن وحش شريف.

ثم ضحك مرة أخرى. أشعلتُ سيجارتها ثم نفثتِ الدخان. أكمل لاري: «إنه
غير مريض، لكنَّ أغلب الآخرين مرضى».

- حارس بؤابة العقار عندي مريض جدًّا. ما زال في الخدمة. أعطيته
خمسة دولارات عندما نزلت اليوم صباحًا. لا أعرف أكنت نفحته المال
لأنه يحسن عمله أم لأنه في الخدمة بعد. ماذا تعتقد؟

- لا أعرفك جيدًا كي أحكم.

- لا. طبعًا لا تعرفني جيدًا.

أعادت علبة سجائرها إلى الحقيبة، فلمح لاري مسدسًا فيها. تبعت نظرتَه
وقالت: «إنه لزوجي. هو يعمل مديرًا تنفيذيًا ناجحًا في بنك كبير في نيويورك.
هكذا يصف وظيفته عندما يسأله أحد عنها في حفلات الكوكتيل. يقول: مدير
تنفيذي ناجح في بنك كبير في نيويورك. مات منذ يومين. كان في غداء عمل
مع أحد أثرياء العرب، وأصابته جُلطة. مات مرتديًا رابطة عنقه. هل تعتقد أنه
المكافئ العصري للقول الشائع: «فلان مات منتعلًا حذاءه»؟ هاري بلاكمور
مات مرتديًا رابطة عنقه. يعجبني هذا يا لاري».

حطَّ دُوريُّ أمامهما وراح ينبش الأرض.

- كان يخشى اللصوص بجنون، فاعتاد حمل هذا المسدس. هل تدفع
المسدسات إلى الخلف عند الإطلاق وتصدر ضجيجًا عاليًا يا لاري؟

قال لاري الذي لم يطلق مسدسًا في حياته: «لا أعتقد أن مسدسًا بهذا
الحجم سيدفعك بقوة إلى الخلف. هل هو عيار 0.38؟

- أعتقد أنه عيار 0.32.

أخرجته من الحقيبة، ورأى فيها علب أقراص عدَّة. لم تتبع نظرتَه هذه المرة،
بل كانت تحديق إلى شجرة زَنزلخت قصيرة على بعد خمس عشرة خطوة منهما.
- أعتقد أنني سأجربه. لا أعتقد حقًّا..

(1) فيلسوف يوناني اشتهر بتصرفاته الغريبة، مثل المشي نهارًا بمصباح مضيء، أو
البحث عن رجل شريف في الشوارع. (الترجمة)

ضغطت الزناد، فأطلق المسدس دويًا هائلًا، وظهرت فجوة صغيرة في الشجرة. قالت: «أصبت الهدف بدقة». ثم نفخت المرأة الدخان عن فوهة السلاح كرامٍ محترف.

- رائع.

بعدما أعادت المسدس إلى حقيبتها، استعاد قلبه انتظام دقاته.

- لن يمكنني إطلاق النار على شخص. أنا متأكدة من هذا. عمومًا، لم يتبقَّ أحد لأطلق عليه الرصاص، أليس كذلك؟

- أوه، لا أعرف.

- كنت تنظر إلى خواتمي. هل تريد واحدًا؟

هتف ووجهه يحمر: «هه؟ أوه، لا!».

- زوجي مصرفي، يؤمن بالألماس كما يؤمن المعمداني بالوحي. عندي ألماس كثير مؤمن عليه. لو أراد أحد ألماسي سأعطيه له ببساطة.. كله. لقد عاد مجرد صخور مرة أخرى، أليس كذلك؟

- أعتقد أن هذا صحيح.

- طبعًا.

ارتعش جانب عنقها مرة أخرى وهي تردف: «ولو أن لصًا أرادها، لن أعطيها له فقط، بل سأعطيه عنوان متجر كارتيه نفسه. التضحية بالصخور أفضل من التضحية بنفسي».

سألها لاري: «ماذا ستفعلين الآن؟».

- ماذا تقترح؟

- أنا نفسي لا أعرف.

- إجابتي ذاتها.

- هل تعرفين؟ رأيت رجلًا هذا الصبح ينتوي الذهاب إلى استاد اليانكي، و... والاستمنا على المنصة.

شعر بوجهه يحمر خجلًا مرة أخرى. قالت: «يا لفظاظته. لماذا لا تقترح مكانًا أقرب؟».

زفرت، وتحولت الزفرة إلى رعدة. فتحت حقيبتها وأخرجت زجاجة أقراص، أخرجت منها كبسولة رخوة وابتلعتها. سألها لاري: «ما هذا؟».

أجابت بابتسامة مزيفة: «فيتامين د»...

ارتعش جانب عنقها مرة أو مرتين ثم سكن، وهدأت مرة أخرى. قال لاري فجأة: «لا يوجد أحد في الحانات. ذهبتُ إلى حانة بات في شارع 43 ووجدتها خاوية. درتُ خلف المشرب الضخم من خشب الماهوجني، وصببتُ لنفسِي كأسًا مترعة بخمر چوني وُكر. ثم لم أشعرُ أنني أريد البقاء هناك، لذا غادرتُ وتركته على المشرب».

زفرًا معًا كأنما كورال. قالت: «رفقتك مريحة. تعجبني للغاية. كم أنا مسرورة لأنك لست مجنونًا».

قال متفاجئًا مسرورًا: «شكرًا لك يا سيدة بلاكمور».

- ريتا. ناديني ريتا.

- حسنًا.

- هل أنت جائع يا لاري؟

- في الحقيقة.. نعم.

- ربما تودُ أن تصحب سيدة إلى الغداء؟

- من دواعي سروري.

قامت ومدّت ذراعها نحوه باسمّة. تأبطت ذراعه فشَمّ نفحة من عطرها، رائحة بدتْ له لأول وهلة مريحة مُهدّئة، لكنها ترتبط في عقله بالتقدم في السن. تضع أمه عطرًا مشابهًا عندما كانا يخرجان معًا إلى السينما.

ثم نسي كل شيء عنه وهما يغادران المتنزه إلى الشارع الخامس، بعيدًا عن القرد الميت، والصارخ المنذر بالوحوش. ثرثرت بلا انقطاع، تذكر لاحقًا شيئًا واحدًا مما ثرثرت عنه (نعم واحدًا فقط: أنها كانت تحلم دائمًا بالمشي في الشارع الخامس متأبطة ذراع شاب وسيم، شاب صغير بما يكفي لأن يكون ابنها، لكنه ليس كذلك) وتذكر جولتهما جيدًا، تذكر ابتسامتها الجميلة، وثرثرتها الممتعة، وحفيف سروالها.

دخلا إلى مطعم لحم مشوي، وطها لاري طهوًا أخرق، لكنها امتدحت كل طبق قدمه؛ اللحم، والبطاطس المقلية، والقهوة سريعة التحضير، وفطيرة الفراولة والراوند.

الفصل الثامن والعشرون

في البراد فطيرة فراولة، مغطاة بغلاف بلاستيكي. بعدما بحثت عنها مدةً بعينين باهتتين، أخرجتها فراني وقطعتُ منها شريحة. سقطتُ قطعة فراولة على المنضدة وهي تنقل الشريحة إلى طبق أصغر. التقطتها وأكلتها، ثم مسحت اللطخة بمنديل. غطتُ باقي الفطيرة بالغطاء وأعادتُها إلى البراد. التفتتُ تأخذ طبقها، ولمحتُ حامل السكاكين جوار الخزانة. لقد صنعه أبوها من لوحين مغناطيسيين يثبتان السكاكين مُعلّقة ونصالها إلى أسفل. ضوء آخر النهار يلمع عليها. حدثتُ إلى السكاكين هنيهة، ونظرة عينيها الباهتة لا تتغير، ويدها تتحركان بين طيات مريولة المطبخ المربوطة حول خصرها.

أخيرًا، وبعد خمس عشرة دقيقة، تذكرتُ أنها كانت تفعل شيئًا. ماذا كان؟ خطرْتُ على بالها الآية: لماذا تنظر إلى القذى الذي في عين أخيك، وأما الخشبة التي في عينك فلا تفتن إليها. فكرتُ: قذى؟ خشبة؟ ضايقتها الصورة المتولدة من الآية. أي نوع من الخشب؟ قائمة سرير؟ عارضة سقف؟ لدينا أيضًا مرض التخشب، والتخشب الرمي، و...

لماذا تنظر إلى القذى الذي في عين أخيك...

لكنها لم تكن تنظر إلى قذى منذ دقائق، بل إلى فطيرة. استدارتُ إليها لترى ذبابة تقف فوقها. أبعدها. باي باي يا سيدة ذبابة، هيا ودّعي فطيرة فراني.

حدثتُ طويلًا إلى قطعة الفطيرة. تعرف أن أباه وأُمها ماتا. ماتت أُمها في مستشفى سانفورد، ومات أبوها -الذي رحب من قبل بفتاة صغيرة في ورشته- في الفراش فوق رأسها الآن. لماذا لا تأتي المصايب فرادي؟ استعادتُ تركيزها فجأة، وغشاها الرعب. في الحجرة رائحة حارة. شيء يحترق.

استدارتُ فراني سريعًا لترى البطاطس في المقلاة وقد نسيتهَا، فتصاعد الدخان الأسود وتناثرت قطرات الزيت في غضبٍ لتحط على الموقد ثم تشتعل كأن شخصًا خفيًا يوقدها بقَدَاحَة.

لمست ذراع المقلاة، فسحبت يدها بسرعة من سخونتها. لَفَت فوطة مطبخ عليها وحملتُها بسرعة وهي تنفث الدخان ككتنين، وأخرجتها من الباب الخلفي لتضعها على درجة المدخل. أُنْتَهَا رائحة زهر سلطان الجبل، وأزيز النحل الذي يحوم فوقها. وقفت عند عتبة الشرفة الأمامية وهي لا تعي لكل هذا. للحظة خُرِقت الملاءة الثقيلة التي تغشي حواسها منذ أربعة أيام، فشعرت بالرعب. بالرعب؟ لا... أقل قليلًا، مجرد خوف.

تتذكر تقشير البطاطس، وتقطيعها ثم وضعها في الزيت الساخن. الآن فقط تتذكر، لكنها كانت قد نسيَت كل شيء في اللحظات الماضية.

واقفة عند العتبة، تحمل منشفة مطبخ في يدها، حاولت تذكر ما يطارده قطار أفكارها بعدما وضعت البطاطس في الزيت. بدا هذا مهمًا.

حسنًا، في البداية فكرتُ في أن وجبة لا تحوي سوى البطاطس المقلية لن تكون مغذية كفاية، ثم فكرت في أنه لو كان مَأكدونالدز على الطريق رقم 1 يعمل لما اضطررتُ إلى قليها بنفسها، وكانت لتحصل على شطيرة برجر أيضًا. ستقود سيارتها فقط إلى نافذة تسلّم الطلبات، وتطلب شطيرة رُبْع رطل، وعُبُوَّة بطاطس كبيرة حمراء، مَبْقَعَة بالزيت من الداخل. لن تكون الوجبة صحية طبعًا، لكنها تبثُ السرورَ في النفس. إلى جانب هذا، المرأة الحامل تشتتهي أكلات غريبة.

أوصلها هذا إلى الحلقة الثانية من سلسلة أفكارها. التفكير في اشتهاء الأكلات الغريبة قادها إلى فطيرة الفراولة في البراد. شعرتُ فجأة أنها ترغب في قطعة منها أكثر مما ترغب في أي شيء في العالم. فاقترعتُ منها شريحة، لكن في أثناء ذلك وقعت عيناها على السكاكين المعلقة على الحامل الذي صنعه والدها لوالدتها (غَبَطَتِها السيدة إدمونتون زوجة الطبيب على هذا الحامل، حتى صنع لها واحدًا منذ عامين)، ثم توقف عقلها عن العمل. القذى.. الخشبة.. الذباب...

غمغمت للباحة الخاوية: «رباه».

ثم هوت جالسة وغطت وجهها بالمريلة وبكت. عندما جفت الدموع، شعرت بتحسن نوعي.. لكنها ظلت خائفة. سألت نفسها: هل أُجَن؟ هل هذا ما يحدث وما يشعر به المرء قبلما يصاب بانهيار عصبي أو أيًا ما كانوا يسمونه؟ منذ تُوَفِّي أبوها في السابعة والنصف من مساء أمس، عانت تشتت التركيز. نسيت أمورًا تفعلها في أثناء فعلها، فجال عقلها مبتعدًا شاردًا، أو جلست فقط لا تفكر في شيء، لا تعي من العالم أكثر مما تعي منه نبتة كرنب.

بعدما مات أبوها جلست تبكي جوار فراشه وقتًا طويلًا. أخيرًا نزلت وشغلت التلفاز بلا سبب محدد. بدت لها فكرة جيدة فقط وقتها. لم يلتقط التلفاز سوى محطتين، واحدة منهما تبث برنامج محاكمة مجنون غريب. رجل أسود أشبه بأحلك كوابيس رجال جماعة كو كلوكس، يمثل أنه يطلق حكمًا بالإعدام على رجل أبيض، فيما يشجعه رجال آخرون. لا بدُّ أنه عمل تمثيلي طبعًا. لا يعرض التلفاز أمورًا حقيقية مثل هذه، لكنها لم تبدُ تمثيلية. ذكرها المنظر بنسخة مجنونة من أليس في بلاد العجائب، لكن لم تكن الملكة الحمراء من تصرخ: «اقطعوا رؤوسهم!» في هذه الحالة، بل.. بل ماذا؟ مَنْ؟ الأمير الأسود كما افترضت، بيد أن ذا المنثر الجلدي لم يبدُ كأmir.

في نهاية التمثيلية، اقتحم آخرون الاستوديو وانتظموا في حرب بالأسلحة النارية، حربًا واقعية للغاية أكثر مما كان الإعدام. رأت رجالًا ثقتهم الرصاصات الحية، يدفعون إلى الخلف مُضرجين بالدماء، ينزفون من أعناقهم وشرابين آباطهم. تتذكر أنها فكرت بطريققتها المشوشة في أن عليهم عرض عبارة تحذر الآباء من المحتوى كي يُبعدوا أطفالهم عن التلفاز. تتذكر أيضًا أنها فكرت في فقدان المحطة ترخيصها لبلثها برنامجًا مروّعًا كهذا.

أغلقت التلفاز عندما انقلبت الكاميرا ولم تظهر سوى سقف الاستوديو، وتمددت على الأريكة تحديق إلى سقفها الخاص. نامت حيث هي، وفي الصباح صارت شبه مقتنعة أنها حلمت بالتمثيلية كلها، وهذا هو مربط الفرس. كل شيء بدا لها كابوسًا مُترعًا بالهواجس بدأ بموت والدتها، ثم والدها. في حكاية أليس، تصير الأمور أكثر غرابة وبعدًا عن التصديق مع الوقت.

أقيم في البلدة اجتماع خاص، حضره أبوها وهو مريض، وذهبت معه فراني رغم تعبها وانفصالها عن العالم.

ازدحمت قاعة مجلس البلدية أكثر مما اعتادت أن تكون في وقت الاجتماعات الاعتيادية في نهاية فبراير وأول مارس. سرى السعال والعطس في المكان.

الحضور خائف، مستعد للغضب لأقل هفوة. تحدثوا بصوت مرتفع متحشرج. وقفوا. لوّحوا بأصابعهم. وعظوا. بكى كثير منهم ولم يكونوا كلهم من النساء. النتيجة قرار غلق البلدة بالكامل. لن يُسمح لأحد بالدخول. لو أراد أحد المغادرة، ليغادر، ما دام يفهم أنه لن يُسمح له بالعودة مرة أخرى. أغلقت الطرق الخارجية والداخلية - خاصة طريق US 1- بالشاحنات المملوكة لخدمة صيانة البلدة، ووقف المتطوعون في ورديات مراقبة يحملون السلاح. أي أحد يخالف التعليمات سيُطلق عليه الرصاص.

فريق مُكوّن من عشرين شخصًا، اقترحوا نبذ المصابين فعليًا إلى خارج البلدة. لم يعط أحد صوته لهذا القرار، لأنه بحلول ليلة الرابع والعشرين، ليلة انعقاد الاجتماع، صار لكل سليم أقرباء أو أصدقاء مرضى. صدق الكثير ما قيل في الأخبار عن اللقاح، وفكروا في أنهم لن يستطيعوا النظر إلى أعين بعضهم إن كان كل هذا أمرًا بسيطًا لا يستحق أن يضحوا بالمرضى من أجله ويلقون بهم إلى خارج البلدة.

توصلوا في النهاية إلى أن المصطافين فقط سيُخرجون من البلدة. عارض المُصطافون الاقتراح، وقالوا إنهم ساعدوا على مدارس البلدة وعززوا طرقها وشواطئها العامة منذ سنوات، بالإضافة إلى الضرائب التي يدفعونها عن مساكنهم هنا. اقتصاد البلدة في الصيف يعتمد على دولاراتهم. لو غُوملوا بهذه الطريقة، فلن يعودوا مرةً أخرى إلى أوجونكويت، وليعمل سكانها في الصيف في جمع السلطعونات والمخار من الرمل لكسب العيش. قُوبلت حركة إخراج مرضى المصطافين من البلدة بالرفض.

بحلول الليل كانت المتاريس قد أُقيمت، وبحلول فجر يوم الخامس والعشرين، أطلق الرصاص على عدد من الأشخاص عند الحدود المغلقة، جرح أغلبهم، وقتل أربعة منهم. كلهم كانوا يتجهون شمالًا، يخرجون إلى بوسطن مدفوعين بالخوف والهلع. عاد بعضهم ليحاولوا طريقًا آخر، لكن كثيرًا منهم كانوا أغبى من أن يفهموا جدية الموقف، وحاولوا كسر الحواجز أو الدوران من حولها، وتم التعامل معهم.

بيد أن أغلب من أقاموا المتاريس مرضوا بدورهم في المساء، وأصابتهم الحمى، فدسّوا أسلحتهم بين أفخاذهم ليستطيعوا إفراغ أنوفهم. سقط البعض فاقدًا الوعي، من بينهم فريدي ديلانسي وكُرتس بوشام، ونُقلوا إلى المستوصف المرتجل الذي أُقيم في مبنى البلدية، ثم توفوا هناك.

صباح أمس، رقد والد فراني -الذي عارض فكرة غلق الحدود- في فراش مرضه، ومكثتُ فراني لتمريره. لم يسمح لها بنقله إلى المستوصف. أخبر فراني أنه كان سيموت حتمًا، فليمت في بيته محافظًا على خصوصيته وكرامته. في الظهيرة خفَّ المرور حتى جف تمامًا. قال جَس دینسمور - مسؤول باحة الانتظار عند الشاطئ- إنه يظن أن سيارات كثيرة توقفت وسط الطريق السريع بما فيها من متوفين، حتى منعت باقي السائقين من الحركة. في اليوم الخامس والعشرين من الشهر، لم يكن أكثر من أربعين رجلًا قادرين على تحمل حراسة المداخل، وأصيب جَس -الذي كان بصحة جيدة حتى الأمس- بالرَّشح. الحقيقة أن الوحيدين اللذين بدا بصحة جيدة هو وشقيق أمي لودر الأصغر ذو الأعوام الستة عشر. ماتت أمي نفسها قبيل أول اجتماع لمجلس البلدة، وفستان زفافها معلق في الخزانة وحيدًا.

لم تخرج فران اليوم، ولم ترَ أحدًا منذ زارها جَس أمس للاطمئنان عليها. سمعتُ صوت محركات بضع مرات هذا الصباح، وصوت طلقتين ناريتين متتاليتين، وكان هذا كل شيء. أضاف الصمت المبالغ الذي لا يقطعه شيء المزيد إلى شعورها بعدم الواقعية.

ثم إن لديها تلك الأسئلة لتفكر فيها. الذباب.. الأعين.. الفطائر. وجدت فراني نفسها تنصت لصوت البرَّاد المُلحَق به جهاز صنع ثلج. كل عشرين ثانية يُصدر صوت ارتطام مكعب ثلج جديد بالوعاء.

جلست هناك ساعةً تقريبًا، طبقها أمامه، وملامح الحيرة الباهتة على وجهها. ببطء طفا خاطر آخر على سطح عقلها.. بل خاطران، بدا كلاهما متصل بالآخر ومنفصل تمامًا في الوقت ذاته. هل هما خاطران مكملان لثالث أكبر؟ فكرت فيهما وهي تنصت إلى صوت ارتطام مكعبات الثلج. الخاطر الأول أن أباهما مات، مات في بيته، وربما راق له هذا.

الخاطر الثاني ذو علاقة باليوم. كان يومًا صيفيًا جميلًا لا تشوبه شائبة، من النوع الذي يسعى المصطافون فيه إلى ساحل مَين. أنت لا تذهب للسباحة لأن الماء لا يصير دافئًا أبدًا، بل تذهب لتستمتع بالنهار.

الشمس ساطعة، ومقياس درجة الحرارة في المطبخ يشير إلى ما قبل 80 درجة فهرنهايت. اليوم جميل، وأبوها ميت. هل من صلة بينهما غير التضاد المُبكي؟

عقدت حاجبيها، عيناها شاردتان، عقلها يفحص العضلة، ثم ينجرف مبتعدًا ليفكر في أمور أخرى. لكنه يعود دائمًا إلى النقطة نفسها. اليوم جميل دافئ، وأبوها ميت.

باغتتها وضوح خاطر، فأغمضت عينيها كأنها أمام انفجار، وضربت يدها الطبق فأسقطته على الأرض. تهشم وتناثرت شظاياه كقنبلة، وصرخت فراني وكفاهها تغطيان خديها وتعتصرانهما. اختفى الشرود من عينيها، وكأنها لُطِمت أو وُضعت زجاجة نشادر تحت أنفها فاستفاقت.

لا يمكن الاحتفاظ بجثة في المنزل في هذا الحر. تسلل الشرود مرةً أخرى مخفيًا تفاصيل خاطر والرعب الناجم عنه، فراحت تنصت إلى صوت ارتطام مكعبات الثلج مرةً أخرى...

قاومت الشرود. نهضت واتجهت إلى الحوض. فتحت صنبور الماء البارد وغسلت وجهها الساخن. يمكنها أن تشرد لاحقًا كما تشاء، لكن لا بد أن تحل المشكلة أولًا. لا يمكن أن تترك أباه في فراشه وسط حر أواخر يونيو. يشبه الأمر ما درسته في الجامعة من قصة فولكنر «زهرة لإيميلي»⁽¹⁾. أهالي البلدة لا يعرفون مصدر الرائحة البشعة، لكنها خفت بعد مدة.

صرخت وسط المطبخ المشمس: «لا!». وذرعت المطبخ تفكر. أول ما خطر لها دار جنازات البلدة. لكن من قد... قد...

صاحت في نفسها: «كُفي عن الهرب من المواجهة! من قد يدفنه؟».

مع صوتها جاءت الإجابة، واضحة تمامًا: من قد يدفنه سواها؟

كانت الساعة الثانية والنصف بعد الظهر عندما سمعت صوت سيارة ذات محرك قوي تقترب. وضعت فراني المجرفة على حافة الحفرة - كانت تحفر في الحديقة بين الطماطم والخس - واستدارت في خوف.

خرج هارولد لودر السمين من السيارة الكاديلاك الحديثة، ذات اللون الأخضر. شعرت فراني على الفور بالنفور. إنها لا تحب هارولد ولا تعرف أي شخص يحبه حتى أخته الفقيدة أمي. ربما أحبته أمه. تعجبت فراني من

(1) تدور القصة حول إيميلي التي يمنعها أبوها من الزواج، لكنه يموت وهي في عمر الثلاثين، ولا تصدق أنه مات وترفض دفنه (الترجمة)

غربة الأمر. لم يعد في البلدة أحياء سواها وواحد من القلة الذين تبغضهم في البلدة.

حرّر هارولد جريدة مدرسة أوجونكويت العليا، وكتب فيها قصصاً قصيرة غريبة تُسرد في الزمن المضارع، أو من منظور الشخص الثاني، أو كلاهما. تمشي في رواق الهذيان، تدفع بكتفك الباب المُشطّي، وتنظر إلى النجوم المحتشدة.. هذا هو أسلوب هارولد.

أسرّت آمي لفراني في مرة: «إنه يقذف في سرواله الداخلي. أليس هذا مقرفاً؟ بل ويظل يرتديه حتى يتصلّب».

شعر هارولد أسود دهني. طوله يربو على الأقدام الستة، ووزنه مائتان وأربعان رطلاً تقريباً. يفضل انتعال أحذية رعاة البقر ذات المقدمة الحادة، وارتداء الأحزمة الجلدية العريضة التي لا ينفك يرفعها بسبب بطنه الضخم مقارنة بمؤخرته. يحب ارتداء القمصان ذات نقشة الأزهار، ويطوي كُميها مثل البحّارة. لا يكثرث هارولد لعدد مرات قذفه، ولا لوزنه، ولا على مَنْ سيتنمر هذا الأسبوع. تشعر فراني عندما تنظر إليه بالاشمئزاز والقلق، كأن كل فكرة زلقة في عقله تصل إليها بالتخاطر. هي لا تظنه خطر حتى في موقف كهذا، لكنه قد يكون مزعجاً كعادته، أو ربما أكثر.

لم يرها؛ كان ينظر إلى المنزل ويصيح: «هل من أحد هنا؟»، ثم يضغط نفير الكاديلاك. أذى الصوت أعصاب فراني. كانت لتظل صامتة لولا رأى هارولد الحفرة وهو يستدير عائداً إلى السيارة، ورأها تجلس عند حافتها. للحظة راودتها فكرة الزحف إلى عُق الحديقة والاختباء وسط البازلاء والفول حتى يكل ويرحل.

قالت لنفسها: «كفى. ما هو إلا إنسان لا أكثر».

نادت: «أنا هنا».

أجفل هارولد، وترجع ردفاه داخل سرواله الضيق. يبدو أنه كان ينادي ولا يتوقع أن يجد أحداً. استدار نحوها، ومشّت فراني نحو مدخل الحديقة، تمسح يديها في فخذيها خجلة من أن يراها مرتدية شورت الرياضة الأبيض القصير، وصدرية. زحفت عينا هارولد على جسدها تتفحصها وهي تقترب لتقابله.

قال في سعادة: «فراني، أهلاً».

- أهلاً يا هارولد.
- سمعت أنك تقاومين المرض المميت بنجاح، فقررت أن تكوني أول محطة في جولتي. أنا أطمئن على حال سكان البلدة.
- ابتسم كاشفاً عن أسنان تلمح إلى حالة فرشاة أسنانه غير المستخدمة.
- آسفة لما حدث لآمي يا هارولد. هل أبوك وأمك...
- أخشى أن الأمر كما تظنين.
- أطارق للحظات، فانسدل شعره ملتصق الخصلات وأضاف: «لكن الحياة تستمر. أليس كذلك؟».
- أعتقد هذا.
- ثبتت عينيه على نهديها ونقل بصره بينهما، فتمنت لو أن سترة بالقرب منها.
- ما رأيك في سيارتي؟
- سيارة السيد برينيجان، أليس كذلك؟
- كانت. لطالما آمنت أن من يقود سيارة نهمّة كهذه في أيام كساد كالتي نعيشها يستحق أن يعلق متدلياً من أقرب لافتة بنزينة سُنوكو. لكن كل هذا تغير. قلة الناس تعني وفرة بترول.
- فكرتُ فراني: هل قال حقاً بترول؟ أكمل هارولد: «بل وفرة في كل شيء».
- نقل نظره إلى عانتها، ثم إلى وجهها، ثم إلى الشورت، ثم إلى وجهها مرة أخرى. ابتسامته مرحة مأكرة.
- هارولد، بعد إذنك، أريد أن أستكمل...
- ماذا كنت تفعلين يا صغيرتي؟
- حاول شعور الانفصال عن الواقع التسلل إليها مجدداً، ووجدت نفسها تتساءل عن المدى الذي يمكن للمخ البشري تحمله قبل أن ينقطع كحبل مطاطي. مات والداي، لكنني أتحمل. مرض غريب يستشري في البلاد، وربما في العالم كله، يجتث الصالح والطالح على حد سواء، لكنني أتحمل. أحفر قبراً لأبي في الحديقة التي كان يُشدّبها أبي الأسبوع الماضي، وعندما تصير عميقة كفاية سأضعه فيها، وأعتقد أنني أتحمل. لكنني لا أعرف أكنت قادرة على تحمل هارولد لودر يركب سيارة روي برانيجان الكاديلاك ويتفحص جسدي وينعتني بصغيرتي.

قالت في صبر: «هارولد.. لستُ صغيرتك. أنا أكبر منك بخمس سنوات. مستحيل أن أكون صغيرتك».

- مجرد تعبير أدبي.

ثم غمز وهي تحاول السيطرة على غضبها، وأضاف: «عمومًا، ما هذه الحفرة؟».

- قبر. لأبي.

غمغم هارولد: «أوه».

- سأحصل على شربة ماء قبل أن أنهيه. بصراحة يا هارولد أريدك أن ترحل. أنا حانقة.

قال بطريقة جافة: «أتفهم هذا. لكن يا فران... في الحديقة؟».

كانت قد اتجهتُ فعلاً إلى المنزل، لكنها التفتتُ نحوه وهتفت غاضبةً: «ماذا تقترح بديلاً؟ أن أضعه في تابوت وأجرّهُ إلى المدافن؟ بالله لقد أحبّ هذه الحديقة! ثم ما دخلك أنت؟!».

بدأت تبكي، فهُرَعْتُ إلى المطبخ وهي تكاد ترتطم بمقدمة الكاديلاك. تعرف أن هارولد سراقب اهتزازَ رديها وسيستخدم أشعة إكس التي لا تكف عن تجريد الناس من ملابسها في عقله، وهذا ما جعل غضبها يستعر وحزنها يتعاظم، فتبكي أكثر.

انغلق الباب السلكي خلفها. مشتُ إلى الحوض وشربتُ بسرعة ثلاثة أكواب ماء بارد، فضرب رأسها صداد مفاجئ وتقلصت معدتها. أغمضت عينيها مستندةً إلى الحوض، تنتظر أكانت ستقيء. بعد لحظات أخبرتها معدتها أنها تستطيع تحمل الماء البارد، على الأقل كبدية.

سمعتُ صوتاً منخفضاً متردداً يهمس: «فراني؟».

التفتت وراءها لتجد هارولد يقف وراء الباب السلكي، ذراعه متدليان على جانبي جسده. بدا مهتمًا، مهمومًا، فشعرتُ فراني فجأة بالذنب تجاهه. هذا هو هارولد لودر الذي يدفن حزنه في التجوال بسيارة روي برانيجان. هذا هو هارولد لودر الذي لم يحظَ بموعد غرامي في حياته، ما أثر في لغته واستخداماتها، وعلى علاقته بالفتيات وبالأصدقاء وبكل شيء، حتى بنفسه.

- آسفة يا هارولد.

- لا. لم يكن لي حق في أن أقول أي شيء. اسمعي، يمكنني مساعدتك لو شئت.

- شكرًا. لكنني أفضل فعل هذا وحدي. إنه...

- أمر شخصي. طبعًا أفهم هذا.

كان في وسعها إخراج سترة من خزانة المطبخ، لكنه كان سيعرف سبب فعلتها، وهي لا تريد إحراجة مرة أخرى. هارولد يحاول جاهدًا أن يكون صالِحًا، وهو أمر يشبه التحدث بلغة أجنبية. عادة إلى الشرفة الخارجية، ووقفًا ينظران إلى الحديقة، وإلى الحفرة والتراب الذي تقيأت إلى جوارها، وإلى ما بعد الظهيرة المعتاد كل يوم كأن شيئًا لم يكن.

سألت هارولد: «ماذا ستفعل؟».

- لا أعرف... لا أعرف...

- ماذا؟

- صعب أن أشرح الأمر. لستُ ضمنَ الأشخاص الأكثر محبة على ساحل نيو إنجلاند، وأشكُّ في أن ينتصب تمثالًا لي ليخلد ذكراي في يوم ما حتى لو أصبحتُ كاتبًا معروفًا كما أتمنى. صدقًا أعتقد أنني سأشيخ قبل أن أصير كاتبًا معروفًا.

لم تقل شيئًا، وظلّت تنظر إليه. قال هارولد وجسده يتصلب كأن ما سيقول انفجارًا: «لذا.. لذا أنا مجبر على التجوال أبدًا في دروب الإجحاف. يبدو الإجحاف بالنسبة إليّ وحشًا يسكنني، حتى إن زهرة اللوتس التي تدرس في قلعة معرفتنا المحلية قد نجحت في إثارة جنوني».

دفع نظّارته إلى أعلى قسبة أنفه، فلاحظت مدى تفاقم مشكلة بثور وجهه. هل أخبره أحد من قبل أن الماء والصابون قد يعالج شيئًا من الأمر؟ أم إنهم شُغلوا في مراقبة نجاح أمي الجميلة الباهرة، وتخرُجها في جامعة مَين في المرتبة الثالثة والعشرين من أصل أكثر من ألف طالب؟ أمي الجميلة التي تضجُ بالحياة فيما هارولد جاف مضْمِل.

كرّر هارولد برفق: «الجنون.. ظلّت أقود الكاديلاك في شوارع المدينة برخصتي المؤقتة». رفع طرفي ساقِي سرواله وأكمل: «وانظري إلى هذا الحذاء. ثمنه ست وثمانون دولارًا. دخلتُ إلى متجر «شو بوت» واخترتُ

مقاسي. أشعر أنني محتال. ممثل في مسرحية. مرثٌ عليَّ لحظات اليوم شعرتُ فيها أنني مجنون حقًا».

قالت فراني: «لا». رائحته تشي بأنه لم يغتسل منذ ثلاثة أيام أو أربعة، لكنها لم تعد تضايقها. أضافت: «لست مجنونًا يا هارولد».

- ربما الأفضل لو جُنتًا.

- سيأتي أحد. ربما بعد انتهاء هذا المرض.

- مَنْ سيأتي؟

أجابت غير واثقة: «شخص ذو سلطة. شخص.. سيعيد كل شيء إلى أصله». ضحك في مرارة ثم قال: «صغيرتي العزيزة.. آسف، آسف يا فران، لكنَّ الأشخاص ذوي السلطة هم مَنْ تسببوا في هذا. إنهم بارعون في إعادة الأمور إلى أصلها. لقد حلوا مشكلة الكساد والتلوث ونقص الوقود والحرب الباردة. نعم، إنهم يعيدون كل شيء إلى أصله، هذا صحيح. إنهم يحلون المشكلات كما حلَّ الإسكندر عقدة جورديوس بقطعها بسيفه».

- لكنَّ ما نعانیه هو سلالة قوية من الإنفلونزا يا هارولد. سمعتُ هذا في الراديو...

- لا تتصرف الطبيعة الأم بهذه الطريقة يا فران. جمع الشخصُ ذو السلطة الذي تنتظرينه عددًا من علماء البكتيريا والفيروسات والأوبئة في منشأة حكومية ليرى إلّامَ ستخلُص تجاربهم العجيبة. وفي يوم قال حاذق منهم: «انظروا ماذا صنعتُ. هذا مرض يقتل كل مخلوق. أليس هذا عظيمًا؟»، فمَنحوه وسامًا وعِلاوة، ثم تسرب الشيء المميت. ماذا ستفعلين يا فراني؟

- سأدفن أبي.

نظر إليها طويلًا ثم قال برقة: «أوه، طبعًا. اسمعي، سأرحل من هنا، سأخرج من أوجونكويت. لو مكثتُ أكثر لجُنت. لماذا لا تأتين معي يا فراني؟».

- إلى أين؟

- لا أعرف. ليس بعد.

- لو عثرتَ على مكان، فأخبرني.

أشرق وجه هارولد وهو يقول: «حسنًا. اتفقنا. كما ترين، المسألة مسألة...». ثم صمت ونزل درجات الشرفة الخارجية في شرود، حذاؤه الجديد يلمع تحت الشمس. راقبته فراني في فضول حزين. لَوَّحَ لها وهو عند الباب السيارة، فرفعتُ ذراعها ملوَّحةً. اهتَزَّتْ السيارة وهو يعود بها إلى الخلف، ثم دعس بعض أزهار كارلا بالإطارات الخلفية، وكاد يسقط عن حافة الطريق هو يستدير. أطلق النفير مرتين، واختفى في الأفق. انتظرتُ فران حتى غاب تمامًا، ثم عادت إلى حديقة أبيها.

في وقت ما بعد الساعة الرابعة، صعدت إلى أعلى تجر قدميها، تجبر نفسها على الاستمرار. صداد خافت يحتل صدغيها وجبهتها، تسبَّبَ فيه الحر والإجهاد والاضطراب. طلبتُ من نفسها أن تنتظر يومًا آخر، لكنَّ الانتظار سيجعل الوضع أسوأ. حملتُ تحت ذراعها شِرفَ أمها المفضلَ المطرَرَّ يدويًا واتجهت لإتمام مهمتها.

لم تسرِ الأمور كما تمننتُ، لكنها لم تكنْ أيضًا بالسوء الذي خشيته. حطَّ الذباب على وجهه، يحك ساقيه الخلفيتين مرارًا ثم يطير مرة أخرى. تحول لون جلده إلى الأزرق الداكن، لكنَّ الشمس كانت قد لفحته في أثناء عمله في الحديقة، فلم تظهر الزرقعة عليه بوضوح لو قررتُ ألا تلاحظها. لم تُفُحْ رائحته، وهذا أكثر ما أهمها.

مات على الفراش المزدوج الذي شاركته فيه كارلا لسنوات. فردتُ فران شِرفَ أمها على الناحية الخالية من الفراش ليغطي ذراع أبيها وحوضه وساقه. ابتلعتُ ريقها بصعوبة ورأسها ينبض بالألم، واستعدتُ لدرجة أبيها إلى كفنه. كان بيتر جولد سميث يرتدي منامته المخططة البسيطة المضحكة، لكنها كافية. لن تتحملَ فكرة استبدال ملابسه بأخرى.

تحاملتُ على نفسها وأمسكتُ ذراعه اليسرى المتصلبة كقطعة خشب، ودفعته ليتدحرج. خرج منه صوت تجشؤ طويل مرعب، كأن جرادة صحراوية تسللت إلى حلقه وراحت تصرخ وتصرخ.

أجفَلْتُ، وتعثرتُ فكادتُ تسقط فوق الكومود حيث مشطه وفرشاته ومنبهه وكومة فِكَّة. تمايل الكومود فتدحرجت كلها على الأرض. ظهرتِ الرائحة الآن، رائحة غازية نتنة، أزالَتْ عنها الغيمة التي تحجب استيعابها حقيقة الوضع.

هوٲ على ركبتيها ولَفَت ذراعيها حول رأسه وانتحبت. إنها لن تدفن دمية بحجم إنسان، بل أباه الذي خرجتُ منه آخر ملامح إنسانيته على هيئة غاز نتن معلق الآن في الهواء، سرعان ما سيزول.

صار العالم رماديًا، وابتعد صوت نحيبها وصخب حزنها، كأنه صوت شخص آخر. مرَّ وقت عجزت عن تحديده بدقة، ثم عادت إلى نفسها شيئًا فشيئًا، وإلى المهمة التي عليها إنجازها، وما عجزت عن فعله من قبل. أدارت جسد أبيها، فخرج منه تجشؤ آخر. قَبَلْتُ جبينه وهمست له: «أحبك يا أبي. أحبك. فراني تحبك».

سالت دموعها على وجهها. خلعتُ عنه منامته وألبسته أفضل بذلاته وهي بالكاد تشعر بألم ظهرها ورقبتها وذراعيها إذ ترفعه. سندتُ رأسه بكتابين أسفلهُ لتربط رابطة عنقه. وجدتُ في الدرج أسفل جواربه أوسمة الجيش الخاصة به؛ القلب البنفسجي، ميدالية الشرف، وشاح الحملة العسكرية.. والنجمة البرونزية التي نالها عن حربه في كوريا. ثَبَّتَها على صدره، ورشَّت وجهه وعنقه ويديه ببودرة الأطفال التي وجدتُها في الحمام. رائحة البودرة المثيرة للذكريات أعادت إليها الرغبة في البكاء. أغرق العرق جسدها، وتدلَّت أسفل عينيها هالات الإرهاق الداكنة.

فردتُ نصفَ الشرشف الآخر فوقه، ثم خيَّطته لتغلقه عليه وأحكمت الخياطة. بالمزيد من النحيب أنزلت جسده إلى الأرض، ثم وقفتُ تلتقط أنفاسها حتى شعرت أنها قادرة على الاستمرار. رفعتُ نصفَ الجثة العلوي وجَرَّتُها إلى قمة الدَّرَج، ثم بحرص سحبتها إلى الطابق السفلي. توقفتُ مرة أخرى ولهتُ لهاثًا مختلطًا بالبكاء والنواح. زاد الصداع أكثر وأكثر.

جَرَّتُ الجسد خلال الصالة إلى المطبخ، ثم إلى الشرفة الخارجية ودَرَجها. اضطَرَّتُ إلى الراحة مرة أخرى. نور المساء المبكر الذهبي حلَّ على الأرض الآن. انهارتُ مجددًا وجلسْتُ إلى جواره، ورأسها بين ركبتيها، يتأرجح جذعها أمامًا وخلفًا وهي تبكي. زقزقتُ العصافير. بعد هنيهة استطاعت أن تجره إلى الحديقة. أخيرًا انتهت المهمة، وبعودة آخر أكوام التراب إلى موضعها، كانت الساعة قد جاوزتِ التاسعة. اتسختُ بالكامل عدا دائرتين حول عينيها نظفتُهما الدموع، والتصق شعرها بوجهها بفعل العرق.

غمغمتُ: «أتمنى لروحك السلام يا أبي».

أعادَتِ المجرفة إلى ورشة أبيها. احتاجت إلى الراحة مرتين وهي تصعد الدرجات الست إلى الشرفة الخارجية. عبرت المطبخ دون أن تضيء الأنوار، وركلت حذاءها وهي تدخل غرفة المعيشة. ارتمت هناك على الأريكة ونامت على الفور.

في الحلم صعدت الدرجات مرة أخرى إلى أبيها، لتقوم بالمهمة وتواريه تحت التراب. لكن عندما دخلت الغرفة كان الشرشف فوق الجثة فعلاً، وتغير شعورها بالحزن والفقد إلى شعور آخر.. شعور أقرب إلى الخوف. عبرت الغرفة المظلمة مرغمة، لا ترغب إلا في الفرار، لكنها لا تستطيع التوقف. الشرشف يلمع وسط الظلال شبحياً، مربّعاً. خطر لها فجأة أن مَنْ تحت الشرشف ليس أباه. وَمَنْ تحت الشرشف ليس ميتاً، بل شيء -شخص- مفعم بحياة مظلمة، ومرح مشؤوم. ستكلفها تعرية الراقد تحت الشرشف أكثر من حياتها، لكنها لا تستطيع التحكم في ساقها...

مدّت يدها، طففت فوق الشرشف.. وانتزعته. كان مبتسماً، لكنها لم تر وجهه. باغتتها موجة برودة عاتية تلفظها تلك الابتسامة الرهيبة. لا، لم تر وجهه، لكنها ترى الهدية التي يمنحها هذا الشيء المروّع لطفلها الذي لم يولد بعد: علاقة ثياب ملوئة⁽¹⁾.

فرّت، فرّت من الغرفة، من الحلم، خرجت...

خرجت إلى غرفة المعيشة حيث الساعة تشير في العتمة إلى الثالثة. جسدها يطفو فوق رغوة من هلع، بعدما تبدد الحلم مُخلِّقاً شعوراً مشؤوماً، كطعم وجبة فاسدة في الحلق. فكرت وهي بين النوم واليقظة: هذا هو. الماشي. الرجل بلا وجه.

ثم نامت مرة أخرى بلا أحلام، وعندما استيقظت في الصباح التالي، لم تستطع تذكر الحلم قط، لكنها إذ تفكر في الجنين في بطنها، تشعر برغبة عارمة في حمايته، رغبة تشلّها وترعبها من فرط قوتها.

(1) يستخدم أبناء الشوارع علاقة الثياب المعدنية الملوية على نفسها كأداة إجهاض (المترجمة)



الفصل التاسع والعشرون

في الليلة نفسها، نام لاري أندروُد مع ريتا بلاكفور، فيما فراني جولد سميث نائمة وحدها تحلم بذلك الحلم المشؤوم، وستوارت ريتمان ينتظر إلدر. كان ينتظره منذ ثلاثة أيام.. ولم يخيب إلدر أمله تلك الليلة.

بعد ظهيرة يوم الرابع والعشرين، جاء إلدر ومُمرضان وأخذوا التلفاز. حمله الممرضان وإلدر يقف حاملاً مسدسه ملفوفاً في كيس بلاستيكي، يُوجهه نحو ستو. لكن في ذاك الوقت لم يعد ستو في حاجة إلى تلفاز، فهو لا يضيف إليه سوى المزيد من الهراء المُحير على أي حال. كل ما كان يفعله هو الوقوف خلف نافذته المُسيجة والنظر إلى البلدة المطلة على النهر بالأسفل. كما قال الرجل في الأغنية: «لا تحتاج إلى عالم أرساد لتعرف من أي اتجاه تهب الريح».

توقَّف الدخان عن الانبعاث من مصنع النسيج، وصَفَا النهر من بقايا الأنسجة والصبغات. غادرت ساحة انتظار المصنع أغلب السيارات اللامعة الصغيرة كمجسمات لعب، ولم تعد مرة أخرى. أمس، يوم السادس والعشرين، لم يعد في الشوارع إلا بضع سيارات تتمايل على الطرق، ولم يأت أحد لإزالة حطام السيارات المتصادمة.

وسط البلدة يمتد تحته كخريطة مجسمة، مهجور بالكامل. لم تتحرك ساعة الميدان التي تدق معلنة مرور ساعات حبسه منذ التاسعة صباحاً. أصدرت دقات غريبة ممطوطة كأنها صندوق موسيقى يغرق، ثم توقفت. اندلع حريق في ما بدا له مقهى على الطريق أو متجر خارج البلدة. ظل المكان يحترق كجسيم مستعرة طوال فترة ما بعد الظهر، يلوث دخانه الأسود زرقة السماء، لكن لم يظهر إطفائيون لإخماده. إن لم يكن المبنى

على طريق أسفلتي، لانتشرت منه النار إلى نصف البلدة. اليوم يلمع الحطام المحترق تحت زخة أمطار الليل.

افتراض ستو أن آخر أوامر إدر ستكون قتله. لم لا؟ لن يكون إلا جثة أخرى، وهو يعرف أسرارهم الصغيرة. إنهم أخفقوا في صنع علاج، وفي اكتشاف سبب مناعته واختلافه عن الباقين. إنه باب موارب مُحْتَجَز عند مجموعة حمقى.

يعرف ستو أن البطل في الأفلام والقصص يبحث دائماً عن طريقة للهروب. يا للجحيم، هذا ينطبق أيضاً على بعض الناس في الواقع، لكنه ليس واحداً منهم. لقد قرَّر أن أفضل شيء يفعله في النهاية هو انتظار قرار إدر والاستعداد له.

وجود إدر إشارة واضحة إلى أن (الأزرق) أو ما يسمونه بالإنفلونزا الفائقة قد أجهز على هذا المكان. يناديه الممرضون دكتور إدر، لكنه ليس طبيباً. هو رجل في منتصف الخمسينيات، ذو عينين قاسيتين، لا يمزح أبداً. لم يحتاج أي طبيب قبل إدر إلى حمل سلاح. أثار إدر زعر ستو لأن العقل أو الرجاء لن يجدي معه. إدر ينتظر الأوامر، وعندما تصل إليه سينفذها، فهو النسخة العسكرية من رجال التنفيذ في المافيا، ولن يفكر مرتين في تلك الأوامر تحت ضوء المستجدات.

منذ ثلاث سنوات، اشترى ستو رواية (تل وتُرشيّب دون) ليرسلها إلى ابن أخيه في واكو. أتى بصندوق ليضع فيه الكتاب، ولأنه يكره لف الهدايا أكثر مما يكره القراءة، قرَّر أن يلقي نظرة على أول صفحاته ليعرف عمّ تدور الأحداث. قرأ الصفحة الأولى، فالثانية... ثم ظل طوال الليل يشرب القهوة ويدخن ويقرأ بطريقة المستمتع غير معتاد القراءة. اتضح له أن الرواية عن الأرانب. أكثر مخلوقات الله على الأرض غباء وجبنًا، بيد أن من كتب الرواية جعلها مختلفة، ودفع القارئ للاهتمام بشأنهم. القصة رائعة، وأنها ستو الذي يقرأ بسرعة الحلزون في يومين.

أكثر ما يتذكر من الكتاب كلمة: «يتخشّب». رغم أنها كلمة غير شائعة، فهمها على الفور لأنه رأى الكثير من الحيوانات «المُتخشّبة»، وصدم بعضها على الطريق السريع. الحيوان المتخشّب يجلس في منتصف الطريق وأذناه مثنيتان إلى الخلف، يحدّق إلى السيارة إذ تندفع نحوه، غير قادر على الحركة أو الابتعاد عن مصيره. يتخشّب الغزال بسهولة لو أضيء نور ساطع في

وجهه. الموسيقى الصاخبة تُخسب الراكون، والنقر المستمر على القفص يخسب الببغاء بداخله.

إلدر جعل ستو يتخسب. ينظر إلى عيني إلدر الباردتين فتنسحب منه الإرادة. لا بد أن إلدر نال دورات تدريبية في الكاراتيه والهمجية والحيل القذرة. ماذا في وسعه أن يفعل أمام رجل كهذا؟ التفكير في إلدر فقط يجعل إرادته تخور. تجعله يتخسب. يا لها من كلمة تناسب مزاجه المعتل.

في العاشرة ومض المصباح الأحمر فوق الباب وظل يومض، وشعر ستو بالعرق البارد يغمر ذراعيه ووجهه. يحدث له هذا كلما ومض الضوء الأحمر، لأن في مرة من المرات سيدخل إلدر وحده، وسيدخل وحده لأنه لن يريد شهودًا. في مكان ما محارق للتخلص من جثث ضحايا الوباء، وسيرميه إلدر في واحدة منها. لا مزيد من الأبواب المواربة.

دخل إلدر من الباب وحده.

كان ستو جالسًا على فراش المستشفى، مستندًا بيد واحدة على ظهر مقعد. شعر ستو بشعور مُمرض في معدته لدى رؤية الرجل. رغبة في تقيؤ فيض من كلمات الرجاء رغم معرفته أن الرجاء لن يؤثر فيه. لا رحمة في الوجه خلف القناع الشفاف.

اتضح له كل شيء الآن، وصار المشهد ملونًا، بطيئًا. يكاد يسمع صوت حركة عينيه في محجريهما وهو يتابع تقدم إلدر إلى داخل الغرفة. هو رجل ضخم ممتلئ، بذلته الواقية البيضاء مفرودة على جسده. فوهة السلاح الذي يحمله في قطر نفق.

سأله إلدر بصوت تنفسي سمعه ستو خلال الميكروفون: «كيف تشعر؟». تفاجأ ستو بالسؤال العادي. أجاب: «كما أنا. متى أخرج من هنا؟».

- قريبًا.

فوهة سلاح إلدر موجهة نحو مكان ستو، لا نحوه هو شخصيًا، ولا بعيدًا عنه أيضًا. عطس عطسة مكتومة ثم سأل: «أنت لا تتكلم كثيرًا، أليس كذلك؟». هزّ ستو كتفيه، فأكمل إلدر: «أحبّ الصموتين. الثرثارون نائحون لا يتسببون إلا في وجع الرأس. وصلت إليّ أوامر بخصوصك منذ عشرين دقيقة يا سيد ريدمان...».

- أي أوامر؟

- أُمِرْتُ أَنْ...

نظر ستو إلى ما وراء كتف إلدر، نحو حافة الباب، ثم صاح: «يا يسوع المسيح! يا له من فأر لعين. أي مكان هذا ترتع فيه الفئران هكذا؟».

التفت إلدر خلفه، فتفاجأ ستو من نجاح خدعته على هذا النحو. نزل عن الفراش وأمسك ظهر مقعده بكلتا يديه وإلدر يلتفت إليه مرة أخرى. اتسعت عينا إلدر في قلق. رفع ستو المقعد فوق رأسه وخطا إلى الأمام وهو يهوي به إلى أسفل كل قوته.

صاح إلدر: «عُد إلى مكانك! لا...».

ضرب المقعد ذراعه اليمنى، فسقط السلاح على البساط وخرق الكيس بطلقة هربت منه. خشي ستو من أنه لا يملك سوى ضربة واحدة أخرى قبل أن يتمالك إلدر نفسه، فعزم على أن تكون مؤثرة. رفع المقعد مرة أخرى، وحاول إلدر تحريك ذراعه المكسورة فعجز. هوت قوائم المقعد فوق غطاء رأس إلدر الأبيض، فانكسر القناع الشفاف ودخلت شظاياه في عيني وأنف الرجل، وصرخ متعثراً إلى الخلف.

زحف على أربع نحو المسدس على البساط، فطوّح ستو المقعد مرة أخرى ليضرب به مؤخره رأس إلدر، فانهار أخيراً. انحنى ستو وهو يلهث ليلتقط السلاح، ثم ابتعد وهو يصوبه نحو الجسد الممد على الأرض، ولم يتحرك إلدر. للحظات عذبه خاطر كابوسي: ماذا لو لم تكن لدى إلدر أوامر بقتله، بل بالإفراج عنه؟ لكن هذا غير منطقي، أليس كذلك؟ إن كان أمراً بالإفراج، فلماذا الحديث عن النواح ووجع الرأس؟

لا.. لا بُدَّ أنهم أرسلوا إلدر لقتله.

حدّق ستو إلى الجسد على الأرض وهو يرتجف. لو قام إلدر الآن سيطيح تصويبه حتى من هذه المسافة القليلة، لكنه لا يظن أنه سيقوم. ليس الآن، ولا في أي وقت لاحق.

شعر فجأة برغبة ملحة في الخروج من هذا المكان، حتى إنه كاد ينطلق من الباب إلى أي مكان وراءه. لقد ظلّ حبساً أسبوعاً أو أكثر، ولا يرغب في شيء الآن إلا في تنفس هواء نقي، ثم الابتعاد عن هنا. لكن لا بُدَّ أن يفعل هذا بحرص.

مشى إلى قفل الباب، وضغط الزر، فانطلق الهواء وانفتح الباب الخارجي. خلفه وجد غرفةً مؤثثةً بمكتب واحد فقط، فوقه رزمة تقارير طبية.. وملابسه. تلك التي كان يرتديها في رحلته بالطائرة من برينتري إلى أتلانتا. مسّته إصبع الذعر الباردة مرة أخرى. لا شك أن هذه الملابس كانت ستذهب معه إلى المحرقة مع تقاريره الطبية. وداعًا ستورات ريديمان كأنك لم توجد قطّ. الحقيقة...

سمع صوتًا خافتًا من ورائه، فاستدار بسرعة. إدر يترنح مبتسمًا متجهًا نحوه، وشظية بلاستيكية منغرسة في عينه. قال ستو وهو يصوب المسدس نحوه ممسكًا إياه بكلتا يديه المرتجفتين: «لا تتحرك».

لم يبدُ عن إدر ما يشي بأنه سمع، وظل يتقدم. ضغط ستو الزناد، فتوقفت إدر وتحولت ابتسامته إلى تكشيرة متألّمة، وظهر على صدره بذلته البيضاء ثقبٌ صغيرٌ. للحظات تمايل، ثم هوى على وجهه. حدق إليه ستو هنيهةً متجمدًا، ثم انطلق إلى الغرفة حيث متعلقاته الشخصية على المكتب.

حاول فتح باب الغرفة فانفتح، ورأى خلفه ممرًا مضاءً بمصابيح فلورسنت خافتة. في منتصف الطريق إلى المصعد عربية أقفاص تقف أمام ما بدا له غرفة تريض. سمع صوت أنين مكتومًا. أحدهم يسعل بلا انقطاع.

عاد إلى الغرفة وجمع حاجاته تحت ذراعه، ثم خرج وغلق الباب من خلفه، ومشى في الممر، يده المتعركة تقبض على مسدس إدر. عندما وصل إلى العربية نظر خلفه مدهوشًا من الصمت والخواء. توقف الساعل عن سعاله. توقع ستو أن يظهر إدر في أي لحظة ليلاحقه. وجد نفسه يحنُّ إلى غرفته المغلقة التي أُلْفها.

عاد صوت الأنين مرة أخرى عاليًا. عند المصاعد ممر آخر إلى اليمين، وممرٍ يعرفه ستو مستند إلى الجدار، وجهه متورم مُسود، وصدره يعلو ويهبط بسرعة. نظر إليه ستو فبدأ يئنُّ مجددًا. خلف الممرض، رجل ميت مُتكوّر في وضع جنيني، وفي عمق الممر ثلاث جثث أخرى واحدة منها جثة أنثى. سعل الممرض الذي يعرفه ستو باسم فيك ثم غمغم: «يا يسوع. ماذا تفعل هناك؟ المفترض ألا يُسمح لك بالخروج».

أجاب ستو: «جاء إدر ليتولى أمري، فتوليتُ أنا أمره. أنا محظوظ لأنه مريض».

- أفضل لك أن تعتقد فعلًا أنك محظوظ.

ثم انخرط في نوبة سعال أخرى أكثر ضعفًا. أكمل: «هذا مؤلم يا رجل. لم تصدق كم هو مؤلم. يا لها من ورطة تلك التي غرقنا فيها».

سأله ستو في حرص: «اسمع، هل يمكنني فعل أي شيء لك؟».

- لو أنك جاد، أطلق عليّ الرصاص. جسدي يمزق من الداخل.

ثم سعل مرة أخرى وأنّ في قلة حيلة. لكنّ ستو لن يستطيع فعل هذا، واستمرّ أنين الممرّض وتحطّمت أعصاب ستو. عدا نحو المصاعد مبتعدًا عن الوجه المسودّ كقمر مخسوف، وهو يتوقع أن يناديه فيك بصوته المرتجف المعتل الذي يتكلم به المرضى وهم يطلبون طلبهم الأخير. لكن الممرّض استمرّ في الأنين وهذا أسوأ بشكل ما.

انغلق باب المصعد وبدأ في الهبوط، فخطر لستو خاطر غريب، أن هذا المصعد فخ، ربما يُطلق فيه غاز سام، أو حتى تتعطل دوائره الكهربائية، أو تنقطع جباله فيهوي من حالق. وقف وسط كابينة المصعد يبحث عن فتحتي تهوية مخفية. حدّق به الخوف من الأماكن المغلقة، وبدأ له المصعد فجأة أصغر من قبر. لقد دُفنت حيًّا، هل يسمعني أحد؟

مدّ يده يضغط زر الإيقاف، لكنه تساءل ما جدوى هذا إن كان سيتوقف بين الطوابق؟ قبل أن يجد إجابة، توقف المصعد بنعومة في طابقه المنشود.

ماذا لو أن رجالًا مسلحين ينتظرونني بالأسفل؟

لكنه الشيء الوحيد الذي وجدته خلف الباب جثة امرأة في زي التمريض. تكوّمت في وضع جنيني جوار باب دورة مياه يحمل لافتة: «نساء». حدق إليها ستو حتى بدأ الباب في الانزلاق منغلّقًا، فمدّ ذراعه بين ضلفتيه فعاد ينفتح مطيعًا. قاده الممر إلى تفرّع، سار نحوه وهو ينظر إلى الممرضة في أسى.

سمع صوتًا خلفه، فاستدار رافعًا المسدس، ليكتشف أنه صوت انغلاق باب المصعد. نظر إليه هنيهة، وابتلع لعابه بصعوبة، ثم أكمل سيره. عاد إليه زعره الذي وسوس إليه بالتخلي عن المشي، ويأمره بالعدو بسرعة هربًا قبل أن يجده أحد... أو شيء...

صدى قرع خطواته يتردد في أرجاء الممر نصف المظلم، عميقًا مرعبًا. تمر بجواره نوافذ الأبواب ذات الزجاج المعتم، كل باب بقصة مختلفة: د. سلون -التسجيلات والوثائق. د. بالينجر- الميكروفيلم والنسخ. السيدة ويجز...

عند التفرُّع مشرب ماء، لكنَّ طعم الماء الدافئ قلب معدته. لا مخرج عن يساره حيث لافتة تحمل سهمًا برتقاليًّا وكلمة «جناح المكتبة». بدا الممر كأنما يمتد إلى أميال أمامه. بعد خمسين ياردة رأى جثة رجل في بذلة بيضاء. تزعزع تحكمه في نفسه. هذا المكان أكبر بكثير مما حسبه، وكأن له حق في استنتاج أي شيء مما رآه هنا من مصعد وقاعتين وغرفة واحدة. أدرك الآن أن المبنى في اتساع مستشفى في العاصمة. يمكن أن يتخبط في أرجائه ساعات، يقرع طرقاته، ويعثر على المزيد من الجثث المتناثرة كأنها جوائز في لعبة. يتذكر أنه ذهب مع زوجته إلى مستشفى في هيوستن لتشخيص مرضها. علَّقت على حوائط المستشفى خرائط لتوضيح الاتجاهات، ونقاط تبين مكان من يقرأها كي لا يضل أحد. لكنه الآن ضلَّ. هذا سيئ حقًا.

قال لنفسه: «لا تتخشب الآن. أنت على وشك الفرار من هنا».

تردَّد صدى كلماته، غريبة مسطحة. لم يقصد أن يتكلم بصوت عالٍ، وزاد هذا من شعور الغرابة. التفت يمينًا، مُوليًّا ظهره لاتجاه المكتبة، ومشى من أمام عدة مكاتب أخرى، ثم وصل إلى ممر تالٍ والتفت نحوه. نظر خلفه من وقت إلى آخر، ليطمئن نفسه أن لا أحد -ربما إلدر- يتبعه، لكنه لم يصدق ما رآه. انتهى الممر بباب مكتوب عليه (غرفة الأشعة)، ومعلق على مقبضه لافتة بعبارة: «مغلق حتى إشعار آخر - راندال».

عاد ستو وأطلَّ من وراء المنعطف إلى حيث جاء. الجثة ذات الرداء الأبيض صغيرة الآن بفعل المسافة، لكنَّ رؤيتها هناك بلا حركة ولا تغيير طرأ عليها دفعته إلى الرغبة في الفرار أسرع.

استدار يمينًا مُوليًّا إياها ظهره مرة أخرى. بعد عشرين ياردة تفرع الممر إلى جهتين. اختار ستو الجهة اليمنى، ومَرَّ بالمزيد من المكاتب. انتهى الممر بمعمل الميكروبيولوجي حيث رأى رجلًا في سروال داخلي ممددًا خلف مكتبه، ينزف من فمه وأنفه. أنفاسه متقطعة، تصدر من صدره أصوات كأصوات هبوب رياح أكتوبر وسط حقول الذرة الجافة.

وقتها بدأ ستو في العدو العشوائي، يخرج من ممر ليدخل إلى آخر، وقد اقتنع أكثر أنه لا مخرج من هنا، على الأقل ليس من مخرج في هذا الطابق. طارده وقَّع نعليه على الأرض، كأن إلدر أو فيك عاش ليُرسل فرياقًا من الأشباح في أعقابها. ثم طرد ذاك خاطر واحد آخر ذو صلة بأحلامه التي زارته خلال الليالي القليلة السابقة، وعظَّم الخاطر حتى إنه خشي أن لو استمر في الجري

لرأى رجلاً ذا بذلة بيضاء يأتي مهرولاً تجاهه. رجلاً بلا وجه، ولا شيء خلف قناعه الشفاف سوى السواد. شبحاً قاتلاً مأجوراً يتحدى الزمان والمكان. لاهئاً قطع ستو الممر قبل أن يدرك أنه مغلق، لكن في نهايته باب مكتوب عليه «مخرج».

دفع الباب وهو مؤمن أنه لن يتزحزح، لكنه تحرك، وانفتح بسهولة. نزل أربع درجات ليجد باباً آخر. على اليسار المُنْبَسِط، ثم درجات أخرى تؤدي إلى ظلام كثيف. النصف العلوي من الباب الثاني زجاج شفاف مُدْعَم بسلك، لا شيء خلفه سوى الليل، ليل الصيف الجميل، وكل الحرية التي قد يحلم بها المرء. كان ستو يحدق إلى الخارج بعد، عندما بزغت يد من ظلام الدرج وقبضت على كعبه. مزقت حلق ستو شهقة كالشوكة. نظر خلفه وقد تجمدت أحشائه، فرأى وجهاً دامياً مكشراً ينظر إليه من أسفل في العتمة.

همس بصوت مشروخ محتضر: «انزل وكل دجاجاً معي يا جميل. المكان مظلم للغاية...».

صرخ ستو وحاول التملص. تشبث به الشيء البشع، باسمًا مختنقًا بالدم أو عصارة المعدة التي تملأ حلقه وتنز من ركني فمه. ركل ستو اليد الممسكة بكعبه، ثم دعسها، فاختفى الوجه المعلق في الظلام. تلا ذلك سلسلة من أصوات التصادم.. ثم بدأ الصراخ. عجز ستو عن معرفة أكان صراخ ألم أم غضب، ولم يهتم لذلك. دفع الباب الخارجي بكتفه، فانفتح وخرج منه، يحرك ذراعيه في الهواء للمزيد من التوازن، لكنه فقدته على أي حال وسقط على الأرضية الأسمنتية.

وقف ببطء حتى استقام، وتوقف الصراخ. لمست وجهه هبة ريح باردة، وجففت العرق على حاجبيه. رأى في ما يشبه الدهشة أن حوله عشباً وأزهاراً. لم تكن ليل قط رائحة عطرة كهذه. نظر ستو ممتناً إلى الهلال في السماء، ثم مشى إلى الطريق المؤدي إلى بلدة ستوفينجتون بالأسفل. العشب مكسو بالندى، والرياح تهمس بين أشجار الصنوبر. قال ستو لليل: «أنا حي»، ثم بدأ يصرخ: «أنا حي! شكراً للرب أنني حي! شكراً لك يا رب، شكراً لك على أنني حي! شكراً لك...».

وأكمل طريقه إلى أسفل.

الفصل الثلاثون

هبّت الرياح المحملة بالأتربة، فَعَشَتْ بلدة أرْنيت حتى بدت كصورة قديمة مصفرة. اقْتُلِعَتْ لافتة محطة وقود بِلْ هابسكوم، وسقطت في عرض الطريق. ترك أحدهم موقد الغاز مفتوحاً في بيت نورم برويت من قبل يوم، واندلعت شرارة كهرباء من التكييف فانفجر المكان، ونثر الخشب والحديد وألعاب متجر فيشر برايس في كل أنحاء شارع لوريل. تناثرت جثث الكلاب والجنود فوق مصارف الشارع الرئيسي. في متجر راندي سوبريت رجل ميت بالمنامة فوق منضدة تقطيع اللحوم. نهش أحد الكلاب وجه الرجل قبل أن يفقد شهيته ثم يموت. لم تُصَب القطط بالعدوى، فخرجت ودخلت من البيوت والمتاجر كالأشباح الهائمة. استمرّ انبعاث صوت تشويش انقطاع الإرسال من أجهزة تلفاز عدة منازل. مصراع نافذة يتأرجح بلا توقف. سيارة حمراء قديمة مقلوبة أمام حانة رأس الهندي، وقد سقطت منها عبوات وزجاجات البيرة والصودا. في مجاورة لوجان لين، أفضل مجاورات أرْنيت، تراقصت أجراس الرياح في شرفة منزل توني ليمونستر الخارجية. سيارة توني تقف أمام المنزل، مفتوحة الأبواب، تسكن أريكتها الخلفية أسرة سناجب. هجرت الشمس أرْنيت، ودكنت السماء تحت جناح الليل. أمست بلدة أرْنيت -في ما عدا أصوات الحيوانات الصغيرة ورنين أجراس توني ليمونستر- كتلة صمّت مطبقٍ.

الفصل الحادي والثلاثون

خرج كريستوفر براندين من الهلوسة بصعوبة خروج المرء من الرمال المتحركة. كل عضو في جسده يؤلمه. يشعر أن وجهه غريب عنه، كأن أحدهم حقنه بالسيليكون حتى صار في حجم مُنطاد. حلقه أَلْمُ خالص، والمرعب أكثر أن فتحته انكششت حتى أصبحت في ضيق قشة. أنفاسه تنزّ خلال صلتة الضيقة الوحيدة بهواء العالم. إلى جانب كل هذه المعاناة وشعور الغرق، كان ساخناً.. ساخناً إلى درجة لم يصل إليها من قبل. كان حاراً من الداخل كأنه ابتلع الشمس.

أنّ وحاول ركل الأغطية، لكنّ خارت قواه. هل هو من وضع نفسه في الفراش؟ لا يعتقد هذا. شخص أو شيء كان في المنزل معه. شخص أو شيء.. المفترض أن يتذكر، لكنه لا يستطيع. كل ما يستطيع براندين تذكره أنه كان خائفاً حتى من قبل أن يمرض، لأنه كان يعرف أن أحداً (أو شيء) سيأتي، وأن عليه أن... ماذا؟

أنّ مجدداً، وحرك رأسه من جهة إلى أخرى فوق الوسادة. كل ما يتذكره هو الهلوس. جاءت أمه إلى غرفته، أمه التي ماتت عام 1969، وقالت له: «لقد حذرتك يا كيت من الاختلاط بأولئك الناس. قلت إنني لا أهتم بالسياسة. قلت إن من ترافقهم مجانيين كالكلاب، وأولئك الفتيات ما هنّ إلا عاهرات. قلت لك يا كيت...».

ثم تشقّق وجهها وخرجت من شقوقه خفافس القبور، فصرخ حتى غشاه الظلام، وصوت الهتاف المختلط، وقرع الأحمية إذ يجري الناس.. أضواء، وميض، رائحة غاز القنابل. كان في شيكاغو، عام 1968، ومن مكان ما تنشد الأصوات: «العالم كله يراقب! العالم كله يراقب! العالم كله...».. في مصرف

الأمطار جوار المتنزه فتاة ملقاة، ترتدي أفرول جينز، حافية، شظايا الزجاج عالقة بشعرها الطويل، وجهها يلمع بقناع الدم المتجلط تحت أضواء أعمدة الإنارة المغطاة بالحشرات. ساعدها على القيام، فصرخت واختبأت في صدره لأن وحشاً من الفضاء الخارجي يخرج من وسط الدخان. وحش ذو حذاء أسود عالي الرقبة، وسترة مدرعة، وقناع غاز، ويحمل هراوة في يد، وفي الأخرى عُبُوَّة سبراي دفاعي. عندما رفع وحش الفضاء الخارجي قناعه إلى أعلى، كاشفاً عن تكشيره ووجهه المحترق، صرخا لأنه كان الشيء أو الشخص الذي كانا يترقبانه. الرجل الذي لطالما خاف منه كيت براندن. إنه «الماشي». مزقت صرخات براندن نسيج الحلم، كما يحطم الصوت الحادّ الزجاج، فانتقل إلى شقة في بولدر، كلورادو، حيث الصيف والحر الذي تتعرق فيه حتى لو كنت ترتدي سروالاً داخلياً فقط، وأمامك يقف أجمل شاب في العالم، طويل مسمر، يرتدي سروالاً قصيراً ليموني اللون. تعرف أنه لو أدار لك وجهه سيكون كملائكة لوحات رافاييل. أين التقية؟ في اجتماع لمناقشة العنصرية في الحرم الجامعي؟ أو في الكافيتريا؟ من خلال ركوب مجاني على الطريق؟ هل يهم؟ أوه، كم أن الجو حار، لكن أمامه دورق ماء مزخرف بمجسمات غريبة بارزة، وإلى جواره القرص. لا.. القرص! القرص الذي سيرسله إلى ما يدعوه الملاك ذو السروال الليموني: «هوكسلياند». ذلك المكان حيث تكتب الإصبع المتحركة، وحيث تنمو الأزهار على جذوع أشجار البلوط الميتة.

يقول الفتى: «خذ قرصك أولاً وسترى».

فتأخذ القرص. الماء يبرّد حلقك، وتدرجياً تظهر الغرائب أمام عينيك، الغرائب التي تُغيّر قياس زوايا الأركان القائمة، فيقل أو يزيد قليلاً. لهنية تجد نفسك تحرق إلى مروحة سقف مكتب جراند رابيدز، ثم تنظر إلى انعكاس وجهك ذاته في الزجاج فوقها. وجهك أسود متورم، لكنك لا تقلق لأن هذا تأثير القرص. فقط القرص! تغمغم: «تريبس.. أوه يا كابتن تريبس...».

ثم يغوص في أصوات ووجوه لا يتذكرها قبل أن يطفو أخيراً، عائداً إلى البيت الصغير الذي بناه بيديه في ماونتين سيتي. لأن الآن هو الآن، وقد انتهت موجة التغيير التي اجتاحت البلاد، وأغلب الثوار الصغار صاروا منهكين، بلحى شائبة وأنوف خرق حاجزها الكوكايين، واختفت أيام الفتى ذي السروال الأصفر.

إلهي، هل أحتَضِرُ؟

عصفت الحرارة برأسه كإعصار، ثم توقف تنفسه المتهدج فجأة، وعلا صوت من خلف باب الغرفة المغلق. ظنّها براندنّين في البداية صفارة إنذار حريق، أو صفارة سيارة شرطة. علا الصوت واقترب أكثر، واختلط بصوت خطوات تقطع الردهة بالأسفل، ثم تعبر غرفة المعيشة وتعتلي الدرج.

دفع نفسه نحو الوسادة، واتسعت عيناه في وجهه المسودّ المذعور فيما تقترب الخطوات، وستحول صوت الصفارة إلى صوت صراخ لا تقدر حنجرة بشرية على إصداره. لا بدّ أنه صراخ شيطان سيأخذه ليعبر به النهر الفاصل بين مملكتي الأحياء والموتى.

اقترب صوت الخطوات منه وهي تعبر الردهة. تصرّ ألواح خشب الأرضية وتحتج تحت ثقل كعبي الحذاء القاسي، وفطن كيت براندنّين إلى كنه القادم، فصرخ والباب يُفتح، ويدخل منه رجل يرتدي سترة جينز باهتة، وابتسامة السفاحين على شفثيه كأنها دائرة سكاكين بيضاء. وجهه مرح كوجه ساننا كلوز، يحمل دلوًا معدنيًا فوق كتفه اليمنى ويصيح: «هايووووو!».

صرخ براندنّين وهو يغطي وجهه بذراعيه: «لا! لا! لا!...».

مال الدلو إلى الأمام وانسكب منه الماء الذي تعلّق في الهواء لحظات في ضوء المصباح المصفر، كأنه أكبر ماسة في العالم، ورأى وجه الرجل الغامض خلال الماء، وجه شيطان رجيم خرج من قاع الجحيم ليعيث في الأرض فسادًا. ثم انهمر الماء فوقه باردًا، فتقلصت حنجرته الضيقة ثواني قبل أن ترتخي مرة أخرى فيختنق ويركل الأغطية، ويرتجف جسده ويتشنج كأنه يُضرب بالسياط.

صرخ. صرخ مرة أخرى، ثم استلقى يرتعش وجسده المحموم مبتل من الرأس إلى القدمين، ورأسه ينبض، وعيناه جاحظتان. انغلقت حنجرته حتى أصبحت شقًا، وجاهد مجددًا كي يتنفس.

هتف الرجل الذي يعرفه باسم ريتشارد فراي في مرح: «كنت أعرف أن هذا سيبرّدك!».

وضع الدلو على الأرض مضيئًا: «آه، كنت أقول إن هذا سيفي بالغرض يا مَلِك! أنا أقبل الشكر أيها الرجل الطيب. هل تشكرني؟ لا تستطيع الكلام؟ لا؟ أنا أعرف أنك تشكرني في نفسك».

ثم صاح: «يبي جaaaaا».

وقفز في الهواء مثلما يفعل بروس لي في أفلام الكونغ فو، مباعداً بين ركبتيه، وللحظات بدا معلقاً في الهواء مثلما تعلّق الماء، ظلّه يرتمي على صدر منامة براندنتن المبللة، فصرخ الأخير في ضعف. هبطت رُكبته كل على جانب من جانبي جذع براندنتن فثبّت صدره كشوكة. مال فراي يطل بوجهه على براندنتن كمصباح قبو في رواية قوطية، وقال: «وجب عليّ أن أوقظك يا رجل. لم أشأ أن ترحل قبل أن أحظى بفرصة الحديث قليلاً».

- ...ابت.. ابتعد.. من.. فوقي...

- بربك، أنا لستُ فوقك يا رجل، أنا أطل عليك فقط كما يُطل عليك العالم المرئي.

لم يملك براندنتن المعذّب سوى أن يلهث ويرتجف، ويدير عينيه عن وجهه المسرور.

- يجب أن نتحدث بشأن السفن والفقعات وشمع الأشرعة⁽¹⁾، وهل كانت النحلات تلدغ. كذلك عن الأوراق التي تخصني معك، وعن السيارة، وعن مفاتيح السيارة. والآن كل ما أراه في حوزتك الآن شاحنة شيفروليه، وأعرف أنها ملكك. ماذا عن ذلك يا كيتي- كيتي؟

- الـ.. الأوراق.. لا.. الكلام...

شهق واصطكّت أسنانه بقوة.

قال فراي: «الأفضل أن تتكلم».

ورفع إبهاميه المرنتين، (وكل أصابعه مرنة)، وحركهما إلى الأمام والخلف في حركات تتحدى التشريح والفيزياء وهو يكمل: «لأنك إن لم تتكلم، سأخرج عينيك الزرقاوين هاتين وأستخدمهما زينةً لسلسلة مفاتيحي، وسوف تجول في الجحيم أعمى، يرشدك كلب».

دفع إبهاميه إلى عيني براندنتن، فضغط الأخير رأسه في الوسادة. قال فراي: «أخبرني وسأترك لك الأقراص المفيدة. بل إنني سأساعدك على ابتلاعها. سوف تشفيك يا رجل. معي أقراص تعالج كل شيء».

(1) عبارة من قصيدة (فيل البحر والنجار) للويس كارول، وفي القصيدة يحاول فيل البحر خداع المحار بالتخطيط مع النجار لالتهام صغاره، وربما يقصد الكاتب ال0أشارة إلى القصيدة لإبراز مخططات الشخصية. (الترجمة)

ارتعد براندنتين من الخوف والبرد، وأرغم الكلمات على الخروج من بين فكيه المتصلبين. قال: «الأوراق.. باسم راندال فلاج. في الخزانة بالأسفل. تحت... العقد...».

- والسيارة؟

حاول براندنتين أن يفكر. هل معه سيارة هذا الرجل؟ الأمر بعيد، تحول بينهما نيران الهلوسة، ويبدو أن الهلاوس أثرت في تفكيره وحرقت مخازن الذاكرة. القسم الذي يحوي ماضيه تفحم تمامًا. كلما حاول تذكر السيارة التي يسأل عنها هذا الرجل الشنيع، ظهرت أمامه صورة أول سيارة اشتراها؛ ستدبيكر موديل 1953، بمقدمة بارزة طلاها باللون الوردي.

برفق وضع فراي يده على فم براندنتين، وسدَّ أنفه باليد الأخرى، فتسلل الأثنين الغاضب من بين أصابعه وتململ براندنتين تحته. أبعد فراي يديه وسأله: «هل ساعدك هذا على التذكر؟».

وللغرابة، ساعده هذا حقًا.

- السيارة...

ثم راح يلهث كالكلب. دار العالم من حوله، ثم ثبت، فأكمل: «السيارة واقفة.. خلف محطة كونوكو.. خارج البلدة. طريق 51».

- شمال البلدة أم جنوبها؟

- ج... ج...

- نعم، ج...! فهمت. أكمل.

- مغطاة.. بوه.. بوه.. بويك. الأوراق داخل الشماسة. باسم... راندال فلاج.

انتكس مرة أخرى يشهق ويلهث، وعجز عن قول أو فعل شيء سوى التحديق إلى فراي في أمل غبي.

- والمفاتيح؟

- البساط. تحت...

قطع فراي باقي العبارة، وجثم على صدره مرتاحًا كما يرتاح المرء على الأريكة، فعجز براندنتين عن التنفس. خرجت آخر كلماته: «رجاء...».

فقال ريتشارد فراي / راندال فلاج بابتسامة واسعة: «تصبح على خير يا كيت».

لم يستطع كيت براندنن الحديث، واكتفى برفع عينيه في محجريهما المتورمين. قال الرجل الغامض برقة وهو ينظر إليه: «لا تسئ الظن بي. كل الأمر أن علينا أن نسرع الآن. سيفتتح الكرنفال مبكراً، وستكون كل الألعاب متاحة؛ ارم حتى تفوز، عجلة الحظ.. وهذه ليلة سعدي يا كيت. أشعر بهذا. أشعر به بقوة. لذا علينا أن نسرع».

المسافة حتى محطة كونوكو ميل ونصف. وصل إلى هناك في الثالثة والرابع صباحاً تسارعت الرياح وعوّت في الشوارع. في طريقه رأى جثث ثلاثة كلاب ورجل. يرتدي الرجل زياً عسكرياً. من فوقه تلمع النجوم على جسد الكون الأسود.

تمزق الغطاء الذي يغطي السيارة البويك، ورفرف ما تبقى منه بفعل الريح. عندما انتزعه فلاج، طار النسيج في الليل كشبح بني كبير يتجه شرقاً. السؤال هو، أي اتجاه سيسلك هو؟

وقف إلى جوار البويك، من إصدار عام 1975، لكنها في حالة جيدة (تحتفظ السيارات بحالتها هنا؛ الجو جاف، حيث يواجه الصداً صعوبة في العيش). تشمم هواء المساء كالقيوط، وهو هواء محمّل برائحة الصحراء التي لا تشمها بوضوح إلا ليلاً.

تقف البويك تامة وسط مقابر أشلاء السيارات المكتظة بالمحركات القديمة وقطع الغيار وأكوام الإطارات وغيرها. تلك المناظر تحسن من تفكيره. تلك المناظر تحوّل إلى رجل ياجو⁽¹⁾.

ترك البويك خلفه، ومرّ يده على غطاء محرك سيارة موستانج منبعج، وراح يغني: «مرحى أيتها الكوبرا الصغير، تعرفين أنك ستهزمينهم...»⁽²⁾
ركل مدفئة قديمة بحذائه المترب، فانكسرت كاشفةً عن جواهر تلمع وتتهوج. ياقوت وزمرد ولآلئ في حجم بيض الإوز، وألماس يضاهي النجوم. فرقع بأصابعه فاخترقى. إلى أين سيذهب؟

(1) ياجو شخصية من شخصيات مسرحية (عطيل)، وهو شخصية نفعية متلاعب (الترجمة)

(2) أغنية فريق ريب كوردز، تحكي عن صاحب سيارة موستانج - كوبرا، يدخل بها سباق سيارات (الترجمة)

صَفَرَت الريح وهي تدخل من بين فرجة نافذة سيارة بلايموث قديمة، تتسلل إلى الأشياء الصغيرة التي تتحرك بداخلها. تحرك شيء آخر خلفه. استدار ليجد كيت براندنن لا يرتدي شيئاً إلا سروالاً داخلياً أصفر غريباً، بطنه يتدلى ككرة من فوق حافة السروال المطاطية. مشى براندنن نحوه. ثَقَبَتْ قدمه الحافية شوكةُ نبات، لكنَّ الجرح لم ينزف.

فرقع الرجل الغامض أصابعه مرة أخرى، فاختنفى براندنن. ابتسم وعاد إلى البويك، وأراح جبهته على سقفها. مر الوقت. بعد حين فرد ظهره وهو مبتسم بعد. لقد عرف.

ركب خلف مقود السيارة، وشغّل محركها. هدر أخيراً، وأشار دليل الوقود إلى أن خزانها ممتلئ. خرج بها من محطة الوقود. التقى ضوءُ كشافيتها عيني قط يطل من بين العشب جوار دورة مياه السيدات. في فم القط جيفة فأر، تركها وهرب إذ رأى وجه فلاج. ضحك فلاج ملء قلبه، ضحكة رجل لا يحمل في نفسه سوى كل خير.

عندما التقى ممرُ محطة كونوكو الطريقَ السريع، التفت إلى اليمين وقصد الجنوب.

الفصل الثاني والثلاثون

ترك أحدهم الباب بين حجرة التأمين الأقصى والحجرة خلفه مفتوحًا. الممر الحديدي يُكَبِّرُ الصوت المنبعث من شاشات المراقبة يتردد ويتردد في المكان، حتى ظنَّ لويد هاينريد أن أصوات الصراخ والأنين، وخوفه الطبيعي، ستؤدي به إلى الجنون.

صاح الصوت المختنق ينادي: «أمي! أمي!».

جلس لويد متربعًا على أرضية زنزانته، يداه ملطختان بالدماء كأنه يرتدي قفازين أحمرين. قميص السجن الأزرق ملطخ أيضًا لأنه ظل يمسح فيه يديه لتجفًا. كانت الساعة العاشرة صباح يوم التاسع والعشرين من يونيو. في السابعة من الصباح نفسه لاحظ أن قائمة فراشه مخلخلة، ومن وقتها وهو يحاول تحريرها من الصواميل التي تثبتها في الأرض. فعل ذلك باستخدام أصابعه، وفكَّ خمس صواميل من الست. نتيجة لذلك بدت أطراف أصابعه كالحم مفروم. الصامولة السادسة هي أكثرهم عندًا، لكن ربما استطاع فكّها. لم يفكر في شيء سوى هذا. التصرف الوحيد الذي يدفع عنك الذعر هو ألا تفكر.

- أميبيبي...!

نهض واقفًا، فقطرت الدماء من أصابعه المجروحة على الأرض. قرَّب وجهه قدر المستطاع نحو الممر، وعيناه جاحظتان في غضب، ويداه قابضتان على القضبان. زعق: «اخرس أيها الداعر! اخرس، أنت تثير جنوني!».

استمرَّ الصمت هنيهة، فاستمتع به لويد كما يستمتع المرء بمذاق شطيرة برجر بالجبن من ماكدونالدز. «السكوت من ذهب». لطالما ظن أنها مقولة سخيفة، لكن لها وجاهتها أيضًا.

انطلق الصوت مرة أخرى، تُعظّمه الحوائط الحديدية: «أمييييي!».

صاح لويد: «يا يسوع. اخرس! اخرس! اخرس! اخرس! اخرس أيها المتخلف اللعين!».

- أمييييي!

هجم لويد على قائمة فراشه وانهمك في انتزاعها. تمنى لو أن في الزنزانة شيئاً يعينه على خلعها. تجاهل ألم أصابعه وذعر عقله. حاول جاهداً أن يتذكر آخر مرة قابل فيها محاميه.. الذكريات تصير ضبابية في عقل لويد. منذ ثلاثة أيام.. نعم. بعد يوم من ضربه في الفناء. اصطحبه حارسان إلى حجرة الاجتماعات مرة أخرى، وكان شوكلي عند الباب، فحيّاه: «ها هو ذو المؤخرة الذكية. ما الحكاية؟ لديك شيء آخر تقوله؟». ثم فتح شوكلي فمه وعطس في وجه لويد، فرشه باللعب السميكة.

- هاك بعض الجرائم خصوصاً لك. كلنا مصابون، من أمر السجن إلى أقل سجين، وأنا مؤمن بمشاركة الثروات. في أمريكا للمنحطين أمثالك الحق في الإصابة بالبرد.

ثم أدخلوه القاعة. بدا ديفنزر كرجل يحاول إخفاء أنباء سارة، لكن اتضح أنها سيئة. القاضي الذي ستعرض عليه قضية لويد طريح فراش المرض، وأصيب قاضيان آخران بالعدوى. ربما ستؤجل القضية، وطلب منه المحامي أن يأمل خيراً. سأله لويد عن موعد معرفة إلام ستؤول الأمور، فأجابه لويد أنهم لن يعرفوا إلا في آخر لحظة. لم يره لويد من يومها، وعندما استرجع المشهد، تذكر أن المحامي كان مصاباً بالرشح، و...؟

- يا يسووووع!

دس أصابع يده اليمنى في فمه، وتذوق الدم. تزعزعت الصامولة اللعينة أخيراً، وهذا ما يعني أنه سينجح في فكها بالتأكيد. حتى من ينادي أمّه لن يضايقه بعد الآن. سيخلع القائمة، ثم سينتظر ما يحدث. جلس وأصابع في فمه، يريحها قليلاً. بعد هنيهة مزق قميصه ولف به أصابعه الجريحة.

- أمي؟

غمغم لويد: «أعرف ما سأفعله بأمك».

في الليلة التي تلت لقاءه بالمحامي للمرة الأخيرة، بدأوا في إخراج المساجين المرضى من الزنازين. بل حملوهم حملاً، ولم يخرجوا إلا من

تدهورت حالته. أشار السجين الآخر في الزنزانة المجاورة للويد إلى أن الحرس أنفسهم مرضى، وأضاف أنه ربما يستطيعان الاستفادة بشيء من هذا. سأله لويد: «بأي شيء؟»، فأجاب تراسك: «لا أعرف». كان تراسك رجلاً نحيلًا بوجه طويل، حُبس بتهمة السطو المسلح، والتهديد بسلاح قاتل. فسّر تراسك: «ربما نحصل على تأجيل الحكم. لا أعرف».

تحت حشية فراش تراسك ست سجائر ملفوفة يدويًا، منح أربعًا منها للحارس كي يخبره بما يجري في الخارج. أخبره أن الناس تفر من فوينكس، وأن المرض انتشر والناس تموت سريعًا، وأن الحكومة تدعي توافر المصل قريبًا، لكنّ الناس لا تصدقهم. تبتُّ محطات الراديو أمورًا شنيعة عن الأحكام العرفية وسيادة الجيش والمسلحين وموت المرضى بأعداد هائلة. قال أيضًا إنه لن يُدهش لو وضع ذوو الشعر الطويل المتعاطفون مع الاشتراكية شيئًا في الماء.

قال الحارس إنه لا يشعر بأي أعراض، لكنه سيهرب من البلدة حال انتهاء الوردية. سمع أن الجيش سيغلق الطرق بحلول الصباح، لذا سينقل زوجته وطفله وكل الطعام الذي يستطيع الحصول عليه إلى أعالي الجبال حتى ينتهي الوباء. عنده كوخ هناك، ولو أن أحدًا حاولَ الاقتراب منه سيفجر رأسه برصاصة.

أصيب تراسك في الصباح التالي بالرشح، وقال إنه محموم. ظل يُخَرِّف مذعورًا. تذكر لويد هذا وهو يلحق أصابعه. ظل تراسك يصرخ في كل حارس يمرُّ بهم ويطلب منه أن يخرجَه من هنا قبل أن يشتد مرضه. لم ينظر إليه أحد حتى، ولا إلى أي من السجناء الآخرين الذين اهتمجوا كأسود في الأسر. هنا بدأ الذعر يتملّك لويد. الطابق الواحد من السجن يحوي عشرين سجينًا على الأقل، فكيف لا يرى الآن سوى أربعة وجوه أو خمسة؟

في يوم السابع والعشرين، بدأ لويد في ادخار نصف طعامه تحت الحشية. أصيب تراسك أمس بتشنجات مفاجئة، واسودَّ وجهه ثم مات. نظر لويد طويلًا إلى ما تبقى من غداء تراسك، لكنّ لم يكن قادرًا على الوصول إليه خلال القضبان. في اليوم التالي لم يعد في الطابق سوى عدد حراس قليل، ولم يكثرثوا لنقل المرضى إلى المستشفى مهما كانت حالتهم. ربما مات من نُقلوا، وقرر أمر السجن ألا يضيع وقتًا. ولم يأت أحد لنقل جثة تراسك.

نام لويـد قليلاً بعد ظهيرة أمس، وعندما استيقظ وجد ممر التأمين الأقصى خالياً. لم يأتِه أحد بعشائه. ليس للويد خيال واسع يمكّنه من تصور الوضع لو كان السجن المشدد بكامل سجنائه. لا فكرة لديه عن عدد الأحياء الذين قد يملكون قوة للمطالبة بالعشاء، لكنّ صدى الصوت بيّن الكثير عن عدد المطالبين بالطعام. كل ما يعرفه لويـد أن الذباب يجتمع حول جثة تراسك عن يمينه، وأن الزنزانة عن يساره خاوية بعدما نُقِلَ ساكنها الزنجي إلى المستشفى منذ أيام. على الجهة الأخرى زنزانتان خاويتان، وقدم متدلية لرجل سُجِنَ لقتل زوجته وأخيها. يبدو أن ذلك السجين قد خلع سرواله لسبب ما.

بعد تشغيل الإضاءة تلقائياً في الليل، أكل لويـد بعض الفاصوليا التي أدّخرها منذ يومين، وابتلعها بماء من المراض، ثم تكوّر على فراشه، ولعن بوك الذي ورّطه في تلك المصيبة. كل هذا بسبب بوك. لو كان بمفرده ما كان ليقع إلا في مشكلات صغرى.

بعدما هدأت المطالبات بالطعام، شكّ لويـد في أنه الوحيد الذي ادّخر من مأكله، لكنّ لم يتبقّ له الكثير. لو أنه يعرف أن هذا سيحدث لأدّخر أكثر. في عقله شيء يرفض أن يرى، كأن ستائر تحجب عنه ما وراءها. كل ما يراه قدم عظمية من تحت الستار. هذا هو كل ما يرغب في رؤيته، لأن القدم قدم جثة مربعة اسمها الموت جوعاً.

قال لويـد: «أوه، لا. لا بدّ أن أحداً سيأتي. بالتأكيد. أنا واثق من هذا».

لكنه ظلّ يتذكر الأرنب. لم يستطع مساعدته. كان قد فاز بأرنب في قفص في مسابقة مدرسية. لم يرغب أبوه في أن يحتفظ به، لكنّ لويـد أقنعه بشكل ما أنه سيرعاه وينفق عليه من مصروفه الشخصي. أحبّ هذا الأرنب وحافظ عليه في البداية، ثم بدأ ينساه من وقت إلى آخر، حتى تفاجأ وهو يتأرجح على إطار معلق من شجرة في باحة منزلهم، أنه لم يطعم الأرنب منذ.. منذ أسبوعين تقريباً. لقد نسي تماماً.

هُرِعَ إلى العشة المرفقة بالحظيرة، وكان الوقت صيفاً كما هو الآن، وحالما دخل لطمته رائحة الأرنب بقوة. الفراء الذي أحبّ تمسيده صار قدراً دُبِقاً، والديدان تخرج وتدخل من محجري عيني الأرنب اللتين أحبهما وإليهما. برائته دامية مجروحة لأنه حاول تحطيم القفص، هذا هو التفسير المنطقي، لكنّ خطر له خاطر مخيف أن الأرنب قد قضم برائته من الجوع.

حفر لويد للأرنب قبرًا ودفنه فيه بقفصه. لم يسأله أبوه عن الأرنب قط، وربما نسي وجوده -لويد ليس ذكيًا، لكنه عبقرى مقارنة بأبيه- لكن لويد لم ينس. طارده الكوابيس، والآن يعود إليه منظر الأرنب وهو متكور على فراشه، يخبر نفسه أن أحدهم سيأتي، أحدهم سيحرره. هو ليس مصابًا بمرض كابتن تريبيس هذا، هو فقط جائع كما كان ذلك الأرنب جائعًا.

نام في وقت ما بعد انتصاف الليل، وبدأ في الصباح محاولات فك قائمة الفراش. نظر الآن إلى أصابعه الدامية، وعاد إليه الذعر وذكرى براثن الأرنب الذي لم يقصد أن يؤذيه قط.

حرر لويد قائمة الفراش التي يبلغ طولها ثلاث أقدام في الواحدة بعد ظهر يوم التاسع والعشرين. ظلّ يحدق إليها ويتساءل عما أراده من فكها بحق الرب.

ضرب بها القضبان وهو يهتف حانقًا: «أنتم! أريد أن أخرج! أريد أن أخرج من هذا المكان اللعين، هل تسمعون؟! تبًا لكم!».

صمت، واستمع لصدى صوته يختفي. ساد الصمت هنيهة، ثم علا صوت من آخر الممر يصيح: «أمي! أنا هنا يا أمي! أنا هنا!».

صرخ لويد: «اللعة!»، ورمى القائمة نحو الركن. لقد ظل يجاهد ساعات، ودمر أصابعه، فقط كي يوقظ ذلك المعتوه. جلس على فراشه ورفع طرف الحشية ليخرج قطعة خبز جاف. فكر في إضافة بعض التمر، ثم تردد، لكن في النهاية أكله واحدة تلو الأخرى، تاركًا الخبز للنهاية كي يزيل به الطعم الحلو من حلقه.

عندما أنهى وجبته البائسة، مشى نحو يمين زنارته. نظر إلى أسفل نظرة جَزَع. كان تراسك على فراشه، وقدماه متدليتين، وساقا بنطاله مرفوعتين قليلًا، وفأر يقرض ما ظهر من قدميه فوق حُفَي السجن. ذيله الوردي المقرف ملفوف حول جسده الرمادي. عاد لويد إلى ركن زنارته والتقط قائمة الفراش، ثم رجع إلى حيث الفأر، وتساءل أكان سيراه فيبتعد إلى حيث جثة أخرى وحيدة. لكن ظهر الفأر كان نحوه، ولم يره. عاين لويد المسافة ثم قرر أن قائمة الفراش ستصل إليه. صاح لويد وهو يرفع القائمة ثم يسحق بها الفأر على ساق تراسك. ارتمى الفأر على جانبه يتنفس بصعوبة، وقطرات الدم

معلقة في شعيرات شاربه. ذراعه تتحركان كأن مخه الفأري الصغير يطالبه بالفرار، لكنَّ الإشارة لا تصل إلى عموده الفقري. ضربه لويد مرة أخرى حتى قتله.

- ها أنت ذا أيها الحثالة.

وضع القائمة على الأرض وعاد إلى فراشه. كان مرتعبًا يرغب في البكاء. نظر إلى ما وراء كتفه وقال: «هل يعجبك جحيم الفئران، أيها العاهر الصغير؟».

أجابه الصوت: «أمي! أميبيي!».

صرخ لويد: «اخرس! أنا لستُ أمك! أمك تعمل في ماخور لعين!».

كرر الصوت في شك: «أمي؟»، ثم صمت. انتحب لويد، بكى وراح يفرك عينيه بقبضتيه كالأطفال. إنه يرغب في شطيرة لحم، ويرغب في التحدث إلى محاميه، ويرغب في الخروج من هنا.

أخيرًا ارتمى على الفراش ووضع ذراعًا فوق عينيه، واستمنى. هذه طريقة جيدة للمساعدة على النوم على أي حال.

استيقظ في الخامسة صباحًا على صمت السجن المشدد التام. قام من على فراشه المائل ناحية القائمة المنتزعة كالثمل. أمسك القائمة وضرب على القضبان كطاهٍ ريفيٍّ يدعو عمال المزرعة إلى العشاء. عشاء. هل من كلمة أجمل من تلك؟ شرائح اللحم، بطاطس بالمرق الأحمر والبازلاء الطازجة، والحليب بشوكولاتة هيرشي ليبتلع به كل هذا. ربما أيضًا صحن آيس كريم فراولة كبير للتحلية. لا، ليس في العالم كلمة تضاهي كلمة عشاء.

صاح بصوت مشروخ: «مرحى. هل من أحد هنا؟».

لا إجابة. ولا حتى صرخة «أمي!»، وأدرك أن صحبة المجانين أفضل من صحبة الموتى.

ترك لويد القائمة تسقط مرتطمة بالأرض. عاد مترنحًا إلى فراشه، ورفع الحشية ليكشف عن مخزون الطعام. لديه قطعتا خبز، وقبضتا تمر، وقطعة لحم أكل نصفها، وقطعة بولونيا. مزَّق قطعة البولونيا إلى قطعتين، والتهم الأكبر، لكنَّ هذا استفرَّ شهيته أكثر.

همس: «لن أدخر بعد الآن». ثم نهش اللحم ينتزعه من عظمه وهو يسب نفسه ويبكي. سوف يموت هنا كما مات الأرنب في قفصه، وكما مات تراسك في زنزانته.
تراسك...

نظر إلى زنزانه تراسك مُطوِّلاً، يفكر، ويراقب الذباب يحط ويطير. لقد صار وجه تراسك مهبط طائرات مخصص للذباب. بعد مدة، جلب لويد القائمة ووقف على أطراف أصابعه يمدّها نحو جثة الفأر، ويجذبها نحوه. عندما اقترب كفاية، جثا على ركبتيه وأمسكه. رفعه من ذيله ونظر إلى الجثة المتدلّية طويلاً، ثم وضعها أسفل حشيتّه حيث لن يصل إليها الذباب، فتصير إضافة إلى ما يدخره من طعام. حدق ثابتاً إلى الفأر هنيهة قبل أن يترك الحشية تهوى فوقه لتخفيه عن نظره.

همس لويد هاينريد إلى الصمت: «تحسّباً فقط. تحسّباً لا أكثر». ثم تكوّر فوق الفراش، وركبته مضمومتان إلى صدره، ومكث ساكناً.

الفصل الثالث والثلاثون

انقطعتِ الكهرباء في الساعة التاسعة واثنين وعشرين دقيقة، بحسب الساعة المعلقة فوق مكتب الشريف.

كان نك أندروز يقرأ كتابًا أخذه من رف في متجر الأدوية؛ رواية قوطية عن معلّمة مرتعبة تظن أن الضيعة التي تُدرس فيها لابنَي مالکها الوسيم مسكونة. مع أنه لم يصل إلى النصف الثاني من الرواية، فإنه عرف أن الشبح على الأرجح هو زوجة المالك الوسيم، المختلة المحبوسة في العلية.

عندما انطفأت الأنوار، غار قلبه في صدره وسمع صوتًا يهمس له من عمق عقله، من حيث الكوابيس التي تطارده كلما نام. «إنه آت إليك.. إنه بالخارج الآن، على طريق الليل السريع.. في الطرق السريعة يختبئ.. الغامض الأسود...».

رمى الكتاب إلى المكتب، وخرج إلى الشارع. لم يزل آخر ضوء النهار عن السماء بعد، لكنَّ الغسق كاد يمضي. كل أنوار الشوارع مطفأة. مصابيح الفلورسنت في متجر الأدوية، التي كانت مضاءة ليلَ نهار، مطفأة أيضًا. وضع نك يده على حامل برج الكهرباء، فلم يشعر بالذبذبات التي يألّفها فيه. لقد كانت تلك الذبذبات بمنزلة السمع له، والآن قد توقفت.

في خزانة المكتب شموع، علبة كاملة، لكنَّ التفكير في الشموع لم يُرح نك كثيرًا. انقطاع الكهرباء صدمه بقوة. وقف الآن ينظر إلى الغرب في صمت يرجو الضوء ألا يتخلّى عنه ويتركه في ذلك القبر المظلم.

لكنَّ الضوء رحل. لم يعد نك قادرًا على التظاهر بأن في السماء أيّ نور بعد وقد جاوزت الساعة التاسعة مساءً. عاد إلى المكتب وتلمّس طريقه إلى الخزانة حيث الشموع. كان يتحسس أحد الأرفف، عندما انفتح الباب من ورائه

ودخل راي بوٲ، وجهه أسود منتفخ، خاتمه يلمع بعد في إصبعه. كان مختبئاً في الغابة قرب البلدة منذ ليلة الثاني والعشرين من يونيو، منذ أسبوع. في صباح يوم الرابع والعشرين، شعر بالمرض، والليلة أخيراً شعر بالجوع والخوف على حياته، فساقته الرغبة في النجاة إلى البلدة، حيث لم يجد أحداً إلا الأخرس اللعين الذي ورطه في كل هذا. رأى الأخرس يعبر ميدان البلدة الرئيسي كأنه ملك المكان الذي عاش فيه راي أغلب عمره، ومسدس الشريف معلقاً في نطاقه، ومثبّتاً إلى فخذه برباط جلدي. ربما ظن أنه يملك البلدة حقاً. شكّ راي في أنه سيموت بالمرض الذي أصاب الجميع، فقرر أن يري الأخرس غريب الأطوار أنه لا يملك شيئاً.

لم يدرك نك أنه لم يعد وحيداً في مكتب الشريف، حتى شعر بكفين تخنقانه من الخلف. سقطت العلبة التي كان يمسكها، وانكسرت الشموع وتدحرجت في كل صوب. كاد يُخنق لولا أن أفاق من المفاجأة سريعاً وأيقن أن الكائن الأسود من أحلامه قد وصل. عدو من قاع الجحيم خلفه، يلف مخليبه العظميين حول رقبتة، وسرعان ما ستخور قواه.

ثم غريزياً وضع يديه فوق اليدين اللتين تهاجمانه، وحاول انتزاعهما. لفحت أذنه اليمنى أنفاس حارة شعر بها ولم يسمعها. شهق سريعاً قبل أن تعود اليدان لتخنقاه.

تمايل الاثنان في الظلام كراقصين أسودين. شعر راي بوٲ بقواه تخونه مع مقاومة الفتى المستمرة. رأسه يدق. إن لم يجهز علي الأخرس سريعاً، فلن يجهز عليه أبداً. خنق عنق الفتى النحيف بكل قوة تبقت في كفيه. شعر نك بالعالم يخبو. ألم حنجرته الذي كان قوياً، ضعف الآن حتى صار.. ممتعاً. سحق قدم بوٲ بكعب حذائه بقوة، ومال بوزنه إلى الخلف في الوقت نفسه، فأجبر بوٲ على التراجع خطوة. زلّت قدمه في شمعة، فتعثّر وسقط أرضاً ونك فوقه، وانفكّت قبضتاه أخيراً.

تدحرج نك مبتعداً وهو يتنفس بصعوبة. كل شيء يبدو له بعيداً طافياً، إلا ألم حنجرته الذي عاد ببطء وعنف. شعر بطعم الدماء في مؤخرة حلقه.

يقوم الضخم الذي هاجمه الآن. تذكر نك المسدس فقبض عليه. إنه في مكانه، لكنه عالق في جرابه. جذبه بكل قوته وقد جُنّ من الذعر. خرج أخيراً وتمزق الرباط الجلدي من حول فخذه وسقط على الأرض.

هجم عليه الشيء كالقَدَر.

انفجرت أنفاسك من صدره، وأمسكت وجهه يدان بيضاوان، تقصدان عينيه. رأى لك لمعة بنفسجية على واحدة من اليدين، وكوّنت شفتاه كلمة: «بوث!» في الظلام. ظلت يده قابضة على المسدس، وبالكاد شعر بالألم الحارق على طول فخذه.

دسّ راي بوث إبهامًا في عين لك اليمنى، فزلزل الألم رأسه وإبهام بوث تدور مع اتجاه دوران الساعة وعكسه، يسحق عينه. صرخ صرخة لم يجاوز صوته صوت هسيس هواء، وضغط زناد المسدس المُنْدَسُّ في خاصرة بوث السمينة. شعر لك بردًا فعل الإطلاق ولم يسمع دويّ الرصاصة. رأى ومضة إطلاق خافتة، وشم بعدها رائحة البارود ورائحة احتراق قميص بوث. تصلّب راي بوث، ثم تهاوى فوقه.

دفع لك الثقل الجاثم عليه وهو ينتحب ألماً وذعرًا، ثم سحب نفسه من أسفله، وزحف ويده على عينه المصابة. رقد على الأرض وقتًا طويلًا، وحنجرته تحترق ألماً، ويشعر برأسه كأنما سحقته كمّاشة عملاقة.

أخيرًا تحسس ما حوله حتى وجد شمعة، فأشعلها بقدّاحة المكتب. رأى على ضوءها الخافت راي بوث، مُنكبًا على وجهه. بدا كحوت ميت جرفته الأمواج إلى الشاطئ. حول بوث بركة دماء كبيرة، وظله مرتّم على الحائط، ضخم غير محدد الهيئة.

هُرِعَ لك مترنحًا إلى الحمام الصغير، ويده تغطي عينه بعد. نظر إلى المرأة. رأى الدم ينزف من بين أصابعه، فأبعد يده ببطء وحرص. لم يكن واثقًا، لكنه يخشى أنه صار أعورَ إلى جانب صممه وخرسه.

مشى عائدًا إلى المكتب، وركل جثة راي بوث. قال للميت دون كلمات: لقد أجهزت عليّ. هشمت أسناني والآن فقأت عيني. هل أنت سعيد الآن؟ كنت لتفقدنا عيني لو استطعت، أليس كذلك؟ وتتركني أعمى أصم أبكم وسط عالم من الموتى. ما رأيك في هذا؟

ركل بوث مرة أخرى، وشعر بالغثيان وقدمه تغوص في هذ اللحم الميت. بعد قليل ذهب إلى الفراش وأحاط رأسه بكفيه. بالخارج يقوى الظلام أكثر. بالخارج، كل أنوار العالم تُطفأ.

الفصل الرابع والثلاثون

لوقت طويل، لأيام (كم يومًا؟ مَنْ يعرف؟ إن كان أحدًا أعرفه، فهو ليس جامعَ الزُّبالة) ظل دونالد ميروين إلبيرت، المعروف بين المقربين له من ماضيه المبهم باسم «رجل صفيحة الزُّبالة»، يتجول في شوارع بوتانفيل في إنديانا، يجفل من الأصوات في دماغه، ينحني ويغطي رأسه بذراعيه ليحمي نفسه من الحجارة التي ترميها عليه الأشباح.

مرحى يا زَبَال!

مرحى يا زَبَال، يا نبَّاش الزُّبالة. هل أشعلت أيَّ حرائق هذا الأسبوع؟

ماذا ستقول العجوز سيمبل عندما تحرق منزلها يا زُّبالة؟

هل تريد شراء بعض الكيروسين يا بن الزُّبالة؟

هل راقطُ لك جلسات الكهرباء في مستشفى المجانين يا زَبَال؟

مرحى يا زَبَال...

أحيانًا يدرك أن هذه الأصوات ليست حقيقية، لكنه يصرخ ويطالبها بالتوقف على أي حال، ليفطن إلى أن الصوت الوحيد هو صدى صوته يرجع إليه مرتدًا عن حوائط البيوت ومداخل المحال وسور مغسلة سيارات «سكرا با - دوبا» حيث كان يعمل، وحيث يجلس الآن في صباح الثلاثين من يونيو، يأكل شطيرة زبد فول سوداني ومربى وطماطم ومسطردة. لا صوتَ إلا صوته، يقرع أبواب المنازل والمتاجر، فلا يفتح له أحد، كأنه ضيف غير مرغوب فيه، فيعود صوته إليه. بوتانفيل خاوية. الكل رحل.. هل رحلوا حقًا؟ لطالما زعموا أنه مجنون، المجنون فقط هو من يظن أن البلدة خلت من الجميع إلا هو. لكنَّ عينيه تعودان دائمًا إلى حاويات الوقود الضخمة البيضاء عند الأفق كأنها سُحب، تحول بين البلدة والطريق إلى جاري وشيكاغو. عرف ما يرغب في

فعله حقًا، وعرف أن هذا ليس حلمًا. إنه شيء لكنه ليس حلمًا، ولن يستطيع مساعدة نفسه.

هل أحرقت أصابعك يا زُبالة؟

مهلاً يا زُبال، ألا تعرف أن اللعب بالنار يجعلك تبلل فراشك ليلاً؟

شعر بشيء يمرُّ من جواره بسرعة خاطفة، فشهو ورفع يديه فأسقط شطيرته في التراب. لكن لم يجد شيئاً، ولا شخصاً. لا يوجد خلف سور المغسلة إلا طريق إنديانا السريع رقم 130، المتجه إلى جاري، لكنه يمرُّ أولاً من أمام حاويات الوقود المملوكة لشركة «تشيروي أويل». انتحب قليلاً ثم التقط شطيرته ونفض الغبار الرمادي عن الخبز الأبيض قدر الإمكان، وبدأ يأكل.

هل ما يراه حقاً حلم؟ منذ أُردي الشريف أباه قتيلاً في الشارع أمام الكنيسة المنهاجية، اضطرَّ إلى أن يعيش مع أوهامه طوال حياته.

مهلاً يا زُبالة. لقد قتل الشريف جريلي أباك ككلب مسعور. هل تعرف هذا أيها الأهمبل اللعين؟

كان أبوه في الحانة ودار شجار، وكان مع ويندل إلبيرت مسدس، فقتل به النادل، ثم عاد إلى المنزل وقتل أخوي صفيحة الزُبالة الأكبر، وأخته.. أوه، كم كان ويندل إلبيرت رجلاً قصير الفتيل، وقد كان مهتاجاً قبل هذه الليلة بكثير. أي شخص في بوتانقيل قد يخبرك بهذا، وسيقولون لك أيضاً إن الابن مثل الأب. كان ليقتل والده صفيحة الزُبالة لولا أن فرَّت في الليل مع صغيرها ذي السنوات الخمس دونالد (الذي سيُعرف لاحقاً باسم رجل صفيحة الزُبالة). وقف ويندل إلبيرت عند العتبة يطلق عليهما الرصاص، ومع آخر رصاصة انطلقت من بندقية رخيصة اشتراها من زنجي في حانة في شيكاغو، انفجر السلاح في يده، ونثر الشظايا التي محت ملامحه. جال في الشوارع والدم ينزف ويعمي عينيه، يصرخ ويلوح ببقايا البندقية الرخيصة في يده ذات الماسورة المنفجرة. حالما وصل إلى الكنيسة، أوقف الشريف سيارته -سيارة الشرطة الوحيدة في البلدة- وأمره بأن يتوقف ويرمي البندقية إلى الأرض. صوّب ويندل إلبيرت ببقايا السلاح نحو الشريف، وإما أن جريلي لم يلاحظ انفجار الماسورة، وإما لاحظ وتجاهل الأمر، لكن النهاية كانت واحدة. أفرغ في ويندل إلبيرت ماسورتَي بندقيته.

مرحى يا صفيحة الزُّبالة، هل أحرقت عضوكَ بعد؟

نظر حوله بحثاً عن نطق آخر عبارة. بدا كصوت كارلي يتس، أو أحد الصبية ممن يتسكعون معه.. إلا أن كارلي لم يعد صبيّاً، لا هو ولا من يتسكعون معه، ولم يعد هو نفسه صبيّاً.

ربما الآن يمكنه أن يغدو دون إلبيرت، لا صفيحة الزُّبالة، كما صار كارلي يتس اسمه كارل يتس، ويبيع السيارات في متجر ستوت كرايسلر - بليموث هنا في البلدة. بيد أن كارل يتس رحل، الجميع رحل، وفات أوان أن يغدو أيّ شيء بعد الآن.

ولم يعد يجلس إلى جوار سور المغسلة، بل هو الآن على بعد ميل أو أكثر شمال غرب البلدة، يسير على الطريق رقم 130، وبلدة بوتانقيل تحته كمجسم مُصغّر في لعبة طفل. الحاوية على بعد نصف ميل، ومعه صندوق مُعدّات في يده، وعُبوّة سعة خمسة جالونات من الوقود في اليد الأخرى. الأمر سيئ، لكن...

بعد أن وارى الثرى ويندل إلبيرت، حصلت سالي إلبيرت على وظيفة في مقهى بوتانقيل، فيما بدأ دونالد ميروين إلبيرت في إضرام النار في صفائح قُمّامة الناس وهو في الصف الأول أو الثاني من الدراسة. احترسوا يا بنات، ها قد جاء صفيحة الزُّبالة، سيحرق فساتينكن! بيب بيب.. أيها الغريب!

لم يكتشف الكبارُ الفاعلَ إلا وهو الصف الثالث، فجاء الشريف الطيب العجوز جريلي، وأدرك فجأة أنه قد تزوج أمّ مَنْ قتل أباه أمام الكنيسة المنهاجية، وعليه تحمّل المسؤولية الآن.

لك عندي فزورة يا كارلي: كيف يقتل أبوك أباك؟

لا أعرف يا بيتي. كيف؟

لا أعرف أيضاً، لكن إن كنت صفيحة الزُّبالة فستعرف!

هاهاها هاوهاوهاو!

وقف عند بداية الممر المُعبَّد بالحصى، تؤلمه كتفاه من حمل صندوق المُعدَّات والوقود. على البوابة لافتة مكتوب عليها: «شركة تشيري للمنتجات النفطية. على الزوار تسجيل الدخول في المكتب! شكرًا!».

بضع سيارات تقف في ساحة الانتظار، أغلبها يقف على إطارات فارغة. مشى صفيحة الزُّبالَة على الممر ودخل من البوابة المواربة. عيناه الزرقاوان الغريبتان مثبتتان على الدَّرج الملتف حول أقرب حاوية حتى قمتها. بداية الدرج مغلقةً بالسلاسل، مع لافتة مكتوب عليها: «ابتعد! محطة الضخ مغلقة». خطا فوق السلاسل وبدأ يصعد الدرجات.

لم يكنَّ زواج أمه بالشريف جريلي قرارًا صائبًا. في العام الذي كان فيه الصف الرابع، بدأ يشعل النار في صناديق البريد، وفي العام نفسه أحرق نزل السيدة سيمبل، واعتقل مرة أخرى. انفجرت شالي إلبيرت جريلي في البكاء حالما ذكر زوجها اقتراح إرسال ابنها إلى ذلك المكان في تير هوت (هل تظنه مجنونًا؟ كيف لصبي في العاشرة أن يكون مجنونًا؟ أعتقد أنك فقط تريد التخلص منه! لقد تخلصت من أبيه والآن تريد التخلص منه!). القرار الآخر الذي يمكن للشريف جريلي أن يتخذه هو أن يدين الولد، لكنَّ لا يصح إرسال طفل في العاشرة إلى إصلاحية يُهان فيها ويفقد شرفه، إلا إذا كنت تريد أن تنفصل عنك زوجتك.

يصعد الدَّرج ويصعد ويصعد.. قدماه تقرعان المعدن فيطلق صوت رنين خافت. لقد ترك الأصوات بالأسفل، ولا يمكن لأحد أن يقذف حجرًا إلى هذا الارتفاع. بدتْ له السيارات في الساحة كألعاب براقية. ليس من صوت إلا صوت الرياح، تهمس في أذنه وتحمل إليه صوت زقزقة بعيدة. الأشجار والحقول بكل درجات الأخضر تغطي المدى، وتعكس لون سماء النهار الأزرق الحالم. كان مبتسمًا وهو يتبع الدَّرج الحلزوني، ويصعد ويدور معه.

عندما وصل إلى قمة الحاوية المسطحة، بدا له كأنما يقف تحت سطح العالم، لو أنه مد ذراعه لأمكنه مسح الطباشير الأزرق من صفحة السماء. أنزل عُبُوءَ الوقود وصندوق المُعدَّات. يمكنه أن يرى بلدة جاري من هنا، لأنَّ سُحب الدخان المنطلقة من مداخل مصانعها غير موجودة لتحجبها. شيكاغو ملفوفة في ضباب الصيف الرقيق، ويلوح في الأفق لونُ أزرق صافٍ ربما

يكون بحيرة متشيجن، أو مجرد أمنية أن تكون هي. للهواء عبق ذهبي خافت يُذْكره بالإفطار في مطبخ جيد الإضاءة. وقریباً سيشتعِل النهار...

ترك الوقود حيث هو، وأخذ صندوق المُعدّات إلى المضخة وبدأ يفكّها. لقبضته سطوة عاتية على المُعدّات، ويمكنه التعامل معها بمهارة مُهوّسي الرياضيات في ضرب سبع أعداد وقسمتها في عقولهم. لا يتطلب الأمر منه أي تفكير. يشرد بعينه هنا أو هناك، وتتحرك يداه بسرعة وثقة لتُنهي المهمة.

مهلاً يا زبال. ألا ترغب في حرق كنيسة؟ لماذا لا تحرق المدرسة؟

عندما كان في الصف الخامس، أضرم النيران في غرفة جلوس بيت مهجور في بلدة سيدلي المتاخمة، وتحول المنزل بالكامل إلى رماد. أودعه زوج أمه الشريف جريلي زنانة، لأن عصابة أطفالٍ ضربته، وانتوى الكبار فعل المثل. (لو لم تمطر السماء لفقدنا نصف البلدة، والفضل لذبابة النار اللعينة هذا!). أخبر جريلي زوجته سالي أن على دونالد الذهاب إلى المستشفى لإجراء بعض الاختبارات. أخبرته سالي أنها ستجهره لو فعل ذلك في طفلها، طفلها الكتكوت الوحيد، لكن جريلي قصد القاضي لتوقيع الأوراق اللازمة. لذا، ترك صفيحة الزبالة بوتانقيل عامين، وانفصلت أمه عن الشريف، ولاحقاً في العام نفسه لم يصوّت سكان البلدة لتجديد مدة تولي الشريف مهامه، فانتقل جريلي إلى بلدة جاري للعمل هناك في خط تجميع سيارات. زارت سالي صفيحة الزبالة أسبوعياً، وبكت في كل زيارة.

همس صفيحة الزبالة: «ها نحن أيها الداعر»، ونظر حوله في قلق ليرى أكان أحدهم قد سمعه ينطق بهذه الكلمة السيئة. طبعاً لم يسمعه أحد، لأنه فوق قمة حاويات شركة تشيري، وحتى لو كان بالأسفل ما سمعه أحد إلا الأشباح.

برزت ماسورة كبيرة من حيث فكّ المضخة، عرضها أكثر من قدمين، نهايتها متفرعة، مثبت فيها خراطيم الضخ. تراجع صفيحة الزبالة بضع خطوات وهو يحرق إليها وفي الوقود الخالي من الرصاص بداخلها، وأسقط المفتاح والمطرقة من يديه إلى الأرض.

لن يحتاج إلى الوقود الذي أحضره على أي حال. حمل العبوة وهتف: «تفجير!»، ورماها من أعلى. راقبها وهي تتدحرج باهتمام كبير. في ثلث المسافة إلى أسفل ارتطمت بالدرج وارتدت عنه، ثم ظلت تهوي وتنتثر محتواها حتى انفتحت تمامًا عند قاعدة الدَّرَج.

عاد إلى الماسورة الممتلئة، ونظر إلى ما سال منها من وقود لامع على الأرض. أخرج علبة ثقاب ورقية من جيب قميصه، ونظر إليها شاعرًا بالذنب والحماس والإعجاب. على غلاف العلبة إعلان مدرسة لا سال للتعليم بالمراسلة في شيكاغو. فكَرَّ: أنا أقف فوق قبلة. أغمض عينيهِ وارتعش في نشوة ورعب. الحماس البدائي البادر يتفجر في داخله، ويخدر أصابع يديه وقدميه.

هيا يا زُبالة، يا زبابة النار اللعينة!

أُفْرِجَتْ عنه المصححة في تير هوت في عمر الثالثة عشرة. لم يعرفوا أكان قد شُفِيَ أم لا، لكنهم زعموا أنه شُفِيَ. احتاجوا إلى غرفته لحبس طفل مجنون آخر عامين. عاد صفيحة الزُبالة إلى بيته، وقد فاتته التعليم النظامي ولم يدرك معنى هذا. كانوا قد عالجه بصدّات كهربية، وعندما عاد إلى بوتانقيل ما عاد يتذكر بعض الأمور. كان يذاكر لأداء اختبار، ثم ينسى نصف ما ذاكره، فيرسب.

كفَّ عن إشعال الحرائق مدةً، ويُحَسَّب له هذا. عاد كل شيء إلى طبيعته كما يبدو. رحل الشريف قاتل الآباء، ومكث هناك في جاري يُرْكَب مصابيح السيارات. عادت أمه إلى العمل في مقهى بوتانقيل. كل شيء على ما يرام، وحاويات شركة تشيري تشمخ عند الأفق كعبوات صودا بيضاء عملاقة، خلفها دخان مصانع جاري -حيث الشريف قاتل الآباء- وكأن البلدة تحترق فعلاً. تساءل أحياناً كيف ستبدو حاويات شركة تشيري للنُفْط لو انفجرت. ثلاث انفجارات متفرقة، بصوت عالٍ يخرق الآذان، ووهج يقلّي الأعين في محاجرها. ثلاثة أعمدة نارية (الأب والابن والشريف قاتل الآباء) تستعر ليلَ نهارَ لأشهر. أم إنها لن تشتعل من الأساس؟

سيعرف حالاً. أطفأت نسمات الصيف أول عودِي ثقاب أشعلهما. عن يمينه، قرب حافة الحاوية المستديرة بارتفاع الركبة، رأى حشرة تُحْتَضَر في بقعة الوقود. فكر في أنه مثلها، وتساءل عن أي عالم هذا الذي يترك فيه الرب تغرق في بقعة دبقية عظيمة كما تغرق الحشرة في بركة الوقود، بل ويترك

تعاني ساعاتٍ، وربما أيامًا.. أو سنواتٍ في حالته. هذا عالم يستحق الحرق.
وقف مُطرقَ الرأس، واستعدَّ لإشعال عود ثقاب ثالث عندما تخفت الريح.

بعد عودته، استمرَّ الناس في نعته بالمخبول، والمجنون، ومُشعل الحرائق، لكنَّ كارلي يتس الذي سبقه في الدراسة بثلاثة أعوام كان يتذكر حرقه صفائح الزُّبالة، فالتصق به الاسم الذي أطلقه عليه. ترك المدرسة بإذن أمه عند وصوله إلى سن السادسة عشرة (لقد دمروه في تير هوت، فماذا سنتوقع؟ كنت لأقاضيهم لو أن معي مالا) والتحق بالعمل في مغسلة سكرابا - دوبا، يغسل المصابيح الأمامية بالصابون، ويمسح الزجاج ويظلي الهياكل بشمع التلميع. لوقت طويل سارت الأمور في مسارها المتوقع، وظل الناس يصيحون به من منعطفات الشوارع ونواصيها، أو من سياراتهم، يريدون معرفة ما قالته السيدة سيمبل عندما أحرق منزلها (بعد مرور أربع سنوات على موتها)، أو معرفة أكان قد بلل فراشه بعدما أحرق ذاك المنزل في سادلي. استمروا في استدعاء بعضهم عندما يرونه، كي يخفوا علبَ الثقاب ويطفئوا سجائرهم لأن رجل صفيحة الزُّبالة في الطريق. تحولت الأصوات إلى أشباح كلمات، لكنَّ مستحيل تجاهل الأحجار التي تبصقها أفواه الحارات على الجهة المقابلة من الشارع. في مرة رماه أحدهم بزجاجة بييرة نصف ممتلئة من نافذة سيارته، فأصابته جبهته وجثا من الألم.

هذه هي حياته: أصوات، أحجار مقذوفة من وقت إلى آخر، مغسلة سكرابا - دوبا. في استراحة الغداء يجلس كما جلس اليوم، يأكل الشطائر التي أعدَّتها له أمه وهو يحرق إلى حاويات شركة تشيرلي للنظف، ويتساءل عن طريقة حرقها.

كانت هذه حياته على أي حال، حتى وجد نفسه ذات ليلة في برج الكنيسة المنهاجية، ينثر في أرجائه خمسة جالونات وقود، خاصة في كومة صحف الترانيم القديمة في الركن.. توقف هنيهة وفكر: هذا خطأ.. ربما ما هو أكثر من ذلك.. هذه حماقة. سيعرفون أنك الفاعل. سيعرفون هذا حتى لو كان الفاعل أحدًا غيرك، وسوف يرسلونك إلى مكان بعيد. فكر في كل هذا وهو يشم رائحة الوقود والأصوات تطوف في عقله كوطاويط في منزل مسكون. ثم بزغت ببطء ابتسامة على وجهه، ورفع عُبوة الوقود وهُرِع إلى الممر الرئيسي

فيما محتوى العبوة ينسكب من البرج إلى المذبح وهو يجري كعريس تأخر عن زفافه، يتوق إلى إشعال الحريق أكثر مما يتوق إلى فراش الزوجية.

ثم عاد إلى البرج وأخرج عود ثقاب واحد من جيب قميصه، وحكّه في سحّاب سرواله، وألقى به نحو كومة صُحف التراقيم المبللة بالوقود، فاشتعلت. بعد أيام كان في طريقه إلى مركز إصلاح الفتية وتأهيلهم في شمال إنديانا، وخلفه أضلع الكنيسة المنهاجية السوداء المحترقة.

ثم ظهر كارل يتس، مستندًا إلى عمود الإنارة جوار مغسلة سكرابا - دوبا، وسيجارة لافي سترايك تتدلى من بين شفتيه، وصاح بمرثية وداعه: «مهلاً يا صفيحة الزبالة، لماذا قد تحرق كنيسة؟ لماذا لم تحرق المدرسة؟».

كان في السابعة عشرة عندما سُجنَ في إصلاحية الفتية، وعندما وصل إلى سن الثامنة عشرة، أرسلوه إلى سجن الولاية. كم مكث هناك؟ مَنْ يعرف؟ بالتأكيد ليس رجل صفيحة الزبالة. لم يأبه أحد في السجن لكونه قد حرق كنيسة، فهم ارتكبوا جرائم أشد فُحشًا؛ قتلًا، اغتصابًا، تهشيم رؤوس أمينات المكتبات المُسنات. أراد بعض زملائه أن يفعلوا به أشياء، وأراد البعض الآخر أن يفعل لهم أشياء. كل هذه الرغبات تظهر بعدما تُطفأ الأنوار.

أحيانًا يفكر في أنه سيظل في السجن إلى الأبد، لكنه في الليل أحيانًا يفكر في حاويات تشيري للنفط، وفي أحلامه يهزم صوت انفجار واحد في البداية يليه انفجاران آخران.. بوم! بوم! بوم! بوم! ثلاثة انفجارات مدوية تضيء النهار، تعيد تشكيله، كما تُعيد المطارق تشكّل رقائق النحاس. سيترك كل مَنْ في البلدة ما يفعل، ويتلفت نحو بلدة جاري، نحو الحاويات الثلاث الشامخات عند الأفق كأنها عبوات كولا عملاقة بيّضتها عوامل التعرية. سيكون كارل يتس وقتها يحاول بيع سيارة بليموث لزوجين مع طفل، وسيتوقف عند منتصف الصفقة وينظر. سيخرج المتسكعون من المتاجر والحانات ويحتشدون أمامها، ويتركون خلفهم بيرتهم وحلواهم لتذوب في الحر. ستتوقف أمه في المقهى أمام ماكينة الدفع. سيرفع الصبي في المغسلة رأسه عن المصابيح التي يغسلها، ويحرق نحو الشمال والإسفنجة المبللة في يده، نحو المطارق التي تعيد تشكيل مسار اليوم. بوم! كان هذا حلمه.

مع الوقت صار محل ثقة في السجن، وعندما باغتهم المرض أرسلوه إلى المستشفى، ومنذ أيام لم يعد من مرض لأنهم جميعًا ماتوا أو هربوا، إلا

حارس شاب يُدعى چيسون ديبنز، جلس خلف مقود سيارة المغسلة الخاصة بالسجن، وأطلق على نفسه الرصاص.

أين سيذهب الآن ما لم يُعد إلى بلده؟

تحرك النسيم برقّة على خده، ثم توقف. أشعل عود ثقاب أخير ورماه، فسقط على بركة الوقود الصغيرة فاشتعلت بلهب أزرق وانتشر ببطء في ما حوله كهالة في منتصفها عود ثقاب أسود. شاهد صفيحة الرُّبالة للحظات، شلّه الوَلَه. بعدها نزل الدرج سريعاً وهو ينظر إلى ما وراء كتفه من وقت إلى آخر. يرى المضخة الآن من وراء ساتر حراري، تتضح وتختفي كالسراب. امتدّ اللهب الذي لا يتعدى طوله بوصتين نحو مضخة الوقود والماسورة المفتوحة. انتهت معاناة الحشرة، وغدت قشرة محترقة فارغة.

يمكن أن أَدع هذا يحدث لي.

لكن يبدو أنه لم يرغب في هذا. لقد صار لحياته هدف آخر الآن، هدف أكبر وأعظم. لذا شعر بلمسة خوف ونزل الدرج عدّواً. تضرب قدماه الدرجات المعدنية، وتنزل يده المعروقة على السور الصدى.

يدور نازلاً إلى أسفل، يتساءل متى ستتشب النيران في البخار المتصاعد في الهواء من الماسورة؟ متى يصل اللهب إلى عمق الحاوية؟

تطايرت خصلات شعره عن جبينه، وظهرت تكشيرة رعب على وجهه، وعوّت الريح في أذنيه وهو يهبط. هو الآن في منتصف المسافة إلى أسفل، بالضبط عند حرفي CH باللون الأخضر الفسفوري، على ارتفاع عشرين قدماً من القاع. ينزل وينزل، تُسابق ساقاه الريح. ربما يتعثّر ويهوي كعُبُوة الوقود، وتتكسر عظامه كأفرع شجر جافة.

اقتربت الأرض منه أكثر، حيث الحصى الأبيض حول الحاوية والحشائش الخضراء الممتدة خلف الممر. عادت السيارات في ساحة الانتظار إلى حجمها الطبيعي في عينيه. شعر كأنما يطفو في حلم، وأنه لن يصل إلى القاع أبداً. سيجري ويجري ولن يصل إلى أي مكان. إنه جوار قنبلة ذات فتيل مشتعل.

من بعيد فوقه، سمع صوت فرقعة كفرقة صواريخ الاحتفال بالرابع من يوليو، تلتها طرقة خافتة، وهوى شيء من جواره؛ جزء من الماسورة، مسودّ ملتبس من الحرارة الفائقة.

وضع يده على السور وقفز من فوقه، فسمع صوت عظمة تُكسر في رسغه. لطمه ألم حاد انتشر حتى مرفقه. هبط آخر عشرين قدمًا، وسقط على الحصى ممددًا. خدش الحصى جسده وعضديه، لكنه بالكاد شعر به؛ كان الذعر والألم يملآته، والسطوع يعميه.

قام رجل صفيحة الزُبالة مترنحًا ينظر إلى أعلى، ثم بدأ يجري. قد ينفجر المكان كله في أي لحظة.

جرى، ويده اليمنى تقبض على رسغه المكسور. قفز من فوق سور ساحة انتظار السيارات، وعبرها سريعًا، ثم انطلق إلى المدخل العريض المؤدي إلى الطريق، ودفع البوابة فعبرها إلى طريق 130 السريع. عبّره جريًا ورمى نفسه خلف خندق صرف مياه المطر على الجهة الأخرى. سقط فوق أوراق شجر جافة وطحالب نديّة. لف ذراعيه حول رأسه ولهث بقوة.

انفجرت حاوية النفط. لم تصدر صوت بوم! بل كا - وُوم! صوت ضخم للغاية، على ذلك قصير مكتوم، حتى إنه شعر بضغط على طبليتي أذنيه، وخلف عينيه، كأن الهواء تغيّر بشكل ما. تبع ذلك انفجار ثان، ثم ثالث، فتكوّم صفيحة الزُبالة على أوراق الشجر الجافة وكشّر وصرخ بلا صوت. ثم تساقطت أجزاء من الحاوية والمضخة على الطريق من حوله، مشتعلة، حادة، ساخنة.

كا- وُوم!

استقام صفيحة الزُبالة جالسًا، ورأى نارًا ضخمة خلف ساحة انتظار سيارات شركة تشيري للنفط. الدخان الأسود يتمايل فوق قمة لهيبها، ويرتفع قبل أن تجرفه الرياح وبعيدًا وتبدده.

لا يمكن أن تنظر إلى النار دون أن تزمّ عينيك حتى تكاد تغلقها. تشع حرارتها الآن خلال الطريق، تلفح جلده. عيناه تدمعان مُحْتَجَّتَان. هوت من السماء قطعة معدن مشتعلة أخرى، على هيئة ماسة، عرضها سبع أقدام، وحطّت في خندق الصرف على بعد عشرين قدمًا عن يساره، واشتعلت أوراق الشجر على الفور.

كا - وُوم - كا - وُوم!

لو مكث هنا لدُفِنَ وسط الحطام. قام وهُرِعَ تجاه جاري، والهواء يسخن أكثر وأكثر في صدره، طعمه معدني مر. تحسس شعره ليرى أكان قد احترق.

أفعمت رائحة الوقود الهواء وأحاطت به. الريح الحارة تمزق ملابسه. شعر
كأنه يفر من فرن مايكرويف. صار الطريق أمام عينيه الدامعتين اثنتين، ثم
ثلاثة.

زأر صوت آخر إذ تسبب ضغط الانفجار في تصدع مبنى الشركة الإداري،
فانهمرت منه شظايا الزجاج والركام التي اخترقت كُمي قميصه وانغرزت
في جلده. سقطت أمامه قطعة حطام حادة في حجم يكفي لهرس رأسه،
ثم ارتدت وتدحرجت مبتعدة، مخلفة مكانها حفرة. ابتعد أخيرًا عن منطقة
الخطر، وظل يعدو، والدم يتدفق إلى رأسه فشعر كأن مخه رُش بوقود
وينقصه عود ثقاب حتى ينفجر.

كا - وُوم!

دوى انفجار آخر من جهة الحاويات، وشعر بدفعة قوية من خلفه، كأن
يدًا تناسب كل تضاريس جسده وحجمها، من الرأس إلى القدم، دفعته إلى
الأمام حتى رفعته عن الأرض. تعلو وجهه الآن تكشيرة زعرٍ مَن رُبطَ في أكبر
طائرة ورقية في العالم، في يوم شديد الريح، وهو الآن يطير بلا هدى، لا
يعرف إلى أين سيَقْدَفُ به، يصرخ بلا حيلة ولا جدوى.

من خلف خط نيران الانفجارات، تشتعل ذخائر الرب بلهب العدالة،
ويعصف الشيطان بالسموات، قائد جيوشه أبله ذو تكشيرة حادة وخدين
أحمرين مسلوخين، اسمه صفيحة الزُبالة، ولن يعود دونالد ميروين إلبيرت
مرة أخرى.

تتوالى المشاهد سريعًا من حوله؛ سيارات محطمة على الطريق، صندوق
بريد السيد سترانج ذو العلم الأحمر المرفوع، كلب ميت قوائمه إلى أعلى،
سلك كهرباء مقطوع فوق حقل ذرة.

لم تعد اليد تدفعه بقوة الآن، وعادت المقاومة من الأمام. غامر صفيحة
الزُبالة بالنظر إلى الوراء ليرى أن كل شيء يحترق. بدا الطريق نفسه مشتعلًا،
وأشجار الصيف مشاعلًا موقدة.

جرى ربع ميل آخر، ثم أبطأ اندفاعه إلى سير مُتَعَبٍ متعثر. بعد ميل
استراح ونظر خلفه، يشم رائحة الحريق الزكية. دون مطافئ ولا رجال
إطفاء ستتحرك النيران إلى حيث تنقلها الريح. ربما تستعر أشهرًا. ستمحى
بوتانقيل، وسيتحرك خط النار جنوبًا ليدمر المنازل والقرى والمزارع

والمحاصيل والخمائل والغابات. ربما يصل حتى تير هوت، وتحرق المكان الذي كان فيه. ربما تحرق ما هو أبعد! ربما...

عادت عيناه إلى الشمال مرة أخرى، نحو جاري. يستطيع أن يرى البلدة الآن هادئة ساكنة، كأنها مرسومة بالطبشور على سَبُورة زرقاء. خلفها شيكاغو. كم فيها من حاويات نفط؟ كم محطة وقود؟ كم قطارًا متوقفًا يحمل أطنانًا من مواد سريعة الاشتعال؟ كم مدينة وراء جاري وشيكاغو؟

تحت شمس الصيف بلاد كاملة تنتظر الحريق.

مبتسمًا، قام رجل صفيحة الزُبالة وبدأ يمشي. جلده أحمر كالسلطعون. لم يكن يشعر بالحرق، بيد أنها ستبقيه مستيقظًا من الألم في الليل. أمامه الآن حرائق أفضل وأكبر. عيناه رقيقتان، سعيدتان، مجنونتان. عينا رجل اكتشف محور مصيره وسبب وجوده أخيرًا.

الفصل الخامس والثلاثون

قالت ريتا دون أن تلتفت: «أريد أن أخرج من المدينة». كانت تقف في شرفة شقة صغيرة، ونسيم الصباح يداعب رداء نومها فيرفرف خلال الباب المنزلق خلفها.

قال لاري وهو جالس إلى المنضدة يأكل شطيرة بيض مقلي: «حسنًا». استدارت له بوجه مُرهق. لو أنها بدت أربعينيةً أنيقةً لحظة رآها في المتنزه، فهي الآن تبدو كامرأة ترقص على الحافة الفاصلة بين أوائل الستينيات وأواخرها. ترتجف السيارة بين أصابعها وهي تُقربها من شفيتها، وتقول: «أنا جادة».

مسح فمه بالمنديل وقال: «أعرف أنك جادة، وأفهمك. يجب أن نرحل». ارتخت عضلات وجهها في ما يشبه الراحة، ودون أن يعي لاري (تقريبًا)، رآها تبدو أكبر سنًا.

- متى؟

سألها: «لماذا لا نرحل اليوم؟».

- كم أنت عزيز. هل تريد المزيد من القهوة؟ t.me/soramnqraa

- يمكنني أن أحضرها لنفسي.

- كفى هراء. ستجلس مكانك. اعتدت أن أحضرَ لزوجي كوبَ قهوة ثانيًا. كان يُصر على ذلك رغم أنني لم أكن أرى على الإفطار إلا شعره؛ باقي جسده يكون مختلفًا وراء جريدة وُل ستريت، أو كتاب أدبي ضخم. ليس كتابًا مهمًا أو عميقًا، بل معقد، مثل كتابات بول وكامو وميلتون. أنت تغيير مُرحَّب به. شيء مخز أن تخفي وجهك وراء جريدة».

ابتسم ابتسامةً ضبابيةً. خفة ظلها اليوم مفتعلة، كما كانت طوال ظهيرة أمس. يتذكر مقابلتها في المتنزه، وكيف شعر بأن حوارهما رشّة ألماس فوق منضدة بلياردو خضراء. منذ ظهيرة أمس تحول الألماس إلى زركون، لا يزال لامعًا، لكنه كذلك غير أصلي.

- هاك القهوة.

وضعت الكوب بيد مرتجفة بعد، فسالت بعض القطرات من فوق الحافة لتلوث ذراعه. أجفل مبعّدًا ذراعه وهو يهسُّ ألمًا كالقطط.

- معذرة.

على وجهها ما هو أكثر من الاعتذار، شيء أقرب إلى الذعر.

- لا بأس...

- لا... أنا فقط... خرقة مبللة بالماء البارد... لا... اجلس هنا.. أنا حمقاء.. خرقاء...

وانفجرت بالبكاء كأنها شهدت موت أعز أصدقائها، لا تسببت في حرق بسيط. قام وعانقها، ولم يهتم بالطريقة المتشنجة التي عانقته بها. لقد تشبّث به. (تشبّث كوني) عنوان ألوم لاري أندروّد الجديد. لم يسرّه الخاطر. اللعنة، أنت لست رجلًا لطيفًا. ها نحن نبدأ من جديد.

- معذرة، لا أعرف ماذا دهاني. لم أكن هكذا من قبل.. أنا آسفة...

- لا بأس. لم يحدث شيء.

واستمر في تهدئتها وهو يمسد على شعرها أليًا، شعرها الذي سيبدو أفضل بعدما تستحم.

عرف طبعًا المشكلة، إنها أمر شخصي وغير شخصي، وقد أثّرت فيه لكن ليس بالعمق نفسه. بالنسبة إليها الوضع أشبه بانفجار داخلي وقع خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية.

الجانب غير الشخصي هو الرائحة التي تأتي محمّلة على نسيم الصباح الباكر، من جهة الشرفة وغرفة المعيشة. رائحة الحر والرطوبة التي لا تشبه حرارة ورطوبة الأيام السابقة. الرائحة التي يصعب تبيّنها بطريقة صحيحة وأقل ألمًا من الحقيقة المُرّة. تبدو كبرتقال فاسد، أو سمكة نينة، أو هواء

أنفاق القطار، لكنَّ أيًّا من تلك الروائح ليست دقيقةً بالكامل. هذه رائحة تعفنٍ جثث بشرية. آلاف منها تتحلل في الحر خلف الأبواب المغلقة حولك.

كان التيار الكهربائي موصولًا بعد في مانهاتن، لكنَّ لاري لا يظنه سيدوم طويلًا. لقد انقطع التيار في أغلب الأماكن فعلًا. الليلة الماضية وقف في الشرفة بعدما نامت ريتا، من ذلك المكان الشاهق رأى الظلام يغطي أكثر من نصف بروكلين وكل مِنطَقة كوينز. ظلام دامس على امتداد المسافة حتى جزيرة مانهاتن. بالنظر إلى الجهة الأخرى، سترى أنوار نيويورك سيتي، وبايون، لكنَّ عداهما نيو جيرسي كلها مظلمة.

يعني الظلام ما هو أكثر من اختفاء النور. قد يعني اختفاء مكيفات الهواء التي تجعل الحياة ممكنة في تلك المِنطَقة القائضة بعد شهر يونيو. تعني أن كل من ماتوا في شققهم يُطهون الآن في أفران عملاقة، وكلما فكر في الأمر، تذكر ما رآه في حلمه، وفي ذلك الحلم رأى الحياة تدب في ذلك الظلام.

على مستوى شخصي آخر، رأى أنها مهمومة بما رآته في أثناء مشيهما في المتنزه أمس. كانت تضحك وتثرثر عندما بدأ السير، لكنها بدأت تشيخ كلما توغَّلا في طريقهما أكثر.

كان الصارخ في المتنزه مضرِّجًا في دمائه على الطريق. نظارته ملقاة إلى جوار ذراعه الممدودة المتخشبة، مهشمة العدسات. لا بُدَّ أن وحشًا ممن تنبأ بهم باغته. لقد طُعِنَ هذا الرجل مرارًا. بدا لعيني لاري المذعورتين كأنه وسادة دبابيس.

صرختُ وصرختُ، وعندما هدأت هستيريتها أخيرًا، أصرَّت على دفنه، فدفناه. عندما رجعا إلى الشقة، عادت المرأة التي قابلها صباحًا.

قال لها: «لا بأس. حرق بسيط. جلدي بالكاد محمر».

- سأحضر لك مرهمَ حروق. لديَّ واحد في خزانة الأدوية.

همَّت بالابتعاد، لولا أن أمسك كتفيها وأجلسها. نظرت إليه بعينين محاطتين بالسواد. قال لها: «كل ما ستفعلينه هو أنك ستأكلين. بيض، توست، قهوة. ثم سنحصل على بعض الخرائط ونرى أفضل طريقة للخروج من مانهاتن. سنضطرُّ إلى السير كما نعرفين».

ذهب إلى المطبخ الصغير، لا يريد أن يرى الرغبة الصامته في عينيها بعد الآن، وأخرج آخر بيضتين من البراد. كسرها في طبق، ورمى القشر في سلة القمامة، وبدأ يخفقهما.

سألها: «إلى أين تريدان أن تذهبي؟».

- ماذا؟ لا...

قال بنفاد صبر: «في أي اتجاه؟»، ثم أضاف الحليب إلى البيض، ووضع المقلدة على الموقد مضيئاً: «شمالاً؟ إلى حيث نيو إنجلاند؟ جنوباً؟ لا أرى سبباً لذلك. يمكننا أن نذهب...».

سمع نهضة مختنقة، فالتفت إليها ليراها تحقق إليه عاقدة كفيها على حجرها. كانت تحاول السيطرة على نفسها لكنها أخفقت. سألها وهو يقترب منها: «ما الأمر؟ ماذا حدث؟».

- لا أعتقد أنني قادرة على الأكل. أعرف أنك تريدني أن... سأحاول.. لكنّ الرائحة...

عبر الغرفة وأغلق النافذة، ثم أوصدها بأحكام. قال بخفة متمنياً ألا يظهر الضيق الذي يشعر به تجاهها: «هذا أفضل؟».

- أفضل بكثير، نعم. يمكنني أن أكل الآن.

عاد إلى المطبخ وقلب البيض الذي بدأ يجمد. بشر قطعة جبن أمريكي بالمبشرة ونثرها على البيض. تحركت هي من خلفه، وبعدها صدحت موسيقى ديبسي في الشقة، رقيقة جميلة أكثر مما يحتمله ذوق لاري. إنه لا يكثرث للموسيقى الكلاسيكية. إن كنت ستخوض في هراء الكلاسيكية فالأفضل أن تختار شيئاً أصلياً، مثل مقطوعات بيتهوفن أو فاجنر. لماذا ندور حول الأمر؟

سألته عن عمله بتلقائية من يستخف بالعثور على عمل ولا يجد في ذلك صعوبة. أجابها أنه كان مغنيّ روك آند رول، ودُهِش من أن استخدامه الزمن الماضي لم يؤلمه. أخبرها أنه غنى مع تلك الفرقة مرة ومع تلك مرة، وسجل أحياناً أغاني في استوديو. أومأت، وكان هذا نهاية الحوار. لم يجد في نفسه رغبة في أن يخبرها بأغنيته «صغيرتي، هل تفهمين رجلك».. بدت له ماضياً الآن. الفجوة بين حياته الحالية والسابقة أكبر من أن يفهمها. في تلك الحياة كان يهرب من تاجر كوكايين، وفي هذه يدفن رجلاً في سنترال بارك ولا يرى في ذلك غرابة.

وضع البيض في طبق، وقَدَّمه مع كوب قهوة سريعة التحضير مضاف إليها الكثير من المبيّض والسكر كما تفضّل. (تذكّر لاري مقولة سائقي الشاحنات: إن كنت تريد كوب مبيّض وسكر، لماذا تطلب قهوة؟). كانت تجلس على وسادة أمام الاستيريو. موسيقى ديبُسي تسيل من السماعات كالزبد. هتف: «الإفطار جاهز».

اقتربت من المنضدة بابتسامة شاحبة، ونظرت إلى البيض كما ينظر العداء إلى الحواجز على المضمار، وبدأت تأكل. قالت: «جيد. أنت محق. شكرًا لك».

- العفو. والآن اسمعي. أقترح التالي: نمشي في الشارع الخامس إلى الشارع التاسع والثلاثين، ثم ننعطف غربًا. نعبّر نيو جيرسي من خلال نفق لينكولن. يمكن أن نتخذ طريق 495 الشمال غربي إلى باسيك، ثم... هل البيض جيد؟ لم يفسد؟
- جيد.

حملت المزيد منه بالشوكة إلى فمها، وتبعته برشفة قهوة. قالت: «أكمل. أسمعك».

- من باسيك نتجه غربًا حتى نجد طرقًا صالحة للقيادة. بعدها نقصد نيو إنجلاند في الشمال الشرقي. سنلف كعروة الزّر، هل تفهمين قصدي؟ يبدو الطريق أطول، لكنه سيوفر علينا الكثير من المضايقات. ما رأيك أن نتخذ منزلًا على المحيط في مَين، أو كيتري، أو يورك، أو أوجنويت؟ كان ينظر من خلال النافذة، ويفكر وهو يتكلم، والآن استدار نحوها. ما رآه أفزع لحظة.. كأنها جُنَّت. كان تبسم، لكنها ابتسامة أقرب إلى الألم والخوف. العرق يغطي وجهها في قطرات كبيرة مستديرة.
- ريتا؟ إلهي، ريتا، ماذا...
- معذرة...

قامت فتعثرت وأسقطت مقعدها، وهُرَعَتْ خارجة من الغرفة، وكادت تتعثر في الوسادة التي كانت جالسة عليها أمام الاستيريو. دخلت الحمام، وسمع صوت تقيؤها إفطارها. ضرب بكفه المنضدة في ضيق، ثم ذهب إليها. إلهي، كم يكره عندما يتقيأ الناس. يدفعه الأمر إلى التقيؤ بدوره. رائحة الجبن

الأمريكي نصف المهضوم في الحمام تثير غثيانه. جلست ريتا على الأرضية الزرقاء، وتثني ساقيها تحتها. ما زال رأسها مائلاً نحو المرحاض.

مسحتُ فمها بمناديل الحمام، ونظرتُ إليه بوجه شاحب كالورق.
- آسفة. لم أستطعُ أن أكل يا لاري. آسفة حقاً.

- إن كنتِ تعرفين أن الطعام سيجعلك تقيئين، لماذا أكلتِ؟

- لأنك أردتني أن أكل، ولم أشأ أن أغضبك مني. لكنك غضبت، أليس كذلك؟ أنت غاضب مني.

عاد عقله إلى الليلة السابقة. مارستُ معه الحب بشغف وقوة حتى تساءل بحق عن عمرها، وأثار هذا اشمئزازه بعض الشيء. قذف سريعاً، كأنه يدافع عن نفسه، وبعد وقت طويل ارتمتُ على ظهرها غير مُشَبَّعة. بعدها، وبينما هو بين النوم واليقظة، اقتربت منه حتى شمَّ عطرها الأعلى من عطر أمه الذي تستخدمه دائماً عندما يخرجان إلى السينما. همستُ بشيء انتزعته من نعاسه وظل يؤرقه ساعتين بعدها: لن تتركني، أليس كذلك؟ ألن تتركني وحيدة؟

قبل ذلك كانت بارعة في الفراش حتى أذهلته. كانت قد عادتُ به إلى منزله بعد غداء يوم التقيا، وحدث ما حدث تلقائياً. تذكر اشمئزازه القوي من تهذُّل صدرها ومن العروق الزرقاء عليه (ذكَرته بدوالي ساقي أمه) لكنه نسي كل هذا حالما بدأ المضاجعة المجنونة المحمومة.

بعدما انتهيا، ناما. بعد أربع ساعات استيقظ ونظر إليها وهي نائمة، وهو يفكر في أن للخبرة عاملاً. لقد ضاجع الكثيرات خلال السنوات العشر الماضية، لكنَّ ما حدث منذ ساعات لم يكن مضاجعةً، بل شيئاً أفضل بكثير.

أثاره أن يفكر في أن لديها عُشاقاً، فأيقظها. وظلاً على تلك الحال حتى وجدا جثة الصارخ. قبل ليلتين، استيقظ قبل الثانية صباحاً، وسمعها تملأ كوبها من صنوبر الحمام، واستنتج أنها تأخذ قرصاً مهدئاً آخر، وأنها تتعاطى المهدئات منذ وقت طويل قبل الإنفلونزا الفائقة.

ثم لاحظ كيف تتبعه من مكان إلى مكان في الشقة، حتى إنها كانت تقف خلف باب الحمام تحدثه فيما يستحم أو يتغوّط. هو رجل يحب الخصوصية في الحمام، لكنه قال لنفسه إن البعض لا يفضلون هذا. هذه التفضيلات تعتمد على تربيتك. كان يحادثها من خلف الباب... أحياناً.

لكن الآن...

هل عليه أن يحملها على ظهره؟ يا للمسيح. تمنى ألا يحدث هذا. لقد بدت أقوى من هذا، على الأقل في البداية. كان هذا ضمن الأسباب التي راقت له من أجلها في ذلك اليوم في المتنزه.. بل السبب الرئيسي. فكر في مرارة: الإعلان شيء والواقع شيء آخر. كيف سيعتني بها إن كان عاجزاً عن الاعتناء بنفسه؟ لقد ظهر هذا بعد نجاح أغنيته، وأشار وين ستوكي إلى نقطة ضعفه هذه بلا حياء.

قال لها: «لا، لست غاضباً. الأمر أنني... تعرفين، لست رئيسك. إن كنت لا تشتهين الطعام فلا تأكلي».

- لقد قلت لك أنني قد لا أكون قادرةً على...

انفجر غاضباً: «لقد قلتِ فعلاً عليك اللعنة».

حنّت رأسها ونظرت إلى يديها، وأدرك أنها تجاهد كي لا تبكي لأنه سيثور لذلك. جعله هذا أكثر غضباً لوهلة، حتى كاد يصرخ: لستُ أباك ولا زوجك البدين من أجل المسيح! لن أعطني بك! أنت أكبر مني بثلاثين سنة! ثم شعر بلوم النفس المعتاد، وتساءل عما أصابه حقاً.

قال: «أسف. أنا وغد معدوم الإحساس».

- لست كذلك. المشكلة أن.. أن كل ذلك يتراكم على أعصابي. أمس.. الرجل المسكين في المتنزه. فكرتُ في أن أحداً لن يجد من فعل به هذا ويلقيه في السجن. سيستمر في القتل مرة تلو الأخرى دون رادع. بدا لي كل شيء حقيقياً فجأة، هل تفهمني يا لاري؟

ورفعت عينيهما المبتلتين بالدموع إليه. قال في نفاذ صبر: «نعم». الوضع حرج، وكيف لا يكون كذلك؟ إنهما في منتصف كارثة ويشهدان تفاقمها حتى الآن. أمه ماتت. رآها تموت، وتلك المرأة الآن تخبره أنها أكثر حساسية منه تجاه ما يحدث؟ لقد فقد أمه، وفقدتُ هي الرجل الذي اشترى لها السيارة المرسيدس، لكن بشكل ما المفترض أن تكون خسارتها أعظم. حسناً، هذا هراء. محض هراء.

قالت له: «حاول ألا تغضب مني. سأحسن التصرف».

أتمنى هذا.

ساعدتها على الوقوف وهو يقول: «لا بأس. هيا، أماننا الكثير لنفعله. هل تستطيعين؟».

- نعم.

لكن ما زال تعبير وجهها كما كان عندما قَدَّم لها البيض.

- عندما نخرج من هذه المدينة ستتحسنين.

- حقًا؟

- بالتأكيد. بالتأكيد ستتحسنين.

كان متجر مانهاتن للأدوات الرياضية مغلقًا. كسر لاري فتحة في واجهته الزجاجية باستخدام ماسورة طويلة. انطلق جهاز الإنذار بلا توقف، يتردد صدى صوته في الشوارع الخالية. اختار حقيبة ظهر كبيرة له، وواحدة أصغر لريتا التي حزمت طاقمي ملابس لهما - هذا كل ما سمح لها به - وحملهما في حقيبة خطوط طيران بان - إم وجدتها في الخزانة، وأضافا إليها فرشاتي أسنان لا يُعقل وجودهما. تأثقت ريتا بما لا يناسب المشي، فارتدت سروالًا حريريًا أبيض، وبلوزةً بلون الصَّدَف، بينما ارتدى لاري سروالَ جينز باهتًا، ومميصًا أبيض وشمّر كُميه.

ملأ الحقيبتين بالأطعمة المجففة ولا شيء آخر قال لها لاري إنه لا منطَق في أن يثقلا على نفسيهما فيما يستطيعان أن يجلبا ما يريدان في طريقهما. وافقت على مضض، وضايقته قلّة حماسها مرة أخرى.

بعد تفكير قصير، أضاف بندقيّة ومائتي طلقة. مثبت إلى البندقية بطاقة بسعر أربعمئة وخمسين دولارًا. سألته متوجسة: «هل سنحتاج إلى هذا حقًا؟»، وكان معها بعد مسدسها الصغير في حقيبتها.

أجابها غير راغب في تذكيرها بنهاية الصارخ: «الأفضل أن يكون معنا».

وافقته، ومن عينيها أدرك أنها تفكر في الأمر ذاته.

- هذه الحقيبة ليست ثقيلة عليكِ؟

- أوه، لا. حقًا.

- حسنًا. توقعي أن يزداد شعوركِ بوزنها مع الوقت. فقط أخبريني عندما

تثقل عليكِ لأحملها قليلًا.

قالت باسمه: «سأكون بخير». ثم أضافت وهي تنظر يمينًا ويسارًا وهما

واقفان على الرصيف: «سنغادر نيويورك».

- نعم.

- أنا مسرورة. أشعر... أشعر كأنني فتاة صغيرة وأبي يخبرني أننا سنذهب في رحلة اليوم. هل تتذكر كيف كان ذلك؟

ابتسم لاري لها وهو يتذكر أمه تقول له: «فيلم الغرب الأمريكي الذي تودُ مشاهدته في سينما كريست الآن يا لاري. يمثل فيه كلينت إيستوود. ما رأيك؟». قال لها: «أعتقد أنني أتذكر».

شبَّت على أطراف أصابعها وبدَّلت من وضع الحقيبة على ظهرها، وقالت: «بداية الرحلة»، ثم أضافت بصوت خافت حتى إنه لم يكن واثقًا من أنه سمعها: «الطريق الذي يقود إلى...».

- ماذا؟

- أقصد العبارة من رواية توكلين «سيد الخواتم». دائمًا أعتبرها دعوة إلى المغامرة.

- كلما تحاشينا المغامرة كان هذا أفضل.

ظلت تنظر خلال الطريق. عند مفترق الطرق طريق ضيق محتشد بالسيارات المتوقفة مسافة أميال، كأن كل سكان نيويورك قرروا إيقاف سياراتهم في الشارع في الوقت نفسه.

قالت ريتا: «لقد سافرتُ إلى برمودا وإنجلترا وجامايكا ومونتريال وموسكو، لكنني لم أذهب في رحلة منذ كنت طفلة واصطحبني أبي وأختي ببس إلى حديقة الحيوان. لنتحرك يا لاري».

كانت مسيرة لن ينساها لاري أندروُد. فطن إلى أنها لم تكن مخطئة عندما اختارت عبارة من رواية توكلين، الذي رأى تلك العوالم الغامضة خلال عدسة الزمن والخيال شبه المجنون. بشرًا وجنًا وأشجارًا مُتكلِّمة وعمالقة ومسوحًا. لم يكن أيُّ من هذا في نيويورك، لكنَّ تغَيَّر فيها الكثير، وتشوَّه فيها ما هو أكثر حتى استحال التفكير في ما يحدث خارج إطار الخيال. رأى رجلًا مشنوقًا، متدليًا من عمود إنارة عند التقاء الشارع الخامس والرابع والخمسين، تحته المتنزه والشوارع التي كانت تجارية مزدحمة. معلق حول رقبته لافتة مكتوب عليها كلمة واحدة: «ناهب». قطعة راقدة فوق سلة منشورات، فيها إعلانات حديثة عن عروض برودواي، تُرَضع صغارها وتستمتع بشمس

الصباح. مر بهما شاب بابتسامة عريضة، يحمل حقيبة مستندات، طلب من لاري (استخدام) المرأة معه خمس عشرة دقيقة مقابل مليون دولار. يبدو أن المليون دولار في الحقيقة. صوّب لاري البندقية نحوه وطلب منه أخذ دولاراته إلى مكان آخر.

- طبعاً يا رجل. لا ضغائن بيننا. أتفهمني؟ لا يمكن أن تلوم رجلاً من أجل محاولة، أليس كذلك؟ يومك جميل.

وصلا إلى نهاية الشارع الخامس بعد التقائهما ذلك الرجل (أصرّت ريتا بخفة ظل أن تطلق عليه اسم جون بيرزفورد تيبتون⁽¹⁾)، وهو اسم لا يعني شيئاً (للاري). قرب الظهيرة عرض عليها لاري الغداء في مطعم قريب، لكن عندما دفع الباب ليدخلا، طردتها رائحة اللحم المتعفن. قالت معذرة: «الأفضل ألا أدخل إن كنت أريد أن أحتفظ بأي شهية تبقت لي».

شكّ لاري في أنه قد يجد أيّ لحم محفوظ بالداخل -سلامي أو ببروني أو شيء كهذا- لكن منذ التقيا جون بيرزفورد تيبتون لم يعد يرغب في ترك ريتا وحدها، ولو حتى مدة قصيرة حتى يتأكد من وجود شيء يؤكل. لذا جلسا على مقعد قريب، وأكلا فاكهة مجففة وشرائح لحم مجفف، وأنها وجبتها بجنب مدهون على بسكويت مالح، وتشاركاً شرب القهوة المثلجة من الترموس.

قالت في فخر: «هذه المرة كنت جائعة حقاً». ابتسم لها وقد شعر بتحسن الحرية واتخاذ قرارات إيجابية أمر مُشجّع. أخبرها أنه سيطمن أكثر حالما يخرجان من نيويورك. وقتها لم يكن ما قال سوى أمل أظهره ارتفاع معنوياته. المكوث في نيويورك كالمكوث في مقابر لم يهدأ فيها الموتى بعد. كلما رحلا أسرع كان هذا أفضل. سيقصدان مين، ويسكنان أحد بيوت المصطافين الأثرياء المطلة على الشاطئ. سيتجهان شمالاً الآن، وجنوباً في سبتمبر أو أكتوبر ليعيشا في مكان أكثر دفئاً. لتلك الأحلام جرس ممتع. لم يلاحظ ألمها وهو مشغول في أفكاره، ويعلق البندقية على كتفه.

اتجها غرباً، وظلاهما خلفهما، قصير في البداية، ثم استطال تدريجياً بمرور الوقت. الشوارع مكتظة بالسيارات، أنهار عربات متجمدة من كل لون، يغلب عليها لون سيارات الأجرة الأصفر. تحولت أغلب السيارات إلى قبور،

(1) اسم شخصية في مسلسل (المليونير) الوعظي الأمريكي، عُرض بين عامي 1955-1960، عن مجموعة أشخاص يعرض عليهم مجهول مليون دولار، وتناقش الحلقات كيف غير المال أولئك الأشخاص (الترجمة)

وركابها يتعفنون داخلها، كأنهم ناموا ملأً من الزحام. ففكر لاري في الحصول على دراجتين بخاريتين حالما يخرجان من المدينة. ستمنحهما سرعة الحركة وإمكانية تخطي أكوام العربات الميتة التي تسد الطرق.

لطالما افترض أنها تستطيع ركوب دراجة بخارية، لكن بناءً على كيفية سير الأمور، سيتضح له أنها لا تستطيع. الحياة مع ريتا عذاب لا ينقطع، على الأقل من بعض النواحي. لكن إن اضطرراً، فيمكنها أن تتركب خلفه.

عند تفرع شارع تسع وثلاثين، رأيا رجلاً يرتدي شورترًا من الجينز المقصوص يدويًا، ولا شيء آخر، يتمدد فوق سقف سيارة أجرة. سألت ريتا: «هل هو ميت؟». قام الرجل إذ سمع صوتها. التفت حوله ورأها فلوح لهما، ولوحا له، ثم عاد ليتمدد مرة أخرى في هدوء.

في الثانية ظهرًا سمع لاري صوت أنين مكتوم من خلفه، فأدرك أن ريتا لم تعد تسير إلى جواره. كانت راكعة على ركبة واحدة، تمسك قدمها. في زعر لاحظ لاري أنها ترتدي صندلاً باهظ الثمن ذا مقدمة مكشوفة، ثمنه في حدود ثمانين دولارًا، وهو حذاء لا يصلح سوى للتمشية في أثناء التسوق. جرحت سيور الصندل قدمها وأغرقتها بالدماء.

- لاري، أنا آسـ...

جذبها بقوة لتقف وهو يصيح: «فيم كنت تفكرين؟!». شعر بخزي للحظة وهو يراها تجفل، لكنه شعر أيضًا براحة. أكمل: «هل كنت تظنين أنك ستركبين سيارة أجرة إلى شقتك لو تعبت؟».

- لم أحسب أن...

خلل شعره بأصابعه وهو يغمغم: «يا للمسيح! طبعًا لم تحسبي شيئًا. أنت تنزفين يا ريتا. منذ متى وقدمك تؤلمك؟».

قالت بصوت مبحوح خفيض، وجد صعوبة في سماعه حتى وسط الصمت التام: «منذ... منذ كنا عند التقاء الشارع الخامس والتاسع والأربعين على ما أعتقد».

- قدمك تؤلمك من وقتها ولم تقولي أي شيء لعين؟!!

- ظننتُ.. ربما.. تُشفى.. لم أشأ أن.. كنا نمضي وقتًا جيدًا.. نسير في شوارع المدينة.. فقط فكرت في أنه ربما...

قال في غضب: «أنتِ لا تفكرين على الإطلاق. كم سنقضي من الوقت الجيد معًا وأنتِ على هذه الحال؟ قدماك اللعينتان تبدوان كأنكِ صُلِبْتَ!». بدأتُ تنتحب وهي تقول: «لا تسبني يا لاري. ينتابني شعور سيئ للغاية عندما.. رجاء لا تسبني».

وصل إلى ذروة غضبه، ولاحقًا سيجد صعوبة في فهم سبب احتياجه لمراى قدميها الداميتين. لكن الآن لا يهم. صاح في وجهها: «سحقًا! سحقًا! سحقًا!». تردّد صدى الكلمة خلال المباني الخالية. غطّت وجهها بكفيها ومالت أمامًا تبكي. زاد هذا حنقه، وافترض أن سببًا من أسباب تغطية وجهها أنها لا تريد أن ترى. سرعان ما ستطلب منه أن يقودها وهي مغطاة العينين، ولم لا؟ على أحدهم أن يتولى كل أمور بطلتنا الصغيرة ريتا. على أحدهم أن يقود السيارة، وأن يتسوّق، وأن يغسل المرحاض ويدفع الضرائب. لنشغل إذن موسيقى ديبُسي ونضع كفيها الصغيرين ذوي الأظفار المطلية على وجهها، ونترك كل شيء للاري. اعتنِ بي يا لاري بعدما رأيتُ ما حدث للصارخ. لقد قررتُ ألا أفعل شيئًا بعد الآن. هذا أكثر مما تتحملة سلالتي الراقية وخلفيتي المرفهة. أبعد يديها عن وجهها. أجفَلْتُ وحاولتُ أن تغطي بهما وجهها مرة أخرى. زعق: «انظري إليّ».

فهزّت رأسها رفضًا.

- اللعنة يا ريتا. انظري إليّ.

أخيرًا نظرت إليه، بطريقة غريبة مرتجفة، كأنها تظنه سيضربها بقبضتيه كما أهانها بلسانه. كان يرغب في ذلك الآن.

- أريد أن أخبرك بعض الحقائق عن الحياة، لأنه يبدو أنك لا تفهمين شيئًا. حقيقة أننا مُضطرين إلى السير قرابة عشرين أو ثلاثين ميلًا. حقيقة أنه لو تلوث جرحك فستصابين بتسمم الدم وستموتين. حقيقة أن عليك أن تكفي عن التراخي وتساعديني.

كان يقبض على عضديها، ورأى أصابعه تغوص مختفية في لحمها. قل غضبه عندما أبصر علامات الاحتقان الحمراء على بشرتها بعدما تركها. تراجع إلى الخلف مبهوتًا وقد أدرك أنه بالغ في رد فعله. لاري أندروُد يضرب من جديد. لو أنه ذكي لعين، لماذا لم يتحقق من حذائها قبل الرحيل؟

قال الجزء المدافع من عقله: لأن هذه مشكلتها. لا، هذا ليس صحيحًا. بل هذه مشكلته لأنها لا تعرف. لو أنه سيأخذها معه (أدرك اليوم فقط كم أن الأمور لتكون أيسر لو كان وحده) فعليه أن يتولى مسؤوليتها.

قال الصوت الواثق في عقله: «طبعًا سأفعل».

وقالت أمه: «لقد اعتدت أن تأخذ فقط يا لاري».

وصرخت مختصة نظافة الأسنان من نافذتها: «ظننتك رجلًا لطيفًا! أنت لست رجلًا لطيفًا».

الأمر متروك لك يا لاري. أنت تأخذ فقط.

هذا كذب! كذب لعين!

قال: «ريتا، أنا آسف».

جلست على الأرض بسرورها الأبيض، شعرها الرمادي الأشيب ظاهر تحت الشمس. مالت تمسك بقدميها ولم تنظر إليه. كرر: «أنا آسف... أنا... اسمعي، ليس لي حق في قول ما قلت». بل له حق، لكن لا يهم. لو اعتذر فستهدأ الأمور. العالم يدور بهذه الطريقة.

قالت له: «أكمل أنت طريقك يا لاري. لا تدعني أعوقك».

قال بنبرة أعلى وأكثر ضيقًا: «قلت إنني آسف. سوف نبحث لك عن حذاء وجوربين. سوف...».

- لن نفعل شيئًا من هذا. أكمل أنت.

- ريتا، أنا آسف...

- لو كررت هذه العبارة مرة أخرى فسأصرخ. أنت نذل واعتذارك غير مقبول. والآن ارحل.

- قلت لك إنني..

رفعت رأسها وصرخت. تراجع إلى الخلف خطوة وهو ينظر حوله ليرى أكان أحد قد سمعها، أو أن شرطياً يهرع إليها ليرى أي جرم فظيع يرتكبه هذا الشاب في حق تلك العجوز الجالسة على الرصيف حافية. يا لغرابة القوالب التي يفكر في حيزها الناس.

قال لها: «توقفي وإلا تركتك حقًا».

نظرتُ إليه فقط، فلم يستطعُ أن ينظر إلى عينيها، وحنى رأسه. كرهها لأنها اضطرته إلى فعل ذلك. قال أخيرًا: «حسنًا. أتمنى لك وقتًا سعيدًا وأنت تُغتصبين وتُقتلين».

علّق البنديقية على كتفه، وانطلق في طريقه نحو مدخل طريق رقم 495 المغلق بالسيارات، والمائل نحو منحدر النفق. هناك رأى حادثَ تصادم عظيمًا. سيارة فان كبيرة حاولت إفساح طريق لنفسها بدفع السيارات الواقفة إلى الجانبين، وتحتها سيارة بينتو محترقة. سائقة الفان نصف متدلّية من نافذتها، رأسها إلى أسفل، وعلى بدن السيارة رذاذ دم وقيء.

نظر لاري خلفه، متأكدًا من أنه سيرهاا تتبعه، أو تقف مُتهمة. لكنّ ريتا اختفت.

هتف في ندم عسبي: «اللعنة. لقد حاولتُ أن أعذر».

للحظات عجز عن الحركة. ثبتته مئات الأعين الميتة الغاضبة، تحديق إلىه من داخل كل تلك السيارات. خطرتُ له عبارة من أغنية لبوب ديلان تقول: «انتظرتكِ في زحام السيارات المتجمدة.. متى تعرفين أنه ليس لي مكان أذهب إليه إلا حيث أنت يا ماري الحبيبة؟».

رأى أمامه الطريق ذا الحارات الأربع يمتد إلى عمق ظلام النفق، وفي زعر أدرك أن مصابيح نفق لينكولن مطفأة. سيكون السير خلاله كالسير في مقبرة سيارات. سيدعونه يمشي حتى منتصف الطريق، ثم يتململون.. يبعثون.. سيسمع صوت الأبواب تُفتح، ثم تغلق برفق.. صوت خطواتهم...

نبت عرق بارد على جسده. زقزقة عصفور فوقه جعلته يقفز فزعًا. قال لنفسه إنه أحرق. هذا هراء أطفال. كل ما عليه فعله هو التزام الرصيف داخل النفق، وسرعان ما..

سيخنقه الموتى الأحياء...

لعق شفثيه وحاول أن يضحك. مشى بضع خطوات حتى التقاء المنحدر والطريق السريع ثم توقّف مرة أخرى. عن يساره سيارة كاديلاك إلدورادو، تحديق إلىه من خلف مقودها جثة امرأة مسوّدة الوجه، أنفها منضغطة على زجاج النافذة، وقد تجمد المخاط والدم للذين سالا منه. الراكب الآخر منحني كأنما يبحث عن شيء في الدواسة. لو فتح الباب لانسكبت المرأة ككيس بطيخ فاسد وأغرقت الرصيف، ولكانت رائحتها حارّة نتنة.

هذه هي الرائحة المتوقعة داخل النفق.

على الفور استدار لاري عائداً إلى حيث جاء، شاعراً بالنسيم يجفف عرقه. نادى: «ريتا! ريتا اسمعي! أريد أن...».

ماتت كلماته إذ وصل أعلى المنحدر. لم يجد ريتا في أي مكان من الشارع الممتد. عَبَر الرصيف الجنوبي إلى الغربي، ماراً من بين السيارات المتلاصقة، قافزاً من فوق أبدانها الملتهبة. لكنَّ الرصيف الشمالي كان خالياً أيضاً. أحاط جانبي فمه بكفيه ونادى: «ريتا! ريتا!».

الإجابة الوحيدة التي تلقاها هي صدى صوته: «ريتا.. إيتا.. إيتا.. إيتا..».

في الساعة الرابعة، بدأتِ السحبُ الداكنةُ تحتشد فوق مانهاتن، وهزم صوت الرعد بين جروف المدينة. ضرب الرعد المباني، كأن الرب يحاول إرعاب الأحياء المختبئين فيها. صار الضوء مصفراً غريباً، ولم يعجب لاري هذا. تقلصت معدته، وعندما أشعل سيجارة ارتعشت بين أصابعه كما ارتجف كوب القهوة في يد ريتا ذلك الصباح. جلس عند نهاية الطريق المؤدي إلى المنحدر، يسند ظهره إلى السور. حقيبته على فخذه، والبندقية مسنودة إلى السور جواره. لقد ظن أنها ستخاف وستعود إليه سريعاً، لكنها لم تفعل. توقف عن النداء عليها منذ خمس عشرة دقيقة، وقد أخافه صدى الصوت.

هزم الرعد مرة أخرى وقد اقترب أكثر. مر هواء بارد على ظهر قميصه الذي ألصقه العرق بجسده. عليه أن يدخل إلى مكان ما، أو يتوقف عن التردد ويعبر النفق. إن لم تكن لديه شجاعة عبوره، سيضطر إلى قضاء ليلة أخرى في المدينة، ثم عبور جسر جورج واشنطن في الصباح، والذي يبعد عنه 140 مربعاً سكنياً.

حاول أن يفكر بعقل في النفق. ليس فيه ما سيُعْضُه. لقد نسي أن يجلب كشافاً قوياً -إلهي، لا يمكن أن يتذكر المرء كل شيء- لكن معه قدأحته، وفي النفق سور بين الممشى والطريق. هل من شيء آخر؟ فكر في كل أولئك الموتى في سياراتهم.. لكن هذا تفكير المرتعبين، وأفكار القصص المصورة. القلق منهم كالقلق من البُعْبُع في الخزانة. وعظ نفسه قائلاً: «إن كان هذا كل ما تستطيع التفكير فيه يا لاري، فلن تستطيع العيش في هذا العالم الجديد الشجاع».

شق البرق السماء فوق رأسه، فأجفل. تبع البرق هزيمٌ قويٌّ. ضرب المطر جانبَ وجهه، ثم قفاه وسال داخل ياقة قميصه. هطلت قطرات مطر في حجم العملة المعدنية فأغرقت كتفيه وبندقيته. لم يكن واثقًا بعد من الاتجاه الذي سيتخذه.. هل سيعود إلى الشارع التاسع والثلاثين، أو سيتجه إلى نفق لينكولن. عليه الآن أن يقف تحت ما يظلمه من السيل.

هزم الرعد مرة أخرى فوق رأسه، فأرعبه. بدا له كصیحات البدائيين منذ مليوني سنة.

صاح: «يا لك من جبان!»، وجرى نحو المنحدر المؤدي إلى النفق، ورأسه محني إلى الأمام فيما ينهمر الغيث، ويقطر من شعره. مرَّ بالمرأة ذات الأنف المنضغط على الزجاج، محاولاً ألا ينظر إليها إلا بجانب عينه. صوت المطر على أسقف السيارات كقرع الطبل.

وقف لاري خارج النفق متردداً مرتعباً. انهمر البرد في حجم الحصى، فحسم الأمر.

فكر: حسناً، اقتنعت! ثم دخل إلى نفق لينكولن.

المكان مظلم بالداخل أكثر مما حسب. في البداية دخل ضوء ضعيف من الفتحة وراءه، واستطاع أن يرى المزيد من السيارات المتكدسة (لا بُدَّ أن الموت هنا صعب، فيما رهاب الأماكن المغلقة يلف أصابعه حول رأسك ويضغط. لا بُدَّ أن الموت هنا مروّع)، وبطانة النفق الخضراء التي تكسو الحوائط المقوّسة. تحسس السور إلى يمينه، وعن يساره أعمدة الدعم السمیكة، فوقها لافتة مكتوب عليها: لا تغيّر حارتك. على السقف مصابيح فلورسنت مطفأة، وشاشات مراقبة سوداء كالأعين المحدقة.

بينما يتقدم أكثر ويدور مع دوران النفق تجاه اليمين، خفت الضوء تدريجياً، ولم يعد يرى إلا بريق معدن السيارات، ثم اختفى الضوء تماماً.

أشعل قدّاحته ورفعها عاليًا. الضوء الذي صدر منها شحيح إلى حد كبير، فلم يمدّه إلا بالمزيد من القلق بدلاً عن طمأننته. انتشر الضوء مسافةً لم تتعدّ ست أقدام حوله. أعادها إلى جيبه واستكمل السير، واضعاً يده بخفة على السور الحديدي. كره صدى صوته في النفق أكثر مما كره الصدى بالخارج، فقد جعله يشعر كأن خطواتٍ تتبعه.. تترصد به. توقف عدة مرات وأمال

رأسه ينصت متسع العينين (لكن أعمى)، حتى مات الصدى. بعد لحظاتٍ تابع المشي، لا يرفع قدمه عن الأرض كثيرًا كي لا يعود الصدى.

بعد مدة توقف مرة أخرى وأشعل القدّاحة قرب ساعته، ليعرف أن الساعة الرابعة والثلاث، لكنه لم يعرف بماذا سيستفيد من هذه المعلومة. في هذا الظلام لم يعد للتوقيت معنى، ولا للمسافة. كم طول نفق لينكولن على أي حال؟ ميل؟ ميلان؟ طبعًا لا يمكن أن يكون ميلين مع عبوره من تحت نهر هودسون. لنقل إنه ميل. لكنه لو كان ميلًا، فالمفترض أن يكون قد خرج من الجهة الأخرى فعلاً. لو أن الرجل العادي يمكنه السير بسرعة أربعة أميال في الساعة، فهو يستطيع أن يمشي ميلًا في الربع ساعة، وقد قضى في هذا النفق النتن أكثر من ذلك.

قال لنفسه: «لا بُدَّ أنني أمشي ببطء». جزع من وقع صوته. سقطتِ القدّاحة من يده. عاد الصدى كأنه صوت مجنون يصرخ: «ببطء.. أبطء.. أبطء...». غمغم لاري: «سحقًا»، فقال الصوت: «حقًا.. حقًا.. قًا...».

مسح وجهه بيده، محاربًا الذعر والرغبة في التخلي عن العقل والجري عشوائيًا إلى الأمام. انحنى (فرقت ركبته فصدر عنهما صوت كصوت الطلقات وأفزعه) ومرّر أصابعه على الممشى الخشن بحثًا عن القدّاحة، فمسّت عقب سيجارة، وكُرّة لفائف قصدير، حتى عثر على ضالته. زفر وضغط عليها في كفه، ثم أكمل السير.

حالما تمالك لاري نفسه بالكاد مرة أخرى، حتى تعثرت قدمه في شيء متصلب شبه طري. شقق وتراجع خطوتين مترنحتين إلى الخلف. ثبت ارتعاد جسده وأخرج القدّاحة من جيبه وأشعلها، فتمايل اللهب مجنونًا في يده المرتجفة.

لقد خطا فوق كف جندي جالس وظهره مستند إلى جدار النفق، ساقاه منفرجتان أمامه على الرصيف. عيناه محدقتان إلى لاري. شفتاه منحسرتان عن أسنانه فبدا مكشّرًا. مطواة منغرسة في حنجرته.

سَخّنت القدّاحة في يده. أطفأها لاري. لعق شفتيه، وتشبث تشبُّث المستغيث بالسور المعدني، وأجبر نفسه على المشي حتى ارتطم طرف حذائه بكف الجندي مرة أخرى، بعدها عَبَّرَ من فوقه بخطوة عملاقة مبالغ

فيها، فباغته خاطر كابوسي: سوف يسمع صوت احتكاك حذاء الجندي بالأرض إذ يتحرك، ثم سيمد يده ليقبض على ساقه بكف باردة.

هرول لاري عشرَ خطوات أخرى، ثم أوقف نفسه ليقينه أنه ما لن يتوقف فسيربح الذعر معركة ضده، وسيطارده الصدى المرعب، وسيدفعه إلى الانطلاق على غير هدى.

عندما شعر أنه سيطر على نفسه كفاية، بدأ يمشي مرة أخرى، لكن وضعه صار أسوأ، وقد انكمشت أصابع قدمه داخل الحذاء، تخشى التقاء جثة أخرى على الرصيف.. وسرعان ما حدث هذا.

شهق وأشعل القداحة مرة أخرى، لكن ما رآه كان أبشع بكثير. الجثة التي تعثر بها جثة مسن يرتدي بذلة زرقاء، وقد سقطت قبعته السوداء الحريرية من فوق رأسه الأصلع إلى جِجره. مثبت على القبعة نجمة سداسية مصنوعة من الفضة المطروقة. خلف الجثة نصف دسته جثث أخرى؛ امرأتان، رجل في منتصف العمر، مُسنة في أواخر السبعينيات، مُراهقان.

لم يستطع الإمساك بالقداحة الملتهبة أكثر، فأغلقها وأعادها إلى جيب سرواله، حيث شعر بها كجمرة ملاصقة لساقه. لم يفعل كابتن ترييس بتلك المجموعة إلا ما قد فعله ما سبق ورأهم. لقد رأى الدم والملابس الممزقة والبلطاط المشروخ وثقوب طلقات الرصاص. لقد قُتلوا. تذكر لاري الشائعات حول جنود أغلقوا مداخل جزيرة مانهاتن. لم يكن يعرف وقتها أكان سيصدق ما قيل ويكذبه، فقد سمع الكثير خلال الأسبوع الماضي فيما ينتشر الوباء.

سهل استنتاج ما حدث هنا. لقد عُلِّقوا داخل النفق، لكنهم لم يكونوا مرضى كفاية بما يعوقهم عن السير. خرجوا من سياراتهم ومشوا نحو مخرج جيرسي، مستخدمين الممر كما يفعل هو الآن. يبدو أنهم لقوا نقطة تركز عسكري أو شيئاً من هذا القبيل.

هل كانت النقطة موجودة، أم هي موجودة حتى الآن؟

وقف لاري متعرقاً، يحاول التوصل إلى قرار. الظلمة الدامسة هي أفضل شاشة عرض لخيالاته ومخاوفه. في عقله رأى جنود في بذلات مضادة للفيروسات، يجثون وراء بنادق آلية مزودة بمنظار أشعة تحت حمراء، مهمتهم الإجهاز على أي من يحاول الخروج من النفق. رأى في عقله جندياً

انتحارياً متبقياً، يرتدي نظارة رؤية ليلية ويتسلل من خلفه وسكين بين أسنانه، وجنديين آخرين يجهّزان مدفع هاون بحاوية غاز سام.

مع ذلك لم يستطع أن يجبر نفسه على التراجع. كان واثقاً من أن تلك الخيالات ستتبدّد، ولا يوجد ما يُعصّد قرار العودة. لا بُدَّ أن الجنود رحلوا، والجندي الذي تعثّر فيه يعزز هذا الافتراض، لكن...

لكن ما يحمل همه حقاً الجثث الممددة المكومة فوق بعضها لثمانى أقدام أو تسع أمامه. لن يمكنه العبور من فوقها كما فعل مع جثة الجندي. ولو قفز من فوق السور المنخفض ليدور من حولها لغامر بإصابة قدمه بالتواء أو كسر. لو أنه سيستمر في التقدم، فعليه أن... عليه أن يمشي فوقها.

تحرك شيء في الظلام خلفه.

استدار لاري فزعاً من صوت الخطوة الذي سمعه، وصاح وهو يشهر ببندقيته: «مَن هناك؟».

لا صوت سوى الصدى. عندما توقف، سمع -أو خيّل إليه كذلك- صوت تنفس. وقف متسع العينين في الظلام، ينتصب شعر قفاه كالشوك. كتم أنفاسه. لا صوت. حين بدأ في إقناع نفسه أنه كان يتخيل، سمع الصوت مرة أخرى؛ صوت خطوة.

بحث في جنون عن قذاحته. لم يخطر له أن إشعالها قد يجعله هدفاً سهلاً. أخرجها من جيبه، فعَلِقَت عجلة الإشعال في خياطة السروال لحظة، وسقطت القذاحة. سمع صوت ارتطامها بالسور، ثم صوت ارتطامها بسيارة في الأسفل.

اقترب صوت الخطوات البطيئة مرة أخرى، لكنّ يستحيل الجزم بالمسافة بينه وبينها. أحدهم جاء ليقّتلَه، وعادت إليه صورة الجندي بالسكين بين أسنانه، يتحرك ببطء في الظلام نحوه...

خطوة واهنة أخرى.

تذكر لاري البندقية، فرفعها وأطلق النار. صوت الدوى هائل في ذلك المكان المغلق. صرخ متألماً من الصوت، لكنّ الصرخة دوّت وسط الصخب. ومَضَت أمامه انطباعات صورة كشافات السيارات والحارات المكتظة إذ خرج لهب الانفجار من فوهة البندقية. ظل يطلق ويطلق، حتى أداره رد فعل الإطلاق حول نفسه، فراح يطلق النار تجاه المخرج لا تجاه الممر. مع ذلك

عجز عن التوقف. اتخذت إصبعه مكانة العقل، وظلَّ يضغط الزناد في جنون حتى فرغت الذخيرة.

تعلّقت انطباعاتُ صور ما حوله أمام عينيه، ثلاثيّة ملوّنة. وعى بالكاد رائحة البارود وصوت الأزيز الصادر من رثتيه. دار مرة أخرى وهو ممسك بعد بالبندقية، لكنه لم يرَ هذه المرة صورة الجنود الذين يرتدون بذلات فيلم سلالَة أندروميديا على شاشة عرض عقله، بل صورة المورلوك من رواية ه. ج. ويلز «آلة الزمن»؛ كائنات حذاء عمياء، تخرج من حفر في الأرض، حيث تدور المحركات وتدور في جوف الأرض.

بدأ يشق طريقه وسط أكوام الجثث المتصلبة شبه الطرية. يتعثّر، يكاد يسقط، يتشبّث بالسور، يستمر. انغرسَتْ قدمه في شيء رخو، وتصاعدت رائحة ننتة غازية لاحظها بالكاد. استمر في طريقة، يشهق وينوح. ثم صدحت صيحةٌ من ورائه في الظلام، جمّدتَه في مكانه. صيحة يائسة ملتاعة على حافة الجنون: «لاري! أوه لاري! من أجل الرب...».

إنها ريتا بلاكمور.

التفت خلفه. ملأ الفراغ حوله صوت انتحاب وصداه. للحظة فكر في الاستمرار في طريقه على أي حال، وتركها هنا. ستجد طريقها بلا شك، فلماذا يثقل نفسه بوجودها؟ ثم تمالك أفكاره وصاح: «ريتا! قفي حيث أنت! هل تسمعينني؟».

استمرَّ النحيب.

عاد خائضًا في الجثث، كاتمًا أنفاسه، وجهه ملتوٍ في اشمئزاز. ثم هُرِعَ نحوها غير قادر على تحديد المسافة بينهما بسبب الصدى. في النهاية كاد يسقط فوقها.

ألقت بنفسها عليه، وأحاطت عنقه بقوة. شعر بقلبها يدق بقوة تحت بلوزتها.

- لاري، لاري.. لا تتركني هنا وحدي، لا تتركني في الظلام..
قال وهو يعانقها بقوة: «لن أفعل. هل أذيتكِ؟ هل.. هل أصبتِ برصاصة؟».

- لا.. شعرتُ بوحدة منها قريبة للغاية مني. أحسستُ.. بهواء انطلاقها..
و... شظايا الحائط.. أعتقد... على وجهي.. جرح وجهي...

- أوه، يا يسوع.. ريتا، لم أكنُ أعرف. فقدتُ عقلي هنا. الظلام.. والقداحة سقطتُ مني.. كان عليك أن تنادينني. كدت أقتلك!

ظلت عبارة «كدتُ أقتلك» تتردد في عقله، كأنها خلاصة ما جرى بينهما. قالت ريتا: «لم أكنُ واثقة من أنه أنت. دخلتُ إلى بناية عندما هبطتُ أنت المنحدر إلى النفق. أنتَ عدتَ وناديتني، وكدتُ.. لكنني لم أستطع.. ثم جاء رجلان بعدما بدأ المطر. أعتقد أنهما كانا يبحثان عنا.. أو عني. لذا اختبأتُ حيث كنتُ، وعندما ظننتُ أنهما رحلا، فكرت في احتمالية أنهما يتربصان بي بعد، ولم أفكرُ في الخروج إلا عندما خطر لي أنك خرجتَ من الجهة الأخرى من النفق ولن أراك مرة أخرى. لذا.. أنا.. أنا.. لاري، أنت لن تتركني، أليس كذلك؟ لن ترحل؟».

أجاب: «لن أرحل».

- لقد كنتُ مخطئةً في ما قلت، وكنتَ أنتَ مُحققًا. كان عليّ أن أخبركَ بشأن الصندوق. سأكل وقتما تريد... و... وأوه...

قال وهو يلف ذراعه حولها: «شش.. أنت بخير الآن. لا تقلقي»، لكنه رأى نفسه بعين خياله يطلق عليها الرصاص وسط نوبة زعر، وفطن إلى سهولة أن تمزق إحدى تلك الطلقات ذراعها أو بطنها. شعر فجأةً بحاجة إلى الذهاب إلى دورة المياه، واصطكَّت أسنانه.

- سنتحرك عندما تشعرين أنكِ قادرة على ذلك. خذي وقتك.

- رأيت رجلًا.. أعتقد أنه رجل.. خطوتُ فوقه يا لاري. أوه، كدتُ أصرخ، لكنني لم أفعل لأنني ظننتك أحد الرجلين الذين طارداني بالأعلى. عندما ناديت.. صدى الصوت.. لم أتبين أكنت أنت أم... أم...

- الطريق معبَّد بالجثث أمانًا. هل ستتحملين ذلك؟

- لو أنك ستكون معي. أرجوك.. كُن معي.

- سأكون معكِ.

- لننتحرك إذن. أريد أن أخرج من هنا.

ارتعدت وجسدها ملاصق لجسده، وأضافت: «لم أرغبُ في شيء في حياتي أكثر من هذا».

تحسس موضع وجهها، وقَبَّل أنفها ثم عينها، ثم فمها. قال أخيراً في تواضع، غير واع بمعنى ما يقول: «أشكركَ. أشكركَ. أشكركَ». كَرَرْتُ هي: «أشكركَ. أوه يا لاري العزيز. أنت لن تتركني، أليس كذلك؟». - لا. لن أترككَ. فقط أخبريني متى تستطيعين البدء في المشي، وسنكون معاً يا ريتا.

وعندما استطاعتِ المشي، مشياً.

سارا فوق الجثث، كل منهما يلف ذراعه من خلف عنق الآخر كأنهما ثَمْلان عائدان من الحانة إلى البيت. بعد حين صادفهما سد من نوع ما. مستحيل رؤيته. بعدما تحسَّسَاه قالت ريتا إنه يبدو فراشاً مائلاً على جانبه. استطاعا معاً إسناده على السور ثم إلقاءه إلى ما وراءه، فسقط فوق سيارة مُصدراً صوتَ تحطم هائلاً، جعلهما يجفلان ويتشبَّثان ببعضهما. وراء موضع الفراش جثث أخرى، ثلاث، استنتج لاري أنهم الجنود الذين أطلقوا النار على الأسيرة اليهودية. عبرا من فوقهما يداً بيد، وأكَمَلَا طريقهما.

بعد مدة قصيرة توقفت ريتا، فسألها لاري: «ما الخطب؟ هل من شيء في الطريق؟».

- لا. أنا أرى يا لاري! لقد وصلنا إلى نهاية النفق!

رمش، فأدرك أنه يرى أيضاً. الضوء قليل، وظهر تدريجياً حتى إنه لم يشعر به حتى تكلمت ريتا. يستطيع الآن تبين حدود بلاط بطانة النفق، وشيئاً من وجه ريتا.

بعد ست خطوات قابلا المزيد من جثث الجنود، فعبرا من فوقها. سألتها ريتا: «لماذا يغلقون نيويورك فقط؟ إلا لو.. إلا لو أن الوباء في نيويورك فقط يا لاري!». - لا أظن.

بيد أنه شعر بأمل خافت على أي حال. أسرعوا المشي. فم النفق أمامهما، مغلق بشاحنتي جيش واقفتين وجهاً لوجه. حجبت الشاحنتان أغلب ضوء النهار، لولاهما لاستطاع لاري وريتا أن يحظيا ببعض النور في عمق النفق. عند التقاء الممشى ومنحدر الخروج المزيد من الجثث. حشراً جسديهما بين الشاحنتين المتماستين حتى عبرا. لم تنظر ريتا إلى ما فيهما، لكنَّ لاري نظر،

ورأى ببندقية آلية نصف مفككة على حامل، وصناديق ذخيرة، وقنابل غاز، وثلاثة موتى.

هبت عليهما نسيمات رطبة بالمطر، رائحتها جعلت رحلتها تستحق المشقة. قال هذا لريتّا، فأومأت وأسندت رأسها إلى كتفه لحظات.

قالت: «لكنني لن أعبر هذا النفق مرة أخرى ولو بمليون دولار».

- بعد سنوات قليلة ستستخدمين المال بدلاً لورق المرحاض. لا تعوّلي كثيراً على الورق الأخضر هذا.

- لكن هل أنت متأكد من...

- من أن الوباء ليس في نيويورك فقط؟ انظري.

كبائن تحصيل رسوم الطرق خالية، الكابينة الوسطى نصف مخبأة خلف كومة زجاج مكسور، من خلفها الطرق خاوية على مد البصر، عدا الحارة الشرقية المؤدية إلى النفق، كانت مكتظة بسيارات الموتى، وحارة السرعة البطيئة تفيض بأكوام الجثث التي تحوّم فوقها النوارس.

قالت في وهن: «يا إلهي الرحيم!».

- عدد كبير يحاول الخروج من نيويورك، وعدد مماثل يحاول الهرب إليها. لا أعرف لماذا اكثرثوا لغلق النفق من جهة نيو جيرسي. ربما لم يعرفوا السبب. ربما هي فكرة أحدهم الألمعية، شيء يشغلون أنفسهم به...

لكنها هوت جالسة على الأرض، وراحت تبكي. ركع إلى جوارها وهمس: «لا تبكي». ما حدث في النفق قريب ولم ينسه، فلم يغضب منها.

- كل شيء سيكون بخير يا ريتّا.

- أي شيء بالضبط سيكون بخير؟ سمّ لي شيئاً واحداً.

- نحن خرجنا من المدينة. هذا إنجاز. لدينا هواء نقي. الحقيقة أن هواء نيو جيرسي لم يكن بهذا النقاء من قبل.

ابتسمت له ابتسامة واهنة. نظر لاري إلى الخدش على خدها وصدغها حيث جرحتها شظايا بطانة الحائط.

- يجب أن أذهب بك إلى صيدلية لتنظيف هذه الجروح. هل تستطيعين المشي؟

نظرتُ إليه في امتنان غبي ضايقه وقالت: «نعم. وسأحصل على حذاء رياضي. سأفعل كل ما تأمر به يا لاري. أنا أرغب في هذا».

قال بهدوء: «أنا صرختُ فيكِ لأنني كنت غاضبًا». مسح على شعرها، وقبَّل خدشًا فوق عينها اليمنى، مضيئًا: «لستُ وغدًا إلى هذا الحد».

- فقط لا تتركني.

ساعدتها على النهوض، ثم لف ذراعه حول خصرها. مشيا ببطء نحو كبائن تحصيل الرسوم، ثم عبراها، وصارتُ نيويورك الآن خلفهما.

الفصل السادس والثلاثون

في منتصف أوجونكويت متنزه صغير، يتوسطه مدفع من أيام الحرب الأهلية، ونُصب حرب تذكاري. بعدما مات جَس دينسمور، ذهب فرانني جولد سميث إلى هناك وجلست إلى جوار بحيرة البط، ترمي الحجارة فيها وتراقب التموجات تتسع على سطح الماء الهادئ حتى تصل إلى أزهار زنبق الماء، فتتكسر.

نقلت جَس إلى دار آل هانسون عند الشاطئ أول أمس، خشية أن يعجز عن المشي ويقضي (نزعه الأخير) - لا بُدَّ أن أسلافها قد أطلقوا ذلك المصطلح على هذه المرحلة- في كابينته الحارة قرب ساحة سيارات الشاطئ العام.

خَمَنْتُ أن جَس سيموت تلك الليلة. اشتدت عليه الحمى وهلوس بجنون. سقط عن فراشه مرتين، وجوّل في أرجاء غرفة نوم السيدة هانسون، وتعثّر وسقط وقام مرة أخرى. نادى أناساً غير موجودين، وأجابهم، وراقبهم بردود أفعال تتراوح ما بين الابتهاج والارتياح، حتى شعرت فرانني أن رفقاء جَس الخفيين حقيقيون وأنها هي الشبح. رجّته أن يعود إلى الفراش، لكنها لم تكن موجودةً بالنسبة إليه. اضطرت إلى الابتعاد عن طريقه، وإلا طرحها وداس عليها.

أخيراً هوى على فراشه، وانتقل من مرحلة الهلوسة النشطة إلى التنفس الثقيل وانعدام الوعي، حتى حسبت فرانني أنه دخل في غيبوبة أخيرة. في الصباح التالي وجدته جالساً في فراشه يقرأ روايةً عن الغرب الأمريكي وجدها على أحد الأرفف. شكرها لاهتمامها به، وتمنى أنه لم يفعل أو يقلّ أيّ شيء مُخرج ليلة أمس. أكدت له أن هذا لم يحدث، فنظر جَس في شك إلى حطام الغرفة حوله. صنعت له حَسَاءً فأكله بشهية، وعندما شكا صعوبة القراءة

دون نظارته التي انكسرت الأسبوع الماضي وهو يضع المتاريس حول البلدة، أخذتُ منه الكتاب رغم احتجازه، وقرأتُ له أربعة فصول من رواية «طلقات الكريسماس»، عن الشريف چون ستونر الذي يواجه مشكلات مع مشاغبى بلدة رورينج روك في ولاية وايومينج، والأسوأ أنه لا يجد هديةً لزوجته الشابة الحبيبة يهديها إليها في الكريسماس.

تفاءلت فران، وظننتُ أن جس يتعافى. لكنَّ ليلة أمس تدهورت حالته، ومات في الثامنة والربع صباح اليوم، منذ ساعة ونصف فقط. كان واعياً حتى النهاية، لكنه لم يكنُ مدرِّكاً لسوء حالته. قال لها في شرود أنه يرغب في آيس كريم بالصودا، من النوع الذي كان يشتري له أبوه له ولإخوته في احتفال الرابع من يوليو، وفي عيد العمال. لكنَّ الكهرباء كانت قد انقطعتُ عن أوجونكويت وقتها، في الساعة التاسعة وسبع عشرة دقيقة مساء يوم السابع والعشرين من يونيو، ولم يعدُ في البلدة أي آيس كريم. تساءلت أكان لدى أحد في البلدة مولد يعمل بالوقود، متصل به مجمد. فكرتُ في سؤال هارولد لودر، لكنَّ تهديجتُ أنفاس جس خمس دقائق، أسندت خلالها رأسه بيدها، وأمسكتُ باليد الأخرى منشفةً تحت فمه، تمسح بها الإفرازات الغزيرة السميكة التي تخرج منه. ثم انتهى الأمر.

غطتهُ فراني بملاءة نظيفة، وتركته حيث هو على فراش چاك هانسون، في حجرته المطلة على المحيط، ثم ذهبتُ إلى المتنزه لترمي الأحجار إلى البحيرة، ولا تفكر في أي شيء، إلا أنها انتهت إلى أنها تمر بنوبة انعدام تفكير جديدة، لا كتلك التي غشتها يوم وفاة أبيها. من وقتها، وهي تعود تدريجياً إلى طبيعتها. جلبتُ شجيرة أزهار من بيت ناثن للأزهار، وزرعتها جوار قبر بيتر. رأْتُ أنها ستثبت جيداً في هذا المكان، كما كان أبوها ليقول. انعدام أفكارها الآن نوع من الراحة بعدما شهدتُ ما جرى لجس ليلة أمس. لم يكنُ يشبه في شيء مقدمات الجنون التي مرَّت بها من قبل، تلك الرحلة خلال نفق مظلم نتن مزدحم بما يُحس به ولا يُرى. هذه رحلة لا تريد أن تخوضها مرة أخرى أبداً.

لكنَّ يجب أن تفكر في ما ستفعل تالياً، والمفترض أن ما ستفكر فيه سيتضمن هارولد لودر. ليس فقط لأنها هي وهارولد الناجيان الوحيدان في المنطقة، بل لأنها لا تعرف ماذا سيحل بهارولد دون أحد يعتني به. لا تزعم أنها أكثر البشر عملية، لكن لما كانت موجودة، فعليها أن تتولى الأمر. إنه لا

يروق لها بالكامل بعد، لكنه حاول أن يظهر بعض الأدب. بعض الأدب فقط، وبطريقته الغريبة تلك.

تركها هارولد لحالها منذ أربعة أيام بعد لقائهما، ربما احترم رغبتها في رثاء والديها، لكنها رآته مرات في سيارة روي برانيجان الكاديلاك، يطوف بها من مكان إلى آخر بلا هدف. وفي مرتين والرياح مواتية، سمعت صوت تكتكات أزرار آلة الكتابة المنبعث من نافذة غرفة نومه. الهدوء الكافي لسماع أصوات على بعد نصف ميل يضع خطأً توضيحياً تحت حقيقة ما يحدث. سعدت كونه لم يُغير آلة كتابته اليدوية بأخرى كهربية هادئة رغم أنه استولى على سيارة كاديلاك.

فكرت وهي تنهض واقفة وتفرد طيات الشورت بيديها أن آلات الكتابة الكهربائية والآيس كريم أشياء من الماضي الآن. شعرت بحنين حزين إلى الماضي، ووجدت نفسها تتساءل عن مدى تأثير الكارثة خلال أسبوعين فقط. لا بُدَّ أن في العالم آخرين، مهما زعم هارولد غير ذلك. لو تعطل نظام السلطات مؤقتاً، فسيبحثون عمّن يعيد تشكيكه. لم يخطر لها أن تسأل عن أهمية وجود نظام سلطات من الأساس، ولا عن شعورها التلقائي بالمسؤولية تجاه هارولد.

غادرت المتنزّه ومشّت ببطء تجاه الشارع الرئيسي، نحو منزل آل لودر. النهار حار، يُجدّد نسيم البحر الهواء الراكد. شعرت برغبة مفاجئة في النزول إلى الشاطئ، والبحث عن قطعة عشب بحر وأكلها.

قالت بصوت عالٍ: «إلهي، كم أنت مقرفة». طبعاً لم تكن مقرفة، بل هي حامل فقط، هذا كل ما في الأمر. الأسبوع القادم ستستهي شطيرة «برمودا» بالبصل والفُجُل الحار.

توقفت عند المنعطف، بينها وبين منزل هارولد مبنى سكني، وأدركت أنها لم تفكر في حساسية حالتها الجسدية منذ وقت طويل. أنها تتفادى التفكير في حملها كما يتفادى المرء تنظيف قذارة مهمة في ركن. من قبل الكارثة، كانت تتذكر أن تستعيد فستانها الأزرق من المغسلة، ثم تدرك أنها ستعلّقه في الخزانة ولن ترتديه لأنها حامل. ترغب في الاستحمام، فتفكر في أنها ستبدو كالحوت داخل كابينة الاستحمام بعد بضعة أشهر. تُذكر نفسها أن السيارة في حاجة إلى تغيير زيت محرك، ثم تتساءل عن رد فعل صاحب

ورشة السيارات عندما يعرف أنها حامل. ربما اعتادت الأمر الآن وقد مرَّ على حملها ثلاثة أشهر، ووصلت إلى ثلث الطريق.

لأول مرة تفكر الآن في قلق عمَّن سيساعدها عندما تلد طفلها.

صاح من خلف منزل آل لودر صوتُ جازاةٍ عشب يدوية، وعندما انعطفتُ فران لترى ما حدث، دُهِشْتُ من غرابة ما رأت، حتى إنها لم تستطعُ منع نفسها من القهقهة.

هارولد لا يرتدي سوى لباس بحر أزرق ضيق ويجز العشب. جسده الأبيض يلمع بالعرق، وشعره الطويل ملتصق بقفاه (إحقاقًا للحق، يبدو أنه غسل شعره منذ وقت ليس ببعيد جدًا). ترجرج الشحم حول خصره وفخذه في جنون وهو يتحرك. قدماه مخضرتان حتى الكعبين من أثر الحشائش المقطوعة. ظهره محمر، ربما من المجهود أو من حروق الشمس، لن تتمكن من تحديد السبب بدقة.

إلا أن هارولد لم يكن يجز العشب، بل يجري. باحة منزل آل لودر الخلفية محاطة بسور حجري، تتوسط الساحة ظلَّة صيفية، اعتادت أن تجلس فيها فراني مع أمي ويمثلان شرب الشاي وهما صغيرتان. تذكرتُ فراني هذا مع طعنة حنين مؤلمة إلى حد غير متوقع إلى تلك الأيام التي كانت تبكي فيها وتضحك متأثرة بأفلام أو بعلاقاتها بالصبية في المدرسة. باحة منزل آل لودر إنجليزية بشكل ما في خضارها وسلامها، لكن الآن يجوبها مخبول في لباس بحر أزرق مفسدًا بهاء المنظر.

سمعتُ هارولد يلهث بطريقة مقلقة، وهو يتجه إلى الركن الشمالي الشرقي حيث التقاء باحتي آل لودر وآل ويلسون عند أجمة توت. مال يجري خلال الباحة مستندًا إلى ذراع جازاة العشب، دارت شفراتها، وتناثر العشب الأخضر ليغطي ساقي هارولد. كان قد جز أغلب الباحة، ولم تتبق إلا الرقعة حيث الظلة الصيفية. دار عند المنعطف ثم عاد، غطته الظلة الصيفية لحظات، ثم ظهر مرة أخرى منكبًا على آلتة كما ينكب سائق سباق فورميولا وان على مقود سيارته. في اللحظة التي لمحها فيها، صاحت فراني: «هارولد؟»، فرآها، عيناها دامعتان من الضحك. غمغم مرتبكا: «هه؟»، بعدما انتزعته من عالمه الخاص، وخشيتُ فراني أن مباغتتها له مع إجهاده قد يصيبانه بنوبة قلبية.

عاد إلى المنزل وقدماه تركلان العشبَ المشذبَ، فشمت رائحة عرقه التي زاد هواء الصيف الساخن فوحها. خطت خطوةً تجاهه وصاحت: «هارولد، ما بك؟».

صعد درجات الشرفة الخارجية، وفتح الباب ودخل، ثم أغلقه بقوة خلفه. في الصمت الذي ساد بعدها زقزق عصفور قريب، وتحرك حيوان ما بين فروع الأجمة وراء السور الحجري. وقفت جازاة العشب الوحيدة وخلفها العشب القصير، وأمامها الطويل يتمايل في نسيم الصيف، يغطي المسافة حتى الظلة الصيفية حيث كانت تشرب مع أمي العصير في فناجين مطبخ دمية باربي، وخنصرهما مفرودان في أناقة.

وقفتُ فراني هنيهةً غير قادرة على اتخاذ قرار، ثم أخيرًا قررتُ أن تتجه إلى الباب وتدق عليه. لم يجب أحدٌ، لكنها سمعتُ صوت بكاء هارولد بالداخل.

- هارولد؟

لا مجيب، واستمرَّ البكاء.

سمحتُ لنفسها بالدخول إلى رواق آل هارولد الخلفي، الذي كان مظلمًا باردًا، عطرًا؛ مخزن السيدة لودر يُفتح على الرواق من جهة اليسار، وأدركتُ فران أن مصدر الرائحة التفاح المجفف بالقرفة بداخله.

- هارولد؟

مشتُ خلال الرواق إلى المطبخ حيث هارولد يجلس خلف المنضدة، يداه تغطيان شعره، وقدماه المخضران على البلاط الباهت الذي أبقته السيدة لودر نظيفًا دائمًا.

- هارولد، ما بك؟

زعق من بين دموعه: «ارحلي من هنا! ارحلي، أنت لا تطيقينني!».

- بل أطيعك. أنت جيد يا هارولد. ربما لستَ رائعًا، لكن مقبولًا.

صمتتُ هنيهة، ثم أضافتُ: «في الواقع، ومع أخذ الظروف وكل شيء في الاعتبار، يمكنني القول الآن إنك واحد من المفضلين لدي في العالم كله».

بدا أن قولها قد دفع هارولد إلى البكاء أكثر. سألته: «أليديك ما نشربه؟».

قال بعدما تنشق ومسح أنفه، وهو يحرق إلى المنضدة بعد: «عندي (كول أيد)، لكنه دافئ».

- طبعاً سيكون دافئاً. هل جلبت ماءً من مضخة البلدة؟

أوجونكويت ككثير من البلدات الصغيرة لديها مضخة ماء عامة في مبنى البلدية، إلا أنها تحولت خلال السنوات الأربعين الأخيرة إلى قطعة آثار، لا مصدر ضخ ماء. يلتقط السياح صوراً معها أحياناً. هذه هي مضخة ماء البلدة الساحلية الصغيرة التي قضينا فيها عطلة الصيف. أليس هذا رائعاً؟

- نعم. هذا هو المكان الذي أجلب منه الماء.

صبّ لكل واحد منهما الشراب، ثم جلس. فكرت: يجب أن نشربه في الظلّة الصيفية، وخنصرانا مرفوعان في الهواء. سألتها: «هارولد، ما المشكلة؟».

ضحك هارولد ضحكة هستيرية غريبة، وصبّ مشروب كول آيد في حلقه، ثم قال: «ما المشكلة؟ ماذا قد تكون المشكلة الآن؟».

- أعني، هل من مشكلة محددة خاصة بك؟

تذوقت فراني الشراب المذاب في ماء المضخة فلم تجده ساخناً إلى هذا الحد. يبدو أن هارولد قد جلب الماء منذ فترة قصيرة، لكنه نسي إضافة السكر إلى الشراب. نظر إليها أخيراً ووجهه ملطخ بالدموع، وقال ببساطة: «أريد أمي».

- أوه، هارولد...

أمسك كوبه وهو يحدق إليها بعينين منهكتين إلى حد مقلق وقال: «كنت أظن أن الأمر لن يكون بهذا السوء بعدما تموت. أعرف مدى فظاعة ما قلت بالنسبة إليك، لكنني لم أكن أعرف وقع موتها عليّ. أنا شخص حساس للغاية. لذا كنت مضطهداً في بيت الأهل الذي رآه آباء البلدة مكاناً مناسباً ليطلقوا عليه المدرسة العليا. ظننت أنني سأجن حزناً على فراقهم، على الأقل سأكتب عاماً.. ربما ستخبرو شمسي الداخلية، أو.. أو.. عندما حدث هذا.. أمي.. أمي.. أبي.. قلتُ لنفسي إن الأمر ليس بهذا السوء. أنا.. هم...». ضرب المنضدة بقبضته، فأجفلت. أكمل صارخاً: «لماذا أعجز عن قول ما أعني؟ لطالما كنت قادراً على التعبير عما أريد! وظيفة الكاتب أن ينحت باستخدام اللغة معاني ملائمة لكل شيء، إذن لماذا أشعر بهذا العجز؟».

- هارولد، أعرف ما تشعر به.

نظر إليها مدهوشاً، وغغم: «تعرفين...؟ لا.. أنت لا تعرفين...».

- هل تتذكر يومَ جئتني وأنا أحفر لأبي قبرًا؟ كدتُ أجن، ولم أكن أتذكر ما أفعل أغلب الوقت. حاولتُ قلبي بعض البطاطس فكدت أحرق البيت. إذن، لو كان جزُ الحشائش يجعلك تشعر بتحسن فلا بأس، لكن قد تصيبك حروق شمس لو فعلت ذلك وأنت ترتدي لباس السباحة. أنت احترقتَ فعلاً.

قالتها منتقدةً وهي تنظر إلى كتفيه. رشفتُ بعض الشراب الكريه كي تُجامله. مسح فمه بكفه وقال: «لم أحب جز العشب قط، لكنني قلت لنفسني إن الحزن شعور علينا تفريغهِ، كالتبول لإراحة مثانة ممتلئة. لو مات أقرباؤك الأقربون، فستصاب بصدمة من الحزن. أُمي كانت مبهورة بأمي. كانت صديقتها...». أضاف بطريقة طفولية مثيرة للشفقة: «ولطالما بغضتُ أبي». تفهم فران ما يقول. كان براد لودر رجلًا ضخماً، يعمل رئيسًا للعمال في مصنع الحَلَج في كينبَنك. لم تكن لديه أي فكرة للانتفاع بابنه السمين الانتقائي الذي أنجبه.

- انفرد بي في مرة، وسألني أكنْتُ شاذًا. ارتعبتُ وبكيتُ، فلطممني وقال لي إن كنت سأظل طفلًا باكيًا لعينًا طوال الوقت، فالأفضل أن أرحل خارج البلدة. وأمي.. أعتقد أنه مقبول الآن أن أقول إنها لم تكثرث. لقد كنتُ مصدرَ خزي لها عندما تجلب صديقاتها إلى البيت. كانت تعاملني كأنني غرفة فوضوية تتحاشى أن يراها أحد.

أنهتُ فراني مشروبها وهي تسمعه يكمل: «لذا عندما رحلوا، لم أشعرُ بشيء، وشعرتُ بأن هذا خطأ. قلتُ لنفسني إن الحزن ليس ردَّ فعلٍ لحظي. اكتشفتُ أنني أحقق عندما لُمت نفسي. أنا أفتقدُهم أكثر فأكثر كل يوم. أفتقدُ أُمي كثيرًا. لو أنني فقط أستطيع أن أراها.. لم تكن موجودة أغلب الوقت الذي احتجتُ إليها فيها.. كانت مشغولة بمساعدة أُمي، أو فعل أشياء معها، لكنها لم تسيء معاملتي. لذا قلتُ لنفسني هذا الصباح وأنا أفكر في الأمر: سأجز العشب كي لا أفكر. فعلتُ ذلك.. جريتُ كأنني أفر من خواطري.. كان هذا عندما جئت. هل بدوتُ مجنونًا كخواطري يا فران؟».

مدت يدها خلال المنضدة وأمسكت يديه وهي تقول: «لا مشكلة في خواطرك وفي ما تشعر به يا هارولد».

حدَّق إليها بعينين طفوليتين متسعتين وسألها: «متأكدة؟».

- نعم.
- هل ستكونين صديقتي؟
- نعم.
- شكرًا للرب من أجل هذا.
- يداه متعرجتان في كفيها، وبينما تفكر في الأمر، شعرت بهما، فسحبهما سريعًا.
- هل تريدان المزيد من كولا أيد؟
- ابتسمتُ ابتسامتها المجاملة وقالت: «ربما لاحقًا».

في المتنزه، تناولا الغداء المكون من شطائر زبد الفول السوداني والمربى، وكيك توينكيز، وزجاجتي كولا. طعم الكولا صار أفضل بعدما برّداها في ماء بحيرة البط. قال لها هارولد: «كنت أفكر في ما سأفعل. ألا تريدان باقي قطعة التوينكيز هذه؟».

مكتبة سرمن قرأ

- لا، شبعت.

اختفت قطعة الكيك في فم هارولد. فكرتُ فراني في أن حزنه لم يؤثر في شهيته، لكنها شعرت بالذنب تجاه خاطر غير لائق كهذا. سألته: «فيم فكرت؟».

أجاب بصعوبة: «كنت أفكر في الانتقال إلى فيرمونت. هل تريدان أن تأتي معي؟».

- لماذا فيرمونت بالذات؟

- لديهم مركز أبحاث أوبئة حكومي هناك، في بلدة تدعى ستوفينجتون. ليس في حجم مركز أتلانتا، لكنه أقرب بكثير. لو أن أشخاصًا -أحياء- يعملون بحثًا عن تفسير ودواء لهذا المرض، فسيكون كثير منهم هناك.

- لماذا لم يموتوا؟

- ربما ماتوا وربما لا. لكن في مكان مثل هذا، يعرفون جيدًا طريقة التعامل مع الأمراض ويلزمون الحرص. لو أنهم يعملون حتى الآن فلا بد أنهم يبحثون عنهم مثلنا. أشخاص ذوي مناعة.

نظرت إليه في إعجاب واضح وسألته: «كيف تعرف كل هذا؟».

احمرَّ وجه هارولد في سعادة وأجاب: «أقرأ كثيراً، ووجود هذه الأماكن ليس سرِّياً. ما قولك الآن يا فراني؟».

فكرت في أنها فكرة عظيمة، خاصة في وجود سلطة وتنظيم في مكان كهذا، وتناست على الفور احتمالية موت كل من فيه. سيذهبان إلى ستوثنجتون، وسيقبلانهما، وسيجريان تحاليل لهما وسيعرفان أنهما مختلفان بطريقة ما عن كل من مرضوا وماتوا. لم يخطرُ ببالها أن استخراج لقاح من دمهما سيكون إنقاذاً للبشرية. قالت له: «أعتقد أن علينا العثور على كتيب خرائط الطرق، والانطلاق في أقرب وقت».

أضاء وجهه، وللحظة ظنَّت أنه سيُقبلُها، وفي ذلك الوقت السعيد كانت لتسمح له، لكنَّ اللحظة مرَّت ولم يفعل، وهذا ما أسعدها أكثر.

بدا الطريق بسيطاً على الخريطة، حيث كل الطرق في طول إصبع. سألته فراني: «كم المسافة الإجمالية؟».

قاس هارولد الطرق على الخريطة بالمسطرة، ثم حوَّل السنتيمترات إلى أميال بحسب مقياس الرسم، وقال في وجوم: «لن تصدقي هذا».

- ماذا؟ مائة ميل؟

- أكثر من ثلاثمائة ميل.

- إلهي. سيقتل هذا فكرتي. قرأتُ في مكان ما أن في وسع المرء قطع ولايات نيو إنجلاند مشياً في يوم.

قال بطريقة تعليمية: «هذا هراء. لكنَّ يمكنك السير خلال كونيكتيكت ورود آيلاند وماساشوستس حتى حدود فيرمونت في أربع وعشرين ساعة لو فعلتها بالطريقة الصحيح. هذا ممكن لو تعرفين الطريقة، ومستحيل لو أنك تجهلينها».

- كيف تعرف هذا؟!

- موسوعة جينيس للأرقام القياسية. كنت أفكر في ركوب الدراجات، أو.. لا أعرف.. ربما دراجات التزلج الكهربية.

- هارولد.. أنت عبقرى...

سعل هارولد حرجًا، وقال: «يمكننا الحصول على دراجات من متاجر هنا.. هل تعرفين كيف تقودين دراجة هوندا يا فران؟».

- يمكنني أن أتعلم إن كان في وسعنا البدء ببطء.

- أعتقد أن الإسراع قرار غير حكيم. لا يعرف المرء ما قد يظهر أمامه خلف منعطف يخفي سيارات تغلق الطريق مثلاً.

- نعم. هذا صحيح. لكن لماذا ننتظر إلى الغد؟ لماذا لا نذهب اليوم لإحضار الدراجتين؟

- الساعة جاوزت الثانية، لن نبتعد عن ويلز كثيرًا، وعلينا أن نجهز متاعًا من أوجونكويت، حيث نعرف مكان كل شيء، وسنحتاج إلى أسلحة أيضًا.

غريب أنها فكرت في جنيها حالما ذكر السلاح. سألتها: «لماذا سنحتاج إليها؟».

نظر إليها لحظات، ثم خفض عينيه واحمرَّ عنقه. أجاب: «لأن الشرطة لم يعد لها وجود، وأنت امرأة، وجميلة، والبعض.. بعض الرجال.. ربما.. ليسوا مهذبين. هذا هو السبب».

زاد احتقان عنقه حتى صار لونه أقرب إلى البنفسجي. إنه يتحدث عن الاغتصاب. سألت نفسها: لماذا قد يرغب أحد في اغتصابي؟ أنا حامل. لكن لا يعرف أحد هذا، حتى هارولد. حتى لو قالت لمغتصبها المُفترَض إنها حامل، هل سيقول لها: «آه، معذرة أيتها السيدة، سأذهب لاغتصاب امرأة أخرى؟» قالت لهارولد:

- حسنًا. لنحصل على أسلحة. لكن يمكننا أن نخرج خارج حدود ويلز اليوم.

العلية فوق حظيرة موزيس ريتشاردسون حارة للغاية. تصيب العرق من جسدها إذ صعدت إليها معتلية السلم الخشبي، فسال أنهارًا تغرق بلوزتها وتلصقها بصدرها. سألتها:

- هل ترى حقًا أن هذا ضروري يا هارولد؟

- لا أعرف.

كان يحمل دلو طلاء أبيض وفرشاة جديدة. أضاف: «الحظيرة تطل على طريق US 1، وهو الطريق الذي يدخل منه أغلب الناس إلى البلدة. لن يضر هذا».

- سيضر لو سقطت وهشمت عظامك.

الحرارة تلهب وجهها، والكولا التي شربتها بعد الغداء تتحرك في معدتها بطريقة تثير الغثيان. أضافت: «ستكون هذه نهايتك».

قال لها مضطرباً وهو ينظر إليها: «لن أسقط. فران، أنتِ تبدين متعبة».

- إنها الحرارة.

- إذن انزلي من أجل الرب. تمُددي تحت شجرة. راقبي الذبابة البشرية وهو يقدم عرضه الخطر على سقف حظيرة موزيس ريتشاردسون المائل بزاوية عشر درجات.

- لا تمزح. ما زلتُ أراه تصرفاً سخيفاً خطراً.

- نعم. لكنني سأشعر بشعور أفضل لو فعلته. انزلي أنتِ يا فران.

فكرت: إنه يفعل هذا من أجلي. وقف هناك يتصبب عرقاً، وشباك العناكب ملتصقة بكتفيه العاريين، وبطنه يطل من فوق حزام سرواله الجينز. كان عازماً على ألا يقصر في فعل أي شيء.

شبَّت على أطراف أصابعها وقبَلت شفثيه بخفة. قالت: «احترس»، ثم نزلت السلم سريعاً والكولا تتحرك في معدتها فوق وتحت، يميناً ويساراً. نزلت بسرعة، لكنها لاحظت السعادة في عينيه. نزلت الدرجات من عليّة القش إلى أرضية الحظيرة بأسرع ما يمكنها لأنها تعرف أنها ستتقيأ الآن، ورغم أنها تعرف أن السبب هو الحر والكولا والحمل، تساءلت عما سيظنه هارولد لو سمعها تتقيأ. لذا رغبت في الابتعاد إلى حيث لن يسمعها، وهناك تقيأت.

نزلت هارولد في الرابعة إلا ربع، حروق الشمس على جسده ملتهبه حمراء، وذراعه مرقطتان بالطلاء الأبيض. كانت فران قد نامت تحت شجرة فيما عمل هو. لم تستغرق في النوم وظلت تسمع صوت أنين الخشب تحت قدميه وصوت صرخته إذ يسقط من ارتفاع تسعين قدماً إلى الأرض الصلبة بالأسفل. لكن هذا لم يحدث -والشكر لله- وهو الآن يقف أمامها فخوراً بقدميه الخضراوين وذراعيه الأبيضين وكتفين حمراوين. سألته في فضول:

- لماذا أنزلت ما تبقى من طلاء؟

- لم أرغب في تركه بالأعلى، فربما يتعفن ونفقد لافتتنا.

أدركتُ كم هو حريص على أدق التفاصيل، وهذا مربع قليلًا. حدًا معًا إلى سقف الحظيرة الذي يلمع الطلاء الجديد على خلفية لونه الأخضر القديم. الكلمات المكتوبة هناك ذكرت فران بتلك التي قد تصادفها في الجنوب مكتوبة على أسطح الحظائر، من نوعية: «لينقذ يسوع الهنود الحمر أو يمضغهم»⁽¹⁾. كتب هارولد:

«ذهبنا إلى ستوفنجتون، مركز الأوبئة، خلال طريق US 1 إلى ويلز، ثم طريق 95 بين الولايات، ثم US 302 إلى بار، ثم طريق 89 بين الولايات إلى ستوفنجتون. غادرنا أوجونكويت 2 يوليو 1990. هارولد إيميري لودر. فرانسييس جولد سميث».

قال هارولد معتذرًا: «لا أعرف اسمكِ الأوسط».

- لا بأس.

ظلت تحقق إلى الالفة. أول سطر فيها تحت نافذة على الحظيرة مباشرة، والأخير؛ اسمها، تحت ميزاب المطر. سألتها: «كيف وصلت إلى هناك؟». أجاب في فخر: «لم يكن هذا صعبًا. احتجتُ فقط إلى أن أدلي ساقِي إلى الخارج قليلًا».

- أوه يا هارولد، ألم يكن يكفي أن تكتب اسمك؟

- نحن فريق. ألسنا كذلك؟

- أعتقد أننا كذلك.. ما دمت لم تقتل نفسك بعد. جائع؟

- جائع كدُبّ.

- لنأكل إذن، وسأدهن كتفك ببعض زيت الأطفال. يجب أن ترتدي قميصًا يا هارولد. لن تستطيع أن تنام هكذا الليلة.

(1) شاعت قديمًا في الجنوب ماركة تبغ للمضغ باسم (الرجل الأحمر) مرسوم عليها وجه هندي أحمر. يبدو أن العبارة تشير إلى هذا التبغ (الترجمة)

قال لها باسمًا: «بل سأنام وبعمق». ابتسمت له فراني. أكلًا طعامًا معلقًا، وشربًا كول آيد صنعتُه فراني هذه المرة وأضافت السكر هذه المرة، ثم لاحقًا عندما حل الظلام، جاء هارولد إلى بيت فراني وهو يحمل شيئًا تحت ذراعه.

- كان هذا ملكًا لآمي. وجدته في عليّة البيت. أعتقد أن أبي وأمي منحاه إياه عندما أنهت دراستها المتوسطة. لا أعرف حتى أكان يعمل، لكنني جلبت بطاريات من المتجر.

رَبَّتْ جيبه المنتفخين بالبطاريات. كان يحمل فونوجرافًا، من النوع ذي الغطاء البلاستيكي، مصنوع خصوصًا ليلائم حاجة المراهقات لنقله إلى الشاطئ أو الحفلات خارج المنزل. الجهاز مزود بخمس وأربعين أغنية لمشاهير الغناء. نظرت إليه وشعرت بعينيها تمتلئ بالدموع.

- لنرَ أكان يعمل...

لأربع ساعات جلس كل منهما عند طرف من طرفي الأريكة، والفونوجراف أمامهما على المنضدة الصغيرة، وجهاهما مضاءان بالسكينة والدهشة الحزينة، يستمعان لموسيقى عالم ميت إذ تملأ ليل الصيف.

الفصل السابع والثلاثون

في البداية تقبّل ستو الصوت دون سؤال، فهو جزء مألوف من نهار الصيف المشمس. كان قد مرّ للتو خلال بلدة جنوب ريجيت في نيو هامبشير، وهو الآن على طريق سريع يشق أرض الأشجار التي تغرق الأرض بعملات أشعة الشمس الذهبية المتحركة. الأجمة على جانبي الطريق مكوّنة من شجيرات السماق، والعرعر الرمادي المزرق، وأصناف أخرى لا يعرف لها اسمًا. تجمّع كل هذه النباتات أعجوبة بالنسبة إليه، هو الذي اعتاد قلة تنوع الأعشاب التي تنمو على جانبي طرق شرق تكساس. عن يساره سور حجري يتعرّج دخولًا وخروجًا من بين الأجمة، وعن يساره جدول صغير يتجه إلى الشرق. بين الفينة والفينة تتحرك حيوانات صغيرة أسفل النباتات (أمس أذهلته رؤية غزال كبير يقف عند منتصف الطريق 302 يتشمم الهواء)، وتزقزق العصافير بلا توقف. على خلفية تلك الأصوات، بدا نباح الكلاب شيئًا عاديًا.

مشى ميلًا آخر حتى خطر له أن وجود الكلب -الذي صار أقرب إليه الآن لارتفاع صوته- ربما يكون خارجًا عن العادي رغم كل شيء. لقد صادف كلابًا ميتة كثيرة منذ غادر ستوفينجتون، ولم يقابل أيها حيًا. افترض أن الوباء قتل أغلب الناس، لا كلهم، وقياسًا على ذلك يمكن أن يكون قد قتل أغلب الكلاب لا كلها. لا بدّ أن الكلب الآن لن يكون لطيفًا مع البشر. لو شمّ رائحته، سيتراجع مختبئًا خلف الشجيرات وسينبح في جنون حد يغادر ستو منطقته.

عدّل وضع حقيبة الظهر التي يحملها، وأعاد طيّ المنديلين تحت حمّالتي الكتف. كان ينتعل حذاءً من ماركة چورچا چاينت، وقد برى مشى ثلاثة أيام متواصلة نعلّه الجديد. اعتمر أيضًا قبعة عريضة الحواف من اللباد الأحمر، وعلق على كتفه بندقية جيش (قربينة). لم يتوقّع أن يصادف قطاع طرق،

لكنه وجد أن وجود سلاح معه فكرة جيدة. ربما يحتاج إليه للصيد. لقد رأى غزالًا بالأمس، لكن مرآه جمّده وأذهله عن التفكير في صيده حتى. سمع صوت الكلب أقرب، كأنه عند المنعطف التالي. فكر ستو في أنه ربما يراه على أي حال.

استمر على الطريق 302 المتجه إلى الشرق، لأنه افترض أنه سيؤدي به عاجلاً أو آجلاً إلى المحيط. لقد عقد اتفاقاً مع نفسه: عندما يصل إلى المحيط سيقدر ما سيفعله لاحقاً. حتى وقتها لن يفكر في أي شيء. رحلته التي استمرت أربعة أيام كانت شفاء له. فكر في الحصول على دراجة عادية أو بخارية تمكنه من اختراق زحام الحوادث التي تسد الطريق، لكنه قرر أن يمشي. لطالما أحب التمشية، وجسده يحتاج إلى التريّض بعد حبسه أسبوعين. افترض أن مع الوقت سيدفعه تقدمه البطيء إلى نفاد الصبر، وسيبحث عن دراجة، لكنه الآن سعيد بالتمشية على هذا الطريق، ينظر لإلام يريد النظر إليه، ويغفو وقت الحر الشديد. تدريجياً اختفى بحثه المحموم عن مخرج من ذاكرته، وصار حدثاً ولى، لا واقعاً مستمراً يثير ذعره. أكثر ما صعب عليه تناسيه هو إحساسه أن أحداً يتبعه. في أول يومين له على الطريق ظل يحلم بمواجهته الأخيرة مع إلدر عندما جاء ينفذ الأوامر التي تلقاها. في حلمه يرى بطاء رد فعله تجاه استخدام المقعد. يرى إلدر يبتعد عن مرماه ويضغط زنار سلاحه، فيشعر ستو بالرصاصة الثقيلة تغوص في صدره. تكرر الحلم مراراً حتى استيقظ منهكاً في الصباح، لكنه سعيد أنه ما زال حياً حتى إنه بالكاد تذكر الحلم. ليلة أمس لم يزره الحلم، وشك في أن الكوابيس ستتوقف فجأة هكذا، بيد أنه ظن المشي قد يطهره شيئاً فشيئاً من سموم أفكاره. ربما لن يتخلص منها أبداً، لكنها لو قلّت كفاية استطاع أن يفكر في ما سيأتي، سواء وصل وقتها إلى المحيط أو لم يصل.

دار عند المنعطف ووجد الكلب؛ ساطرٌ إيرلندي كستنائي اللون. نبج مبتهجاً لمراى ستو، وراح يعدو، يضرب بقوائمه الطريق وذيله يتأرجح. قفز واضعاً ذراعيه على بطن ستو، فتراجع الأخير إلى الخلف خطوة هو يقول باسمًا: «على رسلك يا ولد».

نبج الكلب في سعادة عندما سمع صوته، وقفز مرة أخرى. سمع ستو صوتاً قوياً ينادي: «كوچاك! اترك الرجل في حاله! ستلوث قميصه أيها الكلب التعس!».

ابتعد كوجاك عنه، وراح يحوم حول ستو وذيله بين فخذه. ما زال الذيل يتأرجح في سعادة رغم حبسه بين ساقيه، وعرف ستو أن الكلب لن يرسم المزيد من رسومه الكلابية على صدره.

استطاع أخيراً أن يرى صاحب الصوت، رجلاً ستينياً يرتدي سترةً مهترئةً وسروالاً رمادياً قديماً وبيريها. كان يجلس على مقعد بيانو يحمل بالّثة ألوان، وأمامه لوحة على حامل.

وقف ثم وضع البالّثة على المقعد. سمعه ستو يغمغم لنفسه: «لا تنس وتجلس فوقها». مشى نحو ستو ومدّ يده إليه. رأى الأخير شعره الرمادي منفوشاً أسفل البيريه.

- أتمنى ألا تنتوي ارتكاب حماقة بهذه البندقية يا سيدي. أنا جِلن بيتمان، في خدمتك.

خطا ستو إلى الأمام وصافح اليد الممدودة (كوجاك يقترب مرة أخرى وهو يفكر في معاودة القفز على صدر ستو). قال ستو: «ستورات ريتمان. لا تقلق بشأن البندقية. أنا لا أرى مَنْ قد أطلق عليه الرصاص. الحقيقة أنا لم أرَ أحداً طوال طريقي سواك».

- ألا تحب الكافيار؟

- لم أجربه من قبل.

- إذن، هذا وقت تجربته. إن لم تكن ترغب فيه، فلديّ أشياء مختلفة أخرى. لا تقفز يا كوجاك. أعرف أنك تفكر في أن تعاود الكرة، أنت كتاب مفتوح بالنسبة إليّ، لكنّ سيطر على نفسك. تذكر دائماً يا كوجاك أن السيطرة هي ما تفرق الأعلى عن الأدنى. السيطرة!

انكمش كوجاك مذعناً. رسم على وجهه ابتسامة كلابية كبيرة. من خلال خبرة ستو، الكلب الباسم إما أنه سيعضك، وإما أنه كلب طيب حقاً، ولا يبدو أن هذا الكلب من النوع الأول.

قال بيتمان: «أنا أدعوك على الغداء. أنت البشري الوحيد الذي صادفته، على الأقل في الأسبوع الأخير. هل ستقبل الدعوة؟».

- شرف لي قبولها.

- أنت جنوبي، أليس كذلك؟

- من شرق تكساس.

- شرقي. هذا خطأي.

عاد بيتمان إلى لوحته التي تمثل الغابة خلال الطريق، مرسومة بالألوان المائية. قال ستو: «لو كنت مكانك ما جلستُ على بالّة الألوان».

- طبعًا لا!

ثم غيّر اتجاهه، وقصد المنطقة الصغيرة الخالية من الأشجار. لمح ستو صندوق تبريد في الظل هناك، فوقه شرشف أبيض مطوي فرده بيتمان وقال: «كنا نستخدم هذا الشرشف في ملتقى الكنيسة معمدانية في وُدزفيل. أخذته من هناك. لا أعتقد أنهم سيفتقدونه. لقد عادوا كلهم إلى يسوع.. على الأقل كل معمدانيي وُدزفيل. يمكنهم أن يحتفلوا الآن بملتحاهم يسوعَ وجهًا لوجه. بيد أنني أعتقد أن أتباع الكنيسة المعمدانية سيجدون الجنة مُحبطة، إلا لو سمحتُ لهم الإدارة بتلفاز -ربما يطلقون عليه بالأعلى تِلجَنّة- يشاهدون عليه برامجٍ جيري فالويل وچاك قان إيمب. ما لديّ هنا ملتقى وثني بالطبيعة. لا تخطو فوق الشرشف يا كوچاك. سيطر على نفسك، تذكر هذا. هل تودُّ أن تعبر الطريق وتغتسل يا سيد ريديمان؟».

- ادعني ستو.

- حسنًا. أنا سأغتسل.

عبرا الطريقَ واغتسلا في الماء النقي البارد. شعر ستو بالسُرور لمقابلته هذا الرجل تحديدًا في هذا التوقيت تحديدًا. على مقربة، قفز كوچاك في الجدول ونثر الماءَ حوله، ثم خرج من الجهة الأخرى وظل يقفز في مرح بين الشجيرات. فكَرَّ ستو في تعجب أنه ربما سيصير كل شيء على ما يرام...

لم يحبّ الكافيار كثيرًا -طعمه كأنه هلام سمك بارد- لكنّ لدى بيتمان ببيروني، وسلامي، وعلبتا سردين، وتفاح مهروس، وعلبة بسكويت تين كبيرة. قال بيتمان إن التين مفيد للأمعاء. لم تعانِ أمعاء ستو أي مشكلات منذ غادر المركز، لكنه يحب التين على أي حال، وأكل من البسكويت نصف دسّة. الحقيقة أنه أكل الكثير من كل شيء.

في أثناء الغداء، قال بيتمان لستو إنه كان مدرّسًا مساعدًا لعلم الاجتماع في جامعة وُدزفيل الأهلية. وودزفيل بلدة صغيرة، معروفة بجامعةٍ ومحطات

وقودها الأربعة، وتبعد عن الطريق ستة أميال. ماتت زوجته منذ عشر سنوات، ولم يكنُ لديهما أبناء. لم يحبَّ أغلب زملائه، وهو شعور متبادل. قال: «لقد كانوا يعتبرونني مجنوناً، واحتمالية صدق ادعائهم الكبيرة لم تحسن علاقتنا». تقبَّل الوباء في رضا، واعتبر أنه فرصة للتقاعد وممارسة الرسم كما أراد دائماً.

اقتسما الحلوى، وأعطى ستو نصيبه على طبق ورقي وهو يقول: «أنا رسام مُخفِّق، لكني أقول لنفسي إنه لا أحد على وجه الأرض الآن يرسم أفضل من جِلندون بيكود بيتمان. غرور، لكن لا أحد سيعرف به».

- هل كان كوجاك كلبك من البداية؟

- لا. ستكون هذه مصادفة غريبة، أليس كذلك؟ أعتقد أنه كلب أحد سكان البلدة، وكنتُ أراه من وقت إلى آخر. لكن لما كنتُ لا أعرف اسمه، سمحتُ لنفسي بتسميته، ولا يبدو أنه يمانع. أستاذك دقيقة يا ستو... هُرع يعبر الطريق، وسمع ستو صوتَ ماء، ثم عاد مشمراً سرواله، ويحمل دسته بيرة، كل ست عبوات في يد.

- كان المفترض أن نشرب هذا مع الغداء. نسيانها حماقة مني.

- ستلائم ما بعد الوجبة أيضاً.

أمسك ستو عُبوةً، وشكر بيتمان. رفع الأخير علبته بعدما فتحها وقال: «في صحتنا يا ستو. أتمنى لنا أياماً سعيدة، وعقلين هانئين، وظهرين سليمين بلا آلام».

- آمين.

وقرعا العلبتين وشربا. لم يذق ستو شربة بيرة بهذا الطعم من قبل، ولن يفعل كثيراً في المستقبل. قال بيتمان: «أنت رجل قليل الكلام. أتمنى ألا تراني كراقص فوق مقبرة العالم».

قال ستو: «لا».

- أنا متحامل على العالم. أعترف بهذا بكل صراحة. بدا العالم في الربع الأخير من القرن -بالنسبة إليّ على الأقل- في سحر رجل ثمانيني يقتله سرطان القولون. يقال إن هذا هو الضيق المعتاد الذي ينتاب كل الغربيين مع انتهاء القرن، أي قرن. نلفُ أنفسنا في أكفان الرثاء، ونجول هنا وهناك، نناجي الرب، ونصرخ وأورشاليم.. أو وا كليثلاند

في حالتنا هذه. انتشر مرض الرُّقَّاص أواخر القرن الخامس عشر، واجتاح وباء الطاعون الدملي -الموت الأسود- أوروبا قرب نهاية القرن الرابع عشر، وباء السعال الديكي مع نهايات القرن السابع عشر. أول انتشار للإنفلونزا كوباء كان نهاية القرن التاسع عشر. لقد اعتدنا الإنفلونزا ونتعامل معها كأنها دور برد، ولا يعرف أحد إلا المؤرخين أنه لم يكن لها وجود منذ مائة عام!

- في آخر ثلاثين عامًا من أي قرن، يظهر الدَّيَّنُون المَهْوَسُونَ ويُلَوِّحُونَ في وجوهنا بحقائق وأرقام تؤكد أن نهاية العالم تقترب. إنهم موجودون طوال الوقت طبعًا، لكنهم يظهرون أكثر مع نهاية القرن، ويقتنع بكلامهم الكثير. وقتها تنتشر الوحوش؛ أتيل الهوني⁽¹⁾، جينكيز خان، چاك السفاح⁽²⁾، ليزي بوردين⁽³⁾. في عصرنا ظهر تشارلي مانسون⁽⁴⁾، وريتشارد سبيك⁽⁵⁾، وتيد بِندي⁽⁶⁾. زملاء أكثر حنكة مني يقولون إن الرجل الغربي يحتاج إلى تطهير قوي في نهاية كل قرن، ليتمكن من مواجهة القرن الجديد نظيفًا مفعمًا بالتفائل. في حالتنا، رُزِقْنَا بوباء فائق، ولو فكرت في الأمر لوجدته منطقيًا. لسنا مشرفين على قرن جديد فقط، بل ألفية جديدة».

توقف بيتمان هنيهة يفكر، ثم أكمل: «بعد تفكير، أعتقد أنني حقًا أرقص على مقبرة العالم. هل تريد بيرة ثانية؟».

أخذ ستو واحدة، وفكر في ما قال بيتمان، ثم قال أخيرًا: «إنها ليست النهاية حقًا. على الأقل لا أعتقد هذا، هي فقط.. فترة انتقالية».

- صحيح. قول حكيم. سأعود إلى لوحتي لو أنك لا تمنع.

(1) ملك هوني من أقوى الملوك، وأسس إمبراطورية عظيمة في روسيا وأوروبا، واعتبر وحشيًا في كتابات بعض الأوروبيين الشماليين. (المترجمة)

(2) قاتل متسلسل 0 أنجليزي غير معروف الهوية، اشتهر بذبح فتيات الليل وانتزاع بعض أعضائهن (المترجمة)

(3) قاتلة أمريكية قتلت أباهما وزوجته بالفأس عام 1892 (المترجمة)

(4) مجرم أمريكي وزعيم طائفة (المترجمة)

(5) قاتل عشوائي أمريكي (المترجم)

(6) قاتل متسلسل أمريكي (المترجم)

- تفضّل.

سأل بيتمان فيما كوّچاك يقترّب وهو يهز ذيله في سعادة: «هل صادفتك كلاب أخرى؟».

- لا.

- ولا أنا. أنت الشخص الوحيد الذي قابلته، لكن يبدو أن كوّچاك فريد من نوعه.

- لو أنه حي، فبالتأكيد يوجد المزيد.

قال بيتمان في رفق: «كلامك لا يستند إلى العلم. أي أمريكي أنت؟ أرني كلبًا آخر -الأفضل لو كانت أنثى- وسأقبل فرضيتك بأن في مكان ما كلبًا ثالثًا، لكن لا تُرني واحدًا وتفترض وجود ثانٍ».

قال ستو مفكرًا: «رأيت بقرة».

- بقر وغزلان، نعم. لكنّ كل الخيول ماتت.

- أتعرف؟ لديك حق.

لقد صادف ستو عدة خيول ميتة في طريقه، وفي بعض المواضع وجد البقر ترعى بين الجيف المنتفخة. سأل: «ما السبب؟».

- ليست لديّ أي فكرة. كلنا نتنفس بالطريقة ذاتها، ويبدو أن الوباء يتنقل بالتنفس، لكنني أتساءل عن وجود عوامل أخرى تحدد طريقة العدوى. يصاب البشر والكلاب والخيول، ولا يُصاب البقر والغزلان. اختفتِ الفئران منذ مدة، ويبدو أنها تعود.

خلط بيتمان الألوان على البالّة وهو يضيف: «القطط في كل مكان. غزو قططي. الحشرات أيضًا بخير كما كانت دائمًا، فلا تؤثر فيها أوبئة البشر، بيد أن فكرة وجود بعوضة مصابة بالإنفلونزا فكرة مجنونة. كل ما يحدث جنون على أي حال».

- بالتأكيد.

أفرغ ستو عبوة بيرة أخرى في جوفه. رأسه يطن. قال بيتمان وهو يقترف خطأً جسيمًا بمحاولة رسم كوّچاك: «سنشهد تغييرًا مثيرًا في النظام البيئي، ونعرف أكان البشر الهوموسبيان سيستطيعون التكاثّر في ظل ما يجري».

لكنَّ على الأقل يمكننا المكوث والانتظار معًا. هل سيجد كوجاك وليفة؟ هل سيكون يومًا أبًا فخورًا؟».

- رباه، أعتقد أن هذا لن يحدث.

وقف بيتمان، ووضع البالِنة على مقعد البيانو، وجلب عبوة بيرة أخرى. قال: «أنت مُحِق على ما أظن. ربما في العالم كلاب أخرى، وبشر آخرون، وخيول أيضًا، بيد أن حيوانات كثيرة ستموت قبل أن تتكاثر، وربما كان بعضها يحمل أجنة من قبل أن يجتاح الوباء. ربما في الولايات المتحدة عشرات النساء السليمات -اعذرني على التعبير- لديهنَّ كعكات تُخبز في القرن، لكنَّ بعض المخلوقات ستتحدر إلى نقطة اللاعودة. لو أخرجت الكلاب من المعادلة، سيزيد عدد الغزلان المنيعة ضد المرض، ولم يتبقَّ بشر يصطادونها ليحافظوا على التوازن العددي. سيُلغى موسم الصيد بضَع سنوات كما يبدو».

قال ستو: «لكنَّ الغزلان الزائدة ستموت جوعًا».

- لا، لن تموت. ليس كلها ولا أغلبها حتى. ليس هنا على أي حال. لا أستطيع الكلام عما سيحدث في شرق تكساس، لكنَّ هنا في نيو إنجلاند، كل الحقائق مزروعة وتنبت جيدًا من قبل الوباء. ستحصل الغزلان على ما تأكل هذا العام والعام التالي، وحتى بعد ذلك قد تنمو محاصيلنا وتتوحش. لن يتضور غزال جوعًا سبع سنوات على الأقل. لو أنك خضت هذا الطريق بعد أعوام يا ستو، فلن تتمكن من العبور دون أن تلتكز الغزلان لتبتعد عن طريقك.

فكَّر ستو في ما قيل، ثم سأله: «ألا تبالغ؟».

- ليس عن عمد. ربما لم آخذ بعض العوامل في الحسبان، لكنني صدقًا لا أظنُّ أنني أبالغ. يمكننا أن نعمم فرضيتي عن عدد الكلاب مقارنة بعدد الغزلان على باقي الأنواع وعلاقاتها العددية. لقد قلت إن الفئران اختفت فترة والآن تعود. لو أن لدينا قطعًا كفاية، سيتغير هذا. عالم بلا فئران يبدو رائعًا لأول وهلة، لكنني أتساءل عما سيحدث فيه لاحقًا.

- ماذا كنتَ تعني عندما تسألتَ عن قدرة الناس على التكاثر بعد الوباء؟

- أمامنا احتمالان؛ الأول أن المواليد لن تكون منيعة.

- تعني أنهم سيموتون فورَ وصولهم إلى الدنيا؟

- نعم، أو ربما وهم في الأرحام. أعتقد أن للإنفلونزا الفائقة تأثيراً في خصوبة مَنْ سيبقى منا. احتمال ضعيف لكنه وارد.

- هذا جنون.

- هكذا التهاب الغدة النكافية.

- لكن إن كانتِ الأمهات الحوامل منيعات...

- نعم، في بعض الأحيان تنتقل مناعة الأم إلى الجنين، لكن ليس في كل الأحوال. لا يمكن أن تعتمد على هذا. أظن أن مستقبل الأطفال في الأرحام الآن غير واضح. نعرف أن الأمهات منيعات، لكن الإحصاءات توضح أن أغلب الآباء أصيبوا وهم الآن موتى.

- ما الاحتمال الثاني؟

أجاب بيتمان بهدوء: «أننا سنستكمل مهمة الإجهاز على بعضنا بأنفسنا. أعتقد أن هذا الاحتمال ممكن. ربما لن يحدث على الفور، فنحن الآن متفرقون، والإنسان حيوان اجتماعي. سرعان ما سنجتمع، وسنحكي لبعضنا كيف نجونا من وباء القرن العشرين. أغلب المجتمعات التي ستكون ستصبح ذات حكم فردي مُستبد بدائي، يديرها قياصرة صغار، إلا إن كنا محظوظين. بعض أولئك المُستبددين قد يكونون أيضاً مستنيرين، فيحكمون مجتمعات ديمقراطية نوعاً، وسأخبرك ما ستحتاج إليه هذه النوعية من المجتمعات في القرن العشرين وبداية الحادي والعشرين: مجتمع فيه تقنيون ليعيدوا الأنوار، ويمكن فعل هذا بسهولة. هذه ليست تبعات حرب نووية حيث سيذوي كل شيء. كل الآلات موجودة، تنتظر الشخص المناسب لإعادة تشغيلها. المسألة مسألة عدد من تبقوا ممن هم قادرون على أداء هذه المهام».

رشف ستو من البيرة ثم سأل: «هل تعتقد هذا؟».

ابتلع بيتمان جُرعة البيرة ثم مال نحو ستو مبتسماً ابتسامة واجمة وأجاب: «بالتأكيد. والآن دعني أمنحك تصوراً افتراضياً يا سيد ستوارت ريتمان من شرق تكساس. لنفترض أن لدينا المجتمع أ في بوسطن، والمجتمع ب في أوتيكا، وهما يعلمان بوجود بعضهما، وبما يدور في معسكر المجتمع الآخر. المجتمع أ في حال ممتازة، يرتعون في بيكون هِل ويتمتعون بالرفاهية لأن أعضاء مجتمعهم صادف وكانوا تقنيين، يعرفون كيف يشغلون مفاعل طاقة بيكون هِل، الذي سيكون تعطله مسألة بسيطة على الأرجح. حالما

يُعاد تشغيله، سيعمل تلقائيًا. يمكن أن يعلم التقنيون باقي أفراد المجتمع كيفية التعامل مع عدادات وروافع المفاعل. لذا في بوسطن ستجد التدفئة لتدفع البرودة، والنور ليبدد الظلام فتستطيع القراءة ليلاً، والبرادات التي ستتمكنك من شرب خمر مُبرَّدة بالثلج كالرجال المتحضرين. في الحقيقة، ستكون الحياة هناك أقرب إلى حياة الفردوس، بلا تلوث، ولا مشكلات مع المُخدَّرات، ولا مشكلات عرقية، ولا نقص في أي شيء. لا مشكلات مالية لأن كل المعروضات وربما الخِدْمَات متوافرة بكثرة تكفي ثلاثة قرون. من وجهة نظر علم الاجتماع، سيكون هذا المجتمع اشتراكياً بالفطرة يخلو من الاستبداد، لأنه في ظل غياب الحاجة والرغبة والشك والفقر لن يكون للاستبداد وجود. سينتهي الوضع ببوسطن يحكمها نوع من الحكومات البلدية مرة أخرى.

- المجتمع ب في أوتيكا ليس لديه من يشغل مفاعل الطاقة. كل التقنيين ماتوا. يتطلب منهم معرفة كيف تعمل الأشياء فترةً طويلةً. في أثناء هذه الفترة، سيعانون البرد ليلاً خاصة والشتاء قادم، وسيأكلون طعاماً معلباً، وسيعيشون معيشة ضنكاً. هنا سيتولى القيادة رجل قوي، وسيقبلون به لأنهم حائرون، جوعى، مرضى. سيدعونه يتخذ القرارات، وطبعاً سيفعل. سيرسل أحدهم إلى بوسطن لطلب تقنيين لتشغيل مفاعل طاقة أوتيكا. هل سيقبلون؟ الخيار الآخر هو التحرك نحو الجنوب لقضاء الشتاء، وهو خيار خطر. إذن ماذا سيكون رد المجتمع أ عندما تصل إليهم الرسالة؟».

- سيرسلون تقنياً؟

- طبعاً لا! على الأغلب سيحتجزونه في أوتيكا على غير رغبته. في عالم ما بعد الوباء، التقنيون لهم قيمة الذهب، وهم الشيء الوحيد القابل للمقايضة. بناء على هذا، المجتمع أثري، والمجتمع ب فقير. إذن ماذا سيفعل المجتمع ب؟

قال ستو باسمًا: «سيرحل إلى الجنوب؟ ربما إلى شرق تكساس؟».

- ربما، وربما يهددون مجتمع بوسطن برأس نووي.

- صحيح. هم عاجزون عن تشغيل مفاعل الطاقة، لكنهم قادرين على إطلاق صاروخ نووي.

- لو كنت مكانهم ما كنت لأهتم بشأن الصاروخ. سأحاول فقط معرفة طريقة فصل الرأس، ثم أنقله إلى بوسطن في سيارة. هل تعتقد أن هذا سينفع؟

- لألَعَن لو أنني أعرف.

- حتى لو لم تكن تعرف، حولنا الكثير من الأسلحة. هذه هي الفكرة، كل شيء ملقى في كل مكان في انتظار مَنْ يلتقطه. لو أن لدى كلا المجتمعين تقنيين، لتبادلوا إطلاق الرؤوس النووية بسبب الدين أو السيادة أو الاختلاف الأيديولوجي. لو لم يجدوا أسلحة لتراشقوا بالحجارة وتحاربوا بالهراوات المُسننة. الحقيقة أن الجنود القدامى رحلوا وتركوا ألعابهم. شيء حزين أن تفكر في هذا بعد كل الوقائع المحزنة التي مرت بنا.. لكنني أخشى أن هذا ما سيحدث.

خَيْم الصمت عليهما. تنهى إليهما صوت الكلب ينبح من مكان بعيد في الغابة، بينما يتحول الصباح إلى ظهيرة. قال بيتمان أخيرًا: «أتعرف؟ أنا في الأساس رجل مرح. ربما لأتني أَرْضَى بأقل القليل، لكنَّ هذا غير مقبول في مجال عملي. لديَّ عيوبي؛ أترثر كثيرًا كما سمعت، ورسمي بشع كما رأيت، وكنت مبذرًا للغاية. أحيانًا كنت أمضي آخر ثلاثة أيام من الشهر قبل تسلُّم الراتب بلا طعام سوى شطائر زبدة الفول السوداني، وكنت معروفًا في وُدزفيل بفتح الحسابات المصرفية ثم غلقها بعد أسبوع، لكنني لم أسمح لليأس باجتياحي. غريب لكنَّ مرح. هذا أنا. لعنة حياتي أحلامي. منذ طفولتي وأنا موبوء بأحلام متجلية بشكل مدهش، أغلبها مرعب. في سن صغيرة، كنت أرى فيها غيلانًا تحت الجسور، تمد أيديها وتسحب قدميَّ، أو ساحرات يحولنني إلى طير.. أفتح فمي لأصرخ، فلا يخرج صوتي. هل رأيت أحلامًا مخيفة من قبل يا ستو؟».

- أحيانًا.

فكر في الدَّر وكيف رآه في كوابيسه يطارده في ممرات لا تنتهي مضاءة بمصابيح الفلورسنت، يتردد في جنباتها الصدى.

- إذن أنت تعرف ما أتكلم عنه. عندما صرْتُ مراهقًا، زارتنني الأحلام الشبقة المعتادة، لكنَّ كانت تعترضها أحيانًا مشاهد مرعبة، تتحول فيها الفتاة التي ترافقني إلى ضفدع أو حية أو جثة متحللة. حلمت بالانتحار، بميتات مروّعة. أكثر ما تكرر حلم أرى فيه نفسي أُسْحَق

ببطء تحت رافعة محطة وقود. أعتقد أن هذا تطور لحلم الغول. أومن حقاً أن تلك الأحلام قيء نفسي، ومن يرونها محظوظون أكثر منهم ملعونون.

- لو تخلصت مما بداخلك، فلن يتراكم.

- بالضبط. للأحلام تفسيرات عدّة، أشهرها تفسير فرويد، لكن لطالما أمنت أنها تخدم وظيفة أوليّة بدائية لا أكثر. الأحلام هي طريقة النفس في التخلص من الغائط. من لا يحلمون، أو من يحلمون ولا يتذكرون أحلامهم، يعانون إمساكاً عقلياً من نوع ما. في النهاية، التسوية الوحيدة التي يحصل عليها المرء مقابل الكوابيس هي الاستيقاظ وإدراك أن كل هذا كان حلمًا.

ابتسم ستو، فأكمل بيتمان: «لكن مؤخرًا أرى أحلامًا مروّعة متكررة، كالحلم أرى فيه نفسي أسحق تحت رافعة، لكن ذلك الأخير لا يقارن بما أراه حاليًا. لا يشبه أيًا مما رأيت من قبل، لكن بشكل ما يشبهها جميعًا. كأنه.. كأنه ملخص كل الكوابيس. أستيقظ وأنا في وضع مُزِرٍ كأنني لم أرَ حلمًا بل رؤيًا. أعرف كم يبدو ما أقول مجنونًا».

- ماذا ترى؟

- إنه رجل.. أو هذا ما أعتقد. يقف وحده فوق سطح مبنى عالٍ، أو ربما فوق تل. أيًا كان ما يقف عليه، فهو عالٍ حتى إنه يظهر من فوق الضباب الذي يرتفع إلى آلاف الأقدام بالأسفل. الوقت قرب الغروب، لكنه ينظر إلى اتجاه آخر، إلى الشرق. أحيانًا يرتدي سروالًا وسترة جينز، لكن أغلب المرات أراه يرتدي عباءة ذات قلنسوة. لا أستطيع أنا أرى وجهه، مع ذلك أرى عينيه. عيناه حمراوان، وأشعر أنه ينظر إليّ... وأنه عاجلاً أو آجلاً سيجدني، أو سأجبر على الذهاب إليه.. وسيكون في هذا موتي. لذا أحاول أن أصرخ، و...

صمت الرجل وهز كتفيه في حرج.

- وهنا تستيقظ؟

- نعم.

أسرع كوجاك عائداً، فربت بيتمان رأسه وهو ينظف بلسانه ما تبقى من كيك في الطبق الألومنيوم. قال بيتمان «حسنًا، هذا محض حلم كما أفترض».

ثم قام متألماً من قرقرة ركبتيه، وأضاف: «لو حُلَّ هذا الحلم، لقال المحلل النفسي إن معناه خوفي من قائد ما، أو قادة سيبدأون كل شيء من جديد. ربما يعبر الحلم عن خوف من التكنولوجيا بشكل عام، لأنني أؤمن أن كل المجتمعات التي تأسست في الغرب على الأقل، تعتبر التكنولوجيا حجر زاويتها. هذا مثير للشفقة لأننا عالقون. سرعان ما سينسون -أو يختاروا نسيان- أننا دمرنا أنفسنا بتلويث الأنهار، وثَقَب طبقة الأوزون، واختراع القنبلة النووية. كل ما سيتذكرونه هو أنه كان يا مكان، كنا ننعم بالدفع ليلاً دون بذل مجهود. أنا مناهض للتطور، إلى جانب كل الإخفاقات في حياتي كما ترى. لكنَّ هذا الحلم.. إنه ينهشني يا ستو».

لم يقل ستو شيئاً. أردف بيتمان في نشاط: «أريد أن أعود. أنا نصف ثمل، وأعتقد أننا سنواجه عاصفة رعديّة في وقت ما بعد الظهيرة».

مشى إلى حيث أمتعته، وعاد بعربة جر، وضع فيها مقعد البيانو وأدواته ولوحته فوق كل هذا. سأله ستو: «هل جررت هذه العربة كل هذه المسافة إلى هنا؟».

- جررتها حتى رأيت ما أريد أن أرسمه. أنا أذهب في اتجاهات مختلفة في أيام مختلفة. هذا تمرين جيد. لو أنك ستتجه شرقاً، لماذا لا تعود إلى وُذْقِيل وتبيت في بيتي؟ سنبتادل جر العربة، وعندي نصف دسّة بيرة أخرى تبرّد في ماء الجدول. ستكفيّنا لنعود إلى البيت في حالة جيدة.

- موافق.

- هذا هو رَجُلِي المفضل. سأثرثر كثيراً طوال الطريق. أنت بين يديّ أستاذ جامعي. عندما أثير ملكك فقط اطلب مني أن أخرس. لن أتضايق. - أنا أحب الاستماع.

- إذن أنت من الذي اصطفاهم الرب. هيا بنا.

وانطلقا في الطريق رقم 302، واحد يجر العربة، وواحد يشرب البيرة، لا يهم أيهما يفعل أي شيء. ثرثر بيتمان في عزف منفرد، يقفز من موضوع إلى آخر دون توقف. تهادى كوجاك إلى جوارهما. أنصت ستو حيناً، وشردت أفكاره حيناً. أقلقه تصور بيتمان عن مئات التجمعات البشرية، بعضها عسكري يعيشون في عالم ما بعد النهاية، يعجُّ بالأسلحة المهجورة بلا

صاحب. لكن للغربة لم يكن عقله يعود دائماً إلا إلى حلم جِلن بيتمان؛ الرجل بلا وجه فوق المبنى العالي أو عند حافة التل. الرجل ذو العينين الحمراوين وظهره تجاه الشمس، ينظر إلى الشرق.

استيقظ في وقت ما بعد انتصاف الليل، غارقاً في عرقه، يخشى أنه قد صرخ. لكن أنفاس جِلن بيتمان منتظمة في الحجرة المجاورة، ولم يقلقه شيء، وكوچاك ينام ورأسه بين مخالبه. كل شيء مضاء بضوء القمر، ويبدو سريالياً.

كان ستو مرتكراً على كوعيه، ثم هوى الآن إلى الفراش الندي، ووضع ذراعه فوق عينيه، لا يريد أن يتذكر الحلم، لكن لا حيلة له في ذلك.

رأى نفسه في ستوفينجتون مرة أخرى، إدر ميت. الكل ميت. المكان قبر عظيم يتردد فيه الصدى. كان هو الحي الوحيد، لكنه لا يجد المخرج. في البداية حاول السيطرة على ذعره، وكرر لنفسه مراراً: امش ولا تعد. لكن سرعان ما اضطر إلى العدو. صارت خطواته أسرع فأسرع، وعجز عن مقاومة رغبته الملحة في النظر إلى الخلف ليرى أكان أحد يطارده، أم إن الصوت هو صدى خطواته.

مرّ جوار مكاتب تحمل أسماء منقوشة فوق زجاجها الغائم. مر جوار عربية مقلوبة. مر جوار جثة ممرضة تنورتها البيضاء مرفوعة تكشف فخذها، وجهها المسود يحدق إلى علبة المصابيح العاكسة المتدلية من السقف.

أخيراً بدأ يجري.

تمرّ الأبواب جواره أسرع فأسرع. قدماه تقرعان الأرضية. أسهم برتقالية.. لافتات.. في البداية بدت الأخيرة طبيعية؛ حجرة الأشعة، الممر ب المؤدي إلى المعامل، لا تعبر هذه النقطة دون تصريح. ثم وجد نفسه في مكان مختلف من المبنى، مكان لم يره من قبل ولم يكن ليُسمح له برؤيته. حوائط هذا المكان مقشرة، بعض المصابيح معطلة، تنثر كذباب عالق خلف سلك نافذة. بعض زجاج أبواب المكاتب مهشم، استطاع أن يرى حطاماً وجثثاً في أوضاع تألم مروّع من خلال الفجوات في الزجاج. رأى دماء. هؤلاء لم

يموتوا من الوباء، بل قُتِلُوا. جثثهم وملابسهم تحمل علامات إطلاق الرصاص، وملامحهم متجمدة من الصدمة، وأعينهم جاحظة محدقة.

نزل سلمًا كهربائيًا معطلًا، وراح يعدو في ممر طويل مظلم مبطن بالبلاط. عند نهايته المزيد من المكاتب، لكن أبوابها مغلقة بالأسود. الأسهم على الحوائط حمراء قانية. أضواء مصابيح الفلورسنت ترتعش. مكتوب على اللافتات: أوعية الكوبالت من هذا الاتجاه. ترسانة الليزر. صواريخ سايدوايندر جَو - جَو. غرفة الأوبئة. أخيرًا رأى - وهو يبكي ارتياحًا - سهمًا يشير إلى أن المخرج بعد المنعطف التالي. انعطف على الفور، ووجد الباب مفتوحًا، خلفه الليل العطر. هُرع إلى الباب، إلا أنه وجد رجلًا يرتدي سروالًا وسترة جينز يسد طريقه. توقف ستو والصرخة تغلق حنجرته. دخل الرجل إلى حيز ضوء مصابيح الفلورسنت الوامضة، ورأى ستو ظلًا أسود باردًا محل وجه الرجل، لا شيء فيه سوى عيني حمراوين بلا روح، بل سخرية مقبلة، يتراقص فيهما المرح المجنون.

مدَّ الرجل الغامض يديه اللتين تقطران دمًا، وخرج همسًا من الفجوة السوداء حيث المفترض أن يكون وجهه: «السماء والأرض. كل السماء والأرض».

واستيقظ ستو. كوجاك يتململ في الصالة ويئنُّ، ومخالبه تنقبض وتنبسط في نومه. افترض ستو أن الكلاب أيضًا تحلم، وربما ترى كوابيس من وقت إلى آخر.

ومر وقت طويل حتى استطاع أن ينام مرة أخرى.

الفصل الثامن والثلاثون

بينما يخبو وباء الإنفلونزا الفائقة، ظهر وباء آخر استمرَّ أسبوعين على الأكثر. تفشى هذا الوباء أكثر في المجتمعات التكنولوجية كالولايات المتحدة، وبشكل أقل حدة في البلاد غير المتطورة مثل بيرو السنغال. نال الوباء الثاني من 16% من ناجي الإنفلونزا الفائقة في الولايات المتحدة، ولم ينلْ إلا من 3% في البلاد مثل بيرو السنغال. لم يكنْ للوباء الثاني اسم، لأن الأعراض تتباين من حالة إلى أخرى. قد يُسمي عالم اجتماع مثل جلن بيتمان الوباء الثاني باسم «الموت الطبيعي» أو «أشجان غرف الطوارئ القديمة تلك». من وجهة نظر داروينية بحتة، يمكن أن نسميه الاجتثاث الأخير، والأقصى على الإطلاق.

سام توبر في عمر الخمس سنوات والنصف. أمه ماتت يوم الرابع والعشرين من يونيو في مستشفى مورفريسبورو العام في جورجيا. في يوم الخامس والعشرين، توفي أبوه وشقيقته الصغرى أبريل، وفي يوم السابع والعشرين مات أخوه الأكبر تاركًا سام وحده تمامًا.

أصيب سام بصدمة منذ وفاة أمه. هام في شوارع مورفريسبورو، يأكل حين يجوع، ويبكي أحيانًا. بعد فترة كفٍّ عن البكاء، لأن البكاء لم ينفعه، ولم يُعدْ مَنْ مات. قاطع نومَه في الليل كوابيسُ مرعبةٌ رأى فيها أباه وأخويه يموتون مجددًا، بأوجه متورمة مسوَّدة، وصوت خشخشة يتصاعد من صدورهم إذ يختنقون بمخاطهم.

في العاشرة والربع من صباح يوم الثاني من يوليو، جال سام في حقل توت أسود بري خلف منزل هاتي رينولدز. اتخذ مسارًا متعرجًا بين الأجمة التي تزيد على طوله مرتين، ينتقي التوت ويلتهمه حتى تلطخت شفاته وذقنه بالأسود.

مَزَقَتِ الأشواك ملابسه ولحمه، لكنْ بالكاد لاحظ هذا. طَنَّ النحلُ حوله. لم يلاحظ الحفرة المغطاة جيدًا بين أجمة التوت الأسود. تداعى الغطاء تحت وزنه، فسقط عشرين قدمًا حتى وصل إلى القاع الحجري الجاف، وكُسِرَتْ ساقاه. مات سام بعد أربع وعشرين ساعة من الخوف والتعاسة والصدمة والجوع والجفاف.

عاشت إيرما فايَّت في لودي في كاليفورنيا. كانت عذراء في السادسة والعشرين، تخشى الاغتصاب. حياتها كابوس طويل متصل منذ يوم الثالث والعشرين من يونيو، عندما انتشر الشغب في البلدة وغابت الشرطة عن المشهد. لإيرما منزل في شارع جانبي، عاشت فيه مع أمها حتى ماتت الأخيرة بالجلطة المخية عام 1985. عندما بدأ النَّهْبُ ملأت أصوات طلقات الرصاص وتصايح الثملين على الدرجات البخارية في شوارع حي الأعمال الرئيسي، أوصدت إيرما كل الأبواب واختبأت في الغرفة الاحتياطية السفلى. من وقتها، تسللت في بطء الفأر إلى الأعلى كل مدة للحصول على طعام.

لا تحب إيرما الناس. لو أن مَنْ في الأرض جميعًا ماتوا وعاشت هي ستكون في غاية السعادة. لكنَّ الوضع مختلف. بالأمس، بعدما بدأت تتمنى في حذر ألا يكون أحد حيًّا في لودي غيرها، رأت ثَمَلًا مقرَّرَ المنظر، يرتدي تي شيرتًا مكتوبًا عليه: **أقلعت عن التدخين والجنس، وكانت هذه هي أكثر عشرون دقيقة عانيتُ فيها في حياتي**. كان يجول في الشوارع حاملًا زجاجة ويسكي، له شعر أشقر طويل يصل إلى كتفيه، يتدلى من حواف القبعة التي يعتمرها. في نطاق حزام سرواله الجينز مسدس. تلصصت عليه من خلف ستار غرفة نومها حتى ابتعد، ثم هُرِعَتْ إلى أسفل، إلى غرفتها المحصنة كأنها تحررت من تعويذة خبيثة.

لم يموتوا جميعًا. لو أن مُشَرَّدًا واحدًا في الشارع، إذن في العالم غيره. ستصادف مغتصبين. سيغتصبونها. عاجلاً أو آجلاً سيجدونها ويغتصبونها. في هذا الصباح، قبل الشروق، تسللت إلى العلية حيث خزن أبوها بعض حاجاته في صناديق ورق مقوى. كان أبوها تاجرًا، وقد هجر أمها في نهاية الستينيات. حكّت أم إيرما لها عن كل هذا. كانت صادقة تمامًا. كان أبوها الوحش يثمل، ثم يحاول اغتصابها. كلهم هكذا. عندما تتزوجين، تمنحين رجلًا الحق في اغتصابك في أي وقت يشاء. لخصت أم إيرما هجر زوجها في كلمات ثلاث، تطبقها إيرما على موت أي رجل أو امرأة أو طفل على وجه الأرض. «ليس خسارة كبيرة».

أغلب الصناديق لا تحوي إلا تذكارات رخيصة من بلدان مختلفة؛ هونج كونج، سايجون، كوبنهاجن. في أحد الصناديق ألبوم صور، أغلبها لأبيها إلى جوار سفينة، يبتسم للكاميرا وهو يُطَوَّق أكتاف زملائه الوحوش. ربما أصابه المرض الذي يسمونه هنا كابيتن ترييس، وأرداه ميتاً في مكان ما. ليس خسارة كبيرة.

لكن في العلية صندوق واحد بمفصلات ذهبية صغيرة، وفيه سلاح؛ مسدس عيار 0.45، يرقد فوق مخمل أحمر، وأسفل البطانة رصاصاته المخضرة التي تبدو كأنما يغطيها الطحالب، لكنَّ إيرما رأت أنها ستعمل. الرصاصات معدنية، ولن تفسد كما يفسد الحليب أو اللبن.

حشت المسدس بالرصاصات تحت مصباح العلية المكسو بشباك العناكب، ثم نزلت لتأكل إفطارها خلف منضدة مطبخها. لن تختبئ كفأر في حفرة بعد الآن. إنها مُسلَّحة. فليحذر المُغتصبون.

بعد الظهيرة خرجت إلى الشرفة الخارجية لتقرأ كتاباً بعنوان: الشيطان حي على كوكب الأرض. الموضوع مقبض ومثير في آن. الخطأؤون يلاقون مصيرهم العفن المُستَحَق كما يقول الكتاب. لقد زال الجميع إلا قليلاً من المتسكعين المغتصبين، ولا شك أنها قادرة عليهم. المسدس إلى جوارها.

في الثانية ظهرًا عاد الأشقر. كان ثملاً حتى إنه وقف على ساقيه بالكاد. لمح إيرما فأضاء وجهه. بالتأكيد فكر في أنه محظوظ إذ وجد أخيراً فَرْجاً.

صاح: «مهلاً يا صغيرة. ليس في العالم إلا أنا وأنت. منذ متى و...». ثم غام وجهه بالذعر عندما لمح إيرما تصوب إليه المسدس.

- مهلاً، اسمعي. أنزلي هذا الشيء. هو هو محشو؟ مهلاً!

ضغطت إيرما الزناد، فقتلته على الفور. ليس خسارة كبيرة.



عاش جورج مكودجال في ناياك، نيويورك. كان معلم رياضيات للمرحلة في المدرسة الثانوية، مختصاً في إعادة تدريس ما دُرِّس للطلبة من قبل وتقويته. هو وزوجته كاثوليكيان دينان، وولدت له هاريت مكودجال أحد عشر ابناً، تسعة أولاد وبنيتين.

بين يوم الثاني والعشرين من يونيو إذ شُخص ابنه جيف ذو التسع سنوات بالتهاب رئوي نتيجة الإصابة بالإنفلونزا، وبين يوم التاسع والعشرين، يوم وفاة ابنته باتريشيا بالمرض المُسمى بـ«العُنق الأنبوبي»، شهد أكثر اثني

عشر شخصًا يحبهم في عالمه يموتون، وظل هو سليم معافى. كان يمزح في المدرسة بخصوص عجزه عن تذكر كل أسماء أبنائه، لكنَّ ترتيب وفاتهم حُفِر في ذاكرته: چيف يوم الثاني والعشرين، مارتى وهيلين يوم الثالث والعشرين، زوجته وِبل وچورچ الصغير، روبرت وستان يوم الرابع والعشرين، ريتشارد يوم الخامس والعشرين، داني يوم السابع والعشرين، فرانك ذو الثلاثة أعوام يوم الثامن والعشرين، وأخيرًا باتريشيا التي بدتْ كأنما تتحسن قرب النهاية. ظن چورچ أنه سيُجن.

كان قد بدأ ممارسة رياضة الهرولة منذ عشر سنوات بناءً على نصيحة طبيبه. لم يكن يلعب التنس أو كُرّة اليد، وكان يدفع لصبي -من أبنائه طبعًا- لجز العشب أمام بيته، ويقود سيارته إلى المتجر عند أول الشاعر إن احتاجت زوجته إلى رغيف خبز. قال له الطبيب وارنر إن وزنه يزداد، وهذا خطر على قلبه، ونصحه بالهرولة. لذا اشترى بذلة رياضية، وخرج يهرول كل ليلة مسافات قصيرة في البداية، ثم زاد المسافة تدريجيًا. في البداية كان يشعر بالحر، ويتصور جيرانه يتابعونه وهم يطرقون برؤوسهم ويرفعون أعينهم ساخرين، ثم في يوم حيّاه رجلان من الجيران وهما يرويان حديقتيهما، وسألاه أكان في وسعهما الانضمام إليه.. ربما يسعيان للتشجيع. في ذلك الوقت كان ابنا چورچ الكبار قد انضموا إليه. صار الأمر علامة مميزة للحى، انضم إليه عدد من سكان الأحياء المجاورة أحيانًا، لكنه ظل مميزًا لهذا الحى فقط.

والآن رحل الجميع، وما زال هو يجري كل يوم لساعات. فقط في أثناء الهرولة لا يركز في شيء أكثر من قرع حذائه الرياضي على الرصيف، وأرجحة ذراعيه، وتنفسه القوي المتلاحق، وينسى ولو لحين جنونه المُهدّد. لن ينتحر، لأنه كاثوليكي دَيّن، يعرف أن المنتحرين مخلصون في الجحيم، ويؤمن أن الله أعفاه من الموت لسبب. لذا ظل يجري. بالأمس هروّل ست ساعات متواصلة، حتى انقطعت أنفاسه. هو في الخمسين من عمره، ولم يعد شابًا، لكنْ بشكل ما كان الجري هو الشيء الوحيد الجيد المُتبقي.

استيقظ هذا الصباح مع أول شعاع نور، وبعد ليلة أرق، ظل خلالها يُكرر أسماء موتاه بترتيب رحيلهم. ارتدى بذلته الرياضية وبدأ الهرولة في شوارع نَياك المهجورة. تطحن قدماه الزجاج المكسور، يقفز من فوق تلفاز معطل ملقى على الرصيف، يمر بالمباني مُسدلة الستائر، يعبر من جوار حادث ثلاثي بشع عند تقاطع الطرق الرئيسي.

هرول في البداية، ثم صار العدو ضرورة لإبقاء أفكاره خلفه. يهرول ثم يجري ثم ينطلق كالسهم. رجل خمسيني ذو شعر أشيب يرتدي بذلة رياضية رمادية وينتعل حذاءً أبيض، يقطع الشوارع الخاوية زهابًا وإيابًا كأن شياطين الجحيم كلها تطارده. في الحادية عشرة والربع، أصابته جُلطة في الشريان التاجي، وسقط ميتًا قرب صنوبر الحريق. تعبير وجهه كان أقرب إلى الامتنان.

ثلث السيدة إيلين درموند من كلويستون، فلوريدا، في ظهيرة يوم الثاني من يوليو. أرادت أن تثل كي لا تفكر في أسرتها. وجدت حقيبة مليئة بالماريجوانا في حبرتها القديمة عندما كانت في السادسة عشرة، فحُذرت بها، لكن بدا أن المخدّر دهور حالتها. جلست في غرفة المعيشة أغلب اليوم، مُخدّرة تبكي على الصور في السجل.

لذا ثلث هذه الظهيرة، وشربت زجاجة كاملة، ثم شعرت بغثيان فتقيأت في الحمام، ثم عادت إلى الفراش وأشعلت سيجارة، ونامت فأحترقت المنزل، ولم تعد مضطرة إلى التفكير بعد الآن. اشتدت الريح، فاحترقت أغلب بلدة كلويستون. ليست خسارة كبيرة.

عاش أثر ستيმسون في رينو، نيفادا. في فترة ما بعض ظهيرة يوم التاسع والعشرين، وبعد السباحة في بحيرة تاهو، خطا فوق مسمار صدئ. تدهورت حال الجرح، وشخصها من خلال الرائحة، فحاول بتر قدمه. في أثناء العملية فقد وعيه ومات من الصدمة والنزف في حانة قمار لوبي وتوبي حيث حاول إنقاذ نفسه.

في سوانقيل، في ولاية مَين، فتاة في العاشرة اسمها كانيس موران، سقطت عن دراجتها وكسرت جمجمتها فماتت.

ميلتون كارسلو، صاحب مزرعة في مقاطعة هاردينج، نيو مكسيكو، عضته حية مجلجلة، ومات بعد نصف ساعة.

في ميلتاون، كنتاكي، سعدت چودي هورتون بالأحداث الجارية. چودي جميلة، في السابعة عشرة. منذ عامين اقتربت دَنبين؛ سمحت لنفسها بأن تحمل، وسمحت لأهلها بتزويجها بالشاب المسؤول عن حملها، وهو طالب هندسة يرتدي نظارة طبية. أسعدها طلب شاب جامعي أن تخرج معه وهي بعد في الخامسة عشرة، ولا تعرف حتى الآن لماذا سمحت لوالدو -والدو هورتون، يا له من اسم مقرف- بأن يفعل ما يحلو له معها. إن كانت ستحمل، فلماذا سيكون هو بالذات الأب؟ سمحت چودي لستيف فيليبس ومارك كلولينز بأن يفعلوا ما يحلو لهما بها، وكلاهما من فريق كرة القدم من ثانوية ميلتاون، وكانت هي قائدة المشجعات. لولا والدو هورتون المقرف لصارت رئيسة قائدات المشجعات في سنتها الأولى من المدرسة الثانوية. بالعودة إلى النقطة الهامة: ستيف أو مارك زوجان مقبولان نوعًا ما بالنسبة إليها، فكلاهما عريض الكتفين، ولمارك شعر أشقر يصل إلى كتفيه. لكن لم يكن لها من نصيب إلا في والدو، والدو ولا أحد غيره. كل ما عليها فعله هو النظر إلى التقويم وحساب الأيام، وبعد الولادة وجدت أن المولود يشبهه. يَـع!

لذا استمرت في التنقل عامين من وظيفة سيئة إلى أخرى أسوأ، فيما أكمل والدو دراسته. كرهت كُلية والدو أكثر مما كرهت الطفل ووالدو نفسه. إن كان يريد أسرة، فلماذا لا يعمل؟ لكن لم يسمح والداها ولا والداه بذلك. لو كان الأمر بيد چودي لحدثته بكلام معسول لتقنعه، ولم تكن لتسمح له بلمسها في الفراش قبل أن يوافق، لكنّ الآباء الأربعة يُقحمون أنوفهم في كل شؤونهم طوال الوقت. يخبرونها أن الأوضاع ستتحسن فور إنهاء والدو دراسته والتحاقه بعمل مناسب. يقولون إن حياتها ستكون أكثر إشراقًا لو وازبطت على الذهاب إلى الكنيسة. ينصحونها بأكل الخراء والابتسام حتى تبتلعه بالكامل.

ثم ضربت الإنفلونزا الفائقة، وحلّت كل مشكلاتها. مات والداها، ومات طفلها الصغير باتي (أحزنها هذا نوعًا لكنها تخطته في يومين)، ثم مات والدا والدو وأخيرًا والدو نفسه، وصارت حُرّة. فكرة أن تموت هي مثلهم لم تخطرُ ببالها، وطبعًا لم تَمُتْ.

كانوا يعيشون في شقة في مبنى صاخب، يقع في وسط بلدة ميلتاون. أحد الأمور التي جذبت والدو إلى المبنى، هو وجود مجمد لحوم ضخم في الطابق السفلي (لم يكن لچودي رأي في الأمر طبعًا). سكنا الشقة في الطابق الثالث في سبتمبر من عام 1988، وخمّن من التصقّت بها مهمة إنزال اللحم

والبرجر إلى مجمد الطابق الأرضي؟ مات والدو وباتي في البيت. كان هذا في الوقت الذي امتلأت فيه المستشفيات، وفاضت المزارح بالجثث، لكنَّ الكهرباء لم تُقطع بعد. لذا نقلتهما إلى الأسفل، إلى المُجمد.

انقطع التيار في ميلتانون منذ ثلاثة أيام، لكنَّ المكان بالأسفل ظل باردًا بما يكفي. عرفتُ چودي لأنها تنزل لتلقي نظرة على جثثها ثلاث مرات أو أربعًا يوميًا. قالت لنفسها إنها تفعل ذلك فقط لتطمئن. لأي سبب غير ذلك تنزل؟ طبعاُ السماتة ليست السبب.

نزلت بعد ظهيرة يوم الثاني من يوليو، ونسيت أن تضع السنادة المطاطية أسفل باب المُجمد، فانغلق الباب عليها. للمرة الأولى بعد عامين كاملين من استخدام المُجمد تُدرك أن بابه بلا مقبض داخلي. درجة الحرارة أعلى من أن تُجمدها، لكنها لن تحميها من الموت جوعًا. لذا ماتت چودي هورتون بصحبة ابنها وزوجها رغم كل شيء.

أوصل چيم لي من هاتسيبرج، ميسيسيبي، كل أجهزته الكهربائية إلى مولد يعمل بالبنزين، ثم صعق نفسه وهو يحاول تشغيلها.

ريتشارد هوجينز كان شابًا أسود، عاش حياته كلها في ديترويت، متشيجن. أدمن في آخر خمس سنوات من عمره على الغبار الأبيض الناعم الذي أطلق عليه (هيراون). مرَّ خلال تفشي وباء الإنفلونزا الفائقة بمرحلة انسحاب مخدر قاسية بعد موت كل تجار المُخدرات أو هربهم.

في يوم صيفي مشرق، جلس يشرب سقن أب دافئ في باحة ملأى بالمُخلفات، وهو يتمنى لو أن في استطاعته الحصول على جُرعة مخدر، مجرد جُرعة صغيرة.

بدأ يفكر في آلي مكفارلين، وما سمعه عنه في الشوارع قبل انتشار المصيبة. قيل إن آلي، ثالث أكبر تاجر مُخدرات في ديترويت، حصل للتو على شحنة ممتازة. كان الكل ليسعد بالهيروين الأبيض كالصيني، لا الخراء البني الذي اعتادوه.

لم يكن ريتشي يعرف أين قد يخبئ مكفارلين شحنة ضخمة كهذه، لكنه سمع أكثر من مرة أنه قال إن الشرطة لو دَهَمَت المنزل الذي اشتراه لعمه في

جروس بوينت، لهرب على الفور. قرر ريتشي أن يمشي إلى جروس بوينت؛ لا شيء أفضل يفعله على أي حال.

عرف عنوان البيت من دليل هواتف ديترويت، واتجه إليه. وصل بعد حلول الليل وقد آلمته قدماه. لم يعد يقنع نفسه أنه يمشي فقط، بل هو يريد أن يتعاطى، ويريد هذا بشدة.

يحيط المنزل حائط حجري رمادي، قفز ريتشي من فوقه كظل أسود، فخرج يديه في الزجاج المكسور المثبت على حافته. كسر نافذة ليستطيع الدخول، فانطلق جهاز إنذار دفعه إلى الهرب إلى حارة خلفية، قبل أن يتذكر أن الشرطة اختفت إلى الأبد، فعاد متعرقاً مرتجفاً.

التيار الكهربائي مقطوع، في المنزل اللعين قرابة عشرين غرفة. لا بُدَّ أن ينتظر حتى الصباح كي يستطيع التفتيش جيداً، وقد يستلزم الأمر ثلاثة أسابيع ليقلب المكان رأساً على عقب، ومع كل ذلك، ربما لا يجد البضاعة هنا. إلهي. شعر ريتشي بآس عظيم يغشاه، لكنَّ عليه أن يبحث في الأماكن الظاهرة على الأقل.

وجد في غرفة نوم في الطابق العلوي دسنة أكياس ملأى بالمسحوق الأبيض، مُخبأة في صندوق الطرد في الحمام. مخبأ من كلاسيكيات المخابئ. حدق إليها ريتشي، وأمراضه الرغبة. لا بُدَّ أن ألي كان يرشو كل الأشخاص المهمين، كي يترك بضاعة كهذه في صندوق طرد ولا يبالى بالعواقب. في الصندوق مخدر يكفي المرء ستة عشر قرناً.

أخذ كيساً واحداً إلى غرفة النوم الرئيسية، وسكبه على الملاءة. ارتجفت يداه وهو يفعل، وتساءل عن كيفية تقسيم كل هذه الكميات وتخفيفها. أكبر تركيز تعاطاه ريتشي كان اثني عشر بالمئة من المخدر الخام، فنام نومة عميقة وصلت إلى حد الغيبوبة. لم يومئ حتى بعدما تعاطاها، بل انجرف على الفور إلى الظلام.

خلط المخدر وحققه في عروقه. هذا المخدر خام بنسبة 96 %، اكتسح مجرى دمه بعنف، فانكفاً ريتشي على وجهه وسط مسحوق الهيروين، ومات بعد ستة دقائق.

ليس خسارة كبيرة.

الفصل التاسع والثلاثون

هوى لويدهينريد على رُكبتيه راکعًا. راح يههمم بأغنية ويبتسم. بين الفينة والأخرى ينسى ما كان يههمم به، فتختفي الابتسامة من على وجهه، وينتحب، ثم ينسى سبب انتحابه، فيُهمهم مرة أخرى بأنفاس متهدجة تُدغم كلمات الأغنية.

الزنازين صامته إلا من صوت الهمهمة والنحيب واحتكاك قائمة الفراش بالأرض إذ يحركها لويده شارداً. كان يحاول قلب جثة تراسك ليحصل على الساق. لو سمحت أيها النادل، أريد المزيد من سلطة الكرنب وساق أخرى. بدا لويده كرجل يخضع لنظام غذائي قاسٍ. تعلّق أقرول السجن على جسده كشراع مُتهدّل. آخر وجهه أكلها في زنزانته كانت منذ ثمانية أيام. جلد لويده مشدود على جمجمته، مبرّزاً كل تفاصيلها وزواياها الحادة. عيناه تلمعان. شفتان منحسرتان عن أسنانه. بدا رأسه مُرقطاً إذ سقطت خصلات متفرقة من شعره. بدا مجنوناً.

راح يهمس مُدندناً: «دو - دا دو - دا...»، وهو يمد قائمة الفراش إلى الزنانة المجاورة، ثم يسحبها. لم يعد يتذكر لماذا أدمى أصابعه وهو يحاول فك هذا الشيء الملعون. كان في زمن ما يظن نفسه يعرف معنى الجوع الحقيقي. الجوع الذي عرفه لم يكن سوى قرصة مقارنة بما يمر به الآن.

- قُدْ طَوَال الليل.. قُدْ طَوَال الليل.. دوو - دااا...

علقت القائمة بطرف سروال تراسك، ثم أفلتت. أطرق لويده وبكى كطفل. خلفه في الركن هيكل الفأر الذي قتله في زنزانه تراسك يوم التاسع والعشرين من يوليو، منذ خمسة أيام. ما زال ذيل الفأر الوردي الطويل متصلاً بهيكله.

حاول لويد مرارًا التهام الذيل، لكنه كان قاسيًا. جف ماء المرحاض تمامًا رغم محاولته الترشيد. عبقّت الزنزانة برائحة البول، فقد كان يبول في الممر كي لا يلوّث ماء مرحاضه.

كان قد أكل ما ادخر بسرعة، وأدرك هذا الآن. كان يظن أن أحدهم سيأتي. لم يصدّق أن...

لكنه لا يريد أن يأكل تراسك. فكرة أكل تراسك بشعة. ليلة أمس نجح في ضرب صرصار بخُفّه وأكله شبه حي. شعر به يتملص داخل فمه قبل أن يطبق عليه ضروسه فيسحقه. في الحقيقة كان طعمه أفضل من الفأر. لا، إنه لا يريد أن يأكل تراسك. لا يريد أن يصبح أكل لحم بشر. سيسحب جثة تراسك فقط إلى مرمى يده.. فقط تحسّبًا للأسوأ. سمع أن في وسع الإنسان أن يعيش وقتًا طويلًا بلا طعام ما دام توافر معه الماء.

(لم يعد الماء متوافرًا، لكنني لن أفكر في هذا الآن).

لا يريد لويد أن يموت. ولا يريد أن يتضور جوعًا.

تراكمت الكراهية في نفسه سريعًا خلال الأيام الثلاثة الأخيرة. نمّت مع تزايد الجوع. لقد افترض أن أرنبه الذي مات منذ زمن كان ليكرهه بالقدر ذاته لو كان قادرًا على الكره. (كان ينام مؤخرًا فترات طويلة، تزعجه في كوابيس عن أرنبه ذي الجسد المنتفخ، وفرائه المتسخ، والديدان تخرج من عينيه، والأسوأ، قائمته الداميتين. عندما يستيقظ ينظر إلى يديه في رعب). تمحورت كراهية لويد حول مفهوم واحد بسيط، هذا المفهوم هو: المفتاح.

إنه حبيس. في الماضي كان هذا طبيعيًا، وكان هو واحدًا من المجرمين. ليس مجرمًا بالضبط؛ بوك هو المجرم الحقيقي. ما كان ليرتكب إلا أتفه الجرائم ما لم يكن بوك موجودًا. على ذلك، ما زال يتحمل جزءًا من اللوم. لقد قتل جورج الرائع في فيجاس، وثلاثة آخرين. افترض لويد أنه يستحق العقاب. لا يتقدّم أحد للعقاب طواعية، لكن حين يقع، يستسلم له. لقد أخبر محاميه أنه يستحق السجن عشرين عامًا لجريمته الثلاثية، لكنه لا يستحق الإعدام بالكروسي الكهربائي. إلهي، لا.. فكرة أن يجلس لويد هينريد على الكروسي.. فكرة جنونية.

لكنّ معهم المفتاح. يمكنهم أن يحبسوه ويفعلون به ما يشاءون.



أدرك لويد خلال الأيام الثلاثة الأخيرة رمزية المفتاح وقوته. المفتاح جائزتك مقابل لعبك وفَقَّ القواعد. ما لم تفعل سيحبسونك. الأمر مختلف عن بطاقة (انذهب إلى السجن) في لعبة مونوبولي. ومع المفتاح تأتي صلاحيات أخرى. سيأخذون من عمرك عشر سنوات أو عشرين أو أربعين. قد يدفعون لأشخاص مثل مادرس لضربك. بل يمكنهم أيضًا أن يسلبوا منك حياتك على الكرسي الكهربائي.

لكنَّ حيازتهم المفتاح لا تمنحهم حق حبسك وتركك لتموت جوعًا. لا تمنحهم حق إجبارك على التهام فأر، ومحاولة أكل القراد الميت في فراشك. لا تمنحهم حق تركك في مكان يدفعك إلى التفكير في أكل سجين الزنزانة المجاورة لتعيش (لو استطعت الوصول إليه.. دوو - دااا.. دوو - دااا...).

لقد تركوه هنا يموت ميتة شنيعة فيما كان في استطاعتهم الإفراج عنه. هو ليس كلبًا مجنونًا يقتل أول من يصادفه، مهما زعمت عنه المستندات. الجرائم الصغيرة هي آخر ما كان يستطيع ارتكابه قبل أن يلتقي بوك.

لذا استولت عليه الكراهية، وأمرته الكراهية بأن يعيش.. أو على الأقل يحاول. لحين ظن أنه لا طائل من الكراهية أو الرغبة في الحياة، لأن مَنْ معهم المفتاح قتلتهم الإنفلونزا الفائقة، وقد فروا من انتقامه. لذا، وبالتدريج، وبينما يزداد جوعه، عرف أن المرض لن يقتله، بيد أنه ربما يقتل الأوغاد من أمثاله. قد يقتل مادرس، لكنه لن يقتل الحثالة الذين دفعوا له لأن المفتاح مع أولئك الحثالة. المرض لن يقتل الحاكم ولا أمر السجن.. لا بُدَّ أن الحارس الذي زعم أن الأمر مريضٌ هو كاذبٌ. المرض لن يقتل الضابط ولا الشريف ولا عميل المباحث الفيدرالية. لم يمس المرض مَنْ معهم المفتاح، لن يجروُ، لكن لويد يجروُ. لو عاش حتى يخرج من هنا لمُسَّهم بأشد العذاب.

علَّقت قائمة الفراش بسرّوال تراسك مرة أخرى. همس لويد: «تعال.. تعال إلى هنا...».

سحب جثة تراسك ببطء خلال أرضية زنزانته. لا يمكن لأعظم الصيادين أن يجز صيده في صبر وحرص كصبر لويد وحرصه. تمرَّق سرّوال تراسك، فحاول لويد مجددًا شَبك القائمة في مكان آخر.. أخيرًا صارت قدمه قريبة بما يكفي لأن يقبض عليها لويد خلال القضبان... لو أراد.

همس لتراسك وهو يمسح على ساقه: «لا ضغائن شخصية بيننا. لن أكلك يا صاحبي. ما أَلَم أضطرَّ إلى ذلك».

ولم يع لويد أن لعبه يسيل.

سمع لويد أحدهم يتحرك وسط ظلال المغيب. في البداية كان الصوت بعيدًا، غريبًا؛ صوت ارتطام معدن بمعدن، وظن أنه يحلم. النوم واليقظة تماهيا معًا بالنسبة إليه، وصار ينتقل من هذا إلى ذاك دون أن يدرك هذا.

ثم سمع الصوت، فانتصب جالسًا في فراشه واتسعت عيناه في وجهه الشاحب العظمي. جاءه الصوت يسري من مكان ما في الجناح الإداري، عابرًا الدَّرج والأروقة التي تصل بين صالات الزيارة والزنازين حيث محبس لويد.

«هووو - هوووو! هل مِن أحد هنا؟»

للغربة، كان أول ما خطر على عقل لويد: لا تُجِب. ربما يرحل.

«هل مِن أحد هنا؟ سأُعيد حتى ثلاثة.. واحد.. اثنان.. حسنًا، سأرحل...».

زال شلل لويد، فقام من فراشه سريعًا وأمسك قائمة الفراش، وراح يضرب بها على القضبان في جنون، فارتدت ذبذبات ضرباته إلى ذراعه وأرعدت عظامه. صاح: «لا! لا! لا ترحل! رجاء لا ترحل!».

الصوت الآن أقرب، يأتيه من جهة الدرج بين الإدارة والزنازين، يناديه مداعبًا كأنه طفل.

«سألتهمك قطعة قطعة من حلاوتك، وسنحبك جدًّا جدًّا وتزيد غلاوتك.. يبدو أن أحدهم جائع.. جدًّا...».

تبع ذلك ضحكة خشنة. أسقط لويد قائمة الفراش على الأرض، وقبض على قضبان الزنزانة. يسمع الآن صوت خطوات تصدح من مكان ما خلف الظلال، تضرب الأرض مقتربة من الزنازين. كاد لويد يبكي فرحًا، فقد وجدته أحد رغم كل شيء.. لكنه لم يشعر بالفرح، بل بالخوف، بالرعب الذي جعله يتمنى لو أنه ظل صامتًا. لكن ما الأسوأ من التصور جوعًا؟

دفعه الجوع إلى التفكير في تراسك الممدد على الأرض في ضوء الغروب، وإحدى ساقيه داخل زنزانة لويد، وجزء من سِمَانَتها مفقود، تحيطه آثار أسنان. يعرف لويد صاحب العضّة، لكنه لا يتذكر أنه التهم شريحة من تراسك. على ذلك أفعمه شعور الرفض والاشمئزاز والذنب والرعب. نظر إلى ما وراء كتفه ليتأكد من أن صاحب الصوت لم يصل بعد، ثم مد ذراعه من خلف القضبان ليغطي ساق تراسك بالسروال ليخفي ما اقترف.

لا داعي إلى العجلة، فبوابة جناح الزنازين موصدة، ومع انقطاع التيار لن يعمل زر فتحها. على منقذه أن يعود لبحث عن المفتاح. عليه أن...
أجفل لويد لدى سماعه صوت المحرك الكهربائي الذي يفتح البوابة. ضَخَّم صمت الجناح الصوت، وعرف لويد أن البوابة قد فُتِحَتْ.
ثم اقترب صوت قرع الحذاء على أرضية ممر الزنازين.
عاد لويد إلى باب زنزانته بعدما غطى تراسك، ثم تراجع خطوتين عامداً، ونظر إلى الأرض خارج الزنزانة. رأى أولاً حذاء راعي بقر مُتربّاً، بمقدمتين حادثين، وكعبين باليين. فكر في أن لويد كان لديه حذاء كهذا.
توقف الحذاء أمام الباب.

رفع عينيه ببطء إلى ساقَي السروال الجينز الكالـح داخل رقبتَي الحذاء، ثم إلى إبرزيم الحزام المزِين بعلامات الأبراج السماوية داخل دائرتين متحدتي المركز. للسترة الجينز جيبان على جهتي الصدر، مثبت على واحد منهما شارة وجه مبتسم، وعلى الآخر رسم خنزير ميت.

في اللحظة نفسها التي وصلت فيها عينا لويد إلى وجه راندال فلاج الغامض، صاح فلاج: «بِخ!»، وتردّد صدى صيحة التخويف بين حوائط الزنازين. صرخ لويد وتعثّر فسقط، وراح ينتحب.

قال فلاج مُهدّئاً: «لا بأس. مهلاً يا رجل، لا بأس. كل شيء بخير».

- هل يمكن أن تُخرجني؟ أرجوك، دعني أخرج من هنا. لا أريد أن أصبح مثل أرنبِي. لا أريد أن تكون هذه نهايتي، هذا ظلم. لولا بوك، ما كنت لأرتكب إلا الصغائر. أرجوك يا سيدي دعني أخرج. سأفعل أي شيء من أجل هذا.

- أيها المسكين. تبدو كإعلان لعطلة صيف في داكوا⁽¹⁾.

رغم التعاطف في صوت فلاج، لم يستطع لويد رفع عينيه إلى مستوى أعلى من مستوى رُكبتَي زائرهِ. لو نظر إلى هذا الوجه مرة أخرى لقتلته النظرة. هذا وجه شيطان.

غمغم لويد: «أرجوك. أرجوك دعني أخرج. أنا أتضور جوعاً».

- كم مرّة عليك وأنت مَرمي هنا؟

(1) معسكر تعذيب نازي (المترجمة)

مسح لويد عينيه بأصابعه النحيلة وأجاب: «لا أعرف. منذ زمن».

- كيف لم تَمُت حتى الآن؟

قال لويد لرُكبتِي السروال الجينز وهو يحاول جمع شتات خُبثه: «كنت أعرف ما سيحدث. ادخرتُ طعامًا. هذا كل ما في الأمر».

- ألم يحدث وأخذتَ قِضْمَةً من الرفيق الطيب في الزنزانة المجاورة؟

زعق لويد: «ماذا؟ ماذا؟ لا والمسيح! ماذا تحسبني؟ سيدي.. سيدي، أرجوك...».

- ساقه اليسرى تبدو أرفع نوعًا من اليمنى، وهذا هو سبب سُؤالي يا صديقي الطيب.

همس لويد: «لا أعرف شيئًا عن هذا». كان يرتجف من أعلاه إلى أسفله.

- ماذا عن الأخ الفأر؟ كيف كان طعمه؟

غطى لويد وجهه بيديه ولم يقل شيئًا.

- ما اسمك؟

حاول لويد أن يجيب، لكن لم يخرج من فمه إلا صوت أنين.

- ما اسمك أيها الجندي؟

- لويد هينريد.

فكَّر في ما سيقول تاليًا، لكنَّ عقله كان في حالة فوضى عارمة. كان خائفًا عندما أخبره محاميه أنه قد يُعَدَم بالكُرسي الكهربائي، لكنه لم يكن خوفًا مشابهاً لما يشعر به الآن. لم يشعر برعب كهذا طوال حياته. صاح أخيرًا: «كانت فكرة بوك. المفترض أن يكون بوك هنا، لا أنا».

- انظر إليَّ يا لويد.

همس لويد وعيناه تزيغان: «لا...».

- لَمْ لا؟

- لأن...

- أكْمَلُ...

أكْمَل لويد هامسًا: «لأنني لا أعتقد أنك حقيقي يا.. سيدي. لو أنك حقيقي فأنت الشيطان».

- انظر إليَّ يا لويد.

مرغمًا، رفع لويد عينيه إلى ذلك الوجه الغامض المبتسم، المُعلَّق بين القضبان. يده ترفع شيئًا إلى جوار عينه اليمني، شيء جعل لويد يشعر بالحر والبرد في آن. بدا له كأنه حجر أسود، راتنجي، حالك، منتصفه أحمر كعين ملتهبة مخيفة نصف مفتوحة، تحديق إلى لويد. أداره فلاج ببطء بين أصابعه، فتحول القلب المحمر إلى ما يشبه الـ... المفتاح. أرجحه فلاج بين إصبعيه، فراح يتحول إلى عين ثم إلى مفتاح ثم عين...

العين... المفتاح..

غنى: «جلبت لي قهوة.. جلبت لي تفاح.. جلبت لي كل شيء.. ولم تجلب لي المفتاح. أليس كذلك يا لويد؟».

أجاب بصوت مبحوح وعيناه معلقتان بالحجر الأسود: «طبعًا...».

نقل فلاج الحجر بين أصابعه كساحر يؤدي خدعة. قال: «أنت الآن رجل يقدّر قيمة المفتاح المناسب».

اختفى الحجر في كفه المغلقة، ليظهر في اليد الأخرى. أكمل فلاج: «أنا واثق من هذا. لكنَّ المفتاح صنع ليفتح الأبواب الموصدة. هل من شيء أهم في الحياة من فتح الأبواب يا لويد؟».

- سيدي... أنا جائع للغاية...

- طبعًا أنت جائع. إلهي، الفأر لا يسد جوعًا! أتعرف ما لدي للغداء؟ لديّ شرائح لحم نصف مطهو، داخل خبز طازج، فوقه حلقات بصل ومسطردة جولدن سبايسي براون. ألا يبدو شهياً؟

أوماً لويد والدموع تنهمر من عينيه المبهورتين.

- لدي بطاطس مقلية، وحليب بالشوكولاتة. بالنسبة إلى الحلوى... أوه، أنا أعذبك، أليس كذلك؟ يجب أن يوقفني أحد. آسف. سأخرجك وسنذهب لنأكل في مكان ما. أوكاي؟

كان لويد مأخوذاً حتى إنه لم يومئ حتى. كان قد قرر أن الرجل شيطان، أو ربما سراب، وقد يقف السراب أمام الزنزانة حتى يموت لويد أخيراً فيما يتكلم في سعادة عن الرب والمسيح ومسطردة جولدن سبايسي براون وهو يقلب ذلك الحجر الأسود بين أصابعه، يخفيه ويظهره. لكنَّ التعاطف في وجه الرجل الآن يبدو حقيقياً كفاية، وبدا فعلاً متضايقاً من نفسه. اختفى الحجر

في كفه المغلقة، ثم فتح قبضته ورأت عينا لويد المدهوشتين مفتاحاً فضياً مزخرفاً في كف الغريب المفرد.

غمغم لويد: «يا إلهي الرحيم...».

سأله الغامض في سرور: «أعجبك؟ تعلمت هذه الخدعة في سيكوكوس، نيو جيرسي. سيكوكوس يا لويد، بلد أكبر مزارع الخنازير».

مال وأدخل المفتاح في قفل زنزانة لويد، وكان هذا غريباً، لأنه بحسب ما يتذكر لويد، ليس للزنزانة قفل، وليس لها مفاتيح لأنها تُفتح وتُغلق إلكترونياً، لكنه لم يشك في أن المفتاح الفضي سيفتح الباب.

توقف فلاج في منتصف عملية الفتح، ونظر إلى لويد مبتسماً ابتسامة ماكرا، فشعر الأخير باليأس يغشاه مرة أخرى. هذه مجرد حيلة سحرية.

- هل قدمت لك نفسي؟ اسمي راندال فلاج. مسرور للقاءك.

- وأنا.

- أعتقد أن علينا أن نتفاهم قبل أن أفتح الباب ونذهب لتناول الغداء يا لويد.

بكى لويد وقال بين بين دموعه: «بالتأكيد».

- سأجعلك ذراعي اليمنى يا لويد. سأرفعك إلى مقام القديس بيتر⁽¹⁾. بعدما أفتح الباب، سأضع في يدك مفتاح الملكوت. يا لها من صفقة، أليس كذلك؟

همس لويد وقد ازداد رعبه مرة أخرى: «نعم...».

اكتمل الظلام الآن، ولم يعد فلاج أكثر من ظل حالك، إلا أن عينيه ظلّتا حمراوين، مرثيتين في العتمة، بل إنهما تضيئان كعيني الوشق، واحدة عن يسار قضيب الزنزانة وواحدة عن يمينه. شعر لويد بالذعر إلى جانب شيء آخر: نشوة دينية؛ سرور لكونه المختار، وهو الشعور الذي طغى في النهاية.

- تريد أن تسوّي حسابك مع مَنْ تركوك هنا، أليس كذلك؟

- طبعاً، بالتأكيد.

نسي لويد خوفه للحظات، ابتلعه غضبه وجوعه.

(1) يقصد بطرس الرسول، حوارى النبي عيسى عليه السلام، ومن المقربين إليه.
(المتجمة)

- ليس فقط مَنْ تركوك، بل كل مَنْ قد يفعل شيئاً كهذا. هذا تصنيف مستقل، أليس كذلك؟ أنت بالنسبة إلى أشخاص بعينهم مجرد زُبالة، لأنهم على القمة، يرون أن شخصاً مثلك لا حق له في الحياة.
- هذا صحيح.

تحوّل جوعه المألوف إلى نوع آخر من الجوع، بالضبط كما تحوّل الحجر الأسود إلى مفتاح. لقد عبّر هذا الرجل عن كل شعوره المعقد في بضع عبارات. إنه لا يريد أن ينتقم من حارس البوابة لأنه لم يكن الأهم. لدى حارس البوابة المفتاح، لكنه ليس صانع المفتاح. أعطاه إياه أحد، افترض لويد أنه أمر السجن، لكن الأمر ليس صانع المفتاح أيضاً. يريد لويد أن يصل إلى الصانع الأصلي. ربما يكون منيعاً من المرض، وقتها سيكون بينهما حساب، وليكن حساباً خاصاً.

سأله فلاج بهدوء: «أتعرف ماذا يقول الإنجيل عمّن هم مثلهم؟ يقول: فمن يرفع نفسه يتّضع، ومن يضع نفسه يرتفع. وهل تعرف ماذا يقول عمّن هم مثلك يا لويد؟ يقول: طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض. ويقول: طوبى للفقراء بالروح، فإن لهم ملكوت السماوات».

أوماً لويد وبكى. للحظة بدا له أن هالة ضوء تأججت حول رأس فلاج، ضوء قد يعميه لو أطال النظر إليه. ثم خبا.. واختفى كأنه لم يكن، ولا بدّ أنه لم يكن فعلاً لأن لويد لم يفقد رؤيته الليلة.

قال فلاج: «أنت لست ألمعياً، لكنك الأول، وأشعر أنك ستكون شديد الإخلاص. أنا وأنت يا لويد، سنرحل بعيداً. هذا وقت الخيرين أمثالنا. كل شيء قد أُعدّ لنا. كل ما أحتاج هو كلمتك».

- ك... كلمتي؟

- سنظل معاً، أنا وأنت. بلا تشكيك ولا تخلّ. سيكون معنا آخرون قريباً، هم الآن يتجهون غرباً فعلاً، لكن الآن نحن وحدنا. سأعطيك المفتاح إن أعطيتني كلمتك؛ وعدك.

- أ... أعدك.

بدت الكلمة كأنها مُعلّقة في الهواء، تنبض بشكل غريب. أنصت إلى ذلك النبض برأس مائل، وكاد يرى الكلمة تضيء في الظلام، تتوهج كما يتوهج انعكاس أضواء الشفق القطبي على عين ميت.

ثم نسي كل شيء عنها إذ دار المفتاح في القفل، فسقط الأخير بين قدمي لويد، يتصاعد منه الدخان.

- أنت حُر يا لويد. اخرج...

غير مُصدق، لمس لويد القضبان. تردّد في ذلك كأنها ستحرقه. في الواقع بدت له ساخنة. عندما دفع الباب، تحرك إلى الخلف بسهولة ودون صوت. حدّق إلى مُنقذه، إلى عينيه المتقدتين. وُضع شيء في يده؛ المفتاح.

- هو لك يا لويد.

- لي؟

لفّ فلاج أصابع لويد حول المفتاح، وشعر لويد به يتحرك داخل كفه، يتحوّل. صرخ صرخة متحشجة، وفتح كفه، فوجد المفتاح قد اختفى، وحلّ محله الحجر الأسود ذو العلامة الحمراء. رفعه متعجباً، وأداره بين أصابعه. بدت العلامة الحمراء كمفتاح، ثم كجمجمة، ثم عادت لتبدو كنصف عين مغلقة. أجاب لويد على سؤاله وهو يقبض على الحجر بقوة: «إنه لي...».

سأله فلاج: «هل نتناول العشاء؟ لدينا طريق طويل نقطعه الليلة».

- العشاء... نعم.

قال فلاج في سعادة: «أمامنا كثير نفعله. سنتحرك سريعاً».

مشيا إلى الدرج معاً، وعبرا من أمام الموتى في زنازينهم. عندما تعثّر لويد بسبب ضعفه، أسند فلاج ذراعه وتركه يتوكأ عليه. استدار لويد لينظر إلى الوجه الباسم في امتنان، بل ما هو أكثر من ذلك. نظر لويد إلى فلاج في افتتاح.

الفصل الأربعون

رقد نك أندروز نائمًا على فراش الشريف بيكر، إلا أنه لم يكن هادئًا. تمدد عاريًا إلا من سرواله التحتي، وجسده يلمع بالعرق. آخر ما خطر على عقله قبل أن يتملك منه النوم ليلة أمس، أنه سيكون ميتًا بحلول الصباح، وأن الرجل الغامض الذي يسكن أحلامه المحمومة سيقتمح الحاجز الرقيق بين اليقظة والنوم وينال منه بشكل ما.

أمر عجيب. العين التي لكها راي بوث ألمته يومين، ثم في الثالث زال الألم الحاد الشبيه بكماشة تسحق عينه، وتحول إلى ألم خافت. عندما ينظر بتلك العين يرى غشاوة رمادية تبدو الأشياء كأنما تتحرك من خلفها، لكن لم تكن إصابة عينه ما يؤرقه، بل الرصاصة التي كشطت ساقه.

تحسن الجرح دون أن يطهره حتى، فقد كان ألم عينه أعظم من أن يعي الإصابة الأخرى. يبدأ الكشط من فخذة اليمنى وينتهي عند الركبة. تفحص مدهوشًا في اليوم التالي ثقب الرصاصة في سرواله، وفي اليوم نفسه كان الكشط محمّر الحواف، وكل عضلات ساقه تؤلمه.

قفز إلى مكتب الطبيب سومز، وجلب عبوة بيروكسيد الهيدروجين، وصبها على الجرح بطول عشر بوصات. ما فعله كان أشبه بغلق باب الحظيرة بعد سرقة الحصان. بحلول الليل نبضت ساقه كلها بألم حاد كألم سن مسوسة، ومن تحت الجلد استطاع أن يرى ما يقال عن دلائل تسمم الدم.

في يوم الأول من يوليو، عاد إلى مكتب سومز، وبحث في حزانته عن بنسلين. وجد بعض الأقراص، وابتلع اثنين بعد تردد. كان يعرف أنه قد يموت لو تحسس جسده من العقار، لكن البديل ميتة أبشع. لم يقتله البنسلين، لكنه لم يحسن حالته.

أصيب ظهر أمس بحمى، وهلوس مدّة طويلة. كان معه طعام لكنه لم يأكل، كل ما رغب فيه هو شرب الماء كوبًا تلو الآخر من مبرد الماء في مكتب بيكر. نفذ الماء قبل نومه مباشرة (أو فقدانه الوعي) ليلة أمس، ولم يعرف نك من أين سيحصل على المزيد. قد يموت قريبًا، ولن يُضطر إلى القلق حيال شيء. لم يكن مُهوّسًا بفكرة الموت، لكنّ فكرة التخلص من الألم والقلق كانت مريحة.

لم يبدُ نومه نومًا في الليالي التي تلت قتله راي بوث. أمست أحلامه طوفانًا، رأى خلاله كل من عرفه في حياته. رودي سباركمان يشير إليه بالورقة البيضاء ويخبره أنه مثل تلك الورقة الخالية. أمه ترسم خطوطًا ودوائر شكّلت ما ملأ ورقته البيضاء. تقول له: هذه الكلمات هي اسمك يا حبيبي. نك أندروز. هذا أنت. جين بيكر تدير رأسها فوق الوسادة وتقول: چوني، چوني المسكين. في أحلامه رأى الطبيب سوزم يطلب من چون بيكر مرارًا أن يخلع قميصه.

على عكس كل الأحلام التي حلم بها في حياته، لم يُضطر نك إلى قراءة الشفاه ليفهم ما يُقال، بل كان يسمع الكلام بصوت الشخصيات. الأحلام حيّة إلى حد مرعب، ثم خبّت وألم ساقه يوقظه، لتعود مشاهد أخرى إلى الشاشة وهو يغوص في النوم مجددًا.

رأى في حلمين أشخاصًا لا يعرفهم، وقد تذكر محتوى الحلمين جيدًا بعدما استيقظ. كان في مكان مرتفع، والعالم يمتد من أسفله كخريطة بارزة. العالم صحراء متسعة، والنجوم في السماء فوقه واضحة تثير الجنون. إلى جواره رجل.. لا، ليس رجلًا، بل هيئة رجل، وكأنه قصّ من نسيج الواقع، وكأنه صورة سلبية؛ تُقبّ أسود على شكل رجل. همس له: كل ما تراه سيكون لك، لو ركعت وعبدتني. هزّ نك رأسه، أراد أن يبتعد عن الحافة خشية أن يمدّ الظل ذراعيه ويدفعه.

لماذا لا تتكلم؟ لماذا تهزّ رأسك فقط؟

في الحلم، أشار نك بإصبعه إلى فمه، ثم فرد كفه على أذنه كما يفعل في عالم اليقظة دائمًا.. ثم سمع نفسه يقول بصوت جميل واضح: «لا أستطيع أن أتكلّم. أنا أبكم».

لكنك تستطيع. لو أردت، ستستطيع...

مَد نِكَ ذِراعِه ليلمس الهيئَة السوِداء، وقد مَحَتْ موجَة دِهشَة وفرح كل مخاوِفِه. كَتَفَ هِذا الشِئ باردة كالتلج، بارِدة حتّى شِعر كأنها تحرقه. أَجفَلَ وتراجَع، وبلورات التلج تتكون على مفاصل أصابعه. تَفاجَأُ أَنه يَستطيع سماع صوت الهيئَة الحالكة، صوت صيحة طائر ليلي صيَّاد، صوت عواء الريح اللانهاي. أَخرستُه الدِهشَة مرَة أُخرى. للعالم بُعْد آخر لم يجرِبُه قَطُّ، والآن جَرَّبِه. إِنَّه يَسمع الأصوات، وَيَعرِف ما هِى دون أَن يَخبِرُه أَحد. الأصوات باهرة، جميلة. مَرَّرَ كَفِه على صدر قميصه، واستمتع بصوت همس أصابعه على القطن.

ثم استدار الرجل الغامض نحوه، فارتعب نِكَ. هِذا المخلوق أَيَّا كان، لا يَقْدِم معجَرات مجانية.

... لو رَكَعت وعبَدتني.

غَطى نِكَ وَجِهَه بكفِيه، لأنَّه يَريد كل شِئ عَرضه أمامه هِذا الشِئ؛ المَدَن، النِساء، الكَنوز / السُلطة. لَكِنَّ أَكثَر ما رَغِبَ فِيه هُو أَن يَسمع صوت تمرير أصابعه على قميصه، وتكَات الساعة في منزل خالٍ بَعد منتصف الليل، وصوت المطر السري.

لكن الكلمة التي نطقها كانت: لا. فغشته البرودة ودُفِع، فهوى إلى العمق الغائم، يصرخ بلا صوت، تزكمه رائحة الـ...

... الذرة؟

نعم، الذرة. هِذا هُو الحِلم الثاني، وهُو يندمج بهذه الطَريقة في الأول بحيث لا تَستطيع التفرقة بينهما. وَجَد نَفسَه وسط أعواد الذرة الخُضراء، محاطاً بِرائحة أرض الصيف المحروثة، وروث البقر. قام واقفاً، ومشى بحذاء الصيف الذي وَجَدَه نَفسَه إلى جوارِه. للحظات أدرك أَنه يَسمع صوت صَفير الريح يمر من بين أعواد الذرة الخُضراء، وأوراقها الشبيهة بالنُّصال.. وصوت شِئ آخر.

موسيقى؟

نعم.. نوع من الموسيقى. قال لنفسه في الحِلم: «إذن هِذا هُو ما يَعبِيه صوت الموسيقى». أَتاه الصوتُ من أمامه، فمشى نحوه، يَريد أَن يَرى مصدرَ هِذا الصوت الجميل. أهو بيانو، أم بوق، أم تشيلُو، أم مانا؟

رائحة الصيف الحار في أنفه، والسماء العالية الزرقاء تعلوه، والأصوات المبهجة. لم يكن نك أسعد في حياته مما هو الآن في حلمه. بينما يقترب من مصدر الموسيقى، سمع صوتاً مصاحباً للعزف، صوتاً عتيقاً كالجلد الداكن، يقلّب الكلمات كأنها حَساء يُعاد تسخينه ولا يفقد نكهته الأصلية. مشى نك منوّماً نحو الصوت.

«آتي إلى الحديقة وحدي،
والندى معَلّق بعد بالأزهار.
والصوت الذي أسمع، يتسلل في أذنيّ.
ابن.. الرب.. يتبدى للعيان،
ويمشي معي، ويمشي معي.
يخبرني أنني منه.
والفرح الذي نتشاركه، ونحن نتلّكَّ هناك،
لم يعرفه.. قَطُّ.. أحد سوانا».

انتهى المقطع، وفرّق نك بين أعواد الذرة في الصف أمامه، ليرى كوخاً أقرب إلى العشة، عن يساره صفيحة زُبالة صدئة، وأرجوحة مصنوعة بإطار سيارة قديم على اليسار، معلقة إلى شجرة تفاح كثيرة العُقد، لكنها حيّة خضراء.

شرفة المنزل الخارجية مجرد شيء خشبي قديم، مرفوع بروافع تغيير إطارات مغطاة بالزيت المتصلّب. نوافذ الكوخ مفتوحة، يدفع نسيم الصيف الطيب ستائرهما البيضاء فتخرج وتدخل منها. تخرج من السطح مدخنة صفيحية منبعجة ملوثة بالسناج، مائلة بزاوية عجيبة.

الكوخ وسط حقول الذرة الممتدة في الاتجاهات الأربعة على مد البصر، لا يقطعها إلا الطريق الترابي شمالاً عند التقاء الحقل والأفق. سرعان ما عرف نك أنه في مقاطعة بولك، في نبراسكا، غرب أوماها، وشمالى أوسيو لا.

تجلس في الشرفة الخارجية أكثر امرأة مسنة في أمريكا. امرأة سوداء بشعر أبيض مهوَّش. نحيلة، ترتدي فستاناً منزلياً ونظارة طبية. بدت نحيلة

حتى إن في وسع هواء ما بعد الظهيرة أن ينتزعها من مجلسها، فتطير إلى السماوات الزرقاء العالية، ورُبما تُحمل إلى كلورادو.

الآلة التي تعزف عليها (ربما وزن الآلة هو ما يثبتها إلى المقعد) جيتار. فكر نك: هذا هو صوت الجيتار إذن. جميل. شعر أن في إمكانه أن يظل هنا طوال اليوم، ينصت لعزف هذه الهَرمة في الشرفة المضضعة المرفوعة بالروافع القديمة المتبسة، وسط حقول ذرة نبراسكا. وجه المرأة محفور بملايين التجاعيد، وكأنه خريطة ولاية لم تُسجّل الجغرافيا وجودها. الأنهار والأودية على خديها البُنين، سلاسل التلات أسفل ذقنها، تجاعيد جبهتها كثبان جليدية، عيناها كهفان.

أكملت غنائها مرةً أخرى المصحوبَ بعزف الجيتار.

«يا يسوع، ألن تأتي هنا؟
أوه، يا يسوع، لن تأتي إلى هنا؟
لأن الآن.. وقت الحاجة.
أوه، الآن.. هو وقت الحاجة..
الآن...».

«يا ولدي، مَن ثَبَّتَكَ إلى هذا الموضع؟»
وضعتُ جيتارها على جِبرها كطفل، وأشارت إلى نك أن يقترب، فاقترَب، وقال لها إنه يريد الاستماع إلى المزيد من غنائها الجميل.
«حسنًا، الغناء مِن جَهالة الكِرَازة⁽¹⁾، وأنا أغني أغلب اليوم.. كيف تتصرف مع الرجل الأسود؟».

«إنه يرعبني. أنا خائف...».

«يا ولدي، يجب أن تخاف. لو أنك رأيت شجرة عادية وقت الغروب من زاوية معينة، قد تخاف. نحن جميعًا فانون، الحمد لله».

(1) تشير الشخصية إلى رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس (أين الحكيم؟ أين الكاتب؟ أين مُباحث هذا الدهر؟ ألم يُجهَل الله حكمةً هذا العالم؟ لأنه إذ كان العالم في حكمة الله لم يعرف الله بالحكمة، استحسَن الله أن يُخلص المؤمنين بجهالة الكِرَازة). (الترجمة)

«لكن كيف أرفض طلبه؟ كيف...».

«كيف تتنفس؟ كيف تحلم؟ لا يعرف أحد. لكنّ تعالَ وزُرني في أي وقت. يدعونني الأم أباجيل. أنا أكبر امرأة عمراً في هذه الأنحاء على ما أعتقد، وما زلت أخبز كعكي. تعالَ وزُرني في أي وقت يا ولدي، وهات أصدقاءك».

«لكن كيف أخرج من هذه المحنة؟».

«باركك الرب يا ولدي، لا يخرج أحد من المحنة أبداً. فقط عليك أن تأمل الأفضل، وتعالَ وزُرِ الأم أباجيل في أي وقت تريد. سأكون هنا؛ أنا لم أعد قادرة على الحركة. لذا، تعالَ وزُرني، سأكون هنا...».

استيقظ رويداً رويداً حتى اختفت نبراسكا ورائحة الذرة ووجه الأم أباجيل الداكن. لم يحلّ الواقع محلّ الحلم، بل جثم فوقه حتى اختفى عن النظر. إنه في شويو، أركانساس. اسمه نك أندروز، ولم يتكلم قط، ولا يعرف صوت الجيتار.. لكنه ما زال حياً.

جلس في فراشه، ثم أنزل ساقيه ونظر إلى الجرح. قل التورم شيئاً، وتحول الألم إلى نبضات ضعيفة. فكَر: أنا أشفى. أعتقد أنني سأكون بخير.

نزل من الفراش وعرج حتى النافذة. ساقه مصلبة، لكنه نوع التصلب الذي تعرف أنه سيزول ببعض التمارين. نظر إلى البلدة الصامتة. لم تعدْ شويو، بل جثتها، فعرف أن عليه المغادرة اليوم. لن يتمكن من الابتعاد كثيراً، لكنه سيبدأ.

إلى أين؟ هو يؤمن أنه يعرف وجهته. ما الأحلام إلا أحلام، لكنه افترض أن الاتجاه إلى الشمال الغربي بداية معقولة، إلى نبراسكا.

ركب نك الدراجة خارجاً من البلدة في الواحدة والربع ظهر يوم الثالث من يوليو. جمع بعض الأمتعة في حقيبة قماشية، مع المزيد من أقراص البنسلين في حال احتاج إليها، وبعض الطعام المُعلَّب، أغلبها حَساء طماطم كامبل، ومكرونة رافيولي. وضع أيضاً عدة علب طلاقات وقربة ماء.

مشى خلال الشوارع يبحث في المرائب عن بغيته، حتى وجدها؛ دراجة ذات عشر سرعات تناسب حجمه. بدّل في حذر إلى الشارع الرئيسي على

سرعة منخفضة، يتبعه ظله راكبًا دراجته السوداء الخاصة. مرّ من أمام
المنازل الهائلة التي تقف في الظل، ستائرهما مسدلة إلى الأبد.
خيّم تلك الليلة في بيت مزرعة على بُعد عشرة أميال من شويو. بحلول ليل
يوم الرابع من يوليو، كان قد وصل إلى قرب أو كلاهوما. قبل أن يخلد إلى النوم
في تلك الليلة، توقف عند مزرعة أخيرة نظر إلى السماء يراقب الشهب تחדش
الليل بنيرانها البيضاء الباردة. فكر في أنه لم يرَ شيئًا بهذا الجمال من قبل.
أيًا كان ما ينتظره لاحقًا، فهو ممتن لكونه حيًا.

الفصل الحادي والأربعين

استيقظ لاري في الثامنة والنصف على زقزقة العصافير ونور الشمس، فأجفل. في كل صباح بعد مغادرتهما نيويورك، يجفل للأمرين، وكإضافة جديدة، زاد عليهما رائحة الهواء النظيف، مكافأة إضافية. لاحظت ريتا هذا التغيير. فكر في أن هذا آخر ما قد يصل إليه الوضع من تحسن، لكنه استمر في التحسن حتى تعجّب مما كان يفعله البشر بالكوكب، وتسائل أكانت هذه هي رائحة الهواء في الريف وفوق جبال روكيز.

نائماً في نصفه المحدد من كيس النوم الثنائي، داخل الخيمة التي أضافها إلى أمتعة رحلتها في صباح يوم الثاني من يوليو، تذكر لاري عندما حاول أحد زملاء فرقته إقناعه بالذهاب إلى رحلة تخييم معه ثلاثة رجال آخرين. كانوا متجهين إلى فيجاس تلك الليلة، وانتبوا التخييم قرب الجبال في كلورادو خمسة أيام. قال له لاري: «هل ستتركون كل أماكن التخييم في جبال روكيز، وتذهبون إلى هذا المكان العفن؟ ستعودون بقرصات البعوض وربما طفح جلدي على مؤخراتكم جراء التغوط وسط اللبلاب السام في الغابة. والآن إن قررتم التخييم في كثنان فيجاس، فاتصلوا بي».

لكنّها هي هي يُخيّم وحده، بلا إزعاج (إلا إزعاج ريتا طبعاً) يتنفس الهواء النقي وينام بالليل دون أرق أو قلق، ينام على الفور كأنه ضُربَ على رأسه بمطرقة. لا تواجهه مشكلات إلا تحديد وجهة اليوم التالي، وتحديد الوقت الذي تتطلبه تلك الرحلة. الحياة رائعة.

كان ذلك الصباح في بيننجتون، فيرمونت، يتجه شرقاً خلال طريق 9 السريع. اليوم مختلف. اليوم هو الرابع من يوليو؛ يوم الاستقلال.

جلس ناظرًا إلى ريتا، لكنها كانت نائمة، لا يظهر إلا حدود جسدها تحت نسيج كيس النوم، وشعرها المهوَّش. سيوقظها اليوم بطريقة خاصة. خرج لاري بنصفه من الكيس عاريًا، فاقشعرَّ جسده رغم حرارة الجو المعتدلة. سيكون اليوم رائعًا. زحف خارجًا من الخيمة.

إلى جوار الخيمة تقف دراجة بخارية هارلي ديفيدسون، سوداء اللون مع أجزاء فضية. كانا قد حصلا عليها يوم جلبا كيس النوم والخيمة، وركباها ليعبرا من خلال الطرق المغلقة بالسيارات. الدراجة البخارية هي الحل الأفضل للفرار من التكدر والحوادث، والمرور خلال الأزقة والحارات الخلفية وفوق الأرصفة أيضًا. لم يرقَ لريتا ركوبها الدراجة خلف لاري، فكانت تتشبث به في زعر، لكنها اتفقت معه على أنها الحل الأفضل.

حالما خرجا من زحام المدينة، قطعنا مسافة طويلة في وقت قليل، بحلول ليلة الثاني من يوليو كانا قد قطعنا عرضَ ولاية نيويورك وخيما في ريف كواريفيل، وجبال كاتسكيل الغامضة تلوح لهم في الأفق الغربي. في ظهيرة يوم الثالث، اتجها شرقًا فدخلتا فيرمونت عند الغروب، وها هما الآن في بيننجتون.

خيما فوق مرتفع خارج البلدة، ولاري الآن يقف عاريًا يبول جوار الدراجة. لو نظر إلى أسفل لرأى نيو إنجلاند كأنها بطاقة دعائية، تبين كنيستين بيضاوين، يشمخ برجاهما فيخزان سماء الصباح الزرقاء، ومدرسة خاصة، ومجمع سكني يغطيه اللبلاب، وطاحونة، والكثير من الأشجار في رداء الصيف الأخضر. الشيء الغريب في الصورة عدم وجود دخان يخرج من الطاحونة، وعدد السيارات الواقفة في زوايا عجيبة خلال الشارع الرئيسي والطريق السريع. في الهدوء المشمس (هدوء إلا من صوت زقزقة العصافير) ربما يردد لاري عبارة إيرما فايث لو كان يعرفها: ليس خسارة كبيرة.

لكنَّ اليوم هو الرابع من يوليو، ولا يزال بعد أمريكيًا. تنحنح، ثم بصق، وراح يهتمهم ليضبط أوتار صوته. أخذ شهيقًا عميقًا وهو يستمتع بالنسيم على صدره العاري وردفيه، ثم غنى:

«هل ترى تحت أول ضوء للفجر الوليد..»

ما نمجده بفخر عند آخر إشراقات الشفق...»⁽¹⁾

(1) النشيد الوطني الأمريكي (المترجمة)

غنىً حتى النهاية وهو يواجه برينجتون، وختم بمحاكاة ساخرة عند النهاية، لأنه رجَّح أن ريتا ستكون واقفة خلفه عند مدخل الخيمة تبتسم له. حياً المبنى الذي ظنَّه مبنى محكمة بينجتون تحية عسكرية، واستدار مفكراً في الطريقة المُثلى التي سيبدأ بها عامًا آخر من الاستقلال في الولايات الطبية العجوز المتحدة، مع ذهاب كل الأمريكيان الطبيين إلى داهية. «لاري أندروُد، الصبي الوطني، يتمنى لك....».

إلا أن غطاء مدخل الخيمة كان مغلقاً، فشعر بضيق لحظي منها؛ لا يمكن أن تظلَّ معه على الموجة نفسها طوال الوقت، هذا كل شيء. عندما تدرك هذا وتستطيع أن تتعامل معه، فأنت في طريقك إلى علاقة صحيّة. عكف على محاولة إصلاح ما بينهما منذ ما حدث في النفق، ويرى أنه يُحقِّق تحسناً ملحوظاً.

قال لنفسه: يجب أن تضع نفسك مكانها. يجب أن تعي إلى أنها أكبر منك بكثير، وأمضت حياتها تدير الأمور بطريقة معينة، وطبيعي أن تجد صعوبة في التكيف مع عالم انقلب رأساً على عقب. لم يُدهش عندما اكتشف أنها جلبت معها كل عقاقيرها، صيدلية كاملة داخل برطمان مربى؛ السترات الصفراء⁽¹⁾، كوالود⁽²⁾، دارفون⁽³⁾، وأقراص أخرى تسميها: مُنقذاتي الصغيرات. والمنقذات الصغيرات حمراء اللون، لو ابتلعت ثلاثة منها مع كأس تيكلا، سترتعش وتترجرج طوال اليوم. لم يرق له هذا، لأن قرداً متراقصاً فوق كتفك سيكون حملاً ثقيلاً، خاصة والقرد في حجم كينج كونج. لو نفذت إلى صُلب الأمر، لعرفت أن ضيقه من كل تلك الأدوية يمثل لطمة معنوية على وجهه. لماذا قد تحتاج إلى كل هذه المهدئات وهي معه؟ لماذا تجد صعوبة في النوم؟ ألم يمضِ وقته في حراستها وحمايتها؟

همَّ بالعودة إلى الخيمة، لكنه تردد هنيهة. ربما الأفضل أن يدعها تنام. ربما تكون مرهقة.

(1) عقار بينوبريتال - مهدئ. سُمِّيَ بالسترات الصفراء لأن كبسولاته كانت صفراء في وقت انتشاره (الترجمة)

(2) ميتاكوالون - مهدئ (الترجمة)

(3) مسكن (الترجمة)

نظر إلى أسفل، إلى صاري العلم المنتصب العمودي على جسده، والذي لا يريد أن يتركها تنام. الغناء للعالم المبّع بالنجوم أثاره. لذا أبعد لاري غطاء مدخل الخيمة وزحف داخلًا.

- ريتا؟

أدرك الرائحة فجأة بعدما نظّف أنفه بالهواء النقي بالخارج. لم تكن الرائحة قوية، فالخيمة ذات تهوية جيدة، لكنها موجودة. رائحة قيء ومرض.

- ريتا؟!

تزايد قلقه بسبب سكون جسدها الذي لا يظهر منه سوى شعرها خارج كيس النوم. زحف إليها على ركبتيه وكفيه، فازدادت رائحة القيء، وأثارت غثيانه.

- ريتا، هل أنت بخير؟ استيقظي يا ريتا!

لم تتحرك. لذا قلبها على ظهرها، فوجد كيس النوم نصف مفتوح، كأنها حاولت أن تخرج منه ليلاً وقد أدركت ما يحدث لها. حاولت وأخفقت فيما هو نائم في سلام إلى جوارها. سقطت من قبضتها علبة دواء، ورأى عينيها غائمتين خلف جفניה نصف المغلقين، وفمها مليئاً بالقيء المخضر الذي خنقها.

حدق إلى وجهها الميت وقتاً طويلاً. وجهاهما متقاربان حتى كاد أنفاهما يتلامسان. ارتفعت حرارة الخيمة فبدت كقبو في ظهيرة من شهر أغسطس. شعر أن رأسه يتورّم وهو عاجز عن إبعاد عينيّه عما في فمها، ودار سؤال في رأسه كلعبة قطار على قضيب دائري: كم نمتُ وهي ميتة إلى جوارِي؟ يا لك من مقيت.. م-ق-ي-ت...

أخيراً استطاع أن يتحرك فزحف خارجاً من الخيمة، خادشاً ركبتيه العاريتين على الأرض الصلبة. ظنّ أنه سيقىء، فحاول أن يتمالك نفسه، فهو يكره القيء أكثر من أي شيء. ففكر: لكنني كنت عائدًا لأضاجعها! فعاد إليه الذعر، فزحف سريعاً مبتعداً عن الفوضى خلفه، وهو يبكي كارهاً طعم القيء في حلقه وأنفه.

فكر فيها أغلب الصباح. شعر بنوع من الراحة كونها ماتت. راحة كُبرى في الحقيقة. لن يخبرَ أي شخص بهذا. لقد أكّد شعوره كل شيء قالتة أمه

عنه، وقاله وَيَن ستوكي، وحتى ساكنة تلك الشقة قرب جامعة فوردام. لاري أندروُد؛ بذِيء فوردام.

هتف: «لستَ رجلًا لطيفًا»، فشعر بتحسّن. لقد صار قول الحقيقة أسهل، وقول الحقيقة هو الأهم على الإطلاق. لقد عقد اتفاقًا مع نفسه في الحجرة الخلفية من عقله أنه سيعتني بها. ربما لم يكنْ لطيفًا، لكنه ليس قاتلًا، وما فعله في النفق أقرب ما يكون إلى محاولة القتل. لذا كان سيعتني بها، ولن يصرخ فيها مهما حدث، ومهما عطّلته، ومهما تحامّقت. في الليلة السابقة، وضعتُ علبة بازلاء فوق النار التي أشعلها لتسخينها، ولم تفتحْ فتحةً للتهوية فيها، انتشلها شبه محترقة قبل أن تنفجر فيهما كقنبلة، وربما تعميها بشظاياها المتناثرة. لكنْ هل وبخها؟ لا؟ أطلق مزحة عن الأمر ثم تجاوزه. هكذا الأمر مع الأقراص، فقد افترض أنها مسؤولة عنها وتعرف ما تفعله بها. ربما كان عليك أن تناقش الأمر معها. ربما رغبتُ هي في أن تناقشها.

صاح مرة أخرى: «هذه ليست حلقات علاج نفسي!»، المسألة مسألة حرب للبقاء حيًّا. ربما عرفتُ هذا منذ يوم متنزه سنترال بارك عندما أطلقتُ رصاصة من مسدسها التافه وكادت تفجر يدها. ربما...

زَعَق في غضب: «ربما سحَقًا!». رفع زمزمية الماء إلى شفّتيه فلم يجدْ فيها ماءً. ما زال يشعر بالطعم المقرّز في حلقه. ربما في أنحاء البلاد مثُلها، لقد ترك الوباء ناجين، لكنْ مَنْ قال إن كل الناجين لن يموتوا لأسباب أخرى؟ جلس لاري على أرضية استراحة الطريق التي تطلُّ على المنظر الخلاب، منظر فيرمونت الملاصقة لنيويورك في ضوء الشمس الذهبي. رأى لافتةً تشير إلى نقطة اثني عشر ميلًا. ظن لاري أنه يرى ما هو أبعد من اثني عشر ميلًا فقط. في يوم أكثر نقاءً ربما ليرى أبعد. عند نهاية استراحة الطريق سور حجري بارتفاع الرُّكبة، وبعض زجاجات بير بدوايزر مُهشّمة. افترض أن أحدَ طلبة المدرسة العليا كانوا يتسللون إلى هنا عند الغروب ليشاهد أنوار المدينة تُضاء. في البداية يثملون، ثم يتضاجعون.

إنّ لماذا يشعر بهذا الشعور السيئ؟ إنه يقول الحقيقة، أليس كذلك؟ والأسوأ من الحقيقة أنه استراح، أليس كذلك؟ استراح من الحجر المربوط إلى عنقه.

لا، الأسوأ هو أنني صرْتُ وحيدًا. الأسوأ هو الوَحْدَة.

عبارة مبتذلة، لكن حقيقة. إنه يحتاج إلى مَنْ يشاركه رؤية هذا المنظر الساحر. شخص يلتفت إليه ليقول إنه قد يرى أبعد لو أن الجو أكثر صفاءً. رفيقه الوحيد في الخيمة على بعد ميل ونصف، فمه مليء بالقيء الأخضر، يتصلَّب جسده ويجذب الذباب.

وضع لاري رأسه بين رُكبتيه وأغمض عينيه. قال لنفسه إنه لن يبكي. لطالما كره البكاء كما كره القيء.

في النهاية جَبُنَ، ولم يستطع أن يدفنها. استحضر أسوأ أفكاره من ديدان وخنافس، والمراميط حفارة الخشب التي ستشم رائحتها وستأتي لتتذوقها، والإساءة في ترك إنسان لإنسان آخر ملقى في أي مكان كغلاف قطعة حلوى أو عبوة بيبسي فارغة. لكن لقول الحقيقة، في دفنها شيء غير قانوني وغير محدد (إنه يقول الحقيقة الآن، أليس كذلك؟) وهذا تسويق رخيص. يمكنه أن يواجه اقتحامَ متجر المُعدَّات العظيم، وسرقة المجرفة العظيمة وما يناسبها من معاول عظيمة، ويمكنه مواجهة العودة إلى هذا المكان الجميل وحفر القبر العظيم جوار لافتة الأميال الاثني عشر العظيمة. لكنه عاجز تمامًا عن العودة إلى الخيمة (والتي صارت رائحتها الآن كرائحة الحمام العمومي في سنترال بارك، حيث سيمكث البراز العظيم إلى ما لا نهاية) وفتح كيس النوم وإخراج جسدها المتصلب منه، ثم جرَّها إلى الحفرة من تحت إبطيها وإلقائها فيها، وأخيرًا إهالة التراب عليها ومراقبته يغطي ساقبيها الأبيضين بعروقهما النافرة، ويلتصق بشعرها....

أعتقد أنني لن أفعل هذا. لو أنهم سينعتونني بالجبان، فلا بأس.

عاد إلى الخيمة وفتح غطاء مدخلها. وجد عصا طويلة، فاستجمع شجاعته واصطاد بها ملابسها من الداخل وارتماها، ثم استجمع شجاعته مرة أخرى واستخدم العصا في سحب حذائه، ثم جلس على جذع شجرة ساقط وانتعله. الرائحة عالقة بملابسه. غمغم: «سُحْقًا».

يستطيع أن يراها من مجلسه، نصفها داخل الكيس ونصفها خارجه، يدها قابضة على علبة الدواء التي لم تعد هناك. عيناها نصف المغمضتين تحدقان إليه مُتَهَمَتَيْن. دفعه هذا إلى التفكير في النفق مرة أخرى، ورؤاه عن الموتى الأحياء، فاستخدم العصا للمرة الأخيرة في غلق غطاء المدخل.

لكنه يشم رائحتها في ملابسه بعد.

لذا قرّر أن تكون وجهته التالية بيرينجتون، وهناك اقتحم متجر ملابس رجال وحصل على ثلاثة أطقم ملابس جديدة وأربعة أزواج جوارب وملابس داخلية، بل إنه وجد أيضًا حذاءً جديدًا. نظر إلى نفسه في المرآة الثلاثية ورأى المتجرّ الخالي خلفه، والدراجة البخارية مائلة على الرصيف.

غمغم: «يا لها من أناقة...». لكن لم يكن من أحد سواه ليُعجّب بذوقه.

غادر المتجرّ وبثّ الحياة في الدراجة الهارلي. فكر في أن يتوقف عن متجر المُعدّات ليرى أكان يستطيع العثور على خيمة أخرى وكيس نوم، لكنّ كل ما يريد الآن هو الخروج من بيرينجتون، وربما يتوقف في مكان آخر على الطريق.

نظر إلى الطريق الممتد الصاعد، وقاد الهارلي خارجًا من البلدة. رأى لافتة الأميال الاثني عشر، لكنه لم يرَ الخيمة المهجورة. هذا أفضل، بل...

نظر لاري إلى الطريق مرة أخرى فقفز الذعر ليسدّ حلقه. أمامه سيارة بيك أب تجر عربة نقل خيول مقلوبة على جانبها ويبدو أنها كانت تحاول تفادي سيارة فانقلابت العربة وقلبتّها. كان سيعبر من خلال تلك الفوضى لأنه لم يكن ينظر أمامه. انعطف يمينًا بقوة، واحتكّ حذاه الجديد بالأسفلت وكاد يتفادى الحادث، لولا علق مسند القدم اليسرى بمصد الصدمات الخاص بالسيارة، فانسحبت الدراجة من تحته. سقط لاري عند حافة الطريق فارتجّت عظامه في جسده، وزحفت الهارلي خلفه ثم توقفت.

سأل بصوت عالٍ: «هل أنت بخير؟». شكرًا للرب كون سرعته لم تتجاوز العشرين ميلًا. وشكرًا للرب كون ريتا ليست معه، وإلا لضربتها نوبة هستيريا. لو كانت ريتا معه ما كان لينظر إلى أعلى حيث الخيمة ولانتبه إلى الطريق.

أجاب نفسه: «أنا بخير»، لكنه لم يكن واثقًا من أنه كذلك. جلس وأحاطه الصمت الذي لو فكّر فيه لجُن، حتى إنه افتقد ثرثرة ريتا. بدا له كل شيء يومض، وللحظة ظنّ أنه سيفقد الوعي. فكر: «أنا فعلاً مصاب، وسأكتشف هذا قريبًا عندما تزول الصدمة، وسأعرف أنني مصاب بجرح بالغ. من قد يضمّده ليمنع النزف؟».

بعد مرور لحظات الدوار، فحص نفسه وافترض أنه بخير كما هو ظاهر. جرح كفيه ومزق ركبة سرواله الجديد اليمنى، وكشط الركبة نفسها، لكنّ كل

إصاباته لا تتعدى السحجات البسيطة. الكل يسقط من فوق دراجته من وقت إلى آخر، إلا أن الأمر الخطر حقًا هو احتمالية أن يضرب رأسه بالأرض ويكسر جمجمته، فيرقد في الشمس ميتًا، أو يختنق بقيئه مثلما اختنق صديق بعينه. مشى مرتعشًا نحو الهارلي وأقامها. لا يبدو أنها تأذت لكنها بدت مختلفة. قبل الحادث كانت مجرد آلة أنيقة فخمة، تؤدي دورها في نقله، وفي جعله يشعر كأنه چيمس دين، أو چاك نيكولسون في فيلم «ملائكة الجحيم الدراجين»، لكنها الآن تبدو كأنها تبتسم له في خبث، تتحداه أن يركب الوحش ذا العجلتين.

دار مُحركها مع المحاولة الثالثة، وخرج بها من بيرينجتون بسرعة الماشي، ولم يكن يشعر بشيء إلا برغبة مُلحة في رؤية أي وجه بشري، وهي رغبة لم يشعر بها من قبل قط. لكنه لم يقابل أحدًا في ذاك اليوم.

أسرع قليلًا بعد الظهيرة، لكنه لم يستطع أن يُقنع نفسه بأن يجاوز سرعة العشرين ميل في الساعة حتى والطريق خال أمامه. توقف عند متجر دراجات وأدوات رياضية في أحد ضواحي ويلمينجتون، فجلب كيس نوم وقفازين ثقيلين وخوذة، بيد أنه لم يجزؤ على زيادة سرعته حتى مع ارتدائه خوذة، فقد ظلت تراوده فكرة الموت نزفًا على جانب الطريق دون أن ينبذه أحد. اقترب من براتلبورو في الخامسة مساءً، فأوقف الدراجة أخيرًا وأغلق مصباحها الأمامي وهو يشعر بخليط من الراحة والاشمئزاز. قال لنفسه: «كان في وسعك زيادة السرعة، إنها مصممة للسير بسرعة ستين ميلًا أيها الأحمق اللعين!».

ترك الدراجة وسار إلى البلدة، لا يعرف أكان سيعود إليها مرة أخرى. بات ليلته في مبنى البلدية، داخل المسرح نصف المسقوف. نام حالما أظلمت السماء، أيقظه لاحقًا صوت ما. نظر إلى عقربي ساعته المضيئين، فوجد الساعة الحادية عشرة وعشرين دقيقة. استند إلى مرفقه وحقن إلى الظلام، شاعرًا بضخامة سقف المسرح نصف المُقَبب فوقه، مُفتقدًا الخيمة الصغيرة التي تحتفظ بحرارة الجسد. يا لها من رحم قماش عظيم!

لو أن الصوت كان حقيقياً، فقد توقف الآن، حتى الجنادب صمتت. هل هذا معقول؟ نادى لاري: «هل من أحد هنا؟»، فارتدَّ إليه صوته وأرعبه. بحث عن مسدسه، وللحظات ثقيلة مخيفة لم يجده، وعندما عثر عليه ضغط الزناد دون تفكير، كما يتشبَّث الغارق في المحيط بطوق نجاة.

في هذا الصمت ما يُريب، وهو متأكد منذ ذلك. ربما إنسان، ربما حيوان أكبر وأخطر. طبعاً الإنسان يمثل خطراً أيضاً، إنسان كالذي طعن الرجل المسكين، أو مثل جون بيرزفورد تيبتون الذي عرض عليه مليون دولار نقداً مقابل استخدام امرأته.

«مَن هناك؟».

في حقبة لاري كشاف، لكنَّ البحث عنه يستلزم التخلي عن السلاح.. لكنه يحتاج إلى أن يرى من القادم.

لذا جلس ساكناً، يحاول تحديد أي حركة أو صوت أيقظه (هل كان صوتاً حقاً أم شيئاً حلم به؟) وبعد هنيهة مال رأسه على صدره ونام.

فجأة رفع رأسه واتسعت عيناه واقشعرَّ جلده. إنه يسمع صوتاً الآن. لو أن السماء صافية لأنار له القمر، ولأظهر له...

لكنه لا يريد أن يرى. بالتأكيد لا يرغب في أن يرى مصدر الصوت. على ذلك، جلس متصلباً، برأس مائل يُنصت لصوت خطوات تبتعد عنه، تمشي على رصيف الشارع الرئيسي في براتلبورو، فيرمونت، تتحرك إلى الغرب، يخفت صوته حتى يختفي تماماً في الصمت.

شعر لاري فجأة برغبة مُلحة في أن يقوم ويترك كيس النوم يتكوم حول كعبيه، ويصيح: «عُدْ أياً كنت! لا يهمني! عُدْ!»، لكن هل يريد حقاً تحرير شيك على بياض لمجهول؟ سيضخم سقف المسرح نصف المُقبيب صياحه.. رجاءه. ماذا لو عادت تلك الخطوات فعلاً، وتعالى صوتها في السكون الذي لا تُصرُّ فيه الجنادب حتى؟

بدلاً من أن يقوم، ظل راقداً، متكوراً في وضع جنيني، وكفاه تقبضان على سلاحه. قرر ألا ينام مرة أخرى الليلة، لكن في النهاية غفا بعد ثلاث دقائق، وفي الصباح التالي أقنع نفسه أنه حلم بكل هذا.

الفصل الثاني والأربعون

بينما يقضي لاري ليلة الرابع من يوليو على بعد ولاية منه، كان ستورات ريديمان جالسًا على صخرة كبيرة على جانب الطريق يأكل غداءه. أفرغ علبة بيرته في جُرعة واحدة، وطوى طرف غلاف بسكويت ريتز على ما تبقى منه. بندقيته إلى جواره، مستندة إلى الصخرة. التقطها فأعدها للإطلاق، ثم أسندها إلى مكان أقرب لمتناول يده. دراجات بخارية تقترب، من صوتها يعرف أنها صغيرة، سعة محركها 250 cc كثيرًا. يفصل بينها وبينه قرابة عشرة أميال. لديه متسع من الوقت ليأكل المزيد إن رغب في ذلك، لكنه لا يرغب. الشمس حارقة، وفكرة لقاء بشر آخرين فكرة سارة. لم يقابل أي أحياء منذ غادر منزل جلين بيتمان في وُدزفيل. نظر إلى البندقية مرة أخرى. لقد أعدها للإطلاق في حال اتضح له أن البشر الآخرين القادمين مثل إلدر، لكنه ترك البندقية مُستندة إلى الصخرة لأنه أمل أن يكونوا مثل بيتمان.. على ألا يكونوا مثله في كآبة استشرافه للمستقبل. قال بيتمان: المجتمعات ستعود، ولاحظ أنني لم أستخدم كلمة (ستُصلح). ليكون هذا تلاعبًا وحشيًا بالكلمات. الإصلاح نادر في تاريخ البشر.

بيد أن بيتمان لم يشأ أن ينضمَّ إلى حركة عودة المجتمعات في بداياتها. إنه مسرور هكذا بتمشيته مع كوجاك، ورسمه اللوحات، والتفكير في التدايعات المجتمعية لهلاك البشر شبه الكامل.

إن عدت أدراجك يا ستو وجدت عرض الانضمام إليك، سأوافق في الغالب. هذه لعنة الجنس البشري؛ الاجتماعية. هل أخبرك بما يقوله علم الاجتماع عن البشر. سأخبرك بالملخص. أرني رجلًا وامرأة كل واحد فيهما وحده، وسأريك فيهما قديسين. أعطني شخصين، وسيقعان في الحب. أعطني ثلاثة وسيخلقون الشيء السحري؛ المجتمع. أعطني أربعة وسيبنون هرمًا. أعطني

خمسة وسينبذون واحدًا منهم. أعطني ستة وسيعثون فكرة التحيز. أعطني سبعة وسيعيدون ابتكارَ الحرب. ربما خُلق الإنسان على صورة الرب، لكنْ خُلِقَتِ المجتمعات البشرية على صورة الشيطان.

هل هذا صحيح؟ إذن فليعينهم الرب. ما انفكَّ ستو يفكر في أصدقائه ومعارفه القدامى مؤخرًا. ذاكرته تأبى أن تعرض عليه مساوئهم وشروهم، فتتأسى عادة بل هابسكوم في حفر أنفه بإصبعه ومسح المخاط في نعل حذائه، وضرب نورم برويت لأبنائه، وطريقة بيلي فيريكر في التحكم في عدد القطط حول منزله من خلال تحطيم جماجم صغارها تحت كعب حذائه الثقيل.

كل الذكريات التي فرضت عليه نفسها جميلة؛ الصيد عند الفجر، والتدثر في السترات الثقيلة وصدریات الصيادين البرتقالية المشعة. لعب البوكر في بيت رالف هودجيز، وشكوى ويلي كرادوك الدائمة عن خداعه المتعمد في اللعب. إلهي، كم ضحكوا من نكات كريس أورتيجا. تذكر رحلة البحث عن فتيات ليل في هنتزفيل، وإصابة جو بوب برنتود بقمل العانة، وكيف زعم لكل من يقابله أنه أصيب به من أريكة قديمة، لا من فتاة ليل. كانت أوقاتًا لا تُنسى. ليست كذكريات الآخرين عن النوادي الليلية والمطاعم الفاخرة وزيارات المتاحف، لكنها ذكريات عظيمة. فُكر فيها مرارًا لأنه يتوق إلى أن يسمع صوتَ بشريٍّ آخر، إلى أن يعرفَ أحدًا ويشاركه ما قد يُقابله في طريقه. لم يكنْ ستو رجلًا محبًا للكلام، لكنه يكره الوحدة.

لذا انتصب ظهره باقترب الدراجات البخارية أخيرًا، ورأى أنهما دراجتان هوندا، يركب واحدةً منهما شاب في الثامنة عشرة تقريبًا، وتركب الأخرى فتاة أكبر منه. ترتدي الفتاة بلوزةً صفراء وسروالَ جينز بلون أزرق زاهٍ. رأياه جالسًا على الصخرة، فتمايلت الدراجتان إذ تفاجأ قائداهما. انفتح فم الفتى، ولم يكنْ واضحًا أكانا سيتوقفان أم سيكملان طريقهما مسرعين نحو الغرب. رفع ستو يده مُحْييًا بصوت عالٍ. قلبه يدق بسرعة وعنف. تمنى أن يتوقفا، وتوقفا فعلاً.

دُهِشَ لحظةً من تصلب جسديهما خاصةً الصبي، بدا كأن جالون أدرينالين قد صُب في عروقه. مع ستو بندقية طبعًا، لكنه لا يمسكها، وكانا مسلحين. مع الفتى مسدس، ومع الفتاة بندقية صيد معلقة على كتفها.

طمأنته الفتاة، لكنَّ الفتى التي دعتُه هارولد ظلَّ متصلبًا يرمق ستو بنظرة متفاجئة وغضب غير مفهوم. قالت: «أعتقد أنه...».

انفجر فيها هارولد دون أن يبعد عينيه عن ستو: «كيف تطمئنين إليه؟». قال ستو: «حسنًا.. أنا مسرور لرؤيتكما، لو أن هذا يشكل فارقًا». سأله هارولد متحديًا: «ماذا لو أنني لا أصدقك؟»، وأدرك ستو أنه مذعور، مذعور منه ومن مسؤوليته عن الفتاة.

نزل ستو عن الصخرة وقال: «لا أعرف إذن ما العمل».

تحركت يد هارولد ببطء إلى سلاحه. قالت الفتاة: «هارولد، اترك المسدس وشأنه». ثم صمتت، وللحظات بدوا كأنهم عاجزون عن استكمال الموقف. مجموعة من ثلاث نقاط، لو وُضِّلوا ببعضهم لشكَّلوا مثلثًا مُبهمَ الأبعاد بعد.

جلست فراني ببطء على رقعة مخضرة بالطحالب تحت شجرة إلى جوار الطريق، وقالت: «لم أتخلص قطُّ من جلد إلَيَّتي التي تصلبت يا هارولد». نخر هارولد نخرة تأكيد على كلامها. التفتت نحو ستو وسألته: «هل ركبت دراجة بخارية لمسافة مائة وسبعين ميلًا من قبل يا سيد ريتمان؟ لا أنصح بذلك».

ابتسم ستو وسألها: «إلى أين تتجهان؟».

أجابه هارولد في وقاحة بسؤال آخر: «وما شأنك أنت؟».

هتفت فراني: «أي طريقة حديث هذه؟ السيد ريتمان هو أول شخص نراه منذ مات جَس دينسمور! أعني، ما لم نبحث عن آخرين، فماذا سنفعل إذن؟!». قال ستو في هدوء: «إنه يحميك، لا أكثر»، وانتزع باقة حشائش دسها بين شفتيه. قال هارولد مضطربًا: «هذا صحيح». فقالت فراني: «أعتقد أننا نحمي بعضنا»، فاحمرَّ وجه هارولد.

فكر ستو: أعطني ثلاثة وسيشكلون مجتمعًا. لكنَّ هل يصلح هذان لتلك المهمة؟ أعجبه الفتاة، لكنَّ الفتى بالنسبة إليه حانق مذعور، والهانق المذعور قد يكون خطرًا في ظروف معينة.

غمغم هارولد: «كما تقولين...». ثم نظر إلى ستو بجانب عينه، وأخرج علبة سجائر مارلبورو من جيب سترته. أشعل واحدة ودخنها كالمبتدئين،

كأنه بدأ التدخين أول أمس. قالت فراني: «نحن متجهان إلى ستوفينجتون، فيرمونت، حيث مركز الأوبئة. نحن... ماذا بك يا سيد ريديمان؟».

شحب وجه ستو فجأة، وسقطت من فمه باقة الحشائش التي كان يعضغها. سألها: «لماذا؟».

أجاب هارولد بتعالٍ: «لأن هناك مؤسسة تدرس الأمراض المعدية. أعتقد أنه لو ظل في هذه البلاد نظام ما، أو مسؤول فر من الوباء فسيكون في ستوفينجتون أو أتلانتا حيث مركز أبحاث الأوبئة الآخر».

قالت فراني: «هذا صحيح».

قال ستو: «أنتم تضيعون وقتكم».

تعجبت فراني، واحمرَّ وجه هارولد في غضب وهو يقول: «أعتقد أنك آخر من قد يحكم في أمر كهذا يا سيدي».

- أنا قادم من هناك.

بدا الاثنان الآن مصدومين، ذاهلين. سألت فراني: «أنت كنت تعرف بشأنهم؟ هل تأكدت؟».

- ليس الأمر كما...

قاطعه هارولد صائحًا: «أنت كذاب!».

رأت فراني ومضة غضبٍ مقلقة في عيني ريديمان، سرعان ما خفتت وهو يقول: «لا، لست كاذبًا».

- أقول إنك كاذب! لست سوى...

- اخرس يا هارولد!

نظر إليها هارولد وقد جرحته صيحتها. قال: «لكن يا فراني، كيف تصدقين...».

- وكيف تتكلم أنت بهذه الوقاحة والعدائية؟ هلا سمعت ما يريد قوله أولاً يا هارولد؟

- أنا لا أثق به.

فكر ستو في أن هذا منطقي، وهذا ما يجعلهما متعادلين.

- كيف تخون رجلاً قابلته للتو؟ أنت حقًا مقرف يا هارولد!

قال ستو بهدوء: «سأخبركما بكل شيء...». وتلا عليهما قصة مختصرة بدأت باقتحام سيارة كامبيون محطة هاب، وانتهت بفراره من ستوفينجتون قبل أسبوع. حذق هارولد إلى يديه اللتين تنزعان الطحالب وتمزقانها، لكن وجه الفتاة كان خريطة بلد مأسوي، وشعر ستو بالضيق من أجلها. لقد انطلقت مع الفتى (وكانت فكرة جيدة) على أمل أن يجدا مخرجًا. لقد خاب أملها كما هو واضح. سألته: «ماذا عن مركز أتلانتا للأوبئة؟ هل نال منه الوباء أيضًا؟».

- نعم.

فانفجرت في البكاء. أراد أن يهدئها لكن لم يكن الفتى يسمح بهذا. نظر هارولد في قلق إلى فران ثم إلى بقايا الطحالب على كفيه. أعطاه ستو منديلًا، فنظر إليه هارولد نظرة الولد الذي يريد علبة البسكويت له وحده. فكّر ستو في أنه سيُصدَم عندما يعرف أن الفتاة ليست علبة بسكويت.

عندما هدأ بكائها قالت: «أعتقد أنني وهارولد مدينان لك بالشكر. على الأقل وفّرت علينا رحلة طويلة تنتظرنا في نهايتها خيبة الأمل».

- هل تعنين أنك تصدقينه؟ هكذا دون تروء؟ يحكي لك قصة طويلة عريضة فتشتريها منه؟

- لماذا قد يكذب يا هارولد؟ لأي منفعة؟

- كيف أعرف ما يدور في عقله؟ ربما القتل أو الاغتصاب.

قال ستو: «أنا شخصيًا لا أومن بالاغتصاب. ربما تعرف أنت عنه شيئًا لا أعرفه».

صاحت فراني: «كفى! هلا حاولت يا هارولد ألا تكون بهذه البشاعة؟».

- بشاعة؟! أنا أحاول أن أحميك.. أحمي كلينا، وترين في هذا بشاعة؟!

- انظرا.

رفع ستو كُفَّه، فظهرت آثار حقن متعددة وأثر كدمة. قال: «لقد حقنوني بكل أنواع الأشياء التي تُحقن».

- ربما أنت مُدمن.

أنزل ستو كُفَّه دون أن يُرد. لقد اعتاد الفتى فكرة امتلاك الفتاة، لكن بعض الفتيات لا يُملكون. يبدو أن من أمامه من هذا النوع. إنها طويلة وجميلة

وبهيّة، عيناها الداكنتان وشعرها الطويل يجعلونها تبدو قليلة الحيلة. سهل أن يغفل المرء عن الخط الرأسي بين حاجبيها والذي ظهر عندما احتدّت، وقبضتنيها القويتين، وحتى طريقة إزاحتها شعرها عن جبينها التي تنم عن كبرياء خفية.

سألته متجاهلة مشاركة هارولد الأخيرة في النقاش: «إذن ماذا سنفعل؟». أجاب هارولد: «سنذهب على أي حال». عندما نظرتُ إليه تلك النظرة التي تُظهر الخط بين حاجبيها، أضاف متردداً: «علينا أن نذهب إلى مكان ما. طبعاً هو يقول الحقيقة، لكنّ يمكننا أن نتأكد مرة أخرى، ثم نقرر ما سنفعله بعدها».

نظرتُ فراني إلى ستو نظرة من نوع لا - أريد - أن - أخرج - شعورك - لكنّ.. فهز ستو كتفيه.

سألها هارولد: «موافقة؟».

- أعتقد أن موافقتي لا تهم.

ثم قطفتُ زهرة هندباء بريّة ونفخت عنها زَغَبها. سأل ستو: «ألم تقابلا أيّ شخص في الطريق؟».

- قابلنا كلب غير مريض، لكننا لم نقابل بشراً.

- قابلت أنا أيضاً كلب.

وحكى لهما عن بيتمان وكلبه، ثم أضاف: «كنت متجهاً إلى الساحل، لكنكما تقولان إنه لا أحد هناك، وهذا ما يفسد خططي».

قال هارولد وهو لا يعني ما يقول: «نأسف لذلك. هيا فران؟».

نظرتُ إلى ستو مترددة، ثم وقفتُ وقالتُ: «لنعد إلى آلة التعذيب. شكراً لإخبارنا ما تعرفه يا سيد ريديمان، حتى لو لم تكن أخباراً مشجعة».

- لحظة...

قالها ستو ووقف بدوره مفكراً أكانا مُلائمين لتكوين مجتمع. الفتاة ذات عقل راجح، لكنّ الفتى مصاب حالة متقدمة من متلازمة (أكره الجميع)، لكن هل تبقى ما يكفي من البشر للاختيار من بينهم؟ على الأرجح لا. قال: «أعتقد أننا جميعاً نبحث عن بشر. أود أن أرافقكما لو وافقتما».

قال هارولد على الفور: «لا».

نقلت فران نظرها من هارولد إلى ستو مهمومة، وقالت: «ربما...».

- قلت لا.

- ألا يحق لي أن أقول رأيي؟

- ما بك؟ ألا ترين أنه لا يريد سوى شيء واحد؟ بريك يا فران!

قال ستو: «ثلاثة أفضل من اثنين في مواجهة المشكلات، وأعرف أن ثلاثة أفضل من واحد بالتأكيد».

كرّر هارولد ويده تمسك بمقبض سلاحه: «لا».

قالت فران: «نعم. نحن موافقان على انضمامك إلينا يا سيد ريتمان».

التفت هارولد إليها بوجه غاضب مجروح. توتر ستو لحظة خشية أن يضربها. هتف هارولد: «هذا ما تريدينه، أليس كذلك؟ كنت تنتظرين سبباً للتخلص مني. أفهم».

كان غاضباً إلى حد ترقق عينيه بالدموع، وهذا ما زاد غضبه.

- إن كان هذا ما تريدينه، حسناً. اذهبي معه. لقد سئمت منك.

اتجه إلى حيث وقفت الدراجتان. نظرتُ فراني إلى ستو بعينين مصدومتين، ثم إلى هارولد. هتف ستو: «دقيقة واحدة. انتظر أرجوك».

قالت فراني: «لا تؤذِه».

مشى ستو نحو هارولد الذي كان يحاول تشغيل محرك الدراجة. في غضبه أدار مقبض سرعة الدراجة إلى أقصى سرعة، ومن حسن حظه أن المحرك لم يعمل وإلا وقفت الدراجة على عجلتها الخلفية وانقلبت فوق هارولد. صرخ الأخير وهو يمسك مقبض المسدس مرة أخرى: «ابتعدا»، لكنّ ستو وضع يده فوق يد هارولد، ووضع اليد الأخرى على ذراعه. اتسعت عينا الفتى إلى أقصى حد، وظنّ ستو أنه على وشك أن يصير خطراً. ليست المسألة مسألة غيرة على الفتاة، بل مسألة تدمير صورته كحامي الفتاة. يعلم الرب الخلل النفسي الذي عاناه قبل بدء كل هذا، ببطنه هذا وحذائه ذي المقدمة الحادة، وطريقة كلامه الحادة. تحت كل هذا، يعرف هارولد أن صورته القديمة في عيني فراني لن تتغير، ولن يبدأ بداية جديدة. كان ليعامل ريتمان أو طفلاً في الثانية عشرة بالطريقة نفسها. في أي موقف ثلاثي، سيرى نفسه النقطة الدُّنيا. همس ستو: «هارولد».

قال هارولد وجسده يرتجف من الغضب والاضطراب: «اتركني أرحل».

- هارولد، هل تنام معها؟

ارتعش جسد هارولد مجفلاً، فعرف ستو أنه لم يفعل.

- ليس من شأنك!

- لا. لكن علينا إخراج كل شيء بداخلنا إلى حيث يراه الآخرون. هي ليست ملكي يا هارولد، بل ملك نفسها. لن أحاول أن أستميلها أو أخذها منك. آسف لاضطراري إلى الحديث معك بهذه الوقاحة، لكن هذا في صالح معرفتنا بما تحت أقدامنا وبحقيقة موقفنا. نحن الآن اثنان في جهة وواحد في جهة، ولو قررت الرحيل سنكون أيضاً اثنين وواحدًا. أين المكسب؟

لم يقل هارولد شيئاً، لكن هدأت رجفته بعض الشيء. أكمل ستو همسه قرب أذن هارولد المسدودة بالصماخ البني: «سألتزم الصراحة الكاملة. أنت تعرف وأنا أعرف أنه لا حاجة إلى رجل باغتصاب امرأة، لو أنه يعرف كيف يريح نفسه بنفسه».

- هذا...

لعق هارولد شفتيه ونظر إلى جانب الطريق حيث تقف فران عاقدة ذراعيها أسفل صدرها، تراقبهما في قلق.

- هذا... مقرف جداً...

- ربما هو مقرف، وربما لا، لكن إن كان الرجل قرب امرأة لا تريده في الفراش، فليده خيار آخر. أنا دائماً أختار يدي، وأعتقد أنك تفعل مثلي لما كانت معك بإرادتها الحرة. أريد فقط أن أتكلم بصراحة ما دام الكلام بيني وبينك فقط. لست هنا لأريك خارج علاقة ما.

ارتخت يد هارولد على المسدس، ونظر إلى ستو وقال: «هل تعني هذا؟ هل تعني أنك لن تخبر أحداً؟».

أوماً ستو، فهمس هارولد بصوت مبجوح: «أنا أحبها، ولا تحبني هي. أعرف هذا، لكنني أتحدث بصراحة كما قلت».

- هذا أفضل. أنا لا أريد أن أفصل بينكما، أريد فقط أن أصبحكما.

دون تفكير سأل هارولد: «هل تعني بذلك؟».

- نعم. أعدك.

- حسنًا.

نزل هارولد ببطء عن الدراجة، وعاد مع ستو إلى فراني. قال هارولد: «سيأتي معنا. وأنا...». ثم نظر إلى ستو وأكمل مرغمًا: «وأنا أعتذر عن سخاقتي معه».

- مرحى!

صفت فراني فرحة، ثم أضافت: «لما كنا قد اتفقنا، فإلى أين سنذهب؟». في النهاية اتجهوا إلى حيث خططت فراني وهارولد، إلى الغرب. قال ستو إن جِلن بيتمان سيسعد بمبيتهم عنده لو استطاعوا أن يصلوا إلى وُدزفيل بحلول الظلام.. وبما يقبل بمرافقتهم في الصباح. قاد ستو دراجة فران، وركبت هي خلف هارولد. توقفوا في توين ماونتِن لتناول الغداء، وبدأوا التعارف البطيء الحذر. بدت لكنتهما مضحكةً لستو، بطريقة مط حرف الألف وإغفال حرف الراء. افترض أن لكنته مضحكة أيضًا بالنسبة إليهما.

أكلوا في صالة طعام مهجورة، وجذب وجه فراني نظرات ستو مرارًا. عيناها، ذقنها الصغير، الخط بين حاجبيها، شعورها المخفي. أعجبه مظهرها وطريقة كلامها وحتى شعرها الداكن المنحسر عن صدغيها. وكانت هذه بداية إدراكه أنه حقًا يرغب فيها رغم كل شيء.

الكتاب الثاني

على الحدود

5 يوليو - 6 سبتمبر 1990

أتينا على متن السفينة التي يدعونها ماي فلور⁽¹⁾..
أتينا على متن السفينة المُبحِرة إلى القمر..
وصلنا في أكثر لحظات التاريخ التباسًا،
وغنينا لحناً أمريكياً..
لكن لا بأس، لا بأس..
لن تُنعم للأبد..

بول سيمون

نبحث جاهدين عن معظم خدمة سيارات..
عن مكان نتوقف فيه..
حيث يطش الهمبرجر على سطح الشّواية المفتوحة ليل نهار..
نعم! حيث يصدح صندوق الموسيقى بأغانٍ أمريكية..
كم أنا مسرور بأنني أعيش في أمريكا..
أي شيء تتمناه موجود هنا في أمريكا.

تشك بيرى

(1) سفينة إنجليزية نقلت مجموعة من العائلات الإنجليزية تدعى (الحُجاج) إلى العالم الجديد عام 1620 (المترجمة)

الفصل الثالث والأربعون

في منتصف شارع ماي الرئيسي في أو كلاهوما رجل ميت.
لم يتفاجأ نك، فقد رأى موتى كثيرين منذ غادر شويو، وشكَّ في أنه لم
يرَ إلا واحدًا على ألف ممن ماتوا بالفعل. رائحة الموت في أماكن بعينها تثير
الدوار. رجل آخر ميت لن يزيد من الأمر شيئًا أو ينقصه.

لكن عندما قام الميت جالسًا، انفجر فيه الذعر حتى فقد السيطرة على
دراجته. تمايلت ثم اهتزت ثم سقطت راميةً نك بعنف من فوقها إلى رصيف
طريق 3 في أو كلاهوما.

قالت الجثة وهي تتقدم من نك بخطوات مترنحة ودود: «إلهي يا سيدي، يا
لها من عثرة. أليس كذلك؟ رباه!».

لم يصل إلى نك أي مما قيل، فقد كان ينظر إلى نقطة على الرصيف بين
يديه حيث تتساقط قطرات الدم من جرح جبينه، ويتساءل عن مدى فداحة
إصابته. عندما مسَّت الكفَّ كتفه، تذكر الجثة، فتراجع سريعًا دافعًا جسده
بكعبي حذائه وبكفيه، وعينه غير المغطاة بالرقعة متسعة في ذعر.

قالت الجثة: «لا تخف هكذا»، ورأى نك أنها ليست جثة على الإطلاق، بل
شاب ينظر إليه في سعادة، ممسكًا زجاجة ويسكي. فهم نك الآن أنه ليس
جثةً، بل سكران فقد وعيه في منتصف الطريق.

أومأ له نك وضمَّ طرفي سبابته وإبهامه على شكل دائرة. نزت قطرة دم
على العين التي سحقها راي بوث، فرفع رقعة العين ومسحها بذراعه. اليوم
تحسنت الرؤية في تلك العين، لكن لو أغمض السليمة لما رأى من العالم إلا
غيامًا ملونًا. أعاد الرقعة ثم مشى إلى الرصيف وجلس إلى جوار السيارة
البلايموث ذات لوحة أرقام مدينة كانساس. تبين جرح جبينه منعكسًا على

واقى الاصطدام الخاص بالسيارة. بدا قبيحاً لكنه ليس غائراً. سيبحث عن متجر الأدوية ويطهره، ويضع عليه لاصقاً طبياً. افترض أن في دمه ما يكفي من بنسولين لمقاومة أي شيء، لكن جرح فحذه جراء الطلقة الطائشة أربعه من فكرة التلوث والعدوى. راح يلتقط شظايا الحصى المنغرسه في كفيه وهو يجفل ألماً.

ظل الثمل يراقب كل هذا بلا تعبير على الإطلاق. لو نظر إليه الآن لوجده غريباً، ولو عاد ليفحص انعكاس الجرح في واقى الاصطدام، لتسرب كل تعبير في وجه الشاب وصار خاوياً نظيفاً ممسوحاً. كان يرتدي سالوبيتاً ريفياً نظيفاً لكن كالحا، وحذاء شغل ثقيلاً. طوله خمس أقدام وتسع بوصات، عيناه زرقاوان براقتان خاويتان، وشعره أشقر ناعم، لا يخطئ المرء أسلافه النرويجيين أو السويديين الظاهرين في ملامحه. لا يبدو أن عمره أكثر من ثلاثة وعشرين عاماً، لكنك عرف لاحقاً أنه أقرب إلى خمسة وأربعين، لأنه يتذكر نهاية الحرب الكوريّة، وعودة أبيه إلى البيت في زي الجيش بعد الحرب. لا يمكن أن يكون قد اختلق كل هذا، فالاختلاق ليس من شيم توم كولين.

وقف هناك بوجه يخلو من التعبير، كأنه آلي نزع قابسه. تدريجياً عادت الحركة إلى وجهه، وبدأت عيناه المحمرتان من الثمالة تلمعان وابتسم. رمش وهو ينظر إلى الدم المتدفق من جبينك، وصاح: «رباه! أنت تعثرت يا سيدي. أليس كذلك؟ رباه!».

معك دفتر صغير وقلم في جيبه، ولم يفقد أيهما خلال السقطة. كتب: «أفزعني لتوك. ظننتك ميتاً حتى قمت. أنا بخير. هل في البلدة متجر أدوية؟». عرض الدفتر على الرجل الذي يرتدي السالوبيت. أخذه منه ونظر إلى المكتوب فيه، ثم أعاده وقال باسمًا: «أنا توم كولين، لكني لا أعرف القراءة. وصلت إلى الصف الثالث فقط، وكنت وقتها في السادسة عشرة وجعلني أبي أترك الدراسة. قال إنني كبير للغاية».

فكرت في أن الرجل متأخر عقلياً. أنا لا أستطيع الكلام ولا يستطيع هو القراءة. للحظة ضربته الحيرة. قال توم كوين مبالغاً: «رباه يا سيدي! يا لها من عثرة! أليس كذلك؟ رباه!».

أوماً بك، وأعاد الدفتر والقلم إلى جيبه. وضع يده على فمه مرة أخرى وهز رأسه، ثم وضع يديه على أذنيه وهز رأسه، ثم وضع يده على حنجرته وهز رأسه.

ابتسم كولين وقال متسائلاً: «أسنانك تؤلمك؟ أصبتُ بألم في الأسنان مرة. رباه، يؤلم جداً. أليس كذلك؟ رباه!».

هزّيك رأسه وكرر إشاراته. خَمَن، كولين هذه المرة أنه يعاني ألم الأذنين. رفع نك: يديه مستسلماً وعاد إلى دراجته. خُذش طلاؤها، لكنها لم تتأذ. ركبها وبَدَل إلى بداية الشارع. نعم، الدراجة سليمة. جرى كولين إلى جواره وهو يبتسم في سعادة. لم تتحرك عيناه عن نك، فهو لم يَرِ أيَّ شخص خلال الأسبوع الماضي.

سأل: «ألا ترغب في الحديث؟»، لكنَّ نك لم يلتفت ولم يبدُ عليه أنه سمع. جذب توم كُمّه وكرر سؤاله. وضع الرجل فوق الدراجة يده على فمه وهز رأسه. عبس توم. أوقف الرجل دراجته ونظر إلى واجهات المتاجر. بدا أنه عثر على ما يبحث عنه، لأنه اتجه إلى متجر السيد نورتون للأدوية. إن كان يريد الدخول فلن يستطيع لأن السيد نورتون هجر البلدة كما أغلق الباقون متاجرهم وهجروها. بدا لتوم أن الجميع غادروا عدا أمه وصديقها السيد بليكلي، وكلاهما الآن ميت.

حاول الرجل الصامت فتح الباب. كان يمكن لتوم أن يخبره أن هذا بلا فائدة حتى لو كانت لافئة (مفتوح) معلقة بعد. لافئة (مفتوح) كذّابة. خسارة، لأن توم كان ليود شراء آيس كريم بالصودا. إنه أفضل بكثير من الويسكي الذي جعله يشعر بتحسّن في البداية، ثم أنعسه ثم أصابه بصداع قسم رأسه. نام كي يتخلص من الصداع، لكنَّ راودته أحلامٌ مجنونة عن رجل يرتدي بذلة سوداء مثل التي يرتديها الموقر ديفينبيكر دائماً. طارده الرجل في البذلة السوداء في أحلامه. بدا لتوم أنه رجل شرير للغاية. السبب الأول الذي دفعه إلى الشرب هو أن أباه منعه من الشرب، وكذلك أمه، إلا أن الجميع قد رحلوا الآن، فما المشكلة؟ يمكنه أن يشرب إن أراد هذا.

لكنَّ ما الذي يفعله الرجل الصامت الآن؟ لقد رفع صندوق القُمّامة و... ماذا؟ إنه يكسر نافذة السيد نورتون؟ طاخ! بحق الرب وبحق الملاعين إنه يفعل! إنه يمد يده عبر النافذة ويفتح الباب...

صاح توم: «مهلاً يا سيدي. لا يمكن أن تفعل هذا!». نبض صوته بفورة الحماس وهو يضيف: «هذا غير قانوني! ق-م-ر.. هذه هي تهجئة كلمة قانوني. ألا تعرف...».

لكنَّ الرجل كان قد دخل بالفعل ولم يلتفت له. زعق توم غاضبًا: «ما أنت؟ أصم؟ رباه! هل أنت...».

ثم صمتَ وزالت تعبيرات وحركات وجهه، وعاد آليًا منزوع القابس مرة أخرى. اعتاد سكان بلدة ماي رؤية توم الأبله على هذا النحو. كان يسير في الشوارع يشاهد واجهات المحلات بتعبير سرور بالغ على وجهه الإسكندنافي المستدير، وفجأة يتجمد ويزول تعبيره. قد يصرخ أحدهم: «ها قد ذُهل توم!»، فتنتلق الضحكات. لو أن أبا توم معه، لوكره ونكره حتى يعود إلى الحياة، لكنَّ قلَّ وجود والد توم تدريجيًا منذ النصف الأول من عام 1988، لأنه كان يرافق نادلة صهباء تعمل في حانة بومر. اسمها ديدي بوكالوت، ومنذ عام فرَّت هي ودون كولين معًا. شوهدا مرة واحدة في موتيل قدر قرب سلابوت في أوكلاهوما، وكانت هذه آخر مرة يراهما فيها أحد.

أغلب الناس يرون أن تجمد توم على هذا النحو علامة على التأخر العقلي، لكنها لم تكن سوى علامة على التفكير العادي. عملية التفكير لدى البشر تعتمد على الاستنباط والاستقراء كما يقول علماء النفس، والمتأخر عقليًا غير قادر على القفز بين العمليتين بسرعة. توم كولين ليس متأخرًا عقليًا بدرجة كبيرة، فهو يستطيع إجراء تلك العمليات كما يجريها الشخص العادي الذي يقول لك في النهاية إن الاستنتاج على طرف لسانه لكنه لا يستطيع التفوه به. عندما يحدث هذا، ينعزل توم عن العالم الحقيقي، الذي لا يمثل له إلا تدفقًا لحظيًا ومستمرًا للمدخلات الحسية إلى عقله. إنه كرجل في غرفة مظلمة لا يألفها، يمسك طرف سلك مصباح في يده، ويتحسس بيده الأخرى مدخل الكهرباء. لو وجده -وهو لا يجده دائمًا- فسيسطع النور وسيرى الغرفة (أو الفكرة). توم مخلوق حسي. في قائمة مفضلاته طعم آيس كريم الصودا من متجر السيد نوررتون، ومشاهدة فتاة جميلة في فستان قصير تنتظر لتعبر الطريق، رائحة أزهار الزنبق، ملمس الحرير. لكنه أحبَّ غير الملموس أكثر من أي شيء، أحب لحظة التوصل إلى حل وسطوع الضوء في الغرفة ولو لحظيًا. لا يحدث هذا دائمًا، فلطالما تملص منه التوصل والاستنتاج. لكنه هذه المرة لم يتملص.

لقد قال: «ما أنت، أصم؟». لم يبدُ أن الرجل قد سمع ما قال توم إلا في تلك المرات التي كان ينظر إليه فيها مباشرة، ولم يقل له الرجل شيئًا، ولا حتى تحية. بعض الناس لا يجيبون أسئلة توم أحيانًا لأنَّ وجهه ينمُّ عن عقل

محدود، لكنْ إذ يحدث ذلك، يبدو الشخص الذي لم يُجِبْ غاضباً أو حزيناً أو مُحرَجاً. ذلك الرجل لم يتصرف بهذه الطريقة، لقد ضَمَّ طرفي إصبعيه على هيئة دائرة، وهي إشارة يعرف توم أنها تعني (أوكاي).. لكنه لم يتكلم.

لقد وضعَ يديه على أذنيه وهز رأسه، ثم وضع يد على فمه وكرر الفعل... أخيراً أضاءت الغرفة وتوصل إلى الحل.

هتف توم: «رباه!»، وعادت تعبيرات وجهه، وبرقت عيناه المحتقنتان. هُرِعَ إلى داخل متجر نورتون وقد نسي أن هذا غير قانوني. الرجل الصامت يصبُ فوق قطعة قطن شيئاً له رائحة المطهر، ثم يسمح به جبينه.

- مهلاً يا سيدي!

لكنَّ الرجل الصامت لم يلتفت. ارتبك توم لحظةً، ثم تذكَّر. نقر كتفِ نك فالتفت. قال توم: «أنت أصم وأخرس، أليس كذلك؟ لا تسمع! لا تتكلم! صح؟».

أوماً نك، فظهرت الدهشة على وجه توم، فوقف في الهواء وصفق بيديه وهو يصيح: «لقد فكرتُ في هذا! أنا شاطر! لقد عرفتُ الحلَّ وحدي! شاطر يا توم كولين!».

ابتسم نك ابتسامةً واسعةً. لا يتذكر توم متى جلبتُ إعاقته كلَّ هذه البهجة لشخص آخر.

أمام مبنى المحكمة ميدانٌ صغيرٌ يتوسطه تمثال جندي بحرية من الحرب العالمية الثانية بكامل عتاده. اللوحة على قاعدة التمثال تقول نصباً تذكاريّاً مُهدى من مقاطعة هاربر إلى مَنْ ضحوا التضحية الكبرى من أجل بلادهم. جلس توم كولين ونك أندروز في ظل التمثال يأكلان لحم الخنزير ولحم الدجاج المعلبين ماركةً أندروُد ديقلد، وبطاطسٍ مقلية. على جبين نك ضمادتان متقاطعتان. كان يقرأ شفتي توم (وهي مهمة صعبة لأن توم ظل يحشو فمه بالطعام وهو يتكلم) ويعرف أنه يشكو من الطعام المعلب الذي لا يجد سواه. ما يرغب فيه حقاً هو شريحة لحم بدُّهنها.

لم يتوقف توم عند الكلام منذ جلسا، ولم يكن حديثه إلا في أمور مكررة، يحشو ما بين العبارات بالكثير من (رباه!) و(أليس كذلك؟). لا يمانع نك في هذا، ولم يدرك كم افتقد الآخرين إلا بعدما التقى توم، ولا كم كان يخشى من أن يكون الناجي الوحيد في العالم. بل خطر له أن المرض قتل الجميع إلا

الصم والبكم، والآن لا يستطيع منع نفسه من الابتسام لدى تفكيره في أن المرض قتل الجميع إلا الصم والبكم والمتأخرين عقلياً. بدت الفكرة مسلية تحت نور شمس الثانية ظهراً، لكنها ستعود لتطارده في الليل، ولن تكون مسلية على الإطلاق.

تساءل عما يظنه توم في مسألة اختفاء الآخرين. لقد سمع حكاية والد توم الذي رحل مع نادلة منذ عامين، وعن عمل توم في مزرعة نوربوت عاملاً، وعن السيد نوربوت الذي رأى أن توم ماهر كفاية ليستخدم الفأس، وعن (الفتية الكبار) الذين هاجموا توم في ليلة وكيف أنه (أشبعهم ضرباً حتى كادوا يموتون، ونُقلَ واحد منهم إلى المستشفى يعاني كسوراً. ق-م-ر هذه هي تهجئة كلمة كسور). سمع نك أيضاً حكاية عثور توم على أمه في بيت السيد بليكلي وكان كلاهما ميتاً في غرفة المعيشة، ففزع توم لأن يسوع لم يأتِ ويأخذ الموتى إلى السماء. (فكّر نك في أن يسوع بالنسبة إلى توم هو سانcta كلوز بشكل ما، يأخذ الموتى عبر مدخنة المدفأة إلى السماء بدلاً من إنزال الهدايا إلى الأحياء عبرها). بيد أن توم لم يذكر شيئاً عن خواء بلدة ماي وشوارعها.

وضع يديه بخفة على صدر توم ليمنع تدفق الكلام. سأله توم: «ماذا؟». حرّك نك ذراعيه في دائرة كبيرة أمام مباني وسط البلدة، ثم رسم على وجهه تعبير تساؤل وحيرة، وضَمَّ حاجبيه، وأمال رأسه، وحكَّ مؤخرة عنقه، ثم حاكى حركات المشي بإصبعيه على العشب، وأنهى كل هذا بنظرة متسائلة. أقلقه ما رآه، فربما يكون توم قد مات جالساً. خبث عيناه اللتان كانتا تبرقان منذ لحظات، وفُغِرَ فمه حتى رأى نك البطاطس الممضوغة على لسانه، وارتخت يديه فوق حجره.

مدَّ نك يده إليه في اهتمام، وقبل أن يلمسه انتفض جسد توم، وعاد من تجمده، وابتسم. لو أن بالوناً يحمل كلمة (وجدتها!) ظهر فوق رأسه لما زاد من وضوح ما حدث شيئاً.

قال توم مبالغاً: «أنت تريد أن تعرف أين ذهب كل الناس!».

أوماً نك في حماس. قال توم: «أعتقد أنهم ذهبوا إلى مدينة مدينة كانساس. رباه، نعم! الكل يتكلم عن صِغر هذه البلدة. لا شيء يحدث هنا. حتى صالة التزلج خربت. لا شيء هنا الآن إلا سينما السيارات، ولا تعرض إلا

الأفلام القديمة. كانت أُمي تقول دائماً إن الناس يرحلون ولا يأتون أبداً. مثل ما حدث ما أبي. لقد رحل مع نادلة من حانة بومرز اسمها ق-م-ر، هذه هي تهجئة ديدي باكالوت. أعتقد أن الجميع ملؤا ورحلوا في الوقت نفسه.. إلا السيد بيلكلي وأُمي. سيأخذهما يسوع إلى أعلى؛ إلى الجنة، وسيُهددهما بذراعي الأبدية».

وكانت هذه عِظة توم.

فكَّرَ نِك في ما قال توم من ذَهَاب الجميع إلى مدينة كانساس، وربما يكون هذا هو ما حدث. كل مَنْ في الكوكب التَّعَس انتقاه الرب ليُهدد بذراعي الأبدية، أو غادر إلى مدينة كانساس.

مال نِك إلى الخلف وصَفَّق بجفنيه، فانقسم المكافئ البصري لعبارات توم، وتحوَّل إلى ما يشبه أبيات الشعر المعاصر بأحرف بسيطة، كأنها إحدى قصائد إ.إ. كمينجز.

قالت أُمي...

ليس من...

لكني قلت لهم، قلت إن الأفضل...

ألا يعبثوا بـ...

زارته الأحلام المزعجة ليلة أمس التي قضاهما في الحظيرة، لكنه الآن شعبان، وكل ما يريده هو...

رباه...

ق-م-ر تهجئة...

بالتأكيد أتمنى...

ثم نام نِك...

استيقظ متسائلاً -بتلك الطريقة المخدرة التي تفكر بها عندما تستيقظ من نوم ثقيل في منتصف النهار- عن سبب تعرُّقه إلى هذا الحد، ثم فَطِنَ إلى أن الساعة الآن الخامسة والربع عصرًا، وإلى أنه نام أكثر من ساعتين ونصف،

وإلى أن الشمس قد تحركت من خلف التمثال التذكاري. لكن ليس هذا كل شيء، لقد غطّاه توم كي لا يبرد... غطّاه ببطانيتين ولحاف.

أزاح الأغطية جانبًا، ثم وقف وتمطّى. لم يكن توم في مرمى بصره. مشى نك ببطاء إلى مدخل الميدان الرئيسي وهو يسأل نفسه عما سيفعل -إن كان لا بدّ فاعلاً- مع توم.. أو مع نفسه. الرفيق المتأخر عقلياً يُطعم نفسه من متجر A&P عند طرف الميدان البعيد. لم يشعر بتأنيب ضمير تجاه ذهابه إلى هناك وانتقاء ما يريد وفَقَّ الرسم على المُنتج، لأن -بحسب تسويغ توم- باب المتجر كان مفتوحًا. تساءل نك عما كان ليفعله توم إن كان الباب مغلقًا. توصّل إلى أنه قد يتخلى عن مبادئه إن اشتدّ جوعه، أو كان لينحيها جانبًا على الأقل. لكن ماذا سيحدث له عندما ينفد الطعام؟

بيد أن هذا لم يكن ما يضايقه من توم، بل الشوق المثير للشفقة الذي قابله به الرجل. ربما هو متأخر عقلياً، لكنه ليس متأخرًا إلى درجة ألا يشعر بالوَحدة. ماتت أمه وهرب أبوه منذ زمن، ورحل السيد نورتون والرجل الذي عمل عنده وكل شخص آخر في ماي إلى مدينة كانساس في ليلة غفا فيها توم، وتركوه يَجوب الشارع الرئيسي كشبح حائر، يجرب ما لا يفترض أن يجرب.. مثل الويسكي. لو ثمل مرة أخرى ربما يؤذي نفسه، وإن أُوذي لن ينجده أحد، ولتكونن هذه نهايته.

لكن.. أصم أبكم وذو إعاقة عقلية؟ ما الذي ممكن أن يقدمه أيهما للآخر؟ لدينا هنا رجل لا يستطيع أن يتكلم، وآخر لا يستطيع أن يفكر. هذا ليس عدلاً. ربما يفكر توم إلى حد ما، لكنه لا يستطيع القراءة، ولا يعرف نك متى سيتعب من لعب لعبة (دون كلام) مع توم كولين. طبعًا لن يتعب توم منها. رياه، لا! توقف على الرصيف أمام مدخل المُتنزّه ويداها في جيبه. قرر أنه سيمضي الليلة معه. ليلة واحدة لن تؤثر. يمكنه على الأقل أن يطهو له وجبة معقولة. أبهجته الفكرة قليلًا، فانطلق يبحث عن توم.

نام نك في المُتنزّه تلك الليلة. لم يعرف أين ينام توم، إلا أنه عندما استيقظ في الصباح التالي مبتلًا بالندى وعَبَرَ الميدان، رأى توم عاكفًا على اللعب بأسطول مجسمات سيارات ومجسم محطة وقود تكساكو بلاستيكي.

ربما فهم توم أنه إن كان اقتحام متجر السيد نورتون مباحًا، فلا بأس من اقتحام أماكن أخرى. كان الرجل جالسًا أمام متجر الأدوات المنزلية والشخصية الباهظة، وظهره نحو نك. قرابة أربعين دمية سيارة مصفوفة على امتداد الرصيف، إلى جوارهم العتلة التي كسر بها توم واجهة المتجر. ضمن السيارات چاجوار ومرسيدس ورولز رويس، وسيارة بينتلي خضراء، ولَمبورجيني، وبونتياك بطول أربع بوصات، وكورفيت، ومازيراتي، وليراعنا الرب ويحمينا، سيارة مون 1933. انهمك توم في تحريك كل تلك السيارات، ليُدخلها ويخرجها من المرأب، ويُرودها بالوقود من المضخة المُصغرة. إحدى رافعات الفحص في المجسم كانت تعمل، فرفع توم عليها سيارة من وقت إلى آخر، وتظاهر بأنه يُصلح شيئًا ما أسفلها. لو أن في استطاعة نك أن يسمع، لسمع في الصمت المطبق صوتَ توم يحاكي هدير المحركات؛ بررررر! وصوت مضخات الوقود: شك - شك - شك! وصوت هسيس الرافعة؛ شششش! لكنه قرأ على شفتيه بعض المحادثات الجارية بين العاملين في المحطة وقائدي السيارات. هل ستملاً الخزان يا سيدي؟ بنزين عادي؟ طبعًا! دعيني أنظف هذه النافذة يا سيدتي. أعتقد أن المشكلة في الرادياتور، دعيني أرفعها وأفحصها. دورات المياه؟ طبعًا! إنها هناك!

وفوق كل هذا، تُظلل قبة سماء الرب الزرقاء هذه الرقعة متناهية الصغر من أوكلاهوما.

فكّر نك: لا يمكن أن أتركه. لا يمكن أن أفعل هذا. وجرفته بغتة موجة حزن ومرارة، شعور قاسٍ حتى ظن أنه على وشك البكاء.

فكّر مرة أخرى: إنهم رحلوا إلى مدينة مدينة كانساس. هذا ما حدث. كلهم رحلوا إلى مدينة مدينة كانساس.

عبر نك الطريق وربّت كتف توم، فأجفل ونظر خلفه، ثم اتسعت ابتسامته الكبيرة الخجلة، وانتشرت الحمرة إلى ما فوق ياقته. قال: «أعرف أنهم للصغار، لا للكبار. أعرف هذا. رباه! أخبرني أبي».

هز نك كتفيه وبسط كفيه وابتسم، فبدت الراحة على وجه توم.

- إنها ملكي الآن. ملكي لو أردت هذا. لو أنك دخلت إلى متجر الأدوات وجلبت منه شيئًا، فيمكنني أن أدخل متجر الأدوات المنزلية والألعاب وأجلب شيئًا. رباه، ألا يمكنني ذلك؟ ليس ضروريًا أن أعيدها، أليس كذلك؟

هز نك رأسه نفياً. قال توم في سعادة: «إنها ملكي!». وعاد إلى المرأب وألعبه. نقر نك كتفه مرة أخرى، فالتفت له وسأل: «ماذا؟». جذب كُمّه، فقام توم. قاده نك إلى آخر الشارع حيث دراجته تقف مستندةً إلى سُنَادَتِهَا. أشار إلى نفسه، ثم إلى الدراجة. أوماً توم ثم قال: «نعم، طبعاً، هذه دراجتي. محطة تكساكو تلك ملكي. لن آخذ دراجتك، ولن تأخذ محطتي. رباه، لا!».

هز نك رأسه، ثم أشار إلى نفسه ثم إلى الدراجة، ثم إلى الشارع الرئيسي، ولوّح بكفه بمعنى: باي باي! وداعاً.

تصلّب توم، فانتظر نك. أخيراً قال الأول متردداً: «هل ستمشي يا سيدي؟». أوماً نك.

انفجر توم: «لا أريدك أن تمشي!»، واتسعت عيناه شديداً الزرقة، ولمعت بالدموع. أكمل: «أنا أحبك! لا أريدك أن تذهب إلى مدينة كانساس مثلهم!».

جذبه نك ليقرّبه، ثم لف ذراعه حوله، وأشار إلى نفسه ثم إلى توم ثم إلى الداريجة، وأخيراً إلى خارج البلدة. قال توم: «لا أفهمك».

في صبر كرّر نك ما فعل، ثم أضاف (باي باي)، ثم نزل عليه الإلهام، فرفع ذراع توم ولوح به (باي باي) أيضاً. سأله توم: «تريدني أن أذهب معك؟»، وأضاء وجهه بابتسامة سعادة. أوماً نك مؤكداً صحّة ما استنتج.

صاح توم: «طبعاً! توم كولين يريد أن يمشي! توم...»، ثم توقف وجفّت بعض السعادة من وجهه وهو ينظر إلى نك بحذر ويسأله: «هل يمكن أن آخذ معي محطتي؟».

فكّر نك في الأمر لحظات، ثم هز رأسه موافقاً. عادت ابتسامة توم إلى اتساعها فبدت كشمس تشرق من خلف السحب. هتف: «توم كولين سيمشي!».

قاده نك إلى الدراجة. أشار إلى توم ثم إليها. قال توم في شك وهو يعاينها ويفحص مقعدها العالي: «أنا لم أركب من قبل واحدةً مثلها. أعتقد أن الأفضل ألا أفعل. قد يسقط توم كولين من فوق دراجة جميلة مثل هذه».

إلا أن ما قاله شجّع نك. لقد ذكر أنه لم يركب دراجة مثلها، وهذا يعني أنه ركب دراجة من نوع ما من قبل. لا ينقصهم سوى العثور على واحدة أبسط تناسبه. واضح أن توم سيُبطئ حركته ويعطله، لكن فيم العجلة على أي حال؟ ما الأحلام إلا مجرد أحلام. إلا أن شعوراً قوياً بضرورة الإسراع يلح عليه، شيئاً يأمر لاوعيه بذلك.

قاد توم إلى محطته أشار إليه ثم ابتسم وأوماً لتوم. ركع الأخير في حماس، ثم تعلق يده في الهواء وهو يمد يدهما إلى سيارتين. نظر إلى نك بوجه مهموم وسأله: «أنت لن تمشي دون توم كولين، أليس كذلك؟».

هزَّ نك رأسه بقوة. غمغم توم: «حسنًا»، وعاد إلى ألعابه. قبل أن يسيطر على نفسه، وجد نك نفسه ينفش شعر الرجل مداعبًا. رفع توم رأسه ونظر إليه في خجل. ابتسم له نك.

لا.. لا يمكن أن يتخلى عنه. هذا أكيد.

لم يجد دراجةً قد تناسب توم إلى حلول الظهيرة. لم يتوقع أن تحتاج المهمة إلى كل ذلك الوقت، لكنَّ أغلب سكان البلدة أوصدوا بيوتهم ومرائبهم. لم يسعه في أغلب الأحوال إلا النظر خلال نوافذ المرائب المتربة المغطاة بشبّاك العناكب بحثًا عما يناسبه. قضى ثلاث ساعات يجول تحت الشمس في الشوارع، والعرق يتصبب منه ويغرق ظهر قميصه. في لحظة يأس عاد ليتحقق من وجود دراجة في متجر ويسترن أوتو، لكنه لم يجد في واجهة العرض إلا دراجتين بثلاث سرعات، وكل شيء سواهما مُفكك.

في النهاية وجد غايته في مرأب عند حدود البلدة الجنوبية. كان المكان مُقفلاً لكنَّ له نافذة تكفي ليزحف داخلًا خلالها. كسر نك النافذة بحجر ونظف الشظايا من حول إطارها بعناية، ثم دخل إلى المرأب الحار الذي يعبق برائحة الزيت والتراب. وجد بالداخل دراجة الصّبية القديمة من طراز شفاين، تقف إلى جوار سيارة مرسيدس بإطارات فارغة وعتبات أبواب صدئة.

فكّر نك في أن حظه العاثر سيجعل الدراجة معطلة، ربما بلا سلاسل أو بإطارات مثقوبة. إلا أن حظه كان حسنًا هذه المرة. تحركت الدراجة بسلاسة على إطارات سليمة، وبدأت له كل الصواميل والتروس في حالة جيدة. لم تكن لها سلّة حمل، وعليه أن يتصرف في هذا، لكنه -وكمكافئة إضافية- وجد سلسلة حماية مُعلّقة على الحائط ومنفاخًا يدويًا.

بحث أكثر، فعثر على عبوة زيت ثلاثة في واحد على رف. جلس نك على الأرضية الأسمنتية المشققة غير عابئ بالحر، وزيت السلاسل والتروس. بعدما انتهى من هذا، أغلق عبوة الزيت ودسّها في جيب سرواله. ربط المنفاخ إلى الحامل عند مؤخرة الدراجة بحبل ليفي، ثم فتح باب المرأب ودفعها ليُخرجها.

لم يكن لرائحة الهواء النقي عبق أجمل، أغمض عينيه وتنشّقه بعمق وهو يدفع الدراجة إلى الطريق ويركبها ليقودها إلى الشارع الرئيسي. إنها تذكرة خروج توم من هنا.. باعتبار أنه قادر على قيادتها.

أوقفها إلى جوار دراجته الرالي وذهب إلى متجر الألعاب، فوجد سلّة دراجة بحجم كبير في قسم الأدوات الرياضية عند نهاية المتجر، وكاد يخرج بها لولا أن لفت انتباهه شيء آخر؛ نفير من نوع كلاكسون، ذو منفاخ جلدي أحمر وجرس فضي. ابتسم نك ووضع البوق في السلّة، ثم اتجه إلى متجر المُعدّات لجلب مفكًا ومفتاحًا إنجليزيًا. بعودته إلى حيث توم، وجده ممدّدًا في سلام تحت النصب التذكاري، يغفو كطفل.

تثبت نك السلّة في مقود الدراجة الشقاين، وثبتّ البوق إلى جوارها، ثم عاد إلى المتجر وانتقى منه حقيبة قماشية، ذهب بها إلى متجر A&P وملأها باللحم المعلّب والفاكهة والخضر كان عند أرفف الفاصولياء الحارة عندما لمح ظلًا يتحرك في الممر المقابل. لو كان يسمع لعرف أن توم اكتشف وجود دراجته. صدح صوت البوق هووووجا! ليملاً الشارع مختلطاً بقهقهات توم.

دفع نك بابي المتجر، ورأى توم يقطع الشارع الرئيسي بسرعة، يرفرف شعره الأشقر وأطراف قميصه من خلفه، يعتصر منفاخ البوق بكل قوته. دار عند محطة أكرو عند نهاية قطاع الأعمال من البلدة، وعاد أدراجه، يعلو وجهه تعبير الانتصار. في سلّة الدراجة ألعابه، وتملاً مجسمات السيارات جيوب قميصه الخاكي. انعكست أشعة الشمس البراقة على أسلاك العجلات التي تدور بسرعة. تمنى نك في حذر لو أن في استطاعته سماع صوت لبوق، ليرى فقط أكان سيسعده كما أسعد توم.

لوّح له توم مكملًا طريقه. دار عند الجهة الأخرى من القطاع وعاد مجددًا وهو يطلق النفير. رفع نك يده يطلب منه التوقف، فتوقف توم لاهثًا أمامه وحبّات العرق الكبيرة تغطي وجهه.

- هل يمكن بعد أن آخذ محطتي؟

أوما نك وعلّق الحقيبة النسيجية على كتف توم العريضة.

- هل سنرحل الآن؟

أوما نك مجددًا وهو يصنع شكل دائرة بالتقاء سبابته وإبهامه.

- إلى مدينة كانساس؟

هزِ نِكَ رأسه نفيًا.

- إلى أي مكان نريد؟

أوماً نِكَ. نعم. إلى أي مكان يريدان، لكنّ هذا المكان سيكون في الغالب في نبراسكا. صاح توم في سعادة: «مرحى! حسنًا! نعم! واو!».

قادا دراجتيهما على طريق 283 المؤدي إلى الشمال لمدة ساعتين ونصف قبل أن تتكون العاصفة الرعدية في الغرب. ضربتهما العاصفة سريعًا وأمطرتهما بوابل كثيف. لم يسمع نِكَ هزيم الرعد، لكنه رأى البرق في السماء كأشواك تمزق السحب. كان برّاقًا إلى حدّ ترك انطباعًا مزرقيًا على شبكيات الأعين. اختفى ستار المطر وهما ينعطفان إلى ريف روسون، حيث انتوى نِكَ أن يتجه إلى الشرق خلال طريق 64، واصفرت السماء اصفرارًا غريبًا مشؤومًا. سكنت الرياح التي كانت تضرب جانبه الأيسر، وبدأ يشعر بتوتر دون أن يعرف السبب، وزاد هذا من تخطئه. لم يخبره أحد أن واحدة من غرائز البشر التي يتشاركونها مع الحيوانات هي رد فعله الآن تجاه الهبوط المفاجئ في ضغط الهواء.

جذب توم كُمّه في هستيريا. التفت إليه توم ليجد وجهه ممتقعًا وعينيه متسعيتين كطبقيين طافيين. صرخ توم: «إعصار! إعصار قادم!».

بحث نِكَ عن قُمع إعصار فلم يجد. استدار نحو توم وهو يفكر في طريقة لتهدئته، فوجده قد انطلق بدراجته خلال الحقول عن يمين الطريق، يشق طريقًا ملتويًا بين العشب الطول.

فكر نِكَ في غضب: يا لك من أحقق لعين. ستكسر محور دراجتك اللعينة! اتجه توم إلى حظيرة مرفقة بصومعة غلال عند نهاية طريق ترابي بطول ربع ميل. لحقه نِكَ إلى هناك حتى وجد دراجة توم ملقاة على التراب، ولم يكثرُ حتى لإسنادها على مسندها. كان نِكَ ليُعزي هذا التصرف إلى جهله، لولا رآه من قبل يستخدم السنادة عدة مرات. لا بدّ أن الذعر تملك عقله البسيط.

دفعه قلقه إلى النظر إلى ما وراء كتفه، وما رآه يأتي جمده في مكانه.

ظلام مروّع يهبُ من الغرب. لم يكن القادم سحابةً، بل غياب نور تام على شكل قُمع، بدا للوهلة الأولى بارتفاع ألف قدم. عريضًا من أعلى وضيقًا من

أسفل، ولم يكن أسفله يمس الأرض. فرَّت السحب من هذا الشيء كأنه يحوز قوة طرد خاصة به.

بينما يحدق نك إليه، اقترب ميلاً إلا ربعاً، واقتلع مبنى طويلاً ذا سقف معدني. لم يسمع انفجار اقتلاعه، إلا أن ذبذبات تدميره أرجحته وهو واقف على قدميه. بدا له أن المبنى انفجر إلى الداخل، كأن القمع سحب منه الهواء. رفع نك رأسه يتابع دوران الحطام المجنون.

أنا أنظر إلى ما رأيته في أفضع كوابيسي، وهو ليس رجلاً على الإطلاق، إلا أنه يبدو كرجل أحياناً. إنه إعصار. إعصار حالك عظيم يهب من الغرب، يسحب إليه كل شيء في طريقه...

ثم شعر بنفسه يُجذب من كلا ذراعيه، ويُسحب إلى الحظيرة. نظر حوله ليجد توم كولين، فتفاجأ للحظة بوجوده. كان مشدوهاً حتى إنه نسي أمره. هتف توم لاهتاً: «إلى أسفل الدرج! بسرعة! بسرعة! أوه، رباه! نعم! إعصار! إعصار!».

أخيراً وعى نك إلى ذعره، فانتزع نفسه من حالة السُّنة التي غاص فيها وترك توم يقوده إلى الدرج المؤدي إلى مخبأ العواصف أسفل الحظيرة. شعر بالذبذبات القوية تهز خلاياها، وهو أقرب ما يكون إلى الصوت الذي لن يسمعه أبداً. كأنه ألم في منتصف الدماغ. بينما ينزل الدرج خلف توم، رأى شيئاً لن ينساه؛ جانب الحظيرة يُقلع لوحاً لوحاً، ويدور إلى أعلى الهواء الغائم، كأنها سن عفنة تقتلعها كمّاشة خفيفة. ارتفع القش المتناثر على الأرض ودار كأنه آلاف الأعاصير المصغرة. ازدادت قوة الذبذبات إلى أقصى حد.

دفع توم باباً خشبياً ثقیلاً، واندفع داخلاً. شمّ نك رائحة الرطوبة والتحلل. في آخر ضوء رأى أنهما يتشاركان المخبأ مع أسرة جثث نخرتها الفئران، ثم أغلق توم الباب وعم الظلام. قلَّ شعوره بالذبذبات، لكنه لم يختف.

زحف عليه الذعر بعباءته المفتوحة، فلفّه بها. أنهى الظلام على ما تبقى من حواسه إلا الشم واللمس، ولا يرسل كلاهما أي إشارات مطمئنة. ظل يشعر باهتزاز الأرضية تحت قدميه، ويشم رائحة الموت.

قبض توم على يده عيمانياً، فجذب نك الرجل المتأخر عقلياً إلى جواره. شعر بتوم يرتجف، وتساءل أكان يبكي أو يحاول أن يتحدث إليه. خفف الخاطر شيئاً من خوفه، فلف توم بذراعه وتعلق الرجلان ببعضهما في الظلام.

ازداد اهتزاز الأرض تحت نك، حتى الهواء ارتعش حول وجهه. التصق به توم أكثر. ظل ينتظر ما سيحدث تاليًا وهو أصم أبكم أعمى، وفكر في أن حياته لتكون هكذا لو أن راي بوث نال من عينه الأخرى. لو حدث هذا لأطلق على رأسه الرصاص منذ أيام وأنهى حياته بنفسه.

لاحقًا، سيعجز عن تصديق ساعته التي تخبره أنهما لم يمضيا في المخبأ أكثر من ربع ساعة. لم يفهم في حياته قط مفهوم الوقت المحسوس. لقد بدا له أنه قضى ساعتين أو ثلاثًا في الظلام، وبينما يمر هذا الوقت، أدرك أنه وتوم ليسا وحيدين في المخبأ، بل معهما جثث. جلب رجل بائس أسرته إلى هنا قرب النهاية، ربما بدافع من هلاوس الحمى. لكنه لم يكن يحمل هم الجثث، فالجثة ليست سوى جماد، كالكرسي أو آلة الكتابة أو البساط. ما أخافه شعوره بوجود مخلوق آخر، وتدرجيًا فطن إلى ما يكون، أو من يكون. إنه الرجل الغامض، الرجل الذي بُعث في أحلامه، المخلوق الذي شعر بوجوده داخل قلب الإعصار الأسود.

في مكان ما.. عند الركن أو ربما خلفه مباشرة.. يقف ليراقبهما وينتظر. في اللحظة المناسبة سيلمسهما، وسي... ماذا؟ سيُجنان من الخوف طبعًا. إنه يراه. نك واثق من أنه يراه. عيناه تريان في الظلام كعيني القطط، أو كعيني كائن فضائي غريب، ربما كالذي في فيلم «المُفترس». نعم.. مثله. يستطيع الرجل الغامض رؤية أطياف أكثر مما تراه أعين البشر، ويبدو له كلُّ شيء بطيئًا أحمر، كأن العالم مغموس في برميل دم.

استطاع نك في البداية التفرقة بين الواقع والوهم، ومع مرور الوقت تأكد أكثر أن الوهم هو الواقع. إنه يشعر بأنفاس الرجل الغامض على قفاه.

همَّ بالفرار نحو الباب ليفتحه ويهرب منه إلى الأعلى مهما كان الوضع، لولا فعل توم هذا بدلًا عنه. اختفت ذراعه التي كانت تُطوّق كتفي نك فجأة، وفي اللحظة التالية انفتح باب المخبأ ليقترحه الضوء الأبيض الذي جعل نك يرفع ذراعه ليقبض عليه من سطوعه. التقط لمحّة سريعة من توم كولين يصعد الدرج مترنحًا فتبعه، يشق الضوء الباهر. عندما وصل إلى قمة الدرج كانت عيناه قد اعتادت النور.

فكر في أن الضوء لم يكن بهذا السطوع عندما نزلا، وعرف السبب على الفور؛ اقتلع الإعصار سقفَ الحظيرة كأنه استأصله بجراحة نظيفة، فلم

يُخْلَفُ شظايا خشب أو بقايا على الأرض. تعلقت فوقهما حوامل السقف، كأنهما يقفان داخل هيكل عظمي لكائن من عصر ما قبل التاريخ.

لم يتوقف توم ليفحص ما حدث، بل فرَّ من الحظيرة كأن الشيطان نفسه يطارده. نظر إلى الخلف مرة واحدة بعينين متسعيتين ووجه مرتعب إلى حد هزلي. لم يقاوم نك نظرة إلى مخبأ العواصف وراءه. تنزل إليه الدرجات الخشبية القديمة التي تقوِّس منتصفها من كثرة الصعود والنزول. من حُلُكة المخبأ لمح يدين، أزال الفئران عنهما كل لحم.

إن كان أحد آخر بالأسفل، فنك لا يراه.

أو لا يريد أن يراه.

ثم هُرع يتبع توم إلى الخارج.

وقف توم إلى جوار دراجته يرتعش، وكان نك مدهوشاً بعد من ذلك الإعصار الانتقائي الذي اقتلع سقف الحظيرة ولم يمسّ دراجتيهما. بكى توم فلف نك ذراعه حول كتفيه. رآه الأخير يحدق إلى بابي الحظيرة المخلوعين في زعر. أشار له نك أن كل شيء على ما يرام، لكنّ الابتسامة التي أمل نك رؤيتها على وجه توم لم تظهر. عاد يحدق إلى الحظيرة مرة أخرى بعينين خاويتين لم يعجب منظرهما نك. قال توم فجأة: «كان أحد بالداخل».

ابتسم نك ابتسامة باردة، لم تؤدّ غرضها. أشار إلى توم، ثم إلى نفسه، ولوّح بيده ليقطع الهواء. قال توم: «لا. لم نكن نحن فقط بالداخل، بل شخص آخر. شخص خرج من الإعصار».

هزّ نك كتفيه.

- هل يمكن أن نمشي من هنا الآن؟ لو سمحت.

أوماً نك.

جرّاً دراجتيهما على الطريق الذي عبّده الإعصار في الحقل، قاصدين الطريق السريع. شق الإعصار طريقه خلال طريق US 283 من الغرب إلى الشرق، قاطعاً أسلاك الكهرباء والأسوار الخشبية، مقتلعاً سقف الحظيرة عن يسارهما، مدمراً المنزل المجاور لها، ثم اختفى أثره تدريجياً في الحقول. بدأت السحب في الانقشاع، إلا أن الأمطار استمرت خفيفة، وغردت الطيور غير مكترثة.

راقب نك عضلات توم القوية تتقلص تحت قميصه وهو يرفع الدراجة ليعبر بها من فوق السور الخشبي بمحاذاة الطريق السريع. فكر في أن هذا الرجل أنقذ حياته، فهو لم يرَ إعصارًا من قبل إلا اليوم. لو تركه في ماي لكان الآن ميتًا.

رفع دراجته هو الآخر، ثم ربّت ظهرَ توم باسمًا. ففكر نك في ضرورة العثور على شخص ثالث، فقط كي يساعده على نقل شكره واسمه إلى توم. إنه لا يعرف اسمه حتى لأنه لا يقرأ.

وقفا هناك لحظةً، ثم ركبا دراجتيهما واستكملا طريقهما.

خيّمًا للمبيت في ملعب كرة دوري روستون چايسي. سماء الليل صافية مرصعة بالنجوم. نام نك سريعًا نومًا بلا أحلام، ثم استيقظ فجرًا مفكرًا في روعة الوجود مع شخص آخر، والفارق الذي صنعه.

وعى فجأة إلى معرفته بمقاطعة بولك في نبراسكا، وقرر أن هذه الوجهة بداية مناسبة. لا بُدُّ أنه التقى من ذكر مقاطعة بولك، أو أخبره أنه جاء منها وخزن عقله الباطن هذا الاسم. وعى أيضًا إلى معرفته بالطريق رقم 30، لكنه ليس واثقًا -على الأقل تحت سماء الصباح المبكر الصافية- من أنه سيجد زنجية مسنة تجلس في شرفة منزلها الخارجية وسط حقول الذرة، تغني ترانيم بصحبة عزف جيتارها. إنه لا يؤمن بالرؤى والمعرفة الاستباقية، لكن الذّهَاب إلى مكان ما بحثًا عن آخرين أمر مهم.

بشكل ما تشارك مع فران جولد سميث وستو ريتمان رغبتهما في الاجتماع بآخرين، وحتى يحدث ذلك، سيظل كل شيء غريبًا مشوّهاً. الخطر في كل مكان، قد لا تراه لكنك تشعر به كما شعر بوجود الرجل الغامض في المخبأ أمس. ستشعر أن الخطر يحيط بك، الخطر داخل البيوت وعند منعطفات الطرق وربما يختبئ أسفل الشاحنات والسيارات المهجورة في الشوارع. إن لم يكن هناك، فهو في الزمن، يختبئ في مستقبل قريب. كل خليه في جسده تحذره منه.

من مسببات شعور الخطر الصدمة النفسية الهائلة من منظر الريف الخاوي. كان محمياً من رؤيته وهو في شويو، لأنها كانت صغيرة مقارنة بما حولها، لكن عندما غادرها، شعر بأنه... تذكر فيلم ديزني الذي شاهده طفلاً.

ملأت الشاشة صورة زهرة تيوليب جميلة إلى حد يحبس الأنفاس، ثم تبتعد الكاميرا عنها فجأة فتري الحقل مليئاً بأزهار التيوليب حولها، فيجتاحك فيض مرثيات يذهلك عن الاستمتاع بشيء بعينه. تعريض حسي أكثر من اللازم. هذا هو ما حدث له خلال رحلته. شويو كانت خالية لكنه استطاع أن يتأقلم. لكن مَكْنَاب كانت خالية أيضاً، وكذلك تكساركانا وسبينسرقيل. أما أردمور فقط أُحْرِقَتْ وَسُوِيَتْ بالأرض. قطع طريق 81 السريع ولم يَرِ إلا غزالاً. في مرتين رأى علامة على وجود أحياء؛ ناراً مُطفأة تعود إلى يومين، وغزالاً مذبوحاً وَمُنْظَفاً. لكنه لم يَرِ بشراً، وهذا كافٍ لتدمير عقلك. ضخامة الحدث تلتهمك، تؤكد لك أن الكارثة امتدت إلى أمريكا كلها، التي تحولت إلى عُبُوءَ بازلاء مرمية منسية، ليس فيها إلا بعض حَبَّات في القاع. من وراء أمريكا يأتي العالم كله، وهذا ما يدفعك إلى الشعور بالدوار والمرض واليأس.

مال على كتاب الخرائط يدقق فيه. لو استمرَّ في طريقهما لصارا ككرة جليد، تكبر كلما تدرجت. بشيء من الحظ قد يقابلون آخرين، أو يقابلهم آخرون في المسافة بين هنا ونبراسكا. وفي نبراسكا قد يقصدون مكاناً آخر. الأمر أشبه بمهمة بلا نهاية مرثية.. بلا جائزة، ولا سيف فوق سندان.

فكر في أنه سيتجه إلى الشمال الشرقي، إلى كانساس. قد يؤدي بهم الطريق السريع رقم 35 إلى طريق 81، والأخير سيقودهم إلى سويدهولم، نبراسكا. من هناك سيتخذ طريق 92 منه إلى الطريق السريع رقم 30. تُشكِّلُ الطرق الثلاثة الأخيرة مثلثاً، وفي مكان ما من ذلك المثلث مُقاطعة أحلامه. التفكير في الأمر جعله يرتعد مُستيقظاً للأحداث.

انتبه إلى حركة أعلى مجال إبصاره، فنظر إلى أعلى ليرى توم جالساً يفرك عينيه بقبضتيه، ويثأب فاتحاً فمه حتى اختفى نصف وجهه السفلي. ابتسم له نك، فبادله الابتسام. سأل نك: «هل سنقود اليوم؟». أوماً نك، فهتف توم: «مرحى! هذا رائع. أحب ركوب دراجتي، رباه، نعم! أتمنى ألا نتوقف أبداً».

وضع نك كتاب الخرائط جانباً وهو يقول لنفسه: مَنْ يعرف؟ ربما تتحقق أمنيته.



في الصباح اتجها شرقاً، وتناولاً غداءهما عند مفترق طريق لا يبعد كثيراً عن حدود أو كلاهما وأركانساس. اليوم هو السابع من يوليو، وهو يوم حار. قبيل توقفهما للغداء، أوقف توم دراجته ليحرق إلى لافتة طريق نصف مدفونة في قاعدة أسمنتية عند المنعطف. نظر إليها بك ليقرأ: أنت تغادر مقاطعة هاربر، أو كلاهما - أهلاً بك في مقاطعة وُذر، أو كلاهما.

قال توم: «يمكن أن أقرأ هذا». لو أن بك يسمعه لأضحكه ما قيل ولتأثر بصوت توم الذي ارتفع في حماس ليضيف: «أنت تغادر مقاطعة هاربر، أو كلاهما - أهلاً بك في مقاطعة وُذر، أو كلاهما!»، ثم التفت إلى بك وسأله: «أتعرف يا سيدي؟».

هز بك رأسه، فقال توم: «أنا لم أخرج قط من مقاطعة هاربر في حياتي. ربّاه! لا، لم يخرج توم كولین. لكن في مرة أخذني أبي إلى هنا وأراني هذه اللافتة، وقال لي إنه لو لمحني في أي مكان بعد هذه اللافتة سيُقطّعي. أتمنى ألا يقابلنا في مقاطعة وُذر. هل تظنه سيفعل؟».

هز بك رأسه نافيًا مُطمئنًا.

- هل مدينة كانساس في مقاطعة وُذر؟

هز بك رأسه مرة أخرى.

- لكننا سنهذب إلى مقاطعة وُذر قبل أن نذهب إلى أي مكان آخر، أليس كذلك؟

أوما بك. لمعت عينا توم وهو يسأل: «هل هذا هو العالم؟».

لم يفهم بك، قطّب جبهته.. رفع حاجبيه.. هز كتفيه. قال توم مفسراً: «أعني أن هذا المكان هو العالم. نحن ذاهبان إلى العالم يا سيدي؟». تردد توم هنيهة قبل أن يسأل: «هل كلمة وُذر هي كلمة العالم؟».

هز بك رأسه ببطء. قال توم: «أوكاي». حرق إلى اللافتة لحظات، ثم مسح قطرة الدموع الوحيدة التي نزلت من عينه اليمنى. ركب دراجته هاتفاً: «أوكاي، هيا بنا». وبدل على الطريق دون كلمة أخرى، وتبعه بك.

دخلا كانساس قبل أن يمنعهما الظلام الكامل من الابتعاد أكثر. تعب توم ونعس بعد العشاء، ولم يُرد سوى اللعب بمحطته، أو مشاهدة التلفاز، ولا يريد

أن يركب الدراجة أكثر لأن مقعده تؤلمه من الركوب. غاب عنه مفهوم الحدود بين الولايات، ولم يشعر بالثقل الذي شعر به نك وهما يعبران لافتة مكتوباً عليها: أنتم الآن تدخلون كانساس. خفوت الضوء وقت الغروب حينها جعل أحرف الكلمات البيضاء تبدو طافية فوق الخلفية البنية، كأنها أشباح.

خيماً بعد اللافتة برُبع ميل، تحت خزان ماء ضخ مرفوع على أرجل معدنية طويلة، كأنه صحن طائر من روايات ه. ج. ويلز. نام توم حالماً دخل كيس النوم. جلس نك مدةً يراقب بزوغ النجوم. الأرض منبسطة مظلمة تماماً، وصامتة تماماً بالنسبة إليه. قبيل نومه، حطَّ غراب على دِعامَة سور منخفض بالقرب منهما، وبدا كأنه يراقبه. عيناه السوداوان المستديرتان محاطتان بما يشبه نصفَي حلقتين من دماء، وهما انعكاس قمر الصيف البرتقالي فوقهم. في الغراب ما لا يروق لِنك بل ويقلقه. وجدَّ كتلة طين جافة فقذف الغراب بها. رفرط الطائر وهو يسدد إليه نظرة خبيثة، ثم انطلق إلى الليل.

حلم في تلك الليلة بالرجل بلا وجه، يقف فوق سطح مبنى مرتفع، ذراعه ممدودتان إلى الشرق، ثم حلم بالذرة -ذرة بسيقان تزيد على ارتفاع رأسه- وبصوت الموسيقى. هذه المرة كان يعرف الموسيقى، ويعرف الجيتار. استيقظ قرب الفجر بمثانة ممثلة، وبصدى كلمات المرأة يتردد في ذهنه: يدعونني الأم أباجيل.. تعالَ وقابلني في أي وقت.

عند الظهيرة كانا يعبران مقاطعة كومانشي على طريق رقم 160. استراحا إلى جوار دراجتيهما وراحا يراقبان قطعَ جاموس صغيراً -لا يزيد على دسنة- يسير ببطء على الجانب الآخر من الطريق بحثاً عن مرعى. كان على جانب الطريق الشمالي سور من السلك الشائك، لكن يبدو أن الجاموس قد أسقطه.

سأل توم في خوف: «ما هذه؟ إنها ليست بقراً!».

ولأن نك لا يتكلم، وتوم لا يقرأ، لم يستطع نك أن يجيب عن سؤاله.

كان هذا في يوم التاسع من يوليو عام 1990، وقد أمضيا الليل في ولاية تعجُّ بالمزارع المكشوفة، على بعد أربعين ميلاً غرب ديرلاند.

اليوم هو التاسع من يوليو، وهما يأكلان غداءهما في ظل شجرة دردار عتيقة وارفة أمام باحة منزل ريفي نصف محترق. كان توم يأكل النقانق المعلبة من علبتها بيد، ويحرك باليد الأخرى سيارة من ألعابه، وهو يكرر مرارًا مقطعا من أغنية شهيرة. حفظ نك الأغنية من كثرة ما قرأها على شفتي توم. «حبيبتي، هل تفهمين رجلك؟ إنه رجل صالح...».

ضخامة المقاطعة أصابت نك بالاكنتاب. لم يدرك من قبل رفاهية رفع الإبهام على الطريق وانتظار عابر يقبل بنقلك. عاجلاً أو آجلاً سيتوقف لك سائق، يسند علبة بيرته بين فخذه. سيسألك عن وجهتك، فتخرج له قصاصة ورق تحتفظ بها في جيبك. قصاصة مكتوب عليها: «مرحبًا. اسمي نك أندروز. أنا أصم أبكم. اعذرني. أنا ذاهب إلى... شكرًا جزيلاً لقبولك مساعدتي. أستطيع قراءة الشفاه». وسيتم لك الأمر، ما لم يكن السائق يحمل ضغينة ما تجاه الصم البكم (حدث له هذا لكن مرات معدودة). ستركب معه وستنقلك السيارة إلى حيث تريد أو إلى أقرب مكان له. السيارة تقطع الطرق في لمح البصر. السيارة نوع من أنواع الانتقال الآني. السيارة تهزم الخريطة. لكن لا سيارات الآن، بيد أن السيارة قد تساعد حتى ستين ميلًا أو سبعين، ثم ستقابل بعدها الحوادث التي تسد الطرق، وستضطر إلى هجرها والسير بعض الوقت، ثم البحث عن واحدة غيرها. دون سيارة، ما هما إلا نملتان تزحفان على صدر عملاق، نملتان تسعيان بين حلمة صدر وأخرى بلا توقف. لذا تشارك عقل نك شعوران؛ التمني والتخيل. تمنى وتخيل في الوقت نفسه أنه عندما يلتقي آخرين (دائمًا يفترض أن هذا سيحدث) سيستعيد أيام التنقل بطلب ركوبة مع الغرباء الهانئة، ومنظر لمعة كروم السيارة القادمة عند الأفق، ووهج الشمس على بدن السيارة الذي يسر الأعين. ستكون سيارة أمريكية عادية تمامًا، شيفروليه بيسكين، أو بونتيك تيمبيست، أو شيئًا عزيزًا مثل هذا. ستتوقف الحسنة الأمريكية وسيرى الرجل خلف المقود، رجلًا ذا ذراع مسمرّة من الشمس تطل من النافذة. سيبتسم هذا الرجل ويقول لك: «مرحى ومرحبًا يا أولاد! ألسن ابن عاهرة محظوظ لرؤيتكما يا شباب! اركبا! اركبا ولنز إلى أين ستذهبان!».

لكنهما لم يقابلا أحدًا اليوم، وفي يوم العاشر من يوليو التقيا چولي لوري.



كان يوم حارق آخر. بدّلاً أغلب الظهيرة وقميصاهما مربوطان إلى خصريهما، وكلاهما مسمّرٌ كالهنود. لم يحرزا تقدماً مُرضياً ذك اليوم بسبب التفاح. التفاح الأخضر.

وجدوه متدلياً من شجرة تفاح عجوز في مزرعة. صغيراً أخضر حامضاً، لكنّ كليهما حُرِم من الفاكهة الطازجة منذ مدة طويلة، فبدا لهما كطعام الآلهة. أرغم نك نفسه على التوقف بعد تفاحتين، والتهم توم ستاً، واحدة تلو الأخرى، وحتى قلبها. تجاهل إيماءات نك التي تطالبه بالتوقف، حتى فطن إلى أن التعامل مع توم كالتعامل مع طفل شقي في الرابعة. بدأ رحلتهما في الحادية عشرة صباحاً، واستكملها في الظهيرة. خلالها أصيب توم بالإسهال وابتلّ جسده بالعرق. تألّم واضطّر إلى النزول من فوق دراجته والسير إلى جوارها. رغم ضيقه من الوقت الضائع، لم يسعُه إلا الرثاء له.

وصلا إلى بلدة برات في الساعة الرابعة عصرًا، وقرر نك الاكتفاء اليوم. هوى توم شاكرًا على مقعد محطة أوتوبيس، ونام في الظل. تركه نك حيث هو، وذهب في جولة حول حي الأعمال من البلدة بحثًا عن متجر أدوية. سيبحث عن عقار بيبتو- بيسمول⁽¹⁾ ويرغم توم على شربه عندما يستيقظ. ليشرب زجاجة كاملة منه لو أن هذا سيساعده على قطع مسافة أكبر غدًا.

عثر على متجر ريكسال للأدوية، إلى جوار مسرح برات. دخل من الباب المفتوح، ووقف هنيهة يشم رائحة الهواء الساخن الراكد المألوفة، مختلطاً بها روائح أخرى قوية مُتخمة، رائحة العطور أقواها. ربما انفجرت بعض الزجاجات من الحر.

بحث نك عن أدوية المعدة، محاولاً أن يتذكر إن كان بيبتو -بيسمول يفسد في الحر. سيكون هذا مكتوباً على العبوة. مرت عيناه على مانيكان، ثم وجد ضالته بعد أربع صفوف. همّ بالتوجه إلى العقار، لكنه أدرك أنه لم ير مانيكاناً في متجر أدوية من قبل.

نظر إلى الخلف ليتحقق، فرأى چولي لوري. كانت تقف ساكنة تماماً، تمسك في يد زجاجة عطر، وفي الأخرى عصا نثر العطر الصغير. عيناها الزرقاوان متسعتان ذاهلتان متفاجئتان. شعرها مربوط إلى الخلف بوشاح حريري يتدلى من عقصتها حتى منتصف ظهرها.

(1) عقار لعلاج اضطرابات الهضم (المترجمة)

كانت ترتدي سترة قصيرة زهرية، وشورتَ جينز طويلاً بما يكفي كي يُظهر فقط أنه ليس سروالاً داخلياً. جبينها وذقنها مغطيان بالبثور.

حدقتُ هي ونكِ إلى بعضهما، كلاهما متجمد الآن. ثم سقطتُ زجاجة العطر من بين أصابعها وانفجرتُ كقنبلة، فملاً عبقها المتجر وجعل رائحته كرائحة صالة جنازات.

سألته بصوت مرتجف: «يا يسوع! هل أنت حقيقي؟».

تسارعت نبضاتكِ، شعر بالدم يحتقن في فؤديهِ حتى زاغ بصره وظهر على مجال إبصاره نقاط بيضاء طافية. أوماً. سألته: «أنت لست شبح؟». هز رأسه.

- إذن قل شيئاً. لو أنك لستَ شبحاً، قل شيئاً.

وضعكِ يده على فمه ثم على حنجرته.

سألته بنبرة هستيرية لم يسمعهاكِ: «ما المفترض أن يعنيه هذا؟». استشفَّ التوتر من ملامح وجهها. خشي أن يقترب منها لأنه لو فعل هذا ربما تفر. لا يظن أنها خائفة من رؤية شخص آخر، بل خائفة من أن يكون ما تراه هلوسَةً. اجتاحه الغضب مرة أخرى. لو أنه يستطيع أن يتكلم...

لم يستسلم لغضبه، وكرر عرضه الصامت؛ ليس في وسعه فعل شيء آخر. هذه المرة جاء الفهم سريعاً.

- لا تستطيع أن تتكلم؟ أنت أبكم؟

أوماًكِ. ضحكتُ ضحكةً عاليةً حانقةً وهي تهتف: «هل تعني أنه عندما ظهر شخص ما أخيراً، اتضح أنه أخرس؟».

هزكِ كتفيه وابتسم ابتسامةً مائلةً مُرَّة. قالت وهي تقترب منه: «حسنًا. لستَ بشع المنظر. هذا شيء يُحسب لك». تأبطتُ ذراعه، فشعر بنهدها يكاد يمس عضده، وشم رائحة ثلاثة أنواع عطور على الأقل تنبعث منها، تحتها رائحة عرقها الكريهة.

قالت: «اسمي چولي. چولي لوري. ما اسمكِ؟»، قهقهت قليلاً، ثم أكملت: «لا يمكن أن تخبرني، أليس كذلك؟ يا مسكين». مالت نحوه أكثر حتى احتكَّ صدرها به، فشعر بحرارة جسده تتزايد. ما خطبك؟ ما هي إلفاة صغيرة.

ابتعد عنها، وأخرج الدفتر من جيبه وكتب، فمالت من فوق كتفه لترى ما يكتبه. إلهي، إنها لا ترتدي حمالة صدر. لا بُدَّ أنها تجاوزت ذعرها سريعًا. سرعان ما بدأ خطه يسوء من التوتر.

هتفتُ فيما يكتب، كأنه قرد قادر على أداء حيلة معقدة: «واو!». لم يسمع نك ما قالت، لكنه شعر بأنفاسها على رقبتة وهو يكتب.

«أنا نك أندروز. أنا أصم أبكم. أسافر مع متأخر عقلي يدعى توم كولين. لا يمكنه قراءة أغلب ما أحاول توصيله إليه أو فهمه، إلا لو كان المفهوم بسيطًا جدًا. نحن في طريقنا إلى نبراسكا لأنني أعتقد أن هناك آخرين. رافقينا إن أردت».

قالت على الفور: «بالتأكيد»، ثم تذكرت أنه أصم، فكررت ما قالت أمام عينيه وأضافت: «هل يمكنك أن تقرأ الشفاه؟». أومأ نك.

- حسنًا. أنا سعيدة للقاء أي شخص، حتى لو كان أصمَّ أبكم، أو متخلفًا. المكان مخيف هنا. بالكاد أنام ليلاً منذ انقطاع التيار.

تحولَّ تعبير وجهها إلى تعبير حزن استشهادي يليق بممثلة مسلسلات هابطة، لا بشخص حقيقي، وأضافت: «مات أبي وأمي منذ أسبوعين، أنت تعرف. كل مات عدا أنا. لقد عانيتُ الوحْدَة»، تهافتت، وألقت بنفسها إلى ذراعي نك، وبدأت تلتصق به في محاكاة فاضحة لعناق الحزاني. عندما ابتعدتُ عنه، كانت عيناها جافتين لامعتين. قالت: «مهلاً، لنفعل ذلك. أنت وسيم».

فتح نك فمه، غير مصدق ما تعرضه عليه، لكنَّ عرضها واضح كفاية، خاصة وهي تجذب حزامه وتهمس: «هيا. أنا أواظب على الأقراص. الوضع آمن». صمتتُ هنيهة، ثم سألتُه: «أنت تستطيع فعل ذلك، صح؟ أعني، أن عدم قدرتك على الكلام، لا تعني بالضرورة عدم قدرتك على...».

مد يديه ليبعدها، وكان يقصد دفع كتفيها، لكنهما ارتطمتا بصدراها. كانت هذه آخر مقاومة في حوزته، فأنزلها على الأرض، وضاجعها.

بعدها، هُرِعَ إلى الباب وهو يربط حزامه ليرى مكان توم. كان نائمًا بعد غائبًا عن العالم. انضمتُ إليه جولي ومعها زجاجة عطر جديدة.

سألته: «هذا هو المتخلف؟».

أوماً نك ولم يعجبهُ انتقاؤها هذا اللفظ. إنها كلمة فظة. بدأت تحكي عن نفسها، واستراح نك لمعرفة أنها في السابعة عشرة، وليست أصغر منه بكثير. تدعوها أمها وصديقاتها بـ«ذات الوجه الملائكي»، أو «الملاك» باختصار، لأنها تبدو أصبى. حكّت له الكثير خلال الساعة التالية، وأدرك نك استحالة فصل الصدق عن الكذب في حكاياتها. ربما كانت في انتظار شخص مثله، لا يقاطع حديثها الفردي اللانهائي طوال حياتها. تعبت عينا نك من مراقبة الشفتين الورديتين تُكوّنان الكلمات. لكن إن ابتعدت عيناه لتتحقق من حال توم، أو للنظر إلى متجر الملابس مُحطم الواجهة خلال الشارع، كانت تمس خده لينظر إلى فمها مرة أخرى. رغبت في أن (يسمع) كل شيء، ولا يتجاهلها. تضايق منها في البداية، ثم ملّ منها، ثم في خلال ساعة تمنى لو أنه لم يلتقها، أو أنها لم تقرر مرافقتهم.

قالت إنها تحب موسيقى الروك والماريجوانا، وتميل إلى ما وصفته بـ«الآباء المقلية»⁽¹⁾ و«الجولات الكولومبية القصيرة»⁽²⁾. كان لها حبيب، لكنه ملّ من نظام المدرسة العليا وقرر الالتحاق بالبحرية في أبريل الماضي. لم تره من وقتها، لكنها تكتب إليه كل أسبوع. وكانت لها صديقتان؛ رث هونينجر، وماري بث جوتش. ذهبتُ معهما إلى كل حفلات الروك في ويتشيتا، وسافرت معهما إلى مدينة كاناساس لرؤية فان هالين ووحوش موسيقى الهيقي ميتال في حفلهم. زعمت أنها ضاجعتُ عازف جيتار فرقة دوكان، وأنها كانت التَّجربة الأكثر روعة في حياتها. قالت أيضًا إنها بكّت وبكّت بعد وفاة أبويها خلال أربع وعشرين ساعة، حتى لو كانت أمها عاهرة متصنعة الحياء، وحتى لو كان أبوها داعرًا. أخبرته أنها خططت لتصبح خبيرة تجميل في ويتشيتا بعد إنهاء الدراسة العليا، أو ستقصد هوليوود لتلحق بالعمل في إحدى الشركات التي تنفذ ديكورات بيوت المشاهير، لأنها (عظّمة) في تصميم الديكور، وستأخذ معها ماري بث أيضًا.

(1) سبائير الماريجوانا مع الهيروين (المترجمة)

(2) تجمعات أسبوعية مع الأصدقاء لتعاطي المخدرات والشرب، ونسبتها في العبارة إلى كولومبيا تعني أنهم يتعاطون الهيروين في تلك التجمعات (المترجمة)

تذكرت فجأة أن ماري بث جوتش ماتت، وأن فرصتها في أن تصبح خبيرة تجميل أو مصممة ديكور للنجوم قد ضاعت مع كل من ضاعوا. أثر هذا فيها فأبدت حزناً حقيقياً.

بعدما هدأ طوفان الكلمات قليلاً -على الأقل مؤقتاً- أرادت أن (تفعلها ثانية) كما قالت في غنج. هز نك رأسه رافضاً، فامتعضت ثم قالت: «ربما لا أرغب في أن أكون معك رغم كل شيء».

هز نك كتفيه. هتفت في خبث مفاجئ وعيناها تلمعان بالحق: «يا أهبل يا أهبل يا أهبل!»، ثم ابتسمت مضيئة: «لا أعني هذا، فقط أمزح».

نظر إليها نك نظرة خاوية. لقد نعتوه بألفاظ أسوأ، لكن في الفتاة شيئاً لا يروق له. خللاً ما. لو غضبت منك، فلن تصرخ فيك أو تلتطمك، لا، سوف تخمشك. خطر له فجأة أنها كذبت بشأن عمرها، وأنها ليست في السابعة عشرة أو الرابعة عشرة أو الحادية والعشرين. إنها في أي عمر تريده.. ما دامت ترغب فيها أكثر مما ترغب فيك. لقد جاءت ككائن شيق، لكن نك أعزى شبقها إلى شيء آخر في شخصيتها.. عرض. العرض هو الوصف المناسب لما يعانيه المريض، أليس كذلك؟ هل يظنها مريضة؟ إنه موقن من هذا، ويخشى من تأثيرها في توم.

هتفت چولي: «مهلاً.. صاحبك يستيقظ».

نظر نك إلى توم فراه جالساً على المقعد، يحك رأسه المشعث كعش الغراب، وينظر إلى ما حوله. تذكر نك فجأة البيتو- بيسمول.

صاحت چولي وهي تعبر الشارع إلى توم: «مرحباً، أنت!..». ترجرج نهداها تحت قميصها الضيق. كانت عينا توم متسعيتين، والآن ازدادا اتساعهما. سأل ببطء: «مرحباً؟». ونظر إلى نك بحثاً عن تأكيد أو تفسير.

أخفى نك ضيقه وأوماً مطمئناً. قالت: «أنا چولي. كيف حالك يا فطيرتي اللطيفة؟».

عاد نك إلى متجر الأدوية، غارقاً في أفكاره وقلقه، ليجلب لتوم الدواء.

قال توم وهو يهز رأسه ويتراجع: «أ.. أ.. لا أريد. توم كولین لا يحب الدواء. رباه، لا. طعمه سيئ».

نظر إليه نك في غضب واشمئزاز، وهو يحمل زجاجة البييتو - بيسمول في يده. نظر إلى چولي، فنظرت إليه، ولمح في عينيها نظرة الإغاضة التي رآها عندما نعتته بالأهبل. نظرة الشخص ثقيل الظل الذي ينتظر اللحظة المناسبة للتنمر.

قالت: «هذا صحيح يا توم. لا تشربه. إنه سم».

التفت إليها توم مبهورًا، فابتسمت وغطت شفثيها بيدها، تتحدها أن يقنع توم بالعكس. هذا هو ثأرها منه لرفضه مضاجعتها مرة أخرى.

نظر إلى توم وجرع من الدواء، وهو يشعر بضغط الغضب على صدغيه. مد يده بالزجاج إلى توم، لكن توم لم يقتنع.

- لا.. توم كولین لا يشرب السم.

ازداد حَقَّ نك من الفتاة إذ أدرك أن توم مرتعب.

- قال أبي لا. قال أبي إنه إن كان يقتل الفئران في الحظيرة، فسيقتل توم! لا.. سُم لا!

التفت نك نصف التفاتة نحو چولي، ولم يعد يتحمل رؤية ابتسامتها السمجة. ضربها بكفه المفتوح ضربة قوية. حدَّق توم إليه بعينين متسعيتين خائفتين. قالت: «أنت...»، ثم لم تجد ما تقول. احتقن وجهها، وبدت فجأة خبيثة مكررة شريرة.

- أيها الأهبل ابن الزنا! كانت مجرد مزحة يا ذا الرأس الخرب! لا أسمح لك أن تضربني، سحقًا لك!

هجمت عليه، فدفعها إلى الخلف. سقطت جالسة، ونظرت إليه، شفثاها منحسرتان عن تكشيرة. «سأمزق خصيتيك. لا يمكن أن تضربني».

بيدين مرتعشتين ورأس نابض، أخرج نك القلم والدفتري وكتب عبارةً بخط كبير، ثم مَرَّق الصفحة ووجَّهها نحوها. بعينين ملتهبتتين بالغیظ دفعها فسقطت. التقطها نك، ثم أمسك مؤخرة عنقها ووضع الورقة أمام وجهها. تراجع توم مذعورًا نائحًا.

صرخت: «حسنًا، سأقرأها. سأقرأها! سأقرأ عباراتك المقرفة!».

المكتوب ثلاث كلمات: «لا نحتاج إليك».

صاحت: «سحقًا لك!»، وتملصت من قبضته. تراجعْتُ بضع خطوات إلى الرصيف، عيناها متسعتان زرقاوان كما رآها في متجر الأدوية، لكنهما الآن تشتعلان بالغضب والكرهية. شعر نك بالتعب. من بين كل الناس، لماذا يقابلها هي؟

قالت چولي لوري: «لن أمكث هنا. سأتي معكما ولن تستطيع منعي». لكنه يستطيع. ألا تدرك هذا بعد؟ أدرك نك أنها ترى كل هذا سيناريو هوليوودياً من أفلام ما بعد الكوارث. فيلم هي -چولي لوري، المعروفة بالملاك- بطلته، وتحصل دائماً على ما تريد.

استلَّ المسدس من جرابه، وصوبه إلى قدميها. تجمّدت مكانها وتبحرَتْ حمرة وجهها. تغيرتْ نظرتها وبدأتْ مختلفةً للغاية، حقيقيةً لأول مرة منذ التقاها. لقد دخل شيء حياتها، وتعجز -على الأقل من وجهة نظرها- عن التلاعب به لمصلحتها. الشيء هو المسدس. شعر نك بالغثيان بالإضافة إلى التعب.

قالت بسرعة: «لم أقصد. سأفعل أيَّ شيء تريده. أقسم بالرب». وجهها بالمسدس لتبتعد. استدارتْ ومشَتْ وهي تنظر بين الفينة والأخرى إلى ما وراء كتفها. تسارعت خطواتها حتى تحول المشي إلى جري، واختفتْ عند المنعطف. أعاد نك المسدس إلى مكانه. كان يرتجف. شعر بالكآبة والضيق، وكأن چولي كانت شيئاً غير بشري، أقرب إلى الخنافس التي تجدها تحت الأشجار النخرة.

التفتَ نحو توم، فلم يجده. دارت عيناها تبحث في أرجاء الشارع عنه. رأسه ينبض وعينه التي سحقها راي بوث تكاد تنفجر. احتاج إلى عشرين دقيقة حتى عثر عليه متكوراً خلف في شرفة منزل خارجية على بعد شارعين جنوباً، يضم مرأبه إلى صدره. عندما أبصر نك بدأ يبيكي.

- أرجوك، لا تجبرني على شربه. أرجوك لا تجبر توم كولين على شرب السم. رباه. لا. قال لي أبي إنه لو كان يقتل الفئران سيقتلني. أرجووك! أدرك نك أنه ما زال يحمل زجاجة البييتو - بسيمول. ألحقها بعيداً وفرد يديه أمام توم. سيُضطرُّ إلى تحمل الإسهال حتى يُشْفَى من تلقاء نفسه، والشكر لچولي.

نزل توم درجات الشرفة وهو يغغم: «أنا آسف. أنا آسف. توم كولين آسف».

عادا إلى الطريق الرئيسي معًا.. ثم توقفوا فجأة يحدقان. دراجتاهما مقلوبتان، والإطارات مقطوعة، ومحتويات أمتعتهما مبعثرة على امتداد الشارع.

مرَّ شيء بسرعة كبيرة قرب وجهك.. شعر به. صرخ توم وبدأ يبكي. وقفك مرتبكًا هنيهة، ينظر حوله، ولحظة نظر إلى الاتجاه الصحيح من أول مرة، ليرى وميضَ طلقة ثانية يخرج من الطابق الثاني من فندق برات. علّق بياقة قميصه شيء شبيه بإبرة المحاقن.

استدار وجرى وراء توم.

لا يعرف أكانت چولي قد أطلقت عليهما الطلقات المخدرة مرة أخرى، كل ما يعرفه -بعدما لحق بتوم- أنهما لم يُصابا. قال لنفسه: على الأقل فررنا من محرّك الشر هذه. لكن اتضح له لاحقًا أنه كان مخطئًا.

ناما في الحظيرة على بعد ثلاثة أميال من برات، وظلت الكوابيس تطارد توم، فيوقظك ليطمئن. وصلا إلى لوكا في الحادية عشرة صباحًا في الصباح التالي، ووجدوا دراجتين أخريين في متجر عالم الرياضة والدراجات. فكَّر نك -الذي بدأ يتعافى من مقابلاته مع چولي- في أنهما قد يغيران ملابسهما ويحصلان على أخرى عندما يصلان إلى جريت بيند بحلول يوم الرابع والعشرين على الأقل.

لكنه في الساعة الثالثة إلا ربع من يوم الثاني عشر من يوليو، لمح شيئًا يبرق في مرآة الدراجة المثبتة عن يساره. توقف فكاد توم الذي كان يتبعه أن يرتطم به، بل وخطا فوق قدمه، لكنَّ نك لم يبال، ونظر إلى الورا. أعمى بريق الشيء عند الأفق عينيه، وبالكاد صدق ما رأى. إنها سيارة شيفروليه قديمة، تتقدم ببطء، تتأرجح بين حارتي الطريق US 281، تحاول تفادي عددٍ من المَرَكَبات المتوقفة.

توقفت السيارة إلى جوارهما (كان توم يُلَوِّح بجنون، ونك يقف متباعد الساقين ودراجته تعترض الطريق). آخر ما فكر فيه نك قبل أن يخرج السائق رأسه من النافذة أن السائق ستكون چولي لوري، وسيكون السلاح معها،

وستبتسم في غلٍّ. لو أطلقت عليهما من هذه المسافة القريبة لن تكون لديهما فرصة في النجاة. لا تقارن الجحيم المستعرة بغضب امرأة مُزدراة. لكنَّ الوجه الذي أطلَّ وجه رجل أربعيني، يعتمر قبعة قش، مغروسًا بطوقها المخملي الأزرق ريشة. عندما ابتسم، صار وجهه كغسيل مجعّد جففته الشمس.

قال: «يا يسوع! هل أنا سعيد لرؤيتكما يا أولاد؟ طبعًا أنا سعيد. اركبا ولنرَ إلى أين تذهبان».

وهكذا التقى نك وتوم، رالف برنتنر.

الفصل الرابع والأربعون

إنه ينهار.. يا صغيرتي. لا تعرفين هذا؟

كانت هذه عبارة هُوي (بيانو) سميث⁽¹⁾، تعود إلى ماضٍ سحيق. هل تتذكر كيف يعزف هُوي (بيانو) سميث؟ آه- آه- آه، داااي - ووو... جوابا- جوابا- جوابا.. آه- آه- آه. إلخ.

هذه هي خفة ظل هُوي (بيانو) سميث وحكمته، وتوثيقه المُجمعي؟

قال: «اللعة على هُوي بيانو سميث. لم يكن سميث على أيامي».

منذ سنوات، سجّل چوني ريفرز⁽²⁾ إحدى أغاني هُوي؛ «التهاب الروك الرئوي وإنفلونزا البوجي وُجي». يتذكر لاري أندروُد هذه الأغنية جيدًا، ولا يراها تليق أبدًا بالظروف الحالية. يا لچوني وهُوي (بيانو) سميث وأيامهما.

أكّد لاري: «اللعة عليه». بدا شاحبًا للغاية كشبح يجوب طريق نيو إنجلاند السريع. «هات لي الستينيات».

طبعًا، أيام الستينيات هي الأيام الحقيقية. منتصف الستينيات وأواخرها. أيام قوة الزهور⁽³⁾، والحلاقة من أجل جين⁽⁴⁾، وأندي وارول ونظارته ذات الإطار الوردی، ومنحوتته التي استخدم فيها صناديق بيرة بريلو، وفريق فيلقیت أندرجراوند، وروایات عودة مخلوق يوربا ليندا المصورة، ونورمان

(1) عازف بيانو أمريكي شارك العزف مع عدة فرق موسيقية شهيرة (المترجمة)

(2) موسيقار أمريكي (المترجمة)

(3) شعار استخدم في أواخر الستينيات لمقاومة الحرب دون عنف أو سلاح (المترجمة)

(4) حركة طلابية مناهضة للحرب، ذوو لحى وشعر طويلين، قرروا حلاقتهم لدعم حملة السياسي يوجين مكارثي، وهي ظاهرة أدت إلى نحت هذا الشعار. (المترجمة)

سبينيار⁽¹⁾، ونورمان ميلر⁽²⁾، ونورمان توماس⁽³⁾، ونورمان روكويل⁽⁴⁾،
والعجوز الطيب نورمان بيتس⁽⁵⁾ من موتيل بيتس، ها ها ها. يتذكر أيضًا
كسر عنق بوب ديلان⁽⁶⁾، وغناء باري مكجواير أغنيته «عشية الدمار»، ورفع
ديانا روس وعي كل طفل أبيض في الولايات. يا كل هؤلاء العظماء، هاتوا
لي الستينيات، وإلى داهية الثمانينيات. الستينيات هي آخر مشاق القبيلة
الذهبية⁽⁷⁾، وفريق الأوغاد، وفريق الملاعق، وأغاني جريس سليك مع فريق
طائرة جيفرسون، وعزف نورمان ميلر على الجيتار، وفريق البيتلز و...
تعثّر وضرب رأسه.

غام العالم للحظات ثم عاد مُتَشْطِياً مضيئاً. مسح جبينه بيده، فانسخت
بالدم. لا يهم. ما السقوط والضرب مقارنة بأسبوع كامل أمضاه عاجزاً عن
النوم دون كوابيس؟ الليالي الجيدة هي الليالي التي لا تخرج فيها صرختك
خارج حلقك. لو صرخت واستيقظت على هذه الحال، فستفزع نفسك أكثر.

حلم أنه في نفق لينكولن، وأحدهم يطارده. في الأحلام لم يكن ريتا، بل
الشیطان، وكان يترصد بلاري بوجه باسم بارد. الرجل الغامض ليس ميتاً
حيّاً، بل أسوأ من الموتى الأحياء. جرى لاري في الحلم ببطء لزج مذعور،
وتعثّر في جثث غير مرئية، يُوقن أنها تحقق إليه بأعين زجاجية من قبورهم
داخل السيارات. جرى، لكنّ ما فائدة الجري والرجل الغامض الخبيث، الساحر
الأسود، يستطيع رؤيته في الظلام؟ بعد مدة سيدندن: لا لاري.. تعال يا لاري..
سنتوافق معاً يا لا لاري...

مكتبة
t.me/soramnqraa

- (1) كاتب أمريكي (الترجمة)
- (2) كاتب ومخرج أمريكي (الترجمة)
- (3) ناشط أمريكي (الترجمة)
- (4) رسام كتب مصورة أمريكي (الترجمة)
- (5) شخصية خيالية، القاتل المخبول بطل رواية (نفوس معقدة) لروبرت بلوخ (الترجمة)
- (6) موسيقي ومغنٍّ أمريكي تعرض لحادث موتوسيكل غامض أدى إلى إصابة في العنق (الترجمة)
- (7) رواية لنورمان سبينارد (الترجمة)

سيشعر في النهاية بأنفاس الرجل الحارّة على كتفه، فيتملّص من النوم هاربًا، وسيختنق بصرخته، أو ستقرّ من حنجرته لتوقظ الموتى.

في النهار تقلّ كوابيس الرجل الغامض. يبدو أنه يلتزم العمل في مناوبة الليل. في النهار لا يلتهمه سوى الشعور العملاق بالوحدة، ينهش عقله بأسنانه الحادة كأسنان الفأر، أو ربما ابن عريس. في النهار تنسحب أفكاره نحو ريتا، ريتا الجميلة. يرى مرآة عينيها شبه المفتوحتين، كعيني حيوان مات متألّمًا، وفمها الذي قبله مليئًا بالقيء المخضر. ماتت ليلاً بكل سهولة، في كيس النوم اللعين نفسه الذي تشاركه معها، وهو الآن...

هو الآن ينهار. أليس هذا ما يحدث معه؟ إنه ينهار.

أنّ وقال: «أنا أنهار.. إلهي، أنا أجن». أكد ما تبقى من عقل لديه أنه قد يُجنّ فعلًا، لكنّ ما يعانیه في هذه اللحظة هو الإنهاك الحراري. بعد ما حدث لريتّا، لم يتمكن من ركوب الدراجة البخارية مرة أخرى، سُدّت نفسه تجاهها. ظل يرى نفسه ملطخًا بالدماء في عرض الطريق السريع، لذا تخلص منها. من وقتها وهو يمشي.. منذ متى؟ منذ يومين؟ أربعة؟ تسعة؟ لا يعرف. إنه في الشمس منذ العاشرة من صباح اليوم، والساعة الآن تقترب من الرابعة، والشمس وراءه، ولا يعتمر قبعة.

لا يتذكر متى تخلص من الدراجة البخارية. ليس أمس، وليس أول أمس في الغالب (في الغالب وليس بالتأكيد)، لكنّ ماذا يهم؟ نزل عنها، شغلّها، أدار مقود سرعتها إلى آخره، ثم تركها. فرّت من بين يديه المرتجفتين، تدور حول نفسها كال دراويش حتى ابتعدت. يعتقد أن اسم البلدة التي قتل فيها دراجته جوسفيل، إلا أن هذه تفصيلة غير مهمة. ما يهم هو أنه لم يعد للدراجة نفع. هو لا يجرؤ على قيادتها بسرعة تجاوز خمسة عشر ميلًا في الساعة، وحتى على تلك السرعة، لم يُعَفَ من مخاوفه التي تدور حول الحوادث أو كسر الجمجمة أو الارتطام بشاحنة مقلوبة عند منحني في الطريق. بعد قليل سيضيء مصباح الحرارة اللعين، وسيكاد يرى كلمة (جبان) مكتوبةً عليه.

لقد مرّ عليه وقت أحب فيه قيادة الدراجة البخارية، والشعور بالهواء يضرب كلا جانبيه، والعالم من حوله ضبابي من السرعة الفائقة. كان هذا عندما كانت ريتّا معه، وقبل أن تتحول إلى فم مليء بالقيء وعينين نصف مفتوحتين. نعم، لقد أحب قيادتها.

وهكذا، ترك الدراجة تهوي من فوق حاجز الطريق، إلى الأخدود المليء بالنباتات الجافة، ثم نظر إليها في رعب حذر، كأنها ستصعد فجأةً لتنتقم منه. هيا، تعالي واثأري مني أيتها اللعينة. لكنها لم تفعل. ظلت تهدر وتهتز بالأسفل حيناً، يدور إطارها الأمامي بلا طائل، ينثر جنزيرها التراب ذا الرائحة المرّة، ويخرج العادم من ماسورتها الكرومية. حتى بعدما ابتعد، ظل يفكر في أن شيئاً ما ورائياً سيحدث. ستقوم الدراجة وتُبْعَثُ من قبرها وتلتهمه. أو أنه سينظر خلفه في ظهيرة ما، ليسمع صوتَ محرك ويراها. لم تُحْتَضَرِ دارجته وتموت في سلام، بل تنطلق نحوه على الطريق السريع، بسرعة ثمانين ميلاً، يركبها ذلك الرجل الغامض، وخلفه تركب ريتا بلاكمور، بوجه شاحب وعينين نصف مفتوحتين، وشعر جاف مهوَّش كشعر كيزان الذرة.

لكنّ الدراجة سكنتُ أخيراً. نظر إليها في حزن كأنه قتل جزءاً منه. دون دراجة لا فرصة له في الفرار من الصمت، وهو بشكل ما أسوأ من مخاوف الموت في حادث. من وقتها وهو يمشي. مرّ بعدة بلدات صغيرة على طريق رقم 9، في أغلبها معارض بيع دراجات، مفاتيحها مُعلّقة فيها، لكنّ إن نظر إليها طويلاً، ستعود إليه رؤيا الحادث على الطريق والدماء تغرقه، حمراء قانية، كأنه مشهد من أفلام رعب تشارلز باند، حيث يموت الناس تحت عجلات شاحنة ضخمة، أو تلتهم أعضاءهم الحيويّة حشرة غامضة، فتفجر أجسادهم من الداخل وتتطاير لحومهم في الهواء. يمر بالدراجات، يتحمل الصمت، يرتجف، ينبت العرق البارد على فوديه وأعلى شفثيه.

فقد الكثير من وزنه، ولم لا؟ إنه يسير كل يوم من الشروق إلى الغروب، ولا ينام إذ تحرّمه الكوابيس من الراحة وتوقظه في الرابعة، فيضيء مصباحه ويجلس إلى جواره ينتظر شروق الشمس ليبدأ المشي. ويمشي حتى يمنعه الظلام عن رؤية الطريق، فيخيم متسللاً خائفاً. يرتمي على الأرض مستيقظاً، يشعر كأنه مُخدَّر بجرامي كوكايين. وكأي مدمن كوكايين، لا يأكل كثيراً، ولا يشعر بالجوع أبداً. الكوكايين يقلل الشهية، ومثله الكوابيس. لم يمسّ لاري الكوكايين منذ حفل كاليفورنيا الأخير، لكنه مرتعب طوال الوقت. يجفل من زقزقة عصفور في الغابة، يقفز فزعاً من حركة أي حيوان كبير أو صغير. مرّ من طور الرشاقة إلى النحافة إلى الهزال، وهو الآن في طريقة إلى العُجف. طالت لحيته، لون شعره أصفر محمر، أنصع درجتين من شعر

رأسه. غارت عيناه، وتشنَّجت حركتهما، كأنهما حيوانان صغيران محبوسان داخل محجريه.

أَنْ مرةً أخرى وغمغم: «أنا أنهار». أفزعة اليأس في صوته. هل ساءت حالته إلى هذه الدرجة؟ في يوم ما عاش لاري أندروُد صاحب الأغنية الأكثر استماعًا، والذي حلم بأن يكون إلتون چون زمانه.. لاري أندروُد هذا لا صلة له إطلاقًا بذلك اليأس الأعجف.. بهذا الـ...

حاول أن ينهض، وعجز. قال نصف ضاحك نصف نائح: «أوه، كم أن هذا سخيف». على جانب الطريق بيت مزرعة أبيض ناصع، يتألق كسرّاب. سقفه وزينة نوافذه وشرفه باللون الأخضر، تمتد أمامه باحة مزروعة بدأ زرعها في الذبول. قرب المزرعة جدول، يسمع خرير مائه من هنا. يحيط المزرعة سور حجري، تميل عليه أشجار الدردار الوارفة. ربما يجلس في ظلها بعض الوقت، وعندما يتحسن.. عندما تتحسن الأمور عامة، سيقصد الجدولَ ليشرب ويغتسل. يبدو أن رائحته سيئة. من يهتم؟ من هناك ليتلمل من رائحته، إذ إن ريتا ماتت؟ هل ما زالت في الخيمة؟ هل انتفخت؟ هل تجمع الذباب عليها؟ هل بدت رائحتها كرائحة حمّام محطة القطارات؟ أين عساها تكون سوى هناك؟

همس: «يا للمسيح، كم أن هذا فظيع». زحف يعبر الطريق، وحالما وصل إلى ما تحت الشجرة، تصور أنه قادر على الوقوف، لكنه عجز عن ذلك. هل ادخر في نفسه قوةً بعد لينظر إلى الطريق خلفه ليتأكد من أن دراجته البخارية لا تطارده؟

درجة الحرارة أقل بكثير في الظل. زفر لاري زفرة راحة ورضا. وضع يده على قفاه، حيث شوّته الشمس طوال اليوم، فتألم. حرق شمس؟ استخدم كريم زيلوكاين أو أحد تلك العقاقير الجيدة اللعينة. أخرج أولئك الرجال من الشمس الحارقة. احترق يا حبيبي⁽¹⁾، احترق. واتس⁽²⁾. هل تتذكر واتس؟ لمحة أخرى من الماضي. البشر كلهم هبةٌ ضخمة من هبّات الماضي. هبةٌ ضراط زهية هائلة.

(1) عبارة منسوبة إلى ماجنفسنت مونتاجيو، منسق أغاني من حقبة الستينيات، ثم ارتبطت بمظاهرات واتس (الترجمة)

(2) مظاهرات ١0 او احتجاجات واتس، قامت في منطقة واتس في لوس ١0 انجليس احتجاجا 0 على عنصرية الشرطة وعنفها هناك وعلى الفقر وقلة العمل، و١0 اشعل المتظاهرون خلالها عدة حرائق كبرى (الترجمة)

غمغم وهو يسند رأسه إلى جذع شجرة الدردار الخشن ويغمض عينيه: «أنت مريض يا رجل». تحركت داخل جفنيه البقع الحمراء والسوداء التي تسببت فيها أشعة الشمس. صوت خرير الماء جميل مُهدِّئ. دقيقة ويقوم ليشرب ويغتسل منها.. فقط بعد دقيقة.

ثم غَفَق. وتحولت غفقه إلى أول نوم عميق خالٍ من الأحلام ينامه منذ أيام. ارتخت ذراعاه على حجره، وارتفع صدره النحيل وانخفض. لحيته المشعثة جعلت وجهه أكثر نحافة، وجه رجل عانى الأمرين وواجه الأحوال، وفرَّ من مذبة لا تُصدَّق. فُرِدَتْ تجاعيد وجهه تدرجياً باسترخاء عضلات وجهه. غاص إلى أعماق النوم، واستراح هناك كمخلوق مائي يدخل إلى طور السُّبات الصيفي مدفون في طين النهر البارد.

وانحدرت الشمس أكثر نحو المغيب.

اهتزت الأجمة عند حافة الجدول كأن شيء يتحرك بينها، ثم يتوقف، ثم يتحرك مجدداً. بعد هنيهة برز طفل من بينها. ربما هو في الثالثة عشرة من عمره، أو في العاشرة لكن أطول من سنه. كان عارياً إلا من شورت ماركة فروت أوف ذا لوم. جسده مُسمر كأنه خشب ماهوجني، إلا الشريط الناصع الذي يبدأ من خصره إلى أسفل. جلده مغطى بلدغات البعوض والبراغيث، بعضها حديث، وأغلبها قديم. يمسك في يمانه سكينَ جَزَّار، يلمع نصلها في ضوء الشمس.

انحنى قليلاً وهو يقترب ببطء من شجرة الدردار والصور الحجري، حتى وقف إلى جوار لاري مباشرة. عيناه زرقاوان مخضرتان بلون ماء البحر، مسحوبتان إلى أعلى قليلاً، وهذا ما منحه شيئاً من الملامح آسيوية. عيناه غير معبرتين، متوحشتان نوعاً. رفع السكين...

جاء صوت امرأة رقيق حازم: «لا». استدار إليها برأس مائل، ينصت، والسكين مرفوعة بعد. رد فعله متسائل خائب الأمل في الوقت نفسه. قال صوت المرأة: «لننتظر ونر».

توقف الطفل، ينقل نظره بين السكين ولاري، ثم عاد إلى حيث جاء. وأكمل لاري نومه.

أول ما وعى إليه لاري عندما استيقظ أنه يشعر بتحسن. ثاني ما وعى إليه أنه جائع. ثالث ما وعى إليه أن مكان الشمس غريب، كأنها عادت إلى المشرق بدلاً من أن تغيب. آخر ما وعى إليه أنه في حاجة إلى أن يبول -واعذرني في اختيار التعبير- كحصان سباق.

وقف يسمع صوتَ طقطقة مفاصله، ومفاصله التي يمددها، وأدرك أنه لم يغفق فقط، بل نام طوال الليل. نظر إلى ساعته وعرف سر عودة الشمس إلى المشرق. كانت الساعةُ التاسعةُ وعشرين دقيقة. إنه جائع، ولا بُدَّ أن في المنزل الأبيض الكبير طعامًا. حَسَاءٌ مُعلَبًا أو ربما لحم محفوظ.

قبل أن يذهب، ركع عند الجدول وخلع ملابسه، واغتسل. لاحظ مدى نحافته. وقف وجفف نفسه بقميصه، وارتدى سرواله مرة أخرى. استخدم بضعة أحجار ناتئة عن سطح الماء في عبور الجدول. توقف عند الضفة الأخرى، محدقًا إلى صف الأجمات، وقد عاد إليه الذعر وانفجر، ثم انحسر مرة أخرى سريعًا. الصوت الذي يسمعه هو صوت حركة سنجاب أو قارض خشب أو ربما ثعلب. لا شيء سوى ذلك. استدار ومشى نحو المنزل الكبير.

في منتصف المسافة طفت فكرة مباغته على سطح أفكاره، فتوقف مفكرًا: «لماذا لم تكنُ تركب دراجة؟». وقف وسط الباحة، على مسافة متساوية بين المنزل والجدول، مشدوهُا من بساطة الفكرة. لقد كان يمشي منذ تخلص من الهارلي. يمشي ويهلك نفسه حتى انهار أخيرًا من الإنهاك الحراري أو من غيره. كان ليركب دراجة هوائية ويبدّل على راحته، وكان ليصل إلى الساحل الآن، يختار منزله ويملأه بالموءن.

بدأ يضحك برفق في البداية، وقد وثره صوتُ ضحكته وسط هذا الهدوء. الضحك حيث لا يشارك الضحك أحد، هو علامة فقدان العقل. لكنَّ صوت الضحكة بدا حقيقيًا للغاية، لذا سحَقًا للعقل. ترك لاري أندروُد القديم يعود إلى المشهد، فوقف رافعًا رأسه إلى أعلى، وقهقه ضاحكًا على حماقته.

من خلفه، حيث الأجمات الكثيفة، عيناَن خضراوان تراقبان كل هذا، حتى اقترب من باب المنزل وهو يضحك بعد ويهز رأسه. راقبته وهو يصعد إلى الشرفة الخارجية ويحاول فتح الباب، فوجده مفتوحًا. راقبته وهو يختفي بالداخل، ثم بدأت الأجمات تهتز مصدرًا الصوت الذي سمعه لاري من قبل وتجاهله. خرج الطفل من بينها، ما زال عاريًا إلا من الشورت، مشهراً سكين الجزّار.

برزت يد أخرى، وأمسكت كتفه. توقف الطفل على الفور. خرجت المرأة، كانت طويلة مهيبة، لكن بدا أنها لم تُحرِّك الفروع مطلقاً، شعرها كثيفاً أسود لامعاً، مخططاً بخصلات بيضاء ناصعة. يا له من شعر جذاب باهر، مضافور بعناية، تتدلى ضفيرتها على كتفها حتى تصل إلى صدرها. لو نظرت إلى تلك المرأة، لأذهلك طولها، ثم سيسحب شعرها انتباهك، وستتساءل عن الطريقة التي تشعر بها بملمسه بعينيك. لو كنت رجلاً، لتساءلت عن شكلها لو فردت شعرها حُرّاً، منثوراً على وسادة تحت ضوء القمر. ستتساءل عن شكلها في الفراش. لكنها لم تقرب الرجال. كانت طاهرة. تنتظر. راودتها الأحلام. في أثناء دراستها الجامعية، لعبت بلوح ويچا. تساءلت أكان هذا هو الرجل المنشود.

قالت للطفل: «انتظر».

أدارت وجهه المكروب نحو وجهها الهادئ. كانت تعرف سر همّه. قالت: «سيكون المنزل بخير. لماذا قد يؤدي المنزل يا چو؟».

التفت إلى المنزل، ونظر إليه في اشتياق وقلق.

- عندما يرحل، سنتبعه.

هز رأسه في حنق.

- نعم، يجب أن نتبعه. يجب أن أتبعه.

شعرت بما قالته بقوة. ربما هو ليس المختار، لكن حتى لو لم يكن كذلك، فهو حلقة في سلسلة تتبعها منذ سنوات. سلسلة تشارف على الاكتمال.

رفع چو -الذي ليس اسمه چو في الغالب- سكينه في توحش، واندفع نحوها. لم تتحرك أو تقي نفسها، فأنزل السكين ببطء، ثم استدار تجاه المنزل وطعنه بالسكين طعنة في الهواء.

قالت: «لا، لن تفعل. لأنه بشري، وسوف يقودنا إلى...». صمتت، وكان تريد أن تضيف: إلى بشريين آخرين. إنه بشري، سيقودنا إلى بشريين آخرين، لكنها لم تكن واثقة من أن هذا كل ما تقصده. كانت تشعر فعلاً أنها منجذبة إلى اتجاهين في الوقت نفسه، وتمنّت لو أنهما لم يلتقيا لاري. حاولت أن تهدئ الطفل بلمستها مرة أخرى، لكنه ابتعد غاضباً. نظر إلى المنزل الأبيض الضخم بعينين تشتعلان غيرةً. بعد هنيهة عاد للاختباء وسط الأجمة وهو

يحق إليها موبخًا. تبعته للتأكد من أنه سيكون بخير. رقد وتكور في وضع جنيني، وهو يحضن السكين. دس إبهامه بين شفتيه وغفا. عادت نادين إلى حيث تجتمع ماء الجدول في بركة صغيرة، وركعت لتشرب من كفيها، ثم جلست تراقب المنزل. عيناها هادئتان، وجهها أقرب لوجه لوحة العذراء مريم لرافايل.

عصرًا، ركب لاري دراجته بمحاذاة صف الأشجار على جانب الطريق رقم 9، مقتربًا من لافتة طريق عاكسة. توقف ليقراها في دهشة. مكتوب على اللافتة: مِين - أرض العطلات⁽¹⁾. لا بُدَّ أنه قطع مسافة عظيمة خلال فترة زعره واختلال إدراكه بالزمن. كاد يكمل طريقه، لولا سمع صوتًا -أو ربما تخيله- دفعه إلى الالتفات خلفه. لم يرَ شيئًا سوى الطريق الخالي الممتد حتى نيو هامبشير.

منذ غادر المنزل الأبيض حيث أظفر على حبوب إفطار جافة، وجبن فوق بضع شرائح بسكويت، تكرر شعوره بأنه مُراقب، أو أن خلفه من يتبعه. كان يسمع أصواتًا، وربما يرى أشياء بجانب عينيه. توتره جعله يستشعر كل صوت أو صورة بسيطة، ويضخمها، وجعله يشعر بذلك الشعور الغامض بـ«المراقبة». لا يخيفه شعوره أكثر مما يخيفه الآخرون. لو أن أحدًا يترصده ولا يهاجمه، فهو خائف منه. وإن كان خائفًا من لاري أندروُد البائس النحيل الذي يجبن حتى عن قيادة دراجة بخارية بسرعة عشرين ميلًا في الساعة، فهو لا يشكل خطرًا.

وقف مباعداً ساقية ودراجته -التي أخذها من متجر أدوات رياضية قرب المنزل الأبيض- بينهما. نادى: «إن كنت هناك، فلماذا لا تخرج وتواجهني؟ لن أوذيك».

لم يتلقَ ردًا. انتظر إلى جوار لافتة الحدود يراقب. طائر يغرد ويقطع السماء. لا يتحرك شيء آخر. بعد مدة أكمل طريقه.

(1) تُسمى مِين أرض العطلات، لأنها توفر أغلب أشكال المنازل الخاصة بقضاء العطلات، مع أماكن تخيم وشواطئ مميزة (الترجمة)

وصل إلى بلدة بيرويك الشمالية الصغيرة في السادسة مساء. قرر أن يخيم هناك، ويتجه إلى الساحل في الصباح.

في البلدة متجر صغير عند تقاطع طريقي 9 و4، أخذ منه ست علب بيرة ماركة بلاك ليبل، التي لم يجربها من قبل. أخذ أيضًا كيس بطاطس مقلية عملاق بطعم الخل والملح، وعلبتي يخنة لحم. وضع ما انتقى في حقيبته، وخرج.

عَبَّر الشارع مطعم، وللحظة خُيِّلَ إليه أنه يرى ظلين طويلين يتحركان بالخارج حتى يختفيان خلفه. ربما هي خَدَعَة بصرية، لكنه لا يميل إلى هذا التفسير. فكر في عبور الشارع ومحاولة مباغتتهما، ثم تراجع. إنه يعرف تأثير الخوف.

مشى على الطريق السريع دافعًا دراجته إلى جواره، وحقيبة قماشية معلقة من مقودها. رأى مدرسة كبيرة مبنية بالطوب الأحمر، خلفها أشجار. جمع منها ما يمكنه من إشعال نار في منتصف ملعب المدرسة الأسفلتي. بالقرب جدول يجري إلى جوار مصنع نسيج وأسفل الطريق السريع، برَد فيه البيرة، وسخُنَّ علبة يخنة على النار. أكل وهو يتأرجح أمامًا وخلفًا على أرجوحة في الملعب، يتبعه ظله.

سأل نفسه عن سبب خوفه ممن يتبعونه.. ربما لأنه متأكد الآن من أن أحدًا يتبعه. اثنان. كنتيجة طبيعية لتساؤله السابق، تعجب من تحسن حالته الكبير طوال اليوم، وكأن السم الذي أمرض جسده قد تسرب منه خلال نومته الطويلة. أكان فقط يحتاج إلى الراحة؟ لا شيء آخر؟ بدا له التفسير بسيطًا زيادة.

نظر إلى الأمر من منظور منطقي، وافترض أنه إن كان مَنْ يتبعونه يريدون به أذى، فلماذا لم يؤذوه؟ كانوا ليطلقوا عليه الرصاص من خلف ساتر، أو على الأقل يهددونه حتى يستسلم. كانوا ليأخذوا ما يريدون.. لكن لما كان يفكر بمنطقية (التفكير المنطقي رائع، لأن كل ما فكر فيه خلال الأيام السابقة مصدره الذعر فقط)، ما الذي يحوزه ويثير أطماع الآخرين؟ لقد اختفى البشر، وصار كل شيء متاحًا لمن تبقى. لماذا المغامرة إذن بالسرقة من شخص آخر، والتعرض للقتل أو الإيذاء، بينما كل شيء متوافر خلف واجهات كل متاجر أمريكا؟ اكسر الزجاج فقط وادخل وخذ ما تشاء.

كل شيء متاح، إلا الصُّحبة. السبب الوحيد الذي دفع عنه الخوف هو رغبته في مقابلة بشر آخرين. عاجلاً أو آجلاً ستغلب رغبتهم خوفهم، وسيظهرون. لن يدفعهم إلى الظهور وإلا أخافهم. سينتظر، لكنه ربا.. لكم يتوق إلى رؤية شخص آخر...

عاد إلى الجدول وسحب البيرة من الماء، ثم عاد إلى أرجوحته. فتح واحدة ورفعها تجاه المطعم حيث رأى الظلين.
- في صحتكما...

ثم شرب نصف العلب في جُرعة واحدة. بحلول الساعة السابعة كان قد أجهز على العلب الست، وبدأت الشمس في الغروب. أخمَد النار وجمع حاجاته، ثم ركب الدراجة نصف مخمور ونصف منتشٍ، وقطع الطريق رقم 9 لمدة ربع ميل حتى وجد منزلاً ذا شرفة خارجية محاطة بالسلك. أوقف الدراجة في الباحة وأخرج كيس النوم، ثم كسر باب الشرفة بمفتاح. نظر حوله مرةً أخرى، آملاً أن يراها أو يراه أو يراها؛ فهو يشعر أنهم بالقرب بعد، لكنَّ الشوارع هادئة خاوية. هز كتفيه ودخل.

الوقت مبكر، وتوقع أن يرقد أرقاً لساعات، لكن يبدو أنه يحتاج إلى مزيد من النوم. بعد خمس عشرة دقيقة من تمدده على الأرض، انتظم تنفسه ونام ممسكاً ببندقته.

نادين مُتعبة. بدا هذا اليوم أطول يوم في حياتها. كادت تجزم أنهما قد لوحظا في مرتين، مرة قرب سترافورد، ومرة على طريق مَين - نيو هامبشير عندما استدار ونادى. لا يهمها أكانا قد لوحظا أو لا. هذا الرجل ليس مجنوناً مثل الذي مرَّ بالمنزل الأبيض الكبير منذ عشرة أيام. كان جندياً مُسلحاً بالكامل بالبنادق والمسدسات والقنابل. ظل يضحك ويبكي وهو يهدد بتفجير شخص يُدعى النقيب مورتون، ولم يكن الأخير في أي مكان مرئي، وهو أمر في مصلحته لو أنه حي بعد. ارتعب چو من الجندي أيضاً، وهو أمر في مصلحة الطفل طبعاً.

نظرت حولها ثم نادت: «چو؟».

اختفى چو. كانت ناعسةً، على حافة الانزلاق إلى النوم مرة أخرى. أزاحت الغطاء ووقفت، تؤلمها مئات المواضع المختلفة من جسدها. كم مر منذ ركبت

الدراجة كل هذه المدة المتواصلة؟ لم يحدث هذا من قبل. ثم إن هناك الضغط المتواصل عليها للعثور على المنشود الأريب. لو اقتربا أكثر لرأهما ولاستشاط جو غضبًا. ولو ابتعدا كثيرًا لفقدها، ولاستشاطت هي غضبًا. لم يخطر ببالها أن يدور لاري ليصبح هو وراءهما، لكن لحظَّ جو أن لاري لم يفعل.

ظلت تكرر لنفسها أن جو سيعتاد فكرة احتياجهما إليه.. ليس هو فقط. يمكنهما أن يمكثا وحدهما، لكنهما سيموتان وحدهما. سيعتاد جو الأمر، وظهر آخريين وارد دائمًا، العالم لم يخلُ من البشر.

نادت مرة أخرى برفق: «جو؟».

يمكنه أن يبقى ساكنًا كغوريلا ثيت كوينج تتربص بين الأحراج، لكن أذناها اعتادت التقاط صوت حركته على مدار الأسابيع الثلاثة الماضية، بالإضافة إلى سطوع القمر الليلة، والذي يمنحها مزية إضافية في البحث. سمعتُ الحصى يحتك ببعضه، وعرفت إلى أين يذهب. تجاهلتُ آلامها وتبعته، وكانت الساعة العاشرة والربع.

خيماً (إن كنتَ تسمي فرشَ غطاءين على الأرض تخيماً) خلف مطعم مشويات شمال بيرويك، أمام المتجر العام، وأخفيا دراجتيهما في سقيفة قرب المطعم. أكل الرجل الذي يراقبانه في فناء مدرسة. (قالت لجو: «لو عبرنا إليه لأعطانا بعض الطعام. إنه ساخن.. رائحته رائعة، أليس كذلك؟ أراهن أنه أشهى من البولونيا». اتسعت عينا جو وتوحشتا ولوَّح بالسكين تجاه لاري). من طريقة سيره استنتجتُ أنه ثمل، وهو الآن نائم في شرفة منزل خارجية.

أسرعتِ الخطى وهي تجفل من انغراس الحصى في قدميها. عبرتُ إلى صف المنازل عن يسارها، ومشتُ في باحاتها التي نمتُ حشائشها حتى صارت حقولاً. العشب مُنقل بالندى، رائحته حلوة، يحتك بقصبتي ساقها. ذكَّرها هذا بالمرة التي جرتُ فيها خلال حشائش كهذه مع صبي، فوقهما البدر كاملاً، لا كذلك كطور القمر التمس فوقها الآن. شعرتُ وقتها بإثارة وحرارة أسفل بطنها، وكانت واعية لكون نهديها شيئاً مثيراً جنسياً. جعلها القمر تشعر كأنها سكرانة، وبُلل العشبُ ساقها برطوبة الليل. كانت تعرف أنها إن لحقها الصبي، لتركته يقطف عذريتها. جرتُ كالهنود الحُمر وسط حقول الذرة. هل لحق بها؟ هل هذا مهم الآن؟

زادت سرعة عدوها على ممر أسمنتي يلمع في الظلام كالجليد.

هناك رأْتُ چو، يقف أمام شرفة خارجية محاطة بالسلك حيث ينام الرجل. سرواله الداخلي الأبيض القصير هو أكثر الأشياء بياضاً في الظلام. بَشَرَة الصبي داكنة للغاية حتى لتظن للوهلة الأولى أن السروال معلق هناك من تلقاء ذاته، أو يرتديه الرجل الخفي من قصة ه. ج. ويلز.

تعرف أن چو من إبسوم، لأنها قابلته هناك. نادين من بيرنستيد الجنوبية، وهي بلدة على بعد خمسة عشر ميلاً شمال شرق إبسوم. كانت تبحث بطريقة مُرتَّبة عن أصحاب بعدما تركت منزلها وموطنها. بحث في دوائر ذات مركز متحد، تتسع مع الوقت، ولم تجد سوى چو، مصاباً بالحمى ويهلوس جراء عضه حيوان، ربما فأر أو سنجاب نظراً إلى حجم العضة. كان جالساً في باحة منزل في إبسوم، عارياً إلا من سرواله الداخلي، يحمل سكين الجزار في يده، كأنه إنسان كهف وحشي، أو قِزم بيجمي يُحتَضَر لكنه بعد شرس. كانت لها تَجَرِبَة مع الالتهابات والتلوث من قبل. حملته إلى المنزل. هل هو منزله؟ لم تعرف إلا عندما أخبرها أن في المنزل موتى كثيرين، أمّاً وأباً، وثلاثة أطفال أكبرهم في الخامسة عشرة. عثرت على عيادة طبيب فيها مطهرات وضمادات ومضادات حيوية، لكنها لم تكن تعرف أي المضادات الحيوية أنسب له، فهي قد تقتله بدواء خاطئ، إلا أنه سيموت على أي حال لو لم تجرب. العضة في الكعب، منتفخة في حجم صامولة شد إطار سيارة. حالفها الحظ، فزال الانتفاخ والحمى في ثلاثة أيام. وثق بها الصبي، وهو لا يثق بأي أحد سواها. في أيام تستيقظ صباحاً لتجده متشبثاً بها. ذهباً معاً إلى البيت الأبيض الكبير. أسمته چو. لم يكن هذا اسمه، لكن في حياتها معلمة كانت تُسمي أي فتاة لا تعرف اسمها چين، وأي فتى لا تعرف اسمه چو.

وجاء الجندي يضحك ويبكي ويسب النقيب مورتون. أراد چو أن يقتله بالسكين. والآن يأتي هذا الرجل. خشيت أن تأخذ منه السكين لأنها تعتبر طلسم حظه. محاولة فعل شيء كهذا قد تقلبه عليها. كان ينام وهي في حضنه. في ليلة حاولت أخذها منه وهو نائم، فقط لتعرف ما سيحدث، لا من أجل حرمانه منها إلى الأبد. استيقظ على الفور فاتحاً عينيه برسمه أعين الصينيين، وحقق إليها في توحش. سحب السكين منها مرة أخرى وهو يزوم. چو لا يتكلم.

والآن يرفع السكين، ثم ينزلها، ثم يرفعها مرة أخرى، وهو يجأر ويطعن السلك. ربما يحاول اقتحام الباب لاحقاً. جاءت من خلفه ولم تبذل أي مجهود

لتخفي اقترابها، لكنه لم يسمعها، فقد كان ضائعاً في عالمه الخاص. قبل أن يعي وجودها، قبضت على معصمه وأدارته بقوة عكس اتجاه دوران عقارب الساعة.

شهقَ وهسَّ، وتلملم لاري أندروُد في نومه، وانقلب، ثم سكن مرة أخرى. سقطت السكين على العشب بينهما، وانعكست صورة القمر على نصلها اللامع.

حذق إليها بعينين كارهتين متشككتين، فحدقت إليه نادين في عِند، وأشارت إلى الاتجاه الذي جاء منه. هزّ جو رأسه في حَنَق، وأشار إلى المُكْوَم على الأرض خلف السلك، ثم مرَّ إبهامه على عنقه محاكياً حركة الذبح.. وكشّر عن أنيابه. لم تره نادين مكشراً من قبل، وأربعبها هذا. أو لأن أطراف أسنانه حادة كالأنياب، وهذا ما زاد من وحشيته.

قالت برفق: «لا، وإلا أيقظته أنا الآن».

بدا قلقاً، وهزّ رأسه بسرعة.

- إذن عُدْ معي. نَم.

نظر إلى السكين ثم إليها، وقد اختفت الوحشية مؤقتاً، وعاد طفلاً تائهاً يريد لعبته. فكرت نادين في أن هذا قد يكون الوقت المناسب لإقناعه بالتخلي عن السكين، وهزّت رأسها رافضة. لكن ماذا بعد؟ هل يصرخ؟ لقد صرخ بعدما رحل الجندي المجنون. صرخ وصرخ مصدراً صوتاً رهيباً ينمُّ عن الغضب والرعب. هل تريد مقابلة هذا الرجل في الليل، وصدى صرخات الصبي يتردد في أذنيها وأذنيه؟

- هلا عدتَ معي؟

أوماً جو.

- حسناً.

حملته، وعادت به، فتكوّر إلى جوارها في أمان وقد نسي ما حدث، على الأقل مؤقتاً. لف ذراعيه حولها ونام. شعرت بالألم القديم المألوف في بطنها، ذلك الألم الأعظم من ألم التمارين. ألم نسوي، ولا يمكن لأحد فعل شيء حياله. فنامت...

استيقظت في وقت ما من الصباح المبكر؛ لم تكن معها ساعة. تصلب جسدها وبرد خوفًا من أن يكون الصبي قد استيقظ قبلها وعاد ليذبح الرجل. لم تعد ذراعا چو حولها. لطالما شعرت بالمسؤولية تجاهه، وتجاه الصغار الذين لم يطالبوا بوجودهم في هذه الحياة، لكن لو أنه فعل هذا فهي قد أخفقت في تحمل مسؤوليتها. القتل في ظل ندرة البشر أكبر خطيئة، ولا يمكنها أن تظل مع چو وحدهما دون مساعدة. البقاء معه أشبه بالحبس في قفص مع أسد متعكر المزاج. كالأسد، يعجز چو عن الحديث، هو فقط يجأر بصوته الطفولي.

جلست، فرأت أن الصبي ما زال معها، وأنه استدار عنها في نومه فابتعد قليلًا. كان متكورًا وإبهامه في فمه، ويده مضمومة على مقبض السكين. مشت ناعسة إلى الحشائش، فأفرغت مثانتها ثم عادت إلى النوم، وعندما استيقظت مرة أخرى لم تكن واثقة من أن أحداث الليل قد وقعت أو أنها حلمت بها فقط.

فكر لاري في أنه لو حلم، فقد حلم بأحلام جميلة فقط. لا يتذكر أيًا منها. عاد إلى نفسه القديمة، واستبشر أن اليوم سيكون يومًا مثمرًا. سيرى المحيط اليوم. لف كيس النوم على نفسه، وربطه إلى حامل الدراجة، ثم عاد إلى حقيبته.. وتوقف.

الطريق مربوط بالشرفة الخارجية بممر أسمنتي، على جانبيه عشب طويل. رأى لاري أن العشب قرب الشرفة مائل مهشم. عندما تبخر الندى، أظهر هيئة آثار أقدام على الطين. لاري ابن المدينة، ليس حطابًا، لكنه لا بد أن يكون أعمى كي لا يلاحظ آثار الأقدام الكبيرة والصغيرة. جاء اثنان ونظرا إليه فيما هو نائم. أصابه هذا برعدة. لم يطمئن لتسللهما، وكره عودة لمسات الخوف إليه.

قال لنفسه إنهما ما لم يكشفوا عن وجودهما، فسيحاول استدراجهما. عادت إليه ثقته بنفسه متشجعًا بهذا القرار، فحمل حقيبته وانطلق.

وصل إلى طريق US1 قرب الظهيرة. عند ويلز رمى عملة في الهواء واختار بناءً على ذلك أن يتوجه إلى الجنوب، تاركًا العملة تلمع في التراب

وراءه. وجدها چو بعد عشرين دقيقةً، وحدَّق إليها كأنه يحدق إلى بلورة سحرية. وضع العملة في جيبه، وأجبرته نادين على بصقها.

بعد ميلين رأى لاري الكائن الأزرق الضخم لأول مرة، هادئًا كسلانًا. هذا الماء يختلف تمامًا عن ماء المحيط الهادي، أو الأطلنطي كما رآه في لونغ آيلاند. هذا الجزء من المحيط لطيف مُروَّض بشكل ما، ماؤه أزرق داكن، يتسلل إلى الشاطئ في موجات منتفخة واحدة تلو الأخرى، فيرتفع الزبد الأبيض في الهواء، ثم يهبط.

أوقف لاري دراجته، ومشى نحو المحيط شاعرًا بحماس عميق غير مُسوَّغ. إنه هنا، لقد وصل إلى المكان حيث يتولى المحيط مقاليد الحكم. هنا نهاية الشرق. هنا تنتهي الأرض.

خلال شاطئ سبخ، غاص حذاؤه في الماء الراكد حول حوامل الأرجوحات الشبكية. رائحة الأمواج منعشة. اقترب من رأس اللسان، فانتهى الشاطئ الرملي، وبدأت الأرض الصلبة الجرانيتية. حوّمت النوارس ناصعة البياض على خلفية من سماء زرقاء صافية. لم ير كل هذا العدد من الطيور في مكان واحد. خطر له أن النوارس آكلات جيف رغم جمالها. لم يجرؤ على التدقيق في ما تلا من خواطر، لكنها تكوّنت في رأسه تدريجيًا قبل أن يدفعها جانبًا وتجاهلها. لا بد أن طعام النوارس من جيف قد تزايد مؤخرًا.

استمر في المشي، يحتك حذاؤه بالصخور التي جففتها حرارة الشمس. ينمو اللزيق البحري بين الصخور، وتتناثر شظايا الأصداف هنا وهناك بعدما التهمت النوارس ما بها من لحم طري.

بعد لحظات كان قد وقف عند مقدمة اللسان، تضربه رياح البحر بكل قوتها، تزيح خصلات شعره الكثيف عن جبينه. رفع وجهه وتنشق الرائحة الملحية. تنكسر المشاطات الضخمة على اللسان، زرقاء مخضرة داكنة، تعلن ضحالة الماء تحتها. تعلو قمم الأمواج أولًا، ثم يحتشد الزبد، ثم تنتحر على الصخور كما كانت تفعل منذ بدء الزمن. تدمر نفسها، وتدمر معها شيئًا من الأرض في كل مرة.

استدار يمينًا ثم يسارًا، ورأى الشيء نفسه يحدث على كلا الجانبين. أخذ من منظر المشاطات والأمواج والرذاذ وما لا نهائية اللون الأزرق الممتد. إنه عند نهاية العالم...

جلس ودلّى ساقيه من الحافة نصف ساعة أو أكثر، حرّك هواء البحر شهيته فبحث في حقيبته عن غذائه. أكل بشهية، والرذاذ يحول طرفي ساقِي سرواله من الأزرق إلى الأسود. شعر بالنظافة والانتعاش.

بعد ذلك عَبَّر الشاطئ السَّيْخ عائداً، غارقاً في خواطره، حتى إنه ظن الصرخات العالية أصوات النوارس، فنظر إلى السماء مرة أخرى قبل أن يدرك مذعوراً أن ما يسمع صرخة بشرية. صيحة حرب.

نظر أمامه مرة أخرى، ورأى صبيّاً يعدو نحوه، ساقيه عضليتين مخططتين بآثار خدوش سياج سلكي، يحمل في يد سكين جَزَّار، ولا يرتدي سوى سروال داخلي. تخرج امرأة من خلف الأجمة والأشجار على جانب الطريق السريع. تناديه شاحبة الوجه: «چوا!»، وبدأت تعدو خلفه متألّمة.

استمرَّ اندفاع چو كأنه لم يسمع شيئاً، وخاض في الأرض السَّبخة ينثر الماء حول كعبيه. كَشَّر عن أنيابه، ورفع السكين فوق رأسه. فكر لاري: إنه قادم ليقتلني. هذا الصبي.. ماذا فعلت له؟

صرخت المرأة: «چوا!» بصوت أعلى هذه المرة، بصوت قلق يائس. وجرى چو مقلّصاً المسافة بينه وبين لاري.

ما أدركه لاري أنه ترك بندقيته معلقة على الدراجة، حتى هجم عليه الصبي، وهوى بالسكين. استفاق لاري من زهوله، وتنحى جانباً في الوقت المناسب، ودون أن يفكر ركل جذع الصبي بجذائه الثقيل. لم يشعر إلا بالشفقة، إذ كان الصبي في وزن الريشة، فطار كلهب شمعة يُطفأ.

نادته نادين: «چوا!». تعثرت في أرجوحة، وسقطت على ركبتيها ملطخة بلوزتها البيضاء بالوحل.

- لا تؤذِه! إنه طفل لا أكثر! رجاء، لا تؤذِه!

ثم جاهدت لتقف على قدميها. سقط چو على ظهره فارداً ذراعيه وساقيه. اتجه لاري إليه، وضغط كفه القابضة على السكين نحو الوحل بقدمه.

- اترك السكين أيها الصبي.

هَسَّ الصبي وأطلق نعيقاً أشبه بنعيق الديك الرومي. انحسرت شفته العليا عن أسنانه، ولمعت عيناه الصينيتان. شعر لاري بذراع الصبي تحت قدمه كأنها ثعبان حانق يتلوى، وشعر بمحاولات الصبي تحرير يده، غير عابئ بسلامة جلده أو لحمه أو حتى عظامه. رفع جذعه وحاول عض ساق

لاري خلال قماش السروال الثقيل. ضغط لاري أكثر على رسغ چو النحيل، فصرخ الصبي صرخة تحدًا لا ألم.

- اتركها أيها الصبي.

واستمر چو في محاولة التملص. كان الوضع ليستمر حتى يحرر الصبي يده، ويكسر لاري رسغه، لولا أن وصلت نادين إليهما، ملوثةً بالطين، متقطعةً الأنفاس، مذعورةً. هَوَتْ على ركبتيها دون أن تنظر إلى لاري، وقالت بهدوء وحزم: «هيا، لنرحل». قربت وجهها المتعرق من وجه چو الملتوي، فنبح فيها كأنه كلب واستمرَّ في التملص. اضطرَّ لاري الواجم إلى أن يستمر في الضغط كي يوازن نفسه. لو تحرر الصبي الآن لضرب المرأة بعنف.

قالت نادين: «اترك.. السكين...».

جارَّ الصبي، وتسرب اللعاب من ركني فمه، وتلطَّخ خده بلطخة على شكل علامة استفهام.

- سنترك يا چو. سأترك.. سأترك معه، إلا لو تأدبت.

شعر لاري بتشنج في الذراع تحت قدمه، ثم ارتخاء. إلا أن الصبي ظل ينظر إليها مكروبًا، متهمًا، حانقًا. نقل الصبي نظره إلى لاري، فرأى الأخير فيهما غيرةً متقدةً. شعر ببرودة النظرة حتى والصبي يتصبب عرقًا.

أكملت حديثها الهادئ. لن يؤذيه أحد. لن يتركه أحد. لو تخلى عن السكين، سنكون كلنا على وفاق. بالتدريج ارتخت الذراع تحت حذاء لاري حتى ترك الصبي سلاحه، واستلقى ينظر يحدق إلى السماء. رفع لاري قدمه عن رسغ الطفل، وانحنى سريعًا يلتقط السكين، ثم رماه بعيدًا نحوه اللسان. دار النصل حول نفسه ودار، عاكسًا رماح من أشعة الشمس. تبعث عينا چو الغاضبة رحلة السكين، وناح في ألم. ارتطمت السكين بالصخور، ثم تدحرجت عن الحافة.

استدار لاري لينظر إلى الصبي. نادين منحنية على ذراع الصبي، تفحص طبعة نعل حذاء لاري المحفورة على جلده. رفعت عينيها الآسفتين الحزینتين نحو وجهه. شعر لاري بكلمات الدفاع التي اعتادها تتدافع على لسانه. «كنت مضطرًا إلى ذلك. لم يكن هذا ذنبی. اسمعي أيتها السيدة، لقد كان سيقتلني...». ظن لاري أنه يقرأ اللوم في عينيها، وكأنها تقول له: «لا، أنت لست رجلًا لطيفًا».

بيد أنه لم يقل شيئاً في النهاية. الموقف واضح، وقد أرغمه تصرف الصبي على ذلك. بالنظر إلى تكور الصبي على نفسه، وإصبعه المندسة بين شفتيه، فطن لاري إلى أنه نفسه قد لا يعي ما فعل. كان الموقف لينتهي نهاية مأساوية، بجرح أحدهما أو مقتله.

لذا لم يقل شيئاً، والتقت عيناه عيني المرأة، وفكّر: «أعتقد أنني قد تغيرت بشكل ما. لا أعرف مقدار التغير»، ووجد نفسه يفكر في شيء قاله له باري كريج عن عازف جيتار من لوس أنجلوس، رجل يُدعى چوري بيكر، يصل دائماً في مواعيده، ولا يفوت تدريباً أو يُخفق في أداء. على ذلك، لم يكن عازفاً يلفت الانتباه مثل أنجوس ينج، أو إيدي فان هيلين، لكنه كفاء. قال باري في مرة إن چوري بيكر عجلة جر فريق اسمه سباركس يتوقع الجميع نجاحه. يشبه بدايات فريق كريدنس، بنفس أداء الجيتار القوي لموسيقى الروك. ألف چوري بيكر أغلب الألحان وقام بكل الأداء الصوتي المصاحب. ثم صدمته سيارة، وأقعده في المستشفى، حتى خرج منها كما يقول چون برينس في أغنيته: «بلوح معدني في رأسه، وقرود تتقاذز على عموده الفقري». بعد مدة من تعاطيه الديرمول علاجاً لآلامه، أدمن الهيروين، واعتُقل مرتين. بعد مدة تحول إلى مدمن شوارع، يعزف بأصابع مرتجفة في محطة حافلات جرايهاوند مقابل فكة يدفعها له المارة. ثم بمعجزة ما، أُلحق عن التعاطي خلال ثمانية عشر شهراً، وظل متعافياً. لم يعد عضواً مهماً في أي فريق، لكنه ظل يصل دائماً في مواعيده، ولا يفوت تدريباً أو يُخفق في أداء. لم يعد يتكلم كثيراً، لكن اختفت آثار المحاقن على أوردته. قال باري كريج عنه: «لقد خرج من طرف المِحنة الآخر». لا يمكن لأحد أن يجزم بما يحدث في الرحلة بين الإنسان الذي كنته والإنسان الذي صرت عليه. لا يمكن لأحد وصف طريق الجحيم القصير هذا. ليس من خريطة لذاك الطريق. أنت فقط.. تخرج من طرف المِحنة الآخر.

أو لا تخرج.

قال لاري لنفسه: «لقد تغيرت بشكل ما، لقد خرجتُ من طرف المِحنة الآخر».

قالت: «أنا نادين كروس. هذا هو چو. سعدتُ للقاءك».

- لاري أندروُد.

تصافحا، وكلاهما يبتسم ابتسامة خافتة. قالت نادين: «لنمشِ إلى الطريق».

مشيا معًا، وبعد عدة خطوات نظر لاري من فوق كتفه إلى چو الذي ظل متكورًا يمتص إبهامه، غير واعٍ لما يحدث في العالم.

قالت بهدوء: «سيعود إلى وعيه».

- متأكدة؟

- جدًا.

بوصولهما إلى بداية الطريق، تعثرت نادين، فأسندها لاري. نظرت إليه شاكرةً وسألته: «هلا جلسنا؟».

- بالتأكيد.

جلس على الرصيف في مواجهة بعضهما. بعد هنيهة قام چو وعدا نحوهما وهو ينظر إلى قدميه الحافيتين، ثم جلس على مَبعدة منهما. نظر إليه لاري ثم إلى نادين وسألها: «أنتما مَن تبعاني؟».

- كنت تعرف؟ نعم. كنتُ أعتقد أنك تعرف.

- منذ متى؟

- منذ يومين. كنا نقيم في المنزل الأبيض الكبير في إبسوم.

رأت الحيرة على وجهه، فأضافت: «جوار الجدول. نمتَ إلى جوار السور الحجري». أوماً، فقال: «وجئتما ليلة أمس إلى حيث نمتُ في الشرفة الخلفية، ربما للتحققًا من وجود قرنين لي أو ذَنبٍ أحمر طويل».

قالت بهدوء: «كان هذا چو. تبعته عندما لاحظتُ اختفاءه. كيف عرفت؟».

- تركتما أثرًا على الأرض الرطبة.

حدقتُ إليه، تفحصته، ولم ينزل لاري عينيه عنها حتى وهو يرغب في ذلك. قالت: «لا أريدك أن تغضب منّا. أعتقد أن هذا يبدو سخيًّا بعدما حاول چو قتلك، لكنَّ چو ليس مسؤولًا».

- هل هذا اسمه الحقيقي؟

- لا. هذا اسم سميته له.

- إنه يبدو كهجمي من الأفلام الوثائقية.

- نعم، هو كذلك. عثرتُ عليه في باحة منزل باسم روكواي.. على الأرجح منزله. وجدته مريضاً مصاباً بـلدغات وعَضَات. لا يتكلم، إنما يهس ويجأر. كنت أسيطر عليه حتى هذا الصباح. لكنني.. مرهقٌ، كما ترى... هزتُ كتفيها. الوحل يجف على بلوزتها، مشكلاً ما يشبه الرموز الصينية. أكملت: «ألبسته ثياباً، لكنه خلعها كلها إلا سرواله الداخلي. في النهاية تعبتُ من تَكَرُّر المحاولة. يبدو أن البعوض لا يضايقه. لا مفر منه على أي حال في ظروفنا هذه».

تساءل لاري عن رد فعلها لو أخبرها بما حدث لآخر امرأة رغبتُ في مصاحبتِها، ناهيك برغبته هو في مصاحبتها. هذه أحداث دُفِنَتْ في أعماق عقله حتى لو لم تُدَفَّن المرأة التي يقصدها. إنه لا يتشوّق إلى ذكر ريتا، إلا كما يتشوق القاتل إلى حشر اسم ضحيته في أي مناقشة.

قال: «لا أعرف إلى أين سأذهب. جئتُ من مدينة نيويورك، متخذاً أطول طريق على ما أعتقد. خطّتي أن أجد بيتاً جميلاً على الشاطئ، وأمكث فيه حتى أكتوبر مثلاً. كلما مر الوقت تُقَتُّ إلى البشر، وكلما ارتحلتُ صدمني هول ما جرى».

لم يعبر عن نفسه جيداً، ويبدو أنه لن يستطيع فعل ذلك دون ذكر ريتا أو أحلامه عن الرجل الغامض. قال بحرص: «ارتعبتُ وقتاً طويلاً لأنني وحدي.. مصاب بالارتياب.. كأني أتوقع أن يظهر الهنود فجأةً ويسلخون فروة رأسي».

- يمكن أن نقول إنك توقفت عن البحث عن بيوت، وصرت تبحث عن أشخاص.

- نعم، ربما.

- لقد وجدتنا. هذه بداية جيدة.

- أعتقد أنك من وجدتنِي. الصبي يقلقني يا نادين. يجب أن أصرح لك بهذا. لقد تخلصتُ من سكينه، لكنَّ العالم مليء بالسكاكين التي تنتظره ليلتقطها.

- أجل...

- لا أريد أن أبدو قاسياً...

صمتَ أملاً أن تكمل هي عبارته، إلا أنها ظلتُ تحقق إليه بتلك العينين الداكنتين. أكمل: «هل فكرت في تركه؟». بصق عبارته ككتلة حجارة، ولم

تتحسّن صورته كرجل لطيف.. لكنّ هذا صحيح، وعادل بالنسبة إلى كليهما. سيصير وضعهما أصعب بارتباطهما بصبي مختل. لقد أُنذرها من أن ما سيقوله قاسيًا، لكنهم في عالم أشد قسوة.

في أثناء حوارهما، ظلّ چو ينظر إليهما بعينين كماء البحر. قالت نادين: «لا يمكن أن أفعل هذا. أتفهّم الخطرَ، وأتفهّم أنه واقع عليك بشكل أكبر. إنه يغار، ويخشى أن تصير أكثر أهمية منه بالنسبة إليّ. ربما.. ربما يحاول التخلص منك مرة أخرى، ما لم تتصادقا، أو على الأقل تقنعه أنك...». صمتت، تاركه عبارةً مبتورةً غامضةً. أكملت: «لكنّ تركه قتلٌ، ولا أريد أن أشارك في شيء كهذا أيضًا. لقد مات الكثير ولا يحتمل الأمر موت المزيد».

- لو نحرني وأنا نائم، لكنتُ مشاركةً في هذا أيضًا.

أطرقتُ رأسها، قال بصوت هامس بالكاد تسمعه هي (لا يعرف أكان چو يراقبهما ويفهم أنهما يتحدثان عنه): «كان ليقتلني ليلة أمس ما لم تلحقي به. هل أنا مخطئ؟».

أجابتُ برقة: «كان هذا ليحدث، لكنه لم يحدث.. أريد أن أرافقك يا لاري، لكنني لن أترك چو. اتخذ أنت القرار».

- أنت لا تُسهّلين الأمر عليّ.

- لا شيء سهل هذه الأيام.

فكر في الأمر. چو جالس عند منعطف الطريق يراقبها، من خلفهما المحيط يضرب الصخور. قال: «حسنًا. أعتقد أنك رقيقة القلب بشكل خطر، لكن... حسنًا».

- شكرًا لك. سأكون مسؤولة عن أفعاله.

- سيُرِحنِي ويقتلني.

- سأحفظ جميلك في قلبي طوال عمري.

لطمها خاطر مباغت؛ كل كلماتها عن قداسة الحياة تنقلب عليها في يوم وتلطمها كريح باردة. ارتعدت. قالت لنفسها: «لا لن أقتل. لن أفعل هذا أبدًا».

خيّموا تلك الليلة فعلى رمال شاطئ ويلز البيضاء. أشعل لاري نارًا هائلة. جلس چو في الجهة المقابلة من النار، بعيدًا عنه وعن نادين، يرمي إلى النار

بعض العصي. من وقت إلى آخر يعرض طرف عصا كبيرة بعض الشيء للنيران حتى يشتعل كالمشعل، ثم يجري على الرمال كأنه يحمل شمعة عيد ميلاد وحيدة. يستطيعان رؤيته حتى مسافة ثلاثين قدمًا، ثم لم يعد يظهر منه سوى مشعله المتأرجح. هبَّت رياحُ البحر أبردَ من المعتاد في الليالي السابقة. تذكَّر لاري المطر الذي انهمر يوم وجد أمه ميتة، قبل أن تجتاح الإنفلونزا الفائقة نيويورك كقطار شارد. تذكَّر العاصفة الرعدية والستار الأبيض المرفرف إلى داخل الشقة. ارتجف، وارتفعت ألسنة النار عاليةً نحو السماء المرصعة بالنجوم، وتطاير الشرر أعلى، ثم خبا. فكَّر في الخريف، إنه بعيد لكنه ليس أبعد من يوم اكتشاف وفاة أمه في يونيو. بعيدًا على الشاطئ، يتراقص مشعل چو ويتفافز. جعله هذا يشعر بوحدَة هذا الضوء وسط الظلمة الحالكة الشاسعة.

- هل تعزف؟

أجفل من صوتها ونظر إلى حقيبة الجيتار على الرمال جوارهما. كانت الحقيبة مسندة إلى بيانو ضخم في المنزل الذي اقتحمه ليحصل على عشاءهما. وضع في حقيبته معلبات تُعوّض ما أكلوه خلال اليوم، ثم أخذ الجيتارَ دون تفكير ولم ينظرُ حتى إلى ما في داخل حقيبته. إنه لم يعزف منذ حفل ماليبو الجامح، وكان هذا منذ ستة أسابيع، في حياة أخرى.

أجاب: «نعم»، واكتشف أنه يرغب في العزف، ليس من أجلها، بل لأن العزف يهدئ العقل أحيانًا. بالإضافة إلى أن إشعال نار على الشاطئ يُوجب العزفَ، هذا ما عهدنا عليه أجدادنا.

قال وهو يفتح الحقيبة: «لنرَ ما لدينا هنا».

توقع أن يجد جيتارًا فخماً، لكن سرَّه ما وجد؛ جيتار جيبسون ذو اثني عشر وترًا. آلة بديعة مصنوعة خصوصًا لصاحبها في الغالب، فلم يكن لاري مختصًا في الجيتارات ليُجزم، لكنه ميَّز أن عَتَبَ هذا الجيتار مرصَّع بأصداف اللالكِ الأصلية، ينعكس عليها وهج النار البرتقالي فتُحلُّه إلى ألوان الطيف.

قالت نادين: «إنه جميل».

- فعلًا.

داعب أوتاره فأعجبه صوته المتوازن الأكثر كثافة وعمقًا من صوت الجيتار سداسي الأوتار. صوت متناغم، لكنه ليس قويًا. هذه هي مزية الجيتارات ذات

الأوتار المعدنية. أوتار هذه الآلة من ماركة بلاك دايموند، ملفوفة قليلاً، تصدر صوت زينج! عند التبديل بين الأوتار.. ابتسم لاري وقد تذكر محاولات باري كريج في العزف على أوتار الجيتارات المسطحة. باري الذي حلم بأن يصير مثل ستيث ميلر عندما يكبر.

سألته نادين: «علامَ تبتسم؟».

قال بصوت حزين: «على ما مضى...».

ضبط الجيتار سماعياً، وهو يفكر في باري وچوني مَكُول ووين ستوكي. بينما يفعل ذلك، نقرت كتفه فالتفت. كان چو واقفاً إلى جوار النار، وعصا محترقة في يده. يحدق إليها بتلك العينين الغريبتين في افتتاح حقيقي، وفمه مفتوح.

قالت نادين بصوت هادئ، حتى يمكن أن يكون مجرد صوت في عقلها فقط: «للموسيقى سحر...».

بدأ لاري يعزف موسيقى بلوز قديمة عرفها وهو مراهق من ألبوم إليكترا. أغنية أصلية كويرنر أو راي أو جلوثر. عندما انطلق في العزف بسلاسة، بدأ يغني، وغناؤه أفضل دائماً من عزفه.

«ستدنيني يا حبيبتي، آتياً من رحلة بعيدة..
سأحيل الليل يا ماما إلى نهار..
لأنني هنا، بعيداً عن موطني..
لكنك تسمعينني يا حبيبتي وأنا آتٍ،
بالطرق على عظام القط الأسود⁽¹⁾».

ابتسم الصبي ابتسامة من اكتشاف سرّاً رائعاً. بدا للاري كمَن عانى حِجّة بين لوحٍ كتفيه مدةً طويلةً، ثم وجد أخيراً من يحك له ظهره في المكان الصحيح بالضبط. بحث بين سجلات أغاني الماضي في عقله، يبحث عن المقطع التالي...

(1) من أنواع الاستبصار في سحر الهودو؛ طرق عظام القطط السوداء لرؤية المستقبل (المترجمة)

«أستطيع يا ماما أن أفعل ما لا يستطيع الآخرون..
لا يستطيعون أن يعثروا على المرأة المنشودة،
ولا على جذور چاك الغازي⁽¹⁾..
لكني أستطيع، لأني بعيد عن موطني،
وأنت تعرفين أنك ستسمعينني وأنا آتٍ،
بطرق عظام القط الأسود...».

أضاءت ابتسامة الصبي عينية، صارتا ساحرتين، قادرتين على إرخاء عضلات فخذني أي فتاة. حاول الانتقال إلى نغمات مختلفة، فضرب الأوتار الخاطئة، ونشزت الألحان. عاد إلى سابق عزفه مرة أخرى قبل أن يخرب كل شيء. إنه لا يتذكر مقطع الأغنية الأخير الذي يتكلم عن السكك الحديد، فكرر المقطع الأول مرة أخرى ثم صمت.

ضحكت نادين وصفقت. رمى چو عصاه وقفز على الرمال، مطلقاً صوتاً جزلاً. لم يصدق لاري التغير الذي طرأ على الصبي، وحذر نفسه من الاعتماد عليه في حكمه. لن يغامر فيخيب أملة.

« للموسيقى سحر يُروّض الوحوش الهمجية »⁽²⁾

وجد نفسه يتساءل أكان الواقع بهذه البساطة. أشار إليه چو، فقالت نادين: «يريدك أن تعزف شيئاً آخر. هلاً فعلت؟ كان عزفك رائعاً، وقد حسّن مزاجي. صرت أفضل بكثير».

لذا عزف أغنية چوف مولدور «الذهاب إلى وسط المدينة»، وأغنيته «موسيقى بلوز فرينسو»، و«كارثة منجم سبرينجهيل»، وأغنية آرثر كروودوب «لا بأس يا ماما»، ثم انتقل إلى موسيقى روك أكثر قدماً، فغنى «بلوز البقرة الحلوب»، و«چيم داندي». (حاول أداء أصوات الجوقة أيضاً قدر استطاعته، وصارت أصابعه الآن خدرة)، وأخيراً ختم بأغنية يحبها: «نوم لا نهائي» وهي أغنية أصلية لچودي رنولدز.

(1) أحد آلهة سحر الهودو الإفريقي الأمريكي، وله ارتباط وثيق بنبات الجلاب الذي يستخدم سحرة الهودو جذوره في سحر للحماية (المترجمة)

(2) عبارة لويليام كونجريف، كاتب مسرحيات أمريكي (المترجمة)

قال لچو الذي ظل ساكنًا طَوَالَ عزفه: «لا أستطيع عزف المزيد.. أصابعي»، ورفعها ليديه عمق الأحاديث التي حفرتها الأوتار عليها، وأظفاره المكسورة. رفع الصبي يديه.

توقفت لاري هنيهة، ثم هز كتفيه وناول الصبي الجيتار. قال: «إنه يحتاج إلى تدريب...».

لكنَّ ما تلا ذلك كان أكثر ما سمعه إثارة للذهول في حياته. عزف الصبي أغنية «چيم داندي» بلا خطأ تقريبًا، وهمهم بالكلمات بدلًا من غنائها، كأن لسانه ملتصق بسقف حلقه. في الوقت نفسه، ظهر للاري بوضوح أنه لم يعزف على جيتار قَطُّ، ولا يستطيع التحميل جيدًا على الأوتار لتُخرج صوتًا دقيقًا، أما التغيير بين الأوتار فجاء بطيئًا. الصوت الذي خرج من الجيتار ضعيف شبحي - كأنه يعزف جيتارًا محشوًّا بالقطن - لكن في ما عدا ذلك، كان عزفه نسخة عن عزف لاري.

نظر چو في فضول إلى أصابعه بعدما انتهى، كأنه يحاول أن يفهم كيفية عزفه للحن الذي عزفه لاري، لكنَّ ليس بالوضوح ذاته. وكأنما من مسافة بعيدة، سمع لاري نفسه يقول دون تفكير: «أنت لا تُحمِّل على الأوتار كفاية. هذا كل شيء. تحتاج إلى أن تتصلب أطراف أصابعك قليلًا، وتقوِّي عضلات ذراعك اليسرى».

تفرَّس چو في وجهه وهو يتكلم، ولم يعرف لاري أكان الصبي قد فهم أم لا. التفت إلى نادين وقال: «هل كنتِ تعرفين أنه يستطيع فعل ذلك؟».

- لا. أنا مدهوشة مثلك. لا بُدَّ أنه عبقر، أليس كذلك؟

أومأ لاري. عزف الصبي «لا بأس يا ماما»، وقلَّد كل فارق موسيقي بسيط في عزف لاري. خرج صوت الأوتار أحيانًا كطرق الخشب إذ منعت أصابع چو الأوتار من الاهتزاز بحرية. قال لاري وهو يمد يده طالبًا الجيتار: «دعني أرشدك».

زَمَّ چو عينه في شك. افترض لاري أنه يتذكر الآن أمر السكين. تراجع الصبي إلى الخلف متشبثًا بالجيتار. قال لاري: «لا بأس. إنه لك. لو أردتَ درسا، تعال إليَّ».

نَعَبَ الصبي كالبوم وانطلق يجري نحو الشاطئ رافعًا الجيتار فوق رأسه. قال لاري: «سيحطمه». فقالت نادين: «لا. لا أعتقد أنه سيفعل هذا».

استيقظ لاري في وقت ما من الليل، واستند إلى كوعه. نادين ليست سوى هيئة أنثوية مدثرة بالأغطية قرب النيران المطفأة، وعلى الجهة الأخرى من لاري چو مندرس تحت غطاء ثقيل، وإصبعه في فمه، وبين ساقيه الجيتار. نظر إليه لاري مفتوناً. لقد أخذ سكينه وتخلص منها، فتبَنَّى الصبي الجيتار. ليأخذه، لا بأس. افترض لاري أنه لن يطعن أحد به، وهذا ما يجعله أداه آمنة. اطمأن إلى هذا، فعاد إلى النوم.

عندما استيقظ لاري في الصباح التالي، وجد چو جالساً على صخرة، والجيتار على حجره، يعزف «بلوز فرينسو». تحسن عزفه كثيراً. استيقظت نادين بعد عشرين دقيقة، وابتسمت له ابتسامة مشرقة. التفت لاري إلى لطفها وجمالها، وتذكر أغنية تشاك بيرى «نادين، حلوتي، هل هذا أنت؟». هتف: «لنر ما لدينا للإفطار».

أشعل النارَ وجلس ثلاثتهم قريباً يتخلصون من برد الليل الساكن في عظامهم. صنعت نادين شوفاناً بالحليب المجفف، وشربوا شايًا مغلياً في علبه صفيحية. أكل چو والجيتار على فخذه، ووجد لاري نفسه يبتسم للصبي مرةً أو اثنتين، ويفكر كيف يمكن ألا يحب المرء من يحب الجيتار؟

ركبوا إلى الجنوب على طريق US1. ركب چو دراجته محاذياً خط منتصف الطريق الأبيض، يسبقهم أحياناً بميل. لحقاً به في مرة ليجداه يسير إلى جوار دراجته ويأكل التوت الأسود في استمتاع، يرمي الثمرة إلى أعلى، ثم يلتقمها وهي تنزل. بعد ساعة وجداه جالساً تحت نصب الثورة التذكاري يعزف أغنية «چيم داندي».

قبل الساعة الحادية عشرة ظهراً، قابلتهم سدة طريق غريبة عند حدود بلدة تدعى أوجونكويت. ثلاث سيارات برتقالية من شاحنات قمامة البلدية تقف لتسد الطريق، وغراب ينهش جثة رجل ترتع فيها الديدان بارزة من القمامة في إحداها.

شاحت نادين عن المنظر وسألت: «أين چو؟».

- لا أعرف. ربما في مكان ما أمامنا.

- أتمنى ألا يكون قد رأى هذا. هل تظنه رآه؟

- ربما...

كان يفكر في أن طريق US1 كان مهجورًا منذ غادروا ويلز، ولم يصادفوا إلا أقل من دستتي سيارات معطلة على الطريق. فهم الآن السبب. لقد أغلقوا الطريق. على الأغلب مئات أو آلاف السيارات مكومة على الجانب القصي من البلدة. كان يتفهم ما تشعر به بخصوص چو. كان الأفضل لو أُعفي الصبي من رؤية هذا.

سألته: «لماذا أغلقوا الطريق؟ لماذا قد يفعلون ذلك؟».

- لا بُدَّ أنهم حاولوا عزل البلدة. أراهن على أننا سنجد سدًا آخر عند المخرج الثاني.

أسند لاري دراجته إلى سنادتها وقال وهو ينظر بعيدًا: «ثلاث جثث...».

- لن أنظر إليها.

أومأ لاري. سحب دراجتيهما بين الشاحنات، ثم ركباها. انحنى الطريق نحو المحيط مرة أخرى، وانخفضت درجة الحرارة. شاليهات المصايف مرصوفة في صفوف طويل. هل يصطاف الناس في تلك العُلب؟ لماذا لا يذهبون إلى هارلم ويدعون الأطفال يلعبون تحت صنادير إطفاء الحريق أفضل؟

قالت نادين: «ليست جميلةً على الإطلاق، أليس كذلك؟».

على الجانب المقابل من الشاليهات، منتجع شاطئي رخيص، يضم محطة تزويد وقود، وكُشك بيع محار مقلي، وآخر للآيس كريم، وموتيلات مطلية بألوان باهتة غير متناسقة، وعربات ميني جولف.

تنازع لاري أمان؛ الأمر الأولُ تدمره من القبح حوله، ومن قبح العقول التي حوّلت هذا الجزء الرائع من المحيط إلى هذا المكان البشع، والأمر الثاني تذكره لكل من ملأ تلك العلب في يوم. سيدات يعتمرن قبعات القش ويرتدين شورتات ضيقة تبرز أردافهن السمينة، الشباب الذين يرتدون قمصان لعبة الرجبي المخططة بالأحمر والأسود، والفتيات في أردية البحر، ينتعلن صنادل خفيفة، والأطفال الصارخون ذوو الوجوه الملطخة بالآيس كريم. إنهم أمريكيون، وفي تجمعاتهم الصاخبة القدرة قُدر من الحياة المبهجة. كل هؤلاء الأمريكيين قد رحلوا. عاصفة رعدية انتزعت فرعًا من الشجرة فأسقطت لافتة كشك الآيس كريم العملاقة فوق باحة الانتظار. توحش العشب حول عربات

المني جولف. كان الطريق الطويل الممتد بين بورتلاند وبورتسماوث سبعين ميلاً من المُتنزهات الترفيهية، والآن صار كملاً مسكونة تعطلت ألعابها.

قال: «لا، ليست جميلة. لكنها كانت كذلك يا نادين. في الماضي كانت ملكنا، حتى لو لم نأت هنا من قبل. كانت ملك البشر، والآن كل شيء انتهى».

قالت بهدوء: «لكن لم ينته إلى الأبد». نظر إليها، إلى وجهها النظيف اللامع. جبينها المتوج بخصلات شعرها الأبيض يضيء كالمصباح. أكملت: «لست دينة، لكني لو كنت كذلك، لآمنت أن ما حدث حكمة إلهية. بعد مائة عام، أو مائتين، سيعود كل شيء إلينا مرة أخرى».

- لن تختفي هذه الشاحنات خلال مائتي عام.

- لا، لكن الطريق سيختفي، وستقف الشاحنات في منتصف حقل أو غابة، وستنمو النباتات مكان إطاراتها. لن تصير شاحنات، بل آثار.

- أعتقد أنك مخطئة.

- كيف هذا؟

- لأننا نبحث عن آخرين. لماذا تظنين أننا نفعل هذا؟

حدقت إليه وأجابت مهمومة: «حسنًا.. لأن هذا هو التصرف الصحيح. يحتاج البشر إلى البشر. ألم تشعر بهذا عندما كنت وحدك؟».

- أجل. ما لم نجد بعضنا لجننت من الوحدة. والآن سنجد جماعة، وسنبني أميالاً من الشاليهات الشبيهة بالعلب، وسنقتل بعضنا في الحانات في ليالي السبت». ضحك، ضحكة باردة تعسة خالية من البهجة. ظلت معلقة في الهواء وقتاً طويلاً حتى قال: «لا يوجد حل. تعالي، چو سبقنا بمسافة».

وقفت إلى جوار دراجتها هنيهة، تحديق إلى ظهر لاري بعينين مهمومتين، ثم انطلقت تتبعه. لا يمكن أن يكون محققاً. لا يمكن. إن وقع هذا المستقبل الوحشي بلا سبب، فما الحكمة من كل هذا؟ لماذا هم أحياء حتى الآن؟

لم يكن چو بعيداً عنهما بكثير. عثرا عليه جالساً على صندوق خلفي لسيارة فورد، واقفة في ممر أمام منزل، ينظر إلى مجلة فتيات وجدها في

مكان ما، ولاحظ لاري في قلق أن عضو الصبي الذكري منتصب. نظر نظرة جانبية إلى نادين، فوجدها تنظر إلى اتجاه آخر.. ربما عن عمد. عندما وصلا إليه، سأله لاري: «هل ستأتي؟».

وضع چو المجلة جانبًا، وأشار إلى الهواء بالأعلى. نظر لاري بسرعة إلى حيث أشار، ظنًا منه أن الصبي رأى طائرة، ثم صاحت نادين في حماس: «إنه لا يشير إلى السماء، بل إلى سقف الحظيرة! انظر إلى الحظيرة! شكرًا للرب على أنك معنا يا چو! لولاك ما انتبهنا إليها!».

اندفعت نحو الصبي، وأحاطته بذراعيها وعانقته. التفت لاري نحو الحظيرة حيث الكلمات المكتوبة تشير إلى وجهة فرانسيس وهارولد؛ ستوفينجتون، مركز الأوبئة.

هتف لاري: «رباه! لا بدُّ أن مؤخرته كانت معلقة في الهواء بينما يكتب السطر الأخير!».

قالت نادين متجاهلةً إياه: «مركز الأوبئة؟ لماذا لم أفكر في هذا من قبل؟ قرأتُ عنه في مجلة منذ ثلاثة أشهر! لقد ذهبنا إلى هناك!».

- لو أنهما حيَّان بعد.

- حيَّان؟ طبعًا حيَّان. لقد انتهى الوباء في الثاني من يوليو، ولو استطاعا تسلق سقف حظيرة، فهما أصحاء بلا شك!

وافقها لاري وهو يشعر بحماس يعقد معدته: «أحدهما كان متحمسًا جدًّا أيضًا. لكنني عبرتُ فيرمونت في طريقي».

قالت نادين في شرود وهي تنظر إلى الحظيرة: «ستوفينجتون شمال الطريق رقم 9، على ذلك، لا بدُّ أنهما الآن هناك. التاريخ الذي كتباه، الثاني من يوليو، كان منذ أسبوعين. هل تظن أن في مركز الأوبئة آخرين يا لاري؟ أعتقد هذا، صَح؟ لما كانوا يعرفون كل شيء عن العزل والملابس المعقمة؟ لا بدُّ أنهم يعملون على ابتكار علاج، أليس كذلك؟».

أجاب لاري في حذر: «لا أعرف».

قالت في نفاد صبر وجموح: «طبعًا يفعلون!».

لم يَرها لاري من قبل متحمسةً هكذا، حتى بعد عزف چو المذهل. أردفت نادين: «لا بُدَّ أن هارولد وفرانسييس عثرا على عشرات الآخرين.. ربما مئات. سنذهب على الفور. أسرع طريق هو...».

قاطعها لاري هو يقبض على كتفها: «انتظري لحظة...».

- ماذا تعني؟ أنتظر؟ هل تدرك...

- أدرك أن ما كتباه ظلَّ هنا أسبوعين حتى عثرنا عليه، وكان ليظل أكثر. لنأكل غداءنا الآن، بالإضافة إلى أن چو العزيز مُهوَّس الجيتار ينام واقفاً.

نظرتُ إليه. كان ينظر إلى المجلة مرة أخرى وهو يومئ برأسه ناعساً، تحيط بعينيه الهالات الداكنة. قال لاري: «تقولين إنه شُفي للتو من عدوى، وقد سافرتما كثيراً.. وترصدتما بعازف الجيتار أزرق العينين».

- أنت مُحقِّق. لم أفكر في هذا من قبل.

- كل ما يحتاج إليه وجبة جيدة، ونوم مريح.

نخر چو نخرة نعاس قوية.

شعر لاري بالخوف يحتشد في حلقه. إنه مضطربٌ إلى قول شيء، وإن لم يقله، فستقوله نادين حالما تحصل على فرصة للتفكير.. ثم إن الوقت قد حان ليتأكد من كونه قد تغيَّر فعلاً كما ظن. سألتها: «هل تستطيعين القيادة يا نادين؟».

- القيادة؟ هل تسأل أكانت لدي رخصة؟ نعم، لدي. لكنَّ السيارة اختيار

غير عملي، وكل تلك العوائق على الطريق.

- لا أتحدث عن السيارات...

قالها وهو يفكر في ريتا، تركب خلف الرجل الغامض على الدراجة البخارية المتوحشة، كأنهما من الفرسان الأربعة⁽¹⁾. جفف الخاطرُ حلَقه، وزاد نبضات قلبه، إلا أنه استمر في الحديث، فهدأ صوته. ولو أن صوته قد تهدَّج فنادين لم تلاحظ هذا. الغريبة أن چو قد أفاق من سِنته، ونظر إليه كأنما لاحظ تغييراً فيه.

(1) في العهد القديم ذُكِرَ أربعة فرسان يأتون في نهاية الزمان وهم فرسان الموت والوباء والمجاعة والحرب (المترجمة)

- كنتُ أفكر في نوع من أنواع الدراجات البخارية مثلاً. يمكننا أن نقطع مسافة كبيرة في وقت قليل وبمجهود أقل، ونعبر بهما من بين عوائق الطريق كما فعلنا مع دراجاتنا.

ظهر الحماس في عينيها وهي تقول: «نعم، يمكننا أن نفعل هذا. لم أقد واحدة من قبل، لكنّ يمكنك أن تعلمني. أليس كذلك؟».

زاد زعر لاري مع تصرّيحها أنها لم تقُدْ دراجة بخارية من قبل، إلا أنه قال: «بلى، لكن كل ما سأعلمك إياه هو القيادة ببطء حتى تتمكني منها. القيادة ببطء شديد. الدرجات البخارية -حتى الصغيرة منها- لا تغفر الهنأت البشرية، ولن أتمكن من نقلك إلى طبيب لو أصبت».

- إذن هذا ما سنفعله. لكن... هل كنت تقود دراجة بخارية يا لاري قبل أن نتقابل؟ وإلا كيف قطعت المسافة من نيويورك بهذه السرعة؟

قال في ثبات: «لقد تخلصتُ منها. أصابني الاضطراب من ركوبها منفرداً». - لن تكون وحدك بعد الآن.

ثم التفتت إلى چو وأكملت في مرح: «سنذهب إلى فيرمونت يا چو! سنقابل أناساً آخرين. أليس هذا لطيفاً؟ بل رائعاً!».

وتشاءب چو.

قالت نادين إن حماسها يمنعها عن النوم، لكنها ستستلقي إلى جوار چو حتى ينام. ركب لاري إلى أوجونكويت لبحث عن معرض دراجات بخارية، فلم يجد. تذكر أنه رأى متجر دراجات في طريقهم إلى خارج ويلز. عاد ليخبر نادين، فوجدهما نائمين في ظل السيارة الفورد حيث كان چو يطالع المجلة. تمدد بالقرب منهما لكنه عجز عن النوم. في النهاية قرر أن يقطع الطريق السريع إلى الحظيرة. في الحقل طويل الحشائش، تقافزت نطاطات الحقل أمام خطواته هرباً منه. فكر لاري: أنا وبأؤهم. أنا رجلهم الغامض.

وجد جوار بابي الحظيرة الكثير من علب البيبسي، وبقايا شطيرة. كانت النوارس في الظروف العادية لتأكل بقايا الشطيرة، لكنّ الزمن تغير، والنوارس الآن تحظى بطعام أفضل.

دفع العلب بإصبع قدمه، ثم قطعة الخبز. انقل هذا إلى المعمل الجنائي أيها الرقيب بريجز. أعتقد أن قاتلنا ارتكب خطأ أخيراً.

أمرك يا سيدي المفتش أندروُد. يوم قررت سكوتلانديارد إرسالك إلينا كان يومَ سعد!

لا تقل هذا أيها الرقيب. هذا عملي.

دخل لاري إلى الحظيرة الظلمة الحارة، ذات السقف الموبوء بعصافير الدوري. رائحة القش سكرية. لا حيوانات بالداخل، لا بُدَّ أن صاحب المزرعة قد أطلقها لنصيبتها بدلًا من أن تموت من الجوع.

سجّل هذه الملاحظة أيها الرقيب.

بالتأكيد أيها المفتش أندروُد.

نظر إلى الأرض ورأى غلاف شوكولاتة باي داي، التقطه وفكر في أن كاتبَ اللافتة شجاعٌ، لكنَّ ذوقه في الطعام متدنٍ. الدرجات التي تقود إلى علية تخزين التبن مثبتة بمسامير إلى أعمدة العلية الحاملة. تسلقه لاري وهو لا يعرف سببَ وجوده هنا. تحرك ببطء يراقب وجود الفئران، ورأى في منتصف العلية المزيد من الدرجات المؤدية إلى سقف الحظيرة المُقَبَّب، ملطخةً بدهان أبيض.

لقد وجدنا دليلًا آخر أيها الرقيب.

أنا مدهوش يا سيدي المفتش. لا توافق قدراتك في التحريات إلا وسامتك وطول أعضائك التناسلية الاستثنائي.

لا تبالغ أيها الرقيب.

صعد إلى السقف. الجو حارق بالأعلى. لو أن هارولد وفرانسيس تركا الطلاب بالأعلى بعد انتهائهما، لاحترقَتِ الحظيرة بما فيها منذ أسبوع. النوافذ قذرة ملطخة بشباك العناكب المتحللة، التي لا بُدَّ غُرِلَتْ وقتَ كان جيرالد فورد رئيسًا. إحدى تلك النوافذ مفتوحة. أطل لاري منها فرأى منظرًا يخلب اللب للبلدة على امتداد أميال.

جانب الحظيرة يواجه الشرق، واستطاع لاري من هذا المكان المرتفع رؤية التعديلات على الطريق، التي تبدو من مستوى الأرض قبيحة كريهة، لكنها من هنا مجرد صفائح قمامة متناثرة لا أهمية لها. خلف الطريق السريع المحيط الهائل، تنقسم أمواجه إلى اثنين إذ تقترب من حاجز الأمواج الممتد من جانب الميناء الشمالي. البلدة لوحة بألوان الزيت، تمثل الصيف باللونين الأخضر

والذهبي المميزين لوقت ما بعد الظهر. رائحة الملح واليود واضحة. رأى لاري وهو ينظر من أعلى توقيع هارولد على السقف المقبب مقلوبًا. تخيل كاتَبَ الكلمات مُدَلَّى من النافذة أصابه بالدوار. لا بُدَّ أنه تعلَّق من قدميه كي يكتب اسم الفتاة. لماذا كابد هذه المشقة أيها الرقيب؟ أعتقد أن هذا السؤال من الأسئلة التي يجب أن نوجهها إلى أنفسنا. كما ترى أيها المفتش.

نزل الدرج بحذر، لا مجال للسيقان المكسورة. لفت انتباهه شيء آخر في القاع، شيء محفور على أحد الأعمدة، أبيض مضيء يتضاد مع ظلام الحظيرة. اقترب منه ومرر كفه عليه نصف مدهوش، نصف متعجب من هذا الفعل البشري الذي فعله أحدهم في اليوم نفسه الذي ماتت فيه ريتا. تتبع الرسم بطرف ظُفْره.



أعتقد أيها الرقيب أن الفاعلين متحابان. قال لاري: «هنيئًا لك يا هارولد»، وغادر الحظيرة.

اتضح أن متجر الدراجات في ويلز توكيل هوندا، ومن طريقة رص الدرجات في المعرض، استنتج لاري اختفاء اثنين منها. انتابه الفخر لعثوره على أدلة أخرى؛ غلاف شوكولاتة باي داي قرب إحدى صفائح المهملات. لا بُدَّ أن ذا الذوق المتدني -في الغالب الولهان هارولد لودر- قد التهمها وهو يختار دراجتين له ولمحبوبته. كَوَّرَ الغلاف وقذفه نحو الصفيحة، فأخطأها. رأت نادين أن استنتاجاته سليمة، لكنها لم تؤخِّذ مثله، فقد كانت تعاین الدرجات المتبقية وهي تتحرَّق إلى الرحيل. جلس چو على الدَّرَاجَة أمام المعرض، يعزف على الجيتار وهو ينعب في طرب.

قال لاري: «اسمعي يا نادين، الساعة الآن الخامسة، لا يمكن أبداً أن ننطلق قبل غد».

- لكنْ أماننا ثلاث ساعات من ضوء النهار! لا يمكن أن نجلس هكذا وننتظر! ربما نتأخر على لقائهما.

- لو تأخرنا، فقد حُسِمَ الأمر. ترك هارولد لودر تعليمات بالطريق الذي سيتخذانه، ويمكن أن يترك تعليماتٍ أخرى على طول الطريق.

- لكن...

- أعرف أن هذا مثير للقلق.

وضع يديه على كتفيها وقد شعر بنفاد الصبر القديم يحتشد في صدره، فيجبر نفسه على السيطرة عليه. أكمل: «لكنك لم تركبي دراجة بخارية من قبل».

- يمكنني أن أركب دراجة عادية، أخبرتك بهذا. أرجوك يا لاري. لو لم نضيع وقت، فيمكننا أن نبيت في نيو هامبشير الليلة، وسنكون قد قطعنا نصف المسافة بحلول ليلة غد. يمكن أن...

- إنها ليست كالدراجة الهوائية، اللعنة!

مع انفجاره، توقف العزف على الجيتار من خلفه. يكاد يرى چو خلفه يزمّ عينيه وهو ينظر إليه في شك. فكر لاري في أنه لم يتغير، وأثار هذا غضبه أكثر.

قالت نادين في هدوء: «أنت تؤلمني».

أدرك أن أصابعه غائصة في لحم كتفيها، فانهار غضبه متحوّلاً إلى خزي. قال: «أنا آسف».

ظل چو يحدق إليه، وفهم أنه فقد نصف ما كسبه من ثقة الصبي، وربما أكثر. قالت نادين شيئاً لم يسمعه، فسألها: «ماذا؟».

- قلت: أخبرني بالاختلاف بين الدراجة البخارية والهوائية.

أول ما خطر له أن يصيح فيها: إن كنتِ تعرفين كل هذا، فانهبي واركبيها، وجربي النظر إلى العالم برأس محطم. تحكّم في تلك الرغبة، وهو يفكر في أنه لم يفقد ثقة الصبي فقط، لقد فقد بعض ثقته بنفسه. ربما خرج من الجهة

الأخرى من المحنة، لكنَّ لاري الطفولي خرج معه، يتبع عقبيه كظل منكش تحت ضوء الظهيرة، لكنه لم يَخْتَفِ تمامًا.

- الدراجات البخارية أثقل، لو اختلَّ توازنك، فلن يمكنكِ تمالك نفسك بسهولة كما يحدث مع الدراجات الهوائية. إحدى هذه الدراجات أمامكِ وزنها 360 رطل. يمكنكِ السيطرة على هذا الوزن الزائد سريعًا، لكنكِ ستحتاجين إلى اعتياده. في السيارات العادية، تُبدّل بين السرعات بيدك، وتضغطين دواسَّة الوقودِ بقدمك. الوضع معكوس في الدراجة البخارية، تبديل السرعات بالقدم وزيادة السرعة باليد، ستحتاجين إلى وقت طويل لإتقان هذا. في الدراجة البخارية مكبحا سرعة، تضغطين واحدًا بقدمك اليمنى لتوقفي الإطار الخلفي، وتضغطين الآخر بيدك اليمنى لتوقفي الأمامي. لو أخطأتِ واستخدمتِ مكابح اليد، فستُقذفين من فوق المقود. يجب أيضًا أن تعتادي وجود مَنْ يركب معكِ.

- تقصد چو؟ لكني ظننته سيركب معكِ!

- سأكون مسرورًا لو ركب معي، لكني الآن أعتقد أنه مَنْ سيُمانع. هل توافقينني الرأي؟

نظرتُ نادين مطولًا إلى چو، ثم قالتُ مهمومة: «نعم. لا أظنه سيقبل بالركوب معي حتى. سيخاف».

- لو ركب معكِ، فستكونين مسؤولةً عنه، وسأكون أنا مسؤولًا عنكما، ولا أريد أن أراكما تسقطان عن دراجتك.

- هل هذا ما حدث معكِ يا لاري؟ هل كنتِ مع شخص آخر؟

أجاب لاري: «نعم، وسقطتُ أنا، لكنَّ بعدما ماتت السيدة التي كانت برفقتي».

غمغمت نادين بوجه جامد: «حطمتُ دراجتها؟».

- لا. يمكن أن أقول إن ما حدث كان حادثًا غير مقصود بنسبة سبعين بالمائة، وانتحار بنسبة ثلاثين بالمائة. لم تحصلِ على ما يكفيها مما احتاجت إليه مني.. صداقة.. تفاهم.. أيًا كان. لا أعرف. لم تكنِ تكتفي من شيء.

عاد الغضب الآن، ونبض صدغاه بسرعة، وانغلقت حنجرته، واقتربت دموعه. أكمل: «اسمها ريتا بلاكمور. أريد أن أؤدي دوري أفضل معكِ، هذا هو كل شيء. معكِ أنتِ وچو».

- لماذا لم تخبرني من قبل يا لاري؟

أجاب ببساطة: «لأن الحديث عن الأمر يؤلمني. يؤلمني بقوة».

هذه هي الحقيقة، إلا أنها ليست الحقيقة كلها. الأحلام.. هل ترى نادين أحلامًا؟ استيقظ أمس للحظات، ورآها تتقلب في رقبتها وتغمغم، لكنها لم تذكر شيئًا اليوم. ماذا عن چو؟ هل يرى كوايبس أيضًا؟ إنه لا يعرف شيئًا عنها، بيد أن المفتش الشجاع لاري أندروود من سكوتلانديارد يخشى الأحلام.. ولو سقطت نادين من فوق الدراجة البخارية، لعادت إليه.

قالت: «سنرحل غدًا إذن. علمني الليلة».

المشكلة أن الدراجتين اللتين اختارهما لاري تحتاجان إلى وقود. لدى التاجر مضخة، لكنها لن تعمل دون كهرباء. وجد غلاف حلوى آخر قرب اللوح الذي يغطي خزان الوقود تحت الأرض، وفهم أن الماهر هارولد لودر قد جلب الوقود من أسفل. سواء كان ولهان أم لا، سواء كان عاشقًا لشوكولاتة باي داي أم لا، فلاري يُكنُّ الكثير من الاحترام لهارولد مقدمًا. كان فعلًا قد رسم صورة عقلية له. ربما هو في منتصف الثلاثينيات، مزارع، طويل مُسممر البشرة، نحيف، يفتقر إلى الذكاء بمفهومه العلمي، لكنه واسع الحيلة. ابتسم، إذ إن رسم صورة خيالية لشكل شخص لم تلتقه من قبل محض حماقة، لأنه لا سبيل إلى تخيله. يعرف الجميع حكاية المغني السمين ذي الصوت الرفيع الذي لا يمكن استنتاج صورته من صوته.

بينما نادين تجهز عشاءً باردًا، دار لاري حول متجر الدراجات، حيث وجد صفيحة قمامة كبيرة، تستند إليها عتلة مربوط إليها خرطوم مطاطي رفيع. لقد عثرتُ على أثر آخر لك يا هارولد! انظر إلى هذا أيها الرقيب بريجز. لقد نزح رجلنا بعض الوقود من الخزان تحت الأرض. أتعجب: لماذا لم يأخذ الخرطوم معه؟

ربما اقتطع منه جزءًا، وهذا ما تبقى منه أيها المفتش أندروود.. معذرة، باقي الخرطوم داخل الصفيحة.

أنت حاذق أيها الرقيب! سأوصي بترقيتك!

أخذ لاري ما وجد وعاد به إلى غطاء الخزان.

- چو، هلا ساعدتني؟

رفع الصبي رأسه عن الجبن والبسكويت الذي كان يأكله، ونظر في شك إلى لاري. قالت نادين بهدوء: «اذهب. لا بأس الآن».

نهض چو متكاسلاً يجُرُّ قدميه. دسَّ لاري العتلة في فتحة الغطاء، ثم قال: «اضغط بوزنك عليها لنرى أكانت ستُفتح». للحظةٍ حسب أن الصبي لم يفهم، أو لا يريد الخضوع لأمره، إلا أنه أمسك طرف العتلة وضغطها. ذراعاه رفيعتان، مع ذلك محاطتان بعضلات رفيعة عَفِيَّة. عضلات من النوعية التي تميز العمال من الطبقات الفقيرة. مال الغطاء قليلاً لكنه لم يرتفع بما يكفي ليدسَّ لاري أصابعه تحته. قال الأخير: «قف عليه».

تفحَّصه الصبي الهمجي ذو العينين المائلتين للحظات في برود، ثم وقف موازناً نفسه فوق العتلة. ارتفع الغطاء أكثر من ذي قبل، وبما يكفي ليحشر لاري أصابعه تحته. بينما يفعل هذا، تساءل أكان الصبي يكرهه بعد. لو نزل الصبي عن العتلة فجأة لفقد كل أصابعه باستثناء الإبهام. أدركت نادين مخاوفه، فالتفتت نحوه بعدما كانت تفحص إحدى الدراجتين. تصلب جسدها توترًا، ونقلت عينيها بين لاري الراكع على ركبة واحدة، وبين چو الذي يراقبه وهو واقف فوق العتلة. هاتان العينان بلون ماء البحر لا تؤتمنان. وما زال لاري يحاول الرفع الغطاء. سألته نادين بصوتها الهادئ الذي ارتفع قليلاً الآن: «هل تحتاج إلى مساعدة؟».

سال العرق إلى داخل عينه، فرمش. إنه يشم رائحة الوقود الآن. قال لاري وهو ينظر مباشرة إليها: «أعتقد أنني أستطيع التصرف في الأمر».

بعد لحظة انزلقت أصابعه أكثر إلى فجوة أسفل الغطاء، فأنزل كتفيه ورفعها بالكامل، ليلقيه على الأرض. سمع نادين تزفر، وسقطت العتلة على الرصيف. مسح الرطوبة عن حاجبيه ونظر إلى الصبي. قال: «أحسنت يا چو. لو كنت تركت الغطاء يهوي على أصابعي، لأمضيتُ باقي عمري أغلق سحاب ملابسي بأسناني. شكرًا لك».

لم يتوقع ردُّ فعل (إلا همهمة أو نعيبًا فيما يعود الصبي إلى الدراجتين)، لكنَّ چو قال بصوت صدى: «لا.. فُكر».

تبادل لاري ونادين النظرات، ثم نظرا إلى چو. وجه نادين متفاجئ سعيد، مع ذلك بدت.. كأنها توقعت هذا. إنه تعبير رآه من قبل، لكنه لا يستطيع تحديده بالضبط.

قال لاري: «هل قلت: لا شكر؟».

أوما چو في حماس: «لا فكر.. لا فكر لي».

مدت نادين ذراعيها مبتسمة وهي تقول: «هذا عظيم يا چو. أحسنت!». مشي الصبي نحوها وتركها تعانقه دقيقة أو دقيقتين، ثم التفت إلى الدراجتين مرة أخرى وهو ينعب ويغمغم لنفسه.

قال لاري: «إنه قادر على الحديث».

- كنت أعرف أنه ليس أبكم، لكنني سعيدة أنه يتشافى. أعتقد أنه يحتاج إلى كلينا. نحن كنصفين. إنه.. أوه، لا أعرف».

رأى وجنتيها تحمران، وظن أنه يعرف السبب. أنزل الخرطوم المطاطي في فتحة الخزان، ثم فطن فجأة إلى أن ما يفعله قد يُفسر على أنه رمزية لفعل آخر. نظر إليها في حدة، فنقلت نظرها بعيداً بسرعة، لكن ليس قبل أن يلاحظ أنها كانت تراقب ما يفعله بوجه وردي.

تصاعد الذعر الوحشي إلى صدره وهو يهتف: «نادين، احترسي!». كانت تصب تركيزها على التحكم في المقود، ولا تنظر إلى ما تتجه نحوه بسرعة خمسة أميال في الساعة؛ شجرة صنوبر ضخمة. رفعت عينيها وصاحت: «أوه»، بصوت قلق. ثم انحرفت قليلاً، وسقطت عن الدراجة.

انطلق نحوها وقلبه يدق في حنجرتة: «هل أنت بخير يا نادين؟ هل...».

قامت مرتجفة تنظر إلى يديها المكحوتتين. قالت: «أنا بخير. عدم النظر إلى ما أمامي حماقة مني. هل حطمت الدراجة؟».

- لا تكثرني للدراجة اللعينة. دعيني أر يدك.

فردتهما أمامه، فأخرج زجاجة باكتين من جيبه ونثر منها عليهما. قالت: «أنت ترتجف...».

أجاب لاري بخشونة لم يتعمدها: «لا تكثرني لهذا أيضاً. اسمعي، أعتقد الأفضل أن نقود الدراجات الهوائية. هذا خطر...».

قالت بهدوء: «وكذلك التنفس. دع چو يركب معك، على الأقل في البداية».

- إنه لن...

نظرتُ إليه وقالت تقاطعه: «بل سيوافق. وستوافق أنت».

- لنتوقف الليلة. الظلام يمنعنا من الرؤية الآن.

- مرة أخرى؟ ألم تسمع بالمقولة: إن ألقى بك الحصان، فعد واعتله؟

تسكع چو في الجوار، يلتهم التوت الذي جمعه داخل خوذة الدراجة. كان قد وجد أجمة توت عملاقة خلف المتجر، فجمعه وراح يتسلى به فيما نادين تتلقى درسها الأول.

قال لاري مدافعاً: «لكن.. هلا نظرتُ جيداً إلى ما تتجهين نحوه؟».

- نعم يا سيدي!

حيته تحيةً عسكريةً وهي تبتسم. لها ابتسامة تضيء الوجه، فابتسم لها لاري ولم يجد شيئاً آخر يفعله. حتى چو يبتسم عندما تبتسم نادين.

دارت هذه المرة دورتان حول الساحة، ثم انطلق إلى الطريق، تتمايل بقوة فيرتفع قلب لاري إلى حنجرته مرة أخرى. أنزلت قدمها בזكاء كما علّمها، ثم صعدت التلّ وغابت عن النظر. كان قد رآها تنتقل إلى السرعة الثانية، وسمعها تنتقل إلى الثالثة بعدما اختفت. خفت صوتُ المحركِ تدريجياً، فوقف في ما تبقى من ضوء الغروب يضرب البعوض الذي حط على ذراعيه.

عاد چو يتسكع حوله وهو يردد: «لا شكر»، ويبتسم. ابتسم له لاري بالكاد. لو لم تعد قريباً سيذهب خلفها. حوّم حوله مشهد يراها فيه ملقاةً في خندق على جانب الطريق، وعنقها مكسوراً.

همّ بركوب الدراجة الأخرى وهو يفكر في ضرورة أخذ چو معه، لولا سمع صوت المحرك الذي ارتفع تدريجياً مرة أخرى. استرخى.. قليلاً. أدرك أنه لم يسترخِ تمامًا وهي تركب هذا الشيء.

ظهرت عند الأفق، وكشاف الدراجة الأمامي مضاء الآن. اقتربت ثم توقفت إلى جواره وأغلقت المحرك.

- جيد، أليس كذلك؟

- كنتُ أتهياً للبحث عنك. ظننتك..

- كدتُ...

لاحظتُ توتره، فأضافت: «استدرتُ ببطء أكثر من اللازم ونسيتُ أن أضغط المكابح، فسقطتُ».

-أوه. يكفي هذا الليلة.

- نعم. نهاية عمودي الفقري تؤلمني.

تمدّد فوق أغطيته تلك الليلة، يتساءل أكانت ستأتي إليه بعدما ينام چو، أو يذهب هو إليها. إنه يشتهيها، ومن الطريقة التي نظرتُ بها إلى عرضه الصامت مع الخرطوم، استنتج أنها تشتهي. أخيراً نام...

حلم بأنه في حقل ذرة، وقد ضلّ فيه. لكنه يسمع صوتاً، صوتَ موسيقى. چو يعزف. لو عثر على چو فسيكون بخير. لذا تبع الصوت، واخترق صف الذرة إلى جواره حتى خرج إلى مساحة مفتوحة. رأى منزلاً صغيراً، عشة لا أكثر، ترتفع شرفتها الأمامية فوق رافعات صديئة. ليس چو من يعزف، كيف يكون هو وهو يمسك يده اليسرى ونادين تمسك يده اليمنى؟ إنهما معه. سيدة عجوز تعزف أغنية روحانية ما جعلتُ چو يبتسم. المرأة سوداء، تجلس في الشرفة، وخمّن، لاري أنها أكبر النساء اللاتي سمع بهنّ عمرًا. بيد أن فيها ما جعله يشعر بتحسن.. الشعور ذاته الذي شعر به عندما كان صغيراً فيما تعانقه أمه وتقول: ها هو أفضل ولد! هذا هو ابن أليس أندروود الأفضل على الإطلاق.

توقفتِ العجوز عن العزف ونظرتُ إليهم.

يبدو أن لديّ صُحبة. اقتربوا إلى حيث أراكم. لم تعد عيناى كما كانتا.

فاقترب ثلاثهم يدًا بيد. لمس چو أرجوحة مصنوعة من إطار قديم معلق من فرع شجرة، فتأرجحتُ، وتحرك ظل الإطار الشبيه بكعك الدوناتس على الأرض إلى أعلى وأسفل. أمامهم مساحة خالية، جزيرة وسط بحر من الذرة، وعند الشمال طريق ترابي.

سألت جو: «هل تريد أن تعزف على ألتى القديمة تلك؟»، فاقترب الصبي في شوق وأخذ الجيتار من بين يديها، وعزف بشكل أفضل وأسرع مما سمعوه وهم داخل الحقل.

باركه الرب. إنه يعزف ببراعة. أنا مسنة للغاية. لا أستطيع تحريك أصابعي الآن بهذه السرعة. إنه الروماتويد. في عام 1920 كنت أعزف في قاعة مجلس المقاطعة. كنت أول زنجي يعزف هناك. الأول على الإطلاق.

سألته نادين عمّن تكون. كانوا في مكان أبدي الوقت، حيث تتوقف فيه الشمس في السماء قبل ساعة من الغروب، وحيث يتأرجح ظل الأرجوحة على الأرض المعشوشبة إلى الأبد. إنه مكان طيب. لا يستطيع الرجل الغامض الوصول إليه هنا، ولا إلى نادين أو چو.

يدعونني الأم أباجيل. أنا أكبر امرأة عمراً في شرق نبراسكا كما أظن، وما زلت أخبز كعكاتي. تعالوا وقابلوني في أقرب وقت. يجب أن نرحل قبل أن يلحق بنا.

غطت الشمس سحابة، فاختفى ظل الأرجوحة. توقف چو عن العزف، وشعر لاري بالشعيرات على مؤخرة عنقه تنتصب. بدا له أن العجوز لم تلاحظ. سألته نادين: «قبل أن يلحق بنا؟»، وتمنى لاري لو يستطيع منعها من هذا السؤال أو دفعها لسحبه قبل أن يتحرر ويؤذيهم.

الرجل الغامض. خادم الشيطان. بيننا وبينه جبال روكي، ليتمجد الرب، لكنها لن تمنعه. لذا يجب أن نجتمع. في كلورادو. جاءني الرب في الحلم وأرشدني إلى المكان. يجب أن نسرع. لذا تعالوا وقابلوني. آخرون في طريقهم إليّ.

قالت نادين بصوت مرتعب: «لا.. سنذهب إلى فيرمونت. إلى فيرمونت فحسب.. مجرد رحلة قصيرة».

أجاب عجوز حلم لاري: «رحلتكما ستكون أطول من رحلتنا ما لم تقاوموا قواه». نظرت إلى نادين في حزن عظيم وأكملت: «يمكن أن يكون هذا الرجل معك رجلاً صالحاً يا امرأة، إنه يريد أن يصلح نفسه. لماذا لا تستمسكين به بدلاً من أن تستغليه؟».

لا! سنذهب إلى فيرمونت! إلى فيرمونت!

نظرت المرأة المسنة إليها مشفقة، وقالت: «ستذهبين على الفور إلى الجحيم ما لم تنتهي جيداً يا ابنة حواء. وعندما تصلين إلى هناك، ستكتشفين كم أن الجحيم باردة».

تهشم اللحم وقتها، وتحول إلى شظايا ظلام غمرته. لكن في ذلك الظلام ما يترصد به. شيء بارد بلا رحمة، وسرعان ما سيكشر عن أنيابه.

إلا أنه استيقظ قبل ذلك، وبعد الفجر بنصف ساعة. العالم غارق في ضباب كثيف، سيتبخر بمجرد شروق الشمس. يبرز متجر الدراجات من الضباب كأنه سفينة قديمة مبنية من الأسمنت لا الخشب.

أحدهم إلى جواره، وليس نادين، بل چو. رقد الصبي بجانبه وإبهامه في فمه، يرتجف في أثناء حلمه كأن كابوسه الخاص قد استحوز عليه. تساءل لاري أكانت كوابيس چو مختلفة عن كوابيسه...

استلقى على ظهره، يرمق الضباب الأبيض ويفكر، حتى غفا واستيقظ بعد ساعة.

بانتهائهم من الإفطار وتحميل الأمتعة على الدراجتين، كان الضباب قد تبخر، وصار في وسعهم الرحيل. لم يُبدِ چو ممانعة في الركوب مع لاري كما قالت نادين، بل إنه ركب الدراجة قبل أن يُطلب منه.

كرر لاري للمرة الرابعة: «بطيء. لن نسرع فيقع لنا حادث».

قالت نادين: «مفهوم. أنا متحمسة بحق. كأننا رحلة بحث!».

ابتسمت له، ولم يستطع لاري أن يبادلها الابتسام. لقد قالت ريتا بلاكمور عبارةً شبيهةً بهذه عندما غادرا نيويورك. قالتها قبل يومين من وفاتها.

توقفوا للغداء في إبسوم. أكلوا لحم خنزير مقلًياً معلباً، وشربوا صودا البرتقال تحت الشجرة نفسها التي نام تحتها لاري وهدده چو بسكينه. ارتاح لاري عندما أدرك أن ركوب الدراجات البخارية ليس بالسوء الذي حسبه، بل إنهم قطعوا مسافةً جيدةً في وقت قصير بالسير فوق الأرصفة. راعت نادين إرشادات لاري بخصوص المنعطفات، ولم تُلح عليه في زيادة سرعتهم على ثلاثين ميلاً في الساعة حتى في الطرق المفتوحة. فكر لاري في أنهم قد يصلوا إلى ستوفنجتون في التاسع عشر من الشهر، مع الأخذ في الاعتبار تقلبات الجو.

توقفوا للعشاء غرب كونكورد، حيث قررت نادين توفير الوقت واتباع طريق 89-1 بدلاً من الطريق الذي ذكره لودر وجولد سميث.

قال لاري في شك: «سيكون عليه تكدس سيارات كثيف».

قالت في ثقة: «يمكن أن نمرَّ من خلاله، ونستخدم فاصل منتصف الطريق لو احتجنا إليه. أسوأ ما يمكن حدوثه أن نُضْطَرَّ إلى التراجع حتى أقرب مخرج، والالتفاف من حول التكدس».

جرباً تلك الخُطَّة ساعتين بعد العشاء، وقابلاً تكدساً في الطريق. قبل مجمع وارنر للسيارات والمقطورات السكنية، وجدا رجلاً وزوجته ميتين كجُوَالِي قمح في مقعدي سيارتهما الإلكترا الأماميين.

استطاع ثلاثتهم نقل الدراجتين خلال التكدس، وأصابهم الإرهاق بعدها وما عادوا قادرين على فعل شيء آخر. لم يتساءل لاري تلك الليلة عن ذهابه إلى حيث نامت نادين على بُعد عشر أقدام منه (والصبي بينهما). هذه الليلة كان مُتعباً إلى حد أنه غير قادر على فعل أي شيء سوى النوم.

في ظهيرة اليوم التالي، قابلوا تكدساً مرورياً لم يستطيعوا اختراقه. شاحنة بمقطورة مقلوبة، ومن خلفها دسنة سيارات محطمة. المسافة إلى مَخرج إينفيلد لا تتعدى الميلين من حسن حظهما. تراجعوا حتى اتخذوا المخرج، وتوقفوا في باحة انتظار إينفيلد للراحة عشرين دقيقة.

سأل لاري: «ماذا كنتِ تعلمين من قبل يا نادين؟».

ظل يفكر في تعبير وجهها عندما تكلم چو لأول مرة. (أضاف الصبي إلى معجمه الكلامي كلمات: نادين، لاري، فُكْرًا، أريد أُمَام)، فحَمَّن لاري بناءً على ذلك. سأَلها: «هل كنتِ مُعلِّمة؟».

نظرت إليه متعجبة وقالت: «نعم. تخمين ممتاز».

- مُعلِّمة أطفال؟

- هذا صحيح. الصف الأول والثاني.

يفسر هذا رفضها التام ترك چو وحده. يبدو أن عمر الصبي العقلي لا يجاوز سبع سنوات.

- كيف خمنت؟

- واعدتُ منذ زمن مُختصةً تخاطبُ من لونج آيلاند. أعرف أن ما قلتُ يبدو كتمهيد لنُكْتة من النكات عن أهل نيويورك، لكنه ليس كذلك. هذه

هي الحقيقة. عملتُ في مدرسة أوْشن ثيو مع الأطفال من الصفوف الأولى ممن يعانون لعثمة ومشكلات في النطق وتبعات الشفة الأرنبية والصم. اعتادتُ أن تقول إن تصحيح نطق الأطفال هي طريقة بديلة لاستخراج الأصوات الصحيحة منهم. أرهم النطق الصحيح وكرره حتى يفهم الطفل ويقلّد. عندما تكلمتُ عن نجاح الأطفال في التقليد، أضاء وجهها كما أضاء وجهك عندما قال چو: «لا شكر».

ابتسمتُ حرجًا وقالت: «حقًا فعلتُ؟ لطالما أحببتُ الصغار. بعضهم يعاني مشكلاتٍ نفسيةً، لكن لم يفسد أيهم تمامًا في هذا العمر. الصغار هم أفضل البشر».

- فكرة رومانسية. أليست كذلك؟

- الأطفال خيار. لو عملتُ معهم لصرتُ رومانسيًا. هذا ليس سيئًا. هل كانتُ مختصةً التخاطب سعيدةً في عملها؟

-نعم. أحبته كثيرًا. هل كنتِ متزوجة من قبل؟

لقد صارتُ عبارة (من قبل) ذات معانٍ أعمق بكثير وأكثر مرارة. بدا عليها الاضطراب وهي تجيب: «متزوجة؟ لا. لم أتزوج من قبل. أنا مُعلمة مدرسة عازبة كلاسيكية. أصغر مما أبدو، وأكبر مما أشعر به. أنا في السابعة والثلاثين».

تحركتُ عيناه إلى شعرها قبل أن يمنعهما، فأومأت وقالت: «شيب قبل الأوان. شاب شعر جدتي بالكامل في عمر الأربعين. أعتقد أنني سأصمد خمسة أعوام أخرى».

- أين كنتِ تُدرّسين؟

- مدرسة خاصة صغيرة في بيتسفيلد. مدرسة مميزة للغاية، ذات حوائط مكسوة باللابلاب، وفناء مُجهّز بالكامل. تبا للركود الذي اكتسح كل شيء. كانت تقف في باحة انتظار المدرسة سيارتا ثندربيرد، وثلاث سيارات مرسيدس، وسيارتا لينكولن، وسيارة كرايزلر إمبريال.

- لا بدّ أنكِ كنتِ بارعة.

- أعتقد هذا. لا يهم الآن.

لف ذراعه حولها، فأجفلتُ قليلًا وشعر بها تتصلب. قالت مضطربة: «ليتك لا تفعل هذا...».

- لا ترغبين في أن أفعل هذا؟

- نعم. لا أرغب.

سحب ذراعه متعجبًا. إنها تريده أن يفعل هذا، ويستطيع الشعور برغبتها تشع منها. وجهها أحمر قان الآن، وتنظر في يأس إلى كفيها المضمومتين على حِجرها. عيناها تلمعان كأنها على وشك البكاء.

- نادين.

نظرتُ إليه، وأدرك أنها تبكي. كادت تتكلم لولا ظهور چو يحمل حقيبة الجيتار. نظر إليهما في حرج كأنه ضبطهما يفعلان ما هو أكثر حميمية من الحديث.

قال چو: «سيدة...».

سأله لاري الذي لم يكن منتبهًا: «ماذا؟».

كرر چو وهو يشير بإبهامه إلى ما وراء ظهره: «سيدة!».

تبادل لاري ونادين النظرات. باغتهما صوت مرتفع، يختنق بالانفعال.

«شكرًا للسماء! أوه، شكرًا للسماء!».

وقفا لينظرا إلى المرأة التي تهول نحوهما وهي بعد في منتصف الطريق. كانت تبسم وتبكي في الوقت نفسه. قالت: «أنا سعيدة للقائكم. أنا سعيدة للغاية لرؤيتكم. شكرًا للسماء...».

تمايلت، وكادت تفقد الوعي لولا أن أسندها لاري حتى زال دوارها. خَمَّن أن عمرها خمس وعشرون عامًا. كانت ترتدي سروالَ جينز أزرق وبلوزة بيضاء. وجهها شاحب، عيناها الزرقاوان زاهلتان بشكل غير طبيعي. حدقتُ إلى لاري كأنها تحاول إقناع عقلها أنها لا تهلوس، وأن ثلاثة أشخاص يقفون أمامها الآن.

- أنا لاري أندروُد. والسيدة هي نادين كروس، والصبي چو. سعداءُ بلقائك.

استمرت المرأة في التحديق إليه للحظات، ثم ابتعدتُ عنه ببطء متجهة نحو نادين.

- أنا... سعيدة. سعيدة بلقائك. أوه، يا إلهي. هل أنتم حقيقيون؟

أجابت نادين: «نعم».

عانقتِ المرأةُ نادين وانتحبتُ. وقف چو في الشارع إلى جوار الشاحنة، ويهو يحمل جيتاره في يد، ويدسُّ إبهام الأخرى في فمه. وهكذا قابلوا لوسي سوان...

تحمستُ للذهاب معهم عندما أخبروها بوجهتهم، وباعتقادهم بوجود شخصين آخرين على الأقل هناك، وربما أكثر. أحضر لها لاري كيس نوم من متجر إينفيلد للأدوات الرياضية، وصحبته نادين إلى بيت عند حدود البلدة لتساعدنا في حزم أمتعتنا.. طقمي ملابس، غيارين داخليين، حذاء، معطف أمطار، صور زوجها الفقيد وابنتهما.

خيّموا تلك الليلة في بلدة كيشي، قرب حدود فيرمونت. حكّت لوسي سوان حكاية قصيرة بسيطة، لا تختلف عما سمعوه من قبل. الحزن والصدمة التي دفعتها إلى شفا الجنون.

مرض زوجها في يوم الرابع والعشرين من يونيو، وتلته ابنتهما. مرّضتهما قدر استطاعتها، وهي تتوقع أن تصاب بعدوى لا فرار منها. دخل زوجها في غيبوبة يوم السابع والعشرين، يوم انقطعتُ إنفيلد تمامًا عن العالم الخارجي. توقف البث التليفزيوني، وسقط الناس موتى كالذباب. شهدت البلدة خلال الأسبوع السابق تحرّكًا عسكريًا غير مسبوق على الطريق، ولوجوده تفسير في مكان صغير مثل إينفيلد، نيوهامبشير. في ساعات الصباح المبكرة من يوم الثامن والعشرين من يونيو، تُوفّي زوجها. تحسنت ابنتها بعض الشيء يوم التاسع والعشرين، ثم تدهورت في الليل، وماتت في الحادية عشرة مساءً. مات كل من في البلدة إلا هي ورجلاً مُسنّاً يدعى بل دادز. قالت لوسي إن بل مرض، لكنه تعافى تمامًا. في صباح يوم الاستقلال وجدتُ بل ميتاً في الشارع الرئيسي، منتفخاً مسوداً كغيره.

قالت لوسي وهم جالسون حول النار: «دفنتُ كل الناس، وبل أيضاً. تطلّب مني الأمر يوماً كاملاً، لكنني أرحتهم. ثم قررت الذهاب إلى كونكورد حيث يعيش والداي. لكنني... لم أفهم. ما الخطأ؟ لماذا لم ينجوا؟».

قال لاري: «المناعة ليست متوارثة بأي شكل مباشر. أمي...». ثم شرد في اللهب.

قالت لوسي: «وكنْتُ أنا وويس سنتزوج. كان هذا في الصيف الذي أنهيتُ فيه دراستي العُليا.. عام 1984. لم يوافق والدائي على الزواج، ورغباً في أن أُلدَ طفلاتي بعيداً وأهبها للتبني. لكنني لم أفعل. قالت أُمِّي إن ذلك الزواج مصيره الطلاق. قال أبِّي إن ويس لا يُعتمدُ عليه، فقلت: ربما، لكن سنرى ما سيحدث. أردتُ أن أغامر، هل تفهمان؟».

قالت نادين الجالسة إلى جوار لوسي تنظر إليها في تعاطف عظيم:
«أفهم».

قالت لوسي بعد زفرة أقرب إلى نهضة: «سكنًا في منزل صغير، ولم أتصور قط أن تنتهي بنا الحال هكذا. لقد استقر ثلاثتنا، ومارسي ابنتنا هي من أثرت أكثر في انضباط ويس. كان يرى أن الشمس تشرق وتغرب من أحلها. كان...».

قالت نادين: «لا عليك. حدث هذا من قبل...».

فَكَرَّ لَارِي: هذه العبارة مرة أخرى؛ مِنْ قَبْل. أَكْمَلْتُ لَوْسِي: «نعم، كل شيء انتهى الآن. كُنْتُ أَظُنُّنِي أَتَأَقْلَمُ مَعَ الْوَضْعِ حَتَّى هَاجَمْتَنِي تِلْكَ الْأَحْلَامُ».

رَفَعَ لَارِي رَأْسَهُ وَسَأَلَهَا: «أَحْلَامُ؟».

نظرتُ نادين إلى جو، وكان الصبي قبل لحظات ينعس جالساً أمام النار، لكنه الآن يرمق لوسي بعينين لامعتين. قالت المرأة: «كوابيس.. كوابيس تختلف من ليلة إلى أخرى، لكنَّ أغلبها يدور حول رجل يطاردني، ولم أرَ ملامحه. بدا كأنه ملفوف في.. في ما تطلقون عليه عباءة، ويختبئ وسط الظلال طوال الوقت»، ارتجفتُ وهي تضيف: «صرتُ أخشى النوم. لكن الآن ربما...».

صاح چو فجأة: «الرجل الأود!». فأجفل الجميع. هبَّ واقفاً وقَلَصَ عضلات أصابعه كأن يديه تحولتا إلى مخالب وهتف: «الرجل الأود! كَوَا - ويس! يطارد.. يطارد - ني! يُخيف - ني!».

انکمش ملتصقاً بنادین ونظر فی جزع إلى الظلام.

خيم الصمت عليهم. أخيرًا قال لاري: «هذا جنون»، ثم صمت. نظروا إليه جميعًا. بدا الظلام فجأةً أشدَّ حُلْكةً، وارتعبتْ لوسي مجددًا. قال لاري: لوسي، هل حلمتِ من قبل بـ... بمكان في نبراسكا؟».

أجابت لوسي: «حلمتُ في مرة بسيدة زنجية مسنة، لكنَّ الحلم لم يدُم طويلاً. قالت شيئاً عن... طلبت مني المجيء ومقابلتها، ثم عدتُ في الحلم إلى إينفيلد حيث الرجل المخيف يطاردني، بعدها استيقظت».

نظر إليها لاري مذهولاً، حتى احمرَّ وجهها وأطرقتُ رأسها. قال لچو: «هل حلمتَ من قبل يا چو... بحقل ذرة؟ امرأة مسنة؟ جيتار؟».

نظر إليه چو من فوق ذراع نادين التي تحيط كتفيه، فقالت الأخيرة: «دعْه وشأنه. سيزعجه هذا»، إلا أنها هي التي بدتُ منزعجةً. أكمل لاري: «هل حلمتَ بمنزل يا چو؟ منزل صغير بشرفة خارجية؟».

ظن لاري أنه رأى لمعة في عيني الصبي. هتفت نادين: «كفى يا لاري!».

- هل حلمتَ بأرجوحة يا چو؟ أرجوحة مصنوعة من إطار سيارة؟

انفلتَ چو فجأة من بين ذراعي نادين، وأخرج إبهامه من فمه. حاولت نادين منعه لكنه تملص. قال متهللاً: «أرجوحة! أرجوحة!»، ثم دار حولهم يشير إلى نادين ثم إلى لاري ثم إلى نفسه ويهتف: «هي! أنت! كثير!».

سأله لاري: «كثير؟».

لكنَّ الصبي همَد مرة أخرى. بدتُ لوسي ذاهلةً وهي تغمغم: «الأرجوحة. أتذكرها»، ثم نظرتُ إلى لاري وأردفتُ: «لماذا نرى جميعاً الحلم نفسه؟ هل هذه إشارة إلهية ما؟».

قال راي: «لا أعرف»، ثم سأل نادين: «هل ترين أحلاماً مماثلة؟».

أجابت في حدة: «أنا لا أحلم»، ونظرتُ إلى الأرض. فكر لاري في أنها تكذب. لكن لماذا؟ قال: «نادين، لو أنك...».

هتفت نادين في هستيريا: «قلت لك إنني لا أحلم! ألا يمكنك فقط أن تتركني وشأني؟ لماذا تصرُّ على مضايقتي؟»، ثم قامت وابتعدت عن النار سريعاً. راقبتها لوسي لحظةً، ثم قامت وهي تقول: «سألق بها».

- نعم، هذا أفضل. ابقَ معي يا چو. اتفقنا؟

قال چو: «اتفقنا»، ثم بدأ يُخرج الجيتار من حقيبته.

عادت لوسي مع نادين بعد عشر دقائق. كانتا تبكيان، ورأى لاري أن التوافق زاد بينهما. قالت نادين للاري: «معذرة. أنا غاضبة دائماً، ويخرج غضبي بأشكال غريبة».

- لا بأس.

لم يتكلموا في الأمر مرة أخرى، جلسوا ينصتون لعزف چو الذي تحسّن كثيراً، وحلّت بضع كلمات محلّ النعيب والهمهمة. في النهاية ناموا، لاري في ناحية، ونادين في ناحية، وچو ولوسي بينهما.

حلم لاري أولاً بالرجل الغامض الملتحف بالسواد، يقف في مكان مرتفع، ثم بالمرأة السوداء في الشرفة. إلا أنه عرف في ذلك الحلم أن الرجل الغامض آتٍ، يمشي خلال حقول الذرة، يشق طريقه المتعرج بين الصفوف، ابتسامته الحارة محفورة على وجهه، يقترب منهم أكثر وأكثر.

استيقظ لاري في منتصف الليل، متهدج الأنفاس، صدره ضيق من الذعر. نام الآخرون كالأحجار. عرف في ذلك الحلم أن الرجل الغامض لن يأتي خالي الوفاض، بل يحمل بين ذراعيه جثة ريتا بلاكمور المنتفخة المتصلبة وهو يقطع حقول الذرة. سيرميها تحت قدميه فيصرخ من شعوره بالذنب، ويقول للجميع إنه ليس رجلاً لطيفاً، وأنه مُخَفِق، وأنه غير معطاء. في النهاية نام مجدداً، واستيقظ في الصباح التالي متخشباً برداناً جائعاً، يحتاج إلى الحمام، لكنه لم يحلم مرة أخرى تلك الليلة.

قالت نادين: «إلهي...».

نظر إليها لاري فرأى خيبة أمل أقوى من أن تعبر عنها الدموع. وجهها شاحب، عيناها غائمتان زائغتان.

كانت الساعة السابعة والرابع من مساء التاسع عشر من يوليو، والظلال تستطيل أكثر. ركبوا الدراجات طوال اليوم، ولم تجاوز استراحاتهم على الطريق خمس دقائق، وتناولوا الغداء في راندولف في نصف ساعة فقط. لم يشكُ أيهم، بيد أن ست ساعات من القيادة جعلت لاري يشعر بألم وخدر في كل جسده.

هم الآن واقفون في صف أمام سور من قضبان حديدية، خلفهم وأمامهم تمتد بلدة ستوفينجتون، لم تتغير كثيراً عما رآها عليه ستو ريتمان في آخر

يومين له في المركز البحثي. خلف السور فناء كان مزروعًا معتنى به، وتحول الآن إلى ساحة من خشب وأوراق شجر جافة نثرتها عاصفة الظهيرة. وراء ذلك الفناء، المركز البحثي نفسه، يرتفع ثلاثة طوابق عن الأرض، وأغلب طوابقه غير مرئية مدفونة أسفل كما افترض لاري.

المكان مهجور، صامت، خالٍ. في منتصف الفناء لافتة مكتوب عليها:

مركز ستوفينجتون للأوبئة

هذه منشأة حكومية!

على الزوار تسجيل الدخول عند المكتب الرئيسي.

إلى جوار تلك اللافتة واحدة أخرى، هي التي كانوا ينظرون إليها.

كل مَنْ هنا ماتوا.

سنتجه غربًا إلى نبراسكا.

الزموا طريقنا

انتبهوا للافتات

هارولد إيمري لودر

فرانسيس جولد سميث

ستورات ريتمان

جلن بيكود بيتمان

8 يوليو 1990.

الطريق رقم 7 إلى روتلاند

الطريق رقم 4 إلى شويلرثيل

الطريق رقم 29 إلى 87-1

87-1 جنوبًا إلى 90-1

90-1 غربًا

مكتبة

t.me/soramnqraa

غمغم لاري: «يا لك من رجل يا هارولد. أتوق إلى مصافحتك ودعوتك إلى بيرة.. أو شوكولاتة باي داي...»

هتفت لوسي بحدة: «لاري!».

وفقدت نادين الوعي.

الفصل الخامس والأربعون

خرجت إلى شرفتها الخارجية في الحادية عشرة والثلاث من صباح يوم العشرين من يوليو، تحمل قهوتها وخبزها كما اعتادت أن تفعل كل يوم. درجة الحرارة تزيد على الخمسين. الصيف في ذروته، وهو أفضل صيف تتذكره الأم أباجيل من عام 1955، يوم ماتت أمها في عمر الثالثة والتسعين. لا يوجد الكثير حولهما ممن قد يستمتعون بالصيف، خسارة. جلست على مقعدها الهزاز وهي تسأل نفسها: هل حقًا استمتعوا به من قبل؟ لقد استمتع البعض بالتأكيد؛ شباب متحابون، مسنون تتذكر عظامهم قسوة قبضة الشتاء عليها. بيد أن أغلب الشباب والمسنين قد رحلوا الآن. لقد أنزل الرب عقابه الشديد على جنس البشر.

قد يجادل البعض في جدوى هذا العقاب، لكن الأم أباجيل ليست من ضمنهم. لن تطلب من الرب أن يجيز عنها هذا الكأس⁽¹⁾. لقد عاقب البشر من زمن بالماء، وسيعاقبهم يومًا بالنار. إنها ليست في مكان يسمح لها بمحاسبة الرب على قراراته، لكن إن كنا سنتحدث عن العقاب، فقد أرضاها ما أجاب به الرب موسى من الشجرة المشتعلة عندما سأله. سأل موسى: مَنْ أَنْتَ؟ فأجاب الرب خلال الشجرة: أنا هو الذي هو. أو بمعنى آخر، كُفَّ يا موسى عن المجادلة ونفذ ما تؤمّر به.

ضحكت ضحكة ذات أزيز صدري، وغمست شريحة خبز جاف في كوب القهوة حتى لانت كفاية لتتمكن من أكلها. لقد مرّت ستة عشر عامًا منذ ودّعت آخر سن في فمها. كانت بلا أسنان في رحم أمها، وستكون بلا أسنان في قبرها. ابنة حفيدتها مولي وزوجها اشتريا لها طاقم أسنان في يوم الأم العام

(1) كأس الألم، وهي إحالة إلى آية من الكتاب المقدس (الترجمة)

الماضي، العام الذي بلغت هي فيه الثالثة والتسعين، لكنه يؤلم لثتها، ولا تضعه إلا عندما تعرف أن مولي وزوجها قادمان. تخرجه وقتها من علبته وتغسله ثم تلتصقه. وإن كان لديها وقت قبل وصولهما، تقف أمام مرآة المطبخ المبقعة وتنظر إلى تلك الأسنان الضخمة البيضاء وتنفجر بالضحك. تبدو كتمساح زنجي مسن.

هي مسنة واهنة، لكن عقلها يعمل بكفاءة. اسمها أباجيل فريمانتل، وُلدت عام 1882 بشهادة ميلاد تثبت هذا. رأت الكثير خلال سنوات عمرها الطويلة، لكنها لم تشهد شيئاً في فضاة ما يجري حالياً، لا، لم يحدث شيء كهذا من قبل، والآن جاء دورها لتكون جزءاً منه، ولطالما كرهت ذلك. إنها لا ترغب إلا في الراحة والاستمتاع بدورة الزمن حتى يقرر الرب أن هذا يكفي، ويستدعيها إلى الملكوت. لكن ماذا يحدث لو جادلت الرب؟ لن تحصل إلا على إجابة واحدة؛ أنا هو الذي هو. عندما قال يسوع: يا أبتاه إن شئت تجيز عني هذه الكأس⁽¹⁾، لم يُجبه الرب.. وهي لن تجادل، لا. ما هي إلا خطأ، وتخشى هبوب الريح خلال حقول الذرة، إذ تفكر في أن الرب نظر من عليائه إلى مولودة تخرج من بين ساقبي أمها عام 1882، وقال: سأبقيها حية طويلاً، فليديها مهمة عام 1990، بعد عقود طويلة.

اقتربت نهاية حياتها هنا في هيمنجفورد هوم، ومهمتها اتضحت أمامها في الغرب، قرب جبال روكي. لقد طلب الرب من موسى تسلق جبل، وطلب من نوح بناء فلك، ورأى ابنه يُصلب. فماذا سيهمه إن كانت أبي فريمانتل خائفة من رجل بلا وجه يطاردها في أحلامها؟

هي لم تره قط، ولا تحتاج إلى ذلك. إنه ظل يعبر الذرة في الظهيرة، جيب هواء ذهبي، غراب يرمقك من فوق برج أسلاك هاتف. يناديها صوته بكل الأصوات التي تهابها.. يتحدث برق، كدقات خنفساء الموت⁽²⁾ تحت الدرج، تُنذر بموت حبيب. يتحدث بصخب كرع يهزم في الظهيرة، كعاصفة تهب من الغرب مؤذنة بنهاية العالم.

(1) يقصد المسيح في تلك الآية كأس المعاناة والألم جراء الصلب. كما أفادت الشروحات المسيحية أن ما قاله لا يعني محاولة تلمسه من الصلب أو رفضه، إنما لطبيعته البشرية. (الترجمة)

(2) نوع من الخنافس (سوس الخشب) يصدر صوت دقات كدقات الساعة في الليل وهو يحفر الخشب، وكانوا يتطيرون منه في الماضي (الترجمة)

أحياناً لا تسمع أي صوت إلا صوت الريح بين صفوف الذرة، لكنها تعرف أنه هناك، وهذا أسوأ ما قد تدركه، لأن الرجل بلا وجه في مرتبة أدنى بقليل من الرب، تشعر أنه أقرب إلى ملاك غامض حوّم في صمت فوق أرض مصر ليقتل الأبقار من أبناء مَنْ لا تحمل أبواب بيوتهم علامة بالدم⁽¹⁾. يربعها هذا، فتعود طفلة يلفها الخوف، وتعرف أن الآخرين يعرفون عنه ويخشونه، لكنها الوحيدة التي تعلم كل شيء عن قواه الرهيبة.

تقول: «وا حسرتاه...»، ثم تضع لقمة الخبز في فمها. تتأرجح إلى الأمام والخلف هي تشرب قهوتها. إنه يوم صحو جميل، ولا يؤلمها عضو من جسدها بعينه، فصلّت صلاة شكر سريعة لما رزقها الرب به. الرب عظيم. الرب عطوف. يتعلم الأطفال تلك الكلمات، فينقسم العالم في عقولهم إلى خير وشر مطلّقين.

قالت الأم أباجيل: «الرب عظيم. الرب عطوف. أشكرك على دفء الشمس، وعلى القهوة، وعلى حركة الأمعاء التي رزقني بها ليلة أمس. أنت على حق. التمر ساعدني على التخلص من الإمساك، لكنّ يا رب، طعمه غير مستساغ بالنسبة إليّ. أأست المختارة؟ الرب عظيم...».

أنهت القهوة فوضعت الكوب جانباً، ورفعت وجهها للشمس. بدت كأحد الوجوه المحفورة في الجبال. نعست، فنامت. دق قلبها الذي رقت أنسجته حتى صارت كأوراق لف التبغ، وتابع الدق كما كان يفعل منذ 39.630 يوماً.

كنت لتظنها ميتة، فتضع كفك على صدرها للتحقق من تنفسها.

لولا ابتسامتها التي ظلت كما هي.

تغير الكثير في العالم منذ كانت طفلة. جاء آل فريمانتل إلى نبراسكا عبيداً محررون. ضحكت مولي ابنة حفيدة أباجيل ضحكة ساخرة، وقد افترضت أن المال الذي اشترى به والد أبي المنزل -المال الذي دفعه له سام فريمانتل من لويس، كارولينا الجنوبية، أجراً عن ثمانية أعوام أمضاها أبوها وإخوته هنا بعد انتهاء حرب الولايات- مال دفعه لإراحة ضميره. أخرجت أباجيل لسانها لمولي عندما قالت هذا -مولي وچيم والآخرين صغار، لا يفهمون سوى الخير

(1) يشير الكاتب إلى ضربة من ضربات موسى لقوم فرعون في العهد القديم (الترجمة)

والشر المطلقين- لكنَّ أباجيل قالت لنفسها: مال لإراحة الضمير؟ حسنًا، هل من مال أظهر من هذا؟

مكث آل فريمانتل في بلدة هيمنجفورد هوم، وُولدت آبي -أصغر أبناء أمها وأبيها- فيه. كره أبوها مَنْ لا يشترون من الزوج ولا يبيعون لهم. اشترى أرضه قطعة صغيرة تلو الأخرى، كي لا يزعج مَنْ يقلقون بصدد (الأوغاد السود الذين ابتلانا بهم كولومبوس⁽¹⁾). كان أول رجل في مقاطعة بولك يجرب دورة المحاصيل، وأول رجل يجرب الأسمدة الكيميائية، وفي مارس من عام 1902، جاء جاري سايتس ليخبر چون فريمانتل أنه انتُخب لينضم إلى جمعية المزارعين الوطنية (المزرعة). كان أول رجل أسود ينضم إلى جمعية المزارعين في ولاية نبراسكا. كان هذا عامًا عظيمًا.

فكرت أنه بالنظر إلى حياتها الحافلة، أن أي شخص قد يختار عامًا في حياته ويدعي أنه الأفضل على الإطلاق. في حياة الجميع مدة زمنية محورية، مليئة بالمجد والعجائب. قد تجلس لاحقًا وتتساءل عن الكيفية التي جرت بها الأمور. الأمر أشبه بأن تضع عددًا كبيرًا من الأطعمة الشهية في خزانة واحدة باردة، فيأخذ كل طعام من نكهة الآخر شيئًا. يصير لطعم الفطر نكهة اللحم المجفف، والعكس. يختلط مذاق لحم الغزال بمذاق طائر الحجل، ويلتقط لحم الحجل شيئًا من رائحة الخيار. لاحقًا في حياتك ستتمنى لو أن كل الأمور الرائعة التي وقعت في العام الأعظم تُمدد نفسها في الأعوام المحيطة، أو أن في وسعك اقتلاع حدث واحد سعيد وزرعه وسط الأعوام الثلاثة التي لم ترَ فيها خيرًا، فيمرُّ عليك وقت لا يعكر فيه أحد صفو حياتك، ولا يقع فيه إلا عيد الشكر ويوم الرابع من يوليو. لكنَّ الرب خلق العالم في شقاء، ولا مجال للسؤال عن معجزات الرب وكيفية عملها، لكن بالنسبة إلى آبي وأبيها، كان عام 1902 هو الأفضل على الإطلاق.

فكرت آبي في أنها الوحيدة في أسرتها -غير أبيها طبعًا- من يؤمن بأن الانضمام إلى هذه الجمعية حادث جلل. سيكون أول عضو أسود فيها في عموم نبراسكا، وربما أول عضو أسود في الولايات المتحدة كلها. كان يعرف الثمن الذي سيدفعه هو وأسرته لقاء ذلك من سخرية ونكات وعنصرية من

(1) بين المؤرخين الأفارقة في أمريكا مَنْ يدَّعون أنه كان لكريستوفر كولومبس -مكتشف أمريكا- مُرشد أو دليل بحري زنجي، ومن ثمَّ يدعون نصيبًا شرعيًا من البلاد (المترجمة)

أولئك الرجال -من ضمنهم رئيس الشرطة بن كونفي- معارضي الفكرة. لكن على الجانب الآخر رأى أن جاري سايتس يمنحه ما هو أكثر من فرصة نجاة، منحه جاري فرصة تنمية حزام حقول الذرة.

كعضو في (المزرعة)، ستنتهي مشكلاته مع شراء البذور، وستنتهي صِعب نقل محصوله بالكامل إلى نبراسكا ليجد له مشترياً، وربما تتوقف مشكلاته حول مياه الري مع بن كونفي المتعصب ضد الزواج مثل چون فريمانل، ومحبيهم مثل جاري سايتس. ربما يعني انضمامه إلى الجمعية ابتعاد مضايقات خبير الضرائب الخاص بالولاية. لذا قبل چون فريمانل الترشح وجاء التصويت لمصلحته (بفارق جيد أيضاً)، إلا أن السخرية منه تزايدت، وانطلقت النكات عن الراكون⁽¹⁾ الذي تسلل إلى مخزن غلال الجمعية، وعن الطفل الزنجي الذي يذهب إلى الجنة، فينمو له جناحان أسودان، ويسمونه وطواطاً بدلاً من ملاك. دار بن كونفي مدةً يقول للناس إن جمعية الروابط السرية⁽²⁾ صوّتت لمصلحة چون فريمانل لأنهم يحتاجون إلى مَنْ يؤدي دور قرد الأورانجوتان الإفريقي في مهرّجان الأطفال. تظاهر چون فريمانل بأنه لا يسمع كل هذا، وكان يقتبس في البيت من الكتاب المقدس فيقول: «الجواب اللين يصرف الغضب، والكلام الموجه يهيج السخط»، و«فإن الذي يزرعه الإنسان إياه يحصده أيضاً»، وآيته المفضلة: «طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض».

جَمع جيرانه تدريجياً حوله، ليس كلهم، ولا المسعورين أمثال بن كونفي وأخاه غير الشقيق جورج، ولا آل أرنولد وآل ديكونز، بل الآخرين كلهم. اعتادوا تناول العشاء عام 1903 مع جاري سايتس وأسرته في غرفة الاستقبال، مثلهم كمثل البيض.

في عام 1902، عزفت أباجيل الجيتار في قاعة جمعية المزارعين. لم تعزفه في عرض الزواج، بل في عرض مواهب البيض في نهاية العام. عارضت أمها هذا، وكانت هذه من المرات القليلة التي عارضت فيها زوجها أمام الأبناء (إلا أن الأبناء كانوا وقتها في منتصف العمر، ووصل چون نفسه إلى سن زاد فيها شبيهه عن لمسة ثلج فوق قمة جبل). قالت وهي تنتحب:

- (1) يطلق اسم حيوان الراكون على الزواج في الولايات المتحدة للونه الأسود (المترجمة)
- (2) أخوية تجمع أعضاء من التيارات المتناقضة كافة، يقال إن لها علاقة بالفكر الماسوني (المترجمة)

«أعرف كيف حدث ما حدث. أنت وسايّيس وفرانك فينر هذا خطّطتم للأمر معاً. هذا طبيعي بالنسبة إليهما يا چون فريماننل، لكنّ ما الذي دار في عقلك؟ إنهما بيض! أنت تتسكع معهما وتتحدثون عن لعب البولينج! يمكنك أيضاً أن تذهب إلى وسط البلدة وتشرب البيرة معهما لو وافق نيت چاكسون على دخولك حانته. لا بأس! أعرف جيّداً ما مررت به خلال الأعوام الأخيرة. أعرف أنك حافظت على ابتسامتك فيما قلبك يُنهش. لكن هذا الأمر مختلف! هذه ابنتك! ماذا ستفعل لو ذهبتُ إلى هناك بفستانها الأبيض الجميل فسخروا منها؟ ماذا ستفعل لو قذفوها بالطماطم الفاسدة كما فعلوا مع بريك سوليّقان عندما غنى في عرض الزواج؟ ماذا ستقول لها لو جاءتك بفستانها الملوّث بالطماطم الفاسدة وسألتك: لماذا يا أبي؟ لماذا يفعلون ذلك، ولماذا تركتهم يفعلونه؟».

أجاب چون: «حسناً يا ربيكيا، لنَدعَ القرار لها ولديقيّد».

وديقيّد هو زوجها الأول، وقد تغيّر اسم أباجيل فريماننل إلى أباجيل تروتس. كان ديقيّد تروتس عاملاً زراعياً من قالبارايسو، وسافر مسافة ثلاثين ميلاً ليرافقها. قال چون فريماننل لربيكيا في مرة إن الحرق يتمكّن من ديقي، وإنه يتزّهوك في مشيته. سخر الكثير من زوجها الأول، وقيلت عبارات على غرار: «نحن نعرف الآن من يتولى الدّقة في تلك الأسرة».

إلا أن ديقيّد لم يكن ضعيف الشخصية، بل هادئ مفكر. قال لچون وربيكيا: «ما تراه أباجيل صحيحاً، سنفعله على الفور». شكرته على دعمه، وأخبرت أبويها أنها ستكمل هذه التّجربة.

في يوم 27 ديسمبر عام 1902، بعد ثلاثة أشهر من عرضها الأول، اعتلت مسرح مبنى الجمعية وسط الصمت الذي ساد بعدما أعلن مقدّم العرض اسمها. صعدت قبلها جريتشن تيليونز، ورقصت رقصة فرنسية أظهرت فيها كعبيها ورفعت تنورتها متعددة الطبقات أمام الجمهور المشجّع الصاخب، وضربت الأرض بقدميها أمام الرجال من الحضور.

وقفت وسط الصمت الكثيف، تُدرك مدى دُكنة لون وجهها وعنقها فوق ياقة الأبيض. دق قلبها كالطبل في صدرها وهي تقول لنفسها: نسيّت الكلمات كلّها، وعدتُ أبي أني لن أبكي مهما حدث. لن أبكي. لكنّ بن كونقي هنا، ولو صاح بن كونقي: أيتها الزنجية، سأبكي. أوه، لماذا ورطت نفسي في هذا؟ ماما كانت على حق. لقد جاوزت حدودي، وسأدفع ثمن هذا...

القاعة تحتشد بالوجوه البيضاء التي تحقق إليها. كل الصفوف كاملة، وفي نهاية القاعة صفان واقفان. توهجت مصابيح الكيروسين وتألّقت الستائر الحمراء المخملية مرفوعة، ومربوطة بحبال ذهبية.

قالت نفسها وقتها: أنا أباجيل فريمانتل تروتس، سأعزف وأغني ببراعة. أنا لا أعرف أيًا مما سيحدث لأنه لن يحدث يقينًا.

بدأت في غناء «الصليب القديم» أمام الحضور الساكن، أصابعها تداعب الأوتار فتطلق اللحن الناعم، ثم تنتقل إلى لحن أقوى بأغنية «كم أحب يسوع»، ثم الأقوى «اجتماع التخيم في جورجيا». تمايل الحضور طربًا غير واعي لما يفعلونه. بعضهم يبتسم، وبعضهم ينقر ركبتيه.

غنت مزيجًا من أغاني الحرب الأهلية مثل: «عندما يعود چوني إلى الوطن»، و«حبّات الفول السوداني» (اتسعت الابتسامات أمام هذه الأغنية، أغلبها ابتسامات جنود جيش الجمهوريين العظيم الذين أكلوا أكثر من حبّات الفول السوداني في أثناء خدمتهم). أنهت العرض بأغنية «سنخيم الليلة في أرض التخيم القديمة»، ومع آخر نغمة تنطلق من أوتار جيتارها، قالت لنفسها: لو أردتم الآن أن تقذفوني بالطماطم أو أي شيء، فافعلوا. لقد عزفت وغنيت ببراعة، وكنت رائعة حقًا.

مع اختفاء آخر نغمة في الصمت، استمر ذلك الصمت طويلًا، كأن الجالسين والواقفين في الخلف قد ابتعدوا كثيرًا حتى ما عادوا قادرين على العثور على طريق العودة. ثم انطلق التصفيق كال موج؛ قويًا مستمرًا. احمرّ وجهها خجلًا، وشعرت بحيرة أرجفتها. رأت أمها تبكي وأباها وزوجها ينظران إليها في فخر.

حاولت النزول من على المسرح لحظتها، لكنّ الهاتفات صدحت: «أعيدي! أعيدي!»، لذا غنت باسمّة أغنية «اقتلّع البطاطس خاصتي»، وقد غامرّت باختيارها، لكنّ إن كانوا قد رحبوا بكشف الكعوب ورفع التنورات علنًا، فيمكنها غناء أغنية خليعة بعض الشيء. إنها - قبل كل شيء - امرأة متزوجة.

«اقتلّع أحدهم البطاطس خاصتي،

ووضعها في صومعتي،

والآن قد رحل هذا الشخص،

فأي مصيبة أنا فيها الآن...».

توالت المقاطع الستة التالية على المنوال نفسه، بعضها كان أكثر بذاءة، لكنها غنتها جميعًا، فتصاعدت الهتافات أعلى مع نهاية كل مقطع. لاحقًا فكرت في أنها لم تخطئ في شيء طوال العرض إلا في اختيار تلك الأغنية، فهي الأغنية التي يتوقعون سماعها من زنجية.

أنهت غناءها، فقابلتها المطالبات بالمزيد. عادت إلى اعتلاء المسرح وانتظرت حتى هدأ الجمهور وقالت: «شكرًا جزيلاً لكم. أتمنى ألا أثقل عليكم لو طلبت أن تستمعوا لأغنية واحدة أخيرة، وهي أغنية أتقنتها خصوصًا، لكني لم أتوقع قط أن أغني هنا. إلا أنها أفضل أغنية أعرفها، وأهديها إلى الرئيس لينكولن، وإلى بلادي التي منحتني الكثير من قبل أن أولد حتى».

هدأ الجميع وأنصتوا. تجمدت أسرتها في مجالسهم قرب الممر الأيسر. كانوا كبقعة مربى توت أسود على منديل أبيض.

أكملت: «بسبب ما حدث في منتصف حرب الولايات، استطاعتُ أسرتي أن تأتي إلى هنا، وتعيش وسط أولئك الجيران الشرفاء».

ثم غنّت أغنية «الراية الموشّحة بالنجوم»، فوقف الجميع في احترام حتى انتهت، فتصاعد صوت التصفيق إلى عنان القاعة.

وكان هذا هو أكثر أيام حياتها فخرًا.

استيقظت من غفوتها بعد الظهيرة بقليل، واستفاقت ترمش أمام نور الشمس. امرأة مسنة في عمر المائة وثمانية. كانت قد استلقت في وضعية خاطئة على ظهرها، فاشتد ألمها، وسيبدو أنه سيستمر طوال اليوم.

«وا حسرتاه...».

نهضت واقفة بحرص. نزلت درجات الشرفة الخارجية متشبثةً بالسور المخلخل، تجفل من ألم ظهرها وتنميل ساقها. لم تعد دورتها الدموية كما كانت من قبل.. لماذا قد تظل كما هي؟ ظلت تحذر نفسها مرة تلو الأخرى من مغبة النوم على المقعد الهزاز. كانت تغفو عليه، فتتذكر كل أحداث الماضي الرائعة، وهو الأمر الأفضل من مشاهدة تمثيلية في التلفاز، لكنها تدفع ثمنًا غاليًا بعد استيقاظها. ستلوم نفسها كما تشاء، لكنها ككلب يعشق التمدد

أمام المدفأة. لو جلست تحت الشمس لنامت. هذا هو كل شيء. لا حيلة لها في الأمر.

وصلت إلى نهاية الدرجات، فتوقفت كي تريح ساقها، ثم تنخمت كتلة بلغم بصقتها على الأرض. عندما شعرت أنها عادت إلى طبيعتها (في ما عدا ألم الظهر)، مشت إلى المرحاض الذي بناه ابنها خلف المنزل عام 1931. دخلت وأغلقت الباب خلفها بالمزلاج، وكأن حشداً بالخارج، لا بضعة طيور. جلست، وبعد لحظات بآلت ثم تنهدت في راحة. هذا شيء آخر عن الشيوخة لم يخبرك أحد به (أم إنك لم تُصغِ قط؟)، يتوقف المرء عن معرفة توقيت تبوله، ويبدو أنه يفقد الإحساس بالنقطة بالأسفل حيث مثانته. ما لم يكن الواحد حذراً لتفاجأ بحاجته إلى تغيير ملابسه الداخلية. إنها لا تحب أن تتسخ، لذا تخرج خمس مرات أو ست يومياً لتبول، وفي الليل تُقرب المبولة من فراشها. قال لها جيم زوج مولي في مرة إنها ككلب لا يستطيع التبول إلا برفع ساقه تحية للبول، فضحك حتى دمعت عينها. جيم زوج مولي يعمل مدير وكالة إعلانية في شيكاغو، وهو بارع في مجاله.. أو كان كذلك. افترضت أنه رحل مع مَنْ رحلوا، وربما مع مولي أيضاً. بارك الله قلوبهم، إنهم مع يسوع الآن.

لم يزرها خلال العام الماضي سوى مولي وجيم، وبدا أن الآخرين قد نسوا وجودها، إلا أنها تتفهم هذا. لقد عاشت فوق زمنها زمناً. إنها كديناصور لا مكان له سوى المتحف (أو القبر). إنها تتفهم أنهم لا يرغبون في زيارتها، لكنها لا تفهم لماذا لا يرغبون في رؤية الأرض. لم يتبق منها الكثير، مجرد بضعة فدادين من الأرض الأصلية. إلا أنها ملكهم بعد.. أرضهم. يبدو أن السود لم يعودوا يهتمون بالأرض، بل إن بعضهم يشعر بالخزي منها. لقد شقوا طريقهم في المدن، وكثير منهم نجحوا هناك.. لكم يؤلم هذا قلبها. كل أولئك السود يشيخون بوجوههم عن الأرض.

أراد جيم ومولي تركيب مرحاض بصندوق طرد العام قبل الماضي، وتضايقا عندما رفضت. حاولت أن تشرح لهما، لكن مولي ظلت تردد: «ماما أباجيل، عمرك مائة عام وستة. هل تتصورين شعوري وأنا أعرف أنك تخرجين إلى المرحاض ودرجة الحرارة عشر درجات تحت الصفر في بعض الأيام؟ هل تعرفين خطر البرد على قلبك؟».

قالت أباجيل وهي تغزل: «عندما يريدني الرب سيأخذني». كانا يعرفان أنها لن تراهما وهما ينظران إلى بعضهما في ضيق.

بعض العادات لا يمكن التخلص منها، وهو أمر آخر لا يعرفه الشباب. في عام 1982، عندما بلغتِ المائة، عرضت عليها كاثي وزوجها جهازَ تلفاز، ووافقتهما. التلفاز جهاز مفيد لتزجية الوقت خاصة لو كنت وحيداً. لكن عندما زارها كريستوفر وسوزي ورغبا في توصيل ماء المدينة إلى بيتها، رفضتُ كما رفضتُ عرض مولي وچيم. قالوا لها إن بئرها كادت تجف، وأنها حتماً ستفعل لو مر عليها صيف آخر كصيف 1988، عندما باغتهم القحط. كلاهما سليم، لكنها استمرتُ في الرفض. افترضوا أنها صارت خرفة، وأنها تخلع أثواب العقل واحداً تلو الآخر، لكنها كانت تؤمن بأن عقلها راسخ كما كان دائماً.

قامت من فوق قاعدة المرحاض، ونثرت بعض الجير الحي في الحفرة، ثم خرجتُ إلى الشمس مرة أخرى. إنها تحافظ على نظافة مرحاضها، لكنه قد يفوح أحياناً برائحة غير مستحبة مهما فعلتُ.

عندما عرض عليها كريستوفر وسوزي وصلة الماء، شعرتُ كأن صوت الرب يهمس لها بالرفض. تكرر هذا مع عرض چيم ومولي. إن الرب يتحدث إلى الناس حقاً. ألم يُحدِّث نوح بالفلك؟ ألم يرشده إلى طوله وعمقه وعرضه؟ إنها تؤمن أنه يحدثها أيضاً، لكنه لم يكلمها من شجرة مشتعلة أو من عمود نار، لكنه كلمها. قال: آبي، ستحتاجين إلى صندوق الطرد، وستحتاجين إلى الكهرباء والماء، لكن حافظي على مصابيح الزيت ممتلئة، وعلى فتيلك مُشدَّبا. احتفظي بخزانة الطعام الباردة كما احتفظتُ بها أمك من قبلك. احذري من أن يقنك أي من الصغار بشيء مما يخالف مشيئتي يا آبي. هم أقرباؤك، لكنني أبوك.

مشتُ إلى منتصف الفناء، تنظر إلى بحر عيدان الذرة، لا يقطعه سوى طريق ترابي يتجه شمالاً إلى دوكان وكولومبس. بعد ثلاثة أميال من بينها يتحوّل الطريق إلى طريق أسفلتي. سيكون محصول الذرة جيداً هذا العام، وخسارة أنها لن تكون هنا لتحصده. أحزنها أن آلات الحصاد الضخمة الحمراء ستظل في مخازنها هذا العام. أحزنها أنها -ولأول مرة منذ مائة وثمانية أعوام- لم تكن هنا لتشهد تحول الصيف إلى خريف. ستحب هذا الصيف قدر استطاعتها، لأنها تعرف أنه سيكون الأخير بالنسبة إليها. ستكون في مكان آخر بعيد في عمق الغرب. يا له من شعور مُر...

مرّت بالأرجوحة فدفعتها برفق. هذا إطار جرار قديم علقه لوكاس هنا عام 1922، وتغيّر الحبل عدة مرات من وقتها وحتى الآن، لكن لم يتغير الإطار قط.

اهترأ الإطار الآن وظهرت بطانته، وانبعج من المنتصف من أثر أجيال الصغار الذين تأرجحوا عليه، وجُرِّفَت الأرضُ تحته جراء احتكاك الأقدام المتأرجحة، تحول الغضن السميك الذي يحمل الأرجوحة إلى عظمة بيضاء.

- أرجوك يا إلهي، أرجوك، أرجوك، ما لم أكن مضطرةً، أرجوك أجز عني هذه الكأس لو تستطيع. أنا مسنة وأنا خائفة ولا أريد سوى المكوث في بيتي هذا. أنا مستعدة للموت الآن إن كنت تريدني. لتكن مشيئتك، لكن أبي امرأة سوداء مُسنة مُتعبة. لتكن مشيئتك....

لا صوت سوى صوت احتكاك الحبل بالغصن، ونعيق الغربان وسط الذرة. أسندت جبينها المجعد إلى جذع شجرة التفاح المجعد التي زرعها أبوها منذ زمن، وبكت بحرقة.

حلمت تلك الليلة أنها تصعد درجات مسرح قاعة جمعية المزارعين مرة أخرى. الجميلة الشابة أباجيل، الحامل في ثلاثة أشهر، جوهرة إثيوبية في ثوب أبيض، تحمل جيتارها، تصعد وتصعد وسط الصمت، تتسابق أفكارها، فلا تسبق إلا فكرة واحدة: أنا أباجيل فريمانتل تروتس، سأعزف وأغني ببراعة. أنا لا أعرف أيًا مما سيحدث لأنه لن يحدث يقينًا.

استدارت في الحلم لتواجه الجمهور ذوي الوجوه البيضاء كالأقمار وسط إضاءة المسرح الغنية وستائره الداكنة اللامعة، المربوطة بحبال ذهبية. تمسكت بخاطرها الأخير، وبدأت تغني «روك العصور»، فخرج صوتها رناناً غنياً مضيئاً كمصابيح الزيت تمامًا. قالت لنفسها: سأكسبهم. بعون الرب سأكسبهم. يا شعبي، ألم أخرج لكم من الحجر ماء؟ سأكسبهم وسأجعل ديشيد وأمي وأبي يفخرون بي، سأستخلص من الهواء موسيقى، ومن الحجر ماء....».

كان هذا عندما رآته للمرة الأولى، يقف خلف المقاعد في الركن القصي، ذراعيه معقودين على صدره. يرتدي سروالاً جينز وسترة ذات أزرار على الجيوب، وينتعل حذاءً مترباً عالي الرقبة بلي كعبه، كأنه قطع أميالاً مظلمة طويلة. جبهته وضوء كمصباح، خداه متوردان، عيناه ماستان زرقاوان مرحتان، كأنه عفريت شيطاني في زي ملاك من زينة الكريسماس. كشفت ابتسامته أسنانه المصطفة النضيدة، البيضاء كأسنان ابن عرس.

رفع قبضتيه القويتين كعُقد شجر التفاح. ظلت ابتسامته مرحلةً مبهمَةً،
فيما قطرت الدماء من بين أصابعه المضمومة.

جفَّت الكلمات من عقلها، ونسيَتْ أصابعها العزف. ضج صوت نغمة
أخيرة ثم صمتت الأصوات.

بكتُ وتوسلتُ إلى الرب، لكنَّ الرب أدار عنها وجهه.

ثم وقف بن كونقي بوجه أحمر مشتعل، عيناه الخنزيريتان تتألقان وهو
يهتف: الغانية الزنجية! ماذا تفعل تلك الغانية الزنجية على مسرحنا؟ لا
تستخلص الغانيات الزنجيات موسيقى من الهواء، ولا تخرج من الحجر ماءً!
تعالَت صيحات همجية مُستَحسنة. هجم الناس عليها. رأت زوجها يحاول
الصعود إلى خشبة المسرح. تلقى لكمة في فمه، فطار إلى الخلف.

هتف بل أنولد: أعيديوا تلك الحيوانات السوداء إلى آخر القاعة! فدفع
أحدهم ربييكا فريمانتل إلى الحائط، ولَفَّها بستار أحمر ثم ربطه بحبل ذهبي
وهو يزعق: انظروا! راكون في ثياب مخملية!

هُرِعَ الناس إليه، وراحوا يلکمون المرأة الملفوفة في الستار ويركلونها.
صرختُ أبي: ماما!

انْتَزَعَ الجيتار من يدها وحُطِّمَ على حافة خشبة المسرح. بحثتُ في جَزَعٍ
عن الرجل الغامض في نهاية القاعة، لكنه كان قد فرَّ.

صرخت: ماما!، ثم رفعتها أذرع خشنة من فوق المسرح، ثم اقتحمتُ ما
تحت فستانها، تعبتُ وتقروص وتتحرش. جذب أحدهم ذراعها فانخلع، شعرتُ
بكفها على شيء صلب دافئ.

سمعتُ صون بن كونقي يهمس في أذنها: ما رأيك في صُلبي أيتها الداعرة
الزنجية؟

دارت بها القاعة، ورأت أبوها يحاول الوصول إلى أمها، ولمحت يدًا بيضاء
تهشم زجاجة على ظهر مقعد تخييم مطوي، فلمع طرفها الحاد في ضوء
المصابيح قبل أن تُغرس في وجه أبيها. رأت عينيه المحدثتين تُفَقِّان كحبتَي
عنب.

صرختُ، فمزقتُ صرختها القاعة، ودخلَ خرووقها الظلامُ. عادت الأم أباجيل
مرة أخرى، المرأة الهرمة.. أنا هرمة يا ربي.. هرمة (لكن لتكن مشيئتُك).
مشَّت بين صفوف الذرة الفضية تحت أشعة الشمس، السوداء بين الظلال.

سمعت رياح الليل تصفّر بين الأعواد، وشمّت عبقها الذي اعتادته منذ كانت طفلة. رائحة الذرة هي رائحة الحياة نفسها، رائحة بداية الخلق. لقد تزوجت ومات لها ثلاثة أزواج؛ ديفيد تروتس، هنري هاردستي، نيت بروكس. لقد رحّبت بثلاثة رجال في فراشها كما لامرأة مطيعة أن ترحب بأزواجها. بعد اللذة والنشوة، تفكر في الذرة وجذوره الضحلة السميكة. تفكر في اللحم ثم في الذرة، ثم يستلقي زوجها إلى جوارها وتعبق الغرفة برائحة الحب، رائحة ما تركه زوجها بداخلها، رائحة ما أفرزه جسدها.. رائحة تشبه رائحة الذرة؛ خفيفة حلوة.

إلا أنها بعد خائفة، تشعر بخطيئة حرارة علاقتها بالتربة والصيف والمزروعات النامية، لأنها ليست وحدها. إنه هنا معها، على بعد صفين عن اليمين أو اليسار. يسبقها أو يلحقها. حذاءه المترب يحفر في لحم التربة، يبتسم في الليل كمصباح كئيب.

ثم تكلم. لأول مرة يجهر بالكلام، ولأول مرة ترى ظله طويلاً مُنحنياً مشوهاً فوق أعواد الذرة. صوته كرياح الليل التي تنن بين صفوف الذرة الجافة في أكتوبر، صوت خشخشتها وهي تلفظ أنفاسها. إنه صوت هادئ.. صوت القدر.

قال: دماؤك بين قبضتيّ أيتها الأم الهَرمة. لو دعوتِ الرب، فاطلبي منه أن يقبضك إليه قبل أن تسمعي صوت خطواتي على درج بيتك. لست من استخلص الموسيقى من الهواء، ولا مَنْ أخرج من الحجر ماء، ودمك بين قبضتيّ.

ثم استيقظت قبل ساعة من الفجر. للحظة خشيت أنها قد بللت الفراش، ثم أدركت أنه مبتلّ بالعرق الغزير كندى شهر مايو. جسدها النحيل قليل الحيلة يرتجف ويتألم.

ربي، سيدي، أجز عني هذه الكأس...

لم يُجبها ربها. لا صوت سوى صوت نهاية الليل يطرق النوافذ المخلخة التي أكل الصداً مفصلاتها. أخيراً قامت، ووضعت الخشب في موقد التدفئة، وبدأت في تجهيز القهوة.

أمامها مهام كثيرة في الأيام التالية، لأنها تنتظر صُحبة. في أحلام أو دون أحلام، سواء كانت مرهقة أم لا، لم تكن لتفرض الصحبة ولا تنتوي أن تفعل هذا الآن. لكنْ عليها أن تتمهل كي لا تنسى شيئاً -فهي تنسى كثيراً مؤخراً- فتجد نفسها تدور وتدور دون فائدة.

أول شيء هو الذَّهَاب إلى خم دجاج أدِّي ريتشاردسن، والطريق إليه طويل، أربعة أميال أو خمسة. تساءلت أكان الرب سيرسل إليها نسرًا ضخماً ليطير بها تلك المسافة، أو يرسل مركبة إليسَع السحرية⁽¹⁾ لتوصلها.

غمغمت لنفسها: «هذا تجديف. إنما يمنحنا الرب القوة، لا توصيلات بسيارة أجرة».

بعدما غسلت أطباقها القليلة، انتعلت حذاءها الثقيل وأمسكت عصاها. نادراً ما تستخدم عصاها، لكنها اليوم تحتاج إليها. أربعة أميال في الذَّهَاب ومثلها في العودة. في عمر السادسة عشرة كانت تعدو الأربعة الأولى وتهول الأربعة الأخيرة، لكنْ عمر الفتوة قد ولى منذ زمن.

انطلقت في الثامنة صباحاً، على أمل أن تصل إلى مزرعة آل ريتشاردسن في الظهيرة، فتنام هناك مدة ارتفاع درجة الحرارة، ثم تعود عند العصر. لن تصل بيتها قبل الظلام، دفعها هذا للتفكير في حلمها ليلة أمس، إلا أن الرجل الغامض ما زال بعيداً. صُحبتها أقرب.

مشتُ ببطء شديد، أبطأ مما حسبت. الطريق والشمس شاقان على مَنْ هم في عمرها. لم تتعرق كثيراً، فلم يعدْ من لحم زائد على هيكلها العظمي. احتاجت إلى وقت راحة بوصولها إلى صندوق بريد آل جوديل. جلستُ في ظل شجيرة الفلفل وأكلت بعض بسكويت التين. لا أمل في نسر أو عربة سحرية. قامت بعدها ونفضتُ الفتات عن فستانها، ثم أكملتُ طريقها. لا.. ولا حتى سيارة أجرة.. الرب يساعد من يساعدون أنفسهم. مفاصلها تؤلمها، ولتكون لييلتها ليلة عصبية من شدة الألم.

ركنت أكثر على عصاها حتى ألمها رسغها. مدَّاسها المصنوع من الجلد الأصفر يحتك بالتراب فيثيره. تضربها الشمس. يمر الوقت ويقصر ظلها أكثر

(1) إليسَع أو إيليا في العهد القديم، من الأنبياء، وقد أرسل إليه الربُ مركبةً من نار وخيلاً من نار أخذته إلى السماء حسب الرواية التوراتية (المتجمة)

وأكثر. رأت حيواناتٍ برية في طريقها أكثر مما كانت تراه في العشرينيات. ثعلبًا، راكونًا، ظربانًا، نمسًا، غربانًا في كل مكان تنعق وتدور في السماء. لو كانت قد سمعت حديث ستو ريتمان وجلين بيتمان عن التطور، وعن تأثير الإنفلونزا الفائقة في بعض الحيوانات دون الأخرى لضحكت. لقد قتل الوباء الحيوانات المُستأنسة وترك هؤلاء. هذا هو الأمر ببساطة. أُعفيت بعض الحيوانات المُستأنسة من الإبادة، لكنَّ هذا ليس القانون السائد. لقد أخذ المرض الكلاب وترك الذئاب، لأن الذئاب برية والكلاب مُستأنسة.

نبض الألم في حوضها وخلف ركبتَيْها وحول كعبيها ومفصلي رسغَيْها التي تستند بهما إلى عصاها. مشَتْ ومشَتْ إلى ربها. أحيانًا في صمت، وأحيانًا في صخب، غير واعية للفرق بين المشيتين. لم تفكر إلا في ماضيها. كان عام 1902 أفضل عام، هذا صحيح. بعدها تسارع الزمن، وتحولت الأيام إلى أوراق رُزنامة ضخمة تُقلَّب سريعًا ولا تتوقف.

ولَدَتْ ليدقي تروتس خمسة أبناء، مات واحد منهم مختنقًا بقطعة تفاح في فناء المنزل القديم. كانت أبي تعلق الملابس المغسولة ثم التفتت لترى الطفل مُلقًى على ظهره، يقبض على حلقه ووجهه مزرقًا. أخرجت قطعة التفاح، لكنَّ الطفل همد وبرد رغم ذلك. كان هذا الطفل ابنتها الوحيدة مايبل، وطفلها الوحيد الذي مات في حادث.

جلست تحت شجرة دردار خلف سور مزرعة آل نوجلرز. على بُعد مائتي ياردة ترى الطريق الترابي يتحول إلى طريق أسفلتي. هناك يتحول طريق فريماننل إلى طريق مقاطعة بولك. الحر يجعل الهواء يتماوَج فوق الأسفلت، ويحول الأفق إلى ماء براق. في الأيام الحارة ترى سراب الماء أينما نظرت، ولا تلحقه أبدًا.. على الأقل هي لم تلحقه قط.

مات ديفيد في عام 1913 متأثرًا بإنفلونزا لا تختلف كثيرًا عن الحالية، وقد قتلت الكثير وقتها. في عام 1916، عندما بلغت الرابعة والثلاثين، تزوجت هنري هاردستي، مزارعًا أسود من مقاطعة ويلر في الشمال، وجاء لخطبتها خصوصًا. هنري أرمل له سبعة أبناء، كلهم كبروا ورحلوا باستثناء اثنين. كان أكبر من أباجيل بسبعة أعوام. ولدت له ولدين قبل أن ينقلب به الجرار ويقتله في نهاية صيف عام 1925.

بعد عام تزوجت نيت بروكس، وتكلم الناس كثيرًا عن الأمر.. لشدة ما يحب الناس الكلام. كان نيت عاملاً عند هنري هيردستي، وصار زوجًا صالحًا لها.

لم يكن في صلاح ديقيد طبعًا، ولا في عند هنري، لكنه صالح وفعل ما تأمر به. عندما تشيخ المرأة، تشعر باطمئنان لتحكمها في العلاقات.

أثمر أبنائها الستة عن اثنين وثلاثين حفيدًا، وأنجب أحفادها واحدًا وتسعين ابن حفيد على حد علمها، وفي وقت الإنفلونزا الفائقة، كان لها ثلاثة أحفاد أحفاد، وكان ليصير لها أكثر لولا الأقراص التي تتعاطاها بنات هذا الزمن لمنع الحمل. شعرت أباجيل بالأسف على ما يفعلون، لكنها لم تتكلم. الأمر متروك للرب (لا للأصلع في روما.. الأم أباجيل من أتباع الكنيسة المنهجية طوال عمرها، وتفتخر دائمًا أنها لا علاقة بها بأولئك الكاثوليك) ليحكم أكانت متعاطيات تلك الأقراص مذنبات أم لا. تعرف الأم أباجيل ما يفقدنه. إنهن يفقدن نشوة اجتياز وادي ظلال الموت، تلك النشوة التي تلي منح نفسك كاملة لرجلك وللرب الذي ستكون مشيئته عندما يشاء ذلك. تلك النشوة التي تلي الجماع أمام عيني الرب، بعدما يتخلص الرجل والمرأة من خطيئة آدم وحواء إذ تطهرت بدم الحَمَل الآن.

آه.. وا حسرتاه...

اشتَهتْ شربة ماء، وجلسة هادئة على مقعدها الهزاز. أرادت فقط أن تُترك وشأنها. ترى الآن انعكاس أشعة الشمس عن سقف خم الدجاج عن يسارها. الساعة العاشرة والربع، والخم يبعد عنها ميلًا تقريبًا. هذه سرعة جيدة بالنسبة إلى فتاة مُسنة مثلها. ستدخل وتنام حتى تقل درجة الحرارة. لا خطيئة في هذا. ليس في سنّها. استدارت عند المنعطف، حذاؤها مُرتب بالكامل.

لا بأس، إن لها أحفادًا كثر يباركونها في كبرها، وهذا شيء عظيم. البعض مثل ليندا وزوجها المُخفق لا يكثرثون لزيارتها، إلا أن مولي وچيم وديقيد وكاثي يصلونها، ويجزون عن مئات مثل ليندا والمُخفق زوجها. مات لوم آخر إختها عام 1949، في عمر الثمانينيات، ومات سامويل آخر أبنائها عام 1974 في عمر الرابعة والخمسين. لقد فاقت كل أبنائها عمرًا، وهذا مخالف لطبيعة الأمور، لكن يبدو أن هذه هي حُطّة الرب لها.

عندما بلغتِ المائة عام، ظهرتْ صورتها في جريدة أوماها، وكتب عنها صحافي موضوعًا. سألتها الشاب: «إلام تُنسبين عمرك المديد؟»، وبدا خائب الأمل عندما أجبتّه باختصار: «إلى الرب»، وقد تعشّم أن تقول إن سبب طول عمرها شمع العسل أو الابتعاد عن اللحم المقلي، ورفع ساقها في أثناء النوم.

بيد أنها لم تفعلْ أيًّا من هذا، فهل تكذب؟ الرب يمنح الحيوانات والرب يأخذها عندما يريد.

اشترى لها ديفيد وكاثي تلفازًا لتشاهد نفسها في الأخبار، وتلقت رسالة من الرئيس ريجان (الذي لم يكن شابًا هو الآخر) يهنئها فيها على وصولها إلى هذه السن المتقدمة وأنها ظلت تصوّت لمصلحة الجمهوريين. لمن غيرهم قد تمنح صوتها؟ روزفلت وجماعته كلهم اشتراكيون. عندما وصلت إلى قرن من العمر، أعفتها بلدة هيمنجفورد من الضرائب (إلى الأبد) للسبب نفسه الذي هنأها عليه رونالد ريجان. حصلت على شهادة بأنها أكبر إنسان في نبراسكا، وكأن الهَرَم شيء يأمله الأطفال. موضوع الضرائب لفئة جيدة، الباقي لم يكن سوى محض سخافة، لكن لم يفعلوه لما حصلت على الإعفاء. ضاعت منها أغلب الأرض منذ زمن. وصلت حيازة آل فريمانتل وقوة جمعية المزارعين إلى ذروتها عام 1902، ثم تراجعَت من وقتها. لم يتبقَّ لها سوى أربعة فدادين، والباقي أخذ منها سدادًا للضرائب، أو بيع للحاجة إلى المال... أكثر ما بيع من الأرض باعه أبنائها، ويخزيها قول هذا.

أُرسل إليها العام الماضي مستندٌ من جمعية في نيويورك تسمي نفسها «جمعية طب الشيخوخة الأمريكي». أنبأها ذلك المستند أنها ضمن أكبر ستة أشخاص في الولايات المتحدة، وثالث أكبر امرأة عمرًا. على رأس القائمة رجل من سانتا روزا، بلغ من العمر مائة واثنين وعشرين عامًا. طلبت من جيم أن يؤطر ذلك المستند ويعلقه إلى جوار رسالة الرئيس. لم يفعل جيم ذلك إلا في فبراير الماضي. وكانت هذه آخر مرة تراه فيها هو مولى.

وصلت إلى مزرعة ريتشاردسن قد أنهكت تمامًا. مالت تستند إلى عمود السور قرب الحظيرة، ونظرت في توق إلى المنزل. لا بُدَّ أن الجو بارد بالداخل، بارد ولطيف. شعرت كأنها تريد أن تنام دهرًا، لكن أمامها مهمة قبل ذلك. لقد ماتت حيوانات كثيرة من الوباء، منها الدجاج. لتكون هذه سخرية مقيبة لو أنها اكتشفت الآن أن الدجاج في الخم قد مات.

دخلت إلى الخم الملحق بالحظيرة، وتوقفت إذ سمعت نقنقتها. بعد لحظة صاح ديك. غمغمت: «حسنًا. عظيم...».

استدارت لتعود، فرأت جسدًا ممددًا قرب كومة خشب، وذراعه تغطي وجهه. إنه بل ريتشاردسن، زوج أخت أدّي. لقد نهشت الحيوانات المتوحشة جثته. قالت أباجيل: «يا مسكين.. لتغني لك الملائكة حتى ترتاح...».

عادت إلى المنزل البارد المُرحَّب. بدا كأنه يبعد أُميالاً رغم أنه على الجهة المقابلة من باب الحظيرة. كانت مرهقةً للغاية. قالت وهي تمشي: «ليعينني الرب».

غفَّت في غرفة الضيوف حالما خلعت مداسها. سطعت الشمس من النافذة، وللحظة لم تفهم سرَّ هذا السطوع، وهو شعور لاري أندروُد نفسه بعدما استيقظ عند السور الحجري.

هَبَّت جالسةً وكل عظمة من عظامها تصرخ. هتفت: «يا ربي العظيم! لقد نمتُ حتى اليوم التالي!». مكتبة سُرَّ مَنْ قرأ

لو حدث هذا، فلأنها كانت منهكة. هي الآن مضعضة حتى إنها احتاجت إلى عشر دقائق لتقوم من الفراش، وتذهب إلى الحمام، ثم عشر دقائق أخرى لتنتعل حذاءها. المشي عذاب، لكنها تعرف أنها مضطرة إلى المشي. لو لم تفعل ل زاد تصلب مفاصلها.

عبرت إلى القن وهي تعرج، دخلت فباغتتها الحرارة ورائحة الفضلات والتحلل. تُروى الدجاجات تلقائياً من المضخة، لكن الطعام نفد، وماتت أغلب الطيور الأضعف، أو نقرتها الأقوى حتى الموت. فرَّت كثير من الدجاجات المتبقيات مرفرفة بجناحيها إذ دخلت عليها، أما الراقصات على البيض فرمشت بأعينها فقط ولم تتحرك. هذا رزق الرب.

أخذت ثلاثاً من أسمنها، ودست رؤوسها تحت أجنحتها فنامت على الفور. وضعتها في جوال ثم أدركت أن مفاصلها المتصلبة لن تمكنها من حملها، فجرَّتها خلفها على الأرض. راقبتها باقي الدجاجات من مأمِنٍ حتى رحلت، ثم عادت إلى خمها تبحث عن طعام.

الساعة الآن قرب التاسعة صباحاً. جلست على المقعد الدائري المحيط بشجرة البلوط في الفناء، فكرت حتى رأت أن العودة إلى البيت في برودة الغروب أفضل. لقد أضاعت يوماً، لكنَّ صحبتها ما زالوا في الطريق بعد. ستستغل هذا اليوم في العناية بالدجاج والراحة.

شعرت بشعور غريب تحت قفصها الصدري، واحتاجت إلى لحظات حتى تدرك أنها جائعة! إنها لم تشعر بالجوع منذ زمن، وكانت تأكل على سبيل العادة لا أكثر. أخرجت أعناق الدجاج من تحت أجنحته، وذهبت لترى ما

تحتفظ به أدِّي في خزانتها، ويا لروعة ما وجدت. وعظت نفسها لتتذكر أن الرب يخطط لها الأفضل. الرب سيرزقك يا أباجيل، فاطمئني.

جرّت قدميها والجوال إلى منصة الذبح بين الحظيرة والكوخ الخشبي. داخل الكوخ وجدت مريولة الذبح الخاصة ببلي ريتشاردسن، وقفازيه المطاطيين ملفوفين حول سكين. أخذت القفازين والسكين إلى منصة الذبح، ووقفت إلى جوار الجوال تنظر إلى سماء الصيف الخالية من السحب. قالت: «يا إلهي. لقد منحنتي القوة لأمشي إلى هنا، وأومن أنك ستمنحني القوة للعودة. رسولك إشعياء قال إن آمن رجل أو امرأة برب الجنود، سيطيّر بجناحين كالنسور. لا أعرف الكثير عن النسور يا سيدي إلا أنها ذات طبيعة خبيثة ترى لمسافات بعيدة، إلا أن معي ثلاث دجاجات في هذا الجوال وأريد قطع رؤوسها لا قطع يدي. لتكن مشيئتك. آمين».

فتحت الجوال واختارت دجاجةً من الدجاجات النائمت في الظلام ظناً منه أن الليل قد حلّ. ليس أغبى من دجاجة إلا ديموقراطي نيويورك.

وضعت أباجيل الدجاجة على المنصة قبل أن تعي ما يحدث، وهوت على عنقها بالسكين هي تغلق عينيها كما اعتادت عندما تسمع صوت ارتطام السكين بالخشب. سقط الرأس على الأرض، وانطلقت الدجاجة بلا رأس في فناء آل ريتشاردسن، والدم يتدفق من أعلاها. بعض لحظات أدركت أنها ماتت، فتمددت في هدوء.

انتهت المهمة، وزالت مخاوفها من قطع يدها أو جرح نفسها. لقد سمع الرب صلاتها. فعلت الأمر نفسه مع الدجاجتين المتبقيتين، ثم وضعتها في الجوال وأعادت قفازي ريتشاردسن وسكينه إلى مكانها. أخيراً عادت إلى بيت المزرعة لترى ما ستأكله.

أخذت قيلولةً وقت الظهيرة، وحلمت بأن صحبتها تقترب أكثر الآن. إنهم جنوب نيويورك، يركبون شاحنةً قديمة. هم ستة، منهم شاب أبكم أصم، إلا أنه شاب قوي، وهو ممن ستتكلم معهم.

استيقظت في الساعة الثالثة والنصف. جسدها متصلب بعد لكنها أفضل. أمضت ساعتين في نتف ريش الدجاج، وأخذت فترات راحة كلما ألمتها

أصابعها. أنشدت الترانيم وهي تعمل؛ (أبواب المدينة السبعة)، و(مجددوا الرب إلهي)، و(ثق وأطع)، والمفضلة لديها (الحديقة).

وقتما انتهت من تنظيف الدجاج، كانت أصابعها قد أصيبت بصداعها الخاص، وضوء النهار تحول إلى اللون الذهبي الهادئ الذي يُنذر باقتراب الغروب. النهار يقصر مع دخول نهاية يوليو.

عادت إلى الداخل وأكلت لقمة خبز أخرى. الخبز جاف، لكنه ليس متعفنًا. لا يجرؤ العفن على الاقتراب من خزانة أدِّي ريتشاردسن. وجدتُ نصفَ برطمان زبد فول سوداني، فصنعتُ شطيرةً أكلتها وأخرى احتفظتُ بها في جيبها لوقت الجوع.

جمعتُ حاجاتها وخرجت إلى الطريق في السابعة إلا عشر دقائق. زفرتُ بقوة وقالت: «أنا ذاهبة يا إلهي. عائدة إلى البيت. سأمشي ببطء، ولا أظنني سأصل قبل منتصف الليل. لكنَّ الكتاب المقدس يقول: لا تخش من خوف الليل ولا من سهم يطير في النهار. أنا في طريقي لتنفيذ مشيئتك قدر استطاعتي. امشِ معي أرجوك من أجل يسوع. آمين».

وصلتُ عند المكان الذي يتحول فيه الطريق الأسفلتي إلى طريق ترابي وقد حلَّ الليل. غنَّت الجنادب، ونقَّت الضفادع من موضع مبتل ما، ربما من بركة سقاء بقر كال جودويل. سيضيء السماء قريبًا القمرُ الكبيرُ الأحمر بلون الدم.

جلستُ ترتاح وتأكل نصفَ شطيرتها (كانت لتضيف بعض مربى التوت لتقلل ذلك المذاق الدُّبق، لكنَّ أدِّي تحتفظ بالمربى في المخزن بالأسفل، ولا طاقة لها بالنزول). الجوال إلى جوارها.. ما زال أمامها ميلان ونصف حتى البيت.. لكنها شعرتُ ببهجة غريبة. منذ متى لم تخرج في الليل تحت قبة السماء المرصعة بالنجوم؟ النجوم براقّة، ولو حالفها الحظ لشهدتُ شهابًا ولتمنَّت أمنيةً. ليلة صيفية دافئة كهذه، مع قمر أحمر مُحَب، ذكرتها بشبابها. نعم، لقد كانت شابة، ويصعب على الكثير تصديق هذا، كما يصعب عليهم تصديق أن شجرة الجبَّارة كانت يومًا شتلة. لكنها كانت شابة، زال عنها خوف الطفولة من الليل، ولن يصل إليها خوف الكبار من سكون الليل حيث تستطيع سماع صوت روحك الأبدية نفسها. في ذلك الوقت بين هذا وذاك، كانت تشعر بنبض الكون نفسه في روعة الليل ونجومه وروائحه. تشعر بأنها ستظل شابة إلى الأبد، و...

دماؤك في قبضتي..

شعرتُ بمن يجذب الجُوال، فصرختُ وجذبتُه نحوها وهي تنظر إلى ما حولها في جزع. سمعتُ صوتَ دمدمةٍ منخفضًا يأتي من بين المنعطف وحقل الذرة، ورأتُ ابنَ عِرسٍ بُنيًا كبيرًا ينظر إليها بعينين حمراوين جراء انعكاس لون القمر عليهما. ثم ظهر واحد آخر فأخر.

نظرتُ إلى الجهة الأخرى من الطريق لتكتشف أنها محاطة ببنات عِرسٍ وقد شمتت رائحة الدجاج وتجمعت حولها. عضها ابنُ عِرسٍ من قبل. كانت قد مدت ذراعها تحت مقعد في الفناء لتجلب كرة حمراء تدرجت، فشعرت بفم مليء بأسنان كالإبر ينهش ذراعها. جذبت ذراعها وهي تصرخ أكثر مما يحتمله الألم، لتجد ابنَ عِرسٍ معلقًا بها والدم يسيل من فمه ويلوث فراءه، يتأرجح جسده الطري في الهواء كجسد ثعبان. صرخت وهزّت ذراعها، لكنه ظل متشبثًا بها.

كان أخاوها ميكا وماثيو مع أبيها في الشرفة الخارجية يطالعون كتالوجًا وصل إليهم بالبريد، فهُرعوا إليها وتجمدوا لمرأى أباجيل -كانت في الثانية عشرة وقتها- تدور حول الفناء وهي تصرخ، وابنُ عِرسٍ متدلٍ من ذراعها، والدم يغرق فستانها وساقיה وحذاءها.

تصرف والدها أولاً، فانتزع لوح خشب من الموقد وصاح: «اثبتي يا أباجيل!». قطع أمره الحاسم ذعرها، فثبتت وهوى لوح الخشب فارتفع الألم إلى كتفها (ظنت أن ذراعها كُسِرَتْ) ثم سقط الشيء البني الذي تسبب لها في كل ذلك الألم على الأرض، ملوثًا بدمائها. قفز ميكا في الهواء وسحقه بكلكل قدميه، فصدر صوت قرمشة مقرز كذلك الذي يصدر من قطعة سكاكر تسحقها بضروسك. لم تفقد أباجيل الوعي، لكنها ناحت وبكت في هستيريا. قال چون فريمانتل وهو يضم ابنته الباكية إلى صدره: «لم أرَ ابنَ عِرسٍ يتصرف هكذا من قبل. نشكر الرب أن أمك لم تكن هنا».

قال ريتشارد ممتقع الوجه: «ربما كان مسع...».

قاطعه أبوه: «اصمت...». خرج صوته باردًا غاضبًا مرتعبًا، كل هذا في الوقت نفسه. صمت ريتشارد، حتى سمعت أباجيل صوت فمه يُطبّق. قال لها أبوها: «لنغسل ذراعك عند المضخة يا أبي».

بعد عام أخبرها لوك بما لم يقله ريتشارد بناءً على أمر أبيهم. لا بدُّ أن ابنُ عِرسٍ كان مسعورًا ليفعل شيئًا كهذا، لكنه لم يكن كذلك، وشَفِيَّ الجرح تمامًا. من وقتها وهي تخشى هذا الكائن كما يخشى الآخرون من الفئران والعناكب. ليت الوباء قتلهم بدلًا من الكلاب! لكنه لم يفعل، وهي...

دماؤك بين قبضتي.

تجهَّ ابنُ عِرسٍ ومزَّق طرف الجوال. صرخت: «مهلاً»، فابتعد الكائن وقطعةً من الجوال معلقةً بين أسنانه.

لقد أرسلها.. الرجل الغامض.

حاوطها الذعر. حولها مئات من بنات عِرس. بُنية ورمادية وسوداء، كلها تشمُّ رائحة الدجاج، وتصطفُّ على جهتي الطريق، تحقق إلى مصدر الرائحة. يجب أن أعطيها الدجاج. لو لم أفعلُ فسيمزقونني إربًا.

في ظلمات عقلها رأت الرجل الغامض يبتسم. ترى قبضتيه والدماء تقطر منهما.

جذبة أخرى لطرف الجوال، ثم أخرى.

تعبر بنات عرس على الجانب الآخر من الطريق إليها، تحتك بطونها بالأرض الترابية. أعينها المتوحشة تلمع.

لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية...

قامت وهي مذعورة بعد، لكنها تعرف ما عليها فعله. زعقت: «ابتعدوا! الدجاج لصُحبتِي! والآن ابتعدوا!».

تراجعت بنات عرس، امتلأت أعينها بالغیظ، ثم اختفت كالدخان. إنها معجزة. ملأتها البهجة والعرفان للرب، ثم فجأة شعرت بالبرد.

في مكان ما، بعيدًا عند الغرب، وخلف جبال روكي غير المرئية عند الأفق، استشعرت وجود عين لامعة تنفتح عن اتساعها وتحقق إليها.. تبحث. سمعت صوته في عقلها واضحًا: «مَن هناك؟ هل هو أنتِ أيتها الشمطاء؟».

همست في الليل: «إنه يعرف أنني هنا. أوه، ساعدني يا إلهي. انجدني، انجدنا جميعًا».

جرت الجوال، وبدأت تمشي مرةً أخرى إلى البيت.

وصلوا بعد يومين؛ يوم الرابع والعشرين من يوليو. لم تُنهِ التجهيزات كما تمنّت، فظلت تسعى من هنا إلى هناك متكئة على عصاها، ورفعت الماء من البئر بمشقة. نامت في اليوم التالي لذبح الدجاج والتخلص من بنات عرس، ولم تستيقظ إلا قرب الظهيرة.

حلمت أنها في ممر بارد بين جبال روكي، غرب خط تقسيم المياه القاري. الطريق السريع رقم 6 ممتد أمامها، يلتف من حول الجدران الصخرية العالية التي تظله طوال النهار إلا بين الساعة الثانية عشرة إلا ربع والساعة الواحدة إلا عشر دقائق ظهرًا. لم يكن حلمها في النهار، بل في ليل بلا قمر. تعوي الذئاب في مكان ما. تنفتح العين الحمراء فجأة في العتمة، تدور من جهة إلى أخرى فيما الريح تُصفر بين أشجار الصنوبر وتنوب الجبال الأزرق. إنه هو.. إنه يبحث عنها.

استيقظت من تلك الغفوة الطويلة منهكة أكثر. صلت للرب مرة أخرى كي يعفيها من مهمتها، أو على الأقل يغير الاتجاه الذي يريد أن تسلكه.

شمالًا، جنوبًا، شرقًا.. سأغادر هيمنجفورد هوم وأنا أترنم باسمك. لكن ليس الغرب أرجوك.. ليس إلى حيث الرجل الغامض. جبال روكيز ليست كافية للحول بينه وبينني، ربما تنفع جبال الأنديز.

بيد أن الفرار لن ينفع. عاجلاً أو آجلاً سيقوى الرجل كفاية وسيأتي للنيل ممن سيقفون أمامه. إن لم يكن هذا العام، فالعام القادم. لقد اختفت الكلاب، قتلها الوباء، لكن الذئاب بقيت في بلاد الجبال الشاهقة، تستعد لخدمة عبد الشيطان.

ولن تخدمه الذئاب فقط...

بدأت يوم وصول صُحبتيها في السابعة صباحًا. نقلت خشبَ موقد التدفئة عودين في المرة الواحدة حتى امتلأ مخزنه. أنعم الله عليها بيوم غائم بارد، وهو الأول منذ أسابيع. ربما تمطر بحلول الليل، هكذا أخبرها مفصل حوضها الذي انكسر عام 1958.

خبزت فطائرًا أولاً، وقد حشّتها من المعلبات في خزانيتها، وبالفراولة والرواند من الحديقة. لقد نضجت الفراولة للتو، فسعدت أنها لن تذهب هباءً دون أن يأكلها أحد.



الطهو جعلها تتحسن، فالطهو بالنسبة إليها هو الحياة. خبزت فطيرة توت أزرق، وفطيرتي راوند وفراولة، وفطيرة تفاح. ملأت رائحتها المطبخ. وضعت الفطائر على حاجز نوافذها لتبرد كما اعتادت أن تفعل طوال حياتها. صنعت خليط قلي الدجاج دون بيض، ولا يمكن أن تلوم سوى نفسها، فقد كانت في الخم بالليل ولم تجلب منه أي بيض، ستفوح في المساء رائحة مطبخها القديم بعبق الدجاج المقلي. ارتفعت درجة حرارة البيت، فخرجت إلى الشرفة تقرأ درسها اليومي، مستخدمة نسخة من كتاب (الغرفة العليا) ذي أوراق مطوية الأطراف للتهوية على وجهها المتعرق.

نضج الدجاج خفيفاً جميلاً كما أرادت. ربما يخرج اثنان من الرفاق ليجلبا لها دستتي أكواز ذرة، فيجلسون في الليل يلتهمونها بالخارج. بعدما أخرجت الدجاج من الزيت على مناديل ورقية، خرجت إلى الشرفة مع جيتارها وجلست وبدأت تعزف. غنت كل ترانيمها المفضلة بصوتها العالي المرتجف الذي ينجرف خلال الهواء.

«مررنا جميعاً بتجارب وإغراء،

هل أربكتنا أثقالها؟

علينا ألا نحبط، ونحملها إلى الرب في صلاتنا».

بدت النغمات جيدةً بالنسبة إليها (على أن أذنيها لم تعد قادرةً على التمييز الدقيق)، فغنت ترنيمةً أخرى، وأخرى وأخرى...

كانت على وشك الانتهاء من أغنية «المشي إلى صهيون»، عندما سمعت صوت محرك آتياً من الشمال على طريق المقاطعة، ويقترّب منها. توقفت عن الغناء، وظلت أصابعها تمسّد الأوتار وهي شاردة، تميل أذنها نحو الصوت لتنصت.

إنهم قادمون. أجل يا ربي، لقد عرفوا طريقهم، وهي الآن ترى الغبار المنبعث من تحت إطارات السيارة إذ انتقلت من الطريق الأسفلتي إلى الترابي المؤدي إلى بيتها. ملأها الترحيب والحماس، وسعدت أنها ستقدّم لهم أفضل ما عندها. وضعت جيتارها بين ركبتيها، وظللت عينيها بكفها.

صوت المحرك يقترب، وخلال لحظات سيكون عند مكان سقاء بقر كال جوديل..

نعم، إنها تراها. شاحنة شيفروليه من المستخدمة في المزارع، تتحرك ببطء. كابينة السائق مزدحمة، ترى فيها أربعة مكدين، (لا غبار على نظرها حتى وقد جاوزت المائة عام)، وثلاثة في الصندوق الخلفي. أبصرت رجلًا أشقر ذا بَشْرَة مسمرة، وفتاة حمراء الشعر، وفي المنتصف... نعم، إنه هو، ذلك الشاب في مقتبل العمر، ذو شعر أسود ووجه نحيل وجبهة عريضة. رآها تجلس في الشرفة فلوح لها في حماس، وبعد لحظات هذا الأشقر حذوه. نظرت إليها الصهباء فقط ولم تفعل شيئًا. رفعت الأم أباجيل ذراعها ولوحت لهم.

غمغمت والدموع تغمر خديها: «الشكر للرب على سلامة وصولهم. إلهي، شكرًا لك».

تمايلت الشاحنة وتقاطعت على الطريق. الرجل خلف المقود يعتمر قبعة قش ذات إطار مخملي أزرق، مُثبت إليها ريشة كبيرة.

صاح وهو يلوح: «مرحى! مرحبًا أيتها الأم! قال لك إنك ستكونين هنا، وها أنتِ! مرحى!». ضغط النفير في سعادة. يجلس معه في الكابينة رجل خمسيني، وامرأة في العمر نفسه، وطفلة ترتدي فستانًا أحمر بلا أكمام. حياتها الطفلة بيد، وإبهام اليد الأخرى في فمها.

قفز الشاب ذو رقعة العين -نك- من فوق حافة صندوق السيارة قبل أن تتوقف تمامًا. استعاد توازنه ثم مشى نحوها ببطء بوجه متجهم، إلا أن عينه كانت تلمع بالفرح. توقف عند بداية الدَّرج ونظر حوله في دهشة.. نظر إلى الفناء، إلى المنزل، إلى الشجرة العتيقة والأرجوحة، ونظر أكثر إليها هي.

قالت: «مرحبًا يا نك. أنا مسرورة لرؤيتك. باركك الرب».

ابتسم، وبدأ يذرف الدمع. صعد الدرج وأمسك بيديها. صغرت له خدها المجعد فقبَّله برقة. توقفت الشاحنة من خلفه، وترجل الجميع. يحمل السائق الفتاة ذات الفستان الأحمر والساق المضمدة. ذراعها ملفوفتان حول رقبته. وقفت إلى جواره المرأة الخمسينية، وإلى جوارها الصهباء ثم الشاب الأشقر الملتحي. ظننته الأم أباجيل صبيًا لأول وهلة من شدة هزاله. في آخر الصف

وقف الرجل الذي كان راكبًا في الكابينة يمسح عدستي نظارته ذات الإطار المعدني.

نظر إليها نك نظرة مُلِحَّة، فأومأت وقالت: «لقد أحسنتم صنعًا. لقد أتى بكم الرب، وستطعمكم الأم أباجيل»، ثم أضافت بصوت أعلى: «أنتم جميعًا مرحَّب بكم. لن نستطيع أن نمكث هنا طويلاً، لكن قبل أن نتحرك علينا أن ننتظر باقي الصُحبة».

هتفتِ الطفلة المحمولة على ذراعي السائق: «هل أنتِ أكبر سيدة في الدُّنيا؟».

غمغمت الخمسينية: «صمًا يا جينا!»، لكنَّ الأم أباجيل وضعت يديها على جانبي خصرها وضحكت ثم قلت: «ربما أنا أكبر سيدة يا طفلتي. ربما».

طلبتُ منهم أن يفرشوا مفرشها الكبير بنفش المربعات الحمراء تحت شجرة التفاح، ونقلت المرأتان أوليفيا وچون الطعام إليه، بينما جمع الرجال الذرة التي سلقتها سريعًا، ورشَّتها بالزيت والملح بدلاً عن الزبد.

دردشوا قليلاً خلال تناولهم الطعام، وتصاعدت من أفواههم أصوات المضغ والتلمُّظ. انشرح قلبها لمرآهم يأكلون، ونسيت تعبها في السير إلى الحظيرة والتخلص من بنات عرس. لم يكونوا جوعى بالمعنى الحرفي، لكنهم كانوا يشتهون طعامًا منزليًا ساخنًا بعد شهر من أكل المعلبات. أكلت هي ثلاث قطع دجاج، وكوز ذرة، وشريحة من فطيرة الفراولة والراوند. بعدما أنهت كل هذا شعرت بامتلاء بَقَّة في فراش مزدحم.

بعدها جلسوا ليشربوا القهوة. قال لها السائق ذو الوجه الصبيح رالف برينتر: «يا لها من وجبة يا سيدتي. لا أتذكر متى كانت آخر مرة أكلت فيها طعامًا رائعًا هكذا. شكرًا لك».

غمغم الآخرون بعبارات شكر، وابتسم نك وأوماً. قالت الطفلة: «هل يمكن أن أجلس على جِرك يا سيدتي الجَدَّة؟».

قالت أوليفيا وُكر: «أعتقد أنكِ ستكونين ثقيلة الوزن بالنسبة إليها يا حبيبتي».

عارضتها الأم أباجيل: «هذا هراء، اليوم الذي أعجز فيه عن حمل طفلة على جِري هو اليوم الذي سيلفونني فيه في كفني. تعالي يا جينا».

حملها رالف وأجلسها. قال وهو يداعب خد الطفلة بالريشة في قبعته: «لو شعرت بثقل وزنها، فأخبريني». ضحكت الصغيرة وهتفت: «لا تدغدغي يا رالف! لا تحاول حتى!».

- لا تقلقي. أنا ممتلئ حتى إنني لن أدغدغ أي شخص قريباً.

جلس مكانه، وسألت الأم أباجيل: «ماذا حدث لساقك يا جينا؟».

- كسرتها عندما سقطت من فوق الحظيرة أصلحها دك. قال رالف إن دك أنقذ حياتي.

أرسلت قبلة في الهواء إلى الرجل ذي النظارة، فاحمرَّ خداه وسعل ثم ابتسم.

قابله نك وتوم كولين ورالف في منتصف الطريق خلال كانساس، يمضي على جانب الطريق وهو يحمل حقيبته على ظهره، يمسك عصا مشي. دك جندي سابق. في اليوم التالي عبروا من بلدة صغيرة اسمها ليندسبورج، وتوقفوا فيها للغداء، فسمعوا صوت أنين خافتاً من جهة جنوب البلدة. لو أن الريح كانت تهب في الاتجاه المعاكس ما كانوا يسمعون الصوت.

قالت أبي وهي تمسّد شعر الطفلة: «يا لرحمة الرب».

كانت جينا بمفردها منذ ثلاثة أسابيع، ولعبت في سقيفة حظيرة عمها حتى جاء اليوم الذي انهارت فيه الأرضية النخرة، فسقطت من ارتفاع أربعين قدماً على القش بالأسفل، وقد خفف هذا من قوة إصابتها، لكن ساقها كُسرت على أي حال.

في البداية تفاعل دك إليس بصدد إصابتها، فأعطاهم مخدرًا موضعياً ليصلح وضع ساقها. كانت قد نحلت كثيراً وضعفت حتى خشي من استخدام مخدر عام. (نطقوا الكلمات القاسية في أثناء المحادثة بتهجّي الحروف، فيما جينا مَكُون تلعب بأزرار فستان الأم أباجيل).

تعافت جينا بسرعة أذهلتهم، وتعلقت برالف على الفور وبقبعته ذات الريشة. قال إليس بصوت منخفض إنه يظن أن مشكلتها الكبرى كانت الوَحْدَة.

قالت الآن أباجيل: «هي طبعاً كذلك. لو لم تجدوها لراحت...».

تتأبّت جينا، وصارت عيناها الواسعتان زجاجيتين. قالت أوليفيا وكر: «سأخذها منك الآن»، فقالت أبي: «انقلها إلى الغرفة الصغيرة في نهاية

الصالة. يمكنك أن تنامي معها إن كان هذا ما تريدين. أما الفتاة الأخرى.. ما اسمك يا حبيبتي؟ لقد انزلق اسمك من على طرف لساني....».

أجابت الصهباء: «جون برينكمير».

- حسنًا. يمكن أن تنامي معي، إلا لو كان لك رأي آخر. الفراش لا يسع اثنين، ولا أظنك تريدين النوم إلى جوار جُوال عظام مثلي، لكن في العلبة حشية أخرى، نامي عليها ما لم يكن البق قد نال منها. سيجلبها لك واحد من أولئك الرجال الأقوياء.

قال رالف: «طبعًا».

حملت أوليفيا حينما التي قد نامت فعلًا ونقلتها إلى الفراش. غمر المطبخ الآن ضوء المغيب. قامت الأم أباجيل بصعوبة، فأضاءت ثلاثة مصابيح زيت، واحد للمنضدة، وواحد فوق الموقد الذي برد الآن، وواحد لإطار نافذة الشرفة الخارجية. لقد أبعدت الظلام قليلًا.

قال دك فجأة: «أعتقد أن الحياة على الشكل القديم أفضل». نظر إليه الجميع. احمرَّ وجهه وسعل، ونخرت أباجيل. أكمل دك كأنه يدافع عن نفسه: «أعني.. هذه هي أول وجبة منزلية الصنع أكلها منذ... منذ الثالث عشر من يوليو. يوم انقطع التيار الكهربائي. طهوت تلك الوجبة بنفسني، وهي بالكاد تعتبر طهواً منزلياً. زوجتي.. كانت طاهية عظيمة. كانت...».

ثم صمت. عادت أوليفيا وهمست: «لقد نامت. كانت مرهقة فعلًا».

سأل دك الأم أباجيل: «هل تخبزين خبزك؟».

- طبعًا. لطالما فعلت هذا. طبعًا هذا ليس خبزًا مُخمَّرًا، فلم يعد لدي خميرة، لكنني أعرف أنواع خبز مختلفة.

قال ببساطة: «أنا أشتهي الخبز. هيلين.. زوجتي.. اعتادت أن تخبز لي مرتين في الأسبوع. مؤخرًا صار الخبز هو كل ما أريد. أعطني ثلاث شرائح خبز وبعض مربى فراولة وسأموت سعيدًا».

قال توم مُتثائبًا: «توم كولين تَعْبَان.. ق- م- ر. هذه هي طريقة تهجِّي كلمة تَعْبَان».

قالت أباجيل: «يمكن أن تنام في السُقيفة. رائحتها رطبة قليلًا، لكنها جافة فعلًا».

ظلوا دقائق ينصتون لصوت الأمطار التي كانت تهطل منذ ساعة تقريباً. إن كانت وحدها لشعرت أكثر بالوَحْدَة، لكنَّ طقطقة المطر في وجود الصحبة صوت دافئ يقربهم من بعضهم. سال الماء خلال مواسير الصرف إلى ما وراء المنزل، حيث احتفظت أباجيل بنظام التصريف القديم. أَرَّ الرعد من بعيد، من السحب فوق إيوا.

سألتهن: «أعتقد أن معكم عتادَ التخميم؟».

أجاب رالف: «من كل نوع. سنكون بخير. هيا يا توم».

- أتساءل أكان في وسعك أنت ونك أن تمكثا قليلاً معي يا رالف؟

كان نك جالساً إلى منضدة بعيدة عن الجَمْع. افترضت أنه ما لم يكن المرء يسمع، لضاع في غرفة مليئة بالناس ولفضّل أن يبتعد عن الأنظار. لكنَّ شيئاً في نك منع هذا من الحدوث. كان جالساً هناك يتابع الحوار، وتتغير تعبيرات وجهه بناء على ما يُقال. وجهه منفتح ذكي، لكنه مهموم أكثر مما ينبغي لمن هم في عمره. لاحظت أنهم ينظرون إليه كثيراً في أثناء الحوار، كأنه سيصدّق على ما يقولون. كانوا واعين لحضوره، ورأته أكثر من مرة ينظر خلال النافذة إلى الظلام، ويكتسي وجهه بالهم.

سألت جون: «هل يمكن أن تحضر لنك تلك الحشيّة؟».

قال رالف وهو يقف: «سنجلبها لك أنا ونك».

هتف توم: «رباه! لا! لا أريد أن أذهب إلى تلك السقيفة وحدي!».

قال نك: «سأذهب معك يا بطل. سنضيء المصباح وننام»، ثم قام وأضاف:

«شكراً مرة أخرى يا سيدتي. لا يسعني أن أخبرك بمدى كرمك وجُودك».

كرر الآخرون الشكر، وأحضر نك ورالف الحشيّة التي لم تكن موبوءة بالحشرات. خرج توم ونك إلى السقيفة، حيث أضاءا مصباحهما الذي يعمل بالبطاريات هناك. في النهاية لم يتبقَّ في المطبخ سوى نك ورالف والأم أباجيل.

سأل رالف: «هل تمانعين لو دخنتُ يا سيدتي؟».

- ما دمتَ لن تنفُض الرماد على الأرض. في الخزانة خلفك منفضة.

قام رالف ليحضرها، وظلت أبي تحرق إلى نك. شيء فيه جعلها تشعر بأنها تعرفه من قبل، أنه كان مقدراً لها معرفته. وصل إليها منه حكمة ومعرفة

كأن هذه اللحظة التي يعيشانها لحظة قدرية، أو كأن حياتها كحبل، عند طرفه البعيد أبوها الأسود العظيم، وعند الطرف الأقرب ذلك الشاب الأبيض الأبكم، بعينه الوحيدة الذكية التي تطلُّ عليها من وجهه المهموم.

نظرت خلال النافذة لترى ضوء المصباح يتوهج من نافذة السقيفة، ويضيء جزءاً من مدخل بيتها. تساءلت أكانت السقيفة تفوح برائحة البقر بعد؟ هي لم تدخلها منذ ثلاث سنوات. لا سبب لدخولها، فقد ماتت آخر بقراتها -ديزي- عام 1975، وظل المكان يفوح برائحة البقر حتى عام 1987. لا يهم. في العالم روائح أسوأ.

- سيدتي؟

انتبهت إلى رالف الجالس إلى جوارك، يحمل ورقة ينظر إليها في الضوء الشحيح. كان لك قد كتب شيئاً وما زال معه دفتر وقلم وينظر إليها.

تنحنح رالف وقال: «نك يقول...»، ثم صمت حرجاً.

- أكمل...

- كتب في الورقة أن قراءة شفتيك صعبة لأنهما...

- خمنت السبب. لا تخف.

ذهبت إلى الخزانة، فأخرجت من إحدى أدراجها برطماناً يحوي أسنانها الصناعية طافية في محلول غائم. أخرجتها وغسلتها، ثم ركبته، ثم قالت: «لنتكلم. أنتما الرئيسان..، وعلينا أن نتحدث في بعض الأمور».

قال رالف: «بالتأكيد لا تقصدينني. لم أكن في حياتي سوى عامل في مصنع، ونصف مزارع. ليس في رأسي أفكار أكثر مما في يدي من ثفن. أعتقد أن لك أفضل بكثير في تولي القيادة».

سألت وهي تنظر إلى لك: «هل هذا صحيح؟».

كتب لك بسرعة، وقرأ رالف: «المجيء إلى هنا فكرتي. هذا صحيح، لكن مسألة تولي القيادة، لا أعرف...».

قال رالف: «قابلنا أول أمس جون وأوليفيا على بعد تسعين ميل جنوب هذا المكان. أليس كذلك يا لك؟».

أوما لك.

- كنا في طريقنا إليك أيتها الأم. كانت المرأة تتجه شمالاً أيضاً، وكذلك
بك. هكذا التقينا.

سألتهما: «هل صادفتما آخرين؟».

كتب بك: «لا. لكنْ أشعر -ورالف أيضاً- أن آخرين يختبئون، يراقبوننا.
ربما هم خائفون ولم يتجاوزوا صدمة ما حدث».

أومأت، أكمل بك كتابة: «قال بك إنه في اليوم السابق للقائنا، سمع صوت
دراجة بخارية في مكان ما جنوباً، لذا أومن بوجود آخرين. أعتقد أن رؤية
جماعتنا تتحرك على هذا النحو أخافتهم».

حدقتُ إليه بعينين غائصتين في شباك التجاعيد حولهما، وسألته: «لماذا
أتيت إلى هنا؟».

كتب بك: «حلمتُ بك. وحلم بك بك إليس مرة، وكانت حيناً تُسمِّيكِ سيدتي
الجدّة من قبل أن نصل إلى هنا. وصَفَت بيتك أيضاً، وأخبرتُنا بالأرجوحة».

غمغمت أباجيل في شرود: «بارك الرب تلك الطفلة»، ثم نظرت إلى رالف
وسألته: «وأنت؟».

بلل شفتيه وأجاب: «حلمتُ بك مرةً أو مرتين يا سيدتي. أغلب ما كنتُ أحلم
به.. الرجل الآخر...».

- من هو الرجل الآخر؟

كتب بك وأحاط ما كتب بدائرة، ثم دفع الدفتر نحوها مباشرة. رأت خطه
الكبير مثل الكتابة التي وضعها الرب على جدران قصر بِلشاصر⁽¹⁾. ارتعدتُ
برداً لمرأى ما داخل الدائرة. تذكرتُ بنات عِرْس الزاحفين على بطونهم نحو
الجُوال لينهشوه بأسنانهم الحادة كالإبر. فكرتُ في العين الوحيدة المفتوحة
وسط الظلام تدور وتبحث، لا عن امرأة مسنة فقط، بل عصابة رجال ونساء..
وطفلة صغيرة.

كتب بك داخل الدائرة كلمتان: «الرجل الغامض».

(1) أحد الملوك المذكورين في سفر دانيال، وهو ملك قايِس لم يُنب، فكتب الرب على جدار
قصره كلمات تتنبأ بهلاكه (المترجمة)

طوت الأم أباجيل الورقة، ثم فردت طيتها وطوتها على نفسها مرة أخرى وأدركت فجأة ألم مفاصلها. قالت: «أمرتُ أن نذهب إلى الغرب. أمرني الرب بهذا في حلم، لم أرغبُ في أن أفعل هذا، أنا هَرِمة وكل ما أتمنى أن أموت في أرضي، أرض أسرتي منذ مائة وعشرين عامًا. لكن ليس لي الآن أن أموت هنا، هذا قدري كما كان قدر موسى الرحيل إلى أرض كنعان مع بني إسرائيل».

صمتت، ورمقها الرجلان في ضوء مصباح الزيت الخافت. استمرَّ انهمار المطر بالخارج، بطيئًا لا ينقطع، وتوقف الرعد. فكَّرت: إلهي، كم تؤلمني تلك الأسنان. أريد أن أخلعها وأعود إلى فراشي.

- بدأت أحلامي قبل عامين من بدء هذا الوباء. لطالما حلمتُ وتحققتُ أحلامي. الرسائل الربَّانية هبة من الرب، ولدى الجميع شيء منها. أسمتها جدتي (مصباح الرب الساطع)، وأحيانًا تسميها (السطوع) فقط. في أحلامي رأيتُ نفسي أتجه غربًا. في البداية يصحبني بضعة أشخاص، ثم يزدادون مع الوقت. نسير غربًا، دائمًا نسير نحو الغرب حتى تتبدى لنا جبال روكي. بوصولنا إلى هناك سنكون قرابة مائتي شخص. وستكون علامات.. لا، ليست علامات من الرب، وإنما علامات طريق عادية؛ لافتات، وعلى كل لافتة عبارات مثل: بولدر، كلورادو. 606 أميال حتى بولدر.

توقفت حينًا، ثم أكملت: «تلك الأحلام تفرعني، ولم أخبرُ أيَّ شخص عنها. شعرتُ كما شعر أيوب عندما كلَّمه ربه من الزوبعة. بل حاولتُ أن أظهار بأنها أحلام عادية، كنتُ كامرأة مسنة تفرُّ من الرب كما فر يونان⁽¹⁾، وهكذا ابتلعه الحوت كما ابتلعني! لو أن الرب أمر أبي بالإفصاح عن الرؤى، فستفصح أبي. دائمًا كنتُ أشعر أن أحدًا سيأتيني، شخصًا مختارًا، ووقتها سأعرف أن الوقت قد حان».

نظرتُ إلى نِك: الجالس خلال المائدة، ينظر إليها بعينه السليمة الحزينة من خلف دخان سجائر رالف. أردفت: «عندما رأيتك عرفتُك. إنه أنت يا نِك. مسَّ الربُّ قلبك بإصبعه، لكن للرب أكثر من إصبع واحدة، وبالخارج آخرون في الطريق، ليتمجد الرب. لقد مسَّهم بأصابعه أيضًا. لقد حلمتُ به، وعرفتُ أنه ينظر إلينا الآن، ولعنته في قلبي.. سامحني الرب على ذلك».

(1) النبي يونس (الترجمة)

بكث، فقامت تشرب ماء وتغسل وجهها. دموعها هي ضعفها البشري. عندما عادت وجدت نك يكتب. مزق الصفحة أخيرًا وناولها لرالف.

«لا أعرف شيئًا عن موضوع الرب، لكنني أعرف أن شيئًا يُدبر هنا. كل مَنْ قابلناهم كانوا يتجهون إلى الشمال، وكأن لديك إجابة عن أسئلتهم. هل حلمت بأي من الآخرين. بك؟ جون أو أوليفيا؟ ربما الفتاة الصغيرة؟».

- لم أحلم بأي منهم. فقط حلمتُ برجل صموت، وامرأة مع طفل، ورجل في عمركَ يحمل جيتارًا، وأنت يا نك.

«وأنت تعتقدين أن الذهاب إلى بولدر هو التصرف الصحيح؟».

- هذا ما يجب أن نفعل.

نظر نك إلى دفتره هنيهة، ثم كتب: «ماذا تعرفين عن الرجل الغامض؟ هل تعرفين من هو؟».

- أعرف ماهيته ولا أعرف هويته. إنه شر خالص، أما رفاقه فهم فاسدون فقط. لصوص ومغتصبون ومثيرو شغب. لكنه سيستدعيهم، وقد بدأ فعلًا. إنهم يجتمعون أسرع مما نفعل. قبل أن يتحرك، يكون قد جمع الفاسدين، وجمع معهم الضعفاء أيضًا والوحيدين ومَنْ أخرجوا الرب من قلوبهم.

كتب نك: «ربما هو وهم. ربما هو...». وعبث بسن القلم قليلًا قبل أن يكمل: «ربما هو الجانب الشرير من أنفسنا جميعًا. ربما نحلم بما نخشى أن نفعل».

عقد رالف حاجبيه وهو يقرأ، لكنَّ أبي فهمت على الفور مقصد نك. ما كتبه لا يختلف كثيرًا عما يقوله الوُعَازُ الجدد الذين ظهروا خلال الأعوام العشرين الأخيرة. إنهم لا يؤمنون بوجود الشيطان. يعتقدون في وجود الشر النابع من الخطيئة الأولى. يستحيل إخراج هذا الشر الكامن فينا كما يستحيل إخراج البيضة من قشرتها دون كسرها. بالنسبة إلى أولئك الوُعَازُ، الشيطان هو قطع بازل.. كل امرأة ورجل وطفل منا يضيف قطعه الخاصة حتى يكتمل الشكل النهائي. نعم، لكل هذا جرس حدائي لطيف، لكن مشكلته أنه غير حقيقي. لو استمر نك في هذا الاعتقاد، لالتهمه الرجل الغامض على الغداء.

قالت: «أنت حلمت بي. ألسْتُ حقيقية؟».

أومأ نك.

- وأنا حلمتُ بك. ألسْتُ حقيقياً؟ ليتمجّد الرب، أنت تجلس أمامي الآن وتسند دفتراً إلى ركبتيك. وهذا الرجل الآخر يا نِك إنه ليس وهمًا.

نعم، هم ليسوا أوهامًا. فكرت في بنات عِرس وفي العين الحمراء المفتوحة في الظلام. تكلمت مرة أخرى، فخرج صوتها مبحوحًا. قالت: «هو ليس الشيطان ذاته، لكنه هو والشيطان خيلان، يتبادلان الاستشارات منذ زمن.

- لم يذكر الكتاب المقدس ما حدث لنوح وأسرته بعد الطوفان، لكنني لا أستبعد وجود بعض الخبث في أنفس أولئك الناجين.. في أجسادهم.. في تفكيرهم. ولن أتفاجأ بوجود خبث كهذا بيننا.

- هو غرب جبال روكي الآن. عاجلاً أو آجلاً سيأتي إلى الشرق. ربما ليس هذا العام، لكن عندما يستعدُّ نصيبنا أن نواجهه. هز نِك رأسه منزعجًا.

قالت بهدوء: «نعم. سترى. أماننا أيام مريرة. موت ورعب، خيانة ودموع، وبعضنا لن يعيش حتى يشهد النهاية».

غمغم رالف: «لا يروق لي أي من هذا. ألم يكن الوضع سيئاً كفاية دون هذا الرجل الذي تتحدثان عنه أنتِ ونِك؟ ألا نواجه مشكلات كفاية مع عدم وجود كهرباء ولا أطباء ولا أي شيء؟ لماذا يُحتم علينا التعامل مع هذا الرعب اللعين؟».

- لا أعرف. للرب مخططاته التي لا يشرحها لأمثال أبي فريمانيل.

قال رالف: «لو أن هذه مخططاته، فأتمنى لو يتنحى ويترك أحداً أكثر شباباً يدير الأمر».

كتب نِك: «لو أن الرجل الغامض في الغرب، فربما الأفضل أن نتحرك شرقًا».

هزت رأسها في صبر وقالت: «نِك، كل شيء يخدم أغراض الرب. ألا تظن ذلك الرجل الغامض من خَدَم الرب أيضًا؟ بل هو كذلك مهما بدت نيّته مبهمّة. سيتبعك الرجل الغامض مهما فررت لأنه يخدم أغراض الرب، والرب يريدك أن تواجهه. أنا لا أحسن الفرار من رب الجنود. مَنْ يفعل ذلك ينتهي به المطاف في بطن الوحش».

كتب نِك سريعاً، وحقق رالف إلى ما كتب، وحكَّ جانب أنفه وتمنى لو أنه غير مضطر إلى قراءته. السيدات العجائز مثلها لن يفهموا أموراً كتلك التي

كتبها نك. ستقول إنها تجديف، وستصرخ بالكلمة حتى يستيقظ كل من في المكان.

سألت أباجيل: «ماذا كتب؟».

قال رالف والريشة المثبتة إلى قبعته تهتز: «كتب.. كتب أنه لا يؤمن بالرب»، ثم نظر إلى حذائه في قلق وانتظر الانفجار.

نخرت فقط، ثم قامت ومشت نحو نك. أمسكت إحدى يديه وربت عليها وقالت: «باركك الرب يا نك. لا يهم. هو يؤمن بك».

مكثوا في بيت أبي فريمانتل في اليوم التالي، وكان من أفضل أيامهم منذ انزاح الوباء، وكأنه يوم كشف الماء عن قمة جبل آارات بعد الطوفان. توقف المطر في وقت ما من الصباح المبكر، وبحلول الساعة التاسعة صارت السماء لوحةً جداريةً للشمس والسحب المتناثرة، وبرد الهواء لأول مرة منذ بداية الصيف.

قضى توم كولين الصباح يجري بين صفوف الذرة فاردًا ذراعيه، يخيف أسراب الغربان. جلستُ حينًا مَكُون في سعادة على التراب إلى جوار الأرجوحة، تلعب بدُمي ورقيةً وجدتها أباجيل في قاع صندوق في خزانة غرفة نومها. بعد قليل لعبتُ هي وتوم بالسيارات ومحطة الوقود التي جلبها توم معه من أوكلاهوما، وأطاع كل خطط حينًا في اللعب.

جاء دك إليس -الطبيب البيطري- إلى الأم أباجيل وسألها أكان أحد في المنطقة كان يربي الخنازير. أجابته وهي تجلس على مقعدها تداعب أوتار الجيتار وتشاهد حينًا تلعب: «آل ستونر يربون الخنازير منذ زمن».

- هل تعتقدين أن أيها حي حتى الآن؟

- عليك أن تذهب وتتحقق. ربما، وربما كسروا باب حظيرتهم وانطلقوا في البراري. ربما أيضًا أعرف شخصًا حلم بلحم الخنزير المشوي ليلة أمس.

- يبدو أن هذا ما حدث حقًا.

- هل ذبحتَ خنزيرًا من قبل؟

قال بابتسامة واسعة: «لا يا سيدتي. طُعِمت بعضها فقط، لكنني لم أذبح أيها. لطالما كنتُ شخصًا مناهضًا للعنف».

- هل تقبل أنت و رالف رئيسَ عُمَالٍ أنثى؟

- بالتأكيد.

انطلق ثلاثتهم بعد عشرين دقيقة. ركبْتُ أباجيل بين الرجلين وعصاها بين ركبتيها. وجدوا آل ستونر خنزيرين سمينين صغيري السن في صحة جيدة. يبدو أنهما قد تغذيا على مَن هلك من الخنازير الأخرى. تبع الرجلان تعليمات الأم أباجيل بخصوص الذبح، فربطتا قدمي أحد الخنزيرين ورفعاه بسلسلة مثبتة في السقف، ثم جاء رالف بسكين تشبه سونكي البندقية. قال: «لا أعرف.. لا أعرف أكنت قادرًا على ذبحه».

مدَّت أباجيل يدها لتأخذ السكين. نظر رالف في شك إلى دِك، فهز الأخير كتفيه. أمسكتُ أباجيل السكينَ وقالت: «نشكرك يا رب على النعمة التي سنلتقاهَا منك. باركْ هذا الخنزير ليغذيَنَا، آمين. ابتعدا أيها الولدان، ستتناثر الدماء».

نحرتُ عنقَ الخنزير بضربة متمرسة واحدة -لا ينسى المرء بعضَ الأمور مهما تقدم في العمر- ثم تراجعْتُ سريعًا إلى الخلف. سألتُ دِك: «هل أشعلتما النار تحت وعاء الماء؟».

أجاب دِك باحترام وهو لا يرفع عينيه عن الخنزير: «نعم يا سيدتي».

سألتُ رالف: «معك الفُرَش؟».

رفع رالف فرشائين خشنَّتين ذات شعيرات صفراء متصلبة. قالت: «أنزله وضعاه في الماء ليغلي قليلًا، ثم حُكَّا جلده بالفرشائين، فستجدان سهولةً في تقشيرِه كموزة».

بدا كلاهما ممتقعا من الفكرة. قالت: «لا يمكنكما أن تأكلاه بمعطفه. علينا أن نخلعه عنه».

تبادل رالف ودِك النظرات، ثم ابتلعا ريقهما وأنزلا الخنزير. انتهوا من مهمتهم في الثالثة عصرًا، وعادوا في الرابعة إلى بيت أباجيل بحمولتهم من اللحم. أعدوا أضلع الخنزير للغداء، ولم يأكل أي من الرجلين كثيرًا، إلا أن الأم

أباجيل أكلت ضلعين وحدها، ثم راحت تُحرّر ما علق بين أسنانها الصناعية من بقايا. ليس في العالم أشهى من اللحم الطازج الذي شهدت ذبحه بنفسك.

بعد الساعة التاسعة، نامت جينا، وغفق توم على مقعد الأم أباجيل الهزاز في الشرفة الخارجية، وسطع برق صامت في سماء الغرب. اجتمع الباقون في المطبخ ما عدا نك الذي خرج للتمشية. تعرف أباجيل ما يصارعه الفتى، وتشعر بالأسى تجاهه.

سألها رالف وقد تذكر شيئاً قالته عندما كانت تذبح الخنزير: «أنتِ لستِ حقاً في عمر المائة وثمانية، أليس كذلك؟».

- انتظر هنا. سأريك شيئاً.

ذهبتُ إلى غرفة النوم وعادت بخطاب الرئيس المؤطر، وقالت في فخر: «اقرأ هذا يا صغيري».

قرأ رالف: «...بمناسبة بلوغك العام المائة.. واحدة من أكبر اثنين وسبعين شخصاً في الولايات.. خامس أكبر منتمية إلى الحزب الجمهوري في الولايات المتحدة.. تحياتي، الرئيس رونالد ريجان. 14 يناير 1982».

نظر إليها بعينين متسعيتين. قالت أوليفيا: «لقد رأيتِ الكثير!».

- لم أرَ ما يقارن بما رأيتُ خلال الشهر الماضي.. وبما أتوقع حدوثه.

انفتح الباب ودخل نك، فبِتَرَ الحديث فجأة كأنهم كانوا في انتظاره. فهمتُ من ملامحه أنه اتخذ القرار، وظننت أنها تعرفه. ناولها وريقة كتبها في الشرفة الخارجية. أبعدتِ الورقة عن عينيها وقرأت: «علينا أن نتجه إلى بولدر غداً».

رفعت عينيها من الورقة إلى وجهه، ثم أومأت موافقةً. مررتِ الورقة إلى جون، التي مررتها بعدما قرأتها إلى أوليفيا. سألتها الأم أباجيل: «ما الذي غيرَ رأيك؟».

هز كتفيه في حَنَق وأشار إليها.

- هذا تأثير إيماني بالله.

فكر نك: أتمنى لو أن إيماني أنا هو ما غيرَ رأيي.

في صباح اليوم التالي؛ يوم السادس والعشرين من يوليو، وبعد اجتماع سريع، انطلق بك ورالف إلى كولومبوس في شاحنة رالف. قال الأخير: «أكره أن أجادلها، لكن إن كان هذا ما تريد يا بك، فلا بأس».

كتب بك: «عودا في أسرع وقت».

ضحك رالف ضحكة سريعة، ونظر إلى الفناء حوله. أوليفيا وچون يغسلان الملابس في حوض ذي لوح تنظيف. توم في الحقل يفزع الغربان، وهو نشاط وجده مسلياً للغاية. جينا تلعب بالسيارات والمحطة. المرأة المسنة نائمة على المقعد.

- أنت من يتعجل دس رأسه في فم الأسد يا بك.

كتب بك: «هل لديكم مكان آخر نذهب إليه؟».

- هذا صحيح. لا جدوى من التجوال بلا هدف. لا يشعر المرء بأهميته إلا عندما ينظر إلى المستقبل. أليس كذلك؟

أوما بك. ربّت رالف على كتف بك، ثم التفت نحو بك وسأله: «مستعد لجولة؟».

خرج توم كولين من الذرة جرياً، شعيرات الذرة ملتصقة بشعره وملابسه. صاح: «رباه! أنا أيضاً! توم كولين يريد أن يذهب في جولة! رباه، نعم!».

قال رالف: «تعال هنا. شعيرات الذرة تغطيكَ من فوقك لتحثك لم تصطد غراباً واحداً! دعني أنظفك».

ابتسم توم وترك رالف ينظف عنه الشعيرات. فكر بك في أن آخر أسبوعين في حياة توم كانا الأفضل في حياته على الأرجح. كان وسط أشخاص يتقبلونه ويرغبون في صحبته. لم لا؟ ربما يكون ضعيفاً، لكنه في النهاية بشري في عالم ندر فيه البشر.

قال رالف وهو يركب السيارة: «أراك لاحقاً يا نكي».

كرّر توم باسمًا: «أراك لاحقاً يا نكي».

راقب بك الشاحنة حتى اختفت، ثم ذهب إلى السقيفة فوجد صندوقاً قديماً وعلبة طلاء. كسر الصندوق وانتزع منه لوحاً صنع منه لافتة ثبتها في الفناء وبدأ يكتب عليها بالطلاء، فيما ترمقه جينا في فضول. سألتها: «ماذا كتبت؟».

أجابتها أوليفيا: «كتب: ذهبنا إلى بولدر، كلورادو. سنتخذ الطرق الجانبية لتتفادي تكس السيارات. قناة سيتزن رقم 14».

سألت جون: «ما معنى هذا؟»، وحملتُ جينا وهي تنظر إلى نك يدير اللافتة بحيث تواجه الطريق المؤدي إلى بيت أباجيل. غرس عصا اللافتة على عمق ثلاث أقدام، ولا شيء سوى الريح العاتية قادرة على زحزحتها. طبعًا في هذا العالم ريح عاتية. تذكرُ تلك التي كادت تطيح به وبتوم، وتذكر الرعب الذي واجهاه في الظلام.

كتب على وريقة أعطاها لـجون: «من الأغراض التي طلبتُ من رالف وديك جلبها من كولومبوس جهاز إرسال واستقبال لاسلكي. على أحدهما أن يراقب بث القناة رقم 14 طوال الوقت».

قالت أوليفيا: «يا للذكاء».

نقر نك جبهته وابتسم. عادت المرأتان إلى غسيلهما، والتفتت جينا إلى لعبها. صعد نك درجات الشرفة الخارجية وجلس على الأرض إلى جوار المرأة الغافية. نظر إلى حقول الذرة متسائلًا عما سيحدث لها.

إن كان هذا ما تريد يا نك، فلا بأس...

لقد حوّلوه إلى قائد. فعلوا هذا وهو لم يفهم بعد السبب. لا يمكن للمرء أن يتلقى أوامر من أصم أبكم. هذا سخف. المفترض أن يكون ديك قائدهم، أما هو فليس إلا حامل رمح، الثالث من اليسار، لا يعرفه أحد سوى أمه. لكن منذ التقوا رالف وهو يهيم بشاحنته على الطريق دون هدف، بدأ موضوع الحديث ثم النظر إلى نك طلبًا لرأيه. شعر بحنين إلى تلك الأيام بين شويو وماي، قبل أن يتحمل مسؤولية توم. نسيان مدى وحدته والأحلام التي طارده حتى كاد يُجنّ سهل. تذكر وقت كان مجهولًا لا يعرفه أحد.

عندما رأيته عرفتكَ. إنه أنت يا نك. مسَّ الرب قلبك بإصبعه...

لا. لا أقبل هذا، ولن أقبل الرب أيضًا. دع المرأة المسنة تؤمن بربها، فهو ضرورة لمُسنات مثلها كمثّل الحقن الشرجية وأكياس شاي لبيتون. سيركز على خطواته تدريجيًا. سينقلهم إلى بولدر، ثم سيرى ما الخطوة التالية. قالت العجوز إن الرجل الغامض حقيقي، لا رمز نفسي، وهو لا يريد الإيمان بهذا الأمر أيضًا.. لكنَّ قلبه يؤمن به. قلبه يؤمن بكل شيء قالته، وكم يخيفه هذا. إنه لا يريد أن يكون قائداً.

إنه أنت يا نك...

اعتصرت كف كتفه، فانتفض، ثم التفت خلفه ليراها وقد استيقظت. قالت: «كنت جالسة هنا أفكر في الكساد العظيم. هل تعلم أن كل تلك الأرض الممتدة خلال أميال كانت ملكاً لأبي؟ هذا حقيقي، لا خدعة رجل أسود. غنيت وعزفت على جيتاري في قاعة جمعية المزارعين (المزرعة) في عام 1902. كان هذا منذ زمن يا نك».

أوما نك.

- كانت تلك أياماً مباركة.. أعني، أغلبها. لكن لا شيء يدوم إلا حب الرب. مات أبي، وقُسمت الأرض بين إختوتي، ومُنح زوجي الأول نصيباً منها؛ ستة فدادين لا أكثر. هذا البيت يقع في منتصف تلك الفدادين الستة التي لم يتبق منها سوى أربعة. يمكنني الآن أن أضع يدي على كل تلك الأرض، لكن الأمر لن يعود كسابقه على أي حال.

ربّت نك كفها النحيلة، فزفرت وأكملت: «لا يتوافق الإخوة دائماً. دائماً ما تدبّ النزاعات بينهم. انظر إلى قابيل وهابيل! أراد كل واحد أن يكون هو الرئيس، ولا يرغب أحد في أن يكون تابعاً. وجاء عام 1931، وطالب البنك بحقه، فتكاتفوا، لكن الأوان فات. بحلول عام 1945، كانت كل الأراضي قد سُحِبَتْ، وصارت أرضنا هي أرض آل جدويل الآن».

أخرجت منديلها من جيب فستانها ومسحت عينيها ببطء. أكملت: «ولم يتبق سوى في النهاية، بلا مال ولا أي شيء. وفي كل عام في موعد دفع الضرائب، يجتزون من الأرض قطعة. أخرج كل يوم ولا أرى ما كنت أملك، فأبكي كما أبكي الآن. أجرت ما تبقى لي، لكن ما عاد لي منها لم يكن يكفي الضرائب. ثم وصلت إلى العام المائة، وأعفوني من الضرائب إلى الأبد. نعم.. تراجعوا بعدما أخذوا مني كل شيء إلا تلك المساحة الممتدة هناك».

اعتصر يدها بخفة وهو ينظر إليها. قالت الأم أباجيل: «آه يا نك.. لطالما أضمرت كراهية الرب في قلبي. كل من يحبونه يكرهونه أيضاً، لأنه رب قاسٍ. رب غيور. إنه هو الذي هو. في ذلك العالم عليك أن تدفع مقابل عطاياه بالشقاء والتعب، بينما العصاة يرتعون في الطرق راكبين سيارات كاديلاك. حتى مسرة خدمته مسرة مُرة. سأطيع مشيئته، لكن الجانب البشري مني يلعنه. قال الرب: أنا أختزن لك مهمة يا أبي، لذا ستعيشين طويلاً حتى يجف

لحمك حول عظامك. سأدعك تشهدين موتَ أبنائك جميعاً وأنتِ حيّة. سترين أرضَ أبيك تُغتصب قطعة قطعة، وستكون مكافئتك الرحيل مع غرباء، بعيداً عن كل ما أحببتِه، وستموتين في أرض غريبة ولن تشهدي حتى نهاية تعبكِ. هذه هي مشيئتي يا أبي. فقلتُ له: سأفعل ما تشاء. إلا أن قلبي ظلَّ يصرخ: لماذا؟ لماذا؟ ولم يحصلْ على إجابة سوى: أين كنتِ عندما خلقتُ العالم؟». سالت دموعها فيضاً مُراً، تجري على خديها وتغرق زينة صدر فستانها. تعجب نك من كمية الدموع داخل تلك العجوز التي تبدو جافة كغصن ميت.

- ساعدني يا نك. أنا فقط أريد أن أفعل ما فيه الخير.

أمسك كفيها بقوة. من خلفهما تقهقه جينا وهي ترفع إحدى العربات إلى السماء فتنعكس عليها أشعة الشمس.

عاد دك ورالف عند الظهيرة، يقود دك سيارة دودج أُسرية جديدة، ويقود رالف شاحنة إنقاذ سيارات حمراء، تجر خلفها الرافعة والخطاف، يقف توم على مقدمتها يُلَوِّح في سعادة. توقفتِ السيارتان أمامَ المنزل، وترجّل دك، وقال لنك: «في الشاحنة جهاز إرسال واستقبال لاسلكي عظيم، ذو أربعين قناةً. أعتقد أن رالف وقع في غرامه».

ابتسم نك، وجاءت السيدتان تنظران إلى السيارتين. لاحظت أباجيل كيف اصطحب رالف چون إلى شاحنة الإنقاذ لترى الجهازَ اللاسلكي، واستحسنَت هذا. للمرأة حوض متسع، وستحمل فيه صغاراً كثيرين. سأل رالف: «متى نرحل؟».

كتب نك: «بعدما، نأكل. هل جربتِ استقبال الجهاز اللاسلكي؟».

- نعم، جربته طوال الطريق إلى هنا. التشويش فظيع. حاولت كثيراً مع زر تحسين الضبط لكن يبدو أنه لا يعمل. لكنْ أتعرف شيئاً؟ أقسم إنني سمعتُ شيئاً خلف التشويش. ربما لا يكون ما سمعتُ صوتاً على أي حال. لأكون صادقاً يا نكي، لا يهمني هذا كما لا يهمني أمر الأحلام. ساد صمت بينهما، كسرته أوليفيا إذ هتفت: «حسناً، سأطبخ شيئاً. أتمنى ألا يمانع أحد من أكل لحم الخنزير يومين متتاليين».

ولم يمانع أحد. في الساعة الواحدة ظهرًا وُضِعَ عتاد التخييم ومقعد الأم
أباجيل وجيتارها في صندوق الشاحنة، وانطلقوا، تتقدمهم شاحنة الإنقاذ كي
تزيل أي عائق على الطريق قد يقابلهم. جلست أباجيل في كابينة الشاحنة
وعصاها بين ركبتيها. لم تبك، فقد انتهى وقت البكاء. إنها الآن في مقدمة
رحلة مشيئة الرب، وستتحقق مشيئته، إلا أنها تذكرت العين الحمراء في قلب
الليل، وارتجفت خوفًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل السادس والأربعون

في مساء يوم السابع والعشرين من يوليو، خيّموا إلى جوار اللافتة شبه المحترقة التي تبين حدودَ بلدة كنكل، أوهايو. البلدة نفسها جنوبًا. قال ستو إن البرق أحرقها، وخالفه هارولد. لو زعم ستو ريتمان أن شاحنة الإطفاء حمراء، لقدم هارولد أدلةً وبراهينَ تؤكد أن أغلبها أخضر هذه الأيام.

زفرتُ ورفعتُ عينيها في ضيق. لم تكن تنام خشية الأحلام. تقف على يسارها الدرجات البخارية الخمس في صف، يلمع ضوء القمر على مواسيرها ومصدّاتها وأغطية إطاراتها.

على بعد عشرين خطوةً من مكان نومها ترى الآخرين في أكياس نومهم كالمُخدّرين، إلا أنهم لم يتناولوا أيّ مخدر، بل نصف قرص فيرونال. كانت هذه فكرة ستو عندما هاجمتهم الأحلام وصاروا عصبين مُضطربين يصعب التعامل معهم. انفرد بهارولد قبل أن يقترح الفكرة على الباقيين، لأن هذه هي الطريق التي يجامله بها، ولأن هارولد يعرف بعض الأمور. معرفته شيء جيد لكنه مخيف بعض الشيء، كأن معهم إلهاً درجة خامسة غير مستقر الشعور، وقد انفجر في أي وقت. جلب هارولد مسدسًا آخرَ من ألباني حيث التقيا مارك وبيريون، وهو الآن يعلق المسدسين في نطاقه كمأمور من أفلام الويسترن. شعرت بالأسف تجاه هارولد، بيد أنه كان يخيفها حقًا. كانت تخشى أن يفقد عقله في ليلة ويمطرهم بمسدسيه، بل إنها تذكرتُ يومَ رأْتُ هارولد في باحة منزله، وقد سقطتُ عنه كل دفاعاته العاطفية وهو يجزُ العشبَ ويبكي.

كانت تعرف أن ستو يعرف كيف يتعامل معه. سيميل عليه ويهمس: «هارولد، هذه الأحلام صارت مشكلة. لديّ فكرة، لكنني لا أعرف كيف سأنفذها..

مهدئ خفيف.. لكننا نحتاج إلى جُرعة مناسبة. لو أكثرنا لما استيقظ أحد إن باغتننا مشكلة. ماذا تقترح؟».

اقترح هارولد أن يجربوا قرص فيرونال كامل من أي متجر بيع أدوية، ولو أفسد هذا دورة نومهم، فسيقبلون الجرعة إلى ثلاثة أرباع قرص ثم إلى نصف. ذهب ستو بعد ذلك إلى جِلن وطلب رأيهِ، ثم بدأتِ التَّجربة. ربع قرص لم يمنع الكوابيس، فعادوا إلى جُرعة نصف قرص. على الأقل بالنسبة إلى الباقيين.

أخذتُ فراني نصفَ القرص الخاص بها كل ليلة، لكنها لم تبتلعهُ، فهي لا تعرف تأثيره في الجنين، ولن تغامر. يقال إن الأسبرين نفسه قد يكسر سلسلة الكروموسومات. لذا عانتِ الأحلام.. عانتُ هي الكلمة الأدق لوصف ما مرت به. رأْتُ أحياناً أحلاماً مختلفة، لكنها سرعان ما تندمج في كابوس مروّع. حلمتُ أنها في بيتها في أوجونكويت والرجل الغامض يطاردها خلال الممرات الظليلة، وحتى غرفة استقبال أمها حيث الساعة العتيقة تستمر في الدوران.. إنها تستطيع الفرار منه، تعرف هذا، ما لم تكن تحمل هذا الجسد.. جسد أبيها ملفوفاً في ملاءة. لو تركته على الأرض لفعل به الرجل الغامض شيئاً، ربما أجرى عليه سحراً. لذا فرت وهي تعرف أنه يقترب منها أكثر وأكثر، وسرعان ما سيضع يده على كتفها.. يده الساخنة المثيرة للغثيان. ستضعف وستُسقط جثة أبيها من بين ذراعيها. ستستدير وتستعد لقول: خذهُ، افعل أي شيء تريد، لا يهم. فقط لا تطاردني بعد الآن.

سيكون هناك أمامها، يرتدي رداءً أسود يشبه أردية الرهبان، لا شيء يظهر من ملامحه إلا تكشירתه الواسعة. يحمل في يده المشجب معوجَّ الطرف. هنا سيضربها الخوفُ كلكمة، وستستيقظ من النوم متعركةً، يخفق قلبها، ولا ترغب في النوم مرةً أخرى أبداً.

إنه لا يريد جسد أبيها الميت، بل الجنينَ الحيَّ في رحمها.

تململت مرة أخرى. لو لم تنم فستُخرج مذكراتها وتكتب فيها. كانت تُدوّن يومياتها منذ الخامس من يوليو، وتفعل هذا لتحفظ بها من أجل الطفل. كانت مؤمنةً أنه سيعيش. أرادتُ أن يعرف ما حدث، وكيف وصل الوباء إلى

أوجونكويت، وكيف فرّت هي وهارولد، وماذا حدث لهما. رغبتُ في أن يعرف الطفل ما كانت عليه الحياة.

ضوء القمر قوي، يمكنها من الكتابة. كتبتُ ثلاث صفحات ثم نعتستُ، فقررتُ أن تمنح النومَ فرصةً أخرى.

أغمضتُ عينيها وراحتُ تفكر في هارولد.

كانت الأوضاع لتهدأ قليلاً مع ظهور مارك وبيريون، ما لم يكن الاثنين مرتبطين ببعضهما. بيريون في الثالثة والثلاثين، أكبر من مارك بأحد عشر عاماً، لكن ما عادت هذه الأمور تشكل فارقاً في هذا العالم. لقد التقيا واعتنيا ببعضهما ورضيا بالبقاء معاً. أسرّتُ بيريون لفراني أنهما يحاولان أن ينجبا طفلاً. قالت إنها تشكر الرب أنها كانت تواظب على أقراص منع الحمل، ولم تركب لولباً مانعاً له، وإلا فكيف كانت ستُخرجه؟

كادت فراني تخبرها بالطفل الذي تحمله، لكنّ شيئاً منعها. كانت تخشى أن يزيد تدهور الوضع.

والآن قد صاروا ستة (رفض جِلن نهائياً أن يقود دراجة بخارية، وركب خلف ستو أو هارولد)، لكنّ الوضع لم يتغيّر مع زيادة امرأة أخرى.

ماذا عنك يا فراني؟ ماذا تريدان؟

لو أنها ستعيش في عالم كهذا، ومنبه بيولوجي بداخلها سينطلق بعد ستة أشهر، فهي تريد شخصاً مثل ستو ريدمان ليكون رجلها.. لا، ليس شخصاً مثله، بل هو نفسه. هذه هي الحقيقة وبكل جرأة.

مع زوال الحضارة، تعرّى محرك المجتمع البشري من كل معدنه وتروسه. تمسك جِلن ببيتان بتكرار هذه الأطروحات، وهذا ما راق لهارولد كثيراً.

ترى فراني، لما كانت قد تجرّأت، أن حركة تحرير المرأة ما هي إلا نمو من جسد المجتمع التكنولوجي. النساء تحت رحمة أجسادهنّ. إنهنّ أصغر حجماً، وأضعف بنية. لا يمكن للرجل أن يلد طفلاً، لكنّ المرأة تستطيع.. كل طفل في الرابعة يعرف هذا. المرأة الحامل كائن بشري واهن. أمّدت الحضارة كلا الجنسين بمظلة عقل يقفان تحتها معاً. التحرر.. كلمة واحدة تلخص كل شيء. قبل الحضارة بحمايتها ورحمتها، كانت النساء إماء. دُعنا لا ندرّ حول الحقيقة، لكنّ كنّ إماء، ثم انتهت تلك الأيام القاسية. قانون النساء الذي لا بُدّ معلق في مكاتب المجلات النسوية: شكراً أيها الرجال من أجل السكن

الحديد. شكرًا أيها الرجال لاختيار السيارات وقتل الهنود الحمر الذين ظنوا أنه بأس في التمسك بأمريكا وقتًا أطول لأنهم كانوا الأوائل؟ شكرًا للرجال على المدارس والمستشفيات والشرطة. والآن أودُّ أن أصوّت لو سمحت، وأقرر مصيري. لقد كنتُ مجرد حيازة، والآن بطل هذا الاعتقاد. انتهت أيام عبوديتي، لا أريد أن أكون أمةً بعد الآن إلا كما أريد عبور المحيط الأطلنطي بقارب شراعي. الطائرات أسرع وأكثر أمنًا من القوارب الشراعية، والحرية أكثر منطقية من العبودية. أنا لا أخشى الطيران. شكرًا أيها الرجال.

ماذا قال الرجال؟ لا شيء. شكا الفلاحون عدم ارتداء النساءِ صدرياتٍ، وقَدّم الرجعيون خدعهم الذكية، لكنَّ الحقيقة هي ما تبقى في النهاية. والآن كل شيء قد تغيّر في غضون أسابيع، إلى أي مدى؟ الزمن وحده هو القادر على منح إجابة. إلا أن النوم هنا ليلاً يجعلها تعرف إنها بحاجة إلى رجل. كم تحتاج إلى رجل.

ليست المسألة مسألة حماية نفسها وطفلها، بل إن ستو يجذبها. ستو هادئ، قادر، والأهم أنه ليس كمن يطلق عليهم أبوها وصف: (عشرون رطل روث في كيس سعة عشرة أرطال).

وهو منجذب إليها أيضًا. إنها تعرف هذا جيدًا، وعرفته منذ أول غداء له معهما يوم الرابع في يوليو في ذلك المطعم المجهور. للحظة واحدة تلاقت أعينهم، فسرت الحرارة في جسدها، ولا بدُّ أن ستو شعر بالشعور ذاته، وهو ينتظرها أن تفكر في الأمر وتتخذ القرار بنفسها. كانت مع هارولد في البداية، إلا أنها كانت حيازة. فكرة ذكورية عفنة، لكنها خشيت أن يكون العالم القادم عالمًا ذكوريًا عفناً، على الأقل لفترة.

لو أن معهم أنثى أخرى تنفع هارولد.. لكن ليس معهم واحدة، وهي تخشى أنها لا تستطيع الانتظار أكثر. فكرت في اليوم النحس الذي يحاول فيه هارولد مضاجعتها وإعلان حيازته إياها. متى سيأتي هذا اليوم؟ بعد أسبوعين؟ ربما أكثر. كل الماضي يبدو بعيدًا الآن.

إنها ممزقةٌ بين قلقها مما قد يفعله هارولد، وبين خوفها من رد فعله لو ذهبت إلى ستو، وبين كوابيسها التي تمنعها من النوم.

ظلت تفكر، حتى نامت...



عندما استيقظتُ كان الوقت ليلاً بعد، وأحدهم يهزها. غمغمتُ معترضة، فقد كان نومها مريحاً بلا أحلام لأول مرة منذ زمن، ثم انتزعتُ نفسها منه ظناً أن النهار قد لاح، وأن وقت الرحيل. لكن لماذا يريدون الرحيل في الظلام؟ كان هارولد من يهزها، وبدا مرتعباً.

- هارولد، ماذا حدث؟

رأتُ أن ستواً أيضاً مستيقظ وكذلك بيتمان، أما بيريون فراكعة على مبعدة قرب النار المُطفأة.

قال هارولد: «مارك... مريض».

- مريض؟

سمعتُ أنيئاً منخفضاً يأتي من الجهة الأخرى لرماد النيران، حيث بيريون راکعةً ورجلان واقفان. تصاعد الذعرُ في نفسها كعمود أسود. المرض هو ما يخشونه جميعاً.

- ليس مريضاً بالإنفلونزا، أليس كذلك يا هارولد؟

لأنه إن أصيب مارك بكابتن تريبس متأخراً، فهذا معناه أن إصابتهم واردة. ربما المرض ما زال مُعلّقاً حولهم.. ربما تحوّر...

- لا، أعراضه لا تشبه في شيء أعراض الإنفلونزا. هل أكلتِ من المحار المُعلّب الليلة؟ ربما وقت الغداء؟

فكرتُ وعقلها مُلبّد بعد بالنوم، ثم أجابت: «نعم، أكلتُ مرتين. مذاقها كان طبيعياً. هل يعاني تسمماً غذائياً؟».

- أنا أسأل فقط يا فران. لا يعرف أُنّا ممَّ يعاني. ليس معنا طبيب. كيف تشعرين؟ هل أنت بخير؟

- أنا ناعسة فقط.

إلا أنها ليست بخير، ليس بعد ما حدث. سمعتُ أنّهُ أخرى، كأن مارك يتهمها بأنها بخير وهو مريض.

قال هارولد: «يعتقد جِلن أنه التهاب زائدة دودية».

- ماذا؟!

أوماً هارولد. قامت فراني ومشيت نحو الآخرين، وتبعها هارولد كظلٍّ تَعَس.

قالت بيريون: «يجب أن نساعده». كانت تتكلم بطريقة آليّة كأنها كررت عبارتها مرارًا من قبل. انتقلت عيناها من واحد إلى آخر، عيان مرتعبتان قليلتا الحيلة، حتى شعرت فران بالاثهام مرة أخرى. اتجهت أفكارها في أنانية إلى جنينها، فحاولت دفعها جانبًا، لكنها تدافعت مهما بدت غير لائقة. ابتعدي عنه.. ابتعدي عنه على الفور، ربما هو مصاب بمرض معدٍ...

نظرت إلى جِلن الذي بدا مُسنًا شاحبًا في ضوء المصباح. سألته: «هارولد يقول إنك تشك في الزائدة الدودية؟».

أجاب في غضب وخوف: «لا أعرف. لديه كل الأعراض؛ حُمى، بطنه متورم متصلب، يؤلمه اللمس...».

كررت بيريون: «يجب أن نساعده»، ثم انفجرت في البكاء. لمس جِلن بطن مارك وعيناها الزائغتان نصف مفتوحتين. صرخ مارك، فسحب جِلن يده كأنه مسّ موقدًا ساخنًا. نظر إلى ستو ثم إلى هارولد ثم إلى ستو مرة أخرى في دعر لا يُخفى وقال: «ماذا تقترحان أيها السيدان المحترمان؟».

وقف هارولد يبتلع ريقه مرارًا كأن شيئًا عالقًا في حلقه ويخنقه. أخيرًا غمغم: «أعطه بعض الأسبرين».

التفتت بيريون التي كانت ترمق مارك بعينين دامعتين نحو هارولد وسألت في ذهول غاضب: «أسبرين؟ أهذا كل ما تستطيعون التوصل إليه بمِخاخكم المتذاكية؟ أسبرين؟!».

دسّ هارولد يديه في جيبه ونظر إليها في تعاسة وقد تقبّل إهانتها. قال ستو بهدوء: «إن هارولد محق يا بيريون. الأسبرين هو العقار الأمثل في ظروفنا. كم الساعة؟».

صرخت فيهم: «أنتم لا تعرفون ما تفعلون. لماذا لا تعترف بالأمر ببساطة؟».

قالت فراني: «الساعة الثالثة إلا ربع».

أزاحت بيري خُصلة شعر التصقّت على وجهها المنتفخ من البكاء وقالت: «ماذا لو مات؟».

قال مارك بصوت مُتعب فاجأهم: «دعهم وشأنهم يا بيري. إنهم يفعلون ما في وسعهم. إن استمرّ الألم على هذا المنوال فالموت أفضل لي. أعطني الأسبرين.. أي شيء...».

هتف هارولد وهو يتحرَّق إلى الابتعاد سريعًا: «سأحضره. في حقيقتي إكسدرين مُقوَّى». انتظرَ هنيهة كأنه ينتظر موافقتهم، ثم هُرِعَ إلى حقيبتة. قالت بيريون وقد عادت إلى تَكَرُّر عبارتها: «يجب أن نساعد». جذب ستو جِلِن وفراني جانبًا وسألهم بصوت خافت: «أي أفكار بخصوص ما علينا فعله؟ ليست لديَّ أي أفكار أشاركها. إنها غاضبة من هارولد، لكنَّ فكرة الأسبرين أفضل مرتين من أي فكرة قد تخطر لي». قالت فران: «إنها حانقة».

زفر جِلِن وقال: «ربما يعاني الرجل مشكلةً في القولون من كثرة الطعام الخشن.. وسيُشْفَى من تلقاء نفسه».

هزت فرني رأسها وقالت: «لو أنها مشكلة قولون لما أصابته الحمى، ولما تورَّم بطنه هكذا». بدا لها أن ورمًا نبت في بطنه في الليل. أخافها هذا، ولم تتذكَّر متى خافت إلى هذه الدرجة سوى في أحلامها. ليس معنا طبيب.. هذه هي الحقيقة المروِّعة.

أدركت فجأة مدى وحشتهم ووحدتهم. نقلت عينيها من وجه جِلِن الواجم إلى وجه ستو. رأَتْ في وجهيهما اهتمامًا عظيمًا، لكنها لم تجد حلولا. صرخ مارك مرة أخرى، وصرخت بيريون كأنها تشعر بألمه. افترضت فراني أنها تشعر به فعلًا. سألت فراني في حيرة: «ماذا سنفعل؟». فكرت في جنينها، وتكرَّر السؤال المخيف الذي ينهش عقلها: «ماذا لو احتاجت إلى ولادة قيصرية؟ ماذا لو...».

استمرَّ صراخ مارك خلفها كأنه نبوءة مخيفة، وكرهته لهذا. تبادل الثلاثة النظرات في الظلام، ولم يقولوا شيئًا.

من يوميات فران جولد سميث

6 يوليو 1990.

بعد نقاش قصير اقتنع السيد بيتمان بمرافقتنا. رأيه أنه لا يستطيع تجاهل هذا الفرصة، خاصة بعد كل تلك المقالات التي كتبها، والسنوات العشرين

المملة التي أمضاها في تدريس الصف الأول والثاني، ودراسته علم اجتماع السلوك الانحرافي، وعلم الاجتماع الريفي.

أراد ستو أن يعرف ماذا يعني بـ (الفرصة). قال هارولد بطريقته المختالة التي لا تطاق (أحياناً يكون هارولد لطيفاً، لكنه اليوم مختال لا يطاق): «السيد بيتمان...».

قاطعهُ بيتمان بهدوء: «نادني جِلن...»، لكنَّ النظرات التي حدجه بها هارولد تجعلك تظن أنه مريض بخلل اجتماعي ما. أكمل هارولد: «السيد جِلن، كونه عالم اجتماع، يرى أنها فرصة لدراسة تكوين المجتمعات على أرض الواقع كما أفترض. يريد أن يقارن النظريات بالواقع».

باختصار، وافقه جِلن (سأدعوه جِلن من الآن فصاعداً، ما دام يحب هذا) على ما قال، وأضاف: «لديّ أيضاً نظريات خاصة دونتها، وأتمنى أن أجربها لأتبين صدقها من كذبها. لا أؤمن أن الإنسان الذي سينبُت من رماد الوباء سيشبه في شيء ذلك الذي نبت من النيل وعاش حياةً بدائيةً. هذه إحدى نظرياتِي».

قال ستو بطريقته الهادئة: «لأن كلَّ شيء موجود حولنا، في انتظار من يلتقطه ويستخدمه». بدا كئيبيّاً للغاية وهو يقول عبارته، تفاجأت ونظر إليه هارولد متعجباً. إلا أن جِلن أوماً وقال: «هذا صحيح. انسحب المجتمع التكنولوجي من الملعب، وترك أدواته. سيأتي من يتذكر قواعد اللعبة، وسيعلم الآخرون مرةً أخرى. عباراتي سائغة، أليست كذلك؟ يجب أن أدونها لاحقاً».

(دونتُها أنا احتياطياً في حال نسيها. مَنْ يعرف؟)

قال هارولد: «تتكلم كأنك مؤمن أن كل شيء سيعود مرةً أخرى.. الحروب، التلوث، وهكذا. هل هذه واحدة أخرى من نظرياتك، أم إنها نتيجة مباشرة للنظرية الأولى؟». قبل أن يجيب جِلن، انبرى هارولد في ثرثرته، فلم أستطع متابعة ما قال كلمةً بكلمة، فهو يتحدث بسرعة لما يتحمّس. خلاصة ما قال إنه لا يظن الناس بهذا الحمق، وأنهم لن يعبثوا بالقنابل النووية والفليوروكربون (كتب الأخيرة بشكل خاطئ في الغالب)، وأشياء مثل هذه. أتذكر شيئاً واحداً مما قال بدقة، لأنه بدا لي كصورة حيّة: «قطع العقدة الجوردية لا يعني ضرورة سعيها إلى عقدها مرةً أخرى».

أرى أنه يتوق إلى جدال. أحد الأمور التي تجعل هارولد غير محبوب رغبته الدائمة في التفاخر بمعرفته (بالتأكيد يعرف الكثير، لا أنكر هذا)، لكنَّ جِلْنَ قال: «سيتضح هذا مع مرور الزمن، أليس كذلك؟»

انتهى كل هذا من ساعة تقريبًا، وأنا الآن في الغرفة العلوية مع كوجاك النائم على الأرض إلى جوارِي. هذه أجواء تُذَكِّرُنِي ببيتِي، لكنني أتحاشى التفكير فيه كي لا أبكي. أعرف أن ما سأكتبه سخيِف، لكنني أتمنى لو أن معي أحدًا يدفعني فراشي. بل لديَّ أيضًا مُرَشِّح لهذا.

أخرجني الأمر من تفكيرك يا فراني!

غداً سننطلق إلى ستوفينجتون، وأعرف أن الأمر لا يروق لستو. إنه مرتعب من ذلك المكان. يعجبني ستو كثيرًا، فقط أتمنى لو أنه يُعْجِب هارولد أكثر. هارولد يُصْعَب كل شيء، لكنها طبيعته ولا يتحكم فيها.

قرر جِلْنَ ترك كوجاك، وكان آسفًا لقراره هذا رغم أن الكلب لن يجد صعوبة في العيش. لا يمكننا نقله إلا إذا عثرنا على دراجة بخارية بعربة جانبية، وقد يُذْعَر الكلب البائس لو ركبها ويقفز منها، فيُجَرَّح أو يُقْتَل. على أي حال، إن غداً لناظره قريب.

أشياء لتتذكرها: لفريق تكساس رينجر (فريق بيسبول) رام اسمه نولان راين، يقذف كل شيء برميته السريعة الشهيرة. كان يُعرض في التلفاز مسلسلات كوميدية بصوت ضحكات مسجل، تعرض تلك الضحكات في الأوقات التي يظهر فيها مشهد مضحك على الشاشة. المفترض أن تحسن تلك الضحكات تَجَرِبَةً مشاهدتك. كان في وسع المرء شراء كعكات مجمدة من المتجر وتسخينها وأكلها. مفضلتي هي كعكة سارا لي بالفراولة.

7 يوليو 1990

ركبنا الدراجات طوال اليوم ولا يمكنني كتابة أي شيء. ردفاي كلحم مفروم، وظهري يؤلمني كأن بداخله صخرة. رأيت الكابوس ذاته ليلة أمس. وحلم هارولد بالرجل ذاته، وأغضبه هذا لأنه لا يملك تفسيرًا لحلمينا المتشابهين.

قال ستو إنه يرى بعد ذلك الحلم عن نبراسكا والمرأة المسنة السوداء، تلحُّ عليه في الذَّهَاب إليها في أي وقت. يعتقد ستو أنها تعيش في بلدة اسمها

هولاند هوم، أو هوم تاون، أو شيء مثل هذا، ويرى أنه قادر على العثور عليها. سخر منه هارولد وانخرط في محاضرة طويلة عن الأحلام وكونها تجسّدت نفسية فرويدية تمثل ما لا نجرؤ على مواجهته ونحن مستيقظين. أعتقد أن ستو كان غاضباً، لكنه تمالك نفسه. أخشى أن تنفجر الضغائن بينهما.

قال ستو على أي حال: «كيف تفسر إذن أنك وفراني رأيتما الحلم ذاته؟». غمغم هارولد شيئاً عن المصادفات، وابتعد.

ستو أخبر جلن عن رغبته في الذهاب إلى نبراسكا بعد ستوفينجتون، فقال جلن: «ولم لا؟ يجب أن نذهب إلى مكان ما».

أمور لتذكرها: مررنا بأزمة وقود في بداية الثمانينيات لأن كل واحد في أمريكا كان يقود شيئاً ما، وقد استنفذنا كل وقودنا، ويستغل العرب عوزنا. للعرب أموال يعجزون حرفياً عن إنفاقها. كان لدينا فريق روك أند رول اسمه «ذا هو»، يُنهي أغلب حفلاته بكسر جيتارات فرقته ومكبرات الصوت. يعتبر هذا «استهلاكاً تفاخرياً».

8 يوليو 1990

الوقت متأخر، وأنا مرهقة مرة أخرى. يجب أن أدوّن قدر استطاعتي قبل أن ينغلق جفناي. أنهى هارولد لافته منذ ساعة، ووضعها أمام مدخل مُنشأة ستوفينجتون. ساعده ستو وتمالك أعصابه رغم استفزازات هارولد.

كنتُ قد حاولتُ إعدادَ نفسي لخيبة الأمل. لم أصدق قط أن ستو يكذب، ولا أعتقد حقاً أن هارولد يظن هذا. لذا كنتُ أعرف أن الجميع قد ماتوا، على ذلك غضبتُ وبكيتُ، لم أستطع تمالك نفسي.

إلا أنني لم أكنُ الوحيدة الغاضبة. عندما رأى ستو المكان، شحب تماماً ورأيتُ جذور شعر ذراعيه تنتصب، حتى عينيه تحولتا من الأزرق إلى اللون الملحي، كأنهما محيط في يوم غائم.

أشار نحو الطابق الثالث وقال: «كانت هذه غرفتي». التفت إليه هارولد، ورأيتُه يستعد لقفزه بتعليق متذاكِ آخر، لكنه رأى وجه ستو فسكت. أعتقد أن في هذا حكمة.

بعد قليل، اقترح هارولد: «لندخل ونلق نظرة».

هتف ستو وهو على شفا الانهيار: «علام تريد أن تلقي نظرة؟». ألقني ما يمر به، وهو البارد كالماء المثلج. لقد نجح هارولد في مضايقته. قال جِلن: «ستورات...» فقاطعه ستو: «علام تريد أن تلقي نظرة؟! ألا ترى أن هذا مكان مُنتهِ؟ لو كان أي أحد هنا لكانوا فوق رؤوسنا الآن، ولحُبسنا في غرف بيضاء كمجموعة خنازير غينيا لعينة»، ثم نظر إليّ وقال: «آسف يا فران، لم أقصد التفوه بألفاظ كهذه. أنا فقط حائق».

قال هارولد: «حسنًا، أنا سأدخل. من سيأتي معي؟»، لكنني أرى أن محاولات هارولد ليظهر بمظهر الجريء الناضج، لم تفلح في إخفاء ذعره. قال جِلن إنه سيذهب معه، فغمغم ستو: «ادخلي أنتِ أيضًا يا فران. ألقى نظرة. طمئنني نفسك».

وددتُ لو أقول إنني أريد أن أبقى معه بالخارج لأنه يبدو عصبياً (ولأنني لا أريد أيضًا أن أدخل)، لكن قد يسبب هذا مشكلاتٍ أكبر مع هارولد، لذا وافقتُ. لو أننا -أنا وجِلن- كنا نشك لحظةً في صدق قصة ستو، فقد تيقنًا تمامًا من صدقه لحظةً فتحنا الباب. إنها الرائحة.. الرائحة التي قد تشمها في أي بلدة من البلدات التي مررنا بها، وتشبه رائحة الطماطم الفاسدة. إلهي، أنا أبكي مجددًا.. موت الناس وتركهم يتعفنون هكذا أمر مرعب.

انتظر.

(لاحقًا)

هأنأ أبكي للمرة الثانية اليوم. ماذا حدث للصغيرة فران جولد سميث، فئاتنا العظيمة، القادرة على أن تأكل لحمك وتبصق عظامك كما يقول المثل، ها ها ها. حسنًا، لا مزيد من الدموع الليلة، هذا وعد.

دخلنا إلى المنشأة على أي حال بدافع من الفضول فقط على ما أعتقد. لا أعرف فيم كان يفكر الآخرا، لكنني كنت أريد رؤية الغرفة التي كان ستو محبوبًا فيها. لم تكن الرائحة فقط هي ما يميز المكان، بل برودته. يبدو أن المكان مبني بالجرانيت والرخام، ومعزول جيدًا. درجة الحرارة أعلى في الطابق الثاني، أما الطابق الأول فلا شيء فيه أقوى تأثيرًا من الرائحة والبرودة.. قبر حقيقي.

المنشأة مرعبة كبيت مسكون. كنا نسير متلاصقين كثلثة خرفان. معي سلاحِي أطمئن نفسي به رغم أنه عيار 0.22 فقط. تردد صدى خطواتنا كأن

شخصًا يسير وراءنا ولا نراه. أتعرف؟ تذكرتُ وقتها الحلمَ مرةً أخرى، الحلم من بطولة الرجل المُتشح بالسواد. لا عجب أن ستو لم يرغب في المجيء معنا.

مَشِينَا حَتَّى الْمَصَاعِدِ، وَصَعَدْنَا إِلَى الطَّابِقِ الثَّانِي. لَا شَيْءَ فِيهِ سِوَى الْمَكَاتِبِ.. وَالْجُثَثِ. الطَّابِقِ الثَّلَاثِ يَشْبَهُ الْمُسْتَشْفِيَّاتِ، بِغُرَفِ ذَاتِ أَبْوَابٍ بِمَحَابِسِ هَوَاءٍ (هَكَذَا قَالَ لِي جِلْنِ وَهَارُولِدُ)، وَنَوَافِذُ بِإِطْلَالَاتٍ خَاصَّةٍ. فِي ذَلِكَ الطَّابِقِ جُثَثٌ كَثِيرَةٌ، فِي الْغُرَفِ وَفِي الطَّرِيقَاتِ. مِنْهَا بَضْعٌ نِسَاءً. هَلْ حَاولُوا إِجْلَاءَهُمْ فِي النِّهَايَةِ؟ لَنْ أَعْرِفَ أَبَدًا. لِمَاذَا قَدْ نَرِيدُ أَنْ نَعْرِفَ؟

وَجَدْنَا غُرْفَةً ذَاتَ بَابٍ مَفْتُوحٍ فِي نِهَآيَةِ الْمَمَرِ الَّذِي تَقَعُ الْمَصَاعِدُ عِنْدَ طَرَفِهِ الْآخَرِ، بِدَاخِلِهَا رَجُلٌ مَيِّتٌ، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَرِيضًا (الْمَرِيضَى كَانُوا يَرْتَدُّونَ أَرْدِيَّةَ مُسْتَشْفِيَّاتٍ بِيضَاءً)، وَيَبْدُو أَنَّهُ لَمْ يَمُتْ بِالْوَبَاءِ. كَانَ مَمْدَدًا فِي بَرَكَةِ دَمٍ جَافٍ، وَبَدَا كَأَنَّهُ قَدْ حَاولَ الزَّحْفَ إِلَى خَارِجِ الْغُرْفَةِ قَبْلَ مَوْتِهِ. فِي الْغُرْفَةِ مَقْعَدٌ مَكْسُورٌ، وَأَثَارُ عِرَاقٍ.

نَظَرَ جِلْنِ إِلَى مَا حَوْلَهُ طَوِيلًا، ثُمَّ قَالَ: «لَا أَحْبُذُ أَنْ نَذْكُرَ لِسْتَوِ شَيْئًا عَنْ هَذِهِ الْغُرْفَةِ. أَعْتَقِدُ أَنَّهُ شَارَفَ عَلَى الْمَوْتِ هُنَا».

نَظَرْتُ إِلَى الْجِثَّةِ الْمَمْدُودَةِ وَشَعَرْتُ بِخَوْفٍ شَدِيدٍ. سَأَلَهُ هَارُولِدُ: «مَاذَا تَعْنِي؟»، خَرَجَ صَوْتُ هَارُولِدِ هَامِسًا. هَذِهِ مَرَّةٌ مِنَ الْمَرَّاتِ النَّادِرَةِ الَّتِي أَسْمَعُ فِيهَا صَوْتَهُ مُنْخَفِضًا.

أَجَابَ جِلْنِ: «أَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا الْمُحْتَرَمَ قَدْ جَاءَ لِيَقْتُلَ سَتُورَاتِ، وَنَالَ مِنْهُ الْآخِرَ بِطَرِيقَةٍ مَا».

سَأَلْتُهُ: «لَكِنْ لِمَاذَا؟ لِمَاذَا قَدْ يَقْتُلُونَ سَتُوَ إِنْ كَانَتْ لَدَيْهِ مَنَاعَةٌ؟ هَذَا لَا يُعْقَلُ!».

نَظَرَ إِلَيَّ بَعِينِينَ مُرْعَبَتِينَ، مَيِّتَتَيْنِ كَأَعْيُنِ أَسْمَاكِ الْمَاكِرِيلِ. أَجَابَنِي: «لَا يَهْمُ يَا فَرَانِ. لَيْسَ لِلْعَقْلِ مَكَانٌ هُنَا مِمَّا أَرَاهُ فِيهِ. لِلْبَعْضِ عَقْلِيَّةٌ تَوْثِقُ بِضُرُورَةِ التَّدْلِيلِ عَلَى الْحَقِيقَةِ. إِنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِهَا إِيمَانًا بَعْضُ الطَّوَائِفِ الدِّينِيَّةِ بِالْوَهْيَةِ الْمَسِيحِ، وَيُؤْمِنُونَ بِضُرُورَةِ الِاسْتِمْرَارِ فِي التَّدْلِيلِ حَتَّى بَعْدَ وَقُوعِ الْمَصِيبَةِ. يَدْفَعُنِي هَذَا إِلَى التَّسَاوُلِ عَنْ عِدَدِ ذَوِي الْمَنَاعَةِ الَّذِينَ قَتَلُوهُمْ فِي أَتْلَانْتَا وَسَانِ فَرَانْسِكُو وَمَرْكَزِ أبحاثِ تَوْبِيكَا لِلْأُوبَةِ قَبْلَ أَنْ يَقْتُلَهُمُ الْوَبَاءُ، وَيَضَعُ حَدًّا

لهذه المجزرة. أنا سعيد أن هذا الوجد قد مات وأشعر بالأسف تجاه ستو الذي سيقضي عمره يعاني كوابيس عن هذا المكان».

هل تعرف ماذا فعل جلن بيتمان بعد ذلك؟ ذلك الرجل الذي يرسم لوحاتٍ قبيحة؟ ركلَ وجه جثة الرجل، فأَنَّ هارولد أَنَّهُ مكتومة كأنه هو مَنْ تلقى الركلة. ركلَ جلن الرجل مرة أخرى فصاح هارولد: «كفى»، لكنَّ الرجل استمر في ما يفعل. انتهى، فاستدار نحونا وهو يمسح فمه بظهر كفه، واختفت من عينيه نظرة السمكة الميتة.

قال: «هيا بنا. لنخرج من هنا. ستو على حق؛ هذا مكان ميت».

خرجنا ورأينا ستو جالسًا وظهره نحو بالبوابة الحديدية للسور الذي يحيط بالمكان. رغبتُ في... أوه، هيا يا فراني، ما لم تستطيعي إخبار يومياتك، فمن ستُخبرين؟ رغبتُ في أن أنطلق نحوه وأعانقه وأخبره أنني أشعر بالخزي كوننا جميعًا لم نصدق، وبالخزي كوننا كنا نشكو ما عانيناه بعد الوباء فيما هو لم يقل شيئًا عن محاولة قتله.

أوه، أنا أقع في حبه. أنا منغمسة في الوله رأسًا على عقب. لولا هارولد لصارحته.

على أي حال (يوجد دومًا على أي حال، مع أن أصابعي خدرت من الكتابة وتكاد تسقط من كفي) أخبرنا ستو بعد عودتنا برغبته في الذهاب إلى نبراسكا والتحقق من صدق رؤاه. اكتسى وجهه بالعند والحرص في الوقت نفسه لأنه عرف أن هارولد سيُلْقِنه درسًا أبويًا عن تفاهة ما يريد فعله، بيد أن هارولد كان قد فقد ثقته بنفسه جراء (جولتنا) في منشأة ستوفاينجتون، فلم يعد قادرًا إلا على التذمر الصامت. زال ذاك التذمر إذ صرَّح جلن بطريقته المتحفظة بأنه حلم بتلك المرأة ليلة أمس.

أضاف بوجه محمر: «طبعًا يمكن تفسير حلمي بتأثري بما حكاه ستو عن حلمه، لكن ما رأيُ يشبه حلمه إلى حد واضح».

وافق هارولد على التفسير الأول، لكنَّ ستو قال: «لحظة يا هارولد.. وانتني فكرة».

فكرته هي أن نكتب كل ما نتذكر عن أحلامنا خلال الأسبوع الماضي، ثم نقارن ما كتبناه. هذه طريقة علمية بما يكفي لإرضاء هارولد.

الحلم الوحيد الذي رأيته هو الذي كتبتُه هنا فعلاً، ولن أكرره. كتبتُه وأخفيتُ الجزء الخاصَّ بأبي، وأبديتُ ذلك الخاص بطفلي والمشجب الذي يحمله دائماً.

نتيجة مقارنة ما كتبنا مدهشة.

حلمتُ أنا وستو وهارولد بالرجل المتشح بالسواد كما أسميه. أنا وستو رأيناه رجلاً يرتدي عباءة رهبان، وبلا ملامح واضحة؛ وجهه دائماً في الظل. كتب هارولد أنه يقف دائماً في مدخل مظلم، يغريه كعاهرة. أحياناً لا يريه إلا قدميه ولمعة عينيه (الشبيهة بعيني ابنِ عَرِس) كما وصفها.

حلم ستو وجِلن بالمرأة المسنة، وتشارك حلماهما في نقاط تشابه كثيرة، أكثر مما أستطيع كتابته (وهذه هي طريقتي لقول إن أصابعي خدرة حقاً). على أي حال، اتفق الاثنان على أنها في مقاطعة بولك، نبراسكا، لكنهما لم يتوافقا في اسم البلدة. قال ستو إنها هولينجفورد هوم، وقال جِلن إنها هيمنجواي هوم. اسمان متشابهان، وشعر كلاهما أن في وسعه أن يعثر على البلدة. (ملاحظة: أعتقد أنها هيمنجفورد هوم).

قال جِلن: «هذا مدهش! يبدو أننا نتشارك خبرة روحانية أصلية!». تدمر هارولد ورطن، إلا أنه كان متخماً بالأفكار. وافق فقط على الرحلة لأن (علينا أن نذهب إلى مكان ما). سَنرحل في الصباح. أنا خائفة ومتحمسة وسعيدة للرحيل عن ستوفينجتون. سأختار تلك العجوزَ طبعاً.

أمور لتتذكرها: «تعبير (فُك) تعني: لا تغضب. كلمة: «خطر» تعني جيد جداً. «فَرَفَش» تعني احظْ بوقت طيب. كثيرون من الناس كانوا يرتدون تشيرتات مكتوب عليها «البلاوي تحدث».. وهي تحدث حتى الآن. عبارة «أنا مزيّت»، تعبير سمعته مؤخراً، يعني أن كل شيء على ما يرام. كلمة «الخُن» تعني الآن المكان الذي تخيم فيه مؤقتاً، وتستخدم بعد الوباء في وصف أماكن المبيت في أثناء الارتحال. قول «خُنْكَ في الخُن» فيه جناس مضحك، أليس كذلك؟ هذا سخف.. لكن هذه هي الحياة.

جاوزت الساعةُ الثانيةَ عشرةَ ظهراً. نامت بيرى إلى جوار مارك من الإرهاق، بعدما انتقلا بحرص إلى مكان ظليل في الصباح الباكر. ظل يفقد الوعي ويعود إليه مراراً، وكان الأمر أيسر على الجميع في فترات إغمائه. ظل

يجأر من الألم طَوال الليل حتى استسلم مع الشروق. كلما استفاق صرخ حتى جمَد الدماء في عروقهم. نظروا إلى بعضهم في كرب، ولم يشته أيهم الطعام. قال جِلن: «إنها الزائدة الدودية. لا شك في هذا».

قال هارولد وهو ينظر إلى جِلن: «ربما نحاول أن.. نجري له جراحة. لا أفترض أنك...».

قال جِلن بطريقة آلية: «ستقتله. أنت تعرف هذا يا هارولد. لو أننا استطعنا أنا نفتح بطنه دون أن ينزف حتى يموت، فنحن لا نعرف زائدته الدودية من بنكرياسه. ليس عليها بطاقة تعريف».

غمغم هارولد: «وسنقتله ما لم نحاول».

سأله جِلن هامسًا: «هل تريد أن تحاول؟ أحيانًا أتعجب منك يا هارولد». احمرَّ وجه هارولد وهو يقول: «ولا أرى أنك ذو فائدة كبيرة في موقفنا هذا».

قال ستو: «توقفًا بربكما.. ما فائدتكما أنتما الاثنان في موقفنا؟ إلا لو أن أحدكما يخطط لبقر بطنه بمطواة. هذا خارج نطاق النقاش». شهقت فراني: «ستو!».

سألها وهو يهز كتفيه: «ماذا؟ أقرب مستشفى في ماومي. لن نتمكن من نقله إلى هناك، ولا أظننا أصلًا قادرين على نقله إلى أول الطريق».

همس جِلن: «أنت مُحق طبعًا». حك لحيته الخشنة وأضاف: «أنا أعتذر لك يا هارولد. أنا فقط متضايق. أعرف أن أمورًا كهذه قد تحدث.. لا، بل ستحدث حتمًا، لكني لا أعرف شيئًا عنها إلا من منظور أكاديمي. الوضع يختلف عن الجلوس في المكتب ودراسة الأحداث عن بعد».

ابتعد هارولد بعدما غمغم بشيء وهو حانق. بدا كطفل ضخم متدمر في العاشرة.

سألت فران وهي تنقل عينيها بين جِلن ستو: «لماذا لن نستطيع نقله؟». أجاب جِلن: «بسبب مدى تورم زائدته الدودية الآن. لو انفجرت لأطلقت في جسده سموًا تكفي لقتل عشرة أشخاص». وأوماً ستو: «سيصاب بالتهاب الصفاق».

دُهِشْتُ فراني. التهاب الزائدة الدودية لم يعد مرضاً خطيراً. بل إنهم أحياناً يستأصلونها في أثناء جراحات استئصال المرارة لما كان بطن المرء مفتوحاً. تتذكر أحد زملائها من مدرسة الأحد، كان يدعى تشارلي بيجرز، استأصل زائدته في الصيف بين العامين الدراسيين الخامس والسادس، ومكث في المستشفى يومين أو ثلاثة على الأكثر. لم تعد تلك الجراحة ذات بال من منظور طبي.

بالضبط كالولادة من منظور طبي.

سألتهما: «لو تركناه كما هو، ألن تنفجر على أي حال؟».

تبادل جِلن وستو النظرات القلقة ولم يجيبا، فهتفت: «إذن أنتما مثل هارولد؛ ستقتلانه! يجب أن تفعل شيئاً حتى لو باستخدام مطوأة!».

سأل ستو حانقاً: «ولماذا نحن؟ لماذا لا تحاولي أنت؟ ليس معنا حتى كتاب طبي بحق الرب!».

- لكن أنت.. هو.. لا يمكن أن يحدث هذا! المفترض أن استئصال الزائدة الدودية أمر بسيط!».

قال جِلن: «كان هذ في الماضي، لكنه الآن صار عسيراً»، فابتعدت وهي تنتحب.

عادت قرب الساعة الثالثة، خجلة من تصرفها ومستعدة للاعتذار، لكنها لم تجد جِلن وستو في المخيم. جلس هارولد على جذع شجرة ساقطة، وبيريون متربعة إلى جوار مارك، تُبرّد وجهه بخرقه مبتلة. بدت شاحبة إلا أنها متماسكة.

هتف هارولد وقد أشرق وجهه بعض الشيء: «فراني!».

قالت وهي تتجه نحو بيري: «مرحباً يا هارولد. كيف حاله؟».

أجابت بيريون: «نائم»، لكنه لم يكن نائماً، بل فاقد للوعي.

- أين الآخران يا بيري، هل تعرفين؟

أجابها هارولد وقد وقف خلفها. شعرتُ فران برغبته في لمس شعرها أو وضع يده على كتفها. إنها لا تريد ذلك؛ هارولد يجعلها قلقة متوجسة طوال الوقت.

- زهبا إلى گنكل بحثًا عن عيادة طبيب.

قالت بيرى: «يظنان أنهما قد يجدان مراجع طبية و... بعض الأدوات».

ابتلعت ريقها فأصدرت حنجرتها صوت تكَّة جافة. استمرت في تبريد وجه مارك بماء من الزمزية.

قال هارولد: «نحن آسفون فعلاً. أعرف أن ما أقول يبدو سخيًّا، لكننا فعلاً آسفون».

نظرت بيرى إلى أعلى وابتسمت لهارولد ابتسامةً ضعيفةً حلوة: «أعرف هذا. أشكركم. لم يتسبب أيكم في هذا، إلا لو كان هو الرب نفسه طبعًا. لو أن للرب وجودًا، فهو السبب».

وجهها طويل كالخيل، وجسدها عَفِي كأجساد المزارعين. لاحظت فرانى (التي تلاحظ أجمل ما في الشخص قبل أن ترى مساوئه) أن شعرها البني المحمر رائع، وأن عينيها الداكنتين جميلتان ذكيتان. أخبرتهم أنها درست علم الإنسان في جامعة نيويورك، وكانت من النشطاء السياسيين في حركات لحقوق المرأة والمطالبة بالمساواة في علاج مرضى الإيدز. لم تتزوج من قبل، وأخبرت فرانى أن مارك كان أفضل من أي رجل آخر حلمت به. كل من أعجبت بهم سابقًا إما تجاهلوا وإما تنمروا عليها ووصفوها بالخزيرة أو المَسْطُولَة. اعترفت أن مارك ليكون ضمن المجموعة التي تجاهلوا لولا الظروف التي أحاطت بتعارفهما.

التقيا آخر يوم من يونيو في ألباني حيث كانت تصطاف مع أبويها، وبعد ذلك قررا الرحيل من البلدة قبل أن تفعل بهما الجرائم المنبئة من أكوام الجثث في كل مكان ما لم يفعله بهما الوباء.

غادرا، وفي اللية التالية صارا حبيبين بدافع الوحدة الشديدة لا بدافع أي انجذاب (كان هذا حديث فتيات بينها وبين فرانى، ولم تدوَّنه الأخيرة في يومياتها). كان لطيفًا معها.. هذا صرحت لفرانى كما تصرح الفتيات اللاتي وجدن رجلًا حنونًا وسط عالم متوحش. أحبته أكثر يومًا بعد يوم. والآن يحدث هذا.

قالت: «غريبة. كل من هنا - عدا هارولد وستو- خريجو جامعات. أنت يا هارولد كنت لتتخرج في جامعة لولا ما حدث».

- نعم. أعتقد أن هذا صحيح.

التفتت بيرون إلى مارك ومسحت وجهه بالماء برفق ومحبة. تذكرت
فراني لوحة غلاف نسخة الكتاب المقدس الخاص بأسرتها، والتي تمثل ثلاث
نساء يعتنين بجسد المسيح ويجهزونه للدفن.. يمسحونه بالزيت والعطر...

- فراني تدرس اللغة الإنجليزية، وكان جلن مدرس علم اجتماع، ومارك
حاصل على الدكتوراة في التاريخ الأمريكي. ربما كنت لتدرس الإنجليزية
أيضاً يا هارولد لتصير كاتباً. كنا لنجلس معاً ونتناول أطراف الحديث
ونخرط في نقاشات ممتعة، أليس كذلك؟

وافقها هارولد بصوت منخفض قد لا يُسمع: «نعم».

- دراسة الفنون الحرة تعلمك التفكير.. قرأت هذا في مكان ما. الحقائق
الجافة التي نتعلمها تأتي في المرحلة الثانية بعد تعلم طريقة التفكير.
ما يستمر معك من الدراسة في المدرسة طريقة الجمع والطرح بطريقة
بناءة.

قال هارولد: «يعجبني ما تقولين. كلام عظيم».

وضع يده فعلاً على كتف فراني. لم تبعدها، لكنها الآن صارت واعية
لوجودها الثقيل. هتفت بيرون في حدة: «لكنه ليس عظيماً!». تفاجأ هارولد،
فأجفل وأبعد يده عن كتف فراني التي شعرت على الفور بأنها صارت أخف.
سألها في ضيق: «ليس عظيماً؟».

قالت في غضب وقلة حيلة دون أن ترفع صوتها: «إنه يموت! يموت لأننا
أمضينا حياتنا ندرس كيفية خداع بعضنا في مهاجع وشقق المدينة الجامعية
الرخيصة. يمكنني أن أحكي لكم عن سكان بابو غينيا الجديدة الأصليين،
وقد يشرح لنا هارولد تقنيات الشعر الحديث، لكن أي فائدة قد يمنحها هذا
لمارك؟».

همهت فران: «لو أن معنا طالب طب...».

- لو كان معنا، نعم. لكنه ليس معنا.. وليس معنا ميكانيكي سيارات
ولا حتى فلاح شاهد يوماً طبيباً بيطرياً يجري جراحة على بقرة أو
حصان». نظرت إليهما وعيناها السوداوان تزدادان دُكنة وأكملت: «على
قدر محبتكم، أنا مستعدة لمقايضتكم جميعاً بشخص يعرف ما يفعله.
أنتم جميعاً تخشون لمسه حتى وأنتم تعرفون ما سيحدث له ما لم
تفعلوا. أنا مثلكم، ولا أستثني نفسي».

قالت فراني: «على الأقل ذهب الـ...»، ثم صمتت. كانت تريد أن تقول لها إن الرجلين قد ذهبا، لكنها وجدت في عبارتها إهانة ما لهارولد، فأكملت: «على الأقل ذهب جِلن وستو ليحاولا العثور على شيء».

زفرتُ بيّري وقالت: «نعم. الذَّهَاب فكرة ستو، أليس كذلك؟ الوحيد بيننا الذي قرَّر فعلَ شيء حقيقي بدلاً من التباكي». ثم سألت فراني: «هل أخبركِ بعمله في الماضي؟».

أجابت على الفور: «كان يعمل في مصنع»، ولم تلاحظ نظرة هارولد المتعجبة من قدرتها على إجابة هذا السؤال. أضافت: «عمل في توصيل الدوائر الكهربائية لآلات الحساب. يمكننا أن نقول إنه كان تَقْنِيَّ حواسيب».

ابتسم هارولد في مرارة وغمغم: «هكذا إذن...».

قالت بيّري: «إنه الوحيد بيننا الذي يعرف كيف يفك ويركّب. ما سيفعله هو والسيد بيتمان سيقتل مارك، أنا متأكدة من هذا، لكنّ الأفضل أن يموت على يد أحد يحاول إنقاذه، بدلاً من الموت وهو محاط بمن يشاهدونه يُحتَضَر كأنه.. كأنه كلب صدمته سيارة في عرض الطريق».

لم يجد هارولد ولا فراني ما يقال. وقفا خلفها يراقبون وجه مارك الشاحب الساكن. بعد هنيهة وضع هارولد كفه المتعركة على كتف فراني مرة أخرى. شعرت برغبة ملحة في الصراخ.

عاد ستو وجِلن في الرابعة إلا ربع. كانا قد أخذَا معهما إحدى الدراجات، وربطَا إليها حقيبة أدوات طبية سوداء وعدة مراجع سميكة.

قال ستو: «سنحاول».

نظرتُ إليه بيّري بوجه ممتقع مكروب، وسألته بصوت هادئ: «هَلّا فعلت رجاءً؟ كلانا يريدك أن تفعل هذا».

قالت بيّريون: «ستو؟».

الساعة الرابعة وعشر دقائق. ستو راكع على مفرش مطاطي تحت الشجرة، والعرق يتصبب أنهاراً من وجهه. عيناه لامعتان، مهمومتان، مذعورتان. تحمل فراني كتاباً مفتوحاً أمامه، تنتقل ما بين صفحتين ملونتين كلما أوماً لها

ستو. إلى جواره جِلن المرتعب الشاحب يحمل وعاءً شاش. على مقربة حقيبة مفتوحة مبقعة بالدماء، مليئة بالأدوات الطبية.

صاح ستو بصوت عالٍ قوي مبتهج: «إنها هنا!». ضيق عينيه وهو يكمل: «ها هي الوقحة الصغيرة! ها هي! هنا بالضبط!». كررت بيريون: «ستو؟».

- فران، أرني تلك الصفحة الأخرى، بسرعة.. بسرعة...! سأله جِلن: «هل يمكنك أن تُخرجها؟ يا يسوع! هل تعتقد حقًا أنك قادر على هذا؟».

كان هارولد قد غادر الحفل مبكرًا وهو يغطي فمه بيده. وقف بين الأشجار عند الشرق وظهره تجاههم. سمع ما قيل مؤخرًا، فاستدار نحوهم بوجه يكسوه الأمل.

قال ستو وهو يحدق إلى الصفحات: «لا أعرف. لكن يجب أن أفعل. يجب». كررت بيريون: «ستو؟».

همس ستو: «الزائدة الدودية عضو مستقل بنفسه. امسحي جبيني يا فران. أنا أتعرق كخنزير لعين.. شكرًا.. رباه، لا أريد أن أقطع من أمعاءه أكثر مما ينبغي.. هذه هي الأمعاء اللينة البغيضة.. لكن، يا للمسيح.. يجب أن أفعل.. سأفعل...».

كررت بيريون: «ستو؟».

- هاتِ المقصَّ يا جِلن.. لا.. ليس هذا، بل الصغير.

- ستو...

نظر إلى بيريون أخيرًا. قالت بصوت هادئ رقيق: «لست مضطرًا. لقد مات...».

اتسعت عينا ستو ببطء. أومأت وهي تكمل: «منذ دقيقتين. لكن شكرًا لك. شكرًا لمحاولتك».

نظر إليها ستو مطولاً ثم همس: «متأكدة؟».

أومأت مرة أخرى والدموع تنهمر على وجنتيها. رمى ستو المبزع الصغير وابتعد وهو يغطي وجهه بكفيه الداميتين في يأس عظيم. كان جِلن قد قام فعلًا ومشى بكتفين متهدلتين ولم ينظر خلفه.

أحاطتُ فراني كتفي ستو وعانقته. قالت: «لقد انتهى الأمر»، وظل يكرر عبارته مرارًا في حزن عميق أربعها. «لقد انتهى الأمر.. كل شيء انتهى...». قالت وهي تضمُّه أكثر كأنه سيطيّر: «لقد فعلتَ ما في وسعك». ظل يُكرّر في حسم: «لقد انتهى الأمر...».

عانقته أكثر رغم ما كان يجول في عقلها خلال الأسابيع الثلاثة الماضية. لقد كانت تكبت شعورها الحقيقي، وعلاقتها بهارولد تضغط عليها أكثر. إنها الآن لا تُظهر كل ما تُكنه لستو، فهذا ليس عناقُ الأحباء الذي تتوق إليه، بل تمسك ناجيين ببعضهما. فهم ستو هذا، فرفع يديه وضغط على كتفيها بقوة مُخلِّفًا بقعًا دامية على قميصها الخاكي، كأنهما يوثقان شراكتهما في جريمة تعسة.

نظر هارولد -الذي لا يعرف الفرق بين عناق الناجين وعناق الأحباء- إلى ستو وفراني نظرة ريبة وخوف. بعد هنيهة انطلق مبتعدًا ولم يعد إلا بعد وقت العشاء.

استيقظتُ في صباح اليوم التالي مبكرًا. أحدهم يهزها. فكرتُ وهي ناعسة في أنها ستفتح عينها لتجد أن مَنْ يوقظها ستو أو جِلن، ليخبرها أنهما ذاهبان إلى مكان ما.

ستو مَنْ أيقظها بعد الشروق الذي حجب ضوءه ضبابُ الصباح المبكر، بدتِ الشمسُ كقطعة ذهب ملفوفة في غلالة قطنية. كان الآخرون نائمين. سألتُه وهي تجلس: «ماذا حدث؟».

- إنه الحلم مرة أخرى. ليس حلم المرأة العجوز.. الحلم.. الآخر. الرجل الغامض. كنت خائفًا، لذا...».

أقلقتهَا نظرته، فقالت: «كفى مراوغة. قل ما تعني بوضوح لو سمحت». - إنها بيريون. لقد أخذتُ أقرصَ فيرونال من حقيبة جِلن. أوه.. لقد ماتتُ يا فراني.. رباه، ما هذا الذي نحن فيه!

حاولتُ أن تتكلم، لكنها عجزتُ. قال ستو شاردًا: «سأوقظ الآخرين». حكَّ ذقنه الخشن. ما زالتُ فراني تتذكر ملمسها على خدها أمس عندما عانقته. التفتَ نحوها ذاهلاً وهمس متسائلًا: «متى ينتهي كل هذا؟».

قالت برفق: «لا أعتقد أنه سينتهي».
والتقت عيناها بنور الشروق الوليد.

من يوميات فران جولد سميث

12 يوليو، 1990.

خيّمنا غرب جيلدرلاند (نيويورك) الليلة بعدما وصلنا أخيرًا إلى الطريق الرئيسي السريع 90/80. هداً حماساً لقائنا بيريون ومارك أمس (ألا ترى أن اسم بيريون جميل؟)، ووافقا على الانضمام إلينا.. في الحقيقة هما من طلبا ذلك.

ما كان هارولد ليعرض عليهما هذا، أنت تعرفه، وقد تضايق من كثرة متاعهما (وتضايق جِلن أيضًا) من بينهما بنادق نصف آلية. على أي حال، يجب أن يشارك هارولد في الحفل ويؤكد وجوده بطريقته.

أعتقد أنني سوّدت صفحاتٍ وصفحاتٍ في الكتابة عن نفسية هارولد، وما لم تكن قد عرفته الآن فلن تعرفه أبدًا. خلف كل تفاخره المقيت هذا طفل مذعور. لا يمكنه أن يستوعب أن كل شيء قد تغير. ظل مرتعب من أن تُبعث مضايقات مدرسة الثانوية وتهاجمه مرة أخرى. ربما يناسبه التقرب من شخص آخر سواي، فأنا جزء من ماضيه، وصديقة أخته المقربة. هذا يلخص علاقتي الغريبة به. على غرابتها، قد أفضل صداقة هارولد على صداقة إيمي لو عاد بي الزمن. كانت مُهوّسة بالأولاد الأثرياء والملابس من سويتني، متجر أوجونكويت الأرقى (ليسامحني الرب على قول مثل هذه الأشياء عن شخص ميت). هارولد لطيف بطريقته الخاصة عندما لا يركز كل طاقته في أن يكون بغضبًا. لكن كما ترى، لا يصدق هارولد أن أحدًا يراه لطيفًا. لقد عزم على حمل مشكلاته معه إلى العالم الجديد الشجاع. حزمها في حقيبته مع شوكولاتة باي داي التي يحبها.

أشياء لتتذكرها: عبارات إعلانات ماكينات حلقة چيليت، ودورق عصير كول آيد الراقص الذي يصيح: «أوه.. نعم!»، وإعلانات الفوط الصحية التي تقدمها طيبة نساء، وفيلم ليلة الموتى الأحياء. هذا الأخير يذكرني بالبيت.. سأتوقف عند هذا الحد.

تكلّمنا كثيرًا عن تلك الأحلام على الغداء اليوم، وتوقفنا فترات طويلة أكثر مما ينبغي. نحن الآن شمال باتافيا بالمناسبة.

اقترح هارولد أمس أن نخزن أقراص فيرونال ونتعاطى منها جرعات مخففة كي نتغلب على الأحلام. قال إن علينا أن (نعترض دورة النوم). وافقته كي لا يظن أحد أن بي شيئًا، لكنني لم أتناول جرعاتي خوفًا على صغيري الوحيد (أتمنى أن يكون وحيدًا، فلا أستطيع مواجهة توأمين).

بعد اعتماد اقتراح المهدئ، قال مارك: «لا يحتمل التفكير في تلك الأحلام مناقشة أكثر. فما سيحدث تاليًا أننا سنجد أنفسنا نفكر في أننا موسى أو يوسف ونتلقى مكالمات هاتفية من الرب».

قال ستو: «ذلك الرجل الغامض لا يكلمنا من السماء، بل من مكان في عمق الجحيم».

علّقت فراني: «هذه هي طريقة ستو في أن يقول إن الشيطان في أعقابنا». قال جلن: «وهذا تفسير له وجهة التفسيرات الأخرى ذاتها». نظرنا إليه جميعًا، فأكمل بطريقة دفاعية: «لو نظرنا إلى الأمر من منظور لاهوتي، سنجد أنفسنا عُقدة في منتصف جبل الحرب الواصل بين السماء والجحيم. أليس كذلك؟ لو أن يسوعيين نجوا من الإنفلونزا الفائقة لجنّوا تمامًا».

ضحك مارك. لم أفهم إلّا م كان يرمي، فصمتُ. أضاف هارولد: «أعتقد أن الأمر كله هراء. لو استمررنا على هذا الوضع لتحولنا إلى الإيمان بإدجار كايس⁽¹⁾ وتلاقي الأرواح».

قال جلن: «عندما تقع ظاهرة ما ورائية، لا يصمد أي تفسير إلا التفسير اللاهوتي. لذا ظل الدين وعلم الطبيعة يسيران يدًا بيد، وصولًا إلى المعالين الروحانيين في العصر الحديث».

برطم هارولد، لكنّ جلن استمر: «حدسي هو أن أرواحنا - تلك الذرة الصغيرة غير المرئية من أنفسنا- تتلاقى. رُفض هذا التفسير طويلًا حتى ما عاد أحد يلاحظ شيوع تلاقي الأرواح».

(1) مستبصر أمريكي يزعم القدرة على تشخيص الأمراض وعلاجها في أثناء النوم (المتجمة)

سألته: «لماذا؟».

- لأنه عامل سلبي يا فران. هل قرأ أيكم دراسةً جيمس د. ل. ستونتون عام 1958 عن حوادث القطارات والطائرات؟ نُشِرتْ بدايةً في دورية من دوريات علم الاجتماع، لكنها نُشِرتْ مراتٍ بعدها في الصحف.

هزنا رؤوسنا، فأردف: «جيمس ستونتون من العقول النابهة. عالم اجتماع إكلينيكي، درس الغوامض كهواية، وكتب الكثير عن الأمرين مجتمعين قبل أن يموت ليدرر الغوامض من كتب بنفسه».

نخر هارولد، وابتسم ستو ومارك، وأخشى أنني أيضًا ابتسمتُ. سألت بيرى: «أخبرنا إذن عن الطائرات والقطارات».

- أحصى ستونتون خمسين حادثَ تحطم طائرات منذ عام 1925، وأكثر من مائتي حادث تصادم قطارات من عام 1900. أعطى كل تلك المعلومات إلى الحاسوب. كان يحاول الربط بين ثلاثة عوامل: ناشر الحادث، والضحايا، وسعة المَرَكبة.

قال ستو: «لا أرى ما يريد إثباته».

- كي ترى، يجب أن تعرف أنه أعطى الحاسوب مجموعة أرقام أخرى، تمثل عدد الطائرات والقطارات التي لم تُحطَّم.

أوماً مارك وهو يقول: «مجموعة ضابطة ومجموعة تجريبية. هذا أسلوب بحث منضبط بما يكفي».

- ما وجده بسيط، إلا أنه معقد في ما تضمّن. أمر مخز أن يُضطرَّ المرء إلى البحث في ست عشرة قائمة للتوصل إلى حقيقة إحصائية.

سألته: «أي حقيقة؟».

- أن حوادث تحطم الطائرات والقطارات نادرة.

هتف هارولد: «هذا محض هراء!».

قال جلن بهدوء: «أبدًا. هذه هي نظرية ستونتون، وقد أكدها الحاسوب. في أغلب تلك الحوادث، تحمل المَرَكبة 61% تقريبًا من مجمل ركابها، وكانت تحمل في حالات عدم تحطمها 76% من مجمل الركاب. الفارق 15%. استنتاج ستونتون هو أن الناس تعرف أيَّ مَرَكبات ستتحطم ويتفادون ركوبها.. وأنهم يتنبَّؤون بالمستقبل دون أن يعوًا ذلك.

- تصاب العمة سالي بمغص قبل إقلاع الرحلة رقم 61 من شيكاغو إلى سان دييغو، وبعدما تتحطم الطائرة يهتف الجميع: أوه أيتها العمة سالي، ذلك المغص كان نعمة من الرب. ثم جاء ستونتون وأدرك أن ثلاثين آخرين قد شعروا بصداغ أو مغص.. أو مجرد شعور غريب أخافهم من ركوب الطائرة يومها.

هز هارولد رأسه وهو يغمغم: «لا أصدق...».

فقال جلن: «بعد أسبوع من انتهائي من قراءة مقال ستونتون لأول مرة، تحطمت طائرة خطوط طيران ماجيستيك في مطار لوجان، ومات كل من فيها. كلمت المسؤول عن خطوط الطيران بعدما هدا الأمر قليلاً، وأخبرته أنني صحافي من مانشستر.. كذبة صغيرة لهدف عظيم. سألته عن عدد المتخلفين عن ركوب تلك الطائرة، فتفاجأ الرجل لأن ممثل الشركة تكلم عن هذا الأمر. تخلف عن ركوب الطائرة ستة عشر راكباً، بينما العدد الشائع للمتخلفين عن طائراتهم ثلاثة راكب.

- بل إنه قال إنهم تلقوا خمس عشرة مكالمة إلغاء حجز، والعدد المعتاد ثمانية. أعلن خبر تحطم الطائرة 94 قتيلاً، فيما كان من الممكن أن يعلن أن 31 شخصاً قد تفادوا هذا الحادث».

ذكر جلن الكثير عن الظواهر الروحانية، لكن يبدو أنني ابتعدت كثيراً عن مشكلة أحلامنا، وهل كانت تأتي من القدير بالأعلى. سأل هارولد سؤالاً أخيراً قبل أن يبتعد مشمئزاً: «إن كان لدينا جميعاً قدرات روحانية، فكيف لم نعرف بموت أحبائنا قبل موتهم، ولم نتنبأ بتحطم البيوت إثر الأعاصير مثلاً؟».

أجاب جلن: «حالات كهذه مسجلة فعلاً، لكنني أعترف أنها ليست شائعة فعلاً.. أو حتى سهلة الإثبات بمساعدة الحاسوب. هذه نقطة مثيرة، لديّ نظرية...».

(لديه دائماً نظريات، أليس كذلك يا يومياتي؟).

- ...خاصة بالتطور. في الماضي كان جسد البشر الأوائل -أو أسلافهم- مغطى بالشعر، ولديهم حواس أقوى من حواسنا الآن. لماذا لم يعد لدينا شعر ولا حواس مماثلة الآن؟ هيا يا ستو، بسرعة.. هذه فرصتك في التفوق على باقي الصف.

- للسبب نفسه الذي ما عاد الناس يرتدون نظارات وواقيات تراب وهم يقودون سياراتهم. أحياناً لا تحتاج إلى ما كنت تحتاج إليه في الماضي بسبب اعتيادك المتغيرات.

- بالضبط! ما الفائدة من القدرات الروحانية إن لم نكنْ نحتاج إليها؟ ما فائدة أن تعمل في مكتبك، ثم تدرك فجأة أن زوجتك قُتِلَتْ في حادث سيارة في أثناء عودتها من السوق؟ لا فائدة، لأن أحداً سيتصل بك ويخبرك، أليس كذلك؟ لقد اختفت تلك القدرات كما اختفى الشعر عن أجسادنا.

- ما يثير اهتمامي في تلك الأحلام أنها تنبئ بمعركة مستقبلية. نحن نرى صورة ضبابية لبطل... ولغريم. الأمر أشبه برؤيتنا لطائرة سنركبها.. ثم نصاب بالمغص. ربما مُنَحْنَا فرصة تشكيل مستقبلنا. نوع من أنواع الإرادة الحرة رباعية الأبعاد؛ فرصة للاختيار من أحداث مستقبلية». قلت: «لكننا لا نعرف معنى تلك الأحلام».

- نعم، لا نعرف، لكن يمكننا أن نعرف. لا أعرف أكانت موهبتنا الروحانية تعني أننا آلهة. الكثير يقبلون معجزة الإبصار دون أن يؤمنوا أن الإبصار يُثبِت وجود الرب، وأنا واحد منهم. إلا أنني أومن أن لتلك الأحلام غرضاً بناءً، لا لإخافتنا فقط. أنا أعيد التفكير في أمر تعاطي القيرونال، فهو أشبه بشرب بيبتيو بيسمول للتخلص من المغص كي نتمكن من ركوب الطائرة.

أشياء لتذكرها: الركود الاقتصادي، نقص الموارد، سيارة فورد جرولر التجريبية التي تقطع ستين ميلاً على الطريق السريع بجالون وقود. هذا هو كل شيء. لقد تعبْتُ. أنا لا أقصّر يومياتي التي ستكون في طول رواية «ذهب مع الريح» قبل أن يصل صغيري الوحيد. آه، شيء آخر للتذكرة. إدجار كايس. لا تنسَه. يفترض أنه يرى المستقبل في الأحلام.

16 يوليو

1990

ملاحظتان فقط لهما علاقة بالأحلام (انظر إلى ما كتبتُ منذ يومين). ظل بيتمان شاحباً صامتاً طوال اليومين الماضيين، ورأيتَه الليلة يأخذ جُرْعَةً

مضاعفة من المهدى. خمنتُ أنه توقف عن تعاطيه يومين فرأى كوابيسَ مروعة. يُقلقني هذا. ليتني أجد طريقة لأفتح معه الموضوع.

الملاحظة الثانية خاصة بأحلامي. نمتُ ليلة نقاشنا المطوّل كطفل ولا أتذكر شيئاً من أحلامي. ليلة أمس حلمت بالمرأة المسنة للمرة الأولى. لا يوجد ما أضيف أكثر مما ذكرتُ إلا أنها تشعُّ لطفًا وطيبة. أفهم الآن لماذا يتوق ستو إلى الذهاب إليها رغم سخرية هارولد.

استيقظتُ صباحًا مفعمةً بالبشر، وأنا مؤمنة أنني لو التقيتُ الأم أباجيل سيكون كل شيء بخير بعد ذلك. أتمنى أن تكون هناك حقًا. (بالمناسبة، أنا الآن متأكدة من أن اسم بلدتها هيمنجفورد هوم).

أشياء لتتذكرها: الأم أباجيل!

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل السابع والأربعون

لو تدهورت الأمور، تتدهور سريعًا.

الساعة العاشرة إلا ربع من صباح يوم الثلاثين من يوليو، وكانوا على الطريق منذ ساعة. تحركوا ببطء بسبب أمطار أمس والطرق الموحل الزلقة. لم يتحدث أربعتهم كثيرًا منذ صباح أمس، عندما أيقظ ستو فراني أولاً ثم هارولد وجلين ليخبرهم بانتحار بيريون. فكّرت فراني البائسة في أنه يلوم نفسه على شيء ليس بيده.

رغبت في أن تخبره بهذا لأنه لا يستحق أن يسلخ نفسه بسبب شهامته، ولأنها تحبه. هذا السبب الأخير هو الحقيقة التي لا تستطيع أن تخفيها عن نفسها أكثر من هذا. فكرت في أنها قادرة على إقناعه أن موت بيريون ليس خطأه.. لكن الإقناع قد يفضح شعورها الحقيقي، وسيعرف هارولد. تراجعت عن الفكرة.. مؤقتًا، على أن تنفذها قريبًا رغم رد فعل هارولد. لا يصح أن تحميه أكثر من هذا، لكنها تخشى أن هارولد لن يتقبل الأمر وسيحاول فعل شيء شنيع. إن معهم أسلحة كثيرة.

ظلت تقلّب تلك الأفكار حتى انعطفوا ليجدوا أمامهم شاحنة مقلوبة تسد منتصف الطريق. كانت هذه مفاجأة كافية، إلا أن ثلاث سيارات أخرى مكومة على جانبي الطريق، ومجموعة يلتفون حولها.. دسته بشر على الأقل.

ضغطت فران مكابح دراجتها على الفور، فانزلقت الدراجة على الطريق المبتل وكادت تسقط عنها لولا أن استعادت السيطرة عليها. توقف الأربعة في صف بعرض الطريق، يرمشون لمراى كل هذا العدد من الأحياء.

قال أحدهم، وهو رجل ذو لحية خشنة يرتدي نظارة شمسية: «ترجّلوا».

سافرت فراني بالزمن خلال ذكرياتها إلى يوم أوقفها شرطي على طريق مَين لمخالفتها السرعة.

فكرت فراني في أنه سيطلب منهم بعد ذلك الاطلاع على تراخيص القيادة. لكنه ليس شرطياً يراقب السرعات ويحرر المخالفات. خلف الرجل ذي النظارة الشمسية ثلاثة رجال آخرين، أما الباقي فكانوا نساءً، على الأقل ثماني منهم. بدوُن مذعورات شاحبات، يصطففن خلف السيارات الواقفة في مجموعات صغيرة.

مع الرجل ذي اللحية الخشنة مسدس، ومع مَن يقفون خلفه بنادق، وبعضهم يرتدون قطع ملابس متناثرة من زي الجيش.

صاح ذو اللحية الخشنة: «ترجّلوا عليكم اللعنة!». جهّز أحد الرجال خلفه بندقيته للإطلاق. بدا جِلن وهارولد حائرين. فكرت فراني في أنهما بطتان راقدتان على بيض، رغم أنها لم تفهم الموقف جيداً، اتضح أمامها أن طرفي المعادلة غير متساويين. أربعة رجال وثمانى نساء!

قال ستو بصوت هادئ: «هارولد... لا...».

وقبل أن يكمل عبارته، وقعت الواقعة.

بندقية ستو كانت معلقة خلف ظهره. أنزل كتفه كي يتمكن من جذبها إلى الأمام، وفي لحظات صارت بين يديه. صاح الملتحي في غضب: «لا تفعل هذا! جارقي! ثيرج! چوني! هاتوهم! اتركوا المرأة!».

بحث هارولد عن مسدسيه وقد نسي أنهما معلقان في جرابيهما. ما زال جِلن بيتمان متجمداً خلف هارولد من الصدمة. صاح ستو مرة أخرى: «هارولد!».

حررت فراني بندقيتها ببطء وقد شعرت أن الهواء حولها صار دَبِقاً يعيق حركتها، وأدركت أنهم سيموتون هنا في الغالب.

صرخت إحدى النساء: «الآن!».

انتقلتُ عينا فراني إلى تلك المرأة وهي تحاول التعامل مع بندقيتها. هي في الخامسة والعشرين تقريباً، شعرها أشقر يحيط بأعلى رأسها كخوذة.

لم تتحرك أغلب النساء، وتجمد بعضهنّ من الخوف. كان الملتحي يصوب مسدسه نحو ستو عندما صرخت الشقراء: «الآن!»، وانطلقت الرصاصة، فسقط ستو من فوق دراجته وصرخت فراني باسمه.

رفع ستو جذعه مستندًا على كوعيه (المجروحين من الاحتكاك بالطريق، والدراجة ساقطة فوق ساقه) وأطلق الرصاص. ترنح الملتحي إلى الخلف، وانتفخ قميصه. ارتفعت فوهة مسدسه إلى السماء وانطلقت منه أربع رصاصات قبل أن يسقط على ظهره.

التفتَ رجلان من الثلاثة إثر صرخة الشقراء، وضغط أحدهما كلا زنادي السلاح الذي يحمله، إلا أن السلاح نفسه لم يكن مستندًا إلى شيء، فارتد إلى الخلف سالخًا أصابعه، ثم سقط على الأرض. تحول وجه واحدة من النساء الاتي لم يستجب لصرخة الشقراء إلى قناع من الدم، حتى ظنت فراني أنها تسمع انهمار الدماء على الأسفلت. أطلقت عينها السليمة من وسط القناع الأحمر للحظات، مذهولة غافلة، ثم سقطت المرأة على الأرض.

تصارعت الشقراء مع الرجل الثاني الذي التفت نحوها، والبندقية التي يحملها بين جسيديهما. وراحت امرأة أخرى تزحف نحو البندقية الساقطة على الأرض. لم يلتفت الثالث نحو النساء، وأطلق النار على فران التي حدقت إليه في غباء وشعرت برصاصة تعبر من جوار صدغها. كان رجلًا ذا بَشَرَة زيتونية اللون يبدو إيطاليًا.

أخيرًا حرر هارولد أحد مسدسيه، وفرعه وأطلق النار على زيتوني البَشَرَة الذي يقف على بعد خمس عشرة خطوة منه. طاشت الطلقة، ورشقت في المقطورة الوردية على يسار رأس زيتوني البَشَرَة. نظر الأخير إلى هارولد وقال بلكنة إيطالية: «والآن سأقتلك يا بن العاهرة!».

صرخ هارولد: «لا تفعل!»، وألقى مسدسه على الأرض ورفع ذراعيه. أطلق الرجل ثلاث مرات على هارولد، وكادت الأخيرة تصيبه، إلا أنها أصابت ماسورة عادم دراجته، فسقطت جانبًا وأسقطت هارولد وجِلن.

مرت عشرون ثانية حتى الآن. هارولد وستو على الأرض، وجِلن متربع على جانب الطريق كأنه لا يعرف بعد أين هو. فراني تحاول بكل جُهدِها أن تصيب ذا البَشَرَة الزيتونية قبل أن يصيب هارولد أو ستو، لكنَّ مسدسها لا يطلق النار، والزناد لا ينضغط لأنها نسيّت أن تزيح ترباس الأمان.

استمرَّ صراع الشقراء والرجل الثاني، أما المرأة التي عثرت على البندقية الساقطة فكانت تصارع المرأة الثانية على الاستحواذ عليها.

سبَّ الرجل الإيطالي وصوب نحو هارولد مرة أخرى، أطلق ستو الرصاص نحوه وأصابه في منتصف جبهته، فسقط على الفور كجُوال بطاطس.

انضمت امرأة أخرى إلى الصراع حول البندقية، حاول صاحب السلاح إبعادها، فمدَّت يدها إلى منفرجه وضغطت بقوة حتى إن فراني رأت تقلص عضلاتها القوية. عوى الرجل من الألم وفقد الاهتمام بالسلاح، فأمسك أعضائه الحميمة وترنح حتى سقط أرضاً.

زحف هارولد إلى حيث مسدسه الملقى على جانب الطريق، ثم أطلق منه الرصاص على الرجل ذي الأعضاء الخاصة المصابة. أطلق ثلاث مرات وأخطأ في الثلاثة.

فكرت فراني: يا يسوع، الدماء في كل مكان. كأننا في فيلم بوني وكلايد! خسرت الشقراء صراعها على بندقية الرجل الثاني، جذب السلاح ثم ركل مصوباً إلى معدتها، فأصابَتْ ركلته فخذها. تراجعت مترنحة إلى الخلف، وهي ترفرف بذراعيها للتوازن، إلا أنها سقطت جالسة.

فكرت فراني في أنه سيقتلها الآن بلا شك، لكنه فتح النار على مجموعة النساء الثلاث خلف السيارة الكانترى سكواير. صرخ الرجل: «يااااا! أيتها الساقطات! يااااا! أيتها الساقطات!».

هوت إحدى النساء وتدرجت على الرصيف بين السيارة والمقطورة كأنها سمكة تُحتَضَر. هربت المرأتان المتبقيتان. أطلق ستو الرصاص على الرجل لكنه لم يصبه. صوب الرجل الثاني السلاح على الفارّتين ولم يصبهما. رفعت إحداهما ذراعيها إلى أعلى ووقعت، أما الأخرى فاخترأت خلف المقطورة الوردية.

أما الرجل الثالث الذي فقد سلاحه وأخفق في استعادته، ما زال يمسك بمنفرجه. صوبت نحوه إحدى النساء سلاحه نفسه وضغطت كلا الزنادين، لكنَّ الرصاص لم يُطلق. أمسكته كأنه هراوة، وهوت به تجاه رأسه فارتطم بموضع التقاء عنقه وكتفه. هوى الرجل على ركبتيه وزحف مبتعداً، فتبعته المرأة، وراحت تحاول ضربه مرة أخرى. استمر الرجل في الزحف والدم يتدفق منه كالأنهار والمرأة في خلفه.

صرخ الرجل الثاني: «ياااا! أيتها الساقطات!» وأطلق النار على سيدة مرتعبة في منتصف العمر. المسافة بين ماسورة المسدس والمرأة ثلاث أقدام، إلا أنه لم يصبها. ضغط الزناد مرة أخرى فأدرك أن السلاح قد فرغ.

أمسك هارولد مسدسه بيديه الكما رأى الشرطيين يفعلون في الأفلام، وأطلق الرصاص فأصاب مرفق الرجل الثاني. رمى سلاحه وصرخ. صاح هارولد في نشوة: «لقد أصبته! أصبته!».

تذكرت فراني أخيرًا أن تفتح ترباس الأمان، فضغطته بإبهامها فيما يطلق ستو الرصاص مرة أخرى. سقط الرجل الثاني وهو يمسك معدته بدلًا من كوعه واستمر في الصراخ.

غمغم جلن وهو يخفي وجهه بيديه: «رباه.. رباه...»، وبدأ يبكي. أطلق هارولد النار مرة أخرى على الرجل الثاني، فهدم تمامًا. هوت المرأة بالبندقية على رأسه مرة أخرى فهشمت رأسه. للحظات ساد الصمت، وزقزق عصفور: ويت ويت.. ويت ويت.

وقفت المرأة التي هشمت رأس الرجل عند جثة الثالث وأطلقت صرخة انتصار وحشية طاردتُ فران جولد سميث لباقي حياتها.

الشقراء هي داينا جورچينز من أوهايو، والتي حطمت رأس الرجل هي سوزان ستيرن، أما الثالثة التي قبضت على منفرج صاحب البندقية باتي كروجر. المرأتان الأخريان أكبر سنًا بقليل. أكبرهن -كما قالت داينا- هي شيرلي هاميت، ولا تعرف أيهن اسم المرأة الأخرى التي بدت في منتصف الثلاثينيات. كانت في حالة صدمة عندما أخذها الرجال من بلدة أرشبولد قبل يومين.

انطلق التسعة على الطريق السريع، وخيموا في مزرعة غرب كولومبيا. كُنَّ جميعًا مصدومات، وفكرت فراني لاحقًا في أن المراقب قد يرى رحلتهم من المقطورة الوردية المقلوبة إلى منزل المزرعة أشبه برحلة ميدانية تمولها مصحة مجانيين. بلَّت سراويلهم الحشائش العالية المبتلة من أثر أمطار أمس، وأحاطت بهم الفراشات البيضاء المترنحة المثقلة بأجنحتها المبتلة.

بدأ الهواء يسخن رغم أن الشمس لم تعلُ إلى سقف السماء بعد، وارتفعت معدلات الرطوبة. حامت الغربان في السماء ونعقت. الغربان أكثر من البشر

الآن. فكرتُ فراني في أنهم ما لم يحترسوا لَمَحَتْ تلك الطيور وجودهم من على وجه الأرض. انتقام الطيور السوداء. هل الغربان من آكلة اللحوم؟ إنها تخشى أن يكونوا كذلك.

ظلتِ المعركة السابقة تدور في عقلها مرارًا. وجه المرأة الذي اختفى خلف ستار الدماء. سقوط ستو وتلك اللحظة المروعة التي ظنت فيها أنه مات. صياح الرجل: «يااااا!!! أيتها الساقطات»، ثم صوت تهشم الجمجمة. صوت صرخة سوزان ستيرن الوحشية فيما يتسرب مخه الدافئ من بين شروخ جمجمته.

مشى جلن إلى جوارها، نحيل متجهم، تتطاير خصلات شعره حول رأسه مقلدة حركة الفراشات. أمسك يدها وظل يُربّتها ويقول: «لا تدعي ما حدث يؤثر فيكِ. فظائع كهذه.. لا بدّ أن تحدث. الحماية في العدد الكبير. في المجتمعات. المجتمع هو حجر زاوية الحضارة، وهو علاج البلطجة الوحيد. يجب أن.. أن تأخذي هذه الأمور.. بتقبل أكثر. هذا حادث وحيد. فكري في المجرمين كأنهم.. كأنهم غيلان أو وحوش من نوع ما. هذا هو دستور المجتمعات. هاها!!».

ضحكته نصف أنة. وافقته على ما قال بعبارة: «نعم يا جلن»، لكن لم يبدُ أنها سمعته. فاحت من جلن رائحة قيء، وظلت الفراشات تحوم حوله وترتطم به. كادوا يصلون إلى المزرعة. لم تدم المعركة أكثر من دقيقة، لكنها استدوم في عقل فراني إلى الأبد. أرادت أن تطلب منه أن يكفّ عن الكلام، لكنها خشيت أن يبكي لو فعلت ذلك. يمكنها أن تتحمل تربيتاته على يدها، لكنها لن تتحمل رؤيته يبكي.

مشى ستو مع هارولد إلى جوارهما، وعلى الجهة الأخرى داينا، فيما تسحب سوزان وباتي المرأة المصدومة بلا اسم. تبعتهن شيرلي هاميت -المرأة التي نجت من رصاصة ذي الرأس المهشم قبل موته- وهي تغمغم وتحاول ذب الفراشات.

مشيت المجموعة ببطء، لكنّ شيرلي كانت أبطأ منهم. شعرها الرمادي متدلّ حول وجهه، وتنظر إلى العالم بعيني فأر مذعور يطل من جُحره. نظر هارولد إلى ستو وقال: «لقد محوْنَا أثرهم، أليس كذلك يا ستو؟ لقد مسحناهم، أولئك الحثالة».

- نعم يا هارولد.

هتف كأن ستو سيعارضه: «لكننا كنا مضطرين. إما نحن وإما هم!». قالت داينا بهدوء: «كانوا ليفجروا رؤوسكم. كنتُ مع رجلين عندما تحرشوا بنا. قتلوا ريتش ودامون من مكمين. بعدما فعلوا ذلك، أطلقوا على رأسيهما النار مرة أخرى للتأكيد. لقد كنتم مضطرين، لكن لولا قتلتموهم لقتلوكم». هتف هارولد: «نعم! كانوا سيقتلوننا!».

قال ستو: «اهدأ يا هارولد».

أخرج من حقيبته شوكلاتة باي داي، وكاد يسقطها وهو يفتح غلافها. التهمها سريعاً وهو يمسكها بكلتا يديه.

وصلوا إلى بيت المزرعة، وظل هارولد يتحسس جسده كأنه يتأكد من أنه ليس مصاباً. كان يشعر بالمرض، وخشي أن ينظر إلى أسفل ليجد أنه بلل نفسه.

أكثر من تحدث على مائدة الغداء الذي لم يأكله أحد؛ داينا وسوزان. من وقت إلى آخر أضافت باتي كروجر -الجميلة ذات السابعة عشرة عاماً- تفصيلة أو تعليقاً. انكمشت المرأة بلا اسم في ركن مطبخ منزل المزرعة المترب، وظلت شيرلي تغغم وتهمهم.

غادرت داينا بلدة زينيا بصحبة ريتشارد دارليس ودامون باركنيل. كم واحد ظل حياً في البلدة بعد الوباء؟ لم ترَ إلا ثلاثة؛ رجلاً مسناً، وامرأة، وطفلة صغيرة. طلبت داينا ورفيقها من الثلاثة أن يصحبوهم، لكن الشيخ أبعدهم وقال شيئاً عن مهمة له في الصحراء.

في يوم الثامن من يوليو، عانت داينا ورفيقاها أحلاماً مرعبة عن (البُعْبُع). كان ريتش مقتنعاً أنه حقيقي ويعيش في كاليفورنيا، وآمن أن ذلك الرجل -إن كان رجلاً- له صلة بمهمة الثلاثة الأحياء في الصحراء. خَسَتْ هي ودامون على عقل ريتش. أطلق على الرجل في الحلم اسم (صعب المراس) وقال إنه يجمع جيشاً من صعبى المراس، وسرعان ما سيكتسح هذا الجيش الغرب ويستعبد كل الأحياء في أمريكا ثم في باقي العالم.

ناقضت داينا ودامون ضرورة الافتراق عن ريتش، وأقنعا نفسيهما أن أحلامهما نتيجة تأثرهما بأحلامه.

في ويليامز تاون، مرُّوا بمنعطف على الطريق السريع ليكتشفوا أن وراءه شاحنة قُمّامة مقلوبة، بالقرب منها سيارة وعربة قطار.

قالت داينا وهي تداعب قطعة بسكويت مملح بين أصابعها: «ظنناه حادثاً آخر، وقد كان هذا هو ما خُطِّط له؛ أن نظنه حادثاً عادياً».

ترجَّلوا عن دراجاتهم كي يحملوها فيعبروا من حول الشاحنة، وكان هذا عندما هاجمهم أربعة من (صعبي المراس) -بحسب تسمية ريتش- من داخل خندق على جانب الطريق. قتلوا الرجلين وأسروا داينا. كانت رابع شخص ينضم إلى ما يسمونه (حديقة الحيوان) وأحياناً (الحريم). واحدة من سابقاتها كانت شيرلي هاميت التي كانت طبيعية وقتها رغم تكرر اغتصابهم إياها وتعذيبها وإجبارها على ممارسة فاحشة فموية وهي تحبو على أربع.

أكملت داينا: «وفي يوم، لم تستطع أن تتحمل، فجَلَدَ روني رديها بسلك شائك، وظلَّت تنزف من شرجها ثلاثة أيام».

غمغم ستو: «يا يسوع المسيح! أي واحد هو؟».

أجابت سوزان: «صاحب البندقية، الذي هشمْتُ رأسه. ليته هنا كي أفعل هذا مرة أخرى».

الرجل ذو اللحية والنظارة الشمسية يدعى دوك، وكان هو وثيرج من فصائل الجيش التي أُرسِلت إلى أكرُون بعد تفشي الوباء. كانت وظيفتهم هي (العلاقات الإعلامية) وهي التسمية التي يستخدمها الجيش للدلالة على (القمع الإعلامي). بعدما أنهوا مهمتهم، انتقلوا إلى مهمة (السيطرة على الحشود)، وهي التسمية التي يطلقها الجيش على إطلاق النار على اللصوص الفارين، وإعدام من لم يفروا. قال لهم دوك إنه بحلول يوم السابع والعشرين من يوليو، صارت لسلسة الأوامر ثقب أكثر مما لها من حلقات. كثير من رجالهم مرضوا، لكن لم يعد هذا مهماً، فأهالي أكرُون لم يعودوا قادرين على قراءة الأخبار أو كتابتها، ولا سرقة البنوك ومتاجر الجواهر.

في يوم الثلاثين من يونيو، مات أغلب أفراد الوَحْدَة، وتفرَّق الباقيون. دوك وثيرج ممن تفرقوا، وبدأوا حياةً جديدة في بناء حديقة حيوان متنقلة خاصة بهم. انضم جارفي إليهما في يوم الأول من يوليو، وروني في اليوم الثالث، ثم أغلقوا باب الالتحاق ببناديقهم الصغير الانتقائي.

قال جلين: «لكن لا بُدَّ أنكم فُقتوهم عدداً في وقت ما».

على غير المتوقع، تكلمت شيرلي هاميت وقالت وهي تحقق إليهم بعيني الفأر المذعورتين: «إنها الأدوية. أدوية في الصباح لنستيقظ، أدوية في المساء لننام».

خفت صوتها حتى خرجت آخر كلمتين همساً. أخيراً انخرطت في المهمة مرة أخرى.

التقطت سوزان خيط الحكي. اختطفوها هي وواحدة ممن ماتوا واسمها ريتشل كرامودي، يوم السابع عشر من يوليو، خارج بلدة كولومبوس. كانت المجموعة وقتها تتحرك في أسطول سيارات مكون من سيارتين وشاحنة قطر. استخدم الرجال شاحنة القطر لإبعاد العوائق من الطريق، وأبقى دوك الأدوية مربوطة إلى حزامه؛ أقراص مهدئة للنوم، أقراص منشطة للطريق، وأقراص حمراء للانتشاء.

قالت سوزان كأنها تسرد حقائق جافة: «استيقظت في الصباح وقد اغتصبتُ مرتين أو ثلاثاً. انتظرتُ أن يجلب لي أقراص الصباح. في اليوم الثالث شعرت بـ... بتورم في مهبلي، وأي نوع من الممارسات الجنسية يؤلمني. بعد الأقراص أهدأ تماماً. لا أنام، إنما أهدأ. لا يعنيني شيء مما يجري لي ما دمت تعاطيتُ تلك الأقراص الزرقاء. في يوم غضب جرافي بسبب تلك الفتاة التي لم يجاوز عمرها الثانية عشرة، لأنها لم.. لا داعي إلى الحكي، فالأمر كان بشعاً. ففجر جرافي رأسها. بعد مدة توقفتُ عن التفكير في الهرب. كل ما أردته أن أحصل على تلك الأقراص الزرقاء».

أومات داينا وباتي كروجر موافقة. أضافتُ باتي أنها لاحظت أنهم يزدون أسراهم عن ثمانية. عندما أخذوها يوم الثاني والعشرين من يوليو بعد قتل الرجل الخمسيني الذي كانت تتحرك معه، قتلوا امرأة مسنة من جماعة الحريم، كانت معهم منذ أسبوع. وعندما أخذوا السيدة بلا اسم، الجالسة في الركن، قتلوا فتاةً حواء في السادسة عشرة ورموها في الخندق على جانب الطريق.

- كان دوك يتندّر بهذا، فيقول إنه لن يعبر من تحت سلم، ولا يمر من أمام قط أسود ولن يسافر على طريق مع ثلاثة عشر شخصاً.

في يوم التاسع والعشرين، عرفوا بوجود ستو ومن معه للمرة الأولى. كانت الجماعة تُخيم في متنزه قرب الطريق بين الولايات، عندما مرَّ الأربعة بهم. قالت سوزان وهي تومئ تجاه فران: «أخذ جرافي بك»، فارتجفتُ فراني.

مالَتْ دايِنا لتقترب أكثر وقالت: «وَقَرروا وقتها ممن سَيُتخلصون»، وأومأت نحو شيرلي المشغولة بالهمهمة وأكل البسكويت.

قالت باتي: «داينا هي التي قررت أنكم فرصتنا الوحيدة، أو ربما الأخيرة. في مجموعتهم ثلاثة رجال، ثلاثة رجال مسلحين. كان دوك واثقًا من كفاءة مصيدة الشاحنة المقلوبة. سيمثل هو دور الشرطي، فيما يهاجم باقي الرجال. لطالما نفعت تلك الحيلة».

أكملت سوزان: «كانت دايِنا قد طلبت منَّا ألا نتناول أقراص الصباح، وكانوا قد أهملوا التأكد من أننا ابتلعناها. عرفنا أنهم سيُشغلون هذا الصباح في نصب فخ السيارات. لم نخبر الجميع، فشاركْتُ دايِنا وباتي وهيلين روجيت.. واحدة ممن قتلهم روني هنا، وأنا. قالت هيلين إنها تخشى أن يعرفوا بأمر بصقنا الأقراص، فيقتلوننا، فقالت دايِنا إنهم سيقتلوننا عاجلاً أو آجلاً، ولو قُتلنا عاجلاً كان هذا أفضل. لذا قررنا أن نحاول».

قالت باتي: «اضطرتُّ إلى الاحتفاظ بقرص في فمي مدة أطول، فبدأ يذوب قبل أن أبصقه». نظرت إلى دايِنا وأُكملت: «أعتقد أن هيلين اضطرتُّ إلى ابتلاع قرصها، ولهذا كان رد فعلها بطيئاً».

وافقتها دايِنا. نظرت إلى ستو في مودة حتى إن فراني تضايقت. قالت: «لم تكنْ حيلتنا لتفلح ما لم تكنْ حكيماً أيها الرفيق الضخم».

قال ستو: «لقد تأخرتُ في الحكمة تلك المرة، يجب أن أبدأ مبكراً أكثر في المرات القادمة»، ثم قام إلى النافذة وأردف: «وهذا نصف ما يخيفني؛ هل سأكون حكيماً بما يكفي المرة القادمة؟».

لم تحب فراني النظرة المتعاطفة التي رمقته بها دايِنا. لا يحق لها أن تبدي تعاطفها. وهي أجمل مني بكثير رغم كل شيء، وأشك في أنها ليست حاملاً.

قالت دايِنا: «إنه عالم يُزيد الحكمة أيها الرفيق الضخم. زد حكمةً أو مُت». التفت ستو إليها كأنه يراها لأول مرة، فشعرتُ فراني بطعنة غيرة. لقد انتظرتُ طويلاً أكثر من اللازم. ربي، لقد انتظرتُ أكثر من اللازم!

وقع نظرها على هارولد، فرأته مبتسماً يغطي ابتسامته الواسعة بيده؛ ابتسامة راحة. شعرتُ برغبة قوية في انتزاع عينيه من رأسه بأظفارها وهي تصرخ: إياك يا هارولد.. إياك!

19 يوليو 1990

آه يا ربي. لقد وقع الأسوأ. عندما يحدث هذا في الروايات ينتهي، أو يقع ما غيره، لكن في الواقع يستمر الأمر بلا توقف.

ربما يجب أن أتحرك وأوضح شعوري، وأجرب فرصتي، لكنني أخشى من وقوع شيء بينهما، و... لا يمكن إنهاء عبارة بحرف جر، وأخشى أن أضع بعده شيئاً.

دعيني أخبرك بكل شيء يا يومياتي العزيزة، حتى لو لم يكن ما سأخبرك به ساراً.

دخل جِلن وستو بلدة چيرارد قرب الغروب بحثاً عن طعام، في الغالب مجففات ومعلبات يسهل حملها. سألاني أنا وهارولد أكنّا نرغب في الذَّهَاب معهما، فقلت لهما إنني اكتفيتُ من ركوب الدراجات، ورفض هارولد الذَّهَاب ربما ليُخطِّط.

(ملاحظة: سئمنا الماء المغلي بلا طعم ولا أكسجين، لكنَّ مارك وجِلن قالوا إن المصانع وما إلى ذلك لم تُغلق منذ وقت كافٍ يتيح للأتجار والجداول أن تتطهر بنفسها، خاصة في مناطق الشمال الشرقي الصناعية، أو ما يسمونه بالحزام الصدئ. أملنا جميعاً أن نعثر على إمدادات ماء معدني، وقال هارولد إن كميات ضخمة منها اختفتُ بطريقة غامضة. فسَّر ستو الأمر بأن الناس افترضتُ أن سبب المرض ماء الصنبور، فاخزنوا زجاجات الماء قبل موتهم).

انطلق مارك وبيريون إلى مكان ما بحثاً عن توت بري يعزز نظامنا الغذائي، وربما ليفعل شيئاً آخر.. إنهما متحفظان. لذا جمعتُ أنا الخشب لإشعال النار، وكومتُ بعضها لغلي الماء الذي سيعود به هارولد قريباً، (لا بُدَّ أنه مكث طويلاً عند الجدول ليستحم)، وسيضعه في الإبريق الكبير على ذلك الشيء الذي يعلقون عليه الأباريق ويجلس إلى جواره حتى يغلي.

كنا جالسين على جذع شجرة نتحدث، عندما لف ذراعه حول كتفَيَّ فجأة وحاول أن يُقبِّلني. قلت إنه حاول، لكن نجح فعلاً على الأقل في البداية لأنني تفاجأت. تملصتُ منه فسقطتُ من فوق الجذع. مزقتُ سقطتي ظهر بلوزتي

وكحتت جلدي تحته. صرختُ. ذكرني هذا بالتاريخ الذي يعيد نفسه، وبيوم عضضتُ لساني وأنا مع چيس...

بعد ثانية ركع هارولد إلى جواري يسألني أكنت بخير وقد احمر قفاه. حاول هارولد كثيرًا أن يكون باردًا، منمقًا. بدا لي ككاتب مأسوي يبحث عن مقهى ثقافي ما يمضي فيه الليل يتحدث عن سارتر ويشرب الخمر الرخيص، لكن تحت كل هذا مراهق مفعم بأوهام البطولة. تعود إليه تلك الأوهام في وقت الشدائد، ربما لأنه كبتها طوال حياته. لا أعرف.

ركع إلى جواري وقال: «هل أنت بخير يا صغيرتي؟»، فقهقهت. كنت أقول إن التاريخ يعيد نفسه! لم تضحكني هزلية الموقف، لو أن الأمر كذلك فقط لكبتُ قهقهتي. السبب هو الكوابيس وقلقي على الجنين وشعوري تجاه ستو والسفر يوميًا والشد العضلي وفقدان والدي وتغير كل شيء إلى الأبد... كل هذا قد خرج على شكل قهقهات هستيرية أخفقت في إسكاتها.

سألني هارولد وهو يقوم: «ما المضحك؟». المفترض أن يسأل هذا السؤال بصوتٍ جادٍ، لكن صوته ذكرني بدونالد دك. دونالد دك يجري بين أطلال الحضارة الغريب وهو يُبْطِط: ما المضحك؟ هه؟ ما المضحك؟ غطيتُ وجهي بكفي فقهقهتُ وبكيتُ وقهقهتُ حتى ظنني هارولد قد جننتُ.

بعد قليل تمالكْتُ نفسي. مسحْتُ دموعي وفكرتُ في أن أطلب من هارولد أن يلقي نظرة على ظهري لأعرف فدح إصابتي، لكنني تراجعْتُ خشية أن يظن الطلب نوعًا من أنواع التحرر.

قال هارولد: «فراني.. يصعب عليَّ أن أقول هذا...».

- إذن الأفضل ألا تقوله.

- يجب أن أقول. فراني.. أنا أحبك.

أعرف أن الأمر ليس كذلك، وإنما هو يريد مضاجعتي. الحب خطر، وأنا في موضع لا يتيح لي رفض هارولد. لكن لا مفر من ذلك.

- وأنا لا أحبك يا هارولد.

تحطم وجهه وهو يقول في حَنَق: «إنه السبب، أليس كذلك؟ ستو ريدهان!».

- لا أعرف.

لقد ورثتُ العصبية عن أُمِّي، وهأنا الآن أحاول التحكم فيها أمامه. أشعر بها تتحرر من قيودها.

هتف راثيًا نفسه: «أنا أعرف! أنا أعرف منذ يوم قابلناه. عرفت ذلك وقتها. لم أوافق على أن يأتي معنا لأنني كنت أعرف. لكنه قال».

- ماذا قال؟

- إنه لا يريدك! وأنتِ لي!

- وكأنني حذاء جديد، أليس كذلك يا هارولد؟

لم يُجب، ربما لأنه أدرك تماديه. أتذكر يوم التقينا ستو، وردَّ فعل هارولد الذي كان كرد فعل كلب تجاه كلب جديد يقتحم منطقة نفوذه. أكاد أرى شعر ظهر هارولد ينتصب. أفهم ما قاله ستو، وكان لهدف إخراجنا من مصاف الكلاب إلى مصاف البشر. أليس هذا هدف معاناتنا الآن؟ وإلا لماذا نحاول أن نتصرف كأشخاص مهذبين؟

- لا يملكني أحد يا هارولد.

غمغم شيئًا.

- ماذا؟

- قلت ربما تحتاجين إلى تغيير تلك الفكرة.

قفز احتجاج حاد إلى ذهني، لكنني لم أسمح له بالخروج. قال: «لقد رأيت ذلك الرجل من قبل. الأفضل أن تصدقيني يا فراني. إنه ليس ذلك الشخص الذي يلعب ظهيرًا ربعيًا في فريق كرة القدم، بل ذلك الذي يجلس في الفصل يقذف الكرات الورقية ويأتي بإشارات بذیئة لأنه يعرف أن المعلم لا يراه. إنه الشاب الذي يتودد إلى رئيسة المشجعات وهي تظنه يسوع المسيح. إنه الشاب الذي يطلق الريح عندما تطلب منك معلمة اللغة الإنجليزية أن تقرأ مقالك، لأنه الأفضل في الصف. نعم، أنا قابلتُ بُغضاء يشبهونه. حظًا سعيدًا فراني».

ثم ابتعد بعد خطبة نهاية العرض التي تعمدها. لقد كان يحلم حلمًا سرّيًا وأفسدته عليه. شعرتُ بالأسف تجاهه. كان يبكي لكنه لا يعرف أن عليه تغيير تفكيره قبل أن يرثي لحاله. يجب أن يدرك أن العالم سيظل على حاله ما دام ظل هو على حاله. إنه يخزن الحلوى كما يخزن القراصنة الكنوز.

والآن، وبعد عودة الجميع وتناول العشاء، وتدخين السجائر وتوزيع أقراص المهدئ، تحدثتُ مع هارولد مطوِّلاً وشعرتُ أن شيئاً لم يتغير بعد حديثنا، إلا أنه ظل يراقبني أنا وستو ليرى ما سيحدث لاحقاً. بأي حق يراقبنا؟ بأي حق يعقد وضعنا التعس هذا؟

أشياء لتتذكرها: «آسفة يا يومياتي، لستُ في مزاج رائع لكتابة شيء ولا أتذكر أي شيء».

ذهبت فراني لستو وهو جالس على صخرة يدخن سيجارة وينظر إلى الغرب حيث تختفي الشمس. كان قد حفر حفرة صغيرة بطرف حذائه واستخدمها كمنفضة. رغم أنه قابل النساء الأربع وضمهم إلى جماعته أمس، بدا له أن وقتاً طويلاً قد مرَّ. جلب إحدى السيارات من الطريق وأضافها إلى الدراجات البخارية، وصار لديهم أسطول متحرك يسافرون به ببطء إلى الغرب.

رائحة سجائره ذكرتها برائحة أبيها وجليونه، فتحوّلت الذكرى المؤلمة إلى مجرد حنين إلى الماضي. فكرتُ: أنا أتجاوز فقدك يا أبي. لا أظنك تمنع. رأها ستو فقال في سرور حقيقي: «فراني. كيف حالك؟».

- بخير.

- هل ترغبين في مشاركتي صخرتي ومشاهدة الغروب؟

انضمتُ إليه ودقات قلبها تتسارع. لكن لأي سبب غير هذا قد أتت إليه. عرفتُ في أي اتجاه غادر المخيم، كما عرفت أن هارولد وجِلن وفتاتين قد اتجهوا إلى برينجتون بحثاً عن جهاز استقبال وإرسال لاسلكي - راديو CB. (هذه المرة هي فكرة جِلن لا هارولد). مكثتُ باتي في المخيم لمراعاة المرأتين المرهقتين. كانت شيرلي قد أبدت بعض وعي لما يحدث، لكنها أيقظتهم طوال الليل تصرخ في نومها، وتخمش الهواء كأنها تحمي نفسها من وحش. أما المرأة الأخرى بلا اسم، فقد تدهورت حالتها. ظلت جالسة، لا تأكل إلا إذا أطعمها أحد، ولا تستجيب لأي شيء. لا تظهر أي علامات حياة إلا في نومها المليء بالكوابيس. تعتقد فراني أنها تعرف ما تحلم به هذه المرأة.

قالت فراني: «يبدو أن أماننا طريقاً طويلاً بعد».

- لم يُجب ستو لوهلة، ثم أجاب: «أطول مما نتصور. تلك المرأة من نبراسكا، لم تعد في نبراسكا».
- أعرف...
- لكنها لم تكمل. نظر إليها وقال بابتسامة باهتة: «أنت لا تواظبين على أقراصك يا سيدتي».
- لقد أفشي سري.
- لسنا الوحيدين. كنت أتحدث مع داينا (شعرتُ بطعنة الغيرة - لا الخوف - لدى ذكره اسمها) وقالت إنها وسوزان لا يريدان تناول المهدئ.
- ولماذا توقفتَ عن تعاطيه؟ هل يخدرك؟
- لا. توقفت عن تعاطيه منذ ثلاثة أيام لأنني شعرت بـ... بأنني منفصل. ذهب جلن وهارولد لجلب الجهاز اللاسلكي. فكرة عظيمة. ما فائدة الجهاز الذي يستقبل ويرسل إلا توصيلك بالآخرين؟ يمكنك أن تتحدثي إلى آخرين أو تستغيثي لو وقعت في مشكلة. تلك الأحلام أشبه بوجود لاسلكي من ذلك النوع في عقلك، إلا أنه يستقبل فقط ولا يُرسل.
- قالت فراني بهدوء: «ربما نحن نرسل أيضًا».
- نظر إليها مدهوشًا. جلسا صامتين مدةً، والشمس تغيب خلف السحب. تفهم فراني سبب عبادة البدائيين الشمس. في صمت وخواء الأرض حولهم، تصوير الشمس - وربما القمر أيضًا - أكبر وأعظم أهمية.
- قال ستو: «توقفتُ عن تناولها على أي حال. ليلة أمس حلمتُ بذلك الرجل مرة أخرى. كان أقطع كابوس رأيتُه فيه. كان جالسًا وسط الصحراء، ربما صحراء لاس فيجاس. وأعتقد أنه.. أنه يصلب الناس يا فراني.. مَنْ يتسببون له في مشكلات».
- ماذا يفعل؟!
- هذا ما رأيتُه. صفوف صلبان على امتداد الطريق السريع رقم 15، مصنوعة من أعمدة أسقف الحظائر وأبراج الهاتف، والناس معلقة عليها.
- إنه.. مجرد حلم...
- ربما.

دُخْنُ آخر سيجارته وهو ينظر إلى السحاب المحمر، وقال: «لكن في الليلتين السابقتين لمقابلتنا أولئك المجرمين حلمتُ بها. كانت تجلس في كابينة شاحنة عتيقة واقفة عند منعطف الطريق السريع رقم 76. كنتُ واقفًا إلى جوار الشاحنة، أستاذ إلى إفريز نافذة الشاحنة وأتحدث معها كما أتحدث معك. قالت لي: «يجب أن تتحرك أسرع يا ستورات. لو أن امرأة مسنة مثلي تستطيع، فضخم قوي مثلك يستطيع».

ضحك ستو ورمى سيجارته ودعسها بعقب حذائه في شرود، كأنه لا يدرك ما يفعل، ثم لف ذراعه حول كتفي فراني. قالت: «إنهم ذاهبون إلى كلورادو». - نعم. أعتقد هذا.

- هل.. حلمتُ داينا أو سوزان بشيء كهذا؟

- كلتاهما. حلمتُ سوزان أمس بالصلبان كما حملت.

- مع تلك المرأة كثيرون الآن.

- عشرون، وربما أكثر. نحن نمرُّ بأشخاصٍ يوميًا تقريبًا، كلهم مختبئين، خائفين منا، لكنهم سيذهبون إليها في الوقت المناسب.. أو سيذهبون إليه. فراني، لماذا توقفتِ عن تناول الأقراص؟

زفرتُ زفرةً مرتعشةً، وتساءلت أكان عليها أن تخبره. إنها تريد ذلك، لكنها تخشى رد فعله. قالت أخيرًا: «لا تعوّل على ما تفعله النساء».

- لكنّ ثمة طريق نعرف بها فيم يفكرن.

- لكن...

قاطعها بقبلة على شفيتها.

رقدًا على العشب تحت آخر ضوء للشمس. تحول لون السماء الأحمر المكفهر إلى لون بنفسي أكثر برودة فيما يمارسان الحب. فراني ترى النجوم الآن، تتلألأ وراء السحب. سيكون الجو ملائمًا للركوب غدًا، ولو واتاهم الحظ فسيقطعون أغلب الطريق خلال إنديانا.

ضرب ستو بخفة بعوضة تحوم على صدره. قميصه معلق على شجيرة قريبة، وقميص فران غير مُزَرَّر، وصدرها بارز من تحت النسيج. قالت لنفسها إنها تزداد وزنًا، لكن لا يلاحظ أحد هذا.. بعد.

قال ستو وهو لا ينظر إليها مباشرة: «لطالما رغبتُ فيكِ. أعتقد أنك تعرفين هذا».

- أردتُ فقط تفادي المشكلات مع هارولد. شيء آخر أود أن...
- لهارولد مساوئه، لكن تحت ذلك رجل صالح لو اخشوشن. أنت تحبينه، أليس كذلك؟
- هذا ليست الكلمة المناسبة، وليس في الإنجليزية كلمة تصف ما أشعر به تجاهه.
- وبمَ تشعرين تجاهي؟
- نظرتُ إليه ولم تستطع أن تقول إنها تحبه، رغم أنها ودتُ لو تعترف له. قال كأنما صمتها ضايقه: «أنا فقط أريد توضيح الأمور. أنت لا تريدين أن يعرف هارولد شيئاً عن هذا أليس كذلك؟».
- أجابت شاكرة: «نعم».
- لا بأس، لو أخفينا الأمر قليلاً ربما تزول المشكلات من تلقاء نفسها. رأيته يحدق إلى باتي. تبدو في مثل عمره.
- لا أعرف.
- أنت تشعرين أنكِ مدينةٌ له، أليس كذلك؟
- أعتقد هذا. لم يتبقَّ سوانا في أوجونكويت، و...
- هذا حظ لا أكثر يا فراني. لا تدعي أحداً يداينك بشيء هو محض حظ.
- أفترض هذا.
- أعتقد أنني أحبك. التصريح بهذا ليس سهلاً عليّ.
- أعتقد أنني أحبك أيضاً، لكن أريد أن أخبركِ بشيء...
- أعرفه.
- عبثتُ فراني في أزرار قميصها وهي تقول بطريقة جافة: «سألتني عن سبب عدم تناولي الأقراص. أعتقد أنها قد تؤذي الطفل...».
- أمسك وجهها وأدراه نحوه هاتفاً: «تؤذي.. مَنْ؟ أنتِ حامل؟».
- أومأت.
- ولم تخبري أحداً؟

- لا.

- هل يعرف هارولد؟

- لا يعرف أحد إلا أنت.

- يا إلهي!

حذق إلى وجهها بطريقة أفزعته. تخيلتُ أحدَ الأمرين؛ أنه سيتخلى عنها على الفور (كما لو كان جيس ليفعل لو كانت حبلى من رجل آخر)، أو أنه سيعانقها ويطلب منها ألا تقلق، وأنه سيعتني بكل شيء. لم تتوقع هذه النظرة الواجمة. وجدتُ نفسها تسترجع يومَ أخبرت أبيها في الحديقة. نظرتَه كانت شبيهة بتلك النظرة. تمنّت لو أنها صارحتُ ستو قبل أن يتضاجعا. ربما لم يكونا ليفعلا من الأساس، وما كان ليشعر أنها استغلته أو تلاعبت به، وأنها.. ماذا يسمونها؟ بضاعة تالفة؟ هل يفكر بهذه الطريقة؟ سألتَه بصوت مرتجف: «ستو؟».

كرر: «لم تخبري أي أحد؟».

انهمرت الدموع على خديها.

- متى موعد الولادة؟

قالت من بين دموعها: «يناير».

عانقها، فعرفت أن كل شيء سيكون على ما يرام دون أن يقول شيئاً. مارس الحب معها مرة أخرى، وظننت أنها لن تشعر بسعادة أكثر مما تشعر به الآن.

لم يرَ أيهما هارولد وهو واقف خلف الأجمة، فارغاً صامتاً مثل الرجل الغامض نفسه، يراقبها وسط الظلال. لم يعرف أيهما أنه ضيق عينيه حتى صارا شقين ميتين فيما تصرخ فراني من النشوة.

عندما انتهيا، كان الظلام قد حل.

وابتعد هارولد بهدوء.

1 أغسطس 1990.

لم أكتب ليلة أمس. كنت سعيدة متحمسة للغاية. أنا وستو صرنا معًا. اتفقنا على إخفاء السر قدر استطاعتنا، على أمل أن نستقر أولاً. سأذهب معه إلى أي مكان حتى إلى جبال القمر. هل أبدو كمراهقة بلهاء؟ إن لم تستطع المرأة أن تبدو كمراهقة في يومياتها، فأين؟

لكني أريد أن أضيف شيئاً أخيراً قبل أن أغلق موضوع صغيري الوحيد. شيئاً له علاقة بغزيرتي الأمومية. هل من شيء كهذا؟ في الغالب الموضوع هرموني. أشعر بغيرة قوية (الغيرة ليست الكلمة الدقيقة لوصف ما أشعر به، لكنني سأستخدمها مؤقتاً).. شعور بأنني تحركت قليلاً نحو مركز الكون وعليّ أن أحافظ على هذا المكان. لذا المهدئ أكبر خطراً من الكوابيس، رغم أن عقلي يعرف أنه لن يؤذي الطفل بتلك الجرعة المخففة. أعتقد أن هذا الشعور جزء من حبي لستور ريدهان. أنا أحب لاثنين كما أكل لاثنين.

بيد أنني في حاجة إلى النوم بصرف النظر عما سأحلم به. لم نقطع إنديانا بالسرعة التي أملنا فيها؛ في الطريق عراقيل كثيرة وتكدسات لا نهاية لها. أغلب السيارات سيارات جيش فيها جنود موتى. جمع جِلن وسوزان وجينا وستو ما استطاعوا من سلاح؛ دستتي بنادق، بعض القنابل.. اسمعوا هذا: قاذف صواريخ، مع سبعة عشر أو ثمانية عشر صاروخاً. أتمنى من الرب ألا يفجروا بها أنفسهم.

بالحديث عن هارولد يا يومياتي، فهو لا يشك في أي شيء. عندما نلحق بجماعة الأم أباجيل سنخبره، فليس عدلاً أن نخفي عليه أكثر من هذا. لكنه اليوم كان ألطف وأكثر سعادة من أي يوم رأيته فيه. ابتسم كثيراً حتى ظننت وجهه سيتشقق! هو الذي طلب مساعدة ستو مع قاذف الصواريخ الخطر هذا، و...

ها قد عادوا. سأكمل لاحقاً.

نامت فراني بعمق ودون أحلام. وكذا فعل الجميع عدا هارولد لودر. قام بعد منتصف الليل بقليل، ومشى إلى حيث تنام فراني، وظل يحدق إليها. لم

يكنُ يبتسم رغم أنه ظل مبتسمًا طوال اليوم، حتى شعر أن الابتسامة ستمزق وجهه. ربما لو حدث هذا لارتاح.

وقف ينظر إليها ويسمع صرير الجنادب. نحن في أيام الكلب الآن. أيام الكلب تمتد من الخامس والعشرين من يوليو إلى الثامن والعشرين من أغسطس، وسُمِّيتَ بذلك لشيوع الكلاب المسعورة فيها كما يزعمون.

نظر إلى فران النائمة بعمق، تتوسّد سترتها المطوية وحقيبتها إلى جوارها. لكل كلب يومه يا فراني.

ركع إلى جوارها، فتح حقيبتها وأضاء محتوياتها بمصباح يدوي. همهمّت فراني وتلمّلت، فحبس أنفاسه. وجد ما كان يبحث عنه في قاع الحقيبة خلف بلوزاتها النظيفة وكتاب الخرائط. دفترًا ذا سلك لولبي. فتحه على أول صفحة وأضاء الكشاف على أكثر أسرار فراني حميمة.

6 يوليو... وافق السيد بيتمان أخيرًا على...

أغلق هارولد الدفتر وأخذه وتسلسل عائداً إلى فراشه. شعر كأنما عاد صبيًا بلا أصدقاء تقريبًا (استمتع بثلاث سنوات من الجمال الطفولي، حتى سمن وصار أضحوكةً من يومها)، لكن بأعداء كثيرين. عاد الصبي الذي لم يشعر أبواه بوجوده أو عدمه، وصبا تركيزهما على أمي أخته. عاد الصبي الذي دفن وحدته في الكتب، والذي لم يختزّه أحد للانضمام إلى فريق البيسبول. الصبي الذي قام وسط النائمين ليتلصص على خصوصياتهم، ثم انضمّ إليه تحت الأغطية مع دفتر فراني.

مع قراءة أول الصفحات أهاب به عقله أن يتوقف. كاد يتوقف فعلاً. للحظة ظنّ أن في وسعه التوقف وإعادة الدفتر إلى حيث سرقه، والتخلي عنها لتعيش مع مَنْ اختارت قبل أن يحدث شيئاً آخر مدمراً. ظلّ ذلك الصوت يهيب به أن يتخلى عن الأمر، لكنّ ربما فات الأوان.

في عمر السادسة عشرة، هجر روايات بوروز وستيفنسون وروبرت هوارد، من أجل خيالات يحبها أكثر.. ويمقتها أكثر. خيالات عن فتيات في ملابس حريرية شفافة، يركعن أمامه على وسائل مخملية، فيما هارولد العظيم عارٍ فوق عرشه، مستعد لجلداهم بأسواط جلدية، وبعصى فضية. ثمة خيالات أكثر مرارة، عن فتاة المدرسة العليا في أوجونكويت. تنتهي هذه الخيالات الأخيرة بنشوة جنسية هي لعنة أكثر منها متعة. ثم ينام بعدها والمّني يجف على بطنه.

لكل كلب يومه.

ثم تراوده الخيالات الحالية، تحيطه فيها آلامه القديمة كملاءات مصفرة؛
أصدقاءه القدامى الذين لن يموتوا ولن تقلّ حدة أسنانهم، ولن ينتهي تأثيرهم
المدمر.

عاد إلى تلك الصفحة الأولى، وأنارها بكشافه، وبدأ يقرأ.

في الساعة السابقة للفجر أعاد الدفتر إلى حقيبة فراني وأغلقها. لم يتخذ
احترازا خاصة. لو استيقظت فسيقتلها ويفرّ. يفر إلى أين؟ غربًا. لكنه لن
يتوقف في نبراسكا ولا كلورادو.

ولم تستيقظ.

عاد إلى كيس النوم واستمنى في مرارة، ثم نام نومًا خفيفًا. حلم أنه يموت
في حفرة بين مرتفعات صخرية. بالأعلى تحوم الصقور، تنتظر أن تجعل منه
وجبة لها. لم يكن من قمر ولا نجوم...

ثم انفتحت عين حمراء في العتمة. خبيثة، مخيفة. أرعبته العين وجمّده
في مكانه.

لقد أغوته العين.

في الغرب، تتجمع الظلال الآن، ترقص رقصة المغيب المميّة.

خيموا بعد مغيب ذلك اليوم غرب چوليت، إلينوي. شربوا البيرة وتحدثوا
وضحكوا. تركوا المطر خلفهم في إنديانا، وعلق الجميع على بهجة هارولد.
قالت فراني بعدما تفرق الجمع: «أتعرف يا هارولد؟ لا أظنني رأيتك بهذا
الحبور من قبل. ما الأمر؟».

غمز لها غمزة لعوبًا وقال: «لكل كلب يومه يا فران».

ابتسمت له في حيرة، لكنّ هذا لا يهم. المهم أن الأمور بدأت تتحسن فعلاً.

في الليل، بدأ هارولد في كتابة يومياته.

الفصل الثامن والأربعون

مشى يترنَّح نحو سيبولا، إحدى المدن السبع⁽¹⁾، المدينة الموعودة، والشمس تشوي بطنه وتخبز مخه. يشعر الطريق بين الولايات بحرارة عظيمة. كان اسمه دونالد ميروين إلبيرت في الماضي، واسمه الآن وإلى الأبد صفيحة الرُّبالة.

منذ متى وهو يرحل غرباً؟ كم مرَّ منذ موضوع الطفل؟ الرب وحده يعلم، لكنَّ صفيحة الرُّبالة لا يعرف. مرَّت أيام وليالٍ. نعم، إنه يتذكر الليالي. وقف يتمايل في أسماله، ينظر نحو سيبولا، المدينة الموعودة، مدينة الأحلام، إحدى المدن السبع. لقد صار خطأً. الرسغ الذي كسره وهو يفر من الحريق الذي أضرمه ملفوف في ضمادةٍ قذرة، كأصابع تلك اليد مشدودة إلى أعلى بشكل ما كأنها تحوَّلت إلى مِخْلَب. ذراعه اليسرى المحترقة تُشفى ببطء. لم تعد رائحته نتنة، لكنَّ الجلد الجديد نما وردياً وبلا شعر كجلد دمية رخيصة. وجهه المبتسم المجنون محترق متقشر من الشمس. لحيته مغطاة بقشور سحجات أصيب بها بعدما غادر إطار دراجته مكانه فأسقطه. كان يرتدي قميصَ عمل أزرق، مبقعاً بدوائر العرق، وسروالاً متسخاً. حقيبته -التي كانت جديدة منذ وقت قريب- صارت تُشبهه، فانقطع ذراعها فربطها الرجل كيفما اتفق، وعلقها على كتفه فتدلت كما يتدلى خِصاص بيت عتيق مسكون. الحقيبة مُترَّبة، تملأ رمال الصحراء طيَّاتها. ينتعل حذاءً خفيفاً مربوطاً إلى بعضه بخيط صوفي.

(1) مدن الذهب السبع، أسطورة من أساطير الإزتك، وهي مدن كلها ذهب، آمن بالأسطورة عدد كبير من المستكشفين في القرن السادس عشر (المترجمة)

حدق إلى المدينة البعيدة الممتدة أمامه، ثم أدار وجهه نحو السماء الوحشية الرمادية، وإلى الشمس الحارقة. صرخ صرخة انتصارٍ همجية، شبيهة بتلك التي أطلقها سوزان ستيرن عندما هشمت رأس الرجل بعقب بندقيته.

بدأ رقصة نصر عجيبة على الطريق رقم 15 بين الولايات، فيما الريح الحارة تبعثر الرمال على الطريق، وقمم جبال باراناغات وسلسلة الجبال الرقطاء تنشب أنيابها في السماء كما كانت تفعل منذ بدء الزمن. على الجهة الأخرى من الطريق سيارة لينكولن كونتيننتال، وأخرى فورد ثدريرد مغطّاتان بالرمال تقريبًا، وراكباها محنطان خلف نوافذها. أمام صفيحة الزبالة سيارة مقلوبة، كلها مغطاة بالرمال عدا الإطارات.

رقص على قدمين مندستين في حذاء خفيف ملفوف بالخيط، وقرع الطريق السريع بعقبه في رقص الثمالي هذا. رفر طرف قميصه في الهواء، وضربت زمزميته ظهره بلا توقف، وتطاير طرف ضمادته المتسخة في الهواء الساخن، ونفرت العروق على صدغيه.

لقد كان في مقلاة الرب الحارة تلك منذ أسبوع تقريبًا يتحرك إلى الجنوب الغربي خلال يوتاه، ثم حدود أريزونا وصولًا إلى نيكادا.

بينما يرقص، غنى بإيقاع مكسور الكلمات ذاتها مرارًا على موسيقى أغنية كانت شهيرة وقت أن كان في الإصلاحية، اسمها «إلى المرقص»، غنتها فرقة الزنوج تاور باور. لكن الكلمات كانت كلماته هو...

«سي - أ - بولا⁽¹⁾، سي - أ - بولا.. الوعة، الوعة، الوعة!»، ومع كل غممة وعرة يقفز قفزة، حتى جعلت الحرارة كل شيء رخوًا رطبًا، وتحولت السماء إلى لون الشفق الرمادي، فانهار على الطريق شبه فاقد الوعي. بما تبقى له من قوة، زحف نحو السيارة المقلوبة ورقد في ظلها المتلاشي، يرتجف ويلهث. ظل يكرر كلماته العجيبة.

أنزل زمزميته من فوق كتفه بيده المخلبية، وهزها فوجدها خالية تقريبًا. لا يهم. سيشرب ما تبقى منها ثم يرقد هنا حتى تغيب الشمس، ثم سيسير على الطريق السريع حتى يصل إلى سيبولا، المدينة العظيمة، واحدة في

المليون. اليوم سيشرب من الينابيع الذهبية الأبدية، لكن ليس قبل غروب تلك الشمس القاتلة.

منذ زمن طويل أحرق صبيٌ يدعى دونالد ميروين إلبرت نُزِلَ سيدة مسنة، والصبي ذاته أضرم النار في الكنيسة المنهجية في بوتانفيل، ولو ظل شيء من غلاف دونالد ميروين إلبرت الفارغ، فقد احترق وهو يُفجّر حاويات الوقود في بلدة جاري، إنديانا.

لقد أشعل أكثر من تسع دسات حرائق، وبدا له الأمر أقرب إلى انفجار الصواريخ الاحتفالية في الرابع من يوليو. في غمار الحريق الجائح، تُرك صفيحة الزبالاة لتغلي ذراعه اليسرى كالحساء، وتلتهم النار نفسه فلا تخدم أبداً.. على الأقل حتى يتفحم جسده.

والليلة سيشرب من ماء سيبولا، نعم، وسيكون طعمه كالخمر. ابتلع آخر الماء المتبقي معه، ثم رمى الزمزمة في الصحراء. نبت العرق على جبينه كالندى، فرقد يرتجف وقد أصابته تقلصات من شرب الماء السريع. غمغم: «سيبولا! سيبولا! أنا آتٍ! سأفعل ما تريد! حياتي لك! الوعرة الوعرة الوعرة!».

غلبه الدُّوار بعدما روى عطشه. انجرف إلى النوم فيما فكرة متطرفة تنزلق على أرضية عقله كأنها نصل حذاء تزلج.

ماذا لو أن سيبولا سراب؟

غمغم: «لا. لا، أوه، لا...».

لم يبعد الإنكار تلك الفكرة. انزلق النصل وشق عقله، فأبعد النوم. ماذا لو شرب آخر ماء معه احتفالاً بسراب؟ بطريقته الخاصة أدرك أنه مجنون، وهو ما يفعله أغلب المجانين. لو كانت سيبولا سراب لمات في الصحراء والنهمته الصقور.

في النهاية لم يتحمل وطأة الفكرة الجنونية، فتحامل على نفسه وسار إلى الطريق، يحارب موجات الدُّوار والغثيان التي تحاول أن تطيح به. عند قمة التل، حلق في قلق إلى المسافة المنبسطة الجرداء أمامه، لا شيء فيها إلا صبار اليُكَّة والحشائش المُتدرجة، ونبته وشاح الشيطان. توقف الزفير في حلقة متحولاً إلى زفرة مختنقة.

إنها هناك!

سيبولا، العظيمة العتيقة التي بحث عنها الكثيرون ولم يعثر عليها إلا
صفحة الزُبالَة!

في عمق الصحراء هي، محاطة بالجبال الزُّرق، بل إنها زرقاء تحت ضباب
المسافة، تلمع أبراجها وشوارعها وسط الصحراء. يرى فيها نخيلاً.. وحركة...
وماءً!

عوى وهو يتراجع إلى ظل السيارة: «آه يا سيبولا...». عرف أنها أبعد مما
تبدو. الليلة وبعد أن ينطفئ مشعل الرب في السماء، سيمشي كما لم يمش
من قبل، وعندما يصل سيدسُ رأسه في أول يَنبوع يراه. ثم سيجده.. الرجل
الذي أمره بالمجيء إلى هنا. الرجل الذي جرَّه خلال الصحاري والجبال إلى
الصحراء في غضون شهر، ورغم ذراعه المحترقة.

إنه هو الذي هو؛ الرجل الغامض، صعب المراس الذي ينتظره في سيبولا،
ومعه جيش الليل، وفرسان الموت ذوو الوجوه البيضاء الذين سيكتسحون الغرب
وصولاً إلى مشارق الشمس. سيجتاحون الأرض مكشرين مكفهرين يفوحون
برائحة العرق والبارود. سيصرخ الناس -ولا يهتم صفيحة الزُبالَة كثيراً بالصراخ-
وسيُغتصبون ويُستعبَدون -ولا يهتم صفيحة الزُبالَة بهذا أيضاً- وسيُقتلون و...
وسيُضرم الحريق الأعظم.

هذا هو أكثر ما يهتم به. جاء الغامض في أحلامه وفرد إليه ذراعيه من
مكان مرتفع، وأظهر له مدناً تلتهمها النار، وبلداً تُفجَّر، وحقولاً تحاط
باللهب. حتى أنهار شيكاغو وبيتسبرج وديترويت وبرمنجهام ستتأجج
بنيران النُّفط الطافي على سطحها.

جذبه الرجل الغامض بوعده واحد، فجاءه ساعياً: سأرفعك إلى مكان علي
في جيشي. أنت الرجل الذي أريد.

تدحرج إلى جانبه، جفناه وخداه ملتهبان من الريح المحملة بالرمال. كان
يفقد الأمل تدريجياً منذ انفكَّ إطار دراجته. لا بدُّ أن إله كارلي يتس أقوى من
الرجل الغامض على أي حال. لقد احتفظ بإيمانه وحافظ عليه، وفي النهاية
وبعدما ظن أنه سيموت في الصحراء قبل أن يصل إلى سيبولا، إحدى المدن
السبع، حيث ينتظره الغامض، رآها بعيدة تحلم تحت الشمس.

همس: «سيبولا..» ثم نام.



رأى أول حلم وهو في جاري منذ شهر تقريباً، وبعدما أحرق ذراعه. نام في ليلة وهو متأكد أنه لن يستيقظ؛ لا يمكن أن يعيش من أصيب بكل تلك الحروق. ترددت عبارة في عقله طوال الوقت: لو عشت إلى جوار النار ستموت بها. من يعيش لشيء يموت به.

تعب من المشي فانهار في متنزه البلدة، وتمدد على الأرض مبعداً ذراعه عن جسده كأنها شيء ميت. الألم مفزع غير مُحتمَل...

انتقل سريعاً في حبور من مجموعة خزانات وقود إلى أخرى ليثبت مؤقتات التفجير المصنوعة من ماسورة معدنية وخليط شمع برفاين قابل للاشتعال، يفصله ساتر معدني رقيق عن القليل من الحمض. المفترض أن يضع أحد تلك المؤقتات داخل ماسورة أعلى أحد الخزانات الممتلئة. سرعان ما سيأكل الحمض الفاصل بينه وبين البرافين فيشتعل وينفجر الخزان. كان قد خطط للفرار إلى غرب جاري قبل انفجار الخزانات؛ أراد أن يشاهدها إذ تنفجر وتنفجر البلدة القذرة.

لكنه أساء تصميم المفجر الأخير، فانفجر قبل أن يفتح غطاء ماسورة الخزان. تدفق البرافين المشتعل من فوهة ماسورة المؤقت فغلف ذراعه بقفاز من لهب. هزّ ذراعه كأنه يحاول إطفاء عود ثقاب هائل، فلم يفلح شيء في إخماد هذا العذاب.

صرخ ودار حول الخزانات ككرة لهب بشرية. لولا السور لهوى كشهاب. لم ينقذه سوى تعثره وسقوطه فوق ذراعه فانطفأ الحريق.

لاحقاً فكر في أن الحظ فقط -أو الرجل الغامض- قد أنقذه من الموت. لم يصبه أغلب البرافين، فشعر بالامتنان لهذا، لكنه لم يشعر به إلا لاحقاً.

لم يفعل شيئاً وقتها سوى البكاء وإبعاد ذراعه المشوية عن جسده.

بينما الشمس تغيب، خطر له أنه زرع أكثر من ستة مؤقتات، وربما تنفجر في أي وقت. الموت والراحة من العذاب سيكون رائعا، لكن الموت محترقاً أمر آخر.

نزل بطريقة ما من فوق الخزانات، وترنح مبتعداً بين السيارات المتكدسة على الطريق مُبعداً ذراعه عن جسده.

بوصوله إلى متنزه صغير في منتصف البلدة كان الغروب قد حلّ. جلس على العشب وحاول أن يتذكر ما يفعلونه لعلاج الحروق. سيضع عليها زبداً

كما كانت أم دونالد ميروين إلبيرت. لكن قد يفلح هذا مع اللسعات البسيطة. لا يمكن أن يضع زبداً على ذراع متفحمة من الكتف حتى الكوع، ولا يتخيل لمسها حتى.

سيقتل نفسه. هذا هو الحل. سيقتل نفسه ويرتاح من عذابه...

دوى انفجار عظيم من شرق البلدة، كأن نسيج الكون نفسه قد تمزق. زمّ عينيه ليتفادى الوهج. أسعده المنظر حتى وسط ألمه.. بل أشبعه أيضاً. النار أفضل دواء، أفضل من المورفين الذي وجد بعض أقراصه في الصباح التالي. لم يربط ما حدث له بالحريق، كل ما عرفه وقتها أن النار عظيمة، وأن النار جميلة، وأن النار هو كل ما يحتاج إليه. النار رائعة!

بعد لحظات انفجر خزان آخر، فشعر بحرارة الانفجار حتى وهو على هذه المسافة منه. تلا ذلك انفجار ستة حتى غدا الوهج لا يُحتمل، لكنه ظل ينظر ويبتسم، تنعكس على عينيه صورة النيران البرتقالية. لا عجب أن ألمه قد زال، واختفت فكرة الانتحار.

احتقرت الخزانات كلها خلال ساعتين، وكان الظلام قد حلّ وقتها، وتحول الليل إلى اللون الأصفر والبرتقالي المحموم. ذكره المنظر بمعالجة رواية «حرب العوالم» الخاصة بالأطفال، والرسوم بداخلها.

لقد زال الصبي الذي كان يمتلك الرواية، لكنّ رجل صفيحة الزباله موجود، وصفيحة الزباله يمتلك قوة أشعة الموت المريخية.

آن أوان مغادرة المتنزه. لقد زادت درجة الحرارة عشر درجات. عليه أن يتجه إلى الغرب ويبتعد عن النار كما فعل في بوتانقيل، ويوسع دائرة التخريب. لكنه ليس في حالة تسمح بالإسراع. لذا نام على العشب.

رأى في حلمة الرجل الغامض في رداءه المُقلّنس. وجهه مخفياً.. على ذلك ظنّ رجل صفيحة الزباله أنه رآه من قبل. كان في الحانات ومتاجر الحلوى التي تسكّع فيها في بوتانقيل. عندما تهترئ يده داخل القفاز وتبيض أظفاره وهو يغسل السيارات في مغسلة سكوبا - دوبا، كان يرى الرجل في تجاعيد كفه، وخلف فقاعات الصابون على واجهات السيارات. عندما أرسله الشريف إلى المصحّة، كان يقف عند رأس سريره هو يتلقى علاجه بالصدمات الكهربائية، ويداه على أزرار الجهاز.. (سأشوي مخك يا ولد، سأساعدك على الانتقال من دونالد ميروين إلبيرت إلى رجل صفيحة الزباله).. ويستعد لصعقه بألاف

القوليات. إنه يعرف هذا الرجل جيداً، إنه الوجه الذي لا تستطيع رؤيته أبداً، هو العينان خلف النيران، هو الابتسامة المعلقة فوق مقبرة العالم.
قال شاكرًا في حلمه: «سأفعل ما تأمر به. حياتي ملكك!».

رفع الرجل الغامض ذراعيه فحوَّزَ رداءه إلى ما يشبه هيئة الطائرة الورقية. وقف فوق ذلك المرتفع، وتحتة أمريكا تحترق.
سأرفعك إلى مكان عليّ في جيشي. أنت الرجل الذي أريده.

ثم رأى جيشًا مكونًا من عشرات الآلاف من الرجال والنساء الفوضويين الخشنيين، يقطعون الصحراء متجهين نحو الجبال. جيش وحوش آن أوان ظهورهم، تحملهم السيارات والشاحنات والدراجات والدبابات، يحمل كل واحد منهم حجرًا أسودَ معلقًا من عنقه، وفي عمق ذلك الحجر عين حمراء منيرة، أو ربما شكل مفتاح. وجد نفسه على رأس مجموعة منهم، يقف فوق شاحنة نقل خزانات عملاقة محملة بالنابلم السائل، وخلفه شاحنات أخرى تحمل قنابلَ وألغامَ ومتفجرات باليستية وأسلحة وقاذفات صواريخ. رقصة الموت على وشك البدء، وصوت أوتار الجيتارات التي تطلق الدخان تصم الآذان.

أنزل الرجل الغامض ذراعيه، فعاد كل شيء إلى صمته وسكونه وبرودته. اختفت النيران وبرد الرماد، وللحظات عادة دونالد ميروين إليبرت، الصغير الخائف الحائر. وقتها فكر في أنه ليس إلا قطعةً من قطع شطرنج الرجل الغامض اللانهائية، وأنه قد خُدِعَ.

رأى أن وجه الغامض لم يعد مخفيًا بالكامل، وظهر منه عينان متقدتان، وأنف مستقيم كنصل سكين.

قال صفيحة الزُبالة في حلمه: «سأفعل ما تأمر به. حياتي ملك لك! روجي ملك لك!».

قال الرجل الغامض في حزن: «مصيرك النار، فتعالِ إلى مدينتي سأوضح لك كل شيء».

سأل في لوعة: «أين؟ أين؟».

أجاب الغامض وهو يختفي تدريجيًا: «في الغرب. في الغرب خلف الجبال».

استيقظ وقتها فوجد الليل متألّقاً بعد باللهب الذي اقترب أكثر، فراحت البيوت تنفجر وتزيد درجة الحرارة. اختفت النجوم خلف سحابة دخان كثيفة، وأمطرت السماء سخامًا.

وجد في نفسه قوةً ليتحرك بعدما صار له هدف وغاية. غادر البلدة إلى الغرب وهو ينظر من وقت إلى آخر خلفه، ليرى الناس يفرون. أغبياء. ستحترقون على أي حال، وكل في أوانه. لم يلاحظوا وجوده؛ إنه ليس إلا ناجيًا آخر.

في وقت لاحق بعد الفجر، انطلق رجل صفيحة الزُبالة خلال خط ولاية إلينوي. شيكاغو عند الشمال، وچوليت عند الجنوب الغربي، والدخان يتراجع إلى ما وراء خط الأفق.

كان هذا في بداية يوم الثاني من يوليو.

نسي حلمه بإحراق شيكاغو وتسويتها بالأرض.. تراجعت كل أحلامه بخصوص الحرائق أمام هدفه الجديد. اقتحم عيادة طبيب وسرق أقراص مورفين مسكنة. سَكَّن العقارُ الألمَ قليلًا، وكعَرَض جانبي؛ جعله لا يعبأ بالألم الذي يشعر به فعلًا.

أخذ برطمان قازلين كبير من متجر الأدوية في تلك الليلة، وغطى حرق زراعه بطبقة منه سُمكها بوصة. كان ظمآنًا وشعر أنه يريد أن يشرب طوال الوقت. أُرِثت خيالاته عن الرجل الغامض في عقله كفراشات نار. عندما انهار ونام، بدأ يفكر في أن المدينة التي يريده الرجل أن يذهب إليها هي مدينة سيبولا، المدينة الموعودة.

في تلك الليلة زار أحلامه مرة أخرى، وأكّد له أنها هي المدينة المقصودة وهو يضحك ضحكة تهكمية.

استيقظ رجلُ صفيحة الزُبالة من تلك الأحلام المختلطة بالذكريات وسط برد الصحراء المُرجِف. في الصحراء إما الثلج وإما النار، لا وجود لدرجة حرارة وسطى.

أنَّ قليلًا وهو يقوم محاولًا تمالك نفسه قدر استطاعته. فوقه مليارات النجوم تتألق، بدت قريبة بما يكفي ليمد يده ويلمسها، قريبة لتضيء الصحراء بضوءها السحري الخاص.

مشى إلى الطريق، يجفل من ألم جلده الملتهب، ومن جروحه وحرقه وشدة عضلاته. توقّف لحظةً ينظر إلى المدينة الحاملة ليلًا (رأى وميضًا متناثرًا هنا وهناك كأنها نيران معسكرات متفرقة)، ثم بدأ يمشي إليها.

عندما بدأ الفجر يُلوّن السماء بعد ساعات، بدت سييولا على المسافة نفسها منه وقت بدأ مشيه. لقد شرب بغبائه كل الماء معه، نسي كم يبدو كل شيء في الصحراء كبيرًا قريبًا. لن يجرؤ على المشي في النهار خشيةً الجفاف. سيُضطرُّ إلى الاحتماء مرة أخرى قبل أن تشرق الشمس بكل عنفوانها.

بعد ساعة من الفجر صادف سيارةً مرسيدس على الطريق، جانبها الأيمن مدفون في الرمال حتى مقابض الأبواب. فتح باب السائق من الجهة اليسرى وجذب الراكبين المجمعدين الشبيهين بالقردة إلى الخارج (امرأة مسنة ترتدي جواهر كثيرة، ورجلاً مُسنًا بشعر أبيض). أخذ مفتاح السيارة وفتح صندوقها، فأخرج من حقائبهما ملابس غطى بها نوافذ السيارة، وثبّتتها بأحجار كي لا تطير، فحصل على كهفه البارد المظلم.

نام بالداخل، وعلى بُعد أميال إلى الغرب، تلمع لاس فيجاس بنور شمس الصيف.

إنه لا يعرف كيفية قيادة سيارة، ولم يعلموه هذا في الإصلاحية، لكنه يستطيع ركوب الدراجات. في يوم الرابع من يوليو، يوم اكتشاف لاري أندروود انتحار ريتا بلاكمور في أثناء نومه، استولى صفيحة الزبالاة على دراجة بعشر سرعات وانطلق بها. كانت تُقدّمه في البداية بطيئًا، فذراعه اليسرى لا يسعفه. سقط عن الدراجة مرتين اليوم، مرة منهما على ذراعه، فتسببت له السقطة في ألم مُعذّب. نفذت حرارة الشمس من طبقة القازلين، ففاحت رائحة بشعة. انجرف عقله من وقت إلى آخر نحو التفكير في الغنغرينا، لكنه لم يسمح له بالانجراف كثيرًا. بدأ يخلط القازلين بالكريم المسكّن، وهو لا يعرف أكان هذا الخليط سيفلح، لكنه شعر أنه لن يضر. جاء الخليط حليبيًا لزجًا كالمُنّي.

اعتاد تدريجيًا التحكم في الدراجة بيد واحدة، فأسرع قليلًا خاصة مع انبساط الطريق وسهولة الحركة فوقه. أرغم نفسه على القيادة رغم الألم والدوار الذي تسبب له فيه تعاطي أقراص المورفين. شرب جالونات ماء،

وأكل بشرائه، وظل يتذكر وعد الرجل الغامض؛ سَأَرَفَعَكَ إِلَى مَكَانٍ عَلِيٍّ، أَنْتَ الرجل الذي أريد. كم أن هذه الكلمات جميلة.. هل أرادَه أي أحد من قبل؟ تكررت العبارة في ذهنه وهو يقود تحت شمس الغرب الأوسط، وظل يردد كلمات أغنيته (سي - أ - بولا! الوعرة الوعرة الوعرة!)، وجاءت الأغنية في وقتها مجنونًا بالقدر نفسه الذي سيكون عليه قريبًا، لكنه كان في طريقه إلى هذا.

في يوم الثامن من يوليو، يوم رأى نك أندروز وتوم كولين الجاموسَ يرعى في مقاطعة كومانشي، عَبَرَ رجل صفيحة الزُّبالة ولاية مسيسبي، مارًا بمُدُن كواد، وروك آيلاند، وبيتندورف، ومولين، حتى وصل إلى إيوا.

في يوم الرابع عشر، يوم استيقظ لاري أندروُد قرب المنزل الأبيض الكبير شرق نيو هامبشير، عَبَرَ صفيحة الزُّبالة ولاية ميزوري، ودخل نبراسكا. بدأ يستخدم ذراعه اليسرى أكثر، وازدادت لياقة عضلات ساقه، فزادت سرعته.

في جهة ميزوري الغربية، شكَّ صفيحة الزُّبالة لأول مرة أن الرب نفسه قد يتدخل بينه وبين قدره. في نبراسكا شيء غريب. شيء غريب إلى درجة مخيفة. شيء أَرعبه. بدت له مثل إيوا.. بيد أنها لم تكن. زاره الرجل الغامض كل ليلة في أحلامه، لكنه توقف عن ذلك تمامًا حالما دخل نبراسكا، وبدأ صفيحة الزُّبالة يحلم بامرأة مسنة. رأى نفسه في تلك الأحلام مُكَبًّا على وجهه وسط حقل ذرة، يشله الخوف والكرهية. يسمع نعيق الغربان، ولا شيء أمامه إلا أعواد الذرة المتلاحمة ذات الأوراق الشبيهة بنصال السيوف. لم يرغب في أن يفعل ذلك، لكن لم تكن له سيطرة على يديه التي فرَّقَت الصفوف. رأى خلفها بيتًا قديمًا وسط فناء. البيت مرفوع على روافع أو شيء كهذا، وأمامه أرجوحة مصنوعة من إطار سيارة، معلقة من فرع شجرة تفاح. تجلس في شرفة المنزل الخارجية عجوز زنجية تعزف على الجيتار وتغني أغنية دينية قديمة. اختلفت الأغنية من حلم إلى آخر، وكان صفيحة الزُّبالة يعرفها كلها، لأنه كان يعرف امرأة تغني الأغاني ذاتها وهي تنظف المنزل. هذه المرأة هي أم دونالد ميروين إلبيرت.

تحوَّل الحلم إلى كابوس، لا لأن نهايته كانت مروعة فقط. في البداية قد لا ترى ما يخيف في الحلم. ذرة؟ سماء زرقاء؟ امرأة مسنة؟ أرجوحة؟ ما المخيف في تلك العناصر؟ المُسنات لا يقذفن الزوار بالأحجار، خاصة

المسندات اللاتي يغنين أغاني قديمة عن يسوع. كارلي يتس فقط هو من يقذف الناس بالحجارة.

لكن قبل أن ينتهي الحلم بكثير، شلَّه الخوف، لأنه لم يكن ينظر إلى امرأة مسنة عادية، بل إلى سر، نور ساطع مخفي يكاد ينفجر من حولها، فيصير ضوء انفجار خزانات الوقود في جاري مجرد ضوء شمعة مقارنة به. نور المرأة قد يعميه إلى الأبد. لم يفكر في أثناء هذا الجزء من الحلم إلا في عبارات: أوه، رجاء، أبعدني عنها، لا أريد أن أكون في أي مكان بالقرب منها. رجاء، رجاء رجاء، أخرجني من نبراسكا!

ثم تنقطع الأغنية التي تغنيها، وتنظر إلى حيث وقف يتلصص من بين أعواد الذرة. وجهها عتيق مجعد، شعرها خفيف ترى فروة رأسها البنية من تحته، إلا أن عينيها جوهرتان لامعتان، تُشعان بالنور الذي يهابه.

بصوت خشن قوي صاحت: ابن عرس في الحقل!

فينمسخ إلى ابن عرس بفراء بني، ويطول أنفه، وتتحول عيناه إلى خرزتين سوداوين، وأصابعه إلى مخلب. إنه ابن عرس، مخلوق ليلي جبان يتغذى على الضعيف والصغير.

فيصرخ حتى يستيقظ متعرقاً جاحظ العينين، يتحسس جسده بيديه ليتأكد من أنه ما زال بشرياً، ثم يمسك رأسه ليطمئن إلى أنه لم يتحول إلى وجه فرائي كرية.

قطع أميال نبراسكا الأربعمئة في ثلاثة أيام. كلما ابتعد أكثر خبا الحلم وبهت.

(استيقظت الأم أباجيل ليلة الخامس عشر من يوليو بعدما مر رجل صفيحة الزباله بشمال هيمنجفورد هوم، وشعرت برعدة قوية، وامتلات نفسها بالخوف والأسف. بالأسف على من لا تعرف، أو ما لا تعرف. ظنت أنها كانت تحلم بحفيدها أندريه الذي قُتل في حادث صيد عندما كان في السادسة).

في يوم الثامن عشر من يوليو، وصل إلى جنوب غرب كلورادو، على بعد أميال من برش. يومها قابل الطفل.

استيقظ صفيحة الزُّبالة وقت الشفق. مع الملابس التي علقها حول المرسيدس، شعر بحر شديد. حلقه بئر جافة خشنة. أخرج لسانه ولمسه بإصبعه، فكان كالغصن الجاف. أمسك مقود السيارة ليعتدل جالسًا، فسحب يده سريعًا وقد لسعتها الحرارة. اضطرَّ إلى لف طرف قميصه على المقبض كي يفتح الباب. ظن أنه سيترجل، لكنه بالغ في تقدير قوته، وقلل من شأن الجفاف الذي أصابه. خذلته قدماه وسقط على الطريق الحار. أنَّ وزحف نحو ظل السيارة سريعًا. جلس هناك ورأسه وذراعاها بين ركبتيه وراح يلهث. نظر في جزع إلى الجثتين اللتين أخرجهما من السيارة.

لا بُدَّ أن يصل إلى سييولا قبل شروق شمسٍ غدٍ. لو لم يفعل لمات على مرمى البصر من هدفه! لا يمكن أن يكون الغامض بهذه القسوة. لا يمكن! همس صفيحة الزُّبالة: «حياتي ملك لك...»، وحين غابت الشمس وراء الجبال، وقف وبدأ يمشي نحو أبراج ومنازل وشوارع سييولا، حيث تلمع بقع الضوء هنا وهناك.

تحولت رمضاء النهار إلى برودة الليل، فوجد نفسه قادرًا على المشي أسرع. جرَّ حذاءه المهترئ على الطريق 15 - I، ورأسه مُدلى كزهرة ذابلة. لم يرَ اللافتة الخضراء المشعَّة المكتوب عليها: لاس فيجاس 30.

كان يفكر في الطفل. المفترض أن يكون معه الآن، وأن يتجها إلى سييولا معًا راكبين سيارة الطفل من طراز ديوس كوبيه، والعاظم ينطلق من ورائهما ليلوث الصحراء. لكن تبين له أن الطفل غير جدير بالثقة، فكان نصيب صفيحة الزُّبالة أن ينطلق في البرية وحده.

مع كل خطوة يُردد الكلمة المقسومة: سي - أ - بولا!، ثم يتبعها بـ: الوعرة الوعرة الوعرة!

انهار على جانب الطريق في منتصف الليل، وغاب عن الوعي. المدينة أقرب الآن.

سيصل إليها..

كان متأكدًا من أنه سيصل إليها.

سمع الطفل قبل وقت طويل من مقابلته. صوت مواشير عادم سيارته الهادر يأتيه من الشرق، يشق تماسك النهار. الصوت آتٍ من الطريق السريع

رقم 34 من جهة يوما، كلورادو. أول ما خطر على باله أن يختبئ كما اختبأ من الناجين الذين صادفهم على الطريق منذ غادر جاري. لكنه شعر هذه المرة بضرورة أن يبقى مكانه.

علا الصوت الهادر أكثر فأكثر، ثم انعكس ضوء الشمس على كروم السيارة..
(نار؟!)

...وومض نور برتقالي.

رآه السائق. احتكت إطارات السيارة من ماركة جودير بالأسفلت، ومرت العربة من جواره ثم توقفت تلهث كما يلهث حيوان مُستأنس.. أو غير مُستأنس، ثم ترجل السائق. لم ير رجل صفيحة الزُبالة في البداية إلا السيارة والبنديقية الآلية فيها. إنه يعرف الكثير عن السيارات، ويحبها، حتى لو لم يكن يستطيع قيادتها. هذه السيارة فاتنة، سيارة عكف عليها أحدهم لسنوات كي يصير بهذا الشكل، ودفع فيها آلاف الدولارات. سيارات كهذه لا تراها إلا في عروض نوادر المركبات.

السيارة فورد، ديوس كوبيه، إصدار عام 1932، إلا أن مالکها لم يكتفِ بالتجديدات المعروفة لهذا الطراز، فتمادى وحولها إلى نسخة هزلية عن كل السيارات الأمريكية، إلى عربة من قصص الخيال العلمي، برسم لهب يدوي على الجانبين بالطلاء الذهبي. مواسير العادم الأمامية لامعة تمتد على طول السيارة، زجاج الواجهة من الزجاج المحدّب، الإطاران الخلفيان ضخمان من ماركة جودير، وقد وسّع التجويفين الحاويين لهما ليناسباهما. يبرز من غطاء محرك السيارة شاحن فائق الضغط، ومن السقف حلية من الصلب اللامع، سوداء بلمعة حمراء على شكل زعنفة قرش. منقوش على جانبي السيارة بحروف مائلة كأنما من أثر السرعة كلمة: (الطفل).

هتف السائق: «مرحباً أيها الطويل الفارع القبيح».

انتقل انتباه صفيحة الزُبالة من السيارة إلى سائقها. طوله خمس أقدام وثلاث بوصات، شعره مصفف ملوي مثني مطلي بالمتبّب.

زاده شعره المصفف إلى أعلى ثلاث بوصات أخرى. تلتقي كل الخصلات الملوية المثنية خلف رأسه، مُشكلة هيئة مؤخرة البطّة، لا، بل كل مؤخرات البط في العالم. ينتعل الطفل حذاءً عالي الرقبة بمقدمة حادة وجانبين مطاطيين. منحه الكعب العالي طولاً إضافياً، فصار طوله النهائي خمس

أقدام وتوسع بوصات. سرواله الجينز ضيق بما يكفي حتى ترى تاريخ صك العملات في جيبيه. يبرز الضيق ردفه ويجعلهما في هيئة المنحوتة زرقاء، ويجعل حجره كأنما يحتفظ بكُرْتِي جولف داخل سرواله. يرتدي الطفل قميصًا حريريًا بلون أحمر قان، مزينٌ بحواف صفراء وأزرار ياقوت مقلدة، أما أزرار السوارين كأنهما من عظم مصقول. تبين للزُّبَال لاحقًا أنهما كذلك فعلاً. للطفل مجموعتا أزرار، واحدة مصنوعة من نابين بشريين، والأخرى من نابي كلب دوبرمان. فوق القميص الأعجوبة هذا، ورغم الحرارة، يرتدي سترة جلدية سوداء، مرسوم على ظهرها نسر، مزينة بالسحَّابَات الفضية. تتدلى من طية كفي سترته ومن حزامه ثلاث أقدام مُحَنطة، بالألوان الأبيض والبني والأخضر. تلك السترة التي تعتبر أعجوبة أكبر من القميص، مدهونة بالزيت. فوق رسم النسر كلمة (الطفل) مطرزة بخيط حريري أبيض.

الوجه الذي يطل على صفيحة الزُّبالة من تحت تل الشعر العالي اللامع، ومن فوق ياقة السترة السوداء وجه صغير كوجوه الدُّمى، بشفتين منحوتتين ممتلئتين، وعينين رماديتين ميتتين، وجبهة عريضة دون علامة أو تجعيدة، وخدين مستديرين. بدا كأنه إلفيس بريسلي صغير.

يحيط ببطنه المسطح حزامًا سلاح متقاطعين، يحملان مسدسين عملاقين عيار 0.45.

قال متشدِّقًا في الكلام: «مرحبًا يا ولد. ماذا تريد أن تقول؟». الشيء الوحيد الذي فكر صفيحة الزُّبالة في قوله هو: «تعجبني سيارتك». وكان هذا اختيارًا حسنًا، ربما هو الاختيار الأوحَد. بعد خمس دقائق كان رجل صفيحة الزُّبالة راكبًا مع الطفل، وينطلقان بسرعة خمس وتسعين ميلًا في الساعة، بينما تختفي في الأفق الدراجة التي هجرها الزُّبَال. علَّق صفيحة الزُّبالة في أدب على السرعة الكبيرة، التي قد لا تمكنهما من رؤية أي عوائق على الطريق (وقد مرا فعلاً على عدة عوائق، فدار الطفل من حولها بمهارة والسيارة تصرخ احتجاجًا من تحته).

قال الطفل: «مهلاً يا ولد. لدي رد فعل سريع، ولدي توقيت ممتاز، وثلاثة أخماس ثانية تكفيني. هل تصدق ذلك؟». - نعم يا سيدي.

كان يشعر كرجل يخوض في حفرة ثعابين. قال الطفل بطريقته المملوطة البطيئة في الحديث: «تعجبني يا ولد».

تحقق عيناه الباردتان إلى الطريق الممتد. معلق من المرأة الأمامية نرد مطاطي وعث جمجمة الموت محنطاً.

- خذ لنفسك علبة بيرة من المقعد الخلفي.

البيرة على المقعد الخلفي ماركة كورز دافئة، وصفيحة الزُّبالة يكره البيرة، لكنه شرب واحدة بسرعة وامتدحها.

قال الطفل: «بيرة كورز هي البيرة الأصلية الوحيدة. سأبول بيرة كورز لو أستطيع. هل تصدق هذا أيها الحقير الخطير؟».

قال رجل صفيحة الزُّبالة إنه -كحقير خطير- يصدق ولا شك.

- يسمونني الطفل. من أوتا شيرفبورت، لويزيانا. هل تعرف هذا؟ هذا الوحش تحتنا فاز بكل مسابقة عرض سيارات كبرى في الجنوب. هل تصدق هذا أيها الحقير الخطير؟

أكد له صفيحة الزُّبالة أنه يصدق، وشرب علبة بيرة أخرى. بدا له أن هذا هو التصرف الوحيد المناسب في هذه الظروف.

- بمَ يسمونك يا ولد؟

- رجل صفيحة الزُّبالة.

- رجل ماذا؟!

للحظة طويلة ثقيلة، ظل الطفل يحدق إلى وجه صفيحة الزُّبالة، ثم قال أخيراً: «أنت تسخر مني، أليس كذلك؟ لا يسخر أحد من الطفل. والأفضل أن تصدق هذه الحقيقة أيها الحقير الخطير».

هتف سريعاً: «أنا أصدقه، لكنَّ هذا هو الاسم الذي يطلقونه عليّ، لأنني اعتدتُ أن أضرم النار في صفائح زُّبالة الناس وفي صناديق بريدهم وهكذا. أحرقت ملكية السيدة سيمبل فأرسلوني إلى الإصلاحية. حرقتُ أيضاً الكنيسة المنهجية في بوتانقيل، إنديانا».

سأل الطفل في سرور: «حقاً؟ يا ولد! أنت تبدو مجنوناً كفأر في حمام! لا بأس، أحب المجانين. أنا نفسي مجنون. اسمك رجل صفيحة الزُّبالة، هه؟

يعجبني هذا. نحن ثنائي إذن. الطفل اللعين ورجل صفيحة الزُبالة اللعين. لنتصافح يا زُبالة».

مدّ الطفل يده فصافحه الزُبالة بسرعة كي يتمكن الطفل من الإمساك بالمقود بكلتا يديه. اقتربا من منعطف تتوسطه سيارة مقلوبة، فغطى صفيحة الزُبالة وجهه بيديه وهو يستعد إلى الانتقال إلى حُطّة الحياة السماوية. لم تهتزّ للطفل شعرة، ودارت السيارة من جانب الطريق فاحتكّت بالكاد بالسيارة المقلوبة وخذشت طلاءها.

قال صفيحة الزُبالة وقتما استطاع أن يتكلم دون أن يرتجف صوته: «بالكاد!». قال الطفل بصوت مسطح: «مهلاً يا ولد»، ثم غمز وأضاف: «لا تخبرني، سأخبرك أنا. كيف هي البيرة؟ رائعة لعينة، أليس كذلك؟ تعالج ما أفسدته فيك تلك الدراجة، صح؟».

- بالتأكيد.

وجُرعة جُرعة كبيرة من البيرة الدافئة. إنه مجنون، لكنه لم يفقد عقله بما يكفي ليخالف رأي الطفل فيما يقود السيارة.

قال الطفل وهو يمد يده إلى الخلف ليجلب علبة بيرة لنفسه: «لا داعي إلى اللّف والدوران. أعتقد أننا ذاهبان إلى المكان نفسه». قال الزُبالة في حذر: «أعتقد هذا».

- سنذهب إلى الغرب، إلى الطابق الأرضي اللعين. هل تصدق هذا أيها الحقير الخطير؟
- أعتقد.

- أنت أيضاً تحلم بالبُعْبُع الذي يرتدي بذلة سوداء؟
- هل تقصد القس؟

- أنا دائماً أقصد ما أقول، وأقول ما أقصد. لا تخبرني أيها الحشرة القميئة، أنا سأخبرك. إنه يرتدي بذلة طيّار سوداء ونظارة كبيرة حتى إنك لا ترى وجهه اللعين حلفها. داعر حقير مخيف، أليس كذلك؟
- نعم.

وشرب من البيرة الدافئة حتى شعر بطنين داخل رأسه. مال الطفل على المقود البرتقالي وقلّد الطيار الحربي الذي ظهر في فيلم (الاثنين الكبار). تمايلت السيارة من جانب إلى الآخر على الطريق.

« نيااااه! اااايهي هي هي.. بودا - بودا - بودا.. خذ هذا أيها الألماني الزاني! قُطَّاع الطُّرُق أماننا يا كابتن! أدرك المدفع نحوهم.. تاكا.. تاكا.. تاكا.. تاكا - تاكا - تاكا! لقد نلنا منهم يا سيدي! تمام! ما قولك! هوووجااااا!».

لم يتغيّرُ تعبير وجهه هو يخوض في خياله، ولم تتحركْ شعرة من شعره
الدُّهني.

دق قلب صفيحة الزُّبالة بقوة، وسال العرق ليغرق جسده. لقد شرب بويرته، ويحتاج إلى حمام.

قال الطفل كأنه لم يقطعُ موضوعه السابق: «لكني لا أخاف منه. حقًا، لا. إنه عيّل كثير الجلبّة، وقد تعاملتُ مع أطفال كثيري الجلبّة من قبل. أُخْرِسهم ثم أخلص منهم. هل تصدق هذا أيها الحقير الخطير؟».

- طبعًا.

- هل تفهم الزعيم؟

- طبعاً.

لم تكن لديه أدنى فكرة عن كُنه الزعيم.

- أحسن لك أن تفهم الزعيم. اسمع، هل تعرف ما سأفعله؟

- ستذهب إلى الغرب؟

بدا الطفل نافذ الصبر وهو يقول: «بعدما أذهب إلى هنا. أنا أقصد بعد. هل تعرف ما سأفعله بعد ذلك؟».

- لا. ماذا ستفعل؟

- سأجاري الأمور قليلًا، وأتحقق من الموضوع. هل تفهم يا حقير يا خطير؟

- بالتأكيد.

- سحَقًا، لا تخبرني، أنا سأخبرك. سأرى الرجل الكبير من كَثْب، ثم...

صمت الطفل. سأله صفيحة الزُّبالة متردداً: «ثم ماذا؟».

- سأخرسه. سأدفنه. سأضعه لِيُجَفَّفَ في الشمس داخل السيارة الكاديلاك رانش اللعنة. هل تصدق هذا؟

- نعم، طبعاً.

- وسأتولى القيادة. سأخذ عتاده وأرميه في الكاديلاك. امكثْ معي يا زُبالة، أو أيًّا كان ما اسمك. لن نأكل لحمًا مقدَّدًا وفاصوليا، بل سنلتهم من الدجاج ما لم يلتهمه رجل من قبل.

هدرتِ السيارة تشقُّ الطريق السريع، مخلقةً عادمًا حارًّا داكنًا وراءها، وجلس رجل صفيحة الزُبالة مكروبًا وعلبة البيرة على حجره.

دخل رجل صفيحة الزُبالة سييولا فجر يوم الخامس من أغسطس، والمعروفة سابقًا باسم فيجاس. فقد فردة حذائه اليسرى في موضع ما من الطريق، ويمشي الآن نصف حافٍ. تطلق خطواته صوت: سلاب - ثَمب. سلاب - ثَمب، كأنه صوت إطّار فارغ من الهواء.

كاد يموت، لولا وقعت معجزة وهو على الطريق المحتشد بالسيارات والموتى الذين أكلت الصقور من جثثهم. لقد وصل. إنه الآن في سييولا. لقد اختبر ونجح.

رأى مائة مَرَقص أمامه، ولافتات مكتوب عليها عبارة (عاهرات ليبراليات)، ولافتات مكتوب عليها (كنيسة بلوبل للزفاف)، و(زواج في ثلاثين ثانية، لكنه سيستمر العمر كله!). رأى سيارة رولز رويس من طراز سيلفر جوست تقف قرب واجهة متجر كتب إباحية. رأى امرأة عارية معلقة بالمقلوب من عمود إنارة. رأى صفحتين من جريدة صَن المحلية ترفرفان وسط الطريق، يظهر عليها العنوان الرئيسي: الوباء - أسوأ أكاذيب واشنطن. رأى لافتة إعلانية عملاقة تعلن حفلات المغني نِل داياموند في فندق أمريكانا من 15 يونيو إلى 30 أغسطس. كتب أحدهم على واجهة عرض متجر جواهر: الموت لفيجاس الخاطية! رأى بيانو مقلوبًا وسط الطريق كأنه حصان خشبي ميت. امتلأت عيناه بكل تلك الأعاجيب.

بينما يتوغل أكثر، رأى المزيد من اللافتات مُطفأة الإضاءة، تحمل أسماء أفلام مثل: فلانجو، ذا مينت، إمبريال. لكن أين الناس؟ أين الماء؟

دون أن يعي صفيحة الزُبالة ما يفعل، ابتعد خارجًا من الشارع الرئيسي، ورأسه مُدلى على صدره. نام وهو يمشي، فتعثّر في الرصيف وهشَّم أنفه. رفع رأسه ليرى ما أمامه، فلم يصدق ما رآه، وظن أنه نائم بعد ويحلم.

تخضض بالماء كالقربة وهو يترنح نحو الدرجات الرخامية بين الهرمين الذهبيين، المؤدية إلى المبنى المهيّب. دفع الباب الدوّار بما تبقى من قوته ودخل إلى ردهة الاستقبال المفروشة بالموكيت الأحمر والتي تبدو له بطول أميال. البساط تحت قدميه كثيف ناعم. في الردهة مكتب تسجيل إقامة، ومكتب بريد، ومكتب تسلّم مفاتيح، ونافذة خزانة، وكلها خال. عن يمينه، وخلف سور حديدي مزخرف، نادي قمار. نظر إليه رجل صفيحة الزُبالة في رهبة. أجهزة لعب القمار الثّقبية مصفوفة كجنود في موكب، خلفها الروليت ومناضد اللعب. صاح: «مَن هناك»، ولم تأتِه إجابة. أصابه الرعب؛ هذا مكان ترتع فيه الأشباح وتجوبه الوحوش، لكنّ تعبهُ غلب خوفه. نزل الدَّرَج إلى ملهى القمار، مارًا بالحانة حيث جلس لويد هينريد صامتًا في الظل، يراقبه وهو يحمل زجاجة ماء معدني.

وصل إلى إحدى مناضد القمار الخضراء الشهيرة. صعد فوق إحداها ونام على الفور. بعد قليل احتشد أكثر من اثني عشر رجلًا حول النائم الغافل رجل صفيحة الزُبالة.

سأل كِن دموت: «ماذا نفعل به؟».

أجابه لويد: «دعه ينام. فلاج يريده».

سأل آخر: «حقًا؟ أين فلاج أساسًا بحق المسيح؟».

نظر لويد إلى السائل الأصلع، الأطول من لويد بقدم كاملة. على ذلك، تراجع إلى الخلف مذعورًا من نظرة لويد. الحجر المعلق حول رقبة لويد هو الوحيد الذي يضيء منتصفه بضوء أحمر وسط دُكنة لونه.

سأله لويد: «هل تتحرق شوقًا إلى رؤيته إلى هذا الحد يا هيك؟».

أجاب الأصلع: «لا.. اسمع يا لويد، أنت تعرف أنني لم...».

نظر لويد إلى النائم وقال: «طبعًا. سيأتي فلاج قريبًا. لقد كان ينتظر وصول هذا الرجل. لا بُدَّ أن له أهمية خاصة».

واستمر رجل صفيحة الزُبالة في النوم.

قضى صفيحة الزُبالة والطفل ليلة الثامن عشر من يوليو في موتيل في كلورادو. اختار الطفل حجرتين بباب مشترك. كان الباب بينهما مغلقًا، فحلّ

الطفل هذه الأزمة بإطلاق النار على قفله من أحد مسدسيه، ثم ركله فانفتح وسط دخان الرصاص.

- أجهزتُ على اللعين. أي غرفة تريد؟ اختر يا زُبالة.

اختار رجل صفيحة الزُبالة الغرفة اليمنى، فتركه الطفل قليلاً وذهب إلى مكان ما. فكر رجل صفيحة الزُبالة في الهرب قبل أن يحدث ما لا تُحمد عقباه، فقارن الاحتمالات بعدم وجود وسيلة انتقال غير سيارة الطفل حتى عاد الأخير. دُهِشَ رجل صفيحة الزُبالة إذ وجده يدفع عربة تسوق ملأى ببيرة كورز. عيناه الشبيهتان بأعين الدمى محتقنة، وفستت تسريحة شعره المميزة، فتهدلت الخصلات الداكنة على خديه وأذنيه، فبدأ كرجل كهف خطر يرتدي سترة جلدية تركها مسافر خلال الزمن.

قال الطفل: «إنها دافئة، لكن من يكثرث؟ هل أنا على صواب؟».

- على صواب جداً...

رمى له علبة وهو يقول: «خذ واحدة أيها البغيض». فتح رجل صفيحة الزُبالة العلبة فأغرقته الرغوة، أطلق الطفل ضحكة صغيرة غريبة وهو يمسك بطن رفيقه السمين بيديه. ابتسم صفيحة الزُبالة ابتسامة واهنة، وقرر أن يفرّ ليلاً بعدما ينام هذا المقيت المجنون. لقد اكتفى، بالإضافة إلى ما قاله عن القس الأسود. أخافه هذا أكثر من أي شيء. قول شيء كهذا حتى لو كان يمزح، أشبه بالتغوط في كنيسة. الأسوأ أنه لا يعتقد أن الطفل يمزح.

لا ينتوي رجل صفيحة الزُبالة أن يقطع كل هذه المسافة بين الجبال وعلى الطرق الخطرة مع هذا القزم المختل الذي يشرب طوال النهار (ويبدو أنه يشرب طوال الليل أيضاً)، والذي تكلم عن الإطاحة بالرجل الغامض والاستيلاء على مكانه.

في أثناء تفكير صفيحة الزُبالة في الأمر، شرب الطفل علبتَي بيرة في دقيقتين وورماهما على واحد من فراشي الغرفة. وقف يحدق إلى التلفاز الملون وهو يمسك علبة بيرة جديدة في يده اليسرى، ومسدسه في اليمنى.

قال وقد بدأ يثمل أكثر فظهرت لكنته الجنوبية الممطوطة: «الكهرباء اللعينة مقطوعة، والتلفاز اللعين لن يعمل. لا أكره هذا، خاصة وقد ذهب البغضاء إلى داهية. لكن أين قناة HBO؟ أين مباريات المصارعة؟ أين قناة بلايبوي؟ قناة جيدة يا زُبالة. تعرض ما يفعله الرجال في النساء ببطء

واستمتاع، تعرف ما أعنيه؟ لبعض تلك النساء قدره على رفع سيقانهن حتى تلامس ركبهن ذقونهن. هل تعرف الشيء ابن الحرام الذي أتكلم عنه؟».

- بالتأكيد.

- لا تخبرني سحراً لك، أنا سأخبرك...

حذق الطفل إلى الشاشة ثم أطلق الرصاص عليها، فانهمر الزجاج على البساط. رفع رجل صفيحة الزُبالة ذراعيه ليقبى بهما وجهه، فسقطت علبة البيرة منه على الأرض وانسكبت. صاح الطفل في غضب بالغ: «انظر ماذا فعلت!». صوّب المسدس إلى الزُبَال، فوهته حالكة سحيقة كهالوية. ارتخت مثانته، وربما بال على نفسه، لكنه لا يستطيع أن يتأكد.

صاح الطفل: «سأقسم دماغك على فعلتك هذه. لو كانت البيرة من أي نوع آخر لما اكرثتُ، لكنها بيرة كورز تلك التي سكبتها، وكنت لأبول بيرة كورز لو كان هذا في وسعي. هل تصدق هذا أيها الحقير الخطير؟».

همس صفيحة الزُبالة: «بالتأكيد».

- وهل تظنهم ينتجون المزيد من بيرة كورز الآن يا زُبالة؟ يبدو أنك تظن هذا!

- لا.. لا أظن هذا.

- إنها مهددة بالانقراض.

رفع المسدس أكثر، وظنَّ رجل صفيحة الزُبالة أن هذه هي نهاية حياته. أنزل الطفل المسدس مرة أخرى.. قليلاً. فكر صفيحة الزُبالة في أن تعبّر وجهه المحايد ينم عن تفكير عميق. قال أخيراً: «سأقول لك يا زُبالة. خذ علبة أخرى واشربها. لو استطعت أن تُجققها كلها في جُرعة واحدة لن أدفنك في السيارة الكاديلاك. هل تصدق هذا أيها الحقير الخطير؟».

- ماذا؟ ماذا تعني تجققها؟!

- إلهي، أنت أغبى من قارب حجري يا ولدا! أعني تشربها كلها دفعة واحدة دون توقف. هذه هي الجققة! أين كنت تعيش أيها المتخلف؟ في إفريقيا اللعينة؟ هل تريد أن تموت يا زُبالة؟ سأرشق رصاصتي في عينك. مسدسي هذا محشو، سأطلقه عليك وأحولك إلى عشاء لصراصير مقلب الزُبالة اللعين هذا.

أشار لرجل صفيحة الزُّبالة بالمسدس، وعيناه مثبتتان عليه، ورغوة البيرة تلوث ما فوق شفته العليا. اتجه رجل صفيحة الزُّبالة إلى عبوات البيرة وأخذ واحدة وفتحها.

- اجرع كل قطرة فيها، لو تقيأتها فاعتبر نفسك ميت.

فتح رجل صفيحة الزُّبالة العلبة وجرع سريعاً، فتقاظت تفاحة آدم كقرد. أنهى الشرب وأسقط العلبة بين قدميه مُغالِباً القيء، فربح حياته بعد تجشؤ طويل رنان. رفع الطفل رأسه وضحك في رضا. ترنح صفيحة الزُّبالة وهو يبتسم؛ لقد ثمل للغاية.

- حسناً، ليس سيئاً يا رجل صفيحة الزُّبالة.

استمر الطفل في الشراب، وتكومت العلب على فراش الغرفة. أمسك صفيحة الزُّبالة علبة بيرة بين رُكبتيه، وشرب منها كلما نظر إليه الطفل غير راضٍ. ظل الأخير يبرطم ويثرثر، فتظهر لكنته الجنوبية أكثر ويعلو كوم علب البيرة الفارغة أكثر. تحدث عن أماكن زارها، ومسابقات فاز فيها، ومُخدَّرات نقلها من المكسيك في شاحنة خاصة بمغسلة. قال إن كل المُخدَّرات أشياء (معفنة)، هكذا قال، ولم يمس أيها، بيد أن نقل تلك الأشياء قد يُمكنك من مسح مؤخرتك بمناديل من ذهب. أخيراً بدأ ينعس، وتغمَّض عيناه المحتقنتان فتراتٍ أطول، ثم تنفتحان نصف غائبتين عن العالم.

غمغم الطفل: «سأخبرك يا زُّبالة، سأذهب إلى هناك، وأتملقه حتى أفهم ما يجري. لكنَّ الطفل لن يقبل أوامر من أحد.. ليس لوقت طويل. أنا لا أعمل لمصلحة الغير، وإن أديت عملاً فلا بُدَّ أن أكون رئيس نفسي. هذه هي طريقتي. لا أعرف من يكون ولا من أين جاء ولا كيف يبت أفكاره في آلات تفكيرنا اللعينة لكني س...»، تتأب طويلاً، ثم أكمل: «سأرميه خارج المدينة، وسأقتله وسأدفنه في السيارة الكاديلاك. ابقَ معي يا زُّبالة، أو أياً كان اسمك».

ثم ارتمى على الفراش، وسقطت علبة البيرة التي فتحها للتو من يده وانسكبت على البساط. عرف رجل صفيحة الزُّبالة أنه فقد الوعي بعدما شرب واحداً وعشرين علبة وحده. لم يفهم كيف لرجل في ضالته أن يشرب كل هذه البيرة، إلا أنه فهم شيئاً آخر: حان وقت الفرار. بيد أنه شعر بالثمالة والضعف والغثيان. أراد فقط أن ينام قليلاً، لا بأس، أليس كذلك؟ سينام الطفل كلوح

خشب طوال الليل وربما أغلب نهار الغد. لدى صفيحة الزُّبالة وقت ليغفو قليلاً.

لذا انتقل إلى الغرفة الأخرى مشياً على أطراف أصابعه (مع أن الطفل فاقد للوعي)، وأغلق الباب بينهما قدر استطاعته بعدما حطمت الرصاصات. وجد في غرفته منبهاً، فضبط ساعته على منتصف الليل لما كان لا يعرف الساعة الآن بدقة، ثم ضبطه ليرن في الخامسة صباحاً. رقد على الفراش الثنائي، ونام قبل أن يخلع حذاءه.

استيقظ في وقت لاحق في نهاية الليل على رائحة البيرة والقيء. شيء على الفراش معه. شيء دافئ ناعم. دُعِرَ إذ فكر في أن ابنَ عَرَسٍ قد لحق به من الحلم إلى الحقيقة، ثم أطلق صرخة مكتومة وقد أدرك أن الحيوان معه في الفراش أكبر من أن يكون ابنَ عَرَسٍ. الصداق يدق رأسه بالمطارق.

همس الطفل يطلب من رجل صفيحة الزُّبالة فعلاً فاضحاً، وأضاف: «كنت أعرف أنك ممّن يفعلون هذا.. هيا يا بن الداعرة.. هيا».

ظن رجل صفيحة الزُّبالة أن الأمر سيمرُّ سريعاً بأي طريقة، فينام الطفل ويفر هو. يمكنه أن يتجاوز عن أي شيء في خدمة الرجل الغامض، لكنه اكتشف أن نوايا الطفل أكبر خطراً بكثير.

انتهكه الطفل بمسدسه، وكان هذا أكثر ما حدث لرجل صفيحة الزُّبالة من إهانة، لكن لم يبدِ تدمراً، يجب أن يصبر من أجل الرجل الغامض، لن يسمح للطفل أن يقتله قبل أن يرى سيبولا.

انتهى الطفل من فعلته البغيضة فنام. قرّر رجل صفيحة الزُّبالة أن ينتظر خمس دقائق ليتأكد من أنه نام بعمق. في أثناء انتظاره غفا دون أن يشعر.

وجد نفسه في منتصف طريق مظلم مرتفع للغاية، والنجوم فوقه في متناول يده، يستطيع أن ينتزع منها ما يشاء ويضعها في برطمان. الجو قارس البرودة، وفي الظلام أبصر من يمشي نحوه...

ثم سمع صوته يأتي من اللامكان، ومن كل مكان: في الجبال سأعطيك علامة. سأريك قوتي. سأريك ما سيحدث لمن يعاديني. انتظر وشاهد...

انفتحت أعين حمراء في العتمة، كأنها مصابيح كانت مُغطاة، ثم سُحب عنها الغطاء تدريجياً، فظهرت في أزواج تحيط رجل صفيحة الزُّبالة بحلقة.

في البداية ظنها أعين بنات عرس، لكنْ مع ضيق الحلقة من حوله اكتشف أنها أعين ذئاب جبل عظيمة، أعينها مائلة إلى أعلى، والزبد يسيل من أفواهها. غشاه الهلع.

إنها ليست لك يا خادمي المخلص الطيب. شاهد هذا...

اختفتِ الذئاب على الفور. وتردد الصوت يكرر: «شاهد هذا...».

ثم انتهى الحلم. استيقظ ليجد أن الشمس قد أشرقت وأضاءت الغرفة. الطفل يقف أمام النافذة، لا يبدو عليه تأثير أي مما حدث بالأمس. صَفَّ شعره بطريقته المعتادة، ونظر في إعجاب إلى انعكاس صورته في الزجاج. سترته التي تتدلى منها أقدام الأرانب معلقة على ظهر المقعد.

- مرحى أيها الحقيير! هيا، أماننا يوم طويل، سيحدث خلاله الكثير، أليس كذلك؟

أجاب رجل صفيحة الزُبالة بابتسامة تعسة: «بالتأكيد».

عندما استيقظ رجل صفيحة الزُبالة في مساء الخامس من أغسطس، كان بعد نائماً على منضدة القمار. أمامه شاب أشقر يرتدي نظارة عاكسة، يمتطي مقعداً. أول ما لاحظ صفيحة الزُبالة الحجر الأسود المعلق على صدر، والظاهر من فتحة قميصه. حجر أسود ذو بقعة حمراء في منتصفه، كأنه عين ذئب في الظلام.

حاول أن يقول له إنه ظمآن، ولم يخرج منه صوت. قال لويد هينريد: «لا بدَّ أنك أمضيتَ وقتاً طويلاً تحت الشمس».

همس الزُبَال: «هل أنت هو؟».

- الرجل الكبير؟ لا، لستُ هو. فلاج في لوس أنجليس ويعرف أنك هنا. تحدثتُ إليه خلال اللاسلكي منذ قليل.

- هل سيأتي؟

- لرؤيتك فقط؟ طبعاً لا! سيأتي وقتما يشاء. أنا وأنت يا رجل مجرد صغار. سيأتي وقتما يشاء هو.

ثم كرر السؤال الذي سألَه للأصلع الطويل: «هل تتحرق شوقاً إلى رؤيته إلى هذا الحد؟».

- نعم.. لا.. لا أعرف.

- لا يهم. ستحصل على فرصتك على أي حال.

- ظمآن...

ناولوه وعاءً كبيرًا مليئًا بشراب كول أيد بنكهة الكريز. جَرَعَهُ صفيحة الزُّبالة كله، ثم مال متألِّمًا وهو يمسك بطنه. بعدما زال التقلص، نظر إلى لويد شاكرًا.

- هل تعتقد أنك قادر على أن تأكل شيئًا؟

- نعم، أعتقد.

التفت لويد إلى رجل يقف خلفه يدير عجلة روليت في شرود. قال له: «روجر، اطلب من ويتني أو ستيفاني أن تحضير بطاطس مقلية وشطيرتي برجر للرجل. لا.. اللعنة، سيقيء ويغرق المكان. أحضِرْ له حَسَاءً. ما رأيك يا رجل؟». أجاب الزُّبَال: «أي شيء».

- لدينا رجل هنا، اسمه ويتني هورجان، كان جَزَّارًا. إنه برميل خراء سمين، لكنه بارع في الطهي! يا يسوع! ولديهم كل شيء هنا. كانت مولدات الكهرباء تعمل عندما جئنا، والبرادات ممتلئة. إنها فيجاس الداعرة! أليس هذا أكثر الأماكن التي رأيتها عَظْمَةً؟

- بلى.

كان لويد قد راق للزُّبَال فعلًا، وقبل أن يعرف اسمه حتى. قال: «اسمها سييولا».

- ماذا قلت؟

- مدينة سييولا التي بحث عنها الجميع.

- نعم.. بحث الكثير عنها خلال الزمن، بيد أن أغلبهم ندم على العثور عليها. سمَّها كما تريد يا صاحبي.. يبدو أنك شويت دماغك في الطريق إلى هنا. ما اسمك؟

- رجل صفيحة الزُّبالة.

لم يبدُ أن لويد قد استغرب الاسم. سأله: «لا بُدَّ أنك كنت درَّاجًا باسم كهذا». مدَّ يده نحوه، أطراف أصابعه تحمل بعد جروحٍ بقائه في سجن فوينكس واقتربه من الموت جوعًا. قال: «أنا لويد هينريد. مسرور للقائك يا صفيحة الزُّبالة. مرحبًا بك على متن السفينة المتينة!».

صافح اليدَ الممدودةَ وهو يقاوم البكاءَ من فرط شعوره بالعرفان. حسبما يتذكر، هذه هي أول مرة في حياته يبادره أحد بالمصافحة. إنه هنا وقد قبلوه. منذ وقت طويل لم ينتمِ إلى مكان أو جماعة. كان سيمشي ضعفي المسافة التي مشاها في الصحراء من أجل لحظة كهذه.

غمغم: «شكرًا. شكرًا يا سيد هينريد».

- سحقًا يا أخي.. لو لم تدعني لويد لرميت الحساء في الشارع.

- لويد إذن. شكرًا لك يا لويد.

- هذا أفضل. بعدما تأكل سأصعد بك إلى غرفتك الخاصة. لديك مهمة غذاء. الرجل الكبير يريدك أن تنفذ مهمة له على ما أعتقد. حتى وقتها، يمكنك الاستمتاع بما أعدنا تشغيله هنا. أرسلنا مجموعة منا إلى سد بولدر لإعادة التيار الكهربائي، ومجموعة أخرى تعمل على توصيل الماء. نرسل أيضًا فصائل للاستطلاع، ننتقي لها سبعة أو ثمانية رجال يوميًا، لكنني لن أخوض في التفاصيل مؤقتًا. لقد تعرضت للشمس بما يكفيك شهرًا.

قال رجل صفيحة الزُبالة بابتسامة واهنة: «أعتقد هذا». كان قد انتوى فعلاً أن يحكي للويد قصة حياته، لكن بدلاً من هذا أشار إلى الحجر في عنقه وقال: «هذا...».

- نعم. مَنْ يتولون القيادات يحصلون على واحد مثله.. إنه ليس حجرًا على الإطلاق، هل تعرف هذا؟ إنه فقاعة نطف.

- كنت أعني.. الضوء الأحمر.. العين...

- هل تبدو لك عينا؟ هذه شائبة لها صلة به. لستُ أذكرى الناس، ولا حتى أذكرى واحد هنا، لكنني.. حسنًا.. لنقل إنني تميمته. ربما أنت أيضًا تميمته له. مَنْ يعرف؟ لقد سمعنا أنك مميز. أنا وويتني سمعنا هذا. إنه يلاحظ كل واحد منا بدقة.

أوما الزُبَال، فأكمل لويد بصوت مبجوح قليلًا: «إنه قادر على السحر. لقد رأيتُ ما يفعله. أنا أكره أن أكون ممن يعادونه، هل تعرف هذا؟».

- نعم. رأيتُ ما حدث للطفل.

- أي طفل؟

- الرجل الذي كنتُ معه حتى قرب الجبال. لا أريد أن أتكلم عن الموضوع.
- ها قد وصل حَسَاؤُك يا رجل، وقد أضاف ويتني قطعة برجر في طبق جانبي أيضًا. ستعجبك. الرجل يطهو أفضل برجر، لكنْ حاول ألا تتقيأ. اتفقنا؟

- اتفقنا.

- بالنسبة إليّ، فأمامي أماكن أذهب إليها، أشخاص ألتقيهم. لو رأيي صديقي القديم بوك الآن ما صدق. أنا مشغول أكثر من أعرج في مسابقة ركل. أراك لاحقًا.

كرر صفيحة الزبالة شكره مرة أخرى: «شكرًا على كل شيء».

- لا تشكرني. اشكره.

- أنا أشكره فعلًا كل ليلة.

قال عبارته الأخيرة لنفسه بعدما قطع لويـد نصف المسافة إلى المدخل ووقف يتحدث مع الرجل الذي أحضر الحساء. تأملهما في إعجاب حتى رحلا، ثم أكل البرجر ببطء. كان الأمر ليمرّ على خير لولا نظر إلى صحن الحساء، وما فيه من حساء طماطم أحمر كالدّم.

أبعد الطعام وقد فقد شهيته. أفضل ما فعل أنه لم يخبر لويـد بما حدث للطفل. يجب أن يكفّ عن التفكير في الأمر.

مشى نحو عجلة الروليت وهو يشرب اللبن الذي جاء مع الطعام. لفّ العجلة ورمى الكرة البيضاء. دارت حول الحافة ثم سقطت في الفتحة أسفلها وظلت ترتد عنها. فكر في الطفل. تساءل أكان أحد سيأتي ليريه غرفته. فكر في الطفل. تساءل أكانت الكرة ستستقر على رقم بالأحمر أم الأسود.. لكنه فكر في الطفل أكثر شيء. توقفتِ العجلة عن الدوران، واستقرتِ الكرة على الفتحة رقم 00 الخضراء.

احتمال مضاعف للمكسب.. أو للخسارة.

في طريقهما إلى جبال روكي على طريق 70 بين الولايات، استبدل الطفل ويسكي ريبيل بِل ببيرة كورز. وضع بين المقعدين زجاجتي ويسكي في علبتين من ورق مقوى كي لا يتهشما. راح الطفل يجرع جُرعة ويسكي، يتبعها

بجُرْعة بيبسي - كولا، ثم يصيح بأعلى صوته: ياهو! أكد عدة مرات أنه ليبول ويسكي ريبيل يل لو كان في وسعه ذلك. سأل صفيحة الزُبالة أكان يُصدّق هذا يا حقير يا خطير، فيوافقه وهو بعد مرتعب، مصاب بدوار من بيرة أمس. حتى الطفل لا يقود سيارته في هذه الطرق بسرعة تسعين ميلاً في الساعة. خفض السرعة إلى ستين وهو يسب الجبال اللعينة، ثم أشرق هاتفاً: «عندما نصل إلى يوتاه ونيفادا سنعوض الوقت الضائع يا زُبالة. تبلغ سرعة هذه العزيزة القصوى مائة وستين ميلاً في الساعة على أرض منبسطة. هل تصدق هذا أيها الحقير الخطير؟».

أجاب صفيحة الزُبالة بابتسامة كلابية: «طبعًا. إنها سيارة رائعة».

ثم راح الطفل يجرع جُرْعة ويسكي، يتبعها بجُرْعة بيبسي - كولا، ثم يصيح بأعلى صوته: ياهو!

الطريق بين الولايات يشقّ الجبال حرفيًا، وفي أوقات يعلو حتى يعبر من فوق جُروف صخرية منحدره. هذه هي الجروف التي رآها في حلم ليلة أمس. هل ستنتفتح تلك الأعين الحمراء في السماء؟ ارتجف...

بعد قليل أدرك أن سرعتهم قلت إلى أربعين ميلاً في الساعة، ثم إلى ثلاثين. ظل الطفل يسب ويلعن وهو يدور من بين تكدس السيارات الصامتة. صاح حائفاً: «ما هذا؟! كل هؤلاء قرروا أن يموتوا على ارتفاع عشرة آلاف قدم لعينة؟ مهلاً، أيها الداعرون الأغبياء، ابتعدوا عن طريقي!».

انكمش رجل صفيحة الزُبالة في مقعده.

بعد منحني، سدّت أربع سيارات الطريق تمامًا، أمامها جثة رجل مات منذ زمن، بالقرب منه دمية شاتي كاثيري مكسورة. على جانب الحادث الأيسر أعمدة وقاية معدنية بطول ست أقدام، وعلى الجانب الأيمن الجرف.

شرب الطفل من الويسكي وأدار مقود السيارة نحو الجرف ليدور حول التكدس. همس: «تماسك يا زُبالة. سندور من حوله».

شهق رجل صفيحة الزُبالة وقال: «لا يوجد متسع!».

- المتسع يكفي.

لمعت عينا الطفل وهو يحرك السيارة. هسّت العجلتان على الجانب الأيمن إذ تحتكان بتراب حافة الطريق. قال رجل صفيحة الزُّبالة وهو يمسك مقبض الباب: «اعتبرني خارج الموضوع. أنا راحل».

- اجلس. اجلس وإلا قتلتك.

التفت رجل صفيحة الزُّبالة نحوه ليرى فوهة المسدس تبادلها النظرات، فقهقه الطفل. جلس الزُّبَال. أراد أن يغمض عينيه لكنه لم يقدر. لم تعد حافة الطريق واضحة الآن من جهته، وهدق مذعورًا إلى المنحدر بأشجار الصنوبر الزرقاء التي تغطيه، وإلى الجلاميد الضخمة. يتخيل إطاري السيارة الآن على بعد أربع بوصات من الحافة.. بوصتين...

هسّ الطفل من بين أسنانه: «بوصة أخرى». عيناه متسعتان، ابتسامته تغطي نصف وجهه السفلي، العرق يبلل جبينه. «بوصة.. أخرى.. فقط».

انتهى الأمر سريعًا. شعر رجل صفيحة الزُّبالة بالإطارين ينزلقان نحو الهواية، وسمع صوت سقوط الحصى تتبعه قطع أكبر من الصخور. صرخ. سبّ الطفل سبَابًا مخجلًا، ونقل عصا السرعة إلى السرعة الأولى، وضغط دواسة الوقود بكل قوته وصاح: «طيري! طيري كطائر سمين لعين! اللعنة عليك، طيري!».

دار إطار السيارة الأمامي وبدا للحظة أن ميلهم تجاه الجرف يتزايد، ثم انطلقت السيارة إلى الأمام مطلقة رائحة احتراق مطاطي بشعة، وعادت إلى الطريق.

صاح الطفل في انتصار: «قلت لك إنها تستطيع! اللعنة! ألم نفعلها؟ هه؟ ألم نفعلها يا زَرَق الدجاج العفن الحقيقير؟!».

قال رجل صفيحة الزُّبالة بصوت منخفض: «نعم. لقد فعلناها». ثم لثاني مرة قال ما عليه قوله دون أن يعي ذلك. كان الطفل ليقتله احتفالًا. «قيادة ممتازة يا بطل».

لم ينعث أحد في حياته بالبطل قَطُّ قبل اليوم. افتعل الطفل التواضع وقال: «آه.. ليس إلى هذا الحد.. في البلاد رجلان على الأقل قادران على فعل الشيء نفسه. هل تصدق هذا أيها الحقيقير الخطير؟».

- لو أنك تقول، فأنا أصدق أيها الطفل.

- لا تخبرني يا حبيبي، أنا سأخبرك. ها نحن ننطلق إلى مهمة اليوم.

إلا أنهما لم يقطعا مسافة معقولة قبل أن تتوقف السيارة بعد ربع ساعة من انطلاقهما. صاح الطفل: «لا أصدق هذا! لا أصدق!».

ترجّل ممسكاً بعد بزجاجة الويسكي، وزعق وهو يدور حول نفسه على كعبيّ حذائه العاليتين: «ابتعدوا عن طريقي!» بدا كإحدى قوى الطبيعة التدميرية، كزلزال داخل زجاجة. «ابتعدوا عن طريقي أيها الزناة بأمهاتكم! أنتم موتى! مكانكم المقابر العفنة! لا مكان لكم على طريقي اللعين!».

قذف السيارات بزجاجة الويسكي، فأمطر عليها قطرات ذهبية، ثم تهشمت على مقدمة سيارة بورشه. وقف الطفل صامتاً يلهث ويدور حول نفسه. لم تكن المشكلة في بساطة تصادم أربع سيارات، المشكلة في تكس مروري والذي يغلق حارتي الطريق بستة صفوف سيارات متلاصقة الجوانب، مصفوفة بلا فواصل. حتى الحارة الوسطى كانت مكدسة بالسيارات المتصادمة كأن الجنون ضرب الجميع، وقرروا أن يقيموا نهاية عالم مصغرة هنا، أو سباق سيارات للمجانين على طريق 70-1.

عاد الطفل بشعره المنمق اللامع. وجهه الآن كوجه أفعى باسيليك قزمة، وعيناه جاحظتان.

صاح: «لن أترك سيارتي اللعينة. هل تسمعنني؟ أبداً. لن أتركها. امش أنت يا زُبالة وأخبرني إلى أي مدى يمتد هذا الزحام اللعين. ربما المشكلة في شاحنة مقلوبة. لا أعرف. كل ما أعرفه أننا لن نعود. لقد فقدنا البوصات القليلة التي يمكننا أن نعبر عليها من حول الحادث. لا يهم. سأرمي كل سيارة من تلك السيارات اللعينة من فوق الجرف. يمكنني أن أفعل هذا، ويجب أن تصدقني أيها الحقير الخطير. هيا بني. انزل.»

لم يجادل رجل صفيحة الزُبالة ومشى بين السيارات المصطفة وهو مستعد للانحناء والجري لو بدأ الطفل في إطلاق الرصاص عليه. لكنّ الطفل لم يطلق عليه شيئاً. بعدما ابتعد صفيحة الزُبالة إلى مسافة مأمونة لا تصل إليه فيها رصاصات الطفل، صعد فوق شاحنة ونظر إلى الخلف. الطفل وسيارته على بعد نصف ميل، مستند إلى سيارته يشرب الويسكي. فكر صفيحة الزُبالة في أن يلوح له بذراعه، ثم قرر أنها فكرة سيئة.

بدأ رجل صفيحة الزُّبالَة مسيرته ذلك اليوم في العاشرة والنصف صباحًا بتوقيت جبال روكي. كانت مسيرةً بطيئةً، فقد اضطرَّ كثيرًا إلى الصعود فوق أسقف وصناديق السيارات والشاحنات المتكدسة بلا فواصل بينها. بوصوله إلى أول لافتة (نفق مغلق) كانت الساعة الثالثة والرَّبع عصرًا. قطع قرابة اثني عشر ميلًا، وهي مسافة ليست كبيرة بالنسبة إلى شخص قطع عشرين بالمائة من مساحة البلاد على متن دراجة، لكنه اعتبر تلك المسافة جيدة نظرًا إلى العقبات. كان في استطاعته العودة إلى الطفل لإخباره باستحالة العبور، لكن لم تكن لديه أي نية للعودة.

لم يكن رجل صفيحة الزُّبالَة قارئًا لكتب التاريخ (خاصة والعلاج بالكهرباء قد أثر في قدرته على ذلك)، ولم يعرف أن الملوك والأباطرة في الزمن القديم اعتادوا قتل حامل الأنباء السيئة من منطلق ضيق الصدر لا أكثر. إلا أن ما يعرفه كان كافيًا، وما رآه من الطفل جعله راغبًا عن رؤية المزيد.

وقف ينظر إلى اللافتة الساقطة تحت إطارات سيارة عتيقة. (النفق مغلق). أي نفق؟ دقق النظر وهَيَّئَ إليه أنه يرى شيئًا. مشى بين السيارات حتى وصل إلى خليط من العربات المحطمة والجثث، إحدى تلك السيارات محترقة تمامًا. الكثير من تلك الجثث ترتدي زي عسكري، ووراء تلك المعركة -هكذا رآها الزُّبال- تصطف سيارات أخرى، وتستمر حتى تختفي شرق وغرب لافتة ضخمة مثبتة إلى صخرة، مكتوب عليها (نفق أيزنهاور)

تقدَّم وقلبه يدق بعنف، لا يعرف ما سيفعل تاليًا. النفقان المتوازيان المحفوران في الصخور أربعا. اقترب أكثر فتحول الرعب إلى ذعر. كان ليفهم بدقة شعور لاري أندروُد تجاه نفق لينكولن.

شعور الرجلين متطابق، لكنَّ النفقين مختلفان، فممشى نفق لينكولن مرتفع قليلًا عن مستوى الحارات المرورية، أما هنا، احتلت السيارات الحارات والممشى. النفق بطول ميلين، والطريقة الوحيدة لاجتيازه هي الزحف فوق السيارات في الظلام الدامس لساعات.

تحولت ساقا رجل صفيحة الزُّبالَة إلى عجين.

ظل يحدق إلى النفق أمامه. لقد دخل لاري أندروُد نفقه الخاص رغم خوفه. بعد تفكير طويل، عاد رجل صفيحة الزُّبالَة أدراجه إلى حيث الطفل، وكتفاه متهدلتان، وركنا فمه يرتجفان. لم يعد لأنه لم يجد وسيلة سهلة للعبور، ولا بسبب طول النفق (لا يعرف صفيحة الزُّبالَة الذي عاش عمره في إنديانا شيئًا

عن طول نفق أيزنهاور). لقد تحرَّك لاري أندروُد بدافع مصلحته الخفي، وبدافع غريزة النجاة. نيويورك جزيرة، ومنطقي أن يحاول الخروج منها، والنفق أسرع طريقه لذلك. قطع النفق سريعًا بالطريقة نفسها التي تسد بها أنفك وتبتلع الدواء المُر. رجل صفيحة الزُّبالة مهزوم، لا يتوقع إلا ركلات وضربات القدر ونفسه غير المفهومة. إنه يفعل كل شيء برأس منكس، وعقل ممسوح، ولقاؤه الطفل دمر ما تبقى منه. لقد دفعه الطفل إلى تحمل سرعات وأخطار أطاحت بعقله، وهدده بالموت ما لم يشربُ علبة بييرة على جُرعة واحدة ودون أن يقيء. لقد انتهكه بماسورة المسدس، وكاد يُسقطه من فوق جرف. هل يُتَوَقَّع منه بعد كل هذا أن يزحف في ظلام نفق محفور في الجبل، ويلقى ما سيلقاه من غوامض الأهوال؟ ربما يستطيع شخص آخر فعل ذلك، لكنه لا يستطيع.

ثم إن وراء قراره هذا منطق من نوع ما، منطق نصف المجنون المهزوم. هو ليس على جزيرة ولو عاد أدراجه لربما وجد طريقًا آخر لا يمرُّ من بين الجبال، بل من حولها. مضطرٌّ هو إلى العودة إلى الطفل، لكنه ظنَّ أنه سيكون قد رحل رغم إعلانه أنه لم يفعل. ربما مات ثملًا. ربما مات من تلقاء نفسه، إلا أن رجل صفيحة الزُّبالة قد شكَّ في أن حظه حسن إلى هذا الحد. في أسوأ الأحوال إن كان الطفل حيًّا، سيصل إليه رجل صفيحة الزُّبالة في الليل ويتسلل (كابنِ عَرَسٍ؟) كحيوان صغير من جواره، ثم سيكمل طريقه إلى الشرق حتى يجد الطريق الذي يبحث عنه.

وصل إلى الشاحنة التي رأى الطفلَ من فوقها آخر مرة. وصل في وقت أقصر هذه المرة؛ لم يقفز من سيارة إلى أخرى، بل زحف على أربع محاولًا ألا يُصدر صوتًا عاليًا. ربما يكون الطفل منتبهًا. تمنى لو كان قد أخذ أحد أسلحة الجنود الموتى، لكنه لم يستخدمَ سلاحًا في حياته. ظل يزحف والشمس تغيب خلف الجبال.

وقف رجل صفيحة الزُّبالة خلف السيارة البورشه التي رمى الطفل زجاجة الويسكي نحوها. ثم نظر في حذر من فوق سقفها. ها هي السيارة المميزة، والطفل جالس خلف مقودها مغمض العينين مفتوح الفم. دق قلب صفيحة الزُّبالة فرحًا وهو يقول لنفسه: «لقد عُشي عليه من الشرب!»، وظنَّ أن في وسعه أن يبتعد عشرين ميلًا عن هنا قبل أن يستفيق الطفل.

رغم ذلك، التزم الحذر في حركته من سيارة إلى أخرى، ثم عَبَر عن يمين السيارة الديوس كوبيه، ثم أسرع منطلقًا إلى الطريق المفتوح، عليه أن يسرع أكثر...

«توقف أيها الداعر الغبي!».

تجمّد رجل صفيحة الزُبالة على أربع، وبال في سرواله، وتحول مخه إلى نعر خالص. استدار ببطء، أوتار عنقه تصرُّ كمفصلات باب في بيت مسكون. وها هو الطفل يقف، متألِّقًا في قميص باللونين الأخضر والذهبي، يمسك في يديه مسدسيه، وتتسَيّد وجهه ابتسامةٌ بغضٍ وغضبٍ.

سمع رجل صفيحة الزُبالة نفسه يقول: «كنت أت... أتتحقق من الطريق من.. من هنا، لأرى أ... كان الس...».

- طبعًا، تتحقق من الطريق حبواً أيها العفن. قف!

وقف رجل صفيحة الزُبالة مستندًا إلى مقبض باب سيارة عن يمينه. بدت له ماسورتا مسدسي الطفل في اتساع نفقي أيزنهاور وضخامته. إنه ينظر إلى الموت الآن. يعرف هذا. لا يمكن للكلمات أن تصف ما يمر به.

صَلَّى صلاةً صامته للغامض: أرجوك.. لو أن هذه مشيئتك.. حياتي ملك لك!

سأله الطفل: «ماذا هناك؟ حادث؟».

- نفق. مُكدّس ومغلق. لذا عُدت لأخبرك. أرجوك...

- نفق؟! هل تكذب عليّ أيها القميء؟

- لا! أقسم لك! مكتوب على اللافتة نفق أيسنهورفر. أعتقد أن هذا هو المكتوب عليها. أجد عسرًا في قراءة الكلمات الطويلة.

- اخرس. كم يبعد؟

- ثمانية أميال. ربما أكثر.

صمت الطفل هنيهةً، ونظر إلى الغرب، ثم عاد يرمق رجل صفيحة الزُبالة وهو يسأله: «هل تريد أن تقول لي إن هذا التكدس يمتد إلى ثمانية أميال؟! يا كيس الخراء الكاذب!».

ضغط الطفل زنادي مسدسه إلى نصف المسافة فقط، فعوى صفيحة الزُبالة وناح كالنساء وغطى عينيه بكفيه.

صرخ: «لا أكذب! لا أكذب! أقسم لك!».

حذق إليه الطفل طويلًا، ثم أغلق ترباسي أمان مسدسيه وقال: «سأقتلك يا زُبالة، سأحصد روحك، لكن يجب أن نعود أولًا إلى التكدس السابق وندفع السيارة عن الحافة كي نعود ونعثر على طريق آخر من حول الجبال. لن أترك سيارتي. مستحيل!».

همس الزبّال: «أرجوك لا تقتلني. أرجوك».

- لو ألقيتَ السيارة من فوق الجرف في أقل من ربع ساعة، ربما أعفو عنك. هل تصدق هذا أيها الحقير الخطير؟

- نعم.

بالنظر إلى تلك العينين المختلفتين، لا يمكن لأحد أن يصدقه مطلقًا. عادا إلى التكدس. رجل صفيحة الزُبالة يمشي في المقدمة على ساقين مطاطيتين، ومن خلفه الطفل ذو الابتسامة الغامضة الحلوة على وجهه الطفولي.

بوصولهما إلى التكدس كان الظلام قد حل. السيارة الفولكس المقلوبة تحمل ثلاثَ جثثٍ أو أربعًا متشابكةً الأرجل والأذرع. مرَّ الطفل من جوارها ووقف عند المنعطف الذي مرَّ به منذ عشر ساعات. قال: «لا يمكن أن نعبر من هنا مرة أخرى ما لم نتخلص من بعض السيارات. لا تخبرني، أنا سأخبرك...». للحظة فكر رجل صفيحة الزُبالة في أن يدفع الطفل خلال الحافة، إلا أن الأخير استدار نحوه وصوب مسدسيه نحو بطنه.

- يبدو أنك كنت تفكر في أفكار شريرة يا زُبالة. لا تحاول أن تكذب. أنا أقرأك ككتاب لعين.

هز صفيحة الزُبالة رأسه أمامًا وخلفًا محتجًا.

- لا تعبتَ معي مرة أخرى يا زُبالة. هذا هو الشيء الوحيد في العالم الذي يجب ألا تفعله. ادفع السيارة. أمامك خمس عشرة دقيقة.

في منتصف الطريق سيارة أوستين معطلة. فتح الطفل بابها وأخرج منها جثةً مراهقةً منتفخةً (انخلع ذراعها في يده، فرماه بعيدًا في لا مبالاة رجل أنهى التهام فخذ ديك رومي ورمى وطوّح العظمة في الطبق).

- الوقت يمر.. تيك توك تيك توك.. اثنتي عشرة دقيقة، والوقت يجري دقيقة بدقيقة.. دقة يمين، ودقة شمال.. هيا هيا يا زبال...

انفجر الطفل بالضحك وهو يجلس على مقعد السيارة مدلياً ساقيه على الأرض. ثبت صفيحة الزباله قدميه على الأرض ودفع.. تحركت الأخيرة بوصتين. دق قلبه في أمل. الطفل مجنون مندفع، من نوع البشر الذي يطلق عليه كارلي بيتس ورفاقه عبارة (أكثر جنوناً من جحر فئران). ربما يعفو عنه الطفل لو رمى السيارة من فوق الجرف وأخلى لسيارته الغالية الطريق. ربما...

قام واقفاً، ودفع السيارة بكل قوته. انطلق الألم كرصاصة خلال ذراعه المحترقة، وأدرك أن جلده الجديد الرقيق قد تمزق، وفي أي وقت، سيتحول الألم إلى عذاب.

تحركت السيارة ثلاث بوصات. سال العرق من جبين صفيحة الزباله إلى عينيه فأحرقهما كزيت محرك ساخن.

- الوقت يجري ويجري، تيك توك تيك توك..
توقفت الأغنية الهزلية فجأة. رفع صفيحة الزباله رأسه متسائلاً. قام الطفل من مقعد السيارة ووقف ينظر إلى حارة الطريق الشرقية المنحدرة. همس الطفل: «ما هذا؟!».

- لم أسمع أي...
ثم سمع شيئاً. سمع صوت انهيار حصى وحجارة آتياً من الجهة المقابلة من الطريق. عاد إليه حلمه بغتة، فتجمد دمه وتبخر لعابه من فمه.
صاح الطفل: «من هناك؟ أجبنني! أجبنني وإلا أطلقت الرصاص!».
وحصل على رد، ليس بصوت بشري، بل بعواء شق الليل.
صاح الطفل بصوت رفيع: «يا يسوع!».

هبطت الذئاب المنحدر الصخري على جانب الطريق، وعبرته نحوهما. الذئاب برية رمادية ذات أعين حمراء وأفواه يسيل منها اللعاب. أكثر من دستتي ذئاب، بلل صفيحة الزباله سرواله لمرأهم.

دار الطفل حول السيارة الأوستين وصوب مسدسيه وأطلق الرصاص. ومض اللهب المنطلق من الماسورتين، وتردد صوت الرصاص بين الجبال

كأنه صوت مدفع. صرخ رجل صفيحة الرُّبالة وسد أذنيه بسبابتيه، وراح يسعل من رائحة البارود الحارقة.

تقدمت الذئاب، لم تُسرِع ولم تبطئ خطواتها. لم يستطع صفيحة الرُّبالة إبعاد عينيه عن عينيها التي ليست كأعين الذئاب، بل كعيني سيدها.. سيده. تذكر صلاته فزال خوفه. أخرج سبابتيه من أذنيه، وتجاهل بلل فخذيه.. وابتسم.

أفرغ الطفل مسدسيه، ولم يقتل إلا ثلاثة ذئاب. أعاد سلاحه إلى جرابيهما ولم يحاول إعادة حشوهما، وانطلق نحو الغرب. لم يمِش أكثر من عشر خطوات حتى وجد أمامه المزيد من الذئاب، تدور من حول السيارات المتوقفة كأنها ضباب كثيف. رفع واحدٌ منهم عقيرته إلى السماء وعوى. سرعان ما انضم إليه في العواء ذئب ثانٍ فثالث.. ثم استكملوا زحفهم.

تراجع الطفل وهو يحاول حشو مسدس من مسدسيه، فسقطت الطلقات من بين أصابعه المرتجفة، وتبعها سلاحه نفسه. سقط المسدس من يده إلى الأرض، فانطلقت الذئاب نحوه كأنها كانت تنتظر تلك العلامة.

فرَّ الطفل وهو يصرخ نحو السيارة الأوستين، وسقط مسدسه الآخر من جرابه. في لحظة اندفاع أقرب الذئاب نحوه، دخل الطفل السيارة وأغلق الباب. ارتدَّ الذئب عن الباب وعوى. سرعان ما أحاطت الذئاب بالسيارة، ولم يعد يظهر من الطفل سوى وجهه الشاحب كالقمر.

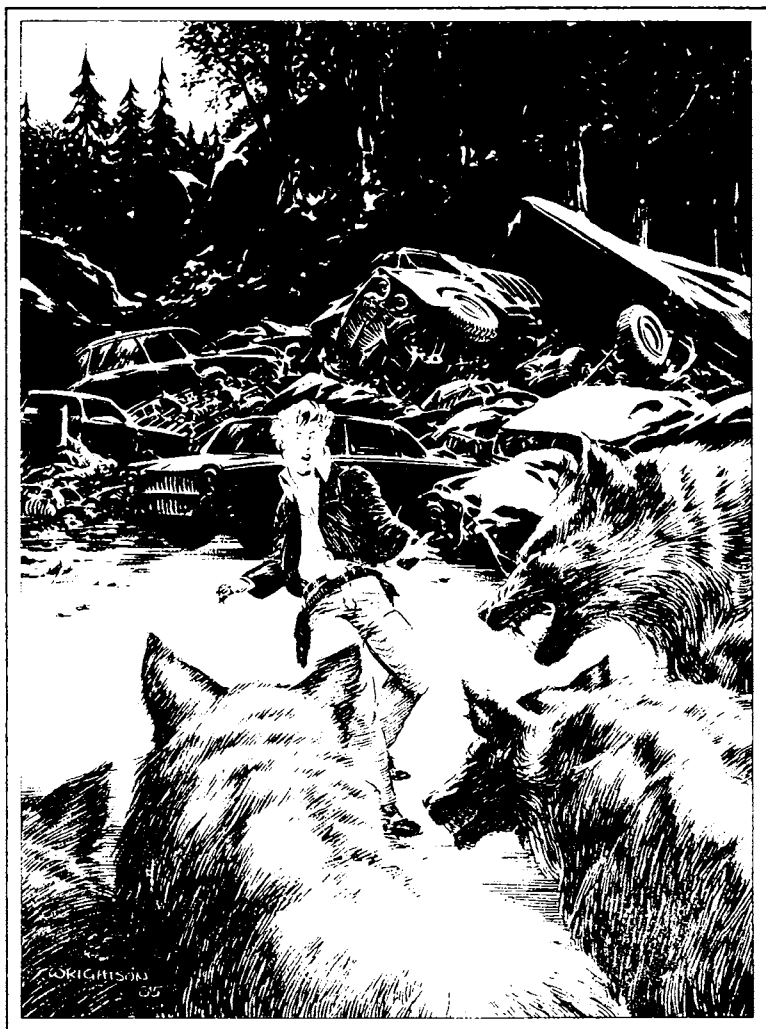
في الوقت نفسه، اقترب ذئب من رجل صفيحة الرُّبالة، رأسه المثلث منكس، وعيناه كجمرتين...

حياتي ملك لك..

دون ذرة خوف، اقترب صفيحة الرُّبالة منه ومد له يده المحترقة فلعقها الذئب. بعد لحظات ألقى الذئب ولف ذيله المنفوش حول قوائمه.

حدَّق إليه الطفل بفم مفتوح، فنظر إليه رجل صفيحة الرُّبالة وابتسم ورفع له إصبعه الوسطى.. بل إصبعيه..

صرخ الطفل: «سحقاً لك! اخرس! هل تسمعنني؟ هل تصدق هذا أيها الحقيير الخطير؟! اخرس! لا تخبرني، أنا سأخبرك!».



انغلق فم الذئب برفق على يد صفيحة الزُّبالة السليمة، وجذبها نحو الغرب. نظر إليه فرآه قد وقف مرة أخرى وراح يجذبه. قال في وجوم: «حسنًا.. حسنًا...».

مشى والذئب أمامه كأنه كلب مُدرَّب. انضم إليهما في مسيرتهما خمسة ذئاب أخرى، أحاطت به كأنها تشريفة.

توقف مرة ونظر إلى ما وراء كتفه، ولم ينسَ ما رآه. حلقة ذئاب تحيط بالسيارة الأوستن، ووجه الطفل الشاحب يطل من بينها، وفمه يتحرك بالسُّباب والصراخ. بدا له أن الذئاب تخرج ألسنتها، تسأله أكان يريد بعد أن يطرد الرجل الغامض من مكانته ويحتلها.

تساءل صفيحة الزُّبالة عن الوقت الذي ستمكث فيه الذئاب حول السيارة، تحيطها بأنيابها. الإجابة: ستظل حتى إشعار آخر. ربما يوم، ثلاثة، أربعة حتى. سيجلس الطفل هناك بلا شيء يأكله (إلا جثة الراكبة الأخرى) ولا شيء يشربه. سترتفع حرارة السيارة في النهار فتتحول إلى موقد. قد تنتظر كلاب الغامض الأليفة حتى يموت الطفل جوعًا، أو حتى يُجَن ويفتح الباب ويحاول أن يهرب.

قهقه رجل صفيحة الزُّبالة في الظلام. الطفل ضئيل لن يصيب كل ذئب منه سوى قضمة واحدة، وقد تُسمِّمها تلك القضمة.

صاح الزُّبَال: «هل أنا على صواب؟ لا تخبرني إن كنت تصدق هذا يا حقير يا خطير! أنا سأخبرك أنت!».

مشى رفاقه الرماديون حوله غير مكترئين لصراخه حتى وصلوا إلى سيارة الطفل الأعجوبة، فرفع أحد الذئاب ساقه وبال على إطارها.

لم يتمالك صفيحة الزُّبالة نفسه، فضحك.. ضحك حتى ابتلَّ وجهه بالدموع. جنونه كطبق شواء، لا يحتاج إلا إلى شمس الصحراء كي يُطها جيدًا، ويُمنح نكهته المميزة.

مشى رجل صفيحة الزُّبالة ومرافقوه. بازدياد التكدر، زحفت الذئاب على بطونها تحت السيارات، وانسلت من بينها، وقفزت من فوقها. مرافقون صامتون ذوو أعين حمراء وأنياب ناصعة. في وقت ما قرب منتصف الليل وصلوا إلى نفق أيزنهاور. لم يتردد صفيحة الزُّبالة واتخذ طريقه في النفق الغربي. كيف يخاف الآن؟ لماذا يخاف في وجود هذه الذئاب حراسًا؟

الرحلة طويلة، فقد الإحساس بالزمن من قبل بدئها. تلمّس طريقه بين سيارة وأخرى، حتى غاصت يده في مرة في شيء طري مقرف، وانطلقت رائحة غازات عفنة، رغم ذلك لم يتزعزع. رأى الأعين الحمراء أمامه ترشده، فلم يخش شيئاً.

بعد وقت، شعر بهواء نقي، فأسرع حتى إنه تعثر في مرة وضرب رأسه بمصد اصطدام إحدى السيارات. لم تمر دقائق حتى رأى نجوم السماء مرة أخرى، شاحبةً ووراءها بشائر الفجر.

لقد خرج من الجهة الأخرى.

اختفى مرافقوه. هوى رجل صفيحة الزُبالة راكعاً وصلى صلاة شكر طويلة. لقد رأى معجزات الرجل الغامض، لقد رآها جليّة.

رغم كل ما رآه منذ استيقظ صباح أمس ورأى الطفل معجباً بتسريحة شعره منعكساً في زجاج نافذة غرفة الفندق، لم يشعر صفيحة الزُبالة بأي رغبة في النوم. مشى متحمساً بين السيارات خارج النفق حتى قل التكسّر المروري بما يكفي حتى يسير بسهولة.

في الظهيرة نزل من طريق قبيح إلى بلدة قبيح نفسها، ومَرَّ بالمنازل ومباني الشقق. غلبه الإرهاق، فكسر نافذة باب ودخل، وجد فراشاً فارتمى عليه ونام حتى صباح اليوم التالي.

جمال الهوس الديني يكمن في قدرته على تفسير أي شيء. الرب (أو الشيطان) هو المسبب الأول لكل أحداث العالم، ولا شيء متروك للمصادفات.. أو للتغيير. من أجل هذا صيغت عبارات مثل: «نحن الآن ننظر من خلف زجاج معتم»، و« للرب أسبابه في اختيار معجزاته». يمكنك الآن أن تتخلص راضياً من المنطق من أقرب نافذة.

الهوس الديني من أكثر الطرق نجاحاً لمواجهة تقلبات العالم، لأنها تستثني المصادفات. كل شيء مقصود ومتعمّد بالنسبة إلى المهُوس بالدين. لسبب كهذا، ظل رجل صفيحة الزُبالة يتحدث مع غراب عشرين دقيقة على الطريق غرب قبيح، وهو مقتنع أنه مبعوث الرجل الغامض... أو الرجل الغامض ذاته.

ظل الغراب يرمقه مدةً طويلةً من مكانه فوق سلك الهاتف المرتفع، ولم يرحلْ حتى مَلْ أو جاع.. أو حتى انتهى صفيحة الزُّبالة من ابتهالاته ووعوده بالإخلاص الكامل.

حصل على دراجة أخرى قرب جراند چَنكشن، وركبها حتى قطع عرض ولاية يوتاه في يوم الخامس والعشرين من يوليو. وقتها قرر إطار دراجته الأمامي أن يفصل على جسدها وينطلق وحده في الصحراء، فسقط رجل صفيحة الزُّبالة من فوق المقود وصدم رأسه. كان الارتطام ليهشم جمجمته (فقد كان يبذل بسرعة أربعين ميلاً في الساعة، ولا يعتمر خوذة). مع ذلك قام واقفاً بعد خمس دقائق والدم يسيل من جروح رأسه ووجهه. مشى مترنحاً وغنى أغنيته لسيبولا الوعرة.

لا علاج لهزيمة الروح، إن كسر الجمجمة أفضل من جُرعة قوية من: «لتكن مشيئته».

في يوم السابع من أغسطس، دخل لويد هينريد إلى غرفة رجل صفيحة الزُّبالة التي أسكنوه فيها قبل يوم. غرفة جميلة هي، في الطابق الثالث عشر من الفندق، يتوسطها فراش دائري مغطى بملاءة حريرية، ومراة دائرية في مقاساته نفسها مثبتة إلى السقف فوقه.

نظر رجل صفيحة الزُّبالة إلى لويد، فسأله: «كيف حالك يا زبال؟».

- بخير. أفضل كثيرًا.

- أنت تحتاج فقط إلى بعض الطعام الجيد والراحة. أحضرت لك بعض الملابس النظيفة. خَمَّنت المقاس.

لم يكن رجل صفيحة الزُّبالة يعرف مقاسه بدقة، فنظر إلى السروال الجينز والقميص وقال: «تبدو مناسبة».

قال بطريقة مختلفة عن الأمس: «انزل للإفطار عندما تبدل ثيابك. نأكل جميعًا في المطعم».

- حسنًا. بالتأكيد.

ضج المطعم بالأحاديث الجانبية. وقف بالخارج وقد غشاه الذعر. سينظرون إليه إذ يدخل وسيضحكون. سيقهقه أحد عند نهاية القاعة، فيتبعه آخر، ثم يهدر المكان كله بالضحك وإشارات السخرية.

مرحى يا زَبَّال، يا نَبَّاش الزُّبالة. هل أشعلت أي حرائق هذا الأسبوع؟
ماذا قالت العجوز سيمبل عندما أحرقت نزلها يا زُّبالة؟
هل بللت فراشك اليوم؟

بلل العرق جلده فشعر أنه زلق رغم استحمامه بعدما رحل لويد. تذكر وجهه الذي رآه في مرآة الحمام، مغطى بالجروح، وجسده الواهن، وعينيه الغائرتين. نعم، سيضحكون. أنصت إلى الهمهمات وقرع أدوات المائدة، وفكر في الانسحاب.

ثم فكر في الطريقة التي جذب بها الذئب كفه برفق وقاده بعيدًا عن قبر الطفل الحديدي، ففرد صفيحة الزُّبالة كتفيه، ودخل.

نظر إليه البعض نظرة سريعة، ثم عادوا إلى طعامهم وحديثهم. رفع لويد -الجالس إلى مائدة كبيرة في منتصف الغرفة- ذراعه ولوح له. سلك صفيحة الزُّبالة طريقه بين الموائد. إلى جوار لويد ثلاثة آخرين، وكلهم يأكل بيضًا مقليةً ولحمًا مجففًا. قال لويد: «اختز لنفسك ما تشاء من الطعام من هناك. تلك منضدة من النوعية التي تحتفظ بسخونة الطعام».

أحضر رجل صفيحة الزُّبالة صحيفةً واختار طعامه. خلف المنضدة يقف رجل ضخم يرتدي ملابس طبّاخين بيضاء متسخة وينظر إليه. سأله رجل صفيحة الزُّبالة في أدب: «أنت السيد هورجان؟».

ابتسم هورجان كاشفًا عن أسنان متفرقة وقال: «نعم. لكننا لا ننعت بعضنا بأسماء كهذه. ادعني وايتي. هل تحسنت؟ عندما أتيت كنت تبدو كمن وقع عليه غضب الرب».

- تحسنتُ كثيرًا طبعًا.

- كل ما تشاء من هذا البيض، لكن خُفّ من البطاطس المقلية. طعمها قديم وجافة. أنرت المكان يا ولد.

- شكرًا.

ثم عاد إلى مائدة لويد.

- يا زَبَّال، هذا كين ديموت. والرفيق ذو الرقعة الصلعاء هيكتور دروجان. أما ذلك الشاب الذي لم تشق شعيرات ذقنه طريقها إلى السطح بعد يسمى نفسه إيس هاي.

حيوه جميعًا بهزة رأس.

- هذا رجلنا الجديد، اسمه رجل صفيحة الزُّبالة.

تصافح الجميع، وبدأ صفيحة الزُّبالة يلتهم طعامه. نظر إلى الشاب خفيف الذقن وقال بصوت منخفض مهذب: «هلا ناولتني الملح لو سمحت يا سيد هاي؟».

تبادل الرجال نظراتٍ مدهوشةً، ثم انفجروا ضاحكين. حدَّق إليهم صفيحة الزُّبالة والذعر يتزايد في صدره، ثم سمع الضحكات، سمعها حقًا ولم يتوهمها، وفهم أنها ضحكات بريئة. لن يسأله هنا عن عدم حرقه المدرسة بدلًا من الكنيسة. لن يلومه أحد على ما فعل مع السيدة سيمبل. يمكن أن يبتسم لو أراد، ففعل.

ضحك هيكتور هوجان وهو يردد: «السيد هاي! لقد صرتَ سيدًا يا ولد يا إيس! يعجبني هذا.. السيد هااي. يبدو هذا من كلام الأثرياء».

ناولته إيس الملح وهو يقول: «اسمي إيس فقط يا رجل. لا تناديني السيد هاي، وإلا ناديتك السيد زُّبالة. اتفقنا؟».

- حسنًا. لا بأس.

صاح هيكتور دوجان: «يا سيد هاي!»، ثم ضحك مرة أخرى وأضاف: «لن يتخلص إيس من هذا اللقب المخرج أبدًا!».

قال إيس وهو يذهب ليملاً طبقه بالمزيد من البيض: «ربما، لكنني واثق أن الرب سيتخلص لي منه». وضع إيس يده على كتف صفيحة الزُّبالة ثواني وهو يمرُّ من خلفه، فشعر بها قوية دافئة ودودًا، يد صديق لا تلکم ولا تقررص. أكل رجل صفيحة الزُّبالة البيض وهو يشعر بالدفاء والراحة كما لم يشعر من قبل قطُّ. حاول عزل هذا الشعور وفهمه. نظر إلى الوجوه حوله، وحاول تفسير ما يشعر به على ضوء ذلك.

إنها السعادة...

يا لها من مجموعة رجال صالحين.

لقد صار لي بيت وموطن.. أخيرًا...

تَرَكَ لينام ذلك اليوم، وفي اليوم التالي أرسلوه إلى سد بولدر مع آخرين، فقضى اليوم هناك يعيد لفَّ الأسلاك النحاسية حول قلوب المحركات المحترقة. عمل مع الرجال دون مشرف، وفهم رجل صفيحة الزُّبالة أنهم لا يحتاجون إلى مشرف لأنهم يحبون ما يفعلوه حقًا.

ثم عرف ما هو عكس ذلك في اليوم التالي.

في العاشرة والرَّبع صباحًا، جلس رجل صفيحة الزُّبالة يلف سلك النحاس وعقله شارد على بعد مليون ميل. كان يؤلف مزاميرَ للرجل الغامض. خطر له أنه يستحق كتابًا ضخماً (مقدسًا) يُكتب فيه ما يعرفونه عنه من معجزات. سيكون كتابًا من النوع الذي سيود الناس قراءته يومًا، المئات ممن يؤمنون به مثلما يؤمن به الزُّبَال.

جاءه كين ديموت ممتقع الوجه وهتف: «تعال. انتهى العمل. سنعود إلى فيجاس. الحافلات بالخارج».

رمش رجل صفيحة الزُّبالة وسأله: «هه؟ لماذا؟».

- لا أعرف. هذه أوامره، مرَّرها لنا لويد. هيا يا زُّبَال. الأفضل ألا تسأل كثيرًا عن الأمور التي يديرها صعبو المراس».

فلم يسأل. وجد ثلاث حافلات مدارس تنتظر، يصعد إليها الرجال والنساء، يتبادلون أحاديثَ واجمة، وقد اختفتِ المشاكسات التي تدور بينهم كل يوم. باقترابهم من المدينة، سمع رجلُ صفيحة الزُّبالة أحد الرجال على الجهة الأخرى من الممر في الحافلة يهمس لزميله: «إنه هيكْتور. هيكْتور دروجان. اللعنة، كيف يعرف هذا المخيف ما يجري؟».

نظر الزميل نحو صفيحة الزُّبالة بعينين مرتابتين وهمس: «اسكت».

أبعد رجل صفيحة الزُّبالة عينيه عنهما، وحدَّق إلى الصحراء خارج النافذة، وغاص في ما يدور في عقله مرة أخرى.

هتفت إحدى النساء وهم ينزلون من الحافلات: «يا يسوع...»، وكان هذا هو التعليق الوحيد الذي تفوَّه به أحد.

نظر رجل صفيحة الزُّبالة حوله. كل شخص في سيبولا هنا. لقد استدعوهم جميعًا باستثناء بعض فرق الاستطلاع المتناثرة في المسافة بين المكسيك وغرب تكساس.

احتشد الجميع حول النافورة في نصف دائرة، يربو عددهم على الأربعمئة. مَنْ كانوا بالخلف وقفوا فوق مقاعد من الفندق ليروا. اقترب صفيحة الزُّبالة أكثر ليكتشف أنهم لا ينظرون إلى النافورة، بل إلى الشيء الملقى أمامها، لكنه لم يتبين كُنهه.

جذب أحد ذراعه.. إنه لويد، وجهه شاحب مهموم. قال له: «تعال، كنتُ أبحث عنك. إنه يريد أن يلقاك لاحقًا. حتى وقتها علينا أن نتولى الأمر. إلهي، كم أكره هذا. تعال، أحتاج إلى مساعدة، وقد اخترتك».

دار رأس الزُّبَال. هو يريد أن يراه. هو! لكن، فيمَ يحتاجون إليه الآن؟

- ما الأمر يا لويد؟

لم يجبه لويد، وظلَّ قابضًا على مرفقه، يقوده نحو النافورة. أفسح لهما الجمع الطريق كأنهم انكمشوا من مرأهما، وأحيط الممر الذي عبرا منه بالخوف والجزع.

يقف وسط الحشد ويتني هورجان يدخن سيجارة، وقد علّق فردة من حذائه على شيء، تبين للزُّبَال لاحقًا أنه صليب بطول اثنتي عشرة قدمًا.

سأل لويد: «الكل هنا؟».

أجاب ويتني: «نعم، أعتقد هذا. وصلت إلى وينكي وأمر بالاستدعاء، لكنَّ تسعة منا خارج الولاية. قال فلاج إنه لا يعبأ بوجودهم. هل تتحمل الأمر جيدًا يا لويد؟».

- سأكون بخير. أعني.. لستُ بخير، لكنَّ أنتَ تعرف.. سأتصرف.

أوماً ويتني برأسه تجاه رجل صفيحة الزُّبالة وسأل: «كَمْ يعرف الفتى؟». أجاب وقد تصارع على عقله الأمل والرغبة والرعب: «أنا لا أعرف شيئًا. ماذا يحدث؟ قال أحدهم شيئًا عن هيكتور...».

قال لويد: «نعم، إنه هيكتور. لقد كان يتعاطى الكوكايين.. يشمه. لكم أكره شَمَّ هذا الشيء. هيا يا وايتي. اطلب منهم أن يحضروه».

ابتعد وايتي عن لويد ورجل صفيحة الزُّبالَة، وخطا من فوق حفرة مستطيلة في الأرض ملأى بالأسمنت، وبدأت مناسبة من حيث الطول والعرض لاحتواء قاعدة الصليب. شعر رجل صفيحة الزُّبالَة بحلقه يجف وهو يراقب خطوات ويتني (وايتي) إذ عَبَرَ من بين الهرمين الذهبيين. التفت نحو الحشد الصامت، ثم إلى لويد ممتقع الوجه الذي ينظر إلى الصليب وهو يعبث ببثرة على ذقنه.

أخيراً استطاع رجل صفيحة الزُّبالَة أن يسأل: «هل.. سنصلبه؟».

مدَّ لويد يده فجأة إلى داخل جيب قميصه الكالح قال: «اسمع، لديَّ شيء لك. هو أعطاني إياه لأعطيك إياه. لا يمكنني إرغامك على قبوله، لكن أحسن لي أنني تذكرت أن أعرضه عليك. هل تريده؟».

ومدَّ يده له بسلسلة معلق فيها حجر قاتم السواد، به شائبة حمراء صغيرة كالحجر مع لويد. أرجح لويد السلسلة أمام عيني رجل صفيحة الزُّبالَة كأنها قلادة منوم مغناطيسي.

الحقيقة واضحة في عيني لويد، وعرف رجل صفيحة الزُّبالَة أنه لا يمكنه أبداً أن ينتحب أو يتمرغ في التراب أمامه -ليس أمامه هو بالذات- ويزعم أنه لا يفهم. قالت عينا لويد: خذها وستحوز كل شيء. وما هي بعض مهام حيازتك كل شيء؟ نعم. هيكتور هوجان، والصليب والحفرة التي تتسع لقاعدته. مد يده ببطء، ثم توقف قبل أن تمس أصابعه القلادة.

هذه هي فرصتي الأخيرة. فرصتي الأخيرة لأعود دونالد ميروين إلبيرت. لكنَّ صوتاً آخر ذا سلطة كبرى وطريقة حنون مطمئنة همس له بأن وقت الاختيارات قد ولى. لو اختار دونالد ميروين إلبيرت الآن.. سيموت. لقد اختار الرجل الغامض بإرادته (كان لرجل صفيحة الزُّبالَة إرادة) وقبل عطاياه. لقد أنقذه الغامض من الموت على يدي الطفل (لم يخطر ببال صفيحة الزُّبالَة أن الغامض قد أرسل إليه الطفل عن عمد)، وهذا يعني بالتأكيد أنه مدين له بحياته. مدين لمن يطلق عليه بعضهم: الماشي. ألم يعرض حياته عليه مراراً؟ لكنَّ روحك.. هل عرضت عليه روحك أيضاً؟

ثم قبض على السلسلة بيد، وعلى الحجر بالأخرى. الحجر بارد ناعم. أمسكه في قبضته للحظات ليُدْفئه، فظل بارداً. علقه حول عنقه ككره ثلج صغيرة، بيد أنه لم يعبأ بتلك البرودة التي تعادل النار المستعرة في عقله.

قال لويدي: «فقط أقنع نفسك بأنك لا تعرفه. أعني لا تعرف هيكتور. هذا ما أفعله دائماً ويُسهّل عليّ المهمة».

انفتح باب من بابي الفندق الضخمين، وصدحت منه صرخات رعب. شفق الحشد...

نزل تسعة رجال الدرجات وبينهم هيكتور. كان يصارعهم كنمر في شبكة صيد، ووجهه شاحب كوجوه الموتى إلا من خدين محمرين. كان عارياً كما ولدته أمه، يمسك به خمسة رجال، واحد منهم إيس هاي، الشاب الذي كان هيكتور يمزح بشأن لقبه.

صاح هيكتور: «إيس! ما قولك؟ اطلب منهم أن يتركوني. سأتوقف عن التعاطي... اتفقنا؟ أقسم بالرب إنني سأفعل. ما قولك؟ مجرد مساعدة صغيرة! أرجوك يا إيس!».

لم يقل إيس شيئاً، وأحكم قبضته على ذراع هيكتور. هذه إجابة كافية. صرخ هيكتور دروجان مرةً أخرى وهو يُجرّ نحو النافورة، ومن خلفه ثلاثة رجال واجمين كأنهم لحّادون؛ ويتني هورجان يحمل حقيبة كبيرة من قماش البُسْط، ورجل يدعى روي هوبز يحمل سُلماً، ورجل أصلع اسمه وينكي وينك يرتعش جفناه بلا توقف. حمل وينكي لوحاً مثبتاً إليه ورقة.

جُرّ هيكتور إلى الصليب ورائحة الخوف تفوح منه. عيناه زائغتان محدقتان. هتف وروي هوبز يقيم السلم: «يا زبّال... يا رجل صفيحة الزُّبالَة. اطلب منهم أن يتوقفوا يا صاحبي. أخبرهم أنني سأتوقف عن التعاطي. قل لهم إن ما فعلوه بي حتى الآن كافٍ، وأفضل من ألف مصحة علاج. قل لهم يا رجل...».

حنى رجل صفيحة الزُّبالَة عنقه محدقاً إلى قدميه، يعترض الحجر الداكن مجال إبصاره ويملاؤه. بدت الشائبة الحمراء كعين تنظر إليه. غمغم: «أنا لا أعرفك...».

رأى بطرف عينه وإيتي يركع على ركبة واحدة وسيجارته تتدلى من ركن فمه. أخرج من الحقيبة أوتاداً خشبية حادة، بدت لعيني رجل صفيحة الزُّبالَة المذعورتين في حجم أوتاد تثبيت الخيام. وضعها على الأرض، ثم أخرج مطرقة خشبية ضخمة.

رغم الغمغمات، اقتحمت عبارة رجل صفيحة الزُبالة عقل هيكتور دروجان
فصرخ: «ماذا تعني بأنك لا تعرفني؟! لقد تناولنا الإفطار معًا منذ يومين!
أنت ناديت هذا الفتى بالسيد هاي! ماذا تعني بأنك لا تعرفني أيها الكاذب
الجبان؟!».

كزّر صفيحة الزُبالة بوضوح أكبر: «لا أعرفك مطلقًا»، وأراحه ما قال.
إنه لا يرى إلا غريبًا يشبه كارلي يتس نوعًا ما. قبض على الحجر واستشعر
برودته فاطمأن أكثر.

صاح هيكتور: «أيها الكاذب!»، وتملص مرة أخرى وهو يكرر عبارته
ويتصعب عرقًا.

- لا. لا أعرفك ولا أريد أن أعرفك.

صرخ هيكتور وأرهق الأربعة الذين يمسكونه. قال لويد: «ها».

جرّوا هيكتور، وعرقله واحد من الرجال، فسقط على الصليب. في أثناء
ذلك، قرأ وينكي المکتوب على الورقة المثبتة إلى اللوح بصوت عالٍ شق
صراخ هيكتور كالمنشار.

- رجاء الانتباه! بأمر راندال فلاج، زعيم الشعب والمواطن الأول.. حُكِمَ
على هذا الرجل؛ هيكتور ألونزو دروجان، بالإعدام صلبًا لارتكابه جريمة
تعاطي المخدرات.

زعق هيكتور: «لا! لا! لا!». أفلت ذراعه اليسرى المبتلة بالعرق من قبضة
إيس، فركع صفيحة الزُبالة دون تفكير وثبّتتها إلى أحد أطراف الصليب. بعد
لحظات ركع وايتي إلى جوار صفيحة الزُبالة ومعه المطرقة والأوتاد. بدا
بسيجارته المتدلية من ركن فمه كرجل يوشك أن ينفذ بعض أعمال النجارة
في باحة بيته الخلفية.

- أمسكه جيدًا يا زبّال. سأثبتته على الفور. لن يتطلب الأمر أكثر من ثوانٍ.
أكمل وينكي بسرعة وعيناه ترمشان لا إرادياً: «تعاطي المخدرات ممنوع
في جماعة الشعب، لأنه يقلل قدرة المتعاطي على المشاركة الفعالة في
الجماعة. في هذه الحالة، اتهم هيكتور بتعاطي الكوكايين شماً وحياسة كمية
كبيرة منه».

وصل صراخ هيكتور إلى درجة قد تُهشّم الزجاج. حرك رأسه من جهة
إلى أخرى واللعب يسيل من فمه. تدفقت الدماء من جروحه الستة وستة

منهم -من بينهم رجل صفيحة الزُّبالة- يرفعونه بالصليب ويثبتون الأخير في الأسمنت. هيكتور الآن مجرد صورة ظلّية أمام خلفية السماء، رأسه مرفوع يشي بالعذاب الذي يمر به.

رفع وينكي صوته أكثر وأكمل: «...وهذا لمصلحة جماعة الشعب. هذه الرسالة تحذير رسمي، وتحية إلى شعب لاس فيجاس. لنعلّق هذه الرسالة القيّمة فوق رأس هذا الفاسق، ولتُختم بختم المواطن الأول راندال فلاج». صرخ هيكتور دروجان من فوقهم: «يا إلهي! هذا مؤلم! إلهي.. إلهي.. إلهي...».

ظلّ الحشد واقفاً ساعة، يخشى أن يكون كل واحد منهم أول من يرحل. ظهر الاشمئزاز على بعض الوجوه، والإثارة على الأخرى.. لكنّ العامل المشترك بينهم جميعاً هو الخوف. لم يكن رجل صفيحة الزُّبالة خائفاً. لماذا قد يخاف؟ إنه لا يعرف الرجل. إنه لا يعرفه مطلقاً.

في العاشرة والربع من مساء اليوم نفسه، عاد لويد إلى غرفة رجل صفيحة الزُّبالة، وقال له: «ما زلت ترتدي ملابس لاثقة بعد. جيد. ظننتك نمت».

- لا. أنا مستيقظ. ما الأمر؟

أجاب لويد بصوت منخفض: «حان الوقت يا صفيحة الزُّبالة. إنه يريد أن يراك. فلاج...».

- هو...؟

- نعم...

- أين هو؟ حياتي ملك له.. نعم...

- الطابق الأعلى. وصل بعدما أنهينا حرق جثة دروجان. لا يراه أحد يأتي أو يذهب يا صفيحة الزُّبالة، لكنهم يعرفون بوصوله ورحيله.

وصل المصعد إلى الطابق الأعلى بعد أربع دقائق، وخرج منه رجل صفيحة الزُّبالة بوجه منير وعينين متسعيتين، ولم يخرج لويد. استدار له صفيحة الزُّبالة وسأله: «ألن...؟».

ابتسم لويد ابتسامة وجلة وقال: إنه يريدك أنت وحدك. حظًا سعيدًا يا صفيحة الزُبالة».

وقبل أن يضيف أي شيء آخر، انغلق باب المصعد واختفى لويد.

وجد رجل صفيحة الزُبالة نفسه في ردهة عظيمة وأمامه بابان.. الباب في نهاية الردهة يُفتح ببطء. المكان معتم بالداخل، لكن استطاع صفيحة الزُبالة أن يرى أحدًا يقف في فرجة الباب، وعينين حمراوين.

مشى رجل صفيحة الزُبالة نحو الباب بقلب مضطرب وحلق جاف. بينما يمشي، شعر بالهواء حوله يزداد برودة. في مكان ما بداخله تملل دونالد ميروين إلبرت في قبره، وصرخ.

ثم سكن مرة أخرى.

قال صوت هادئ ساحر: «رجل صفيحة الزُبالة كم أن وجودك هنا عظيم. حقًا عظيم».

قال بكلمات كالتراب الملتصق في حلقه: «حياتي.. ملك لك».

- نعم...

ظهرت ابتسامة بأسنان بيضاء وسط الظلام، وسمع صوتًا يكمل: «لكني لا أعتقد أن الأمر قد يصل إلى هذا. دعني أنظر إليك...».

دخل رجل صفيحة الزُبالة إلى الغرفة بعينين ذاهلتين ووجه السائر في أثناء النوم. انغلق الباب وأحاطت بهما العتمة. أمسكت يد ملتهبة بيد رجل صفيحة الزُبالة المثلجة.. فشعر بالسلام.

قال فلاج: «لديك مهمة في الصحراء يا صفيحة الزُبالة. مهمة عظيمة. إن كنت تريد أداؤها...».

همس رجل صفيحة الزُبالة: «أي شيء.. أي شيء».

لفَّ راندال فلاج ذراعَه حول كتفيه النحيلتين وقال: «سأوكل إليك مهمة الحرق.. تعال.. لنجلس ونناقش الأمر».

في النهاية، كان هذا الحريق هائلًا فعلًا.

الفصل التاسع والأربعون

استيقظت لوسي سوان بعد منتصف الليل بربع ساعة حسب ما أخبرتها به ساعتها ماركة بولسار. عند الغرب، جهة جبال روكي، وميض برق صامت. لم تذهب إلى غرب فيلادلفيا قَطُّ قبل تلك الرحلة، فيلادلفيا.. حيث يسكن شقيق زوجها.. أو كان يسكن.

النصف الآخر من كيس النوم خالٍ، وهذا ما أيقظها. فكرت في العودة إلى النوم، فقد يعود إلى الفراش عندما يكون مستعدًا، لكنها قامت واتجهت إلى جانب المخيم الغربي، حيث ظننت أنه ذهب. مشت بخفة دون أن توقظ أحدًا، إلا القاضي؛ هذه هي مناوبة حراسته، ولن ترى القاضي فارييس يغفو في أثناء نوبة حراسته أبدًا. القاضي في السبعين من عمره، وفي المخيم تسعة عشر شخصًا منهم ثلاثة أطفال، وچو.

همس القاضي: «لوسي؟».

- نعم.. هل رأيت...

- طبعًا رأيته. لقد خرج إلى الطريق السريع. المكان نفسه الذي ذهب إليه ليلة أمس وليلة أول أمس.

اقتربت منه ورأت الكتاب المقدس مفتوحًا فوق فخذه. قالت: «سترهق عينيك بالقراءة في الظلام أيها القاضي».

- هراء. ضوء النجوم أفضل ضوء لقراءة كهذه. ربما هو الضوء الوحيد المناسب. ما رأيك في هذه الآيات؟ اسمعي: أليس جهاد الإنسان على الأرض، وكأيام الأجير أيامه؟ كما يتشوق العبد إلى الظل، وكما يترجى الأجير أجرته. هكذا تعين لي أشهر سوء، وليالي شقاء قُسمت لي. إذا اضطجعت أقول: متى أقوم؟ الليل يطول، وأشبع قلقًا حتى الصباح.

قال لوسي دون حماس: «هذا لطيف حقًا أيها القاضي».

- هذا ليس لطيفًا. إنه سفر أيوب، ولا شيء لطيف فيه يا لوسي. إذا اضطجعتُ أقول: متى أقوم؟ الليل يطول، وأشبع قلقًا حتى الصباح. هذه هي حال رجلِك يا لوسي. هذا هو قدر لاري أندروُد. تنهَّدت وقالت: «أعرف. لو أنني أعرف فقط ما خطبه».

صمت القاضي الذي لديه شكوكه. قالت: «لا يمكن أن تكون الأحلام هي السبب. لم يعد أحد يرى هذه الأحلام.. إلا جو...».

- نعم. صبي مسكين.

- وكلنا بخير، على الأقل منذ ماتت السيدة قولمان.

بعد يومين من انضمام القاضي إليهم، جاء دِك وسالي قولمان مع لاري أندروُد وجماعته من الناجين. تعجبتُ لوسي من أن المرض لم يصب رجلًا وزوجته، وشكَّت في أن زواجهما حديث، بعد الوباء. كانا في الأربعينيات، ومتحابين للغاية. منذ أسبوع، وفي منزل العجوز في هيمنجفورد هوم، مرضتُ سالي. خيموا يومين على أمل أن تتحسن أو تموت، فماتت. دِك قولمان معهم بعد، لكنه تحول إلى رجل آخر، صامت مهموم.

سألت القاضي فاريِس: «لقد آلم هذا قلبه، أليس كذلك؟

- لاري رجل وجد نفسه متأخرًا في الحياة، أو هكذا رأى الأمر. الرجال مثله لا يهدأون، ويمثلون كل ما تقوله الكتب عن المواطن الصالح: مُناصر غير متشدد، يحترم الحقائق التي ترافق كل موقف، لكن لا يحاول ترسيخها. لا يرتاح في موضع القيادة، لكن يتحمَّل المسؤولية متى عُرضت عليه.. أو أُلقيت عليه. من هم مثل لاري أفضل قادة ديمقراطيين لأنهم لا يقعون في حب السلطة والقوة، بل العكس. وعندما تتدهور الأوضاع.. عندما تموت السيدة قولمان...

قاطع القاضي نفسه وقال: «هل يمكن أن يكون السبب داء السكري؟ أعتقد هذا. البَشَرَة المزرقة، السقوط السريع في غيبوبة.. ربما. إن كان الأمر كذلك، فأين جرعات الأنسولين الخاصة بها؟ هل تركتُ نفسها تموت؟ هل انتحرت؟».

غاص القاضي في التفكير وكفاه معقودتان تحت ذقنه. ذكَّرته سالي برفق: «كنت تقول شيئًا عن تدهور الأوضاع».

- نعم، عندما تموت سالي من داء السكري أو النزف الداخلي أو أيًا كان، يلوم الرجال مثل لاري أنفسهم. الرجال الذين تقدسهم الكتب يعانون في الواقع. عندك مثلاً ميلفن بورفيس، أحد شجعان حقبة الثلاثينيات، الذي قتل نفسه بمسدسه عام 1959. عندما اغتيل لينكولن كان رجلاً مُسنًا قبل أوانه، يرقص على حافة الانهيار العصبي. نحن نشهد تحلل الرؤساء أمام أعيننا، نرى الاختلاف بين شهر وآخر، بل بين أسبوع وآخر... في ما عدا الرئيس نكسون طبعًا الذي تغذى على السلطة كما يتغذى الوطواط مصاص الدماء على الدم، وريجان الذي كان أغبى من أن يشيخ. أعتقد أن جيرالد فورد كان كذلك أيضًا.

غمغمت لوسي في حزن: «أعتقد أنه يعاني شيئًا آخر». نظر إليها متسائلًا، فأكملت: «إنه مصاب بالأرق، أليس هذا ما يحدث للرجال عندما يحبون؟». نظر إليها متعجبًا من معرفتها بما لا يريد الخوض فيه. هزّت لوسي كتفيها وابتسم ابتسامة مائلة مُرّة، وقالت: «النساء تعرف. النساء تعرف دائماً». قبل أن يتكلم، تركته واتجهت إلى الطريق حيث يجلس لاري دائماً، يفكر في نادين كروس.

- لاري؟

قال باقتضاب: «أنا هنا. لماذا استيقظت؟».

- بردتُ.

كان يجلس متربّعًا عند منعطف الطريق، سألته: «هل لي مكان إلى جوارك؟».

- طبعًا.

انزاح قليلًا، فجلستُ وأحاطها بذراعه. إنهم الآن على بعد خمسين ميلًا شرق بولدر حسب تقدير لوسي، لو انطلقوا في التاسعة صباحًا لوصلوا إلى مِنطَقة بولدر الحرة بحلول وقت الغداء.

الرجل الذي تحدث إليه خلال جهاز الإرسال والاستقبال اللاسلكي هو صاحب تسمية مِنطَقة بولدر الحرة. اسمه رالف بريتنر، وقد قال في شيء من الحرج إن اسم مِنطَقة بولدر الحرة رمز نداء على الأرجح. أعجبت لوسي

بالتسمية في حد ذاتها، وبوقعها. بدت لها كبشارة ببداية جديدة. تبنت نادين كروس التسمية وتعصبت لها كأنها طلسم.

بعد ثلاثة أيام من وصول لاري ونادين ولوسي وجو إلى ستوفينجتون ورؤيتهم مركز الأوبئة، اقترحت نادين أن يبحثوا عن جهاز إرسال واستقبال لاسلكي، وبدء البحث عن محطاته الأربعين. تقبل لاري الفكرة بكل حماس، كما يتقبل كل أفكارها. لوسي لم تفهم نادين كروس. كان لاري ملتصقًا بها، فيما بدت هي زاهدة فيه.

اتضح أن فكرة جهاز الاستقبال ممتازة، رغم خروجها من عقل بارد. هذه أسهل طريقة لمعرفة مكان المجموعات الأخرى وتحديد طرق مقابلتهم كما اقترحت نادين.

أدى هذا إلى نقاشات محتدمة بين أفراد مجموعتهم التي وصل عددها إلى اثني عشر شخصًا، بالإضافة إلى مارك زيلمان الذي كان يعمل لحامًا في نيويورك، ولوري كونستابل الممرضة ذات ستة وعشرين عامًا. قادتهم تلك النقاشات إلى حديث أكثر إزعاجًا عن الأحلام.

احتجّت لوري بزعمها أنهم يعرفون تحديدًا وجهتهم. كانوا يتبعون تعليمات هارولد لودر التي توجههم إلى نبراسكا. لهذا السبب لم يكن في وسعهم إنكار قوة الأحلام.

بعد مداولات، أصيبت نادين بنوبة هستيرية لأنها لا ترى أي أحلام لعينة. لم يكن لديها مانع من الذهاب إلى نبراسكا، لكن على أساس لافتات وتعليمات هارولد لودر، لا على أساس أحلام جماعية أو أي هراء ما وراثي مشابه. كانت مستعدة للإيمان باللاسلكي، لا بالرؤى.

ابتسم مارك إلى نادين في ود وسألها: «إن كنت لا ترين أي أحلام، فكيف أيقظتني ليلة أمس وأنت تتكلمين في أثناء نومك؟».

شحب وجه نادين وهتفت: «هل تُكذّبنني؟ لو كنت كذلك، فالأفضل أن يرحل واحد منا الآن».

انكمش جو والتصق بها وهو يهمهم. عمل لاري على تهدئة النقاش، وأثنى على فكرة جهاز اللاسلكي. خلال الأسبوع الماضي التقطوا بثًا، لا من نبراسكا (التي كان تردها مهجورًا من قبل أن يصلوا إلى هناك - أخبرتهم أحلامهم

بهذا رغم أنها كانت تخفت وتفقد إلحاحها)، بل من بولدر، كلورادو، على بعد ستمائة ميل إلى الغرب.. بث من جهاز رالف القوي.

تتذكر لوسي الوجوه المستبشرة لدى سماع صوت رالف بلكنة أو كلاهوما الخنفاء المميزة: «أنا رالف برينتنر، مِنطَقة بولدر الحرة. لو أنكم تسمعونني، أجيئوا على محطة رقم 14. أكرر. محطة رقم 14».

سمعه، لكنَّ الإرسال لديهم وقتها كان أضعف من أن يجيبوه. إلا أنهم اقتربوا، ومنذ البث الأول عرفوا أن المُسنة أباجيل فريمانتل وجماعتها كانوا أول من وصلوا، ومن وقتها يتوافد عليهم الناجون في جماعات صغيرة وصغيرة. كان قد اجتمع في بولدر مائتا شخص وقت تلقى رالف أولَ ردٍ منهم. مع مرور الأيام، وصلت جماعة بولدر إلى ثلاثمائة وخمسين شخصًا، وسيصلون إلى قرابة الأربعمائة بانضمام مجموعتهم.

قالت لوسي للاري وهي تضع يدها على ذراعه: «فيم تفكر؟».

أجاب وهو يشير إلى ساعتها ماركة بولسار: «كنت أفكر في الساعة وفي موت الرأسمالية. هل تعرفين المقولة العتيقة: «دع الخنازير ترعى بنفسها أو تموت؟» لقد رعتِ الخنازير وكدحت، حتى حصلت على سيارات كاديلاك حمراء وبيضاء وزرقاء، وساعة بولسار. والآن حان وقت الديمقراطية الحقيقية. في وسع كل سيدة أمريكية أن تحصل على ساعة بولسار ومعطف فراء».

- ربما. لكن دعني أقل لك شيئًا يا لاري. أنا لا أعرف الكثير عن الرأسمالية، لكنني أعرف شيئًا عن تلك الساعة التي تساوي ألف دولار. أعرف أنها ساعة سيئة.

نظر إليها مدهوشًا وهتف مبتسمًا: «حقًا؟!». سُرَّت لمراه يبتسم.. يبتسم لها. قال: «ولم لا؟».

- لأنه لا يعرف أحد الوقت تحديدًا. منذ أربعة أيام أو خمسة سألتُ السيد چاكسن وسألتُ مارك وسألتك، وأخبرني كل واحد منكم بتوقيت مختلف، وقد أكدتم جميعًا أن ساعاتكم قد توقفت مرة على الأقل منذ بدء الوباء.. هل تتذكر ما المكان الذي يحتفظون فيه بتوقيات العالم؟ قرأتُ عنه مقالًا في مجلة عند الطبيب. الوقت مضبوط هناك إلى أقصى حد. لديهم هناك ساعات ذات رقَّاصات وساعات شمسية وكل شيء.

أفكر الآن في هذا المكان ويجن جنوني. معي ساعة بألف دولار ولا تستطيع أن تخبرني بالوقت الحقيقي، وكل هذا بسبب الإنفلونزا اللعينة. صمتت وجلساً معاً دون حديث، ثم أشار لاري إلى السماء وهتف: «انظري هناك!».

- ماذا؟ أين؟

أمسك رأسها ووجهه نحو ما يريد أن تراه، فتوقف الشهيقي في حلقها. إنه ضوء ساطع كضوء النجوم، لكنه لا يومض، يعبر بسرعة من الشرق إلى الغرب.

- إلهي! لاري، هذه طائفة! أليس كذلك؟ طائفة!

- لا، بل قمر صناعي. سيظل يدور ويدور هكذا لسبعمئة عام أو أكثر. جلسا يراقبانه حتى اختفى خلف جبال روكي. قالت برقة: «لاري. لماذا لم تعترف نادين برؤية الأحلام؟».

شعرت به يتصلب في جلسته، فتمنت لو لم تتكلم عنها، لكنها فعلت الآن وتنتوي أن تستكمل بحثها عن إجابة.. ما لم يبعدها تماماً عن الأمر.

- تقول إنها لا ترى أحلاماً.

- كان مارك محقاً بصد ما قال. إنها تراها وتتكلم في أثناء النوم حتى إنها أيقظتني في مرة.

حدق إليها هنيهة ثم سألها: «بم تكلمت؟».

- تلملت في كيس نومها، وظلت تردد عبارات مثل: «لا.. إنه بارد جداً. لا أحمله. إنه بارد. بارد جداً»، ثم بدأت تجذب شعرها وتئن. أرعبتني.

- يرى الناس كوابيس يا لوسي، وليست كل الكوابيس.. عنه.

- الأفضل ألا نتحدث عنه ليلاً، أليس كذلك؟

- نعم. هذا أفضل.

رغم إصرارها على إنكار رؤية الأحلام، لاحظ لاري دُكنة الهالات البنية تحت عينيها، حتى إن شعرها ازداد شيباً بوصولهم إلى هيمنجفورد هوم. لو لمستها لأجفلت فزعاً.

قالت لوسي: «أنت تحبها، أليس كذلك؟».

- أوه، لوسي...

- لا.. أريدك فقط أن تعرف أنني ألاحظ الطريقة التي تنذر إليها بها، وكيف تنظر إليك أحياناً عندما تكون مشغولاً. إنها تحبك يا لاري، لكنها خائفة.

- خائفة من أي شيء؟!

تذكر محاولته ممارسة الحب معها ورفضها إياه. ازداد صمتها من وقتها رغم أنها كانت تتصنع المرح من وقت إلى آخر، لكنها الآن مهمومة مرهقة. كان چو نائماً، فذهب لاري للجلوس إلى جوارها. لم يتحدثا عن الوضع الحالي، بل عن الماضي، عن الموضوعات الآمنة. حاول لاري أن يقبلها، فدفعته وأدارت وجهها. حاول مرة أخرى في مزيج من العنف والتودد. كان يرغب فيها حقاً، وكادت تنصاع له.. ثم تملصت وابتعدت بوجه ممتقع، عاقدة ذراعيها على صدرها.

لا تفعل هذا يا لاري مرة أخرى. أرجوك. وإلا أخذت چو ورحلت. لماذا؟
لماذا يا نادين؟ لماذا تجعلين الأمر صعباً إلى هذا الحد؟

لم تجبه، فقط وقفت أمامه تنظر إلى أسفل. أخيراً قالت: «لو أستطيع لأخبرتك». ثم ابتعدت دون أن تنظر ورائها.

قالت لوسي: «كانت لي صديقة تتصرف على هذا النحو عندما كنت في المدرسة العليا. اسمها چولين ميجورز. لم تكمل چولين دراستها كي تتزوج حبيبها الذي حملت منه. غاب زوجها كثيراً في عمله في البحرية، وچولين تحب الحياة، لكن زوجها كان غيوراً. قال لها إنه لو اكتشف أنها تفعل شيئاً من وراء ظهره لكسر ذراعيها وشوّه وجهها. هل تتخيل حياتها؟».

- نعم.. ليست حياة عظيمة.

- بعد مدةٍ تعرّفت شاباً آخر، وتواعدا سرّاً. لم تكن تعرف أكان زوجها قد أرسل من يراقبها، لكن لا يهم. مع مرور الوقت، أصيبت چولين بجنون الارتياب، فصارت تشك في أن الرجل الذي ينتظر الحافلة عند المحطة واحد من أصدقاء زوجها، أو الرجل في الصف خلفها وهي تحجز غرفة في الموتيل من معارفه. حتى لو كانت تحجز في مكان للقاء حبيبها في ولاية أخرى، كانت تشك في كل من حولها. تطور الأمر حتى إنها كانت تصرخ لو أغلقت الباب بقوة، وترتجف كلما صعد أحد درج بيتها. في النهاية سئم حبيبها منها وتركها. لم يخف من زوج چولين،

بل خاف منها. قبل أن يعود زوجها من سفره، أصيبت بانهييار عصبي، وكل ذنبها أنها بحثت عن حب.. وأنه كان غيورًا حد الجنون. تُذكّرني نادين بتلك الفتاة يا لاري. أنا آسفة من أجلها. الحقيقة أنني لا أحبها كثيرًا، لكنني متأكدة من أنني آسفة لأجلها.

- هل تقولين إن نادين خائفة مني كما كانت صديقتك تخاف من زوجها؟
- ربما...

ضحك ضحكة مفتعلة وقال: «يجب أن نعود إلى الفراش. يوم غد سيكون حافلاً».

أدركت أنه لم يفهم أي شيء مما قالت، فانفجرت فجأة في البكاء. حاول أن يلف ذراعه حولها، فأبعدتها وقالت: «أنت تحصل على ما تريد مني، لست مضطراً إلى فعل هذا!».

ما زال من لاري القديم شيء متبقٍ، فتساءل أكان صوتها قد بلغ المخيم. قال واجماً: «لوسي، أنا لم ألو ذراعك».

صاحت وهي تضرب ساقه: «أوه، كم أنت غبي! ما الذي يجعل الرجل بهذا الغباء يا لاري؟ أنت لا ترى إلا الأبيض والأسود. لا، أنت لم تلو ذراعي، وأنا لست مثلاً. يطلق الرجال على أمثالي نعوتاً يكتبونها على جدران دورات المياه كما أسمع. الحقيقة أنني احتجت إلى شخص آخر، احتجت إلى دفء.. إلى حب. هل هذه حاجة بهذا السوء؟».

- لا، ليست كذلك. لكن يا لوسي...
- لكنك لا تؤمن بهذا، لذا تطارد السيدة التي لا تكثر لك، فيما تلبّي لوسي طلباتك بعد الغروب.

جلس صامتاً يهز رأسه. كلامها كله صحيح. كان مرهقاً لدرجة لا تسمح له بمجادلتها. يبدو أنها أدركت هذا، فاسترخى وجهها ووضعت يدها على ذراعه.

- لو حصلت عليها يا لاري، فسأكون أول المباركين لك. أنا لم أحمل ضغينة في حياتي. لكن.. لا تشعر بهذا اليأس.

- لوسي...

علا صوتها فجأة، وصار أقوى، فاقشعر جسده وهي تقول: «كنتُ أظن فقط أن الحب مهم للغاية، وأنه الشيء الوحيد القادر على إخراجنا مما نحن فيه. أنت مُحق. الوقت تأخر. سأعود إلى الفراش. هل ستأتي؟».

- نعم.

قام وعانقها دون تفكير. قبَّلها بقوة ثم قال لها: «أحبك يا لوسي قدر استطاعتي».

قالت بابتسامة مرهقة: «أعرف يا لاري».

عندما لفَّ ذراعه حول كتفها هذه المرة، تركتها. مشيا إلى المخيم معاً، ومارسا الحب ثم ناما.

استيقظت نادين كقط في الظلام بعد عودة لاري ولوسي بعشرين دقيقة، وبعد عشر دقائق من أناتهما من ممارسة الحب ثم النوم.

تملك منها الفزع وهي تفكر: أحدهم يريدني. أنصتت إلى دقات قلبها، وحدقت بعينين متسعيتين داكنتين إلى فروع شجرة دردار تُزيّن السماء بالظلال المتشابكة. شخص يريدني. هذا حق.

لكنه... بارد جداً...

قُتلَ والداها وأخوها في حادث سيارة عندما كانت في السادسة. لم تذهب معهما لتلك الزيارة، وبقيت في البيت تلعب مع أحد رفاقها. لقد أحب والداها أخاها أكثر منها على أي حال، ولم يحبها أخوها، هي المُتبناة من دار أيتام في سن الرابعة والنصف. جذور أخيها معروفة، إنه ابنهما، لكن نادين ستظل دائماً بلا أصل، ابنة الأرض.

بعد الحادث، ذهبَ للعيش مع العم والعمة لأنهما الأقارب الوحيدان المتبقيان. تتذكر أنهما اصطحباهما في رحلة إلى جبل واشنطن في عيد ميلادها الثامن عشر، تسبب لها الارتفاع في نزف أنفي وغضباً منها. العمة والعم مسنان، وكانا في منتصف الخمسينيات عندما كانت هي في السادسة عشرة، السنة التي جرت فيها على العشب المبتل بالندى تحت ضوء القمر.. ليل الخمر التي تكاثفت فيها الأحلام من الهواء وتجسدت. لو أن الشاب معها قد لحق بها لأعطته كل ما يشواق إليه، وماذا يهم لو لحق بها؟ لذا جريا، هذا هو المهم.

لكنه لم يلحقُ بها. غطتُ سحابةَ القمرِ، صار الندى كثيفًا مزعجًا، مخيفًا. طعم الخمر تحول إلى طعم معدني مُر في فمها. التحوُّل يجري في كل شيء حولها، يخبرها أن عليها الانتظار.

وأين كان عريسها الغامض المُنتظر وقتها؟ في أي شارع، في أي حارة خلفية يقطع ظلام الضواحي؟ أي ريح باردة ريحه؟ كم عدد أصابع الديناميت في حقيبته؟ مَنْ يعرف بأي اسم كان يُدعى عندما كانت في السادسة عشرة؟ كم يبلغ عمره؟ أين موطنه؟ أي أم حملته ليرضع من صدرها؟ كانت فقط متأكدة من أنه يتيم مثلها، وأن وقت ظهوره قد اقترب. إنه يمشي في الشوارع التي لم تُرصف بعد، وتخطو هي على الطريق نفسه دون أن تدري. مفترق الطرق الذي سيلتقيان عنده ما زال بعيدًا. رجل أمريكي هو، تعرف هذا، رجل يحب الحليب وفطير التفاح، رجل يُقدِّر الطهو المنزلي. موطنه أمريكا، طُرُقه سرية، مخابئه على الطرق السريعة وفي محطات قطار الأنفاق ذات اللافتات المكتوبة بالحروف الرونية. إنه الوجه الآخر، صعب المراس، الرجل الغامض، المتشح بالسواد، الماشي، كعبا حدائه المهترئان يدقان على طرق ليل الصيف العطرة.

مَنْ يعرف متى يصل العريس؟

ظلت تنتظره، مكسورة. كادت تسقط في الخطيئة مرة في السادسة عشرة، ثم مرة أخرى في الجامعة. هرب حبيبها في المرتين، حائرين متعجبين من تصرفها، تمامًا مثل لاري الآن. شعروا جميعًا بموعدها عند مفترق الطريق، باللقاء السحري.

تتقاطع الطرق عند بولدر.

اقترب والوقت، وقد ناداها كي تأتي.

دفنت نفسها في العمل بعد تخرجها في الجامعة. تشاركت منزلًا مُستأجرًا مع فتاتين. أي فتاتين؟ تتغير الفتاتان دائمًا وتبقى نادين. كانت لطيفة مع الشباب الذين تدعوهم رفيقتا سكنها، لكن لم يكن لها من خليل قط. افترضت أنهم يتحدثون عنها، يقولون إنها العانس المُنتظرة، بل يشكون في ميولها الجنسية الخفية. كل هذا ليس صحيحًا. كانت ببساطة...

قوية.

تنتظر.

خطر لها أحياناً أن التغيير قادم. كانت تتوقف في منتصف ما تفعل، وتهمس لنفسها: التغيير قادم.. ستهب ريح عظيمة. وقتما تفكر في هذا، تنظر إلى ما وراء كتفها في قلق، كأن أحداً يتبعها، ثم تستفيق وتضحك ضحكة عصبية.

بدأ شعرها يشيب وهي في السادسة عشرة، العام الذي طوردت فيه ولم يُمسك بها. بدأ الأمر ببضع خصلات فقط، لم تكن الخصلات رمادية، بل بيضاء ناصعة وسط سواد شعرها الفاحم.

بعد أعوام حضرت حفلاً في مبني أخوية جامعية، وبعد فترة تسلل الحضور في زوجين، وقلّت الإضاءة. وقّعت أغلب الفتيات -من بينهن نادين- على تصريح قضاء ليلة خارج غرف إقامتهنّ في المدينة الجامعة، وكادت نادين تستغل ذلك التصريح. لكنّ ما مر بها ظل مدفوناً تحت الأشهر والأعوام. في ضوء الساعة السابعة صباحاً الخافت، نظرت إلى انعكاس صورتها في صف مرايا حمامات مَسكن الطلبة، ورأت الشعر الأبيض وقد ازداد خلال الليل كما بدا لها رغم استحالة ذلك.

ومرت الأعوام، وراودتها الأحاسيس، نعم.. الأحاسيس. كانت تستيقظ ليلاً باردةً وساخنةً في آن، غارقة في العرق، تشعر بأنها حية، غارقة في أحلامها الجنسية الجامعة. بعد هنيهة تقوم وتنظر إلى المرأة، وتتعجب من زيادة الشعر الأبيض مجدداً.

لم تكن خلال تلك السنوات سوى نادين كروس، اللطيفة مع الأطفال، البارة في عملها، العازبة. في الماضي قد تثير امرأة مثلها الفضول وسط المجتمع، لكنّ الزمن تغير، خاصة مع جمالها الفريد الذي ناسب بشكل ما وحدتها وسوّغها.

والآن سيتغير الزمن مرة أخرى.

بدأت ترى في أحلامها العريس المُنتظر، وتفهمه بعض الشيء حتى لو لم ترَ وجهه من قبل. إنه من تنتظره. رغبت في الذّهاب إليه.. ورغبت عن ذلك. إنها مقسومة له، لكنه يربعها.

تعقدت الأمور منذ ظهر چو ثم تبعه لاري. صارت كجائزة يتصارع عليها المتسابقون. تعرف أن طهرها وعذريتها مهمان عند الرجل الغامض لسبب ما، وأنه لو حصل عليها لاري أو أي شخص آخر، سيزول هذا السحر الأسود.

لكنها مغرمة بلاري، وفكرت كثيرًا في تسليم نفسها له طواعية، وليحدث ما سيحدث، وليزُل ما سيزول. إنها مُتعبة، وكما قال لاري؛ لقد انتظرت المنشود وقتًا أطول من اللازم.

بيد أن لاري ليس محققًا حتى لو بدا كذلك لأول وهلة. لقد أبعدته غريزيًا، كما تبعد المُهرة ذبابة بذيلها دون تفكير. رغم ذلك تبعته. هذه حقيقة. لكنها تاقَت إلى مقابلة الآخرين، ليس فقط بسبب چو، لأنها قد وصلت إلى درجة قبول التخلي عنه والانطلاق إلى الغرب بحثًا عن رجلها الغامض. منعته فقط تلك الأعوام التي عملتها في رعاية الأطفال والحفاظ عليهم.. ولمعرفتها أن چو سيموت لو تركته وحده.. والسماح لمزيد من الموت جريمة، في عالم مات فيه كل هؤلاء...

لذا استمرَّت مع لاري الذي هو أفضل من أي خيار آخر، لكن اتضح أن لاري أندروُد ليس فقط أفضل من أي خيار آخر، بل شيء فيه أشبه بالخداع البصري الذي يجعل المرء يظن أن الماء ضحل، وحالما تمد يدك فيه يصل الماء إلى كتفك. يكمن عُمقه على سبيل المثال، في الطريقة التي كسب بها چو إلى صفه، وتعلق الطفل به، وغيرتها من هذه العلاقة. لن تنسَ ما حدث عند معرض الدراجات البخارية في ويلز، وكيف اختبر لاري الصبي دون خوف. ظلت تُحدِّق يومها إلى غطاء الخزان وتنتظر أن يهوي على أصابعه ليقطعها، وعندما انتهى الأمر ظلت مشدوهة تنتظر صوت الصراخ.

انفتح الغطاء، وتُركت نادين لحُكمها الخاطيء على چو. لقد عرف الطفل أكثر مما تعرفه، ودون أي خبرة في هذا الجانب، وفي أثناء وقت أقل. لقد رأَت لمحات من تفهمها من قبل عندما فطن لاري إلى أهمية الجيتار إلى چو، وإلى علاقته به.

ما كان مركز علاقتها بچو؟ الاعتمادية طبعًا. لذا صارت تشعر بغيرة. لو أن چو قد اعتمد على لاري، فلا مشكلة، وهو أمر طبيعي. ما أقلقها هو اعتماد لاري على چو. إنه يحتاج إليه كما لم تحتجَ هي إليه من قبل.. وچو يعرف هذا. هل أخطأت تقييم شخصية لاري إلى هذا الحد؟ الإجابة: نعم. ما رأته منه لم يكن سوى قشرة، ذابت مع التحديات والضغط. قدرته على قيادتهم جميعًا في هذه الرحلة تدلُّ على عزيمة قوية.

صار الاستنتاج واضحًا الآن. مع رغبتها في تسليم نفسها لـلاري، ما زال جزءٌ منها يشعر بالتزام نحو الرجل الآخر.. مضاجعة لاري ستُفقدُها هذا الجزء إلى الأبد، وهي لا تعرف أكانت تستطيع فعل ذلك.

ضايقتها في البداية معرفتها أنها ليست الوحيدة التي تحلم بالرجل الغامض، ثم تحول الضيق إلى خوف استمر عندما كان الأمر بينها وبين لاري وچو. بعدما التقوا لوسي سوان وعرفوا أنها ترى ذات الأحلام، تحول خوفها إلى ذعر مجنون، وما عادت قادرةً على إقناع نفسها بأن حلميهما يشبهان فقط حلمها. ماذا لو أن الناجين جميعًا يحلمون به؟ ماذا لو أن أوان مجيء الغامض، لا من أجلها فقط، بل من أجل مَنْ تبقى على سطح الكوكب؟

أثارت فيها تلك الفكرة شعوري الرعب والانجذاب القوي في آن واحد. كانت متمسكةً بأمل مركز ستوفينجتون كرمز للمنطقية والتعقل أمام كل هذا السحر الأسود الجارف كال موج. لكنَّ المركز صار مجهولًا، رمزًا للسخرية من الملجأ الآمن الذي حلمت به. رمز العقل الآن صار قبرًا.

بينما يتجهون غربًا، ويقابلون المزيد من الناجين، مات تدريجيًا حلمها في زوال الأزمة دون مواجهة. مات الحلم مع تزايد انجذابها إلى لاري. إنه يعاشر لوسي سوان الآن، لكنَّ ما المهم في الأمر؟ الجميع يتجنبها الآن. إنهم يحلمون حلمين متضادين؛ حلم الرجل الغامض وحلم المرأة المسنة، ويبدو أن كليهما يرمز إلى قوة من قوى العالم. المُسنة هي النواة التي ينجذب إليها الآخرون تدريجيًا.

لم تحلم بها نادين قط. لم تحلم إلا بالغامض.

خفتت أحلام الآخرين مع الوقت، فيما تزايدت أحلامها ووضحت أكثر.

إنها تعرف الكثير مما يجهلونه. اسم الرجل الغامض راندال فلاج، ومَن يعارضونه أو يخالفونه في الغرب يُصلَّبون أو يُجَنُّون بطريقة ما ويُطَلَّقون ليلقوا مصايرهم في وادي الموت.

تعرف أن مجموعة صغيرة من التقنيين من سان فرانسيسكو ولوس أنجلوس يتجهون إلى فيجاس حيث يتجمَّع الآخرون. لا داعي إلى التعجل في رأيه. الصيف ينتهي وقريبًا ستمتلئ ممرات الجبال بالثلج. يمكنه كسحها، لكنه لن يرسل رجاله لذلك. سيحل شتاءً طويلٌ يعزلهم حتى أبريل القادم وربما مايو...

رقدت نادين تنظر إلى السماء.

بولدر أملها الأخير. المرأة المسنة أملها الأخير. المنطق والتعقل اللذين أملت أن العثور عليهما في ستوفينجتون بدأ في التجسد مرة أخرى في بولدر. قالت لنفسها إنهم أناس أخيار، لكن ليت العالم بهذه البساطة، لكنه معلق في شباك تضارب المصالح في عقلها.

ظلت تُردّد لنفسها مرارًا أن القتل في هذا العالم المنكوب جريمة، خطيئة، وهمس لها قلبها مؤكدًا أن راندال فلاج هو الموت لهذا العالم. لكن.. لكم تتوق إلى قبلته الباردة.. أكثر مما تتوق إلى قبلة زميل المدرسة، أو الأسوأ كما تخشى.. أكثر مما تتوق إلى قبلة لاري أندروود وعناقه.

قالت لنفسها إنهم سيصلون إلى بولدر في الغد، وستعرف وقتها أكانت الرحلة قد انتهت، أم...

رأت شهابًا يضيء السماء، فتمنّت -كطفلة- أمنية صادقة.

الفصل الخمسون

يبزغ الفجر فيُلَوِّنُ المساء بلون وردي رقيق.

ستو ريتمان وجِلِن بيتمان في منتصف طريقهما خلال جبال فلاجستاف غرب بولدر، عند بداية ارتفاع جبال روكيز عن سطح الأرض. بدتُ أشجار الصنوبر لستو كأنها شرايين ضخمة تغطي سطح يد عملاقٍ تبزغ من تحت الأرض.

في مكان ما شرقًا، بدأت نادين كروس تغوص أخيرًا في نوم ذي أحلام غير مُرضية.

قال جِلِن: «سيصيبني الصداع هذا المساء. لا أظنني سهرتُ أشرب طَوَال الليل منذ كنت في الجامعة».

قال ستو: «شروق الشمس يستحق».

- نعم. جميل. هل سعدت جبال روكي من قبل؟

- لا. لكنني مسرور أنني زُرتها أخيرًا.

شرب من زجاجة الخمر ثم نظر إلى الأفق قليلًا. بعد دقائق سأل جِلِن: «ماذا سيحدث الآن؟».

رفع جِلِن حاجبيه متسائلًا: «سيحدث؟».

- بالتأكيد. لهذا صعدتُ إلى هنا. قلت لفراني إنني سأجعلك تشرب حتى تتمل، ثم سأعصر مُخَّك، فقالت: لا بأس.

ابتسم جِلِن وقال: «ليس في عقلي ما يُعصر الآن».

- لكنني أعرف أن الخمر سيُبدى حقيقتك. أنت عالم اجتماع، تدرس تفاعل المجتمعات وتصرفاتها. هيا، امنحني بعض التخمينات العلمية بصدد ما سيحدث.

- املاً يدي بالفضة أيها الطامح إلى المعرفة.

- من أين لي بالفضة أيها الأصلع. سأخذك إلى مصرف بولدر الوطني غداً وأعطيك مليون دولار مقابل نبوءاتك. ما رأيك؟

- بعيداً عن المزاح يا ستو.. ماذا تريد أن تعرف؟

- الشيء ذاته الذي يريد معرفته الأبكم أندروز. ماذا سيحدث بعد ذلك؟ لا أعرف كيف أصيغ السؤال بشكل أفضل من هذا.

قال جلين ببط: «سيتمكّن مجتمع. من أي نوع؟ مستحيل التنبؤ بهذا الآن. معنا أربعمئة شخص تقريباً، وبمعدّل انضمامهم اليومي هذا قد يصلون إلى أربعة آلاف وخمسمئة بحلول سبتمبر، وإلى ثمانية آلاف قبيل هطول الثلج في نوفمبر وغلق الطرق. دوّن هذا بعنوان: النبوءة رقم واحد».

أمام عينيّ جلّ، المدهوشتين، دوّن ستو ما قال في دفتر أخرجته من جيبه. قال ستو: «ما لا أصدقه أننا عبّرنا البلاد تقريباً ولم نصادف في رحلتنا مائة شخص حتى».

- نعم. لكنهم يأتون مباشرةً إلى هنا، أليس كذلك؟

- نعم. في تفتّاتٍ ولِمام.

- في ماذا وماذا؟!

- في تفتّاتٍ ولِمام. أمي كانت تقول هذا دائماً. هل تسخر من كلام أمي الآن؟

- لن يأتي اليوم الذي أفقد فيه احترامي لأمي كي أسخر من أم رجل من تكساس يا ستورات.

تابع ستو حديثه: «نعم، إنهم يتوافدون. يتواصل رالف مع خمس مجموعات أو ست، وهذا ما سيجعل مجموعتنا أقرب لخمسمئة شخص مع انضمامهم».

ابتسم جلين، وقال: «نعم، والأم أباجيل تجلس إلى جواره في «محطة إذاعته» تلك، لكنها لا تتحدث خلال الجهاز خوفاً - كما تقول - من أن تصعقها الكهرباء».

- تحب فراني تلك المرأة. جزء من محبتها لها بسبب معرفتها بالتوليد، لكنها تحبها بصدق بصرف النظر عن الأسباب. هل تعرف هذا؟
- كلنا يشعر بالشيء ذاته تجاهها.

عاد جلن إلى الموضوع الأصلي، فقال: «ثمانية آلاف بحلول الشتاء. رباة! هذا متوسط حسابي فقط. لو فرضنا أن الوباء أجهز على تسع وتسعين بالمائة من البشر. ربما لم يصل إلى هذا الحد، لكن لنستخدم ما معنا من أرقام حتى نقف على أرض صلبة. لو أن معدل الوفيات تسع وتسعون بالمائة، فقد قتل هذا الشيء مائتين وثمانية عشر مليون شخص في هذه البلاد فقط». نظر إلى وجه ستو الممتقع، فأوماً في كآبة.

قال ستو: «إلهي!».

- لكن سيتبقى لنا أكثر من مليوني شخص. خمس عدد سكان طوكيو قبل الوباء، وربع عدد سكان نيويورك قبله. هذا في أمريكا فقط. أعتقد أيضًا أنه لم ينج من تبعات الوباء أكثر من عشرة بالمائة من المليونين. مثلاً ضحايا ما بعد الصدمة، أشخاص مثل مارك بزائدته الدودية المنفجرة، مصابو حوادث وحالات انتحار وقتل أيضًا، وهذا ما يقلل هذا العدد إلى مليون وثمانمائة ألف. لكننا نؤمن أيضًا بوجود خصم. أليس كذلك؟ هذا الرجل المتشع بالسواد الذي نحلم به، وهو في مكان ما غربًا، حيث سبع ولايات أخرى يمكن أن نطلق عليها اسم: منطقة نفوذه.. لو أنه حقًا موجود».
- أو من أنه موجود.

- وأنا أيضًا. لكن هل يسيطر حقًا على كل الناجين هناك؟ لا أعتقد هذا إلا كما أعتقد أن الأم أباجيل تسيطر على كل الناجين في الشرق. لكن الناس يتواصلون الآن بعد فترة بطء في التحرك والتدفق. عندما ناقشنا الأمر أنا وأنت في نيو هامبشير تحدثت عن تجمعات من عدد قليل جدًا. ما لم أحسن حسابه -لأنني لم أكن أعرفه- أن حلمين متضادين يسحبان الناس إلى وجهتين مختلفتين. هذه حقيقة لم يتوقعها أحد.

- هل تقول إن مجموعتنا ستصل إلى تسعمائة ألف، وكذلك مجموعته؟! لا. سيقبل الشتاء القادم من العدد ومن تدفق الناس. ربما نتحملة هنا، لكنه سيكون قاسيًا جدًا على المجموعات الصغيرة التي لن تصل إلينا

قبل الشتاء. ألا تلاحظ أنه ليس معنا طبيب واحد في المنطقة الحرة حتى الآن؟ خِدْمَاتنا الطبية تتكون من طبيب بيطري والآن أباجيل نفسها التي تتذكر بعض تركيبات الأعشاب القديمة. على ذلك، لن تصمد قدرتهما أمام إصابة خطيرة. هل توافقني؟

- بالتأكيد.

- أعتقد أن تعدادَ الأمريكيين الكلي قد ينخفض إلى مليون وستمئة ألف بحلول الربيع.. هذا مجرد تقدير. ربما يصل إلينا من هذا العدد مليون.

- مليون شخص!

نظر إلى بولدر الممتدة الصحراوية، وقد أشرقت الشمس عليها. أكمل: «لا أستطيع أن أتصور هذا. ستكتظ هذه البلدة حتى تنفجر».

- لم تتحمل بولدر هذا العدد. يجب أن نبرز مجتمعاتٍ أصغرَ حولنا. ما صورته أنت هو أننا سنكوّن مجتمعًا واحدًا ضخمًا فيما باقي البلاد في الشرق مهجورة.

- لماذا تعتقد أن أغلب الناس يتجهون إلينا؟

مسّد سرواله وقال: «لسبب غير علمي، هو أنني مؤمن أن أغلب الناس صالحون، ومؤمن أن مَنْ يترزع الغرب خبيث. لكنّ حدسي أن....».

- تكلم.. هيا...

- سأتكلم لأنني ثمل. لكنّ لندع الأمر بيني وبينك يا ستو.

- اتفقنا.

- وعد؟

- وعد....

قال جِلن أخيرًا: «أعتقد أنه سيحصل على أغلب التقنيين. لا تسألني عن السبب. هذا حدس فقط. أغلب التقنيين يفضلون العمل في أجواء منضبطة وحسب أهداف واضحة. ما لدينا هنا كتلة تخبُّط وكل واحد يفعل ما يخطر له.. يجب أن نفعل شيئًا لجمع شتات أنفسنا، إلا أن ذلك الآخر.. أراهن على أنه منضبط كالساعة، والتقنيون بشر مثلنا، سيذهبون إلى حيث يريدون وإلى حيث يناسبهم. أشكُّ في أن خَصْمنا يريد كل مَنْ يستطيع الحصول عليه منهم. لن يبحث عن المزارعين، بل عمَّن يعثرون على صوامع الصواريخ في أيدها

ويشغلونها. كما ذكرت آنفًا، ينطبق هذا على الدبابات وقاذفات الصواريخ والمروحيات. أعرف أنه لم يصل إلى هذا الحد بعد وإلا عرفنا. إنه الآن على الأرجح يعيد تشغيل مصادر الطاقة ويركز على إنشاء وسائل التواصل.. أو هو منغمس حتى في التخلص من ذوي القلوب الضعيفة. لم تُبنَ روما في ليلة، وهو يعرف ذلك. لديه وقت. لكن عندما أرى المغيب أصاب بالذعر يا ستو. لا أحتاج إلى أحلام مخيفة لترعيني. كل ما عليّ فعله هو التفكير فيما على الجانب الآخر من جبال روكي».

- ماذا سنفعل؟

أجاب باسمًا: «هل أعطيك قائمة مهام؟».

أشار ستو إلى دفتره وقال: «نعم».

- أنت تمزح.

- لا يا جِلن. يجب أن نفعل شيئًا لتنظيم أنفسنا في مكان ما. أنا أشعر أيضًا أن الوقت يفوتنا كل يوم، ولا يمكن أن نظل هنا ننصت لإرسال جهاز اللاسلكي وننتظر حتى نجد ذلك الخبيث غدًا في بولدر على رأس جيش ومن فوقه قوة جوية.

- لا تنتظر مجيئه غدًا.

- حسنًا، لكن ماذا عن مايو القادم؟

قال جِلن بصوت خفيض: «ربما. نعم.. ممكن».

- وماذا سيحدث لنا في ظنك؟

لم يُجب جِلن بكلمات، بل مثلَّ بيده إشارة إطلاق رصاص من مسدس، ثم شرب آخر ما تبقى من زجاجة الخمر. قال ستو: «لنبدأ التخطيط. تكلم».

أغلق جِلن عينيه وترك نور الصباح يربّت خديه المجعدين وجبينه. قال: «حسنًا، اكتب يا ستو. أولًا: إعادة خلق أمريكا. أمريكا مُصغّرة، وسنخلقها بالطرق المستقيمة والمعوجة. ستأتي المنظمات والحكومة أولًا. لو بدأنا الآن يمكننا تشكيل الحكومة التي نريدها. لو انتظرنا حتى يزيد عددنا ثلاثة أضعاف فسنقع في مشكلات خطيرة».

لنعلن اجتماعًا يحضره الجميع بعد أسبوع من الآن، يوم الثامن عشر من مايو. قبل الاجتماع. لا بدُّ أن يكون لدينا قبل الاجتماع لجنة تنظيمية عاجلة

مكوّنة من سبعة أشخاص مثلاً. أنا وأنت وأندروز وفران وربما هارولد لودر،
واثنين آخرين. مهمة اللجنة وضع مخطط لاجتماع الثامن عشر من أغسطس،
ويمكنني أن أخبرك الآن ببعض مما سيضمه هذا المخطط».

- أخبرني.

- أولاً، القراءة والتصديق على إعلان الاستقلال. ثانياً، قراءة والتصديق
على القانون الأساسي. ثالثاً قراءة والتصديق على بيان الحقوق. كل
التصديق يتم بالتصويت.

- بربك يا جِلن، كلنا أمريكيون...

- لا، أنت مخطئ هنا. نحن مجموعة ناجين بلا حكومة على الإطلاق.
نحن حوث بوث من كل جنس وعُمر ودين وطبقة وعِرْق. الحكومة فكرة
يا ستو. حالما تبعد عنها البيروقراطية والهرأ تصير فكرة مجردة.
دعني أتمادى قليلاً وأقول لك إنها طبع، غرس راسخة في الذهن. ما نمرُ
به الآن هو تخلف زمني ثقافي. أغلب الناس تؤمن بالحكومة بالتمثيل
البرلماني. هذه هي الديمقراطية كما يتصورونها. لكنّ التخلف الزمني
الثقافي لن يستمر طويلاً، وبعد قليل سيبدأ رد فعلهم الحدسي..
الرئيس مات.. البنتاجون للبيع.. لا أحد يناقش أيّ شيء في البيت
الأبيض، ومجلس النواب تمرح فيه الصراصير. سيستيقظ الناس هنا
قريباً وسيدركون أن أساليب الحكم القديمة قد ولّت، وأن في وسعهم
إعادة بناء المجتمع بأي طريقة يشاءون. نريد، بل نحتاج إلى أن
نبادرهم قبل أن يستفيقوا ويقدمون على فعل شيء مجنون».

أشار إلى ستو وأضاف: «لو وقف أحد في الاجتماع وطالب بأن تتولى
الأم أباجيل السلطة المطلقة، بالإضافة إلى وجودنا أنا وأنت والرفيق أندروز
مستشارين لها، سيرحب الجميع ويباركون الاختيار غير واعين إلى أنهم
صوتوا لمصلحة إقامة أول ديكتاتورية أمريكية منذ حُكم هوي لونج».

- لا أصدق أن هذا قد يحدث. لدينا هنا خريجو جامعات ومحامون
وناشطون سياسيون..

- ربما كانوا كذلك، لكنهم الآن مجموعة من المرتعبين المُتعبين الذين لا
يعرفون ماذا سيحدث لهم. قد يعترض بعضهم، لكنّ سيصمتون عندما
تخبرهم أن الأم أباجيل ومستشاريها سيعيدون السلطة الممنوحة لهم

خلال ستين يومًا. لا يا ستو. أهم ما نفعله في البداية هو إقرار روح المجتمع القديم. هذا ما قصدته بإعادة خلق أمريكا. لا بُدَّ أن نفعل هذا ما دام يهددنا خطر ذلك الرجل الذي ندعوه «الخُصم».

- أكمل. الأمر الثاني من المخطط، هو أن ندير الحكومة بطريقة بلدية نيو إنجلاند. ديمقراطية كاملة ما دمنا مجموعة صغيرة نسبيًا، لكن بدلًا من مجلس بلدية مُنتخب، سيكون لدينا.. نواب. نعم.. نواب المِنطقة الحرة. ما رأيك؟

- معقول. أكمل...

- سنراعي أن يكون المُختارون هم أعضاء اللجنة. سنستعجل الناس ونجعلهم يُصوّتون قبل أن يتسببوا في مشكلات. قد نختار مَنْ يُرشحنا وينتخبنا لاحقًا. يجب أن يُصوّت بسلاسة وسرعة اندفاع الغائط من مؤخرة بطّة.

قال ستو في إعجاب: «تعبير منمّق».

- طبعًا. إن كنت تريد اختصار عملية ديموقراطية، فسَلْ عالم اجتماع.

- ما الخطوة التالية؟

- سيُعجب هذا الناس. تُمنَح الأم أباجيل حق الاعتراض المُطلق على أي مما يقدمه المجلس.

- وهل ستوافق على ذلك؟

- أعتقد أنها ستوافق، مع علمي أنها لن تمارس هذا الحق، ليس في ظل أي ظروف يمكنني التنبؤ بها. أنا فقط أو من أننا لن نستطيع تشكيل حكومة فعالة هنا إلا لو كانت هي على رأسها. إنها العامل المشترك بيننا، وكلنا حلمنا بها.. بالإضافة إلى الهالة الغريبة التي تحيطها. يصفها الناس دائمًا بالطيبة والخير والحكمة والمهارة والحصافة. نخاف جميعًا من شخص واحد، ونطمئن جميعًا لشخص واحد. إنهم يحبون مصدرَ الحلم المُطمئن ما داموا يخشون مصدر الحلم المفزع. يمكننا أن نوضح لها أنها قائدتنا اسمًا فقط. هذا هو ما تريده. إنها مسنة مرهقة...

هزّ ستو رأسه وقال: «إنها مسنة مرهقة، لكنها ترى مشكلة الرجل الغامض على ضوء ديني يا جِلن، وليست هي الوحيدة التي تراه على هذا الضوء. أنت تعرف هذا».

- هل تقصد أنها قد تقرر أن تتولى هي زمام القيادة؟

- ربما كان هذا أفضل. لقد حلمنا بها هي، لا بمجلس نواب.

هز جِلن، رأسه بدوره وقال: «لا. أنا لن أتقبل أن نكون مجرد أسلحة في حرب نهاية الزمان بين الخير والشر. هذا جنون».

- دعنا لا ننسّق إلى هذه التفرّيعات الآن. أعتقد أن منحها حق الاعتراض المطلق فكرة سيّدة، بل أريد أن أزيد عليها حق تقديم المقترحات لا الاعتراض عليها فقط.

قال جِلن متردداً: «لكننا لن نمنحها الحقّ المطلق في هذا».

- لا. يجب أن يصدق مجلس النواب على مقترحاتها. يجب أن نُقيّد كما تقيدنا.

أسند جِلن جبهته إلى يده وساد صمت طويل. أخيراً قال: «أنت مُحِق. لا يمكن أن تكون رئيساً صورياً فقط.. على الأقل يجب أن نقبل وجود مقترحات خاصة بها. هنا تعجز بلورتي السحرية عن العمل. إنها مَنْ نطلق عليهم نحن علماء الاجتماع: مدعون للغير».

- مَنْ الغير؟

- الرب؟ ثور؟ الله؟ لا يهم. ما أريد قوله إن ما تفكر فيه أو تخطط إليه ليس نابعاً من عقلها بناءً على ما يحتاج إليه هذا المجتمع أو ما يطرأ من متغيرات. إنها تنصت لصوت خارجي آخر. ما وضّحته لي يا ستو هو أنه قد ينتهي بنا المطاف إلى حكم ديني. هل حلمت في يوم وأنت طفل بأن تكون أحد الكهنة السبعة لامرأة سوداء من نبراسكا؟

حدق إليه ستو هنيهة، ثم سأله: «هل معك المزيد من الخمر؟».

- لا.

- سحقاً.

- بالتأكيد.

نظر كل واحد إلى وجه رفيقه في صمت، ثم انفجرا ضاحكين.

هذا هو أفضل منزل أقامت فيه الأم أباجيل في حياتها. مجلسها هنا في الشرفة الخارجية المغلقة بالسلك الشفاف جعل عقلها ينجرف إلى يوم زارها مندوب مبيعات في منزلها في هيمنجفورد هوم عام 1936 أو 1937. كان أكثر مَنْ قابلتْ لباقة، حتى ليسحر كلامه الطير فينزل من فوق الأشجار. سألت ذلك الرجل المدعو دونالد كينج عما يريده من أبي فريمانتل، فأجاب: «ما أريده هو سعادتك. هل تحبين القراءة؟ الاستماع للإذاعة مثلاً؟ أم تفضلين إراحة ساقيك على وسادة وتأمل العالم؟».

اعترفت أنها تحب كل تلك الأمور، لكنها لم تعترف بأنها باعت الراديو لشراء قش. قال معسول الكلام، التاجر الجوّال: «هذه هي بضاعتي. قد يسمونها مكنسة كهربائية بمشتملاتها، لكن في الحقيقة هي وقت فراغ. باستخدامها ستوفرين الوقت للاستمتاع بكل ما تحبين».

كانوا وقتها في قاع الركود العظيم، ولا يمكنها حتى شراء ربطة شعر بعشرين سنناً لعيد ميلاد حفيدتها، ومستحيل شراء المكنسة طبعاً. لكن.. كم إن كلامه معسول! لم تره مرة أخرى، لكنها لم تنس اسمه. تراهن على أنه ذهب لكسر قلب امرأة بيضاء بعدما قابلها. لم تمتلك مكنسة كهربائية إلا بعد انتهاء الحرب النازية تلك، حين بدا أن في وسع الجميع شراء أي شيء.

والآن هي في ذلك المنزل الذي أخبرها نك أنه في ميبلتون هل، (تراهن الأم أباجيل على أن هذا المكان لم يسكنه سود كثيرون قبل الوباء الماحق) وفيه من كل الأجهزة التي سمعتُ بها والتي لم تسمعُ بها من قبل. غسالة أطباق. مكنستين كهربيتين. حوض بماكيئة فرم فضلات. غسالة ملابس ومجفف. كلها أعاجيب! وكلها مية الآن.

بيتها الصغير البسيط كان مجهزاً لاستقبال هذه الأيام. يُضطَرُّون هنا إلى جلب الماء من بعيد، من جدول بولدر، ويجب أن تُغلى قبل الشرب. في بيتها كان لديها مضختها. جلب نك ورالف حماماً متحرّكاً قبيحاً وضعوه في الحديقة الخلفية، في بيتها كان لديها حمامها الخارجي الخاص. رغم وجود غسالة كهربية، لم يجدوا بدءاً من البحث عن حوض غسيل ولوح لحك الملابس كالذي كان لديها في بيتها.

رأت في أحلامها التي أرسلها إليها الرب أنهم سيستعيدون التيار الكهربائي. إنها تعرف الكثير مما سيحدث هنا، عرفت بعضه من الأحلام، وبعضه من حدسها الخاص، وكلاهما متشابكان لا يمكن التفريق بينهما.

قريبًا سيتوقف الجميع عن الجري كالدجاج المذبوح، وسينظمون صفوفهم. هي ليست عالمة اجتماع مثل جِلن بيتمان (الذي يعاينها دائمًا كما يعاين الخبير خيل السباق)، لكنها تعرف أن الناس ينظمون أنفسهم دائمًا. التآلف لعنة البشر ونعمتهم. لو نجا ستة أشخاص من فيضان، وحملهم سطح كنيسة فوق نهر المسيسيبي لبدأوا في مشاركة اللعب والحكايات حالما يرسو السقف.

في البداية سيريدون تكوين حكومة تترأسها. لن تسمح بهذا طبعًا، فهذه ليست إرادة الرب. ستدعهم يديرون كل الأمور الدنيوية. لا بأس إن أعادوا التيار الكهربائي وشغلوا أنظمة التدفئة ووضعوا الخطط. ستبعد نفسها عن هذه الأمور، إلا أنها ستصر على أن يشارك فيها نك وربما رالف. ذلك الرجل من تكساس جيد أيضًا ويعرف متى يصمت عندما يتوقف عقله عن العمل. افترضت أنهم قد يحتاجون إلى ذلك السمين هارولد، لكنها لا تحبه. إنه يُوتّرها بابتسامته الدائمة التي لا تمس عينيه. إنه لطيف ويشارك بمعلومات جيدة، لكنّ عينيه كحجرين باردين.

تعرف أن وراءه سرًا خاصًا نتنًا يخبئه في أعماق قلبه، لكنها لا تعرف ما هو، ولم يشأ الرب أن يُطلعها عليه. يبدو أن لا علاقة له بمشيئته وخطته لهذه المجموعة. رغم ذلك، لا تطمئن لوجوده ضمن مستشاريها.. على أي حال لن تقول شيئًا.

تعتبر الأم أباجيل أن مهمتها في كل هذا هو التصدي للرجل الغامض المتّشح بالسواد. ليس له اسم، لكنه يطلق على نفسه فلاج.. على الأقل حاليًا. لقد بدأ مهمته الآن على الجهة الأخرى من الجبل، وهي لا تعرف عنها شيئًا مثلها كمثل ما يضمّر السمين في قلبه، بيد أنها في غير حاجة إلى معرفة التفاصيل. هدفه واضح وبسيط؛ تدميرهم جميعًا.

فهمها إياه دقيق إلى درجة مذهلة. لقد جاء الناس إلى المنطقة الحرة سعيًا إليها، وقد استقبلتهم جميعًا حتى لو أرهقوها أحيانًا.. وكلهم أخبروها أنهم حلموا بها، وبه. أرعبهم، فطمأنتهم وأراحتهم قدر استطاعتها، لكنها كانت تعرف أن أيهم لن يعرف فلاج هذا لو رآه في الطريق.. إلا لو شاء هو أن يعرفوه. ربما يستشعرون وجوده، فيصابون برعدة برد أو لفحة حرارة، أو ألم مبالغ في الأذنين أو الصدغين. مُخطئ كل من يظنه وحش بثلاثة رؤوس وست أعين وقرنين. الحقيقة أنه لا يختلف كثيرًا عن بائع الحليب.

خَمَّنتُ أن وراء الشر الظاهر، عَتَمَةٌ باطنَةٌ. هذا ما يميز أبناء الظلام؛ القدرة على صنع أشياء بتدمير أشياء أخرى. خلق الرب الإنسانَ على صورته، ما يعني أن كل بشري خلقه الرب هو خالق في حد ذاته، يتوق إلى مد يديه وتغيير العالم. لا يريد الغامض -ولا يستطيع- خلقَ شيء، بل يريد التدمير فقط. هل هو المسيح الكاذب؟ أم الأفضل أن نقول المسيح المُخْرَبُ؟

سيكون له أتباعه طبعًا. إنه كاذب، وأبوه أبو الكذب. سيكون بالنسبة إلى أتباعه كلافنة مُضاعة عالية في السماء، تجذب الأعين وتسحرها بألوانها، ولن يدرك أتباعها أنه كلافنة مضاعة، يكرر الألوان والأشكال نفسها مرارًا. لن يدركوا أن كسر مصباح من تلك المصابيح سيفسد هذا العرض الباهر وسيلوِّث الهواء.

البعض سيتوصل إلى استنتاج مع الوقت، وسيعرفون أن مملكته لن تكون مملكة سلم، وستحيطها المتاريس والأسوار الشائكة لتحبس المعارضين داخلها كما تمنع الغزاة عن دخولها.

هل سينتصر؟

لا دليلَ لديها على العكس. تعرف أنه يعي وجودها كما تعي وجوده، ولن يسرَّه شيء قدر رؤية جسدها النحيل الأسود معلقًا على صليب، وتأكل الغربان من رأسها. تعرف أن بضعة آخرين غيرها حلموا بالصَّلب، وقد أخبروها بذلك، ولم يُجِبْ أحدهم عن السؤال: هل سينتصر؟

هذا خارج حدود علمها، وللرب طرق مختلفة لتنفيذ مشيئته كما يرضى. لقد أرضاه أن يتعذب بنو إسرائيل ويُستعبدوا في مصر لسنوات. لقد أرضته رؤية يوسف في السجن. لقد أرضاه مرض أيوب بمئات الأمراض. لقد أرضاه صلب ابنه وعبرة كمُزحة سخيفة فوق رأسه⁽¹⁾.

لو كان من البشر لكان متلاعبًا، يعكف على مناضد القمار. فكَّرت الأم أباجيل في أنه لا يرى أن اللعبة تستحق العناء، بل هي العناء نفسه. سوف يغلب في الوقت الذي يراه مناسبًا، لكن ليس ضروريًا أن يغلب هذه السنة. أو خلال ألف سنة تالية.. ولن تقلل من شأن مهارة الرجل الغامض وتخطيطه. ما هي إلا جندي صغير -جاوز سن التجنيد منذ دَهر!- في خدمة الرب.

(1) كُنِبَتْ لافنة بعبرة: يسوع الناصري. ملك اليهود. فوق المسيح المصلوب بحسب ما ذكر في الكتاب المقدس (المترجمة)

غمغمتُ وهي تُخرج كيس السوداني المملح من جيب مريولتها: «لتكن مشيئته». حذرُها آخر أطبائها: دكتور ستونتون، من المُملّحات، لكنْ ماذا يعرف هو؟ لقد عاشتْ بعد موت طبيبيها اللذين حذراها من ذلك عند بلوغها العام الثامن والستين. يمكنها أن تأكل بعض حَبّات فول سوداني لو شاءت. إنها تؤلم لثتها، لكنها شهية!

بينما تأكل، جاءها رالف برينتتر وقبعته معلقة خلف رأسه. طرق باب الشرفة الخارجية، ثم دخل.

- هل أنت مستيقظة أيتها الأم؟

أجابت بفم مليء بالفول السوداني: «نعم. تعالَ يا رالف. أنا لا أمضغ هذه الحَبّات، بل أمتصّها حتى الموت».

ضحك رالف ودخل. قال: «عند البوابة أشخاص يرغبون في إلقاء التحية، ما لم تكوني مرهقة الآن. وصلوا منذ ساعة. مجموعة لطيفة على ما أعتقد. قائدُهم واحد من طَوال الشعر هؤلاء، لكنه مؤدّب. اسمه لاري أندروُد».

- لا بأس يا رالف. أدخلهم. أين نيك؟ لم أره اليوم ولا أمس.

- لقد خرج هو ومختص الكهرباء براد كيتشنر ليعاينوا محطة توليد الكهرباء.

حكَّ جانب أنفه وأكمل: «لقد خرجتُ هذا الصباح ووجدتُ أن أولئك المختصين قد وجدوا ما يلتفون حوله».

إنها تحب رالف، فله روح بسيطة مأكرة، ويعرف إدارة الأمور بالفطرة. لم تتفاجأ عندما شغّل جهاز اللاسلكي وأنشأ محطة المِنطَقة الحرة. إنه من نوع الرجال الذي لن يخشى استخدام الراتنج على بطارية الجرار لو تشققت، ولو أصلح الراتنج الشق، يخلع قبعته ويحك رأسه الأصلع وهو يبتسم تلك الابتسامة الفخور كأنه طفل في الحادية عشرة. وجوده مهم في وقت اليسر ووقت العُسْر. إنه يعرف كيف يصلح دراجتك، ويعرف سبب الصوت الغريب الصادر من المحرك، ولديه فكرة عن تلقيح الذرة، لكنه لا يفهم أبدًا في القروض ولا في خِدع التجار. لو ملأ رالف برينتتر استثماره لملأها بالأخطاء الكتابية، وللوى أطرافها وبقعها بالحبر والبصمات الملوثة بالدهن. على ذلك، سيكون هو مَنْ يرأب صدع الكون لو تصدّع. سيقول: «لنصبَّ عليه بعض الراتنج ولنرَ أكان سيتماسك».

- أنت رجل صالح يا رالف. هل تعرف هذا؟ أنت من القلائل.
- وأنت أيضًا أيتها الأم. لست رجلًا طبعًا، لكنك تعرفين ما أعنيه. نسيْتُ أن أخبرك أن ريتمان جاء يطلب الحديث معك عن تشكيل لجنة من نوع ما.
- وماذا قال لك؟
- كتب كثيرًا، الملخص أنه موافق لو وافقت أنت.
- ما الذي يمكن أن تفهمه سيدة مثلي في تلك الأمور؟
- تفهم الكثير. أنت سبب وجودنا هنا، وأعتقد أننا سنفعل أي شيء ترغبين فيه.
- أريد فقط أن أعيش حُرّة كما كنتُ دائمًا. أنا أعيش أمريكية. أريد أن أفعل ما أريد عندما يحين وقته، كما يفعل الأمريكيان.
- لك هذا أيتها الأم.
- هل سيوافق الآخرون على هذا يا رالف؟
- أراهن على أنهم سيفعلون.
- حسنًا. وقت العمل قد حان. يجب إرشاد الناس إلى ما يفعلونه بدلاً من تركهم متخبطين هكذا.
- إذن أبدأ التنفيذ؟
- تنفيذ أي شيء؟
- سألني بك وستو أكان في وسعي العثور على ماكينة طباعة وتشغيلها لو أمدوني بالكهرباء اللازمة لها. قلت لهما إنني لا أحتاج إلى كهرباء. سأقصد أقرب مدرسة ثانوية وأخذ منها ناسخة يدوية. إنهم يريدون طباعة بعض المنشورات.. سبعمئة! مع أن عددنا أربعمئة تقريبًا!
- وتسعة عشر عند البوابة قد يصابون بأزمة قلبية فيما نثرثر أنا وأنت هنا. هيا اذهب وأحضرهم.
- قبل أن يبتعد نادته: «رالف؟ اطبع ألف نسخة».

دخلوا من البوابة التي فتحتها لهم رالف، وشعرت بخطيئتها التي هي أم الخطايا. السرقة هي أبو الخطايا. كل واحدة من الوصايا العشر تصبُّ في

النهاية في وصية واحدة: «لا تسرق». القتل سرقة حياة، الزنا سرقة زوجة، إفشاء السر سرقة لمكنون القلب، الكُفر سرقة اسم الرب...

هي لم تسرق قط.. إلا أن أم الخطايا؛ الفخر. الفخر هو جانب الشيطان الأنثوي في البشر. بُويضة الشر المُخصبة دائماً. الفخر أبعد موسى عن أرض كنعان حيث حبة العنب يحملها الرجال في حمالة كتف. سأل بني إسرائيل: من يُخرج لنا الماء من الحجر عندما نظماً؟ فأجاب موسى: أنا أفعل.

لطالما كانت امرأة فخوراً. فخوراً بالأرض التي تغسلها على يديها وركبتيها (لكن من الذي أعطاها يديها وركبتيها والماء الذي تغسل به؟). فخوراً بأبنائها الذين أحسنت تربيتهم، لكن الأبناء هم أبناء الرب. فخوراً بحياتها التي لم تخلقها بنفسها. الفخر هو لعنة الإرادة الحرة، وللфخر خدعه التي لم تتعلمها كلها.

قالت لنفسها وهي تراهم يدخلون من البوابة: «لقد أتوا لرؤيتي أنا»، وتبعَتْ خطيئة الفخر تشبيهات تجديفية. «ها هم يدخلون واحداً تلو الآخر كمتناولي القربان المقدس. يمشي قائدهم الشاب مطأطي الرأس، إلى جانبه شقراء وطفل، خلفهما امرأة داكنة العينين، ذات شعر يشوبه الشيب، يتبعهم الآخرون في صف».

صعد الشاب درجات الشرفة، ووقفت امرأته عند أول درجة. شعره طويل كما أخبرها رالف، لكنه مهذم نظيف كلحيته الشقراء المحمرة. ملامحه قوية مع تجاعيد على جبهته وحول فمه تبين مدى اهتمامه وتولييه المسؤولية. قال بصوت منخفض: «أنت حقيقية...».

- أنا حقيقية منذ زمن. أنا أباجيل فريمانتل، لكنهم ينادونني هنا الأم أباجيل. أهلاً بكم.

قال وهو يغالب الدموع: «شكراً لك. أنا.. مسرور بأنني هنا. اسمي لاري أندروُد».

مدت يدها فصافحها بخفة واحترام، فشعرت بقرصة الفخر مرة أخرى، فقد بدا كأنه يخشى أن تحرقه بوهجها.

قال في رهبة: «لقد حلمت بك...».

ابتسمت وأومأت. نزل الدرج فكان يتعثّر. فكرت في أنه سيتفكك وينهار في أي لحظة بعدما تخلص أخيراً من العبء الذي حمله على كتفيه طوال

الرحلة. لاري أندروُد لا يثق بنفسه، ولا يزال عودًا أخضرَ قد تثنيه الريح. لكنها أحبته.

صعدتُ امرأته الجميلة ذات العينين البنفسجيتين بعده. نظرت في كبرياء إلى الأم أباجيل، لكنها لم تكن وقحةً. قالت: «أنا لوسي سوان. سعيدة بوجودي بالقرب منك».

ثم ثنت ركبتيها في تحية راقية. قالت أباجيل: «سعيدة للقائك يا لوسي». قالت بوجه محمر وهي تنظر إلى الأرض: «هل لي أن أسأل.. حسنًا...». أجابت الأم أباجيل برفق: «مائة وثمانية أعوام. أشعر كأنني في عمر المائتين وستين أحيانًا».

قالت لوسي: «حلمتُ بك». ثم استدارتُ على عقبيها في حيرة. صعدتِ المرأة داكنة العينين والطفل تاليًا. نظرت إليها في رزاة شديدة، وأظهر الصبي دهشة حقيقية. لا بأس بالصبي، لكنَّ المرأة أردعتها برودة. فكرتِ الأم أباجيل في أنه هنا. لقد جاء في هيئة هذه المرأة.. احذروا مجيئه في هيئات متعددة غير هيئته.. يأتي في هيئة الذئب.. والغراب.. والحيّة.

لم تستبعدُ عن نفسها شعورَ الخوف. ظننتُ للحظات أن المرأة قد تمد يديها بطريقة عادية، فتكسر عنقها. رأت الأم أباجيل بدلًا من وجه المرأة الجميل فجوة في الزمان والمكان، تطل منها عيان داكنتان ملعونتان، تحدقان إليها.. عيان ضالتان بلا أمل في الهدى.

لكنها مجرد امرأة، وليست هو. لن يجرؤ المتشح بالسواد على المجيء حتى هنا، حتى لو في هيئة غير هيئته. ما هي إلا امرأة فاتنة، بوجه حساس مُعبرٌ تلف ذراعها حول كتفي الطفل. لا بُدَّ أنها كانت تحلم. لا بد...

تلك اللحظات كانت حيرة صافية بالنسبة إلى نادين كروس. قد كانت بخير حتى عبروا البوابة، وحتى تحدث لاري مع المرأة المسنة، ثم اجتاحتها شعور الرفض والرعب. يمكن للمرأة المسنة أن.. أن ماذا؟

يمكن أن ترى...

نعم، إنها تخشى أن ترى المرأة ما بداخلها، ما غرس فيها من ظلمة تنمو وتزدهر. خشيت أن تقوم المُسنة من مقعدها وتلعنها، وتطالبها بأن تترك چو وتذهب إليه...

نظرت كلتاهما إلى الأخرى، وكل بما فيها من مخاوف، وحاولتا تقييم بعضهما. دامت النظرة ثواني بدت لهما دهرًا.

فكرت أبي فريمانتل: إنه فيها.. خادم الشيطان...

فكرت نادين: كل قوتهم هنا؛ فيها، هم لا يملكون سواها حتى لو ظنوا غير ذلك.

جذب چو كم نادين وقد تململ من طول الصمت. قالت بصوت رفيع ميت: «مرحبًا. أنا نادين كروس».

- أعرف من تكونين.

تعلقت الكلمات في الهواء وقطعت ثرثرة الواقفين. التفت الناس إليهما متسائلين. سألتها نادين وقد شعرت فجأة أن چو هو حمايتها الوحيدة: «حقًا؟». حركت الصبي ليقف أمامها كأنه رهينة. نظر چو بعينين بلون البحر إلى الأم أباجيل. قالت نادين: «هذا هو چو. هل تعرفينه أيضًا؟».

ظلت أباجيل تنظر إلى عيني المرأة في ثبات، تحاول أن تخفي الرعدة التي اجتاحت جسدها الهزيل. قالت أخيرًا: «اسمه ليس چو، ولا أعتقد أنك أمه».

نظرت إلى الطفل وقد ارتاحت من عبء عيني المرأة قليلًا، إلا أنها عجزت عن التخلص من الشعور الذي بثته فيها، وعن تناسي احتمائها خلفه كي تمنعها من... من أي شيء؟ إنها ليست مستعدة لفعل شيء! سألت أباجيل الطفل: «ما اسمك يا بطل؟».

حاول الصبي أن ينطق بصعوبة كمن وقفت عظمة في حلقه، فقالت نادين وهي تضع يدها على كتفه: «لن يخبرك. لن يستطيع، ولعله نسيه...».

نطق الطفل أخيرًا كأنه يقذف الاسم في وجهها: «ليو!»، ثم أضاف بوضوح مفاجئ: «ليو روكواي. هذا أنا! أنا ليو!»، ثم انطلق نحو الأم أباجيل يعانقها ويضحك، فضحك الواقفون وصفقوا. لم تعد نادين مرئية بالنسبة إليهم، وشعرت أبي أن فرصة مواجهة نادين قد ضاعت منها.

نادت نادين وقد تحكمت مرة أخرى في تعبيرات وجهها: «چو...».

ابتعد الصبي قليلًا عن الأم أباجيل ونظر إليها. فهتفت وهي تنظر في ثبات إلى أبي: «تعال هنا...». لم تكن تخاطب الصبي، بل تخاطبها. أكمل: «إنها مُسنة، سوف تؤذيها. إنها مسنة للغاية.. و... ضعيفة».

- بل أظنني قوية بما يكفي لأحب بطلاً جميلاً مثله. يبدو أن الطريق كان صعباً عليه.

بدا لأذنيها أن صوتها غير واثق. قالت نادين: «إنه مرهق الآن. وأنت أيضاً مما يظهر عليك. تعالَ يا چو».

قال الصبي وهو لا يتحرك: «أنا أحبها».

أجفلت نادين لذلك، فقالت بصوت أكثر حدة: «تعالَ يا چو».

- هذا ليس اسمي! اسمي ليو! ليو! هذا اسمي!

صمت الوافدون الجدد وقد وعوا إلى أن شيئاً غير متوقع قد حدث، وربما يحدث بعد. التقت عينا المرأتين فتصادمتا كسيفين.

قالت عينا أبي: «أعرف من تكونين».

فأجابتها عينا نادين: «نعم، وأنا أعرفك».

هذه المرة خفضت نادين عينيها أولاً. قالت: «حسناً يا ليو. تعالَ قبل أن ترهقها أكثر».

فترك حُسن الأم أباجيل مذعناً. قالت أبي: «تعالَ وقابلني في أي وقت تريد»، ونظرت إلى نادين. قال الصبي: «حاضر». ثم أرسل إليها قبلة في الهواء. نزلا درجات الشرفة وذراع نادين حول كتفيه كسلسلة أسر. راقبتهما الأم أباجيل إذ يبتعدان، وقد وعت إلى فرار نادين من المواجهة مرةً أخرى. مع غياب نادين عنها، شعرت أن ما انكشف لها من أمرها يختفي، فصارت غير متأكدة مما شعرت به تجاهها. ما هي إلا امرأة أخرى.. بالتأكيد.. أليس كذلك؟ وقف الشاب لاري أندروود عند أسفل الدرج بوجه غائم. سأل نادين بصوت منخفض إلا أنها سمعته بوضوح: «لماذا تعاملتِ معها هكذا؟».

لم تعباً له المرأة، وابتعدت. نظر إليه الصبي متوسلاً، لكن المرأة هي صاحبة السلطة عليه، على الأقل الآن. مرت فترة صمت، عجزت أباجيل عن ملأها.. أليست مهمتها ملء تلك الفترات بما تعرف؟

سألها صوت مترفق: هل هذه مهمتك حقاً؟ ألهذا جاء بك الرب إلى هنا؟ كي تستقبلني الناس على باب المنطقة الحرة؟

احتجّت: لا أستطيع أن أفكر. المرأة على حق؛ أنا مرهقة.

أصرّ الصوت: إنه يأتي على هيئات مختلفة.. ذئب، غراب، حية.. امرأة.

ماذا يعني الصوت؟ ماذا يحدث هنا باسم الرب؟

كنتُ جالسة هنا أنتظر أن يتملقني الناس -نعم، لا داعي إلى الإنكار- وقد جاءت هذه المرأة وحدث شيء لا أتذكره، لكنني أعرف أن في المرأة شيئاً.. أليس كذلك؟ هل أنت متأكد؟

وسط الصمت الذي طال، ظل الجميع يحدقون إليها، ينتظرون أن تفسر لهم، لكنها لن تفعل. لقد ابتعدت المرأة والطفل عن نظرها. لقد رحلا وكأنهما المؤمنان الحقيقيان، وكأنها هي الخائنة التي كشف أمرها. أوه، هذا ليس عدلاً! أنا هَرِمة!

في عقب ذلك خاطر جاء صوت متعقل لا يشبه صوتها، يقول: لست هَرِمة إلى الحد الذي لا يُمكنك من معرفة أن المرأة...

صعد إليها رجل آخر، حيّاها وقال: «أيتها الأم أباجيل، اسمي مارك زيمان من لوفيل، نيويورك. حلمتُ بك».

ووجهت بخيار كان غائباً عن عقلها المشغول. يمكنها أن ترد سلام الرجل، وتتباسط معه حتى يطمئن، ثم تنتقل إلى التالي والتالي، أو تتجاهلهم جميعاً وتذهب لترتاح، فيمكنها وقتها أن تتبع خيط أفكارها الممتد إلى أعماقها، بحثاً عما يريد الرب كشفه لها...

مكتبة

t.me/soramnqraa

المرأة...

المرأة ماذا؟

هل يهم هذا؟ لقد رحلت المرأة.

قالت: «كان لي قريب يعيش في نيويورك.. في بلدة اسمها روز بوينت، قرب بحيرة تشامبلين. ربما لم تسمعُ بها من قبل، أليس كذلك؟».

مرَّ حديثهما السريع، وجاء الآخرون ليحيوها كما فعل من سبقوهم، وكما سيفعل من سيأتون لاحقاً. من بين المجموعة مراهق يُدعى توني دوناهو، وميكانيكي سيارات اسمه چاك چاكسن، وشابة اسمها لوري كونستابل يمكن أن تساعدنا.. وقاضٍ اسمه ريتشارد فاريس، وقد تفحصها بحدة أقلقتها مرة أخرى، وغيرهم عشرات. تكلمتُ معهم جميعاً وابتسمتُ وطمأنتهم، لكنَّ السرور الذي شعرت به في الأيام الماضية قد زال، وبدأتُ تشعر بالآلام مفاصلها، والقلق المتزايد من ضرورة تكرر زيارتها إلى الحمام المتنقل كي لا تبلل فستانها أمام الآخرين.

وجاء الليل ونسيّت آلامها ومخاوفها حتى إنها قد فوّتت أمراً عظيماً ربما ستندم عليه لاحقاً.

عندما يكتب، يفكر بطريقة أوضح، لذا كتب كل شيء بدا له مهماً باستخدام قلمين واحد أسود والآخر أزرق. جلس نك أندروز مساءً في المنزل الذي يتشاركه مع رالف وامرأته أليس في شارع بازلين درايف.

يشرف المنزل على البلدة، من مكانه قرب سفح جبل فلاجستاف. يرى نك من نافذة المنزل الواسعة طرق البلدة وشوارعها الممتدة كأنها رقعة لعب. زجاج النافذة عاكس، فلا يراه أحد من الخارج. قدّر نك قيمة المنزل بأربعمئة وخمسين إلى خمسمئة ألف دولار.. ومالكة وأسرتة غائبان.

مر بعشرات المدن والبلدات خلال رحلته من شويو إلى بولدر، وحيثاً في البداية ثم انضمّ له توم كولين، وكل المنازل التي صادفها كانت تفوح برائحة الموت. لا تختلف بولدر كثيراً، لكنها على ذلك مختلفة. الجثث هنا كثيرة، ولا بدّ من التصرف فيها قبل انتهاء أيام الحر والجفاف، وبدء الخريف الذي قد يتسبب في تحلل أسرع ومن ثمّ انتشار الأمراض.. لكن لا وجود لجثث بالعدد المتوقع. لا يعرف نك أكان أحد سواه هو وستو ريديمان قد لاحظ هذا.. ربما لاحظ لودر.. نعم، لودر يلاحظ كل شيء.

أمام كل منزل أو مبنى مليء بالجثث، عشرة منازل أو مبانٍ أخرى خالية. لا يوجد تفسير إلا أن سكان بولدر قد فروا من البلدة مبكراً. من يعرف؟ الباهر في الأمر أن بصيرة الأم أباجيل قادتهم إلى تلك البلدة الوحيدة في أمريكا غير الموبوءة بضحايا الوباء. كان هذا كافياً لجعل متشكك مثله يتساءل عن مصدر معلوماتها.

حصل هو على ثلاث غرف في بدروم المنزل، وكلها مفروشة على أرقى مستوى، وترك لرافل باقي المنزل؛ يكفيه شعوره الدائم أنه يقتحم على الرجل وامرأته حياتهم، لكنه يحبهما وهما يحبان.

ولأول مرة منذ غادر شويو لا يشعر أنه يفتقد وجوهاً بعينها. المنزل هو أفضل مكان سكن فيه، وله مدخله الخاص حيث يحتفظ أمامه بدرّاجته ذات العشر سرعات مغطاة بفروع الأشجار. بدأ هواية جمع الكتب التي أحبها منذ زمن ولم تتّح له فرصة ممارستها خلال حياته غير المستقرة.

يجلس الآن مع دفتره وأقلامه، محاطًا بالكتب التي جمعها ولم يقرأ أيها بعد إلا الرواية عن يمينه؛ رواية «أضرم النار في منزله»، لويليام ستيرون. علّم مكان توقفه في القراءة بورقة بنكنوت من فئة عشرة دولارات. المال في كل مكان، يطير خلال الشوارع وفي الأزقة ومصارف الأمطار. تساءل عن عدد الأشخاص الذين سيتوقفون لجمعه. مَنْ سيجمعه ولأي غرض؟ الكتب مجانية الآن، والأفكار مجانية.. أحيانًا تُتخمه هذه الفكرة، وأحيانًا ترعبه.

الورقة التي يكتب فيها الآن مقطوعة من دفتر ذي سلك ملفوف. نصف ذلك الدفتر يومياته، ونصفه قوائم مشتريات. لقد اكتشف في نفسه حبًا للقوائم. لا بُدَّ أن أحد أسلافه كان محاسبًا. فطن إلى أن كتابة القوائم قد تُفرِّغ العقل المهموم وتريحه.

بدا لهم أن كل ما يحتاجون إليه من متاع الحياة القديمة متصل بمحطة توليد طاقة بولدر المتربة ككنز مدفون في قاع خزانة. شعور غريب يتشارك فيه سكان بولدر، شعور بأنهم أطفال يرتعون في بيوت مسكونة بعد الظلام. البلدة تعتبر بلدة أشباح على أي حال، وهذا ما يعزز فيهم الإيمان بأن حياتهم هنا مؤقتة.

كان يعرف رجلًا عاش وعمل في بولدر، حكى الرجل أنه في سبتمبر من عام 1984، وصل سُمك الثلج في الشتاء إلى بوصة ونصف، وبحلول نوفمبر أصبح البرد قادرًا على تجميد خصيتي تمثال قرد. ما يهمه من كلام الرجل الآن أنه قد يستحيل العيش في بيوت بولدر في الشتاء دون كهرباء وتدفئة. وإن لم يحدث هذا قبل بدء موجات البرد، فسيتململ الناس، ولن يمنعهم من المغادرة كل النواب والاجتماعات والتصديقات في العالم.

بحسب كلام رالف، لا توجد أعطال جسيمة في محطة توليد الطاقة، لا أعطال مرئية على الأقل. لقد أغلق عماله بعض الأجهزة أو أغلقت الأجهزة نفسها. انفجرت ثلاثة محركات توربينية على إثر مشكلة كهربية في أثناء غياب العمال. قال رالف إنها تحتاج إلى تغيير بعض الأسلاك فقط، والمفترض أن براد كيتشنر قادر على جمع مَنْ يفعلون ذلك تحت إشرافه. سوف يحتاجون إلى طاقم أكبر لتغيير قواطع التيارات والأسلاك المحترقة من المولدات وتوصيل أخرى سليمة. في متجر دينثر كل ما يحتاجون إليه، وقد ذهب براد ورالف إلى هناك منذ أسبوع وتأكدوا من ذلك. يمكنهم إصلاح المولدات بحلول يوم العُمال.

قال براد: «سنقيم وقتها أكبر حفل لعين شهادته هذه البلدة!».

شيء آخر أهمه؛ القانون والنظام. هل يمكن أن يتحمل ستو ريتمان هذا الحمل؟ إنه لا يريد ذلك، لكنَّك تعتقد أن في استطاعته إقناع ستو بتحملها.. ولو تملَّص سيطلب دعم جِلن صديقه. ما يضايقه حقًا ذكرى أيامه كأمر حبس في شويو. موت المساجين واحدًا تلو الآخر، وإضراب مايك تشايلدرس عن الطعام...

يصعب عليه التفكير في حاجته إلى محكمة وسجن، وربما مُنقذ إعدام. يا للمسيح، إنهم قوم الأم أباجيل، لا قوم الرجل الغامض! إلا أن الأخير لن يهتم لوجود محاكم أو سجون، فيما جثث معارضيه معلقة فوق صلبان.

كتب: «السلطة. التنظيم» في دفتره وأحاطهما بدائرتين. كونهم من قوم الأم أباجيل لا يمنحهم حصانة ضد الضعف والغباء ورفاق السوء. لا يعرف أكانوا أبناء الرب، لكنَّ عندما نزل موسى من الجبل وجد قومه المُختارين يعبدون العجل، لذا عليه أن يتوقع أن يقتل واحد منهم الآخر بسبب امرأة أو لعبة بطاقات.

أحاط الكلمتين بدائرة ثالثة، فصارت سجينة أسوار ثلاثية. كيف يمكن أن يوازن الأمرين معًا؟

بعد قليل جاء رالف وقال له: «مجموعة أخرى ستأتي غدًا يا نكي، ومجموعة أكبر ستصل بعد غد.. أكثر من ثلاثين شخصًا».

كتب نك: «جيد. سنصل إلى صياغة وثيقة قريبًا».

- نعم. نحن نتحول إلى مدينة نظامية.

أومأ نك.

- تكلمتُ مع قائد المجموعة التي وصلت اليوم. اسمه لاري أندروُد. رجل ذكي يا نك.

كتب نك علامة استفهام في الهواء بإصبعه، وفهم رالف أنه يريد المزيد من المعلومات، فأكمل: «هو أكبر منك بست سنوات أو سبع، ربما أصغر من ريتمان بثمانين سنوات أو تسع. إنه من النوع الذي نبحث عنه، ويسأل دائمًا الأسئلة الصحيحة. سألني عن يتولى قيادتنا الآن، وماذا سنفعل تاليًا، ومَن الذي سيتولى التنفيذ».

أوماً نك. نعم، هذه أسئلة مناسبة، لكن هل هو الرجل الذي يبحثون عنه؟ ربما يكون رالف مُحققًا، وربما لا.

كتب نك: «سأحاول أن أقابله غدًا وأرحب به».

- نعم، يجب أن تفعل ذلك. إنه رجل صالح. تكلمتُ مع الأم أباجيل قليلًا قبل تقديم جماعة أندروُد. تحدثتُ معها كما طلبتُ مني. قالت إن علينا البدء في التنفيذ واستغلال الموجودين في عمل نافع، وأنهم في حاجة إلى وجود قائد يوجههم.

كتب نك: «كنت متأكدًا من أنها تفكر بهذه الطريقة. سأحدث إلى ستو وجِلن، غدًا. هل طبعَت المنشورات؟».

- طبعًا. لقد شغلني هذا طوال الظهيرة.
عرض على نك عينة تفوح برائحة حبر الطباعة بعد. التصميم بحروف كبيرة تجذب النظر، وقد صممها رالف بنفسه.

اجتماع عمومي!!

ترشيح وانتخاب أعضاء مجلس النواب

18 أغسطس 1990. الساعة الثامنة مساءً

المكان: متنزه كانيون بوليغارْد لو كان الجو جيدًا.
قاعة كواتيكوا في متنزه كواتيكوا لو كان الجو سيئًا.
ستقدم المرطبات بعد الاجتماع.

في أسفل المنشور خريطة مبسّطة للجُدُد والذين لم يمضوا وقتًا كافيًا في استكشاف بولدر. بخط أصغر تحت كل هذا، كُتِبَت الأسماء التي وافق عليها ستو وجِلن بعد نقاش سريع في اليوم نفسه:

أعضاء اللجنة الطارئة: نك أندروز - جِلن بيتمان -
ستو ريتمان - رالف برينتندر - ريتشارد إليس - فران
جولد سميث - سوزان ستيرن.

أشار نك إلى السطر الذي ينوه بوجود مرطبات ورفع حاجبيه، فقال رالف: «هذا اقتراح فراني، ورأت أننا لو قدمنا مرطبات سنشجع الجميع على الحضور»، ثم أكمل في جديّة: «المشكلة الحقيقة أنكم وضعت اسمي ضمن أعضاء اللجنة. أعرف أن معنى هذا المنصب هو: مبارك، عليك أن تتحمل كل المهام الشاقة». أنا لا أمانع في ذلك، ولطالما كنت أتحمل المهام الشاقة طوال حياتي. لكن المفترض أن تضم اللجان أشخاصاً ذوي فكر، وأنا لست رجلاً مفكراً».

رسم نك سريعاً جهاز الإرسال والاستقبال اللاسلكي، وبرج تقوية بث كبير خلفه. قال رالف في حرج: «نعم هذه فكرتي، لكن الأمر مختلف...». كتب نك: «ستكون بخير. أنا أومن بهذا».

- إن كنت ترى هذا يا نكي. سأجرب. ما زلت أرى أن عليك أن تقابل لاري أندروود في أقرب وقت.

هز نك رأسه وربّت كتف رالف، فتمنى له الأخير ليلة طيبة، ورحل. أمسك نك المنشور ونظر إلى قائمة أسماء أعضاء المجلس. لا بُدَّ أن جلن وستورات قد اطلّعا عليه، ولا يعرف ماذا سيكون رد فعلهما تجاه عدم وجود اسم هارولد لودر في القائمة. لكن لما كان أيهما لم يظهر عند بابه، فيبدو أنهما لم يمانعا القرار. ربما يريدان أن يمنحاه فرصة اتخاذ قرار، وإن كان سيتخذ قراراً واحداً، سيكون إبعاد الشاب عن المجلس. وضع نك اسم رالف بدلاً منه لأنه لا يرغب في السلطة، بالإضافة إلى فطرته العظيمة وذكائه وقدرته على الالتفاف حول المشكلات بطريقة فريدة. سيكون إضافة ممتازة للجنة الدائمة، خاصة وقد شعر أن ستو وجلن أضافا أصدقائهما إلى الأعضاء. اعتراض نك على وجود هارولد سيمر دون مشكلات مقابل سكوته على وجود أصدقائهم ضمن اللجنة.

عاد ليحرق إلى الكلمتين اللتين كتبتهما قبل دخول رالف: السلطة والتنظيم، ثم أضاف إليهما ثالثة تحتتهما (يوجد مكان كافٍ) وكتب: السياسة.

لكنه لم يستبعد هارولد لودر بسبب محاولة ستو وجلن الاستيلاء على حق من حقوقه. طبيعي أن يشعر ببعض الضيق، خاصة أنه والأم أباجيل ورالف قد أسسوا المنطقة الحرة في بولدر.

فكر في المئات هنا، وفي الآلاف الذين سيتوافدون لو صح ما تنبأ به جلن، وطرق على الكلمات الثلاث. كلما أطال النظر إليها رآها أكثر قبجًا.

عندما أتينا أنا ووالف والأم أباجيل وتوم كولين لم يكن هنا سوى القلط والغزلان التي كانت ترعى في حدائق المنازل وحتى داخل المتاجر. أتذكر تلك التي دخلت متجر ميسا ولم أتمكن من إخراجها إلا بعدما حطمت كل شيء وهي تفر وتجري في كل صوب.

لقد جننا متأخرين طبعًا، ولم نكن هنا منذ شهر، لكننا كنا أول من يصل! لكن هذا ليس سبب استبعادى لهارولد، السبب هو أنني لا أثق به. ابتسامته الدائمة لا تصل إلى عينيه. كان بينه وبين ستو صراع حول فرانى منذ مدة، لكنهم يزعمون أنه انتهى. أحيانًا أرى فرانى تنظر إلى هارولد في قلق، كأنها تتساءل أكانت المشكلة قد انتهت حقًا. هو ذكي بحق، لكنني أراه غير مستقر. هز رأسه.. هذا ليس كل شيء. في مناسبات مختلفة ظن أن هارولد مجنون.

ابتسامته هي ما يعطي هذا الانطباع. لا أريد أن أشارك أسرارًا مع شخص يبتسم بطريقة من لا ينام ليلاً.

لن نضم لودر، وعليهم أن يتقبلوا هذا.

أغلق نك الدفتر وأودعه آخر درج في المكتب، ثم ذهب ليستحم. فكر في أن العالم الجديد الشجاع ليس شجاعًا ولا حتى جديًا. الأمر أشبه بانفجار قنبلة داخل صندوق لعب. سوف تتناثر اللعب في كل مكان، وسوف يُدمر بعضها بلا رجعة، لكن سيظل ما تبقى صالحًا للاستخدام ساخنًا لا يمكن الإمساك به حتى يبرد.

المهمة هنا هي فرز كل تلك الأشياء واستبعاد غير الصالح منها، ومحاولة إصلاح ما تبقى، وجلب صندوق جديد لوضع كل شيء سليم فيه. صندوق قوي، وقد صار الخوف من انفجاره مجددًا أمرًا لا يستهان به.

إلا أنه.. هل تجرؤ على التخلص من الأشياء التي لن تنفعك؟

توقف نك عاريًا في طريقه إلى الحمام. لم أقشعر جسده فجأة؟ لقد أدرك أن اللجنة لن تفرز لعب أطفال.. ما اللجنة إلا مجموع حائكين يرتقون الأرواح.. هو وبيتمان وريدمان والأم أباجيل، وحتى رالف بجهازه الذي يبث الأمل في أرجاء الأرض الموات. مع كل واحد منهم إبرة وخيط، ويعملون معًا

على صنع غطاء لمنع برد الشتاء، وربما يبدأون لاحقًا حياكة أكفان ضخمة للبشرية...

نام ستو بعد ممارسة الحب. لم يعد ينام إلا لمأماً، وقد سهر ليلة أمس مع جِلن بيتمان، يثملان ويخططان للمستقبل. ارتدتُ فراني رداءً وخرجت إلى الشرفة.

المبنى الذي يسكنان فيه في وسط البلدة، عند التقاء شارعي بيرل وبرودواي. شقتهما في الطابق الثالث، وقد أحببتها. الليل دافئ بلا رياح، وحجر السماء الأسود مرقط بالنجوم.

مررتُ فراني يدها على جسدها من فوق الرداء الحريري، حتى وصلت إلى تكوُّر بطنها الذي لم يكن ظاهرًا إلى هذا الحد منذ أسبوعين.

قال لها ستو إنه ناقش أمر الطفل مع جِلن، وقال الأخير إن فيروس الإنفلونزا الفائقة موجود بعد على الأرجح، ويمكن أن يقتل الوليد فور ولادته. هذه فكرة مثيرة للقلق، لكن.. ألا تنتقل مناعة الأم إلى الجنين؟

مع ذلك، فقد الكثير من الناجين أبناءهم بعد إصابتهم بالوباء.

إن كان الأمر كذلك، فالموجودون هنا هم آخر البشر، ولا يمكنهم إنجاب أطفال ليعمروا العالم من بعدهم. لو أن هذه هي الحقيقة، فلا يمكنها أن تصدقها.. لو أن هذه هي الحقيقة...

لمحت أحدًا يمشي في الشارع، ثم يختبئ خلفَ شاحنة نقل مخلفات معطلة. كان يضع سترَةً ناصعة اللون على كتفه، ويحمل شيئًا؛ إما زجاجة خمر وإما مسدسًا ذا ماسورة طويلة. يمسك في يده اليسرى وُريقة، في الغالب عنوان مكتوب نظرًا إلى الطريقة التي ينظر بها إليها بين حين وآخر ثم ينظر إلى المباني حوله. توقف أخيرًا أسفل المبنى الذي تقطنه، وبدا كأنه يفكر في ما سيفعله تاليًا. كانت تقف فوقه بعشرين قدمًا. لو نادته ربما تخيفه، ولو لم تفعلْ لطرق الباب وأيقظ ستو. ماذا سيفعل وقتها بالمسدس.. لو أنه مسدس؟

رفع رأسه ليتحقق أكانت أي شقة في المبنى مضاعة، فتلاقت أعينهما. صاح الرجل: «إلهي!»، وتراجع خطوة، فتعثّر وسقط أرضًا. شهقتُ فراني في اللحظة نفسها، وتراجعتُ إلى داخل الشرفة، فضربت أصيصوص زرع

بكعبها. تمايل قليلاً، ثم قرر أن يعيش أكثر فثبتَ في موضعه لحظةً قبل أن يسقط ويتحطم.

أقلق الصوت ستو، فتقلبَ ونام مجدداً. سيطرت القهقهة على فراني، فوضعتُ يديها على فمها ومالت تكتمها، لكنها فرتُ من بين أصابعها مكتومة. لقد تذكرتُ ذلك المشهد السينمائي الذي يعزف فيه عاشق على الجيتار أسفل شرفة، فيُلقي عليه أصيص زرع من أعلى.

ألمها بطنها من محاولاتها كبح القهقهات.

سمعتُ همسة من أسفل: «أنتِ.. أنتِ في الشرفة.. بس بس!».

همستُ فراني لنفسها: «بس بس؟ عظيم!».

كان عليها أن تنزل لتفتح الباب قبل أن تنطلق في ضحكات كنهيق الحمار مجدداً. رأتِ الشاب قد وقف مرة أخرى وراح ينفخ الغبار عن ملابسه. كان نحيلًا لكن قوي البنية، أغلب وجهه مغطى بلحية شقراء محمرة، تحيط بعينه هالات داكنة.. وابتسامته رقيقة صادقة.

سألها: «ماذا أسقطتِ؟ صوتُ تهشمه كصوت تهشم بيانو».

- لا شيء. مجرد أصيص. إنه... إنه...

ثم انخرطت في الضحك مرة أخرى، فأشارت له بإصبعها أن ينتظر حتى تفرغ من القهقهة. أخيراً قالت والدموع تغرق خديها: «بدوت مضحكاً.. أعرف أن ما أقول ليس أفضل شيء يقال لمن ألتقيه أول مرة.. ربي!».

قال باسمًا: «لو كنا في الماضي لقاضيتكِ وطالبتُ بتعويض ربع مليون دولار. أريد القصاص أيها القاضي. نظرتُ إلى أعلى ورأيتُ تلك المرأة تطل عليّ، وأعتقد أنها كانت تسخر مني، ثم ألقت عليّ أصيصاً...».

ضحكاً معاً للحظات. يرتدي الشاب سروالَ جينز كالحا نظيفاً، وقميصاً أزرق داكناً. الليل حار، وشعرت فراني بسرور لخروجها من المنزل.

- اسمكِ فران جولد سميث؟ أليس كذلك؟

- نعم. لكنني لا أعرفكِ.

- أنا لاري أندروود. جئتُ اليوم. كنتُ أبحث في الحقيقة عن شخص اسمه هارولد لودر. قيل لي إنه يسكن في المبنى رقم 261 شارع بيرل، مع ستو ريتمان وفراني جولد سميث وآخرين.

جَفَّفَ هذا ضحكاتها، فقالت له: «سكن هارولد هنا في أول مجيئنا، لكننا افترقنا منذ مدة، ويسكن الآن في أراباهو غرب البلدة. يمكنني أن أكتب لك عنوانه وإرشادات للطريق».

- سأكون شاكرًا لك. سأنتظر للغد لأذهب إليه. لن أغامر بتكرار الأمر مرة أخرى.

- هل تعرف هارولد؟

- أعرفه ولا أعرفه، كما أعرفك ولا أعرفك. أعترف أنك لا تشبهين الصورة التي رسمتها لك في خيالي. توقعتُ أن تكوني شقراءَ خطيرة، تحملين مسدسين واحدًا في كل يد. لكنني سعيد لمقابلتك على أي حال.

مد يده، فصافحتها فراني بابتسامة حيرى.

- أخشى أنني لا أعرف شيئًا عما تتكلم عنه.

- اجلسي دقيقة على الرصيف وسأحكي لك.

فجلست. مرتْ نسمةٌ لطيفةٌ فحرَّكتْ أوراق أشجار الدردار في باحة مبنى المحكمة على بعد ثلاثة مبان.

- معي شيء لهارولد. المفترض أن يكون مفاجأة له، لذا لو قابلته قبل أن أقابله، فلا تخبريه بشيء.

- بالتأكيد.

أبرز لها ما كان يحمله؛ زجاجة خمر. ألمالتِ الزجاجاة لترى الكتابة عليها؛ خمر بوردو- 1947.

قال لها لاري: «أفضل خمر في هذا القرن. أو هكذا أخبرني صديق قديم. كان اسمه رودي. أحبَّ الله روحه ورحمها».

- لكن... عمر الخمر ثلاثة وأربعون عامًا. ألم تفسد؟

- قال رودي إن خمر بوردو لا تفسد. لقد حملتها معي من أوهايو حتى هنا.

- وقد أحضرتها من أجل هارولد؟

هز رأسه إيجابًا، وأخرج من سترته بضع ألواح شوكولاتة. ضحكت مرة أخرى وهي تهتف: «شوكولاتة باي داي! المفضلة عند هارولد. كيف عرفت؟».

- إليك القصة. كان يا مكان، سافر رجل يُدعى لاري أندروُد من كاليفورنيا إلى نيويورك ليزور أمه. لم تكن الزيارة سبب سفره الوحيد، بل جاء لأسباب أخرى أقل لطفاً، لكنْ لنكمل مع أسباب الرجل اللطيفة. اتفقنا؟ - لمَ لا.

- كان عليه أن يحذر من ساحر الغرب الشرير، ومن بُغضاء البنّاجون الذين جلبوا الوباء للبلاد. وقبل أن يرحب بكابتن ترييس، كان كل مَنْ في نيويورك قد ماتوا، حتى أم لاري.

- آسفة لما حدث لك. أمي ماتت أيضاً وأبي.

- نعم.. مات والد والدة الجميع.. لكنْ لاري كان من المحظوظين. خرج من المدينة مع امرأة تدعى ريتا بلاكمور، ولم تكن المرأة مستعدة لهذه المغامرة...

- لم يكن أحد مستعداً لها.

- لكنْ البعض استعدَّ أسرع من الآخر. اتجه لاري وريتا إلى ساحل مَين، لكنْ ريتا انتحرت قرب فيرمونت بجُرعة من المنوم.

- أوه يا لاري. هذا صعب...

- صُدِمَ لاري، وفهم الأمر على أنه حكم على قوة شخصيته. الحقيقة أنه سمع عدة مرات بأنانيته وعدم تحمله المسؤولية، لذا شعر بالذنب بعد ذلك الحادث.

حكى لها رحلته بعد ذلك، والأحلام التي رآها وما عرفه عن الآخرين الذي يرون الأحلام ذاتها، خاصة بعد مقابلته نادين وچو الذي اتضح أن اسمه ليو روكواي. هكذا اقترح المسافرون الثلاثة وقرروا أن يتجهوا جنوباً خلال طريق US- 1 إلى...

هتفت فراني: «إلى أوجونكويت!».

- نعم. هناك رأينا اسميكما على سقف حظيرة، وعرفتُ فرانسييس جولد سميث وهارولد لودر.

- لافتة هارولد! أوه يا لاري، سيسعد للغاية!

- تبعنا إرشادات اللافته، إلى ستوفينجتون ثم إلى نبراسكا حيث بيت الأم أباجيل، ثم إلى هنا. قابلنا أشخاصًا في الطريق من بينهم لوسي سوان، امرأتي. أتمنى أن تقابلها في وقت ما. أعتقد أنك ستحبينها.

- ثم حدث بعد ذلك ما لم يردده لاري. زاد عدد أفراد مجموعته إلى ستة أفراد، ثم قابلت مجموعته مجموعة أخرى من أربعة في نيويورك وذابت الأخيرة في الأولى. بوصولنا إلى لافته هارولد على باب بيت الأم أباجيل كنا ستة عشر، وقابلنا ثلاثة آخرين هناك. كان لاري قائد مجموعته الشجاعة بلا اقتراع ولا انتخاب. لم يكن سواه، وكرد لاري هذه المسؤولية التي تحولت إلى جمل يجره نهارًا ويورقه ليلاً. ظلت -أو ظل هو- يخشى أن يستيقظ يومًا على خبر موت أحد أفراد جماعته كما استيقظ يومًا فوجد ريتا ميتة إلى جواره دون أن يشعر. سيلومه الجميع وقتها على تقاعسه وأنانيته. هذا شيء آخر لم أحكه لأحد، ولا للقاضي...

- من هو القاضي؟

- القاضي فارييس. رجل مسن من بيوريا. أعتقد أنه كان قاضيًا فعلاً في وقت ما من الخمسينيات، تقاعد من قبل الوباء بزم، لكن حكمه قاس على أي حال. عندما ينظر إليك تقسمين أن عينيه أشعة سينية. المهم أن هارولد صار مهمًا بالنسبة إليّ. تجسد في عقلي أكثر عندما وجدت أغلفة الشوكولاتة في الحظيرة، وذلك النقش الذي حفره على العمود...

- أي نقش؟

شعرت أن لاري يتفحصها في الظلام، فضمت طرفي الرداء أكثر على صدرها، لا خشية من نظراته، فهو لا يمثل عليها تهديدًا، إنما من باب العصبية والتوتر.

أجاب لاري: «فقط الحروف الأولى لاسمه. ه. إ. ل. لكن استمر تجسده في عقلي أكثر عندما زرت متجر الدراجات البخارية في ويلز...».

- لقد كنا هناك!

- عرفت ذلك من أغلفة الشوكولاتة، وعرفت أيضًا أن هارولد أخرج بعض الوقود من الخزان. لا بد أنك ساعدته في فتح غطاء الخزان.. لقد كدت أفقد أصابعي.

- لا، لم أساعده. لقد بحث هارولد حتى وجد صمام تهوية...

ضرب لاري جبهته بكفه وهتف: «صمام تهوية! لم أفكر في البحث عن موضع تهوية الخزان! هل تقصدي أنه فتح ذلك الصمام، وأنزل الخرطوم إلى الخزان من الفتحة؟».

- نعم.

كرر لاري في إعجاب: «يا لك من رجل يا هارولد!». لم تستطع فران أن تربط هذا الإعجاب بهارولد الذي تعرفه. رؤيته إياه أثارت دهشتها. ألم يكن ستو هو من يقود مجموعتهم منذ غادروا فيرمونت إلى نبراسكا؟ لم تعد تذكر. لقد شغلوا وقتها بالأحلام، ولاري الآن يذكرها بتفاصيل نسيته.. أو الأسوأ، لم ترَ فيها براعة أو أهمية. غامر هارولد بحياته ليكتب اسمها على سقف الحظيرة، ونجح في استخراج الوقود من الخزان بذكاء وسهولة، مقارنة بما كابده لاري في المهمة ذاتها. شعرت بمدى ضآلتها وبظلمها إياه. لقد افترض الجميع أن هارولد مجرد كومبارس باسم. لقد أثبت هارولد بمعرفته بالكثير خلال الأسابيع الست الماضية، وفضلتُ هي عليه ستو، الغريب الذي صار قائدهم. ما أزعجها أكثر تعامل هارولد الناضج بخصوص علاقتها بستو.

قال لاري: «طوال الطريق كنت أتبع لافتات لاري وأغلفة الشوكولاتة التي يتركها تحت كل واحدة. اتجهنا إلى الشمال قرب جاري لأننا صادفنا حريقاً هائلاً هناك. أعتقد أن حاويات وقود البلدة قد انفجرت. قابلنا القاضي في الطريق، ثم انطلقنا إلى هيمنجفورد هوم. كنا جميعاً نرى الأحلام ذاتها. الذرة، الأرجوحة.. تعرفين ما أعنيه؟».

- بالتأكيد.

- كان عند أمي كتاب ديني عن إرشادات الدين في الحياة اليومية، وكان يحثُ القارئ على أن يسأل نفسه قبل كل فعل: «ماذا كان ليفعل يسوع لو كان مكاني». مع الوقت صرتُ أمشي على خطا هارولد، وعندما أقع في مشكلة أسأل نفسي السؤال الأهم.

- ماذا ليفعل يسوع لو كان مكاني؟

- لا. ماذا ليفعل هارولد لو كان مكاني.

دُهِلَتُ فران مما سمعته، وتمنّت لو تحضر لقاء لاري وهارولد. ماذا سيكون رد فعله؟

أكمل لاري: «خيّمنا في فناء مزرعة في ليلة، وأوشك ماؤنا أنت ينفد. في المكان بئر، لكن لا وسيلة لاستخراج الماء منها يدويًا، ودون كهرباء تشغل المضخة. ظل ليو يدور ويطالبني بالماء. ازداد حَنَقِي مع شعوري بالعجز حتى كدت أضربه. لستُ رجلًا لطيفًا إلى هذا الحد، لكنّ المرء لا يتغير بين يوم وليلة. لديّ وقت طويل أعمل فيه على نفسي...».

قالت فراني: «لقد أوصلتهم إلى هنا كاملين. واحد من مجموعتنا مات بانفجار زائدة دودية. حاول ستو أن يجري له جراحة، لكنها لم تنفع. ما أريد قوله يا لاري إنك أبليت بلاءً حسنًا».

صحح لها لاري: «بل أنا وهارولد. المهم أنني سألت نفسي ماذا كان هارولد ليفعل كي يعثر على ماء؟ في المكان طاحونة هواء تمد الحظيرة بالماء، لكنها لم تكن توصل الماء إلى صنادير الحظيرة رغم أنها سليمة. فتحت الطاحونة وفحصت آلاتها حتى وجدت عطلًا تافهًا، فأصلحته، وحصلنا على الماء الذي نحتاج إليه، والفضل لهارولد!».

- بل الفضل لك أنت. هارولد لم يكن هناك يا لاري.

- كان في عقلي، وأنا الآن هنا وقد أحضرت له خمرا وشوكولاتة. أتعرفين؟ كنت أظنه رجلك.

هزّت رأسها ونظرت إلى أصابعها المتشابكة وقالت: «لا، ليس هارولد». لم يقل شيئًا لوقت طويل، لكنها شعرت به ينظر إليها. أخيرًا قال: «حسنًا، كيف أخطأت وظننتكما.. متحابين؟».

قامت وهي تقول: «يجب أن أعود الآن إلى الداخل. تشرفتُ بمقابلتك يا لاري. عد غدًا وقابل ستو، وأحضر لوسي معك ما لم تكن مشغولة».

أصر على سؤاله: «ماذا عنه؟».

- أوه، لا أعرف.

أكملت بفضاظة وهي على شفا البكاء: «أنت تجعلني أشعر كأنني أسأت معاملته وأنا لا أعني ذلك. هل يمكن أن تلومني على أنني لم أحبه كما أحببتُ ستو؟ هل هذا خطأي الآن؟».

قال لاري مجفلاً: «لا. اسمعي، أنا آسف. لقد ضايقتُك. سأرحل الآن».

هتفت فراني: «لقد تغيّر! لا أعرف كيف ولا لماذا، وأشعر أحياناً أنه تغيّر إلى الأفضل.. لكن... لكنني أخاف أحياناً».

- من هارولد؟

لم تُجب. أطرقت إلى الأرض وقد رأت أنها تكلمت أكثر مما ينبغي. سألتها بلطف: «هل ستخبريني كيف أذهب إلى بيته؟».

أخبرته بالتفصيل، فشكرها، ثم قال: «لو رأيته قبل أن أقابله، فاحفظي سري. هه؟».

- طبعاً.

- ليلة سعيدة يا فراني.

ومشى إلى حيث جاء. راقبته حتى اختفى، ثم عادت لتندس إلى جوار ستو في الفراش.

سألت نفسها عن الطريقة التي ستخبر بها لاري اللطيف هذا أن هارولد لودر مراهق سمين متفاخر بنفسه؟ هل ستخبره يوماً برؤيتها له وهو بلباس البحر يجز الحشائش ويبيكي؟ هل ستخبره بجانب هارولد المتنمر المختل الخطر؟

لقد وقع هارولد في حبها دون أمل، وقد وقعت هي في حب ستو ريديمان. العالم قاسٍ فعلاً. كلما رأت هارولد الآن ترتجف حتى بعدما فقد عشرة أرتال واختفت حبوب وجهه.

اختنقت بأنفاسها فجأة، فقامت مرتكزة على مرفقيها واتسعت عيناها في الظلام.

لقد تحرك شيء بداخلها.

وضعت يديها على بطنها الصغير. ما زال الوقت مبكراً لتشعر بحركة الجنين. ربما تخيلت ذلك، لكن...

لكنه يتحرك فعلاً.

تمددت مرة أخرى على الفراش ببطء. كادت توقظ ستو لكنها أحجمت عن ذلك. لو أنه هو أبو الطفل لا چيس لكانت أيقظته وشاركتة اللحظة. ستفعل ذلك مع الطفل التالي، لو أنها حملت في طفل تالٍ.

تحرك الجنين مرة أخرى، إنها تعرف أنها حركته لا حركة أمعائها، وتعرف أنه حي...

نسيْتُ لاري وهارولد وكل شيء منذ مرضت أمها، وظلت تنتظر حركته التالية حتى نامت...
إنه حي...

جلس هارولد في فناء المنزل الذي اختاره، يرنو إلى السماء ويفكر في أغنية روك قديمة. إنه يكره موسيقى الروك، لكنه يتذكر تلك الأغنية كلمةً، ويتذكر اسم مغنيتها كاثي يَنْج، مع فريق إينوسنتنس. للمغنية أو المطربة وكانت وظيفتها صوتًا عاليًا ملتاغًا يلفت انتباهه. يقال عنها إنها من كنوز الماضي. بدا صوتُ المغنية -الذي هو صوت المراهقات- فاقداً للأمل، وكأنها تغني لصورة مدفونة في قاع درج مهجور، لا تخرج إلا ليلاً بعدما ينام الجميع. ربما تكون الصورة لوسيم من ألبوم صور مدرسة أختها الأكبر. يواعد ذلك الوسيم رئيسة المشجعات، ولا يعرف حتى بوجود تلك البائسة ذات حبوب الوجه والجسد الذي يفتقر إلى معالم الأنوثة.

«ألف نجمة في السماء تجعلني أدرك أنك مَنْ أعشقه.. قل لي إنك تحبني.. قل لي إنك ملكي».

في السماء اللية أكثر من ألف نجمة، لكنها ليست نجوم العاشقين. هنا وعلى ارتفاع ميل من سطح البحر، النجوم ثقوب واضحة في مخمل السماء الداكن، مليار طعنة من حربة الرب. إنها نجوم الكارهين، لذا رأى هارولد أنه مؤهل لتمني أمنية تشهد عليها تلك النجوم.
أتمنى أن تموتوا جميعاً أيها الناس.

طال شعر هارولد إلى حد غير مسبوق في حياته، لكنه ما عاد مدهناً قذراً، ولم تعد رائحة جسده منفرة. حتى بثوره شُفِيَتْ وقد أُلْقِعَ عن الحلوى ففقد بعض وزنه فبدأ أفضل بكثير. أحياناً كان يمر من أمام أسطح عاكسة، فيتوقف وقد ظن أنه يرى شخصاً غريباً.

اعتدل في مقعده. على فخذه دفتر كبير بكعب أزرق وغلاف من جلد صناعي. يحتفظ به تحت بلاطة موقد مُخلخلة في بيته عندما يغيب عنه. لو وجد أحد الكتاب لكانت نهاية وجوده في بولدر. على غلاف الكتاب رسم ورقة

شجر ذهبية، وكلمة «سِجِل». إنه دفتر اليوميات الذي بدأ يكتب فيه منذ قرأ يوميات فرانك، وملأ منه ستين صفحة بخطه الصغير متلاصق الكلمات. لم يقسم اليوميات إلى فقرات، بل كل صفحة هي أسطر متلاحقة تطفح بالغل والصديد. المفترض أن يكون قد نفّس عن البخار المكتوم بداخله، لكن يبدو أنه أخرج فقط شيئاً منه.

لماذا كل هذه الكراهية؟

استقام وفرد ظهره كأن السؤال جاء من شخص آخر. إنه سؤال صعب الإجابة إلا على بضع أشخاص مختارين. ألم يقل آينشتاين إن ستة فقط يفهمون معادلة النسبية بدقة؟ ماذا عن المعادلة داخل عقله؟ نسبة هارولد. حساب سرعة الفساد. يمكنه ملء ضعفي عدد الصفحات التي كتبها عن هذا الأمر، فيصير أكثر إبهاماً والتباساً، حتى يضيع في النهاية داخل متاهة نفسه، ولا يقترب حتى من باعث الكراهية الرئيسي. إنه.. يغتصب نفسه. فعل سدومي فاضح مستمر.

يجب أن يغادر بولدر قريباً، ربما خلال شهر أو اثنين لا أكثر. عندما يجد طريقة لتسوية حسابه، ثم يتجه غرباً. حالما يصل إلى هناك، سيقول كل شيء عن هذا المكان، وعن الاجتماعات العمومية، والأهم.. ما يجري في الاجتماعات الخاصة. كان واثقاً من أنه سيكون ضمن لجنة المنطقة الحرة، وسيكافأ.. لا بنهاية الكراهية، بل بعربة تحملها. كاديلاك البغضاء، طويلة لامعة داكنة. سيرطبها وستتحمله، وسيركل هو وفلاج عش النمل التعس الذي يزعجه، لكن أولاً يجب أن يسوي حسابه مع ريديمان الذي كذب عليه وسرق امرأته؟

نعم يا هارولد، لكن لماذا تكرهه؟

لا توجد إجابة مُرضية عن هذا السؤال، فقط نوع من.. من إحالة هذه الكراهية. هل هو سؤال عادل؟ لا. بل هو أشبه بسؤال امرأة عن سبب ولادتها طفلاً مشوهاً.

مرّ عليه وقت، ساعة أو لحظة، فكر فيها في نبذ الكراهية. كان هذا بعدما قرأ يوميات فرانك وعرف علاقتها بريديمان. تأثير هذه المعرفة فيه كتأثير صب الماء البارد على حلزون فينكمش ويتكور. في تلك الساعة أو اللحظة وعى إلى قدرته على تقبل ما يحدث، وهذا ما أثار زعره. عرف وقتها أن في استطاعته تحويل نفسه إلى شخص جديد، واستنساخ هارولد لودر جديد من نفسه القديمة باستخدام سكين وباء الإنفلونزا الفائقة الحاد. استشعر

أكثر من أي شخص آخر أن هذه هي وظيفة المنطقة الحرة. لم يعد الناس كما كانوا. مجتمع هذه البلدة الصغيرة لا يشبه أي مجتمع أمريكي آخر قبل الوباء. هم لا يرون ذلك لأنهم لم يصمدوا خلف الحدود كما فعل. رجال ونساء يعيشون معًا دون رغبة في استعادة طقس الزواج. مجموعات بشرية تعيش في مجتمعات فرعية صغيرة. لم يعد للنزاع مكان، وتواءم الجميع مع وجود بعضهم.

الأغرب من ذلك أن لا يناقش أحد تبعات الأحلام الدينية العميقة.. وتبعات الوباء نفسه. بولدر مجتمع مستنسخ لا يستشعر جماله الغريب. لكن هارولد يستشعره، ويكرهه.

بعيدًا خلف الجبال مخلوق مستنسخ آخر، مقتطع من الخبث ذاته. خلية شاذة من جثة السياسة القديمة، تمثيل للسرطان الذي كان ينهش المجتمع القديم. خلية سرطان واحدة، بدأت تتكاثر، وسيعود المجتمع إلى معاناته القديمة، معاناة النسيج السليم مع الخلايا الخبيثة.

مع كل خلية مستقلة يأتي السؤال العتيق، السؤال الذي يعود إلى جنة عدن: هل ستأكل التفاحة أم ستتركها وشأنها؟ هناك في الغرب يلتهمون تلاً من فطائر التفاح. سفاحو عدن هناك وحمة بنادقها البغضاء.

عندما واجه حريته في قبول ما يحدث، رفض تلك الفرصة الجديدة لأن فيها موته. رفضها شبح كل من سخر منه وأهانته، رفضتها أحلامه المغدورة وطموحاته المكبوتة. تساءل أكان في وسعه نسيان كل هذا. في المنطقة الحرة في بولدر، لا يمكنه إلا أن يكون هارولد لودر، أما هناك فيمكنه أن يصبح أميرًا.

يجذبه الخبث. إنه مهرجان حالك، فيه دوارة ملاء مظلمة تدور فوق أرض خربة. عرض مسوخ لا ينقطع، جمهوره نفسه من المسوخ. في الخيمة الرئيسية تأكل الأسود المشاهدين.

موسيقى الفوضى النشاز تناديه...

فتح يومياته وكتب تحت ضوء النجوم:

12 أغسطس 1990 (ساعات الصباح الأولى)

يقال إن أعظم خطايا البشر هي الكبرياء والكراهية. حقًا؟ أنا أصوت لمصلحة كونهما أعظم الفضائل. نبذ الكبرياء والكراهية يعني أن تتغير لمصلحة العالم. النبل الحقيقي في احتضانهما، وتنفس عبقهما. هذا يعني أن يتغير العالم من أجلك أنت. أنا في مغامرة عظيمة.

هارولد إيـمري لودر.

أغلق السجل، ثم عاد إلى البيت وخبأه تحت بلاطة المدفأة. ذهب بعدها إلى الحمام وأضاء مصباح كولمان، وراح يتمرن أمام المرأة على الابتسام الذي صار بارعًا فيه.

الفصل الحادي والخمسون

انتشرت منشورات رالف في أنحاء بولدر، فدارت مناقشات حماسية، أغلبها عن تقييم محاسن أعضاء اللجنة الطارئة السبعة ومساوئهم.

خلدت الأم أباجيل إلى الفراش قبل اختفاء آخر ضوء من السماء. كان اليوم سيلاً لا يتوقف ممن يسألونها عن رأيها. قالت إن كل الأسماء جيدة، فسألوها أكان الأفضل تشكيل لجنة أكبر تكون هي على رأسها، فقالت إن هذا أمر سابق لأوانه، لكن لا مانع من ذلك إن كانت هذه رغبتهم. أكد لها الناس أن أي لجنة دائمة لا تترأسها ستتحوّل إلى فوضى.

عادت الأم أباجيل في نهاية اليوم إلى فراشها مرهقة، راضية. وكذلك نك أندروز. لقد حولت المنطقة الحرة مجموعة لاجئين مشتتين إلى أصحاب أصوات، بفضل رجل ماهر طبع منشورات يدوياً. لقد جعلهم هذا يشعرون بثبات الأرض تحت أقدامهم بعد طول ارتحال.

في تلك الظهرية، أوصله رالف بالسيارة إلى محطة توليد الطاقة. كان قد اتفق هو ورالف وستو على عقد اجتماع استباقي في شقة ستو وفراني بعد غد، وهذا ما سيمنحهما يومين إضافيين للاستماع إلى ما سيقوله الناس.

ابتسم نك وغطى أذنيه غير النافعتين. قال ستو: «قراءة الشفاه أفضل. هل تعرف يا نك، بدأتُ أعتقد أننا سنصل إلى شيء في مهمة إصلاح تلك المحركات. براد كيتشنر رجل ماهر، لو لدينا عشرة مثله لأعدنا التيار إلى البلدة كلها قبل أول سبتمبر».

وافقه نك، ومشيا معاً إلى الداخل.

بعد الظهيرة مشى لاري أندروُد وليو روكوَاي متجهين إلى غرب شارع أراباهو، نحو منزل هارولد. حمل لاري الحقيبة التي كان يحملها طوال رحلته، لكنه كانت خالية إلا من زجاجة الخمر والشوكولاتة.

خرجت لوسي مع نصف دسته أشخاص لإجلاء الطرق حول بولدر من حطام السيارات والتكدسات. هذه مهمة صعبة بطيئة طالما كانت تعمل ورفاقها وحدها دون إمدادات أو تخطيط أكبر. وقعت عينا لاري على منشور معلق على عمود هاتف يدعو إلى اجتماع عمومي. ربما يكون في هذا الاجتماع الحل. يريد الجميع المشاركة في العمل، لكنهم في حاجة إلى من ينسق بينهم ويخبرهم بما عليهم فعله. رغبة الجميع في العمل نابعة من رغبة أخرى، وهي إزالة كل أثر لما حدث أول الصيف، كما تستخدم ممحاة لمحو كلمات شائنة من على لوح كتابة في مدرسة. فكر لاري في أنهم لن يستطيعوا فعل ذلك في كل أمريكا، لكن في وسعهم تنظيف بولدر قبل الشتاء، لو قررت الطبيعة الأم التعاون معهم.

التفت إلى صوت تهشم زجاج. التقط ليو حجراً من حديقة أحدهم وقذفه فكسر به زجاج سيارة فورد قديمة.

- كف عن ذلك يا جو.

- أنا ليو.

- حسناً. لا تفعل ذلك يا ليو.

- لمَ لا؟

فكر لاري طويلاً في إجابة مقنعة، ثم أجاب: «لأن صوته مزعج».

- حسناً.

ومشى. وضع لاري يديه في جيبه، ففعل ليو مثله. ركل لاري علبة بيرة فارغة، فركل ليو حجراً. صفر لاري لحنًا، فصاحبه ليو بهمهاته. مسد لاري شعر الصبي، فنظر إليه بتلك العينين الصينيتين الغريبتين وابتسم. فكر لاري: بحق المسيح. أنا أحبه...

قرب العنوان المذكور، صادف رجلًا عريض الكتفين يركع إلى جوار صفيحة زُبالة مليئة بخليط أسمنت. الرجل بلا قميص، ويبدو على ظهره أثر حروق شمس قديمة. كان يمسك جروفاً بيمينه، ويبني سوراً قصيراً من الطوب حول أجمة أزهار.

فكر لاري في ما قالته فران عن تغيّر هارولد إلى الأفضل ظاهريًا، وعن خوفها منه، ثم قرر أن يقول ما خطط لقوله طوال رحلته خلال البلاد.

- أنت هارولد لودر على ما أظن؟

أجفل هارولد، ثم استدار وفي إحدى يديه قطعة طوب وفي الأخرى المِجْرَفَة الذي يقطر أسمنتًا. لمح لاري بركن عينيّه ليو يجفل بدوره، وقد بدا له أن ما يحمله هارولد أسلحة محتملة.

أول ما خطر للاري هو أنه لا يبدو كما تخيل طبعًا، وثاني ما خطر له هو قلقه من أن يشج رأسه بِمِجْرَفَته. وجه هارولد متجهم، عيناه ضيقتان داكنتان، شعره مموج يغطي جبهته، شفاته مزمومتان شاحبتان.

ثم فجأة تبدّل كل هذا، حتى إن لاري عجز عن تصديق ما رآه. كيف تحول وجه عبوس قاس كهذا إلى وجه باسم بريء. فقدت عيناه تلك النظرة الخبيثة (كيف لعينين خضراوين كهذه أن تبدو سوداء خبيثة؟!)، ووضع المِجْرَفَة الصغير على الأرض، ثم مسح يديه في جانبي سرواله، ومد يداً مصافحة.

فكر لاري: «رباه، إنه مجرد صبي أصغر مني، لم يجاوز الثامنة عشرة». قال هارولد الباسم وهما يتصافحان: «لا أظنني أعرفك». هز يد لاري ثلاثاً بقبضته القوية وهو يصافحه، ثم أطلق سراحها. إلا أن ابتسامة هارولد مُعدية، فابتسم لاري. بصرف النظر عن المصافحة القوية الرسمية، رأى أن ابتسامته صادقة. بعد كل المسافة وأغلفة الشوكولاتة، ها هو هارولد بشحمه ولحمه.

قال لاري: «لا، أنت لا تعرفني. لكنني أعرفك».

اتسعت ابتسامة هارولد أكثر، حتى ظن أن طرفي فمه قد يتماسان وراء رأسه. أكمل لاري: «لقد تبعْتُ خطاك خلال البلاد يا رجل».

- أنت تسخر مني! حقًا فعلت؟

قال لاري وهو يفتح حقيبته: «حقًا. وأحضرت لك هدية».

نظر هارولد إلى زجاجة الخمر وقال في ذهول: «ما كان عليك أن تتعب نفسك. 1947؟».

- سنة حظ. وأحضرتُ لك هذه أيضًا.

وأعطاه نصف دسته شوكلاتة باي داي، سقطت واحدة على الأرض، فانحني هارولد يلتقطها، ولمح لاري تعبير وجهه القديم العابس، قبل أن يعتدل هارولد ويبتسم مرة أخرى ويسأله: «كيف عرفت؟».

- تبعْتُ لافتاتك وأغلغة الشوكولاتة.

- تعال.. ادخل. لنشرب شيئاً. هل يشرب ابنك الكولا؟

- طبعاً، أليس كذلك يا...

نظر وراءه فلم يجد ليو خلفه، بل ابتعد إلى نهاية الشارع وراح يتفحص شقوقاً في الرصيف.

- ليو! هل تريد كولا؟

غمغم ليو شيئاً لم يسمعه لاري. قال الأخير في ضيق: «تكلم! لماذا أعطاك الله صوتاً؟ أنا أسألك أكنت ترغب في بعض الكولا؟».

قال ليو بصوت مسموع بالكاد: «أعتقد أنني سأذهب لأرى أكانت ماما نادين قد عادت».

- ماذا تقول، لقد وصلنا للتو.

رفع ليو نظره عن الرصيف وهتف: «أريد أن أعود!». انعكس ضوء الشمس عن عينيه، فعرف لاري أنه يكاد يبكي. قال لهارولد: «لحظة لو سمحت».

- تفضل. بعض الأطفال يدخلون من الغرباء.

مشى لاري إلى ليو، ثم انحنى أمامه ليكون في مستوى عينيه وسأله: «ما الأمر يا صغيري؟».

أجاب ليو وهو يتحاشى النظر إلى عينيه: «أريد فقط أن أعود. أريد ماما نادين».

- حسناً...

وصمت، فكرر وهو ينظر إلى لاري: «أريد أن أعود». ثم نظر نظرة سريعة تجاه لاري، وعاد لينظر إلى الرصيف.

- أنت لا تحب هارولد؟

- لا أعرف.. أريد فقط أن أعود.

- هل تعرف الطريق؟

- بالتأكيد.
- حسنًا، لكنني كنت أودُّ لو تشاركنا شرب الكولا. كنت أتوق إلى رؤية هارولد منذ وقت طويل. أنت تعرف هذا، أليس كذلك؟
- نـ... نعم...
- يمكننا أن نعود معًا بعد ذلك.
- فحَّ ليو وقد عاد لحظةً إلى شخصيته الهمجية الشرسة: «لن أدخل ذلك البيت».
- قال لاري متردداً: «لا بأس. عد إلى المنزل مباشرة، ولا تمكث في الشارع».
- سأفعل...
- ثم أكمل هامساً: «لماذا لا تعود معي الآن؟ سنعود معًا. أرجوك يا لاري.. أرجوك».
- بربك يا ليو...
- لا تهتم...
- وقبل أن يقول لاري شيئاً، رحل ليو مسرعاً. وقف لاري ينظر إليه هنيهة، ثم عاد إلى هارولد مهموماً. قال هارولد: «لا بأس. للأطفال تصرفات غريبة».
- هذا الطفل هو الأكثر غرابة. لكنه مرَّ بصعاب كثيرة.
- أراهن على ذلك.
- للحظة شعر لاري بقلق تجاه تعاطف هارولد المفاجئ مع طفل لم يقابله من قبل. بدا له التعاطف صناعياً كمسحوق البيض المجفف. أكمل هارولد: «تعال، ادخل. هل تعرف أنك أول رفيق لي؟ كان ستو وفراني رفيقين لي لمدة قصيرة لا تُحتسب».
- تحولت ابتسامته إلى أخرى أكثر حزناً، فأشفق عليه لاري. إنه مجرد صبي وحيد. لكنَّ عليه أن يكفَّ عن الشك فيه، وإلا لعاد لاري القديم اللعين الأناني الذي لا يعذر أحداً.
- قال لاري: «سعيد برفقتك».
- غرفة المعيشة صغيرة مريحة. قال هارولد: «سأضيف إليها بعض الأثاث عندما أستطيع. أثاث عصري من الكروم والجلد. أو كما يقول الإعلان: «سحقاً للميزانية، إن معي ماستر كاردينال!»».

ضحك لاري من القلب.

- في القبو بعض الكؤوس، سأحضرها. اعذرني إن كنت سأعطي الحلوى لآخرين، فقد توقفتُ عن تناولها في محاولة لإنقاذ وزني، لكنني سأجرب الخمر. هذه مناسبة خاصة. لقد جئت خلال البلاد خلفنا، تتبع لافتاتي -لافتاتنا- وهذا تصرف مؤثر بحق. لا بُدَّ أن تحكي لي وأنت تجرب هذا المقعد الأخضر، إنه أفضل الخيارات.

خطر لاري خاطر متشكك أخير: إنه يتحدث مثل السياسيين.. لبق، سريع البديهة...

غادر هارولد إلى القبو، وجلس لاري على المقعد الأخضر. سمع بابًا يُفتح ثم صوت خطوات هارولد الثقيلة تهبط درجًا. نظر حوله.. لا، ليست أفضل غرفة معيشة، لكن مع بساط جديد وأثاث عصري ستكون أفضل. أفضل ما في الغرفة المدفأة الحجرية ذات المدخنة. قطعة فنية حقيقية لولا البلاطة المخلخلة التي بدت للاري كأنها خُلِعَتْ ثم أُعيدت إلى مكانها بإهمال. تركها هكذا كترك لوحة مائلة على حائط. قام ورفع البلاطة فيما هارولد يُحدث جلبة بالأسفل. كاد لاري يعيدها إلى مكانها المضبوط لولا لمح الكتاب المترب والنقش على غلافه.

شعر لاري بالخجل من نفسه كأنه تلصص عن عمد، فأعاد البلاطة إلى مكانها الدقيق فيما صوت خطوات هارولد تصعد الدَّرج، وكان قد عاد إلى مقعده بوصول هارولد حاملاً كأسين منتفختين.

- تأخرتُ قليلاً، كنت أغسلهما في الحوض بالأسفل؛ كانا مُتربين.

- لا مشكلة. اسمع، لا أستطيع أن أقسم على أن خمر البوردو لم يفسد. ربما نُمَني نفسنا بالاحتفال بشرب الخل.

قال هارولد باسمًا: «لولا المغامرة ما كسبنا شيئاً».

الابتسامة تثير قلق لاري، فوجد نفسه يتذكر السجل فجأة.. إما أنه ملك لهارولد، أو ملك لأصحاب البيت السابقين. إن كان سجل هارولد، فأَي شيء يكتب فيه؟

فتحا زجاجة الخمر فوجداه سليمًا. بعد نصف ساعة كان هارولد قد ثمل أكثر قليلاً من لاري، إلا أن ابتسامته ظلت عريضة صامدة.

انفكَّت عقدة لسانه بعض الشيء، فقال لاري: «رأيتُ تلك المنشورات عن اجتماع يوم الثامن عشر. كيف لم تصل إلى قائمة أعضاء اللجنة يا هارولد؟ لا بُدَّ أن وجود اسم شخص مثلك فيها أمر منطقي».

اتسعت ابتسامة هارولد وازدادت بهجة وهو يقول: «أنا أصغر مما ينبغي. أعتقد أنهم رأوا أنني أفتقر إلى الخبرة اللازمة».

- بل أعتقد أن هذا خطأ بَيِّن.

هل يعتقد هذا حقًا؟ ماذا عن الابتسامة؟ ماذا عن شكوكه؟ قال هارولد وهو يوسع ابتسامته أكثر: «مَن يعرف ما يخبئه لنا المستقبل؟ لكل كلب يومه».

غادر لاري في الخامسة عصرًا، وافترقا صديقين. صافحه هارولد وطلب منه زيارته مرة أخرى، لكنَّ لاري قد قرر بشكل ما أنه لن يعود.

مشى ببطء على الطريق الأسمنتي، ثم استدار ليلوح لهارولد، لكنه قد عاد إلى الداخل وأغلق الباب. المنزل بالداخل بارد بسبب الستائر، لكن بالخارج درجة الحرارة جيدة. خطر لاري أن هذا هو أول منزل يدخله في بولدر ويجد ستائره مُسدلة. في بولدر منازل أخرى كثيرة ذات سائر مُسدلة؛ منازل الموتى. عندما مرضوا، أغلقوا منافذ بيوتهم أمام وجه العالم، وماتوا في خصوصية كما لأي حيوان أن يفعل في أيامه الأخيرة.

وعلى العكس يتصرف الأحياء، يفتحون منافذ بيوتهم على اتساعها. أصابه صداع من الخمر، وحاول إقناع نفسه أن الرعدة التي أصابته منه لا من أفكاره.

تدهور تركيزه، وصار فجأة مقتنعًا أن هارولد يراقبه من بين الستائر، وهو يكور قبضتيه، وقد تحولت ابتسامته إلى تكشيره بُغض.. لكل كلب يومه. تذكر بلا مقدمات ليلة نام في مسرح بيتنجتون، واستيقظ على شعور مرعب أن أحدًا بالقرب منه، وسمع (ربما حلم؟) بوقع خطواته عاليًا هو يبتعد نحو الغرب.

كفى.. أنت ترعب نفسك. من أجل المسيح يا لاري.. ليتني لم أفكر في الموتى وراء الستائر المسدلة في الظلام، مثلها كمثل الجثث في عَمَّة نفق لينكولن. ماذا لو تحركوا، ماذا لو...

وجد أفكاره تنجرف إلى ذكرى زيارة حديقة حيوان برونكس مع أمه عندما كان صبيًا. زارا بيت القروء، فلکمته الرائحة كأنها قبضة موجهة إلى أنفه. كاد يفر لولا استبقته أمه.

تنفس على نحو طبيعي يا لاري. خمس دقائق ولن تلاحظ الرائحة.

بقي وهو لا يصدقها، حاول ألا يتقيأ (حتى وهو في سن السابعة كان يكره القيء أكثر من أي شيء آخر)، واتضح له أنها مُحقة. عندما نظر إلى ساعته بعد فترة، اكتشف أنه قضى نصف ساعة في بيت القروء، وصار لا يفهم سرَّ اشمئزاز الذين دخلوا للتو. أخبر أمه بهذا، قالت: «ما زالت الرائحة سيئة، لكنَّ ليست كذلك بالنسبة إليك». سألتها: «كيف هذا؟»، فأجابت: «لا أعرف، لكنَّ الجميع قادر على أن يفعل ذلك. قل لنفسك الآن: سأشم رائحة قفص القروء الحقيقية، وخذ شهيقًا عميقًا».

ففعل، وعادت الرائحة النتنة أقوى من المرة الأولى، وصعد الطعام الذي أكله إلى قمة معدته، فانطلق يخرج من الباب إلى الهواء النقي حتى تمالك نفسه.

قال لنفسه الآن: «إنه الإدراك الانتقائي، وكانت تعرف به وإن لم تعرف المصطلح».

سرعان ما سمع صوت أمه تقول له: «قل لنفسك: سأشم رائحة بولدر الحقيقية الآن».

ففعل، وشم رائحتها الحقيقية، رائحة التحلل خلف الأبواب المغلقة والستائر المُسدلة حتى لو كانت البيوت خاوية.

أسرع خطاه، وازداد إدراكه للرائحة التي لم يعد أحد غيره يشمها لأنهم اعتادوها. الرائحة في كل مكان، في كل شيء، تُلوّن أفكارهم ذاتها، فلا يغلقون الستائر حتى وهم يتضاجعون، لأن الموتى فقط هم من يرقدون في الظلام، والأحياء ينفثون على العالم.

تصاعدت الخمر والشوكولاتة إلى حلقه. هذا بيت قروء لن يستطيع الخروج منه، إلا إذا انتقل إلى جزيرة لم يعيش فيها أحد قط. رغم أنه يكره التقيؤ، لا يستطيع الآن أن...

- لاري.. هل أنت بخير؟

أجفل، رأى ليو يجلس أمامه على الرصيف على بعد ثلاثة مبانٍ من بيت هارولد، يضرب بيده كرة بينج بونج، فترتد عن الأرض إلى أعلى فيعيد ضربها. يصدر عن الكرة صوت وُنك! وُنك!

سأله لاري ونبضات قلبه تعود إلى المعدل الطبيعي: «ماذا تفعل هنا؟». - أردت أن أنتظرك لنعود إلى البيت معًا، لكنني لا أرغب في دخول بيت ذلك الرجل.

سأله وهو يجلس إلى جواره: «ولمَ لا؟». هز ليو كتفيه وعاد ينظر إلى الكرة. قال: «لا أعرف».

- ليو؟

- ماذا؟

- هذا مهم بالنسبة إليّ، لأن هارولد يروق لي.. ولا يروق لي. أشعر تجاهه بالشعورين في الوقت نفسه. هل مررت بتجربة شبيهة من قبل؟ - أنا لا أشعر إلا بشعور واحد تجاهه.

وُنك! وُنك!

- كيف؟

أجاب ببساطة: «أشعر بالخوف. هل يمكن أن نعود الآن إلى ماما نادين وماما لوسي؟».

- بالتأكيد.

مشيًا قليلاً دون حديث، وظل ليو يلعب بالكرة. قال لاري: «معذرة. لقد انتظرت طويلاً».

- لا مشكلة.

- لو كنتُ أعرف لأسرعتُ.

- كنتُ مشغولاً باللعب. وجدتُ كرة البونج بينج هذه في فناء منزل.

صحَّح له لاري في شرود: «اسمها كرة بينج بونج. ما سبب إسدال هارولد لستائره في رأيك؟».

- كي لا يراه أحد. أعتقد هذا. كي يفعل أمورًا سرية. إنه يغلق الستائر مثل الناس الميتين، صح؟».

وُنك! وُنك!

مشيا حتى نهاية شارع برودواي ثم انعطفا جنوبًا، وقابلا آخرين من أهالي البلدة. سيدة أمام واجهة متجر فساتين، ورجل يبحث عن شيء وسط مُعدّات صيد في متجر مكسور البوابة. رجل آخر يحمل بلطة ويبدو عائدًا من مكان ما. رأى لاري ديك قولمان وجماعته يركبون دراجاتهم. حيا لاري وليو فردًا التحية.

كرر لاري بصوت مسموع: «أمورًا سرية...».

قال ليو بطريقة عادية: «ربما يصلي للرجل الغامض». انتفض لاري كأنما مسّه تيار كهربائي. لم يلاحظ ليو وظل منهمكًا في اللعب بالكرة. سأله لاري بصعوبة وهو يحاول أن يبدو عاديًا: «هل تعتقد ذلك حقًا؟».

- لا أعرف. لكنه ليس مثلنا. أعتقد أن بداخله ديدانًا تجعله يبتسم. ديدان بيضاء سمينة تأكل مخه...

- ليو...

أشرقت عينا ليو الشاردتين وابتسم هاتفًا: «انظر! دايانا هناك! أنا أحبها. يا دايانا! معكِ علكة؟».

التفتت دايانا التي كانت تصلح دراجة وابتسمت له. بحثت في جيب قميصها وأخرجت له خمس قطع علكة فواكه چوسي فروت. جرى ليو نحوها بضحكة مُنطلقة وهو يمسك بالكرة بعد، تاركًا لاري خلفه يغوص في تساؤلاته. فكرة الديدان البيضاء عجيبة. من أين أتى ليو بفكرة معقدة شنيعة كهذه؟ لقد قال الصبي هذا وهو شارد كأنه منوم. لم يكن الصبي هو الوحيد الذي يصاب بنوبات كتلك، فكم مرة رأى فيها لاري أحدهم يتوقف وسط طريقه فجأة ويشرد لحظات، ثم يكمل طريقه؟ كل شيء تغير، حتى وعي البشر وإدراكهم الأمر مرعب كالجحيم.

عاد ستو ليجد فراني تغسل في الفناء الخلفي. لم تكن تعرف أكان ملء حوض بالماء والصابون وغمر الملابس فيه ثم ضغطه بكتلا ساقيها كافيًا لغسلها، لكنها لن تذهب لتسأل الأم أباجيل وتفضح جهلها بشيء بسيط كغسل الملابس يدويًا.

رأت ستو فعانقته وقد لاحظت نظراته المدهوشة لما تفعله.

- بِمَ تسمين ما تفعلينه؟ رقصة تزاوج البط البري؟
- ها ها.. مُزحة ظريفة أخرى كهذه وستمضي الليل على الأريكة.. أو أعلى فلاجستاف مع صاحبك جِلن.
- لم أقصد أن...
- أنا أغسل ملابسك أيضًا يا سيد ستورات ريديمان، ربما كنت مشغولًا بأمور عظيمة، لكنك تترك لُطخًا بنية على سروالك الداخلي.
- ابتسم ستو واتسعت ابتسامته حتى ضحك وهتف: «هذه وقاحة يا حبيبتي!».
- لا أشعر أنني قادرة الآن على أن أكون مهذبة. مكتبة سُر مَن قرأ حسنًا، اخرجني من الحوض لحظة، أريد أن أحدثك في أمر.
- خرجتُ من الحوض ومسحتُ ساقيهما من بقايا الرغوة الرمادية. قال ستو: «عندما كانت زوجتي تغسل يدويًا كانت تستخدم لوح كشط. كان لأمي ثلاثة. أتذكر ذلك».
- أعرف هذا. بحثتُ أنا وچون في نصف بولدر ولم نجد واحدًا. التكنولوجيا تضرب من جديد. المهم، هل تحاول استفزازي يا ستورات ريديمان؟
- لا يا سيدتي، أنا فقط أعرف مكان لوح كشط، ويمكن أن أ جلب واحدًا لصديقتك إن أرادت.
- أين؟
- دعيني أبحث أولاً.
- أحاطها بذراعيه وقال وهو يلصق جبينه بجبينها: «أنا أقدر تعبك في غسل ملابسك. ولا يعرف أحد أكثر من رجل المرأة الحامل قدر حاجتها إلى الراحة. لماذا تتعبين نفسك في الغسيل؟».
- نظرتُ إليه نظرة حيرى: «ماذا؟ ماذا سترتدي إذن؟ هل تريد أن تتحرك هنا وهناك بملابس متسخة؟».
- الملابس تملأ المتاجر، ومقاسي متوافر.
- إذن سنتخلص من الملابس القديمة لأنها اتسخت؟
- هز كتفيه غير واثق.

- لا يمكن هذا يا ستو. نحن نعيش الآن على الطريقة القديمة، نعيد استخدام القديم حتى يهترئ.
- قَبَلْها وقال: «حسنًا. لكنْ سأغسل أنا المرة القادمة».
- بالتأكيد. حتى متى يمتد هذا العرض؟ حتى ألد؟
- حتى نستعيد الكهرباء. بعدها سأجلب لك أكبر وأجمل غسالة كهربية رأيتها، وسأركبها بنفسي.
- عانقته وتبادلا القبلات حتى صرفا النظر عن الغسيل والحديث، وانصرفا لفعل أشياء أخرى أكثر إثارة...

- شَمَّر ستورات ساقيه وبدأ يضغط الغسيل في الحوض بقوة. ضحكت فراني وقهقهت وهي تجلس أمام المنزل في الظل. بعدما سيطرت أخيرًا على ضحكاتها، سألته: «سأسألك للمرة الثالثة، ما الأمر الذي عدتَ لتكلمني فيه؟».
- قال وهو يضرب الغسيل بساقيه حتى ازدادت كثافة الرغبة فتناثرت حوله: «الليلة أول اجتماع للجنة للطائرة».
- عندي بيرة وبسكويت وجُبْن وبعض الببروني الذي...
- ليست هذه هي المشكلة يا فراني. جاء دِك إليس اليوم وقال إنه يريد أن يخرج من اللجنة.
- كانت فراني ترى أن دِك ليس من نوعية الرجال الذين يفرون من المسؤولية. أكمل ستو: «قال إنه سيشارك في أي شيء نريده لكن بعدما نجد طبيبًا جيدًا بديلًا له. زارته خمس وعشرون حالة اليوم من بينها حالة غنغرينا في الساق.
- إلهي...

- أنقذها دِك والممرضة التي جاءت في جماعة أندروُد، تلك الطويلة الجميلة لوري كونستابل. قال دِك إنه كان ليفقد المرأة المصابة لولاها.
- المهم، بتر ساقها المصابة حتى الركبة. تطلب الأمر ثلاث ساعات من العمل المتواصل، وهما الآن مُرهقان. لديهما أيضًا حالة طفل يصاب بنوبة تشنجات، ودِك حائر في تشخيصه. هل هو مصاب بالصرع أم ماذا؟ تلقى أيضًا حالات تسمم غذائي، وقد طُلِب بإعداد منشور لتوعية

الناس بالنباتات السامة وسبل اختيار الطعام. لدينا أيضًا حالات كسر في الذراع، وحالة إنفلونزا...

- رباه! هل قلت إنفلونزا؟!

- اهدهني.. إنفلونزا عادية يهزمها الأسبرين، لكنَّ دِك يحرق ساعات يومه في البحث عن الأدوية المناسبة، وهو قلق بصدد العدوى وإثارة هلع الناس.

- مَنْ المريض؟

- سيدة اسمها رونا هيويت. من حظنا أن لوري كونستابل الممرضة أغرِمت بِدِك رغم أنه في ضعفِي عمرها. لا بأس. المهم أنهما متلازمان ويعملان معًا.

سألت ساخرة: «متى ستعطيها ختم الموافقة على علاقتهما؟».

ابتسم مجيبًا: «دِك في الثامنة والأربعين، ومصاب بمشكلة في القلب. لكنه طموح ويفكر جديًا في دراسة الطب البشري. أتفهم انجذاب لوري إليه، فهو أقرب نموذج إلى البطل بيننا. ما هو إلا طبيب بيطري ويخشى حدَّ الموت من أن يقتل أحدًا بالخطأ.

- امم. إذن نحتاج إلى بديل عنه في اللجنة.

- اقترح رالف بريتنر لاري أندروُد، ومما قلتِ عنه أعتقد أنه شخص ذكي.

- نعم. أعتقد أنه رجل صالح. قابلت امرأته اليوم. سيدة لطيفة للغاية وتراه بطلًا.

- يجب أن أكون صريحًا معك يا فراني. لا يعجبني تصرفه.. كيف يحكي قصة حياته هكذا لشخص لا يعرفه؟

- أعتقد أن السبب أنني كنت مع هارولد منذ البداية. إنه لا يفهم حتى الآن لماذا اخترتك ولم أختَر هارولد.

- تُرى ماذا حدث عندما تقابلا؟

- سلّه وستعرف.

- سأسأله.

- هل ستدعوه إلى اجتماع اللجنة؟

- في الغالب. كنت أفضل ضمَّ القاضي، لكنه مسن للغاية.

- هل تكلمت معه عن لاري؟
- لا، لكنَّك فعل. نك أندروز حاد الذكاء يا فران. لقد غيَّر بضع تفاصيل ما وضعناه أنا وجلين، وأقر الأخير أنه ذكي وأفكاره جيدة. على أي حال، قال القاضي لنك إن لاري هو الشخص الذي نبحت عنه، وقال إنه سيتحسن أكثر وأكثر لو اكتشفنا نقاط قوته.
- إذن، أنا أؤيد هذا الترشيح.
- نعم. لكنَّ يجب أن أعرف رأيه في هارولد قبل أن أدعوه إلى الانضمام. سألت في قلق: «ما مشكلة هارولد؟».
- دعيني أسألك أنتِ يا فران، ما مشكلتك مع هارولد؟ لماذا تشعرين حتى الآن أنه مسؤول منك؟
- حقًا؟ لا أعرف. كلما أفكر فيه أشعر بالذنب.
- لماذا؟ لأنني تفوقتُ عليه في عينيك؟ هل أحببته يومًا يا فران؟ هتفت وقد اقشعرَّ جسدها: «لا! إلهي، لا!».
- قال ستو: «كذبتُ عليه مرة.. لم تكن كذبة بالمعنى الحرفي. كان هذا يوم التقينا، يوم الرابع من يوليو. استشعرتُ قلقه مني، فقلتُ له إنني لا أرغب فيك. كيف كان لي أن أعرف أكنت سأريذك أم لا؟ في الكتب حب من النظرة الأولى، أما في الحياة الواقعية...».
- اتسعتِ ابتسامته، فسألته فران: «لماذا تبتسم يا ستورات ريدمان؟».
- كنت أفكر في الحياة الواقعية التي وقعتُ فيها في حبك بعد.. لنقل أربع ساعات.
- قبَّلتُ خده، فقال شاردًا: «أشعر أنه يحمل ضغينة ما تجاهي يا فران».
- لكنه لم يذكركَ بسوء يا ستو، ولم يذكر أي شخص بسوء...
- نعم.. لكنه يبتسم! هذا ما يقلقني...
- هل تعتقد أنه يخطط للانتقام مثلاً؟
- ابتسم ستو وقال: «لا، ليس هارولد. يرى جلين أن الفريق المُعارض قد يلتف حول هارولد. لا بأس ما دام لم يفسد ما نفعله الآن».
- تذكر فقط أنه وحيد خائف.

- ويشعر بالغيرة.

- الغيرة؟

فكرت لحظاتٍ، ثم هزّت رأسها وقالت: «لا أعتقد هذا.. لقد تحدثتُ معه وكنت لأعرف لو أنه يغار. ربما يشعر بالرفض، وأرى أنه كان يتوقع أن يُضم إلى اللجنة...».

- استبعاده جاء بناءً على طلبك، وهو مُقترح قبلناه ضمن ما قبلنا. في النهاية، يبدو أننا جميعًا لا نثق به.

- لقد كان أكثر المنبذين في أوجونكويت. لكنه بعد الوباء.. تغير كثيرًا. بدا كأنه يحاول أن.. أن يكون رجلًا. ثم تغير مرة أخرى، وصار يبتسم طوال الوقت، ولم يعد أحد قادرًا على الحديث معه كأنه.. كأنه مختبئ خلف نفسه. مثله كمثل الذين يغيرون دينهم أو يقرأون...

صمتت فجأة وشردت عينها فبدت خائفة حائرة.

- ماذا يقرأون؟

- يقرأون ما يُغيّر حيواتهم.. كتاب كفاحي مثلًا أو حتى خطابات سرية...

- عمّ تتحدثين؟

نظرت إليه كأنما تستفيق من سِنَة. ابتسمت وقالت: «لا شيء. ألن تذهب لتقابل لاري أندروُد؟».

- سأذهب.. لو كنت بخير.

- أن في خير حال. هيا اذهب. الاجتماع في السابعة، نو أسرع يمكنك أن تأكل شيئًا قبله.

- اتفقنا.

- ولا تنس أن تسأله عن رأيه في هارولد، وراقب عينيه وهو يجيب يا ستورات...

عندما سأل ستو عن انطباعه عن هارولد (لم يكن قد عرض عليه بعد أمر اللجنة)، نظر إليه لاري أندروُد في حيرة وحذر.

- أخبرتك فراني بإعجابي بهارولد، أليس كذلك؟

كانا في غرفة معيشة إحدى منازل الإسكان المتلاصقة، وفي المطبخ لوسي تصنع العشاء وتسخن معلبات على موقد يعمل بالغاز المعبأ في أسطوانات، وبدأت سعيدة وهي تدندن أغنية.

أشعل ستو سيجارة، وقد خفض استهلاكه إلى خمس سيجارات أو ست في اليوم، فهو لا يريد لكِ إليس أن يجري له جراحة استئصال سرطان الرئة.

- طوال الوقت الذي تبعْتُ فيه هارولد، ظللتُ أذكر نفسي أنه لن يكون كما تخيلته، وهذا ما حدث. لكنني أحاول منذ التقيته أن أفهم ما المشكلة. لقد كان مرحباً مضيافاً، وقضيتُ معه وقتاً طيباً.. لكن...

- لكن؟

- عندما وصلنا إلى منزله أنا وليو، كان يبني سوراً حول أجمة أزهار. لم يدرك اقترابنا إلا عندما تكلمتُ. استدار نحونا وللحظة فزعتُ.. قلتُ لنفسني إن هذا الشاب سيقتلنا.

اقتربتُ لوسي من باب الغرفة وقالت: «هلا مكثتُ معنا يا ستو وتناولت العشاء؟ لدينا فائض».

- شكراً. فراني تنتظرني. لن أمكث هنا أكثر من ربع ساعة.

عادت لوسي إلى المطبخ، فسأل لاري: «هل جئتُ فقط لتسألني عن هارولد؟».

أجاب ستو وقد توصل إلى قرار: «لا. جئتُ أطلب منك أن تخدم مجتمعنا بانضمامك إلى أعضاء اللجنة الطارئة. لقد اعتذر عضو؛ يكِ إليس».

قام لاري إلى النافذة ونظر إلى الشارع الهادئ: «هكذا إذن. ظننتُ أن في وسعي الآن العودة إلى العزلة».

- هذا قرارك طبعاً. نحن نحتاج إلى شخص إضافي وقد رُشحتُ.

- مَنْ رشحتني؟ إن كنت لا تمانع في إخباري...

- سألنا. فراني تراك صالحاً، وتكلم بكِ أندروز... أنت تعرف أنه لا يتكلم، لكن... المهم، سأل القاضي فاريس عنك.

بدأ لاري مسروراً وقال: «أثنى القاضي عليَّ؟ عظيم. الأفضل أن تضموه إليكم. إنه أذكى من شيطان».

- هذا ما اقترحه بكِ، لكنه مسن ورعايتنا الطبية بدائية.

استدار لاري نحو ستو وقال بنصف ابتسامة: «هذه إنّا ليست لجنة طارئة مؤقتة كما تزعمون، أليس كذلك؟».

ابتسم ستو واسترخى قليلاً. لم يقرّر بعد حقيقة شعوره تجاه لاري أندروُد، لكن واضح أن الرجل لم يولد أمس. قال: «دعنا نقول إننا نريد أن تُنتخب قائمتنا مدّة طويلة».

نظر لاري إلى ستو نظرة ودوداً نكيّة وقال: «لا أعارض هذا. هل ترغب في بيرة؟».

- شربْتُ الكثير مع جِلن منذ ليلتين، وفراني فتاة صبور، لكن لن يتحمل صبرها كثيراً. ما قولك يا لاري؟ ستنضم إلينا؟

- أعتقد... سحَقاً.. أنا موافق. لقد كنتُ أظن أن لا شيء سيسعدني قدر توصيل جماعتي إلى هنا وتحويل مسؤوليتهم إلى شخص آخر. لكن هأنا أنغرس في المسؤولية حتى كتفي...

- سنعقد اجتماعاً الليلة في بيتي، لنتكلم قليلاً عن اجتماع الثامن عشر. هل تستطيع الحضور؟

- بالتأكيد. هل أجلب لوسي؟

هز ستو رأسه ببطء وقال: «لا، ولا تخبرها بالأمر. نريد أن نحافظ على سرية الأمور بعض الوقت».

تبخرت ابتسامة لاري وقال: «لستُ ممكن يتقنون فنون الإخفاء والتستر يا ستو. أنا أفضل الإفصاح عن كل شيء كي لا تُثار مشكلات لاحقاً. أنا أومن أن كل ما حدث لنا منذ شهر يونيو كان بسبب الإخفاء والتستر. لم يكن هذا الوباء من الرب، بل من حماقة البشر».

قال ستو وهو يبتسم في استرخاء بعد: «سيكون عليك تحمل رأي الأم أباجيل بشأن ما قلت عن مشيئة الرب. أنا أتفق معك بالمناسبة، لكن هل كان رأيك ليظل كما هو لو أن التستر في زمن حرب؟».

- لا أفهم.

- ذلك الرجل الذي نحلم به. أشك في أنه ابتعد. يقول جِلن إنه يتفهم سبب عدم تطرق أحد إلى الأمر. رغم أننا جميعاً قد تلقينا تحذيراً منه، فإننا صرنا نتجاهل وجوده. لقد مررنا بالكثير حتى وصلنا إلى هنا، وكل ما

نريده الآن لعق جروحنا ودفن موتانا. لكن إن كانت الأم أباجيل هنا، فهو أيضًا هنا.

أوما ستو تجاه النافذة التي تطل على منظر الجبال البعيدة وأكمل: «ولو كنا لا نفكر فيه، أراهن على أنه يفكر فينا».

نظر لاري إلى باب الغرفة فوجد لوسي قد خرجت للتكلم مع جارتها. قال بصوت منخفض: «هل تعتقد أنه يلاحقنا؟ هذا اقتراح رائع قبل العشاء. مفيد للشهية».

- أنا لست واثقًا من أي شيء يا لاري، لكن الأم أباجيل تؤكد أن الرحلة لن تنتهي والخطر لن يزول إلا بانتصارنا عليه أو انتصاره علينا...

- أتمنى ألا تكون قد صرحت بهذا علنًا، وإلا فرَّ الجميع إلى أستراليا.

- كنت أظنك تعارض التكتم والأسرار؟

- نعم، لكن...

صمت لاري. ابتسم ستو في رفق، فقال لاري: «فهمت الآن مقصودك. يجب ألا نذيع كل ما نعرفه ونخطط له».

- جميل. أراك في السابعة.

قبل أن يرحل ستو، قال لاري: «معنا طفل اسمه ليو روكواي، جاء من مين إلى هنا معنا. أشارك أنا ولوسي ونادين كروس رعايته. نادين غريبة بعض الشيء.. هل تعرف هذا؟».

أوما ستو. لقد انتشر الكلام عما حدث بين نادين والأم أباجيل.

- كانت نادين تعتني بليو قبل أن أصدفهما. ليو لديه موهبة.. يستطيع أن يرى ما بداخل الناس. أعتقد أنه ليس الوحيد، وأن بعض الناس لديهم موهبة مشابهة، لكن مع الوباء.. ربما لم يتبقَّ سواه هنا. رفض ليو أن يدخل منزل هارولد، ولا حتى أن يمكث في فناء بيته. هذا.. غريب، أليس كذلك؟

- غريب فعلاً.

تبادلًا النظرات المفكرة للحظات، ثم غادر ستو إلى منزله لتناول العشاء. بدت فراني مشغولة في أثناء الأكل ولم تتكلم كثيرًا، وبينما تغسل الأطباق، بدأ الناس يتوافدون لحضور أول اجتماع للجنة المنطقة الحرة الطارئة.

بعدها ذهب ستو إلى لاري، صعدتُ فراني إلى غرفة النوم وأخرجتُ دفترَ يومياتها من حقيبتها التي تركتها في قاع الخزانة منذ استقرت هي وستو في هذا المنزل، ولم تكتبَ فيها إلا سبع مرات أو ثمانيَ منذ وصلوا إلى بولدر. أغلب ما كتبته مقتضب مبتور. أدركتُ أن المواظبة على الكتابة في اليوميات لم يعد من عاداتها، وأنها لم تكتبَ فيها منذ أربعة أيام رغم أنها قد عاهدتُ نفسها على المواظبة أكثر وقتما تستقر.

...كأنه مختبئ خلف نفسه. مثله كمثل الذين يُغيرون دينهم أو يقرأون ما يغير حياتهم.. كتاب كفاحي مثلاً أو حتى خطابات سرية...

بدا لها أن الدفتر اكتسب وزناً، وأن تقليب صفحاته عملية شاقة، و...

نظرت إلى ما وراء ظهرها فجأة وقلبها يدق بقوة. هل تحرك أحد؟

ربما فأر، وقد اختبأ خلف حائط، أو ربما هو محض خيالها. لا سبب إطلاقاً لتفكيرها في رجل متشح بالسواد يحمل مشجباً ملتويًا. جنينها بخير وما بين يديها مجرد دفتر، ولا دليل على أن أحدًا قرأ ما فيه، ولا أن من قرأ ما فيه هو هارولد لودر.

مع ذلك، فتحت الدفتر ومررت عينيها على صفحاته.

كنا نتكلم عن هارولد، فغمز لي ستو، وغمزتُ له...

سيعترض هارولد ويُصدع رؤوسنا بمصطلحاته.. اللعنة عليك يا هارولد، اكبر!

...ورأيناه يستعد بواحدة من عباراته المتذاكية...

(إلهي.. لماذا كتبتُ كل هذا عنه؟ لأي غرض؟)

حسنًا، أنت تعرف هارولد وتفاحره وكل كلماته الرطينة السخيفة.. يا له من عيلٍ يعاني انعدام الثقة بالنفس...

أنفاس هارولد أكثر نتانة من أنفاس تنين.. إنه يجمع الخيبات كما يجمع القرصان الكنوز...

لكن لأي غرض كان يفعل هذا؟ ليغذي إحساسه الخفي بالتفوق؟ أم لتكفير عن ذنب؟

لم أكتب ليلة أمس. كنت سعيدة متحمسة للغاية. أنا وستو صرنا معًا. اتفقنا على إخفاء السر قدر استطاعتنا، على أمل أن نستقر أولًا. سأذهب معه إلى أي مكان حتى إلى جبال القمر...

انتقلتُ عيناها سريعًا إلى نهاية الصفحة التالية حيث لفت انتباهها شيء جمّد الدم في عروقها. أثر بصمة ملطخة. قالت لنفسها: لقد كنتُ أركب دراجة بخارية ولا بدّ أن يديّ كانت متسختين وقتما...

مدتُ يدها المرتجفة، ووضعتُ إبهامها على البصمة، فوجدتها أكبر بكثير من بصمة إصبعها. قالت مرة أخرى لنفسها: إنها بصمة ملطخة، والتلطّيح يزيد من مساحة البقعة، أليس كذلك؟ نعم.. هذا هو التفسير...

لكن هذه البصمة ليست ملطخة إلى هذا الحد، وما زالت ترى فيها تفاصيل الأخاديد والخطوط، ولم تكن لطخة شحم.. بل لطخة شوكولاتة. فكرت فراني: شوكولاتة باي داي...

للحظة خشتُ أن تنظر وراءها فتجد ابتسامة هارولد معلقة في الهواء كابتسامة قط تشيشاير في قصة أليس في بلاد العجائب. تكاد تسمع صوت هارولد يهمس: لكل كلب يومه يا فراني. لكل كلب يومه...

لكنّ حتى لو كان هارولد قد قرأ مذكراتها.. هل يعني هذا أنه سيخطط للانتقام منها أو من ستو أو من الآخرين؟ طبعًا لا. همس لها صوتها الداخلي: لكنّ هارولد تغيّر.

هتفت: «اللعة! إنه لن يتغير إلى هذا الحد!». أجفلت لسماعها صوتها الحاد. نزلت بعدها وبدأت في تحضير العشاء، ولم يعد للاجتماع أهمية كما كان في بداية اليوم.

محضر اجتماع اللجنة الطارئة

13 أغسطس 1990

أقيم الاجتماع في منزل ستو ريتمان وفرانيسيس جولد سميث، بحضور كل أعضاء اللجنة؛ ستورات ريتمان، فرانيسيس جولد سميث، نيك أندروز، جلن، بيتمان، رالف برينتتر، سوزان ستيرن، لاري أندروود.

انتُخِبَ ستو ريتمان مديرًا للاجتماع، وفرانسييس جولد سميث سكرتيرةً له...

هذه الملاحظات (وتسجيل صوتي كامل لكل سعال وتنخّم وتجشؤ، في حال أراد مجنون الاستماع لها مرة أخرى) ستوضع في خزانة داخل مصرف بولدر الأول...

اقترح ستو ريتمان كتابة منشورات للتوعية بتسمم الأغذية، يكتبها دك اليس ولوري كونستابل، بعنوان جذاب (لو كنت تأكل، اقرأ هذا!). وعلى دك أن يتأكد من طباعته وتعليقه في كل أنحاء بولدر قبل اجتماع 18 أغسطس. الأصوات 0-7 لمصلحة القرار، وعلى رالف طباعة ألف نسخة.

طرح سوزان ستيرن أمرًا آخر، وهو ضرورة وجود لجنة دفن. اقترح دك أن تُطرح الفكرة في الاجتماع العمومي، وتقدم على أنها تهدف لتكريم الإنسان، لا لهدف صحي، كي لا يتسببوا للناس في زعر. يعرف الجميع أن الجثث في بولدر قليلة لسبب مجهول، لكن يجب التخلص من الجثث الحالية قبل الشتاء.

سأل ستو عن مدى فدح الوضع حاليًا، فأجابت سوزان أن الوضع لن يكون خطرًا قبل الخريف. طالب لاري بوضع المقترح في مخطط اجتماع الثامن عشر. جاءت الأصوات 0-7 لمصلحة المقترح.

قرأ رالف برينتنر ما كتب دك أندروز سابقًا، واقتبس منه مباشرة: «من أهم المسائل التي يجب أن تتخذ فيها اللجنة قرارًا، مسألة الثقة الكاملة بالأم أباجيل، وهل كنا سنخبرها بكل ما يدور في اجتماعات اللجنة المفتوحة والمغلقة. لدينا سؤال مشابه آخر يُطرح عليها: هل ستوافق الأم أباجيل على أن تثق ثقة كاملة بهذه اللجنة وتلك الدائمة التي ستتبعها، وهل ستخبرنا بما يدور في اجتماعاتها مع الرب أو أيًا كان.. خاصة الاجتماعات المغلقة؟

قد يبدو سؤالًا غريبًا، لكن دعوني أشرح لأنه سؤال نفعي بحث. يجب أن نحدد مكان الأم أباجيل من اللجنة على الفور، لأن مهمتنا ليس الوقوف على أقدامنا فقط، وإلا ما عدنا في حاجة إليها نحن نعرف جميعًا المشكلة الأخرى مع الرجل الذي ندعوه أحيانًا الرجل الغامض، أو ما يسميه جِلن الخَصْم. الدليل على وجوده بسيط جدًّا، وأغلب سكان بولدر سيوافقونني الرأي لو أرادوا التفكير في الأمر أساسًا. الناس هنا يحبون الأم أباجيل، وأنا أحبها، لكننا لن نصل إلى أي شيء لو بدأنا مشاريعنا بانتظار موافقتها عليها.

لذا نذهب في الظهيرة لمقابلتها، وسؤالها مباشرة. هل ستتجاوب معنا؟ قالت إنها ستفعل، لكن ليس من دون شروط، وكانت حادة في إجابتها. قالت إننا أحرار في قيادة المجتمع في (الأمور الدنيوية) كافة، على حد تعبيرها. لكنها تريد أن نستشيرها في كل ما يخص الرجل الغامض. إنها تؤمن أننا جزء من لعبة شطرنج بين الرب والشيطان، مندوب الشيطان في هذه اللعبة هو الخَصْم، وقالت إن اسمه راندال فلاج، وهو الاسم الذي يستخدمه الآن على حد تعبيرها أيضًا. اختارها الرب لسبب لا يعرفه سواه كي تكون مندوبته في هذه اللعبة. إنها تعتقد -وأنا أوافقها- أن الصراع القادم لن ينتهي إلا بزوال أحد الطرفين؛ نحن أو هو، وطالبت باستشارتها في كل ما يتعلق بهذا الصراع أو بالرجل الغامض.

لا أريد أن أخوض الآن في التبعات الدينية لكل هذا، ولا أريد الجدل بشأن صواب رؤيتها أو خطأها. المهم أننا في موقف لا بدَّ أن نتعامل معه ومع تبعاته لذا لديَّ بعض المقترحات».

من مقترحاتك: هل يمكن لهذه اللجنة ألا تناقش أي تبعات دينية أو عقائدية أو ما ورائية لوجود الخَصْم خلال اجتماعاتها؟
التصويت 7-0 لمصلحة المقترح.

المقترح التالي: هل نتفق على أن هدف هذه اللجنة الرئيسي والسري هو البحث عن طريقة لمواجهة قوى الرجل الغامض أو الخَصْم أو راندال فلاج؟
التصويت 7-0 لمصلحة المقترح.

المقترح الثالث لك: أن نُطلع الأم أباجيل على كل ما تقررته اللجنة في اجتماعاتها السرية والعلنية.
التصويت 7-0 لمصلحة المقترح.

انتقلت اللجنة إلى مناقشة مواجهة الرجل الغامض نفسه. اقترح لك إرسال ثلاثة متطوعين للانضمام إلى رجاله، بغرض التجسس على ما يفعله في الغرب.

تطوعت سوزان ستيرن على الفور، بعد نقاش حاد، اتفق ستو وجلين على ألا يتطوع أحد من أعضاء اللجنة الطارئة أو الدائمة. سألت سوزان عن السبب. جلن: «كلنا نحترم رغبتك الصادقة في المساعدة يا سوزان، لكننا لا نعرف أكان من سنرسلهم سيعودون أم لا، أو متى سيعودون، وعلى أي هيئة. مهمتك

الآن مشاركتنا في إعادة بناء مجتمع بولدر، ولو ذهبنا، لاضطررنا إلى البحث عن محل محلك ويفهم كل ما فهمته وعرفته من مناقشاتنا. لا يمكن أن نضيع كل هذا الوقت».

سوزان: «أعتقد أنك مُحِقٌّ.. أو على الأقل منطقي.. أحياناً أشك في أن الحق والمنطق أمران متشابهان. أنت تقول إنه لا يمكننا إرسال أحد أعضاء اللجنة لأننا لا نعوّض. لذا... لذا...».

ستو: «سنستلقي على أفقيتنا؟».

سوزان: «نعم. شكرًا لك. لذا سنستلقي على أفقيتنا ونرسل شخصًا آخر ليُصلَب، أو يحدث له ما هو أفظع».

رالف: «وماذا قد يكون الأفظع؟».

سوزان: «لا أعرف، لكن إن كان أحد يعرف فهو فلاج. أنا أكرهه».

جلين: «ربما تكرهينه، لكنك أوضحتِ مهمتنا بإيجاز. نحن سياسيون. أول سياسيي العصر الجديد. أتمنى فقط أن تكون قراراتنا بإرسال الناس إلى الأخطار ذات دوافع أفضل من دوافع سياسيي العصر القديم».

سوزان: «لم أتصور قط أن أكون سياسية».

لاري: «أهلاً بك في النادي»

طالب جلين بألا يشارك أي عضو من أعضاء اللجنة في مهام الاستطلاع، وجاء التصويت 7-0 لمصلحة المقترح.

سألت فران جولد سميث عن المؤهلات التي سنبحث عنها في العملاء المتخفين الذين سنرسلهم، وماذا نتوقع أن يفعلوه بالضبط.

نك: «لن نعرف ما علينا الاستزادة من معرفته إلا عندما يعودون. هذا لو أنهم عادوا. المشكلة أننا لا نعرف ماذا يحدث هناك. نحن أشبه بصيادي سمك يستخدمون طُعوماً بشرية».

اقترح ستو أن تختار اللجنة المرشحين لهذا الدور، ووافق الجميع.

بناء على إجماع اللجنة، لن يُسجَل صوتياً أي شيء عن المتطوعين، لأن الأمر حساس ومثير للمشكلات.

لاري: «أود أن أرشح اسمًا، وأعتقد أنه سيكون غريبًا على مسامع من لا يعرفونه. أريد أن أرسل القاضي فاريس».

سوزان: «مَن؟ الرجل المُسن؟ لا بُدَّ أنك جُنُنتَ يا لاري!».

لاري: «إنه أذكى شخص قابلته. رونالد ريجان كان رئيسًا في عمر أكبر من عمره».

فران: «لا أعتقد أن هذه فكرة جيدة».

لاري: «لكنه شجاع وماكر، وأعتقد أن الرجل الغامض لن يشك في مُسن مثل فاريِس. يجب أن نضع الشكوك في الحسبان. لا بُدَّ أنه ينتظر خُطَّة كهذه، ولن أتعجب لو كان يرسل رجاله للتحقق من الوافدين إليه وهل كانوا يناسبون مهمة التجسس. سيبدو ما أقول قسوةً وحشيةً خاصة لفراني، لكن لو خسرنا الرجل، فلن نخسر شابًا أمامه العمر كله ليستمتع به».

فران: «أنت مُحق. هذه قسوة وحشية».

لاري: «كل ما أريد إضافته هو أن القاضي سيوافق. إنه يرغب حقًا في المساعدة، وأنا متأكد من أنه قادر على أداء الدور».

جلِن: «سجلتُ هذه النقطة. ما رأيكم؟».

رالف: «أنا موافق على ما ستُجمعون عليه، فأنا لا أعرف الرجل. بيد أنني لا أستسيغ فكرة إلقائه إلى هناك لأنه فقط مُسن. قبل كل شيء، المسؤولية عن هذا المكان مُسنة جاوزتِ المائة عام عمرًا».

جلِن: «سجلتُ هذه النقطة أيضًا».

ستو: «تبدو كحكم في مباراة تنس أيها الأُصلع».

سوزان: «اسمع يا لاري. ماذا لو خدع الرجل الغامض، ثم خرَّ ميتًا جراء سكتة قلبية في طريق عودته إلينا؟».

ستو: «قد يحدث هذا لأي شخص آخر».

سوزان: «أوافقك الرأي، لكنَّ احتمالات حدوث هذ لرجل مسن أكبر».

لاري: «لكنك لو كنتِ تعرفين القاضي يا سوزان كما أعرفه، لرأيتِ ميزاته التي تفوق مواطنًا ضعفه. إنه حقًا ذكي».

ستو: «أعتقد أن لاري مُحق. إنه من النوع الذي لا يتوقع فلاج أن يخدعه. أنا أويد هذا الترشيح».

جاء التصويت 7-0 لمصلحة الترشيح.

سوزان: «لما كنتُ وافقتُ على ترشيحك، أتوقع أن توافق على ترشيحي يا لاري».

لاري: «نعم، هذه هي السياسة. من ترشحين؟».

سوزان: «داينا».

رالف: «مَن داينا؟».

سوزان: «داينا جورجينز. إنها أشجع امرأة عرفتُها. أعرف أنها صغيرة السن، لكن لو أقنعناها فستوافق».

فران: «أوافق. اختيار جيد».

ستو: «حسنًا، سنسأل داينا عن رأيها. أنا موافق».

جاء التصويت 7-0 لمصلحة الترشيح.

جلن: «مَن المرشح الثالث؟».

نِك (رالف يقرأ): «لو لم يرقُ لفران ترشيح لاري، فلن يروق لها ترشيحي.. أنا أشرح...».

رالف: «نِك! أنت مجنون!».

ستو: «هيا يا رالف... اقرأ».

رالف: «حسنًا.. يقول إنه يرشح... توم كولين».

جعجة بين الحضور.

ستو: «حسنًا، لنكمل ما كتب نِك. اقرأ يا رالف».

نِك: «أولًا، أنا أعرف توم كما يعرف لاري القاضي وربما أكثر. إنه يحب الأم أباجيل وسيفعل أي شيء من أجلها، حتى لو سيُشوى على نار هادئة. وأنا أعني هذا حرفيًا لا مجازًا. سيفعل أي شيء تأمر به».

فران: «لا يجادلُك أحد في هذا يا نِك، لكن توم...».

نِك: «ثانيًا، سأكرر ما قاله لاري عن القاضي. لن يتوقع الخصم أن نرسل شخصًا مصابًا بتأخر عقلي جاسوسًا. رد فعلكم على الفكرة يعزز وجهة نظري هذه».

ثالثًا وأخيرًا، ربما يكون توم متخلفًا، لكنه ليس غبيًا. لقد أنقذ حياتي من الإعصار بأسرع طريقة قد يتوصل إليها أي شخص. توم طفولي، لكن في

وسع الأطفال تعلم بعض الحيل لو أحسنّا تعليمهم. لا أرى مشكلة في تلقين
توم قصة بسيطة. في النهاية سيظنون أننا تخلصنا منه لأن...».

سوزان: «لأننا لا نريد تلويث جينات أطفالنا المستقبليين؟ قلها، هذا
جيد...».

نك: «...لأنه متخلف. يمكن أن يخبرهم أيضًا أنه غاضب ممن طرده ويريد
الانتقام منهم. لن ينسى توم ما سنغرسه فيه أبدًا».

فران: «أوه، لا.. لا أصدق...».

ستو: «الكلمة مع نك، لنلتزم التنظيم. أكمل».

نك: «قد يظن بعضكم أن توم متخلف، وهذا ما يسهل عليهم زعزعة
قصته...».

لاري: «هذا صحيح...».

نك: «لكنّ العكس هو الصواب. لو طلبتُ من توم أن يلتزم القصة التي
سألقنه إياها، فسيلتزمها مهما حدث. قد يصمد الشخص العادي أمام التعذيب
بضع ساعات...».

فران: «لن يصل الأمر إلى التعذيب، أليس كذلك؟!».

نك: «...قبل أن يعترف. لن يفعل توم هذا. لو كرر توم قصته بما كفي
سيحفظها عن ظهر قلب، بل سيصدق أنها حقيقية. لن يستطيع أحد التلاعب
به. دعوني أوضح أنني أظن تأخر توم العقلي مزية في مهمة كهذه من أكثر
من جانب».

ستو: «هل أنهيت القراءة يا رالف؟».

رالف: «ما زال في الورقة بقية».

سوزان: «لو أنه صدّق أن هذه قصة حياته فعلاً، فكيف سيعرف أن الوقت
حان للعودة؟».

رالف: «معذرة يا سيدتي، أعتقد أن الإجابة هنا. يقول نك: سنزرع في عقل
توم عند طريق التنويم بالإيحاء فكرة ستساعده. لقد فكرتُ في اختياري جيدًا،
وسألتُ ستان نوجوتني الذي عمل منومًا بالإيحاء في العروض المسرحية. قال
لي إنه لا يظن توم سيخضع للإيحاء، لكنه نام خلال ست ثوانٍ».

ستو: «أعرف أن ستان بارع في هذا».

نك: «جربنا أن نطلب من توم في أثناء نومه أنه إن سمع عبارة: أرغب طبعًا في رؤية فيل، فسيشعر برغبة عارمة في الذهاب إلى الركن والوقوف رأسًا على عقب. بعد نصف ساعة من استفاقتة، كرر ستان العبارة أمامه، فنفَّذ، وسقطت من جيوبه كل اللعب والحلوى التي كان يختزنها فيها. عاد بعدها ليجلس ويقول لنا: لا أعرف لماذا فعل توم كولين هذه الشُّقْلَبة».

على أي حال، ملخص كل هذا أن في وسعنا زرع فكرة في عقله تمكنه من العودة في الوقت المناسب، والطريقة الوحيدة لفعل ذلك وهو بعيد عنا هي استخدام القمر.. البدر. عندما نستعيده، سنُخضعه مرة أخرى للتنويم بالإيحاء وسنستخرج منه كل شيء رآه وسمعه».

رالف: «هذا نهاية المكتوب».

لاري: «تبدو لي خُطّة من الأفلام القديمة».

سوزان: «لديّ سؤال يا نك. هل ستُبرمج توم أيضًا على ألا يمنحهم أي معلومات عما نفعله؟».

جلن: «دعني أجيب أنا يا نك، ولو أن لك إجابة مختلفة هز رأسك. لا يحتاج توم إلى برمجة. سندعه يخبرهم بكل ما يعرف عنا. نحن نحجب كل شيء بخصوص فلاج عن الجميع، ولا نفعل علنًا شيئًا يعجز خُصْمنا عن استنتاجه...».

نك (كتابة): «بالضبط».

جلن: «حسنًا، أنا أويد نك. أعتقد أننا لن نخسر شيئًا. هذه فكرة أصلية مذهلة».

ستو: «تمت الموافقة. هل من شيء آخر يحتاج إلى طرح؟».

فران: «طبعًا. قلت إننا لن نخسر شيئًا. حسنًا، ماذا عن توم؟ ماذا عن أرواحنا اللعينة؟ ربما لا تكثرثون لتعذيب توم، لكن الأمر يضايقني. ما هذه القسوة؟ ونك هنا يريد أن يُنوّم توم ليتصرف مثل.. مثل دجاجة رأسها داخل كيس! يجب أن تشعر بالخزي! كنتُ أظنه صديقك!».

ستو: «فراني...».

فران: «لا، هذا حقي في الحديث. لن أغسل يديّ من قرارات اللجنة، ولن أهرب منها. هل تريد أن تأخذ هذا الشاب اللطيف محدود العقل وتحوله إلى

طائرة تجسس؟ نحن نكرر فظاعات سابقينا! ألا ترون ذلك؟ ماذا ستفعل لو قتلوه يا نك؟ ماذا لو قتلوهم جميعاً؟».

كتب نك: «كل ما قالته فران أثر فيَّ بقوة، لكنني مصرٌّ على ترشيحي. لست متصالحًا مع التلاعب بعقل توم، ولا مع إرساله إلى الخطر، لكنني أريد أن أشير إلى أنه سيفعل ذلك من أجل الأم أباجيل وأفكارها وإلهها، لا من أجلنا. أومن أيضًا أن علينا فعل أي شيء لإنهاء الخطر الذي يتربص بنا. إنه يصلب الناس هناك، وقد رأيتُ هذا كما رآه آخرون في أحلامهم. أعرف أن فلاج خبيث. يجب أن نوقفه فيما نستطيع ذلك».

فران: «كل ما قلت صحيح يا نك، وربما يكون خادم الشيطان نفسه كما تزعم الأم أباجيل. لكننا نفعل ما يفعله هو! لكن هل تذكر هذه العبارة من رواية مزرعة الحيوان؟ (لقد نقلوا أنظارهم بين البشر والخنازير فلم يجدوا بينهم اختلافًا). هل تعرف أننا لو فعلنا هذا، سنعجز عن التراجع إلى الأبد؟ أنا أصوَّت ضد هذا الترشيح. لو أننا سنرسل جواسيس، لنرسل من يعرفون إلى أي خطر يُرسلون».

ستو: «هل من تعليق آخر؟».

سوزان: «أنا أعارض الترشيح أيضًا، لكن لسبب أكثر عملية. لن نرسل في النهاية مُسنًا ومتخلفًا، واعدروا تعبيراتي».

ستو: «لنصوت. أنا موافق».

فران: «معتضة».

ستو: «جلن؟».

جلن: «موافق».

سوزان: «معتضة».

نك: «موافق».

رالف: «لا أعرف. إن كان نك موافقًا فأنا موافق».

لاري: «هل تريدون الصراحة؟ أنا أجد الفكرة منفرة، لكن هذه هي القرارات التي يجب أن نتخذها عندما تكون السطوة بين أيدينا. لذا، أوافق».

ستو: «النتيجة 5-2 لمصلحة الترشيح».

فران: «ستو؟».

ستو: «أجل؟».

فران: «أودُّ أن أغير تصويتي. إن كنا سنرسل توم، فعلينا تجهيزه معًا. أعتذر يا نك.. أعرف أن كلامي أذاك، وأرى هذا على وجهك. هذا جنون! لماذا يحدث كل هذا؟ اللعنة.. أنا موافقة».

سوزان: «وأنا أيضًا. لنوحد الجبهات. موافقة».

ستو: «إذن التصويت للموافقة بالإجماع. أريد فقط أن أسجل محبتي لك يا فران في هذا المحضر».

لاري: «أظننا جميعًا سنوافق على هذا المقترح».

سوزان: «موافقة!».

ستو: «إذن، وبهذه المناسبة لنؤجل النقاش في أي أمر آخر.. ليرفع الموافقون أذرعهم، أما المعارضون فليستعدوا لضرب رؤوسهم بعلب البيرة».

نتيجة التصويت 7-0 لمصلحة التأجيل.

- هل ستأتي إلى الفراش يا ستو؟

- هل تأخر الوقت؟

- انتصف الليل تقريبًا. الوقت تأخر بما يكفي.

دخل ستو من الشرفة، وكان يرتدي سروالًا داخليًا فقط، لونه ناصع مقارنة بسمّرتة. اندسّ تحت الأغطية، فسألته فراني: «هل تفكر في الاجتماع؟».

صبّ لنفسه كوب ماء من الدورق على المنضدة الجانبية، وأجفل لطعمه المغلي الباهت، ثم قال: «نعم».

- أعتقد أنك كنت مدير اجتماع ممتازًا. يعتقد جلن أن الأفضل أن تدير الاجتماع العمومي. هل يضايقك هذا؟

- لا، لقد وافقت. أنا فقط أفكر في الثلاثة الذين سنرسلهم خلال الجبال. أنت مُحقة يا فراني، هذا عمل قدر، لكنّ نك أيضًا مُحق. ماذا كنا لنفعل في حالة كهذه؟

- حَكِّم ضميرك، ثم نَم قليلًا.

- لديك حق. تصبحين على خير يا فراني.

- أحبك.

رقدت تنظر إلى السقف. كانت قد تصالحت مع موضوع توم كولينز، لكنّ
لطخة الشوكولاتة ظلت تشغل بالها.

لكل كلب يومه يا فراني..

فكرت في ضرورة إخبار ستو الآن.. لكنّ المشكلة مشكلتها. يجب أن
تنتظر.. وتراقب.. ولترَ أكان سيحدث شيء.
لم يمر وقت طويل حتى نامت.

الفصل الثاني والخمسون

تمددت الأم أباجيل على الفراش في ساعات الصباح الأولى وقد هجرها النوم. كانت تحاول أن تصلي.

قامت دون أن تضيء أي نور وركعتُ برداء نومها القطني الأبيض. أراحتُ جبهتها على الكتاب المقدس المفتوح على سفر أعمال الرسل، الآيات التي تذكر اعتداء شاول الطرسوسي على طريق دمشق. كان قد أبرق حوله نور من السماء كاد يعميه، إلا أنه أزال القشور عن عينيه. سفر أعمال الرسل هو آخر أسفار الكتاب المقدس، حيث تُعزّز المعجزاتُ العقيدةَ، وما المعجزات إلا يد الرب في الأرض.

أوه، هل على عينها قشور؟ هل ستُزال؟

لا صوت في الغرفة إلا هسيس مصباح الزيت، وتكّات ساعتها، وصوت غمغمتها الهامس.

- أرني خطيئتي يا يسوع. أعرف أنني فوّتُ شيئاً كانت مشيئتك أن أراه. لا أنام، ولا أفعل شيئاً ولا أشعر بوجودك. كأنني أصلي في هاتف معطل، وليس هذا وقت حدوث شيء كهذا. هل أغضبتك؟ أنا أنصتُ يا سيدي، أنصت من أعماق قلبي.

وأنصتت.. وضعتُ يديها على عينها ومالت أكثر وحاولت أن تصفي ذهنها. لا شيء إلا الظلام الداكن كبشرتها، كالتربة التي تنتظر البذور.

لم ترَ إلا صورة الطريق الترابي الممتد خلال حقول الذرة، والمرأة التي تحمل دجاجاً مذبوحاً في جوال، وهجوم بنات عرسٍ إذ تشم رائحة الدم، دم الخطيئة، ودم القربان. سمعت المرأة المسنة ترفع صوتها مناجية الرب، لكن صوتها لا يصلّي للرب في تواضع كي ينفذ مشيئته أيّاً كانت وأيّاً كان دورها

فيها، بل صوت يأمر الرب أن ينقذها كي تكمل عملها.. عملها هي.. وكأنها تنسب مشيئته إليها. تزايدت جرأة بنات عرس أكثر، وسيتمزق الجوال.. وعندما تفرغ من التهام الدجاج ستكون جائعة بعد، وستسعى إليها.. نعم... ثم تبعثرت بنات عرس، وتشتت شملها تاركة محتويات الجوال نصف مُنتهكة. فكرت أباجيل: لقد أنقذني الرب رغم كل شيء! المجد لله! لقد أنقذ خادمته المؤمنة المطيعة!

لم ينقذك الرب يا امرأة، بل أنا...

وجدت نفسها في رؤياها تجفل فزعة، إذ أبصرت ذئبًا بريًا من ذئاب جبال روكي يشق طريقه بين أعواد الذرة كشبح فضي. تكشירתه مرعبة، عيناه متوهجتان، يتدلى من سلسلة حول عنقه حجرٌ أسود حالك، في منتصفه شائبة حمراء تبدو كعين، أو كمفتاح.

رشمَت الصليب ورفعت قبضتها بعلامة عين الشيطان أمام الكائن المخيف، فاتسعت تكشירתه، وبرز من بين أسنانه لسان وردي.

أنا آتٍ من أجلك أيتها الأم. ليس الآن، لكن قريبًا. سنطاردك كما تطارد الكلاب الغزلان. أنا كل ما تظنينه فيّ وأكثر. أنا رجل السحر. أنا الذي سيتكلم في نهاية الزمان. قومك يعرفونني أكثر أيتها الأم. يدعونني چون الغازي.⁽¹⁾ اتركني باسم الرب!

كانت خائفة! لا على من هم مسؤولين منها والممثلين في الرؤيا على هيئة الدجاج، بل خائفة على نفسها، وعلى روحها.

ليس لربك سلطان عليّ أيتها الأم. أداته ضعيفة..

لا! هذا كذب! لست ضعيفة، بل قوتي قوة عشرة، وسأطير بجناحين كالنسور...

اقترب الذئب أكثر، فانكمشت من أنفاسه الثقيلة النتنه. هذا هو خوف الليل والهلاك الذي يفسد في الظهيرة، وإنها لخائفة! والذئب يقترب، يكشر، يتحدث بصوتين، يسأل ويجيب نفسه.

من الذي أخرج من الحجر ماءً عندما كُنَّا ظمأى؟

(1) سبق وذكرنا الشخصية نفسها باسم جاك الغازي، وجون الغازي هو اسم آخر للمعبود الوثني المذكور سابقًا (المترجمة)

أنا...

مَنْ أَنْقَذَنَا مِنْ غَفَلَتْنَا؟

أنا...

كادت تكشيرة الذئب تلامسها وهو يقول: اسجدي ومجّدي اسمي. أنا باعث الماء من الصحراء، مجّدي اسمي، أنا الخادم الأمين باعث الماء من الصحراء، مجّدي اسمي الذي هو أيضًا اسم سيدي...
وانفتح فم الذئب ليلتهمها...

غمغمت: «...اسمي. مجّدي اسمي، نزّهي اسم الرب عن كل نقيصة...». رفعت رأسها ونظرت حولها مشدوّهة. سقط الكتاب المقدس على الأرض، ودخل ضوء الفجر من النافذة المواجهة للشرق.
هتفت بصوت راجف: «يا يسوع...».

هل غطّت القشور عينيها وأعمتها عن أمور لا بُدَّ أن تلاحظها؟ انهمرت الدموع من عينيها، وقامت إلى النافذة، يؤلمها كل مفصل من مفاصلها المُعتَلّة. نظرت إلى الخارج، وأدركت ما عليها فعله الآن.
غيرت ملابسها وهي تقول: «لتكن مشيئته».

بعد ساعة، كانت تمشي ببطء إلى غرب شارع مابيلتون، متجهةً إلى الممرات الضيقة المحفوفة بالأشجار خلف البلدة.

كان ستو مع نك في محطة توليد الطاقة، عندما اندفع جِلِن داخلا. دون مقدمات هتف: «رحلت الأم أباجيل».

نظر إليه نك متسائلاً، وسأل ستو جِلِن وهو يجذبه بعيداً عن الرجال: «عم تتكلم؟».

أوماً جِلِن، لقد ركب دراجة وأسرع إلى هنا، وما زال يلتقط أنفاسه.
- ذهبْتُ إليها أخبرها بما حدث في الاجتماع، وأشغل لها التسجيل الصوتي لو رغبتُ في سماعه. ما زلتُ قلقاً بشأن توم، ورغبتُ في أن أعرف رأيها.. كلام فراني طرد النوم من عينيّ. طرقتُ الباب في الثامنة

والنصف، فلم تفتح لي. ظننتها نائمةً بعد، فكدتُ أرحل لولا... أردت أن أطمئن فقط إلى أنها... لم تمت... إنها هزيمة! لم تبتعد عيناك عن شفتيه.

- لكنها لم تكن بالداخل. ووجدتُ هذا على وسادتها.

أعطاهم منديلًا ورقياً، مكتوباً عليه بحروف كبيرة مرتعشة: يجب أن أبتعد قليلاً الآن. لقد أذنبتُ إذ خلطتُ بين مشيئتي وبين مشيئة الرب. خطيئتي هي الغرور، وهو يريد مني أن أعرف مكاني من خطته مرة أخرى. سأعود إليكم قريباً لو شاء الرب.

أبي قريمانتل.

قال ستو: «ماذا سنفعل الآن؟ ما رأيك يا نيك؟».

قرأ نيك الرسالة مرة أخرى، ثم أعادها إلى جِلن. تراجعتِ الحدة من ملامحه، وبدا حزيناً. قال جِلن: «يجب أن نقيم الاجتماع العام الليلة».

هز نيك رأسه وكتب في دفتره: «الأم أباجيل كانت تقول دائماً: الإنسان يفكر والرب يُدبر. أنت قلتُ يا جِلن إنها مُنقادة لطرف آخر، سواء كان هذا الطرف هو الرب أم عقلها أم أوهامها. ماذا سنفعل؟ لقد رحلت. لا يمكننا تغيير هذا».

قال ستو: «لكن...».

قاطعه جِلن: «أعرف أن الناس ستحتج. اسمع يا نيك، أليس الأفضل أن تجتمع اللجنة على الأقل لتناقش الوضع؟».

كتب نيك: «لأي غرض؟ هل سنعقد اجتماعاً لن يُسفر عن شيء؟».

ثم أحاط نيك عبارة «الإنسان يفكر والرب يُدبر» بدائرة، ثم كتب تحتها: «لو عثرنا عليها، فكيف سنعيدها؟ مكبلة بالأغلال؟».

هتف ستو: «لا! لكن هل نتركها تجول هكذا يا نيك وهي تفكر في أنها أغضبت الرب؟ ماذا لو قررتُ أن تهيم على وجهها في البراري كأحد رجال العهد القديم؟».

كتب نيك: «أكاد أكون متأكداً من أن هذا ما ستفعله».

هتف ستو: «ها أنت قلتها!».

وضع جِلن يده على ذراع ستو وقال: «اهدأ لحظةً يا رجل شرق تكساس! لننظر إلى تبعات هذا».

- سحَقًا للتبعات! لا أرى عواقب تمنعنا من إنقاذ مسنة تهيم ليلَ نهارٍ حتى تموت!

- إنها ليست أي مسنة. إنها الأم أباجيل، وهي في منزلة البابا هنا. لو قرر البابا أن يمشي حتى أورشليم، هل ستناقش قراره لو كنت كاثوليكيًا مؤمنًا؟

- اللعنة! الأمر مختلف!

- لا، ليس مختلفًا. على الأقل من وجهة نظر أهالي المِنطقة الحرة. هل أنت مستعد يا ستو بأن تجزم أمام الناس بأن الرب لم يأمرها بذلك؟ - لا.. لكن...

كان نك يكتب شيئًا، وعرضه على ستو الذي أبدى صعوبة في قراءة بعض الكلمات التي خطَّها نك في عجالة.

- لن يغير هذا من الأمر شيئًا يا ستو، إلا أنه سيتعارض مع ما يؤمن به أهل المِنطقة الحرة. لن نغامر بتشتت الناس لأنها رحلت. اختفاؤها يعني أننا لن نُضطرَّ إلى تسويق قراراتنا أمامها الآن، وهذا للمصلحة العامة.

- سأجنُّ. أحيانًا نتكلم عنها كأنها عقبة لا بُدَّ أن ندور من حولها، وأحيانًا نُشبَّهها بالبابا الذي لا يمكن معارضة قراراته. أنا أحبها. ماذا تريد يا نك؟ أن تتركها حتى يعثر أحد على جثتها في أحد الأودية؟ أن نتركها لتصبح وليمة مقدسة للغربان؟

قال جِلن في رفق: «لقد قررت الرحيل».

- يا لها من ورطة لعينة..

ذاع خبر اختفاء الأم أباجيل بحلول الظهيرة، وكما توقع نك، شعر الجميع بالحزن أكثر مما شعروا بالقلق. لقد استنتجوا أنها ذهبت لتصلي كي يهدينا الرب إلى الطريق الصحيح في اجتماع يوم الثامن عشر.

قال جِلن همسًا وهو يأكل غداءً سريعًا في المتنزه: «لا أريد أن أُجَدَّف وأقول إنها إله، لكن يمكنني أن أقول إنها إلهة بالإنابة. يمكننا قياس قوة إيمان أي مجتمع بمراقبة ضعف إيمانهم التدريجي بعد زوال الرمز المؤلَّه».

- كرر ما قلت مرة أخرى بطريقة أوضح.

- عندما كسر موسى العجل الذهبي، توقف بنو إسرائيل عن عبادته.

عندما اجتاحت الفيضان معبد الإله بعل، قرر العماليق أن بعل لم يعد إلهاً مثيراً بعد الآن. لكنَّ يسوع خرج لتناول الغداء منذ ألفي سنة، وما زال الناس يتبعون تعاليمه. يعيشون ويموتون مؤمنين بعودته. هذا هو ما يشعر به الناس هنا تجاه الأم أباجيل. إنهم واثقون من عودتها. هل تحدثت إليهم؟

أجاب ستو: «نعم. لا أصدق.. لدينا سيدة مسنة خرجت دون وجهة، والناس هنا ينتظرون عودتها وهي تحمل ألواح الوصايا العشرة لتطرحها في الاجتماع».

قال جِلن: «ربما ستفعل، ولم يستسلم الجميع للأمر بالمناسبة، رالف يمزق شعره الآن».

- هنيئاً له. ماذا عنك أيها الأصلع؟ أين أنت من كل هذا؟

- أتمنى ألا تنعنتني بالأصلع، هذا مهين، لكنني سأمنحك إجابة غريبة بعض الشيء. يبدو أن الرجل من شرق تكساس منيع ضد تعويذة الرب التي ألقيت على هذا المجتمع.. أكثر مناعة من عالم الاجتماع الشيخ اللاأدري. أعتقد أنها ستعود. أنا متأكد بطريقة ما. ما رأي فراني؟

- لا أعرف. لم أرها منذ الصباح. كل ما أعرفه أنها خرجت.. إلهي.. أتمنى فقط يا جِلن أن تكون العجوز بخير.

أمضتُ فراني الصباح في المكتبة، ولم تعرفُ بأمر رحيل الأم أباجيل، ولم تكن أيضاً زائرة المكتبة الوحيدة. رأت هناك اثنين أو ثلاثة، يطالعون كتب الزراعة وإمدادات المجتمعات بالطاقة، ووصفات الطهي.

عادت بعد الظهر، وفي طريقها إلى بيتها قابلت شيرلي هاميت، وقد تحسنت حالتها إلى درجة مدهشة. سألتها شيرلي: «متى ستعود في رأيك؟ أنا أسأل الجميع».

- متى سيعود من؟

- الأم أباجيل طبعًا. أين كنتِ يا فتاة؟ في برّاد؟

- ماذا حدث؟!

حكّت شيرلي لفراني ما جرى وهي في المكتبة، فسألتها فراني في حيرة:
«ورحلت هكذا؟».

أجابت شيرلي في ثقة: «نعم، لكنها ستعود. كتبتُ هذا في الرسالة».

- كتبتُ لو أن هذه مشيئة الرب؟

- هذه طريقته في الكلام. أنا متأكدة.

- أتمنى ذلك. شكرًا لك يا شيرلي.

افترقتا بعدما أكدت لها شيرلي أنها ستنتخبها لعضوية اللجنة الدائمة. هُرِعَتْ فراني إلى شقتها لترى أكان ستو يعرف شيئًا. رحيل المرأة بعد اجتماعهم أمس أزعجها كأنه نذير. لم يعجب فراني حجب قرارات اللجنة الكبرى عن الأم أباجيل، وبرحيلها شعرت فراني بالمسؤولية الثقيلة فوق كتفها.

لم تجدُ ستو في المنزل، لكنه ترك لها رسالة مكتوبة يخبرها فيها أنه سيعود في التاسعة والنصف، وأنه مع رالف وهارولد.

تساءلت عما قد يجمعه هو ورالف مع هارولد، فنبت في نفسها خوف آخر لا علاقة له بالأم أباجيل. لماذا تخاف الآن على ستو؟ هل سيحاول هارولد فعل شيء... لكنّ ستو سيمزقه.. ما لم... ما لم يتسلل من خلفه و...

شعرت برعدة برد وهي تفكر في ما قد يفعله هارولد في وجود ستو ورالف.

ما زال الوقت طويلًا حتى التاسعة والنصف. وستو مع رالف وهارولد.. إذن سيكون بيت هارولد خاليًا حتى التاسعة والنصف إلا لو كان اجتماعهم فيه. لو كانوا هناك، فستنضم إليهم وتروي فضولها. وإن لم يكونوا هناك... فربما ستجد شيئًا في المنزل يريح قلبها.

همستُ لها نفسها: شيء يريح قلبك أم يثير جنونك؟ هَبْكِ وجدتِ شيئًا غريبًا؟ ماذا بعد؟ ماذا ستفعلين؟

لكنها قلقة.. اللطخة في دفترها تؤكد وجود ما يُقلق، لأن من يسرق يومياتها رجل بلا مبادئ وبلا أخلاق. رجل قد يتسلل من خلف شخص يكرهه ويدفعه من فوق مكان مرتفع، أو يكسر رأسه بحجر.. أو يطعنه...

لو فعل هارولد شيئاً كهذا، سيُطرد من بولدر، فماذا سيفعل وقتها؟ لم يعد هارولد الشاب الذي عرفته، وفي العالم الآن مكان يرحب بأمثاله. قررت أخيراً أن تأخذ حقيبتها وتركب دراجتها إلى منزل هارولد، وراحت تطمئن نفسها أنها ستجدهم هناك يشربون القهوة ويتكلمون عن رحيل الأم أباجيل.. وسيكون كل شيء على ما يرام.

منزل هارولد الصغير مظلّم.. مُقفّل. غلق الباب بقفل أمر غريب في بولدر. في الماضي كان الناس يغلقون بيوتهم في غيابهم كي لا يسرق أحد أجهزة التلفاز أو المُسجّلات أو الجواهر. صارت هذه الأشياء الآن مجانية غير أنها لا تعمل في الأساس دون كهرباء. أما الجواهر، فهي متوافرة في كل المتاجر، تملأ منها صندوقاً كما تشاء دون أن تُسأل.

لماذا تقفل بابك يا هارولد وكل شيء مجاني؟ لأنه لا يخشى السرقة إلا لص، أليس كذلك؟

لم تكسر القفل، وكانت قد قررت الرحيل قبل أن تفكر في تجربة نوافذ القبو. جربت أولها فانفتحت. نظرت فراني حولها فلم تجد أحداً. لم يسكن أحد تلك المناطق البعيدة إلا هارولد. هذا غريب أيضاً. هارولد يمضي يومه في الابتسام ومرافقة الناس ومساعدة الآخرين، لكن عندما اختار منزلاً.. أين اختاره؟ يكشف هذا نظرة هارولد المختلفة للمجتمع ومكانته فيه.. ربما. أو ربما أحب العُزلة.

عبرت النافذة التي كانت تصل إلى خصرها من الخارج، والآن تصل إلى مستوى عينيها وهي داخل القبو العميق. سوف تحتاج إلى مقعد أو ما شابه لتصعد فوقه كي تخرج. القبو مؤثث ليكون غرفة لعب أو موسيقى. تذكرت في حزن رغبة أبيها في تحويل قبو بيتهم إلى شيء كهذا، إلا أن الرغبة لم تدخل حيز التنفيذ قط.

رأت فراني مكبرات صوت ضخمة معلقة على الحوائط الخشبية، وصناديق فيها ألعاب بازل وكتب، وقطار كهربائي ومنضدة لعب. يبدو أنها كانت غرفة مخصصة للأبناء. على الحائط بوستر لجورج بوش يخرج من كنيسة في هارلم وهو يرفع يديه مُحيياً. مكتوب تحت الصورة بحروف حمراء كبيرة: لا تحاول أن تخدع مُخادع.

شعرت فجأة بحزن أعظم مما شعرتُ به طوال عمرها. لقد مرّت بالكثير، لكنّ هذا الحزن العميق الموجع جديد عليها. مع الحزن جاء الحنين إلى الوطن، إلى أوجونكويت والمحيط وتلال مَين وأشجار الصنوبر. تذكرتُ فجأة جَس، حارس باحة الانتظار في شاطئ أوجونكويت العام، وللحظة ظننتُ أن قلبها سينفطر من الحزن والفقد. ماذا تفعل هنا بين الجبال والسهول التي تقسم البلاد إلى قسمين؟ إنها لا تنتمي إلى هنا...

فرّت منها شهقة ألم ووحدة أزعبتها، فغطتُ فمها بكفها للمرة الثانية اليوم.

لا بأس يا فراني. لن تتجاوزي كل هذه الأهوال سريعاً. ابكي إن رغبت في ذلك، لكنّ لاحقاً، لا في قبو هارولد لودر. أنهى عملك أولاً... عبرتُ من أمام البوستر في طريقها إلى الدرج. لا بدّ أن المخادع قد خدع على أي حال. نظرتُ إلى وجهه الباسم وامتلاتُ ألماً.

فتحت الباب الذي لم يكن موصداً. المطبخ مرتب والأطباق مغسولة، و... رائحة قلبي تملأ المكان بعد كأنها شبح هارولد القديم. هارولد الذي اقتحم عليها دفن أبيها بسيارة روي برانيجان الكاديلاك. ستكون ورطة لو عاد هارولد فجأة...

أفزعها الخاطر، فنظرتُ إلى الورا متوقعة أن تراه يبتسم لها. لم يكن من أحد هنا، إلا أن قلبها ظلّ يقلت النبضات خلف قفصها الصدري.

اتجهتُ إلى غرفة المعيشة المظلمة إلى حد أقلقها. لم يكتفِ هارولد بغلق بابه، بل أغلق ستائره أيضاً. لماذا قد يفعل أحد هذا في بلدة تُعرَف فيها بيوت الموتى بالستائر المُسدلة؟

المكان نظيف، لكنّ الأثاث غير أنيق، وبعض قطعه قديمة مهترئة. الشيء الوحيد اللافت للنظر هنا المدفأة الضخمة بأرضيتها ذات البلاطات الحجرية التي تتسع للجلوس. جلست عليها لحظات وهي تنظر حولها تفكر. حالما

تحركت في جلوسها شعرت بتخلخل بلاطة تحت رديها. كادت تقوم لولا طرق أحدهم على الباب.

شلّها الخوف، وتوقفت عن التنفس، ولم تدرك أنها بللت ملابسها بعض الشيء إلا لاحقاً. كرر الطارق إلحاحه، فراح يدق الباب بقبضته مرات متتالية. باغتها خاطر مرعب؛ هل تركت دراجتها بالخارج؟

تكرر الطرق، ثم تلاه صوت امرأة تسأل: «هل من أحد هنا؟».

تذكرت أخيراً أنها أوقفت دراجتها في الخلف، ولا يمكن رؤيتها من الأمام. هل سيجرب زائر هارولد الطرق على الباب الخلفي؟

دار مقبض الباب الأمامي في عنف وغضب. هنا رأت فراني بلل سروالها، فغطت فمها بكلتا كفيها لتكتم قهقهة مفاجئة. أخيراً سمعت صوت خطوات تباعد عن الباب. لم يكن ما فعلته فراني تالياً تصرفاً عن وعي. انطلقت إلى الباب لتنظر من الفرجة بين الستار وحافة النافذة. رأت امرأة ذات شعر داكن طويل مختلط بالشيب. تركب دراجة بخارية أوقفتها هنا وترحل. قالت فراني لنفسها: إنها تلك المرأة؛ نادين كروس.. التي جاءت مع لاري أندروود. هل تعرف هارولد؟

حالما تمالكت فراني نفسها عادت سريعاً إلى القبو، وصعدت إلى حافة النافذة فوق مقعد من الخيزران، ثم دفعت المقعد بعيداً كي لا يعرف أحد أنها استخدمته. لم يعد المقعد إلى حيث كان بالضبط، لكن نادراً ما يلاحظ الناس أموراً كهذه.. لا يبدو لها حتى أن هارولد يستخدم القبو إلا لتخزين صناديق الكولا.

فرّت من المنزل على ظهر دراجتها وهي تشعر بعد بالضعف والحيرة. قالت لنفسها: على الأقل السروال قد جف. في المرة القادمة التي سأقتحم فيها بيتاً سأرتدي حفاضة تحت السروال...

وصلت إلى بيتها بعد خمس عشرة دقيقة. فتحت يومياتها ونظرت إلى لائحة الشوكولاتة وتساءلت عن مكان ستو الآن. وهل كان هارولد معه.

تعال يا ستو بسرعة.. أحتاج إليك...

بعد الغداء، ودَّع ستو جِلن وعاد إلى بيته. كان جالسًا في غرفة المعيشة يتساءل عن مكان الأم أباجيل، وهل كان الأفضل تركها تفعل ما تشاء، فسمع طرقًا على الباب، وصوت رالف ينادي: «ستو؟ هل أنت هنا؟».

كان هارولد لودر معه، وقد اختفت ابتسامة الأخير اليوم، إلا أنه بدا كمُشيع مُستأجر لحضور جنازة، يحاول التظاهر بالجدية حتى ينتهي الأمر.

قابل رالف -المحزون لرحيل الأم أباجيل- هارولد منذ نصف ساعة، وكان الأخير في طريقه للمساعدة في جلب الماء من جدول بولدر. أحب رالف هارولد الذي يستمع للجميع ويُسرِّي عنهم، ولا يبدو أنه يريد أي شيء في المقابل. صب على مسمعيه حكاية رحيل الأم أباجيل، وخوفه من أن تموت في الخارج.

ختم رالف كلامه فيما ستو يصب القهوة: «أنت تعرف أن السماء تمطر كل ظهيرة لعينة الآن. لو ابتلكت لبردت. ثم ماذا؟ ستصاب بالتهاب رئوي».

سألهما ستو: «ماذا نستطيع أن نفعل؟ لا يمكننا إجبارها على العودة».

أجاب رالف: «نعم، لكنَّ هارولد لديه فكرة جيدة بحق».

انتقلتُ عينا ستو إلى هارولد وسأله: «كيف حالك يا هارولد؟».

- بخير، وأنت؟

- بخير.

- وفران؟ هل تعتني بها؟

لم تتحركُ عينا هارولد بعيدًا عن عيني ستو، واحتفظ بنظرته اللطيفة، لكنَّ عيني هارولد الباسمتين ذكرتا ستو بانعكاس أشعة الشمس على بحيرة بريكمان في موطنه، حيث يبدو الماء دافئًا لطيفًا على السطح، لكنَّ كلما خضتُ في العمق وجدت الماء أكثر برودة وحُلْكة وخطورة. أجاب ستو: «على قدر استطاعتي. ما فكرتك يا هارولد؟».

- أفهم وجهة نظر نك، ووجهة نظر جِلن، أيضًا، وأعرف أن أهالي المِنطقة الحرة يرون الأم أباجيل رمزًا دينيًا...

- ماذا تعني بـ«رمزًا دينيًا»؟

- رمزًا أرضيًا لعهدهم مع الرب. مثل العشاء الرباني، أو البقرة المقدسة في الهند.

هز ستو رأسه وقال: «نعم، يُسمح لتلك البقرات الهندية بالتجوال كيفما تشاء وأينما تشاء».

- نعم، بيد أن أغلب تلك البقرات يا ستو مريضة، جائعة، بل وبعضها مريض بالسل. كل هذا بسبب رؤية الناس لها على أنها مقدسة، وأن الرب سيعتني بها، بالضبط كما يؤمن الناس هنا بأن الرب سيرعى الأم أباجيل. أنا شخصياً أشك في وجود إله يسمح للناس بترك البقرات المسكينات تتجول جائعة مريضة.

بدا رالف غير مرتاح، وعرف ستو سبب ذلك؛ إن هارولد يرقص على حافة التجديف. قال الأخير وهو يبتعد بالحديث عن بقر الهند: «على أي حال، لا يمكننا تغيير رؤية الناس لها...».

عاجله رالف: «ولا نريد أن نفعل هذا».

- طبعاً! لقد جمعتنا، وبطريقة عجائبية. فكرتي أن نركب دراجاتنا ونمضي ما بعد الظهيرة في تمشيط جانب بولدر الغربي، ولنتواصل مع بعضنا بأجهزة اللاسلكي المحمولة.

أوما ستو موافقة؛ هذا ما كان يفكر في فعله، فلا يصح أن تترك امرأة وحيدة هكذا، ولا علاقة لهذا بالمنظور الديني. قال هارولد: «لو عثرنا عليها، فسنسألها فقط أكانت تحتاج إلى أي شيء».

قاطعه رالف: «مثل توصيلة إلى البلدة مثلاً».

- على الأقل سنُبقي على تواصل معها.

قال ستو: «أعتقد أنها فكرة ممتازة. سأترك فقط رسالة لفران».

بينما يكتب، شعر ستو برغبة تدفعه إلى النظر خلفه نحو هارولد ليرى تعبير وجهه فيما هو مشغول في الكتابة.

طلب هارولد أن يتولى البحث في المنطقة بين بولدر ونيدرلاند، لأنه يعتقد أن الأم أباجيل لن تكون هناك في الغالب. لا يمكنه أن يقطع المسافة بين المكانين سيراً في يوم، فما بالك بهرمة مجنونة لعينة؟ الرحلة ستهدئ عقله وتمنحه فرصة للتفكير.

في الساعة السابعة إلا ربع، كان في طريق عودته. أوقف دراجته البخارية في المتنزه جلس يشرب كولا ويأكل بضع قطع من اللحم المجفّف المحفوظ سلّم چم. يصدر من جهاز لاسلكي المعلق على مقود الدراجة صوت تشويش مختلط بصوت رالف. لا بُدَّ أنه في مكان قريب، ربما عند جبل فلاجستاف.

«...عند مسرح سَنرايز.. لا أثر لها.. رحلت العاصفة عن هنا...».

ثم صوت ستو، أقرب وأقوى. كان في متنزه تشاوتاوكوا، على بعد أربعة أميال من موضع هارولد.

«...كرر مرة أخرى يا رالف...».

جاء صوت رالف يزعق حتى يكاد يصاب بالجلُطة، ولتكونن هذه خاتمة جيدة لليوم.

«لا أثر لها هنا! سأعود قبل الظلام! انتهى!».

«مفهوم.. هارولد، هل أنت هنا؟».

قام هارولد ماسحاً دُهن اللحم المجفف في سرواله.

«هارولد؟ هارولد لودر! هل تسمعني؟».

رفع هارولد إصبعه الوسطى أمام اللاسلكي، ثم ضغط زر الرد وقال بصوت لطيف مزجه بالمقدار المناسب من القلق والإرهاق: «أنا هنا.. تأخرت هناك.. ظننتُ أنني رأيتُ شيئاً في الجرف، لكنني اكتشفتُ أنه سُترة قديمة».

«حسنًا، لماذا لا تلحق بي في تشاوتاوكوا يا هارولد؟ لنتنظر رالف هناك».

أنت تعشق توجيه الأوامر، أليس كذلك أيها الداعِر؟ ربما لديّ شيء لك.

نعم. ربما.

«هارولد. هل تسمعني؟».

«معذرة، شردتُ يا ستو.. سأكون هناك بعد خمس عشرة دقيقة».

هتف ستو فأجفل هارولد: «هل سمعتَ هذا يا رالف؟». رفع إصبعه

الوسطى مرة أخرى في وجه صوت ستو وهو يبتسم في جنون. سمعنا هذا يا راعي البقر الدنيء.

سمع صوت رالف مشوشًا: «سمعتُ. ستكونان في متنزه تشاوتاوكوا. أنا

في طريقي إلى هناك. انتهى».

قال هارولد: «وأنا أيضًا، انتهى».

أغلق اللاسلكي وأنزل الهوائي، ثم علقه على المقود مرة أخرى، ثم جلس على الدراجة دون أن يدير المحرك. كان يرتدي سترة جيش مبطنة، تقيه لسعة البرودة في أثناء قيادته على ارتفاع ستة آلاف قدم. إلا أن للسفرة منافع أخرى، خاصة جيوبها الكثيرة. خبأ هارولد في واحد من الجيوب مسدس سميت آند ويسون عيار 0.38 محشوًا بالرصاص، ثقيل الوزن كأنه يعي الغرض من صناعته؛ الموت، التدمير، الاغتيال...

الليلة؟

ولم لا؟

لقد صمم جدول اليوم بحيث يستطيع أن ينفرد بستو وقتًا كافيًا لينهي مهمته، والآن سيحصل على فرصته في متنزه تشاوتاوكوا، بعد أقل من ربع ساعة.. إلا أن للرحلة مآربَ أخرى أيضًا.

لم تذهب رحلته إلى نيدرلاند هباء، فبينما يقود إلى هناك حدث شيء. إن وضعتَ مغناطيسًا عند طرف منضدة، ووضعت صامولة عند الطرف الآخر، لن يحدث شيء. لو حركت الصامولة تجاه المغناطيس ببطء (تشبيهات جيدة، لا بدُّ أن يضيفها إلى اليوميات عندما يعود) سيأتي وقت تقترب فيه الصامولة إلى نقطة بعينها، بحيث يؤثر المغناطيس فيها فيجعلها تهتز كأن الحياة دبَّت فيها. دفعة صغيرة أخرى فتهتز الصامولة أكثر. دفعة أخيرة، فيختل التوازن بين الجمود والاحتكاك، وبين قوة المغناطيس، فتتحرك الصامولة من تلقاء نفسها أسرع وأسرع حتى تلتصق بالمغناطيس.

عملية شنيعة رائعة!

عندما انتهى العالم في يونيو، لم تكن القوة المغناطيسية مفهومة بعد، وفكر هارولد في أن الفيزيائيين الذين درسوها ربطوا بينها وبين ظاهرة الجاذبية (لم يكن عقل هارولد عقلًا علميًا)، وأن الجاذبية هي حجر زاوية الكون.

في طريقه إلى نيدرلاند، اتجه غربًا وإلى أعلى حتى شعر ببرودة ولمح رعدًا يحتشد حول قمم الجبال البعيدة خلف البلدة. إنه يقترب من نقطة التوازن، ومن بعدها سيختل هذا التوازن وتبدأ الحركة الذاتية. إنه صامولة معدنية لا تحتاج إلا إلى دفعة صغيرة كي تهرع إلى المغناطيس وتتحد معه. إنه يشعر باهتزاز نفسه.

هذه الخبرة أقرب إلى تجربة روحية. يرفض الشباب فكرة المقدسات، لأن قبولها يعني قبول موت كل الدلائل التجريبية، لذا رفضها هارولد. العجوز ذات قدرات روحانية، وكذلك فلاج. إنهما جهازا إرسال واستقبال بشريين، قوتهما الحقيقية تكمن في المجتمعات المحتشدة حول إشارتهما المختلفة. هكذا يرى الأمر.

أوقف دراجته عند نهاية شارع بلدة نيدرلاند الرئيسي، وترك كشفها الأمامي مضاءً كعين قط. وقف ينصت لعويل الريح بين أشجار الصنوبر والهور، وشعر بشيء أكثر من مجرد جذب مغناطيسي. شعر بقوة هائلة كاسحة تأتي من جهة الغرب، جاذبية عاتية تكاد تُفقد عقله. أدرك أنه لو اقترب أكثر لضاعت إرادته تمامًا.

لا يمكن لأحد أن يلومه، لكن لو ترك نفسه لقتله الرجل الغامض.

استدار عائداً وهو يشعر بالراحة التي قد يشعر بها الذي انتوى الانتحار ثم تراجع في آخر لحظة. سيعود الليلة ليقتل ريتمان برصاصة واحدة من مسافة قريبة. بعدها سيكمن حتى يظهر أبله أو كلاهما ويقتله برصاصة واحدة أخرى. لن يكثر أحد لصوت الرصاص، فالصيد كثير والأهالي يصطادون من وقت إلى آخر.

الساعة الآن السابعة إلا عشر دقائق، وسيكون قد تخلص منهما قبل السابعة والنصف. لن تغلق فران قبل العاشرة والنصف، حين يكون هو قد ابتعد إلى الغرب، ومعه دفتر يومياته.

إلا أن هذا لن يحدث إن ظل جالساً هكذا على دراجته.

شغل المحرك. ابتسم هارولد. اتسعت ابتسامة هارولد. يشع هارولد طاقة إيجابية.

وانطلق إلى متنزه تشاوتاوكوا.

كان الظلام قد بدأ يتسلل إلى العالم عندما سمع ستو صوت دراجة هارولد البخارية، بعد لحظات رأى ضوء كشفها الأمامي بين الأشجار، وخودته تدور بحثاً عنه.

لوح له ستو الجالس على طرف مشواة حجرية، وبعد دقيقة رآه هارولد فلوح له وأبطأ سرعته.

بعد حديثهما الثلاثي شعر بطمأنينة نوعًا ما تجاه هارولد.. أكثر من أي وقت مضى. فكرته رائعة حتى لو لم تُؤت ثمارها، وقد أصر هارولد على اختيار طريق نيدرلاند البارد الموحش.

ترجّل هارولد، ورأى ستو ابتسامته الحزينة ووجهه الشاحب. خمن ستو أن هذا من تأثير الإحباط. شعر بالذنب كونه وفراني أساء الظن فيه إلى هذا الحد، وحسب أن ابتسامته ومودته غطاء لشيء خبيث. هل خطر لهما أن الشاب يحاول فتح صفحة جديدة، وطريقته الغريبة نتيجة قلة خبرته في التعامل مع الناس؟

سأل هارولد وهو ينزل عن حافة المشواة: «لا شيء على الإطلاق؟».

- لا شيء.

عادت ابتسامته تلقائيًا، فبدت أقرب إلى التواء، وما زال وجهه شاحبًا ممتنعًا وهو يسير ويداه داخل جيبي سترته.

- لا عليك. كانت الفكرة جيدة. لو لم تعد إلى منزلها الليلة، سنكمل البحث في الصباح.

- وكأننا سنبحث عن جثة.

- ربما.. نعم، ربما. لماذا لا تعود معي وتتناول معنا العشاء يا هارولد؟

- ماذا؟

تغيرَ تعبير وجهه، وبدت ابتسامته متكلفة أكثر من أي وقت. كرّر ستو في صبر: «العشاء. اسمع، ستسعد فراني لرؤيتك. لا أجاملك، حقًا ستسعد».

قال في تردد: «ربما. لكن، ربما أشعر بعد بشيء تجاهها، والأفضل أن نؤجل الأمر قليلًا. أنتما تناسبان بعضكما، وأنا متأكد من هذا».

لمعت ابتسامته بصدق مُعِد، فابتسم ستو وقال: «كما تحب يا هارولد. لكن لتعلم أن الباب مفتوح لك في أي وقت».

- شكرًا.

- أنا الذي يجب أن أشكر.

رمش هارولد وسأله: «أنا؟».

- لأنك ساعدتنا في البحث فيما ترك الجميع الطبيعة تتخذ مجراها. هلا تصافحنا؟

مد ستو يده، فحرق إليها هارولد لحظاتٍ حتى ظن ستو أنه سيرفض مصافحته. أخرج هارولد يده اليمنى من جيبه، فتعلقت بشيء، ربما بالسحاب، فحررها وصافح ستو سريعاً بيد دافئة متعركة. نظر ستو إلى الممر وقال: «رالف على وصول. أتمنى ألا يكون قد أصيب في طريقه.. ها هو...».

قال هارولد وهو ينظر إلى كشاف دراجة رالف: «نعم... هو...».

- معه شخص آخر...

- م... ماذا؟

أشار ستو إلى كشاف دراجة بخارية أخرى خلفه، فغمغم هارولد بصوت ضعيف مسطح: «نعم.. أراه...».

- هل أنت بخير يا هارولد؟

- مرهق فقط.

توقفت دراجة جلن بيتمان المنخفضة خلف دراجة رالف الذي ترجل وظهر نك الذي كان يركب وراءه. دعاهم نك إلى العودة معه إلى البيت الذي يتشاركه مع رالف، وافق ستو، واعتذر هارولد الذي بدا منهكاً واجماً.

فكر ستو في أن الشاب محبط حقاً، وأدرك أن هذه هي المرة الأولى التي يتعاطف فيها مع هارولد، وهو تعاطف تأخر كثيراً. كرر دعوة نك، وأصر هارولد على الاعتذار، وتعلل بحاجته إلى الراحة والنوم.

ارتجف هارولد أمام باب بيته حتى عجز عن إدخال المفتاح في القفل. حالما نجح في ذلك انطلق إلى الداخل كأن قاتلاً مجنوناً يطارده. أغلق الباب وأرتجّه، ثم أسند رأسه إليه وأغمض عينيه وهو على شفا الانهيار. عندما تمالك نفسه قليلاً، أضاء المصابيح الثلاثة في غرفة المعيشة وجلس على مقعده المفضل وأغمض عينيه مرة أخرى. بعد حين، رفع بلاطة المدفأة وأخرج السجل الذي يدون فيه ديون الآخرين له، ومواعيد استحقاقها التي يحددها هو.

فتح السجل وكتب لساعة ونصف، تبدّل فيها تعبير وجهه من التعجب إلى الدهشة إلى الحزن إلى الغضب إلى الخوف.. بعدما انتهى قرأ: (هذه هي رسائلي إلى العالم الذي لم يرأسني قط...) وهو يدلك يده المتألّمة.

أعاد السجل إلى مكانه وقد هدأ بعدما أخرج كل ما شعر به وترجمه إلى كتابة. أحياناً تصيبه الكتابة بالضيق لو لم يسن خلالها طرف شعوره الصديء حتى يصبح بتأراً. اليوم هدأته الكتابة وصار شعوره المضطرب آمناً تحت البلاطة الحجرية.

أزاح الستار ونظر إلى الجبل عند الأفق. فكر لحظة في أن يذهب إليهم حيث اجتمعوا ويقتلهم جميعاً، ويدمر لجنتهم المشؤومة، ولولا خيط متبق من عقل. يجب أن يتحين الفرصة المناسبة التي ستخدم أغراضاً أكثر أهمية. إنه ناعس الآن. أطفالاً مصباحين، وحمل الثالث إلى غرفة نومه، عبّر المطبخ ثم تصلّب مكانه. باب القبو مفتوح. نزل ثلاث درجات رافعاً المصباح إلى أعلى. أطاح الخوف بالهدوء الذي حصّله من الكتابة.

هتف: «مَن هنا؟». لا إجابة. كل شيء في مكانه.. نزل ثلاث درجات أخرى وهتف مجدداً: «هل من أحد هنا؟».

لم يشعر بوجود أحد، لكن لم يهدئ هذا خوفه. نزل باقي الدرجات ورفع المصباح فوق رأسه، فافترش ظله الضخم المكان. هل من شيء هناك عند الحائط؟ نعم...

اقترب وقرّب المصباح ليرى أثر حذاء رياضي على الحائط حيث أسندت فراني قدمها لتصعد إلى النافذة. الأثر منقوش بدوائر متداخلة وخطوط. نظر إليه حتى انطبعت الصورة في عقله، ثم مسح العلامة. هتف هارولد بصوت كالضحك: «ستدفع الثمن. ستدفع الثمن أيّاً كنت!».

صعد ليفتش أرجاء المنزل بحثاً عن أثر آخر فلم يجد. عاد إلى غرفة المعيشة وقد طار النوم من عينيه. استنتج أن المتسلل شخص -ربما طفل- دخل بدافع الفضول.. ثم تذكر السجل فأضاء عقله انفجار هزه. اتضح له هدف الاقتحام الآن، وهو هدف بشع، كاد يفوّت ملاحظته تماماً.

هُرِعَ إلى البلاطة وأخرج السجل، وقد اكتشف مدى خطورته فجأة. لو وجده أحد لانتهى كل شيء، وليكون هذا بسبب فراني، ويومياتها اللعينة. السجل، أثر الحذاء. هل يعني الأخير أن أمر الأول قد اكتُشف؟ طبعاً لا، لكن كيف يتأكد؟ لا سبيل للتأكد للأسف.

أعاد البلاطة إلى موضعها وأخذ السجل معه إلى غرفة نومه، وخبأه أسفل وسادته مع مسدسه وهو يفكر في ضرورة حرقه، بيد أنه يعرف أنه لن يستطيع. لقد كتب فيه أفضل كتابة خطها في حياته، وأكثرها صدقاً.

فكّر في كل الأماكن البديلة في البيت التي يمكنه أن يخبئها فيها، فوجد أنه سيعجز عن مغادرته والسجل فيه. ماذا عن خزانة في مصرف؟ لا، هو يريدّه معه حيث يمكن أن يراه.

تسلل النوم إلى عينيه أخيراً وهو يفكر: لا بدّ أن أخفيه.. هذا هو المهم.. لو كانت فراني قد خبأت يومياتها بشكل أفضل.. لو أنني لم أقرأ ما تفكر فيه تجاهي.. لو لم أعرف أنها منافقة... لو...

هَبَّ هارولد جالساً على فراشه، وأفلتت منه صرخة خافتة. جلس على هذا الوضع قليلاً وراح يرتجف. هل المتسلل فراني؟ هل عرفت أنه قرأ يومياتها؟ ارتمى مرة أخرى على الفراش. فراني ترتدي دائماً حذاءً رياضياً، لكن ما هو نقش نعل حذاءها؟ متى نام، زارته أحلام كئيبة، فأَنَّ في الظلام كأنما يحاول إبعاد أشياء مخيفة انطلقت من عقالها...

دخل ستو منزله في التاسعة والربع، كانت فراني متكورة في الفراش، ترتدي قميصاً من قمصانه يصل إلى ركبتها، وتقرأ كتاباً عن النباتات النافعة. سألته حالما دخل: «أين كنت؟ قلقت عليك!».

حكى لها ستو فكرة هارولد، ولم يذكر شيئاً عن البقر المقدس. قال وهو يفك أزرار قميصه: «كنا لناخذك معنا، لكني لم أكن أعرف مكانك».

- كنت في المكتبة.

راقبته وهو يخلع قميصه ويضعه في كيس الملابس المتسخة خلف الباب. جسده مشعر، ذكّرهما بأنها لم تحب المشعرين قط قبل أن تقابل ستو.

لقد ارتاحت لعودته. إنها تعرف الآن أن هارولد قرأ يومياتها، وكانت تخشى أن ينفرد بستو و... لكن لماذا قد يؤذيه اليوم بالذات، بعد معرفتها بالأمر؟ لو أنَّ هارولد صبر كل هذه المدة، فلماذا لا تفترض أنه لن يفعل شيئاً؟ هل وعى هارولد بقراءته يومياتها إلى التصرفات التي يفعلها وتضايقها؟ من مسببات قلقها اختفاء الأم أباجيل، حتى إنها رأت في تراكم الأحداث السيئ نذيراً ما.

لو أخبرت ستو بأمر اليوميات لبدتُ سخيّة، ولجعلته يتحامل على هارولد.. أو عليها لأنها سخيّة.

- ألم تعثروا لها على أثر يا ستو؟
- لا.

- كيف بدا هارولد؟

- محطم. محبط من إخفاق فكرته. دعوته على العشاء هنا وقتما يريد، أتمنى لو أن هذا لا يضايقك. أتعرفين، لقد بدأتُ أحب هذا البغيض. ما كنتُ لتقنعيني بهذا يوم التقيته. هل أخطأتُ بدعوتي إياه؟

بعد تفكير أجابت: «لا. أنا أيضًا أريد أن أستعيد علاقتي الجيدة به». لقد كنتُ أفكر طوال الساعات الماضية في مخططات لقتله، فيما يدعو ستو على العشاء. يا لمزاج الحوامل المتخبط!

قال ستو: «لو لم تظهر الأم أباجيل حتى الصباح، سأسأل هارولد إن كان يرغب في الخروج معي بحثًا عنها».

- أريد أن أذهب معكم. بضعة أشخاص آخرين سيودون المشاركة؛ يك قولمان مثلًا، ولاري أندروُد.

- لا بأس. ماذا ترتدين تحت هذا القميص؟

- المفترض أن رجلًا كبيرًا مثلك سيكتشف الأمر بنفسه دون مساعدتي... فانضمّ إليها في الفراش أخيرًا..

بدأ البحث في الساعة الثامنة والنصف من صباح اليوم التالي، وتكوّنت المجموعة من ستة أفراد؛ ستو، فراني، هارولد، ديك، لاري، لوسي. ازداد عدد المنضمين للبحث عند الظهيرة، فوصل إلى عشرين شخصًا. مع بداية الغروب وبدء زخات المطر وومضات البرق، صار العدد خمسين شخصًا، يمشطون البلدة والجداول والأودية، فتتداخل موجات بثهم خلال أجهزة اللاسلكي.

حلَّ شعور بالرعب والقلق المميت محلَّ تقبل الأمر الذي شعر به الأهالي أمس. رغم قوة الأحلام التي جعلت الأم أباجيل نصفَ إلهة في أعين أهل المنطقة الحرة، تزايد القلق الواقعي على سلامتها. ما هي إلا امرأة مسنة وحيدة في الليل، وهذه ثاني ليلة تمر على غيابها.

بدأت احتجاجات هنا وهناك، ومطالبات بهجر بولدر طالما هجرتها الأم أباجيل. فبولدر قبل كل شيء قريبة للغاية. من أي شيء قريبة؟ الكل يعرف، والأفضل أن ينتقلوا إلى مكان أكثر أماناً في الشرق. بالإضافة إلى ذلك، لا يوجد ما يحفزهم للبقاء هنا في البرد بلا كهرباء ولا وسائل تدفئة، في حين في البلاد مناطق أكثر دفئاً. تزعم هذه الاحتجاجات تشارلي إمبنينج، وسأله جِلن أكان يخطط للرحيل وحده، فقال إنه سينتظر أن يعود آخرون إلى صوابهم فيرحلون معاً. بدا لـجِلن أن إمبنينج يحاول أداء دور موسى بشكل ما. في شقة ستو وفراني، طلب بيتمان من رفاقه أن يوقفوا البحث الليلة، وقال: «ربما اختفاء الأم أباجيل الآن أفضل للجميع، فموتها -أتمنى حقاً أن تكون بخير- سيوقف تطور التفكير السحري لدى الناس وإيمانهم بالخرافات. لو أننا بنينا حظيرة وعلقنا على بابها حدوة حصان لجلب الحظ، فسقطت تلك الحدوة بعد يومين، هل ستهجر وقتها الحظيرة لأنها فقدت تميمية حظها؟ يجب أن يركز الناس على الهدف الحقيقي من وجودنا هنا».

كتب نك: «لكن لو أنها خُصم لخصمنا، الشخص الذي يوازن بين كفتي الميزان...». قال جِلن واجماً: «أعرف. أعرف. يبدو أن أيام الإيمان بحدوة الحصان حلت على أي حال. صدقني، أعرف ما تتكلم عنه».

قالت فراني: «هل تعتقد أن أحفادنا سيؤمنون بالخرافات يا جِلن؟ سيحرقون الساحرات ويصبقون من بين أصابعهم جلباً للحظ؟».

المصباح يضيء وجه جِلن، فيبدو مسناً مرهقاً، وجه ساحر مُحْفَق: «لا أتنبأ بالمستقبل يا فراني. لم أكن أرى أثر الأم أباجيل على مستقبل هذا المجتمع إلا عندما أشار له ستو ليلة بتنا فوق الجبل. كل ما أعرفه أننا هنا بسبب حدثين. الإنفلونزا الفائقة التي نعزيها لحماقة البشر. لا يهم أكان من تسبب فيها الروس أم غيرهم. كل شيء تكاتف لخلق هذه الكارثة؛ قوانين الطبيعة وعلم الأحياء والمعادلات الرياضية.. لو لم يضربنا كابتن تريبس لضربنا شيء آخر. جرت العادة أن نلقي اللوم على التكنولوجيا، لكنها ليست سوى جذع الشجرة، لا جذورها. الجذور هي العقلانية، التي أعرفها بأنها الفكرة التي نعرف من خلالها كل شيء عن الوجود. يمكن أن تلوم العقلانية على الإنفلونزا الفائقة لو شئت. الأحلام هي السبب الآخر لوجودنا هنا. والأحلام غير عقلانية. لقد اخترنا ألا نتكلم عن هذه الحقيقة البسيطة في اجتماع اللجنة، لكننا لسنا في اللجنة الآن. سأقول ما نؤمن جميعاً بصدقه: نحن هنا بسبب قوى لا نفهمها.

يعني هذا بالنسبة إليّ أننا قد بدأنا في قبول تعريف آخر للوجود، حتى لو قبلناه على مستوى اللاوعي. نحن لم نعد نفهم أيّ شيء عن حقيقة الوجود، وإن كانت العقلانية قد أودت بنا إلى الموت، فربما تؤدي بنا اللاعقلانية إلى الحياة.. أو على الأقل حتى إثبات العكس».

قال ستو ببطء شديد: «حسنًا، أنا أفهم خرافاتي. أسخر منها كثيرًا لكنني أفهمها. أفهم أنه لا فارق إن أشعل المرء سيجارتين أو ثلاثًا من عود الثقاب نفسه، لكنّ إشعال سيجارتين لا يقلقني، وإشعال ثلاث يقلقني. لا أمشي تحت السلاّم ولا أحب أن يقطع قط أسود طريقي. لكنّ الحياة من دون علم.. أو ربما عبادة الشمس.. أو الاعتقاد بأن الوحوش تلعب البولنج في السماء فتتسبّب في الرعد.. لا تروق لي هذه الأمور أيها الأصلح، وتبدو لي نوعًا من العبودية».

قال جِلن برفق: «هَب أن هذه الأمور حقيقية؟».

- ماذا؟

- أنا أفترض هنا أن عصر العقلانية قد ولى. أنا شخصيًا واثق من هذا. لقد بدأ وانتهى من قبل كما تعرف، بل كاد ينتهي عام 1960، أو ما يسمونه بعصر برج الدلو. أخذ مذهب العقلانية عطلةً طويلةً خلال العصور الوسطى. لكنّ لنفترض.. لنفترض أن اختفاء العقلانية هو اختفاء لضوء كان يعمينا، والآن نستطيع أن نرى...

سألت فران: «أي شيء نرى؟».

رفع عينيه الرماديتين الغريبتين المتألفتين بنورهما الخاص نحوها، وأجاب: «نرى السحر الأسود. عالم من الأعاجيب حيث يسيل الماء إلى أعلى، وتعيش الجبابرة الخرافية في الغابات، وتجوب التنانين أعالي الجبال. سترى المعجزات، القوى البيضاء، سنشهد بعث لازاروس، وتحول الماء إلى خمر وربما.. طرد الشياطين».

سألت فراني: «ماذا عن الرجل الغامض؟».

أجاب جِلن: «تقول الأم أباجيل إنه خادم الشيطان. ربما يكون آخر سحرة العقلانية، يحشد كل وسائل التكنولوجيا ضدنا. ربما في الأمر تفاصيل أكثر حُلْكة. أنا فقط أعرفه، وأعرف أن علم النفس وعلم الاجتماع وأي علم آخر سيعجزون عن مواجهته. سيواجهه فقط السحر الأبيض.. وساحرتنا البيضاء هناك، بالخارج، تجول وحدها».

ارتجف صوت جِلن، في نهاية العبارة، ونظر إلى الأرض.

العالم بالخارج ظلام بالكامل، تقذف الرياح رذاذَ المطر نحو نافذة غرفة معيشة ستو وفران. أشعل جِلن غليونَه، وأخرج ستو عملات من جيبه، فرجَّها بين كفيه المغلقتين، وفتحهما ليرى أيَّ عملات تُظهر الصورةُ وأيهما تُظهر الكتابة. رسم نك على صفحة دفتره رسوماً عشوائية، وفي عقله رأى شوارع شويو الخاوية، وسمع -نعم، سمع- صوت همس: «إنه آتٍ من أجلك أيها الأخرس. إنه أقرب الآن...».

بعض قليل، أشعل ستو وجِلن المدفأة، وحدقا إلى النار طويلاً دون كلام.

بعدما انصرف الجميع، شعرتُ فراني بتعاسة، وتدهورت حالة ستو النفسية. قررا أن يرتاحا غداً، ويمكثا في البيت معاً، فيتحدثا ويُسرَّيا عن بعضهما. يجب أن يرفقا بنفسيهما.

نظرتُ إلى المصباح وتمنَّتُ لو كان مصباحاً كهربياً. شعرتُ بلسعة الدموع خلفَ عينيها، فأمرتُ نفسها في غضبٍ بالألا تبكي، يكفي ما بها من هموم، لكنها عجزتُ عن السيطرة على نفسها...

قال ستو فجأةً وقد أضاء وجهه: «كدت أنسى!».

- ماذا نسيت؟

- سأريك. انتظري هنا.

نزل سريعاً، ثم عاد ومعه شيء. سألتَه في سعادة: «أين عثرت على هذا يا ستورات ريديمان؟».

- في متجر فن الموسيقى الشعبية.

أمسكتُ لوحَ كشط الغسيل وتفحصته، فانعكس الضوء على سطحه اللامع المتعرج. سألتَه: «لوح كشط غسيل في متجر موسيقى؟».

- ووجدتُ أيضاً حوضَ غسيل ممتاز، لكنَّ أحدهم ثقبه وحوله إلى حوض استحمام. ضحكْتُ وعانقته، وطلبتُ منه أن يسعدنا الليلة.. ففعل.

في الثانية والربع من ظهر اليوم التالي، اقتحم جِلن الشقة دون استئذان. كانت فران في منزل لوسي سوان، وستو يقرأ. رفع عينيهِ ليرى جِلن بوجه

مصدوم باهت وعينين متسعيتين، فرمى الكتاب على الأرض. هتف جِلن: «ستو.. أنا مسرور أنني وجدتك هنا يا رجل...».

- ماذا حدث؟! هل.. هل عثر عليها أحد؟

هوى جِلن جالسًا وقد خانتة ساقاه، وأجاب: «لا.. ليست أخبارًا سيئة، بل طيبة، لكنها غريبة للغاية...».

- تكلم!

- إنه كوجاك.. نمْتُ قليلًا بعد الغداء، وعندما استيقظتُ وجدتُ كوجاك نائمًا في الشرفة الخارجية. لقد كاد يهلك يا ستو، وبدا كأنه خرج للتو من خلاط بشفرات باردة. لكنه هو...

- هل تعني الكلب؟ كوجاك الذي نعرفه؟

- نعم.

- متأكد؟

- يحيط عنقه الطوق الأحمر ذاته.. إنه الكلب نفسه. لقد تحوّل إلى هيكل عظمي.. أخذته إلى دِك أليس الذي سُرَّ لعلاج حيوان على سبيل التغيير. قال لي إنه فقد عينه، وأصيب بجروح وخدوش على طول بطنه وجانبي جسده، تلوّث بعضها، لكنه اعتنى به. قال دِك إنه ربما اشتبك مع ذئب، أو أكثر من واحد. المهم أنه غير مصاب بالسعار.

هز جِلن رأسه وسالت من عينيه دمعتان. أكمل: «لقد عاد لي الكلب اللعين. أتمنى لو أنني لم أتركه وحده يا ستو. أشعر بالذنب تجاهه».

- لم تكن لتستطيع أخذه معك يا جِلن.

- نعم، أعرف.. لكنه تبعني. هذا شيء لا نراه إلا على صفحات المجلات. كلب وفي يتبع صاحبه على مسافة ألفي ميل. كيف استطاع فعل ذلك؟ كيف؟

- ربما بالطريقة نفسها التي اتبعناها. الكلاب تحلم.. ألم ترَ كلبًا يحرك قوائمه وفمه وهو نائم؟ كنت أعرف رجلًا طيبًا من أرنيث، اسمه فيك بولفري، أخبرني أن الكلاب تحلم أحلامًا طيبة وأخرى مزعجة. لو كان الحلم طيبًا تحركت قوائم الكلب ومخالبه، لو كان الحلم خبيثًا يتحرك خطمه ويزمجر. لو أيقظتَ كلبًا من حلم يزمجر فيه لحاول أن يعضك.

هز جِلن رأسه في حيرة وسأله: «تقول إنه يحلم؟».

- أنا لا أقول شيئاً أغرب مما قلته أنت ليلة أمس.
- يمكنني أن أتكلم نظرياً لساعات، لكنّ.. سحّاق لك يا رجل شرق تكساس.
- هل تريد أن تأتي وتراه؟
- لك أن تراهن على ذلك.

منزل جِلن، في شارع سبروس، على بعد مبنيين من فندق بولدرادو. اللبلاب المتسلق على سور المنزل جاف ميت، شأنه كشأن أغلب نباتات بولدر التي ذبلت دون ري منتظم.

في شرفة المنزل الخارجية منضدة مستديرة عليها زجاجتا خمر، ومنفضة سجائر وخمسة غلايين، وبضعة كتب قرأ من كل واحد عدة فصول.

كوچاك راقد في ركن، يسند رأسه في سلام إلى ذراعيه. الكلب في حال يرثى لها، لكنّ ستو عرفه. ركع إلى جواره وربّت رأسه، فاستيقظ ونظر في سعادة إلى ستو. قال ستو وقد شعر بغصة في حلقة: «هذا كلب صالح وفي». نظر إلى عالم الاجتماع الأصيل، ثم خفض عينيه سريعاً وقد رآه على وشك البكاء. كرر: «كلب صالح وفي». ضرب الكلب الأرض الخشبية بذيله كأنه يؤمّن على كلامه.

قال جِلن بصوت متحشرج: «سأدخل دقيقة... الحمام...».

هز ستو رأسه وتحاشى النظر إليه. قال للكلب مداعباً: «مرحباً يا كوچاك العزيز الطيب. ألسنت طيباً؟ هه؟».

هز الكلب ذيله موافقاً.

- هلا تدحرجت على ظهرك؟ هه؟ كأنك ميت؟ تدحرج...

فتدحرج الكلب كاشفاً بطنه، رافعاً قوائمه في الهواء. تفحص ستو جروح البطن في قلق، وتبين له أن شيئاً هاجمه فعلاً، وليس لمُهاجمه طلب آخر؛ الكلاب تصيب بعضها في العنق والوجه. ما حدث لكوچاك تسبب فيه حيوان أدنى من الكلاب وأكثر خبثاً. قطيع ذئب؟ ربما، لكنّ ستو شك في قدرة الكلب على الفرار من قطيع. أياً كان فهو محظوظ كون بطنه لم يُبقر. عاد جِلن إلى الشرفة، فقال له ستو: «ما هاجمه لم يمَسّ أعضاه الحيوية».

- الجروح عميقة، وقد نزع المسكين كثيراً. لا أستطيع تجاوز حقيقة أنني السبب في ذلك.

- قال دك إن ما هاجمه ذئب؟
- ذئاب أو قِيُوطات، لكنه استبعد أن تكون القِيُوطات قادرة على إحداث هذا الضرر، وأنا أوافق.
- رَبَّتْ ستو جانبَ الكلب، فانقلب على بطنه مرة أخرى.
- كيف انقرضتْ أغلب الكلاب، وفي مكان واحد كل هذا العدد من الذئاب بما يكفي لإيذاء كلب إلى هذه الدرجة؟
- أجاب جِلِن: «لن نعرف أبدًا، كما لن نعرف سبب موت الخيول تأثرًا بالبوابا اللعين، ونجاة البقر. لن أفكر في الأمر. سأبحث له عن طعام يكفيه».
- ثم دخلا المنزل، وتركوا الكلب لينام.

لم ينم الكلب.

رقد في الحيز المكاني الزماني الوسط بين النوم واليقظة، حيث يرقد كل المرضى في أثناء وقت الشفاء. شعر كوجاك بحِجَّة قوية في بطنه إثر التئام الجروح، وقضى جِلِن ساعات في محاولة تشتيته عن حكها كي لا ينكأها. لكنَّ هذا سيحدث لاحقًا.

يرقد كوجاك (الذي يعرف نفسه باسم ستيف الكبير؛ اسمه الحقيقي) في ذلك العالم الأوسط، يتذكر مهاجمة الذئاب له في نبراسكا فيما كان يتشمم المكان حول منزل قديم في بلدة هيمنجفورد هوم. لقد قادته رائحة الرجل -إنه يشعر بالرجل- إلى هنا ثم اختفت. ثم جاء أربعة ذئاب من بين أعواد الذرة كأنهم أرواح موتى، تكشف عن أنيابها وتزمجر. تراجع كوجاك وهو يزمجر بدوره، ويحفر في أرض الأم أباجيل بقوائمه. اندفع قائد الذئاب إلى صدر كوجاك، وتبعه الآخرون. أغلق كوجاك فكيه على عنق الذئب القائد، فعوى الأخير والدم يقطر من لحمه، وحاول الفرار وقد خبث شجاعته فجأة. حالما أفلت الذئب عنقه، حتى نهش كوجاك خطمه فمزق لحمه الطري، عوى الذئب مجددًا وهُرع يبتعد وهو يهز رأسه في ألم، ينثر الدم حوله. وكعادة الحيوانات المتشابهة، استطاع كوجاك أن يقرأ فكرة واحدة تتكرر في رأس الذئب: «في رأسي دبابير في رأسي دبابير دبابير دبابير في رأسي».

هاجمته الذئاب الأخرى، فخفضت أجسادها وانطلق نحوه تقصد بطنه. اندفع كوجاك إلى اليمين ليتخلص من الذئب الأيمن حتى يستطيع هو الاختباء تحت الشرفة الأمامية حتى يرحلوا.

استرجع الكلب تلك المعركة في عقله ببطء. تذكر العواء والزمجرة والخدوش والعضات، ورائحة الدم التي تسالت إلى عقله فحوّلتَه إلى آلة قتال شرسة، فلم يعِ جروحه إلا لاحقاً. فعل بالذئب على اليمين ما فعل بسابقه، ففقاً عينه ونهش عنقه، لكنّ الذئب جرحه أيضاً، فأصابه بخدوش سطحية، وبجرحين عميقين للغاية ظلا يؤلمانَه حتى نهاية عمره (عاش كوجاك ستة عشر عاماً أخرى بعد وفاة جلن بيتمان). رغم ذلك استطاع أخيراً أن يختبئ تحت الشرفة، وينهش عنق الذئبين الآخرين عندما حاولا الاقتراب منه.

لم يخرج كوجاك حتى بعد فرار الذئاب. مكث في الظلام يلهث ويئن ويذمجر. ثم حل الليل واعتلى القمر سماء نبراسكا. كلما سمع أحد الذئاب المختبئة خلف الذرة صوت زمجرة كوجاك، تراجع عن مهاجمته. هذا كلب استثنائي. بعد منتصف الليل، تركت الذئاب كوجاك لتري أكان سيموت أم سينجو. في الصباح الباكر استشعر وجود حيوان آخر، حيوان مرعب يسير بين أعواد الذرة، يبحث عنه. ارتجف كوجاك وهو ينتظر أن يعثر عليه هذا الشيء الذي شعر مع الوقت أنه رجل.. بل رجل وذئب وعين في كيان واحد. بعد وقت غير معلوم، شعر كوجاك أن الكائن قد رحل. نام، ومكث تحت الشرفة ثلاثة أيام، لم يخرج إلا ليشرب من بركة ماء، أو ليأكل من بقايا الطعام داخل المنزل. عندما أحس كوجاك أنه قادر على الرحيل، عرف الطريق. لم يتبع الرائحة، بل حرارة استشعرها تهبُّ من الغرب. عرج ماشياً على ثلاثة قوائم مسافة خمسمائة ميل، والألم يطعن بطنه بلا توقف. من وقت إلى آخر كان يشم رائحة الرجل، فيعرف أنه على الطريق الصحيح. أخيراً وصل إلى مكان الرجل، حيث لا يوجد ذئب، ولا أثر للشيء المخيف.. الرجل ذو رائحة الذئاب النتنة وإحساس مراقبة العين التي ترى كل شيء ولو على مسافة أميال. كل شيء بخير الآن...

ثم نام كوجاك وحلم بطاردة الأرانب في حقول البرسيم الندية الباردة. اسمه ستيف الكبير، وهو الآن يجري بحرية تحت الشمس...

وتنقبض ساقاه ومخالبه وهو نائم...

الفصل الثالث والخمسون

من محضر اجتماع اللجنة الطارئة

17 أغسطس 1990

أقيم هذا الاجتماع في منزل لاري أندروُد بحضور كل أعضاء اللجنة...
موضوع النقاش الأول: انتخاب أعضاء اللجنة الطارئة لعضوية اللجنة الدائمة.

فران: اتفقتُ أنا وستو على أن نوفر على أنفسنا العناء، ونطلب من كل واحد منا أن يجد شخصًا واحدًا على الأقل لينتخبه وآخر ليعزز الصوت. لن نصوت لمصلحة بعضنا، لسنا مافيا هنا، ولا أريد أن أروج لاستخدام أي طريقة غير ديمقراطية. مَنْ لا يجد فينا اثنين يصوتان لمصلحته، فالأفضل أن ينسحب. لو كانت الأم أباجيل هنا لعززت اختيارنا وانتهى الأمر كما اتفقنا من قبل».

سوزان: «واو! تصرف ماهر يا فران».

فران: «نعم.. بعض الشيء».

جلن: «يبدو أننا نتحدث مرة أخرى عن لجنة خالدة، وأنا واثق أننا نجد الموضوع فائقًا بحق، لكنني أريد أن أقترح أن تكون اللجنة الدائمة دائمة، لا خالدة، ويُعاد انتخاب أعضائها بعد بضعة أشهر. لقد اتفقنا أننا نخدم الصالح العام للمنطقة الحرة، وأريد أن نحافظ على نيتنا هذه».

رالف: «وكأنك تضايقت قليلًا يا جلن؟».

جِلن: «أنا فعلاً متضايق. كلما أمضيْنَا وقتاً أطول في نقاش ديمومة عضوية اللجنة، اتضح لنا هوى قلوبنا».

سوزان: «الطريق إلى الجحيم مفروش بـ...».

جِلن: «بالنوايا الحسنة. نعم. ولما كنا جميعاً نقلق بصدد نويانا، فالمفترض أننا الآن على الطريق السريع للجنة...».

اقترح جِلن مناقشة أمر جواسيسنا أو جنود استطلاعنا الآن بدلاً من يوم التاسع عشر، فسأله ستو عن السبب.

جِلن: «ربما لن نكون جميعاً هنا في يوم التاسع عشر. ربما يخرج أُننا من التصويت. لا يمكن لأحد التنبؤ بما سيحدث عندما يحتشد عدد كبير في مكان واحد. علينا أن نحترس قدر المُستطاع».

وافقتِ اللجنة على المقترح. عرض ستو مناقشة أمر اختفاء الأم أباجيل. ستو: «تعرفون أن الأم أباجيل رحلت من تلقاء نفسها، وأن خطابها ذو محتوى غامض. حتى الآن لم يسفرِ البحث عن شيء، وعددنا لا يكفي لتمشيط كل المنطقة وما يحيطها. قلة العدد وقلة التنظيم تُعطلُ العمل في محطة توليد الكهرباء أيضاً. لذا اقترح أن نعرض تشكيلَ فريق في اجتماع غد، كما سنعرض تشكيل فريق إصلاح محطة الطاقة وفريق دفن موتى. أريد أن يتولى هارولد لودر أمر فريق البحث لأنها فكرته».

قال جِلن إنه لا يظن فريقَ بحث سيجد خبراً ساراً بعد أسبوع من الاختفاء. وافقته اللجنة على ذلك، لكنهم صوتوا لمصلحة تنفيذ المقترح بالإجماع. للأمانة، تعددت الاحتجاجات على قيادة لودر فريقَ البحث، لكنَّ ستو قال إن الفكرة فكرته، وتجاهل هارولد سيُعتبر لطمة له.

نك: «أسحب اعتراضى على هارولد، لكنى لن أسحب رأيى فيه. أنا لا أحبه كثيراً».

طلب رالف أن يكتب أحد ما يريد ستو في نقاط كي يطبعها الليلة، فرحّب ستو بذلك.

اقترح لارى أندروُد إنهاء الجلسة اليوم، ووافق الأعضاء بالإجماع.

نتيجة اجتماع اليوم التالي جاءت باهرة.

لأول مرة يدرك لاري ضخامة مجتمع المنطقة الحرة، هو الذي لم ينضم إليه إلا منذ أسبوع. رؤية الأهالي يمشون في الشوارع منفردين في الغالب شيء، ورؤيتهم يحتشدون في مكان واحد -مسرح تشاوتاوكوا- شيء آخر. ملأ الناس المكان ووقفوا في الممرات، يهمهمون ولا يصخبون.

لأول مرة تُمطر السماء بهذه الكثافة منذ وصل إلى بولدر. حتى مع تجمع أكثر من ستمائة شخص، يمكنك أن تسمع صوت الزخات. أصخب صوت بالداخل كان صوت حفيف الأوراق المطبوعة المكتوب فيها:

منطقة بولدر الحرة
مخطط الاجتماع المفتوح
18 أغسطس 1990

- 1 - التأكد من موافقة أهالي المنطقة الحرة على قراءة دستور الولايات المتحدة والتصديق عليه.
- 2 - التأكد من موافقة أهالي المنطقة الحرة على قراءة دستور وثيقة حقوق الولايات المتحدة الأمريكية والتصديق عليها.
- 3 - عرض انتخاب سبعة أعضاء لمجلس نواب المنطقة الحرة، بهدف خدمتهم كمجلس للحكم.
- 4 - التأكد من موافقة أهالي المنطقة الحرة على منح أباجيل فريمانتل حق الاعتراض على القرارات كافة التي يتخذها نواب المنطقة الحرة.
- 5 - التأكد من موافقة أهالي المنطقة الحرة على إنشاء لجنة دفن مكونة من عشرين عضواً على الأقل، لدفن ضحايا وباء الإنفلونزا الفاتكة من سكان بولدر دفناً لائقاً.
- 6 - التأكد من موافقة أهالي المنطقة الحرة على إنشاء لجنة طاقة مكونة من ستين عضواً لتوصيل الكهرباء قبل الشتاء.
- 7 - التأكد من موافقة أهالي المنطقة الحرة على إنشاء لجنة بحث مكونة من خمسة عشر عضواً على الأقل للعثور على مكان الأم أباجيل إن أمكن.

اكتشف لاري أن يديه مشغولتان في طي الورقة -التي يحفظ ما فيها عن ظهر قلب- على هيئة طائرات ورقية. المشاركة في المجلس الطارئ أمر ممتع، كأنهم أطفال يلعبون لعبة البرلمان في منزل واحد منهم. الجلوس حول المنضدة وشرب الكولا وأكل الكيك الذي تصنعه فراني... حتى الجزء الخاص بإرسال جواسيس إلى الجهة الأخرى من الجبل ومباشرة إلى جبر الرجل الغامض يبدو له لعبة، لأنه شيء لا يستطيع تخيل فعله بنفسه. يجب أن تكون مجنوناً كي تواجه كابوساً كهذا.

إلا أن كل هذا بدا معقولاً حيث جلسوا في ضوء مصابيح كولمان. حتى اكتشاف أمر القاضي وداينا وتوم يبدو معقولاً داخل تلك الجلسات المغلقة، كأن خسارتهم مجرد خسارة في لعبة بطاقات لا أكثر.

جلوسه هنا ولوسي عن يمينه وليو عن يساره (لم ير أحد نادين طوال اليوم ولا يعرف ليو مكانها) يبدو غريباً، وقد صار أمر قراراتهم واقعاً يُطرح على الناس. في المسرح ما يقرب من ستمائة شخص، لا يعرف أيهم أن لاري ليس رجلاً لطيفاً، وأن أول شخص يراعه لاري منذ الوباء مات بجُرعة مخدر زائدة.

أمسكت لوسي بكفه تطمئننه وابتسمت، وتذكر ما قالته له أمه، ما زال فيه خير بعد.

شعر بالذعر.. هل من مخرج من كل هذا؟ أم إن الأمور خرجت عن السيطرة؟ لم يعد قادراً على تحمل قراره بإرسال القاضي إلى حتفه. لو تنحى عن منصبه، وحل محله شخص آخر، فهل سيصوت لمصلحة التضحية بالقاضي؟ طبعاً سيفعل...

قال لنفسه إنه عندما تقوم لوري كونستابل وترشح اسمه، سيعتذر عن الترشح. لا يمكن لأحد أن يجبره، أليس كذلك؟

مكتبة

قالت له لوسي: «ستكون بخير».

اعتصر ليو كفه وهمس: «نعم، ستكون بخير». t.me/soramnqraa

أنت لا تفهم شيئاً أيها الصغير الأبله. أنت تمسك يدي وتفهم أنني قد اتخذ قراراً خاطئاً يؤدي إلى مقتل القاضي. أنا في طريقي لقتل القاضي فاريس، وهو سيقوم بعد القليل ليرشح اسمي.

عَبَّرَ ستو المسرح نحو المنصة. سترته الحمراء وسرواله الأزرق كأنهما مصباحًا طوارئ يعملان بطاقة مولد أصلحه براد كيتشنر وطاقمه. انطلق تصفيق من وسط القاعة، وفكَّر لاري في أن التصفيق قد دَبَّرَهِ جِلْن بيتمان (خبير إدارة الحشود) ليعدي به باقي الحضور. وقف ستو خلف المنصة زاهلاً، والتصفيق يتزايد مصحوبًا بهتاف وصفير يبدو أنه لن يتوقف.

نظر لاري إلى لوسي، فوجدها تُصَفِّقُ بحرارة وهي تثبت عينيها على ستو وتبتسم ابتسامة نصر مرتعشة. إنها تبكي. على الجانب الآخر وقف ليو يُصَفِّقُ بقوة حتى خشي لاري أن تنخلع كفاه من مرفقهما، وفي غمرة الحماس نسي الكلام، وغدا يجأر ويزمجر متحمسًا.

قال ستو في مكبر الصوت المتصل بمولد كهرباء: «أيها السيدات والسادة...».

واستمر التصفيق...

- أيها السيدات والسادة.. اجلسوا لو سمحتم.
لكنَّ الحماس ظل متوهجًا، حتى إن لاري لم يدرك حماسه الشخصي إلا بعدما أَلَمَّته يده.

- أيها السيدات والسادة...

فكر لاري: «نحن نحیی أنفسنا، نحیی كوننا هنا، أحياء، معًا. نحیی بولدر وإرادتها».

- أيها السيدات والسادة.. اجلسوا لو سمحتم. أقدر شعوركم الجارف...

قل التصفيق تدريجيًا، ووضحتُ أصوات شهقات البكاء وانسداد الأنوف.

- أنا مسرور لوجودكم هنا. أنا مسرور لوجودي هنا شخصيًا.

همهم الحضور استجابةً، فأكمل ستو: «إنه شيء رائع لعين...»، تردد الصوت من السماعه فضحك الناس، فاحمرت وجنتا ستو وهو يضيف: «يبدو أننا سنعتاد رَجْع الصوت هذا...» فصفق الحضور.

- لمن لا يعرفني. أنا ستورات ريتمان، من أرنيث، تكساس. مكان بعيد جدًا عن هنا، لكنَّ دعوني أخبركم...

صَفَّرَ رَجْع الصوت مرة أخرى من السماعه فابتعد ستو خطوة عن مكبر الصوت، وأكمل: «أنا مضطرب للغاية، لذا تحملوني...».

هتف هاري دانبارتون: «سنتحملك يا ستوا»، وانفجروا في الضحك. فكر لاري في أن هذا لقاء في مخيم كنسي، وسوف يبدأون في غناء الترانيم قريبًا. لو كانت الأم أباجيل هنا لفعلوا...

- لو صبرتم معي، سأتكلم على الفور.. أولاً، يجب أن أوضح بعض الأمور عن اللجنة الطارئة، وسبب وجودي هنا. خطط سبعة منا لإقامة هذا الاجتماع، وأودُّ أن أقدم أعضائه إليكم، فادخروا لهم بعض التصفيق... قدّم ستو الأعضاء واحدًا تلو الآخر، وألقى مزحة هنا، ومجاملة هنا حتى قدّم لاري الذي تلقى هتافًا وتحيّةً تمنى لو تلقاها في حفل غنائي يغني فيه «هل تفهمين رجلك». كان نك صاحب أكبر تحية وهتاف.

- أعرف أن هذا ليس ضمن مخطط الاجتماع، لكنه طلب خاص. أتمنى أن نقف لحظات ننشد فيها السلام الوطني الأمريكي. أعتقد أننا نتذكر الكلمات بعد.

وقف الجميع ينشدون، وانتقل لاري من المسرح إلى ذكرى أبعد، إلى فيرمونت، صباح يوم الرابع من يوليو، يوم ماتت ريتا بقم ممتلئ بالقيء الأخضر.

ارتعد جسده وشعر كأنما هو مُراقب.. يراقبه كيان معتم خبيث على بعد أميال. شعر برغبة مُلحة في الفرار من المكان كله. هذه ليست لعبة يلعبونها في قبو منزل صديق، بل عمل جاد، عمل قاتل وربما ما هو أكثر.

اختلط غناء الحشد بالبكاء. البكاء على مَنْ فقدوه، على الحلم الأمريكي الضائع ذي الإطارات اللامعة ومحرك البنزين الهادر...

انتقلت به الذكريات إلى يوم حضر مباراة اليانكيز في الاستاد، حيث كان كل شيء ممكنًا. خمسة آلاف وخمسمائة متفرج... لاعبون أشداء يقفون وسط الملعب الأخضر المتسع، يضمون قبعاتهم إلى صدورهم وينشدون باسم أمريكا. الأصوات تعلو وتهدر في قلب نيويورك، مدينة الليل والأضواء...

انتهى النشيد، واشتدَّ التصفيق، فوجد نفسه يبكي.. لقد ضاعت ريتا.. وضاعت أليس أندروُد.. وضاعت نيويورك... وضاعت أمريكا. حتى لو هزموا راندال فلاج، لن يستطيعوا استعادة العالم القديم بشوارعه المظلمة وأحلامه المضيفة.

قرأ ستو حقَّ الحضور في قراءة الدساتير والقوانين المذكورة في مخطط الاجتماع، لكن لم يكثرث أحد لقراءتها حقًا ولم يطالبه أحد بتلاوتها عليهم، فشعر ستو بالعرفان، خاصة وهو يتصعب عرقًا تحت ضوء المصابيح على المسرح.

صدَّق الحضور على البَند الأول، وهدرت القاعة: «موافقة!»، حتى إن كوجاك الراقِد أمام منزل جِلِن، رفع رأسه متسائلًا عن مصدر الصوت، ثم استرخى مرة أخرى. بعد قليل رفع رأسه مجددًا والقاعة تضجُّ بالموافقة على البند الثاني، ثم يتبعون ذلك بتصفيق حاد.

فكَّر ستو في أن ضجيجهم هذا يُشعرهم أنهم أخيرًا قادرون على التحكم في مسار شيء، وليعلم الله شدة حاجتهم إلى هذا الشعور.

وصل إلى بند ترشيح سبعة أعضاء لمجلس النواب، فازداد قلقه من وقوع مشادات. قرأ النص، فسمع صوتًا يهتف: «أيها العضو الموقر؟».

رفع رأسه إلى الصوت وقد شعر بنذير خطر. صاحب الهاتف هو هارولد لودر، الذي يرتدي بذلة وربطة عنق، ويقف في منتصف الممر. ذكر جِلِن في مرة أن المعارضين سيلتفون حول هارولد. لكن، بهذه السرعة؟ تمنى ستو أن يكون مخطئًا. فكر لحظة في تجاهله، لكنَّ جِلِن ونكَّ حذراه من قبل من مغبة التجاهل عامة. تساءل أكان هارولد حاول حقًا فتح صفحة جديدة. سيعرف الإجابة الآن...

- تفضل يا سيد هارولد لودر.

التفتت الرؤوس نحوه ليروا وجهه. قال هارولد بصوت واضح: «أقترح أن ننتخب أعضاء اللجنة الطارئة لعضوية مجلس النواب الدائم».

هتف أحدهم موافقًا، وملأ هتاف الاستحسان المسرح. جلس هارولد راضيًا، والناس تربت كتفيه تشجيعًا.

لقد خطَّط هارولد لكل هذا. سوف ينتخبنا الناس، لكنهم سيتذكرون هارولد. أعترف أنه تعامل مع الأمر على نحو لم يتوقعه أحد حتى جِلِن. يا لها من ضربة استباقية عبقرية.

لماذا قد يتضايق؟ هل يغار منه مثلًا؟

- قُبِلَ مقترح انتخاب أعضاء اللجنة الطارئة أعضاءً للجنة النواب الدائمة، باسم لجنة مجلس نواب المِنطَقة الحرة. قبل أن أكمل، أريد التأكيد من موافقة أعضاء اللجنة على انتخابهم.

صمت.

- عظيم.

رفع تشارلي إمبنينج ذراعه ليتكلم، لكنَّ ستو تجاهله. كان جِلن بيتمان ليصف تصرفه بأنه حالة واضحة من الإدراك الانتقائي.

- من يوافق على المقترح، ينطق بالموافقة.

ضجَّت القاعة: «موافقة!».

- هل من معارض؟

لم يعترض أحد -على الأقل صوتيًا- حتى تشارلي. انتقل ستو إلى البند التالي، هو يشعر بذهول من تلقى ضربة بمطرقة -مطرقة هارولد لودر- على مؤخرة عنقه.

قالتُ فران بصوت مرهق: «لنترجِّل وندفع الدراجات قليلًا».

ترجل عن دراجته ومشى إلى جوارها. سألها: «هل أنت بخير؟ الجنين يتعبك؟».

- لا. أنا فقط مرهقة. الساعة الواحدة إلا ربع صباحًا، ألم تلاحظ؟

قال ستو: «نعم.. تأخر الوقت».

استمر الاجتماع حتى ساعة مضت، ودارت أغلب نقاشاته حول فريق البحث عن الأم أباجيل. باقي البنود مرَّت بلا نقاش، إلا ما قاله القاضي فاريس عن تفسيره لقلة الجثث قي بولدر. قال إن آخر إصدارات جريدة بولدر المحلية تحدَّث عن شائعة قوية تقول بأن الإنفلونزا الفائقة طُوِّرت في منشأة بولدر لاختبار الهواء، واحتجَّ ممثلو البلد على شائعة كهذه، وطالبوا المتشككين بأن يأخذوا جولة في المنشأة ويفحصوها بأنفسهم، حيث لن يجدوا فيها إلا أجهزة قياس التلوث وقياس سرعة الرياح. رغم ذلك، استمرت الشائعات وغذَّتْها أحداث أواخر يونيو. احترق مركز اختبارات الهواء أو قُذِف بالصواريخ، وفر أغلب سكان بولدر.

بدا أن هارولد مستعداً لهذا الاجتماع وجهاز ما سيقوله لتشجيع الحضور على التصديق على مقترحاته، حتى اقترح الناس أن يزيد عدد كل لجنة فردين مع كل زيادة مقدارها مائة شخص من تعداد المنطقة الحرة.

صَوَّت الحشد لمصلحة تكوين فريق بحث عن الأم أباجيل بلا اعتراض، لكنَّ نقاش رحيلها نفسه هو ما استهلك الوقت. طلب جِلن من ستو ألا ينهي النقاش حول المسألة الأخيرة إلا للضرورة القصوى؛ الأهالي قلقة، خاصة وقد اعترفت قائدتهم الروحانية في خطابها أنها أذنبت. الأفضل أن يتركوا لينفُسوا عما في صدورهم.

على ظهر رسالتها، كتبت العجوز عبارتين: الأمثال 11: 1-3. الأمثال 21: 28-31. بحث القاضي فاريس عن تلك الآيات بحرص محامٍ يُجهَّز عريضته، وقام ليقرأها بصوته المهيّب.

«موازين غشٍّ مكرَّهة الرب، والوزن الصحيح رضاه. تأتي الكبرياء فيأتي الهوان، ومع المتواضعين حكمة. استقامة المستقيمين تهديهم واعوجاج الغادرين يُخربهم».

«شاهد الزور يهلك والرجل السامع للحق يتكلم. الشرير يوقَّح وجهه، أما المستقيم فيثبَّت طريقه. ليس حكمة ولا فطنة ولا مشورة تجاه الرب. الفرس مُعدٌّ ليوم الحرب، أما النصره فمن الرب».

الحديث الذي تلا خطبة القاضي (لا يمكن تسميتها إلا خطبة) كان هزلياً. قال واحد منهم إننا لو جمعنا أرقام الإصحاحات لحصلنا على رقم 31، وهو نفس عدد إصحاحات سفر الرؤيا. عارضه القاضي بقوله إن عدد إصحاحات سفر الرؤيا اثنان وعشرون فقط، بالإضافة إلى أن $21 + 11 = 32$ ، لا 31. فغمغم المؤمن بخبايا الأرقام ولم يعقب.

زعم آخر أنه رأى نوراً في السماء ليلة اختفت الأم أباجيل، هذا وقد أثبت النبي إشعياء وجود الأطباق الطائرة.. لذا الأفضل أن يضعوا الأمر في حسابانهم، أليس كذلك؟ قام القاضي فاريس مرة أخرى ليقول فقط أن الرجل قد خلط بين إشعياء وحزقيال، وأن الآيات لم تتكلَّم عن الأطباق الطائرة، بل عن (بَكْرَة وسط بَكْرَة).

ثم تحدث الجميع عن الأحلام، وعن ظلم الأم أباجيل لنفسها باتهامها أنها ارتكبت خطيئة. حكوا عن أخلاقها وكرمها وقدرتها على امتصاص قلق

الجميع. قال رالف أخيرًا وقد انعقد لسانه حزنًا طَوَالَ النقاش، إن الأم أباجيل هي أظهر امرأة عرفها منذ وفاة أمه...

بدت النقاشات بالنسبة إلى ستو كأنها رثاء لها، وقد آمنوا في قلوبهم أنهم لن يعثروا عليها، إنهم الآن في حالة صحوة. لو عادت أبي فريمانتل الآن، لرحبوا بها وأنصتوا لها، لكنها لن تعود إلى سابق مكانتها. لقد رحلت، واستمر المجتمع الجديد، ولن ينسى أحد هذا، بل إنهم على وشك نسيان قوة الأحلام وتأثيرها في حيواتهم.

بعد انتهاء الاجتماع، تفرق الناس، وتوقفت الأمطار. جلس البعض يتناجون وراء المبنى، فيما اجتمع ستو وفراني ولاري ولوسي وليو وهارولد أمام المسرح.

وكز لاري فراني وهو يهتف مازحًا: «لقد ورطتنا يا رجل! ألم أخبرك يا فراني؟ إن للرجل حضورًا كاسحًا!».

ابتسم هارولد بالكاد وقال في تواضع: «مجرد أفكار بسيطة. أنتم السبعة من بدأت هذا التغيير، ولكم الأحقية في أن تشهدوا ما سيسفر عنه في النهاية». والآن، وبعد خمس عشرة دقيقة، تسير فراني برفقه ستو. كرر ستو: «هل أنت بخير؟».

- نعم. ساقاي مُتعبتان فقط.
- هُوَني على نفسك يا فرانسييس.
- أنا أكره هذا الاسم.. لا تنادني به.
- حسنًا، آسف.. لن أكرر هذا يا فرانسييس.
- كل الرجال أوغاد.

نظر ستو إليها ولم يعد يرى فراني المتحمسة التي كانت تنشد السلام الوطني من ساعات.

- ماذا بك يا حبيبتي؟ ما الذي يضايقك؟
- هزت رأسها، لكنه لمح دموعًا في عينيها.
- ما الأمر؟ أخبريني.
- لا شيء.. هذه هي المشكلة. اللاشيء يضايقني. لقد أدركت أن كل شيء انتهى. أقل من ستمائة شخص ينشدون السلام الوطني، بلا

بائعى شطائر هوت دوج، ولا دَوَّارات ملاهي ولا احتفالات صاخبة في أي مكان من أمريكا. حتى موزعي المُخدَّرات والتمالي والغواني كلهم اختفوا.. لقد رحل الوباء، ورحل معه كل شيء مهما كان بسيطاً أو بغيضاً.. العلاج أقسى من المرض أحياناً، أليس كذلك؟

- أفهمك.

- كتبتُ في مذكراتي أموراً لتذكركها.. خصصتُ هذا الجزء للتفاصيل التي لن يعرفها ابني أبداً. التفكير فيها يؤلمني. كان الأفضل لو سميتها (أمور لن تعود).

توقفتُ فراني وقد غلبها البكاء. أحاطها ستو بذراعه وقال: «كلنا يشعر بالألم ذاته. أراهن على أن أغلب الأهالي سيكون الليلة حتى يناموا».

قالت وهي تنخرط في بكاء أقوى: «لا أعرف كيف يحزن المرء على بلد كامل. لا تفك تلك التفاصيل الصغيرة تهاجمني. مندوبو المبيعات.. فرانك سيناترا.. شاطئ أوركارد القديم في نهاية يوليو حين يكتظ بالناس وكلهم من كويبيك.. ذلك السخيف في محطة MTV؛ راندي على ما أتذكر.. أوه.. يبدو كلامي ك... ك... كقصيدة لعينة.. لرود م... م... مكوين!».

ظلت تنتحب وتشهق. ربَّتْ ظهرها وقد تذكر بكاء خالته باتي على الخبز الذي لم يرتفع. كانت حاملاً في ابنها، وتبكي لأي سبب. أخبرته وهي تمسح ركني عينيها بمنشفة المطبخ أن الحامل تكون على بعد خطوتين من عنبر المجانين.

بعد مدة قالت فراني: «أنا أفضل.. هيا».

استكملا دفع دراجتيهما، وتحدثا قليلاً عن ذكرياتهما، وعن رؤيته رجلاً يشبه جيم موريسون وتحدثه معه، إلا أن المغني المذكور كان قد مات منذ أعوام وقتها. كانت هذه من أغرب ذكرياته عن العالم القديم، حيث يمكن أن تُعلن وفاة المرء ثم تجده حياً يعيش في السر في مكان آخر. ذلك العالم الذي لم يجتمع فيه الأحياء في مكانين فقط. وصلا إلى منزلهما، فجلسا على درجة مدخله كتفاً إلى كتف. سألهما فجأة: «كان هارولد مفاجئاً اليوم، أليس كذلك؟».

- نعم، كان كذلك.

ابتسم لنبرة صوتها القلقة، وانعقاد حاجبيها. قال: «ضايكٌ هذا قليلاً، أليس كذلك؟».

- نعم، لكنني لن أقول هذا. أنتَ في صف هارولد الآن.
- هذا ليس عدلاً يا فراني. لقد ضايقتني ما فعل أيضاً. لقد تعبنا وفكرنا وعقدنا اجتماعين سرّيين.. على الأقل هذا ما أظنه، ثم جاء هارولد هذا وأخذ كلمة من هنا وكلمة من هناك وقال: أليس هذا ما يعنيه الأمر؟ وقلنا له: نعم، هذا صحيح. لقد وضع الجميع في موقف انتخاب مفتوح. لماذا لم نفكر في هذا يا فراني؟ هذه عبقرية!
- لأن أينا لم يعرف ماذا ستكون حالة الحشد المزاجية. ظننتهم سيكونون متحفّظين حادين خاصة بعد رحيل الأم أباجيل. هل رأيتَ كيف حاول إمبرينج الاعتراض؟
- لم أتوقّع أن يصمّت بسهولة. لم يجدِ الرجل من يؤازره.
- ليس الأمر كذلك. لقد كانوا مفعمين بالحماس والحبور لكونهم معاً. هل شعرتَ بذلك؟
- نعم شعرتُ.
- كأنهم في اجتماع ديني تقع فيه معجزات الشفاء. لا أظن هارولد قد خطط للأمر، هو فقط اقتنص اللحظة المناسبة.
- قال ستو في حيرة: «أنا عاجز عن تحديد شعوري تجاهه. تلك الليلة التي شارك فيها معنا في البحث عن الأم أباجيل، شعرتُ بالذنب العظيم تجاهه. لقد بدا ممتنعاً محبباً كأنه سيفقد الوعي. لكن عندما كنا نتكلم خارج المسرح منذ قليل، شعرتُ به ينتفخ كرقبة الضفدع. كان يبتسم من الخارج، ومن الداخل يقول: هل رأيتم حقيقة لجنتكم أيها الحمقى؟».
- مدت فراني ساقها ونظرت إليهما وهي تسأله: «هل من شيء غريب بخصوص قدمي؟».
- لا شيء سوى أنك ترتدين ذلك الحذاء المُسطح العجيب.. للصراحة، قدماك كبيرتان حقاً.
- أولاً الأحذية المُسطحة مفيدة لصحة الساقين. ثانياً مقاسي 7، وهو مقاس يعتبر صغيراً بالمناسبة.
- ما علاقة قدميك بما نقول على أي حال؟

- لقد ظل هارولد يحدق إليهما ونحن جالسون بالخارج بعد الاجتماع.
تُرى ما سبب اهتمامه بهما؟

عاد لاري ولوسي إلى بيتهما مشيًا، بعدما أوصلا ليو إلى حيث يعيش مع
ماما نادين.

قالت له لوسي وهما أمام الباب: «يا له من اجتماع لم أتوقع أن...» توقفت
الكلمات في حلقها وهي تنظر إلى الظلام يحتشد تحت ظلال شرفة منزلها
الخارجية. شعر لاري بالذعر يقفز إلى حنجرتة. فكر: إنه هو. لقد جاء لي..
سأرى وجهه.

ثم تعجّب من أفكاره لأن من يراه الآن نادين كروس. كانت ترتدي فستانًا
باللون الأزرق المائل إلى الرمادي، وشعرها منسدل على كتفها، حالك
بخطوط بيضاء.

فكر لاري: منظرها يجعل لوسي تبدو كسيارة مستعملة في ساحة خردة.
أوقف أفكاره ولام نفسه عليها. هذه أفكار لاري القديم.. لاري القديم، أم أفكار
آدم ذاته؟

قالت لوسي بصوت مرتجف ويدها على صدرها: «نادين؟! أُرعبتني.
ظننتك.. لا أعرف ما ظننته حقًا».

لم تكثرث للوسي، وسألت لاري مباشرة: «هل يمكن أن أتحدث إليك؟».
نظر نظرة جانبية إلى لوسي، أو هكذا ظن، وسألها: «ماذا؟ الآن؟».
لم يتذكر لاحقًا كيف كانت لوسي وقتها، وهل غطى نور نادين الداكن على
وجودها.

- الآن. يجب أن نتكلم الآن.
- يمكن أن نتكلم في الصباح...
- الآن يا لاري، أو لن نتكلم أبدًا.
نظر إلى لوسي ورأى استسلامها وهي تنظر إليه ثم إليها ثم إليه مرة
أخرى. رأى ألمها...

- سأعود على الفور يا لوسي.
- لا، لن تعود على الفور.

تَلَأَلَتِ الدموعُ في عينيها وهي تضيف: «أشك في هذا».

- عشر دقائق فقط.

- عشر دقائق أو عشر سنوات. لقد جاءت لتحصل عليك. هل جلبت معكِ طوقَ الكلب وكمامة خطمه يا نادين؟

بالنسبة إلى نادين، لوسي سوان غير موجودة. ثبتت عينيها الواسعتين الداكنتين على لاري فقط. عيناها أجمل عينين رأهما لاري في حياته. إنهما العينان الهادئتان العميقتان التي تراهما وقت تعبك أو محنتك أو حزنك فتزيل عنك همَّك. قال تلقائياً: «سأعود يا لوسي».

- إنها...

- ادخلي البيت.

- لما كانت قد حضرت، فيجب أن أرحل أنا... مفهوم.

هُرَعَتْ تصعد الدرج، تتعثر ثم تقوم، تفتح الباب ثم تغلق خلفها بعنف فتقطع صوت انتخابها.

نظر لاري إلى نادين طويلاً كأنه مسحور. يحدث شيء كهذا عندما تلتقي عيناك بعيني شخص لا تعرفه بين الحشود، فيختفي كل صوت ووجود من حولك. كأن الشخصَ نسختك، يحجب بوجوده الرؤية والسمع.

لماذا يشعر بهذا الطعم المر في فمه إذن؟

قالت نادين بصوت منخفض: «لنمشِ إلى نهاية الشارع ثم نعد. هل تستطيع فعل هذا؟».

- الأفضل أن أعود إليها سريعاً. لقد انتقيت لحظة غير مناسبة تماماً لزيارتنا.

- فقط إلى نهاية الشارع؟ أرجوك. قد أركع وأتوسل إليك إن كان هذا ما تريد. انظر...

رفعت تنورتها قليلاً وركعت أمام عينيها الذاهلتين. أظهرت له ساقيهما العاريتين فدفعته إلى التساؤل أكان كل شيء أعلاهما عارٍ أيضاً. دار رأسه بنظراتها، وبسلطتها عليه وهي راكعه، رأسها في مستوى...

قال بخشونة: «قومي». أمسك يدها وجذبها لتقوم وهو يتحاشى النظر إلى انكشاف المزيد من ساقيهما البيضاوين بدرجة لونية تضج بالحياة.

مشيا نحو الغرب، تجاه الجبال المتماهية في ظلمتها مع السماء. المشي تجاه تلك الجبال ليلاً يثير مخاوفه، وفضوله.. تزايدت حدة الشعورين وهو يمشي، ويد نادين تتوَكأ بخفة على ذراعه. لقد حلمت أحلاماً متجليةً منذ ثلاث ليالٍ أو أربع بهذه الجبال، وبالجبابرة الذين يعيشون فيها. جبابرة خياليون بجلد أخضر وعينين مُشعّتين ورؤوس متكلسة ضخمة ويدين قويتين. يدي خنّاقين. جبابرة يجوبون الجبال في انتظار اقتراب مواعده.. موعد قدوم الرجل الغامض.

ذكَرته عربات التسوق المصطفة أمام المتجر الضخم بنفق لينكولن. النفق امتلأ بالجبابرة المخيفة الميتة، لكنّ هذا لا يعني أن كل جبابرة العالم الجديد موتى.

همست نادين: «الأمر صعب. لقد صعبت الأمر لأنها مُحِقّة. أريدك الآن، وأخشى أنني تأخرت. أريد أن أبقى هنا».

- نادين...

- لا! دعني أنهي كلامي. أريد أن أبقى هنا. هل تفهم هذا؟ وإن كنا معاً، سأتمكن من البقاء. أنت فرصتي الأخيرة. لقد رحل چو الآن...

قال ببطء وحيرة: «لا، لم يرحل. لقد أوصلناه إلى بيتك في طريقنا. أَلَمْ يصل؟».

- لا. في البيت صبي اسمه ليو روكواي نائم في فراشه.

- عمّ تتحدثين...

- اسمع. اسمعني، ألا يمكنك فقط أن تسمع؟! كنتُ بخير ما دام چو معي. كنتُ قوية من أجله، لكنه لم يعد يحتاج إليّ. أنا في حاجة إلى أن يحتاج إليّ أحد!

- إنه يحتاج إليك!

- طبعاً يحتاج إليّ.

ارتعب لاري مرة أخرى. إنها لم تعد تتكلم عن ليو، ولا يعرف عمّن تتكلم.

- إنه يحتاج إليّ، وهذا ما أخشاه. لذا جئتُ إليك.

وقفتُ أمامه ونظرت إليه برأس مائل قليلاً. شمّ رائحة نظافتها، ورغب فيها، إلا أن جزءاً منه التفتَ تجاه بيته وتجاه لوسي. هذا هو الجزء الذي يعتمد

عليه في بناء نفسه الجديدة في بولدر. لو خضع لها لضاع لاري الجديد، وانتصر القديم.

- يجب أن أعود إلى المنزل. آسف. يجب أن تجدي حلاً لنفسك يا نادين.
يجب أن تجدي حلاً لنفسك.. ألم يكن يلقي بهذه العبارة في وجه كل من عرف في الماضي؟ لماذا تستغل نفسه هذا الماضي الآن لتلوي ذراعه وتهز ثقته بنفسه وقد قال عبارته أخيراً في الموقف المناسب؟

أحاطت عنقه بذراعيها وضغطت جسدها إلى جسده وهمس: «أجبنّي الآن...». شعر من طراوة جسدها أنها فعلاً لا ترتدي شيئاً تحت الفستان، وأثاره هذا إلى أقصى حد.

- أجبنّي الآن وسينتهي كل شيء. سأكون آمنة.. آمنة. سأكون آمنة...
لا يعرف كيف فعلها وهو على هذا القدر من التشتت.. رفع يديه وفكاً تشابك ذراعيها حول عنقه، ودفعها بقوة حتى كادت تسقط.

- لو أنك فقط تعرف يا لاري...
- حسناً، أنا لا أعرف. لماذا لا تخبريني بما لا أعرفه بدلاً من محاولة اغتصابي؟

كررت وهي تضحك بوحشية: «اغتصابك؟ كم أن هذا مضحك! أوه، ماذا قلت؟ أنا؟ أغتصبك أنت؟ أوه يا لاري!».

- أيّاً كان ما أردته مني، فكان في وسعك أخذه الأسبوع الماضي أو الذي قبله أو عندما طلبتُ أنا منك.
همست: «كان الوقت مبكراً جداً...».

- وتأخر الوقت الآن.
كره طريقة كلامه القاسية، ولم يستطع أن يسيطر عليها. كان يرتجف بعد من شدة رغبته فيها.

- ماذا ستفعلين؟ هه؟
- حسناً. وداعاً يا لاري.

استدارت مبتعدة وقد عادت نادين التي عرفها، وها هي تهجره إلى الأبد. هي مُختصة نظافة الأسنان.. هي إيقون التي سأمها فهجرها.. هي ريتا بلاكمور... والأسوأ.. هي أمه.

- نادين؟

استمرت في ابتعادها حتى ذابت في الظلام. نادى اسمها مرات ولم تجبه. شيء مربع في الطريقة التي هجرته بها وكيف ذابت في الظلام هكذا.

وقف أمام المتجر الكبير، قابضاً كفيه، العرق يلمع على جبينه رغم برودة المساء. تحيطه أشباحه الآن وقد عرف الآن أنه يدفع ثمن عدم كونه رجلاً لطيفاً لا يعرف دوافعه ولا يستطيع الموازنة بين المساعدة وجرح الآخرين، ويعجز حتى عن التخلص من الطعم المر في حلقه، ولا...

اتسعت عيناه وقد تسارعت الرياح فجأة فصفرت في أثناء عبورها من خلال الأشجار وفرجات الأبواب، وسمع صوت خطوات تقترب من بعيد. قرع كعبي حذاء يأتي من جهة الغرب.. كعبان مُتربان يخطوان فوق أرض الغرب...

سمعته لوسي يفتح الباب، فقفز قلبها بقوة. منعت نفسها من استنتاج أن عودته لغرض جمع حاجاته. ظلت تكرر أنه قد عاد لها.. وأنه اختارها هي... رغم حماسها وأملها، ظلت راقدة متخشبّة على الفراش ترمق السقف. لقد قالت ما شعرت به حقاً، قالتها نيابة عن كل فتاة مثلها تحتاج إلى الحب. لطالما كانت مخلصّة. لم تخن زوجها ولن تخون لاري.

يجب أن تعفو وتصفح.

انفتح باب الغرفة ورأته يدخل، مجرد ظل في الظلام.

- لوسي؟ هل أنت مستيقظة؟

- نعم.

- هل أضيء المصباح؟

- لو أردت.

سمعت هسيس الغاز ثم أضيء المصباح، فكشف شحوبه وتوتره.

- يجب أن أخبرك بشيء.

- لا، لا تخبرني. تعال ونم.

- لا. يجب أن أخبرك.. أنا...

ضغطت كفه على جبينه، ثم مسح شعره. جلست في الفراش وسألته: «لاري؟ هل أنت بخير؟».

تكلم كأنه لم يسمعها، تكلم دون أن ينظر إليها: «أنا أحبك. لو أنك تريدني، فقد حصلت عليّ. ولا أعرف حقاً أكنتِ تحصيلين مني على ما يكفيكِ. أعرف أنني لن أكون أفضل رهان لك».

- سأجرب حظي.. تعال...

فذهب إليها، وعندما انتهيا من ممارسة الحب، أخبرته أنها تحبه، وكانت صادقة بحق. بدا لها أن هذا ما أراد أن يسمعه، بل واحتاج إلى سماعه.

استيقظت قرب الفجر، ورأته (أو حلمت أنها رأته) يقف أمام النافذة بوجه مرهق مهموم، ويميل رأسه كأنه ينصت إلى صوت بعيد. لكن في الصباح صارت متأكدة من أنها حلمت بما رأته، فقد كان لاري طبيعياً وكما عرفته من قبل.

بعد ثلاثة أيام، سمعت من رالف برينتنر أن نادين انتقلت لتعيش مع هارولد لودر. اكفهر وجه لاري لحظة ثم عاد إلى طبيعته. نبأ رالف جعل لوسي ترتاح، وبدا لها أن الخطر قد زال.

عادت إلى بيتها بعدما تركت لاري. أشعلت المصباح وأضاءت غرفة الصبي. كان تريد التأكد من أنها أخبرت لاري بالحقيقة، وتأكدت.

ليو نائم وسط فوضى من الملابس والأغطية، لا يرتدي إلا سرواله الداخلي. اختفت أغلب آثار الجروح من جسده، وبهتت سمرة التي اكتسبها من التجوال عارياً. لكن الأمر أكبر من هذا. شيء في وجهه قد تغير، وتراه حتى وهو نائم. لقد اختفى تعبير وجه الهمجي الأخرس عن ملامحه، ولم يعدّ جو نفسه الذي عرفته. ما هو إلا صبي نائم بعد يوم مرهق.

فكرت في الليلة التي كانت نائمة فيها واستيقظت فلم تجده إلى جوراها. تبعته يومها إلى حيث نام لاري في الشرفة الخارجية، وأنقذت الأخير من سكين الصبي.

ارتعشت يد نادين التي تمسك المصباح من الغضب. كانت لتتركه يقتله! كانت لتفتح للصبي الباب وتدعه يطعنه ويمزق أحشاءه. كانت لـ...

أن الصبي وانقلب على ظهره. رفع ذراعه كأنما يبعد شيئاً يراه في حلمه. تراجعت نادين وصداها ينبضان. شيء غريب بعد في الصبي، ولا يروق لها كيف انقلب وتحرك، كأنه كان يتلصص على أفكارها.

يجب أن تكمل مخططها، وتسرع في ذلك.

عادت إلى غرفتها الخالية من أي تفاصيل. مجرد فراش وبساط وخزانة. فتحت الخزانة وجثت تبحث عن شيء في القاع، حتى أخرجت صندوقاً أصفر فاقع اللون، منقوش بصورة أشخاص يلعبون لعبة عمرها على الأقل ثلاثة آلاف سنة.

لقد وجدت لوح اللعب والمؤشر في متجر عاديات في وسط البلدة، ولم تجرؤ على تجربته والصبي هنا. الحقيقة أنها لم تجرؤ على تجربته من الأساس.. حتى الآن. عندما رأت اللعبة في المتجر أخذتها دون تفكير. أصابها الاضطراب والرعب وقتها كما أصابها الآن. كانت تشعر بأمرين في الوقت ذاته، تريد أن تفر من المتجر، وتريد أن تأخذ الصندوق المخيف الغريب. أرعبتها الرغبة الأخيرة أكثر لأنها لم تكن نابعة منها.

أخذت الصندوق أخيراً. كان هذا منذ أربعة أيام، وفي كل ليلة تتزايد رغبتها في تجربتها، حتى اليوم، ودفعها الجنون الذي لم تفهمه أكثر. هكذا ارتدت فستانها ولا شيء تحته، وقررت أن تذهب إلى لاري وتنتهي مخاوفها إلى الأبد. انتظرت عودتهما من الاجتماع، وهي مؤمنة أنها اختارت الطريق الصحيح. اجتاحتها تلك الشعور اللذيذ المخدر الذي لم تشعر به منذ مطاردة الحقل ندي الحشائش في مراهقتها. لو لحق بها الصبي لتركت نفسها له. لتكونن هذه هي النهاية.

إلا أنه الليلة لحق بها، ولم يرغب فيها. لقد أضرمت فيها نيران الازدراء، ولا مفر للمرأة المزدراة إلا الشيطان.. أو وكيله.

صرخ الصبي في نومه فأفزعها. أخذت الصندوق وكشافتها كبيراً وخرجت إلى دراجتها البخارية التي ركبته إلى بيت هارولد لودر منذ أيام. لماذا ذهبت إليه؟ إنها لم تتبادل معه أكثر من بضع كلمات منذ وصلت إلى بولدر. لكن في غمار ضغط لوح اللعب عليها والأحلام التي تطاردها حتى بعدما توقف الجميع عن رؤيتها، لم تجد مخرجاً إلا الحديث عنها مع هارولد الكتوم. خشيت من مغبة قرارها هذا، لكنها نفذته.. كأن إرادة خارجة عن عقلها، أو شيئاً دفعها إلى فعل ذلك. ربما هذه إرادته هو.

ذهبت إلى بيت هارولد فوجدته مغلقاً وهو ليس فيه. هذا هو البيت الوحيد المغلق مُسدل الستائر في بولدر. راق لها هذا، وشعرت بإحباط كونه غير موجود. لو كان هنا لرحب بها وأجلسها في غرفة المعيشة وأنصت إليها، أو ضاجعها أو فعلا ما لا يقال معاً، وما كان أحد ليعرف بشيء من كل هذا.

لبيت هارولد خصوصيته.

همستُ لنفسها في الظلام: «ما الذي يحدث لي؟»، ولم يُجبها الظلام. ركبت الدراجة وانطلقتُ إلى الغرب. الهواء البارد يُنعشها. هل تعرف ماذا ستفعل لو حُرمتُ من كل الخيارات؟ ستختار ما ستجده. ستختار ما يريده لك الظلام.

ستغامر.. ستغامر بأي شيء. على الأرجح ستغامر بنفسك.

تنتقل إلى السرعة الثانية وهي تصعد الطريق المنحدر إلى الجبال الحالكة. دُعهم يعقدوا اجتماعاتهم، دعهم يركزوا طاقتهم على استعادة الكهرباء، فيما يركز حبيبها على العالم.

تهتز الدراجة من تحتها.. تُستثار.. (لماذا أنت مستثارة يا نادين اللعوب...؟) الطريق يصعد ويصعد، تصل إلى نقطة اللاعودة. إنها الآن حرة...

بعد ساعة وصلتُ إلى مسرح سَنرايز المكشوف، والشروق على بُعد ثلاث ساعات أو أربع. المسرح المكشوف قرب قمة جبل فلاجستاف، وكل من في بولدر خيمَ هناك قبل أن يصل إلى البلدة. يمكنك أن ترى من الأعلى في يوم صافٍ مدينة بولدر وطريق 25-1 يمتد إلى الجنوب نحو دينفر، ثم إلى نيو مكسيكو على بعد مائتي ميل من الأخيرة. في الشرق أراضٍ منبسطة تمتد نحو نبراسكا، وقرب السَّفح وادي بولدر الأشبه بجرح غائر محاط بأشجار الصنوبر والتنوب. في فصول الصيف الماضية كانت السماء فوق المسرح المكشوف تمتلئ بالطائرات الشراعية التي تجوب التيارات الدافئة.

لا ترى نادين الآن إلا ما يضيئه الكشاف ذو البطاريات الست، الذي وضعته على المنضدة قرب المنحدر. إلى جواره لوحة اللعب البيضاء، فوقها المؤشر الخشبي المثلث المثبت في قاعة قلم يمس اللوحة بخفة. نادين في حالة محمومة، هي خليط من الانتشاء والرعب. تشعر الآن بما شعر به هارولد في نيدرلاند. تشعر به كأنه طاقة غامضة عابرة للحدود. ما الجبال أمامها إلا مِنطَقة اللابشر بين قوتين متضادتين؛ فلاج في الغرب، والعجوز في الشرق، والسحر هنا يبحر بين الطرفين، يختلط، يخلق ماهيته الخاصة التي لا تنتمي إلى الرب ولا إلى الشيطان، بل سحر وثني خالص. شعرت كأنها في مكان مسكون...

والمؤشر.. إنه أداة بسيطة تستطيع تأدية وظيفتها؛ فتح باب، غلق نافذة، كتابة اسم.

مع مَنْ ستحدث الآن؟ هذا هو السؤال.

تتذكر المرة التي استخدمت فيها لوح الويجا والمؤشر أيام الدراسة الجامعية. كان هذا منذ أكثر من ستة أعوام.. أو ربما كان بالأمس فقط. كانت قد صعدتُ إلى زميلتها في السكن الجامعي لتسألها عن بحث مطلوب منهم، فوجدتها مع صديقاتها يلعبن باللوح والمؤشر ويضحكن. يقال إن المؤشر يتحرك استجابة لانتفاضات مستخدميهِ العضلية. تلك الحركات غير المحسوسة التي تسري من الأصابع التي تلمس المؤشر فتحرّكه ليكتب ما يريده اللاعبون ولو على مستوى اللاوعي. يزعم الوسطاء الروحانيون طبعاً أن الأشباح هي ما يحرك المؤشر.

لعبتِ الفتيات بحضور نادين، ضحكن واتهمن بعضهن بالعبث برسائل الأرواح المشاكسة. قبل أن ترحل نادين، طلبتُ منها زميلتها ريتشل أن تجرب المؤشر مرة لترى ما ستقوله لها الأشباح. تحجبت بالذاكرة، لكن انتصرت إرادة الفتيات في النهاية...

تنظر الآن إلى المؤشر في ضوء الكشاف. تسمع صوت الفتيات يخبرنها أنها مجرد لعبة، وما الذي يمكن أن يحدث في حضور فتيات مرحات ضاحكات مثلهنّ؟

قالت ريتشل يومها: «صمتاً.. أيتها الأرواح.. هل لديك رسالة لأختنا الجميلة نادين كروس؟».

لم يتحرك المؤشر، فشعرت نادين ببعض الحرج. ترددتِ الضحكات. تساءلت نادين أكانت الفتيات سيُحرّكن المؤشر ويمازحنها أم سيتجاهلنها.. قررت نادين أنها ستحرك هي المؤشر بطرف إصبعها ما لم تفعلها إحداهنّ وتصرّح بما تحمله لها من مزاح قد يموت ثقيلاً.

كادت تدفع المؤشر لتكتب كلمة مازحة، لولا تحرك بسرعة مخلفاً خطاً أسود على اللوح. سألت ريتشل: «مهلاً.. هل دفعته يا نادين؟».

- لا.

- چيني؟

- لا.. حقاً.

تحرك المؤشر مرة أخرى من تحت أصابعهنّ وانطلق إلى الركن الأيسر من اللوح. هتفت نادين: «ويلي.. هل تشعرن...».

شعرت الفتيات بما شعرت نادين به، لكنهنّ لم يتكلمن بالأمر بعدها، ولم تعد نادين مُرحبًا بها في حجراتهنّ بعد الليلة. اهتزّ المؤشر تحت أصابعهنّ كأنه محرك سيارة، هذا نوع حركة لا يمكن لأحد أن يتصنّعه. ارتعبت الفتيات، وارتسمت على وجوههنّ ملامح من يحضرون جلسات تحضير أرواح على سبيل المزاح، ويحدث ما لا يتوقعونه فيها؛ تهتز المنضدة، أو ينطلق صوت دقات من الحائط، أو تسيل مادة رمادية من أنف الوسيطة الروحانية. سيخاف الحاضرون ويتمنون لو يتوقف ما يحدث، رغم ذلك، سيتمنون لو يستمر.

هتفت الفتاة ذات الوجه الطويل: «توقفي! توقفي الآن وإلا ندمت!».

صرخت الفتاة ذات النظارة والمدعوة جيني: «النجدة! لا أستطيع إبعاد أصابعي عن المؤشر!».

في اللحظة نفسها أدركت نادين أن أصابعها ملتصقة فعلاً بالأداة المثلثة. قالت ريتشل بصوت حازم: «كفي الآن.. من...».

فجأة كتب اللوح بحروف كبيرة خشنة: نادين نادين نادين نادين أريد نادين أن تكون نادين أن تحبني نادين أن تكون ملكتي نادين لو أنك أنك أنك طاهرة لي لو أنك نقية لي لو أنك لو أنك لو أنك مية لي مية أنت. انطلق المؤشر مرة أخرى من بداية الصفحة، يسحب أذرعهن معه ليكتب: أنت مية مع الباقيين أنت في كتاب الموتى مع الباقيين نادين مية معهم نادين تتعفن معهم ما لم ما لم.

ثم توقف المؤشر عن الحركة. تنفست نادين الصُعداء ظناً أن الأمر انتهى. قبل أن تنطق أي منهنّ، صرخت ريتشل وسحب المؤشر أيديهن إلى بداية سطر جديد.

العالم العالم قريباً العالم ميت ونحن نحن نحن نادين نادين أنا أنا أنا نحن نحن نحن في منزل الموتى نادين.

خطّ المؤشر خطاً طويلاً سميكاً خلال اللوح ثم سقط على الأرض ساكناً. صرخت الفتيات حتى جاءت مشرفة الطابق لترى ما يحدث، وطلبت مساعدةً طبيةً للفتيات المنهارات. سألتها ريتشل بعدما هدأت الأمور وانصرفت الفتيات كل إلى غرفتها: «مَن كان هذا يا نادين؟».

أجابت نادين صادقة: «لا أعرف».

- أنت لا تعرفين صاحب الخط؟

- لا.

- حسنًا، لتأخذي هذه الرسالة من العالم الآخر أو أيًا كان، وترحلي إلى غرفتك.

- أنتِ مَنْ طلب مني اللعب! كيف لي أن أعرف ما سيحدث؟ لقد شاركتكِ من باب الأدب!

احمرَّ وجه ريتشيل، واعتذرتُ لنادين، لكنَّ نادين لم تقترب من الفتاة بعد ذلك رغم كونها من أقرب زميلاتِها لها خلال أول ثلاثة فصول دراسية لها في الجامعة.

من وقتها وحتى الآن، لم تمسَّ ذلك المؤشر.

بقلب مضطرب، جلست نادين إلى المنضدة ولمستُ جانبيين من جوانب المؤشر الثلاثة بأطراف أصابعها، فشعرت بالحركة تحت أناملها على الفور كأنها تلمس محرك سيارة. لكنَّ مَنْ القائد؟ من يكون حقًا؟ مَنْ سيركب ويغلق الباب ويضع يديه المُسمرتين من الشمس على المقود؟ من سيضغط مكبح الوقود بحذائه المُترَّب عالي الرقبة، حذاء راعي البقر، ويأخذها إلى... أين؟

نادين بلا عون ولا أمل ولا نجدة، تجلس وحيدة، تشعر بأنها على حدود شيء ما. نظرت إلى الشرق، فشعرتُ بوجوده يأتي من خلفها، يضغط عليها، يُثقلها. وجود فلاج القاتِم يتشكَّل تدريجيًّا...

همستُ بكلمة واحدة، كأنها تعويذة استدعاء لكل الكيانات الخبيثة التي...
«أخبرني...»

وبدأ المؤشر يكتب من تحت أصابعها...

الفصل الرابع والخمسون

من محضر اجتماع لجنة المنطقة الحرة الدائمة
19 أغسطس 1990

أقيم هذا الاجتماع في شقة ستو ريتمان وفران جولد سميث بحضور كل أعضاء اللجنة.

هنا ستو ريتمان على عضوية اللجنة الدائمة، واقترح إرسال خطاب شكر إلى هارولد لودر، موقع من كل عضو، ووافق الأعضاء على المقترح دون نقاش.

ستو: «سُنهي الحديث عن الأمور القديمة أولاً، ثم.. لدى جِلن بيتمان مقترحان لا أعرفهما، لكنني أشك في أن لهما علاقة بالاجتماع العمومي التالي. أليس كذلك يا بيتمان؟».

جِلن: «سأنتظر دوري».

ستو: «هل تعرف الفرق بين السكران وأستاذ الجامعة؟ أستاذ الجامعة ينتظر دائماً دوره كي يأكل آذاننا بثرثرته».

جِلن: «أشكر على قطوف الحكمة هذه».

قالت فران إنها ترى جِلن وستو يمضيان وقتاً لطيفاً معاً، لكنها تريد أن تعرف متى سيبدأ الحديث عن العمل. قوبل سؤالها بضحك أكثر مما يستحق. الأمر الأول المطروح للنقاش هو جواسيسنا في الغرب. تقرر سابقاً طرح على الأمر على المرشحين؛ القاضي وداينا وتوم كولينز، على أن يطرح عليهم

الأمر من رُشِّحَ أسماءهم.. سيسأل لاري القاضي فاريس، وسيسأل نك توم كولين، وستسأل سوزان داينا.

قال نك إن مناقشة الأمر مع توم قد تستغرق عدة أيام، وسأل ستو عن موعد إرسالهم. قال لاري إنهم لن يُرسلوا معًا وإلا غامرنا بانكشاف أمرهم معًا، وأكد إخفاء أسماء المرشحين عن بعضهم كي لا يثرثروا. أعربت فران عن قلقها مما قد يفعله بهم الرجل في الغرب.. إن كان رجلًا.

جلن: «لو كنتُ مكانك يا فران ما كنت لأتشاءم. لو اعترفنا ولو بقدر قليل من الذكاء لخصمنا، فسيعرف أننا لم نعطِ عملاءنا -يمكننا تسميتهم عملائنا الآن- أي معلومات حيوية تهمه، لذلك لن ينفعه تعذيبهم في شيء».

فران: «هل تقول إنه سيربّت رؤوسهم ويطلب منهم ألا يفعلوا هذا ثانية؟ قد يعذبهم لأنه يحب التعذيب لا أكثر. ما قولك في هذا؟».

جلن: «أعتقد أنني لا أملك ما أقول».

ستو: «لقد قررنا فعلًا يا فراني. كلنا وافقنا على إرسال أشخاص منّا إلى الخطر، ونعرف جميعًا أن قرارًا كهذا ليس سهلًا».

اقترح جلن أن نوافق على هذا الجدول الزمني: سيذهب القاضي فاريس يوم السادس والعشرين من أغسطس، وداينا يوم السابع والعشرين، وتوم يوم الثامن والعشرين، ولن يعرف أيُّهم بشأن الآخرين، وسيتخذ كل واحد منهم طريقًا مختلفًا. أضاف أن هذا سيمنحنا وقتًا يكفي للتعامل مع توم.

قال نك: إن توم الوحيد الذي سيعرف موعد عودته بناء على ما سيُزرع في عقله في أثناء جلسة التنويم بالإيحاء، أما الآخرون فسُيترك لهم تحديد موعد العودة بناء على حُكمهم على الأمور. يجب أيضًا إضافة تقلبات الجو إلى المعادلة. قد ينزل الثلج على الجبال في أول أكتوبر، فاقترح نك أن نطلب منهم ألا يقضوا في الغرب أكثر من ثلاثة أسابيع.

قالت فران إن في وسعهم الاتجاه إلى الجنوب لو نزل الثلج مبكرًا، واختلف معها لاري مشيرًا إلى أن سلسلة جبال سانتييري دي كريستو ستعترض الطريق إلا لو داروا من حولها من داخل حدود المكسيك، ولو فعلوا ذلك لما عادوا قبل الربيع. اقترح لاري إرسال القاضي في وقت مبكر أكثر، وليكن يوم الحادي والعشرين من أغسطس، بعد غد.

انتهى النقاش حول موضوع المُستطلعين أو الجواسيس أو أيًا كان اسمهم.

طلب جِلن أن يتحدث، وأنا أكتب هنا نقلًا من التسجيل الصوتي:
جِلن: «أقترح إقامة اجتماع عمومي آخر يوم الخامس والعشرين، ولديّ بعض الأمور لطرحها فيه. كنا نظن أن سكان بولدر في حدود ستمائة شخص، حسبما سجل رالف في دفاتر الوافدين، لكننا رأينا جميعًا أن الحضور في الاجتماع قد ملأوا مقاعد المسرح الستمئة وتكدس الكثير في الممرات وخلفية المسرح، لذا أولًا نريد إحصاءً دقيقًا لعدد سكان بولدر، لذا أقترح تشكيل لجنة تعداد».

رالف: «يا لي من متخلف! هذا خطأي!».
جِلن: «لا ليس خطأك. أنت تتحمل مسؤوليات كثيرة يا رالف، وكلنا نتفق على أنك لم تقصر في أيها...».
لاري: «أنا أؤيد كلامك».

جِلن: «...ستزداد مهمة إحصاء الوافدين صعوبة يا رالف، خاصة بعد رحيل الأم أباجيل. لم يعد من مكان يجتمعون فيه فور وصولهم فنحسبهم». عززت فران جولد سميث إضافة مقترح تشكيل لجنة تعداد وطرحه في اجتماع يوم الخامس والعشرين.

لاري: «لا مانع لديّ إن كان للأمر أهمية عملية الآن. لكن... أليس أماننا أمور أهم ننشغل بها بدلًا من ممارسة بعض البيروقراطية الحمقاء؟».
فران: «أنا أرى للأمر أهميةً عمليةً الآن يا لاري. لو كان جِلن، محققًا، فنحن في حاجة إلى اختيار مكان أكبر للاجتماع التالي. لو وصل العدد إلى ثمانمائة وقت الاجتماع فلن نتمكن من تكويمهم في قاعة تشاوتاوكوا».
سوزان: «إذن أين سنقيم الاجتماع؟».

جِلن: «مهلاً! لم نُجمع بعد على الموافقة على مقترح اللجنة».
جاء التصويت 7-0 لمصلحة وضع مقترح لجنة التعداد في مخطط الاجتماع العمومي التالي.

اقتُرحت سوزان أن نقيم الاجتماع التالي في مسرح مونزينجر الذي يتسع لألف شخص.

جِلن: «قبل أن نناقش مقترح سوزان، أودُّ فقط أن أوضح بضع ضرورات أخرى لتشكيل لجنة التعداد. نحتاج إلى معرفة مقدار الطعام الذي سيكفي عددها. نحتاج أيضًا إلى إحصاء دقيق لنعرف مَنْ يأتي.. وَمَنْ يرحل. أعتقد أن الناس يرحلون أيضًا. ربما أكون مرتبًا أكثر من اللازم، لكنني أكاد أقسم أنني لم أعد أرى بعض الوجوه التي ألفتُ وجودها. هل تعرفون أن تشارلي إمبنينج قد رحل؟».

غمغم الحضور، وأطلق بعضهم سبابًا لن أدونه. سأل رالف بعد ذلك عن أهمية معرفة مَنْ يرحل، إذ يرى أن قرار أشخاص مثل إمبنينج الذهاب إلى الرجل الغامض، فليذهبوا إلى داهية.

سوزان: «لا، أنا أفهم وجهة نظر جِلن. رحيلهم يعني نزيف معلومات مستمر عنا وعما نفعل».

رالف: «إذن ماذا في وسعنا فعله؟ هل نحبسهم؟».

جِلن: «أعرف أن كلامي قاس، لكن يجب أن نفكر في هذا الاقتراح فعلًا».

فران: «لا يا سيدي.. يمكنني ابتلاع فكرة إرسال جواسيس، لكن حبس الناس الذين لا تعجبهم إدارتنا للأمور؟! بربك يا جِلن! هذه تصرفات البوليس السري!».

جِلن: «نعم، لكن لا مفر من هذا لو اضطررنا إليه. وضعنا الحالي هش. أنا أسألكم أكنتم ستسمحون بانتقال الأهالي من هنا ليقفوا في صف خُصمنا».

فران: «ما زلتُ أكره الفكرة. واجه جو مكارثي الشيوعية في الخمسينيات بهذه الطريقة، وها نحن الآن نواجه الرجل الغامض بها. هذا رائع!».

جِلن: «فران، ماذا يحدث لو خرج أحد من هنا ومعه معلومة هامة في جيبه؟ ماذا عن تسرب خبر اختفاء الأم أباجيل مثلًا؟».

فران: «يمكن لتشارلز إمبنينج أن يخبره بهذا. أي معلومات مهمة أخرى لدينا يا جِلن؟».

جِلن: «هل تريدونه أن يعرف قوتنا العددية، أو ما وصلنا إليه في الجانب التقني؟ هل تريدون أن يعرف حاجتنا إلى طبيب بشري؟».

قالت فران إن هذا أهون من حبس الناس لأنهم لا تعجبهم طريقة إدارتنا للأمور. طلب ستو طرح موضوع الحبس للتصويت، ورُفضَ.

جِلن: «يجب أن تعرفوا أننا سنلجأ إلى الحبس عاجلاً أو آجلاً. في الغالب آجلاً. إفشاء تشارلي إمبنينج أسرارنا أمام فلاج سيئ بما يكفي. لكن هل تُدركون أننا انتخبنا لمدة غير محدودة؟ أقترح أن نحدد مدة عملنا سنة واحدة؛ حتى نهاية مدة البداية، وأريد أن أرى مخططاً عام واحدٍ لطرحه في الاجتماع العمومي. لديّ مقترح آخر وأكون قد انتهيتُ من كلمتي. طريقة الحكم الحالية -بتصويت الأهالي ووجودنا كنواب- لن تنفعنا مستقبلاً عندما يجاوز عدداً ثلاثة آلاف. ومع ازدياد الأهالي، سيقُل عدد من يحضرون الاجتماع العمومي، وسيكونون ممن يطالبون بسفاسف الأمور ويتدخلون في ما لا يعينهم. مقترحي هو أن نُحوّل بولدر إلى الحكم الجمهوري قبل نهاية الشتاء القادم أو مع بداية الربيع على الأكثر».

تناقش الحضور في آخر مقترحات جِلن، لكن لم يُطرح الأمر للتصويت في هذا الاجتماع.

طلب نك الحديث، فقرأ رالف.

نك: «كتبْتُ هذا في صباح التاسع عشر لعرضه في اجتماع اللجنة الليلية، سأطلب من رالف قراءته في آخر الجدول. كوني أبكم يزيد من صعاب حياتي، لكنني فكرتُ في كل تعقيدات ما سأطرحه ونتائجها.

أقترح للعرض على الأهالي إنشاء إدارة الأمن والقانون، يترأسها ستو ريديمان».

ستو: «يا لها من مصيبة ترميها على عاتقي يا نك».

جِلن: «هذا مثير وذو صلة بما تكلمنا عنه منذ قليل. دعه ينهي كلامه يا ستورات».

نك: «سيكون مقر إدارة الأمن والقانون في محكمة بولدر وسيكون لستو الحق في إلحاق الرجال للعمل بها حتى ثلاثين رجلاً باختياره، وما يزيد على هذا العدد سيكون بتصويت أغلبية لجنة المنطقة الحرة، وما يزيد على السبعين سيكون بتصويت أهالي المنطقة الحرة في اجتماع عمومي. هذا ما أريد طرحه في المخطط التالي. يمكننا أن نوافق على المقترح كما نشاء، لكن هذا لن يؤثر في شيء حتى يوافق ستو».

ستو: «اللعة، هذا صحيح».

نك: «لقد زاد عددنا إلى درجة تجعلنا في حاجة إلى قانون وتنظيم. لدينا مثلاً واقعة الفتى جيرنجر الذي قاد سيارة مسرعة في شارع بيرل حتى حطمها في تصادم. من حسن الحظ أن لم يصب أحد سواه. أعترف أن كل من رآه يفعل ذلك كان يعرف أنه مخطئ، لكن لم يوقفه أحد لأنه ليس لأحد سلطة عليه. ولدينا أيضًا ريتش موفات. لمن لا يعرفه، هو سكرير البلدة الوحيد. عندما يسكر لا يكون مسؤولاً عن أفعاله، وهو يسكر أغلب الوقت. منذ ثلاثة أيام أخذ مسدسًا وقرر تحطيم كل نافذة في أراباهو. تحدثت معه عندما استفاق -بطريقتي في الحديث طبعًا، بالدفتر- وكان يشعر بالخزي، وقال لي: انظر إلى ما فعلت! لئن أصيب أحد لكان ذنبه على رأسي!». رالف: «لست متعاطفًا معه».

فران: «بربك يا رالف. كلنا نعرف أن الإدمان على الكحول مرض».

رالف: «آه، مرض. شخص يسكر بإرادته، كيف يكون مريضًا؟».

ستو: «أنتما خرقتما قوانين الاجتماع. هيا إلى الحبس».

رالف: «آسف يا ستو. سألتزم قراءة ما كتبك هنا».

فران: «سألزم الصمت عشرين دقيقة على الأقل يا سيدي الرئيس».

نك: «باختصار، وجدت لريتش مكنسة وألزمته تنظيف ما هشمه من زجاج. لكن كان الأفضل لو أوقفه أحد قبل ذلك. الخمر متاح في كل مكان وكذلك السلاح. هل ترون المشكلة؟ لو عرف رجل أن امرأته تعاشر شخصًا آخر، فماذا سيفعل؟».

ستو: «سيتعامل بالقبضات والركلات».

نك: «لنقل إنه ضرب الرجل الآخر والآخر ضربه. من سيفصل بينهما ويحدد الجاني من المجني عليه؟».

جلن: «أنت مخطئ هذه المرة يا نك».

ستو: «دع الرجل ينهي كلامه يا جلن».

جلن: «سأفعل، لكنني سأعود إلى تلك النقطة مرة أخرى».

نك: «من بين الأمثلة الثلاث التي ذكرت، يقلق المواطن أكثر من المثال الأخير. مجتمعنا أشبه بقدر صهر، خليط من كل شيء وعكسه، وسرعان ما

ستظهر النزاعات والخلافات. هَب الرجلَ الذي عرف أن امرأته تخونه قد وجد سلاحًا، فقتلها وقتل الرجل الآخر بدلًا من ضربهما. سيكون لدينا قاتل طليق». ستو: «ما هذا يا نِكي؟ ما تقوله صعب».

لاري: «نعم، صعب وبشع، لكن في البحرية لدينا مقولة: «ما يمكن أن يفسد سيفسد»».

نِك: «ستو فعلاً هو مديرنا سرًّا وعلناً، هذا يعني أن الناس تراه ذا سلطة. ورأيي الخاص أن ستو رجل صالح».

ستو: «شكرًا على كلماتك الرقيقة. أعتقد أنك لم تلاحظ أنني أرتدي حذاءً لزيادة الطول. لنتكلم بجدية.. سأقبل الترشح لو أن هذا ما تريدون. أنا لا أريد تلك الوظيفة اللعينة. مما رأيتُ في تكساس، العمل الشرطي أغلبه تنظيف القيء من على قميصك عندما تقابل أشخاصًا مثل ريتش موفات، أو جمع أشلاء حوادث السيارات من الشوارع مثل حادث الصبي جيرنجر. كل ما أطلبه عندما تعرضوا الأمر في الاجتماع العمومي أن تحدّدوا مدة العمل بعام واحد، وأريد أن أعلمكم أنني سأترك المنصب بعد عام. لو أن هذا المقترح مقبول فأنا موافق». جِلن: «دعني أخبرك نيابةً عن الجميع أننا موافقون. أود أن أشكر نِك على المقترح العبقري، وأؤيده».

ستو: «أي نقاشات حول المقترح؟».

فران: «نعم. لديّ سؤال. ماذا لو فجّر أحدهم رأسك؟».

ستو: «لا أعتقد...».

فران: «نعم، أنت لا تعتقد. ما قول نِك لو قلت إن كل ما تفكرون فيه غير صحيح؟ سيعتذر نِك ويخبرني أن رجلي قُتلَ بطلقة في رأسه في مبنى المحكمة، وأنه يظن أننا كنا مخطئين؟ رباه، أنا سألد طفلًا وأنتم تريدونه أن يكون المأمور!».

دار النقاش عشر دقائق، وبكت فران حتى هدأت. نتيجة تصويت ترشيح ستوريدمان رئيس شرطة المنطقة الحرة 6-1، ولم تُغيّر فران تصويتها هذه المرة.

جِلن: «قبل أن ننهي الاجتماع. سأعود إلى النقطة التي استوقفني سابقًا: المثال الثالث الذي عرضه نِك لحالات الخروج عن القانون. قال إننا سنعجز عن تحديد من الجاني ومن المجني عليه. أعتقد أنه مخطئ. أو من بأن ستو

واحد من أكثر الرجال الذين عرفتهم صلاحًا، لكنَّ شرطة دون نظام قضائي؟ هذا ظلم. مجرد اقتصاص غير قانوني. أخذ الحق باليد. لو فرضنا أن الرجل قتل المرأة وعشيقتها، وحبسه ستو. إلى متى سيظل في الحبس؟ قانونيًا لا يمكننا حبسه مطلقًا، على الأقل استنادًا إلى الدستور الذي صدّقنا عليه، لأن الرجل بريء حتى تثبت إدانته في المحكمة. كلنا نعرف أننا سنبقى في الحبس، لن نشعر بالأمان وهو طليق في الشارع! سنسجنه لأن السلامة تغلب القانون دائمًا. ما علينا فعله أن نحافظ على سير القانون ونحفظ على السلامة في الوقت نفسه. الخلاصة، يجب أن نفكر في نظام قضائي».

فران: «أوافق على أن هذا أمر مهم يجب أن نفكر فيه، لكن لننهِ الاجتماع الآن ونؤجل النقاش. تأخر الوقت وأنا مرهقة».

رالف: «موافقة. نتكلم عن المحكمة المرة القادمة. رأسي سينفجر. إعادة اختراع الدولة هذا أمر متعب أكثر مما بدا في البداية».

لاري: «أوافقك الرأي».

نتيجة التصويت على إنهاء الجلسة اليوم 7-0 لمصلحة الانتهاء.

قالت فراني وقد توقف ستو عن السير فجأة: «لماذا توقفت؟ المنزل على بعد مبنى واحد؟».

كانت عيناها محمرتين بعد من البكاء، ولم يرها ستو على هذه الحال من قبل. قال: «موضوع رئيس الشرطة هذا...».

- لا أريد أن أتحدث عن الأمر يا ستو.

- يجب أن يؤدي أحد هذه المهمة يا عزيزتي. نك على حق. أنا الاختيار المنطقي الوحيد.

- سحًا للمنطق. ماذا عني وعن الطفل؟ هل ترى في هذا منطق يا ستو؟

قال برفق: «أنا أعرف ما تريدينه للطفل. ألم تخبريني بهذا عشرات المرات؟ أنت تريدينه أن يعيش في عالم عقلاني آمن. أنا أريد ذلك أيضًا، لكنني لن أقول هذا أمام الآخرين. بيني وبينك يا فران، أنتِ والطفل السبب الوحيد في قبولي هذا المنصب».

قال بصوت ضعيف مختنق: «أعرف...»، رفع ذقنها بأطراف أصابعه فابتسمت ابتسامةً واهنةً. قال لها: «كل شيء سيكون على ما يرام». هزّت رأسها يمينًا ويسارًا وهمست: «لا أظن.. لا أظن أن شيئًا سيكون بخير».

رقدت على الفراش وجافاها النوم. كانت تفكر في أن الدفء لا يأتي إلا من الاحتراق، والحب ثمنه دائمًا الدم. رسخت فكرة الدم في ذهنها، فوضعت يديها على بطنها كأنها تحميه، وتذكرت لأول مرة منذ أسابيع حلمها بالرجل الغامض والمشجب ملتوي الطرف.

كما اشترك هارولد لودر في لجنة البحث عن الأم أباجيل من قبل، تطوَّع الآن في لجنة الدفن، وقضى يوم الحادي والعشرين من أغسطس مع الرجال في صندوق شاحنة، يرتدون جميعًا ملابس وقاية وقفازات. خرج رئيس لجنة الدفن تشاد نوريس إلى المكان الذي سمَّاه «موقع الدفن 1#»، على بُعد عشرة أميال جنوب غرب بولدر، قرب منجم فحم. المكان خالٍ قاحل كأرض القمر. قبل تشاد المنصب لأنه عمل مساعد دُفان في موريسيتاون، نيو جيرسي.

في محطة حافلة جرابهاوند بين أراباهو وولنت، حيث قاعدة عمليات لجنة الدفن، أشعل تشاد سيجارة وقال للرجال العشرين المتحلقين حوله: «لا دفن هنا. أعني أننا سندفن، لكننا لن ندفن بمعنى الدفن لو أنكم تفهمونني».

ابتسم بعض الرجال، وكان لهارولد الابتسامة الأكثر اتساعًا. بطنه يؤلمه من الجوع لأنه لم يجرؤ على تناول الإفطار قبل عمل كهذا. كان ليستمر في فريق البحث عن الأم أباجيل ولن يلومه أحد لحظة، حتى لو كان واضحًا لكل ذي عقل (وليس لأحد في المنطقة الحرة عقل سواه) أن البحث عنها في عشرات الآلاف من الأميال حول بولدر مجرد رياضة لا أكثر. لم يفكر أحد في أنها ربما غادرت بولدر، أو تخبئ في بيت في المدينة ولن يعثر عليها أحد إلا بتفتيش كل البيوت. عندما اقترح هارولد أن تعمل لجنة البحث ليلاً أو في العطلات الأسبوعية لتوفير مجهود الرجال لأمر أهم، لم يعترض ستو أو نك، وهذا ما يعني أنهما يريان الأمر منتهيًا فعليًا.

كان سيلزم فريق البحث، لكنَّ مَنْ ينال أكثر التقدير والاحترام؟ رجل المهام الصعبة طبعًا، التي ينفذها بابتسامة واسعة. الرجل الذي يعمل عملاً لا تستطيع إجبار نفسك على أدائه.

قال تشاد: «الأمر أشبه بدفن لوح خشب. فكروا فيه من هذا المنظور. ربما يقيء أحدكم في البداية، لا بأس أبدًا، فقط حاول أن تقيء في مكان لا يراك فيه أحد، لكن الأسهل أن تفكر في ما تدفنه على أنه لوح خشب».

تبادل الرجل النظرات المتوجسة. قسمهم تشاد إلى ثلاثة فرق كل فريق مكون من ستة رجال، فيما سيظل هو ورجلان آخران في موقع الدفن ليجهزوا المكان للجثث التي سيجلبونها. سيعمل كل فريق في مكان، وعمل هارولد في مِنطَقة تيّبل ميسا، ومنها إلى الغرب. في مربع محدد. سيفتشون الشوارع والمنازل. جهَّزهم تشاد بأقنعة غاز، لكنهم لن يرتدوها إلا بعد الغداء (أي غداء؟!.) عندما دخلوا كنيسة القديسين في جنوب تيّبل ميسا، وجدوا بداخلها أكثر من سبعين جثة. لا بُدَّ أنهم اختبأوا فيها وماتوا من الوباء بداخلها. هتف أحد رفاق هارولد ساخرًا: «ألواح خشب.. نعم!»، ثم هُرِعَ يقيء في الركن.

احتاج إخلاء الكنيسة إلى رحلتين. فكر هارولد في أن عشرين رجلًا ليسوا كافين لإخراج كل الجثث من مدينة بولدر. لو زاد عدد المتطوعين في لجنة الدفن بزيادة السكان، فقد يتمكنون بالكاد من إخراج آخر الجثث مع بداية نزول الثلج (لا يتوقع أن يكون هو نفسه هنا وقتها)، ولن يعي الناس خطورة وباء جديد ليس لأحد ضده مناعة.

لجنة المِنطَقة الحرة مليئة بالأفكار اللامعة. ستكون اللجنة بخير ما دام هارولد لودر معهم، ليتأكد من أنه ربط أربطة أحذيتهم كيلا يتعرقلوا. هارولد بارع في هذا، لكنه لم يكن بارعًا كفاية ليرشحوه عضوًا في اللجنة اللعينة الدائمة. لم يكن قطُ بارعًا بما يكفي في نظر الجميع لفعل أي شيء. لن يُنسى أي من هذا. هارولد إيمري لودر يدوّن كل حساباته.

عادت الفرق بعد انتهاء عمل اليوم، بأيدي مبيضة طرية من التعرق داخل القفازات. كان نوريس ورجلاه قد أعدوا الموقع لاستقبال الجثث، ففرشوا ملاءات بلاستيكية على الأرض الصخرية، وتوقفت الشاحنات التي تحمل الجثث على حافة المِنطَقة المفروشة، وأمالت صناديقها لتفرغ حمولاتها من الدُمى المتخشبة. رغب هارولد في الابتعاد، لكنه خشي أن يفسر الآخرون

اشمئزازه بالضعف. إنه لا يمانع في مشاهدة الجثث تهوي، لكن الصوت هو ما أثار معدته، صوت ارتطامهم ببعضهم وبالبلاستيك.

شعر هارولد بشفقة عميقة مباغته وهو يشاهد انهيار الجثث كالطر. ألواح خشب. كم هو مُحِق. هذا هو ما تبقى منهم.. مجرد ألواح متخشبة.

رفع الرجال بعد ذلك أطراف الملاءات البلاستيكية ليلفوا بها تلك الجثث، فتصاعدت رائحة نتنة قوية. صعد نوريس إلى كابينة جرافة صفراء وشغل المحرك، فنزلت شفرته المسننة وتحركت الجرافة إلى الأمام، فدفع الكفن البلاستيكي العملاق إلى حفرة مربعة عظيمة.

بعدما ترجل من الجرافة، أشار للرجال ليحتشدوا حوله وهتف: «لقد أديتم عملاً عظيماً اليوم. لقد جمعنا أكثر من ألف وَحْدَة اليوم ودفناهم».

فكر هارولد في استخدامه كلمة وَحْدَة لوصف الجثث.

- أعرف أن هذه المهمة تأخذ من المرء الكثير. وعدتنا اللجنة برجلين إضافيين نهاية الأسبوع. أعرف أن هذا لن يقلل شيئاً مما نشعر به، لكن كل ما أقوله إنك لو اكتفيت، فيمكنك أن ترحل دون أن تحمل همّ تحاشي رؤيتي في الشارع. إن كنت تريد الرحيل اليوم، فلا بد أن تجد لك بديلاً غداً. هذه هي أهم وظيفة في بولدر الآن، لأن حولنا أكثر من عشرين ألف جثة، ويجب أن ننهي من دفنهم قبل البرد، وإلا مرض الناس. أراكم غداً عند محطة الحافلات إن كنتم قادرين بعد على الحضور.

قال أحدهم: «سأكون هناك»، وهتف نورمان كيلوج: «وأنا أيضاً، بعد ست ساعات من الاستحمام المتواصل الليلة».

غمغم هارولد: «وأنا أيضاً».

قال نوريس بصوت مشحون بالشعور: «إنه عمل مقيت. أنتم رجال صالحين حقاً».

شعر هارولد بشعر غريب مفاجئ، شعر بالألفة والمودة وحسن العشرة تجاههم. أربه هذا، فهو ليس جزءاً من مخططه.

قال ويزاك وهو يضغط كتفه مشجعاً: «أراك غداً أيها الصقر». صقر؟! أي نوع من المزاح هذا؟ مزاح رخيص طبعاً. إنه ينعت هارولد السمين بالصقر. شعر بالكراهية القديمة تعود، مخلوطة بحيرة عميقة. إنه لم يعد سميناً، وزالت حبوب وجهه. لا الرجل المدعو ويزاك يعرف أنه كان أضحوكة

المدرسة، ولا يعرف أن هارولد كان لعنة على أخته الجميلة.. ولو أنه يعرف، لما اكرث لهذا.

صعد هارولد إلى صندوق الشاحنة، واتجهوا إلى محطة الحافلات. وعقله يضح بالذكريات الكريهة القديمة التي -لدهشته- لم تعد تساوي شيئاً الآن. هل يمكن أن يكون هذا حقيقياً؟ لا.. لو أنك كنت قوياً كفاية لتحمل إساءات وإهانات الآخرين ومقاومة تأثيرها، فالمفترض الآن أن تكون قوياً بما يكفي لمقاومة... لمقاومة أي شيء؟ رأيهم الطيب فيك؟ أليس هذا منطقياً.. هذا النوع من المنطق جنون، أليس كذلك؟

تذكر مقولة ذكرها أحد الجنرالات في معرض دفاعه عن اعتقال أمريكيين من أصل ياباني في أثناء الحرب العالمية الثانية، بعدما أوضحوا له أنهم لم ينفذوا أي عمليات تخريبية على الساحل الغربي حيث يتركز وجودهم. قال: «عدم وجود أعمال تخريبية نذير شؤم في حد ذاته».

هل هذا هو؟ هل يرى أن الأعمال التخريبية نذير خير؟ ترجل هارولد من صندوق الشاحنة قفزاً، ولاحظ تحسن صحته وازدياد رشاقته. وقف ينظر إلى دراجته البخارية وشرد مرة أخرى.

تكرر في ذهنه المكدود خاطر آخر: هل يمكن أن أفيد المجتمع؟ لكنهم استبعدوه...

لا يهم. أستطيع فتح الأبواب التي أُغْلِقْتُ في وجهي، وأومن أن لدي الشجاعة لفتحها حال غلقها...

لكن...

لماذا لا ترتدي أصفاداً وقيوداً مكتوباً عليها: لكن! لكن! لكن؟ ألا يمكنك أن تتوقف عن هذا يا هارولد؟ ألا يمكنك فقط أن تنزل من فوق حصانك العالي اللعين؟

- هارولد؟

أجفل هارولد لسماع نوريس يحدثه. سألته: «هل أنت بخير يا هارولد؟».

- نعم.. شردتُ فقط.

- اسمع يا صقر. أعتقد أن كل أولئك الرجال سيعودون غداً.

ها هو اسم مستعار آخر يلتصق به على غير إرادته. قال هارولد هو يسير نحو دراجته: «وأنا أيضًا».

- لم أكن لأصدق ما حدث. كنت أتصورهم سيفرّون بعد أول ساعة عمل. -دعني أخبرك بشيء. الأسهل أن تعمل عملاً مقزراً كهذا لمصلحة نفسك، لا لمصلحة أي شخص آخر. كثير من أولئك الرجال لم يعملوا شيئاً لمصلحة أنفسهم ولمصلحة حمايتها قط.

- صحيح. أراك غداً يا صقر.

- في تمام الثامنة.

في أثناء مروره بالشوارع متجهاً إلى بيته، رأى الناس منهمكين في مهام جانبية، ورأى مجموعة نساء يُبعدن حطام السيارات عن الطرق، ومجموعة وافدين جدداً ينتقون منازل لهم. هذا المكان يُبنى من جديد، ولا يعرف حتى نصف هؤلاء الأشخاص.

عاد إلى بيته وعقله مشغولاً بمشكلة ظن أنه حلها منذ زمن. وجد أمام المنزل دراجة بخارية بيضاء، وامرأة تجلس على الدرج.

قامت وهارولد يتقدم إليها، ومدت يدها. إنها امرأة من أجمل النساء اللاتي رآهن هارولد في حياته، ومن هذا القرب.

قالت بصوت مبجوح: «أنا نادين كروس».

كفها قوية باردة. تفحصت عينا هارولد جسدها لحظة، عادة تكرهها الفتيات، لكن لا يمكنه السيطرة على نفسه. كانت ترتدي بلوزة خفيفة من الحرير الأزرق الزاهي، وسروالاً قطنياً يلتصق بجسدها، ولا شيء آخر تحتها. كم عمرها؟ ثلاثون؟ خمس وثلاثون؟ ربما أقل وتعاني شيئاً مبكراً.

قال باسمًا: «هارولد لودر. جئت مع جماعة لاري أندروُد، أليس كذلك؟».

- بلى. هذا صحيح.

- لقد تبعني خطاي خلال العالم الخالي. زارني لاري الأسبوع الماضي وجلب لي زجاجة خمر وحلوى.

لصوته جرس مصطنع، وأدرك فجأة أنها تعرف أنه يدرس تفاصيلها، يعريها في عقله. قاوم رغبة في لعق شفثيه، وانتصر. قالت: «يا له من رجل».

- لاري؟

ضحكت ضحكة غامضة، ثم أضافت: «نعم، لاري أمير».

تبادلا النظرات. لم تحقق إليه امرأة بهذا الحسن من قبل، فازداد توتره واستثارت. قال: «حسنًا، ما الذي يمكنه تقديمه لك اليوم يا آنسة كروس؟».

- أولًا، أنا نادين فقط. ثانيًا ادعوني على العشاء. يمكن أن نتعرف أكثر هكذا.

- حسنًا يا نادين، هل تودين مشاركتي العشاء؟

- أود جدًا.

عندما لمست ذراعه شعر كأن تيارًا كهربائيًا قد صعقه. لم تغادر عيناها عينيه وهي تكمل: «شكرًا».

فتح القفل بالمفتاح وهو يفكر: ستسألني الآن عن سبب غلقي الباب بالقفل، وسأدמיד وأهرف بحثًا عن إجابة حتى أبدو كالعبيط. ولم تسأل نادين.

لم يطفه العشاء، طهته هي.

وجد هارولد نفسه عاجزًا عن تحضير عشاء جيد من معلبات، فعرضت عليه أن تجهزه هي. استأذن منها ليستحم، وقد أدرك فجأة النشاط الذي قضى اليوم في ممارسته.

عندما عاد، وجد المطبخ يفوح بروائح شهية. أخيرًا أثمر جهد اليوم عن مكافئة حقيقية أعادت إليه شهيته. راح يراقبها وهي تكمل الطهو، يراقب التصاق الملابس بنهديها وردفيها. قالت له: «سنكون صديقين ممتازين...».

- حقًا؟

- نعم.

استدارت نحو الموقد كأنها تغلق باب الحديث في الأمر، تاركة هارولد يغوص في الاحتمالات والتفسيرات.

تحدثا في أثناء العشاء حول أمور تافهة أغلبها عن المنطقة الحرة وأهلها. سألها مرة أخرى وسط حديثهما عن سبب زيارتها، فأجابت: «أحب مشاهدة رجل يأكل».

ظن هارولد لحظةً أنها تتحدث عن شخص آخر، إلا أنها تقصده هو حقًا. أكل هارولد ثلاثَ حصص من الطعام الذي طهته ببراعة، وظلتْ تثرثر فتعطيه فرصةً إسكات الأسد الجائع في بطنه، وتأملها.

بعدما أنهيا الوجبة، كاد ينهض لولا أن أمسكت يده وسألته: «شاي أم قهوة؟». - يمكنني أن...

- يمكنك، لكنك لن تفعل. قهوة أم شاي أم... أنا؟

وابتسمت ابتسامةً مغريةً مغويةً، وأذهله جمالها الفريد ونبرة صوتها المخدرة. برأس يدور أجاب هارولد بطريقة عادية: «آخر اثنين...»، وكبح ضحكةً ماجنةً بأعجوبة.

- لنبدأ بشاي لاثنين...

حالما استدارت، اندفع الدم الحار إلى رأسه فحوّل وجهه إلى لون البنجر. عاد وجهه إلى قرب لونه الطبيعي بعودتها إلى المنضدة حاملة كوبَي الشاي على صحيفة. كان يشعر بأن جسده وعقله محشورين في صندوق على متن قطار ملاءٍ شهواني. لكم يكره هذا، لكن لا حيلة له في الأمر. لقد أفسد ما قالت باختياره السانج. لو أنها مهتمة به (وليعلم الرب لماذا قد تهتم به حسناء كهذه) فقد فقدت شغفها بسبب ثقل ظله وانعدام بديته. شاي؟ كان ما طلب شايًا حقًا؟

لقد فعل أمورًا مشابهة من قبل، ويمكنه أن يتعايش مع تَكَرّاره فعلها. نظرتُ إليه من فوق حافة كوبها بعينيها المغويتين الداكنتين وابتسمت. سألتها وقد أدرك أن عليه أن يقول شيئًا: «كيف يمكن أن أساعدك؟». لا بُدَّ أن لها هدفًا من المجيء. اتسعت ابتسامته الواقية الآن لتغطي حيرته.

- نعم. يمكنك أن تساعدني. بل يمكن أن تساعد بعضنا. هل يمكن أن ننتقل إلى غرفة المعيشة؟

- بالتأكيد.

ارتعشت يده وهو يضع الكوب على الصحيفة، فكاد يسكب الشاي. تبعها إلى غرفة المعيشة وهو يحدق إلى رديفها وابتلع ريقه.

غرفة المعيشة مظلمة إلا مما تسلل من بين فُرْجَات الستائر من نور نهاية النهار. همَّ لاري بإزاحة ستار، فمَنَعَتْهُ بوضع يدها على كفه. استدار إليها بحلق جاف، قالت له: «دعها. أنا أحب الخصوصية».

نظر إليها بوجه محمر، فاقتربت منه وهي تهمس: «كي أتمكن من فعل هذا». ضغطتُ جسدها إلى جسده. لأول مرة في حياته يمر بموقف مثل هذا. إنه يشعر بكل تفاصيل جسدها، ويشم رائحتها.. ليس عطرها، بل رائحة جسدها الأشبه بسر يتكشف له وحده.

شفتاها رطبتان منفرجتان، تقتربان من شفتيه، عيناها كسماء مزدانة بالنجوم. لا يعكر رومانسية المشهد الشبيه بالروايات الخيالية إلا انتصابه.

قالت: «الآن، على الأريكة».

وصلا بشكل ما إلى هناك، وتشابك جسدهما. انفكَّ شعرها وفاحت رائحتها. قادتُ يدها إلى حيث تريد. سألته: «أنت بتول؟». لم يجد سببًا للكذب، فhez رأسه.

- دعني أنا أعتني بك...

لم يتحمل من مداعباتها الكثير كما توقع.

ارتمت على الأريكة يلهث، وهي تنظر إليه بتلك العينين الهاربتين من لوحة كلاسيكية.

غمغم: «آسف...».

- علام؟

- أنتِ لم تنالي شيئاً مما حدث.

- بالعكس. أنا راضية تماماً.

كان يعرف أنها لا تعني ما تقول، وقبل أن يتفوَّه بكلمة، بادرت: «أنت صغير السن، والحياة أمامك تجرب فيها كلَّ ما تشاء. ذكرت لي أنك بتول؟ أنا أيضاً بتول».

رفع حاجبيه تعجباً، ولا بُدَّ أن مظهره كان هزلياً لأنها ضحكت وقالت: «أنا عذراء، وسأظل هكذا، لأن عذريتي لشخص آخر.. هو من سيقطفها».

- لمن؟

- أنت تعرف من.

حَدِّقْ إِلَيْهَا وَبَرِّدْ جَسَدَهُ حَتَّى ارْتَجِفَ. نَظَرْتُ إِلَيْهِ بِهَدْوٍ وَهُوَ يَسْأَلُ هَمْسًا: «هُوَ؟».

هَزَتْ رَأْسَهَا مُوَافَقَةً، وَقَالَتْ وَهِيَ تَتَحَاشَى النَّظَرَ إِلَيْهِ: «لَكِنْ يُمْكِنُنِي أَنْ أَرِيكَ أَشْيَاءَ، وَيُمْكِنُنَا أَنْ نَفْعَلَ الْكَثِيرَ مَعًا.. أُمُورًا لَمْ تَحْلَمْ.. لَا، بَلْ رُبَّمَا حَلِمْتَ بِهَا، لَكِنَّكَ لَمْ تَتَصَوَّرْ أَنْ تَفْعَلَهَا». نَظَرْتُ إِلَيْهِ نَظْرَةً لَعُوبًا فَاشْتَعَلَ جَسَدُهُ مَرَّةً أُخْرَى، أَضَافَتْ: «يُمْكِنُ أَنْ نَفْعَلَ كُلَّ شَيْءٍ.. كُلَّ شَيْءٍ، إِلَّا ذَلِكَ الْأَمْرَ الْوَحِيدَ. أَمْرٌ غَيْرُ مَهْمٍ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟».

تَسَارَعَتِ الصُّورُ فِي عَقْلِهِ.. أَوْشَحَةُ حَرِيرِيَّةٍ.. أَحْذِيَّةٌ عَالِيَةُ الرِّقْبَةِ.. سِلَاسِلٌ.. أَوْهْ يَا يَسُوعُ! خَيَالَاتٌ مُرَاهِقٌ! لَكِنْ كُلُّ هَذَا نَوْعٌ مِنَ الْأَحْلَامِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ حُلْمٌ مُوَلَّدٌ مِنْ حُلْمٍ.. مِنْ كَابُوسٍ. إِنَّهُ يَرِغِبُ فِي كُلِّ هَذَا، وَيَرِغِبُ فِيهَا، وَيَرِغِبُ فِي مَا هُوَ أَكْثَرُ.

السُّؤَالُ هُوَ، مَتَى سَيَقْنَعُ؟

قَالَتْ لَهُ: «يُمْكِنُكَ أَنْ تَخْبِرَنِي بِكُلِّ شَيْءٍ. يُمْكِنُ أَنْ أَكُونَ أَمْكُ أَوْ أَخْتُكَ أَوْ عَشِيقَتَكَ أَوْ عَبْدَتَكَ. كُلُّ مَا أُرِيدُهُ مِنْكَ أَنْ تَخْبِرَنِي يَا هَارُولِدُ».

تَرَدَّدَ صَدَى كَلَامِهَا فِي عَقْلِهِ.. فَتَحَ فَمَهُ فَخَرَجَ صَوْتُ رَتِيبِ كَرْنَيْنِ جَرَسٍ: «مَا الْمَقَابِلُ؟ لَا شَيْءٌ مُجَانِي فِي هَذَا الْعَالَمِ، وَلَا حَتَّى الْآنَ، حَتَّى وَكُلِّ شَيْءٍ مُلْقَى بِلا صَاحِبٍ يَنْتَظِرُ أَنْ يَأْخُذَهُ أَحَدٌ».

- أَنَا أُرِيدُ مَا تَرِيدُ. أَعْرِفُ مَا فِي قَلْبِكَ.

- لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ هَذَا.

- مَا فِي قَلْبِكَ فِي سَجَلِ يَوْمِيَّاتِكَ. يُمْكِنُنِي قِرَاءَتَهُ وَأَعْرِفُ مَكَانَهُ، لَكِنِّي لَنْ أَفْعَلَ.

حَدِّقْ إِلَيْهَا زَاهِلًا.

- كَانَ تَحْتَ بِلَاطَةِ الْمَدْفَأَةِ، لَكِنَّكَ نَقَلْتَهُ إِلَى بَطَانَةِ عِزْلِ الْعَلِيَّةِ.

- كَيْفَ عَرَفْتِ؟ كَيْفَ عَرَفْتِ؟

- أَنَا أَعْرِفُ لِأَنَّهُ أَخْبِرَنِي. يُمْكِنُ أَنْ تَقُولَ إِنَّهُ أَرْسَلَ إِلَيَّ خُطَابًا، وَالْأَهَمُّ أَنَّهُ أَخْبِرَنِي بِكَ يَا هَارُولِدُ، وَأَخْبِرَنِي بِرَاعِي الْبَقَرِ الَّذِي سَرَقَ فَتَاتَكَ وَاسْتَبْعَدَكَ مِنْ لَجْنَةِ الْحُكْمِ. هُوَ يَرِغِبُ فِي أَنْ نَكُونَ مَعًا. وَهُوَ كَرِيمٌ. مِنْ الْآنَ حَتَّى نَغَادِرَ هَذَا الْمَكَانَ، سَنَنْظِلُ مَعًا.

لمسّت جسده وهمست: «من الآن حتى وقتها، سيكون وقتاً للعب فقط. هل تفهم؟».

- أف...-

- لا، لا تفهم، لكنك ستفهم يا هارولد.

بلا سبب، خطر له أن تناديه صقري.

- وماذا يريد منا لاحقاً يا نادين؟

- سيريد منا أن نفعل ما نريد. ما كدت تفعله يوم التقيت ريدمان في المتنزه،

لكن على نطاقٍ أوسع. وعندما ننتهي، سنذهب إليه، وسنظل معه.

أغمضت عينيها في ما يشبه النشوة. فكرة أن تمنحه نفسها فيما تحب شخصاً آخر تثير شهوته. قال بصوت واهن: «ماذا لو رفضت؟».

هزت كتفيها فتأرجح نهذاها وهي تقول: «ستستمر الحياة، أليس كذلك يا هارولد؟ سأجد طريقة أفعل بها ما يجب أن أفعله. ستستمر أنت في حياتك، وستجد فتاة تفعل معها الشيء الوحيد الذي لا يمكنك فعله معي. لكن لتعلم أن هذا الشيء الوحيد سيكون متعباً بعد مدة».

سألها بابتسامة متهمكة: «وكيف تعرفين أن هذا سيحدث؟

- لأن الجنس هو حياة مصغرة، والحياة متعبة.. وقت نقضيه في غرف انتظار متنوعة. ربما تحصل على بعض ما تريد، لكن إلى أي حد؟ ستتذكرني دائماً بلا قميص، وتظل تتساءل عما سأبدو عليه بلا أي ملابس. ستظل مشغولاً بما كان ليحدث بيننا...-

قال مرتجفاً: «كفى...».

لكنها لم تتوقف.

- ستتساءل عن جانبه من العالم، وسيشغلك هذا عن كل شيء آخر. القرار

لك يا هارولد. هل أرتدي قميصاً، أم أخلع باقي ملابسي؟

كم فكّر؟ لا يعرف. لاحقاً سيشعر كأنه لم يحاول من الأساس. عندما تكلم كان طعم الكلمات كالموت في فمه. قال: «في غرفة النوم. لنذهب إلى غرفة النوم...».

ابتسمت ابتسامة نصر مع وعد جسّي أرعد جسده. أمسكت يده فتبعها

هارولد لودر إلى مصيره.

الفصل الخامس والخمسون

يطل بيت القاضي على المقابر.

جلس هو ولاري في الشرفة الخلفية يدخان السيجار ويشاهدان الغروب. قال القاضي: «عندما كنت صبيًا، كنا نعيش على مسافة قصيرة من أرقى مقابر إلينوي. اسمها جبل الأمل. في كل ليلة بعد العشاء، يتمشّي أبي الستيني، وأحيانًا كنت أصحبه في تمشيته. في بعض الأوقات كانت تأخذنا سيقاننا إلى المقابر رائعة الجمال تلك. كان يسألني: ما رأيك يا تيدي، هل من أمل؟ فأجيبه: بل جبل من الأمل. وفي كل مرة كان يهدر ضاحكًا كأنه أول مرة يسمع فيها إجابتي. أحيانًا كنت أفكر في أنه سيتعمد السير قرب المقابر ليسألني كأنها أفضل مزحة سمعها في حياته».

دخّن القاضي برأس منكّس وكتفين متهدلتين. أكمل: «توفي عام 1973، وكنتُ وقتها مراهقًا. أفقدته من يومها. لا يحتاج الصبي إلى أب إلا لو كان أبًا صالحًا، ولا يمكن أبدًا تعويض الأب الصالح. لا أمل إلا جبل الأمل. وها هو الآن يستمتع بوقته فيها! كان في السابعة والثمانين عندما مات، ومات كالملوك يا لاري، جالسًا على عرشه في أصغر غرفة من غرف منزلنا والجريدة على جِبره».

عجز لاري عن الرد على تلك الذكريات. زفر القاضي وقال: «لديكم هنا عمل شاق. ما لم تستعيدوا التيار الكهربائي سريعًا، سينتقل الناس إلى الجنوب قبل أن يباغتهم الشتاء».

- رالف وبراد يزعمان أنهما سينجحان في استعادتها وأنا أثق بهما.

- إذن سأتمنى أن تكون ثقتك في محلها. ربما يكون في رحيل العجوز خير، وربما تعرّفت هي هذا. سيكون الناس أحرارًا في تفسير ما يدور دون تأثير غرائبي. هل تفهمني يا لاري؟

- لا... لست متأكدًا من أنني أفهم.

- أتساءل أكان علينا أن نعيد اختراع الآلهة والمُخلّصين والعالم الآخر قبل أن نعيد اختراع المرحاض ذاتي التنظيف. هذا هو ما أقصده. لا أعرف أكان هذا هو الوقت المناسب للآلهة.

- هل تظنها ماتت؟

- لقد رحلت منذ ستة أيام ولم تعثرُ عليها لجنة البحث. نعم، أعتقد أنها ماتت، لكنني لست متأكدًا. كانت امرأةً مذهلةً، خارج إطار أي عقل أو مرجع. ربما يكون هذا هو سبب سعادتي لرحيلها، فأنا رجل عقلائي، أحب أن أدير حياتي كما أريد. لا يرغب أينا في رؤية النذر والبشائر مهما كنا نحب القصص الخيالية وأفلام الرعب. لا يريد أينا أن يرى نجمًا في الشرق ولا عمود نار في الليل. نحن نحتاج إلى الواقعية والعقلانية والرتابة. لو اضطررنا إلى رؤية الرب في وجه امرأة سوداء، سنضطرُّ إلى إدراك أن للشيطان وجودًا، وأنه أقرب مما نتصور.

قال لاري مُتردّدًا: «لذا أنا هنا». تمنى لو لم يذكر القاضي شيئًا عن العقلانية والرتابة ورؤية الرب والشيطان. لا يريد أن يبدو قاسيًا وهو ينتزع الرجل من كل اختياراته وتفضيلاته.

- أنا أعرف سبب زيارتك، وأقبل الترشيح.

أجفل لاري فتحرك مقعده من تحته. هتف: «مَن أخبرك؟ المفترض أن يكون الأمر سرّيًّا أيها القاضي. لو أن أحد أعضاء اللجنة يسرب المعلومات فنحن في ورطة».

رفع القاضي يده المُرَقَّطة ببقع التقدم في العمر، ونظر إليه بعينين تلمعان في وجهه العتيق وقال: «اهدأ يا بني. لم يسرب أحد المعلومات، ولا أنصتُ لأي أحد. أنا مَن همستُ بالسر لنفسي. لماذا أتيت الليلة؟ وجهك كتاب مفتوح يا لاري. عندما كنت أتكلم عن تفضيلاتي، رأيتُ وجهك يتهدّل، وكدت أضحك...».

- هل هذا مضحك؟ ماذا قد أفعل؟ أسعد لأنني... لأنني...

- لأنك سترسلني إلى الغرب؟ للتجسس هناك؟ أليس هذا هو الأمر؟

- هذا هو الأمر بالضبط.

- كنتُ أسأل نفسي متى ستظهر هذه الفكرة على السطح. إنه فكرة مهمة وضرورية للغاية إن كان للمنطقة الحرة أن تنجو. لا علم لنا بما هناك.

أخرج قصافة أظفار من جيبه وراح يقص أظفاره وهو يتكلم: «أخبرني. هل تناقشت اللجنة في احتمالية أن يروق لي الوضع هناك؟ ماذا لو قررتُ البقاء عنده؟».

- لم يخطر هذا على بال أحد.

- أتخيل أن لديه مصادر طاقة. هذا عامل جذب كما تعلم. ربما استشعر إمبرينج هذا.

- إلى داهية هو وكل الزُبالة أمثاله.

ضحك القاضي ملء شذقيه، ثم قال بعدما تمالك نفسه: «سأذهب غداً على متن سيارة لاند روفر. سأتجه شمالاً إلى وايومينج أولاً ثم إلى الغرب. الشكر للرب أنني أستطيع القيادة بعد. سأسافر خلال أياداهو ومنها إلى كارولينا الشمالية. قد أحتاج إلى أسبوعين حتى أصل، وأسبوعين للعودة. ربما يهطل الثلج.

- نعم، ناقشنا الأمر.

- وأنا مسن، والمسنون عرضة لمشكلات القلب والحماقات. أفترض أنك سترسل آخرين.

- الحقيقة...

- لا، المفترض ألا تتكلم عن الأمر. أنا أسحب هذا السؤال.

قال لاري فجأة: «يمكنك أن ترفض. لا يوجد سلاح موجه إلى رأسك».

سأل القاضي بحدة: «هل تريد أن تتنصل من مسؤوليتك عما سيحدث لي؟».

- ربما. نعم، ربما. أعتقد أن فرض عودتك واحد إلى عشرة، وفرص عودتك بمعلومات قد نستفيد منها واحد إلى عشرين. أرى أنني أحاول أن أعترف بخطأي بطريقة لطيفة. قد تكون مسناً أكثر مما تستطيع معه تحمل مشقة كهذه.

- أنا كبرتُ على المغامرات، لكنني أتمنى ألا أكون كبرتُ على تنفيذ ما أؤمن به. بالخارج امرأة مسنة تعسة خرجت لتواجه الموت، فقط كي تنفذ ما تؤمن به. ربما تكون مدفوعة بالهوس الديني، أعرف. لكن ما يحاولون تنفيذ ما يؤمنون به يظهرون أحياناً بظهر المهوسين. سأذهب. سأبرد. لن تعمل أمعائي كما يجب. سأكون وحيداً. سأفتقد رتابة يومي. لكن... نظر إلى لاري بعينين لامعتين في الظلام وأضاف: «وسأكون ذكياً أيضاً». شعر لاري بالدموع خلف عينيه وهو يقول: «أنا متأكد».

سأله القاضي ليغلق الموضوع: «كيف حال لوسي؟».

- بخير. كلانا بخير.

فكر في نادين. شيء في يأسها المرة السابقة يقلقه. أنت آخر فرصة لي. كلام غريب، يكاد يشير إلى أفكار انتحارية. أي نوع من المساعدة هنا قد تنقذها في حين أن الطبيب الوحيد في البلدة بيطري. حتى المرأة ذات البركة رحلت الآن.

قال القاضي: «اختيارك لوسي اختيار جيد. لكنك قلق على المرأة الأخرى، أليس كذلك؟».

اعترف ليزيح الهم عن صدره: «نعم. أظنها تفكر في الانتحار. لا، لن تنتحر بسبب رفض لاري الوسيم لها. الصبي الذي كانت تعتني به خرج من قوقعته، وأعتقد أنها تعاني الوحدة في عدم وجود من يعتمد عليها».

- إن كان اكتئابها لسبب مزمن أو هرموني فربما تكون قد قتلت نفسها فعلاً.

نظر إليه لاري مصعوقاً.

- لكن ما أنت إلا رجل واحد، أليس كذلك؟

- نعم.

- واتخذت قرارك؟

- نعم.

- إلى الأبد؟

- نعم.

قال القاضي وقد ارتاح: «إذن تعايش معه. من أجل الرب يا لاري، انضج. زكّ نفسك. تزكية النفس هي للروح كواقى الشمس بالنسبة إلى الجلد الحساس. انضج! لوسي امرأة صالحة. راع نفسك وراعها. تحمل ما هو أكثر من مسؤوليتها ومسؤولية نفسك سيودي بك إلى كارثة».

- أحب التحدث معك.

- ربما لأنني أقول لك ما تريد أن تسمعه. للانتحار وسائل كثيرة كما تعرف.

بعد وقت قصير من حديثهما، تذكر لاري آخر عبارات القاضي في ظروف مريّة.

في الثامنة والرّبع من الصباح التالي، ركب هارولد لودر مع زملائه في الشاحنة متجهين إلى تيّبل ميسا، فصادفهم سيارة لاند روفر تأتي من الجهة المقابلة عند تقاطع شارعى أراباهو وبرودواي.

هتف ويزاك وهو يلوّح بذراعه: «إلى أين أيها القاضي؟».

بدا مظهر القاضي مضحكاً وهو يرتدي قميصاً صوفياً وصدريّة. توقف وأجاب: «سأذهب إلى دينثر اليوم».

- هل ستوصلك هذه السيارة إلى هناك؟

- أعتقد، لو ابتعدتُ عن الطرق الرئيسية المغلقة.

- حسناً، لو مررتُ بواحدة من متاجر الكتب إياها.. أحضر لي حمولة شاحنة منها.

ضحك الرجال من بينهم القاضي، ولم يضحك هارولد. بدا شاحباً مرهقاً كأنه مريض. الحقيقة هي أنه لم ينم مطلقاً، ووفتُ نادين بوعدها حتى إن مزحة ويزاك عن المجلات الإباحية بدتْ سخيّة مقارنة بما جربه أمس. قبل أن يخرج، طلبتُ منه أن تقرأ يومياته، فوافق. إنه يضع نفسه تحت رحمتها، لكنه حائر لا يعرف حقيقة ما يفعله. هذه اليوميات هي أفضل ما كتب طوال حياته، وهو يتوق إلى أن يقرأها أحد... هذا لا يقاوم.

أخرج كيلوج رأسه من نافذة السيارة وقال: «احترس لنفسك. الطرق مليئة بالعجائب هذه الأيام».

رد القاضي بابتسامة غريبة: «بالتأكيد تمتلئ بالعجائب.. أتمنى لك يومًا لطيفًا يا رجال».

وافترقت السيارتان...

لم يتجه القاضي نحو دينقر. بوصوله إلى الطريق 36، عَبَرَهُ ثم خرج منه إلى الطريق 7. شمس اليوم صفراء ساطعة، والطريق الفرعي هذا شبه خالٍ. الوضع كان أسوأ في بلدة برايتون، إذ اضطرَّ إلى مغادرة الطريق المغلق بالسيارات، والالتفاف من حوله خلال فناء مدرسة. أكمل طريقه إلى الشرق حتى الطريق 25 -1، وبدلاً من أن يدخل دينقر، استدار يسارًا نحو الشمال.

في منتصف الطريق توقف ونظر إلى اليسار، إلى حيث تشمخ جبال روكي، وبولدر عند سفحها.

لقد قال للاري إنه أكبر من أن يخوض مغامرة، ولم يكن يكذب. قلبه لم يدق بهذا العنف منذ عشرين عامًا، ولم يشم للهواء رائحة كهذه من قبل، ولم يرَ الألوان زاهيةً إلى هذا الحد قَطُّ.

سيتبع طريقه حتى شين، ثم سيتجه غربًا نحو ما ينتظره خلف الجبال. اقشعرَّ جلده الجاف من الفكرة. سرعان ما سيقابله رجال الخَصْم، ويستجوبونه بطريق غير مباشرة. ستتكرر المقابلات والاستجوابات حتى تصل إليه دعوة أخيرًا.

ربما يقابل الرجل الغامض نفسه.

- استمر يا رجل.. أكمل طريقك...

سيسير في طرق مكتظة، وسيدور من حول سدَّات وتكدسات. يمضي ليله في كيس نوم، وسيتساءل أكان سيرى بولدر مرة أخرى، وسيجيب نفسه بأن الاحتمالات ليست في مصلحته.

لكنه متحمس للغاية...

إن هذا اليوم من أفضل أيام حياته...

بعد ظهيرة ذلك اليوم، قاد نك ورالف وستو دراجاتهم إلى شمال بولدر حيث يسكن توم كولين وحيدًا. لقد صار منزله من معالم المنطقة القديمة من

البلدة. قال ستان نوجوتني إنه لو اجتمع الكاثوليك والبابويون والديمقراطيون والمجانين معًا لإقامة صرح لهم، سيكون هو بيت توم كولين؛ ديزني لاند الدين والسياسة.

باحة المنزل الأمامية معرض تماثيل عجيب، فيه ستة تماثيل للعدراء مريم، تماثيل منهم للعدراء وهي تطعم طيور الفلامنجو. أكبر تماثيل الفلامنجو في طول توم كولين نفسه. في الباحة بئر أمنيات ضخمة مع تماثيل يسوع المسيح مطلي بمادة تضيء في الظلام، يقف داخل دلو ويمد ذراعيه إلى الأمام.. ربما ليبارك تماثيل الفلامنجو. جوار البئر تماثيل بقرة ضخمة تشرب من حوض.

انفتح الباب وخرج منه توم ليستقبلهم عاري الجذع. خطر لِنك أن من يراه من بعيد قد يظنه رسامًا مجنونًا أو كاتبًا مختلًا، بشعره المهوَّش هذا وعينيه المتسعيتين. أما من يراه عن قرب، فقد يظنه حَرْفِيًّا من بلاد أخرى يجد عسرًا في فهم محيطه.

جزء كبير من تعاطف نك مع توم هو أنه يعتبر نفسه ذا إعاقة عقلية من نوع مختلف. لقد قرأ على شفاه الناس كل أنواع الإهانات لعقله باعتباره أن الأصم الأبكم بالضرورة متخلف. نعتوه بالأخرس والأبله وذئ الرأس الطري ومقطوع اللسان. من بين كل العبارات المهينة التي يعرفها، تعبير واحد يناسب توم كولين: الشاب لا يلعب بكامل بطاقاته. هذه هي مشكلة توم ببساطة. بعض بطاقات لعب توم كولين مفقودة، ولا يمكن أن تربح لعبة سوليتير دون بطاقات كاملة.

هتف توم: «نكي! أنا سعيد أنني رأيتك! رباه، نعم! توم كولين فرحان!». أحاط نك بذراعيه، فشعر نك بعينه المصابة تدمع خلف الرقعة التي يغطيها بها في الأيام المشمسة.

- ووالف أيضًا! وهذا الرجل. أنت.. ممكن أن نقول إنك...

كاد ستو يُذكِّره باسمه، لكنَّ نك أشار إليه أن يصمت. لقد اعتاد أن يترك لتوم مساحة للتفكير كي لا تصدأ قدراته. لو ربطت شيئًا تعرفه باسم، فلن تنساه. هكذا علَّمه رودي منذ سنوات طويلة. تجمَّد هارولد للحظات، ثم هتف أخيرًا: «ستو! أنت ستو!».

ربَّته نك استحسانًا، فأكمل: «ق- م- ... هذا هو تهجي كلمة ستو. توم كولين يعرف هذا. كل الناس يعرفون هذا!«.

أشار نك إلى باب بيت توم، فقال الأخير: «تريدون أن تدخلوا؟ رباه، نعم! سندخل كلنا معًا. توم يزين بيته».

تبادل رالف وستو النظرات الباسمة، ثم تبعوا نك وتوم. توم يُزيّن دائمًا ولا يؤثث أبدًا، فالمنزل مؤثث فعلاً من قبل أن يسكنه.

المنزل بالداخل مَهْرَجَان من الألوان والأغراض غير المترابطة.. لا، ليست غير مترابطة. ثمة رابط ما لا يميز تلك المقتنيات، رابط لا يخرج إلا من عقل مثل عقل توم كولين. اضطرَّ ستو إلى الدخول منحنيًا حتى لا يصدم رأسه بقفص ضخم فيه دمية ببغاء خضراء. على رف المدفأة مجسم مكعب، مثبت عليه لافتات دعاية الائتمان التي تثبت على أبواب المتاجر الصغيرة. توم لا يقرأ، لكن كيف جمع تلك اللافتات الصغيرة ذات الصلة؟ لا بدُّ أنه استنتج صلة بصرية بينها.

أخذهم توم في جولة في أرجاء المنزل ليريهم مقتنياته. ملأ القبو بحيوانات مُحَنَطة تلك التي وجدها في متجر تحف. علّق توم الطيور بخيط فبدت كأنها تحوم قرب السقف، ووضع على الأرض الحيوانات يتوسطها قِيُوط مُحَنَط، كأنها محطّ أنظار باقي الحيوانات.

درازين الدرج ملفوف بشرائط حمراء وبيضاء، وتتدلى من السقف فوقهم مجسمات طائراتٍ معلقةٍ بخيط. أرضية الحمام مطلية بالأزرق، وقد نثر توم عليها مجسمات السفن والقوارب.

عادوا أخيرًا إلى غرفة المعيشة، وجلس توم يواجه لوحة ثلاثية الأبعاد لچون وروبرت كيندي على خلفية سحب ذهبية، مكتوب تحتها: أخوان معًا في السماء.

- تعجبكم زينة توم؟ ما رأيكم؟ حلوة؟

أجاب ستو: «حلوة جدًا. أخبرني، ألا توترك تلك الطيور بالأسفل؟».

- رباه، لا! إنها محشوة نشارة خشب!

أعطى نك ورقة لرالف ليقرأ ما فيها، فقال: «توم، نك يريد أن يعرف أكنت تمنع في أن تجرب التنويم المغناطيسي مرة أخرى. هذه المرة التجربة مهمة، وليست لعبة. يقول نك إنه سيفسر لك أكثر لاحقًا».

- آه.. سيقول لي الرجل: أنت.. نعسان.. نعسان.. ان جدًا... صح؟

- نعم.

- هل تريدني أن أنظر إلى الساعة مرة أخرى؟ أتعرف؟ عندما يورجحها هكذا أشعر أنني أريد أن أنام.. نعسان.. ان جدًا. لكنني لستُ نعسان الآن، رباه، لا! أنا نمتُ مبكرًا أمس. توم كولين يذهب إلى الفراش مبكرًا لأن ليس عنده تلفاز ليشاهده.

قال ستو برفق: «توم، هل تريد أن ترى فيلًا؟».

انغلقتُ عينا توم على الفور ومالت رأسه إلى الأمام وانتظم تنفسه. تفاجأ ستو بما حدث. قال رالف: «كأنك وضعتَ رأس دجاجة تحت جناحها».

أعطى نك (الحوار) المتفق عليه لهذا اللقاء لستو، تردّد الأخير فهز الأول رأسه مشجعًا ووجهه واجم آسف. سأل ستو: «هل تسمعي يا توم؟».

- نعم أسمعك.

صوت توم وطريقه كلامه جعلت ستو ينظر إليه متعجبًا. كان مختلفًا عن صوته المعتاد بطريقة لا يستطيع ستو تحديدها. ذكره هذا بحفل تخرجه من المدرسة العليا. كان يعرف أغلب زملائه منذ الطفولة المبكرة، وللحظة نظر إلى وجوههم وشعر بحيرة غريبة. كيف تغيرت وجوههم هكذا ولم تتغير بعد الوقت نفسه؟ لم تعد وجوه أطفال ولم تصبح وجوه رجال بعد. وجوه في منطقة وسطى بين عُمرين واضحي السمات. صوت توم كولين أت من هذه المنطقة. هذا صوت الرجل الذي لن يكونه توم أبدًا.

- أنا ستو ريديمان يا توم.

- نعم. ستو ريديمان.

- نك هنا.

- نعم. نك هنا.

- ورالف برينتتر هنا.

- نحن أصدقاء.

- أعرف.

- نريد أن نطلب منك فعلَ شيء من أجل المنطقة الحرة. شيء خطر.

- خطر...

بدا لهم على وجه توم كأنه سحابة صيف تعبر من فوق حقل ذرة.

- هل المفترض أن أخاف؟ هل...

ثم تنهّد وترك عبارته مبتورة. نظر ستو إلى نك مغمومًا، فحرك نك شفتيه بكلمة: نعم.

قال توم: «إنه هو». صوته كصوت ريح نوفمبر القاسية تعصف بأغصان شجرة بلوط. ارتعد ستو مرة أخرى، وشحب وجه رالف. سأل ستو برفق: «مَن هو؟».

- فلاج. اسمه راندال فلاج. الرجل الغامض. تريدونني أن...

ثم تنهّد مرة أخرى تنهيدةً طويلةً مُرة. سألته ستو سؤالًا خارج الحوار المتفق عليه: «كيف عرفته يا توم؟».

- الأحلام. رأيتُ وجهه في الأحلام.

رأيتُ وجهه في الأحلام. لكن أيهم لم يرَ وجهه قطُّ.

- رأيتُه؟

- نعم.

- كيف يبدو يا توم؟

صمت توم طويلًا، وظن ستو أنه لن يجيب، فكاد يكمل الحوار المتفق عليه، لولا باغته توم بقول: «إنه يشبه أي شخص قد تراه في الشارع. لكن عندما يكشر، تسقط الطيور ميتة من فوق أسلاك الهاتف. عندما ينظر إليك بطريقة معينة تشعر بانقباض في خصيتيك. يصفّر العشب ويموت من بصقته. إنه دائمًا بالخارج ويعود في الوقت الذي يحدده. إنه لا يعرف نفسه. اسمه اسم ألف شيطان. حبسه يسوع داخل قطيع خنازير في مرة. اسمه الفيلق⁽¹⁾. إنه يخشانا. يعرف السحر. يمكنه أن يستدعي الذئب وأن يعيش في الغربان. إنه ملك اللامكان. لكنه خائف منا. خائف من... الداخل».

صمت توم.

(1) ورد في الكتاب المقدس أن يسوع طرد فيلق شياطين من جسد رجل، وأسكنهم أجساد خنازير، فاندفعت تلك الخنازير إلى النهر وغرقت. يشار إلى مجموعة الشياطين هذه باسم الفيلق (المترجمة)

نظر الرجال الثلاثة إلى بعضهم، متصليين كشواهد القبور. خلع رالف قبعته وراح يفرکہا بين يديه. غطى نك عينيه بيده. تحولت حجرة ستو إلى شظايا زجاج.

اسمه الفيلق. إنه ملك اللامكان.

سأله ستو: «هل من شيء آخر تضيفه إلى وصفه؟».

- نعم. أنا أيضًا خائف منه. لكنني سأفعل ما تريد. لكن توم... خائف».

قال رالف فجأة: «توم، هل تعرف أكانت الأم أباجيل.. ما زالت حية؟».

وجه رالف قانط، كوجه من يعلق مكسبه وخسارته على بطاقة لعب واحدة.

- إنها حية...

هوى رالف بظهره إلى ظهر المقعد وزفر زفرة راحة. أضاف توم: «لكنها لم تتصالح مع الرب بعد».

- لم تتصالح مع الرب؟ لماذا يا توم؟

- إنها في البرية.. لقد تركها الرب في البرية. هي لا تخشى الرعب الذي يطير في النهار، ولا الخوف الذي يتسلل بالليل.. لم تلدغها الحيات ولم يلسعها النحل.. لكنها لم تتصالح مع الرب بعد. ليست يد موسى هي ما أخرجت الماء من الحجر. ليست يد أباجيل من أبعدت بنات عرس ببطون جائعة. ستعرف، لكنها ستعرف متأخرًا جدًا. سيكون موت.. موته. ستموت على ضفة النهر الأخرى، س...

زعق رالف: «أوقفه. ألا يمكن أن توقفه؟».

قال ستو: «توم».

- نعم.

- هل أنت توم ذاته الذي قابله نك في أوكلاهوما؟ هل أنت توم ذاته الذي نعرفه؟

- نعم. لكنني أكثر من مجرد توم.

- لا أفهم.

- أنا توم الرب.

ارتجفت يدا ستو فكاد يسقط دفتر نك.

- تقول إنك ستفعل ما نريد.

- نعم.

- هل ترى.. هل تعتقد أنك ستعود؟

- ليس من حقي أن أرى أو أقول. إلى أين سأذهب؟

- إلى الغرب يا توم.

تأوّه توم، فانتصب شعر ستو. ما الذي سنرسله إليه؟ ربما يعرف ستو...
ربما كان هناك من قبل عندما كان يعدو في متاهات مرعبة تتبعه خطوات
ذات صدى.

قال توم: «الغرب... نعم الغرب...».

- سنرسلك يا توم لتنظر وترى، ثم تعود.

- أعود وأخبركم.

- هل تستطيع فعل ذلك؟

- نعم. إلا لو أمسكوني وقتلونني.

أجفلوا جميعًا. أكمل ستو بصوت مختنق: «ستذهب وحدك إلى الغرب يا
توم. هل تعرف الغرب؟».

- حيث تغرب الشمس.

- ولو سألك أحد هناك عن سبب مجيئك، ستقول لهم إن أهل المنطقة
الحرّة طردوك...

- طردوني... طردوا توم. رموه في الشارع...

- لأن عقلك ضعيف...

- طردوا توم لأن عقل توم ضعيف.

- ولأنك قد تحصل على امرأة، وقد تنجب المرأة أطفال متخلفين.

- متخلفين مثل توم.

مغصت معدة ستو، وصار رأسه كحجر، كأنه يعاني حالة ما بعد الثمالة.

- كرّر الآن ما ستقوله لو سألك أحد عن سبب وجودك في الغرب.

- لقد طردوا توم لأن عقله ضعيف. رباه، نعم. كانوا يخشون أن أحصل على امرأة كما يحصلون عليها في الفراش. وأجعلها تحمل بأطفال متخلفين.
- هذا صحيح يا توم.
- كرّر بصوت حزين منخفض: «طردوني. طردوا توم من بيته الجميل ورموه في الشارع».
- مسح ستو وجهه بكفه المرتعشة، نظر إلى نيك فرأى صورته تهتز. قال: «نيك.. لا أعرف أكنت قادرًا على استكمال الأمر...».
- نظر نيك إلى رالف الباهت كالجبين، فhez رأسه. قال توم فجأة: «أكمل. لا تتركني في الظلام...».
- أكمل ستو مرغمًا: «هل تعرف يا توم شكل البدر؟».
- نعم. كبير ومستدير.
- أنا أتكلم عن البدر؛ القمر الكامل، لا نصف القمر ولا ثلاثة أرباعه.
- أفهم.
- عندما ترى القمر الكبير المستدير، ستعود إلى الشرق، إلينا. ستعود إلى بيتك هذا يا توم.
- نعم. عندما أراه سأعود.
- وأنت عائد، ستمشي في الليل وتنام في النهار.
- أمشي في الليل، أنام في النهار.
- ولن تدع أحدًا يراك لو استطعت.
- لا.
- لكن يا توم، ربما يراك أحد.
- نعم.
- لو كان من يراك بمفرده، اقتله.
- قال توم في شك: «أقتله...».
- لو كان من رآك أكثر من واحد اهرب.
- قال في ثقة: «أهرب...».

- لكن الأفضل ألا يراك أحد أبدًا. هل يمكنك أن تكرر كل هذا؟
- سأعود عندما يكون القمر كاملاً، لا نصف قمر ولا قمر كقلامة الأظفار. سأمشي في الليل وأنام في النهار. لن أدع أحدًا يراني، لو رأيني واحد أقتله، لو رأيني كثير أهرب. سأحاول ألا يراني أحد.
- ممتاز. أريدك أن تستيقظ خلال ثوانٍ.
- حسنًا.
- عندما أسألك عن الفيل ستستيقظ.
- أسند ستو ظهره إلى ظهر المقعد وغمغم: «الشكر للرب على انتهاء هذه الجلسة».
- وافقه نك. سأله: «هل كنت تعرف أن هذا سيحدث؟». هز نك رأسه نفيًا، فأكمل ستو: «كيف له أن يعرف هذه الأمور؟».
- أشار نك إلى دفتره فأعطاه إياه ستو. كتب الأول ثم أعطى الدفتر لرالف الذي قرأ ببطء، ثم ناوله لستو.
- «اعتقد البعض خلال التاريخ أن المجانين والمتخلفين قريبين إلى الرب. لا أعرف أكان قد ذكر شيئًا ذا فائدة عملية لنا، لكنني أعترف أنه أرعبني. لقد ذكر السحر.. كيف نحارب السحر؟».
- غمغم رالف: «تلك الأمور التي ذكرها عن الأم أباجيل ترهق عقلي. أيقظه يا ستو ولنخرج من هنا بأسرع ما يمكن».
- مال ستو إلى الأمام وقال: «توم؟».
- نعم.
- هل تريد أن ترى فيلًا؟
- فتح توم عينيه على الفور ونظر حوله وهو يهتف: «قلت لكم إن التجربة لن تنفع. رباه، لا! لا يشعر توم أنه نعسان في منتصف اليوم».
- قرأ ستو ما كتبه نك للتو: «يقول نك إنك كنتَ ممتازًا».
- فعلًا؟ وقفتُ على رأسي مثل المرة السابقة؟
- في مرارة فكر نك: «لا يا توم، هذه المرة أديتَ حيلًا أفضل بكثير».
- قال ستو: «لا. توم، لقد جئنا نطلب منك مساعدة».

- أنا؟ مساعدة؟ طبعًا! أنا أحب المساعدة!

- هذه مهمة خطيرة يا توم. نريد منك أن تذهب إلى الغرب وترى ما يحدث هناك ثم تعود وتخبرنا.

قال توم دون تردد: «طبعًا. بالتأكيد». إلا أن ستو لمح ظلًا لحظيًا خيم على عينيه الزرقاوين. «متى سأذهب؟».

وضع ستو يدًا رفيعة على عنق توم وتساءل عما يفعله بحق الجحيم. كيف يعرف أن ما يفعله صواب وهو ليس الأم أباجيل ولا لديه خط مفتوح مع الرب ليسأله؟

- قريبًا يا توم. قريبًا.

عاد ستو إلى شقته ليجد فراني تجهز العشاء. قالت له: «مر هارولد عليك. طلبتُ منه أن ينتظرَكَ ويتناول معنا العشاء لكنه رفض». - أوه...

تفحصتُ فراني وجهه المهموم وسألته: «هل عضك كلب يا ستورات ريديمان؟».

- كلب اسمه توم كولين.

حكى لها كل شيء وهما يتناولان عشاءهما. سألته: «ما معنى هذا؟». لم تكن تأكل، بل تدفع الطعام من جانب الطبق إلى الجانب الآخر.

- لا أعرف. ربما نوع من الاستبصار. لا أعرف لماذا نتساءل عما رآه توم وهو تحت تأثير التنويم بالإيحاء، فيما جئنا إلى هنا جميعًا نتبع أحلامنا.

- لكننا لم نعدُ نراها منذ وقت طويل. أو على الأقل هذا ما حدث معي.

- وأنا أيضًا.

- أعرف أننا اتفقنا على ألا نتكلم عن أمور اللجنة خارج اجتماعات اللجنة، لكنُ أريد فقط أن أسألكَ أكنت ترى بعد أن إرسال توم كولين إلى الغرب فكرة جيدة. خاصة بعد ما حدث اليوم.

دفع ستو طبقه الذي لم يأكل منه شيئًا، وقام ليُخرج علبة السجائر من الخزانة. كان قد قلل استهلاكه كثيرًا، لكنه اليوم في حاجة إلى واحدة زيادة.

- لا أعرف يا فراني. لكنني أرى أن القصة التي سيذهب بها إلى هناك مُقنعة للغاية، ولن يشكَّ فيه أحد. لو عاد بخير، سننوّمه مرة أخرى ونستجوبه. ربما سيحصل على معلومات لن يستطيع أحد أن يحصل عليها مثله. سيكون ككاميرا لا تنسى شيئاً.

- هذا لو عاد بخير.

- لقد أعطينا إرشادات عودة كاملة، وقلنا له أن يقتل مَنْ يراه إن كان وحده، و...

- ستو! أنت لم تفعل هذا، صح؟

قال في غضب: «بل فعلت! نحن لا نلعب هنا يا فراني! لا بدّ أنك تعرفي ما قد يحدث له وللقاضي ولداينا لو أمسكوا بهم هناك، وإلا لما عارضتِ الفكرة في البداية!».

غمغمت: «لا بأس يا ستو...».

- لا! هذا بأس!

نفض سيجارته بحنق في المنفضة، فطارت ذرّة رماد حطت على ظهر يده فلسعتها. مسحها بضربة وهو يهتف: «في إرسال رجل ضعيف العقل إلى معركة بأس. في تحريك الناس كأنهم قطع شطرنج بأس. في توجيه الناس للقتل بأس. لكن ما لم نعرف ما يجري هناك، فقد يحول المنطقة الحرة إلى سحابة غبار بحلول الربيع القادم».

- حسناً... حسناً...

قبض كفيه محاولاً السيطرة على انفعاله وقال: «آسف.. صرخت فيك. لا حق لي في فعل هذا يا فراني».

- لا مشكلة. أنا التي فتحتُ صندوقَ باندورا واستفزتك.

- نحن جميعاً نفتحه...

أخرج سيجارة أخرى وهو يكمل: «عندما أمرته بالقتل، رأيتُ ذلك التعبير على وجهه، ولا أظنّ نك ورالف لاحظاه. كأنه... كأنه يقول لي إنه يفهمني، لكنه يتصرف بطريقته الخاصة».

- قرأتُ أن الخاضعين للتنويم المغناطيسي لا ينصاعون للأوامر التي تتعارض مع أخلاقياتهم.

- نعم، كنت أفكر في الأمر نفسه. لو كنتُ مكان ذلك الأخ في الغرب، لصفقتُ حرسًا على طول الحدود الغربية لأرضي. لو صادفهم توم فسيخبرهم بقصته وسيُدخلونه أو يرُدُّونه. المشكلة في العودة. لا بُدَّ أن يصادف أحدًا، وقتها سيُضطرُّ توم إلى القتل.
- أنت تقلق أكثر من اللازم بصدد هذه النقطة. الحدود ممتدة، ولو أنه سيضع عليها حرسًا، فلن يكونوا بهذه الكثافة.
- نعم. حارس كل خمسين ميلًا. إلا لو كان لديه من الناس أكثر مما لدينا بخمسة أضعاف.
- ما لم تكن لديهم أجهزة كشف أكثر تطورًا، رادار أو شيء من هذا القبيل، يمكن لتوم أن يمرَّ من بين الحرس ولا يلاحظوه.
- هذا ما نتمناه، لكن...
- لكنكم تضعون كل الاحتمالات أمامكم وتختارون أسوأها.
- أليس من المفترض أن نفكر على هذا النحو؟ المهم.. ماذا كان يريد هارولد؟
- ترك لك خرائط الأماكن التي بحثوا فيها عن الأم أباجيل. هارولد يعمل الآن مع لجنة الدفن ويشرف على لجنة البحث. بدا مرهقًا، لكنَّ مهام المنطقة الحرة ليست السبب الوحيد. يبدو أنه مشغول بأمر آخر.
- أي أمر؟
- صار لهارولد امرأة.
- رفع ستو حاجبيَّه دهشةً، فأكملت: «لهذا اعتذر عن العشاء معنا. خَمَّن من تكون».
- نظر ستو إلى السقف وهو يقول: «من يضاجع هارولد الآن... دعيني أظن...».
- يا لها من طريقة لصياغة العبارة!
- مَنْ تكون يا فراني؟ أنا أستسلم.
- نادين كروس.
- المرأة ذات الخصلات البيضاء؟
- نعم.

- إلهي، إنها في ضعف عمره.
- أشك في أن هارولد سيهتم لهذا.
- هل يعرف لاري؟
- لم تعد نادين امرأة لاري الآن، هذا إن كانت امرأته من قبل.
- سعد ستو لأن هارولد وجد حباً في حياته، لكنه لم يهتم أكثر بالخوض في الأمر. سألها: «ما رأي هارولد في لجنة البحث؟ هل حادثك في الأمر؟».
- أنت تعرف هارولد، يبتسم كثيراً ويتكلم قليلاً. ربما لهذا السبب أحب لجنة الدفن. يطلقون عليه لقب صقر هناك.
- حقاً؟

رفعت ساقها وواجهته بنعليهما وهي تضحك وتقول: «لقد صار غريباً، حتى إنه أطرى على ذوقي في الأحذية. هه، الحذاء الذي لا يعجبك».

وضحكا وستو ينظر إلى نعل حذاءها المنقوش بالدوائر والخطوط.

استيقظ هارولد قبل الفجر. ارتجف من برودة الجو رغم أن الخريف على بعد شهر. نادين إلى جواره، حرارة جسدها تجعله يفكر في إيقاظها واستكمال ما انتهيا منه منذ ساعات قليلة.

لكنه بعد لا يفهم عينيها الداكنتين.. لكنه بعد يخشاها.

قام وارتدى ملابسه وقد قرر ألا يقترب من نادين أكثر مما تريد هي. إنه في حاجة إلى الاختلاء بنفسه ليفكر.

عند الباب توقف حاملاً حذاءه وقد غادرته رغبته. الغرفة مظلمة، وأدرك فجأة أن رائحتها غير مقبولة. لقد قالت إن في وسعها فعل كل شيء إلا شيئاً واحداً، وهي بارعة حقاً في كل شيء آخر. إن كان هذا الأمر الواحد غير مهم، فلماذا تفوح الغرفة بتلك الرائحة الحامضية التي يربطها بوحده وكبته طوال السنوات القاسية الماضية؟

ربما لأنك تريد هذا الشيء الواحد...

انفتحت عينا نادين لحظة انغلاق الباب من خلفه. نظرت إلى الغرفة حولها ثم أغمضت عينيها. جسدها يؤلمها من الرغبة المكبوتة، ألم أقرب إلى ألم

الحيض. إن كان هذا الأمر الوحيد غير مهم (لم تكن تعرف شيئاً عن خواطره الأخيرة) فلماذا لا تشعر بالرضا؟

وسط كل ما فعلاه، لم تختفِ صورته من خيالها، عريسها المنتظر يحذرهما من التماذي، من الإشباع. إن كان يراقبهما، فلماذا لم يعترض على خلعتها ولا أفعالها؟ أي خطيب هذا؟!

ظلت تحقق إلى السقف وقتاً طويلاً.

صنع هارولد قهوته وأخذ قطعتي كعك وجلس يأكل إفطاره أمام المنزل فيما الشمس تشرق.

الأسبوع الماضي كان سلسلة من الشاحنات البرتقالية وربتات ويزاك على كتفه و«يا صقر» وجثث لا تنتهي، ثم العودة إلى المنزل وممارسة الجنس بلا توقف. كل هذا كافٍ ليغشى عقلك.

لكنه الآن يجلس على درجة رخامية مثلجة، ويشرب قهوة بشعة الطعم، ويأكل كعكاً طعمه أقرب إلى نشارة الخشب، ويفكر.

خطر له أنه لم يعد يفكر كثيراً، هو الذي لطالما اعتبر نفسه إنساناً وسط قطع من الغوريلا. لقد صار مُنقاداً، تسحبه نادين لا من عنقه، بل من دُكره.

لقد تأكد الآن أن فراني هي من اقتحمت منزله. لقد ذهب إلى حيث تعيش مع ريديمان، ووجدها ترتدي الحذاء نفسه الذي تركت أثره على حائط بيته. يبدو أنه ترك علامة أو لطخة على صفحات يومياتها، وقد جاءت لترى ما يشير إلى رأيه عما قرأ فيها، شيئاً مكتوباً.

لم تعثر على سجله، فقد وجده مكانه. ولو كانت وجدته لأخبرت ستو ريديمان، أو ما كانت لتظهر على طبيعتها.

أنهى إفطاره وقرر المشي حتى المحطة بدلاً من قيادة دراجته، ويمكن أن يوصله ويزاك أو نوريس في طريق العودة. أغلق سحاب سترته حتى عنقه، ومشى بين البيوت التي تحمل بعض أبوابها علامة X، تلك التي أفرغوها من الجثث. قريباً ستحمل مناطق كاملة تلك العلامة، كدليل على انتهاء حِقبة زمنية كاملة.

لا بُدَّ أن يفكر أكثر. منذ عرف نادين كَفَّ عن التفكير.. أو ربما كَفَّ قبل ذلك.

فكر: لقد قرأتُ مذكراتها وشعرتُ بالإهانة والغيرة، واقتحمتُ بيتي ولم تجد مذكراتي. ربما اقتحامها المنزل ومغامرتها بانكشاف أمرها انتقام كافٍ، وعليه أن ينسى الأمر.

هل ما زال يرغب في فراني؟ ربما لا.. لكنَّ هذا لا يغير حقيقة أنهم استثنوه من اللجنة. مع أن نادين لم تذكر الكثير عن سبب لجوئها إليه، لكنَّ ربما استثنوها بشكل أو بآخر. إنهما مُستبعدان، والمُستبعدون يحكون المؤامرات. هذا ما يحافظ على عقلهم. (تذكر يا هارولد أن تضيف هذه العبارة إلى السجل).

على الجانب الآخر من الجبل حشد من المُستبَعدين، ومع هذا العدد في مكان واحد يحدث ارتشاح سحري، فيجذب المزيد إلى الدفء بالداخل.

ربما لا يرغب حقًا في إنهاء الخلافات والاستسلام لحياة القرن العشرين واستقبال رسائل الشكر على أفكاره. لن ينتظر خمس سنوات حتى يموت جِلن بيتمان ليرث مكانه في اللجنة.. ماذا لو قرروا استبعاده مرة أخرى؟ قد يفعلون ذلك، فهم لم يستبعدوه بسبب سنه. لقد قبلوا بينهم أصم أبكم لا يزيد عمره على عمر هارولد إلا بضع سنوات.

تستعر الأحقاد في قلبه أكثر. فكَرَّ.. الكلام سهل، وحتى الأفعال سهلة، أما الأفكار نادرة. لكن ما الذي سيجنيه من التفكير، في عالمٍ تحكمه الغوريلات؟ وصل إلى محطة الحافلات. كان الوقت مبكرًا ولم يصل أحد بعد. على الباب إشعار باجتماع عمومي آخر يوم الخامس والعشرين. اجتماع عمومي؟ اجتماع مخابيل عمومي.

غرفة الانتظار ذات حوائط مغطاة بملصقات حافلات جراي هاوند الدعائية. نظر حوله إلى آلة بيع الحلوى، وآلة بيع الكولا، وآلة صنع القهوة وحساء ليبتون ذي رائحة السمك الميت. آلات في كل مكان بلا نفع. أشعل سيجارة ورمى عود الثقاب على الأرض.

لقد صدَّقوا على الدستور، برافو.. مرحى.. يا سُطَّار. بل إنهم غنوا السلام الوطني لولايات الموز المتحدة. بحق المسيح، حقًا؟ ماذا لو لم يعرض هارولد

لودر بعض الاقتراحات البناءة، وعرض عليهم بعض الحقائق عن الحياة في السنة الأولى بعد الوباء؟

أيها السيدات والسادة. اسمي هارولد لودر، وأنا هنا لأخبركم أن التطور حقيقة كما قال داروين. المرة القادمة التي ستقفون فيها لتنشدوا السلام الوطني أيها الأصدقاء والجيران، فكروا في هذه الحقيقة.. أمريكا ماتت وشبعت موتًا. ماتت كما مات چاكوب مارلي وبدي هولبي وهاري ترومان، ولم يبقَ إلا ما أقره داروين.. بينما تتأملون جمال الدستور، اقتطعوا بعض الوقت لتتأملوا راندال فلاج، رجل الغرب. لا أعتقد أن لديه وقتًا يضيعه في حماقات مثل الاجتماعات العمومية والتصويتات والمناقشات حول معنى الخوخ على ضوء الليبرالية الحديثة. بدلًا عن ذلك يركز فلاج على الأساسيات، ويجهز نفسه لتنظيف منضدة مطبخ العالم بجثثكم. سيداتي سادتي، دعوني أقول بكل تواضع، إنه بينما نحاول توصيل الكهرباء، والعثور على طبيب، يبحث هو عن طيار يقود طائرة حربية يقذف بها بولدر، وصواريخ ومقذوفات وقنابل وفيروسات قاتلة. نعرف أن هذه البلاد خالية الآن من أي مراكز أبحاث فيروسية، وهذا ما يجعلها بلدًا عظيمة -أي بلاد؟ ها ها- لكن دعوني أذكركم أن...

- مرحبًا يا صقر. وصلت مبكرًا...

ابتسم هارولد وقال لويذاك: «نعم. كنتُ آمل الحصول على مكافئة وقت إضافي».

فانخرط الرجلان في الضحك.

الفصل السادس والخمسون

قضى ستو النهار التالي في محطة توليد الطاقة، وعاد إلى بيته في نهاية اليوم. كان قد وصل إلى المتنزه الصغير أمام المصرف الوطني وقتما ناداه رالف، فأوقف دراجته جوار مجلس رالف.

- كنت أبحث عنك يا ستو. هل لي بدقيقة؟

بدا رالف مهمومًا شاردًا، وهو جالس وسط صخب المتنزه. فكر ستو في أن الجلوس هنا بيدين متفحفتين من لف المحركات وربط الصواميل سيكون ممتعًا، لكنّ تولي أمر الشرطة أكثر راحة، على الأقل سيبعده عن خط التجميع في شرق بولدر.

سأله رالف: «كيف الحال في محطة الطاقة؟».

- لا أعرف. أنا مجرد عامل مثلي كمثلي الآخرين. يقول براد كيتشنر إن التيار سيعود في نهاية أول أسبوع من سبتمبر، أو قبل ذلك. أفهم أنه شاب بعد، وتقديراته للوقت قد تكون...

- أنا أثق به، وله خبرة عملية قديمة.

- ما بك يا رالف؟ ما المحشور في حلقك؟

- سمعتُ أخبارًا في جهاز الاستقبال، بعضُها جيدًا وبعضُها.. أريد أن أعلمك بما يحدث يا ستو، فلا يمكن أن يظل الأمر سرًا. لدى الكثير من أهالي المنطقة أجهزة استقبال مماثلة، وربما سمعني البعض وأنا أتكلم مع المجموعة الجديدة القادمة.

- كم عددهم؟

- أكثر من أربعين، واحد منهم طبيب، اسمه جورج ريتشاردسون. يبدو رجلاً نكيًا.

- حسنًا.. هذه أخبار ممتازة!

- أغلب أفراد المجموعة من منتصف جنوب البلاد. كان معهم امرأة حامل ولدت توأمين يوم الثالث عشر من أغسطس.. وكانا بخير.. في البداية.

هتف ستو: «ماتا؟ الطفلان ماتا؟ أهذا ما تحاول إخباري به؟ تكلم عليك اللعنة!».

أجاب بصوت مخفض: «ماتا. عاش واحد منهما اثنتي عشرة ساعة. اختنق حتى الموت. عاش الثاني يومين. لم يستطع الطبيب نجاته. جُنَّت المرأة وظلت تتحدث عن الموت والدمار وانقطاع النسل. يجب أن تتأكد من أن فران بعيدة عندما تصل المجموعة. يجب أن تخبرها يا ستو قبل أن يخبرها شخص آخر». قال رالف إن الطبيب يريد أن يعرف كم امرأة حامل في البلدة، فأجابه أنها امرأة واحدة حتى الآن في الشهر الرابع. صحَّح له ستو: «إنها في الشهر الخامس يا رالف. لكن، هل هو واثق من أن الطفلين ماتا بسبب الإنفلونزا الفائقة؟».

- لا، ليس واثقًا، ويجب أن تخبر فراني بهذا أيضًا. قال إن السبب قد يكون ناتجًا عن تغذية الأم.. مرض وراثي.. عدوى تنفسية.. أو كانا ناقصي النمو. الأسباب كثيرة. اجتمع قادة المجموعة من بينهم الطبيب، وقرروا أن يبحثوا الأمر، ويتأكدوا أكان ما قتل الطفلين كابتن ترييس أم شيئًا آخر».

- تحدثتُ أنا وجلن عن الأمر من قبل يوم قابلته. لو أن الوباء هو ما قتل الطفلين، فهذا يعني أننا سنترك كل شيء للفئران والذباب بعد خمسين عامًا أو ستين.

- هذا ما قاله لهم الطبيب. كانوا قد دفنوا الجثتين واقتربوا من شيكاغو عندما اقترح عليهم العودة لإخراجهما وتشريحهما في المستشفى المركزي، وقال إنه قادر على معرفة السبب خاصة وقد عاين الكثير من المصابين بالوباء في نهاية يونيو.

- ثم؟

- لكن المرأة هي التي دفنت الطفلين قبل مغادرتهم المعسكر، ورفضت أن تخبرهم بمكانهما. أمضيا يومين في الحفر ولم يعثرا عليهما، ولم تقتنع هي بأهمية الأمر. لقد فقدت عقلها...

فكر ستو في فران ومدى تعلقها بطفلها. قال: «أتفهم هذا».

- قال الطبيب إنه لو كان حتى سبب موتهما الإنفلونزا الفائقة، فربما ينتج عن أبوين منيعين طفل سليم.

قالها رالف في أمل، فغمغم ستو: «فرص أن يكون والد طفل فراني منيعًا منعدمة تقريبًا. إنه ليس هنا طبعًا».

- أعتقد أن كلامك منطقي. اعذرني.. رأيت أن الأصوب أن أخبرك يا ستو، كي تخبرها.

لكن إذ دخل البيت، عرف أن أحدًا آخر أدى هذه المهمة.

- فراني؟

الطعام على الموقد يكاد يحترق، والشقة مظلمة هادئة. بحث عنها في غرفة المعيشة، فلم يجدها، ووجد عقبي سجائر في المنفضة. فراني لا تدخن وهو لا يدخن هذا النوع.

- حبيبتي؟

وجدتها راقدة في غرفة النوم المظلمة تحديق إلى السقف، وجهها منتفخ ملطخ بالدموع. قالت في هدوء: «مرحبًا يا ستو...».

هتف حانقًا: «مَن أخبرك؟ من الذي عجز عن الانتظار حتى يذيع الخبر السار؟ أيًا كان، سأكسر ذراعه اللعينة».

- إنها سوزان ستيرن. سمعت الأمر من چاك چاكسون الذي سمع الطبيب يتكلم مع رالف خلال الراديو. أخبرتني قبل أن يخبرني شخص آخر. فراني التعسة، قابلة للكسر، لا تفتحها قبل الكريسماس.

ضحكتُ فران ضحكةً مهشمةً، فدمعت عينا ستو. جلس إلى جوراها ومسّد شعرها. همس: «هذا ليس صحيحًا يا حبيبتي. لا يمكن أن يكون صحيحًا».

- أعرف.. وربما أنجبنا أنا وأنت أيضًا...

رفعت عينيها المحمرتين إليه، وأضافت: «لكني أريد هذا الطفل. ما المشكلة؟».

- لا شيء طبعًا.

- تمددتُ هنا أنتظره أن يتحرك. لم يتحرك منذ ليلة جاء لاري يبحث عن هارولد. هل تتذكر؟

- نعم.

- شعرتُ به يتحرك، ولم أشأ أن أوقظك. ليتني أيقظتك.

وبكت مرة أخرى وهي تغطي عينيها بذراعها. أحاطها بذراعيها، فدفست وجهها في صدره وبكت. بعد دقائق تماكنت نفسها وقالت بصوت مكتوم: «الجهل كان ليجعل الأمر أصعب. أنا الآن أنتظر مرور الأيام حتى أعرف أكان سيموت أم سيعيش.. لن أتفاجأ بالأمر».

- لن تنتظري وحدك.

تعانقا، ورقدا معًا دون حركة وقتًا طويلاً...

كانت نادين كروس في غرفة معيشة بيتها القديم منذ خمس دقائق، تجمع حاجاتها، قبل أن تراه جالسًا على مقعد في الركن، لا يرتدي سوى سرواله الداخلي ويدس إبهامه في فمه وهو يراقبها بعينيه الصينيتين الخضراوين. تفاجأت بوجوده طوال هذا الوقت، فأجفلت وقفز قلبها إلى حنجرتها، وسقط الكتاب الذي كانت تمسكه على الأرض.

- چو... أعني، ليو...

رؤيتها إياه فاجأتها، لكنها تفاجأت أكثر بنكوصه إلى الوضع الذي رأيته عليه عندما قابلته في نيو هامبشير. هذا تغيير مفاجئ، وكأن إلهًا مجنونًا قد حكم عليها بالعودة في الزمن لتعيش ما عاشته خلال الأسابيع الستة الماضية.

- لقد أفزعني.

لم يقل چو شيئًا.

مشت ببطء نحوه، وهي تتوقع سكينًا عملاقة بين يديه. كان لونه قد صار ناصعًا واختفت آثار الجروح عن جسده، لكن عينيها عادت كما كانت يوم

قابله، عياناً قد تطاردك للأبد. خبا بريق كل ما تألق فيها منذ عزف الجيتار مع لاري، وعادت مظلمة خاوية.

- ماذا تفعل هنا؟

لم يقل چو شيئاً.

- لماذا لست مع لاري وماما لوسي؟

لا رد.

- لا يمكن أن تبقى هنا.

كانت مذعورة، تحاول التحدث إليه بالعقل. ترى منذ متى وهو هنا؟

هذا هو صباح يوم الرابع والعشرين من أغسطس، وقد أمضت ليلتين عند هارولد. هل كان يجلس هنا وإصبعه في فمه منذ يومين؟ إنها فكرة سخيفة طبعاً، لا بد أن يأكل ويشرب (هل أكل وشرب فعلاً؟). ثم خطر لها أنها أيضاً تغيرت كثيراً خلال اليومين الماضيين. لقد صارت شخصاً آخر. لكنها عادت الآن وهو هنا أمامها.

- لا يمكن أن تبقى هنا. لقد جئتُ أجمع بعض الأغراض وسأرحل. سأنتقل للعيش مع... رجل.

قال صوتها الداخلي: هل هارولد حقاً رجل؟ ظننته أداة، وسيلة للوصول إلى غاية.

- اسمع يا ليو...

هز رأسه هزة محسوسة بالكاد وهو ينظر إلى وجهها في ثبات.

- أنت لست ليو؟

كرر هزة الرأس مجدداً.

- أنت چو؟

أوماً موافقة.

- حسناً، لا مشكلة. أريد أن تعرف أن اسمك لا يهم.

حاولت أن تصبر معه. يزداد رعبها مع شعورها أنها عادت بالزمن إلى المربع صفر. أكملت: «هذا الجزء من حياتنا، الجزء الذي عشناه معاً وحدنا، قد مرّ ولن يعود. لقد تغيرت أنت وتغيرت أنا، ولا يمكن أن نعود كما في السابق».

مكتبة
t.me/soramnqraa

ظلت عيناه الغريبتان مثبتتين على وجهها، كأنه ينكر ما تقول. صاحت: «كفّ عن التحديق إليّ. هذا تصرف غير لائق».

ظهر شيء من الاتهام على عينيه، كأنه يقول لها إن التخلي عن الناس تصرف غير لائق، وسحب محبتك من أشخاص يحتاجون إليك تصرف غير لائق.

قالت وهي تعود لتجمع حاجاتها: «كأنني تركتك وحدك تمامًا...».

حشرت أغراضها في حقيبتها كيفما اتفق وهي تكمل: «لديك لاري ولوسي. أنت تريدهما وهما يريدانك. لاري يريدك، وهي تريد كل ما يريده لاري. إنها ورقة كربون ناسخة. الأمور اختلفت بالنسبة إليّ يا چو، وهذا ليس خطأي. لا تحاول أن تقيدني بالشعور بالذنب».

حاولت غلق الحقيبة بيديها المرتجفتين. الصمت يزداد كثافة بينهما. حملت الحقيبة على ظهرها وقالت أخيرًا بهدوء كما اعتادت أن تفعل مع الأطفال في المدرسة: «ليو...».

صوتها مرتجف وهي عاجزة عن السيطرة على كلامها. هتفت بعنف: «المشكلة ليست في لاري ولوسي. أستطيع أن أفهم علاقتك بهما. المشكلة أنك تخليت عني من أجل كيس العظام الأسود على المقعد الهزاز. تلك المرأة الحمقاء التي تبتسم للعالم بأسنانها الصناعية. وها أنت الآن تعود إليّ بعدما رحلت؟ لن تنظلي عليّ الخدعة، مفهوم؟».

لم يقل چو شيئًا.

- وعندما جثوت على ركبتيّ أرجو لاري، لم يكثر لي، وتشاغل بدور الرجل الناضج. هل ترى الآن؟ لم يكن هذا خطأي!

اشتعل غضبها الممزوج بالعتذار وهي تتراجع إلى الباب، تتحسس ما وراء ظهرها بحثًا عن المقبض. فتحته أخيرًا وشعرت بنفحة الهواء البارد على ظهرها.

- اذهب إلى لاري. مع السلامة يا صغير.

وقفت لحظاتٍ بالخارج تستجمع شتات نفسها. خطر لها أن الأمر كله هلوسة خلقها شعورها بالذنب تجاه التخلي عن الصبي، وتجاه لاري الذي انتظرها كثيرًا، وتجاه ما فعلت هي وهارولد. ربما لم يكن من صبي في البيت من الأساس، ليس أكثر من شبح من أشباح قصص إدجار آلان بو.. القلب

النابض الذي يدق كساعة ملفوفة في قطن، أو الغراب الرابض فوق تمثال بالاس.

همستُ بصوت مسموع دون تفكير: «يدق ويدق إلى الأبد على باب غرفتي...». ضحكْتُ ضحكةً خشنَةً مجنونةً، لا تختلف كثيرًا عن نعيق الغربان. لكنها تريد أن تعرف.

عادتُ تنظر خلال نافذة المنزل إلى غرفة المعيشة المؤثثة بممتلكات موتى. ستائر امرأة ميتة، كتب رجل ميت، صور أطفال موتى على رف المدفأة، ابن امرأة ميتة يرتدي سروالاً داخلياً ويجلس ساكنًا كما كان من قبل... فرّت نادين وهي تتعثّر في خطواتها. انطلقتُ على دراجتها بأقصى سرعة، تمرُّ من بين السيارات المعطّلة حتى وصلت إلى بيت هارولد وقد هدأتُ. إنها تعرف الآن أن حياتها في المِنطَقة الحرة قد انتهت. إن كانت تريد المحافظة على عقلها، فيجب أن ترحل.

مرَّ الاجتماع العمومي الأخير على خير. أنشدوا السلام الوطني في البداية، ولم يبكِ أغلب الحضور. صار الأمر طقسًا لا أكثر. صدّق على إنشاء لجنة تعداد، برئاسة ساندي دوتشينز، التي أحصتُ هي ومساعدتها الأربعة الحضورَ، ودونوا بيانات 814 شخص. اتفقت اللجنة على إنشاء سجل بيانات كامل لاحقًا.

بعد مداولات، اعتمد الأهالي مدة سنة كحد أقصى لمدة تولي أعضاء اللجنة الدائمة مهامهم. رفع هاري دانبارتون يده طالبًا حق الاعتراض.

- حتى مدة سنة طويلة. مع كامل احترامي للسيدات والسادة أعضاء اللجنة، واعترافي بعملهم العظيم، لكنّ سرعان ما سيزيد عددنا وتخرج الأمور عن سيطرة اللجنة.

قال جلن، بيتمان: «رغم أن المقترح ليس على قائمة العرض، لكنّ وجهة نظر السيد دانبارتون ممتازة».

فكر ستو وهو يكتم الضحكة: يا لك من أصلع ماكر. وكأننا لم نفكر في الأمر من قبل. تريد أن تكسب نقاطاً هه؟

أكمل جِلن: «أريد أن أوضح أن في نيتنا إنشاء لجنة حُكم نَوَّاب حتى يتسنى لنا تنفيذ الدستور على أرض الواقع، وأرى أن يترأس هاري دانبارتون اللجنة، وسأخدم فيها بنفسي ما لم يكن من تضارب مصالح في هذا». المزيد من الهتاف.

في الصف الأخير، التفت هارولد نحو نادين وهمس في أذنها: «سيداتي سادتي، مَهْرَجَان الحب العام يقدم لكم...».

ابتسمتْ له ابتسامةً بطيئةً غامضةً، فارتجف نخاع عظمه.

ثم انتُخِبَ ستو مأمورًا للمنطقة الحرة برتبة مارشال وسط تصفيق حاد. قال: «سأفعل كل ما يمكنني فعله. بعض المشجعين الآن قد يُغيِّرون رأيهم في لاحقًا لو أمسكتُ بهم وهم يفعلون ما يخالف القانون هل تسمعني يا ريتش موفات؟».

ضجَّ المكان بالضحك، وشاركهم ريتش -الثلث فعلاً- الهتاف.

- لكنني لا أرى سببًا لإثارة المشكلات هنا. هدف المأمور الرئيسي منع الناس من إيذاء بعضهم. لا أظنُّ أحدنا يرغب في ذلك. يكفي ما حدث فعلاً. أعتقد أنني أنهيتُ كلامي.

صفق الحضور طويلاً.

- المقترح التالي يتماشى مع موضوع الشرطة هذا. نريد خمسة أشخاص يعملون في لجنة القانون. لا أريد أن أُضطرَّ إلى حبس بريء. هل أسمع ترشيحات منكم؟

صاح أحدهم: «ماذا عن القاضي؟».

هتف آخر: «نعم، القاضي! صح!».

التفتت الرؤوس تبحث عن القاضي بينهم، حكى الناس كيف كشف حقيقة أمر الأطباق الطائرة ببراعة. تبادل ستو وجِلن النظرات. يجب أن يتولى أحد أعضاء اللجنة توضيح الأمر.

قال رجل: «ليس بيننا...».

سألت لوسي سوان في ضيق: «مَن رآه؟». نظر إليها لاري ممتعضاً، لكنها لم تلاحظ، فقد كانت تنظر حولها بحثاً عن القاضي. قام تيدي ويزاك مجيباً:

«أنا رأيته». بدا عليه الاضطراب والأعين تحتشد على وجهه، فراح يمسح نظارته بعصابة رأس.

- أين؟

- أين رأيته يا تيدي؟

- ماذا كان يفعل؟

أجفل ويزاك قليلاً من هجوم الأسئلة، فصاح ستو وهو يضرب بمطرقة على المنصة: «بعض النظام يا جماعة...».

أجاب تيدي أخيراً: «رأيته منذ يومين. حصل لنفسه على سيارة لاند روفر وقال إنه ذاهب إلى دينفر. لم يذكر السبب، لكنَّ معنوياته كانت مرتفعة وتبادلنا المزاح. هذا كل ما أعرفه».

ظلَّ تيدي يمسح نظارته بوجه مُحمر. قال ستو: «مؤسف أن القاضي ليس هنا. إنه الرجل المناسب للوظيفة فعلاً، لكنَّ لما كان غائباً، فهلاً اقترحنا اسماً آخر؟».

احتجَّت لوسي ونهضت واقفة: «لا. لننتظر لحظة. القاضي فاريس رجل مسن، ماذا لو علق في دينفر ولم يتمكن من العودة؟».

قال ستو: «إن دينفر مدينة كبيرة يا لوسي».

خيم الصمت على القاعة الكبيرة فيما يفكر الناس. جلست لوسي بوجه ممتقع، فلفَّ لاري ذراعه حولها. تلاقَت عيناه بعيني ستو، فتحاشاها الأخير.

بعد نقاش دام ثلث ساعة، رشَّح الحضور محامياً شاباً في السادسة والعشرين اسمه آل بندل، جاء مع جماعة الطبيب ريتشاردسن. قبل آل الترشح متمنياً ألا يقدم أحد على أي مشكلات قانونية خلال الشهر القادم حتى يضع نظام دورة انعقاد المحاكم.

بدا براد كيتشنر شاحباً متململاً، غريب الشكل وهو يرتدي بذلة ورابطة عنق. اقترب من المنصة وقال إنهم سيعيدون توصيل الكهرباء في بداية سبتمبر. قبل تصريحه بعاصفة هتاف، فزادت ثقته بنفسه، وأكمل التفاصيل بثبات أكبر، بل إنه نزل مختالاً بعض الشيء من على المنصة.

قدّم تشاد نوريس تقريره عن لجنة الدفن، وأكد أنهم سينتهون من «تكريم» الموتى قبل موسم المطر، وطلب المزيد من المتطوعين، وأخيرًا طلب من «فصيلة الجرافات» كما يسميهم أن يقوموا ليتلقوا التحية اللائقة.

قام هارولد بالكاد، ثم جلس سريعًا، وعلّق الناس لاحقًا على ذكائه وتواضعه. في الحقيقة كانت نادين تهمس في أذنه الكثير مما لا يسعه إلا موافقته بإيماءات، وقد انتفخت مقدمة سرواله بما لا يمكنه من الوقوف الآن. صعد رالف برينتنر إلى المنصة تاليًا، وأعلن أنه صار بينهم طبيب بشري، فقام ريتشاردسن وسط تحية عظيمة، ورفع إصبعيه بعلامة النصر، فتحوّلت التحية إلى هتافات. أضاف رالف أن ستين ناجيًا آخرين سينضمون إليهم خلال أيام.

هكذا انتهى الاجتماع، ولم يفتح أحد موضوع فلاج من حسن حظهم التف بعض الأشخاص حول ستو يهنئونه، من بينهم الطبيب ريتشاردسن الذي قال: «لقد أحسنت إدارة الاجتماع أيها المارشال». نظر ستو خلفه ليرى من قصد ريتشاردسن، ثم أدرك أنه يخاطبه هو. ارتبك للحظات... أنا مارشال؟ قال لنفسه إن المنصب لن يدوم إلا سنة. سنة واحدة فقط. لكنّ الخوف لم يغادره...

مشى ستو وفران وسوزان ستيرن ونك إلى وسط البلدة معًا. تفرع أقدامهم الرصيف وهم متجهون إلى شارع برودواي. يسير الناس من حولهم في مجموعات صغيرة، يتحدثون بصوت منخفض. كانت الساعة وقتها الحادية عشرة والنصف.

قالت فران: «الجو بارد. ليتني ارتديتُ سترةً ثقيلةً».

أومأ نك موافقة. ليل بولدر بارد دائمًا، لكنّ الليلة هي الأبرد حتى الآن، تذكرهم بقرب انتهاء الصيف. تمنى لو أن رب الأم أباجيل -أو خيالها أو أيًا كان- اختار مكانًا أكثر دفئًا مثل ميامي أو نيو أورلينز.. ثم توقف لحظة، ليدرك أن هذا الاختيار هو الأفضل، ففي أي مكان آخر جثث أكثر ورطوبة أعلى.

أخبرهم ستو بقلقه بشأن معرفة الناس بغياب القاضي فافهم، فكتب
نك أنه قلق أكثر بشأن ظنهم أنه ذهب غربًا. وافقته سوزان ستيرن، فلا يمكن
تفسير ذهابه إلى دينقر برغبته في ركوب أفغانية الملاهي هناك.

قالت فران: «نحن محظوظون لأن أحدًا لم يناقش أمر ما يحدث في
الغرب».

كتب نك: «لهذا يجب أن نفكر في إجابات، ويجب أن نؤجل أي اجتماع
عمومي أطول وقت. لن نعقد أي اجتماع كهذا قبل منتصف سبتمبر».

قالت سوزان: «يمكننا أن ننتظر حتى عودة التيار الكهربائي. سأعود إلى
البيت الآن. يومي مشحون غداً. سترحل داينا غداً، سأذهب معها حتى يباع
كلورادو».

سألته فران: «هل تعتقد أن ذهابك معها سيكون تصرفاً آمناً؟».

- لا مشكلة. إنها فتاة قوية ذكية منذ أيامنا في الجامعة. تورطت في
علاقة مع شاب ضخم قاس، وعندما تركته لاحقاً بجنون وكاد يقتلها
بمسدس، فجرّده منه. كانت هذه نقطة تحول في حياتها، عرفت من
يومها أنها جسورة، لا قوية وذكية فقط.

قال ستو في قلق: «أتمنى أن تفهموني جيداً. لا أريد أن يذهب أحد إلى
الغرب غازياً مغواراً، هذه مهمة لبنات عرس، لا للأسود. لا أريد أن نلفت
الأنظار».

طمأنته سوزان: «هي واعية لذلك. عندما عرضت عليها الأمر، وافقت
على الفور من أجلكم. هل تتذكرون كيف أنقذتمونا من أولئك الرجال؟ لو لم
تفعلوا، لكننا الآن موتى، أو في الغرب نظراً إلى وجهتهم.. لطالما تساءلت عن
أهميتها للمنطقة الحرة، واتضح أن أهميتها خارج المنطقة الحرة. قالت أيضاً
إنها ستحاول أن تعود...».

ما لم تذكره سوزان، أن داينا ذاهبة إلى الغرب مسلحة بمُدية زنبركية
بطول عشر بوصات. ثبتتها إلى ذراعها بحيث تنفتح لو ثنت رسغها بقوة،
فيصير لديها إصبعاً إضافية ذات نصل. قالت لها داينا: «ما هو إلا ديكتاتور،
وهو الشيء الوحيد الذي يجمعهم معاً. لو رحل، لو مات، سيتنازعون في ما
بينهم حتى يُجهزوا على أنفسهم. لو اقتربت منه بما يكفي يا سوزان، سيتمنى
لو أن شيطانه الحارس معه».

- سيقتلونك يا داينا...

- ربما.. سيكون هذا ثمنًا بخسًا لرؤية أمعائه تُسكب على الأرض.

كانتُ سوزان لتحاول منعها، لكنها لم تفعل. فقط انتزعت وعدًا من داينا أن تحاول التزام الخُطة الأصلية إلا لو واتها فرصة مناسبة لقتله بلا أخطار. وافقت داينا، وظننتُ سوزان أن هذه الفرصة لن تتاح، مع ذلك جافاها النوم. ودّعت رفاقها، واتجهت إلى بيتها. قالت ستو: «تبدو كأنها ازدادتُ عمرًا». كتبَ نِك: «كلنا كذلك...».

في طريق ستو إلى محطة توليد الطاقة في اليوم التالي، قابل داينا وسوزان على دراجتيهما. حيّاهما، ثم قال: «أفهم أنكما خارجتان في نزهة».

- أكيد، وأنت لم ترنا.

- لا. لم أركما...

ثم قال لداينا: «كوني حذرةً يا فتاة، وعودي سالمة».

- أتمنى ذلك. اعتنِ بفراني، وخذ أمر المارشالية ببساطة.

ضحك ستو، ثم عانقها مودّعًا. قاطع الوداع ظهورُ شاحنة لجنة الدفن التي بدت نذير شؤم. ابتعدتِ الفتاتان، ووقف ستو يراقبهما حتى اختفتا...

عادت سوزان بعد يومين إلى بولدر. كانت قد خيمت بعد وداع داينا في مونومنت قرب ينابيع كلورادو، واستيقظت بعد سويغات على صوت أنين خافت من جسر صغير مغطى تحت طريق المزرعة التي خيّم فيها. استجمعتُ شجاعتها، وأضاءتِ الكشاف لتجد جروًا محبوسًا داخل ماسورة صرف أمطار. ابتعد عن يدها مرتجفًا، وكانت هي أكبر من أن تدخل إليه. هُرِعتُ إلى البلدة وجلبت كيسَ طعام كلاب من متجر، وفتحتُه أمام الماسورة، فخرج الجرو الذي رافقها على الطريق، راكبًا داخل كيس نسيجي مثبت إلى دراجته البخارية.

فحص نِك إليس جرحَ الجرو. اتضح أنها أنثى بالغة أو على مشارف البلوغ. لا بُدَّ أن كوجاك سيسعد بوليافته. ذاع الخبر في أرجاء المنطقة الحرة،

وتراجع أمر الأم أباجيل أمام الاحتفال بالكليين؛ أصل الكلاب المستقبلية. صارت سوزان بطلّة في أعين الناس، ولم يفكر أحد في السؤال عن سبب وجودها في مونومنت تلك الليلة.

لكنّ ستو سيتذكر دائماً الصباح الذي رأهما فيهما يغادران، لأنه لن يرى داينا جورجينز مرة أخرى.

يوم السابع والعشرين من أغسطس، قرب الغروب، كوكب الزهرة يلمع في السماء.

جلس نك ورالف ولاري وستو على درجات منزل توم كولين، الذي كان يلعب الكروكيت.

كتب نك: «حان الوقت».

سأله ستو هامساً أكانوا سينومونه مرة أخرى، فهز نك رأسه. قال رالف: «هذا أفضل. لن أتحمّل تكرر الأمر»، ثم ناداه بصوت مرتفع: «توم! يا تومي! تعال هنا!».

هرول توم إليهم، أكمل رالف: «تومي، حان وقت الرحيل».

اختفت ابتسامة توم، وبدا كأنه يلاحظ لأول مرة أن السماء تُعتم.

- أرحل؟ الآن؟ رباه، لا! عندما يأتي الليل توم يذهب إلى الفراش. ق-م-ر هذا هو تهجي كلمة فراش. لا يحب توم أن يكون بالخارج في الظلام بسبب العفاريث. توم... توم...

ثم صمت، وتبادل الآخرون النظرات في قلق. بعد فترة صمت عاد توم إلى وعيه، لا بشكل مفاجئ كالمعتاد، بل تدريجياً كأنه يهضم حقيقةً مُحزنة.

- أذهب إلى الغرب؟ هل تعني أن هذا وقت الذهاب إلى الغرب؟

وضع ستو يده على كتف توم وقال: «نعم يا توم. لو تستطيع».

- على الطريق...

كتم رالف نسيجه وقام يمشي مبتعداً إلى ما وراء المنزل. لم يلاحظ توم، فقد كان ينقل نظره بين ستو ونك. قال ببطء: «أسافر بالليل وأنام بالنهار. وأرى القيل...».

أوماً نِك. أحضر لاري حقيبة توم، فعلقها الأخير على كتفيه. قال لاري: «يجب أن تحترس يا توم».

- احترس. رباه، نعم!

فكر ستو في إعطاء توم خيمة صغيرة، ثم تراجع عن الفكرة، فقد لا يتمكّن من نصبها. همس توم: «هل يجب أن أفعل هذا يا نِك؟».

أوماً نِك ببطء وهو يضع يده على كتف توم.

- حسنًا.

قال لاري: «الترّم يا توم الطريقَ الكبيرَ ذا الأربع حارات.. سيوصلك رالف إلى بدايته».

- نعم، رالف.

عاد رالف إليهم وهو يمسح عينيه بخرقه. سأل بصوت متحشرج: «مستعد يا توم؟».

- نِك، هل سيظل هذا البيت بيتي عندما أعود؟

أوماً نِك.

- توم يحب هذا البيت! رباه، نعم!

قال ستو والدموع تسيل من أنفه إلى مؤخرة حلقه: «تعرف هذا يا تومي».

- حسنًا. أنا مستعد. مع مَنْ سأركب؟

أجاب رالف وهو يشير إلى دراجته البخارية: «معي يا توم. تذكر، الطريق الكبير المكتوب عليه 70».

أوماً توم وركب الدراجة، تبعه رالف مقوَّس الكتفين. حتى ريشة قبعته بدت متهدلة. ركب أمامه ودفع السَّنَادَة، ثم شغل المحرك، فانطلقت الدراجة إلى الغروب الداكن، حتى اختفت أضواؤها عن الأعين.

مشى نِك مبتعدًا ويدها في جيبه. حاول ستو أن ينضم إليه، فهزّ نِك رأسه غاضبًا، وأشاح بيده كي يبتعد، فتراجع ستو إلى لاري.

- هل تظن أننا سنراه مرة أخرى يا لاري؟

- لو لم نكنْ نؤمن بهذا نحن السبعة - عدا فراني - ما كنا لنرسله. لو لم يحدث هذا لعشنا باقي عمرنا نجلد أنفسنا على اختياره.

- نِكَ سَيُعَذِّبُ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ وَاحِدٍ مِنَّا.

راقباً نِكَ يبتعد إلى عمق شارع برودواي والظلال تبتلعه، ثم نظراً إلى بيت
توم المظلم. قال لاري فجأة: «لنرحل من هنا».

رحلاً، وظل نِكَ واقفاً يرمق بيت توم من بعيد، ويداه في جيبه.

اختار الطبيب جورج ريتشاردسن الإقامة في مركز داكوتا الطبي، القريب
من مستشفى بولدر بأجهزتها الطبية وأدويتها ومُعدَّاتها. انتظم في العمل
على الفور بمساعدة لوري كونستابل وِدِكِ إليس. طلب الأخير اعتزال ممارسة
الطب، وقوبل طلبه بالرفض. قال له ريتشاردسن: «أنت ماهر وقد تعلمت
الكثير وستتعلم أكثر. بالإضافة إلى أن ضغط العمل أكبر من طاقتي منفرداً.
تهانئ لك يا دِكِ، أنت أول مُسعِفٍ في المِنطقة الحرة. امنحيه قبلة يا لوري».

ففعلت.

في الحادية عشرة من صباح اليوم نفسه، الثامن والعشرين من أغسطس،
دخلتُ فران غرفة انتظار الكشف. كانت لوري خلف المكتب تقرأ مجلةً نسائيةً.

- مرحباً يا فران. كنت أعرف أنك ستزورينا عاجلاً أو آجلاً. جورج
يفحص كاندي الآن، وستدخلين بعدها. كيف حالك؟

- بخير. شكراً لك. أعتقد...

انفتح الباب وخرجتُ كاندي تنظر في شك إلى زجاجة وردية في يدها.
نظر الطبيب إلى فران وهتف: «الآنسة جولد سميث، أليس كذلك؟ من لجنة
المِنطقة الحرة. أهلاً بك».

صافحته وقالت هي تدخل إلى غرفة الكشف: «اسمي فران فقط. أو
فراني».

- حسناً يا فراني. ما المشكلة؟

- أنا حامل. ومذعورة...

ودون إنذار انفجرت في البكاء. ربَّت جورج على كتفها، ونادى لوري
لتحضر. تمددتُ فراني على منضدة الكشف المبطنة.

- لماذا تبكين الآن يا فراني؟ بسبب توأمي السيدة وينتورث؟

أومأت فراني في بؤس.

- الوضع مختلف. الأم كانت مدخنة، والطفلان وُلدا بوزن منخفض، والولادة كانت مفاجئة. ما أريد قوله إن التوأمين كانا معرضين لخطرَي التدخين والوزن، بالإضافة إلى عوامل كثيرة أخرى غير ذلك.

- عوامل أخرى منها الإنفلونزا الفائقة.

- نعم. هذا صحيح.

- لذا سننتظر ونرى؟

- لا طبعًا. سأصف لك مقويات، وسوف أتابعكِ أنتِ وأي حامل أخرى طوال مدة الحمل حتى الولادة. كان لشركة جنرال موتورز شعار يقول: «التطور أهم منتجاتنا». الأطفال في المنطقة الحرة أهم منتجاتنا، وسوف نتعامل معهم على هذا الأساس.

- لكننا لا نعرف شيئًا.

- نعم، لكننا معًا. ابتهجي يا فران.

- سأحاول.

ثم دَوَّن الطبيب بيانات فراني وتاريخها المرضي في ملف متابعة جلبته لوري. قالت الأخيرة لفراني: «ستكونين بخير، وستنجبين أول طفل في المنطقة الحرة. أنا واثقة من هذا».

ابتسمت فراني ابتسامة واهنة، وصمتت.

بعد نصف ساعة من بدء الفحص، أعلن الطبيب أن الجنين بخير. قالت له: «شعرت بحركته منذ مدة، ومن وقتها لم يتحرك مرة أخرى».

- إنه حي وبخير. أشك في أنك شعرت بحركته. في الغالب شعرت بحركة غازات أمعائك.

غمغمت فراني: «بل كان الطفل...».

- على أي حال، سواء كان هو أو غيره من تحرك سابقًا، فالجنين سيتحرك أكثر في المستقبل. أتوقع أن تلدي ما بين أول يناير إلى منتصفه. هل تأكلين جيدًا؟

- أعتقد... أحاول...

- حسنًا. سيزيد وزنك مع الوقت. التزمي المشي، وتوقفي عن ركوب أي دراجات من منتصف نوفمبر. لن يركبها أحد على أي حال وقتها، سيكون الجو قارس البرودة. سأكتب لك أدويةً مقويةً كما اتفقنا. سؤال أخير.. هل رُكِّبَ أيُّ جهاز داخل الرحم من قبل؟ لولب مانع للحمل مثلًا؟

- لا، لماذا؟

تذكرت حلمها، والمشجب ملتوي الطرف، فارتعدت.

- عظيم. نصيحتي الأخيرة أن تقللي توترك وقلقك، مع اعترافي بصعوبة الأمر. لا أريد أن أصف لك مهدئات، لكن لو...

- لا، لا تصف لي شيئًا.

خرجت فراني إلى الشمس الدافئة، وقد تأكدت أن أشباح موت طفلي السيدة وينتورث ستطاردها طوال ما تبقى من مدة حملها.

يوم التاسع والعشرين من أغسطس جاءت ثلاث مجموعات، وأبلغت ساندي وشينز لجنة المنطقة الحرة أن البلدة قد وصل تعدادها إلى أكثر من ألف مُقيم.

ولم تعد بولدر بلدة أشباح.

ليلة يوم الثلاثين من أغسطس، وقفت نادين كروس في منتصف قبو هارولد، تراقبه متململة. عندما ينهمك هارولد في أمر لا يتضمن أنشطة جنسيةً منحرفةً معها، يبدو غارقًا في خواطره الخاصة حيث لا سلطان لها عليه. عندما يكون هناك يكون باردًا، غير واع لوجودها ولا لوجوه ذاته. الشيء الوحيد الذي لا يتغير في كل الحالات هو كراهيته لستورات ريتمان واللجنة.

في القبو منضدة هوكي هوائي معطلة، يفرد عليها هارولد كتبًا توضيحية ورسماً تخطيطيًا. ينظر إليها قليلًا ثم يعمل على ما يُركِّبه مستخدمًا أسلاكًا ووصلاتٍ وطاقم أدوات إصلاح دراجات بخارية.

قال لها في شرود: «أعرفين؟ الأفضل أن تخرجي للتمشية قليلًا».

- لماذا؟

شعرتُ بحرج كبير. وجه هارولد متصلب عابس. فهمت نادين لماذا يبتسم هارولد دائماً، من دون ابتسامته يبدو مجنوناً، بل إنها تشك أنه مجنون فعلاً أو شارف على ذلك.

أجابها: «لأنني لا أعرف كم عمر الديناميت هنا».

- ماذا تعني؟

- الديناميت القديم يعرق يا حبيبة قلبي.

نظر إليها فرأت وجهه غارقاً في العرق كأنما لوحة توضيحية لما يتحدث عنه. أكمل: «الديناميت يرشّح للدقة اللغوية. يرشح نيتروجلسريناً نقياً؛ أكثر المواد المتفجرة حساسية. لو كان الديناميت قديماً، ففرصة انفجار هذا المشروع العلمي الصغير أمامنا فرصة ضخمة، سينفجر ويحوّلنا إلى أشلاء تمطر على جبل فلاجستاف والبلدان المجاورة».

- لست مضطراً إلى أن تتكلم بهذه الطريقة.

- نادين؟ حبيبتي؟

- ماذا؟

نظر إليها هارولد دون أن يبتسم وقال بهدوء: «أغلقي فمك العفن».

ففعلت، لكنها لم تخرج مع أنها تريد ذلك. بالتأكيد إن كانت هذه مشيئة فلاج (أخبرها المؤشر أن هارولد هو وسيلة فلاج للتخلص من اللجنة)، لن يكون الديناميت قديماً. ولو كان قديماً فلن ينفجر إلا في الوقت المحدد.. أليس كذلك؟ ما مدى سيطرة فلاج على الأمور؟

قالت لنفسها إنه يسيطر عليها بما يكفي، إلا أنها لم تكن واثقة. لقد عادت إلى بيتها ووجدت أن چو قد رحل. رحل إلى الأبد هذه المرة. ذهبت إلى لوسي وتحملت برودة استقبالها. أخبرتها أن حالة ليو قد تدهورت بعض الشيء منذ انتقلت لتعيش مع هارولد. تلقي اللوم عليها كالعادة. لو جثم عليهم انهيار جليدي من فلاجستاف أو صدّع زلزال شارع بيرل للامت نادين على ذلك، وكأن ما سيحدث قريباً ليس كافياً لإلقاء اللوم عليها هي وهارولد.

على ذلك، ألمها توديع چو للمرة الأخيرة. لن تمكث هي وهارولد في بولدر أكثر من هذا.

الأفضل أن تتركه تمامًا الآن. لو مكثت معه لأذيتَه، وربما لأذيتِ نفسك، لأنّ
چو يرى أمورًا، ويعرف أشياء. دعيه كي لا يعود چو مرة أخرى، ولا تعودي
أنْتِ ماما نادين. دعيه ليكون ليو إلى الأبد.

الشعور المتناقض الذي تشعر به لا يرحم. لا تستطيع أن تصدق أن
المتبقي من عمر أهالي المنطقة الحرة أقل من عام. هذه مشيئته...
...هارولد ليس أداته الوحيدة، بل أنتِ أيضًا. أنتِ الذي زعمتِ أن القتل هو
الخطيئة الوحيدة التي لا تغتفر في العالم الجديد. كنت تتحدثين عن قتل روح
واحدة...

وجدتُ نفسها فجأة تتمنى لو يتضح أن الديناميت قديم فينفجر فيهما.
نهاية رحيمة. ثم انتقل تفكيرها بغتة إلى ما سيحدث معهما عندما يعبران إلى
ما خلف الجبال.. وشعرتُ بتلك الحرارة القديمة أسفل بطنها.

قال هارولد برفق: «ها هو...».

وضع الجهاز الذي أتمّ تركيبه في صندوق أحذية ونحّاه جانبًا.

- انتهيت؟

- نعم.

- هل سيعمل؟

- هل تريد أن تجربني بنفسك؟

كلماته ساخرة مريّة، لكنها لم تكثرث. عادتْ نظراته تتحسس جسدها
كما كانت دائمًا. ها هو هارولد قد رجع من المكان البعيد الذي شرد فيه،
المكان الذي كتب منه ما في سجل يومياته التي قرأتها وأعادتها إلى ما تحت
بلاطة المدفأة. هو الآن في قبضة يدها.

سألتُه: «هل تريد أن... نلعب قليلًا؟».

- نعم... عظيم...

رمشتُ رمشاتٍ سريعةً وقالت في غَنَج: «لنصعد إذن، دعني أصعد أولًا».
فصعدتُ وتبعها بوجه يقطر عرقًا.

ظل الجهاز الذي صنعه هارولد في الصندوق داخل القبو المظلم. الجهاز
بسيط، جهاز لاسلكي يعمل بالبطارية، ظهره منزوع، وموصّل إليه ثمانى
أصابع ديناميت. الكتاب على المنضدة مفتوح على رسم توضيحي لجرس

باب موصول بجهاز لاسلكي مثل الذي في الصندوق. مكتوب تحت الرسم:
الجهاز الفائز بالمركز الثالث في مسابقة الابتكارات العلمية، صنعه براين
بول، روتلاند، فيرمونت. اتخذ القرار، ودق الجرس من على بعد يصل إلى
اثني عشر ميلًا!

في المساء نقل هارولد الصندوقَ بحرص إلى الرف العلوي من خزانة
المطبخ. كان رالف قد أخبره سابقًا أن لجنة المنطقة الحرة تدعو تشاد
نوريس إلى المشاركة في اجتماعهم التالي يوم الثاني من سبتمبر.
الثاني من سبتمبر...

الفصل السابع والخمسون

جلس لاري وليو على الرصيف أمام المنزل، كان لاري يشرب بيرة دافئة، ويشرب ليو عصير برتقال دافئًا. يمكنك أن تشرب أي شيء في بولدر ما دام معلبًا ولا تمانع في شربه دافئًا.

تشاغلْتُ لوسي في جز العشب وطلبت من لاري أن يتحدث مع ليو ليفهم ما الذي يعانيه.

وكان هذا في آخر أيام أغسطس.

بعد يوم من مغادرة نادين للعيش مع هارولد، وجد لاري الصبي في غرفته لا يرتدي سوى سروال داخلي، وإبهامه في فمه. كان خوف لاري أعظم من خوف لوسي، فهي لم تره عندما قابله أول مرة وكان اسمه جو، ويحمل سكينًا. تحسَّن الصبي مع انتهاء النصف الأول من الأسبوع، إلا أنه لم يعد كما كان، ورفض التحدث عن أي تفاصيل.

قالت لوسي وهي تفتح غطاء خزان وقود جزاة العشب: «لهذه المرأة صلة بما حدث له».

- نادين، ما الذي يدفعك إلى هذا الظن؟

- لم أكن لأذكر الأمر، لكنها مرت عليَّ يوم خرجت لتصطاد من الجدول. كانت تريد أن ترى الصبي. شكرتُ الرب أنك لم تكن هنا.

قبَّلته سريعًا، فعانقها. قالت: «لقد أسأت الحكم عليك من قبل. أعتقد أنني لن أسامح نفسي على ذلك، لكنني لن أتقبل نادين كروس أيضًا. فيها شيء غريب.. خبيث».

لم يُعَلِّق، وظن أن حكم لوسي صحيح على الأرجح. لقد كانت مختلة تمامًا يوم مشى معها حتى المتجر الكبير.

- شيء آخر.. عندما جاءت، كانت تنادي الصبي باسم جو.

نظر إليها مدهوشًا وهي تدير محرك جرّازة العشب.

بعد نصف ساعة من هذا الحوار، يجلس الآن مع ليو الذي يقذف كرة البينج بونج فترتد إلى كفه. ذُكِّرَت الكرة لاري بيوم ذهب مع ليو لزيارة هارولد. لقد رفض الصبي دخول منزله، ذلك المنزل الذي تقيم فيه نادين الآن.

- ليو، هل تريد أن تذهب معي للصيد؟

- لا صيد.. هل تعرف السيد إليس؟

- طبعًا.

- يقول إنه يمكننا شرب الماء عندما تعود الأسماك. نشربها دون...

همهم ودمدم وهو يحرك أصابعه أمام عينيه.

- تقصد دون غلي؟

- نعم.

قذف الصبي الكرة فارتدت. ثوك - ثوك - ثوك...

- أنا أحب دك. هو ولوري. دائمًا يعطيني شيئًا آكله. إنه يخشى أنه لن يستطيع. لكنه سيستطيع...

- ماذا تقصد يا ليو؟

- يعتقد أنه لن يستطيع صنع طفل. يقول إنه كبير في العمر. أنا أعتقد أنه يستطيع.

همّ ليو بسؤال الصبي عن سبب حديثه مع دك في أمر كهذا، لكن فطن إلى أن الإجابة واضحة؛ لم يتحدث الاثنان عن الأمر. لن يتكلم دك مع صبي عن أمر حميمي كهذا. ليو عرف... من تلقاء نفسه.

ثوك - ثوك - ثوك...

نعم. ليو يعرف أمورًا.. أو يستشعرها. نظر لاري إلى عيني الصبي فوجدهما شاردتين داكنتين. لقد دخل في حالة سِنَة مرة أخرى، كأنه قرأ أفكار لاري واستجاب لها.

لقد ذهب ليو لرؤية الفيل.

قال لاري ببساطة: «نعم. أعتقد أن في استطاعتها صنع طفل. يك لم يجاوز الخامسة والخمسين، وجاري جرانت أنجب في السبعين».

- من هو جاري جرانت؟

- ممثل قديم.. كيف حال ماما نادين يا ليو؟

- تنادني چو. أنا بالنسبة إليها چو.

زحفتُ برودة قارسة على ظهر لاري. أكمل الصبي: «الوضع سيئ الآن».

- سيئ؟

- سيئ معهما.

- تقصد نادين و...

(هارولد؟)

- نعم. هو.

- أليس سعيدين؟

- إنه يخدعهما. يعتقدان أنه يريد هما.

- من هو؟

- هو.

تدلت الكلمة القصيرة فوقهما كسحابة رعدية.

ثوك - ثوك - ثوك.

قال ليو: «سيذهبان إلى الغرب».

- يا يسوع!

انهمرت عليه السحابة الرعدية بسيل ثلج. هل يريد سماع المزيد؟ كأنه يراقب باب قبر ينفتح ببطء، ويرى يدًا متألقة تظهر ببطء...

لا أريد أن أسمع... لا أريد أن أعرف...

- تريد ماما نادين أن تقنع نفسها أن هذا خطأك، وأنتك دفعتها نحو هارولد.

لكنها انتظرت عن عمد. انتظرت حتى أحبت ماما لوسي كثيرًا. انتظرت حتى تأكدت. كأنه يمسح من عقلها ما يبين لها الصواب من الخطأ. عندما ينتهي، ستجن مثل كل من في الغرب.. ربما تفوقهم جنونًا.

كلمات الصبي معقدة، أكبر من عمره.. همس لاري: «ليو...».

- تناديني جو. أنا جو بالنسبة إليها.

سأل لاري في شك: «هل تريد أن أناديك جو؟».

أجاب الصبي متوسلاً: «لا. أرجوك لا تفعل».

- أنت تفتقد ماما نادين، أليس كذلك؟

قال ليو ببساطة مرعبة: «لقد ماتت».

- ألهذا ظلمتَ مستيقظاً لوقت متأخر تلك الليلة؟

- نعم.

- ولهذا لم تتكلم؟

- نعم.

- لكنك تتكلم الآن.

- أنا أتكلم الآن معك ومع ماما لوسي.

- طبعاً...

هتف الصبي بحدة: «لكنّ ليس دائماً! إلا لو تكلمتَ مع فراني! تكلم مع

فراني! تكلم مع فراني!».

- أتكلم معها عن نادين؟

- لا!

- عمّ أتكلم معها إذن؟!

ارتفع صوت ليو حتى تحول إلى صياح مذعور: «كل شيء مكتوب! أنت

تعرف! فراني تعرف! تكلم مع فراني!».

- اللجنة...

- ليست اللجنة! لن تساعدك اللجنة. لن تساعد أحداً. اللجنة طريقة قديمة،

إنه يسخر من اللجنة لأن طريقته قديمة، والطريقة القديمة طريقته..

أنت تعرف. فراني تعرف. تكلماً معاً...

قذف ليو الكرة بقوة، فارتدت إلى ما فوق مستوى رأسه، ثم هوت بعيداً

وتدحرجت. راقبها لاري بحلق جاف وألم يضرب قفصه الصدري.

فراني...؟

- جلس لاري وفراني على حافة المسرح المكشوف، يديان ساقيهما ويراقبان الماشين في المتنزه في أزواج متعانقي الأكف.
- كان قد فرغ من إخبارها بما قال ليو، وسألها: «ما رأيك؟».
- لا أعرف إلا أن ما يحدث كله لا يروق لي. أحلام ورؤى.. امرأة مسنة تمثل دور صوت الرب مدةً ثم تختفي في البرية.. والآن طفل يتخاطر. هذه حياة كحياة القصص الخيالية. أحياناً أظننا نجونا من الموت على يد الإنفلونزا الفائقة، لكنها أصابتنا بالجنون.
- قال إن عليّ أن أتكلم معكِ، وهأنا ذا أتكلم. إن خطر لك شيئاً...
- غمغمت فراني: «لقد ذكر أن شيئاً مكتوباً.. ذلك الطفل مُحِق! هذا هو أصل المشكلة في رأيي.. ما لم أكن بهذا الغباء.. اللعنة عليّ!».
- حذق إليها لاري وسألها متعجباً: «عمّ تتكلمين؟».
- إنه هارولد كما أخشى.. لم أخبرُ ستو بشأن اليوميات الحمقاء، وها هو يُعَجِّب به.. بل إن البلدة كلها تحبه.. حتى أنت! بعد كل هذا، كان مرشدك الروحي في رحلتك!
- لا أفهم. ممّ تخافين؟
- حكّت له فراني كل شيء من البداية، وعندما فرغت كان المتنزه قد خلا من رواده. استمر الصمت بينهما حيناً، حتى قال لاري أخيراً: «هل أنت واثقة بشأن اللطخة على اليوميات؟ هل أنت متأكدة أنها بصمة هارولد؟».
- ترددت لحظة قبل أن تقول: «نعم. عرفتُ أنها بصمته لحظة رأيتها».
- هل تتذكرين يوم حكيت لك أنني رأيت ما حفره هارولد على عمود الحظيرة التي كتب على سقفها الرسالة الإرشادية؟
- نعم.
- أخبرتك أنه كتب حروف اسمه، لكنّ الحقيقة.. لقد كتب حروف اسمي كما على غرار ما يكتبه الصبية على مكتب فصل المدرسة.
- وضعت كفها على عينيها وهتفت: «يا لها من فوضى».
- أنتِ لستِ مسؤولة عن تصرفات هارولد لودر. اسمعي مني أنا المتلاعب القديم.. لا يمكن أن تحملي هذا الذنب.. لأنكِ لو فعلتِ...

أمسك كفيها وضغط عليهما حتى أجفلت ألماً، وأكمل بصوته الرفيق: «لو فعلت، لجُننت. يكفي أن يتحمل المرء أوزار نفسه».

أطلق سراح يديها، وجلسا صامتين دقائق. قال أخيراً: «هل تعتقدين أن هارولد يحمل ضغينة ضد ستو إلى حد قتله؟».

- نعم. هذا احتمال ورا. ربما يفكر في قتل اللجنة كلها، لكنني لا أعرف... قاطعها بضغطة على كتفها، وتغيرت تعبيرات وجهه واتسعت عيناه وهو يغمغم بما لا تسمع.

- لاري؟ ما بك؟

- عندما نزل إلى القبو، كان يبحث عن عتلة أو شيء مثل هذا...

- ماذا؟

التفت نحوها ببطء كأن رأسها يدور فوق تروس صدئة، وقال: «أعتقد أنني أعرف طريقة قد تحل مشكلة هذا الغموض، لكنني لا أضمنها لأنني لم أقرأ ما في يومياتك. لكن... قرأ هارولد يومياتك، وخطر له فكرة. اللعنة.. ربما شعر بغيرة لأنك فعلتها قبله وكتبت يوميات. ألا يحتفظ أفضل الكتاب بيوميات؟».

- هل تلمح إلى أن لهارولد يوميات؟

حكى لها عما رآه أسفل بلاطة المدفأة، فأخبرته أنها لاحظت تخلخل تلك البلاطة يوم تسلفت.

- كأن أحداً يقودنا إلى الدليل يا لاري.

- مصادفة؟

- حقاً؟! كلانا يدخل بيت هارولد، وكلانا يلاحظ البلاطة المُخلخة، وكلانا هنا الآن؟ هل هذه مصادفة؟

- لا أعتقد هذا. لكن ماذا لو لم تكن تلك مذكراته، بل مذكرات أحد سكان البيت السابقين؟

- نعم، لكن...

- لا تقاطعي المفتش أندروُد في أثناء التحري. إن لم تكن هذه مذكراته، فلماذا أعادها تحت البلاطة الحجرية؟ لأن ما فيها أسرار هـو. هذه يوميات هارولد!

- هل هي في مكانها بعد؟

- ربما. لندخل ونز.

- الآن؟

- غداً. في الصباح سيكون مع لجنة الدفن، ونادين في محطة توليد الطاقة.

- اتفقنا. هل أخبر ستو بالأمر؟

- لماذا لا ننتظر؟ لا جدوى من إثارة الموضوع قبل أن نتأكد. ربما لا نجد

السجل، أو يكون مجرد قائمة مهام أو أي شيء عادي.. أو حتى خُطّة هارولد لإتقان السياسة.. ربما يكون محتوى السجل مُشفراً.

- ماذا لو وجدنا فيها شيئاً مهماً؟

- سنطرح الأمر أمام اللجنة. هذا سبب آخر للإسراع في التأكد. ستتنصرف اللجنة، و...

تذكر ما قاله ليو عن اللجنة فصمت.

اتفقاً على أن يتقابلا في الحديقة العامة قُرب منزل هارولد في الواحدة ظهراً. عادتُ فراي إلى بيتها وقد خفّت حمولتها. وجدتُ ستو جالساً في الفراش يقرأ من كتاب قانوني ويسجل ملاحظاته. قبّلته وقالت: «قراءة ثقيلة...».

- جداً. أين كنت يا سيدتي الجميلة؟

- أتحدث مع لاري أندروود.

دقق النظر إليها وسألها: «هل كنتِ تبكين؟».

- نعم. لكنني أفضل الآن.

- بسبب الطفل؟

- لا. سأخبرك غداً. اتفقنا؟

- هل الأمر خطير؟

- سأخبرك غداً، والآن إلى النوم!

حلّ أول سبتمبر غائماً مطيراً، لا يميزه شيء، إلا أن أهالي المنطقة الحرة لن ينسوه أبداً.

كان هذا هو اليوم الذي أعيد فيه توصيل التيار الكهربائي في شمال بولدر.. لمدة قصيرة على الأقل.

في العاشرة صباحًا، وفي غرفة التحكم في محطة توليد الطاقة، نظر براد كيتشنر إلى ستو ونك ورالف وچاك چاكسن الواقفين خلفه. ابتسم براد في عصبية قال: «المجد لمريم الممثلة بالنعمة. ساعديني في الفوز بهذا السباق...». جذب سكينى قطع التيار إلى أسفل، فهدر مولدا طاقة. مشى الرجال الخمسة إلى النافذة الزجاجية الضخمة المطلة على الساحة التي يحتشد فيها مائة رجل وامرأة، يرتدون نظارات واقية حسب أوامر براد. ارتفع صوت المولدات أكثر.

نكز نك ستو ونظر إلى سقف المكتب، فنظر ستو إلى أعلى وابتسم. لقد أُضِيَّت المصابيح. هلل العمال بالأسفل وصفقوا بأكفهم الملتهبة المتقرحة من عملهم الشاق.

تذكر نك الذعر الذي شعر به ليلة انقطع التيار عن شويو. يومها تحول العالم في نظره إلى موت حالك، واليوم يُبْعَث.

أوصل المولدين الكهرباء إلى قطاع صغير من شمال بولدر. لم يكن يعرف السكان هناك بأمر التَّجْرِبة، ففروا مذعورين كأنما شياطين الجحيم في أعقابهم. أُضِيَّت شاشات التلفاز في بيوتهم وضجَّت بالتشويش، ودار خلاط سحق الفضلات في بيت من بيوت شارع بروس، واحترق محركه. صدح صوت مارثن جراي من مكبر صوت في متجر، يغني أغانيه القديمة، فبدأ كأنه حلم يبعث من الماضي...

لنرقص.. لنصرخ.. لنُجَن.. لنرقص.. لنغني..

انفجر محول طاقة في شارع ميبل، وانطلق الشرر الأرجواني منه لينزل على العشب الرطب.

في محطة توليد الطاقة، صار هدير واحد من المولدين أقل انتظامًا، وتساعد منه الدخان. تراجع الناس في هلع فيما يفوح المكان برائحة الأوزون. زعق براد: «تحميل زائد على المولدات!» انطلق خلال الغرفة ورفع سكينى قطع التيار، فانخفض صوت المولدين فيما يعلو صوت انفجار بالأسفل وصراخ. هتف رالف: «اللعنة، أحد المحركين يحترق!».

نزل براد سريعًا فيما يحمل الناس أنابيب الإطفاء ويخمدون النار. قال ستو وهو يُرَبَّت كتف براد: «آسف لما حدث».

التفت له براد مبتسمًا: «آسف؟ على أي شيء؟».

- لقد احترق المولد. أليس كذلك؟
- نعم. احترق! وفي مكان ما في الشمال احترق محوّل. لقد نسينا.. سحّاقًا، لقد نسينا أن السكان قد ماتوا ولم يغلقوا أجهزتهم الكهربائية، فزاد الحمل حتى احترق المولد. سنحتاج إلى البدء من جديد، لكن مع مولد واحد فقط.. لكن.. لن أغامر مرة أخرى حتى نتأكد من أن مشكلة الحمل الزائد لن تتكرر. هل يمكن أن تزودنا بدستة رجال آخرين؟
- قال ستو: «بالتأكيد، لكن لأي غرض؟».
- نريد مجموعة تدور في أرجاء بولدر تطفئ كل شيء موصول بالكهرباء. لن نوصل الكهرباء قبل أن نتأكد؛ ليس لدينا سيارات مطافئ.
- وضحك ضحكةً مختلةً قليلًا. قال ستو: «سنعقد اجتماعًا للجنة غذا، يمكن أن تحضره وتشرح أسبابك فتحصل على الطاقم الذي تريده».
- لا تنس أن ترسل أحدهم ليتأكد من أن شمال بولدر لا يحترق.
- اتضح أن مجموعة حرائق قد اشتعلت فعلًا في منازل متفرقة، لكن لم تنتشر النيران بسبب الأمطار. لاحقًا سيتذكر أهالي بولدر يوم الأول من سبتمبر 1990 بأنه يوم عادت الكهرباء.. ولو لثلاثين ثانية فقط.



- بضع طرقات على الباب الأمامي والخلفي لمنزل هارولد أكدت للاري وفراني أن المنزل خالٍ فعلًا. كانا قد جاءا على دراجتين هوائيتين وخبأها في مرأب عام قرب الحديقة.
- سألها لاري: «كيف دخلتِ المرة السابقة؟».
- من نافذة القبو.
 - دارا حول المنزل، وحاول لاري فتح النافذة المذكورة دون جدوى.
 - النافذة مغلقة يا فران.
 - لا، هي فقط عالقة. دعني أحاول.
 - حاولت ولم تنفتح. يبدو أن هارولد أغلقها. سألت لاري: «ماذا نفعل؟».
 - لنكسرهما.
 - سيراهما يا لاري!

- دعيه يَرها. لو لم يكن لديه ما يخفيه، فسيظن الفاعل بعض الأطفال. أما لو كان يخفي شيئاً، فسيقلق. وهو يستحق القلق إلى هذا الحد.
- خلع قميصه، ولف به قبضته وذراعه، ثم هشم زجاج النافذة، وأزال الشظايا عن الحواف ليمد يده ويفتح القفل، ثم يقفز إلى الداخل.
- احترسي.. لا إجهاض في قبو هارولد لودر لو سمحت.
- أسندها حتى نزلت، ووقفاً معاً ينظران إلى القبو.. إلى ما فوق المنضدة من أسلاك. سألت وهل تمسك قطعة سلك: «ما هذا؟ لم يكن هنا من قبل».
- لا بُدَّ أنه يخترع مصيدة فئران كهربية.
- أسفل المنضدة صندوق خالٍ، مطبوع عليه صورة جهاز لاسلكي ببطارية.
- قالت فراني: «لا بُدَّ أنه يخترع جهاز لاسلكي لا مصيدة فئران».
- لا، هذا لاسلكي جاهز للاستخدام مرفق ببطاريات. ربما أجرى عليه بعض التعديلات. أنت تعرفين هارولد. هل تتذكرين شكوى ستو من اللاسلكي عندما كان مع هارولد ورالف يبحثان عن الأم أباجيل؟
- أومأت، وفي نفسها شيء تجاه السلك. ركل لاري الصندوق وقال أكثر عبارة خاطئة في حياته: «لا يهم. هيا بنا».
- صعدا الدرج ليجدا الباب مغلقاً. نظرت فراني إليه فقال: «لقد قطعنا كل هذه المسافة، أليس كذلك؟».
- أومأت فراني. ضرب لاري الباب بكتفه عدة مرات حتى انفتح. مال لاري ليلتقط الرتاج، وقال إن في وسعه تركيبه مرة أخرى حتى لا يشك هارولد في شيء، فقالت فراني: «لا تتعب نفسك. سيرى النافذة المكسورة على أي حال. ثم كيف ستغلقه مرة أخرى بعدما ندخل إلى القبو؟!».
- ضحك لاري ورمى الرتاج، ثم اتجه إلى غرفة المعيشة حيث المدفأة. المرة السابقة لم يكن مع نادين مفتاح. لو عادت الآن ستعثر عليهما متلبسين. كم سيكون الأمر مضحكاً لو كانت أولى مهام ستو في تنفيذ القانون اعتقال امرأته.
- أسرع يا لاري.
- ربما غيّر مكانه.. سنعرف حالاً...

لقد غير هارولد مكانه فعلاً، لكن نادين أعادته إلى موضعه القديم. لم يعرف لاري وفران شيئاً من هذا، ووجداه حيث توقعا، وكلمة سجل على غلافه تلمع. حدقا إليه هنيهة حتى قال لاري: «هل سنقرأه أم سنُعجب به فقط؟».

- اقرأه أنت. لا أريد أن ألمسه حتى.

فتح لاري السجل ليجد العبارات متلاصقة متراسة بلا فواصل، كلها بخط دقيق نضيد، خط شخص مُختل حقًا. قال لاري وهو يتصفحه: «سأحتاج إلى ثلاثة أيام لأقرأ كل هذا».

- لحظة...

فتحت فراني صفحة لفتت نظرها، إذ كان المكتوب فيها داخل مستطيل.

اتِّباع المرء لنجم، هو اعتراف بسلطة قوى أعلى، عناية إلهية من نوع ما. مع ذلك، أليس من الوارد ألا يكون هذا الاتباع في حد ذاته جوهرَ قوى أعظم؟ قوى إلهك أو شيطانك الذي يملك مفاتيح الفئار المُرشِد. لقد فكرتُ مطوّلًا في هذا خلال الشَّهدين الأخيرين، لكننا جميعًا مُنحنا مسؤولية الملاحاة واتِّباع ما نشاء من نجوم.

هارولد إيمري لودر

قال لاري: «معذرة... لا أفهم...».

- إنها طريقة هارولد في قول إن التبعية شرف كالقيادة.

أكمل لاري تقليب الصفحات حتى بداية السجل، مرَّ بأكثر من فقرة محاطة بمستطيل، كلها مكتوبة بخط هارولد وبحروف كبيرة. هتف لاري: «مهلاً.. انظري إلى هذه الفقرة...».

يقال إن أعظم خطايا البشر الكبرياء والكراهية. حقًا؟ أنا أصوت لمصلحة كونهما أعظم الفضائل. نبذ الكبرياء والكراهية، يعني أن تتغير لمصلحة العالم. النبيل الحقيقي في احتضانهما، وتنفس عبقهما. هذا يعني أن يتغير العالم من أجلك أنت. أنا في مغامرة عظيمة.

هارولد إيمري لودر

شعرت فراني ببرودة وهي تقول: «هذا كلام عقل مضطرب بشدة».

- هذا الكلام هو ما ورطنا في كل هذا. الوقت يمر، لنر ما يمكننا استخلاصه من هذا.

لم يقرأ سوى العبارات المحاطة بمستطيلات، وفقرات متناثرة مكتوبة بأسلوب هارولد المُلتَف، والتي لا تعني شيئاً.

ما وجداه في بداية السجل هو الصدمة الحقيقية.

تبدأ كتابة التدوينات من الصفحة الأولى، برقم 1 محاط بدائرة، بعدها مسافة بادئة، ولم ترَ فراني أي مسافات بادئة في باقي اليوميات إلا ما تبدأ به الفقرات داخل المستطيلات.

قرأ أول عبارة من السجل معاً بصوت مسموع، ثم غطت فراني فمها بكفها وتراجعت إلى الخلف.

قال لاري: «لا بُدَّ أن نأخذ السجل معنا».

- نعم...

- ونعرضه على ستو. لا أعرف أكان كلام ليو عن كون هارولد في صف الرجل الغامض صحيحاً، لكنَّ الشاب مضطرب تماماً وخطر.

شعرت بدوار قوي. كانت تعرف أن هذا ما سيؤول إليه أمر اليوميات منذ رأت اللوحة. أول عبارة من يوميات هارولد هي:

سعادتي الكبرى في صيف ما بعد الكارثة هذا، يكمن في تمكني من قتل السيد ستورات الكلب ريديمان، وربما قتلها أيضاً.

- رالف؟ هل أنت في المنزل؟ هل من أحد في المنزل؟

وقفتُ على الدرج تنظر إلى المنزل. كان رالف ليسمع نداءها، لكنَّ الأصم لن يسمع وربما يكون بالداخل. حملتُ نادين حقيبة التسوق باليد اليسرى، وجربتُ فتح الباب فوجدته غير مُقفَل.

دخلت إلى مدخل صغير، أمامها درج يقود إلى أعلى حيث المطبخ، وآخر يقود إلى القبو بالأسفل حيث أخبرها هارولد أن نِك يعيش. وضعتُ على وجهها ألطف تعبير ممكن ونزلت وهي تفكر في عذر لدخولها.

دخلتُ مباشرة لأنك لن تعرف أنني أطرق الباب. أريد أن أسألك فقط أكانت المحطة ستحتاج إلينا في مناوبة إضافية لتصليح المولد المحترق. هل أخبرك براد بشيء؟

بالأسفل غرفتان؛ غرفة نوم بسيطة كقلاية راهب، وغرفة مكتب فيها مكتب ومكتبة ومقعد وسلة مهملات. تصفحت الأوراق المتناثرة على المكتب سريعاً، ولم تفهم ما في أغلبهم. يبدو أنها ردودك على حوارات مع أشخاص آخرين، وملاحظات كتبها لنفسه، تشبه الأخيرة ما دونه هارولد في مذكراته داخل مستطيلات، وأطلق عليها «منشورات استرشادية لحياة أفضل».

كتب في الأوراق:

«تحدث مع جين عن التجارة والتبادل. هل يعرف أحد كيف بدأت التجارة؟ تبادل منتجات المجتمع أليس كذلك؟ مهارات لا منتجات فقط. ماذا لو قرر براد كيتشنر بيع مهاراته لا التطوع بها؟ ماذا عن الطبيب؟ بماذا سيدفع الناس مقابل هذه الخدمات؟ إمم».

«حماية المجتمع طريق ذو اتجاهين».

«كلما تكلمنا عن القانون، أمضي الليل في كوابيس عن شويو. رأيتهم يموتون. تشايلدريس يرمي طعامه خلال الزنزانة. ماذا سنفعل بشأن القانون اللعين؟ العقوبات الكبرى. كم سيمر من وقت بين استعادة الكهرباء والمطالبة بمقعد إعدام كهربائي؟».

ابتعدتُ عن الأوراق. لقد أنهت مهمتها هنا وتأكدت من أن نيك غير موجود. صعدتُ إلى أعلى، إلى حيث أخبرها هارولد أنهم سيجتمعون. غرف المعيشة واسعة نظيفة، ذات نافذة ضخمة تكشف البلدة حتى الجبال. شعرت أنها مكشوفة مفضوحة رغم أنها تعرف أن الزجاج عاكس من الخارج.

في نهاية الغرفة وجدت ضالتها؛ خزانة عميقة لم ينظفها رالف، تحوي ملابس وأحذية شتوية مكدسة. ركعت تخرج بقالتها من كيس التسوق، وقد أخفت تحتها صندوق الأحذية الذي وضع فيه هارولد الديناميت واللاسلكي. سألت نفسها أكان باب الخزانة السميكة قد يكتم الانفجار لو أخفت القنبلة داخل الخزانة. تذكرت قول هارولد لها: «لو انفجرت القنبلة، وليس لدي سبب لعدم انفجارها، فستفجر المنزل وما حوله. ضعها في أي مكان لا يكتشفونها فيه. أثق باختيارك يا عزيزتي. ما هم إلا صراصير السياسة».

دسّست نادين الصندوق في الخزانة وغطّته بالأردية، وغادرت المنزل بسرعة وهي تقاوم الصوت الذي يأمرها بأن تعود وتقطع الأسلاك التي توصل الديناميت باللاسلكي قبل أن تنفجر القنبلة وينفجر عقلها معها. ألا ينتظرها الجنون في النهاية؟ أليس هو النهاية المنطقية الوحيدة.

انطلقت بالدراجة البخارية مبتعدة، وشيء بداخلها يطالبها بالعودة.. يرجوها أن تفسد القنبلة.. يذكرها بأن القتل هو أعظم خطايا العالم الجديد... انهمرت الدموع من عينيها. سبع حيوات هناك.. بل أكثر. سيحضر الاجتماع رؤساء لجان فرعية. توقفت عند منعطف شارع بيزلاين ترتجف وتفكر فعلاً في العودة لنزع الفتيل.

لن تستطيع لاحقاً تفسير الأمر لهارولد...
الظلام يزحف على وعيها، كأن ستاراً داكناً يُسدل فوقها، ستار تتلاعب به الريح، فتارة يُظلم كل شيء، وتارة يدخل النور من خلفه. وأخيراً سكنت الريح، فانسدل عليها الستار، أعمامها وأصم سمعها وحجب عنها حاسة اللمس. انثال المخلوق المُفكّر؛ كبرياء نادين، كتيار مائي دافئ، كسائل أمينيوسي. شعرت به يتسلل إلى داخلها...

تراكمت الصرخات في نفسها، لا فم لها لتصرخ.

الاختراق: الفوضى...

لا تعرف ما تعنيه الكلمتان، لكنهما مجتمعان هكذا لهما معنى منطقي. لم تشعر بأي من هذه المشاعر من قبل، ولاحقاً استطاعت أن تصفها بتشبيهات قد لا تكون دقيقة، لكنها معاً تعطي صورة مجسمة لما شعرت به. أنت تسبح في ماء دافئ، وفجأة تخوض في جيب مائي بارد. أنت عند طبيب الأسنان، يحققك بمخدر وينتزع ضرسك فلا تشعر بشيء. لاحقاً تتحسس تلك الفجوة التي كان يشغلها جزء منك.

أنت تحرق إلى وجهك في المرأة وقتاً طويلاً. خمس دقائق أو عشرًا أو خمس عشرة. لا ترمش. تراقب في جزع تغير وجهك البطيء كأنه وجه مذئوب يتحول من بشري إلى ذئب. تصير غريباً على نفسك.

لقد دخلها الرجل الغامض، وأدركت كم هو بارد...

أول ما فتحت نادين عينيها، شعرت أنها في الجحيم.

الجحيم بياض ناصع، نقيض لدُكنة الرجل المتشحّ بالسواد. ليس حولها إلا خواء أبيض. الجحيم الأبيض في كل مكان.

حدقت خلال ما حولها (لا يمكن أن تحديق «إلى» اللاشيء) مرتعبةً، ذاهلةً. للحظات شعرت بالدراجة البخارية بين ساقها، ولمحت لونًا أخضر على حدود مجال إبصارها.

الرجل الغامض فيها، وعندما حلّ انتزعها من أمام نافذة حواسها الخمس، مدخلها إلى العالم الواقعي، وجاء بها إلى هنا... إلى أين؟

البياض الكامل شاشة سينما معلقة على خلفية من سماء مكفهرة. رأت نادين كشك بيع الوجبات السريعة مدهون بلون وردي باهت، تعلوه لافتة مكتوب عليها: مرحبًا بك في سينما هوليدياي توين المكشوفة! استمتع بالترفيه تحت النجوم الليلة!

باغتتها الظلام عند منعطف شارع بيزلاين، وهي الآن في الشارع الثامن والعشرين حيث السينما، على حدود البلدة. هي في لونجمونت؟ أليس كذلك؟ تشعر بنكهته في مؤخرة عقلها، نهكة باردة...

الأعمدة تحيطها الآن، مثبت إلى كل منها سماعة ضخمة. الأرضية تحتها زلطية، ينمو الآن من بين فرجاتها ذيل القط والعشب. سينما البلدة مهجورة منذ أواخر يونيو كما يبدو.

تهمس: «لماذا أنا هنا؟».

لم تتوقع إجابةً، فقد كانت تسأل نفسها. لدهشتها سمعت صفيّرًا يثقب الأذان يخرج من السماعات الضخمة، ثم سمعت اسمها: نادين...

هذا صوته. صرخت وغطت أذنيها بكفيها، بيد أنه لا مفر من سماع الصوت الهادر، صوته الضخم المخيف الشَّيق.

«نادين. نادين.. كم أحب أن أحب نادين. أليفتي، جميلتي...».

صرخت: «كفى!». صوتها ما زال ضئيلاً مقارنةً بذلك الصوت المجسم الجبار. توقف الصوت، وظلت السماعات ترمقها من أعلى كأنها أعين حشرة سوداء هائلة. أنزلت نادين يديها ببطء عن أذنيها. قالت لنفسها: لقد جُننت. هذا هو الأمر. لعبة الانتظار.. لأعيب هارولد.. وأخيرًا زرع متفجرات. لقد

دفعك كل هذا من فوق حافة التعقُّل، فسقطتِ في هاوية الجنون. ربما يكون هذا أفضل..

بيد أنها لم تُجن، وهي تعرف ذلك. ما هي فيه الآن أسوأ بكثير من الجنون. صدحتِ السماعات مرة أخرى كأنها تثبت ما سبق. «نادين.. إنهم يعرفون...».

كررت: «يعرفون؟» لم تكن واثقة مما يعنيه.

«لقد كنتِ غبية. ربما يحب الرب الغباء، لكنني لا أحبه..».

ألصق العرق ملابسها وشعرها بجسدها، وبدأت ترتجف. أنا غبية.. غبية.. أعرف ما تعنيه هذه الكلمة؛ تعني الموت.

«إنهم يعرفون كل شيء.. إلا أمر صندوق الأحذية. الديناميت..».

السماعات.. السماعات في كل مكان.. تحقق إليها من أعلى ومن أسفل، من تحت الزلط ومن بين العشب.

«انذهبي إلى مسرح سَرايز المكشوف وامكثي هناك. حتى ليلة غد. حتى يجتمعون. بعدها يمكنكِ أنت وهارولد أن تأتيا إليّ».

شعرتُ نادين الآن بالعرفان.. لقد كانا غبيين، لكنهما مُنحا فرصة ثانية. إنهما مهمان حتى إنه صَفَحَ عنهما. سرعان ما سننضم إليه.. وقتها ستُجن، إنها واثقة من هذا، وليكونن الجنون هو الحل والمخرج.

آلمتها حنجرتها، لكنها استطاعت أن تقول بصوت مشروخ: «لكنَّ المسرح.. المسرح بعيد عن مجال استقبال اللاسلكي...».

لا إجابة. السماعات تحيط بها من كل صوب، ساكنة خرساء. شغلت محرك الدراجة البخارية وانطلقت. يجب أن تبتعد عن هذا المكان. انزلقت الدراجة على الزلط، فسقطتُ نادين وجرحت شفثيها. زحفت سريعاً وهي ترتجف وركبتها مرة أخرى.. لا بدُّ أن تبتعد.. لا بد...

دبَّت الحياة في مئات من مكبرات الصوت خلفها. الصوت يغني أغنية شنيعة بلا نغمات.

«سأراك.. في كل الأماكن القديمة المألوفة.. التي احتفظ بها في قلبي...».

صرخت نادين بصوتها المشروخ. تُردد صوت ضحكة وحشية هزت الأرض. هدر الصوت: «أحسني صنعا يا نادين. أحسني صنعا يا عزيزتي ومُختارتِي...».

هُرِعَتْ عائدة إلى بولدر بأسرع ما استطاعت.. فرّت من الصوت الهادر.. بيد أنها حملته محفوراً في قلبها إلى الأبد.

انتظرت هارولد عند محطة الحافلات. رآها فشحب وجهه وهمس وعلبة غدائه تسقط من يده: «نادين...».

- إنهم يعرفون يا هارولد. يجب أن...

- شعرك يا نادين.. إلهي، شعرك...

- أنصت إليّ!

هز رأسه لينتزع نفسه من التحديق إلى شعرها، وسألها: «حـ... حسناً.. ماذا حدث؟».

- لقد ذهبوا إلى بيتك ووجدوا اليوميات. أخذوها...

تصارعتِ التعبيرات على وجه هارولد؛ الغضب، الرعب، الخزي، حتى هزمتهم جميعاً ابتسامته المتجمدة الرهيبة. سألها: «مَن فعلها؟».

- لا أعرف، ولا يهم. أنا واثقة فقط من أن فران جولد سميث واحدة منهم. ربما كانت برفقة بيتمان أو أندروُد.

قبض على كتفيها بقوة وقد تذكر أنها هي من أعاد السجل إلى ما تحت البلاطة المخلخلة. هزّها كدمية قماشية، لكنّ نادين واجهته بلا خوف. لقد واجهت ما هو أبشع من هارولد لودر اليوم.

- كيف عرفتِ أيتها العاهرة؟

- لقد أخبرني.

هوى ذراعا هارولد إلى جانبيه وهمس: «فلاج؟ أخبركِ؟ تكلم معكِ؟ وكلامكما تسبب في هذا؟».

اتسعت ابتسامة هارولد، ابتسامة حاصد الأرواح. سألته: «عمّ تتكلم؟».

جرّها من ذراعها إلى واجهة متجر الأجهزة الكهربائية القريب، ولفّ وجهها نحو الزجاج. حدقت نادين إلى انعكاس صورتها طويلاً. لقد شاب شعرها بالكامل.

أوه، كم أحب أن أحب نادين.

- يجب أن نرحل حالاً يا هارولد.

- الآن؟

- بعد الظلام. سنختبئ حتى الظلام. أحضر مُعدّات التخيم، سنحتاج إليها.

- سنذهب إلى الغرب؟

- ليس قبل مساء الغد.

همس وهو ينظر بعد إلى شعرها: «ربما لم أعد راغباً في الذّهاب...».

- لقد تأخر هذا القرار يا هارولد. فات الأوان.

الفصل الثامن والخمسون

جلس لاري وفران إلى منضدة بيت الأخيرة يشربان القهوة. بالأسفل ليو ولوسي، ليو يعزف على جيتاره الجديد الذي جلبه له لاري، فيما تغني لوسي. أما ستو، فكان جالساً على مقعد غرفة المعيشة وسجل هارولد مفتوح على فخذه ظل جالساً هكذا طوال وقت الظهيرة، وحتى التاسعة مساء. رفض تناول العشاء وظل يقلب صفحة تلو الأخرى.

أنهى ليو بالأسفل عزف آخر أغنية. قالت فراني: «عزفه رائع»، فقال لاري: «أفضل من عزفي بكثير».

بدأ ليو في عزف أغنية أخرى وصاحبها بالغناء. توقف لاري عن شرب القهوة واتسعت عيناه وتساقطت بضع قطرات من شرابه على المنضدة. ليو يغني أغنيته؛ «يا صغيرتي، هل تفهمين رجلك».

قامت فراني تجلب خرقة لمسح ما انسكب من كوب لاري وهي تقول: «أتذكر هذه الأغنية من قبل الوباء. كانت رائعة للغاية. مَنْ كان يغنيها؟ لا أتذكر اسمه».

أجاب لاري: «ولا أنا. أغنيات البوب تظهر وتختفي بسرعة».

- نعم، لكن فيها شيء مألوف. ذلك الشيء على طرف لساني ولا أستطيع الإمساك به كي أنطقه. هل تفهمني؟

أغلق ستو السجل، فارتاح لاري لرؤيتها تنقل تركيزها منه إلى ستو الذي قام واقترب منهما. نظرت أولاً إلى المسدس المعلق في حزامه، ولم يكن يفارقه منذ انتخابوه مارشالاً، وظل من وقتها يمزح بشأن إطلاق النار على قدمه بالخطأ، ولم تر فران أن ذلك المزاح مضحك.

سأله لاري: «ما قولك؟».

وجه ستو مهموم مغموم. وضع السجل على المنضدة وجلس. قامت فراني لتجلب له قهوة، فشكرها وطلب منها الجلوس. نظر إلى لاري شاردًا، ثم قال: «قرأته كله، والآن رأسي ينفجر من الصداع. لستُ معتادًا قراءة كل هذا القدر. آخر كتاب قرأته بالكامل كان رواية عن أرانب. تتحدث عن أرانب تعيش في مكان كبير واحد وتأكل جيدًا، لكنها تشعر بأن في الأمر خدعة، بيد أنهم لم يسعوا لمعرفة ما يخفى عليهم. إلا أن المشكلة في وجود ذلك المزارع الذي يعتني بهم ليأخذ واحدًا منهم كل مدة ليأكله أو يبيعه.. كان من بينهم ذلك الأرنب سيلفرويد الذي كان يكتب الشعر في الحبل الذي يخنقهم به.. هارولد يذكرني بذلك الأرنب....».

قالت فراني: «هارولد مريض».

غمغم ستو وهو يشعل سيجارة: «نعم، وخطر».

- ماذا سنفعل؟ نعتقله؟

نقر ستو السجل وقال: «هو والمرأة كروس هذه يخططان لفعل شيء يكسبهما مكانة عندما يرحلان إلى الغرب. هذا الشيء غير مذكور هنا».

- هل سنعتقله؟

- لا أعرف. يجب أن أناقش الأمر مع باقي أعضاء اللجنة. ماذا لدينا لاجتماع غدٍ يا لاري؟

- الاجتماع قسمان، القسم الأول عن الأمور العامة، والثاني عن الأمور الخاصة. يريد براد أن يتكلم عن حاجته إلى طاقم فصل التيار الكهربائي. آل بَندل يريد تقديم نموذج للجنة القانون، ثم سيناقش الطبيب عدد ساعات العمل في العيادة، وسيتكلم تشاد نوريس قليلًا. بعد ذلك سيفادرون ونكمل نحن.

- لو استبقينا آل بَندل وحكيينا له أمر هارولد، هل سيبقي الأمر سرًا؟

قالت فران: «أنا واثقة من أنه لن يتكلم».

قال ستو: «ليت القاضي هنا.. ليس لدينا إلا خياران، ولا أريد أن أختار حبسهما....».

سأله لاري: «وما الخيار الآخر؟».

أجابته بدلًا عن ستو: «النفى». أو ما ستو فسأل لاري مستنكرًا: «ستطرده؟».

- كلاهما. هو وهي.

سألت فراني: «ماذا لو رحب بهما فلاج؟».

قام ستو وهتف: «ليست هذه مشكلتنا يا حبيبتي».

أومأت هي تفكر: لم أكنُ أريد يا هارولد أن تصل العلاقة بيننا إلى هذ
الحد...

سأل ستو: «هل لديكم أي فكرة عن مخططاتهما؟».

أجاب لاري: «يمكن أن نسمع استنتاجات اللجنة عن الأمر، لكنني لديّ
عدة نظريات، منها تفجير محطة الطاقة.. التخريب.. محاولة اغتيالك أنت
وفراني.. رغم أنه لم يصرح بذلك، أعتقد أنه خرج للبحث عن الأم أباجيل معكم
على أمل أن ينفرد بكما ويقتلكما».

- كانت لديه هذه الفرصة.

- ربما جبن.

همست فراني: «كفى أرجوكما...».

قام ستو إلى جهاز الإرسال والاستقبال الموصول ببطارية، واتصل ببراد
كيتشنر.

- براد.. أنا ستو ريتمان. اسمع.. هل يمكن أن تطلب من بعض الرجال
حراسة المحطة الليلة؟

- طبعًا. لكن مم سيحرسونها؟

- الأمر حسّاس يا براد؟ سمعتُ أن شخصًا أو اثنين قد يحاولان تخريب
المحطة.

- رباه!

- أعرف كيف تشعر، لكن لن يدومَ الخطر أكثر من ليلة أو ليلتين حسب
علمي، بعدها سيكون كل شيء آمنًا.

- حسنًا. سأختار اثني عشرَ واحدًا من لجنة الطاقة. هل الأمر من تدبير
ريتش موفات؟

- لا، ليس ريتش. اسمع، سأتصل بك لاحقًا.

أغلق ستو الجهاز وعاد إلى المطبخ. قال: «لقد كان عالم الاجتماع الأصلع
مُحقًا».

قالت فراني وهي تمسك يد ستو: «اسمعاني، أريد منكما أن تنهيا مناقشة هذا الموضوع في الاجتماع القادم. أريد أن يتوقف كل هذا». أوما لاري: «النفي.. لم يخطر لي هذا ببال. سأرحل أنا وليو ولوسي. أراكما غدا».

قبل ساعة من فجر يوم الثاني من سبتمبر، وقف هارولد على حافة مسرح سنرايز المكشوف ينظر إلى أسفل. البلدة غارقة بعد في الظلام. نادين تنام خلفه في الخيمة الصغيرة التي أخذها من متجر التخميم في طريقهما إلى خارج البلدة.

سنعود منتصرين...

لكن قلب هارولد يشك في هذا. لقد سرق منه الأوغاد كل شيء. فراني، واحترامه لنفسه، وأخيراً يومياته، والآن أمله. اليأس يملكه...

الريح عاصفة تطير شعره وتهز الخيمة بقوة فتصدر صوتاً شبيهاً بصوت إطلاق الرصاص من بندقية آلية. تتن نادين في نومها، صوتها مرعب. نادين تائهة مثله وربما أكثر.

لكنني قادر على الحفاظ على عقلي. يمكنني أن أفعل هذا. يمكنني أن أذهب إلى مصيري وعقلي معي، وهذا شيء مهم. نعم.. شيء عظيم.

تساءل هارولد أكانوا يحيطون ببيته الآن، ينتظرون عودته ليعتقلوه ويلقوا به في الحبس. سيكتب عنه في التاريخ - لو تبقى أحد من أولئك التعساء ليكتبه - أنه أول معتقل في المنطقة الحرة.

سينتظرون طويلاً. لا عودة... لقد تأخر الوقت وفات الأوان كما قالت نادين ذات عيني الجثث المخيفة الخاوية.

همس هارولد: «على أي حال، سنكمل ما بدأنا».

انعقد اجتماع لجنة المنطقة الحرة بعد أربع عشرة ساعة، في بيت نك ورالف. نقر ستو علبة البيرة وقال: «الأفضل أن نبدأ على الفور».

جلس جلن إلى جوار لاري قرب المدفأة، وظهراهما إلى النار، وجلس نك وسوزان ورالف على الأريكة، ووقف براد عند الباب يحمل علبة بيرة كورز

ويتحدث إل آل بَندل الذي يحمل كأس سكوتش بالصودا. أما الطبيب وتشاد نوريس فكانا جالسين إلى جوار النافذة العملاقة يراقبان الغروب. أسندتُ فراني ظهرها إلى باب الخزانة حيث خبأتُ نادين المفرقات، ويوميات هارولد في حقيبتها. سأل ستو جِلن: «هل بدأتَ التسجيل الصوتي أيها الأصلع؟».

- نعم. أرى أنك بدأتَ تحريك فمك أيضًا يا رجل شرق تكساس. شكر ستو رالف على الضيافة، وشكر الحضور. شردتُ فراني وتذكرتُ أول مرة قابلت فيها ستو، وكم تغيّر خلال الأيام حتى صار هذا الرجل العظيم الذي تفخر به.

وبدأ الحضور في عرض مطالبهم ومقترحاتهم.

جلس هارولد فوق منضدة نزهات منقوشة برسوم الجرافيتي، وشرد إلى حيث لا تستطيع نادين الوصول إليه، فارتعبتُ. المكان حولهما مظلم مُتَّسع، تُشرف عليهما الجبال بأشجارها الشامخة الرمادية. سألته في قلق: «متى؟». أجابها باسمًا بطريقة لم تفهمها لأنها لم ترها من قبل: «قريبًا جدًّا». هارولد يبدو.. مسرورًا.

صوّتت اللجنة بالإجماع لمصلحة مقترح براد، وأضيف إلى المُقترح إسناد مهمة ملء سيارتي إطفاء بالماء لرالف برينتner تحسبًا لاشتعال حرائق أخرى بسبب توصيل التيار. قام تشاد نوريس تاليًا وقدم تقريرًا عن عمل لجنة الدفن طوال الثلاثة أسابيع الماضية. قال إنهم دفنوا خمسًا وعشرين ألف جثة، ومتوقع دفن عدد مماثل قبل بداية أكتوبر.

عدّلت فراني جلستها وشردت في الغروب بالخارج. شعرت بحنين إلى الوطن غير متوقع، وموجة حزن جارف. كان هذا في الثامنة إلا خمس دقائق.

كانت لتُبَلِّلَ نفسَهَا خوفاً لولا أن اتجهت سريعاً إلى الأجمة. عندما عادتُ إلى المسرح كان هارولد متربّعاً بعد وجهاز اللاسلكي الثاني في يده. همست له: «هارولد. الوقت يتأخر. الساعة الثامنة والرّبع الآن».

- سيمكثون هناك حتى قرب انتصاف الليل، يُربّتون أكتاف بعضهم تشجيعاً. عندما يأتي الوقت سأفعلها. لا تقلقي.

- متى؟

- حالما تُظلم..

تثاءبت فراني وآل بَندل يقوم ليتكلم. تمنّت لو كانت نائمة الآن في بيتها. ليس الأمر بسبب التعب أو الحنين إلى الوطن، بل شعور غريب بأنها لا تريد المكوثَ أكثرَ في هذا البيت بلا سبب. رغبة هائلة في الفرار، لا وحدها، بل معهم جميعاً. قالت لنفسها إن السبب بالتأكيد تقلبات مزاج الحوامل.

قال آل: «النظام الذي اخترناه نظامَ هيئة تحكيم. أعضاء الهيئة سيُختارون من خلال الاقتراع من بين أسماء كل سكان بولدر من الكبار، وستكون هيئة التحكيم من ثلاثة أشخاص فوق سن ثمانية عشر عاماً، سيخدمون ستة أشهر.. بالنسبة إلى الإعفاء...».

تزايد خوف فراني من زعرها غير المسوّغ. شعور بضيق المكان حولها.. من أين جاء؟ المفترض أنها قد اعتادت تجاهل ذلك الشعور المفاجئ غير المبني على حقائق.. على الأقل في العالم القديم. لكنّ ماذا عن سِنة توم كولين؟ ماذا عن ليو روكواي؟

صرخ فيها صوتها الداخلي: اخرجي من هنا! اخرجي وأخرجيهم!

قاومت.. ثم هبّت واقفة تهتف: «أحدهم قادم».

أنصت الجميع فسمعوا صوت دراجة بخارية تقترب، وتطلق نفيرها. أحاط الذعر بفراني فصرخت: «اسمعوا جميعاً».

استدارت نحوها الوجوه المتسائلة. قال ستو: «فراني، أنت...».

- يجب أن نخرج من هنا.. الآن!

الساعة الثامنة والنصف إلا خمس دقائق، واختفى آخر خيط نور من السماء.

حان الوقت. رفع هارولد اللاسلكي إلى فمه وإصبعه تمس بالكاد زر الإرسال. سيضغطه ويفجرهم جميعاً...

وضعت نادين يدها على ذراعه فشنتته. أشارت نحو المصابيح المنيرة. صوت هدير محركات دراجات بخارية. أبعد يدها عن ذراعه، وضغط زر الإرسال.

لا تعرف أكانت الدرجات البخارية أم كلماتها السبب في حثهم على الحركة، لكنهم لم يتحركوا بسرعة كافية.. هذا ما رسخ في ذهنها؛ أنهم لم يتحركوا بالسرعة الكافية.

خرج ستو أولاً وسط هدير الدراجات المتزايد، والتي تقطع الجسر الصغير قرب منزل رالف. أمسك مقبض مسدسه لا شعورياً. انفتح الباب السلكي من خلفه توقع أن تكون فراني، لكنه رأى لاري يهتف: «ماذا يحدث يا ستو؟».

- لا أعرف. الأفضل أن نُخرج الجميع.

حالما اقتربتِ الدراجات أكثر زفر ستو راحةً. رأى على ظهورها ديك قولمان، وصبي جيرنجر، وتيدي ويزاك، وآخرين. فطن الآن إلى أن سبب قلقه خشيته من أن تكون الدراجات البخارية رأس حربة قوات فلاج، وأن الحرب اندلعت...

سأل ستو: «ديك؟ ماذا حدث؟».

زعق بصوت أعلى من هدير المحركات: «الأم أباجيل!».

تحلقتِ الدراجات حول منزل رالف، وبعض أعضاء اللجنة يقفون أمامه. صاح لاري: «ماذا؟!».

- لقد عادت! إنها في حالة بشعة! نحتاج إلى طبيب.. رباه، بل نحتاج إلى معجزة!

اندفع جورج ريتشاردسن من بين الواقفين. صاح: «المرأة العجوز؟ أين؟».

- اركب ولا تسأل يا دكتور! أسرع بريك!

انطلق الطبيب مع الرَّهط، وتبادل لاري وستو النظرات الجِزعة. السحب تحتشد في عقل ستو، وأحاط به فجأة شعور بالخطر المميت...

جذبت فراني كُفَّ نِك المتخشب وسط غرفة المعيشة وصاح: «هيا!». إنه لا يتكلم، لكنه يشعر.. يشعر الآن ويعرف. جاءه اليقين من مكان ما، من كل مكان.

في الخزانة شيء...

دفع فراني بقوة، ثم أشار لها أن تخرج هي، فخرجت. فتح بابي الخزانة وراح يُخرج ما فيها وهو يدعو الله بالألا يكون قد تأخر.

وجدت فراني نفسها إلى جوار ستو، وجهها ممتقع وعيناها متسعتان. قبضت على ذراعه وهتفت: «ستو.. نِك بالأعلى.. شيء... شيء...».

- عمّ تتحدثين؟

صرخت: «الموت! عن الموت! نِك ما زال بالأعلى!».

أخرج مجموعة ملابس مكومة في الأرضية، فوجد تحتها صندوق أحذية. جذبه، وبينما يفعل، انبعث صوت هارولد لودر منه...

أمسك ستو كتفي فراني وصاح: «ماذا عن نِك؟».

- يجب أن نُخرجه.. سيحدث شيء.. شيء مروّع..

سأل آل بَندل: «ماذا يحدث بحق الجحيم يا ستو؟».

- لا أعرف...

- أرجوك يا ستو.. يجب أن نُخرج نِك من هنا!

كان هذا عندما انفجر البيت من خلفهم.

مع ضغطة زر الإرسال، اختفى صوت التشويش وحل محله صمت تام.. حالك، كهافية تنتظره أن يسقط فيها. ظل هارولد متربعا، يتمالك نفسه.

قال بصوت ثابت في اللاسلكي: «أنا هارولد إيمري لودر.. أفعل هذا بإرادتي الحرة». ورفع إصبعه عن الزر. سمع صوت انفجار مكتوم كأنه في علبة صفيحية. رمى اللاسلكي على الأرض وهو يشاهد النيران تندلع من الانفجار عند سفح جبل فلاجستاف.

قبضت نادين على ذراعه كما قبضتُ فراني على ذراع ستو منذ ثوانٍ وقالت: «يجب أن نتأكد من أن الانفجار أصابهم».

نظر إليها، ثم أوماً نحو الدمار المضيء وسط الظلام وقال: «هل تظنين أن أحداً قد ينجو من هذا؟».

- أنا.. لا أعرف.. أوه، هارولد... أنا...

مالت تمسك بطنها وتقيأت. رمقها هارولد بنظرة راضية. بعد دقائق، مسحت فمها بمنديل وسألت بصوت واهن: «ماذا سنفعل الآن؟».

- يمكننا الآن أن نتجه إلى الغرب.

ارتجفت نادين.. مدت يدها تمسك ذراعه، فابعدها بحدة، ونزل عن المنضدة ليجمع أغراضهما.

- هل... تعتقد أن الأفضل أن ننتظر للغد...

- طبعاً حتى يتسنى لعشرين أو ثلاثين متخلفاً منهم أن يركبوا درجاتهم وينطلقون في إثرنا!

أضاف هارولد وهو يضم الخيمة ويربطها حول أوتادها: «ولا تلمسيني مرة أخرى. لقد انتهينا عند هذا الحد. لقد نفذتُ رغبة فلاج ومحتوهم من الوجود. سيكافئني بامرأة تجعلك كجُوال بطاطس مقارنةً بها. وأنت.. أنتِ ستحصلين عليه. أيام مجيدة تنتظرنا، هه؟».

شعرت نادين بالرتاء على حالها. لقد طردها من قلبه كأنها ثمل غير مُرحَّب به، حاول اقتحام حانة محلية يعرف فيها الجميع بعضهم. لقد سوّد القتل قلبها بلا رجعة، وكذلك فعل في قلبه وفي روحه.

شرع يربط العتاد إلى دراجته وهو يقول في برود: «اعتادي الأمر. لقد انتهى أمرهم هناك، وانتهت علاقتنا هنا، وانتهى العالم بالنسبة إلى من ماتوا في الوباء. لقد خرج الرب في رحلة صيد سماوية وسوف يغيب طويلاً. الرجل الغامض يتولى القيادة الآن، لذا اعتادي الأمر».

أنت وتمايلت في جزع...

- بربك يا نادين. لم نعد في مسابقة جمال هنا. ساعديني في جمع هذه الأغراض. أريد أن أقطع مائة ميل على الأقل قبل الشروق.

بعد لحظات التفتت نحو الدمار بالأسفل، بدا شاملاً من حيث تقف على هذا الارتفاع. جمعت أغراضها في وجوم، وبعد ربع ساعة كانا على الطريق، يشقان الظلام والرياح الباردة، يتجهان إلى الغرب.

نهاية اليوم كانت بسيطة وبلا ألم بالنسبة إلى فران جولد سميث. شعرت بدفقة هواء ساخن من خلفها، ثم وجدت نفسها تطير في ظلام الليل.

فكرت: ما الذي حدث؟

هبطت على كتفها، إلا أنها لم تشعر بألم. سقط مقعد على وقوائمه الأربع أمامها، نسيجه ووسائده ملطخة بالسواد. ثم سقط فوق المقعد شيء ملفوف في نسيج. في زعر هائل أدركت أنه ذراع.

ستو؟ ستو؟ ماذا يحدث.

هطلت فوقها وحولها أغراض متفرقة؛ أحجار، حجر زجاجي، شظايا خشب، خوذة دراجة بخارية. ترى فراني كل شيء بوضوح.. بوضوح زائد رغم الظلام الذي حل منذ قليل.

أوه، ستو. إلهي، أين أنت يا ستو؟ ماذا يحدث؟ نك؟ لاري؟

استمر صوت الهدير المرعب والصراخ. العالم مضيء كأنه منتصف ظهيرة حارقة. الأغراض تمطر عليها.. تهوي أمامها قطعة خشبية حادة...

الجنين!

تبعثها قطعة أخرى...

هذا من فعل هارولد..

سقط فوقها شيء ضخم كالتابوت...

ثم سحبها الظلام إلى مكان لن يستطيع أحد الوصول إليها فيه.. ولا حتى المتشع بالسواد...

الفصل التاسع والخمسون

الطيور...

إنها تسمع زقزقة عصافير...

رقدت في الظلام تنصت لصوت الزقزقة مدةً طويلةً حتى أدركت أن الظلام ليس ظلامًا، بل لون أحمر متحرك آمن. ذكَّرها هذا بطفولتها، بصباح السبت. يوم بلا مدرسة ولا كنيسة. يوم تنام فيه حتى وقت متأخر. تستلقي مغمضة العينين ولا ترى إلا لون شمس السبت المتوهجة من خلف جفنيك. تستمع لصوت الطيور، وربما تشم رائحة البحر، لأن اسمكِ فرانسيس جولد سميث، وأنتِ في الحادية عشرة من عمرك، في يوم من أيام أوجونكويت الهادئة...

صوت الطيور...

لكنها ليست في أوجونكويت.

(بولدر؟)

تحيرت في أمر هذا اللون الأحمر طويلًا، وفجأة تذكرت الانفجار.

(انفجار؟)

(ستو!)

انفتحت عيناها وصاحت في رعب: «ستو!».

كان جالسًا إلى جوار فراشها، يلف ذراعه بضمادة بيضاء، يقطع خده جرح جاف، وجزء من شعره محترق. ستو حي.. معها. همس لها: «فراني... الشكر للرب...».

قالت بخلق جاف: «الطفل... هل فقدته؟!».

أحاطها بذراعه السليمة وقال: «لا يا حبيبتي... لم تفقديه».

بكت دموعًا حارة سلخت خديها، وعانقته بقوة غير مكرثة لآلام جسدها المتفرقة. كل شيء بخير ما داما معًا.. كل شيء تحتاج إليه في هذه الغرفة المضيفة المحاطة بتغريد العصافير...

سألته لاحقًا: «ما مدى فدح ما حدث؟».

وجهه حزين مكروب. همس: «فران...».

- نك.. رأيتُ ذراعًا مبتورة...

- الأفضل أن تنتظري...

- لا.. أريد أن أعرف. مَن مات؟

أجاب بصوت مبجوح: «سبعة. لقد نجونا بأعجوبة...».

- مَن مات يا ستورات؟

- نك واحد منهم. أنت تعرفين.. لم نتمكن.. من تحديد هوية الـ...

أشاح بوجهه لحظة، فزفرت فراني زفرة حارة مؤلمة. بعد هنيهة أكمل ستو: «وسوزان ستيرن... كانت بالداخل بعد...».

- كيف؟ لا يمكن.. هذا مستحيل، أليس كذلك؟

- يا للأسف... ليس مستحيلًا...

- مَن أيضًا؟

- تشاد نوريس.

فرت الدموع من عيني فران وهو يتابع: «الثلاثة كانوا بالداخل. يقول براد إن الانفجار لا بُدَّ ناتج عن سبع أصابع ديناميت أو ثماني.

الأربعة الآخرون ماتوا من راكبي الدرجات من البلدة؛ أندريا تيرمينيلو، ودين وايكوف، وديل بيدرسن، وشابة اسمها باتسي ستون. جُرح عشرون آخرين في الانفجار، منهم تيدي ويزاك من لجنة الدفن، وفقد رالف برينتزر الإصبعين الثالثة والرابعة من يده اليسرى.

أصيبت فران بسحجات وحروق، وكُسرت قدمها وتمزقت بضع عضلات من ظهرها عندما سقطت الأريكة فوقها. ذلك الشيء الذي رآته تابوتًا يسقط فوقها.

تعانقا دقائق، ثم سألت ببطء: «هارولد؟».

- ونادين كروس. لقد آذونا، وآذونا بقوة، لكنهما لم يقتربا من إحداث الدمار الذي خططا له. لو أمسكنا بهما قبل أن يبعدا...
رفع كفيه أمام وجهه وصفقهما بقوة. ارتسمت ابتسامة باردة على شفثيه أرعدت جسد فراني. هذه ابتسامة مألوفة.

- إياك أن تبترسم هكذا مرة أخرى.. إياك!

خبث ابتسامته وقال: «أرسلنا من يتعقبهما. لا أعتقد أنهم سيعثرون عليهما. طلبت منهم ألا يتوغلوا أكثر من خمسين ميلاً خارج بولدر، فهارولد ذكي ولا بد أنهما ابتعدا سريعاً. لقد عرفنا أنه فجر الديناميت عن بُعد باستخدام لاسلكي.

حكى له عن بقايا الأسلاك التي رأتها في قبوه، وصندوق اللاسلكي.

- لو كنا فتنشنا البيت كله بدلاً من أخذ يومياته اللعينة.. ل... ل... لوجدنا القنبلة و... كان نك...

- ألهذا السبب بدا لاري حزيناً هذا الصباح؟ كيف عرفت يا فراني؟ كيف عرفت بأمر القنبلة؟

انفجرت في البكاء ودفنت وجهها في كتفه. ربّت ظهرها وقال: «لا تلومي نفسك يا فراني. ما كان أحد ليفهم أنه يصنع قنبلة من رؤية بقايا أسلاك ولاسلكي فقط. أنا لا ألومك ولن يلومك أحد في المنطقة الحرة كلها».

تذكرت أمراً غاب عنها.. الأم أباجيل.. قالت متألّمة: «الأم أباجيل.. لولا عودتها ومجيء الدراجات البخارية ما كنا لنخرج...».

- إن في الأمر معجزة. لقد أنقذت حياتنا، حتى لو...

ثم صمت ستو. حثته فراني على استكمال عبارته، فقال: «لقد أنقذت حياتنا بعودتها. لقد أنقذت حياتنا».

تشبّث فراني بيده وهي تسأل في جزع: «هل ماتت؟ ستو، هل ماتت أيضاً؟».

- عادت إلى البلدة في الثامنة والربع، يقودها ليو ممسكاً يدها. كان فقد قدرته على الكلام، أنت تعرفين أنه يفعل هذا عندما يتحمس، لكنه قادها إلى لوسي. انهارت وقتها.. ربي.. كيف مشت كل هذه المسافة؟

ماذا كانت تفعل وماذا كانت تأكل.. سأخبركِ بشيء يا فراني. في العالم أكثر مما كنا نظن. أعتقد أن هذه المرأة مُرسلة حقاً من الرب.. أو كانت كذلك...

- ماتت.. عادت لتموت هنا...

- لم تمتُ بعد، لكنَّ الطبيب يقول إنها تُحتَضَر. وأنا خائف... لقد جاءت لتُنقِذنا، لكنني خائف منها... خائف من سبب عودتها.

- ماذا تعني يا ستو؟ ما كانت الأم أباجيل لتؤذينا...

قال بحدّة: «الأم أباجيل تنفذ ما يمليه عليها الرب. هذا هو الرب نفسه الذي قتل ابنه.. أو هكذا سمعت...».

- ستو!

خبثُ ثورته وهو يكمل: «لا أعرف سبب عودتها، وهل كان لديها ما تخبرنا به. ربما ستموت قبل أن تستعيد وعيها. الطبيب أخبرنا أن هذا ما سيحدث في الغالب. إلا أنني أعرف أن الانفجار.. وموت نك.. وعودتها.. كل هذا سيجرف البلدة إلى يأس رهيب. الجميع يتكلم عنه. إنهم يعرفون أن هارولد الفاعل، لكنهم يؤمنون أنه هو من دفع هارولد لذلك. اللعنة، أنا أيضاً أو من بذلك. عدد لا بأس به يزعمون أن فلاج هو السبب في عودة الأم أباجيل على هذه الحال. أنا مذعور، أشعر أن الأمور لن تنتهي على خير. لم أشعر بهذا اليأس من قبل».

- لكننا ما زلنا موجودين.. طفلنا سيولد.. أليس كذلك؟

صمت حتى ظنّته لن يجيب، ثم قال أخيراً في شرود: «نعم، لكن إلى متى؟».

غرب غروب ذاك اليوم، الثالث من سبتمبر، توافد الأهالي في مجموعات من فردين أو ثلاثة إلى المنطقة حيث منزل لاري ولوسي. جلسوا أمام البيوت التي تحمل أبوابها علامة X، افترشوا الأقمشة والحدائق الجافة. دَخَنُوا سجائرهم وغلايينهم. شربوا الخمر والبيرة والعصير...

في الثامنة مساءً كان الشارع مكتظاً بالناس، يلتفون حول منزل لاري حيث تقف دراجته إلى جوار دراجة الطبيب البخارية.

نظر لاري خلال نافذة غرفة النوم إلى الحشد، من خلفه الأم أباجيل فاقدة الوعي. الرائحة الجافة المريضة التي تفوح منها تثير معدته، وهو يكره التقيؤ. لن يفر. هذه عقوبته على فراره من قبل فيما مات نك وسوزان. سمع تكّات ساعة الموت حول فراشها. سيغادر الطبيب إلى المستشفى بعد قليل ليتابع مرضاه. لم يتبقّ منهم هناك إلا ستة عشر مصابًا. خرج ثلاثة ومات تيدي ويزاك.

أما لاري، فلم يمسه أذى.

لاري القديم الذي يحتفظ برأسه فيما تُحصَد رؤوس الجميع حوله. ألقى به الانفجار إلى أجمة أزهار، ولم يُصبْ بخدش. تساقطت حولهم الشظايا والأحجار، ولم يصبه شيء منها. مات نك وماتت سوزان وعاش هو. نعم.. لاري أندروُد القديم...

ساعة الموت تدق هنا وهناك...

الشوارع مكدّسة بالأهالي. عليك أن تعود يا هارولد ومعك دستتا قنابل يدوية وتُنهي ما بدأت. لقد تبع هارولد خلال البلاد، تبع ما تركه من أغلفة شوكلاتة باي داي ولافتاته الاسترشادية. هارولد الذكي ذا المقترحات اللامعة.. هارولد وسجله.. هارولد وابتسامته...

لقد قال ستو إنه من المستحيل استنتاج مخطط هارولد ونادين من قطع سلك ولاسلكي. لكنه كان يعرف هارولد ويعرف أفكاره العبقرية.. هو صاحب فكرة كتابة وجهته هو وفراني على سقف حظيرة. المفتش أندروُد بارع فقط في اقتفاء أثر أغلفة الحلوى، لكنه مُحَفِّق تمامًا في ما يخص المتفجرات. الحقيقة أن المفتش لاري أندروُد غرّ غبي.

بل كانت لديه فرصة أخرى لتحاشي الفاجعة. فرصة لم يجرؤ على أن يخبر بها أحد. نادين.. ما كان له أن يصد نادين بهذه الطريقة.

هل كانت تخطط لتلك الجريمة وقتها؟ مخطط فلاج؟

فلاج دائمًا في خلفية الأحداث، مُحرك الدمى المحترف، يمسك بخيوط هارولد ونادين وتشارلي إمبنينج، والرب يعلم مَنْ هم دُماه الأخرى. مَنْ أرسل نادين إلى هارولد؟ فلاج بالتأكيد.. لكنها جاءت إليه قبل ذلك، ونبذها.

كيف كان سيوافق على ما طلبت؟ إنه مسؤول عن لوسي، وعما وصل إليه من إدراك لنفسه واحترام لها.

ابتعد عن النافذة، بيد أنه لم يتبعذ عن خواطره وعن جلد ذاته. الطبيب يقيس نبض الأم أباجيل، ولوري جالسة إلى جوار المحاليل المُعلقة على مشجب أفقي. دِك إليس يقف عند الباب، ولوسي بالقرب منه تنظر إلى لاري. سأل لاري الطبيب: «كيف حالها؟».

- كما هي.

- هل ستعيش حتى الصباح؟

- لا أعرف يا لاري.

المرأة الراقدة على الفراش كوم عظام مغلف بجلد رمادي مشدود. زال أغلب شعرها وكل ما يُظهر جنسها. بدت للاري كمومياء مجففة.

سأل لاري نفسه عن الغرض من اختيار الرب إياها. قال له الطبيب إنه سمع بحالات مشابهة من الهُزال، لكنه لم يرَ واحدة كهذه. إنها تتغذى على نفسها.

هتفت لوسي فجأة: «إن لديها ما تخبرنا به».

قالت لوري: «لكنها في غيبوبة عميقة يا لوسي. لا يمكن أن تعود...».

- ستعود لتخبرنا بأمر ما، ولن يُميتها الرب قبل ذلك.

سألها دِك: «ماذا قد يكون هذا الأمر؟».

- لا أعرف، لكنني أخشى سماعه. أن فقط الموت لم ينتهِ بعد، بل بدأ للتو... هذا ما أخشى أن تؤكده لنا.

استأذن الطبيب في الرحيل، فقال لاري لنفسه: أنتَ لن تتركنا وحدنا مع هذه المومياء. وعض لسانه كي لا ينطق.

خرج الطبيب إلى الجمع، فأحاطت به الأسئلة عن حالة الأم أباجيل. هل ماتت؟ هل تُحتَضَر؟ هل قالت شيئاً؟

الطبيب لا يعرف إجابة عن تساؤلاتهم، ولا يعرف أحد إجابة...

لم ينصرف الأهالي. ظلوا يتناقشون حول ما قاله الطبيب. الأم أباجيل تُحتَضَر. الآن أباجيل مصابة بغيبوبة. هل مات مخها؟ إن كان قد مات، فماذا ينتظرون؟ كيف ستتكم دون مخ؟

لو ماتت الأم أباجيل أخيراً، أفلا يعني هذا أن الرجل الغامض صار أقوى؟

قيل إن الرجل الغامض هو الشيطان. وقيل إنه المسيح الدجال. قيل إنهم يعيشون داخل سفر الرؤيا...

لقد زعم الناس من قبل أن هتكر هو المسيح الدجال.
قال أحدهم إنه سيقتل نفسه لو عادت الأحلام إليه.

صرّت الجنادب، وتألقت النجوم في السماء. تكلموا عن البرد، وشربوا المشروبات ودخنوا السجائر والغلايين.

قال أحدهم إن عمال الكهرباء يقطعونها عن البيوت. قال آخر إن الأفضل أن يوصلوها سريعًا وإلا لن يمر الأمر على خير.

المزيد من الغمغات والوجوه المغطاة بأوشحة الظلام. قيل إنهم آمنون هذا الشتاء من شر الغامض، وتساءل البعض عن احتمالية أن يقذفهم بالصواريخ. تبًا للصواريخ، ماذا لو كان معه قنابل نيوترونية؟

أو طائرات.

ماذا سنفعل؟

ليست لدي أي فكرة.

احفر حفرة ونم فيها وغطها بالتراب.

في العاشرة مساء جاء ستو وجلين ورالف، يوزعون المنشورات ويطلبون من الناس نقلها إلى مَنْ ليسوا هنا الليلة. مكتوب في المنشور: «اجتماع المنطقة الحرة - مسرح مونزينجر - 4 سبتمبر 1990».

كأن المنشورات إذن في الرحيل، قام كل واحد إلى بيته. أخذ أغلبهم المنشورات، وكوَّرها البعض وتخلصوا منها في الشارع.

كان المسرح ممثلًا وهادئًا عندما وقف ستو ليتكلم، وخلفه يقف لاري ورالف وجلين. لم تستطع فراني الوقوف، فأوصلا رالف بلاسكي كي تتكلم من مكانها إن شاءت.

قال ستو: «لدينا ما نتحدث عنه اليوم. لا شك أننا نعرف جميعًا بأمر الانفجار الذي قتل نك وسوزان والآخرين، ونعرف بأمر عودة الأم أباجيل. نريد أن نتكلم عن الأمرين، لكن لنبدأ بالأخبار الطيبة أولاً».

صعد براد كيتشنر إلى المسرح وأخبرهم في ثقة أن الكهرباء ستعود غدًا.

تصاعد الهتاف يرج المسرح واستمر نصف دقيقة أو أكثر. قال لاري لاحقاً إنه لولا الحزن المخيم، لحمل الناس براد وطافوا به أرجاء المسرح. أكمل براد بعدما هدأ الصخب: «سنوصل الكهرباء عند الظهيرة، وأريدكم أن تكونوا في منازلكم وقتها، مستعدين. أولاً أطفئوا أي جهاز كهربائي لن تستخدموه. ثانياً، كرروا الأمر نفسه مع المنازل المجاورة المهجورة. ثالثاً لو شممتم رائحة غاز، تتبعوا الرائحة وأغلقوا المصدر. خامساً، لو سمعتم صفارة سيارة إطفاء اذهبوا إلى مصدر الصوت لكن بنظام وتعقل. أي أسئلة؟».

بعدما أجاب عن الأسئلة، شكر طاقم العمل وأكد أن لجنة الطاقة ستظل منعقدة لصيانة المحطة وجلب إمدادات الوقود، وزيادة خطوط الكهرباء مع الزيادة المتوقعة في التعداد حتى بداية الشتاء، ومع حلول الربيع. هتف أحدهم: «هذا ما لم يباغتنا الخبيث أولاً».

صمت الحضور، وقبض براد كفيه. ظن ستو أنه لن يستطيع أن يكمل، إلا أنه قال أخيراً: «مهمتي الطاقة.. لكنني أومن أننا سنكون هناك وسنظل هنا بعدما يموت الخبيث ويشبع موتاً. ما لم نؤمن بهذا، فالأفضل أن أذهب لإصلاح الكهرباء عنده. أليس كذلك؟».

هتف آخر: «أنت مُحق!».

تتابع التصفيق حاراً. قام ستو ليكمل الاجتماع فقال: «الأمر الثاني في جدول اليوم...».

صاحت امرأة: «سحقاً للجدول.. لنتكلم عن الرجل الغامض! لنتكلم عن فلاج! لقد تأخر الكلام عنه كثيراً!».

ضجَّ المكان بصيحات الموافقة. ضرب ستو المنصة بالمطرقة وهتف: «هذا اجتماع رسمي هنا. ستتكمون عما تريدون لاحقاً، لكنني الآن أريد بعض النظام!».

تردد صوته العالي، وصفرت السماعات فصمت الجميع. أكمل صوت أكثر هدوءاً: «الآن سنتكلم عما حدث في بيت رالف يوم الثاني من سبتمبر، وهذه مهمتي لما كنتُ المارشال هنا».

مال الناس في مقاعدهم متلملمين مستائين، كأنهم تبدلوا خلال الثماني والأربعين ساعة الأخيرة. المكان مليء بأشخاص مجهولين له. العدد يتزايد، ولم يعد أحد يهتم بتفاصيل سوى تفاصيل المعيشة والنجاة.

لا وقت لهذه الخواطر. وصف لهم ما وقع، وعن تحقیقاته في موضع الحادث بصحبة براد وراف، وأوضح أنهم وجدوا بقايا ديناميت ولاسلكي. استنتجوا أن القنبلة زُرِعت في خزانة رالف. عثر آخرون على جهاز لاسلكي آخر ملقى في مسرح سَنرايز المكشوف، وهو الجهاز الذي استخدم في التفجير عن بعد.

صاح رجل من الصف الثالث: «سأسمح باستنتاجاتكم هذه مؤخرتي. الفاعل هو هارولد لودر وعاهرته!».

غمغم البعض اعتراضًا على الألفاظ غير اللائقة.

أين الصالحون؟ إنهم لا يعبأون برحيلك وسوزان وتشاد والآخرين.. لقد صاروا فريقًا من الغوغاء لا يريدون سوى النيل من هارولد ونادين، وتعليق جثتيهما كتعويذة ضد فلاج.

- لو صاح أحد آخر من الحضور دون إذن، سأغلق الاجتماع وسأترككم تتحدثون مع بعضكم. أين نحن هنا؟

حدق إليه البذيء في غضب، فحدق إليه ستو. بعد لحظات خفض الأول عينيه إلى الأرض.

- لدينا شكوك قوية تجاه هارولد لودر ونادين كروس، لكننا لا نملك أدلةً دامغةً. ما أريد قوله هو إن صادم أحدكم أيًا منهما، فلا بُدَّ أن يحضر لي أنا، فيُحبس للعرض على المحكمة وسماع إفاداتهما. المفترض أن نكون الصالحين في هذه اللعبة، وهذا يتطلب أن نلتزم القوانين والتحضُّر.

تفحَّص وجوههم، ولم يرَ سوى الحيرة والامتناع. إنهم يرونه كمن يدافع عن حق من قتل أصدقاءه وأهل بلده.

- سنحتاج إلى تعويض من فقدانهم من أعضاء الجنة، لكن ليس اليوم. أطلبكم فقط بالتفكير في مُرشحين و...

رفع رجل ذراعه طالبًا الحق في الحديث، فسمح له ستو.

- أنا شيلدون چونز. لماذا لا نختار عضوين اليوم؟ أنا أشرح تيد فرامبتون. هتف بل سكانلون: «أنا أؤيده».

رفع شيلدون يديه المعقودتين فوق رأسه طالباً المؤازرة بالهتاف. شعر ستو باليأس واجتاحه الحزن. هل يطالبون بأن يحل تيد فرامبتون محلاً نك أندروز؟! لقد جرّب تيد لجنة الطاقة ووجد أنها مُجهِدة، فانتقل إلى لجنة الدفن، ولم يفعل فيها شيئاً سوى تمديد وقت الاستراحات لتشمل الوردية كلها. تيد من الرجلين الذين عثرا على اللاسلكي الآخر في المسرح المكشوف، ومن وقتها هو يتفاخر بالأمر.

فطن ستو إلى أن سبب حزنه هو يأسه من أنهم لم يعودوا موَكِّلين، ولم يعد لهم احترام كالسابق. لقد انتهى عهدهم.

- يمكنكم أن ترشحوا من تريدون، لكنني أريد أن أمنح الناس فرصة للتفكير. لنطرح الأمر للتصويت. مَنْ يريد اختيار عضوين الليلة؟
صاح البعض: «موافقة».

- مَنْ يريد إرجاء الأمر أسبوعاً؟
صوّت عدد أكبر لمصلحة التأجيل، إلا أن الأغلبية التزموا الصمت كأن الأمر لا يعنيههم في شيء.

- حسناً. سنخطط لاجتماع هنا بعد أسبوع من الآن لترشيح وانتخاب عضوين جديدين. دكتور ريتشاردسن هنا للحديث عن حالة الأم أباجيل ومصابي الانفجار.

صعد الطبيب إلى المنصة وأخبرهم بحالة المصابين، ثم انتقل إلى الأم أباجيل، فمال الحضور إلى الأمام.

- ليس لديّ الكثير لأقوله عن حالتها. باختصار: ليس في يدي شيء أقدمه لها.

غمغم الحضور، ورأى ستو تعاسةً على الوجوه، لكن لم يتفاجأ أحد بالخبر.

- لقد عاشت الأم أباجيل طوال الفترة السابقة على الأعشاب والنباتات، ووجدنا في ما أخرجته منذ عادت بقايا لحاء وأوراق شجر. إحدى ذراعيها مصابة بالتهاب من اللبلاب السام، وساقاها متقرحتان، إلى حد...

هَبَّ جاك جاكسن واقفاً وهو يصيح في غضب: «كفى! أين احترامنا لها؟!».

- ما أقول هو تقرير بحالتها. هي الآن في غيبوبة، تعاني فقرَ تغذية، وفوق كل هذا هي مُسنة للغاية. لو كانت شخصاً آخر لجزمتُ بموتها، لكنها مختلفة.. لقد حلمتُ بها، وبالرجل الآخر.

عارضه الرجل: «لو أن المرأة مُرسلة من الرب، فهو قادر على شفائها بمعجزاته. كونها حية حتى الآن معجزة».

- نعم.. هل من أسئلة أخرى؟

شكر الطبيب الحضور وعاد إلى مقعده في صمت. قام جِلن إلى المنصة وقال دون مقدمات: «لقد ناقشنا كل شيء، عدا الرجل الغامض».

تعالَت الغمغمات، وغطت إحدى العجائز أذنيها وعينيها وفمها بيديها قبل أن تضعهما على حقيبتها السوداء. أكمل جِلن بصوت هادئ واثق: «لقد ناقشنا أمره إلى حد ما في الاجتماعات المغلقة، وطرحنا أسئلتكم ذاتها، وتساءلنا أكان الأفضل أن نصارحكم بالأمر أو نخفيه. بدا لنا أن سكان المنطقة الحرة يتحاشون الحديث عن الموضوع خاصة بعد ما رأيناه منه في كوابيسنا. أعتقد أننا كنا في حاجة إلى مدة هدوء، وأرى أن الآن هو الوقت المناسب للحديث علناً.. لجذبه إلى النور حيث نراه. في الشرطة يستخدمون مهارات الرسامين في تحديد شكل المجرم من خلال وصف ضحاياه والشهود. ليس لدينا وصف شكلي في حالتنا، لكننا وصفنا لأفعاله رسم لنا ماهية خُصْمنا. يمكنني الآن أن أعرض عليكم صورة ذهنية له. يبدو أن اسمه راندال فلاج، إلا أن البعض يربطون بينه وبين اسم ريتشارد فراي، وروبرت فريمونت. لحرفي الرء والفاء في بداية اسمه الثنائي معنى ما، لكنَّ أَيْنَا لا يعرفه. تبعث الأحلام التي نراه فيها الخوف والذعر والبرودة في نفوسنا».

أومأت الرؤوس، همهم الناس. أكمل جِلن: «فلاج هذا في الغرب. رآه عدد كبير منا خلال الأحلام في لاس فيجاس، ولوس أنجلوس وسان فرانسيسكو. زعم البعض -من بينهم الأم أباجيل- أن فلاج يصلب معارضيه، وأجمعنا على أن المواجهة بيننا وبينه حتمية، وأنه لن يتورع عن استخدام أي سلاح ضدنا.. قوى مدرعة.. قنابل نووية.. وربما.. وباء».

صاح ريتش موفات: «أود لو أقبض على عنق هذا اللعين، وأذيقه الوباء على حق!».

ضجَّ الحضور بالضحك. ابتسم جِلن؛ كان قد اتفق سابقًا مع ريتش على هذا. عندما يذكر الوباء يقوم هو ملقيًا دعابته المتنكرة على هيئة غضب، فيضحك الناس ويقل الاضطراب. فكر ستو في أن فائدة علم الاجتماع تتجلى وسط الاجتماعات الكبيرة.

أضاف جِلن: «ها قد شاركتكم ما أعرفه عنه. آخر ما أريد الحديث عنه قبل أن أفتح الاجتماع للمناقشة، هو تأييدي لما قاله ستو بشأن التعامل مع هارولد ونادين بتحضر، وأعتقد أيضًا أنهما فعلا ما فعلاه إذعانًا لأوامر فلاج».

ترددت كلماته بقوة في المكان.

- في اعتقادي أن العجزَ تُمثِّل قوى الخير كما يمثل فلاج قوى الشر. مَنْ أمدَّها بالقوة لجمعنا، لن يتخلى عنا بعد ذلك. ربما نحتاج إلى مناقشة الأمر والبحث عن طريقة للتعامل معه. لن نسمح له بدخول المنطقة الحرة في الربيع القادم، ليس وأنتم مرابطون فيها تحمونها. والآن سأعيد المنصة إلى ستو.

هز صوت التصفيق والهتاف الأرض والمقاعد من تحتهم. عاد جِلن إلى مقعده راضيًا وقد أحكم السيطرة على شعورهم. إنهم غاضبون أكثر منهم مرتعبون، ومستعدون للتحدي وللحديث.

ولثلاث ساعات تالية تحدثوا ولم يخرج من نقاشهم أي اقتراح عملي. اقترح البعض قنبلة نوية خاصة بالأخير، واقترح آخرون اجتماع قمة، وأكد ثالث أن الحل في فريق اقتحام مُدَرَّب.

ذهل جِلن من رغبتهم في الحديث والإفصاح عن أحلامهم وكوابيسهم علنًا. هذه جلسة تطهير جماعية. عندما يتشارك الجميع مخاوفهم، يقل تأثير الخوف فيهم تدريجيًا ويسهل التحكم فيه.

انتهى الاجتماع في الواحدة والنصف صباحًا، وغادره جِلن مع ستو وهو يشعر لأول مرة منذ رحيل نك أنه بخير، وأنهم خطوا خطوة خارج أنفسهم، وباتجاه أرض المعركة المتوقعة.

شعر جِلن بالأمل.

عاد التيار الكهربى فى اليوم الذى وعد به براد. اشتعلت حرائق معدودة أُخمدت على الفور. لم ينقص تلك الفرحة العارمة إلا وجودك، الذى استحق أن يشهد هذا اليوم.

ولأول مرة تميل فرانى لتضىء المصباح الجانبى على الكومود المجاور لفرش المستشفى، وتقرأ.

غاب ستو لأول مرة منذ مدة طويلة فى سيل من أحلام متلاحقة مختلطة بذكرىات حياته. بداية من أمه وطقوس الصباح قبل المدرسة، وحتى هروبه من ستوفينجتون.. وصولاً إلى دخول فرانى إلى المستشفى، والمرضة تقترب منها لتقيس نبضها، ثم تستدير نحوه ليجد أنها... راندال فلاج.

انتبه ستو فجأة ليجد نفسه نائمًا فى الظلام، جِلن بيتمان يوقظه، وكلبه يقف إلى جواره.

قال جِلن: «صعب إيقاظك يا رجل شرق تكساس. أنت نائم كحجر».

- لماذا لم تضىء المصباح؟!

- أحيانًا أنسى أن التيار قد عاد.

أضاء جِلن المصباح وزمَّ عينيه أمام الضوء المفاجئ. نظر إلى الساعة ليجدها الثالثة إلا الربع صباحًا.

- ماذا تفعل هنا يا جِلن؟ لقد كنت نائمًا فى سلام ما لم تلاحظ.

يبدو جِلن ممتنعًا قلقًا.. مُسنًا. سأله: «ماذا حدث؟».

- الأم أباجيل.

- ماتت؟

- ليتها ماتت. لقد استفاقت وتريدنا.

- أنا وأنت؟

- كلنا.. نحن الخمسة. إنها تعرف بموتك وسوزان، وتعرف أن فران فى المستشفى.

- وتريد اللجنة؟

- ما تبقى منها. إنها تموت، وقالت إنها تريد أن نخبرنا بشيء. لست واثقًا من أنني أريد معرفته.

الجو قارس بالخارج. تتدثر فران بأثقل سترة وجدتتها. تنظر إلى القمر الذي لا يظهر منه إلا ربعه، وتفكر في توم وموعد عودته عند اكتماله بدراً. الرب يعرف ما يطل عليه هذا القمر من حال توم والقاضي وداينا.

أوصل رالف فراني من المستشفى إلى بيت لاري المضاء بالكامل بمصابيح الكهرباء. استقبل لاري الجميع واعتذر عما سببه لهم من زعر. قال لاري: «كنت غافياً على المقعد قرب الأم أباجيل. استيقظت فجأة لأجدها تنظر إليّ. صوته هامس، لكنه واضح. قالت إن الرب سيعيدها إلى موطنها عند الفجر، وتريد أن تتكلم مع مَنْ نجا منا. سألتها عما تقصده بالناجين منا، فأخبرتني أنها تعرف بأمر رحيل نيك وسوزان».

ظهرت لوسي من نهاية الممر ودعتهم إلى القهوة في غرفة الأم أباجيل. ثم سألت لاري: «هل يمكن أن أحضر اللقاء معكم أم إنه أمر خاص باللجنة؟». نظر لاري إلى ستو، فقال الأخير برفق: «أرى أنه لا بأس من حضورك. لقد فسد أمر اللجنة على أي حال».

مشوا خلف لاري إلى الغرفة المنشودة. فتح الباب، فقابلتهم عينا الأم أباجيل اللامعتان المُحتضرتان. كانت فران تعرف حالة المرأة المتدهورة، لكنها لم تتخيل ما تراه الآن. لقد جفت تماماً حتى ظهرت أوردتها وأربطتها. إلا أن عينيها لم تتغير. ظلتا دافئتين طيبتين إنسانيتين.

همست الأم أباجيل: «فتاتي الصغيرة. اجلسي. أنتِ مُتألّمة».

أجلسها لاري على مقعد مواجه للنافذة. سألتها الأم أباجيل عن حال جنينها، فطمأنتها. أومأت المرأة نحو النافذة وقالت لفران: «انظري...».

نظرتُ فران فلم ترَ الظلام بالخارج ولا انعكاس صورهم على الزجاج، بل رأْتُ غرفة أطفال مضيئة ذات ستائر بكشكشات، يتوسطها مهد.. خالٍ. في الركن حُجيرة لعب صغيرة.. خالية. قبض الذعر على قلبها، ورآه الآخرون بادياً على وجهها ولم يفهموا السبب، فهم لا يرون غير النافذة إلا الممر والحديقة والطريق.

سألت فران مبهوتة: «أين الطفل؟».

- ستورات ليس والد الطفل يا فتاتي الصغيرة، لكنَّ حياته في يدي ستورات، في يدي الرب. سيكون لهذا الطفل أربعة آباء، لو أمر الرب بأن يولد ويعيش.

- لو أمر...

- هذا أمر مخفي عني...

اختفت غرفة الأطفال وحل محلها الظلام. همست الأم أباجيل: «لقد استدعى الشيطان عروسه، وسوف يبذر بذرته فيها. هل سيترك ابنك يعيش؟».

ناحت فراني: «كفى...».

سكنت كل الأصوات. وجه جلن باهت كضوء كشاف قديم، لوسي تفرك حافة فستانها، رالف يمسك قبعته بين يديه ويجذب ريشتها في شroud، ستو ينظر إلى فراني ولا يعجز عن الاقتراب منها. تذكر المرأة في الاجتماع، تلك التي غطت بيديها عينيها وأذنيها وفمها عند ذكر اسم الرجل.

همست الأم أباجيل: «أم، أب، زوجة، زوج، في مواجهة أمير العلالى، سيد النهار المظلم. خطيئتي الكبرياء. وأنتم جميعًا مثلي. ألم تسمعوا قوله: لا تضعوا ثقتكم في سادة وأمراء هذا العالم؟».

«النور الكهربى ليس الحل يا ستو ريديمان. اللاسلكى ليس الحل يا رالف برينتير. علم الاجتماع لن ينهي الصراع يا جلن بيتمان. وأنت يا لاري أندروود، تكفر عن حياة انتهت وولت بلا رجعة. لن يحلَّ ابنك الأزمة يا فران جولد سميث. لقد أشرق بدر الشر، ولم تقدموا شيئًا أمام عيني الرب».

نظرت إلى كل واحد منهم ثم أكملت: «سيتصرف الرب بمشيئته. أنتم لستم الخزاف، بل طين الخزاف، وربما ستنكسرون على أعتاب الرجل في الغرب. ليس مسموحًا لي أن أعرف».

سأل رالف: «ماذا نفعل يا أمّاه؟».

- اقتربوا جميعًا. وقتي محدود. سأعود إلى دار المجد، وأنا مستعدة كما لم يستعد بشري من قبل. اقتربوا مني...
اقترب الجميع وتلاصقت أبدانهم.

- لم يجمعكم الرب لتَشْكُلُوا لجنة أو مجتمعًا. لقد جمعكم هنا ليرسلكم في مهمة أبعد. مشيئته أن تدمروا أمير الظلمات، رجل العُصبة القصية. ظننتُ أن نك سيقودهم، لكنه أخذ نك.. إلا أن نك لم يرحلُ كلية كما أرى. لا بُدَّ أن تتولى قيادتهم إلى هناك يا ستورات. وإن كانت مشيئته أن يأخذ ستو، فتولَّ يا لاري من بعده، ولو كانت مشيئته أن يأخذك، فتولَّ الأمر يا رالف».

غمغم جلن: «يبدو أنه لا دور لي هنا...».

سألت فران: «ما تعنين بالقيادة؟ إلى أين؟».

- إلى الغرب يا فتاتي الصغيرة. أنت لن تذهبي.. فقط أولئك الأربعة.

هَبَّت واقفةً رغم ألمها الشديد وهتفت: «لا! ماذا تقولين؟ هل المفترض أن يذهب الأربعة ليقدموا أنفسهم إليه؟ ليقدموا إليه قلب المنطقة الحرة وروحها وجسدها؟ سيذهبون ليصلبهم، ثم يقتل الجميع مع بداية الصيف؟ أنا لن أشهد التضحية برجلي من أجل ربك القاتل».

صاح ستو: «فراني!».

- ربك القاتل! نعم، ربك قاتل. مات البلايين في الوباء، ومات ملايين بعده، ولا نعرف أكان نسلنا سيرى النور. أليس هو من فعل ذلك؟ إنه ليس ربًا. إنه شيطان، وأنت ساحرته.

- كفى يا فراني.

- لا مشكلة. لقد انتهيتُ. أريد أن أرحل. خذني إلى البيت يا ستو لا إلى المستشفى.

- يجب أن نسمع ما ستقول أولاً.

- اسمع نيابة عني. سأرحل.

- يا فتاتي الصغيرة...

- لا تناوِ بهذا اللقب!

قبضت الآن أباجيل على رسغ فراني، فتصلبت وغلث عيناها وأرجعت رأسها إلى الخلف.

« لا... لا... لا... لا... أوه... إلهي... ستو... ».

هدر ستو: «مهلاً، ماذا تفعلين؟!».

مكتبة
t.me/soramnqraa

لم تُجب الأم أباجيل. امتدت اللحظات كأنها الأبد، ثم تركت المرأة رسغ فراني التي اتسعت عينها ولم يبدُ على جسدها أي أثر لضغط أو احمرار. سألتها ستو في قلق: «حبيبتي؟».

غمغمت فران: «لقد زال».

- عمّ تتكلم؟

نظر إلى مَنْ حوله. جِلن يهز رأسه في خشوع. قالت فران مدهوشة: «الأم.. زال الألم. انظر...».

مالَت حتى لمست أصابع قدميها بكفها مرة واثنين، ثم نظرت إلى عيني الأم أباجيل وقالت: «هذه رشوة من إلهك؟ إن كانت كذلك، فاطلبي منه أن يأخذ شفاه. أفضل الألم إن كان ستو سيظل معي».

همست الأم أباجيل: «الرب لا يرشو الناس يا فتاتي الصغيرة. إنه فقط يُظهر آياته، ويتركنا نفسرها كيفما نشاء».

- لن يذهب ستو إلى الغرب.

قال ستو: «اجلسي ولنسمع ما تريد قوله».

جلست فران مصدومة، مُتشككة، تائهة وسط بحر شاسع، لا تنفك تتحسس ظهرها.

همست الأم أباجيل: «ستذهبون إلى الغرب. لن تأخذوا معكم طعامًا ولا ماءً. ستذهبون بملابسكم هذه. ستذهبون اليوم راجلين. أعرف أن واحدًا منكم لن يصل إلى وجهته، لكني لا أعرف أيكم. أعرف أن الباقين سيمثلون أمام فلاج الذي هو ليس رجلًا، بل كيانًا ماورائيًا. لا أعرف أكانت مشيئة الرب أن تهزموه، لا أعرف أكانت مشيئة الرب أن تروا بولدر مرة أخرى. هذه أمور لن أعرفها. لكنه في لاس فيجاس، ولا بُدَّ أن تذهبوا إلى هناك، وهناك سيكون الصمود. ستذهبون ولن تترددوا، لأن يد الرب ستكون معكم. نعم. بمعونة الرب ستصمدون».

أومأت، ثم أضافت: «هذا هو كل ما لدي».

همست فران: «لا... مستحيل».

قال جِلن بصوت متحشرج: «آيتها الأم... نحن لا نفهم ما تفهمين بالطريقة التي تفهمينه بها. نحن... لسنا قريبين من مصدر معلوماتك. هذه ليست

طريقتنا في العيش. فران على حق. لو ذهبنا إلى هناك فسندُبِّح، ربما على يد أول حراس يقابلوننا».

- أليست لك عينا؟ ألم تر فران تُشفى بمشيئة الرب وحده؟ هل تعتقد أنه قد خطط لكم أن تُقتلوا على يد صغار أتباع أمير الظلمات؟
- لكن...

- لا. غير مسموح لي أن أجادلکم أو أقنعکم. أنا هنا لأشير لكم إلى طريقة فهم خطة الرب لكم. اسمع يا جِلن.

انطلق من حجرة الأم أباجيل صوت جِلن، ففزع جِلن وتكورت فراني على نفسها.

«تقول الأم أباجيل إنه خادم الشيطان. ربما يكون آخر سحرة العقلانية، يحشد كل وسائل التكنولوجيا ضدنا. ربما في الأمر تفاصيل أكثر حُلْكة. أنا فقط أعرفه، وأعرف أن علم النفس وعلم الاجتماع وأي علم آخر سيعجزون عن مواجهته. سيواجهه فقط السحر الأبيض».

انفتح فم جِلن دهشة. قالت الأم أباجيل: «أهذا ما تؤمن به، أم إنك كاذب؟».
- لا أعرف... لكنها كلماتي...

- آمنوا.. آمنوا جميعاً.. لاري.. رالف.. ستو.. جِلن.. فراني. أنت بالذات يا فراني، آمني.. آمنوا وأطيعوا كلمة الرب.
سأل لاري في مرارة: «هل لنا أن نختار؟».

نظرتُ إليه وقد فاجأها قوله. همستُ: «اختيار؟ الاختيار متاح دائماً، هذا هي طريقة الرب. إرادتك حرة فافعل ما تشاء. لكن... هذا هو ما يريده الرب لك».

ساد الصمت حتى قطعه رالف قائلاً: «مذكور في الكتاب المقدس أن داود قتل جليات⁽¹⁾. سأذهب إن قلت إن هذا هو الطريق الصحيح».
صافحته الأم أباجيل. قال لاري: «وأنا أيضاً». مكتبة سر من قرأ وقبل أن يتفوه جِلن بشيء، سقطت لوسي فاقدة الوعي.

(1) جليات هو جالوت عند المسلمين (الترجمة)

في الخامسة إلا عشر دقائق، ماتت الأم أباجيل.

غمغم ستو: «لقد رحلت».

قال رالف ولم يعد خائفاً: «رحم الله روحها»، وضع ذراعيها متقاطعتين على صدرها، فسقطت عليهما دموعه.

هتف جِلن فجأة: «أنا سأذهب معكم. إنها مُحقة. السحر الأبيض هو ما تبقى لنا».

همست فراني: «ستو، أرجوك ابقَ...».

التقت الأعين عليه. فكر في أرنيث، والسيارة التي حملت تشارلز كامبيون إلى حيث ارتطمت بمحطة وقود بل هابسكوم. تذكر ديننجر ودايتز وأكاذيبهم. فكر في فراني وفي قول الأم أباجيل: «هذه مشيئة الرب لكم».

- يجب أن أذهب يا فراني.

قالت في مرارة: «ستموت». نظرت إلى لوسي بحثاً عن دعم، لكن الأخيرة كانت ذاهلة، لا تعي شيئاً.

قال ستو مُتخيراً كلماته: «لو لم نذهب فسنموت كلنا. لو انتظرنا وحل الربيع، فماذا سنفعل؟ كيف سنوقفه؟ لا يمكن أن ندفن رؤوسنا في الرمال. لم يتبق لنا سوى السحر الأبيض كما قال جِلن.. أو قوة الرب».

بكت فراني، مد ستو يده نحوها فصاحت: «لا تلمسني! أنت رجل ميت.. أنت جثة.. لا تلمسني!».

وقف الجميع حول الفراش ثابتين كلوحة حزينة حتى أشرقت الشمس.

صعد ستو وفراني إلى جبل فلاجستاف، وفرشا ملاءة وضعها عليها غداءهما. بعد الغداء والتظاهر بأن شيئاً لن يحدث، سألتها فراني فجأة في قلق: «كم ستحتاجون من الوقت للوصول إلى هناك؟».

- مشياً؟ لا أعرف. جِلن ليس شاباً وكذلك رالف. لو مشينا ثلاثين ميلاً في اليوم، فسنصل أول أكتوبر تقريباً.

-ماذا لو واجهتكم ثلوج مبكرة في الجبال أو في يوتاه؟

هز ستو كتفيه وهو ينظر إليها في ثبات. سألتها: «هل تريد المزيد من الخمر؟».

- لا. إنه يزيد من حموضة معدتي.

صببتُ فران كأسًا لنفسها وشربتها ثم سألتها: «هل كانت صوت الرب يا ستو؟ هل كانت صوته فعلًا؟».

- فراني، أنا لا عرف.

- لقد حلمنا بها وحلمت بنا. كل هذا كان جزءًا من لعبة غبية يا ستو. هل قرأت يومًا سفر أيوب؟

- لم أكن رجل كتاب مقدس كما تعرفين.

- كانت أُمي سيّدة كتاب مقدس إن صح التعبير، وحرصت على أن يكون لي ولأخي نصيب من التعليم الديني. لم يفدني هذا التعليم في شيء إلا إجابة أسئلة المسابقات الدينية في التلفاز. هل تتذكر تلك المسابقات؟

ابتسم قليلًا وهز رأسه، فأكملت: «أنا أعرف كل الأجوبة عن الكتاب المقدس. كان أيوب محل رهان بين الرب والشيطان. قال الشيطان للرب إن أيوب يعبده لأنه أنعم عليه بكل النعم، ويراهن على أنه لو أزال عنه النعمة لهجر عبادته، فأخذ الرب منه النعمة وفاز بالرهان. الرب دائمًا يفوز».

قال ستو: «ربما هو رهان فعلًا. لكنّ المسألة مسألة حياة الناس بالأسفل، وذلك الشاب في بطنك».

مرت دقائق دون حديث، ثم قاموا فجمعوا أغراضهم. شرد ستو في بقايا الطعام التي تجمع حولها الطيور، ثم رفع عينيه إلى فران ليحدها تبكي.

- لا بأس. أنا حامل، والحمل يُدر الدموع. ستو. لنمارس الحب...

- هنا؟ الآن؟

فأومأت والدموع تغرق وجهها، وفردا الملاءة مرة أخرى.

الفصل الستون

شهدت هي ولوسي مسيرة مهمتهم التي بدأت من عتبة بيت لاري. وقف الأربعة على الرصيف للحظات، بلا مؤن ولا حقائب ولا مُعَدَّات تخييم كما أمرت الأم أباجيل، فقط غيروا أحذيتهم إلى أخرى ملائمة للمشى.

قالت لوسي بوجه شاحب: «إلى اللقاء يا لاري».

قالت فران: «تذكر يا ستو أنك وعدتني وأقسمت بدمك على أن تعود».

- سأتذكر.

دس جِلن إصبعين في فمه وصفر يستدعي كوجاك فجاءه على الفور.

انطلق الأربعة إلى مصيرهم. لوحت ستو والدموع تغرق خديها. لم تقف طويلاً، تماكنت نفسها، وأمسكت يد لوسي، ودخلا إلى المنزل ليبدأ الانتظار الطويل.

اتجه الأربعة جنوباً إلى جولدن، حيث سيبيتون ليلتهم الأولى. مرّوا بمواضع الدفن الثلاثة حتى الآن. عندما بدأت ظلالهم تستطيل وراءهم وبدأت الحرارة تتسرب من النهار، مروا بلافتة البلدة على الطريق عند جنوب بولدر. للحظة شعر ستو أنهم على وشك الفرار والعودة إلى بيوتهم. ليس أمامه إلا الظلام والموت، وخلفهم الدفء والحب.

أخرج جِلن عصا رأس من جيبه وطواها وربط بها رأسه وهو يقول: «الفصل الثالث والأربعون: عالم الاجتماع الأصلع يربط رأسه المتعرق».

تقافز كوچاك أمامهم عند حدود جولدن، يدفن رأسه من وقت إلى آخر
وسط أجمة أزهار برية. قال لاري كأنه سيبيكي: «يبدو لي أن هذا نهاية كل
شيء يا رجل...».

قال رالف: «نعم، أشعر بذلك».

مشى ستو، فتبعوه في صمت. وصلوا إلى موضع التخييم في جولدن في
التاسعة مساءً، وخيموا على الأرض مباشرة. لم ينم أيهم في الليلة السابقة.
وكلهم يشعر بالاعتراب، وبطل الموت الممد فوقهم...

كابتن ترييس

7 سبتمبر 1990 - 10 يناير 1991

هذه الأرض أرضك..
هذه الأرض أرضي..
من كاليفورنيا، إلى جزيرة نيويورك..
من أحراج الغابات، إلى تيار الخليج الحار..
هذه الأرض خُلِقَتْ لي وَلَكَ.

وُدي جَثري⁽¹⁾

عندما يحل الليل، وتُظلم الأرض،
ويصير القمر هو النور الوحيد الذي نراه،
لن أخاف، ما دمت صامدًا معي.

بن إ. كينج⁽²⁾

(1) مغني أمريكي (الترجمة)

(2) كاتب أغاني أمريكي (الترجمة)

الكتاب الثالث

الفصل الحادي والستون

وزَّع الرجل الغامض مواقع الحراسة على طول حدود أوريجون، أكبر موقع منها عند أونتاريو حيث يعبر طريق 180 - 1 القادم من أيداهو. عسكر ستة رجال داخل مقطورة شاحنة نقل بيتربيلت ضخمة على ذلك الطريق، ومكثوا هناك منذ أسبوع، يلعبون البوكر ويتراهنون على أوراق نقدية من فئة العشرين والخمسين بلا أي قيمة حقيقية كأنها أوراق نقود من لعبة مونوبولي. استمر المطر أغلب الأسبوع، وزادت العصيبة داخل الشاحنة. لقد خرجوا من بورتلاند ويريدون العودة إليها. ظلوا ينتظرون تلقي رسالة من خلال جهاز اللاسلكي القوي معهم، رسالة من كلمة واحدة: *عودوا*، وهي تعني أن الرجل الذي يبحثون عنه قد اعتُقل في مكان آخر.

مَن يبحثون عنه رجل سبعيني قوي أصلع، يرتدي نظارة طبية ويقود سيارة زرقاء جيب أو إنترناشونال هارفستر. الأوامر لديهم تقضي بأن يُقتل فور رؤيته.

ازدادت عصبيتهم وملهم وقد سئموا لعب البوكر، لكنهم لم يملوا بما يكفي للعودة إلى بورتلاند وكسر الأوامر؛ تلك الأوامر التي تلقوها من الماشي بنفسه، ويخشون عصيانها أكثر مما يخشون الحمى التي تفشت بينهم من البرد والرطوبة. لو أخفقوا وعرف هو بذلك، فلن يغيثهم منه أحد.

لذا جلسوا ولعبوا وتناوبوا المراقبة من خلال الفتحة الضيقة التي شقوها في بدن المقطورة المعدني. الطريق 80 - 1 مهجور مبتل، لكن إن ظهر عليه المُستطلع فسيرونه.. وسيوقفونه.

قال لهم الماشي وابتسامته العريضة الرهيبة تتسع حتى تصل إلى سالفه: «إنه جاسوس من الجهة الأخرى». لا يعرف أحد لماذا تبدو ابتسامته

رهيبة، لكنها تجمد الدم في عروق مَنْ يراها. أكمل الماشي: «إنه جاسوس، وفي وسعنا استقباله وعرض كل شيء عليه وتركه يعود دون أذى، إلا أنني أريده. أريدهما.. وسوف نرسل إليهم رأسيهما قبل هطول الثلج، وندهم يحملون هَمَ مغبّة أفعالهم طَوال الشتاء». انفجر يضحك وسط الذين جمعهم حوله في غرفة الاجتماعات في مركز بورتلاند المدني. ابتسموا له ابتسامات قلقة باردة. قد يهنئون أنفسهم علناً على اختياره إياهم لتحمل تلك المسؤولية، لكنهم كانوا ليتمنوا لو وقع اختياره على أحد غيرهم.

جنوب أونتاريو، في بلدة شيفيل، موقع حراسة آخر، حيث يعسكر أربعة رجال في بيت صغير قرب الطريق 95 -1 الذي يخترق صحراء ألفورد بتشكيلاتها الحجرية الفريدة وجداول الماء المتدفقة.

في كل موقع من مواقع الحراسة الاثني عشر الأخرى رجلان فقط، تغطي المسافة بين بلدة فلورا على الطريق رقم 3 عند حدود واشنطن، حتى مديرموت على الحدود بين ولايتي أوريغون ونيفاذا.

لديهم جميعاً الأوامر نفسها بخصوص العجوز الذي يركب سيارة الدفع الرباعي الزرقاء؛ اقتلوه لكن لا تصيبوا رأسه ولا أيّ موضع فوق عنقه بجروح أو كدمات.

قال لهم راندال فلاج: «لا أريد أن أرسل إليهم بضاعة تالفة»، ثم ضحك ضحكته الرهيبة مرة أخرى.

نهر الثعبان من العلامات المميزة للحدود بين أيذاهو وأوريغون، لو تبعته من أونتاريو شمالاً حيث الرجال الستة في مقطورة الشاحنة، فستصل إلى مسافة قريبة للغاية من كوبرفيلد، ينعطف فيها النهر انعطافة يسميها الجيولوجيون «كوع»، ويقطعه هناك سد أوكسبو.

في يوم السابع من سبتمبر، فيما يقطع ستو ريتمان وجماعته طريق كلورادو السريع رقم 6، على بعد ألف ميل من الغرب والجنوب، كان بوبي تيري يجلس داخل متجر كوبرفيلد، إلى جواره كومة مجلات مصورة، ويتساءل عن حال سد أوكسبو الآن، وهل كانت بواباته مفتوحة أم مغلقة. أمام المتجر يجري طريق أوريغون السريع رقم 86.

تناقش هو ورفيقه ديف روبرتس (الذي ينام الآن في شقة تعلو المتجر) مطوّلاً بشأن السد. ظل المطر يهطل طَوال الأسبوع، وارتفع منسوب نهر

الثعبان. هَبْ سد أوكسبو العتيق قرر أن ينهار؟ سيجتاح الماء كوبرفيلد ويجرف بوبي التعس ورفيقه إلى المحيط الهادي. فكَرَّا في الذَّهَابِ إلى السد بحثًا عن شقوق، لكنهما لم يجرؤوا على التنفيذ؛ وأمر فلاج واضحة: ابقيا مُتَخَفِينَ.

أشار ديف إلى أن فلاج قد يكون في أي مكان، فهو مسافر عظيم، يُحكى عنه أنه ظهر في قرى وبلدات نائية حيث يصلح بعض الناجين خطوط الكهرباء، أو يجمعون أسلحة من ثكنات عسكرية. كان يتجسد لهم من الهواء كشبح أسود يرتدي حذاءً متربًا بنعلٍ بالٍ. رأوه وحده أحيانًا، وأحيانًا أخرى برفقة لويد هينريد خلف مقود سيارة ديمر سوداء طويلة كعربات نقل الموتى. أحيانًا يرونه يمشي، يظهر من العدم ويختفي فجأة. يشاهدونه في لوس أنجلِس في يوم، وفي الآخر في بويس.. يقطع المسافة بينهما راجلاً.

إلا أن ديف أشار أيضًا إلى استحالة وجوده في ستة أماكن في وقت واحد. يمكن أن يذهب واحد منهما إلى السد اللعين ليستطلع الأمر ثم يعود. الاحتمالات في مصلحتهما.

قال له بوبي: «ممتاز. اذهب أنت. أذِنْتُ لك»، إلا أن ديف رفض الدعوة للذَّهَابِ بابتسامة مضطربة، لأن لفلاج طريقته في معرفة ما يحدث حتى لو لم يظهر عند السد ليرى بنفسه. قيل إن له سلطان على الضواري، ويستطيع الرؤية من خلال أعينها، زعمت امرأة تدعى روز كينجمان أنها رآته يشير إلى مجموعة غربان تقف فوق سلك كهرباء، فهبت لتقف على كتفيه، وأضافت أنها سمعت الغربان تنعق: «فلاج.. فلاج.. فلاج».

هذا غير معقول، وهو متأكد من ذلك. ربما يصدقه الأغبياء، لكن أم بوبي تيري لم تُربِه ليصير غيبًا. إنه يعرف كيف تنمو الشائعات وتتطور من فم إلى آخر ومن أذن إلى أخرى، وكان الرجل الغامض سيسعد بتعزيزها.

إلا أن تلك الشائعات تصيبه برعدة رغم تكذيبه إياها، بيد أن لكل شائعة بذرة من الحقيقة، أليس كذلك؟ قيل إنه يتحكم في الذئاب، وقيل إنه يرسل روحه في أجساد قطط. ادعى رجل من بورتلاند أنه الماشي يحمل دائمًا في حقيبته ابنَ عَرُيسٍ أو حيوان مشابه. كل هذا هراء، لكن.. هَبْ يستطيع الكلام مع الحيوانات؟ وهَبْ ذهب هو أو ديف إلى السد ورآه حيوان فأخبره أنهما عصيا أمره؟

عقوبة العصيان الصَّلب..

قرر تيري أخيراً أن السد العتيق لن ينهار على أي حال. أخرج سيجارة كنت من علبتها وأشعلها. خلال ستة أشهر لن يجدوا ما يدخنونه.

زفر وافتتح مجلة أخرى من الكومة إلى جواره، تحوي قصة سخيصة عن سلاحف النينجا المراهقين، تلك القصص التي اجتاحت متاجر الكتب وجعلته يؤمن وقتها أن العالم ناهب إلى داهية قريباً. رمى المجلة والتقط واحدة أخرى؛ مجلة باتمان، البطل الذي يمكن أن تصدق وجوده. حالما فتح أول صفحة لمح المُستطَلع في سيارته الزرقاء يشق الماء الراكد على الطريق.

حدق تيري بفم مفتوح إلى حيث عبرت السيارة، وهو لا يصدق أنها مرّت أمامه للتو. لقد كان يظن أن البحث عن تلك السيارة وقائدها مجرد مهمة مُختلقة لشغل وقتهم لا أكثر.

هُرِعَ إلى الباب الأمامي ففتحه وخرج إلى الرصيف وهو يحمل بعد مجلة باتمان في يده. ربما ما رآه مجرد هلوسة. التفكير في فلاج يدفع أي شخص إلى الهلوسة.

إلا أنها لم تكن كذلك، فقد لمح سقفَ السيارة عند المنعطف البعيد. عاد سريعاً إلى المتجر ونادى ديث بأعلى صوته.

قبض القاضي على المقود بقوة وهو يتظاهر بأن التهاب المفاصل مرض غير حقيقي، وإن كان حقيقياً فهو غير مصاب به، وإن كان مصاباً به فهو لا يؤلمه أكثر في البرد والرطوبة. لم يحاول أن يُجادل في الأمر أكثر من هذا، فالمطر حقيقة واضحة.

لقد ظلَّ يتحرك طوال الأيام الثلاثة السابقة وسط الأمطار الكثيفة التي لم تقل كثافتها إلا مرات معدودة. جرف المطرُ الطينَ إلى أغلب الطرق التي مر بها، وبحلول الربيع لن تعود أغلبها صالحة للسير. عانى الكثير على طريق 80 - 1، حتى ظن أنه لن يبلغ الساحل الغربي قبل عام 2000 ما لم يتخذ الطرق الفرعية. شكر الله على الرافعة المثبتة إلى مصد السيارة الخلفي، حيث استطاع أكثر من مرة أن يجُر بها العربات التي تغلق الطريق ليستطيع أن يمر.

خيمَ يومين في شمال غرب وايومينج، شرق يلوستون حيث الطرق خاوية تماماً. كانت القيادة في شوارع وايومينج وشرقي آيداهو تجربة كابوسية؛ ما

كان ليتصور شعوره بالموت الجاثم على العالم إلى هذا الحد. لم يكن حوله سوى السكون والخواء حيث كان الصخب والازدحام منذ أشهر. مع الوقت ظنَّ أنه لن يرى المِنْطَقة الحرة مرة أخرى، ولا ساكنيها. إنه الآن يشعر بما شعر به قابيل بعدما نُفي من أرض نود.

القاضي الآن في الغرب.

شعر باقترابه منه حالما عَبَّر حدود وايومينج وأيداهو. توقف على جانب الطريق ليأكل غداءه. لا صوت بالقرب منه إلا صوت خرير الماء في الجدول، وصوت صرير غريب كأنه صوت تراب محشور في مَفْصَلات باب. مع البرودة والرطوبة تأتي آلام التهاب المفاصل، رغم أن مفاصله كانت في حالة جيدة حتى مع المجهود والقيادة أوقاتًا طويلة و...

ما صوت الصرير هذا؟

بعدما أنهى غداءه، أخرج بندقيته من حقيبته ومشى إلى الجدول حيث مجموعة مناضد خشبية مخصصة لتناول الطعام، محاطة بأيكة. من إحدى الأشجار تتدلى جثة مشنوقة أكل الطير أغلب لحمها، يطلق الحبل الذي يربطه إلى فرع الشجرة صوتَ صرير إذ تتأرجح حملته في الهواء.

هكذا تأكد أنه في الغرب.

في تلك الظهيرة هطلت أولى زخات المطر، واستمرت من وقتها حتى الآن. وصل إلى مدينة بَت بعد يومين، وزاد ألم أصابعه وركبتيه حتى إنه اضطرَّ إلى التوقف يومًا كاملاً تمدد فيه على فراش أحد الفنادق وسط الصمت التام، ولفَّ مفاصله بمناشف مبللة بالماء الساخن، وراح يطالع كتاب القانون وطبقات المجتمع.

جمع بعد ذلك ما يكفيهِ من الأسبرين والبراندي وأكمل رحلته على الطرق الفرعية المغطاة بالطين، يقطعها على متن سيارته ذات الدفع الرباعي، يستخدم الرافعة من وقت إلى آخر ليُخلِّي طريقه.

وصل منذ يومين -يوم الخامس من سبتمبر- إلى جبال نهر سالمون، واضطرَّ إلى جر سيارة إصلاح هواتف ضخمة مسافةً ميل ونصف ثم رماها في نُهير لا يعرف له اسمًا، فقط حتى يجد متسعًا يمر من خلاله.

في ليل الرابع من سبتمبر، قبل يوم من جر الشاحنة، وقبل ثلاثة أيام من رؤية بوبي تيري مروّره خلال كوبرفيلد، خيم في نيو ميدوز، ووقعت أحداث مُقلقة.

دخل موتيل رانشهاند وأخذ مفتاح غرفة من المكتب الذي وجد فيه مدفأة صغيرة تعمل بالبطاريات، فأخذها معه إلى غرفته ليشهد أول غروب دافئ منذ أسبوع. كان قد خلع ملابسه إلا السروال التحتي، وتمدد على الفراش يقرأ في ضوء المدفأة عن جريمة ارتكبتها امرأة أمية سوداء من...

صوت نقرات على النافذة.

اختلج قلب القاضي المُسن في صدره. أمسك بندقيته المُستندة إلى المقعد والتفت نحو النافذة مُستعداً لمواجهة أي شيء. تطايرت من عقله قصته المُختلقة عن سفره إذ خشي أن يكون الطارق ممّن يريدون معرفة من يكون و...

إنه غراب.

استرخى جسد القاضي تدريجياً وأطلق ضحكة ضعيفة خشنة.

إنه مجرد غراب.

غراب مبتل ذو ريش لامع، ينظر بعينه الداكنتين إلى أقدم مُحامٍ على وجه الأرض، وأكبر الجواسيس عمراً في العالم، يستلقي على فراش موتيل في أيداهو ويرتدي سروالاً داخلياً فقط مطبوعاً باللونين الأرجواني والذهبي. بدا أن الغراب يبتسم، فابتسم له القاضي.. نعم، منطري مضحك، إلا أنه شعر بمنطق لذعره في البداية بعدما ارتحل وحده أسبوعين خلال البلاد الخاوية.

صوت النقر مرة أخرى.

نقر الغراب لوح الزجاج كما نقر من قبل. خبت ابتسامة القاضي بعض الشيء؛ في نظرة الغراب ما لا يطمئن إليه. كان يبتسم بعد، إلا أن الابتسامة أقرب إلى تكشيرة خبيثة.

كَمَثَل الغراب الذي حطَّ على تمثال بالأس⁽¹⁾ أتساءل، متى أعثر على ما تريد جماعة المِنطَقة الحرة معرفته؟ هل سأعرف ما يضره الرجل الغامض في درعه؟

هل سأعود؟

صوت نقرات...

هذا هو الرجل الغامض.. روحه.. نفسه وقد تجسدت في غراب مبتل يحدق إليه.

نظر إليها مفتونًا.

بدا له أن عيني الغراب تتسعان ويتسع ما يحيطهما من حلقتين حمراوين بلون الياقوت. قطرات المطر تقطر وتسيل، تقطر وتسيل. يميل الغراب إلى الأمام وينقر الزجاج.

فكر القاضي: إنه يظن أنه يؤثر في، يتحكَّم في عقلي. ربما.. إلى حد ما.. لكنني أكبر عمرًا من أن تؤثر بي تلك الأمور. لكنْ لنفترض.. أعرف أن هذا هراء، لكنْ لنفترض أنه هو. ولنفترض أنني قادر على إطلاق الرصاص عليه بسرعة. لقد كنتُ بطل رماية عامي 1976، و1979. شاركتُ في مسابقة الرماية عام 1986 ولم أفض، فاعتزلت الرماية من وقتها وقد كانت كبريائي في حال أفضل من نظري ذلك العام. إلا أنني قادر حتى الآن على التصويب الدقيق، والنافذة قريبة. لو أنه هو ذلك الغراب، فهل أستطيع قتله؟ هل أستطيع حبس روحه - لو أن هذا ممكن- في جسد الغراب هذا؟ هل سيكون أمرًا غير لائقًا لو انتهى كل هذا بقتل مُسنٍّ طائرًا أسود في غرب آيداهو؟

ابتسم له الغراب. هو الآن موقن من أنه يبتسم حقًا.

اعتدل القاضي في الفراش سريعًا، ورفع بندقيته إلى كتفه في ثقة وكفاءة أكبر مما تصور. تملَّك الغراب الذعر، فرفرف ونثر المطر واتسعت عيناه خوفًا. سمعه القاضي ينبعق نعقة واحدة، فشعر بانتصار لحظي. إنه الرجل الغامض وقد أساء الحكم على قدرات القاضي، وليكونن ثمن هذا حياته التعسة...

زعق القاضي: «خذ هذه!»، وضغط الزناد.. لكنه نسي رفع ذراع الأمان في البندقية. بعد لحظة وجد نفسه ينظر إلى نافذة خاوية.

(1) الغراب والتمثال من قصيدة الغراب لإدجار آلان بو، وقوف الغراب على صدر تمثال بالاس رمز الحكمة يعني في القصيدة محاولة الفهم واكتساب المعرفة (المتجمة)

أنزل القاضي البندقية وهو يشعر بالغباء. قال لنفسه إنه كان غرابًا لا أكثر، وإن أطلق الرصاص على النافذة لدخل المطر إلى الغرفة واضطُرَّ إلى الانتقال إلى غيرها. إنه محظوظ لأنه لم يطلق الرصاص.

لم ينم جيدًا تلك الليلة، واستيقظ مرارًا وقد هُيئَ له أنه سمع صوت نقرات على النافذة. لو جاء الغراب مرة أخرى، فلن يسمح له بالرحيل. إلا أن الغراب لم يعد.

في الصباح التالي أكمل طريقه إلى الغرب. لم تتدهور حالة التهاب مفاصله، لكنها لم تتحسن. بُعيد الساعة الحادية عشرة توقف في مقهى صغير ليأكل غداءه، وحالما أنهى شطيرته وصبَّ قهوته رأى غرابًا ضخماً يحُط فوق سلك عمود الكهرباء. نظر إليه القاضي مبهورًا، وتوقفت يده التي تحمل الكوب قبل أن تصل إلى شفتيه. ليس الغراب نفسه.. طبعًا لا. العالم يعج الآن بالغربان.. لكنَّ شعر أنه الغراب نفسه وزحف إليه شعور باليأس وقرب النهاية.

استمرَّ في سفره. بعد بضعة أيام، وصل إلى كوبرفيلد، ومرَّ من أمام متجرها الكبير، ولم ينظرُ نحوه من الأساس، ولم يرَ بوبي تيري الذي يراقبه ذاهلاً. بندقية القاضي إلى جواره طوال الوقت، وبجانبتها صندوق ذخيرة. لقد عزم على أن يطلق النار على الغراب متى وقعت عيناه عليه.

- أسرع! ألا يمكن أن تقود هذا الشيء اللعين أسرع؟

- ابتعد عن قفائي يا بوبي تيري.

قاد ديف روبرت سيارة الدفع الرباعي ويليز إنترناشونال التي كانت متوقفة أمام المتجر. كان الشيخ قد ابتعد عنهما كثيرًا وقد ضاع الوقت في إيقاظ ديف وتبديله ملابس. المطر ينهمر والرؤية سيئة. يحمل بوبي تيري بندقية وينشتر، ويتدلى من حزامه مسدس كولت، ولا يحمل ديف أي شيء. نظر إليه الأخير وقال: «أبقى يدك كما هي على زناد البندقية، وستفجر في بابك ثقبًا هائلًا يا بوبي تيري».

غمغم بوبي هو يكلم نفسه: «الحق به فقط.. يجب أن نطلق الرصاص على بطنه.. لا يمكن أن نشوّه رأسه، أليس كذلك؟».

- كُفَّ عن الحديث مع نفسك. من يتكلم مع نفسه يُجنُّ. هذا ما أعتقده.

سأل بوبي تيري: «أين هو؟».

- سوف نلحق به، ما لم تكن قد حطمت برؤيته. لا أريد أن أكون مكانك لو أنك توهمت رؤيته حقاً يا أخي.

- لم أتوهم. لقد رأيتُ سيارته. ماذا لو كان قد انعطف عن الطريق؟

- إلى أين سينعطف؟ لا شيء سوى مداخل المزارع حتى الطريق بين الولايات. لا يمكن أن يقود السيارة على مدخل مزرعة دون أن يعلق في الطين. اهدأ يا بوبي تيري.

قال بوبي في تعاسة: «لا أستطيع. لا أنفك أفكر في شعور المرء وهو مُعلّق من عمود هاتف في الصحراء حتى يجف».

- وتستطيع أن تتخيل كل هذا! بريك، نحن نتشَمُّ أثره كالكلاب! انظرا! أمامهما سيارتان متصادمتان تسدان الطريق، وعلى اليسار أثر إطارات سيارة مرّت حديثاً. هتف ديف: «هذا هو! لم يمر على عبوره أكثر من خمس دقائق!».

دار من حول السيارتين المتصادمتين، متعباً أثر الإطارات، ثم عاد من بعدهما إلى الطريق الذي اتخذه القاضي قبلهما. لمحا سيارة القاضي تختفي خلف التل على بعد ميلين.

ضغط ديف دواسة الوقود فانطلقت السيارة كالسهم وسط المطر الذي غطى نافذتها الأمامية وما عادت المساحات قادرة على إزالته. أطفأ ديف مصباحي السيارة الأماميين، وأضاء المصابيح الوامضة. بعد لحظات أُضيئت كشافات سيارة القاضي الخلفية.

قال ديف: «سنتصرف بلطف. لا تتسرع يا بوبي تيري. سنجعله يترجّل دون أن يشك في شيء. لو أنجزنا هذه المهمة لحصلنا على جناحين في الفندق الكبير في فيجاس، ولو أخفقنا لعلّقنا من مؤخرتنا. لا تفسد الأمر. اجعله ينزل من السيارة فقط».

قبض بوبي على بندقيته دون أن يفكر، فضرب ديف يده وهتف: «لا تترجل وأنت تحمل هذه!».

- لكن...

- اخرس! ابتسم لعنة الرب عليك!

ابتسم بوبي تيري ابتسامة مُهرَّج في سيرك، فصاح ديف: «لا فائدة منك. سأفعلها أنا. انتظر في السيارة اللعينة».

خفض سرعة سيارته ليواكب سرعة السيارة الزرقاء التي اتجهت إلى يمين الطريق للتوقف. ترَجَّل ديف ويداه في جيبي سترته الصفراء، يمسك بيُسراه مسدس عيار 0.38.

نزل القاضي ببطء من السيارة، وكان يرتدي سترة مطر صفراء أيضًا. مشى بحذر كأن عظامه زجاج هش قد ينكسر لأي حركة عنيفة، وحمل بندقيته معه.

هتف ديف بابتسامة لطيفة: «مهلاً يا رجل. أنت لن تطلق عليَّ الرصاص، أليس كذلك؟».

قال القاضي وبينهما ستائر المطر: «أعتقد أنني لن أفعل. يبدو أنكما كنتما في كوبرفيلد».

- هذا صحيح. أنا ديف روبرتس.

مد ديف يده اليمنى ليصافحه، فقال القاضي وهو يمد يده: «اسمي فاريس».

لمح القاضي البندقية في السيارة، وبوبي تيري يميل من النافذة ممسكاً مسدسه بكلتا يديه، وقد تجمَّد وجهه بابتسامة المهرجين. غمغم القاضي: «أيها الملاعين!»، وسحب يده من قبضة روبرتس الزَّلقة في الوقت نفسه الذي أخرج فيه الأخير مسدسه من جيبه.

اخترقتِ الطلقة جذع القاضي أسفل معدته، وخرجت من عموده الفقري مُخَلَّفة ثَقْبًا في قُطر طبق فنجان الشاي. لم يلاحظ أحد الغراب الذي حطَّ على سلك الهاتف على جانب الطريق.

خطا ديف روبرتس خطوة إلى الأمام لينهي مهمته، وبينما يفعل، أطلق بوبي تيري النار عليه من نافذة السيارة فمزق حنجرتَه. استدار نحوه بوبي والدَم ينهمر من عنقه، وعيناه الجاحظتان تُحتضران، ثم خرَّ ميتًا.

زَعَق بوبي تيري في جزع: «أوه اللعنة!».

فكَّر القاضي: لقد شُفي التهاب مفاصلي. لو كان لي أن أعيش لأفدُ الطب بمعلومة مُجَرَّبة؛ علاج التهاب المفاصل طُلقة في البطن. رباه، إنهما

كانا يترصدان بي. هل أخبرهما فلاج؟ لا بُدَّ أنه أخبرهما. ليكن يسوع في عون من أرسلتهم اللجنة إلى الغرب...

بندقيته على الأرض بالقرب منه. مال ليمسكها وهو يشعر أن أمعاءه ستنسكب خارج جسده. شعور غريب مقيت. لا يهم. أمسك البندقية. هل مزلاج الأمان مغلق؟ نعم. بدأ يفتحه. وزن السلاح ألف رطل في يده.

استطاع بوبي تيري أن يبعد عينيه عن ديف أخيرًا في الوقت نفسه الذي استعدَّ القاضي لإطلاق النار عليه. جلس القاضي على الطريق مُسنِدًا البندقية إلى رُكبته.

أطلق بوبي طلقة طَاشَتْ، وانطلقت رصاصة من البندقية بهدير يصم الأذان، فرشق زجاج السيارة المهشم في وجه بوبي. صرخ وقد ظن أنه مات، ثم رأى أن نصف الزجاج الأمامي قد اختفى، وفطن، إلى أنه ما زال حيًّا.

عدَّل القاضي اتجاه تصويبه، فأطلق بوبي تيري -الذي فقد أعصابه تمامًا- خمس طلقات متتالية. أصابت الأولى سيارة القاضي، وأصابت الثانية من فوق عينه اليمنى فأطاحت بقمة رأسه. أصابت الرصاصة الثالثة أسفل شفته السفلى ففجرت أسنانه وخلعت فكه. تقلصت إصبع القاضي على زناد البندقية كرد فعلي عصبي، فلم تصب الرصاصة شيئًا.

خيَّم الصمت.

دَقَّ المطر على سقفي السيارتين، وأغرق الجثتين بالماء. ظلَّ صوت زخات المطر هو الصوت الوحيد حتى نعق الغراب وطار. أجفل بوبي تيري لحظات، ثم تمالك نفسه وترجَّل من السيارة وهو يحمل مسدسه. غمغم: «لقد فعلتها. قتلته ففجرت مؤخرته اللعينة. لقد قتله بوبي تيري!».

حالما اقترب أدرك في زعر أنه لم يفجر مؤخرة القاضي رغم كل شيء. أمسك بوبي ياقة سترة القتل وقربه من وجهه ليرى ما تبقى من ملامح القاضي. لا شيء سوى أنفه التي لم تكن واضحة المعالم إلى حد كبير.

يمكن أن تكون جثة أي شخص.

في هلع سمع بوبي تيري صوت فلاج إذ أمره بألا يصيب رأسه.

يا إلهي! يمكن أن تكون هذه جثة أي شخص. بدا له أنه تعمَّد فعل كل ما نهاه الماشي عنه. لقد فجر رأسه بطلقتين.. حتى أسنانه فُقدت.

المطر ينهمر...



لقد قُضِيَ الأمر هنا. هو لا يجرؤ على الذهاب إلى الشرق، ولا يجرؤ على البقاء في الغرب. سينتهي به المطاف مُعلقاً من عمود هاتف.. أو ما هو أسوأ. هل من شيء أسوأ؟

لا شك في ذلك، خاصة مع زعامة ذلك الرجل الباسم المرعب. خلل شعره بأصابعه وهو ينظر إلى وجه القاضي الممزق، وحاول أن يفكر. الجنوب.. نعم.. الجنوب حيث لا حرس على الحدود. سيفر إلى المكسيك، وإن لم تكن بعيدة بما يكفي، سيفر إلى جواتيمالا أو بنما أو حتى إلى البرازيل اللعينة. سيكون بوبي تيري هناك في مأمن من الماشي ومن حذائه المخيف الذي...

صوت آخر يُضاف إلى صوت المطر.

رفع بوبي تيري رأسه.

صوت خفيف كأنه.. كأنه صوت نعلي حذاء باليين يحتكّان بالطريق.

همس بوبي: «لا.. لا..».

استدار وصوت الخطوات والخفيف يقترب. مشى.. هرول.. جرى.. إنه قادم! فلاج قادم كوحش مروّع من وحوش أكثر أفلام الرعب جنوناً. خدا المُتَشَح بالسواد محمران، عيناه تلمعان، ابتسامته الشرهة واسعة تكشف عن أسنان كشواهد القبور، كأنياب القروش، ذراعه ممدودتان أمامه، يلتصق بجسده وشعره ريش أسود لامع.

صاح المُتَشَح بالسواد: «مرحى يا بوبي تيري! لقد أخفقت!».

إن لديه ما هو أسوأ من الصَّلب.

لديه أسنانه.

الفصل الثاني والستون

رقدت داينا چورچينز عاريةً على الفراش المزدوج تنصت لصوت الماء في الحمام. نظرتُ إلى انعكاس صورتها على مرآة السقف التي تغطي مساحة الفراش أسفلها. فطنتُ إلى أن شكل جسد الأنثى يكون في أفضل حالاته وهي راقدة على ظهرها، البطن مُسطح، ولا تؤثر الجاذبية في النهدين.

كانت الساعة التاسعة والنصف صباحًا من يوم الثامن من سبتمبر. كان القاضي قد مات منذ ثماني عشرة ساعة، ولحق به بوبي تيري. واستمرَّ صوت الماء في الحمام.

فكَّرتُ: هنا رجل مُهوَّس بالاستحمام. أتساءل عما حدث له وجعله يستحم نصفَ ساعة متواصلة.

انجرفتُ أفكارها إلى القاضي. تُرى مَنْ صاحب الفكرة العبقرية؟ لن يشك أحد في رجل مسن.. إلا أن فلاج قد يشك. لقد عرف بطريقة ما الوقت والمكان، وأمر بحرس على الحدود يقتلونه متى يروُّه.

يبدو أن المهمة فسدتُ بشكل ما. منذ وقت العشاء ليلة أمس والجميع مرتعبون ممتقعو الوجوه. حتى ويتني هورجان الطاهي الماهر لم يطرهُ سوى شيء لا يرقى طعامًا للكلاب. لقد مات القاضي، لكنَّ شيئًا آخر حدث أفسد المخطط.

قامتُ ومشتُ إلى النافذة ونظرتُ خلالها إلى الصحراء. رأْتُ حافلتَي مدرسة تسيران على الطريق US 95 تحت الشمس الحارقة، متجهَةً إلى قاعدة إنديان سبرينجز الجوية حيث تقدم محاضرات يومية عن الطائرات النفاثة. في الغرب أكثر من ستة أشخاص يتقنون الطيران، لكنَّ من حسن

حظ المِنطقة الحرة، لم ينضم أيهم إلى طيران الحرس الوطني في إنديان سبرينجز.

لكنهم يتعلّمون. رباه...

ما يهمها في موت القاضي الآن هو أنهم عرفوا ما لا يمكنهم معرفته. هل لهم جواسيس في المِنطقة الحرة؟ لم لا، الجاسوسية لعبة جماعية. لكنّ سوزان ستيرن أكدت لها أن اللجنة اتخذت قرار إرسال جواسيس، ولا يمكن أن يكون ضمن أعضائها السبعة من يعمل لحساب فلاج. كانت الأم أباجيل لتعرف هذا.

لم يعدّ من تفسيرات إلا واحد مخيف مقلق.. فلاج عرف من تلقاء نفسه. مرّ على وجود داينا في فيجاس ثمانية أيام، وقد قُبِلَتْ بينهم بشكل كامل على حد علمها. كانت قد عرفت من المعلومات عما يجري في القاعدة الجوية ما يكفي لإرعاب كل أهل بولدر. بيدّ أن ما أربعها أكثر هو رد فعل الجميع لدى ذكر اسم فلاج، كيف يتحاشون سماعه أو ترديده. إنه الغائب الحاضر الرهيب.

هذا رد فعلهم في النهار، أما في الليل فلو قررت أن تسهر في المشرب في الطابق السفلي، فستسمع عنه قصصاً لا تُصدّق، بدايات أسطورة. يتهامسون، يتحاشون النظر إلى بعضهم، يشربون البيرة حصريّاً. لو شربت ما هو أقوى لزلّ لسانك، وهذا خطر. تعرف أن ما يقولونه ليس حقيقياً بالكامل، لكنّ يصعب فصل الحقيقة من الكذب. قيل إنه قادر على تغيير هيئته، قيل إنه مستذئب، وأنه من بدأ الوباء، وأنه المسيح الدجال الذي ذُكر في سفر الرؤيا. سمعتُ بصلب هيكتور دورجان، وكيف عرف أنه يتعاطى المُخدّرات.. بالطريقة نفسها التي عرف بها أن القاضي في طريقه إليه.

لا يتحدث عنه أحد باسم فلاج في أثناء تلك الجلسات، وكأنّ النطق باسمه سيستحضره. يسمونه الرجل الغامض، الماشي، الطويل، ويسميه راتي إيروين يهوذا المفزع.

إن كان عرف بأمر القاضي، فلا بُدّ أنه عرف بأمرها، أليس كذلك؟

انغلق صنبور الماء.

تمالكي نفسك يا عزيزتي. ربما في المِنطقة الحرة جاسوس قد علم بأمر القاضي فقط بطريقة ما لا علاقة لها بأعضاء اللجنة.

- لا يمكن أن تظلي بلا ملابس هكذا يا حلوة. سوف تثيريني مرة أخرى. استدارت نحوه بابتسامة غنية دافئة وهي تتمنى لو تحمله إلى المطبخ وتسد ذلك الشيء الذي يفخر به في مفرمة لحم ويتني هورجان. قالت له: «لَمْ تظنني إذن لا أرتدي شيئاً؟».

نظر إلى ساعته وقد بدأ يُستثار فعلاً: «حسنًا، لدينا أربعون دقيقة...». اقتربت منه مشيرة إلى ما يتدلى من سلسلته: «تعالَ إذن واخلع هذا الشيء. إنه يخيفني».

نظر لويد هينريد إلى الحجر الأسود المتدلي على صدره، وخلع السلسلة ووضعها على المنضدة الجانبية.

- أفضل هكذا؟

- أفضل جدًّا...

ضاجعها وظلّت تفكر في مفرمة اللحم. وقعت عينها على السلسلة والحجر الأسود وتلك البقعة الحمراء بداخله. بدا لها أن الحجر يحدق إليها. إنه يحدق إليها، وهذه عينه تنظر إليها، تراقبها كما كانت عين ساورون تراقب رحلة فرودو في موردور⁽¹⁾.

فكّرت في رعب يائس: إنه يراني.. يرى ما بداخلي...

كما تمنّت، تكلم لويد بعد ذلك. هذا جزء مما اعتاد فعله بعد المضاجعة. لفّ ذراعه حول كتفيها العاريتين، أشعل سيجارة، نظر إلى انعكاس صورتيهما على مرآة السقف، أخبرهما بما يجري.

قال لها: «أنا سعيد أنني لستُ بوبي تيري هذا. لقد أمر الرجل الكبير بإحضار رأس الشيخ القذر سليمةً دون كدمة واحدة. هذا المتخلف خرق وجهه برصاصتين عيار 0.45 ومن مسافة قريبة. أعتقد أنه استحق مصيره، لكنني سعيد أنني لم أكن هناك».

- ماذا حدث له؟

- لا تسألني يا حلوة.

(1) من رواية سيد الخواتم لتولكين (المترجمة)

- كيف عرف؟ أعني الرجل الكبير، كيف عرف؟

- كان هناك.

شعرتُ برعدة...

- كان هناك مصادفة؟

- إنه في كل مكان فيه مشكلات. يا يسوع المسيح، عندما أفكر في ما حدث لإريك ستيرليرتون؛ ذلك المحامي المتذاكي الذي ذهبْتُ معه أنا والزَّبَّال إلى لوس أنجلوس...

- ماذا فعل؟

للحظَاتِ ظننْتُ أنه لن يجيب. كانت تقوده بأسئلتها البسيطة المُحترمة إلى حيث تريد، لكنه يشعر من طريقتها أنه ملك جبل الخراء على حد تعبير أختها الأصغر التي لن تنساها أبدًا. خشيتُ أن تكون قد دفعته أكثر من اللازم هذه المرة، حتى قال أخيرًا بصوته الغريب المختنق: «لقد نظر إليه فقط. كان إيريك منهمكًا في إصدار أوامره عن طريقة إدارة عملية فيجاس، افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا، يمشي مختلًا أمامنا كأنه في محكمة. فجأة قال له: «إيريك». نادى اسمه فقط برفق، فنظر إيريك إليه. لم أرَ شيئًا. حدق إليه إيريك خمس دقائق مثلًا. اتسعت عيناه أكثر فأكثر.. ثم سال لعابه.. ثم بدأ يقهقه، فقهقه هو أيضًا معه. أربعني هذا. عندما يضحك فلاج فلا بُدَّ أن يهلع المرء. استمرَّ إيريك في القهقهة حتى قال هو: «عندما تعود، أنزله في موهاقي»، وهذا ما فعلناه. أنزلناه في صحراء موهاقي وأظنه يهيم هناك حتى الآن. لقد نظر إلى إيريك خمس دقائق فأصابه بالخيال».

سحبَ شهيقًا عميقًا من سيجارته ثم سحقها في المنفضة. لفَّ ذراعه حول كتفها أكثر وسألها: «لماذا نتكلم عن هذه الفضاعات؟».

- لا أعرف.. كيف الحال في إنديان سبرينجز؟

أضاء وجه لويد؛ مشروع إنديان سبرينجز طفله الأول. أجابها: «عظيم.. رائع حقًا. سيكون لدينا من يقودون طائرات سكاي هوك مع بداية أكتوبر، ربما قبل ذلك. هانك روسون ممتاز، واتضح لي أن رجلَ صفيحة الزُّبالة عبقرى. هو لا يفقه شيئًا في أغلب الأمور، لكنه عبقرى في ما يخص الأسلحة. قابلتُ رجلَ صفيحة الزُّبالة مرتين، وفي المرتين شعرتُ برعدة وهو ينظر إليها بعينيه الموحلتين. تعتقد أن الرجال الآخرين يعتبرونه تميمةً حظ.

لاحظتُ داينا نظرةَ رجلٍ صفيحة الزُّبالَة إلى عود الثُّقَاب الذي أشعل به أحد الرجال سيجارته ليلة أمس. بدا لها أن كينونته كلها تدور حول هذا اللهب، كأنه رجل يموت جوعًا ينظر إلى مائدة فاخرة. سألت لويده: «تقول إنه بارع مع الأسلحة؟».

- إنه رائع. لطائرات سكاي هوك صواريخ جو أرض. يطلقون عليها أسماء عجيبة، أليس كذلك؟ عجز الجميع عن معرفة طريقة تشغيلها أو تأمينها. اقترح هانك أن نجلب الزُّبال ليَجرب حظه معها عندما يعود.

- عندما يعود؟

- نعم. رجل غريب. له في فيجاس أسبوع حتى الآن، لكنه يكتسب مكانة سريعًا.

- أين كان؟

- في الصحراء. أخذ سيارة لاند روڤر وانطلق. قلتُ لك إنه رجل غريب. الزُّبال غريب بطريقته الخاصة كما أن الرجل الكبير غريب بطريقته. لا يوجد شيء غريبًا إلى الصحراء. أنا أعرف هذا لأنني قضيتُ عقوبةً في براونزفيل. لا أعرف كيف يعيش هناك، لكنه يعيش، ويبحث عن ألعاب جديدة. في مرة عاد إلينا بكومة أسلحة جيش آلية ذات أشعة ليزر.. تعرفين هذه الأسلحة. يقول عنها هانك إنها الأسلحة التي لا يخطئ تصويبها. الأسبوع الماضي أحضر لنا ألغامًا من كل صنف ونوع، وحاوية باراثيون⁽¹⁾. قال إنه وجد كمية مُزيل أوراق شجر قد تحوّل كلورادو كلها إلى بيضة صلعاء.

- أين وجدها؟

أجاب لويده ببساطة: «في كل مكان. كأنه يشم رائحتها يا حلوة. أليس هذا غريبًا؟ أغلب نيقادا وشرق كاليفورنيا مملوكة للحكومة العزيزة المُسنة، وفيها يختبرون ألعابهم من الأسلحة النارية وحتى القنابل النووية. ربما نجده في يوم يجر خلفه أحدها».

ضحك، فتجمد الدم في عروق داينا.

(1) مبيد فسفوري عضوي سام يستخدم في إبادة الحشائش، واستخدمه الأمريكيون في حرب فيتنام لإزالة الغابات التي يختبئ فيها الفيتناميون (المترجمة)

- لقد بدأ الوباء من مكان ما هناك. أراهن على ذلك بالمال. ربما سيعثر الزبّال على أصله. أقول لك إنه يشم هذه الأشياء. يقول الرجل الكبير إنه لا يحتاج منه سوى أن يضع رأسه فوق كتفيه وينطلق، وهذا ما يفعله. هل تعرفين ما لعبته المفضلة الآن؟

- لا...

لم تكن واثقة من أنها تريد أن تعرف، لكن لماذا جاءت إلى هنا من الأساس؟

- قاذفات اللهب المدرعة. لدينا خمس منها في إنديان سبرينجز مصفوفة كعربات سباق فورميولا وان. كانوا يستخدمونها في حرب فيتنام. الزبّال مولع بها. على أي حال، عندما يعود من رحلته الاستكشافية سنصحبه إلى إنديان سبرينجز. لقد استطاع التعامل مع صواريخ الطائرات في أقل من ست ساعات. هل تصدقين ذلك؟ إنهم يدرّبون تقنيي القوات الجوية أعوامًا حتى يتقنوا هذا. لكنّ أيهم ليس الزبّال.. إنه عبقرى لعين.

بل هو معتوه نابغ. أراهن على أنني أعرف كيف أصيب بحروق جسده هذه.

نظر لويدي إلى ساعته وقام وهو يقول: «على سيرة إنديان سبرينجز. يجب أن أرحل الآن. هل تودين مرافقتي في أثناء الاستحمام؟».

- ليس هذه المرة.

ارتدت ملابسها بعدما فتحت الصنبور مرة أخرى. حتى الآن كانت تخلع ملابسها وترتديها معه، وتنتوي أن تحافظ على هذا النظام. ثبتت سكينها الزُّنْبُرُكية في مكانها، وارتدت بلوزتها. يجب أن تحتفظ الفتاة بأسرارها.

سُغِلَتْ في وقت الظهيرة مع طاقم صيانة مصابيح إنارة الشوارع. ظلت تتحدث عن حبها لرفاق الطاقم، خاصة جيني إنجستروم الجميلة القوية التي عملت سابقاً راقصةً ملاهي تعرّج. كانت من الفتيات اللاتي تتمنى داينا مصادقتهنّ، ولطالما تعجبت من وجود فتاة مثلها في صف الرجل الغامض، ولم تجرؤ على سؤالها عن السبب.

باقي الطاقم جيد، ورأت داينا أن نسبة الحمقى هنا أعلى من نسبتها في المنطقة الحرة، وليس منهم ذوو أنياب أو من يتحولون إلى وطايط عند

اكتمال القمر، بل إنهم يكدحون أكثر مما يكدح أهالي المنطقة الحرة الذي يتسكعون في المتنزهات ويمدون أوقات راحتهم لتشمل وقت العمل كله. لا تحدث مثل هذه الأمور هنا. الكل يعمل من الثامنة صباحًا حتى الخامسة مساءً. بدأت المدارس في عملها أيضًا، وينتظم فيها أكثر من عشرين طفلًا من سن الرابعة حتى الخامسة عشرة. عثروا على شخصين مُرخّصين في مجال التدريس واستمرت الدراسة خمسة أيام في الأسبوع. صار الأمر مصدر فخر للويد الذي ترك الدراسة منذ زمن. فتحت الصيدليات أبوابها أيضًا ودون حراسة، لكن لم يُسمح لأحد بأخذ ما هو أكثر من أقراص أسبرين أو جيلوسيل. لم تعد مشكلة المخدرات موجودة في الغرب بعدما شهد الجميع عقاب هيكتور دورجان، وليس لديهم مدمنو خمور مثل ريتش موفات. الكل ودود مستقيم، والأفضل ألا يعاقر أحد شرابًا أقوى من البيرة.

فكرت داينا: ألمانيا 1938. حكم النازي؟ كم هم ساحرون، رياضيون، لا يذهبون إلى الحانات فهي مخصصة فقط للسائحين. ماذا يفعلون إذن؟ يصنعون الساعات.

هل المقارنة عادلة؟ فكرت في چيني، وقررت أنها قد تكون عادلة فعلاً. كانت تغير أحد مصابيح الأعمدة قرب نهاية اليوم، و... نظرت إلى أسفل وتجمدت.

عاد الناس في حافلاتهم من إنديان سبرينجز، وراحوا ينظرون إليها كما ينظر أي شخص إلى آخر مُعلّق في الهواء. متلازمة السيرك المجاني. هذا الوجه الذي ينظر إليها.. الوجه الباسم المدهوش...

يا يسوع! أهذا توم كولين؟

انزلقت قطرة عرق من جبينها إلى عينها، فمسحتها وعادت تنظر إلى الجَمع، فلم ترَ توم كولين. كانت المجموعة قد عبرت الطريق فعلاً. حدقت داينا إلى مَنْ ظننته توم، لكن كيف ستحكم من هذه المسافة؟

توم؟ هل أرسل توم؟!

مستحيل.. هذا جنون..

بل عين العقل..

لكنها تعجز عن تصديق هذا.

هتفت چيني: «يا چورچينز! لا تنامي بالأعلى!».

نظرتُ إليها دانيا من أعلى ورفعت لها إصبعها الوسطى، فضحكت. عادت دانيا لتركيب المصباح.

في طريق العودة ظلت صامتة مشغولة البال، فعَلَّقت چيني على صمتها، فقالت دايانا: «ليس لديَّ ما أقول...».

لا يمكن أن يكون هو توم...

أم إنه هو؟

- استيقظي! استيقظي عليكِ اللعنة! أيتها العاهرة!

استيقظتُ من نوم عميق على ركلة قوية في ظهرها أسقطتها من الفراش المستدير. رمشتُ وهي تنظر حولها في حيرة. كان لويد هنا، ينظر إليها في غضب بارد، ومن خلفه ويتني هورجان وكين ديموت وإيس هاي وچيني، بيد أن الأخيرة كانت واجمة باردة.

- چيني؟

لم تجبها. وقفت دايانا على ركبتها وهي تعي بالكاد إلى عريها. تعبير وجه لويد هو تعبير وجه شخص اكتشف خيانة عظمى.

هل أحلم بكل هذا؟

- قومي وارتي ملابسك أيتها الجاسوسة الزانية اللعينة!

حسنًا، هذا ليس حلمًا. شعرتُ بذعر يغوص في أعماق أحشائها. لقد كشفوا أمر القاضي، والآن كشفوا أمرها. لقد أخبرهم. نظرتُ إلى الساعة على المنضدة، إنها الرابعة فجرًا؛ ساعة مدامات البوليس السري.

سألت: «أين هو؟».

أجاب لويد واجمًا: «بالقرب». وجهه شاحب لامع، حجر قلادته يلمع على صدره. أكمل: «ستتمنين لو أنه ليس كذلك».

- لويد؟

- ماذا؟

- لقد نقلتُ إليك مرضًا جنسيًا. أتمنى أن يتعفن قضيبك.

ركلها أسفل صدرها، فانقلبت على ظهرها.

- أتمنى أن يتعفن يا لويد.

- اخربي وارتي ملابسك.

- اخرجوا من هنا. لن أبدل ملابسني أمام أي رجل.

ركل لويد عضدها، كان الألم عظيمًا فانفتحت فمها ألمًا، لكنها لم تصرخ. قالت له وهي تقاوم الألم: «هذا إن كنت رجلًا». قال ويتني هورجان وقد رأى الموت في عيني لويد: «هيا يا لويد. سننتظر في غرفة المعيشة وستراقبها چيني».

- ماذا لو قررت أن تقفز من النافذة؟

قالت چيني: «لن تواتها الفرصة». وجه چيني بارد ميت. لأول مرة تلاحظ داينا أنها تعلق مسدسًا في نطاق حول حوضها. قال إيس: «لن تستطيع، النوافذ في الطوابق العليا لا تفتح، مجرد واجهة لا أكثر. لن يغامر فندق كهذا بسمعته كلما سكر أحدهم وقرر أن يغطس».

هتف ويتني: «هيا يا لويد. لا بد أن نبتعد قبل أن تفعل بها ما قد تندم عليه لاحقًا».

مشوا نحو الباب، ثم التفت لويد إليها مرة أخيرة وقال: «سيجعلك عبرة لمن يعتبر أيتها الغانية».

قالت: «أنت أقدر عشيق صادفته يا لويد».

كاد يندفع نحوها لولا أن أمسك ويتني بذراعه وجره مع كين مكديموت إلى الباب وأخرجاه.

قالت چيني: «ارتي ملابسك يا داينا».

- هل تحبين أمثالهم؟ أمثال لويد هينريد؟!

أجابت چيني وقد بدا عليها الغضب: «أنت من كنت تعاشرينه يا داينا، لا أنا. هل تظنين أنه من اللطف أن تتجسسي على الناس؟ أنت تستحقين كل ما ستالين، ولكم ستالين...».

- لقد كنتُ أعاشره لسبب... أتجسس لسبب...

- لماذا لا تصمتي؟

- قالت داينا لچيني وهي تنظر إليها: «ماذا تظنينهم يفعلون هنا يا فتاة؟ لماذا يتعلمون قيادة الطائرات؟ فيم سيستخدمون تلك الصواريخ؟».
- زمت جيني شفتيها ثم قالت: «هذا ليس من شأني».
- لن يكون من شأنك قذفهم لما وراء جبال روكي وقتل كل من هناك؟
- ليتهم يفعلون. إما نحن وإما أنتم، هكذا أخبرنا، وأنا أصدقه.
- لقد صدق الناس هتكر! أنت لا تصدقينه، بل مذعورة منه.
- ارتدي ملابسك يا داينا.
- ارتدت داينا ملابسها الداخلية، ثم سروالها، ورفعت يدها إلى فمها مغمغة: «أعتقد أنني سأتقيأ...» أمسكت بلوزتها ذات الكُمين الطويلين ودخلت الحمام وأغلقت الباب خلفها، وتصنعت التقيؤ.
- افتحي الباب يا داينا! افتحي وإلا أطلقت الرصاص على القفل!
- انتظري...
- وتصنعت التقيؤ مرة أخرى وهي تقف على أطراف أصابعها تتحسس ما فوق خزانة الأدوية. من حسن حظها أنها قد تركت السكين هناك. صلت للرب من أجل عشرين ثانية أخرى...
- ربطت السكين.. في الغرفة صوتان آخران. فتحت الصنبور وهتفت: «لحظة! أنا أتقيأ عليكم اللعنة!».
- ركل أحدهم باب الحمام فاهتز في إطاره. ارتدت داينا البلوزة سريعاً لتخفي السكين، ثم بللت وجهها وفرغت خزان مياه المراض.
- ركلة أخرى. فتحت داينا الباب فدخلوا. نظر إليها لويد بعينين حانقتين، وأشهرت جيني السلاح في وجهها. قالت داينا: «لقد تقيأت.. فانتكّم المشاهدة». جذبها لويد من كتفها ورمّاها على الفراش هاتفاً: «كان عليّ أن أكسر عنقك أيتها الداعرة».
- زررت بلوزتها وهي تقول: «تذكر ما قال سيدكم. أنتم كلابه، أليس كذلك؟ قبلتم مؤخرته فاستعبدكم».
- قال ويتني في غلظة: «الأفضل أن تصمتي. أنت تُزيدين صعوبة موقفك».

نظر إلى چيني وهي لا تفهم كيف تحولت الفتاة المرحة إلى تلك المتجهمة القاسية. سألتها في يأس: «ألا ترون أنه سيبدأ كل شيء مرة أخرى؟ القتل.. إطلاق الرصاص.. الوباء؟».

قال ويتني في رفق مريب: «إنه الأعظم والأقوى. سيمحيكم من على وجه الأرض».

هتف لويد: «كفى. هيا بنا».

هَمُّوا بِإِمساك ذراعيها فتراجعت وضمتهما إلى جسدها وهي تقول: «سأمشي وحدي».

ملهى القمار خالٍ إلا من بضعة رجال مسلحين يجلسون أو يقفون جوار الباب. انفتح باب المصعد وخرجت جماعة لويد ومعهم داينا.

قادوها إلى ما يبدو كمصرفٍ. رأت خزانات وآلات عد نقود وحلقات مطاطية وشاشات كمبيوتر ميتة. فتح ويتني باباً آخر أفضى إلى ممر مفروش بالسجاد ثم مكتب استقبال مهجور كانت تجلس عليه سكرتيرة ماتت تسعل وتعطس وتختنق بالبلغم الأخضر منذ أشهر. مال لويد المتعرق يضغط زراً على المكتب وهتف: «نحن هنا يا ر. ف.».

صاح صوت دافئ مسرور من جهاز الإنتركوم: «عظيم يا لويد. أدخلها من فضلك».

- وحدها؟

- بالتأكيد.

شعرت داينا بحلقها يجف لسماع صوته. التفت إليها لويد بوجه يلمع بالعرق وقال: «لقد سمعته. ادخلي».

قاطعت ذراعيها على صدرها لتُبقي السكين إلى الداخل وسألته: «ماذا لو رفضت؟».

- سأجُرُّك إلى الداخل.

- انظر إلى نفسك يا لويد، أنت مرتعب حتى إنك لست قادراً على سحب جرو إلى الداخل. أنتم جميعاً مذعورون، خاصة أنت يا چيني.

همست چيني: «اخربي أيتها المتسللة القذرة».

- لم أشعر بخوف قط في المنطقة الحرة. لم أشعر إلا بالطمأنينة والسعادة. جئت هنا كي أحافظ على هذا الشعور. فكروا في الأمر. ربما يبيع لكم الخوف لأن ليس له بضاعة سواه.

قل ويتني معذراً: «أودُّ طبعاً الإنصات إلى باقي خطبتك، لكنَّ الرجل ينتظر. أسف. إما أن تدخلني وإما سأضطر إلى جرّك. أخبريه بكل ما تريدين حالما تدخلين إليه.. لو وجدت في فمك لعباً يكفي طبعاً. حتى وقتها، أنتِ مسؤوليتنا».

بدا اعتذاره صادقاً، وهذا ما يعني أنه مذعور بحق. قالت له: «لن تُضطرَّ إلى هذا».

أجبرت ساقها على الحركة في البداية، ثم صار الأمر أسهل. إنها ذاهبة إلى حتفها. لا بأس. إن معها السكين، وما لم تستخدمها لقتله، ستستخدمها لقتل نفسها. قالت لنفسها: اسمي داينا روبرتا چورچينز، وأنا خائفة، لكني خفتُ من قبل كثيراً. كل ما سيستطيع أخذه مني هو ما انتويتُ منحه طواعية؛ حياتي. لن أدعه يكسرنني. لن أدعه يقلل من شأنِي. أريد أن أموت بكرامتي.. وسأحصل على ما أريد.

أدارت مقبض الباب ودخلت إلى حضرة راندال فلاج.

الغرفة كبيرة عارية. المكتب يكاد يلتصق بالحائط القصي، وخلفه المقعد الدوّار الوثير. اللوحات مغطاة، والأنوار مُطفأة. على الحائط المقابل ستائر مفتوحة تكشف عن نافذة هائلة تطل على الصحراء. ظنّت داينا أنها لم ترَ منظرًا مجدياً كهذا من قبل. القمر معلّق فوق الصحراء كعملة معدنية لامعة، يكاد يكون بدرًا تاماً.

وقف أمام النافذة رجل، ظل ينظر إلى الصحراء طويلاً بعدما دخلت مولياً إياها ظهره. ثم استدار. إلى كم يحتاج المرء من وقت ليستدير؟ ثانيتين أو ثلاث؟ بالنسبة إلى داينا رأته يستدير إلى الأبد، كلما تحرك بدا منه جزء جديد كأنه قمر. صارت طفلة مرة أخرى، خائفة فضولية. للحظات هوت في شبّاك جاذبيته وبهائه، حتى صارت واثقة من أنها ستري الوجه من أحلامها عندما تكتمل استدارته بعد عصور. ستري الرجل ذا العباءة المُلقنسة، الراهب القوطي المتشح بالسواد. ستراه ثم ستجن.

نظر إليها، مشى نحوها، ابتسم ابتسامةً دافئةً. قالت لنفسها مدهوشة: «ما هذا؟ إنه في مثل عمري؟».

شعر راندال فلاج داكن مشعث، وجهه وسيم متورّد كأنه قضى وقتاً طويلاً وسط رياح الصحراء. ملامحه معبرة حساسة، عيناه مرحتان كعيني طفل يخفي سرّاً مميزاً.

قال: «داينا! مرحباً!».

- مـ... مر.. مرحباً.

ولم تقدّر على قول شيء آخر. كانت تظن أنها مستعدة لأي شيء، إلا أنها لم تكن مستعدة لهذا. ابتسم لحيرتها، ثم فرد يديه كأنما يعتذر. كان يرتدي قميصاً مهترئ الياقة، وسروالَ چينز باهتاً، وحذاء رعاة بقر عتيق مترب. اتسعت ابتسامته أكثر كأنما يطالبها بالمثل وقال: «ماذا كنت تتوقعين؟ مصاص دماء؟ متحوّل؟ ماذا قيل لك عني؟».

- كانوا خائفين.. وكان لويد يتعرّق كخنزير.

ظلت ابتسامته تطالب بابتسامة، وجاهدت كثيراً كي لا تنصاع له. لقد رُكّلت من فوق فراشها بناءً على أوامره، وقادوها إلى هنا كي.. ماذا؟ كي تعترف؟ تحكي كل شيء تعرفه عن المنطقة الحرة؟ إنها تشك في أن شيئاً هناك تعرفه ولا يعرفونه.

قال فلاج ضاحكاً: «لويد.. لقد مرّ لويد بتجربة مروعة في فوينكس بعد انتشار الوباء، وهو لا يحب الكلام عنها. أنا أنقذته من الموت و... من مصير أسوأ من الموت. لقد ربط بيني وبين هذه التجربة إلى حد ما، إلا أنني لم أتسبب في ما حدث له. هل تصدقيني؟».

أومأت داينا ببطء، ووجدت نفسها تصدقه، وتتساءل أكان استحمام لويد أوقاتاً طويلة له علاقة بتلك التجربة المروعة في فوينكس. شعرت أيضاً بشفقة تجاهه، وهو شعور ما كانت تتصور أن تشعر به تجاه شخص مثله.

- تفضلي. اجلسي يا عزيزتي.

نظرت حولها في شك.

- على الأرض. الأرض ستؤدي الغرض. يجب أن نتكلم، ونتكلم بصراحة. الكاذبون يجلسون على المقاعد، لذا سنجلس كصديقين حول نار مخيم. اجلسي يا فتاة.

لمعتُ عيناه بسرور مخفي، واهتزَّ جنباه كأنه يكتُم ضحكة وتربّع على الأرض ونظر إليها يدعوها إلى الجلوس، عيناه تقولان: لن تدعيني أجلس على أرضية هذا المكتب السخيف وحدي، أليس كذلك؟

بعد تفكير للحظات جلستُ متربّعةً ووضعتُ يديها على ركبتيها، وشعرتُ ببرودة السكين المطمئنة تحت كم بلوزتها.

قال: «لقد أرسلتِ إلى هنا يا عزيزتي لتتجسسي على أرضنا. هل هذا توصيف دقيق للوضع؟».

- نعم.

لا فائدة من الإنكار.

- وتعرفين عاقبة التجسس في وقت الحرب؟

- نعم.

أشرقت ابتسامته أكثر وهو يقول: «إذن أنت محظوظة لأن جماعتي وجماعتك غير متحاربين، أليس كذلك؟».

نظرت إليه متفاجئة. قال في صدق: «نحن لسنا متحاربين».

- لكن... أنت...

دارت آلاف الأفكار الحيرى في رأسها عن إنديان سبرينجز والصواريخ وما وجده الزبّال، وعما قيل عن الرجل أو الكيان المائل أمامها، وما حدث للمحامي إيريك ستريلرتون الذي يهيم في صحراء موهاقي وقد فقد عقله.

- هل هاجمنا ما تطلقون عليه المنطقة الحرة؟ هل بدرت منا أي مناقشات ضدكم؟

- لا... لكن...

- وهل هاجمتمونا؟

- لا طبعاً!

- نعم. ولا نيّة لنا لفعل شيء كهذا. انظري!

رفع يديه فجأة ولف أصابعها على هيئة أنبوب. نظرتُ خلالها لترى الصحراء خلف النافذة الهائلة. هتف: «صحراء الغرب العظمى! تلك التي تغيب الجميع! نيقادا! أريزونا! نيو مكسيكو! كاليفورنيا! بعض جماعتي في واشنطن وحول منطقة سياتل، وفي بورتلاند. بضعة منهم في أيداهو ونيو

مكسيكو. نحن مبعثرون حتى إننا لن نستطيع إحصاء عددنا قبل عام أو أكثر. نحن أضعف بكثير من منطقتكم الحرة. المِنْطَقة الحرة مجتمع منظم للغاية، وما نحن إلا عصابة أنا زعيمها. في العالم مُتَّسَع لكلينا، وسيظل فيه مُتَّسَع لكلينا حتى في عام 2190.. هذا لو عاش المواليد، وهو شيء لن نعرفه قبل خمسة أشهر. لو حدث هذا واستمرت البشرية، ربما يخوض أحفادنا حرباً.. لكنْ بحق الرب، لماذا قد نتحارب الآن؟!

غمغمتُ بطلق جاف: «لا شيء». شعرتُ بدوار وبشيء آخر.. بأمل؟ كانت تنظر إلى عينيه عاجزة عن إبعاد نظرها عنه، ولا تريد هذا. إنها لن تُجَنَّ، وهو لا يقودها إلى الجنون. إنه.. رجل عقلاني للغاية.

- أسباب اقتصادية للتنازع، ولا أسباب تكنولوجية أيضاً. سياستينا مختلفة نوعاً، لكنَّ هذا أمر تافه، خاصة وجبال روكي بيننا.

إنه يسيطر على عقلي.. يتلاعب به.

انتزعتُ عينيها عن عينيه بصعوبة، ونظرتُ إلى القمر خلفه. خبتِ ابتسامة فلاج قليلاً وبدا عليه شيء من الضيق. أم إنها تخيلت هذا؟ نظرتُ إليه بإرادتها هذه المرة، فوجدته مبتسماً. قالت بخشونة: «لقد قتلتم القاضي. أنتَ تريد مني شيئاً، وعندما تحصل عليه، ستقتلني».

نظر إليها في صبر وقال: «على الحدود بين أيدهو وأريجون وحدات حراسة، وكانوا يبحثون عن القاضي فاريس، هذا صحيح. لكنْ ليس لقتله! لم أمرُ إلا بإحضاره إلى هنا. كنتُ في بورتلاند حتى أمس. أردتُ أن أتحدث معه كما أتحدث معكِ الآن. عثر عليه اثنان من الحرس، فأطلق عليهما النار وقتل واحداً منهما وأصاب الآخر. قتل المصابُ القاضي قبل أن يموت متأثراً بإصابته. أنا أعتذر عما حدث. أنا آسف إلى درجة لن تعرفيها أو تفهميها».

أظلمتُ عيناه. صدقته لكنْ ليس على النحو الذي يتصوره. شعرتُ بالبرودة مرة أخرى.

- لم يحكوا ما حدث كما حكيتَه.

- صدقيهم أو صدقيني يا عزيزتي. لكنْ تذكرني أنني أنا مَنْ أمرتهم.

كم هو مُقنِع. بدا غير مؤدٍ.. إلا أن هذا غير صحيح، أليس كذلك؟ هذا الشعور يصدر من كونه رجلاً، أو شيئاً يشبه الرجال. إن له حضوراً وجاذبية عظيمةً تطيح بكل الاعتراضات.. لكنه يفعل كل هذا بطريقة تثير الضيق.

- إن لم تكن تنتوي الحرب، فلماذا تجهز الطائرات والأشياء الأخرى في إنديان سبرينجز؟
- إجراءات دفاعية. نفعل الشيء نفسه في سيرلس ليك في كاليفورنيا وفي قاعدة إدواردز الجوية. أرسلنا مجموعة أخرى إلى المفاعل النووي في ياكима، واشنطن. ستفعل جماعتك مثلنا، ما لم يكونوا بدأوا فعلاً.
- عندما غادرت المنطقة الحرة كانوا يحاولون توصيل الكهرباء.
- سأكون مسروراً لإرسال مُختصين أو ثلاثة لمساعدتكم، لكنني أعرف أن براد كيتنشر يعمل عملاً مذهلاً. لقد انقطع التيار مدة قصيرة أمس لكنه حل المشكلة سريعاً. كانت المشكلة زيادة تحميل على المولد.
- كيف عرفت كل هذا؟
- أوه.. لديّ طُرقي. لقد عادتِ المرأة المسنة بالمناسبة. المرأة المسنة اللطيفة.
- الأم أباجيل؟
- غامت عيناه وبدا عليهما الحزن وهو يقول: «نعم.. لقد ماتت. خسارة. كنت أتمنى مقابلتها شخصياً».
- ماتت؟ الأم أباجيل ماتت؟
- زال الغيام عن عينيه وابتسم قائلاً: «هل فاجأك الأمر إلى هذا الحد؟».
- لا. لكنني تفاجأت بعودتها، وتفاجأت أكثر أنك عرفت.
- لقد عادت لتموت.
- هل قالت شيئاً؟
- للحظة اهتزّ قناع اللطف على وجه فلاج وظهر من خلفه الظلام والغضب المكتوم. قال: «لا. ظننتها قد.. تتكلم. لكنها ماتت وهي في غيبوبة».
- هل أنت متأكد؟
- عادت ابتسامته المشعة تظهر كشمس تتجلى من خلف الضباب.
- لا يهم يا داينا. لنتكلم عن أمور أكثر إيجابية، مثل عودتك إلى المنطقة الحرة. أعتقد أنك تفضلين العودة إلى هناك عن المكوث هنا. معي شيء تأخذه معك.

أخرج من جيب قميصه ثلاث خرائط مطوية أعطاها لداينا. الخرائط تُظهر الولايات السبع الغربية، وبعض المناطق فيها مُظلَّلة بالأحمر، مفتاح الخرائط يقول إنها الأماكن التي بدأ يتزايد فيها السكان.

- ترينيني أن آخذها؟

- نعم. أنا أعرف مكان جماعتك، وأريدكم أن تعرفوا مكان جماعتي. هذه بادرة حسن نية وصداقة. عندما تعودين، أريدك أن تخبريهم أن فلاج لا ينتوي سوءًا، وأن جماعة فلاج لا تنتوي سوءًا. اطلبي منهم ألا يرسلوا جواسيس آخرين إلى هنا، وإن أرادوا إرسال أحد، فليكن هذا في بعثة دبلوماسية.. أو تبادل طلابي.. أو أي شيء لعين واضح. هلا أبلغتهم هذه الرسالة؟

غمغمت: «بالتأكيد. سأبلغهم.. لكن...».

- هذا هو كل شيء.

رفع كفيه الخاويتين مرة أخرى، فلمحت شيئًا. مالت للتحقق منه. سألتها: «إلام تنظرين؟».

- لا شيء.

لكنها رأت شيئًا، وعرفت هذا من تعبير وجهه الذي تغير ثواني. لا خطوط أو تجاعيد على راحتي فلاج، بل هما مفرودتان تمامًا كجلد بطن رضيع بلا خط عمر ولا خط حب ولا دوائر ولا أي شيء.

تبادلنا النظرات وقتًا طويلًا جدًا، ثم نهض فلاج واقفًا واتجه إلى المكتب، وقامت داينا. كانت قد بدأت تصدق أنه ستركها ترحل فعليًا. جلس على طرف المكتب وقرب جهاز الإنترنت من فمه وقال: «سأطلب من لويد صيانة سريعة لدراجتك البخارية، وسأطلب منه ملأها بالوقود. لم يعد شح الوقود مصدرًا للقلق. أتذكر أيامًا -ربما تتذكرينها أنت أيضًا- عندما كان العالم مستعدًا للتراشق بالقنابل النووية صراعًا على الوقود. البشر حمقى جدًا.. جدًا...».

ضغط زر الإنترنت وقال: «لويد».

- أنا هنا.

- هلا ملأت دراجة داينا بالوقود وجلبتها إلى هنا أسفل الفندق؟ سترحل.

- نعم.

قال لها فلاج: «حسنًا. هذا هو كل شيء يا عزيزتي».

- هل يمكن أن.. أرحل؟

- أجل يا سيدتي. سررتُ لمقابلتك.

وأشار إلى الباب بكف مقلوبة إلى أسفل. مشّت نحو المخرج، وقبل أن تمس المقبض، قال: «شيء آخر.. شيء صغير آخر...».

التفتت دايانا نحوه فرأته يبتسم لها ابتسامة ودّ، وللحظة رأته على هيئة كلب دروايس لسانه يتدلى من بين أنيابه، يستعد لتمزيق أحشائها لو فكَّ عقاله.

- ماذا؟

- يوجد هنا شخص آخر من جماعتك. مَنْ قد يكون؟

- كيف لي أن أعرف؟!

ومض اسم توم كولين في عقلها.. هل هو حقًا مَنْ رأته؟

- بريك يا عزيزتي. لقد ظننتُ أننا على وفاق الآن.

- لقد كنتُ صادقة معكَ حتى النهاية. أرسلتني اللجنة وأرسلت القاضي وربما أرسلت آخرين.. لكنهم لم يخبروني بأسمائهم كي لا نخبركم بها لو... حدث شيء.

- لو انتزعنا أظفاركم مثلًا؟

- حسنًا.. نعم. لقد أخبرتني سوزان ستيرن باختيارهم إياي. لاري أندروُد، هو أيضًا من اللجنة...

- أعرف من يكون لاري أندروُد.

- نعم.. هو مَنْ أخبر القاضي فاريس باختيارهم إياه. لكنني لا أستطيع تخمين اسم أي شخص آخر.. كل ما خمنته هو أن كل واحد من أعضاء اللجنة السبعة سيرشح جاسوسًا.

- نعم، ربما، لكنّ هذا لم يحدث. يوجد هنا شخص واحد فقط، وأنّ تعرفين مَنْ يكون.

اتسعت ابتسامته حتى أفزعها. هذا ليس شخصًا طبيعيًا. ذكّرُها مرّاه بالأسماك الميتة، بالأنهار الملوثة، بسطح القمر المقفر. كرر: «أنتِ تعرفين».

- لا، أنا...

قال فلاج خلال الإنتركم: «هل غادر لويد بعد؟».

- لا. أنا هنا.

- انتظر قليلاً في ما يخص دراجة داينا. لدينا بعض الأمور لنناقشها...

ونظر إليها نظرة ذات مغزى.

- حسناً.

أغلق الجهاز وظل ينظر إليها وقتاً طويلاً. تعرّقت داينا وغاصت أكثر في عينيه الداكنتين العميقتين العميقتين. هذه المرة لم تستطع الفكك منهما. قال برفق: «أخبريني. لا داعي إلى إعادة الشك بيننا».

سمعت من بعيد صوتها يقول: «كل هذا كان مُعداً من قبل. أليس كذلك؟ مسرحية من فصل واحد».

- لا أفهم ما تقصدين يا عزيزتي.

- أنت تفهم. لقد كشفك رد لويد سريعاً. عندما تنطق بأمر يُهرعون لتنفيذه، والمفترض أن يكون لويد الآن يزود دراجتي بالوقود. الحقيقة أنك أخبرته من قبل ألا يفعل شيئاً لأنك لا تنتوي أن تتركني أرحل.

- أنت تعانين حالة ارتياب خطيرة يا عزيزتي. أعتقد أن هذا أصابك من خبرتك مع أولئك الرجل، أصحاب حديقة الحيوان المتنقلة. أتفهم ما مررت به، لكننا لسنا مثلهم، أليس كذلك؟

تخور قواها الآن كأن الجاذبية تجذبها إلى الأرض خلال ساقها. بآخر قوة متبقية لديها، كوّرت قبضتها وضربت ما فوق عينها اليمنى. شعرت بألم شديد في مجتمتها وزاغ بصرها، ثم ارتطمت بالباب. حالما فعلت هذا شعرت بتركيزها يعود تدريجياً.

قالت في وهن: «أوه، كم أنت بارع».

- أنت تعرفين من يكون.

قام عن مكتبه ومشى نحوها وهو يكمل: «أنت تعرفين أنك ستخبريني. لكم رأسك لن يفيدك».

صاحت فيه: «كيف لا تعرف؟ قد عرفت بأمر القاضي وبأمرى! كيف لا تعرف...».

نزلت يداها على كتفيها بقوة شديدة، وسألها: «من؟».



- لا أعرف.

هزّها كأنها دمية قماشية، وجهه باسم قاس رهيب. يداه برادتان ووجهه يشع بالحرارة كصحراء.

- أنت تعرفين. أخبريني. مَنْ؟

- لماذا لا تعرف؟

هدر: «لأنني لا أراه!».

رماها خلال الغرفة فسقطت متكومة كأنها بلا عظام. عندما رأت وجهه يطل عليها ككشاف، انفلت البول من مثانتها. زال قناع العقلانية والمنطق، زال راندال فلاج، وهي الآن في حضرة الماشي، الطويل، الرجل الكبير، ولكنّ الرب في عونها.

- ستخبريني. ستخبريني بكل ما أرغب في معرفته.

قامت ببطاء وهي تحقق إليه.. تشعر بثقل السكين حول عضدها.

- سأخبرك.. اقترب...

اقترب خطوة.

- لا، اقترب أكثر. أريد أن أهمس باسمه في أذنك.

اقترب أكثر. شعرت بحرارة جسده وبرودته في آن. شمّت رائحة العطن والتحلل، رائحة الجنون التي تشبه رائحة الخضراوات المتعفنة في قبو رطب.

همست: «اقترب...».

اقترب خطوة أخرى، فلوّت رسغها بقوة وسمعت صوت النصل يقفز إلى الخارج. صرخت وهمت بيدها نحو بطنه، تنوي بقرها وإخراج أمعائه. إلا أنه هدر ضاحكًا رافعًا رأسه إلى أعلى.

- آه، هذا مضحك!

نظرت في غباء إلى يدها، فرأتها تمسك موزة صفراء. رمتها على البساط في زعر حيث تحولت الموزة إلى ابتسامة تحاكي ابتسامة فلاج.

همس: «ستخبريني. أوه، حقًا وبالتأكيد ستخبريني».

أيقنت دأينا أنه مُحق.

استدارت دايئا بسرعة حتى إن الرجل الغامض نفسه لم يستطع سوى أن يمسك بطرف بلوزتها، وانطلق نحو النافذة. صاح: «لا!»، وشعرت به يلحق بها كريح حالكة.

قفزت لتضرب الزجاج برأسها أولاً، سمعت صوت تهشم ورأت شظايا زجاج تهوي من أعلى إلى باحة انتظار سيارات الموظفين بالأسفل. دفعها زخم القفزة إلى منتصف الطريق بين الغرفة والهواء خارجها، وتناثرت دماؤها. شعرت بكفيه على كتفيها، وتساءلت عن الوقت الذي سيحتاج إليه لإرغامها على الاعتراف. ساعة؟ ساعتان؟ ربما هي تموت الآن، لكن هذا ليس كافياً.

لقد رأيتُ توم، وأنت لم تره ولم تشعر به لأنه مُختلف، لأنه...
جرَّها فلاج إلى الخلف.

قتلتُ نفسها ببساطة إذ لفتَّ رأسها بقوة إلى اليمين، فانغرستُ في حلقتها شظية زجاج حادة كالمُوسَى، ورشقتُ أخرى في عينها اليمنى. تصلَّب جسدها لحظةً وضربت يديها الزجاج، ثم ارتخى. ما جرَّه الرجل الغامض إلى المكتب ليس إلا جوالاً نازِفاً.
لقد رحلتُ منتصرةً.

ركلها فلاج بكل ما اعتمل فيه من غضب، زاده ارتخاء جثتها. ظل يركلها خلال أرجاء الغرفة وهو يجأ ويخور. انطلق الشرر من شعره كأن في مكان ما بداخله مُعجَّل ذري يحوِّله إلى بطارية، تألَّقت عيناه بنيران سوداء. جأ ركل، وركل وجأ...

امتقعَّت وجوه لويده والآخرين بالخارج وتبادلوا النظرات، ثم ما عادوا قادرين على التحمل. ابتعدتُ جيني وويتني وكين وعلى وجوههم الشاحبة نظرة مَنْ لم يسمع شيئاً.

مكث لويده، لا لأنه يريد ذلك، بل لأن هذا هو المتوقع منه. أخيراً استدعاه فلاج.

كان جالساً فوق المكتب متربّعاً في وضعية زهرة اللوتس، ويحدق إلى الفراغ وراء كتف لويده. شعر الأخير بتيار هواء، ورأى النافذة مهشمة من

منتصفها، وشظايا الزجاج حول الفتحة ملوثة بالدماء. على الأرض بشري مكوّم ملفوف في قطعة نسيج.

قال فلاج: «تخلص من هذا».

قال لويد بصوت مبحوح هامس: «حسنًا. هل آخذ الرأس؟».

- خذ كل شيء إلى شرق المدينة وأغرقه بالوقود واحرقه. هل تسمعني؟
احرقه! احرق الشيء اللعين!

- كما تأمر.

ابتسم فلاج في خبث وقال: «نعم...».

ارتجف لويد وجفّ حلقه وكان يئنُّ رعبًا وهو ينحني ليحمل الشيء. الجانب السفلي منه دبق، انزلق الشيء منه إلى الأرض مرة أخرى. نظر في رعب إلى فلاج، فوجده شاردًا بعد. أمسكه جيدًا هذه المرة وحمله مترنحًا نحو الباب.

- لويد؟

التفتَ لويد نحوه. كان جالسًا في وضعية اللوتس، لكنه يطفو على ارتفاع عشر بوصات من سطح المكتب وهو ينظر خلال الغرفة في شروء.

- م... م... ماذا؟

- هل المفتاح الذي أعطيتك إياه في فوينكس معك؟

- نعم.

- أبقيه بالقرب منك. اقترب الوقت.

- حسنًا... حسنًا.

ظل واقفًا مكانه، ولم يتكلم فلاج مرة أخرى، وظل معلقًا كما هو. غادر لويد سريعًا وهو مسرور لقراره بحياته وعقله.

كان ذلك اليوم هادئًا في فيجاس.

تسارعت الرياح حتى عصفتُ وصفرتُ بين المباني، وأرجحت النخيل الجاف المحتضر. احتشدتِ السحب غريبة الشكل فوق الرؤوس.

جلس ويتني هورجان وكين ديموت في المشرب، يأكلان شطائر سلطة البيض ويشربان البيرة، فيما يلعب الطفل ديني بدمى جنود على منضدة قريبة. قال كين: «انظر إلى ذلك الصغير. لو طلب مني أحد أن أراعه ساعة لطلبتُ أن أراعه أسبوعًا. كنتُ سأتمنى أن يكون ابني. ولدْتُ لي زوجتي طفلًا لكنه وُلدَ ناقص النمو مات في الحضّانة بعد ثلاثة أيام».

التفت نحو لويد الذي دخل إلى المشرب. هتف: «مرحبًا يا ديني...».

صاح ديني: «يُويِد! يُويِد!»، وراح يقفز وهو يجري نحوه. حمله لويد ودار به دورة ثم عانقه. سأله: «لديك قُبلة للويِد؟».

قُبَله ديني قبلة كالفرقة. أخرج لويد قبضةً شوكولاتة هيرشي كيسيز من جيبه وقال: «لدي شيء لك».

صاح ديني فرحًا وأخذها منه. سأله الطفل: «يُويِد.. لماذا رائحتك مثل رائحة البنزين؟».

ابتسم لويد وأجابه: «كنت أحرق زُبالة يا حبيبي. اذهب وأكمل لعبك. من أمك الآن؟».

أجاب: «أنجلينا» ونَطَقها أنجلينا. «ثم بوني. أنا أحب بوني، لكني أحب أنجلينا أيضًا».

- لا تخبرها أن لويد أعطاك حلوى، ستصفق أنجلينا ردفي لويد.

وعده ديني ألا يخبرها وابتعد هو يقهقه لتخيله ردفي لويد يُصفقان. جاء ويتني مرتديًا مريولته البيضاء، يحمل للويِد شطيرتين وزجاجة بيرة باردة. قال له لويد: «شكرًا. تبدو الشطائر شهية».

قال ويتني في فخر: «هذا خبز سوري صنعته بيدي».

أكل لويد بضع قضمات، ثم سأل أخيرًا: «ألم يَره أحد؟».

هز كين رأسه وأجاب: «أعتقد أنه رحل مرة أخرى».

شرد لويد في العاصفة الرملية الهائلة بالخارج. رفع ديني رأسه في قلق لحظة ثم عاد للعب. قال لويد: «أعتقد أنه هنا في مكان ما بالقرب، يتحيّن حدوث شيء معين لا أعرفه».

قال ويتني بصوت هامس: «هل تعتقد أنه حصل منها على ما يريد؟».

- لا. لقد أخفق بشكل ما... كانتُ محظوظة؛ ماتتُ قبل أن... لا يحدث هذا كثيرًا.

غمغم كين مهمومًا: «لا يهم هذا على المدى البعيد».

قال لويد: «نعم. ربما عاد إلى لوس أنجليس».

بدا على لويد أنه غير مقتنع بما قال. جلب ويتني زجاجات بيرة أخرى، وجلسوا يشربون ويفكرون. لقد فرَّ القاضي والفتاة من يديه دون أن يعرف منهما شيئًا، وتشوّه كلاهما على عكس ما أمر به. هذا صعب التصديق.. ومرعب.

وعوّت الريح بالخارج طوال الليل.

الفصل الثالث والستون

في ما بعد ظهيرة يوم العاشر من سبتمبر، كان ديني يلعب في حديقة المدينة الصغيرة شمال منطقة النوادي والفنادق. جلست أنجلينا؛ أمه هذا الأسبوع، على مقعد تتحدث مع فتاة وصلت إلى لاس فيجاس منذ خمسة أسابيع، بعد عشرة أيام تقريباً من وصول أنجي نفسها.

أنجي هيرشفيلد في السابعة والعشرين، والفتاة أصغر منها بعشر سنوات، ترتدي ملابس ضيقة فاضحة تتناقض مع ملامحها الطفولية. ثرثرت الفتاة ثرثرة فردية بلا توقف عن كل شيء؛ نجوم الروك، الجنس، وظيفتها في تنظيف الأسلحة في إنديان سبرينجز، الجنس، خاتمها الماسي، الجنس، المسلسلات التي تفتقدها بقوة، الجنس.

تمنّت أنجي لو تجد من يضاجعها كي تتركها لحالها. رفع ديني رأسه هاتفاً في فرح: «توم! يا توم!».

على الجهة المقابلة من الحديقة رجل ضخم ذو شعر أشقر باهت يسير حاملاً علبة غداء يؤرجحها باستمرار فترطم بفخذه. قالت الفتاة لأنجي: «يبدو هذا الرجل ثملاً».

- لا. إنه توم، وهو...

انطلق ديني نحو توم مهللاً في مرح، فالتفت توم نحوه وهتف: «ديني! أهلاً أهلاً!».

قفز ديني بين ذراعي توم، فترك الأخير علبة الغداء ولفّ ذراعيه حوله. صاح ديني: «طائرة يا توم! احملني كالطائرة!».

أمسك توم خصر ديني ورفعاه وراح يدور وأسرع فارثع ذراعا الطفل وساقاه في الهواء وصرخ في سعادة. بعد دورتين أو ثلاث أنزله توم برفق.

ترنح ديني للحظات وهو يحاول استعادة توازنه، وسرعان ما عاد يصيح:
«مرة ثانية! مرة ثانية!».

- لا. سأتقيأ لو فعلتُ ذلك. وعلى توم أن يعود إلى بيته. رباه! نعم!

- أوكاي يا توم. سلام!

قالت أنجي: «أعتقد أن ديني يحب لويد هينريد وتوم كولين أكثر من أي مخلوق آخر في البلدة. عقل توم كولين بسيط، لكن...».

قطعت حديثها إذ لاحظت شرود الفتاة في توم. سألت: «هل جاء مع رجل آخر؟».

- مَنْ؟ توم؟ لا.. جاء وحده منذ أسبوع ونصف. كان يعيش مع الآخرين في المنطقة الحرة، لكنهم طردوه. خسارتهم مكسبنا.. هذا رأيي.

- لم يأتِ بصحبة أخرس أصم؟

- لا. أنا متأكدة من أنه جاء وحده. ديني يحبه.

شردت الفتاة وهي تتذكر زجاجة بيبتيو بيسمول، ورسالة مكتوب فيها:
نحن لا نحتاج إليك. كان هذا في كانساس منذ ألف عام. لقد أطلقت النار
عليهما، وتمنّت لو تقتلتهما، خاصة الأخرس.

- هل أنت بخير يا چولي؟

لم تجب چولي لوري. ظلت تحديق إلى توم كولين هنيهة ثم ابتسمت.

الفصل الرابع والستون

فتح المُحتَضِر دفتره وغطاء قلمه، وتوقف لحظةً، ثم بدأ يكتب. غريب هذا؛ كيف كان القلم في الماضي يسوّد الصفحة تلو الأخرى بسلاسة، أما الآن فالكتابة عسيرة بطيئة، والأحرف كبيرة مهتزة الخطوط، كأنه عاد طفلاً يتعلم من جديد.

وقتها كان أبواه يُجَبَّانُه بعد، ولم تكن أمي قد أِينَعْتُ ومستقبله كَسَمِين أوجونكويت والشاذ المحتمل لم يُقَرَّر بعد. تذكر كيف كان يجلس إلى منضدة المطبخ، ينسخ أحد كتب توم سويفت كلمة بكلمة، وكوب كولا إلى جواره. يسمع صوت أمه من بعيد تتكلم خلال الهاتف.

إنها مجرد دهون طفولة، هكذا قال الطبيب. غده سليمة، الشكر للرب، بل هو زكي أيضاً!

يراقب الكلمات تتكون حرفاً حرفاً. يراقب العبارات تتكون جُملة جُملة. يُراقب تراص الفقرات، كل واحدة حجر في حائط من حوائط حصن اللغة.

قال توم مُجَبَّراً: «ستكون هذه أعظم ابتكاراتي. راقب ما سيحدث عندما أجذب الشريحة، لكنْ بربك لا تنس أن تحمي عينيك!».

أحجار اللغة.. أوراقها، أبوابها المفقودة. كلمات، عوالم. سحر. الحياة والخلود. القوة.

لا أعرف من أين حصل عليها يا ريتا، ربما من جده. كان كاهناً، وقيل إنه يكتب أفضل المواعظ..

يراقب تحوّل الكلمات بمرور الوقت. يراقبها إذ تتصل ببعضها. ولّى عصر الطباعة وعاد عصر الكتابة. تنسيق الأفكار والحبكات. هذا هو العالم رغم كل شيء؛ لا شيء سوى أفكار وحبكات.

حصل على آلة كتابة (وقت ازدهرت أخته وحصل على كل المحبة والاستحسان) وساعدته كثيرًا. بدأ التغيير بطيئًا، وأخطاء الكتابة المستمرة أثارت حنقه في البداية، كأن الآلة تعارض مشيئته، تتحدها. بيد أنه اعتادها، وأدرك أنها أداة سحرية توصل ما بين عقله والورق. وقت انتشار الوباء، كان قادرًا على كتابة مائة كلمة في الدقيقة، وصار في وسعه مواكبة تلاحق أفكاره وفيضها. لم يتخلَّ عن الكتابة اليدوية بالكامل، فقد كُتبت روائع الروايات مثل موبى دك والحرف القرمزي، والفردوس المفقود يدويًا.

أتقن طريقة الكتابة التي رأتها فراني في سجله -بلا تقسيم فقرات ولا فواصل- خلال سنوات من المِران. طريقة مرهقة تؤلم الأصابع والأعين، لكنها بالنسبة إليه تعبير عن محبته للكتابة. استخدم آلة الكتابة طواعية، واستخدمها كثيرًا، لكنه ظل يحتفظ بأفضل ما قد يكتب للكتابة اليدوية.

وها هو الآن يكتب آخر كلماته يدويًا. نظر إلى أعلى، ورأى النسور تحوُّم ببطء. لو كان سيكتب المشهد في رواية لكتب: رأى هارولد النسور تحوُّم وتدور في السماء، نظر إليها بهدوء لحظةً، ثم انحنى يكمل كتابة يومياته مرة أخرى.

وانحنى يكمل كتابة يومياته مرة أخرى.

اضطُرَّ إلى الكتابة بتلك الأحرف المرتعشة التي لا يستطيع الكتابة بأفضل منها الآن. ظل يتذكر المطبخ وكتب توم سويفت والكولا. فكر الآن (ثم كتب) أنه استطاع أخيرًا أن يجعل والديه فخورين به. لقد فقد دهونه، ورغم أنه ما زال بكبرًا، فإنه أثبت أنه ليس شاذًا. قال بصوت متحشرج: «أنا فوق كلمة العالم يا ماما».

نظر إلى ما كتب، ثم إلى ساقه الملوية المكسورة. مكسورة؟ هذه كلمة رقيقة. إنها مهشمة. ظل جالسًا في ظل تلك الصخرة خمسة أيام، وكان سيموت من العطش منذ يومين أو ثلاثة لولا المطر. ساقه تعفنت وفاحت رائحتها واخضرَّ لحمها.

رحلت نادين منذ زمن.

التقط هارولد المسدس وتفقَّد الرصاصات. تحقق منها أكثر من مائة مرة اليوم. حاول أن يحافظ على جفاف المسدس في أثناء فترة المطر. لم يعد فيه

سوى ثلاث رصاصات بعدما أطلق أول اثنين على نادين عندما قالت له إنها ستكمل طريقها من دونه.

كانا على بعد سبعين ميلاً من حدود يوتاه، يدوران من منعطف حاد، نادين عند الجهة المنعطف الداخلية وهارولد عند الطرف الخارجي على ظهر دراجته البخارية. ثم ظهرت بقعة زيت من اللامكان في طريقه، وهو أمر يكاد يكون مستحيلاً وقد صارت كل الطرقات مهجورة. انزلقت دراجته وارتمت على جانب الطريق، كأن عيناً حمراء كانت تتحين الفرصة المناسبة حتى تتخلص منه بعدما أدى الغرض من وجوده.

انحرف خارج الطريق، وهوت الدراجة فوقه مرات، سمع صوت عظامه تتهشم، صرخ، طار في الهواء، ثم هبط وتدحرج حتى ارتطم بشجرة عتيقة. لولاها لظل يتدحرج حتى سفح الجبل.

كتب في يومياته بخط طفولي كبير: أنا لا ألوم نادين. هذا حقيقي، إلا أنه لامها وقتها.

مصدوم، مرتعب، مجروح، متألّم، جر نفسه قليلاً إلى أعلى المنحدر. رأى نادين تطل عليه من خلف سور الطرق القصير، وجهها أبيض صغير كوجه الدمية. ناداها: «نادين! الحبل! في حقيبة الدراجة!».

نظرت إليه فقط حتى ظنها لم تسمعه، كاد يكرر نداءه لولا أن هزت رأسها ببطء إلى اليمين ثم إلى اليسار ثم إلى اليمين مرة أخرى.

«نادين! لا يمكنني الصعود دون حبل! ساقى مكسورة!».

لم تُجب، ولم تهز رأسها حتى. شعر كأنه في حفرة عميقة وهي تطل عليه من ثقب ضيق.

«نادين! ارمي الحبل!».

كررت هزة رأسها البطيئة مجدداً، كأنها تغلق باب مقبرة على رجل لم يُمِت بعد.

«نادين! بريك!».

أخيراً وصل إليه صوتها الخافت المسموع وسط صمت الجبال: «كل هذا مُدبّر يا هارولد. يجب أن أرحل. أنا آسفة».

بيد أنها لم تتحرك، وظلت تراقبه من خلف السور، من على ارتفاع مائتي قدم والذباب يحتشد حول دمه. زحف هارولد إلى أعلى وهو يجر ساقه المهشمة. في البداية لم يشعر بغضب ولا رغبة في قتلها. كان يريد أن يقترب أكثر فقط ليرى تعبير وجهها.

كان الوقت بعد الظهيرة بقليل، والجو حارًا. تعرّق وقطر العرق من وجهه على الأحجار التي يزحف فوقها. ظل يجر جسده مستندًا إلى مرفقيه، يدفعه بساق واحدة سليمة كأنه حشرة نصف ميتة. لم يذكر مرور الوقت، وفي عدة مرات ارتطمت ساقه المهشمة بأحجار ناتئة، ففقد الوعي من الألم. أدرك أخيرًا أنه لن يستطيع الزحف أكثر؛ مرت أكثر من عشر ساعات، وتغيّرت زوايا ميل الظلال. ظن أن نادين رحلت منذ زمن، لكنها ظلت مكانها، ورغم أنه لم يزحف أكثر من خمس وعشرين قدمًا، اتضح له تعبير وجهها الحزين.. بيد أن عينيها كانتا شاردتين.

عيناها معه..

هنا كرهها، فمد يده إلى المسدس المعلق في جرابه حول كتفه، وقوَّس جسده كي لا ترى ما يفعل.

- نادين...

- هذا أفضل يا هارولد. أفضل بالنسبة إليك، لأن طريقته في العقاب ستكون أسوأ بكثير. لن ترغب في مواجهته يا هارولد. هو يرى أن مَنْ يَخُنُ قريبًا، فسيخون الفريق الآخر. سوف يقتلك بعد أن يُفقد عقلك. لقد ترك لي الاختيار، إما أن تموت بهذه الطريقة.. أو بطريقته. اخترتُ هذا. يمكنك أن تنهي عذابك إن كنت شجاعًا بما يكفي. أنت تعرف ما أعنيه.

تحقق من الرصاصات في مسدسه وهو يخفيه خلف مرفقه المسحوج. قال: «ماذا عنك؟ ألسنتُ خائنة؟».

أجابت في حزن: «لم أخنه قط. قلبي لم يخنه».

- قلبك هو المكان الوحيد الذي خنته فيه.

حاول أن يبدو طبيعيًا وهو يحسب المسافة بينهما. لديه فرصتان فقط على أقصى تقدير. أكمل: «أنا أو من بأنه يعرف ذلك أيضًا».

- إنه يحتاج إليّ. وأنا أحتاج إليه. أنت لم تكن ضمن المعادلة قط يا هارولد. لم سمحتُ لك باستكمال الطريق معي، ربما... ربما أسمح لك بفعل هذا الشيء الصغير الذي لم نفعله معًا، وكان هذا سيُدَمِّر كل شيء. لا يمكن أن أغامر بعد كل هذه التضحيات والدماء والحقارة. نحن بعنا روحينا معًا يا هارولد، لكنني واعي بما يكفي لأطالب بباقي قيمة روحي».

- سأمنحك قيمة روحك.

استطاع هارولد أن يقف على ركبتيه. شعر بدوار عنيف وخُيِّل إليه أنه يسمع أصواتًا تهدُّر مُحتجَّة. ضغط الزناد وصدح صوت الرصاصة، وارتد السلاح فتدحرج إلى الخلف. فكر هارولد في انتصار ثَمَل: إنها لم تتصور أن أكون بهذه الشجاعة. انفتح فمها واتسعت عيناها دهشة. كانت اللحظة حُلوة، استمتع بها إلى درجة أنه لم يدرك أن الرصاصة أخطأتها. عندما أدرك هذا أخيرًا، تحامل على نفسه ليثبت جسده ويطلق مرة أخرى.

- هارولد! لا! لا يمكن أن تفعل ذلك!

أي شيء لا يمكنني فعله؟ ضغط زناد؟ طبعًا أستطيع.

أعجزتها الصدمة عن الحركة. صوّب مرة أخرى، ورأى الفوهة تشير إلى عنقها بالضبط. رآها ميتة في عينيه أولاً. حالما همَّ بضغط الزناد حدث شيئان؛ انزلق العرق إلى عينيه فزاغ بصره، وبدأ جسده في الانزلاق إلى أسفل فوق الحصى المتدحرج. رغم منطقية انزلاقه، فإنه شعر كأن دُفِع، وظل ذلك الخاطر يلزمه في كل الليالي التي تلت ذلك.

ظل واعيًا طوال النهار، وفي الليل يستحوذ عليه يقين بأن الرجل الغامض هو مَنْ دفعه.

وبدلاً من أن تصيب الرصاصة عنقها الجميل، تدحرج هو إلى الخلف ليرتطم بالشجرة مرة أخرى ويفقد الوعي.

قضى أول ليلة يهلوس بشأن صعوده إلى الطريق، وبشأن موته بالأسفل. في الصباح حاول أن يزحف لكنَّ الألم أعجزه. كرر المحاولة في السابعة صباحًا، في الوقت الذي تغادر فيه حافلة لجنة الدفن محطة بولدر، واستطاع أن يقبض بيده المجروحة الملتهبة على سور الطريق في الخامسة مساءً.

أخرج من حقيبته المُعلقة على الدراجة البخارية وأكل محتوى علبة لحم محفوظ بيديه. كان طعمها بشعًا، وفي النهاية تقيأها.

وعى أخيرًا إلى حتمية موته، فرقد قرب الدراجة وبكى وساقه المهشمة تحته، بعدها نام قليلًا. أغرقه سيل أمطار في اليوم التالي، تركه مبتلًا مرتجفًا. فاحت رائحة قدمه وأخفقت محاولاته لوقايتها من البلل. في المساء بدأ يكتب واكتشف أن كتابته تدهورت.

كتب:

أتساءل، هل ماتوا جميعًا؟ كل أعضاء اللجنة؟ إن كان هذا ما حدث، فأنا آسف، لكن كنت مُخدوعًا. هذا عذر أكثر قُبْحًا من ذنبي، لكنني أقسم إن هذا هو العذر الحقيقي الوحيد. الرجل الغامض حقيقي كما كان الوباء حقيقيًا، وكما هي القنابل النووية المكنونة بعد في مخابئها. وعندما تأتي نهايتي رهيبَةً كما يؤمن كل الرجال الصالحين، لن أقول إلا شيئًا واحدًا أمام أولئك الصالحين وأمام عرش الدينونة: لقد كنت مُخدوعًا.

قرأ هارولد ما كتبه ومسح حاجبيه بيده المرتجفة. لو قرأ أحد هذه الفقرة بعدما قرأ سجله لجزم بأنه منافق. لقد كان يرى نفسه ملك الفوضى، إلا أن الرجل الغامض رأى حقيقته، وقرر أن نهايته ستكون على شكل كيس عظام نتن مرتجف.

لقد وقع ضحية شهرته. هذا هو الأمر ببساطة لقد سممته رؤاه المميّنة. شعر وهو يُحتَضَر بأنه قد استعاد بعض العقلانية والكرامة. قال لنفسه بهدوء: «كنت سأصير شخصًا ذا قيمة في بولدر». لولا الجفاف والإرهاق لبكى. نظر إلى الصفحات ثم إلى المسدس. رغب فجأة في إنهاء كل شيء، وحاول أن يفكر في طريقة بسيطة سريعة لإنهاء حياته، بيد أنه شعر بضرورة مُلحة لتدوين كل شيء وتركه لمن يعثر عليه بعد عام أو عشرة.

أمسك القلم وكتب:

أعتذر عن التدمير الذي تسببت فيه، ولا أنكر أنني
ارتكبته بإرادتي الحرة. في أيام دراستي، كنتُ أمهرُ أبحائي
بتوقيعي؛ هارولد إيمري لودر، وختمتُ كل أعمالِي
الأدبية البائسة بالتوقيع ذاته. بل إنني كتبتُ اسمي على
سقف حظيرة بحروف بطول ثلاثِ أقدام.
أريد الآن أن أوقع على هذه اليوميات باسم مُنِحتُ
إياه في بولدر. لم أقبَله وقتها، لكنني أقبَله الآن.
سأَموت وأنا في كامل عقلي.

في نهاية الصفحة كتب بخط نضيد: الصقر.

وضع الدفتر في حقيبته وأغلق القلم ووضعهُ في جيبه، ثم دس فوهة
المسدس في فمه ونظر إلى السماء الزرقاء. تذكر لعبة كانوا يلعبونها وهم
أطفال. كانوا يقفون على حافة حفرة رمليّة عميقة ويقفزون. لعبة تحدُّ
لم يجرؤ هارولد على لعبها، ولهذا سخر منه أقرانه. كان يقف عند الحافة
ويهتف: واحد.. اثنان.. ثلاثة.. ولا تعمل التعويذة السحرية فتتحرك ساقاه
ليقفز. يتصلب مكانه وهو يتلقى الكلمات الساخرة التي تتبعه بعد ذلك إلى
أي مكان يقصده. قال لنفسه الآن: لو أنني كنتُ قد أجبرت نفسي على القفز
مرة.. مرة واحدة.. لما كنت هنا الآن. حسناً، المرة الأخيرة تُجزِي عن المرات
السابقة...

واحد.. اثنان.. ثلاثة...

وضغط الزناد.

وانطلقت الرصاصة.

لقد قفز هارولد أخيراً...

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل الخامس والستون

اشتعلت نار صغيرة في غابات بلدة إيمجرانت قالى شمال لاس فيجاس. جلس راندال فلاج إلى جوارها يشوي أرنبًا، يلفه ببطء ويراقب دهنه وهو يقطر في النار. يحمل النسيم الرائحة إلى الصحراء، فجاءت الذئاب وجلست قرب النار، تعوي تحت القمر شبه المتكمل. بين حين وآخر ينظر إلى مجموعة منها، فتتصارع حتى يموت الأضعف منها، ويعوي من تبقى أمام وجه القمر الأحمر.

لكن الذئاب تثير ضجره الآن.

كان يرتدي سرواله الجينز المعتاد وينتعل حذاء رعاة البقر المترب، تداعب الريح ياقة قميصه.

لا يروق له مجرى الأحداث.

تحمل الريح نذر شؤم، وترفرف أشرطة الشر كالوطايط فوق أسقف الحظائر المهجورة. لقد ظن في البداية أن موت العجوز أمر حسن، فهو يخشاها رغم كل شيء. لقد ماتت، وأخبر داينا أنها ماتت في غيبوبة.. لكن هل هذا ما حدث؟ لم يعد متأكدًا.

هل تكلمت قبل موتها؟ لو حدث هذا، فماذا قالت؟

ما خطتهم؟

تطورت لديه حاسة عين ثالثة، لم يفهمها لكنه تقبّلها كما تقبّل قدرته على الارتفاع عن الأرض. يستطيع إرسال تلك العين لترى بعيدًا، إلا أن العين تعمى أحيانًا بلا سبب. لقد رأى فراش موت العجوز ورأهم يتحلقون حولها.. ثم تراجع الرؤية ووجد نفسه في الصحراء مدثرًا في كيس نومه، ينظر فلا يرى

شيئاً سوى مجموعة نجوم كاسيوبيا. يسمع صوتاً داخله يهمس: لقد رحلت.
لقد انتظروا أن تتكلم، لكنها لم ولن تفعل.

إلا أنه لم يعد يثق بهذا الصوت.

ثم جاء أمر الجواسيس. القاضي برأسه المنفجر، والفتاة التي خدعته في آخر لحظة. اللعنة، لقد كانت تعرف!

سدّ نظرة حانقة إلى الذئاب، فهاجم ستة منهم بعضَهم، ومزقت أصوات
لهائهم وصراهم سكون الليل.

لقد عرف بأمر الجواسيس إلا الثالث.. مَنْ يكون؟ أرسل عينه الثالثة مراراً،
ولم تُجبه إلا بصورة القمر الغبي. ق-م- ر... هذا هو تهجي كلمة قمر.
مَنْ الثالث؟

كيف فرّت الفتاة من براثنه؟ لقد فاجأته ولم تترك له إلا خرقه من بلوزتها.
لقد عرف بأمر السكين، مجرد لعبة أطفال، لكنه لم يتوقّع قط القفزة،
وانتحارها بتلك الطريقة ودون لحظة تردد.

طاردت أفكاره بعضها كبناات عرس في الظلام.

الأمور تتدهور، ولا يروق له هذا.

لودر مثلاً...

لقد كان ينفذ الأوامر بحرفية كأنه آلي. اذهب إلى هنا، اذهب إلى هناك،
افعل كذا، افعل كيت.. لكنّ الديناميت لم يحصد سوى روحين فقط من السبعة.
بعد كل ذلك التخطيط والجهد، أفسدت زنجية مسنة كل شيء بعودتها. ثم كاد
هارولد يقتل نادين! ما زال يشعر بدفقة غضب كلما تذكر هذا. تلك العاهرة
الغبية ظلت واقفة هناك كأنما تمنحه فرصة أخرى. كأنها تريد أن تُقتل. مَنْ
سَيُنهي كل هذا لو ماتت نادين؟

مَنْ، لو لم يكن ابنه؟

طُهي الأرنب، فوضعه في طبقه المعدني.

- هيا يا رفاق البحرية الحمقى.. كلوا!

اتسعت ابتسامته. هل التحق بالبحرية من قبل؟ ربما. تذكر شخصاً اسمه
بو دينكوي، ذا إعاقة.. لقد...

لقد ماذا؟

حدّق فلاج إلى شؤايتها المرتجلة. هل ضربوا بو؟ هل خنقوه بشكل ما؟ إنه يتذكر شيئاً عن البنزين...

كاد يطوّح الأرنب إلى النار. المفترض أن يتذكر هذا! سحقاً!

إنه يفقد ذاته. كان يستطيع من قبل تذكر الستينيات والسبعينيات والثمانينيات كأنه ينظر إلى أسفل درج يؤدي إلى غرفة مظلمة. هو الآن لا يتذكر إلا الأحداث بعد الإنفلونزا الفائقة. ما قبلها ضباب، لا ينزاح إلا للحظات ليكشف عن لمحة من ذكرى أو شيء غامض (بو دينكواي.. إن كان من شخص بهذا الاسم) ثم يعود ليخفي كل شيء.

أول حدث يتذكره بوضوح الآن هو المشي نحو الجنوب على طريق US 51، متجهاً إلى مدينة ماونتِن، حيث منزل كيت براندنتِن.

يتذكر ولادته. ولادته مرة أخرى.

لم يعد رجلاً، هذا إن كان رجلاً منذ البداية. إنه بصلة تتقشر ببطء لتكشف عن طبقة تلو الأخرى، إلا أن ما يتقشر عنه هو جلد الإنسانية؛ الذكريات، الإرادة الحرة، رد الفعل الطبيعي...

بدأ يلتهم الأرنب.

كان متأكداً من أنه استطاع الهرب في كل مرة تتدهور فيها الأمور. لكن هذه المرة لا يستطيع. هذا مكانه، وهذا زمنه، وسيصمد هنا. لا يهم أكان غير قادر بعد على كشف الجاسوس الثالث، ولا خروج هارولد عن السيطرة ومحاولته قتل العروس المختارة، أم ابنه.

في مكان ما من الصحراء، يبحث رجل صفيحة الزُبالة عن أسلحة تُنهي خطر المنطقة الحرة إلى الأبد. لسبب ما لا تستطيع عينه مراقبة الزُبال، وظن أنه غريب فعلاً، ربما أكثر غرابة منه. إنه كلب بوليسي بشري يشم رائحة الكوردايت والنبالم والجليجنايت.

خلال شهر أو أقل ستطير طائرات الحرس الوطني محمّلة بصواريخ شرايك تحت أجنحتها. وحالما يتأكد من وصول العروس، سيأمرهم بالتوجه إلى الشرق.

نظر نظرة حاملة إلى القمر وابتسم.

الاحتمال الأخير أنه سيرى، لكن في الوقت المناسب. سيذهب إلى هناك على هيئة غراب أو ذئب أو حشرة.. ربما سرعوف أو شيء صغير بما يكفي لتسلل خلال فتحات التهوية.

المكان تحت الأرض، في كاليفورنيا وراء الحدود مباشرة. هناك صفوف وصفوف من الدوارق التي تحمل أسماء تعريفية مثل: الكوليرا الفائقة، الجمرة الخبيثة الفائقة، نوع جديد مطور من الطاعون الدبلي، وكلها مصنوعة بناء على المُستضد المتحور الذي جعل الإنفلونزا الفائقة وباءً مميتاً.

ماذا عن بعض مما في تلك الدوارق في ماء المنطقة الحرة؟

ماذا عن رشّة جوية؟

بعض داء الفيالقة هدية الكريسماس، أم تفضل نوعاً أفضل من إنفلونزا الخنازير؟

راندال فلاج، سانتا الخبيث على زلاجة الحرس الوطني، يحمل فيروساً صغيراً يُلقّيه في كل مدفأة.

سينتظر، وسيعرف الوقت المناسب عندما يلوح.

شيء سيخبره.

كل شيء سيكون بخير. لا داعي إلى الهرب هذه المرة. إنه يعتلي القمة وسيظل هناك.

أنهى التهام الأرنب وامتلأ بطنه بالطعام الساخن، فعاد إلى نفسه مرة أخرى. قام وألقى ما في طبقه من عظام إلى الليل، فتكالبّت الذئاب عليه. أطلق راندال فلاج ضحكة هادرة نحو القمر.

غادرت نادين بلدة جلينديل في الصباح الباكر، وانطلقت على دراجتها البخارية على طريق 15 - I. شعرها الأبيض غير المربوط يرفرف خلفها كأنه طرحة عروس.

شعرت بالأسف تجاه دراجتها التي عانت الحرارة والمسافة ووعورة الطريق وقلة الصيانة. المحرك يلفظ أنفاسه الأخيرة. لا يهم. لو تعطلت الدراجة قبل أن تصل ستمشي، ولو مشت سيعرف سيرسل إليها أحداً.

لقد أطلق هارولد الرصاص عليها! لقد حاول أن يقتلها!

ظل عقلها يعيدها إلى تلك اللحظة مهما حاولت الابتعاد عنها. المفترض ألا تؤول الأمور إلى هذا. لقد زار راندال فلاج أحلامها ليلة الانفجار وأخبرها أنك سيترك هارولد معها حتى قرب يوتاه، ثم سيتخلص منه في حادث سريع بلا ألم. لكنَّ الحادث لم يكن سريعًا وبلا ألم. لقد كاد هارولد يقتلها. مرت الرصاصة على مسافة بوصة من خدها، ومع ذلك عجزت عن الحركة وهي تتساءل كيف استطاع أن يفعل هذا؟ كيف سُمح له بأن يفعله؟

حاولت أن تقنع نفسها أنها طريقة فلاج في تذكيرها بأنه هو من يتولى القيادة وأنها ملكه، لكنَّ هذا لا يُعقل! هذا جنون! مهما حاولت إقناع نفسها، ظل صوتها الداخلي يخبرها أن إطلاق النار لم يكن من مخططات فلاج. إنها حيّة لأن المصادفة أنقذتها لا أكثر.

كذّبت صوتها الداخلي؛ فلاج يعرف كل شيء، يعرف أين سقط أصغر عصفور...

لا، بل هذا هو الرب، وهو ليس الرب. أنت حيّة لأن الرصاصة أخطأتك فقط، أنت لا تدينين له بشيء، يمكنك العودة إلى حيث جئت لو أردت.

تعود؟ هذه مُزحة. إلى أين ستعود؟

لم يكن للصوت الداخلي قول في هذا. لو أن الرجل الغامض مجرد خدعة، فقد اكتشفت هذا بعد فوات الأوان.

حاولت أن تصب تركيزها على محيطها، لكنَّ الصوت ظل يهمس: إن كان لا يعرف أن هارولد سيحاول ردَّ اللطمة له من خلالك، فما الذي لا يعرفه أيضًا؟

لكنَّ يا إلهي، لقد فات الأوان حقًا. لماذا انتظر صوتها الداخلي حتى ضاعت فرصة التراجع؟ صمت الصوت، وكبتت حزنها بداخلها، وركّزت على الطريق المؤدي إلى لاس فيجاس.. إليه.

ماتت الدراجة البخارية عند الظهيرة. تحشرج صوت المخرج وشمت رائحة احتراق غريبة كأنه مطاط ساخن.

ماتت الدراجة كما ماتت أشياء كثيرة صادفتها وهي في طريقها إلى زوجها. لقد قتلتها كما قتلت كل أعضاء اللجنة وضيوهم، ثم قتلت هارولد، و قتلت قبل هؤلاء جنين فراني جولد سميث.

شعرتُ بالاشمئزاز والغثيان. شعرتُ بالمرض والحمى.

تقيأتُ غداءها. مسحتُ فمها بظهر كفها، ثم بدأتُ تمشي. كانت قد جاوزت دراي ليك، ما يعني أنها ستنام على الطريق الليلة ما لم يأت أحد. لو كانت محظوظة كفاية فستصل إلى فيجاس غداً. أدركتُ فجأةً أن الرجل الغامض قد يدعها تمشي، وستصل إليه جائعة ظمآنة وسط قيظ الصحراء، وكل ذرة من حياتها القديمة قد تبخرت من عقلها. ستتبخّر المرأة التي علمت الصغار في مدرسة نيو إنجلاند الخاصة. آخر ما سيفنى منها صوتها الداخلي الذي يرشدها ويقلق بشأنها. لكنه سيزول في النهاية على أي حال.

مشتُ، وارتفعتِ الشمس أكثر في السماء. قطر العرق من وجهها على صدرها، وتماوَج الطريق أمامها حيث يلتقي الأفق. خلعتُ بلوزتها وأكلمتُ طريقها بصدريتها البيضاء القطنية. هل ستقلق بصدد حروق الشمس؟ حقاً؟ تحولتُ بشرتها إلى اللون الأحمر مع الغروب، وباغتتها برد الليل فارتعدتُ وتذكرتُ أنها تركتُ عتاد التخيم على الدراجة.

نظرتُ حولها لتجد سيارات متناثرة نصف مدفونة في الرمال. فكرة النوم في واحد من تلك القبور فكرة مخيفة. فضلتُ المشي طَوَالَ الليل على المبيت في واحدة من تلك السيارات. لو كانت في الغرب الأوسط بعد لوجدت حظيرة أو كومة قش أو حقلَ برسيم؛ مكاناً نظيفاً ناعماً. هنا لا شيء سوى الطريق والرمل والصحراء.

أزاحت شعرها عن وجهها، وتمنّت لو أنها ماتت.

الشمس الآن خلف الأفق، واليوم معلق بين النور والظلام. اشتدت الرياح أكثر...

الجو أبرد مما تصوّرتُ.

صارتِ التلال أشباحاً سوداء، والتَّبابُ أمواجَ بحر حالك الظلام. حتى الصبار بدا كأصابع جثث ناتئة من الأرض.

خطرَتْ لها عبارة من أغنية لبوب ديلان، عبارة مزعجة باردة: ممسوس كتمساح، ممزق وسط الذرة...

ثم عبارة من أغنية أخرى لفريق إيجلز أرعبتها: أريد أن أنام معك في الصحراء الليلة.. حولنا ملايين النجوم...

وأدركتُ فجأةً أنه هنا.

عرفتُ حتى قبل أن يتكلم.

جاءها صوته من الظلام، ملتقًا بالرعب: «نادين.. نادين، نادين.. كم أحب أن أحب نادين...».

استدارت فرأته، لطالما عرفت أنه سيكون بهذه البساطة. كان متربعا على مقدمة سيارة شيفروليه (هل كانت هنا منذ لحظات؟ لا.. في الغالب لا) ويده مبسوطتين على ركبتيه. نظر إليها مبتسما، وعينه أبعد ما تكون عن اللطف. هذا الرجل أبعد ما يكون عن اللطف.

قالت: «مرحبًا.. أنا هنا».

- نعم. أخيرًا أنتِ هنا. كما وُعدتُ.

اتسعت ابتسامته وهو يمد يديه إليها. اقتربتُ وشعرتُ بحرارة جسده اللاحبة. لفَّ كفيه الناعمتين حول كفيها.. ثم قبض عليهما.

- أوه.. نادين.

ثم مال يُقبِّلها. أمالت رأسها قليلاً ونظرت إلى النجوم، فقَبَّلَ أسفل فكِّها، لا شفتيها. لم يُخدع.. اتسعت ابتسامته تهكمًا.

إنه يستفزني...

وما الاستفزاز إلا قشرة تغطي شيئاً أسوأ، شبق متراكم طال كبته، دُمِلَ قديم كَوْنِ رأساً أخيراً ولا يحتاج سوى ضغطة لينفتح وينبثق منه الصديد. انزلقت يده إلى نهاية ظهرها، ملتهبة أكثر من حروق الشمس ذاتها. استيقظ شعورها أخيراً بجسدها، يطالب بحقه في الارتواء بعد طول انتظار.

قالت له: «أخبرني شيئاً...».

- أي شيء...

- قلتُ إنني موعودة لك. من وعدني لك؟ لماذا اختارني أنا؟ وبِمَ أدعوك؟ لقد عرفتُ كثيرًا عنك طوال حياتي، ولم أعرف اسمك.

- ناديني ريتشارد. هذا هو اسمي الحقيقي.

سألته في شك: «أهذا اسمك الحقيقي؟ ريتشارد؟». ضحك ووجهه مدفون في عنقها، فاقشعر جسدها بالرغبة والشهوة.

- مَنْ وعدك بي؟

- لقد نسيْتُ يا نادين.. تعالي...

نزل من فوق مقدمة السيارة وهو يمسك يديها. كادت تسحبهما من قبضتيه وتفر.. لكن ما فائدة هذا؟ سيطاردها، سيلحق بها، سيغتصبها.
قال: «القمر.. مكتمل، وكذلك أنا...».

سحب يدها ووضعها على مقدمة سرواله. خلف القماش ما يضح بالحياة، بحياة مستقلة خاصة به.

غمغمت: «لا...»، وحاولت التملص منه. قرَّبها أكثر وقال: «تعالى إلى الصحراء كوني زوجتي».

- لا!

- فات أوان الرفض يا حبيبتي.

ذهبت معه إلى حيث فراش تخيم، ونار خامدة تحت عظام القمر البضاء.
قال وهو يدفعها برفق لتتمدد على الأرض: «لا بأس...»، وفك حزامه وزرَّ سرواله ثم السَّحَاب. عندما رأت ما كان يخبئه لها صرخت.
اتسعت ابتسامة الرجل الغامض لصرختها، ابتسامة عريضة لامعة فاضحة.

ظلت نادين تصرخ بلا توقف وحاولت الزحف إلى الخلف. قبض على ساقيها فضمَّتهما بكل قوتها. دس إحدى يديه بينهما، فقالت لنفسها: سأنظر إلى أعلى.. سأنظر إلى القمر.. لن أشعر بشيء، وسرعان ما سينتهي كل هذا.. لن أشعر بشيء...

انزلق الشيء البارد إلى داخلها، فصرخت حتى تمزقت حنجرتها. ركلت وتملصت بلا طائل. اقتحمها، غزاها، تدفقت الدماء من بين فخذيهما. القمر يملأ عينيها الشاخصتين. ملأ رحمها بحديد مصهور، فصرخت نشوة.. صرخت خوفاً.. صرخت ذعراً.. عبرت من بوابات الجنون الصحراوية، قُذِفَتْ إليها، نُفِخت نحوها كأنها ورقة شجر بلا حول. وهنا في أرض الجنون رأت وجهه يذوب، ويظهر من تحته وجه شيطان بعينين صفراوين متوهجتين كمصباحين، كنافذتين إلى جحيم لم تخطر على عقل بشر. ما زال فيهما المرح القديم وما رآه من طول مراقبة آلاف المدن المظلمة.

ضاجعها مرة أخرى وأخرى، وبدا كأنه لن يفرغ. إنه بارد.. ميت بارد. أزلي من قبل البشر ومن قبل الأرض. مرة أخرى يملأها بذرية الليل، يصرخ

ضاحكًا، فتمحو رياح الظلام صرخاتها وتحملها إلى جوف الدُّجى، إلى حيث
آلاف الأسلحة تنتظر مالکها الجديد.

رأسه رأس شيطان زنيم، يخرج من بين شفتيه لسان طويل مشقوق.
أنفاسه نتنة تلفح.

إنها في أرض الجنون الآن، وقد انغلقت البوابة خلفها...
القمر...!

القمر يكاد يغرب.

اصطاد أرنبًا آخر بيديه العاريتين وكسر عنقه. أضرم نارًا جديدة فوق
رماد القديمة، وشوى الحيوان الصغير. لا ذئاب الليلة، فهي ليلة زفافه،
والشيء الخدر المُهمل خلف النيران عروسه.

مال نحوها ورفع يدها إلى مستوى شفتيها ثم تركها فضلت معلقة هناك.
تفحصت هذه الظاهرة الغريبة للحظات، ثم أنزلت يدها، فتلوت أصابعها
كأنها ثعابين. مس عينيها بإصبعين، فلم ترمش.

تعجّب.. ماذا فعل بها؟

إنه لا يتذكر.

لا يهم. هي حبلى الآن، ولا مشكلة إن كانت قد تخشبت لسبب أو لآخر.
سوف تحمل ابنه وتلد ثم تموت وقد أدّت الغرض منها. هذا هو سبب وجودها
على أي حال.

قسّم الأرنب المطهو إلى نصفين، ومزق النصف الخاص بها إلى قطع
صغيرة كأنه سيُطعم طفلًا. دس في فمها قطعة قطعة، فسقطت أغلب القطع
إلى جِبرها نصف ممضوغة. لو ظلت على هذه الحال فسيحتاج إلى ممرضة.
چيني إنجستروم ستقي بالغرض.

قال برقة: «كان هذا رائعًا يا حبيبتي». نظرت إلى القمر نظرة خاوية،
فابتسم لها وأكل عشاء زفافه.

المُعاشرة الجيدة تجعله يشعر بالجوع.

استيقظ في نهاية الليل وجلس على فراش التخميم مذعورًا حائرًا كحيوان مفترس يحسب أنه مُطارَد.

هل كان هذا حلمًا؟ رؤيا؟

إنهم قادمون.

حاول أن يفهم معنى هذا الخاطر أو يضعه في سياق، فلم يستطع.

إنهم أقرب الآن.

مَن؟ مَن الذي يقترب؟

حملتُ إليه رياح الليل رائحة.. أحدهم قادم و...

أحدهم يرحل...

لقد مرَّ أحد بمخيمه وهو نائم واتجه إلى الشرق. الثالث الذي لا يراه؟ لا يعرف.. إنها ليلة اكتمال القمر. هل فرَّ الثالث؟ أصابه الخاطر بالذعر..

نعم، لكن مَن القادم؟!

نظر إلى نادين النائمة في وضع جنيني، وضع ابنه ذاته في رحمها بعد بعض أشهر من الآن.

بضعة أشهر؟

مرة أخرى يشعر أن الأمور تتدهور وتخرج عن السيطرة. رقد مرة أخرى وقد أيقن أنه لن ينام، لكنه نام. في اليوم التالي قاد سيارته عودة إلى فيجاس وعادت إليه ابتسامته ونسي ذعره تمامًا. جلسَ نادين إلى جواره كأنه دمية كبير تخفي بذرة في بطنها.

عاد إلى الفندق وهناك عرف ما حدث وهو نائم. رأى في أعينهم نظرة حذرة متسائلة، وشعر بالخوف يتحسسه مرة أخرى.

الفصل السادس والستون

في الوقت الذي بدأت فيه نادين كروس تكتشف بعض الحقائق التي أثبتت نفسها، كان لويد هينريد جالساً وحده في المشرب يلعب لعبة سوليتير ويغش فيها. أعصابه مشدودة بعد انفجار بخار مادة شديدة الاشتعال في إنديان سبرينجز ووفاة شخص واحد وإصابة ثلاثة سيموت واحد منهم بسبب إصابته القوية، وليس من أحد في فيجاس قادر على علاج هذه الحروق.

جلب له كارل هيو الأنباء، وكان شديد الحنق. عمل كارل طياراً على خطوط طيران أوزارك قبل الوباء، وانضم من قبل إلى البحرية، ويستطيع قصم لويد إلى نصفين بيد واحدة إن أراد. حكى من قبل أنه قتل الكثيرين خلال سنوات عمله السابقة، ومال لويد إلى تصديقه. لم يكن الأخير يخشاه رغم ضخامته، لأن لويد يرتدي قلادة فلاج، لكنه يحترمه ويعامله بحرص لأنه واحد من طياري الرجل الكبير. لويد دبلوماسي بطبعه، وقد قضى أسابيع مع مجنون يدعى بوك فريمان وعاش ليحكي ما حدث، وقضى أيضاً شهراً مع راندال فلاج، وما زال يتنفس ويحتفظ بعقله.

جاءه كارل في يوم الثاني عشر من سبتمبر، في الثانية ظهراً، يحمل خوزة دراجته تحت ذراعه، وخده الأيسر محترق. لقد انفجرت شاحنة وقود ونثرت البترول المحترق في الأرجاء.

قال له لويد: «حسنًا. سأخبر الرجل الكبير. هل نقلتم المصابين إلى المشفى؟».

- نعم. لا أظن فريدي كامباناري سينجو. لن يتبقى طيارون سواي أنا وأندي. أخبره بهذا، وأخبره بأمر آخر عندما يعود: أريد أن يرحل ذلك المدعو صفيحة الزُبالة. هذا هو ثمن بقائي.

تفرّس لويد وجه كارل وقال: «حقاً؟».

- لقد أخبرتك.

- أنا أيضاً سأخبرك بشيء يا كارل. لا يمكن أن أكرر هذه الرسالة. إن كنت تريد أن تأمره بشيء، فافعل هذا بنفسك.

بدا كارل حائراً خائفاً قليلاً. قال بوجه ممتقع: «آه، أفهم وجهة نظرك. أنا فقط مرهق يا لويد. وهمي يؤلمني ولم أقصد أن أخرج همي فيك».

- لا تهتم يا رجل. أنا هنا من أجل ذلك.

تمنى لو لم يكن هنا حقاً. قال كارل: «لكن يجب أن يرحل حتى لو سأضطر إلى إخباره بذلك. أعرف أن معه واحدة من تلك الأحجار السوداء وأنه من المقربين، لكن اسمع...».

جلس كارل ووضع خوذته على منضدة قمار وأكمل: «الزبال هو المسؤول عن ذلك الحريق. يا للمسيح، كيف سنطير تلك الطائرات إن كان أحد رجال الرجل الكبير يحرق الطيارين؟».

نظر بعض المارة في قاعة الاستقبال نحو لويد وكارل.

- اخفض صوتك يا كارل.

- حسناً. لكن هل ترى المشكلة؟

- هل أنت متأكد من أن الزبال هو الفاعل؟

- اسمع.. كان في مجمع السيارات وظل هناك مدة طويلة. لقد رآه الكثير غيري.

- كنت أظنه في الصحراء.. يبحث عن أشياء.. أنت تفهم.

- لقد عاد محملاً بالأسلحة، يعلم الرب من أين يحصل عليها. المهم.. أخذ الرجال في أثناء استراحة القهوة ليعرض عليهم حمولته. أنت تعرف أن الأسلحة بالنسبة إليه كالحلوى بالنسبة إلى طفل.

- أعرف.

- آخر ما عرضه علينا أجهزة إحراقية، تجذب صمامها فينبعث منها الفسفور. لا يحدث شيء لساعة مثلاً أو أربعين دقيقة، ثم فجأة تشتعل النيران القوية.

- حسناً.

- لقد عرض علينا الزبَّال الأمر، فقال فريدي كامباناري: من يلهو بالنار يبلل فراشه يا زبَّال. وقال ستيث توبين.. أنت تعرف كم يحب المزاح: أطفئوا أعواد ثقابكم يا رجال، لقد عاد الزبال إلى البلدة. فجأة تغيرت تصرفات صفيحة الزُّبالة، وظل ينظر حوله ويغمغم. كنت جالسًا بالقرب منه، فسمعتة يهمس: لا يسألني أحد عمَّ فعلته بالسيدة سيمبل. هل تفهم شيئًا؟

هز لويد رأسه نفيًا. هو لا يفهم أي شيء ذي صلة برجل صفيحة الزُّبالة.
- المهم.. رحل.. أخذ تلك الأشياء التي عرضها علينا ورحل. أغلب الرجال يحبونه، أو كانوا يحبونه. هو أقرب إلى طفل.
أوما لويد.

- بعد ساعة انفجرتُ شاحنة الوقود كالصاروخ، وبينما نجتمع نحن هناك، رأيتُ الزبَّال في شاحنته يراقبنا بالمنظار المقرب.
- أهذا كل ما رأيتُ؟

- لا. إن كان الأمر كذلك فقط ما جئتُ لأخبرك يا لويد. كنت أفكر كيف انفجرتِ الشاحنة. هذه هي وظيفة الأجهزة الإحراقية. لقد رأيتُ هذا في قيتنام. ضع الجهاز أسفل الشاحنة أو في ماسورة العادم، وما لم يدر أحد محركها، فستنفجر حسب المؤقت، ولو أدار أحد المحرك فستسخن وتنفجر أيضًا! الشيء الوحيد الذي لا يتناسب مع هذا الاستنتاج هو أنه لدينا ستة شاحنات وقود ولا نستخدمها بترتيب محدد. بعدما نقلنا المسكين فريدي إلى المشفى عدتُ مع چون ويت المسؤول عن مجمع السيارات إلى هناك. قال لي إنه رأى الزبَّال هناك.

- هل هو واثق من أنه صفيحة الزُّبالة؟
- لا يمكن أن يخطئه أحد مع ذلك الحرق الضخم الذي يغطي ذراعه. لم نفكر في الأمر وقتها، قلنا إنه كان يتحقق من الأمر لا أكثر.
- أعتقد أن هذا تفسير معقول.

- لذا بدأنا أنا وچون نتحقق من شاحنات الوقود، ووجدنا جهازًا مماثلًا في كل واحدة منها داخل مواسير العادم وأسفل خزانات الوقود. سبب انفجار الشاحنة التي استخدمناها أولًا هو ارتفاع درجة حرارة ماسورة العادم كما شرحتُ لك من قبل. حسنًا؟ كانت الأخريات ستنفجر تبعًا

على أي حال، وقد تصاعد الدخان فعلاً من اثنين أو ثلاث منها. لو
تأخرنا عشر دقائق أخرى لفقدنا نصف القاعدة.

فكّر لويد في جزع: يا يسوع! هذا مرّوع!

رفع كارل يديه المسلوعة وقال: «قد أصبت بهذا وأنا أنتزع جهازًا منهم.
هل فهمت الآن لماذا أصر على رحيله؟».

تردّد لويد هنيهة قبل أن يقول: «ربما سرق أحد تلك المفجّرات ودسّها».

قال كارل في صبر: «ليس هذا ما حدث. لقد جرح أحد إحساسه فيما
يتباهى بألعابه فقرر أن يحرقنا جميعًا وكاد ينجح. لا بدّ أن نفعل شيئًا يا
لويد».

- حسنًا يا كارل.

قضى لويد باقي اليوم يسأل عن الزبّال ويتقصى عن تحركاته، وانتشر
الأمر بين الرجال، فصار على كل من رآه يفعل شيئًا مريبًا أن يُبلغ على الفور،
على أمل أن يحصل المبلغ على رضا الرجل الكبير. حدس لويد أنه لن يجده
أحد، فلا بدّ أنه فر إلى الصحراء.

لا يهم. لو أراد الرجل الكبير أن يعثر عليه لفعل، وسينتهي به المطاف
مصلوبًا مثل هيكتور دورجان.

إلا أن تساؤلًا سرّيًا ظل يعتمل في قلبه.

أمور كثيرة خرجت عن السيطرة مؤخرًا. دأينا على سبيل المثال، لقد
كشف فلاج أمرها حقًا، لكنها لم تتكلم وبشكل ما هربت منه إلى حتفها قبل
تخبره شيئًا عن الجاسوس الثالث.

بمناسبة الجاسوس الثالث، كيف لم يعرفه فلاج؟ لقد عرف بأمر الشيخ
ودأينا وأخبرهم بخطته للتعامل معهما.

والآن، رجل صفيحة الزبالة.

لم يكن الزبّال شخصًا عاديًا. ربما كان كذلك في الأيام الخالية، لكنه الآن
يعلق حجر الرجل المتشح بالسواد حول عنقه مثله. بعدما أجهز فلاج على
المحامي، رآه لويد يضع كفيه على كتفي الزبّال ويخبره أن الأحلام كانت
حقيقة، فهمس الزبّال: «حياتي ملك لك».

لا يعرف لويد ما دار بينهما بعد ذلك، لكنه بالتأكيد يجول في الصحراء بمباركة فلاج.. والآن خرج الزبال عن السيطرة.
مما يزيد تساؤلاته.

لذا جلس لويد هنا وحده، يغش في لعب الورق ويتمنى لو يثمل.

- سيد هينريد؟

ماذا الآن؟ رفع رأسه ليرى فتاة جميلة ترتدي شورطا ضيقا أبيض وصدرية لا تغطي أغلب صدرها. بدت عصبية شاحبة، تقرض أظفارها القصيرة المشرشرة.

- ماذا؟

- يجب.. أن أقابل السيد فلاج.

- حقًا تريدان؟ ماذا تظنينني؟ سكرتيرته؟

- لكنهم.. قالوا لي.. أن.. أخبرك..

- من قال لك؟

- أنجي هيرشفيلد. هي من أخبرتني، نعم.

- ما اسمك؟

- چولي...

قهقهت بلا سبب ولم تغادر النظرة المذعورة عينيها. فكر لويد في نوعية الخراء الذي تستعد لنثره على وجهه الآن. لن تطالب فتاة كهذه بمقابلة فلاج إلا لو كانت تحمل مصيبة.

- اسمي چولي لوري.

- حسنًا يا چولي لوري. فلاج ليس في لاس فيجاس الآن.

- متى سيعود؟

- لا أعرف. إنه يرحل ويعود، وليس معه جهاز استدعاء، ولا يفسر غيابه لأحد. إن كنت تريدان الإبلاغ عن شيء أبلغيني وسأنقل إليه الرسالة لاحقًا.

نظرت إليه في شك، ثم قالت: «حسنًا. إن كان الأمر مهمًا، فأخبره أنني أنا من أبلغتك».

- قولِي.
- لن تنسى؟
- لن أنسى بحق المسيح! ماذا لديك؟!
- قالت عابسة: «لست مضطراً إلى أن تعاملني هكذا...».
- رمى أوراق اللعب على المنضدة وزفر ثم قال: «أخبريني ما الأمر».
- لو أن ذلك الآخرس هنا، فهو جاسوس. يجب أن تعرف هذا. لقد هددني الداعر بمسدس.
- أي أخرس؟
- أنا رأيت المتخلف، فقلت إن الآخرس لا بُدَّ معه. إنهما ليسا من نوعنا، وأعتقد أنهما جاءا من الجانب الآخر.
- هذا ما تعتقدين، هه؟
- نعم.
- لا أعرف عمَّ تتحدثين. كان اليوم طويلاً وأنا مُرهق. لو لم تتكلمي بكلام مفهوم يا چولي، فاذهبي إلى فراشك.
- جلستُ چولي ووضعتُ ساقاً فوق الأخرى، وحكتُ للويد عن لقاءها بِنك أندروز وتوم كولين في كانساس. سألتها لويد بعدما انتهت من حكايتها: «وماذا تُثبت حكايتك هذه؟».
- عبستُ مرة أخرى وقالت: «لقد أخبرتك. ذلك العبيط جاسوس».
- تقولين إن اسمه توم كولين؟
- نعم.
- تذكّر بشكل ضبابي شيئاً عن شاب ضخم أشقر، عقله ليس على ما يرام، ولم يتذكر المزيد يتوافد الناس بالعشرات والمئات يومياً، وصار تذكر الجميع مستحيلاً. ربما سيسأل بول بورلسن الذي يحتفظ بدفاتر بيانات المهاجرين. سألته چولي: «هل ستعتقله؟».
- سأعتقلك ما لم تغربي عن وجهي الآن.
- صاحت: «رجل لطيف داعر أنت!».

قامتُ وحدجته بنظرة مجنونة وهي تكمل: «لقد حاولتُ أن أسدي إليك معروفًا!».

- سوف أنظر في الأمر.

رحلت وهي تضرب الأرض محتجة فيتأرجح ردفها. راقبها لويد وهو يتساءل أكان العالم يعج بعد بتلك الكتاكيت الحسنات. لكنْ عليه الحذر من أمثالها، لقد مرَّ شهران ولم تنسَ ما فعله معها الأخرس. ماذا قالت اسمه؟ أندروز؟

أخرج مفكرته التي يدون فيها كل ما يرغب في تذكره لاحقًا. كتب بخطه الطفولي: نك أندروز. أخرس. في البلدة؟ توم كولين، اسأل بول. ثم أعاد المفكرة إلى جيبه. على بعد أربعين ميلًا شمالًا، اقترن الرجل الغامض بوليفته نادين كروس تحت نجوم الصحراء المتلألئة. كان سيهتم كثيرًا لمعرفة أن صديقًا لنك أندروز في ثيجاس.

إلا أنه نام.

حدَّق لويد إلى أوراق اللعب ونسي أمر چولي لوري وضغينتها المكنونة وردفها المشدودين، وعاد ليفكر في الزبَّال وما قد يقوله فلاج -أو ما لا يقوله- متى يخبره لويد.

في الوقت الذي غادرت فيه چولي لوري المشرب في الفندق، وقد شعرت أنها أدت واجبها الوطني، كان توم كولين واقفًا خلف نافذة كبيرة في مكان آخر من المدينة، ينظر حاليًا إلى القمر.

حان وقت الرحيل.

حان وقت العودة.

شقيقته ليست كمنزله في بولدر. هذا المكان مؤثث لا مُزَيَّن. لم يفعلْ أي شيء ليزينه، فهذا مكان مؤقت وقد حان وقت الرحيل، وهو سعيد لذلك. لطالما كره هذه المدينة ورائحة الجفاف والعفن التي تعجز عن تحديد مصدرها. أغلب الناس هنا لُطفاء، قد أحبوه كما يحبه الناس في بولدر، ولم يسخر منه أحد. على حد علمه، هم لا يختلفون عن أهل بولدر...

لكنْ لهم تلك الرائحة...

كلهم ينظرون ويراقبون. أحيانًا يتصلَّبون ويحدقون إلى الأفق، كأنهم يحلمون بالحلم ذاته معًا. يفعلون أشياء لا يسألون عن سبب فعلهم إياها ولا عن أهميتها. يبدو له كأنهم يرتدون أقنعة السعادة، ويخفون تحتها وجوههم الحقيقية الوحشية. لقد شاهد فيلمًا مربعًا ذات مرة عن مخلوق يسمونه المستذئب.

القمر يطل على الصحراء، كاملاً عاليًا حُرًا.

لقد رأى داينا من المنطقة الحرة. رآها مرة ولم يرها مجددًا. ماذا حدث لها؟ هل كانت تتجسس أيضًا؟ هل عادت؟ هو لا يعرف، لكنه خائف.

على المقعد الوثير خلفه حقيبة قماشية تحوي طعامًا محفوظًا انتقاه وحفظه فيها.

سافر ليلاً ونم نهارًا.

نزل على مدخل البناية دون أن ينظر ورائه. القمر ينير الأرصفة والسيارات المصطفة التي تحمل لوحات أرقام من خارج الولاية.

نظر إلى الجرم اللامع في السماء وقال: «ق- م- ر.. هذا هو تهجي كلمة قمر. رباه، نعم. توم كولين يعرف معنى هذا».

ركب دراجته وبحلول الحادية عشرة مساء كان قد غادر فيجاس إلى الشرق. لم يره أحد، ولم تنطلق أجراس الإنذار.

انطلق إلى الطريق السريع، ودار من حول كتبان الرمال الزاحفة من الصحراء عليه، وسار بين السيارات التي تسد الطرق بعد ذلك.

توقف في الثانية صباحًا وأكل بعض أصابع اللحم المجفف والبسكويت، ثم أكمل سفره.

في الرابعة من صباح الثالث عشر من سبتمبر تملك منه الخوف. كان سيصرخ لولا أن تجمدت أحباله الصوتية، وارتخت عضلات ساقه على البدلين.

إنه قريب...

الرجل بلا وجه، الشيطان الذي يجوب الأرض.

فلاج. الطويل الذي يسميه توم الباسم. عندما تقع عليك ابتسامته يتجمد الدم في جسدك. رباه.. إنه مُتَيْقِظٌ...

يشعر الآن ببقظته المفاجئة، يكاد يرى العين الحمراء تنفتح في الظلام، تدور، تحقق، تبحث عنه. هو يعرف أن توم كولين هنا، لكن لا يعرف مكانه بدقة.

تمالك نفسه ودفع ساقيه للتبديل أسرع. انحنى على المقود كي لا يقاوم جسده الريح. لو صادف سيارة في طريقه لرشق فيها وقتل نفسه.

تدريجياً شعر بابتعاد الظلام والخوف وراءه. أغرب ما في الأمر أنه مر بالعين الحمراء المتفحصة ولم تره (ربما لأنني منحن على المقود؟!).. ثم انغلقت مرة أخرى.

لقد نام المُتَشَحَّح بالسواد.

بماذا يشعر الأرنب عندما يسقط عليه ظل الصقر كصليب.. ثم يمر به دون أن يقتنصه؟ ربما لا يشعر بشيء، ربما يشعرون بما شعر به توم كولين وهو يبتعد عن الظلام؛ شعور بالراحة العظمى، كأنه وُلِدَ من جديد.

بدّل حتى الخامسة صباحاً. تتلون السماء أمامه بالأزرق الداكن المشوب بحمرة الشروق.

أصاب التعب توم كولين، فتوقف على جانب الطريق وجرّ دراجته غريزياً إلى وسط الحشائش فغطاها بها، ثم زحف إلى ما تحت صخرتين مائلتين، وطوى سترته تحت رأسه ونام على الفور.

الفصل السابع والستون

ثم عاد الماشي إلى قيجاس.

رآه لويد يصل في التاسعة والنصف صباحًا، ورآه فلاج لكن لم يُبدِ ذلك؛ كان يقود امرأة خلال بهو الفندق. استدارت الرؤوس تنظر إليها رغم خشيتهم من النظر إلى فلاج. شعر المرأة أبيض، مصابة بحروق شمس ذُكِّرت لويد بالحروق التي أصابت الرجال في إنديان سبرينجز، عيناها خاويتان تنظران إلى العالم بلا أي تعبير. رأى لويد الملامح ذاتها بعدما أجهز فلاج على المحامي إيّاه.

ابتسم فلاج ولم ينظر إلى أحد. قاد المرأة إلى المصعد، وصعد به إلى الطابق العلوي.

شُغل لويد طوال الساعات الست التالية في ترتيب كل شيء، كي يكون مستعدًا لأسئلة فلاج. لم يتبقَّ له إلا التأكد من وجود شخص باسم توم كولين هنا في حال كانت چولي لوري مُحقة. لا يعتقد لويد أنها مُحقة في شيء، لكن الأفضل أن يتأكد.

رفع سماعة الهاتف وانتظر في صبر حتى توصله عاملة تحويل المكالمات ببول. بعد ضجيج وصفير وتكتكة وهسيس سمع صوتًا يجيبه، فطلب منه أن يتحدث إلى بول. سمع المزيد من الصياح والنداء حتى أوصلوه ببول، فسأله عن توم كولين.

- نعم.. توم كولين. عمره بين الثانية والعشرين والخامسة والثلاثين، يعاني تأخرًا عقليًا بسيطًا، ولديه مهارة جيدة في العمل اليدوي، فشغلناه ضمن طاقم النظافة.

- كم له هنا؟

- أقل من ثلاثة أسابيع.

- من كلورادو؟

- نعم. لدينا عشرات الأشخاص من هناك ولا تروق لهم الأوضاع. لقد طردوا ذلك الشاب لأنه كان على علاقة بامرأة طبيعية وخشوا على ذريتهما من التخلف العقلي.

- معك عنوانه؟

أعطاه بول العنوان، ثم سأله لويد: «أريد التحقق من اسم آخر. نك أندروز». أجاب الرجل على الفور: «الاسم مسجل في القائمة الحمراء».

لا يعرف لويد ما القائمة الحمراء، لكنه سأله: «من أعطاك هذا الاسم؟».

- من تظنه؟ الشخص ذاته الذي أملى عليّ كل الأسماء في القائمة الحمراء. - أوه، حسناً.

أغلق الخط، فالأحاديث المطولة صعبة مع تدهور حالة خطوط الهاتف ولدى لويد الكثير ليفكر فيه.

القائمة الحمراء.

الأسماء التي أملاها فلاج لبول حصرياً.. يبدو أن بول كان يظن أن لويد يعرف بها. القائمة الحمراء.. اللون الأحمر في إشارة المرور يعني توقف.

اللون الأحمر يعني الخطر.

رفع لويد سماعة الهاتف مرة أخرى، وسأل عمّن يتولى الحراسة، وطلب توصيله به. بعد دقيقة أجاب باري دورجان الذي أحبه لويد لأنه رجل صالح، فأغلب من تولى إدارة الشرطة من أمثال بوك فريمان.

قال لويد: «أريدك أن تأتي لي بشخص.. أتني به حياً اسمه توم كولين وستجده في الغالب في بيته».

أعطاه العنوان، فسأله باري: «ما مدى أهميته يا لويد؟».

- مهم للغاية. أحضره حياً وسيسعد من هو أهم مني.

كان لويد واثقاً من أن باري فهم ما تعنيه عبارته، لو أتم مهمته فسيسعد شخص مهم، ولو أخفق.. فماذا قد يحدث؟

اتصل به باري بعد ساعة وأخبره أن توم كولين قد فرّ.

- لكنه متخلف ولا يستطيع قيادة أي مَرْكَبَة. لو أنه اتجه شرقاً فلن يكون قد جاوز دراي ليك. يمكننا اللحاق به يا لويد. أنا متأكد. امنحني الضوء الأخضر فقط.

باري من ضمن القلائل الذين يعرفون بأمر الجواسيس في فيجاس، وقد قرأ أفكار لويد.

- دعني أفكر يا باري.

أنهى لويد المكالمة قبل أن يحتجّ الرجل. لقد صار أكثر براعة في التفكير مما كان عليه قبل الوباء، لكنه عرف أن الأمر أكبر من قدرته بكثير. موضوع القائمة الحمراء هذا يشغله؛ لماذا لم يخبره أحد به؟

لأول مرة منذ التقى لويد وفلاج في فوينكس يشعر بأن منصبه غير مهم، وأن الأسرار تُحجّب عنه. يمكنهم اعتقال توم كولين بسهولة، فهو شخص متأخر عقلياً قبل كل شيء، لكن لو كان يعرف بشأنك أندروز عندما حكّت له جولي عنه، لأسرعوا باعتقال الشاب في شقته.

انفتح باب بداخله، وأدخل نسمة خوف باردة. فلاج أخفق. فلاج لا يثق بالكامل في لويد هينريد، وهذا سيئ حقاً.

مع ذلك، عليه أن يخبره بالأمر، فلا يمكنه أن يأمر بمطاردة رجل دون إذنه، خاصة بعد ما حدث مع القاضي. قام إلى هواتف الفندق الداخلية، فقابل ويتني هورجان قادماً من هناك.

- الرجل يريدك يا لويد.

- حسناً.

تفاجأ بهدوء صوته.. الخوف تعاضم بداخله الآن. رغم كل هذا عليه أن يتذكر أنه كان سيموت جوعاً في السجن لولا فلاج. لماذا يخدع نفسه؟ إنه ملك بالكامل للرجل الغامض.

لكنني لن أستطيع أن أنجز عملي إن كان يخفي عني المعلومات.

ركب المصعد وضغط الزر. مرة أخرى يلح عليه الخاطر المقيت: فلاج لا يعرف. لقد كان الجاسوس الثالث هنا طوال الوقت، وفلاج لم يعرف.

وجه فلاج الباسم يطفو فوق روب استحمام أزرق.

- تعالَ يا لويد.

دخل لويد إلى الغرفة قارسة البرودة؛ مُكَيَّف الهواء يعمل بأقصى طاقته. رغم ذلك شعر بالحرارة الهائلة الصادرة عن فلاج وهو يمر إلى جواره. المرأة التي جلبها فلاج جالسة في الركن على مقعد أبيض، وقد ضُمَّ شعرها إلى أعلى وارتدتُ فستانًا نظيفًا، وكانت بعد شاردة خاوية النظرات كسمكة ميتة. قال فلاج من خلفه فأجفل لويد: «أريد أن أقدم لك نادين كروس. زوجتي».

نظر لويد إلى فلاج مدهوشًا، فقبولَ بابتسامة ساخرة وعينين مرحتين. - عزيزي لويد هينريد، ذراعي الأيمن. التقيته في سجن فوينكس، وقد كان يتغذى على لحم أحد رفاق السجن.. ربما ذاق لويد شيئًا منه فعلاً، أليس كذلك يا لويد؟

احمرَّ وجه لويد ولم يقل شيئًا. قال المُتشح بالسواد: «مُدِّي يدك يا عزيزتي».

مدتُ نادين يدها كأنها ألي، وظلّت تحقق إلى نقطة ما خلف كتف لويد. فكَرَّ الأخير: كم أن هذا مرعب. تعرَّق رغم البرودة وقال: «أهلاً بك»، وصافح اللحم الناعم الدافئ الممتد نحوه. قاوم بعدها مسح يده في سرواله. ظلّت يد نادين معلقة في الهواء.

قال فلاج: «يمكن أن تنزلي يدك يا حبيبتي».

فأنزلتُ يدها، وتلَوَّت أصابعها على نحو مخيف.. وربما فاضح.

- زوجتي متوعكة بطريقة أُسرية كما يقولون. بارك لي يا لويد، سأصير أبًا.

قال لويد بشفتين خدرتين: «مُبارك...».

- يمكننا أن نتكلم بأريحية وهي هنا. أليس كذلك يا نادين؟ إنها كتومة كالقبر. ماذا عن إنديان سبرينجز؟

رمش لويد وحاول أن يستعيد تركيزه. قال: «بخير...».

- بخير؟

مال الرجل الغامض نحوه، وللحظة ظن لويد أنه سيفتح فمه ويلتهم رأسه. قال: «لا يمكنني القول بأن هذا تحليل دقيق للموقف يا لويد».

- لدينا بعض الأمور الأخرى...

- عندما أرغب في الحديث عن أمور أخرى، فسأسألك عن الأمور الأخرى.
صوت فلاج يعلو، يقترب من الصباح. لم يشهد لويد تغيرًا مفاجئًا في مزاجه على هذا النحو من قبل، وهذا ما أثار ذعره.

- أريد الآن تقريرًا عن إنديان سبرينجز، والأفضل أن تكون قد جهزته يا لويد. لمصلحتك...

غمغم لويد: «حسنًا. أوكاي...».

ولنصف ساعة ظل يسرد له ما أنجزوه هناك مستعينًا بالملاحظات التي كتبها في دفتره، فبدأ عليه الاسترخاء والرضا، بيد أنه صعب أن يجزم أحد بما يشعر به الماشي. سأله: «هل تعتقد أن في وسعنا الطيران إلى بولدر خلال أسبوعين؟ في الأول من أكتوبر مثلًا».

- يمكن أن يفعل كارل هذا كما أعتقد. لا أعرف بشأن الطيارين الآخرين.
قال فلاج وهو يذرع الغرفة: «أريدكم أن يستعدوا. أريد أولئك المختبئين في الجحور حتى الربيع. أريد أن أباغتهم ليلاً وهم نائمون. اقذفوا البلدة كلها. أريدها أن تصبح مثل هامبرج ودريسدن في الحرب العالمية الثانية». استدار نحو لويد بوجه أبيض كالورقة وعينين تقذفان اللهب وأضاف: «أريدكم أن يعرفوا عاقبة إرسال الجواسيس...».

استطاع لويد أخيرًا أن ينطق، فقال: «الجاسوس الثالث...».

- سنعثر عليه يا لويد، لا تقلق.

عادت ابتسامته مرة أخرى، حالكة ساحرة، إلا أن لويد لمح غضبًا تحتها، تعبير لم يتوقع أن يراه. قال لويد بهدوء: «عرفنا من يكون».

كان فلاج يدير تمثالًا صغيرًا بين يديه عندما سمع العبارة الأخيرة فتصلبت يده. لأول مرة تتحرك عينا نادين نحو فلاج، ثم تبتعد عنه.

- ماذا قلت؟

- الجاسوس الثالث...

قال فلاج في حسم: «لا. أنت تُخمن فقط يا لويد».

- هو صديق رجل يُدعى نك أندروز.

سقط التمثال الصغير من بين يديّ فلاج وتهشم، بعد لحظة وجد لويد نفسه مرفوعاً من ياقة قميصه. لقد تحرك فلاج خلال الغرفة في لمح البصر ولم يره لويد. حذق إليه الماشي وأحرقه لهيب جسده وهو يصرخ: «وأنت تجلس هنا وتتكلم عن إنديان سبرينجز؟ حري بي ألقى بك خلال هذه النافذة!».

رؤية الرجل الغامض ضعيفاً جاهلاً، ويقينه بأنه لن يقتله قبل أن يستخرج منه كل المعلومات شجعت لويد على الدفاع عن نفسه. صاح: «لقد حاولتُ أن أخبرك فأخرستني! لقد حجبَت عني أمر القائمة الحمراء! لو كنتُ أعرف بها لاعتقلت المتخلف اللعين ليلة أمس!».

رماه فلاج خلال الغرفة ليرتطم بالجدار المقابل. يبدو أن فلاج قد جُن. ظل يذرع الغرفة بوجه أبيض حانق، وانكملت نادين في مقعدها. حذق فلاج إلى رف تماثيل صغيرة على الحائط، ثم ضربها فأسقطها لتتهشم كقنابل صغيرة. ركل شظايا بقدميه الحافيتين. غطى شعره الداكن جبينه، رفع رأسه بغتة ليزيحه ثم استدار نحو لويد على وجهه تعاطف وتفهم، كلاهما حقيقي كورقة بنكنوت فئة ثلاثة دولارات. مشى نحو لويد ليساعده، ولاحظ أنه خطا على الشظايا دون أن يتألم.. دون أن ينزف.

مد يده نحو لويد، فقام الأخير. قال: «آسف. لنشرب شيئاً معاً. أنت تفضل الخمر بلا ثلج، أليس كذلك؟».

- بلى.

ذهب فلاج إلى المشرب وصبَّ كأسين عملاقتين، شرب لويد نصف كأسه في جُرعة واحدة وشعر بتحسّن نوعاً. قال فلاج: «لم أظن أنك قد تحتاج إلى القائمة الحمراء في شيء. فيها ثمانية أسماء.. خمس الآن. كانت أسماء أعضاء اللجنة والمرأة المسنة. أندروز واحد منهم، لكنه مات».

حكى لويد ما حدث، بدءاً بجولي لوري وانتهاءً بباري دورجان. قال فلاج: «تقول إنه متخلف...».

- نعم.

أوماً فلاج وابتسم وهو يردد: «نعم... نعم... لهذا لا أراه...».

قام إلى الهاتف وأمر باري بإرسال مروحيتين ومائة رجل للبحث عن توم كولين، وغلق كل طريق يخرج من شرق وجنوب نيقادا، وإبلاغه بتقرير كل ساعة.

أغلق السماعاة وفرك كفيه في سعادة وقال: «سنعثر عليه. أنا فقط كنت أتمنى لو نرسل رأسه إلى صديقه أندروز، إلا أنه مات. أليس كذلك يا نادين؟». حدقتُ إليه نادين بلا تعبير. قال لويد: «لن تنفعنا المروحيات كثيرًا الليلة، سيعمُ الظلام خلال ثلاث ساعات».

قال الرجل الغامض في مرج: «لا تتعجل يا لويد. غداً وقت المروحيات. لن يبتعد كثيرًا».

تمنى لويد لو كان في أي مكان سوى هنا. مزاج فلاج جيد الآن، لكنه لن يظل كذلك بعدما يسمع بأمر الزبال. قال لويد: «أريد أن أخبرك بأمر آخر. عن رجل صفيحة الزبال».

خشي أن يستفز نوبة هياج أخرى، لكن ما باليد حيلة.

- زبالي الحبيب. هل هو في جولة الآن؟

- لا أعرف مكانه.

وحكى لويد ما أخبره به كارل أمس، فاسودَّ وجه فلاج عندما سمع بما حدث لفريدي كامباناري، ثم عاد إلى بروده بوصول لويد إلى نهاية حكايته.

- لا بأس. عندما يعود اقتلوه، لكن بسرعة وبلا تعذيب. لا أريد له أن

يتعذب. أتمنى فقط لو أنه.. يصمد معنا أكثر. أنت في الغالب لا تفهم

هذا يا لويد، لكنني.. أشعر بصلة قرابة ما تجاهه. ظننتُ أن في وسعي

استغلاله، وقد استغلته فعلاً، لكن ليس إلى أقصى حد. حتى أمهر

النحاتين قد يعرف أكان السكين في يده قد صارت ثلثة، أليس كذلك

يا لويد؟

وافقه لويد مع أنه لا يعرف شيئاً عن النحاتين وسكاكينهم، كان يظنهم

يستخدمون الأزاميل والمطارق.

- وقد أسدى إلينا خدمة عظيمة بتركيب صواريخ شرايك، أليس كذلك؟

- بلى.

- سيعود. مُر لاري بأن.. يُريح الزبَّال من عذابه بلا أَلْم لو أمكن. أنا الآن مشغول بالمتخلف الهارب. هل تعتقدين أن في وسعنا العثور عليه قبل الظلام يا عزيزتي؟

كان فلاج راكعًا إلى جوار مقعد نادين. مَسَّ وجنتها بأصابعه فأجفلت وأبعدت رأسها. ابتسم فلاج ومس وجنتها مجددًا فاستسلمت مرتعدة. قال: «القمر.. لو لم تعثرُ عليه المروحيات قبل الظلام، فسيساعدنهم ضوء القمر. أراهن على أنه يقود دراجة هوائية في منتصف طريق 15-1 الآن. المُسنة المُرسلة من الرب ماتت ولن تحميه. أليس كذلك يا حبيبتي؟» وانفجر بالضحك كأنه طفل، وأضاف: «وربها أيضًا مات على ما أعتقد. كل شيء سيسير كما خطط له راندال فلاج».

مَسَّ وجنتها مرة أخرى، فأنت كحيوان مصاب. لعق لويد شفثيه الجافتين وقال: «سأستأذن أنا في الانصراف».

قال فلاج دون أن ينظر إليه: «لا بأس يا لويد». غادر لويد على الفور. أصابته نوبة هستيرية وهو في المصعد، فأوقفه وراح يضحك ويبيكي خمس دقائق. قال لنفسه: إنه لا يتداعى. هو فقط يواجه بعض المشكلات، لكنه ما زال مسيطرًا. ستنتهي اللعبة على الأرجح في أول أكتوبر، أو في منتصفه بالتأكيد. كل شيء سيكون بخير كما قال، ولن أفكر كثيرًا في أنه كاد يقتلني.. لن أفكر في أنه بدا أكثر غرابة من أي وقت مضى.

ورد إلى لويد اتصال من ستان بايلي من إنديان سبرينجز بعد ربع ساعة. كان ستان غاضبًا من الزبَّال ومرتبًا من الرجل الغامض.

انطلق كارل هيو وبل جيميسون من القاعدة في الساعة السادسة ودقيقتين، وركب مع كارل مُتدرب آخر اسمه كليف بينسون.

في السادسة واثنتي عشرة دقيقة انفجرت المروحيتان في الهواء. أرسل ستان خمسة رجال إلى حظيرة الطائرات رقم 9 حيث طائرتان برمائتان وثلاث مروحيات ضخومات. وجدوا متفجرات مثبتة إلى الطائرات الخمس، لكنها مختلفة عن تلك الأولى التي فجر بها الشاحنة، لكنها مشابهة إلى حد كبير.

قال ستان: «إنه رجل صفيحة الزُبالة. لقد جُن تمامًا! الرب وحده يعلم ما الذي يخطط لتفجيرِه أيضًا!».

هتف لويِد ودقات قلبه تتسارع وعيناه تجحضان: «تحقق من كل شيء. كل شيء! استدعِ كل الرجال وفتشوا القاعدة بالكامل. هل تسمعني يا ستان؟!».

- لماذا نكابد عناءَ هذا؟

- لماذا نكابد عناءَ هذا؟ ماذا سيفعل الرجل الكبير لو أن القاعدة كلها انفجرت؟

قال ستان بهدوء: «كل الطيارين ماتوا. ألا تفهم يا لويِد؟ المُتدربون لا يفقهون شيئًا بعد وليس لدينا مَنْ يعلمهم. فما نفع تلك الطائرات إذن يا لويِد؟».

وأنهى المكالمة تاركًا لويِد لصدمته.

استيقظ توم كولين في الساعة التاسعة والنصف مساءً ذلك اليوم. القمر ما زال عاليًا هادئًا غامضًا. وقت السفر.. لا بُدَّ أن يكون حذرًا، رباه، نعم. إنهم يلاحقونه الآن.

رأى نِك أندروز يكلمه في حلمه. هذا غريب لأنه لا يتكلم، إنه ق-م-ر، وهذا هو تهجي عبارة أصم أبكم. إلا أن أمورًا غريبة تحدث في الأحلام. قال له نِك: «لقد كشفوا أمرَك الآن يا توم، لكنك لم تخطئ في شيء. لقد نفذت مهمتك بدقة، لكنه الحظ العاثر. يجب أن تبعد عن الطريق يا توم وتستمر في الاتجاه شرقًا».

يعرف توم الشرق، لكنه ليس متأكدًا من أنه لن يضل في الصحراء أو يدور في دوائر. قال نِك: «ستعرف الطريق. ابحث أولًا عن إصبع الرب...».

علق توم حقيبته على كتفيه، ومشى إلى دراجته التي تركها مكانها، ثم تسلق جرف الطرق ونظر إلى الجهتين. صعد فوق السور القصير، فتعثر وتدحرج على الجرف قبل أن يجلس وقلبه يدق كالطبل. لا صوت سوى صوت الريح...

قام مرة أخرى يمسح الأفق لدقائق حتى رآها؛ إصبع الرب... المرتفع الحجري الشبيه بالإصبع. يستطيع الوصول إليه خلال ساعة أو اثنتين، لكنَّ

الهواء شديد النقاء قد يخدع أي شخص أكثر خبرة من توم كولين، فيخطئ تقدير المسافات. مشى، وظلت الإصبع الحجرية تبتعد. مر منتصف الليل، وحلّت الثانية صباحًا وتغيّرت مواضع النجوم في السماء. فكر توم في أن المرتفع الصخري مجرد سراب...

نظر خلفه ليجد الطريق قد اختفى في الظلام، ثم عاد ينظر أمامه ليدرك أن المرتفع قد اقترب قليلًا. في الرابعة فجرًا همس صوته الداخلي بضرورة البحث عن مخبأ لينام فيه، لكنه لن يصل إلى إصبع الرب الليلة. ولو وصل إليه (على فرض أنه لم يعثروا عليه صباحًا) فماذا سيفعل بعد ذلك؟ لا يهم.. نك سيخبره. نك الطبيب الصالح.

لا يطيق توم صبرًا على العودة إلى بولدر ولقائه. رباه، نعم! عثر على مخبأ خلف صخرة ونام هناك على الفور. لقد قطع مسافة ثلاثين ميلًا تلك الليلة، وهو الآن على مشارف جبل مورمون.

في الظهيرة، اقتربت منه أفعى مجلجلة، تبحث عن ظل وسط قيظ الصحراء. تكوّرت إلى جواره فنامت قليلًا، ثم رحلت.

وقف فلاج فوق سطح البناية تحت شمس الظهيرة، ونظر نحو الشرق. تغيب الشمس بعد أربع ساعات، وسيتحرك المتخلف مرة أخرى.

هبّت ريح قوية فتطايرت خصلات شعره الداكن. المدينة ممتدة متصلة بالصحراء، لافتات دعائية ضخمة على حافة اللامكان، وهذا كل شيء. صحراء عظيمة وأماكن كثيرة للاختباء. مشى كثيرون في تلك الفلاة ولم يرهّم أحد مرة أخرى.

همس: «ليس هذه المرة. سأعتقله...».

لا يستطيع تفسير أهمية اعتقال المتخلف، ولم يعدّ يعرف لما يصر على فعله منطقيًا. تزداد مع الوقت رغبته في التدمير لا أكثر.

ليلة أمس بعدما أخبره لويد بنبأ انفجار المروحيات، استخدم كل ما في جعبته للسيطرة على إعصار احتدامه. أول ما خطر له أن يأمر بتشكيل فريق مزوّد بدبابات وقاذفات لهب ومدركات على الفور، والزحف إلى بولدر والإجهاز عليها.

لكن لو كان الثلج قد بدأ يهطل مبكرًا، فستكون هذه نهاية رحلة جيشه الجرار. إنهم في منتصف سبتمبر، واعتدال الجو لن يدوم أكثر من هذا. لماذا مرّ الوقت اللعين بهذه السرعة؟!

بيد أنه أقوى رجل على وجه البسيطة، أليس كذلك؟ ربما في روسيا أو الصين أو إيران من هم مثله، لكن هذه مشكلة سيتعامل معها لاحقًا خلال السنوات العشر القادمة. كل ما يهمله الآن هو رحلة صعوده وقوته. هذا ما سيؤكد العثور على المتخلف.. لو لم يضلّ في الصحراء ولم يتجمّد من البرد في الجبال فسيخبرهم بمدى قوته، وسيطيعون الماشي، وسيدعون لكل أوامره.

لو أنه بهذه القوة، لماذا يخشى ابتعاد كولين عن الغرب قبل العثور عليه وقتله؟

لأن هذه مشيئتي ورغبتني وسأحققها، هذا سبب كاف.

كان يظن أن الاستغناء عن الزبال والتخلص منه كأنه جهاز معطل سيكون كافيًا، لكنّ اللعين استطاع فعل ما عجز عنه أهل المنطقة الحرة كلها. لقد أسأت الحكم عليه..

ويا له من خاطر مرير، لن يسمح لعقله بالانجراف وراء استنتاج شيء من ورائه.

لم يعثروا على متفجرات أخرى في القاعدة، ويبدو أن الزبال قد فُخّ ما طالته يداه فقط. أمر فلاج بقتل الزبال حال العثور عليه، وقبل أن يصل إلى ما تخبئه الحكومات من أسلحة الرب وحده يعرف ما هي قدرة عليه. إنه قلق...

نعم.. اليقين يتبخّر. متى بدأ هذا البحر؟ لا يمكن أن يحدد بدقة، وكل ما يعرفه أن الأمور بدأت تخرج عن السيطرة تدريجيًا. لويد يعرف هذا أيضًا وقد رآه في الطريقة التي تحدث بها معه. لا بأس بفكرة تعرض لويد لحادث قبل الشتاء. إن له أصدقاء رُعاًا في كل مكان، وقد كان يثرثر بشأن ما يفعل فلاج، وكشف أمر القائمة الحمراء.

لو أن لويد كان يعرف بشأن القائمة الحمراء لما حدث أي من هذا...

غمغم: «أخرس.. فقط.. أخرس..».

لكنَّ الخاطر لم يختفِ. لماذا لم يخبر لويد بأسماء قادة المِنطقة الحرة؟ لا يعرف.. لا يتذكر السبب الذي كان منطقياً للغاية وقتها. كلما حاول تذكره فرَّ منه. ربما حجب عنه الأسماء كي لا يضع البيض كله في سلة واحدة، ويعرف رجل واحد كل هذه الأسرار حتى لو كان وفيّاً غيباً مثل لويد هينريد. حقاً؟ هل كان يتخذ تلك القرارات الحمقاء طوال الوقت؟

ما مدى ولاء لويد على أي حال؟ تلك النظرة التي رآها في عينيه، والطريقة التي رفع بها صوته أمامه...

قرَّر أخيراً أن يبعد تلك الخواطر مؤقتاً، ويرتفع عن الأرض. الارتفاع يُحسِّن مزاجه، ويجعله يشعر بأنه أقوى وأكثر هدوءاً وأصفى ذهنًا.
(أنا... أنا. أنا...)

ارتفع حذاءه المترب البالي عن الأرض بوصة، ثم اثنتين.. كل شيء واضح الآن. لا بدَّ أولاً أن...

- إنهم قادمون من أجلك. هل تعرف هذا؟

هبط فجأةً لدى سماعه الصوت، فسرتُ كهرباء من كعبيه إلى رأسه إثر الهبوط القوي. استدار بسرعةٍ قط ليرى نادين خلفه، ترتدي فستاناً أبيض، شعرها أبيض كطرحة عروس. بدتُ غريبةً، مهيبَةً.. وشعر فلاج بالخوف. خطتُ خطوةً أخرى تجاهه.

- إنهم قادمون. ستو ريتمان، جلن بيتمان، رالف برينتتر، لاري أندروُد. سيأتون وسيقتلونك كابنِ عَرِيس سارق الدجاج.

قال: «إنهم في بولدر، يختبئون تحت أسرتهم، ينوحون على الزنجية النافقة».

قالت في تحدٍّ: «لا. إنهم في يوتاه الآن، وسيصلون قريباً. سيستأصلونك كما تُستأصل الأورام الخبيثة».

- اخرسي وانزلي...

- سأنزل...

اقتربتُ منه وابتسامتها تتسع فترجفه، وتزيل عن وجهه كل أثر للحياة. بدت عتيقة، عاتية وهي تقول: «سأنزل.. وستنزل...».

- ارحلي...

تَغَنَّتْ: «سننزل كلنا... إلى أسفل... إلى أسسفللل».

- إنهم في بولدر!

- إنهم هنا...

- انزلي!

- كل ما شيدته هنا يتداعى. لمَ لا؟ عمر الشياطين قصير. الناس يتهامسون عنك. يقولون إنك تركت توم كولين يهرب منك. كيف لمتخلف أن يتفوق على راندال فلاج؟

تسارع إيقاع كلماتها وهي تنطق بها من بين ابتسامتها: «يقولون إن خبير أسلحتك قد جُنَّ وأنت لم تعرف هذا. إنهم يخشون مما سيفعله بهم بدلًا من أهل الشرق. إنهم يرحلون.. هل تعرف هذا؟».

همس بوجه شاحب: «أنت تكذابين. لن يجرؤوا على الرحيل! ولو فعلوا لعرفت!».

شردت في ما خلفه وهمست: «أراهم. إنه يغادرون مواقعهم تحت جناح الليل وعينك لا تراهم. إنهم يتسللون مبتعدين. يخرج طاقم العمل في الصباح ويعود ناقصًا. الحرس يرحلون.. يخشون من اختلال ميزان القوى. إنهم يتركونك.. يهجرونك، ومن تبقى منهم لن يحرك ساكنًا عندما يأتي الرجال من الشرق ليقتلوك».

انفجر صارخًا: «أنت كاذبة!»، ثم هوى بكفيه على ترقوتيهما فهشمهما كأنهما قلمان، ثم رفع جسدها إلى ما فوق رأسه ثم رماها من أعلى، رأى على وجهها ابتسامة راحة وانتصار ففهم. لقد استفزته ليقتلها وقد عرفت أن في يده وحده خلاصها...

وكانت تحمل ابنه...

مال على السور يحاول اللحق بها. فستانها يرفرف، وليس بين قبضتيه إلا قطعة من قماشه الرقيق. تمزق النسيج وهوت من حلق، قدمها إلى أسفل وفستانها مرفوع يغطي وجهها... ولم تصرخ.

عندما سمع صوت ارتطام جسدها بالأرض، رفع فلاج رأسه إلى السماء وعوى.

لا فارق.. لا فارق..

كل شيء بعد في قبضة يده.

مال على السور مرة أخرى ورأى الناس تُهرع إليها كما تُهرع الديدان إلى الجيف.

أحجامهم صغيرة للغاية، وهو عالٍ فوقهم جميعًا.
سيرتفع.. وسيصفو ذهنه حالًا.

مرّ وقت طويل قبل أن ترتفع قدماه عن الأرض، ووقتما ارتفعت لم تبتعد
إلا مسافة ربع بوصة.. لا أكثر.

استيقظ توم في تلك الليلة في الثامنة مساء. زارة نك في حلمه مرة أخرى
وتحادثًا. لا يوجد أجمل من الحديث مع نك.

رقد خلف الصخرة ينتظر إعتام السماء تمامًا. فكر في شرائح بطاطس
برينجلز، وتمنى لو أن معه بعضها. عندما يعود إلى المنطقة الحرة -لو عاد-
سيلتهم منها ما يشاء، وسيشبع من حب أصدقائه. هذا ما كان يفتقده في لاس
فيجاس؛ الحب. لقد شغلوا عن المحبة التي لا يمكن أن تنمو في قلوب مظلمة
بالخوف. لا ينمو في الظلام إلا الفطر.

همس توم كأنما يصلي: «أنا أحب نك وفراني وديك إليس ولوسي. أنا أحب
لاري أندروود وجلين بيتمان أيضًا. أنا أحب ستان ورونا. أنا أحب رالف. أنا أحب
ستو.. أنا أحب...».

غريب أنه تذكر أسماءهم بسهولة، وقد وجد صعوبة في تذكر اسم ستو
عندما زاره في بيته أول مرة. عادت أفكاره إلى ألعابه وسياراته وقطاراته.
أحب اللعب بها دائمًا، لكن هل سيحب اللعب بها بالقدر ذاته عندما يعود..
لو عاد؟

همس: «الرب راعي فلا يعوزني شيء. في مراغ خصيبة يُقيلني، ومياه
الراحة يوردني. يمسح بالزيت رأسي، ويعينني على لكم أعدائي بقبضة
الكونج فو. آمين.».

أظلمت السماء بما يكفي الآن. وصل إلى إصبع الرب في الحادية عشرة
والنصف مساء. المكان مرتفع، استطاع أن يرى من هناك أضواء تتحرك على
الطريق. إنهم يبحثون عني.

نظر نحو الشمال الشرقي، فرأى قبةً جرانيتيةً. المفترض أن يذهب إلى هناك. قال لنفسه: «قدم توم كولين تؤلمه. ق- م- ر. هذا هو تهجي كلمة قدم».

مشى حتى الفجر، ونام بعد أربعين ميلاً من المشي المستمر. الحدود بين نيقادا ويوتاه صارت أقرب.

عاد نك إلى أحلامه، وأخبره توم أنه يتوق إلى رؤيته، لكنه لم يفهم لماذا أشاح نك بوجهه.

الفصل الثامن والستون

التاريخ يعيد نفسه.

عاد رجل صفيحة الزُبالة لِيُشَوِّى حَيًّا في مقلاة الشيطان.. هذه المرة دون أمل في ينابيع سيبولو الباردة.

هذا ما أَسْتَحَق. ليس أكثر مما أَسْتَحَق فعلاً.

احترق جلده وتَقَشَّر، ثم احترق وتَقَشَّر، وفي النهاية لم يَسْمَرْ بل اسوَدَّ. صار الدليل الحي على أن ظاهر الإنسان يفضح ما بداخله. بدا كأنه احترق حتى تَفَحَّم، وبهت لون عينيه الزرقاوين من وهج الصحراء. كان يرتدي ملابس مشابهة لما يرتديه فلاج؛ قميصًا بنقش المربعات الأحمر، وسروالَ جينز كالحَا، وحذاءً باليًا عالي الرقبة، لكنه تَخلى عن القلادة. لا يستحق أن يرتديها. لقد أثبت أنه بلا قيمة، ومثله كمثُل كل الشياطين، طُرِد من النعيم.

لقد كان هذا مكانه وجنته الموعودة، ومرَّ من بوابات الجحيم نفسه حتى وصل إليها. تحمَّل الشريف الذي قتل أباه، وتحمَّل الإصلاحية، وتحمَّل كارلي يتس. بعد كل تلك السنوات السوداء وجد أصدقاء حقيقيين؛ لويد، ويتني، كين...

وقد أفسد كل شيء. إنه يستحق الحرق حَيًّا. هل له من خلاص؟ ربما يعرف الرجل الغامض، لكنَّ الزُبَال لا يعرف.

إنه يتذكر بالكاد ما حدث، لأن عقله المُعَذَّب لا يريد أن يتذكر. كان في الصحراء قبل أسبوع من عودته إلى إنديان سبرينجز. لدغت عقرب إصبعه الوسطى، وتورَّمت يده كَقُفَّاز مليء بالماء، واشتعل رأسه حرارة.. لكنه استمر في مهمته.

عاد أخيرًا إلى إنديان سبرينجز، وعرض ما وجده على الرفاق، وشعر
الزَّبَال أخيرًا بالسكينة والسعادة ونسي لدغة العقرب. ثم سمع عبارة: «من
يلهو بالنار يبلل نفسه». التفت متوقعًا أن يرى بِل چيميسون، لكنه لم يَرِ بِل،
بل ريتش جوردمور من بوتانقيل، يبتسم وينظف أسنانه بخلة خشبية. ثم
هتف آخر بشيء عن إطفاء الثقاب لأن الزَّبَال قد عاد إلى البلدة. بدا الصوت
كأنه صوت ستيف توبين، لكنه لم يَرِ سوى كارلي يتس مرتديًا سترة الدراجين
الجلدية. في زعر أدرك أنه عاد إلى الماضي، إلى السخرية الأشباح الضاحكة
المستهزئة.

تذكّر كل عبارة قيلت في حياته...

ما تلا ذلك كان أقرب إلى الحلم. تفخيخ الشاحنات والطائرات. لم يسأل
أحد عن سر تحركاته، فهو يرتدي قلادة فلاج.

عندما أتمّ فعلته، عاد عقله لحظةً. نظر إلى المروحيات في الحظيرة ثم
إلى يديه، وأدرك أنه لم يفخّخ بلدته؛ بوتانقيل ليحرق كل مضطهديه.. لا.. إنه
في نيفادا وكل أولاد الزنا من ماضيه قد ماتوا ضحايا الإنفلونزا الفائقة.

ماذا فعل؟ خرب مُعدّات الرجل الغامض؟ هذا جنون.. لا بدّ أن يفكك
المتفجرات حالًا.

لكنها متفجرات رائعة...

نيران رائعة...

شاحنات تبعثر الوقود المشتعل في كل مكان. مروحيات تنفجر في
الهواء.. رائع!

قرر أن يتخلّى عن حياته الجديدة بلا مقابل. اتسعت ابتسامته على وجهه
المسودّ، وركب سيارة وابتعد.. وانتظر. أخيرًا انفجرت شاحنة الوقود، وأراها
من خلال منظاره المقرب. رفع قبضتيه إلى السماء منتشيًا، ولم تدم نشوته
طويلاً، فقد حل محلها الرعب المमित والأسف.

انطلق إلى الشمال الغربي خلال الصحراء حتى ما عاد يدرك مرور الوقت.
ظن أنه سينتحر. لم يتبقّ له شيء، وسينقلب عليه الجميع الآن. عندما
تعضّ اليد التي تطعمك، توقع أن تتكور اليد الأخرى وتلكمك. هذا هو العدل.
معه ثلاثة علب بنزين، سيصبها على نفسه ويشعل عود ثقاب.. هذا ما يستحق.

بيد أنه لم يفعل ذلك. فعَلْ كهذا يحتاج إلى قوة أكبر من قوة ندمه ووحدته. بدا له أن حرق نفسه ليس عقابًا كافيًا.

نام، واكتشف عندما استيقظ فكرة جديدة استولت على عقله؛ الافتداء. لو عثر على شيء ذي قيمة كبيرة للرجل الغامض وأعطاه إياه، فربما يفندي نفسه به، بل ويكفر عن فعلته. لكن ما عساه أن يكون هذا الشيء؟ ما الذي يكفي للافتداء أو للتكفير؟ إن لديه حاسة غريبة، يستطيع استشعار وجود مخلفات الجيش هنا، وتحديد أماكنها. يمكنه أن يعود إلى حيث بدأ المشروع الأزرق، لكنَّ الأوبئة لا تروق له، ولا يعتقد أنها ستروق لفلاج. الأوبئة لا تنتقي ضحاياها.

لذا قرر الذهاب إلى قاعدة نيليز الجوية شمال غرب إنديان سبرينجز، وقطع السور الشائك الذي يحيط بها. انطلق الزبال نحوها، منجذبًا إلى محتواها التدميري الذي لا يعرف كنهه بدقة، لكنه عظيم.. عظيم بما يكفي. قطع الطريق بين التباب والوهاد، لا يسمع شيئًا سوى هدير محرك شاحنته. من فوق إحدى الكتبان لمح شيئًا؛ مجمع مبانٍ يتماوج تحت حر الشمس. أكواخ ومنازل صغيرة وسيارات متوقفة في عرض الطرق المتربة. المجمع كله محاط بسور شائك، ورأى موصّلات التيار الضخمة الموصولة بها. هذه قاعدة عسكرية فيها ما يريد.. لقد قادته حاسته إليها...

اقترب سريعًا من المكان، ثم تحقق من تشغيل مولدات الكهرباء. أماكن كهذه لديها مولدات هائلة. شكّ في أن أيها يعمل بعد ثلاثة أشهر، لكنَّ عليه أن يلزم الحذر. ما يريده قريب للغاية، ولن يتسرع الآن.

استطاع أن يدخل إلى المبنى الخرساني المنشود بسهولة، فعندما تنقطع الكهرباء، لا تعمل آليات التأمين والغلق التلقائي. داخل المبنى جثث حنطتها الحرارة والجفاف، كلها تحمل بصمة كابتن ترييس حول أعناقها. وجد مع إحدى الجثث سلاحًا آليًا، فأخذه إلى الخارج وأطلق النار على واحدة من موصلات التيار عند السور الشائك، فانفجرت، لكنه لم ير وهجًا بنفسجيًا ينطلق منها علامة على توصيل الجُهد العالي. الكهرباء غير موصولة. ابتسم الزبال. مشى نحو السور بحرص، وهو يتشمم طريقه كالكلاب. يعرف بوجود لغم يعمل بالضغط أسفل الرصيف، ولا يعرف كيف عرف. ربما يعمل وربما هو معطل...

عاد إلى شاحنته فقادها نحو السور، وقبل أن يبلغ موضع اللغم ترجل منها وتركها تكمل طريقها. هُرع إلى المبنى الخرساني وسد أذنيه منتظرًا انفجار اللغم، إلا أنه لم ينفجر. ممتاز.. هذا يعني أن كل أنظمة التأمين لا تعمل.

هُرع الزبَّال إلى الشاحنة ليركبها مرة أخرى ويوقفها قبل أن ترتطم بالمبنى. عاد الزبَّال ليمشي بين جثث الجنود المتناثرة، يعبر من بينها إلى رواق. إلى أين يذهب؟ هل غايته هنا؟

بيد أن شيئًا في مقدمة المبنى لفت انتباهه.. لافتة. الحرارة هنا لاهبة، لكنه تحمّل واقترب أكثر ليقراً.. ثم يبتسم. ما يريد هنا...

على اللافتة رسم لشخص يقف تحت مضخة ماء وفقاعات الصابون تغطيه. مكتوب تحت الرسم: تذكر! في الاستحمام اليومي مصلحتك! تحت اللافتة علامة.. ثلاثة مثلثات تشير قممها إلى منتصف الرسم؛ علامة الإشعاع.

ضحك الزبَّال كالأطفال وصفق بيديه.

الفصل التاسع والستون

وجد ويتني لويد في غرفته، ممدداً على الفراش الدائري الذي كان يتشاركه مع داينا. كان يحدق إلى انعكاس صورته في المرأة، وإلى جواره زجاجات خمر.

قال حين رأى ويتني: «تعال أيها الوغد. لم تكلف نفسك عناء طرق الباب».

سأله ويتني بحذر: «هل أنت.. ثمل يا لويد؟».

- لا. ليس بعد. لكنني سأثمل.

- هل هو هنا؟

- مَنْ؟ القائد الجسور؟ هو في مكان ما.. يفعل شيئاً ما لعيناً.

همس ويتني: «احترس مما تقول. تعرف أن شرب الخمر القوي في أثناء...».

- سحقاً...

- تذكر ما حدث لهيكتور هورجان والمحامي...

- أنت مُحق. للجدران آذان. للجدران الداعرة آذان.. هل سمعتَ بذلك المثلّ اللعين من قبل؟

- نعم، مرة أو اثنتين، لكنه واقعي هنا يا لويد.

- لك أن تراهن على ذلك.

هَبَّ لويد وطوّح زجاجات الخمر على طول ذراعه فانكسرت. سأله ويتني: «هل أنت بخير يا لويد؟».

- أنا بخير.

كلاهما يعرف أن لا أحد بخير هنا. المرأة التي قدّمها لهم على أنها زوجته، قفزت من أعلى البناية في اليوم السابق. همس ويتني وهو ينظر خلال النافذة الكبيرة إلى السماء المحمرة: «هل تعتقد أنها قفزت برغبتها؟».

هز لويد كتفيه وقال: «ما الفارق؟ أنا أعتقد أنها قفزت. ألن تفعل ذلك لو كنتَ زوجته؟».

صمت ويتني. أخرج لويد بيرة من مشرب الغرفة، وشربا معًا في صمت. سأل ويتني بعد دقائق: «ما آخر أخبار ذلك الشاب كولين؟».

- لا شيء. لم يبلغني أحد بشيء. لم يسمع باري شيئًا، ولم يجدوا أحدًا على الطرق 30 و40.. لا شيء في كل اتجاه. لا بدُّ أنه في مكان ما من الصحراء. لو أنه يسافر بالليل ويعرف طريقه، فقد يصل إلى الشرق دون أن يُلَاحَظ. لكن ماذا يهمنا في كل هذا؟ ماذا قد يقول لهم؟
- لا أعرف.

- أنا أيضًا لا أعرف. لنَدع ما يحدث يحدث.
ازداد قلق ويتني. لويد يقلل من شأن رئيسه مرة أخرى. ربما سيتشجع لاحقًا لقول ما جاء ليقوله. قال لويد وهو يميل نحوه: «سأخبرك بأمر. إنه يفقد السيطرة. الوقت يجري ولن يحدث أي شيء مما خطط له».
- لويد، أنا...

صبَّ لويد لهما المزيد من البيرة وأكمل: «في البداية موضوع داينا، ثم كولين.. ثم زوجته نفسها. هل تظن أن قفزتها هذه من مخططاته؟».

- المفترض ألا نتكلم عن هذه الأمور.
- انظر ما فعله الزبّال؟
- لويد...

- لا أفهم. كل شيء كان يسير بسلاسة حتى جاء في ليلة وأخبرنا بموت العجوز في المنطقة الحرة. قال إن آخر عقبة في طريقه قد زالت.. وفي هذه اللحظة بالضبط بدأ كل شيء ينهار.

- لويد.. يجب ألا...
- لا أعرف.. يمكن أن نجتاح أرضهم برًّا في الربيع.. أنا واثق من أننا عاجزون عن فعل شيء قبل هذا. الرب وحده يعرف ما قد يجهزه لنا

هناك حتى وقتها. ثم لا تنسَ الزَّبال المنطلق في الصحراء.. بماذا قد يفاجئنا؟ أنا واثق...

قاطعه ويتني بصوت مبجوح: «اسمعني يا لويد...».

- ماذا؟ بأي مصيبة جئت؟

- لا أعرف كيف أخبرك بالأمر.. أنا وبضعة رفاق نخطط للرحيل. هل تريد أن تأتي معنا؟ يا للمسيح.. لا بُدَّ أنني جننتُ كي أخبرك بنفسي بهذا، وأنت المُقَرَّب منه.

- سترحلون؟ إلى أين؟

- أمريكا الجنوبية.. ربما البرازيل. أي مكان بعيد. الكثير يرحلون.. ربما ليس الكثير، لكنَّ عدد معقول.. ويتزايد كل يوم. لا أعتقد أن فلاج قادر على تتبعنا. البعض سيتجه شمالاً إلى كندا. كنت سأذهب إلى الشرق لو أنهم سيقبلونني.

توقف ويتني عن الحديث ونظر إلى لويد في بؤس، وجهه وجه رجل تمادى كثيراً في الإفصاح.

قال لويد برفق: «لا بأس. لن أفشي سرك يا صاحبي الشيخ...».

- المشكلة فقط أن الأوضاع ساءت للغاية هنا...

- متى سترحلون؟

نظر إليه ويتني في شك، فأكمل لويد: «انسَ أنني سألتُ. أصبُّ لك المزيد؟».

- لا...

قام لويد إلى المشرب ليملاً كأسه. قال وظهره إلى ويتني: «لم أستطع».

- ماذا؟

التفت نحوه وصاح: «لم أستطع! ليس وأنا مدين له بكل شيء. لقد أخرجني من السجن وأنقذ حياتي.. بل.. بل وجعلني أكثر ذكاءً بشكل ما. لا أعرف ماذا فعل بي، لكنني لم أعد الرجل ذاته الذي كان في السجن يا ويتني. كنت قبله نكرة. أولاني مهمة إدارة المكان وأحسنْتُ صنعاً. نعم، لقد غيَّرني». رفع لويد الحجر من فوق صدره ونظر إليه، ثم أسقطه مرة أخرى ومسح يده في سرواله كأنه لمس قذارة.

- أعرف أنني لست عبقرياً الآن. يجب أن أكتب كل شيء في مذكرة كي لا أنساه. لكنّ وهو معي صرت أقوى، صرت قادراً على إصدار أوامر بعدما كنت مأموراً دائماً، دمية في يد غيري. لقد تغيّرتُ.. لقد غيّرني...
- عندما نقلني إلى فيجاس، لم يكن هنا سوى ستة عشر شخصاً. كان روني واحداً منهم، وچيني والمسكين هيكتور دورجان. كانوا في انتظاره. ركعتُ چيني على ركبتيهما الجميلتين وقبّلت حذاءه. أراهن على أنها لم تخبرك بهذا. هي الآن تريد أن ترحل. لا ألومها، ولا ألومك. لكنّ هذا التغيير صعب...».

- هل ستمكث إذن؟

- حتى النهاية يا ويتني. نهايتي أو نهايته. أنا أدين له بهذا.

لم يخبره أنه ما زال مؤمناً بالرجل الغامض، حتى إنه موقن أن من سيرحل سيُعلّق على الصليب في نهاية المطاف. شيء آخر؛ هو هنا الرجل الثاني بعد فلاج، فماذا قد يكون مستقبه في البرازيل؟ قد يعمل باقي الراحلين في أي شيء، وكان هو ليفعل مثلهم لولا أنه تغيّر، وحالما يتغيّر المرء يصير تغيّره دائماً.

قال ويتني: «ربما ننجح جميعاً في الفرار...».

- بالتأكيد...

لكنني لا أريد أن أكون مكانك لو نجح فلاج في مخططاته واستعاد السيطرة. لن أريد أن أكون في مكانك عندما يراكم في البرازيل. سيكون الصّلب وقتها آخر ما تقلقون بشأنه...

رفع لويد كأسه وقال: «نخب ويتني...».

رفع ويتني كأسه. أكمل لويد: «أتمنى ألا يؤذّي أحد...».

وشربا. غادر ويتني بعد ذلك، وظل لويد يشرب حتى فقد الوعي في التاسعة والنصف.. ونام بلا أحلام.

في صباح السابع عشر من سبتمبر خيمّ قوم كولين شمال جنلوك، يوتاه. كان الجو بارداً حتى إن أنفاسه كانت تخرج بخاراً أمام عينيه. كان قد مرّ ليلة أمس قرب طريق فرعي، ورأى ثلاثة رجال مسلحين جالسين حول نار

للتدفئة. حاول أن يتسلل من خلف حقل جلاميد؛ هو الآن في مِنطَقة صخرية غرب يوتاه، فخطى فوق حصى صدر عنه صوت احتكاك. تصلَّب توم وسال البول على ساقيه دافئًا. التفت الرجال الثلاثة، وأشهر اثنان منهم سلاحيهما. تخفي توم وإه. كان ظلًّا وسط الظلال والقمر خلف السحب، لو انزاحت الأخيرة...

قال واحد منهم: «لنتحرَّ الأمر...».

قال آخر: «تحرَّ أنت يا أهيل...».

فانتهى النقاش. عاد الثلاثة إلى صمتهم أمام النار، وعاد توم إلى تسلله، يتلمس موضع كل خطوة، ويراقب نارهم تبتعد تدريجيًّا حتى صارت مجرد لهب في الظلام. أخيرًا ارتاح. هو في الغرب بعد، وعليه الحذر -رباه، نعم- لكنَّ الخطر يقل.

بعد الشروق تكوَّم توم تحت أجمّة كثيفة. فكر في أنه يحتاج إلى أغطية؛ الجو بارد. ثم سحبه النوم إلى عالمه. وحلم بِنك...

الفصل السابع

عثر رجل صفيحة الزُّبالة على ما يريد.

حمل في يسراه كشافًا، وفي يمينه مسدسًا، وعبر ممرًا تحت الأرض، مظلم كمنجم، محمولًا على عربة ترام كهربائي تسري بلا صوت تقريبًا. العربة مكونة من مقعد للسائق، وامتسع للحمولة، وضع فيه الزُّبَال رأسًا نوويًا.

الرأس النووي ثقيل، طويل أسطواناني بارد. مرَّ الزُّبَال كفه عليه وهو لا يصدق كيف لكثلة معدنية باردة كهذه أن تكون مصدرَ حرارة هائلًا.

وجده في الرابعة صباحًا. لفَّ حوله سلسلة حديدية ووضعه في العربة التي هبطت فوق إطاراتها من ثقل وزنه. هو الآن عند نهاية الممر، أمامه المصعد الضخم مفتوح الأبواب، والذي يتسع للعربة طبعًا، لكنه غير موصول بالكهرباء.

والآن، كيف سيصعد بالرأس النووي خمسة طوابق؟

همس له عقله: رافعة موصولة بمحرك...

نعم.. هذا هو الحل. سيرفعها بعدما يوصلها بمحرك شاحنته. لكن من أين له بسلسلة بطول خمسمائة قدم؟ لن يجد، لكن يمكنه توصيل سلاسل أقصر ببعضها. هل ستتحمل الوصلات هذا الوزن؟ لو تحمّلت، فماذا سيفعل في انحناءات الدَّرَج؟

مسّد على الرأس النووي في الظلام.. الحب سيجد حلًا.

تركه حيث هو في العربة، وصعد الدرج ليرى ما سيعثر عليه في قاعدة كهذه تحوي شيئًا من كل شيء. صعد طابقًا ووقف يلهث. هل تعرّض للإشعاع؟! المفترض أن كل شيء مُدَرَّع بالرصاص. لكنه رأى في الأفلام أن الرجال الذين يتعاملون مع الأشياء المشعة يرتدون زيًا واقياً. الإشعاع بلا

صوت ولا شكل، يتغلغل في جسدك وعظامك، ولا تعرف مدى تأثيره إلا بعدما تظهر عليك علامات المرض.

هل سيحدث له كل هذا؟

لا يهم. لا بُدَّ أن يرفع القنبلة بأي طريقة وينقلها إلى فيجاس ليكفر عما فعله، حتى لو كان ثمن هذا موته.

همس وسط الظلام وهو يصعد: «حياتي ملك لك...».

الفصل الحادي والسبعون

قرب منتصف ليل يوم السابع عشر من سبتمبر، كان راندال فلاج في الصحراء، ملفوفًا بثلاثة أغطية تغطي جسده، والرابع يغطي رأسه ووجهه، فلا يظهر من ملامحه إلا عيناه وطرف أنفه.

ترك كل أفكاره تنساب منه، وسكنت حركته.

أرسل العين.

شعر بها تنفصل عنه كصقر صامت يهيم في الظلام. لقد تماهى الآن مع الليل. هو عين الغراب، وعين الذئب، وعين ابنِ عرس، وعين القط. هو العقرب والعنكبوت. هو سهم مسموم يقطع الصحراء اللانهائية. أيًا كان ما يحدث، لن تتخلى عنه العين.

الأرض منبسطة أمامه...

إنهم قادمون...

طار أعلى فوق مقبرة العالم.

يرى ما وراء الصحراء وما وراء حدود خط القطار والتباب والمرتفعات..

يطير.. صوت الريح بعيد.

شعر النسر الرابض فوق أعلى قمة صنوبر عتيق في مكان ما من جنوب ريتشفيلد بمرور شيء. شيء مخيف يشق الظلام، فرفرف النسر الجسور بجناحيه، فضربته تكشيرة خفية باردة، وقوية حتى اقترب الأرض قبل أن يتمالك نفسه ويطير.

اتجهت العين شرقًا.

البلدات مهجورة إلا من الفئران والقطط والغزلان التي تركت الغابات مع زوال رائحة البشر. بدأت بأسماء مثل فريموت وجرين ريفر وسيجو وthumbسون وهارلي دوم. ثم مدينة صغيرة، ثم حدود كلورادو...

نيران تخيم تتراقص وسط الريح والظلام.
هوت العين مقتربة. النيران تُحتضر، حولها أربعة أشخاص نائمون.
الأمر صحيح إذن.

تفحصتهم العين ببرود.. إنهم قادمون لسبب لا يعرفه.. نادين كانت صادقة.

صوت همهمة خشنة. التفتت العين إلى الصوت. بالقرب من المخيم المرتجل كلب، رأسه منخفض وذيله بين ردفه. استمرت الهمهمة، صوتها أقرب إلى صوت تمزق نسيج. حدقت العين إلى الكلب، فحدق الكلب إليها، وكشّر عن أنيابه.

تحرك أحد النائمين ونادى: «من أجل المسيح يا كوجاك، صمتاً».
لم يصمت الكلب. نظر الرجل -جلن- بيتمان- حوله في قلق، وهمس يسأل: «من هنا يا ولد؟ هل من أحد هنا؟».
استمرّ الكلب في الزمجرة.

هزّ الرجل النائم إلى جواره وهتف: «ستوا!»، لكن الأخير تمللم نائماً مرة أخرى. قرر الرجل الغامض أن العين قد رأّت ما يكفي. تراجع العين فرفع الكلب رأسه وراح ينبح حتى اختفى عن النظر.. وعم الظلام.

بعد وقت غير معلوم غاصت العين عائدةً إليه، فشعر بدوار للحظات. اختفت العين، وعادت عيناه ترنوان إلى السماء والنجوم.

نعم، إنهم قادمون. ابتسم المتشح بالسواد. هل طلبت منهم العجوز هذا؟ هل كانوا لينصاعوا لها لو طلبت منهم الانتحار بهذه الطريقة؟ يبدو أنهم أطاعوها فعلاً.

ما غاب عنه أنهم جاءوا مدفوعين بمشكلاتهم ومخاوفهم، لذا منطقي أن يرتكبوا حماقة كهذه.

هل سيتراجعون في لحظة ما؟ لقد جاءوا باختيارهم، جاءوا مسلّحين بالإيمان كأنهم مُبشّرين مسيحيين يدخلون قرية آكلي لحوم بشر.

كم أن هذا جميل!

ستنتهي الشكوك. ستنتهي المخاوف. كل ما يحتاج إليه هنا رفع رؤوسهم على خوازيق أمام فندق MGM. سيستدعي كل من في فيجاس ليشهد عقابهم. سيصورهم وسيوزع منشورات تحمل صورهم إلى كل مكان مأهول بأتباعه. خمسة رؤوس. يضع رأس الكلب أيضًا على خازوق.

قهقهه فلاج ضاحكًا لأول مرة منذ خدعته نادين وجعلته يرميها من فوق سطح البناية. نام جيدًا، وفي الصباح أرسل إلى حرسه ل يبحثوا عن أربعة رجال وكلب عند حدود يوتاه في الغرب، بدلًا من أن يبحثوا عن رجل واحد متخلف في الشرق. يجب أن يحضروهم أحياء وبأي ثمن.

الفصل الثاني والسبعون

قال جِلن بيتمان وهو ينظر إلى جراند چَنكشن في الصباح: «أُتعرِف؟ سمعت كثيرًا عبارة «هذا مُقَرَف» ولم أفهم معناها الدقيق إلا الآن». ونظر إلى إفطاره المكون من سَجق مُصَنَّع.

قال رالف: «لا، هذا جيد. لم تتذوق طعام الجيش».

كانوا جالسين حول النار التي أعاد لاري إشعالها، يرتدون سترات ثقيلة وقفازات ويشربون ثاني أكواب القهوة الصباحية. درجة الحرارة منخفضة والسما غائمة. ينام كوچاك في أقرب نقطة من النار لا يشتعل فيها فراؤه.

قال جِلن وهو يقوم: «لقد انتهيتُ من تغذية الرجل بداخلي. هاتوا القُمامة لأدفنها».

قال ستو وهو يعطيه طبقه الورقي: «يبدو أن المشي مناسب صحتك أيها الأصلع. يبدو أنك لم تكن بهذه الصحة منذ كنت في العشرين».

- نعم.. منذ سبعين عامًا.

جمع جِلن مخلفاتهم في الكيس الذي سيدفنه وهو يقول: «لم أكن أتمنى أن أُسَعيد صحتي بهذه الطريقة. بعد خمسين عامًا قضيتها مُلجِدًا، أتبع الآن إله امرأة سوداء عجوز، متجهاً إلى حتفي. هذا قدري. إلا أنني أفضل المشي على الركوب. المشي أبطأ، وهذا ما يسمح لي بالعيش مدةً أطول قبل أن نصل. معذرة يا شباب، سأذهب لأدفن هذه القُمامة دفنًا لائقًا».

راقبوه وهو يتجه بعيدًا عن المخيم. الرحلة أكثر مشقة على جِلن؛ هو أكبرهم عمرًا، بيد أنه سهَّل المهمة على الآخرين بسخريته اللطيفة وتصالحه مع نفسه. استمراره في المشي يومًا بعد يوم شجّع الآخرين وألهمهم. سأله ستو أمس وهو يراه يحرك أصابعه المتصلبة في ألم: «هل الألم شديد؟».

- التهاب مفاصل. الأسبرين يقلل الألم، لكنه لن ينفعني بعد ست سنوات تالية أو سبع يا رجل شرق تكساس. لا أتوق إلى العيش حتى هذه السن».

- هل تعتقد حقاً أنه سيقبل دخولنا؟

قال جلن بيتمان شيئاً غير متوقع: «لا أخاف شيئاً⁽¹⁾». وانتهى النقاش. يسمعون الآن يحفر الأرض الصلبة. قال رالف: «رجل عظيم». وافقه لاري: «نعم. هو كذلك».

- لطالما ظننتُ أن أستاذة الجامعة مُتخَنُّون، لكنه ليس كذلك. هل تعرف بماً أجابني عندما سألته عن سبب دفنه القمامة بدلاً عن تركها هنا؟ قال إنه لا يرغب في أن يرتكب أخطاء الماضي، وأننا ارتكبنا ما يكفي منها حتى الآن.

ابتسم لاري لمراى الكلب يُهرع نحو صاحبه ويتقافز حوله. خلع مقياس الأميال المثبت في حزامه، والذي عثر عليه في متجر جولدن سبورتس على الطريق. المقياس يُضَبِّط حسب طول خطوتك، ثم تعلقه في حزامك. في كل مساء يُدوّن لاري المسافة التي قطعوها في ورقة ملوية الأطراف كأذان الكلاب. طلب ستو أن يلقي نظرة عليها.

في بداية الصفحة كتب لاري: من بولدر إلى فيجاس 771 ميل. تحتها:

التاريخ	الأميال	إجمالي الأميال
6 سبتمبر	28.1	28.1
7 سبتمبر	27.0	55.1
8 سبتمبر	26.5	81.6
9 سبتمبر	28.5	109.8
10 سبتمبر	27.9	137.7
11 سبتمبر	29.1	166.8

(1) جزء من آية من الكتاب المقدس (الترجمة)

وهكذا حتى تاريخ 17 سبتمبر، الذي وصلوا فيه إلى إجمالي أميال 362.4 ميل.

أخرج ستو ورقة من جيبه وأجرى بعض الحسابات ثم قال: «نحن نقطع مسافات ممتازة، أفضل مما تصورنا. لكن أمامنا بعد أكثر من 400 ميل. نحن لم نقطع حتى نصف المسافة».

أوما لاري وقال: «لماذا تتعجل؟ الرجل سيمحونا حال وصولنا».

قال رالف: «أتعرف؟ أنا لا أصدق هذا. ربما سنموت طبعًا، لكن لن يقتلنا بهذه البساطة. لن ترسلنا الأم أباجيل لنقتل على الفور. ما الهدف من الرحلة إذن؟».

قال ستو بهدوء: «لا أصدق أنها هي التي أرسلتنا».

أعاد لاري ضبط مقياس الأميال، وأخذ ستو النار، ثم بدأوا ما ظلوا يفعلونه كل يوم منذ اثني عشر يومًا. التكرار والرتابة تُنسك ما ينتظر في نهاية الدرب، وما تركته خلفك.

تبدوله فراني في الصباح بعيدة.. واضحة، لكن بعيدة للغاية كأنها صورة محفوظة في خزانه، لكن في المساء تقترب حتى يكاد يلمسها.. وهنا يأتي الألم الحقيقي. في تلك اللحظات يتحول إيمانه بالألم أباجيل إلى شك، ويرغب في أن يصارحهم بأن ما يفعلوه خيال حقيقي، وأن عليهم البحث عن دراجات بخارية العودة إلى الديار على الفور، ليحصلوا على ما تبقى لهم من حب حتى يُنهي فلاج كل شيء.

لكن النهار يمحو كل هذا.. وها هم يُكملون رحلتهم على طريق 70-1.

بعد ظهيرة ذلك اليوم، هطلت الأمطار الباردة وقطعت الحديث. مشى لاري منفردًا ويده في جيبه. فكر في البداية في هارولد لودر الذي وجدوا جثته منذ يومين -بدا أن بينهم اتفاقًا غير منطوق على ألا يتكلموا عن هارولد لودر- فأبعد تفكيره إلى رجل الذئاب.

صادفوا جثة رجل الذئاب غرب نفق أيزنهاور. كان جسده متدليًا من نافذة سيارة أوستن وجثة ذئب جائمة على صدره ويدها حول عنق الحيوان، وحولهما جثث عدة ذئاب أخرى. بدا لهم أن قطيع ذئاب هاجم ذلك الرجل الوحيد، وكان مع الرجل مسدس فقتل منهم ما تمكّن من قتله ثم عاد ليختبئ

في السيارة. كم لبث فيها حتى دفعه الجوع إلى الخروج منها؟ ربما أسبوع. الرجل متجه إلى الغرب، في الغالب لينضم إلى أتباع الرجل الغامض، لكنّ لاري لم يكن ليتمنى ميتة كهذه حتى لشخص فاسد.

تحدث مع ستو في الأمر بعد يومين من ابتعادهم عن رجل الذئاب.

- لماذا قد تنتظره الذئاب كل هذا الوقت؟

- لا أعرف.

- أعني، إن كانوا يبحثون عما يؤكل، أما كان من الأفضل البحث في مكان آخر؟

- أعتقد هذا.

كان هذا لغزًا مخيفًا بالنسبة إليه، وظل يفكر فيه وهو موقن من أنه لن يجد له حلًا. يبدو أن الرجل الذي لا يفتقر إلى الشجاعة قد انتظر رحيل ما تبقى من الذئاب، حتى اشتد عليه الجوع، فقرر الخروج، فهاجمه الذئب ومزق عنقه قبل أن يموت.

خلال الأربعة نفق أيزنهاور مربوطين إلى بعضهم بحبل. تذكر لاري رحلته في نفق لينكولن، ولم تطارده صورة ريتا بلاكفور هذه المرة، بل رجل الذئاب.

هل أرسلت الذئاب لقتل ذلك الرجل.

هذا الخاطر أكثر إفزاعًا من قدرته على تحمل التفكير فيه. أبعد كل الأفكار عن رأسه واستمر في المسير.

خيموا تلك الليلة في يُوما الملاصقة لحدود ولاية يوتاه. تكوّن عشائهم من علف ماشية وماء مغلي. كانوا يتبعون تعليمات الأم أباجيل بدقة، ولم يحملوا معهم طعامًا، فأكلوا مما يجدونه في أثناء سفرهم.

قال رالف: «ستسوء أوضاعنا في يوتاه. هناك سنتأكد أكان الرب يرعانا حقًا. أمامنا مائة ميل كاملة بلا بلدات ولا مقاهٍ ولا محطات وقود».

سأله ستو: «ماذا عن الماء؟».

- ولا هذا. أعتقد أنني سأنام الآن.

حذا لاري حذوه، ومكث جِلن يُدخِّن غليونَه، وقرر ستو مشاركتَه بسيجاره
مما تبقى معه. جلسا يدخنان لدقائق قبل أن يقول ستو: «مسافة طويلة من
نيو هامبشير يا أصلع».

- ليست أكبر من المسافة من هنا إلى تكساس.

- لا...

- أوحشتكَ فران، أليس كذلك؟

- نعم.. أوحشتني وأنا قلق عليها وعلى الجنين. تسوء حال قلقي ليلاً.

- لا يمكنك تغيير شيء يا ستورات.

- أعرف. لكنني قلق.

أفرغ جِلن محتوى غليونَه على صخرة وقال: «حدث شيء غريب ليلة أمس
يا ستو. أمضيتُ اليوم أحاول أن أفهم أكان حقيقة أم حلمًا أم ماذا».

- ماذا حدث؟

حكى له ما حدث من الكلب، ثم أكمل: «قلت لنفسى ماذا لو كان الكلب
يستشعر وجود ذئاب؟ لم أنسَ ما رأيناه من رجل الذئاب كما يدعوه لاري...».

- نعم.

- لكنني لم أجد شيئًا. كان الكلب ينبح على لا شيء!

- ربما شم رائحة ما أزعجته.

- لم أحكِ لكَ ما يقلقني بعد. مرّت دقيقتان، وبدأتُ أشعر كأن.. كأن
شيئًا عند الطريق.. يراقبني.. يراقبنا جميعًا. كدتُ أراه، لو ضيقتُ
عينيَّ لرأيتَه، لكنني لم أرغب في أن أفعل لأنني شعرتُ أنه هو. فلاج يا
ستورات.

قال ستو بعد هنيهة: «ربما تخيلتَ هذا...».

- أنا متأكد من أنني شعرتُ بشيء، وهو الشيء ذاته الذي أثار كوجاك.

- هَبْه يراقبنا، فماذا قد نفعل بصدد هذا؟

- لا شيء. لكن لا يروق لي مراقبته إيانا.. هذا مرعب.

أطفأ ستو سيجارته ولم يبدُ ما يدل على رغبة في النوم. حذق إلى كوجاك
الرابض إلى جوار النار، ثم قال بعد حين: «إذن مات هارولد».

- نعم.

- خسارة لعينة. خسارة لسوزان ونك.. خسارة لنفسه.

- أوافقك.

كانوا قد فطنوا من مكان موت هارولد أن نادين قد أكملت طريقها إلى أرض الأحلام. نهشت الغريان جثة الشاب، لكنه كان متمسكًا بدفتره. مع أنهم لم يدفنوه، أخرج ستو المسدس من فمه برفق وهو يشعر بحسرة عليه، وحنق تجاه الرجل المتشح بالسواد الذي دمّره وألقى به على قارعة الطريق. لحظتها كره ستو فلاج أكثر من أي وقت مضى.

طارده منظر جثة هارولد المهشمة، كما طاردت لاري صورة رجل الذئاب. فطن إلى أنه يرغب حقًا في أن ينتقم من فلاج لما فعله بهارولد، كما يرغب في الانتقام منه لما فعله بسوزان ونك.. بيد أنه كاد يوقن أن الفرص لن تتاح له. قام جلن متألمًا وقال: «سأنام يا رجل شرق تكساس. لا ترجوني لأمكث معك. هذا حفل ممل».

- كيف حال مفاصلك؟

- ليس سيئًا.

ابتعد جلن، فقرر ستورات إشعال سيجارة أخرى رغم قلة ما معه. لم تكن الليلة باردة، لكنها تشي بانتهاء الصيف فعلاً. شعر بحزن عميق. ربما لن يشهد صيفًا آخر.

عندما خلد إلى النوم أخيرًا، رأى في حلمه شيئًا يقترب من مخيمهم، شيئًا يراقبهم في خبث. ربما كان ذئبًا بفهم بشري، أو غرابًا، أو ابن عريس. أو ربما كيانًا بلا جسد.. عين مراقبة.

غمغم ستو في حلمه: لا أخاف شرًا. نعم.. سأمشي في وادي ظل الموت ولا أخاف شرًا.. أبدًا.

ثم خبا الحلم.

أكملوا طريقهم في الصباح التالي. غادروا كلورادو في الثانية بعد الظهر وخيموا ليلاً في منطقة دوم، في يوتاه. خيم الصمت عليهم تلك الليلة وقد أدركوا أنهم صاروا رسميًا في الغرب.

حلم رالف في تلك الليلة بذئب ذي عين واحدة حمراء، يخرج من الأرض الجرداء ليراقبهم. صاح فيه رالف: ابتعد! ابتعد! نحن لسنا خائفين. نحن لا نخشاك...

في يوم الثاني عشر من سبتمبر، عبروا بلدة سيجو، وهي ثاني أكبر بلدة في يوتاه. لا بلدات بعدها ولا أي شيء لمسافة طويلة.. وقتها يعرفون حقاً أكان الرب يحميهم كما قال رالف.

قال لاري جِلن: «لستُ قلقاً بصدد الطعام كما أنا قلق بصدد الماء. سنجد سيارات في الطريق، وفي الغالب سنجد فيها ما يؤكل».

ابتسم جِلن وقال: «ربما يرسل إلينا الرب أمطارَ البركة».

نظر لاري إلى السماء الصافية وضحك ثم قال: «أحياناً أظنها فقدت عقلها قليلاً قبيل النهاية».

- ربما. لو قرأت في اللاهوت، فستعرف أن الرب يختار أحياناً أن يتكلم على لسان المجانين. يبدو لي أن في ذلك أسباباً نفسية مقنعة. المجنون والمُحتَضَر شخص قد تغيَّر روحياً بشكل ما، فيما الإنسان الصحيح قادر على إبعاد الرسائل الربانية أو تغييرها على حسب رغبته. باختصار، الإنسان السليم نبي مُخَفَّق.

قال لاري: «نعم.. نحن لا نفهم مُراد الرب، كأننا ننظر من خلال زجاج معتم. نحن الآن نرتكب أفعالَ المجانين حقاً».

- ما نفعه له سوابق تاريخية، وأنا أرى أسباباً نفسية واجتماعية لهذه المسيرة. لا أعرف أكانت هذه ذاتها أسباب الرب، لكنها منطقية بالنسبة إليّ.

اقترب ستو ورالف ليسمعا. أكمل جِلن: «اعتاد الكثير من قبائل الأمريكيين الأصليين اعتبار (تلقي الرؤى) مرحلة مهمة من مراحل طقوس البلوغ. عندما يحين الوقت لتصير رجلاً، تخرج إلى الغابات بلا عتاد ولا سلاح، فتصطاد فريسة وتؤلف أغنيتين، واحدة عن الروح العظمى، وواحدة عن مهارتك كصياد ومحارب وفارس ومُضاجِع.. ثم تتلقى الرؤيا. المفترض ألا تأكل، فقط ترتقي بدنياً ونفسياً وتنتظر الرؤيا، وهو شيء حتمي؛ التجويع أعظم عقار هلوسة».

سأله رالف: «هل تعتقد أن الأم أباجيل أرسلتنا إلى هنا لنرى رؤى؟».

- ربما كي نكتسب القوة والنقاء خلال عملية التطهير هذه. الزهد في الأشياء أمر رمزي كما تعرف. أمر طلسمي. عندما تزهد في الأشياء، فأنت تزهد في ما يتعلق بها رمزيًا، فتتطهر وتُخلي نفسك مما يشغلها. هزّ لاري رأسه وقال: «لا أفهم...».

- حسنًا. خذْ على سبيل المثال رجلًا ذكيًا من عصر ما قبل الوباء. اكسر تلفازه.. ماذا سيفعل في تلك الليلة؟
أجاب رالف: «سيقراً كتابًا».

وقال ستو: «سيذهب إلى أصدقائه».

ابتسم لاري وقال: «سيُشغل الراديو».

قال جلن: «كل هذا ممكن، لكنه سيفتقد هذا التلفاز، وستكون في حياته فجوة حيث كان الجهاز. سيظل عقله يفكر لا شعوريًا في خططه لمشاهدة التلفاز ليلاً حتى يعود إلى بيته ليجد مكانه الخاوي فيشعر بخيبة الأمل. لقد فقد الرجل جزءًا من طقوس حياته».

قال رالف: «نعم. تعطلّ تلفازنا أسبوعين من قبل، ولم أرتح إلا بعد إصلاحه».

- يختلف حجم الفجوة في حياتك حسب مدى مشاهدتك التلفاز. أحيانًا تُشفى تلك الفجوة. والآن أخرج من حياته الكتب والأصدقاء والراديو، وخذ منه أيضًا كل ما يملك إلا ما يجده في أثناء يومه. إنها عملية إجلاء تقضي على الأنا العليا. نحن نتحول الآن أيها السادة إلى زجاج شفاف.. أو لنقل؛ أكواب فارغة.

سأل رالف: «ما الهدف؟».

- لو قرأت كتابك المقدس لعرفت أن من عادة الأنبياء الخروج إلى أماكن موحشة من وقت إلى آخر، في الغالب لمدة أربعين يومًا وليلة. ألا يذكرك هذا بشيء؟

- الأم أباجيل.

- والآن فكر في نفسك على أنك بطارية. أنت فعلاً بطارية. عقلك يعمل بالكهرباء، وعضلاتك كذلك.. يفرز جسدك مركبًا كيميائيًا اسمه أسيتيل كولين يسمح بمرور الشحنات الكهربائية عندما تريد أن تتحرك، ويفرز

كولينيستريس عندما تريد أن تتوقف، وهو مُرْكَب يدمر الأسيتيل كولين فلا توصل أعصابك الشحنات. لولا تلك العملية لما استطعت أن تتوقف مثلاً عن حك أنفك حالما تبدأ بحكها. ما أريد قوله هو أن كل شيء تفعله وتفكر فيه يحتاج إلى مصدر طاقة. مشاهدة التلفاز والقراءة والخروج مع الأصدقاء وتناول عشاء ضخم.. كل هذا يُهلك البطارية. الحياة الأمريكية المعاصرة أشبه بسيارة حديثة بكامل كمالياتها. تشغيل كل شيء فيها يستهلك البطارية باستمرار. هل تفهمون؟

قال رالف: «نعم. واضح».

- ما نفعه الآن هو التخلص كل تلك الكماليات، فيُعاد شحننا.

احتجّ رالف: «لو وضعتَ بطارية سيارة على الشحن مدةً طويلة ستنفجر».

- نعم. الشيء ذاته مع البشر. يخبرنا الكتاب المقدس عن إشعياء وأيوب والآخرين، لكنه لا يذكر لنا شيئاً عن الذين عادوا من خلواتهم وقد احترقت عقولهم. أتخيل أنهم موجودون. مع ذلك أنا أحترم الذكاء البشري والنفس البشرية، رغم بعض الانتكاسات العقلية مثل ما يعانيه شرق تكساس هذا...

- لا تُدخِلني في أمثلتك يا أصلع.

- أريد أن أقول إن سعة العقل البشري أكبر بكثير من سعة بطارية ديلكو، وتتحمل إعادة شحنٍ لا نهائي، وربما أكثر في بعض الحالات.

مشوا صامتين دقائق يفكرون في ما قيل، حتى سأل ستو: «وهل نتغيّر؟».

أجاب جِلن: «نعم. أعتقد أننا نتغير».

قال رالف: «لقد فقدنا كثير من وزننا. فقدتُ كرشِي، والآن أستيقظ وأنا أنظر إلى أسفل فأرى قدمي».

قال لاري: «إنها حالة عقلية...»، نظر إليه الجميع فاحمرَّ وجهه، لكنه أكمل: «يراودني شعور منذ أسبوع ولم أكنُ أفهمه. أشعر كأنني.. مُنتَشٍ بمخدر. كأنني دَخَنْتُ نصف سيجارة حشيش نقي، أو تنشَّقتُ لمسة كوكايين، لكني لا أعاني أيَّ ما ينغص شعور النشوة بالمخدر. تفكيرِي متزن، أفضل مما سبق، لكني مُنتَشٍ». ضحك لاري ثم أضاف: «أو ربما هو تأثير الجوع».

وافقه جِلن: «الجوع جزء من هذا الإحساس، وليس كله».

قال رالف: «أنا أيضًا جائع طوال الوقت، لكن لم يعد الجوع يهمني. أشعر أنني بخير».

أكد ستو: «وأنا أيضًا. أنا لم أشعر بهذه الصحة منذ سنوات».

قال جلن: «لقد صرنا أوعية فارغة. أفرغنا ما بداخلنا من شوائب مادية ومعنوية».

- لك طريقة مُنمقة في التعبير يا أصلع.

- مُنمقة، لكنها دقيقة أيضًا.

سأله رالف: «وهل سيساعدنا هذا في مواجهتنا إياه؟».

- لا شك في هذا، لكن لننتظر ونر. أليس كذلك؟».

خرج كوجاك من خلف أعشاب جافة كان يتبول خلفها، وسار بمحاذاة لاري الذي قال له: «كوجاك.. هل كنت تعرف أننا بطاريات؟ بطاريات ديلكو كبيرة بضمان مدى الحياة؟».

لم يبدو أن كوجاك مهتم بالموضوع، لكنه هزَّ ذيله مُجاملةً على أي حال.

خيّموا ليلاً على بعد خمسة عشر ميلاً من سيجو. هذه هي أول مرة لا يجدون فيها ما يؤكل منذ غادروا بولدر. كان مع جلن بقايا قهوة، تشاركوا شربها من كوب واحد.

في الصباح التالي -يوم الثاني والعشرين- مرّوا بسيارة فورد فيها أربع جثث. وجدوا فيها صندوقَي بسكويت مملح وكيّس شرائح بطاطس كبير، فقسّموا الطعام على خمستهم.

في الليل خيّموا شرق جرين ريفر، وهطلت عليهم غلالة جليد في الصباح الباكر.

وصلوا إلى مِنطقة تآكل الصخور بعد ظهيرة يوم الثالث والعشرين. كانت السماء غائمة طوال اليوم، والجو بارد ينذر بهطول الثلج مرة أخرى. وقفوا على حافة التآكل ينظرون إلى ما أمامهم وحولهم. لقد تداعى سدّ في مكان ما شمالاً، أو ربما سيول صيفية متأخرة. أيّا كان، مِنطقة سان رافيل

غارقة، والماء أخفى ثلاثين قدمًا من الطريق 70-1. يصل عمق الماء إلى خمسين قدمًا، والاضفاف زلقة سيخة.

هتف رالف: «رباه! على أحدهم أن يتصل بقطاع طرق يوتاه على الفور». أشار لاري: «انظر إلى هناك...».

نظروا إلى الخلاء، حيث الأعمدة الحجرية التي نحتتها الرياح. بعد مائة ياردة منها خط سكة حديد وممر مُعبَّد بالحصى. نظر جِلن إلى الممر ويدها في جيبه شاردًا. بصوت منخفض سأله ستو: «هل تستطيع السير حتى هناك يا جِلن؟».

- بالتأكيد. أعتقد.

- كيف حال التهاب مفاصلك؟

- أسوأ... لكنه أفضل أيضًا بشكل ما.

لم يكن معهم حبل ليربطوا بعضهم ببعض. نزل ستو أولًا ومشى بحرص على الضفة الزلقة. خلخلة الأرض تحته أفلقتة، وانزياح الحصى والصخور تحته كاد يُسقطه لينزلق إلى الماء. تمسك بصخرة ناتئة للحظات حتى تمالك نفسه ونزل إلى الممر الجاف. نزل كوجاك بعده، يركل التراب فتخور الأرض تحت قوائمه في أنفاق رفيعة. بعد لحظات وصل إلى حيث وقف ستو وهزَّ ذيله في فخر. هتف ستو: «يا لك من كلب متفاجر».

قال جِلن: «أنا قادم. سمعتُ ما قلته عن كلبى».

- احترس يا أصلع. الأرض مخلخلة للغاية.

نزل جِلن بحرص، وتحرك بخفة. أجفل ستو كلما رأى التراب ينساب من تحت حذائه الثقيل، وشعره الفضى يطير حول وجهه بفعل النسيمات الباردة. تذكر أنه يوم التقى جِلن أول مرة، كان شعره أسودَ مختلطًا بالشيب.

أخيرًا وصل جِلن إلى الأرض الصلبة، فزفر ستو زفرة راحة وربّت على كتفه. قال جِلن، وهو يداعب فراء الكلب: «سهلة يا شرق تكساس».

نزل رالف تاليًا، وقف آخر ثمانى ياردات وهو يهتف: «اللعة.. هذه الأرض مخلخلة كالذقيق. أتمنى أن نستطيع العبور إلى الضفة الأخرى، وإلا اضطررنا إلى السير وسط الماء أربعة أو خمسة أميال حتى نجد ضفةً أكثر انخفاضًا».

قال ستو: «بل الخوف الحقيقي من سيل آخر يغرقنا فيما نبحث».

لحق بهم لاري بعد ثلاث دقائق، ثم نظر إلى الضفة المقابلة وسأل: «مَنْ سيصعد أولاً؟».

قال جِلن: «لماذا لا تبدأ أنت أيها الرشيق؟».

- بالتأكد.

استغرق التسلق وقتاً كبيراً، إذ ظلت التربة تنهار من تحته وتسحبه إلى أسفل. أخيراً وصل إلى القمة ولوّح لهم. سأل رالف: «مَنْ التالي؟».

مشى جِلن نحو الضفة، فقال ستو: «اسمع.. لنمش على هذا الممر حتى نجد ضفة أقل انحداراً من هذه كما اقترح رالف».

- ونضيّع باقي اليوم؟ وأنا صغير كنت أصعد هذه الضفاف في أقل من أربعين ثانية، ولا يزيد نبضي على السبعين.

- لكنك لم تعد صغيراً يا جِلن.

- لا، لكني بعد قادر.

قبل أن يعترض ستو، بدأ جِلن التسلُّق. توقف ليرتاح في ثلث المسافة، ثم أكمل. قرب منتصف الطريق تشبث في حجر ناتئ، فانخلع. للحظة أيقن ستو أنه سيتدحرج حتى الأسفل ليُدق عنقه.

رفرف جِلن بذراعيه واحتفظ بتوازنه بطريقة ما. تسلق عشرين قدماً وارتاح ثم أكمل. قرب النهاية كاد ينزلق لولا أمسك لاري يده ورفعته. هتف جِلن: «سهلة!».

ابتسم ستو وقال: «كيف حال نبضك يا أصلع؟».

اعترف جِلن: «فوق التسعين على ما أعتقد».

تسلق رالف المنحدر كأنه ماعز جبلي، ثم أشار لستو ليصعد.

قبل أن يهوي ستو بلحظات، كان يفكر في أن صعود هذه الضفة أسهل من هبوط الأخرى. شعر ستو بتأثير الماء في الأحجار قرب وصوله إلى القمة. كان قد ارتكن على صخرة ليصعد آخر بضع ياردات، ثم لم يجدها تحت يده فجأة، ووجد نفسه ينزلق إلى أسفل. مدّ لاري يده سريعاً لكنه لم يلحق به. حاول ستو التشبّث بقطعة أسفلت من الطريق، فانشقت وهوت، وتزايدت سرعة سقوطه. شعر كأنه القيوط من أفلام الكرتون، إذ يهوي من حالق

وخطوط سرعة من خلفه. ارتطمت ركبته بشيء، فاندلع ألم حارق. حاول أن يمسك بأي شيء، إلا أن كل شيء حوله كان يهوي معه.

اصطدم بجلمود ناتئ من الأرض فخرج الهواء من رئتيه، ثم هوى عشر أقدام أخرى حتى هبط على ساقه المعوجة من تحته وسمعها تنكسر. الألم غير محتمل. صرخ. التراب يدخل إلى فمه، والحصى يخدش وجهه وذراعيه. تدحرج ليرتطم بساقه المكسورة لتتكسر مرة أخرى، ثم انزلق على بطنه آخر خمس عشرة قدمًا. رقد بالأسفل غارقًا في الطين، قلبه يدق بعنف في أذنيه، وسترته وقميصه مرفوعان حتى ذقنه.

لقد كُسِرَتْ، ما مدى فدح الإصابة؟ كسران في مكانين على الأقل، وخلع في مَفْصِل الركبة.

نزل لاري المنحدر في محاكاة لما حدث مع ستو للتو، ثم ركع إلى جواره يسأله ما سألته ستو لنفسه منذ لحظات. أجاب ستو وهو يرتكن على مرفقيه ويرفع جذعه: «أعتقد أنني سأمشي مرة أخرى بعد ثلاثة أشهر تقريبًا». نظر إلى السماء شاعرًا بالغثيان، ثم كَوَّر قبضتيه ورفعهما وهو يصيح: «سحقًا!».

تَبَّتْ لاري ورالف الساق المكسورة، وأعطاه جِلن قرصًا مما يسميه (دواء مفاصلي). لا يعرف ستو ما في تلك الأقراص، ورفض جِلن أن يخبره، إلا أن الألم قد خَفَتْ فعلاً وشعر بسكينة. خطر له أنهم يعيشون جميعًا في الوقت الضائع، لا لأنهم ذاهبون لملاقة فلاج فقط، بل لأنهم نجوا من كابِتِن ترييس في المقام الأول. على أي حال هو يعرف مهمته وسيؤكد من أنه أنجزها على أكمل وجه. أنهى لاري حديثه، وانتظروا ردّه، فقال: «لا».

قال جِلن برفق: «ستو، يجب أن تفهم...».

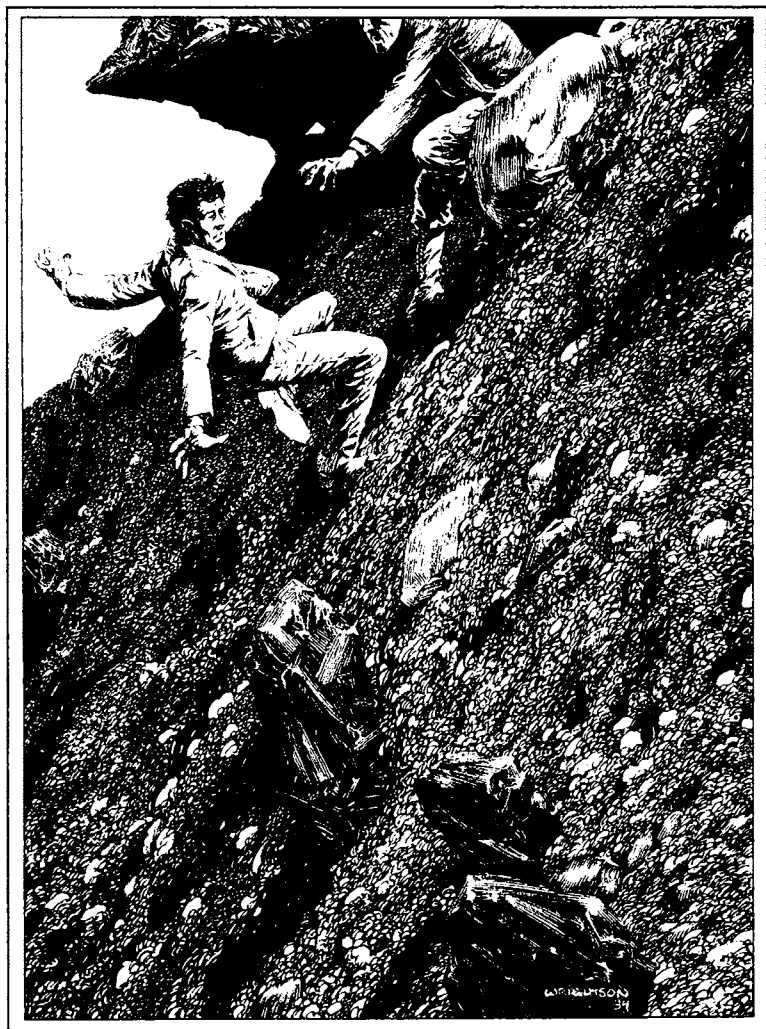
- أفهم، وقلت لا. لن نعود إلى جرين ريفر، ولن نستخدم حبلًا ولا سيارة ولن نخالف قواعد اللعبة.

صاح لاري: «هذه ليست لعبة لعينة! ستموت هنا!».

- وأنتم ستموتون حتمًا في نيقادا. والآن ارحلوا. لديكم أربع ساعات من النهار. لا داعي إلى إضاعتها.

- لن نتركك.

- آسف، لكنكم ستفعلون. أنا أطلب منكم هذا.



هتف لاري: «لا. أنا من يتولى القيادة الآن. لقد قالتِ الأم إنه إن حدث لك مكروها...».

- ...لا بُدَّ تكملوا طريقكم.

- لا. لا!

نظر لاري إلى جِلِن، ورالف مستنجدًا، فنظرا إليه مهمومين. جلس كوجاك بالقرب منهم يراقبهم وذيله ملفوف حول قوائمه.

قال ستو: «اسمع يا لاري. الرحلة كلها مبنية على أن العجوز تعرف ما تتكلم عنه. إن بدأنا في مخالفة تعليماتها، فسنغامر بإفساد كل شيء».

قال رالف: «هذا صحيح...».

زعم لاري مقلدًا لكنة رالف المُسطَّحة الأوكلاهوميَّة: «لا، ليس صحيحًا أيها المخبول!»، ثم أكمل: «سقوط ستو ليس من مشيئة الرب ولا من عمل الرجل الغامض. كل هذا بسبب الأرض المخلخة فقط! لن أترك يا ستو، لن أترك أحدًا خلفي بعد الآن».

قال جِلِن بهدوء: «بل سنتركه...».

حدق إليه لاري غير مصدق ما سمعه، كأنه خانه. هتف: «ظننتك صديقه!».

- أنا صديقه. لكنَّ الصداقة لا تهم الآن.

ضحك لاري ضحكة هستيرية وابتعد بضع خطوات وهو يقول: «أنت مجنون! هل تعرف ذلك؟».

- لست مجنونًا. لقد عقدنا اتفاقًا. وقفنا حول فراش موت الأم أباجيل وعهدناها. لقد كنا نعرف بأننا موتى ووافقنا على الرحلة. يجب أن نكمل.

- أنا أريد أن نكمل! لا يمكن ألا نعود إلى جرين ريفر.. سنجلب شاحنة وننقله على ظهرها، ونكمل مسيرتنا...

قال رالف: «المفترض أن نمشي، وستو غير قادر على المشي».

قال ستو: «لاري...».

قبل أن يُكمل عبارته، جذب جِلِن قميص لاري وجذبه نحوه هاتفا بصوت بارد: «مَن الذي تحاول إنقاذه؟ أنت أم ستو؟».

نظر إليه لاري مدهوشًا، فأكمل جِلن: «الأمر غاية في البساطة. لا يمكن أن نمكث هنا، وهو لا يستطيع أن يمشي معنا».

همس لاري بوجه ممتقع: «أنا أرفض هذا....».

قال رالف فجأة: «إنه اختبار».

فقال لاري: «اختبار جنون ربما».

هتف ستو من مرقدته: «لنصوّت. أنا أصوّت لمصلحة رحيلكم».

قال رالف: «وأنا أيضًا. آسف يا ستو، لكنّ إن كان الرب يرعانا، فربما يركاك أيضًا....».

قال لاري: «أنا أصوّت ضد الرحيل».

هتف جِلن: «أنت لا تفكر في ستو، أنت تحاول فقط أن تنقذ شيئًا بداخلك. لكنّ هذا هو وقت الماضي قديمًا يا لاري. يجب أن نفعل».

مسح لاري فمه ببطء بظهر كفه، ثم قال: «لنبيت هنا الليلة ونفكر».

قال ستو: «لا».

أومأ رالف ثم نظر إلى جِلن الذي أعطى علبة دوائه المسكن لستو وهو يقول: «هذه الأقراص هي مورفين، ما يزيد على ثلاثة أقراص أو أربعة جرعة مميتة. هل تفهم يا شرق تكساس؟».

- أفهم.

صاح لاري: «عمّ تتكلم؟! ماذا تقترح عليه?!».

أجاب رالف: «ألا تعرف حقًا؟»، فصمت لاري، ومرت أمامه صورة ريتا المنتحرة. صرخ: «لا!»، وحاول جذب الأقراص من يد ستو، فأمسكه رالف من كتفيه. قال ستو: «دعه. أريد أن أتحدث معه. اتركه».

تركه رالف، لكنه ظل متأهبًا للانقضاض عليه مرة أخرى. قال ستو: «اقترّب يا لاري. اجلس هنا».

جلس لاري إلى جوار ستو نظر إليه في تعاسة وقال: «لا يمكن أن تفعل هذا يا رجل. عندما يصاب أحد لا يمكن أن تتركه ليموت. ألا تعرف هذا؟ مهلاً يا رجل....»، أمسك وجه ستو برفق وأكمل: «أرجوك. فكر».

قبض ستو على كفي لاري وهمس: «هل تظنني مجنونًا؟».

- لا... لكن...

- وهل تظن أن للعاقلين حقاً في تحديد مصيرهم؟

- أوه يا رجل...

وبدأ يبكي. أكمل ستو: «لاري، أريد أن تكمل الرحلة. إن خرجت من فيجاس، فمروا من هنا. ربما يرسل إليّ الرب مَنْ يُطعمني. مَنْ يعرف؟ قرأتُ مرة أن في وسع الإنسان أن يعيش بلا طعام سبعين يوماً لو أن معه ماء».

- ستموت من البرد حتى لو لم تأخذ الأقراص.

- هذا ليس قرارك. لستَ جزءاً مما حدث لي.

- لا تبعديني يا ستو.

- أنا أبعدك.

- هذا مقرف!

وقف لاري وأردف في غضب: «ماذا ستقول لنا فران عندما تعرف أننا تركناك للضواري والنسور؟».

- لن تقول شيئاً ما لم تصلوا إلى فلاج وتجهزوا عليه. لن تقول شيئاً لا هي ولا لوسي وديك إليس ولا براد ولا أي من الأهالي هناك. لن يكون لهم وجود...

- حسناً، سنرحل لكنْ غداً. سنخيم هنا الليلة، وربما نرى حلماً أو.. أي شيء...

قال ستو برفق: «لن نحلم. لن نرى علامات. لا تسير الأمور على هذا النحو. ستبيت ليلة ولن يحدث شيء، فتقرر أن تبيت ليلة أخرى وهكذا. اذهبوا الآن».

مشى لاري مبتعداً منكس الرأس، وقال بصوت مسموع بالكاد: «سنفعل ما تريد.. وليرحم الرب أرواحنا».

اقترب رالف من ستو وسأله: «هل نحضر لك شيئاً؟».

ابتسم ستو قال: «نعم، أريد كل ما كتب جور فيدال.. لطالما رغبتُ في قراءة كل هذا، والآن صار عندي وقت لقراءته».

ضغط رالف على ذراعه، ثم ابتعد. اقترب جِلن الذي كان يبكي، وجلس إلى جوار ستو، فقال الآخر: «لا تبك يا صغيري.. سأكون بخير».

- لاري على حق. هذا تصرف مقرف...

- لكنه ضروري.. حتمي.

- مَنْ يعرف ما سيحدث. الأقراص معك يا شرق تكساس. وداعاً.. تشرفتُ حقاً بمعرفتك...
- لا تودعني يا جِلن.. تكفي (إلى اللقاء). قد تصعد بضع أقدام ثم تتعثّر وتسقط بجانبى، ونمضي الشتاء كله هنا معاً.
- نعم.. لكني لا أخاف شراً، أليس كذلك؟ إلى اللقاء إذن.
- إلى اللقاء يا جِلن.
- اقترب الثلاثة من بعضهم على الجانب الغربي من الممر الصخري، وبعد نظرة إلى الخلف بدأ جِلن التسلق. نظر لاري إلى ستو، فقال الأخير: «أنت القائد الآن. مستعد؟».
- لا أعرف. سأحاول.
- أنت من سيتخذ القرارات.
- حقاً؟ يبدو أن أول قرار لي كقائد لم يُنفذ.
- سيكون القرار الوحيد الذي لن يُنفذ. اسمع.. سيمسك رجاله بكم.
- أعرف. إما سيعتقلوننا وإما سيطلقون علينا النار من بعيد كأننا كلاب مسعورة.
- أعتقد أنهم سيعتقلونكم وينقلونكم إليه. سيحدث هذا خلال الأيام القليلة التالية. عندما تصلون إلى فيجاس، أبقوا أعينكم مفتوحة وانتظروا.. سيحدث.
- ما الذي سيحدث يا ستو؟
- لا أعرف.. أياً كان ما أرسلنا من أجله. استعدوا.. ستعرفونه متى يحدث.
- سنعود إليك لو استطعنا. أنت تعرف هذا.
- نعم.
- صعد لاري الضفة سريعاً وانضم إلى الآخرين. لوحوا له فلوح ستو لهم، ثم رحلوا، ولم يروا ستو ريدمان مرة أخرى.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثالث والسبعون

قطعوا مسافة قليلة تلك الليلة، فقد فقدوا جزءًا من قلوبهم وشجاعتهم في الممر الصخري، وتعلّق ذنب كل منهم أمامه كالمرآة. حول النار جلسوا بلا طعام. دخّن جِلن آخر تبغ معه وهو يتساءل أكان مع ستو سجاثر. بعد لحظات حطّت بومة بالقرب منهم. نظر جِلن حوله وسأل: «أين كوچاك؟».

قال رالف: «غريب.. أدركتُ الآن أنني لم أره منذ ساعتين».

قام جِلن وناداه مرارًا، ولم يُجبه إلا رَجْعُ صوته. جلس مرة آخر في كآبة. لقد تبعهم الكلب خلال نصف القارة والآن اختفى. هذا نذير شؤم..

سأله رالف: «هل تعتقد أن مكروها أصابه؟».

همس لاري: «ربما مكث مع ستو».

غمغم جِلن: «ربما...».

قال لاري: «لقد قال ستو إن الرب سيُرسل إليه مَنْ يُطعمه، ربما أرسل إليه كلبًا».

عندما رأى ستو الهيئة القاتمة التي تقترب من عمق الممر الصخري، انكمش على نفسه وألصق ظهره بالجلمود وراءه. تحسس ما حوله حتى وجد حجرًا كبيرًا فقبض عليه.

مكث كوچاك معه حتى الغروب، ثم رحل ولم ينادِه ستو. سيجد الكلب طريقه إلى الآخرين. ربما له دور في المسرحية، إلا أنه تمنى لو مكث الكلب أكثر. ليس له مخرج سوى الأقراص، بيد أنه لا يرغب في أن تمزق ذئاب فلاج جثته.

رفع الحجر ببطء وهو يرى الهيئة الداكنة تتوقف هنية، ثم تكمل سيرها نحوه.. وتهز ذيلها.

- كوجاك!

وضع الكلب ما كان يحمله بين فكيه أمام ستو، ثم جلس وراح يضرب الأرض بذيله. هتف ستو: «كلب طيب!».

فتح ستو بطن الأرنب بسكينه، وأعطى الكلب أحشاءه، ثم سلخه وهو يفكر في أن التهامه نيئاً لا يناسب شهيته. قال لكوجاك دون أمل في إجابة: «خشب؟».

كان حول ستو فروع أشجار وأغصان مما جرفه الماء إلى الممر العميق، وكلها بعيدة عن مناله. هز الكلب ذيله ولم يتحرك.

- اجلب خشبة...

اختفى كوجاك سريعاً عند نهاية الممر، ثم عاد بقطعة خشب كبيرة وضعها إلى جوار ستو ونبح وذيله يتأرجح بقوة. ضحك ستو وكرر أمره مرة أخرى، فانطلق الكلب. خلال عشرين دقيقة جمع له كوجاك ما يكفي لإشعال نار ضخمة.

جلس ستو بالقرب منها، وتمدد كوجاك إلى جواره وأنفه بين ذراعيه. شوى ستو الأرنب وسط نظرات الكلب المتأهبة وقال له: «نصفه لك ونصفه لي».

بينما يأكلان، سمعا عواء. هبَّ كوجاك واقفاً، فانقطع العواء بغتة. ظل ستو ممسكاً بالحجر في يد وبسكينه في اليد الأخرى.

ومر الوقت.. نام بعد قليل بمساعدة قرص من أقراص جلن، وبعدما اطمأن كوجاك على أمنهما، نام إلى جواره فمنحه الدفء. هكذا أكل ستو وجاع الآخرون، ونام مطمئناً فيما قضى الآخرون ليلتهم في قلق وكآبة، وقطعت نومهم كوابيس مظلمة.

في يوم الرابع والعشرين من سبتمبر، قطعت مجموعة الحُجاج الثلاثة ثلاثين ميلاً، وخيموا شمال شرق سان رافييل. انخفضت درجة الحرارة ليلتها عشرين درجة، وناموا ملتصقين بالنار، ولم يلحق بهم كوجاك. سأل رالف لاري: «تُرى ماذا يفعل ستو الآن؟».

- يموت.

قالها مُقتضبةً، ثم نِدِمَ لمرأى الألم على وجه رالف. لا سبيل لسحب ما قال، إلا أنها الحقيقة.

تمدد وهو يفكر في أنه موقن أن ما سيحدث سيحدث غداً تحديداً.

حلم بأنه في جولة موسيقية مع فريق شهير. اعتلى المسرح ووقف أمام الميكروفون وسط صخب الجمهور وتهليله. حاول تعديل ارتفاعه لكنه كان مُتصلباً. دار بين كل ميكروفونات الفريق بحثاً عن واحد يلائم طوله، إلا أن ارتفاعها كلها كان يربو على الأقدام التسع. وقف يحدق إلى الكوبرات المعدنية المنتصبة حوله. الجمهور يهتف مطالباً بأغنية «هل تفهمين رجلك». لم أعد أؤدي هذه الأغنية. توقفتُ عن غنائها لحظة انتهى العالم. لم يسمع أحد حديث نفسه، وبدأ الجمهور ينشد كلمات الأغنية بصوت مُزَلزل.

استيقظ وأصواتهم في أذنيه، والعرق يغمر كامل جسده. لم يحتج إلى تفسير جِلن للحلم ومعناه. حلم الميكروفون العالي المُتصلب حلم شائع بين مغنيي الروك، مثله كمثّل حلم نسيان كلمات الأغنية على المسرح.

بيد أن هذا ليس حلمَ مغني روك، بل سؤال حقيقي: ماذا لو أنني لا أستطيع؟ ماذا لو أنني أريد ولا أستطيع. إنه عاجز عن الإيمان بنفسه. تذكر اتهامات أمه له بالأخذ دون عطاء. غمغم: «لا يا أمي.. لم أعد أغني تلك الأغنية منذ انتهى العالم.. أقسم لك».

حاول أن يعود إلى النوم مرة أخرى، وآخر ما فكر فيه هو أن ستو على حق، وأن الرجل الغامض سيعتقلهم. غداً.. أيّ كان ما سيحدث، سيحدث غداً.

لم يصادفوا أحداً في يوم الخامس والعشرين. مشواً وسط الطبيعة المحتشدة بكل أنواع المخلوقات إلا البشر. قال جِلن: «مذهل كيف تتعافى الحياة البرية. كنت أعرف أن التعافي سيكون سريعاً، لكني لم أتوقع هذه السرعة. لم يمر أكثر من مائة يوم منذ اجتياح الوباء».

قال رالف: «نعم، لكن لا كلاب ولا خيول. هذا غريب، أليس كذلك؟ لقد اخترعوا مرضاً يُجهز على كل البشر، ولم يكتفوا بذلك، بل جعلوه يقتل أكثر مخلوقين يحبهما البشر. لقد قتل الوباء الإنسان وأصدقَ أصدقائه». ثم أضاف فجأةً مُستبشراً: «لكنَّ كوجاك موجود».

غمغم لاري: «كان موجودًا».

وَأَدَّتْ عِبَارَتُهُ الْحَوَارَ. ظل شعور لاري أن الواقعة ستقع اليوم ينغص عليه المسيرة. كلما اعتلوا تَبَّةَ ظَن أنهم سيجدون تحتها مَنْ يقطع عليهم الطريق. خَيَّمُوا لَيْلاً جَوَارَ لافْتة عاكسة مكتوب عليها: لاس فيجاس 260 ميلاً. حلم لاري حلمًا مشابهاً، ظل فيه ينتقل من ميكروفون إلى آخر هو يفكر في أن ما سيحدث.. سيحدث غداً.

ولم يحدثُ شيء غداً ولا بعد غدٍ.

خَيَّمُوا ليلة السابع والعشرين في بلدة فريماونت حيث وجدوا طعاماً وفيراً. قال لاري لجِلِن: «لا أنفك أتوقع أن يكون اليوم هو الأخير، ولا يحدث شيء، فيزيد توترى».

- أشعر بالشيء ذاته. سيكون ذلك قريباً لو أن هذا الشعور سراب. مجرد حلم من وعينا الجَمعي. فكر لاري لحظاتٍ، ثم هَزَّ رأسه رافضاً التفسير الأخير. ابتسم جِلِن، وقال: «أنا أيضاً لا أصدقه».

بيد أنهم التقوا مَنْ يترقبون لقاءه في اليوم التالي.

في العاشرة صباحاً، رأوا وهُم فوق مُرتفع على الطريق سيارتين تقطعان الطريق على بعد خمسة أميال. سأل جِلِن: «حادث؟».

ظَلَّلَ رالف عينيه وقال: «لا أظن. إنهما متوقفتان أمام بعضيهما عن عَمَد». قال لاري: «إنهم رجاله».

مسح لاري عرقه. إما أن الصيف عاد اليوم وإما أن هذا جو الصحراء المعتاد. مرة أخرى يشعر أن كل هذا مسرحية لا أكثر.

- لنذهب إليهم ولنرَ أكان الرب معنا حقاً. أليس كذلك يا جِلِن؟

- أنت الزعيم.

مشوا نصفَ ساعة أخرى حتى تمكنوا من رؤية لوحات السيارتين وعرفوا أنهما تابعتان لشرطة يوتاه. بداخل كل منهما عدة رجال مسلحين. سأل رالف: «هل سيطلقون الرصاص علينا؟».

- لا أعرف.

- بعض هذه بنادق قنّاصة. لو أرادوا قتلنا، فسنكون في مرماهم في أي لحظة من الآن.

اقتربوا أكثر. ترَجَّل الرجال وانقسموا إلى فريقين، خمسة في صف أمامي يصوبون مسدسات نحو الثلاثة القادمين، وثلاثة في الخلف وراء السيارتين. سأل جِلن: «ثمانية، أليس كذلك يا لاري؟».

- نعم. مستعدان؟

قال رالف: «ما دمت تعرف ما سنفعله عندما يحين الوقت».

قبض لاري على كف رالف للحظات، ثم فعل الشيء نفسه مع جِلن. قال رالف: «لو كانوا سيطلقون علينا النار لفعلوا الآن».

استطاع لاري تبيُّن وجوههم. واحد مُلتح، وواحد صغير السن أصلع، وواحد يرتدي تي شيرتًا أصفرَ بلا أكمام مطبوعًا عليه رسمٌ جمل يضحك. رجل آخر يبدو كأنه مُحاسب متوتر ثلاثة أضعاف توتر لاري نفسه. قال رالف: «هم لا يختلفون في شيء عن رجالنا».

اقتربوا حتى مسافة عشرين قدمًا من السيارتين، ثم توقف لاري وتوقف رفيقاه. امتد الصمت فترةً طويلةً بين رجال فلاج والحُجَّاج الثلاثة. قال لاري أندروُد أخيرًا: «كيف الحال؟».

خطا المحاسب إلى الأمام وهو يرتجف، حاملاً مسدس ماجنوم. سألهم: «هل أنتم جليندون بيتمان ولوسون أندروُد وستورات ريتمان ورالف برينتير؟».

قال رالف: «ألا تعرف كيف تعد يا غبي؟».

- مَنْ ينقصكم؟

أجاب لاري: «ستو أصيب في حادث على الطريق، وما لم تتمالك أعصابك فستصاب في حادث إطلاق نار من مسدسك ذاته».

سَرَت ضحكات مكتومة. استطاع المحاسب أخيرًا أن يدسَّ مسدسه في حزامه، ما جعله يبدو أكثر سخفًا. قال: «اسمي بول بُرلسن. بالسُّلطة الممنوحة لي، أعتقلكم وأمركم بالمجيء معي».

سأل جِلن: «مَنْ منحك السُّلطة؟».

نظر إليه بُرلسن هنيهة، ثم قال متردداً: «أنت تعرف مَنْ».

- انطقها إذن.

لم يتكلم بُرلسن. سأله جِلن: «أنت خائف؟»، ثم قال للآخرين: «أنتم خائفون منه إلى درجة أنكم تخشون النطق باسمه؟ اسمه راندال فلاج، ومعروف باسم الرجل الغامض والطويل والماشي والمُمتشح بالسواد. ألا تطلقون عليه هذه الألقاب؟».

علا صوته بالغضب. نظر بعض الرجال إلى بعضهم وتراجع بُرلسن خطوة.

- ادعوه بَعْلزبول⁽¹⁾، لأنه هذا هو اسمه أيضاً. ادعوه نيارلاثوتب⁽²⁾ وآحاز⁽³⁾، أستاروث⁽⁴⁾. ادعوه ريلاه⁽⁵⁾، وست وأنوبيس⁽⁶⁾. هو الفيلق، مبعوث الجحيم، وهأنتم تتملقونه».

هدأ صوته عند نهاية كلماته، ثم ابتسم مضيئاً: «فكرتُ فقط في وجوب توضيح هذه النقاط قبل كل شيء».

هتف بُرلسن: «أمسكوهم، وأطلقوا الرصاص على أول مَنْ يتحرك».

للحظات لم يتحرك أحد. فكر لاري: لن يطيعوا أمره. إنهم خائفون منا كما نحن خائفون منهم، وربما أكثر. حتى ونحن غير مسلحين...

نظر إلى بُرلسن وقال: «ماذا تقول أيها الأخرق؟ نحن نريد أن نذهب معكم، ولهذا جئنا».

فتحرك الرجال كأن كلام لاري أوامر. جلس هو ورالف في سيارة وجِلن في الأخرى، وتكدس الرجال في المقعد الأمامي لكلتا السيارتين. زفر رالف، فسأله لاري وهم يتجهون غرباً: «خائف؟».

(1) من أسماء الشيطان، وهو اسم لإله فينيقي (الترجمة)

(2) شخصية شيطانية من ابتكار لافكرافت (الترجمة)

(3) ملك من ملوك يهوذا حسب كتاب التناخ المقدس اليهودي (الترجمة)

(4) من ملوك الجحيم بحسب علم الشياطين اللاهوتي الكاثوليكي (الترجمة)

(5) مدينة مفقودة ذُكرت في روايات لافكرافت (الترجمة)

(6) من آلهة مصر القديمة (الترجمة)

- لا أعرف حقًا. لا أستطيع تحديد شعوري.

سأل أحد الرجال: «هل الشيخ الثرثار هو قائدكم؟».

- لا. أنا.

- ما اسمك؟

- لاري أندروُد. هذا رالف برينتتر، والآخر جِلن بيتمان.

- ماذا حدث لرابعكم؟

- كُسِرَت ساقه، فتركناه وأكملنا.

- أنتم عمليون، هه؟ أنا باري دورجان. من أمن فيجاس.

قبل أن يجيب لاري: «تشرفتُ بلقائك» أطبق شفثيه لحظة، ثم قال: «متى سنصل؟».

- لا يمكن أن نسرع بسبب التكدسات على الطريق. ربما نصل خلال خمس ساعات.

قال رالف: «أليس هذا مذهلاً؟ لنا على الطريق ثلاثة أسابيع، والسيارة تقطع ما تبقى في خمس ساعات فقط».

دار دورجان في مجلسه حتى يتمكن من النظر إليهما وقال: «لا أفهم.. لماذا تسرون؟ بل لماذا أتيتم أساساً؟ لا بُدَّ أنكم تعرفون هذه نهايتكم».

أجاب لاري: «نحن مُرسلون.. لقتل فلاج».

- لا تُمنِّ نفسك كثيرًا يا صاحبي. أنت وصديقك ستُنقلون إلى السجن مباشرة. إنه مهتم بكم اهتمام خاص. كان يعرف بمجيئكم. تمنوا فقط أن يقتلكم قتلة نظيفة سريعة بيد أنني لا أعتقد أنه سيفعل. مزاجه متعكر هذه الأيام.

سأله لاري: «لماذا؟».

شعر دورجان أنه تكلم بما يكفي فسكت. تابع رالف ولاري مشاهدة الصحراء تجري حولهما. السرعة صارت رفاهيةً هذه الأيام بعد ثلاثة أسابيع من المشي.

وصلوا إلى فيجاس بعد ست ساعات، تلك المدينة المدفونة في الصحراء كسراب. في الشوارع أشخاص كُثُر يتنزّهون بعد يوم عمل، أو يجلسون أمام

عتبات الأبواب وقاعات الزفاف والملاهي الليلية. نظر لاري حوله. لقد أوصلوا الكهرباء وأزالوا سدّات الطرق ونظفوا الشوارع من الجثث. قال لاري: «كما توقع جِلِن، ربما هم أكثر نشاطاً وتنظيماً منا. لكن هل هم قادرون على الحفاظ على هذا التطور؟ كل الرفاق هنا يعانون العصبية والقلق يا دورجان».

لم يقل دورجان شيئاً. ترجّل لاري عند سجن المقاطعة، ورأى دورجان يحمل أصفاداً، فهتف: «مهلاً، بربك!».

- آسف. هذه أوامره.

قال رالف ولكنّه البطيئة التي زاد وضوحها مع غضبه: «لم أقيّد بأصفاد من قبل. كانت الشرطة تسحبني وتضعني في السيارة مباشرة. كان هذا قبل زواجي طبعاً».

- هذه هي الأوامر. لا تُصعّبوا الأمور.

- أوامر؟ أعرف من يأمرك. لقد قتل نك صديقي. ما الذي يجعلكم عالقين إلى هذه الدرجة مع ذلك الكلب المسعور؟ أنت رجل دمث الأخلاق فعلاً. هز دورجان رأسه وأبعد عينيه عن نظرات رالف الحانقة المُستجيبة. قال: «هذا عملي، وأنا أؤديه. مدّوا أيديكم قبل أن أستخدم أحداً يجذبها».

صفّد رالف ولاري. سأله الأخير: «ماذا كنت تعمل من قبل؟».

- مُحقق ثانٍ. شرطة سانتا مونيكا.

- والآن تعمل معه؟! اعذرني، لكنّ هذا غريب فعلاً.

دُفع جِلِن نحوهما لينضم إليهما. سأل دورجان في حَنَق: «لماذا تدفعون الرجل هكذا؟».

أجاب أحد رجاله: «لو كنت قد سمعتَ ثرثرته ستّ ساعات لفعلت أكثر مما نفعل».

- لا يهمني ما سمعتموه. أبعدوا يديكم عنه.

ثم قال دورجان للاري: «لماذا تتعجب من انضمامي إليه؟ لقد عملتُ شرطياً عشر سنوات قبل كابيتن ترييس، وأعرف ما يحدث عندما يتولى أمثالك القيادة».

قال جِلِن: «اسمع أيها الشاب. خبرتك مع المجرمين ومتعاطي المُخدّرات لا تُسوِّغ انضمامك إلى مُعسكر مسخ».

غمغم دورجان: «أودعوهم في زنازين منفصلة، وفي أجنحة منفصلة».
أكمل جلن: «لا أعتقد أنك ستستطيع العيش متصالحًا مع خياراتك أيها الشاب. لا تبدو نازيًا بما يكفي».
هذه المرة دفعه دورجان بنفسه.

فُصلَ لاري عن الآخرين واصطُحب خلال ممر محفوف بلافتات مكتوب عليها: لا تبصق. الحمامات والتطهير - هذا الاتجاه. أنت لست ضيفًا.

قال لاري: «لن أمانع في الاستحمام».

قال دورجان: «سنرى...».

- أي شيء سنرى؟

- سنرى أنكنت متعاونًا بما يكفي.

فتح دورجان الزنزانة آخر الرواق وأدخل لاري الذي سأله: «ماذا عن الأصفاد؟».

حرره منها وسأله: «أفضل هكذا؟».

- كثيرًا.

- أما زلتَ راغبًا في الاستحمام؟

- أكيد.

لم يكن لاري راغبًا في أن يظل وحده، لا أكثر. لو حدث هذا سيتملّكه الذعر. أخرج دورجان دفترًا صغيرًا من جيبه وقال: «كم شخصًا يعيش في المنطقة الحرة؟».

- ستة آلاف. نلعب بينجو كل خميس، والجائزة ديك رومي وزنه عشرون رطلاً.

- هل ترغب في الاستحمام أم لا؟

- أرغب.

كان موقفًا من أنه لن يستحم.

- كم عددكم؟

- خمس وعشرون ألف. أربعة آلاف تحت سن الثانية عشرة، ويدخلون السينما دون تذاكر يا للأسف. هذا مضر للاقتصاد كما تعرف.

أغلق دورجان الدفتر وحقق إليه. قال لاري: «لا أستطيع يا رجل. ضع نفسك مكاني!».

- لا أستطيع أن أضع نفسي مكانك لأنني لست مجنوناً. لماذا جئتم حقاً؟ سوف يقتلكم غداً أو بعد غد لا محالة، وإن كان يريد إرغامكم على الحديث فسيفعل. إنه قادر على إرغامكم على أي شيء. أنتم مجانين.

- أمرتنا الأم أباجيل بالمجيء. لا بُدَّ أنك حلمت بها.

نظر دورجان إلى عيني لاري وقال: «لا أعرف عمَّ تتحدث».

- إنن لننوقف هنا.

- طبعاً.. أنت لا تريد أن تتحدث معي؟ لا ترغب في الاستحمام؟

ضحك لاري وقال: «لن أعترف بشيء. أرسل جاسوساً إلى الشرق واعرف منه ما تريد، هذا إن وجدت جاسوساً لا يتحول إلى ابنِ عَرِسٍ حالما يُذكر اسم الأم أباجيل».

- كما تشاء.

رحل دورجان وأغلق بوابة الجناح خلفه. نظر لاري حوله. هو مثل رالف، دخل السجن مرة أو اثنتين بتهمة التعاطي وحياسة ماريجوانا. أيام الشباب... نظر إلى الفراش العفن. لا بُدَّ أن سجيناً مات هنا في يونيو أو يوليو. المرحاض يعمل لكنه مليء بالماء الصديء علامة أنه لم يُستخدم منذ مدة طويلة. ترك أحدهم في الزنزانة رواية، التقطها لاري ثم أعادها إلى مكانها على الفور. جلس على طرف الفراش يُنصت للصمت. لطالما خشي الوحدة حتى وصل إلى المنطقة الحرة. ما زال يخشاها، لكنه قد اعتادها نوعاً.

سوف يقتلكم غداً أو بعد غد لا محالة...

لا يصدق لاري هذا. لن يقتلهم بهذه الطريقة. غمغم في النهاية: «لا أخاف شراً».

تمدّد على الفراش وفكّر في أنه وصل تقريباً إلى الساحل الغربي، بيد أن الرحلة كانت أطول وأكثر غرابة مما تصور.. رحلة لم تنتهِ بعد.

ثم نام، نوماً هادئاً بلا أحلام.

في العاشرة من صباح اليوم التالي، جاء راندال فلاج ولويد هينريد لمقابلة جِلن بيتمان الذي كان متربعا على أرضية زنزانته. كان قد وجد قطعة فحم تحت فراشه، فكتب بها مشاركته على الحائط المزدهم برسوم الأعضاء التناسلية والأسماء وأرقام الهواتف.

أنا لستُ الخَزَاف، ولستُ عَجَلَة الخَزَاف، بل طين الخَزَاف. ألا تعتمد قيمة الشكل الذي سأبدو عليه في النهاية على قوة العَجَلَة ومهارة الخَزَاف؟

كان جِلن ينظر في إعجاب إلى ما كتب، عندما هبطت درجة حرارة الزنزانة عشر درجات فجأة، وانفتحت بوابة الجناح. جف حلقه، وانكسرت قطعة الفحم بين أصابعه.

سمع صوت قرع كعبي حذاء يضربان الأرض في ثقة، من خلفه صوت مشابه أقل ثقة، يحاول اللحاق به.

إنه هو.. وسأرى وجهه أخيرا.

ساعات حالة مفاصله فجأة، كأن عظامه محشوة بالزجاج المهشم. مع ذلك رسم ابتسامة على وجهه وتهايا لمقابلة الواقف أمم الزنزانة.

قال جِلن: «حسناً.. ها أنت ذا. لا تبدو بُعْبُعاً أبداً كما لا بُدَّ أن تكون».

يقف رجلان أمام الزنزانة. فلاج الباسم عن يمين جِلن يرتدي سروال جينز وقميصاً حريراً أبيض، وخلفه رجل أقصر لا يبتسم، فكه السفلي بارز، وعيناه كبيرتان غير متناسقتين مع وجهه. بشرته بيضاء محترقة مقشرة بفعل حرارة الصحراء، يعلق حول رقبتة حجراً أسود ذا شائبة حمراء.

قال فلاج ضاحكاً: «أريد أن أقدم لك مساعدي، لويد هينريد. هذا هو جِلن بيتمان، أستاذ علم اجتماع وواحد من أعضاء لجنة المِنطَقة الحرة وأبرز مفكريها لما كان نك قد مات».

غمغم لويد: «سُررت لمقابلتك».

- كيف حال مفاصلك يا جِلن؟

صوت فلاج متعاطف، إلا أن عينيه تشعان بالمرح والمعرفة. فتح جِلن كفه وأغلقها بسرعة وهو ينظر إلى عيني فلاج. لن يعرف أحد الجُهد الذي بذله كي يحافظ على ابتسامته رغم الألم الشديد.

قيمة الطين الحقيقية!

قال جِلن: «بخير، وصرتُ أفضل مع النوم في داخل مكان مغلق. شكرًا». خبِتِ ابتسامه فلاج بعض الشيء، ولمح جِلن شيئاً من الدهشة والغضب.. أم الخوف؟

قال فلاج وقد اتسعتِ ابتسامته: «قررتُ أن أطلق سراحك».

شهو لويده تعجباً، فالتفت فلاج نحوه وسأله: «أليس كذلك يا لويده؟» - أ... طبعاً.. أكيد...

قال جِلن ببساطة: «جميل».

التهاب مفاصله يؤلمه أكثر، يحرقه كالنار، يجمّد عظامه كالجليد.

- سنعطيك دراجة بخارية صغيرة تعود بها إلى موطنك.

- لكنني لن أعود دون صديقيّ.

- طبعاً لا. كل ما تحتاجون إليه هو أن تطلبوا مني. اركعوا أمامي واطلبوا ما تشاءون.

ضحك جِلن، ملء شدقيه. رفع رأسه وضحك طويلاً، وبينما يضحك قل ألمه وشعر بقوة مفاجئة. قال في النهاية: «أوه، أنت مضحك! سأقترح عليك شيئاً أفضل. لماذا لا تبحث عن تل رمال كبير، وتأخذ معك مجرفة جيدة، ثم تحشر كل هذا الرمل في مؤخرتك؟».

دكن وجه فلاج واختفت ابتسامته، وتحولت عيناه الداكنتان كحجر لويده إلى لون أصفر مشع. قبض على آلية غلق الباب، فسمع جِلن صوت أزيز ثم اشتغل القفل وسقط على الأرض. صرخ لويده هينريد. جذب فلاج القضبان فانفتحت الزنزانة.

- توقف عن الضحك.

ضحك جِلن أكثر.

- كف عن الضحك!

مسح جِلن عينيه الدامعتين وقال من بين ضحكاته: «أنت نكرة. اعذرني.. لقد كنّا خائفين.. من شدة خوفنا تصورناك شيئاً مهيباً.. أنا أضحك على حماقتنا وقلة...».

- اقتله يا لويده...

وجه فلاج مفزع، يدها متقلصتان كِمَخْلَبَيْنِ. قال جِلْن: «أوه.. اقتلني بنفسك إن كنت ستقتلني. بالتأكيد تستطيع فعل ذلك. سَمْنِي بِإصبعك ليتوقف قلبي. ارسم علامة الصليب المقلوب وامنحني نزقًا مخيًِّا. اصعقني ببرق من السماء وشُقْنِي إلى نصفين. أوه.. كم أن هذا مضحك حقًا...».

جلس جِلْن على الفراش وراح يتمايل ضحكًا. هدر الرجل المتشح بالسواد: «اقتله!».

شاحب مرتجف مرتعب، استلَّ لويد مسدسه من جرابه فكاد يسقط منه على الأرض. صوّبه نحو جِلْن بكلتا يديه. نظر إليه الأخير وهو مبتسم. حان الآن وقت تحويل الحوار الهزلي إلى اتجاه أكثر رزانة.

- إن كنت ستقتل أحدًا يا سيد هينريد، فاقتله.

- اقتله يا لويد.

ضغط لويد الزناد دون أن يصوب بدقة. تردد صدى الرصاصة قويًا مزلزلاً وأصابت الرصاصة الحائط وراء جِلْن على بعد بوصتين من كتفه.

هدر فلاج: «ألا يمكنك فعل أي شيء بدقة؟! اقتله أيها الأحمق! اقتله! الرجل أمامك مباشرة!».

- أنا أحاول...

لم تخبُ ابتسامة جِلْن، أجفل قليلاً فقط إذ عبرت الرصاصة بالقرب منه. قال: «أكرر. إن كنت ستقتل أحد، اقتله. أنت تعرف أنه غير بشري. وصفته في مرة على أنه آخر سحرة التفكير العقلاني يا سيد هينريد. الأمور تخرج من سيطرته وهو يعرف هذا.. وأنت أيضًا تعرفه. اقتله الآن وأنقذنا جميعًا».

تصلَّب وجه فلاج وهتف: «اقتل واحدًا منا يا لويد. لقد أخرجتك من السجن وأنقذتك من الموت جوعًا. أمثاله ممن يتكلمون ولا يفعلون هم أعداؤك الحقيقيون».

قال لويد: «لن تخدعني أيها السيد. كما قال فلاج».

- لكنه كاذب وأنت تعرف.

- لقد أخبرني بحقائق لم يهتم أحد بإخباري بها طوال حياتي البائسة. أطلق لويد الرصاص على جِلْن ثلاثًا، فتمايل وتلوى كدمية قماشية، وتطايرت الدماء في كل صوب. ارتطم بالفراش أخيرًا ثم ارتدَّ عنه وسقط على

الأرض. رفع رأسه وهمس: «لا بأس يا سيد هينريد. أنت لا تعرف شيئاً سوى القتل...».

صرخ لويد: «اخرس أيها الشيخ المتحاذق!»، ثم أطلق الرصاص على وجهه، ثم مرة أخرى على جسده الميت. ظل يطلق الرصاص عليه ويبيكي، تبلل الدموع وجهه وهو يتذكر الأرنب الذي نسيه حتى أكل نفسه. تذكر بوك ومن قتلهم في المتجر، وتذكر جورج وسجن فوينكس والفأر والحشرات التي أكلها من فراشه. تذكر تراسك وساقه التي نهشها. ضغط الزناد مرة أخرى فصدرت من السلاح تكة لا أكثر. لقد انتهت الرصاصات.

قال فلاج برفق: «لا بأس.. أحسنت.. أحسنت يا لويد...».

رمى لويد المسدس على الأرض وانكمش مبتعداً عن فلاج. صاح: «إياك أن تلمسني! أنا لم أقتله من أجلك!».

- بل قتلته من أجلي. ربما لا تعتقد هذا، لكنك فعلت من أجلي.

مدَّ يده إلى الحجر المعلق على صدر لويد وقبض عليه، ثم فتح كفه مرة أخرى فاختم الحجر وظهر مكانه مفتاح فضي. قال الرجل الغامض: «لقد وعدتك بهذا في سجن آخر. هو مخطئ، أنا أحفظ وعودي. أليس كذلك يا لويد؟».

- بلى...

- الآخرون يرحلون أو يخططون للرحيل. أعرف هذا وأعرف أسماءهم.

- إذن لماذا لا...

- لماذا لا أمنعهم؟ لا أعرف. أعتقد أن الأفضل أن أتركهم. أنت يا لويد خادمي المخلص، صح؟

- نعم.. نعم، أعتقد...

- من دوني ما كنت لتنجو من السجن.

- نعم.

- الشاب لودر هذا كان يعرف أنني قادر على جعله أعظم لذا جاءني، إلا أن رأسه كان مليئاً بالترهات و...

بدا حائراً، مرتبكاً، مسناً.. أشاح بيده وابتسم فقط ثم أكمل: «ربما تتدهور الأوضاع يا لويد، لكن مع الساحر بعض الحيل المُخبأة في كُمه. اسمعني،

الوقت لا يسع لإيقاف.. لإيقاف الأزمة بهدوء. إن كنا نريد اجتثاثها، فلا بُدَّ أن ننهي الأمر مع أندروُز وبرينتزر غدًا. والآن أنصت لي...».

لم يخلد لويد إلى الفراش إلا بعد منتصف الليل، ولم ينم إلا قرب الشروق. تحدث مع الرجل الفأر، وبول بَرلسن وباري دورجان الذي أكدوا له أن في وسعهم تنفيذ -وعليهم تنفيذه- ما يريد فلاج قبل الشروق. تم الاتفاق في العاشرة مساءً يوم التاسع والعشرين. جاء مجموعة عمال ومعهم مطارقهم وصواميلهم ومواسيرهم الطويلة التي ركبوها على الدرجتين أمام النافورة، وسرعان ما احتشد الناس.

هتف ديني: «يبدو أن هذا عرض صواريخ يا ماما أنجي!».

- نعم، لكنَّ هذا وقت نوم الصغار.

جذبت الولد مبتعدةً خائفةً، تشعر بأن شيئاً مُروِّعاً على وشك الحدوث. شيء في فضاغة الوباء ذاته.

اقتربتْ چولي لوري من الرجل الفأر؛ الرجل الوحيد الذي لم تضاجعه -إلا مضاجعات خاطفة- لغرابة شكله. كان يرتدي ملابس أشبه بملابس القراصنة الإثيوبيين؛ سروالاً حريراً وحزاماً أحمر وقلادة فضية حول عنقه الأسود. سألته: «ما الأمر يا فأر؟».

- الرجل الفأر لا يعرف يا عزيزتي، لكنَّ الرجل الفأر خَمَّن. بالتأكيد خَمَّن. يبدو أن غدًا سيحدث أمر سيئ. أمر سيئ. هل تريدان مضاجعة سريعة مع الفأر؟

- ربما، فقط لو عرفتُ ما الذي يحدث.

- كل الناس ستعرف غدًا.

بخلود لويد للنوم، كان كل شيء قد تَمَّ ورحل الحشد.

وضعوا قفصين على الدرجة الخلفية تجاه النافورة، على جانبي كل قفص فتحتان مربعتان. أربع سيارات توقفتُ على مقربة، مثبت إلى كل منها خُطاف قَطَر، مثبت في كل خطاف سلسلة حديدية ثقيلة، ويعبر طرف كل سلسلة من الفتحات المربعة على جانبي كل قفص، في نهاية كل طرف صَفَد معدني.

في فجر الثلاثين من ديسمبر، سمع لاري باب الجناح يُفتح، وصوت خطوات يُهرَع خلال الرواق. كان لاري مستلقيًا على الفراش...
(يفكر؟ يصلي؟)

الاثنان واحد. أخيرًا اندمل جرح نفسه وشعر بالسلام. اندمجت شخصيته -الحقيقية والمثالية- في كيان حي واحد. كانت أمه لتسعد بهذا، وكذلك ريتا بلاكمور.

سأمت. وإن كان هناك إله -أومن الآن أنه موجود- فهذه مشيئته. سنموت، وسينتهي كل هذا نتيجة لموتنا.

شك في أن جلن مات. سمع صوت إطلاق نار قريب من الجهة التي اقتادوا إليها جلن. لقد كان مُسنًا مريضًا على أي حال.

وصلت الخطوات إلى زنزانته وسمع صوتًا مرخًا يهتف: «قُم يا ذا اللحية العجيبة. ها قد جاء الرجل الفأر لذي المؤخرة الشاحبة».

نظر لاري إلى القرصان الأسود أمامه، والذي يحمل سيفًا في يده، وخلفه بُرلسن.

سأل لاري: «ما الأمر؟».

أجاب القرصان: «إنها النهاية».

- حسنًا.

قام لاري، فتكلم بُرلسن سريعًا وقال: «أريدك أن تعرف أن ما سيحدث ليس فكرتي».

- لا شيء مما يحدث هنا فكرتك كما أرى. مَنْ قُتِلَ أمس؟

أجاب وهو ينظر إلى الأرض: «بيتمان. حاول الفرار».

غمغم لاري: «حاول الفرار؟»، ثم ضحك، فحاكاه القرصان مستهزئًا. ضحكا معًا. انفتح باب الزنزانة وصَفَّده بُرلسن. قال لاري: «حاول الفرار.. إم.. في يوم ستُقتل يا بُرلسن وأنت تحاول الفرار أيضًا»، ثم قال للقرصان: «وأنت أيضًا أيها الفأر».

ثم ضحك مرة أخرى ولم يضحك معه أحد.

مشوا إلى نهاية الرواق، فقابلوا رالف ومعه خمسة رجال. قال رالف في حزن: «لاري.. هل سمعت؟ هل أخبروك؟».

- نعم.

- الأوغاد. لقد نكأ جراحهم، أليس كذلك؟

هتف واحد من الحرس: «صمتاً! انتظروا حتى تشاهدوا ما أُعدَّ لكم. ليكون هذا حفلاً غير مسبوق».

بدا الرجال خائفين، مضطربين، شاحبين، كأن ظلاً يجثم على صدورهم، يخنقهم. ركبوا سيارة نقل المساجين في فناء السجن. قال رالف لصاحبه همساً: «سمعتُ واحداً منهم يقول إن كل مَنْ في فيجاس سيشهدون عذابنا. هل تظنهم سيصلبوننا يا لاري؟».

- شيء مثل هذا.

- أنا مرتعب. أكره الألم. لم أذهب مرة إلى طبيب خوفاً من المحاقن. ماذا عنك؟

- أنا أيضاً مرتعب. هلا اقتربت مني أكثر؟

اقترب رالف أكثر وجلسا متلاصقين للحظات. كان لاري مرتعباً إلى حد لا تصفه الكلمات. غمغم: «لا أخاف شراً...». إلا أنه كان خائفاً. أغمض عينيه وفكر في لوسي، في أفكار عشوائية من طفولته وماضيه وأغانيه. لم يكن خائفاً من الموت، فقد تصالح مع الفكرة، وآمن أنه مرحلة انتقالية.. مكان ينتظر فيه حتى يحين موعد اللعب. لكنه خائف...

توقفت السيارة وانفتح باباها ليدخل النور، فيشيخ لاري ورالف بوجهيهما للحظات، وسمعا همهمات عالية، أشبه بهمهمات الجمهور قبل العروض الموسيقية. لذا عندما ترجل من السيارة عرف ما ينتظره، ولم يتغير تعبير وجهه. سمع صوت شهقة رالف خلفه وهو ينزل.

إنهما أمام فندق هائل، على جانبي المدخل هرمان ذهبيان، أمامهما شاحنتان بصندوقين مفتوحين، فوقهما قفصان مصنوعان من المواسير.

وحولهما الجمهور...

ظل الناس يفدون من كل صوب، منهم شباب يحملون حبيباتهم فوق أكتافهم ليروا العرض بشكل أفضل.

صوت الهمهمات أقرب إلى صوت الحيوانات المحتشدة في مكان ضيق.

مرّ لاري بعينيه على عينيّ كل واحد منهم، فتحاشوا النظر إليه مباشرة. بدا كل وجه مدموغًا بالموت الذي اعتاد مشاهدته.. خائفًا.. حائرًا.. ومع ذلك حاضر يراقب.

سيق هو ورالف إلى القفصين. لاحظ رالف السيارات والسلاسل والخطاطيف، إلا أن رالف هو مَنْ فهم علاقتها ببعضها، هو الذي قضى عمره وسط المُعَدَّات والعربات.

قال بصوت جاف: «لاري.. سيمزقوننا!».

هتف به الرجل الفأر وهو ينفث رائحة الثوم في وجهه: «أجل يا ذا اللحية العجيبة. أنت وصديقك ستركبان النمر حالًا!».

صعد لاري إلى قفصه.

- اخلع قميصك!

خلع لاري قميصه ووقف عاريّ الجذع. هواء الصباح البارد يداعب جلده برفق. كان رالف قد خلع قميصه فعلًا. فقد الاثنان كثيرًا من وزنيهما من المشي، وبرز قفصاهما الصدريان. غمغم الواقفون ثم صمتوا.

تحرك باري دورجان من مكان إلى آخر، يعطي الأوامر ويتحقق من التجهيزات وعلى وجهه تعبير اشمئزاز. ركب أربعة سائقين السيارات الأربعة وشغلوا محركاتها. رمى رالف واحدًا من الأصفاد المتدلية داخل القفص إلى الخارج، فارتطمت برأس بُرلسن، فتوتّر الحشد.

هتف دورجان: «أنت لا تحب ما سيحدث يا رفيق. سأضطر إلى إرسال مَنْ يقيدك».

قال لاري لرالف: «اتركهم يفعلوا ما سيفعلون». ثم قال لدورجان: «باري.. هل علموك هذه الحيلة في شرطة ساننتا مونيكا؟».

سرت موجة ضحكات بين الحضور، وهتف صوت شجاع: «عنف الشرطة! هذا غير قانوني!». احمرّ وجه دورجان ولم يُعلّق. دفع السلاسل إلى داخل زنزانه لاري فبصق الأخير عليها. هلل الواقفون تحيةً. فكر لاري: ربما يثورون.. ربما يعترضون.

إلا أن قلبه لم يصدق هذا. وجوههم جامدة.. احتجاجاتهم بلا معنى. هذا صوت طلبة يصخبون في أروقة مدرسة لا أكثر. بيد أنه استشعر انفلاتًا ما وفلاج يسمح به. قد يفر هؤلاء في جنح الليل إلى أي مكان في الكوكب

المهجور، ولم يحرك ذلك ساكنًا في فلاج؛ هو لا يريد سوى المهمين منهم فقط مثل دورجان وبُـرلسن. سيدفع الفارون ثمن فرارهم لاحقًا عندما لا يجدون مَنْ يؤويهم.

لن يثور هؤلاء...

دخل دورجان والفأر ورجل آخر إلى الزنزانة معه وصَفَّـوه، ثم طلب منه باري أَنْ يخرج ذراعيه من الفتحتين. قال لاري: «أليس القانون والانضباط أمران رائعان يا باري؟».

- مُدَّ ذراعيك إلى الخارج عليك اللعنة!

- لا تبدو بخير يا دورجان؟ كيف حال قلبك؟

- أقولها لك للمرة الأخيرة يا صاحبي، مُدَّ ذراعيك خارج الفتحتين.

فمدهما لاري. أغلق الرجال الباب عليه. نظر لاري إلى رالف فوجده على حاله نفسها.

صاح لاري بصوت جَهْـوَرِي يتقنه من أيام الغناء: «ما بِكم أيها الناس؟! لا أتوقع أَنْ توقفوا ما يحدث، لكنني أتمنى أَنْ تتذكروه! نحن سَنُـعـدم لأن راندال فلاج خائف منا! خائف منا ومن جماعتنا! تذكروا موتنا! تذكروا أَنْ المرة القادمة سيحين دوركم في الموت هذا، بلا كرامة، وداخل قفص حيوانات!».

غمغم الناس وهمهموا، وتصاعد الغضب.. ثم ساد الصمت.

نادى رالف: «لاري!».

فلاج ينزل درجات الفندق ولويد إلى جواره. الأول يرتدي سروالَ جينز وقميصًا بنقش المربعات فوقه سترته المميزة بلا كُـمـين. صدح صوت قرع كعبي حذائه وسط السكون.. كأنه صوت الزمن.

الرجل الغامض يبتسم.

حدق إليه لاري. توقف فلاج بين القفصين ونظر إلى أعلى. ابتسامته غامضة ساحرة. إنه رجل المسيطر بالكامل، وعرف لاري أنه يشهد الآن نقطة تنوير حياته.

نظر فلاج إلى الحشد فلم ينظرْ إليه أحد مباشرة. ناوله لويد المرتبك المرتجف ورقة ملفوفة حول نفسها، فكَّها الرجل الغامض ورفعها ثم بدأ

يقرأ بصوت رنان عميق قوي، يسري في الهواء كما تسري تموجات الماء على سطح بحيرة.

«لقد صدّقتُ على ما في هذا المستند، أنا راندال فلاج، بتاريخ الثلاثين من سبتمبر من عام ألف وتسعمائة وتسعين، والمعروف باسم العام الأول؛ عام الوباء».

هتف رالف: «فلاج ليس اسمك! لماذا لا تخبرهم باسمك الحقيقي».

همهم الحضور مدهوشين، ولم يكثرثُ فلاج لهذا.

«هذان الرجلان، لوسون أندروُد ورالف برينتتر، هنا في فيجاس، يضمنان نيةً خبيثةً. دخلا الولاية تسللاً، وتحت ستر الظلام...».

هتف لاري: «كنا نمشي على طريق رقم 70 في وضح النهار، وألقوا القبض علينا ظهيرة! هل تعتبر هذا تسللاً تحت ستر الليل؟!».

تحمل فلاج ما قيل، كأنه يعترف بحق رالف ولاري في الدفاع عن نفسيهما.. إلا أن هذا لن يشكل أي فارق.

«هذان الرجلان مسؤولان عن انفجار مروحياتنا في إنديان سبرينجز، من ثمّ هما المُتسببان في مقتل كارل هيو، وبِل چيميسون، وكليف بينسون».

تلاقتُ عينا لاري ورجل من الصف الأول. لم يكن يعرف أنه ستان بيلي، مدير التشغيل في إنديان سبرينجز. رأى على وجهه تعجباً ودهشة، وغمغم بشيء لم يتبيّن.

«أرسلتُ جماعةً هذين الرجلين جواسيس، وقتلناهم. لذا حكمنا عليهما بالإعدام تمزيقاً، ودون هودة أو رحمة. وجب على كل واحد منكم أن يشهد عقابهما كي تتذكروه وتخبروا به من غاب عنا اليوم».

ابتسم فلاج ابتسامةً أقرب إلى تكشيرة قرش، وأضاف: «مَن معه أطفال الآن، ينسحب من الحضور».

استدار نحو السيارات التي تنفث العادم في هواء الصباح. فيما يفعل، انطلق رجل ضخم ممتقع الوجه من بين الزحام، يرتدي مريولة طاهٍ بيضاء.

كان لويد قد استعاد اللقافة من فلاج، فأجفل وجعّد اللقافة لمرأى ويتني هورجان ينزعها منه، فتمزّقت. هتف ويتني: «أيها الناس!».

واجه ويتني الحشد وهو يرتجف. ظل ينقل نظره بين الرجل الغامض والحشد بلا توقف. مشى دورجان نحو الطاهي، فأوقفه فلاج بإشارة من يده.
- هذا ليس صحيحًا! أنتم تعرفون!

سكت الجميع كأنهم تحولوا إلى شواهد قبور. تقافزت تقاحة آدم في عنق ويتني كأنها قرد وهو يكمل: «لقد كنا في الماضي أمريكيين! لا يتصرف الأمريكيون على هذا النحو! أعرف أنني مجرد طاهٍ، لكنني أعرف أن هذه ليست أفعال الأمريكيين. الإنصات لغريب الأطوار ذي حذاء رعاة البقر...».

شهو الوافدون الجدد، وتبادل رالف ولاري نظرات تعجب. أكمل ويتني والعرق يجري على وجهه كالدموع: «هذا هو الأمر! هل ستقفون هكذا لتشاهدوا رجلين يُمزقان؟ هل تظنون هذه هي الطريقة المثلى لبداية جديدة؟ أن أؤكد لكم أن هذا المشهد لن يغادر كوابيسكم إلى الأبد!».

تبادل الحضور عبارات خافته، أكمل ويتني: «يجب أن نتصدى لهذا! هل تعرفون ذلك؟ يجب أن نفكر في... في...».

- ويتني...

وصل إلى أذنيه صوت هادئ هامس، أخرس الطاهي تمامًا. التفت نحو فلاج وشفثاه تتحركان بلا صوت.

- ويتني.. كان الأفضل لو صمت.. كنت سأتركك ترحل.. فيم أحتاج إلى وجودك؟

تحركت شفثا ويتني وعيناه شاخصتان.

- اقترب يا ويتني.

همهم ويتني: «لا».

لم يسمع أحد ما قال سوى رالف ولاري. تحرك حذاؤه الخفيف ببطء على العشب تجاه فلاج.

حلق الجمع إليهما بأفواه مفتوحة.

- أعرف خطتك. أعرف ما كنتَ تنتوي فعله قبلها. كنتَ سأتركك ترحل قبل أن أستعيدك بعد عام أو عشرة. لكنك ضيعتَ الفرصة يا ويتني. صدقني.

استطاع ويتني أن ينطق أخيرًا، فقال بسرعة وبصوت هادر: «أنتَ لستَ بشريًا! أنتَ.. شيطان!».

مد فلاج إصبعه ليلمس ذقن ويتني وقال بصوت لم يسمعه سوى رالف ولاري: «هذا صحيح. أنا كذلك».

انطلقت كرة نار زرقاء من طرف إصبع فلاج مع صوت فرقة بسيطة. شهِقَ الجَمْع...

صرخ ويتني ولم يتحرك. اشتعل لحم ذقنه وتصاعدت رائحة الاحتراق. دخلت الكرة إلى فمه، فانغلقَت شفتاه وكبتت الصرخة وراء عينيه الجاحظتين. أحرقت الكرة خديه. أغمضت عينيه...

توقفت داخل جمجمته، خلف جبهته. كرّر رالف بلا توقف: «لا أخاف شرًا.. لا أخاف شرًا...».

تحركت الكرة إلى أعلى فأحرقت شعره، ثم نزلت إلى ما وراء رأسه مُحْرِقة ما وراءها. تمايل ويتني لحظةً، ثم خرَّ منكفئًا على وجهه.

أطلق الحضور تنهيدة راحة، كأنهم يحضرون الاحتفال بالرابع من يوليو ويشاهدون عرضًا باهرًا للصواريخ. تعلقَت الكرة في الهواء وتضخمت فزاد بريقها وعجز الناس عن النظر إليها. أشار فلاج إليها، فتحرّكت فوق الواقفين، وتراجعوا رعبًا.

بصوت هادر تحداهم فلاج: «هل يعارض أحد آخر حُكمي؟».

لم ينطق أحد، فأكمل فلاج: «إذن...».

التفت الناس وتصايحوا مدهوشين. سمع لاري صوت محرك كهربائي، وتبيّن ما يغمغم به الناس: الزبال.. رجل صفيحة الزبال.. الزبال.

شعر فلاج بالذعر يتسلل إلى قلبه. دُعِرَ من المجهول وغير المتوقع. لقد علم بحدوث كل شيء، حتى باحتجاج ويتني الأحمق. رأى كل شيء قبل حدوثه إلا هذا. الجمع -جمعه- يتفرّق. تدوي صرخة عالية، يجري أحدهم فرارًا، ثم يذهب كل شخص في اتجاه. صاح فلاج: «الزموا أماكنكم!».

لم يصغ أحد. تصاعد الحَنَق في نفسه متحدًا مع خوفه من أن يرتكب حماقة عنيفة أخرى. لقد انفلتَ الزمام مرة أخرى وفي آخر لحظة مثلما حدث مع المحامي من أوريجون، ودائنا، ونادين.. نادين التي هوت من حالق...

فَرَّ الناس إلى جميع الاتجاهات. لقد رأوا الضيف الأخير الخارج من أحلك قصص الرعب. لقد رأوا ما عاد به الزبَّال.

مع ذوبان الحشد، رأى راندال فلاج، وكذلك رالف ولاري ولويد الذي ما زال يمسك الورقة المقطوعة.

إنه دونالد ميروين إلبريت، المعروف برجل صفيحة الزُّبالَة الآن وإلى الأبد. كان يقود عربة كهربية قذرة تكاد بطايريتها تلفظ أنفاسها الأخيرة، والزبَّال يترجرج ويتأرجح على مقعدها كدمية ماريونيت. كان يعاني آخر أعراض التعرض للإشعاع. سقط شعره، وتلوّثت ملابسه بالقيء، وتقرح جلده وسقطت أظفاره.

بدا كأنه هارب من الجحيم حرفيًا.

قال الزبَّال بصوت واهن: «أحضرتُ.. أحضرتُ لك النار.. أرجوك.. أنا آسف...».

تحرك لويد خطوة إلى الأمام، وقال بصوت متحشرج: «يا زبَّال.. يا صاحبي...».

تحركت عين واحدة من عينيه نحو لويد وسأل: «لويد؟ أهذا أنت؟».

أجاب لويد وجسده يرتجف بشدة: «هذا أنا يا زبَّال. ماذا لديك هنا؟ هل هو...».

قال الزبَّال في سعادة: «إنه الكبير.. قنبلة نووية...»، ظل يهتز على مقعده وهو يكرر: «الكبير.. النار العظمى.. حياتي ملك لك!».

همس لويد: «أبعده يا زبَّال. إنه خطر.. أبعده...».

قال الرجل الغامض الذي صار الرجل الشاحب: «اجعله يتخلص منه يا لويد. اجعله يعيده إلى حيث عثر عليه...».

نظر الزبَّال بعين مدهوشة وقال: «أين هو؟»، ثم صاح ملتاغًا: «أين هو؟ لقد رحل! أين هو؟ ماذا فعلتم به؟».

قال له لويد: «يجب أن تتخلص من هذا الشيء يا زبَّال».



صاح رالف فجأة: «لاري! لاري! يد الرب!».

لمعتُ عينا رالف وابتهج. كان يشير إلى السماء. نظر لاري إلى أعلى، ورأى كرة فلاج الكهربائية قد تضخمت إلى حد هائل وطففت في الهواء نحو الزبال، وخرج منها الشرر على هيئة خيوط سميكة طويلة. أدرك لاري أن الهواء صار مشحوناً و...

الشيء المعلق في السماء يبدو كاليد...

بحث لاري عن فلاج فلم يره، بل شعر بكيان آخر حيث كان واقفاً بالضبط، كيان أحدث رخو بلا شكل.. شيء بعينين صفراوين مشقوقتين داخل ملابس فلاج...

ثم اختفى، وترك الملابس معلقة في الهواء ثواني قبل أن تسقط. انطلقت الكرة نحو الزبال الذي احترق وتقرح من التعرض للإشعاع، ومع ذلك قاوم حتى يعود إلى الرجل الغامض ويسترضيه. اقتربت الكرة من العربة كأنها منجذبة إليها. زعق لويد: «لقد ضعننا!»، وضع يديه على رأسه وهوى على ركبتيه.

فكر لاري: الشكر للرب.. لا أخاف شراً.. لا...

ثم غمر العالم ضوء أبيض متوهج، وزال الصالح والطالح وسط تلك النار المقدسة.

الفصل الرابع والسبعون

استيقظ ستو فجرًا من نوم قلق، ورقد يرتجف برْدًا حتى وكوچاك ملتصق به. رغم البرد والرعدة كان يتصبب عرقًا، ويعاني الحمى.

نظر إليه كوچاك فهمس له: «أنا مريض».

هزَّ ذيله وتمشَّى في الممر الصخري ثم عاد بقطعة خشب ووضعها أمام قدمي ستو.

- قلت إنني مريض فقط. لا بأس.

أرسل كوچاك لجلب المزيد، ثم أوقد نارًا. حتى الجلوس قربها لن يبدد الرجة. يا لها من مزحة قاسية؛ لقد أصيب بالإنفلونزا أو البرد بعد يومين من رحيل رفاقه.. هل تعتقد الإنفلونزا أنه يستحق التعب؟ ربما.

بين ما وجد ستو في جيبه قلم رصاص ودفتره الذي كان يُدوّن فيه مهام اللجنة، وسلسلة مفاتيحه. أطلال النظر إليها.. هذا مفتاح شقته، وهذا مفتاح خزائنه.. هذا مفتاح سيارته الاحتياطي المتوقفة أمام بيته في شارع ثومبسون في أرنيث. متدلٍ من السلسلة شريحة بلاستيكية شفافة بداخلها بطاقة تحمل بياناته.

قذف السلسلة بعيدًا؛ صاحبها لم يعد له وجود، واحتفظ بالشريحة.

كتب لفراني في ورقة من دفتريه ما حدث له منذ غادر بولدر، ثم أوصاها بنفسها وبابنها، ثم وقّع الخطاب ثم مزق الصفحة وطواها ودسّها داخل الشريحة، ثم ثبتها في طوق كوچاك على أمل أن يعود الكلب في رحلة من رحلاته إلى بولدر.

- كلب طيب. هل تريد أن تبحث عن أرنيث أو شيء؟

تسلق الكلب المنحدر ثم اختفى. راقب ستو ابتعاده في تعجب، ثم فتح علبة المياه الغازية الفارغة التي جلبها له كوجاك أمس مع الخشب. ملأها من ماء المطر حتى ركد الطين في قاعها ثم شرب منها. الابتلاع مؤلم مع تورم لوزتيه.

تمدد على ظهره وفرد ساقه المكسورة ونام.

استيقظ بعد ساعة فزعًا، يقبض على الأرض الرملية تحته. هل رأى كابوسًا؟ لا بدُّ أن الكابوس مستمر؛ الأرض تهتز من تحته. زلزال؟

تمسك بفكرة أنه يهلوس، حتى رأى الرمال تنهال من جانب الجرف وتمطره بالحصى، ثم شعر باندفاع الهواء خلال الممر الصخري فتهدّجت أنفاسه وراح يلهث. رأى كوجاك واقفًا فوق الضفة الغربية وينظر تجاه نيقادا. صاح ستو في زعر: «كوجاك!»، صوت الانفجار يصم أذنيه، كأن الرب ضرب بقدمه الصحراء في مكان قريب.

نزل الكلب الجرف وانضم إليه وهو يوقوق ويرتجف. شعر ستو بيقين مفاجئ... إن ما سيحدث قد حدث الآن.

غمغم: «يجب أن أرى...».

زحف نحو الضفة الشرقية المائلة. كان قادرًا على تسلقها منذ ثلاثة أيام لكن لم يجد لذلك داعيًا. جر ساقه المكسورة خلفه ثم نظر إلى أعلى. الضفة عالية حقًا. قال لكوجاك: «لا أستطيع...»، إلا أنه حاول على أي حال.

كان بعض الردم قد تكدس أسفل الجرف نتيجة.. الزلزال، أو أيًا كان. زحف ستو فوقه مستخدمًا ذراعيه ورُكبته اليسرى. قطع مسافة اثنتي عشرة ياردة قبل أن ينزلق ستة منها.

قال لاهثًا: «لن أستطيع...».

حاول مجددًا بعد عشر دقائق، ومشى كوجاك إلى جواره يتساءل بلا شك عما يفعله ذلك الأحمق بتركه مكانه الآمن الدافئ.

إنه محموم غارق في عرقه.

نظر إلى كوجاك لحظة أدرك فيها أن شيئًا غريبًا ألمَّ به.. إنه يلهث. إنه لا يعاني حمى عادية لأن جسد الكلب ساخن أيضًا.

طار فوقهم سرب طيور يتعجل الفرار إلى أي مكان.

الطيور تشعر بما حدث أيًا كان، وتفر منه.

أضاف إليه الخوف قوةً، فاستمر في الزحف. مرّت ساعة، ساعتان. في الواحدة ظهرًا لم يعد يفصل بينه وبين الحافة إلا ست أقدام. ست أقدام، لكنّ الجرف مائل أملس...

حاول مرة تلو الأخرى، ففطن إلى أنه لو كرر المحاولة لهوى إلى القاع وكسر ساقه الأخرى.

غمغم: «أنا عالق.. والآن ماذا سأفعل؟».

لم يدم تساؤله طويلًا، فقد بدأت الأرض تهتز من تحته وتنهار إلى أسفل. حاول أن يتشبث بأي شيء. تمسّك في صخور ظهرت مع انزياح التربة، فتدلى جسده تحته ولم يعد بينه وبين القاع شيء. صرخ مستنجدًا: «كوچاك!»، ولم يتوقع أن يراه، إلا أنه كان ظهر أمامه. لف ستو يديه حول عنق الكلب دون تفكير كأنه يغرق. ثبّت الكلب نفسه في الأرض فوقه ومال إلى الخلف بقوة حتى استطاع ستو أن يلمس الجدار بساقه. للحظات تجمدوا كأنهما تمثالان. الكلب يحاول تثبيت نفسه، وستو يحاول ألا يجذبه معه إلى القاع. ثم بدأ كوچاك يثبت نفسه أكثر ويحفر الأرض بساقيه. هوى الحصى يضرب وجه ستو فأغمض عينيه. جذبه كوچاك وهو يلهث قرب أذنه اليمنى.

فتح ستو عينيه بعض الشيء ليرى إن اقترب من الحافة. رأس الكلب إلى أسفل وقائمتيه الخلفيتين تحفران الأرض بقوة. صرخ ستو وترك عنق الكلب، وتشبّث بحافة الطريق، فانكسرت بين أصابعه. قبض على موضع آخر. انخلع ظفران من أظفاره. الألم لا يوصف. صرخ مجددًا ودفع بساقه ثم رفع جذعه إلى حافة الطريق أخيرًا.

وقف كوچاك إلى جواره يوقوق ويلعق وجهه.

بعد هنيهة جلس ستو ونظر نحو الغرب. أطلال النظر تجاه الحرارة التي تلفح وجهه. قال بصوت واهن: «إلهي.. انظر يا كوچاك. لاري.. جِلن.. لقد انتهى أمرهما. إلهي، لقد انتهى أمر كل شيء.. كل شيء».

تعلّقت السحابة على شكل الفطر عند الأفق، وقد تحوّل لون السماء وراءها إلى البرتقالي المحمر، كأن الشمس قررت الغروب بعد الظهرية.

لقد مات كل من في لاس فيجاس. عبث أحدهم في شيء فانفجر سلاح نووي ضخّم نظرًا إلى السحابة المتخلّفة عنه. حتى لو لم يصل رفّاقه إلى هناك بعد، فسوف يشويهم الانفجار وهم على الطريق.

إلى أين ستقذف الرياح بسُحب هذا الانفجار المحملة بالأمطار الحمضية؟ هل يهم أين؟

تذكر الرسالة التي كتبها لفراني، ورغب في أن يزيد عليها ما حدث للتو. أمطرت السحبُ الخطرةُ على الشرق ربما تسبب ضررًا.. لكنّ الأهم أن يعرفوا أن موقع فلاج الإستراتيجي قد زال من الوجود، وتبخّر من فيها مع لعبهم القاتلة. سيضيف كل هذا إلى الخطاب، لكنّ ليس الآن. إنه مرهق، وأقراص جِلن بالأسفل مع باقي متعلقاته.

تمدد على الطريق وتساءل: «كم تبلغ قوة الانفجار؟». لا يعرف أحد، ولا يرغب أحد في أن يعرف.

استيقظ ستو في السادسة مُضععًا محمومًا. أحضر له كوجاك أرنبًا في المساء ووضعه عند قدميه منتظرًا الإطراء. قال ستو في تعب: «كلب طيب.. كلب طيب...».

هزّ كوجاك ذيله أسرع كأنما يؤكد أنه كلب طيب حقًا، وظل ينظر إلى ستو في انتظار شيء آخر. اعتصر ستو عقله مخمّنًا ما قد ينتظره الكلب، حتى فطن إلى أنه يحتاج إلى خشب، فأمر كوجاك بإحضاره.

كانت معه علبة الثقاب، لكنّ الهواء أطفأ أكثر من عشرة أعواد حتى اشتعلت النيران، وشوى الأرنب فأعطى الكلب نصيبه، ولم يأكل هو الكثير من طعامه، فأعطاه لكوجاك. نظر الأخير إلى اللحم ثم إلى ستو، فقال: «كله. لا أستطيع...».

راقب ستو الكلب وهو يأكل وراح يترجف. أغطيته بالأسفل. لون السماء جهة الغرب منذر.. سام. بعد قليل نزل كوجاك إلى الجرف وعاد بغطاء من غطاءي ستو، فعانقه ستو وهو يقول له: «أنت كلب صالح، هل تعرف هذا؟». هز الكلب ذيله ليؤكد أنه يعرف ذلك.

نام ستو أخيرًا متدثرًا بالغطاء قرب النار. ظل الكلب ينظر إليه في قلق. إنه يشم رائحة البشري، ورائحة مرضه.. ورائحة أخرى تُذكره بما يشمه

في الفرائس بعد صيدها، وقد شَمَّها في الأماكن التي عَبَر بها خلال رحلته الطويلة. هذه هي رائحة الموت. كان لينتزعها عن البشري لو استطاع، إلا أنه لا يملك شيئاً سوى الانتظار. وقوق الكلب مرة أخيرة، ثم نام إلى جوار البشري الذي يهلوس في نومه.

استيقظ ستو في الصباح بغدد متورمة تسد حلقه، وحمى تغلي مخه.
أنا أموت.. نعم.. هذا مؤكد...

نادى في وهن كوجاك فكتب ما أراد أن يكتبه في الوريقة وأعادها إلى طوق عنقه ثم نام حتى المساء. أحضر له الكلب سنجاباً فجهَّزه وقسمه واستطاع أن يأكل نصفه كاملاً. كان لحمه قاسياً وطعمه سيئاً، وأصيب بعد أكله بتقلصات.

قال للكلب قبل أن يفقد وعيه مرة أخرى: «عندما أموت، أريدك أن تعود إلى بولدر. إلى فراني. ابحث عن فراني. افهم أيها الكلب الكبير الأحمق؟».

هز الكلب ذيله في شك. بعد ساعة تقريباً ثم غفا.. ثم استيقظ ثم غفا. انطفأت النار، فلم يكثرث.. نام، ثم استيقظ على صوت احتكاك حصي. ظن أن كوجاك ينزل أو يصعد الضفة، إلا أن الكلب كان نائماً إلى جواره. حالما نظر إليه استيقظ وانتصبت أذناه، وهبَّ واقفاً ينظر تجاه الممر الصخري ويجأر.

شخص أو شيء يصعد المنحدر...

إنه هو.. هو.. وينتوي أن يجهز عليّ قبل أن تقتلني الإنفلونزا.

زمجر كوجاك واتخذ وضعيه هجوم. سمع صوت لهاث، ثم ظهرت بعد لحظات هيئة داكنة منحنية على حافة الجرف. اقترب كوجاك...

هتف صوت: «مرحى! هل أنت كوجاك؟! هه؟».

توقفت زمجرة الكلب على الفور، فصاح ستو: «لا! إنها خَدْعَة! كوجاك...!».

إلا أن الكلب كان يتقافز حول الشخص الذي صعد أخيراً إلى الطريق. انتصب ستو جالساً وضيق عينيه. شيء مألوف فيه هذا الشخص..

- مَنْ؟ مَنْ أنت؟

- أنا توم كولين. هذا هو مَنْ. رباه، نعم! ق-م- ر... هذا هو تهجي اسم توم كولين. مَنْ أنت؟

- أنا ستو.. سعيد حقًا لرؤيتك يا توم.
لكنه لم يكن سعيدًا لرؤيته، خاصة الليلة. ثم فقد ستو الوعي.

استفاق في صباح يوم الثاني من أكتوبر، بيد أنه لم يكن يعرف أين هو أو توم أو تاريخ اليوم. أشعل توم نارًا، ولف ستو في غطاءه ودسّه داخل كيس النوم، ثم جلس يشوي أرنبًا ورقد كوجاك بينهما.
غمغم ستو: «توم...».

اقترب منه توم وقد طالت لحيته. إنه يشبه بالكاد الرجل الذي غادر بولدر منذ خمسة أسابيع.

- ستو ريديمان! أنت صاح الآن! رباه، نعم! أنا سعيد. فرحان لرؤيتك.
ماذا فعلت لساقك؟ تؤلمك، هه؟ مرة قفزت من فوق كومة قش وكُسرت ساقِي. جلدني أبي. رباه، نعم! كان هذا قبل أن يهرب مع ديدي باكالوت.
- توم... أنا ظمآن...

- معي ماء من كل نوع. تفضل...

ناول ستو زجاجة حليب بلاستيكية، مملوءة بالماء النظيف. شربها ستو ثم تقيأها. قال توم: «بيطء جدًّا. بيطء... اشرب ببطء. أنا فرحان لرؤيتك. كُسرت ساقك، أليس كذلك؟».

- نعم.. منذ أسبوع أو أكثر. لكنني أعاني ما أهو أكثر من الكسر. أنا مريض. محموم.. أنصت لي يا توم...

- حاضر.. توم مُنصت. أخبرني بما يجب أن أفعل.

مال توم عليه. سأل ستو نفسه: لماذا يبدو أكثر وعيًا؟ هل هذا ممكن؟ أين كان توم؟ هل عرف أي شيء عن القاضي؟ عن داينا؟ لا وقت للسؤال. حالته تتدهور وأعراضه تشبه أعراض الإنفلونزا الفائقة. غريب هذا حقًا.

- يجب أن أخفض درجة حرارتي. هذا هو أول شيء. أحتاج إلى أسبرين. هل تعرف الأسبرين؟

- نعم. أسبرين للراحة السريعة...

- نعم. ابحث في كل سيارة على الطريق عن صندوق الإسعافات الأولية. صندوق أبيض مرسوم عليه صليب أحمر. عندما تجد في أي واحد

أسبريناً أحضره لي. ولو وجدتَ عتادَ تخييم في سيارة فأحضر لنا خيمة.

قام توم واقفاً وقال: «بالتأكيد. أسبرين وخيمة، بعدها ستشفى، أليس كذلك؟».

- لنفترض أن هذه بداية للشفاء.

- أقول لك.. كيف حال نك؟ كل ليلة أحلم به، ويخبرني إلى أين أذهب لأنه يتكلم في الأحلام مثلنا. الأحلام غريبة، أليس كذلك؟ لكن كلما تكلمت معه ابتعد. هل هذا طبيعي؟

نظر إليه توم في قلق، فقال ستو: «سأخبرك لكن ليس الآن. أنا مرهق. أحضر لي الأسبرين فقط ونتكلم لاحقاً».

حطَّ الخوف على وجه توم كسحابة رمادية. سأل: «هل تريد أن تأتي معي يا كوجاك؟».

فذهب الكلب معه، وأغلق ستو عينيه.

استيقظ ستو على صوت توم وهو يهزه ويهتف: «ستو! اصح! ستو!». حالما استقام جالساً انتابته نوبة سعال قوي. راقبه توم في قلق حتى هدأ، ثم غطّاه جيداً.

- هل عثرت على شيء يا توم؟

ناوله توم صندوق إسعافات أولية فيه ضمادات وميركيوركروم وعلبة أناسين. تفاجأ ستو أنه أوهن من أن يفتح غطاء العلبة، فأعطاها لتوم. ابتلع ستو ثلاثة أقراص، وعرض عليه توم ما وجده في سيارة تخييم من خيمة وكيس نوم مزدوج، وطعام محفوظ في عبوات من الألومنيوم. قال توم: «هذا طعام، أليس كذلك؟ على العبوات صور طعام. رباه، نعم!».

قال ستو شاكرًا: «نعم طعام، ومن النوع الذي أستطيع ابتلاعه أيضًا».

لاحظ ستو النظرة القلقة المتزايدة على وجه توم الطفولي وهو يتحجّن فرصة أن يسأله عن نك. قال في رفق: «توم.. نك مات. منذ شهر تقريبًا. قُتِلَ لسبب له علاقة بالسياسة. أنا أسف...».

نظر توم إلى الأرض، وجلس يبكي في صمت أمام النار. انهمرت دموعه كأمطار فضية، لكنه لم يصدر صوتًا. رفع رأسه أخيرًا ومسح عينيه اللامعتين وقال بصوت متحشرج: «كنت أعرف أنه مات. لم أصدق أنني أعرف. رباه.. نعم. لقد كان المفضل عندي يا ستو... هل تعرف هذا؟».

أمسك ستو يد توم الكبيرة قال: «أعرف يا توم».

- لقد أوحشني جدًا. سأراه في الجنة. توم كولين سيراه هناك وهو سيكون قادرًا على الكلام وأنا سأكون قادرًا على التفكير. أليس هذا صحيحًا؟
- بالتأكيد يا توم.

- الرجل الشرير هو مَنْ قتل نِك. توم يعرف. لكنَّ الرب عاقب هذا الرجل الشرير. لقد رأيتها. نزلت يد الرب من السماء وعاقبته على ما فعل بِنِك وبالقاضي المسكين. رباه، نعم.

- ماذا تعرف عن القاضي يا توم؟

- مات! في أوريجون هناك! ضربوه بالنار!

أوما ستو في قلق وسأله: «وداينا؟ هل تعرف عنها شيئًا؟».

- لقد أعطوا توم عملاً، وفي يوم رآها توم وهي تعمل أيضًا. كانت معلقة في الهواء تُغيَّر مصباحًا. نظرت إليَّ ثم...

صمت هنيهة، ثم عاد يتكلم فبدأ أكثر شبهًا بنفسه التي ألفها ستو. قال: «هل رأيت توم؟ هل عرفت توم؟ توم لا يعرف. توم... يفكر... إنها عرفت. لكنَّ توم لم يرها مرة ثانية».

قام توم لبحث عن أوعية لتسخين الماء والطعام، ولم يعد بعلبة صفيحية كما أُمِل ستو، بل عاد بمقلاة ضخمة تكفي لطهو ديك رومي. يبدو أنه وجد كنزًا في الصحراء.

كسَّت القشور شفتي ستو. أسنده توم وهو يقرب من شفثيه مقلاة صغيرة أخرى ذات طرف بارز تحوي حَسَاء. يبدو أن أحدهم كان يفر من الإنفلونزا الفائقة ومعه كل متاعه الدينيوي.

أكل ستو بعض الخضراوات وشعر بتحسن طفيف، على الأقل مؤقتًا.

في الصباح التالي، جلس توم إلى جوار كيس نوم ستو بعدما قَدَّمَ له الإفطار. كان حلقه محتقناً مغلقاً، ومفاصله تؤلمه، وتدهورت حالة السعال، ولم يعد للدواء تأثير في الحمى.

همسَ لتوم: «يجب أن نعثر على أدوية وإلا سأموت. أقرب بلدة هي جرين ريفر، على بعد ستين ميلاً. يجب أن نذهب إلى هناك راكبين».

- توم كولين لا يعرف كيف يقود سيارة يا ستو. رباه، لا!

- أعرف. سيكون هذا عبئاً عليّ، فساقى مكسورة إضافة إلى مرضي.

لن نقلق بصدد هذا الآن، المشكلة الأكبر هي العثور على سيارة تعمل.

أغلب السيارات متوقفة منذ أشهر، لذا سنحتاج إلى حظ وإفر.

لذا، طلب منه ستو أن يربطه جيداً بكيس النوم ويثبته على عَصَين طويلتين سميكتين، بحيث يستطيع توم جرّهُ خلفه كأنه يُجر محفّة. هذه هي الطريقة التي كان يجر بها الهنود الأمريكيين متاعهم. حمل توم ستو على ظهره ملفوفاً في كيس نومه، وجرّهُ أحياناً أخرى طَوَالَ الطريق إلى التلال بحثاً عن سيارة تصلح.

ومشى كوجاك إلى جوارهما...

استيقظ ستو عندما أنزله توم.

- آسف. أريد أن أريح ذراعيّ قليلاً.

- ارتح كما تشاء.

رأس ستو تنبض ألماً. ابتلع قرصين أناسين بصعوبة. حلقه مُبَطَّن بالصنفرة. تحقق من خياطة كيس النوم الذي يحمله فيه توم، فوجد أن الخياطة قد تصمد حتى أعلى التل حيث الطريق الذي يبحثون عنه. فكرة البحث عن سيارات على طريق يقطع التلال تكمن في أن أغلب السيارات عموماً قد صدئت صناديق تروسها. ركوب سيارة أعلى طريق منحدر سيتمكنهم من فك تعشيق تروسها يدوياً ثم دفعها لتسير مسافة قد تربو على الميلين نزولاً بقوة الجاذبية فقط. وقتها يمكنكم تشغيلها ولو على السرعة الثانية أو الثالثة حتى.

نظر على مد بصره ليرى دراجة بخارية من نوع تريّمف يركبها هيكمل عظمي. لدراجات تريّمف ناقل حركة يدوي، لكنّه لن يستطيع ركوبها بساق مكسورة.

سأل ستو توم: «كم قطعنا من مسافة؟».

هز توم كتفيه فقط. توم مذهل. لقد جرّه وحمله ثلاث ساعات قبل أن يتوقّف ليرتاح. بنية توم أقرب إلى بنية ثور، ولا بدّ أنه نقله ستة أميال أو ثمانية فيما هو نائم. كرر ستو: «ارتّح كما تشاء. لا تضغط على نفسك».

- توم بخير.. توم «بخ» و «خير». هذا هو تهجي الكلمة الصحيح. رباه، نعم! الكل يعرف ذلك.

مع استكمالهم الرحلة، بدأ الطريق يرتفع بهم. أدرك ستو أنهما ما لم يعثرا على سيارة تصلح، فسيُضطرّان إلى هبوط تل وصعود آخر، وهذا ما يحتاج إلى ساعتين آخرين، وليلة أخرى في العراء والأمطار. وداعًا يا ستو ريديمان... ثم صادفوا سيارة شيفروليه. هتف بصوت مبجوح: «توقّف». فأنزل توم المحفة. أكمل ستو: «انذهب إلى السيارة وعدّ البدلات على الأرض وأخبرني هل هم اثنان أم ثلاثة».

هُرع توم إلى هناك وفتح باب السيارة فسقطت جثة سيدة ترتدي فستانًا منقوشًا. هتف توم: «اثنان».

- حسنًا.. سنبحث عن أخرى.

أخذ توم شهيقة عميقًا وجذب المحفة، وانتقلا من سيارة إلى أخرى، كلها ببدالين؛ أي سيارات أوتوماتيكية لن تنفع خطتهما. بدأ المنحدر يهبط الآن ورأى ستو سيارة أخرى أمامهم. فرصة أخيرة. غاص قلبه في صدره؛ إنها سيارة بيلموت 1970، وللغربة كان تقف على أربعة إطارات سليمة، بيد أن الصدا أكل بدنّها. لا بدّ أن بطاريتها فارغة، وزيت المحرك أسود من الليل داخل منجم، لكنه قادر على تشغيل سيارة كهذه.. سيارة مثل التي تملأ شوارع أرنيت.

هبطت عليها زخات مطر خفيف. طلب من توم أن يتحقق منها ففعل، وجدها خاوية. هتف: «ثلاثة!».

فكر ستو مقاومًا الطنين المستمر في رأسه. السيارة في حال يرثى لها، لكنهم لن يغامروا بنزول التل وصعود التالي للبحث عن سيارة مناسبة قد لا يجدونها، ووقتها سيكون الظلام قد حل.

- ساعدني على الوقوف يا توم.

ساعده توم ولف ذراعه حول عنقه. وقفا هنيهة حتى توازن ستو وزال عنه الدوار. اشتدت كثافة المطر الآن...

قفز ستو مرتكنًا على توم حتى وصل إلى السيارة. مال قليلًا عليها ولم يستطع جذب رافعة فتح غطاء السيارة، فطلب من توم جذبها فانفتح الغطاء. وجد ستو أن المحرك قديم كما توقع، لكن البطارية في حالة أفضل مما حسب. بطارية سيرز، تاريخ صلاحيتها مطبوع عليها، يمتد حتى فبراير 1991.

طلب من توم أن يجرب النفير. نفس ستو متحشرج كأنما يتنفس من خلال قشة شرب. أصدر النفير صوتًا عاليًا. جيد. أغلق الغطاء وتقافز إلى باب الراكب، ونظر بداخل السيارة بحثًا عن مفتاحها، فوجده مكانه. أداره برفق، فارتفع دليل الوقود يشير إلى امتلاء ربع الخزان. لماذا ترك صاحب السيارة سيارته في منتصف الطريق وقد كان في وسعه قيادتها؟ إلى أين ذهب؟ ربما كان صاحبها مريضًا يهلوس، فهجرها ونزل منها ليرتاح في مكان ما على جانب الطريق ومات. مصادفات لا تصدق...

يد الرب...

ألم يقل توم إن يد الرب نزلت لتنتقم من فلاج؟ لماذا لا يكون الرب هو من ترك لهم هذه السيارة؟ فكرة مجنونة، لكنها ليست في جنون كل ما حدث سابقًا.

ركب ستو، وركب كوجاك وتوم إلى جواره، وتمنوا أن تدور السيارة.

أدار ستو المفتاح فهدر المحرك عشرين ثانية ثم توقف. جرب ستو النفير مجددًا فلم يصدر عنه إلا صوت ضعيف. بهت وجه توم.

قال ستو مشجعًا: «لم ننته منها بعد». حرك ناقل السرعات إلى السرعة الثانية وطلب من توم أن يدفع السيارة دفعة قوية ثم يركب بسرعة». سأل توم: «ألا تنظر السيارة إلى الجهة الخاطئة».

- نعم. لكن لو شغلنا محركها فسنعيد توجيهها كما نريد.

ترجل توم ودفع السيارة حتى أشار مؤشر السرعة إلى خمسة أميال في الساعة فهتف ستو: «هيا اركب».

أدار ستو المفتاح فانزلت السيارة ببطء نحو الطريق المنحدر، وتزايدت السرعة حتى عشرين ميلاً في الساعة. قال توم في قلق: «السيارة لا تعمل يا ستو».

ثلاثون ميلاً في الساعة.. سرعة كافية. غمغم ستو: «ليساعدنا الرب الآن»، ثم رفع قدمه عن فاصل الحركة (الدبرياج).

فاهتزت السيارة وبُعث المحرك، ثم قعقع ثم علق. أن ستو في غيظ وألم ساقه. هتف: «اضغط بدال الوقود يا توم بيدك».

- أيهم؟

- الطويل!

ضغط توم البدال مرتين، فتسارعت حركة السيارة مرة أخرى وأجبر ستو نفسه على الانتظار. إنهم في نصف الطريق الهابط الآن. هتف: «الآن!»، ثم ضغط المكبح مرة أخرى وانطلق المحرك يدور.

نبح كوجاك، وانبعث الدخان المزرق من ماسورة العادم.

- إننا نتحرك يا توم! معنا سيارة الآن!

صاح توم في سعادة ونبح كوجاك وهو يهز ذيله. لقد كان يركب سيارة صاحبه في حياته السابقة قبل كابتن ترييس، وهو سعيد الآن بركوب سيارة مرة أخرى مع صاحبيه الجديدين.

صاح توم في فرح: «باي باي! نحن عائدون إلى بولدر. رياه، نعم!».

فكر ستو: سأكون سعيداً لو وصلنا إلى جرين ريفر الليلة.

وصلوا فعلاً بعد الظلام، وقاد ستو السيارة ببطء وحذر خلال الطرقات المهجورة، وتوقف أمام فندق يوتاه.

هلوسته تشتد. تركيزه يتراجع.. السيارة محتشدة بأشباح الماضي.. فران.. نك.. نورم برويت.. حتى إنه رأى كريس أورتيجا نايل حانة الرأس الهندي يركب مسدساً خلفه.

هل وصل إلى هذه المرحلة من المرض من قبل؟

غمغم: «يجب أن نمضي الليل هنا يا نك.. تعبت...».

- أنا توم يا ستو.. توم كولين.

- آه، توم.. يجب أن نتوقف. هلا ساعدتني؟

نزل توم وحمله حملًا إلى داخل الفندق حيث وجد مدفئةً وخشبًا. وضعه على أريكة تحت رأس حيوان موز محنط، وأشعل النار. تهدجت أنفاس ستو وظل يهلوس. من وقت إلى آخر كان يصرخ فيجمد الدم في عروق توم.

جلب توم أغطيةً ووسائد، ودفع الأريكة قرب النار، ثم نام هو وكوچاك إلى جوارها في محاولة منهما لإحاطة المريض بدفء جسديهما.

ظل توم يحدق إلى السقف المتسخ بشباك العناكب. لا يعرف توم شيئًا عن المرض. لو استيقظ ستو مرة أخرى فسيسأله.

لكن ماذا لو لم يستيقظ؟

تسارعت الرياح بالخارج وضرب المطر النوافذ. نام توم عند منتصف الليل.

في مكان ما عند الغرب، دفعت الرياح السحب الملوثة بالإشعاع نحو كاليفورنيا حيث سيموت المزيد.

في وقت ما قرب الثانية صباحًا، وقوق كوچاك في قلق، فاستيقظ توم وخرج من باب الفندق إلى الريح العاتية، وانطلق كوچاك نحو نافذة ووضع ذراعيه على حافتها السفلية ليرى شيئًا يقلقه. بعد هنيهة عاد لينام إلى جوار ستو.

الفصل الخامس والسبعون

«كدت أموت من قبل. أتعرف؟».

قالها نك وهو يمشي مع توم في الشارع الخاوي. عوت الرياح وانهمر المطر مدرارًا. سأله توم: «حقًا؟ رباه!».

ضحك نك بصوت منخفض رنان.. صوت جميل. أحب توم التحدث معه.

- لقد نجوتُ من الوباء، وكاد خدش في ساقي يقتلني. انظر.

فكَّ نك حزام سرواله وأنزله، فمال توم ينظر في فضول طفل إلى الجرح. إصابة نك تبدأ من أعلى فخذة حتى ركبته.

- وكاد هذا يقتلك؟

ارتدى نك سرواله وهو يقول: «ليس جرحًا عميقًا، لكنه تلوّث بعدوى ما. التلوّث بالعدوى أخطر شيء يا توم، وهذا ما جعل الإنفلونزا الفائقة قاتلة. تلوّث العقول نفسها هو ما يجعل الناس ترغب في صنع الفيروسات».

همس توم: «تلوّث....».

مشيا على الرصيف كأنهما يطفوان.

- توم. ستو يعاني تلوّثًا بعدوى.

- لا.. لا، لا تقل هذا يا نك. أنت تخيف توم كولين. رباه، نعم. أنت تخيفه!

- أعرف يا توم. أنا آسف. لكنّ يجب أن تعرف. إنه يعاني التهابًا رئويًا من النوم في العراء لأسبوعين. يمكنك أن تحاول إنقاذه، إلا أنه قد يموت على أي حال. استعدّ لهذا.

- لا...

وضع نك يديه على كتفي توم وقال: «توم.. لو مات، أكمل أنت وكوچاك الطريق. يجب أن تعود إلى بولدر وتخبرهم بأنك رأيت يد الرب في الصحراء. لو شاء الرب سيأتي معك ستو، ولو شاء لمات كما حدث معي».

- نك.. أرجوك...

- لقد أريتكَ ساقِي لسبب. في أماكن كهذه دواء للعدوى...

أشار له نك إلى متجر مظلم يحمل لافتة: مُعَدَّات طبية.

- نعم يا سيدي، هل يمكن أن أساعدك؟

التفت توم ليرى نك يقف وراء منضدة البيع ويرتدي بالطو أبيض.

- نك؟

وضع نك زجاجة صغيرة على المنضدة أمام توم وقال: «هذا بنسلين. ممتاز للالتهاب الرئوي. وهذا أموكسيسيلين. ممتاز أيضًا. وهذا في سيللين، مناسب للأطفال لكنه قد يؤدي الغرض ما لم تجدْ غيره. يجب أن يشرب سوائل كثيرة، وأعطه أقراص فيتامين ج. يجب أن يمشي قليلًا...».

- لا يمكن أن أتذكر كل هذا!

- أخشى أن عليك تذكره، لا يوجد أحد غيرك. أنت وحدك.

بكى توم. مال نك نحوه وأحاطه بذراعيه، فشعر توم به كأنه مجرد دخان.

- كفَّ عن البكاء! أنت لستَ طفلًا! كنْ رجلًا يا توم بحق الرب!

حدَّق إليه توم بعينين واسعتين.

- اجعله يمشِ.. يقفز على ساقه السليمة. جُرّه لو لزم الأمر. المهم ألا تتركه نائمًا وإلا غرق.

قال توم: «إنه يصرخ ويتكلم مع ناس غير موجودين...».

- إنه يهلوس. افعل ما قلتُ لك، وأعطه بنسلين وأسبرين وحافظ على تدفئته.. وصلَّ من أجله.

- حاضر يا نك. سأكون رجلًا وسأتذكر. كم أتمنى لو أنك هنا. ربا، نعم!

- افعلْ ما تقدر عليه يا توم.

ثم اختفى نك: ووجد توم نفسه واقفًا أمام منضدة البيع في المتجر وأمامه أربع عبوات أدوية. حدق إليهم طويلاً، ثم أخذهم.

عاد توم في الرابعة صباحًا تغطي كتفيه ندف الثلج. نبج كوجاك في سعادة وأنَّ ستو متيقظًا. ركع توم إلى جواره وهمس: «ستو».

- توم.. التنفس صعب.

- جلبتُ لك الدواء يا ستو. نك أخبرني. تناوله وتخلص من العدوى. خذ قرصًا الآن.

نظر ستو إلى الدواء ثم سأله: «أين وجدته؟».

- في متجر الدواء. نك أعطاني إياهم.

- مستحيل.

- لا هذا حقيقي! خذ بنسليناً أولاً.. أي واحد فيهم بنسلين؟

- هذا.. لكن يا توم...

- لا، يجب أن تأخذ الدواء. نك قال هذا. ويجب أن تمشي.

- لا أستطيع. ساقي مكسورة وأنا مريض.

- لا. يجب أن تمشي. سأحملك.

فقد ستو تماسك كلماته. دس توم قرصًا في فمه فابتلعه ستو لا إرادياً. سعل بقوة، فضربه توم بخفة على ظهره كأنه طفل، ثم أعانه على الوقوف على ساقه السليمة، وجرَّه في أرجاء مدخل الفندق. تبعهما كوجاك في قلق.

غمغم توم: «أرجوك يا رب.. أرجوك يا رب...».

زعق ستو: «أنا أعرف يا جِلن أين سأجد لها لوحَ غسيل! لقد رأيته من قبل

في...».

- أرجوك يا رب...

شعر توم كأنه يحمل موقدًا ملتهبًا. لم تبدُ بولدر بعيدة مثلما بدتِ الآن.

قاوم ستو الالتهاب الرئوي وشرب الكثير من السوائل وعصير البرتقال وهو بالكاد يدرك ماهية ما يشربه. تغوط على نفسه كالرُضْع، ونظفه توم واعتنى به، وجرَّه في أرجاء ردهة الفندق حتى تحسن تنفسه أخيرًا.

تسبب له البنسلين خلال أول يومين في طفح جلدي قوي، فغيَّره توم إلى الأمبسيلين. في يوم السابع من أكتوبر استيقظ توم ليجد ستو نائمًا في هدوء

وجبهته باردة أخيرًا. لقد زالت الحمى وتحسنت حالته قبل أن ينتكس في يوم الحادي عشر. خشي توم من أنها النهاية. ارتفعت درجة حرارته بعض الشيء، لكن أنفاسه لم تتدهور كثيرًا.

يوم الثالث عشر، استيقظ توم من نومه ليجد ستو جالسًا. حالما رآه همس له: «توم.. أنا حي».

صاح توم: «رباه! نعم!».

- أنا جائع. هل يمكن أن تصنع لي حساء يا توم؟

عادت قوى ستو إليه بعد يوم الثامن عشر، واستطاع أن يقفز مستندًا إلى توم ويجول خمس دقائق. في يوم العشرين خرج من الفندق لأول مرة وهو مدثر بملابس تحتية ثقيلة ومعطف من جلد الخرفان.

كان اليوم دافئًا مشمسًا مع لمسة برد. الجو في هذه الأنحاء أبرد كثيرًا من بولدر. قال ستو لتوم: «يمكننا أن نصل إلى جراند چنكشن، لكنني لا أعرف ماذا سنفعل بعد ذلك. ستكون الثلوج قد غطت الطرق بين الجبال ولا أجرؤ على السير فيها وأنا في هذه الحالة».

- ومتى ستتحسن يا ستو؟

- لا أعرف يا توم. لننتظر ونر.

أقام الثلاثة في الفندق حتى يوم الثامن والعشرين من أكتوبر. حاول ستو استعادة عافيته قدر المستطاع. التأم كسر ساقه بشكل خاطئ، لذا لن يستطيع المشي بكفاءة. في ذلك اليوم غطى الثلج البلدة بسُمك خمس بوصات. قال ستو لتوم: «ما لم نتحرك سريعًا فسنمضي الشتاء كله في فندق يوتاه».

في الصباح التالي قاد ستو السيارة إلى محطة الوقود، حيث ركبوا لإطارات السيارة سلاسل مخصصة للقيادة في الثلوج، ونقل توم أربعين رطلًا من الرمال في صندوق السيارة، ثم انطلقوا...

وصلوا يوم الثاني من أكتوبر، واضطروا إلى البحث عن مكان للإقامة، فالسما رمادية محملة بالسحب والثلج يغطي الطرق. اختاروا موتيل جراند چنكشن وقد أيقنوا أن السيارة لن تعمل مرة أخرى.

في الرابعة عصرًا تحول انهمار الثلوج إلى عاصفة جليدية دامت طوال الليل. في الصباح لم يكن أمامهم إلا اللون الأبيض الساكن. هتف توم: «لقد حبسنا الثلج هنا!».

أوما ستو.

- كيف سنعود إلى بولدر؟

- سننتظر يا للأسف حتى الربيع.

بدا الهم على وجه توم، فلف ستو ذراعه حول كتفي الطفل الضخم وقال: «سيمرُ الوقت سريعًا» بيد أنه لم يكن واثقًا من النجاة طوال هذه الفترة.

في المساء، حلم ستو مجددًا بكابوس فراني.

رأها تتألم، والطبيب بين ساقها ولوري كونستابل إلى جواره تساعده.

ادفعي يا فراني... ادفعي... تحملي...

من منظر عيني الطبيب فوق القناع الطبي، عرف ستو أن فراني ليست بخير.

ولادة عكسية...

من قال هذه العبارة المشؤومة؟ الصوت بارد منخفض بطيء للغاية...

هتف الطبيب: «الأفضل أن تستدعي دك...».

قالت لوري: «لقد فقدت دماءً كثيرةً فعلًا...».

أشعل ستو سيجارة شنيعة الطعم، إلا أنها بدت مقبولة بعد كابوس كهذا. هذا حلم ناتج عن قلقه لا أكثر.. لكن كم حلمًا رآه وتحقق منذ بدأ الوباء؟

مرَّ الوقت ببطء شديد. وجد هو وتوم مولدَ كهرباء متوسط الحجم في متجر أدوات كهربية، فنقلوه جُرًّا فوق زلاجة. سأل توم: «ماذا سنفعل به؟ سنوصل الكهرباء إلى الفندق؟».

- إنه أصغر من أن يشغل كهرباء الفندق. ستري ما سنفعل به.

حفظا المولد في قاعة اجتماعات أمام الفندق، ونسي توم أمره، وهذا ما أمل فيه ستو.

خلال الأيام التالية جلب ستو سرًا شاشة عرض ومشغل أفلام وأفلام، ونقلهم إلى القاعة، ثم طلب من توم مرافقته إلى هناك. على باب القاعة، أعطاه ستو علبة فيشار. سأله توم: «لماذا؟».

- لا يمكن أن تشاهد فيلمًا بلا فيشار!

- فيلم!

- بالتأكيد.

انطلق توم إلى داخل القاعة فرأى الشاشة ومقعدين أمامها وسط المكان الضخم الخالي. هتف: «واو!». تعبير الفرحة على وجهه هو كل ما أمل فيه ستو، ولم يكن الانبهار والبهجة ليتحققا لو كان قد جلب تلفازًا ومشغل شرائط فيديو. كان يرغب في إدخال سرور عارم على قلب توم الشهم الوفي البريء كالأطفال.

قال ستو وهو يتناول الإفطار مع توم: «توم.. كم تبلغ رغبتك في العودة إلى بولدر؟».

- لرؤية فران وديك وساندي؟ رباها! أريد العودة إلى بولدر أكثر من أي شيء في الدنيا. هل تعتقد أنهم أعطوا بيتي لشخص آخر؟

- لا، أنا متأكد من أنهم لم يفعلوا. ما أريد قوله هو، هل ترغب في العودة مهما كانت الأخطار؟

نظر إليه توم حائرًا، وبعد هنيهة قال: «نعم. كل شيء أخطار.. صح؟».

نعم. الثلوج تتكاثف، وإقامتهما هنا خطر حقيقي. لقد تحسنت حالة ساق ستو رغم العرج، وهو قادر الآن على الاعتماد على نفسه وحماية توم. وهكذا قررا الرحيل في آخر يوم من نوفمبر.

لم يكن من داعٍ إلى تعليم توم قواعد قيادة الزلاجة الآلية. كان ستو قد وجد زلاجة هائلة في مستودع هيئة طرق كلورادو على بعد ميل من الفندق، وهذا ما شجعه على التفكير في الرحيل. للزلاجة محرك ضخم قادر على دفعها عكس أعتى العواصف الجليدية، وجر عربة نقل مرافقة تتسع لكلب كبير.

مع تنوع المتاجر في البلدة، لم يجدوا مشكلة في جمع تجهيزات الرحلة والتخييم والوقود والبطاريات الاحتياطية والأسلحة.

في الساعة الثانية من اليوم الأول للرحلة، وجد ستو أن مخاوفه من الموت جوعاً على الطريق بلا أساس. الطريق ممتلئ بالطرائد، وقد اصطاد أول غزال له منذ كان في الصف التاسع.

في اليوم الأول قطعوا ستة عشر ميلاً.

تغير الحلم تلك الليلة. وجد نفسه في غرفة ولادة والدم في كل مكان. كُما معطفه ملطخان، الملاءة التي تغطي فرانني مبتلة بالدم، ملتصقة بجسدها، وما زالت تصرخ.

هتف الطبيب: «إنه يخرج يا فرانني أخيراً.. ادفعي...».

حرر الطبيب المولود أخيراً ورفعته من ردفه لأنه خرج بقدميه أولاً. صرخت لوري وتناثرت الأدوات المعدنية في كل صوب. المولود ذئب يُكشَّر عن أنيابه، وجهه وجه فلاج. فلاج لم يمُت، وفرانني ولدته...

استيقظ ستو فزعاً وقلبه ينبض في أذنيه. هل صرخ؟ كل شيء هادئ حوله وتوم وكوچاك نائمان. هذا حلم آخر...

ثم شق عواء طويل أستار الليل.. عواء ذئب، أو ربما صراخ شبح قاتل. رفع كوچاك رأسه.

أقشعر جسد ستو...

ولم يتكرر العواء مرة أخرى.

في الصباح لاحظ توم أن أحشاء الغزال اختفت. أشار إلى أثر جر على الثلج حتى اختفى لون الدم. وكان هذا كل شيء.

مرت خمسة أيام معتدلة الجو، وفي اليوم السادس بدأت عاصفة جليدية، فقرر ستو المبيت في موتيل بلدة رايفل. فتح توم باب الموتيل وقاد ستو الزلاجة إلى الداخل ليحميها من الدفن تحت الثلج.

استمرت العاصفة ثلاثة أيام، وانقشعت يوم العاشر من ديسمبر. أخفت كثافة الجليد معالم طريق 70 -1، بيد أن هذه لم تكن المشكلة الأكبر التي واجهت ستو في ذلك اليوم.

قرب المغيب، توقف ستو وأطفأ محرك الزلاجة وراح ينصت. سمع توم أيضاً صوت هدير قوي على يسارهم، استمر للحظات ثم خفت تدريجياً. سأل توم في قلق: «ستو؟».

- لا تقلق.

سأقلق أنا بما يكفي لكلينا.

استمر الجو الدافئ حتى وصلوا إلى شوشون يوم الثالث عشر من ديسمبر في صعودهم إلى طريق جبال روكي. هذه هي أعلى نقطة في الطريق قبل أن يهبطوا مرة أخرى في لقلاند باس.

تكرّر سماعهم صوت الانهيارات الجليدية البعيدة أحياناً، والقريبة أحياناً إلى حد لم يسعهم فعل شيء سوى النظر إلى أعلى والصلاة. في اليوم الثاني عشر سقط انهيار جليدي ليسد موضعاً كانا فيه منذ نصف ساعة ليدفن شاحنة معطلة تحت أطنان الجليد.

لا يمكنهم فعل شيء سوى الأمل والصلاة.

توقفوا يومين آخرين بسبب عاصفة جليدية.. وعوت الذئاب في تلك الليلة حتى بدا صوتها خارج مخيمهم.

في اليوم الثاني والعشرين، خرجت الزلاجة عن الطريق فجأة. شعر ركبائها بأنهم يطيطرون ولا أرض تحتهم. اختفى توم وكوچاك عن نظر ستو وضرب الثلج وجهه. فتح فمه ليصرخ فانحشر الثلج فيه. دُفن للحظات تحت الفراء الأبيض البارد، ثم شق طريقه كسبّاح إلى أعلى وهو يشهق وحلقه محترق من البرودة. صاح: «توم!».

صعد كوچاك إلى سطح الثلج وانطلق يجري نحو ستو. صاح الأخير: «كوچاك! ابحث عن توم!».

نبح كوچاك ودفع بعضلات صدره الثلج ليستدير وهو ينبح. تحسس ستو المكان وهو ينادي. ارتطمت يده في القفاز بسترة توم، فجذبها بقوة حتى خرج توم يسعل ويشهق، وهوى كلاهما على ظهره فوق الجليد.

- حلقي! ساخن! أوه، رباه!
- إنها البرودة يا توم. ستزول.
- أختنق...
- لا تخف. سنكون بخير.
- تمددا دقائق وأحاط ستو بذراعيه توم المرتجف. من بعيد سمعوا صوت انهيار آخر.

مشوا ميلاً إلا ربع حتى وصلوا إلى بلدة إيفون، وقد فقدوا الأمل في إنقاذ الزلاجة أو المَعَدَّات التي دُفِنَتْ في عمق الثلج. ناموا الليلة بلا أحلام، وفي الصباح بدأوا في جمع مُعَدَّات سفر أخرى، وهو أمر عسير في بلدة صغيرة كهذه. فكر ستوم مرة أخرى في الانتظار حتى الربيع، ولم يكن توم ليعارضه خاصة مع ما حدث لهم. بيد أنه رفض الفكرة، فموعد الولادة قد اقترب وهو يرغب في أن يكون مع فراني وقتها ليتأكد من أن كل شيء بخير.

في نهاية الشارع الرئيسي في البلدة، وجدا زلاجتين قديمتين في متجر جون دير لا تقارنان بزلاجهما التي فقدوها ستو تحت الثلج، لكن لا مفر من تجربتهما. لم يعثرا على طعام إلا بعض المعلبات، وأمضيا باقي اليوم في البحث داخل المنازل عن مُعَدَّات تخييم.

أمضوا ليلة أخرى في البلدة، بعدما جهزوا عتادهم. أدرك ستو فجأة أن غدا ستكون عشية عيد الميلاد المجيد. كم أن الوقت يمر سريعا.

قال ستو لتوم وهو يشير إلى البيت الذي يبيتون فيه: «ادخل أنت وكوچاك وأشعلا النار. سأذهب لقضاء أمر».

- ما هو؟

- مفاجأة.

- مفاجأة؟ وهل سأعرفها؟

- نعم.

لمعت عينا توم وهتف: «متى؟!».

- بعد يومين.

- لا يمكن أن ينتظر توم كولين يومين. رباه، لا!
- يجب أن ينتظر توم كولين. سأكون هنا خلال ساعة.
- أوكاي...

بعد ساعة ونصف عاد ستو وقد وجد ما كان يبحث عنه. ظل توم يستجوبه ساعاتٍ عن المفاجأة حتى نسي من تلقاء نفسه.

قال ستو وهما مستقلقيان في ظلام البيت: «أعتقد أنك تتمنى الآن لو كنت قد مكثت في جراند چنكشن، هه؟».

غمغم توم ناعسًا: «رباه، لا! أنا أرغب في العودة إلى بيتي الصغير بسرعة. أتمنى ألا نسقط في الجليد مرة ثانية. توم كولين كاد يختنق!».
- سنسير ببطء.

لم يذكر ستو ما قد يحدث لهم لو تكرر الحادث في مكان بعيد عن البلدات والقرى.

في تلك الليلة حلم بأن فرانكي وابنها الذئب ماتا في أثناء الولادة. سمع الطبيب يقول له: «إنها الإنفلونزا. لن يعيش مولود آخر. الحمل شهادة وفاة بسبب الإنفلونزا. لقد انتهينا.. انتهى الجنس البشري.. بسبب الإنفلونزا».
ثم صرح صوت قهقهة الرجل المتشع بالسواد.

ليلة عيد الميلاد المجيد بدأوا رحلتهم التي قد تستمر إلى رأس السنة. في تلك الليلة مروا من فوق نفق أيزنهاور، وخيموا بعده بعدة أميال. اكتشف ستو أنهم يجلسون فوق أسقف سيارات غطاها الثلج بسُك قدمين، فوق جثث لا يعلم عددها إلا الرب.
هذه حقيقة مربعة.

عندما استيقظ توم في صباح يوم الخامس والعشرين في السابعة والرابع، وجد ستو مستيقظًا يجهز الإفطار، وهو أمر غير معتاد.
- صباح الخير يا ستو.
- صباح الخير، وكريسماز سعيد.

- كريسماس!

- نحن في صباح الكريسماس. هذا أفضل ما استطعتُ صنعه.

رأى توم شجرة صغيرة مغروسة في الثلج، مزينة بمجسمات بلورات ثلج وجدها ستو في متجر من متاجر بلدة إيقون، أسفلها عُلب مغلفة.

همس توم في سعادة غامرة: «شجرة! وهدايا! هذه هدايا، أليس كذلك يا ستو؟».

العلب الثلاث مغلفة بورق مزين بتهاني الزفاف، لم يجد ستو تغليفاً ينفع للكريسماس في المتجر.

- نعم.. هدايا لك من سانتا كلوز على ما أعتقد.

نظر توم في ضيق طفولي إلى ستو وقال: «توم كولين يعرف أن سانتا كلوز شخص غير موجود. رباه، لا! تلك الهدايا منك أنت!»، ثم بدا حزيناً وأكمل: «أنا لم أحضر لك ولا حتى هدية واحدة! نسيْتُ.. لم أكنُ أعرف أنه وقت الكريسماس. أنا غبي.. غبي!».

أحاطه ستو بذراعيه وقال له برفق: «أنتَ أحضرتَ لي هدية كريسماس مبكرة».

- لا. لم أفعل. توم كولين غبي. ق-م-ر. هذا هو تهجي كلمة غبي.
- لكنك فعلت. أحضرتَ لي أهم هدية على الإطلاق. أنا حي، ولم أكن لأنجو لولاك.

نظر إليه توم وحاول أن يفهم.

- لولاك لِمْتُ يا توم من البرد والالتهاب الرئوي. لا أعرف كيف عثرتَ على الدواء المناسب.. لا أعرف أكان نِكَ أخبركَ أو الرب أو الحظ الحسن، لكنك فعلتها. لا حق لك في أن تنعت نفسك بالغباء. لولاك ما شهدتُ هذا الكريسماس. أنا مدين لك.

قال توم بوجه يتألق فرحاً: «لكن ما فعلتُ ليس هدية».

- بل هدية.

- حسناً..

- هيا افتح هداياك.

أول هدية لعبة بنبول بالبطاريات، كان الأطفال يتصارعون عليها في بداية الصيف. الهدية الثانية سويتشيرت ثقيل مطبوع عليه مُترلّج، وتحتة عبارة: «لقد تسلقت لقلاند باس».

قرأها له ستو ثم قال: «لم نصل إلى هناك بعد، لكننا سنفعل».

خلع توم سترته ارتدى السويتشيرت، ثم ارتدى السترة فوقه.

- جميل جدًا يا ستو!

العبة الأخيرة فيها سلسلة فضية يتدلى منها ما يشبه حرف 8. رفعها متسائلًا: «ما هذه يا ستو؟».

- هذه علامة يونانية، تعني اللانهاية يا توم. إلى الأبد. أريدك أن ترتديها

حول عنقك يا توم. أنا أو من أننا سنعود معًا إلى بولدر. ولو احتجت إلى

أي شيء في أي وقت، انظر إلى السلسلة وتذكر ستو ريديمان. اتفقنا؟

- اللانهاية. إلى الأبد.. توم كولين سيتذكر.

وعلق السلسلة. هتف ستو وهو يمد يده في حقيبته: «كدت أنسى.. هديتك

يا كوجاك! دعني أفتحها لك».

أخرج من الكيس عُبوة طعام كلب هارتز ماونتن. نثر بعضها على الثلج

فالتهمها كوجاك سريعًا وهز ذيله مطالبًا بالمزيد، فقال ستو: «ما كان صاحبك

الأصلع ليسمح بالمزيد....».

واختنق بالكلمات، وشعر بالدموع تخز عينيه. إنه يفتقد جلن ولاري

ورالف بقبعته المميزة. قلت الأم أباجيل إنهم سيتحدون بالدم.. وقد كانت

محقة. لعنها ستو في سره وباركها.

- ستو، أنت بخير؟

- نعم يا تومي. بخير.

ثم عانق توم بقوة وقال له: «كريسماس سعيد يا صديقي».

قال توم مترددًا: «هل يمكن أن أغني أغنية قبل أن نرحل؟».

توقع ستو أغنية مثل «الأجراس الرنانة»، أو «رجل الثلج»، لكن توم غنى

بصوت عميق بطيء أغنية «أول عيد ميلاد مجيد».

- هذا هو أول عيد ميلاد مجيد.. هكذا قالت الملائكة.. للرعاة المساكين في

الحقول.. في الحقول.. وهم يراعون خرفانهم.. في ليلة شتاء باردة...

- انضم إليه ستو بصوت لا يضاهي عمق صوت توم، لكنه يتماهى معه.
ترددت تلك الترنيمة القديمة العذبة في صباح الكريسماس الهادئ.
- أول عيد ميلاد مجيد.. لقد وُلد المسيح في بني إسرائيل...
- قال توم فجأة في حرج: «هذا هو المقطع الوحيد الذي أتذكره».
- غنيتَ ببراعة.
- غلبتِ الدموع ستو مرة أخرى. قال وهو يتحاشى إظهارها: «يجب أن نرحل. النهار قصير...».
- هذا هو أفضل كريسماس عشته يا ستو.
- أنا سعيد يا توم.
- سرعان ما انطلقوا في طريقهم إلى الشرق، تحت سماء صباح الكريسماس المشرقة.

- خيّموا قرب قمة لفلاند باس ليلاً، على ارتفاع اثني عشر ألف ميل فوق سطح البحر. في الصباح استيقظ ستو على صوت نباح كوجاك، فخرج من الخيمة الثقيلة وبندقيته في يده. لأول مرة تظهر الذئاب. كانت مُتحلقة حول مخيمهم تنظر إلى الخيمة في صمت، وتكشر.
- أطلق ستو ست رصاصات عشوائياً، فتفرقوا. أصيب واحد منهم وتكوم ميتاً. اقترب منه كوجاك وتشممه، ثم رفع رجله وبال عليه.
- قال توم: «ما زالت الذئاب ملكه. لطالما كانت طَوال الوقت».
- استدار ستو نحو توم نصف النائم، وفطن إلى أنه داخل في حالة السبات الغريبة مرة أخرى. سأله: «توم.. هل مات؟ هل تعرف؟».
- لا يموت أبداً. إنه في الذئاب. رباه، نعم. في الغربان والحيات المجلبة.
- في ظل اليوم في منتصف الليل وظل العقرب في وضح النهار. إنه يحلق مع الوطاويط، أعمى مثلهم.
- ارتجف ستو، وسأله سريعاً: «هل سيعود؟».
- لم يُجب توم.
- تومي...
- توم نائم. ذهب ليرى الفيل.

- توم، هل ترى بولدر؟
- نعم. إنهم ينتظرون. ينتظرون خبراً.. ينتظرون ربيعاً. كل شيء هادئ في بولدر.
- هل ترى فراني؟
- أضاء وجه توم وأجاب: «فراني. نعم. إنها سمينّة. سوف تلد طفلاً. هي مع لوسي سوان. لوسي ستلد طفلاً أيضاً، لكنّ فراني ستلد أولاً. لكن...».
- واكفهرّ وجه توم قبل أن يكمل: «المولود...».
- ماذا عنه؟!
- نظر توم حوله في شك وقال: «نحن نطلق النار على الذئاب، أليس كذلك يا ستو؟ هل نمّت؟».
- أجبر ستو نفسه على الابتسام قال: «نعم. قليلاً...».
- حلمت بالفيل. غريبة.. صح؟
- نعم.
- ماذا عن فراني؟ ماذا عن المولود؟
- بدأ يشك في أنهم سيصلون في الوقت المناسب. أيّاً كان ما رآه توم فسيحدث قبل وصولهم.

ساء الجو فعطلّهم أكثر مما حسب ستو. اتضح أنهم يمرون الآن بأسوأ عاصفة في الشتاء. استمرت العاصفة قوية خمسة أيام، وغطّت الأرض بثلج بارتفاع أربع عشرة بوصة. عندما حفروا طريقهم خارج الخيمة يوم الثاني من يناير، كانت كل المعالم قد اختفت، والشمس مجرد عملة معدنية صغيرة في السماء.

علقت الزلاجات كثيراً على الطريق، واضطُرُّوا إلى التمرجل للحفر حولها. وفي اليوم الثاني من عام 1991، بدأت الانهيارات الجليدية مجدداً.

في يوم الرابع من الشهر، وصلوا إلى حيث يتفرع طريق US 6 من الطريق السريع ليُكمل طريقه وحده إلى جولدن.

وكان هذا هو اليوم الذي ستلد فيه فراني.

أسوأ ما في الطريق أمامهم اضطرارهم إلى البحث عن الأنفاق، والحفر فيها حتى تتسع لمرورهم. الأنفاق مواسير مرعبة معتمة إلا من ضوء كراس الدبوس في نهايتها.

ثم حالما يخرجون من الأنفاق حتى يُضطَرُّوا إلى التعامل مع الانهيارات الجليدية. أكثر ما أرب ستو احتمالية أن يصلوا إلى نفق مسدود أو طريق مغلق. وقتها سيُضطَرُّون إلى العودة إلى مفترق الطرق. لكن ما أدراه أن الطريق البديل مفتوح؟

ستضيع منهم أسابيع، خاصة أن التخلي عن الزلاجات والمشي مستحيل.. هذا انتحار بطيء.

في يوم السابع، وبعد خروجهما من نفق، وقف توم فوق الزلاجة وسأل ستو: «ما هذا؟».

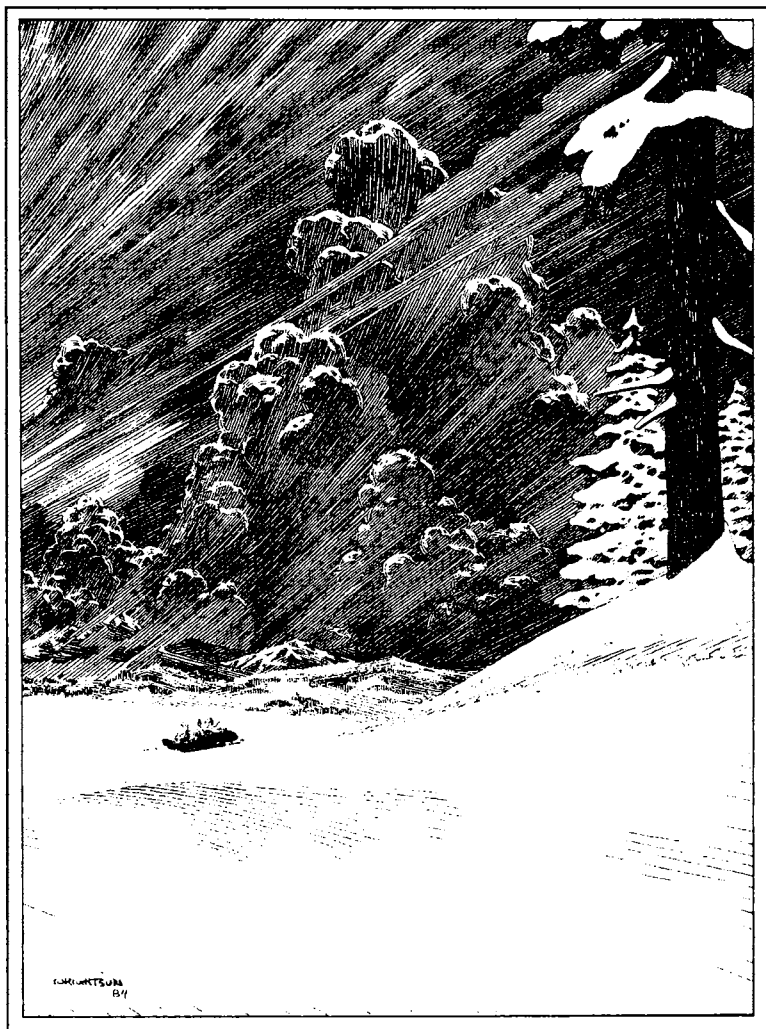
كان ستو مرهقاً، ورغم أن الأحلام ما عادت تزوره، ازداد قلقه بما لا يقاس. نظر ستو إلى حيث يشير توم الذي أكمل: «يبدو كأنه جسر. هل مررنا من فوق نهر؟».

هتف ستو وهو يقبض على كتفي توم: «إنه جسر جولدن يا توم! نحن على طريق 119! طريق بولدر! نحن على بعد عشرين ميلاً من البلدة! ربما أقل!». انفتح فم توم، فضحك ستو وربّت ظهره.

تعانقا وتقاظرا راقصين، فتناثر غبار الثلج حولهما. بعد لحظات انضم إليهما كوجاك وقفز ونبح وهز ذيله في سعادة.

في الصباح التالي، وبعدما قطعاً مسافة معقولة عن بلدة جولد، توقفت زلاجة ستو، وأدرك الأخير أنه نسي ملء عبوات احتياطي الوقود. سأله توم في جزع: «وماذا سنفعل؟!».

- سنمشي.. سنحاول. أريد كيس نومك، وسنقسم الطعام ونضعه في كيسي النوم، وسنترك الخيام. آسف يا توم.. هذا خطئي. بدلاً من أن يصلوا إلى بولدر ذلك اليوم، خيموا عند الغروب وقد أرهقهم المشي وسط الثلوج، ولم يجدوا أخشاباً في متناول يدهم ليشعلوا بها النار. إلا أنهم سيكونون في بولدر غداً، ينامون على أسرة حقيقية.



ثم خطر له خاطر سوداوي. سيعودون إلى بولدر وسيجدونها خالية.. مهجورة مثلها كما كل البلدات التي مروا بها. لا صوت سوى عواء الريح. سيختفي الجميع مثلما يختفي الناس من الأحلام، لأنه لم يتبق في العالم سواه هو وتوم وكوچاك.

خاطر مجنون، لم يستطع التخلص منه.

نظر إلى الأفق الشمالي المظلم مرة أخرى، وأمل أن يرى نورًا يخبره بأن البلدة حية. حاول أن يتذكر تخمين جِلن بشأن عدد سكان المِنطقة الحرة وقت هطول أول ثلج، ولم يستطع التذكر. ثمانية آلاف؟ ثمانية آلاف شخص لن يضيئوا المدينة بما يكفي من هذه المسافة، حتى لو عادت الكهرباء بالكامل.. ربما...

ربما الأفضل لو تنام قليلاً.. دع الغد للغد.

بعد أرق دام طويلاً، حلم بأنه في بولدر الصيفية، حيث كل الحقائق أمام المنازل مصفرة جافة من الحرارة وقلة الري. لا صوت إلا صوت صرير باب يدفعه الهواء. لقد رحل الجميع، حتى توم.

نادى فراني، ولم يجبه إلا صرير الباب وحفيف الهواء خلال الأغصان.

في اليوم التالي مشوا عدة أميال بصعوبة بالغة، وبدأ ستو يقتنع أنهم سيظلون على الطريق يوماً آخر، وأنه هو من يعطل الركب بسبب عَرجه. تولى توم أغلب أعمال إخلاء الطريق من المعوقات. فكر ستو وهو يتناول غداءه المملب في أنه لن يرى فراني سميئة. قال لنفسه مواسياً: «ما زال أمامك وقت»، لكنه لم يصدق هذا. كان مؤمناً أن الولادة ستتم من دونه.. سواء مرت بسلام أو لا.

كان قد غرق في خواطره بعد وهم يمشون حتى كاد يتعثّر في توم الذي وقف فجأة ينظر إلى أسفل. إلى الجرف الجليدي العميق بارتفاع تسع أقدام، والذي يؤدي إلى الطريق النظيف من الثلج بالأسفل، عن يمينه لافتة مكتوب عليها: «حدود مدينة بولدر».

تربّع ستو على الأرض وضحك. رفع رأسه إلى السماء وصاح: «لقد نظفوا الطريق! أزالوا عن الثلج! لقد نجونا يا توم! فعلناها! كوچاك، تعال!».

نثر ما تبقى من طعام الكلاب على الأرض، فأكله كوجاك فيما يدخل ستم، ويرقب توم الطريق النظيف الذي ظهر أمامهم فجأة كالسراب. غمغم توم: «نحن في بولدر. مكتوب على اللافتة ح- د- و- د م- د- ي- ن- ة ب- و- ل- د- ر. هذا هو تهجي كلمة بولدر. ربا، نعم!». ربّت ستم على كتفه وقال: «هيا يا توم. لنعد إلى الوطن...».

انهمر الثلج مرة أخرى في السادسة مساءً، وابيضّ أسفلت الطريق تحت أقدامهم. كان ستم يعرج ويتألم، وسأله توم أكان يرغب في الراحة فهز رأسه نفياً.

مرة أو اثنتين ضلوا طريقهم، وانزلق توم مرة، وسقط ستم على ساقه المصابة مرة. سأله توم أكان يريد أن يحمله، فأجاب ستم: «أنا بخير»، وقام سريعاً.

بعد عشرين دقيقة سمعوا صوتاً قلقاً يسأل من وراء الظلام: «من يمشي هناك؟».

نبج كوجاك، وتوتر توم. فكر ستم في أن فلاج أرسل أحد رجاله. لقد نجوا من كل هذا ليقتلوا قرب المتجر الرئيسي للبلدة.

هتف ستم: «أنا ستم ريتمان. من أنت؟!».

جاء الصوت مألوفاً يسأل: «ستم؟ ستم ريتمان؟».

- توم كولن معي. بربك لا تطلق النار!

قال الصوت: «هذه خدعة؟».

- ليست خدعة! توم، قل شيئاً!

أطاع توم وهتف: «أهلاً!».

مرت هنيهة صمت عوت فيها الرياح المحملة بندف الثلج حولهم، ثم قال الصوت المألوف: «ستم لديه لوحة معلقة على جدار شقته. صورة من؟».

حاول ستم أن يركز تفكيره ويبعد قلقه. قال أخيراً: «لوحة لفريدريك ريمنجتون⁽¹⁾! اسمها طريق الحرب».

(1) رسام ومثال أمريكي (المترجمة)

ظهر المُتكلّم وهو يجري خلال الثلج ويهتف: «ستو! لا أصدق!».

رأى ستو أنه بيلي جرينچر. أكمل: «ستو! توم! وكوچاك أيضًا! أين جِلن ولاري؟ أين رالف؟».

هز ستو رأسه في أسى وأجاب: «لا أعرف. يجب أن نبتعد عن هذا البرد يا بيلي. سنتجمد».

- المتجر قريب. سأستدعي نورم كيلوج وهاري وِدك إليس.. سحَقًا! سأوقظ البلدة كلها! لا أصدق!

- بيلي.. لحظة. فران ستلد...

تجمد بيلي مكانه وغمغم: «سحَقًا. نسيت...».

- هل ولدت؟

- سيخبركَ الطبيب چورچ ريتشاردسن يا ستو. أو الطبيب دان لاثروب، وافد جديد وصل منذ أربعة أسابيع. كان مختصّ أنف وأذن وحنجرة، لكنه بارع في...

هزّ ستو كتفيّ بيلي ليقطع ثرثرته، فسأله توم: «ماذا حدث؟ هل فراني بخير؟».

- تحدث يا بيلي. أرجوك.

- فران بخير. ستكون بخير.

- ماذا سمعت؟

- لم أسمع، رأيتها. كنت أنا وتوني في المشفى، ننقل أزهارًا إلى مريض هناك. توني افتتح متجر أزهار. كانت فراني هناك، وقد خضعت لعملية ولادة رومانية...

- تقصد قيصرية؟

- آه نعم.. لأن الطفل كان مقلوبًا. رأيتها هناك قبل يومين وأحضرتُ لها أزهارًا. قلنا إن الأزهار قد تسعدها لأن...

قال ستو: «الطفل مات؟».

- لا... أ... ليس بعد.

شعر ستو أنه بعيد للغاية، كأنه في فراغ بلا نهاية، وسمع ضحكة وعواء ذئاب. أكمل بيلي في تعاسة: «إنه مريض بكابتن ترييس. يقول الناس إن

هذه نهايتنا. آسف يا ستو.. في البداية قال الناس إنه سيتحسن، أو إنه يعاني إنفلونزا عادية.. أو التهاباً رئوياً.. أو خناقاً.. لكن الأطباء قالوا إن حديثي الولادة لا يصابون أبداً بهذه الأمراض. لقد رأى دان وجورج الكثير من المصابين بالوباء، وصعب أن...».

- صعب أن يخطئوا التشخيص.

- نعم.

- سحقاً...

ابتعد ستو عن بيلي ومشى على الطريق المظلم.

- ستو، إلى أين ستذهب؟

- إلى المستشفى، لأرى امرأتي...

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل السادس والسبعون

رقدتُ فران على الفراش تقرأ على ضوء المصباح الجانبي. كانت تقرأ ثم تنام وتنجرف إلى الذكريات القديمة. ستدفن والدها.. هذا هو كل ما تتذكره، ولا يهم ما حدث بعد ذلك، لكنها ستُخرج نفسها من الصدمة وتدفنه. بعدها ستأكل فطيرة الفراولة والراوند الكبيرة الطرية المُرّة.. المُرّة للغاية.

جاءتها مارسى تطمئن عليها منذ نصف ساعة، فسألتها: «هل مات بيتر؟». حتى وهي تسأل، لم تكن تعي أكانت تقصد بيتر الطفل أم بيتر الجد.
- إنه بخير.

رأت فران الحقيقة في عيني مارسى. ابنها يموت بين أربعة جدران زجاجية. ربما يكون حظ ابن لوسي أسعد، فكلما والديه منيع. تخلت المنطقة الحرة الآن عن الأمل في بيتر، وانتقلت إلى وضع آمالهم العريضة على المولود الثاني. هذا قاس، لكنه مفهوم.

تذكرت ستو، أول مرة رأت فيها بيتر جولد سميث ريديمان، وتمنت لو كان ستو معها.

- فران؟

لا يحدث لها ما تمنّت أبدًا. كل آمالها ذهبت هباء...

- فراني...

في حلمها رأت ستو يقف عند الباب، يرتدي معطفاً من الفراء. أمل خادع آخر. غريب أنها رأت لحية ستو في الحلم مشعثة. أليس كذلك؟ بدأت تتساءل أكان ما تراه حلمًا، حتى رأت توم كولين يقف إلى جواره، وكوچاك إلى جوارهما. قرصتُ خديها بقوة وهي تحرق إليهم.

- ستو؟ رباه.. هل هذا أنت حقاً؟!

وجهه مسمر محترق عدا ما حول عينيه. تفصيلة أخرى لم تكن لتراها في الأحلام.

هُرِعَ ستو إليها وهو يقول: «هذا أنا.. كفي عن قرص نفسك. لقد عدتُ يا فراني».

عانقها بقوة فتأكدت من أنه حقيقي.

الفصل السابع والسبعون

كان ستو جالسًا على المقعد المجاور لفراش فران، عندما دخل الطبيبان. ضغطتُ فران كف ستو بقوة، وتجهم وجهها. قال جورج ريتشاردسن: «ستو.. سمعتُ بعودتك. لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى سعادتي. كلنا سعداء». تصافح الرجلان، وقَدَّم إليه الطبيب الثاني، دان لاثروب. قال الأخير: «سمعنا بانفجار في لاس فيجاس. هل رأيته؟».

- نعم.

- الناس هنا يظنون أنه انفجار نووي. حقًا؟

- نعم.

أوما ريتشاردسن، ثم التفت نحو فراني وسألها: «كيف حالك؟».

- بخير. سعيدة لعودة رَجلي. كيف حال بيتر؟

- هذا هو سبب حضورنا.

- مات؟

تبادل الطبيبان النظرات، ثم قال ريتشاردسن: «أريدك يا فاني أن تنصتي جيدًا، ولا تسيئي فهم أي شيء سأقوله».

- لو مات، أخبرني فقط!

قال دان: «يبدو أن بيتر يتحسن».

نظرت فراني في دهشة إلى الطبيب، وهمست: «ماذا؟».

- لا تتوقعي أيَّ شيء إيجابي أو سلبي.

- لقد قلت.. إنه يتحسن...

أدركتُ في هذه اللحظة أنها بالغت في أقلمة نفسها على موته.

- لقد فحصتُ أنا ودان حالات كثيرة خلال فترة انتشار الوباء. لاحظي أنني لم أقل أننا عالِجنا حالات، لأننا لم نفعل شيئاً يغير من مسار تدهوره. قال ستو أخيراً: «هلا اختصرتما من أجل المسيح؟».

- أنا أحاول، لكن يجب أن أكون حذراً في ما أقول. نحن نناقش حياة ابنكما، فلا تضغطا عليّ. نحن نفكر في أن كابيتن تريبيس فيروس سريع التحوُّر، وهو مثله كمثل الإنفلونزا، يتحوُّر فيعود كل عامين أو ثلاثة رغم الأمصال والتطعيمات. من وقت إلى آخر يحتاج العالم متحور من فيروسات إنفلونزا الخنازير أو هونج كونج، فنصنع لها لقاحاً، ثم بعد عامين يتحور المرض مرة أخرى وينتج سلالة مختلفة تتحدى الأمصال.

قال دان: «لكنَّ البشر يقاومون لأن أجسادهم تفرز مضادات حيوية طبيعية، ويتغيَّر ليتواءم مع المرض. كابيتن تريبيس يتحوُّر كلما توصَّل جسده إلى طريقة دفاع، وهو يشبه في هذا فيروس نقص المناعة المكتسب الذي يتحور من هيئة إلى أخرى حتى يُنْهَكَ الجسد، ثم يموت». سأله ستو: «لماذا لم نَصَبْ به إذن؟».

أجاب جورج: «لا نعرف. ولا أعتقد أننا سنعرف. كل ما نعرفه أن الجهاز المناعي لا يمرض ثم يُشفى، بل يُبْعِد المرض نهائياً. مما يعيدنا إلى بيتر مرة أخرى. دان؟».

- نعم. مشكلة كابيتن تريبيس أن الناس تتحسن، لكنها لا تشفى. مَرَضَ بيتر بعد ثمان وأربعين ساعة من ولادته، ولا شك أنه أصيب بكابيتن تريبيس، لكنه لم يَصَبْ قطُّ ببتلُون العنق الذي يصاحب المرحلة الرابعة والأخيرة من المرض. أضف إلى هذا أن الفترة بين تدهور آخر تطول. قالت فران: «لا أفهم...».

شرح جورج: «كلما تحور المرض، تحوُّر بيتر معه. احتمال تدهور حالته وارد، لكنه لم يصلْ من قبل إلى المرحلة الرابعة. يبدو أنه يصارع المرض بكفاءة».

قال دان: «لقد مررت نصف مناعة إلى ابني يا فراني. أعتقد أن هذا ما فعلته السيدة وينتورث مع توأميها، لكن ظروفهما الصحية وقلة الرعاية أضعفتها حتى ماتا».

- ماذا عن باقي النساء الحوامل من رجال غير منيعين؟

- عليهنَّ أن يتابعن حالة أطفالهنَّ جيّدًا. الموت وارد بعد حتى في حالة بوتر. لكن في يوم سنصل إلى أن يكون كل المواليد في المنطقة الحرة -في العالم- نتاج تزواج بين رجل وامرأة منيعين. رغم أن كل ما قلناه غير مؤكد تمامًا، فإن علينا أن نراقب بوتر ونتعلم. لن نراقبه وحدنا، بل كل قلوب المنطقة الحرة ستتعلق به.

غمغمت فران: «أنا أريده أن يشفى فقط لأنه ابني وأنا أحبه.. وهو صلتي بالعالم القديم. إنه يشبه جيس أكثر مما يشبهني، وأنا سعيدة لهذا. هل تفهمني يا ستو؟».

أوما ستو متفهمًا. شعر فجأة برغبة عارمة في أن يجلس مع رفاقه في محطة الوقود ويحكي لهم ما عرفه عن المرض وما حدث طوال هذه الفترة. العالم القديم لن ينتهي من نفوسهم أبدًا. أمسك يد فراني وشعر بدموعه تحتشد خلف عينيه.

استأذن الطبيبان لفحص الحالات الأخرى؛ في المنطقة الحرة واحدة وستون امرأة حاملًا، منهن تسع حملن قبل الوباء. هذا بالإضافة إلى المرضى العاديين.

أبدى ريتشاردسن ملاحظة عن مشية ستو، وطلب منه أن يمر عليه لمحاولة إصلاح الكسر. سألته ستو عما حدث له فحكى لها. بكّت كثيرًا وقالت: «لقد مات الكثيرون.. ماذا عن لاري؟ ماذا عن جلن ورالف؟».

- لا أعرف.

- ماذا ستقول لوسي؟ ستصل خلال ساعة؛ تزورني كل يوم. ستو، ماذا لو سألتك...

أجاب ستو كأنه يجيب نفسه: «لقد ماتوا هناك. هذا ما أعتقد. هذا ما يعرفه قلبي».

- لا تخبر لوسي بهذا. سينفطر قلبها.

- أعتقد أنهم كانوا تضحية. الرب دائماً يطالب بتضحيات. يداه مبللتان بالدماء. لا أعرف لهذا سببًا. لست رجلًا ذكيًا. ربما نحن من جلب هذا على رؤوسنا. كل ما أقوله هو أن القنبلة انفجرت هناك، ونحن آمنون لمدة.. لمدة قصيرة...

- هل انتهى فلاج؟

- لا أعرف. أعتقد أننا في حاجة إلى مراقبة الأمر. بينما نفعل، يجب أن نرسل البعض إلى المكان الذين يصنعون فيه تلك الأوبئة ليدفنوه إلى الأبد.

في المساء، دفع ستو الكرسي المتحرك الذي يحمل فراني، واتجهوا إلى الحضانة. نظر إلى المولود، وإلى البطاقة المثبتة إلى مهده: بيتر جولد سميث - ريتمان. الأم: فرانسيس جولد سميث. الأب: جيسي رايدر (متوفى). وكان بيتر يبكي، مكورًا كفيه. شعره داكن غزير، وعيناه زرقاوان، بدا لستو كأنهما ينظران إليه مباشرة، يتهمانه بأنه هو من كتب هذه المأساة.. مأساته.

بكت فراني لمرأى المهود الفارغة حوله. ركع ستو متألمًا وعانقها مطمئنًا، ثم ظلًا ينظران إلى المولود حتى غفا.. وظلا يراقبانه بعدها، كأنهما لا يصدقان أنه موجود.

الفصل الثامن والسبعون

يوم الأول من مايو

ومضى الشتاء.

بعد عودة ستو بيومين، كسر الطبيب ساقه مرة أخرى وأعاد تثبيتها بشكل صحيح، ووضعها في جبيرة ضخمة لم يفكها إلا في أبريل. تحولت الجبيرة إلى خريطة، وقّع عليها كل أهالي المنطقة الحرة. عاد الناس يتوافدون إلى المنطقة الحرة في شهر مارس، وبلغ التعداد أحد عشر ألف نسمة.

يقف ستو الآن مع فراني ولوسي في المتنزه أسفل جبل فلاجستاف، يشاهدون احتفال الأول من مايو، والذي شارك فيه جميع أطفال البلدة وبعض الكبار. امتلأت السلال بالورود والفواكه، وعلّق توم كولين اثنين منها حول عنقه. كانت هذه فكرة فراني.

بدأ السباق يومها، وجرى الأطفال وراء بعضهم، وشاركهم الكبار، فملأت الضحكات الشوارع الخالية، وأخافت الغزلان التي ظنّت أنها جزءًا من المطاردة.

نُصبت موائد عملاقة وسط المسرح المكشوف الذي جلس فيه هارولد لودر في يوم ينتظر الوقت المناسب ليتحدث خلال اللاسلكي المشؤوم. بحلول الظهيرة تجمع أكثر من ثلاثة آلاف شخص هناك، يأكلون ويصخبون ويحتفلون بالربيع. ربما يكون هذا آخر تجمع بهذا الحجم لأهالي المنطقة الحرة، إلا لو قرروا الذهاب إلى الاستاد في دينقر لمشاهدة مباراة كرة قدم.

أغلب الطعام الذي أكلوه ذلك اليوم اعتمد على ما جلبه المهاجرون الذي وصلوا يوم الخامس عشر من أبريل، وكانوا ثمانية آلاف شخص.

لقد صار اليوم الذي يصل فيه خمسمائة شخص فقط يومًا نادرًا.
في حَلْبة اللعبة المغطاة التي أحضرها ستو، بكى بيتر وتلمل، فهُرِعَتْ
إليه فران، إلا أن لوسي الحامل في ثمانية أشهر سبقتها إلى هناك. هتفت
فراني: «أنا أحذرك.. لقد لوث حفاضته. أعرف من صوت بكائه».

- النظر إلى بعض البي بي لن يتعب عيني.
رفعت لوسي الصغير بين ذراعيها وهددته، ثم غيَّرت له الحفاض. قالت
لستو وفران: «لماذا لا تذهبان للتمشية قليلًا؟».

تأبطت فران ذراع رجلها، ومشيا ببطء تحت السماء الزرقاء بسحبها
البيضاء الصغيرة المتناثرة كالقطن.

بدتُ فران واجمةً، على مشارف البكاء. سألتها ستو عما بها، فطلبتُ منه أن
يجلس إلى جوراها على مقعد خشبي، وقالت: «أنا أشعر بحنين إلى بلدتي يا
ستو.. أريد العودة إلى مَين».

تصايح الأطفال وراءهما في سعادة. قال ستو: «ظنننكَ ستطالبين بالطلاق
بعد كل هذا الوجوم. نحن لم نوثق اقتراننا أساسًا».

أكملتُ فران دون تعليق على دعايته: «لن أذهب إلى أي مكان دونك. أنت
تعرف هذا. لكني أريد العودة إلى مَين. أنا دائمًا أحلم بها. ألا تحلم بشرق
تكساس؟ بأرنيث؟».

أجاب بصدق: «لا. يمكنني أن أعيش وأموت سعيدًا دون أن أرى أرنيث مرة
أخرى. هل ترغبين في الذهاب إلى أوجونكويت؟».

- نعم، لكن ليس على الفور. أريدك أن ترى معي أماكن جميلة هناك لم
ترها عندما قابلتني أنا وهارولد في نيو هامبشير. بريدجتون.. كاسل
روك.. أعتقد أن البحيرات الآن تفيض بالأسماك هناك. إن كنت تريد أن
تبقى هنا وتساعدهم في بناء المجتمع، فلا بأس. سأفهم. الجبال هنا
جميلة أيضًا.. لكنها لا تشبه بلدي.

نظر ستو إلى الشرق، وبدت فكرة الطلاق منطقية الآن، لا مجرد مزحة.
منذ ذاب الجليد طارده شعور بضرورة دوران الحياة واستمرارها مهما كانت
المسارات التي ستتخذها. المنطَقة الحرة صارت مزدحمة للغاية، لا يدوس
الناس بعضهم بعد، لكنَّ عددهم سيتضاعف سريعًا وستصعب السيطرة
عليهم.

تولى جاك چاكسون قيادة اللجنة الجديدة، ومعه ثمانية أعضاء آخرين، من بينهم براد كيتشنر الذي يدير مائة مشروع آخر. لم يعد المكان يحتاج إليه، ولم يعد يحتاج إلى كل هؤلاء المحتشدين فيه. أصبح هيو بيتريلا رئيس الشرطة الآن، وانضم إليه سبعة عشر شرطياً. بيتريلا ليس رجلاً طالحاً، بل هو فقط صعب المراس، ويجعل الخضوع إلى القانون أمراً شاقاً. لو كان جِلن حياً لقال إن الأمريكيان قد عادوا مرة أخرى إلى حُلبة الصراع بين القانون والحرية.

قالت فراني: «هل تعرف أنهم عرضوا علينا مكاناً في اللجنة؟».

- أشعر أنهم سيكونون أكثر سعادة لو رفضتُ. أنا أذكرهم باللجنة القديمة، لجنة إدارة الأزمة، والآن زالت الأزمة ولم يعد تذكرها أمراً ساراً.

ماذا عن بيتر يا فراني؟

- أعتقد أنه سيكون كبيراً بما يكفي للسفر في يونيو، وأنا أود أن أنتظر حتى تلد لوسي.

وُلد ثمانية عشر طفلاً في المِنطقة الحرة بعد بيتر، مات منهم أربعة. وُلد الأطفال من أبوين منيعين في وقت مبكر عن موعد ولادتهم الطبيعي، ويتوقع أن تلد لوسي في منتصف يونيو.

سألها: «ما رأيك في الرحيل أول يوليو؟».

أضاء وجهها وهتفت: «ستأتي معي؟! هل تريد أن تأتي؟».

- طبعاً.

- أنت لا تقول هذا فقط لإرضائي؟

- لا. سرعان ما سيغادر آخرون.

عانقته وهي تقول: «ربما سنمضي هناك عطلة. وربما يعجبنا المكان حقاً.. وربما سترغب أنت في البقاء».

أوماً وهو يفكر أكانا سيريدان العيش في مكان واحد إلى الأبد. نظر إلى لوسي التي تلاعب بيتر، وسألها: «هل فكرت في ما سنفعل لو مرض؟ أو لو حملت مرة أخرى؟».

- لدينا الكتب. سنقرأها ونتعلم. لا يمكن أن نعيش عمرنا خائفين، أليس كذلك؟ يمكن أن نعيد تصنيع الأدوية. لا يمكن تجنب المرض والموت حتى هنا. هل تتذكر ريتش موفات؟ وشيرلي هاميت؟
- نعم. ماتت شيرلي بالجلطة منذ شهر.
- أمسكتُ فراني يديه وقالت: «لنجرّبُ حظنا ونعيش الحياة التي نريدها».
- عادت فراني وستو ليأخذا بيتر من لوسي، ومشوا معاً إلى المسرح المكشوف.

غروب صيفي

- جلس في الشرفة الخارجية يشاهدان الغروب فيما بيتر يلعب في حماس بالتراب.
- كان ستو جالساً على مقعد مهترئ من كثرة الاستعمال، وعن يساره فراني جالسة على المقعد الهزاز. عن يسار بيتر إذ يلعب في الفناء، يتأرجح إطار معلق إلى فرع شجرة عتيقة.
- قالت فراني: «لقد عاشتُ هنا طويلاً، أليس كذلك؟».
- منذ زمن بعيد. بيتر اتسخ.
- يوجد ماء هنا. كان لديها مضخة ماء يدوية. كان لديها كل شيء...
- أوماً ستو ولم يُعلق. أشعل غليونه ونفث منه الدخان. نظر إليه بيتر، ثم مال يزحف في دوائر حتى وصل إلى بداية حقل الذرة، حيث تقف سيارة وينيباجو مخصصة للتخييم، مثبت إليها رافعة. اعتادوا السفر على الطريق الثانوية، واحتاجوا إلى الرافعة من وقت إلى آخر لإفساح الطريق. سألت فراني: «هل تشعر بالوحدة؟».
- لا. ربما أشعر بها في وقت ما.
- ربّت بطنها المسطح وسألته: «هل تخاف على الجنين؟».
- لا.

- سيلطخ أنف بيتر بالطين.

- وسيسقط الطين. أنجبث لوسي توأمين. هل تصدقين ذلك؟

- رأيتهما، والرؤية تصديق يا ستو. متى تظننا سنصل إلى مين؟

- ربما في نهاية يوليو. سيكون أماننا وقت طويل للاستعداد للشتاء. هل أنت قلقة؟

قلدته: «لا».

شرد ستو في الحياة الجديدة أمامهما. ربما يعودون يومًا إلى بولدر، ولو على سبيل تعارف الأطفال على أقرانهم، وربما انتقاء الأزواج. ربما ينتقل إليهم بعض سكان بولدر. لقد صرح عدد لا بأس به برغبته في الانتقال إلى مكان آخر بعدما عرفوا قراره هو وفران، حتى إن مارك زيلمان تحدث عن خطته لإصلاح طائرة والسفر إلى هاواي.

لو انهارت المنطقة الحرة، فلن تحدث كارثة. هذا ما كان سيقوله جلن بيتمان. لقد انتهى الغرض من تكوينها، والأفضل أن تتفك قبل...

قبل أي شيء؟

في آخر اجتماع للجنة قبل رحيلهما، طالب هيو بيتريلا بتسليح الشرطيين. التسليح ضروري.. ربما. لكن ماذا بعد؟ كيف ستتعاقب الأمور؟ كان جلن ليجيب بأنهم سيطالبون بأسلحة أقوى وسيارات أكبر، ثم عندما يكتشفون منطقة حرة أكبر في كندا أو تشيلي، سيترقى بيتريلا وزيرًا للدفاع تحسبًا فقط...

تذكر ستو كل الأسلحة التي تنتظر أن يلتقطها أحد.

لا بد أن تتفك هذه الكتلة وتتفرق، ويؤجل تنظيم السلطات العسكرية قدر الإمكان. يبدو أنها السبب في المشكلات دائمًا. عندما تمتلئ السجون وتُعتم، لن تُضطرَّ إلى إعطاء الشرطة أسلحة، حتى يحين الوقت الذي ينسى فيه الشرطيون الأسماء. والوجوه..

فكر ستو هو يتبع فراني وبيتر إلى داخل بيت الأم أباجيل: كل ما يمكننا فعله هو شراء الوقت.. شراء وقت لبيتر، لأبنائهما، ربما لأحفادهما. وقت حتى عام 2100 مثلًا، لا أكثر. لن نحتاج إلا إلى وقت تتعافى فيه الأم الأرض قليلًا.. موسم للراحة.

سألته فران عن سر شروده، فغمغم: «موسم للراحة...».

- ماذا يعني هذا؟

- يعني كل شيء.

نظر إلى بيتر وفكر: ربما لو أخبرناه بكل شيء، فسيخبر أبناءه، سيحذره. أبنائي الأعزاء، هذه الألعاب ألعاب موت.. تحرق، تقتل بالتلوث الإشعاعي والوباء الأسود الخانق. هذه ألعاب خطيرة. لقد قاد الشيطان أدمغة البشر الذين صنعوها، قاد يدي الرب المتمثلة في البشر. لا تلعبوا بها يا أبنائي، أبدًا. لا تلعبوا بها مرة أخرى.. أرجوكم، تعلموا الدرس. هذا العالم الخالي هو تذكيرتكم.

أدار ستو وجهه فراني نحوه وسألها: «فراني. هل تعتقدين أن البشر يتعلمون أي شيء من الماضي؟».

نظرت إلى مصباح الكيوسين في يدها وفكرت هنيهة قبل أن تجيب: «لا أعرف».

بدت غير مقتنعة بإجابتها، وبحثت عن شيء آخر تضيفه ليضيء إجابتها. إلا أنها لم تجد سوى «لا أعرف».

الدائرة تنغلق

افترض الشاعر أننا في حاجة إلى عون.

إدوارد دورن

استيقظ عند الفجر.

انتعل حذاءه.

جلس ونظر حوله. إنه على شاطئ أبيض كالعظام. فوق سماء خزفية صافية عالية وبعيدة بلا سحب. خلف بحر زمردى، تتكسر أمواجه على الصخور، ثم تخلل ما بين القوارب....
الزوارق...

وقف على قدميه. كان يسقط. إنه مرتجف. يشعر بصداع الثمالة.
استدار إلى الدَّغْل الأخضر الذي بدا كأنما يقفز إلى عينيه. غابة مظلمة من النباتات المتسلقة والأزهار الياضعة، الوردية مثل..

مثل حلمتي ثدي فتاة الكورال...

إنه حائر مرة أخرى.

ما هي فتاة الكورال؟

المهم، ما هي الحلمتان؟

صاح قرد مكاو لمرآه، وفر مبتعدًا، فارتطم بجذع شجرة تين بنغالي عتيقة، وسقط ميتًا.

نظر نمس إلى وجهه الملتحي المتجهم فمات من نرف مخي، واسودّت
خفساء تتهاى على جذع نخلة من منظره.

من أنا؟

لا يعرف.

أين أنا؟

هل هذا مهم؟

بدأ يمشي.. يترنح.. نحو الدّغل. رأسه يطفو جوعًا. عقله خاوٍ كعقل مولود.
كان عند بداية الدّغل عندما برز من بين الأشجار ثلاثة رجال، ثم أربعة،
ثم نصف دسته.

بشرتهم بنية ناعمة.

حدقوا إليه.

حدق إليهم.

ثم بدأ يتذكر.

صار الستة ثمانية، والثمانية ستة كلهم يحملون رماحًا. نظر إليهم الرجل
الملتحي. كان يرتدي سروالًا من الجينز وحذاء رعاة بقر ولا شيء آخر. جذعه
أبيض مثل بطن السلطعون، يعاني هزالًا شديدًا.

ارتفعت الرماح، وصاح وادٍ من الرجال بكلمة واحدة: يونّاه!

نعم. إنه يتذكر.

تذكر اسمه.

ابتسم.

ابتسامته كشمس حمراء تبزغ من خلف سحب حالكة. أسنانه بيضاء
وعيناه مرحتان. رفع كفيه الممسوحتين إلى أعلى علامة السلام.

قبل أن يخبو تأثير هذه الابتسامة، نزلت الرماح.

- هل تتحدثون الإنجليزية؟

نظروا إليه في صمت.

- أبلا سبانيول؟

لم يستجيبوا. طبعًا هو لا يتحدثون الإسبانيول اللعين.



ما معنى هذا؟

أين هو؟

سيتذكر في الوقت المناسب. لم تُبْنَ روما في يوم واحد، ولا أكرون، ولا أوهايو. لا يهم اسم المكان.

المكان الذي تصمد فيه هو مكانك. المهم أنك هنا.. واقف على قدميك. جرب التحدث إليهم بالفرنسية والألمانية، ثم ضحك في وجوههم الغبية. بدأ واحد منهم يبكي كالأطفال.

إنهم بدائيون، بسطاء، لكنني قادر على استغلالهم. نعم. يمكنني استغلالهم.

اقترب منهم ويداها مرفوعتان بعد. لمعت عيناه بالدفع والمرح المجنون.

- اسمي راسل فاراداي. لديّ مهمة.

حدقوا إليه مفتونين.

- جئت أساعدكم.

ركعوا له وحنوا الرؤوس، فغطاهم ظلُّ الحالك، واتسعت ابتسامته.

- جئت أعلمكم كيف تصيرون مُتَحَضِّرِينَ!

هتف زعيمهم في فرح وذعر: «يُونَاهُ!»، وقبَّل حذاء راسل فاراداي. ضحك الرجل المتشح بالسواد، وظل يضحك ويضحك.

الحياة عَجَلَةٌ لا يسع الإنسان الوقوف أمامها طويلاً. تدور، ثم تعود دائماً إلى المكان نفسه.

فبراير 1975

ديسمبر 1988

مكتبة

t.me/soramnqraa

الصمود THE STAND

في البدء جاءت أيام الوباء، ثم تلتها الأحلام.

يهرب رجل من مختبر للتجارب البيولوجية، حاملاً في جسده شيئاً فتاكاً دون أن يعلم؛ سلالة متحورة من فيروس سيقضي على 99% من سكان العالم خلال الأسابيع القادمة.

الناجون من الموت تعلّموا أن يهابوا شيئاً آخر غير الموت، حيث انقسم العالم بعد الجائحة بين اثنين: الأم الطيبة أباجيل، التي تدعو لتأسيس مجتمع هادئ في كولورادو. والرجل الغامض، الذي يسمونه راندال فلاج، الماشي، الرجل بلا وجه، صورة الشيطان الحية.

يغوي الضعفاء ليضمهم إلى صفه من ذراً: "عاجلاً أو آجلاً، ستحاربون لأجل حيواتكم، وما هو أكثر من حيواتكم. عاجلاً أو آجلاً ستبدأ حرب الصمود". حيث سيتحدد مصير البشرية.

"الصمود"، رواية عن الأعاجيب المُلغزة، والرعب الذي لا يُقاوم، والمواجهة الملحمية بين الخير والشر.



telegram @soramnqraa

تصميم الغلاف كريم آدم karimadam.com

مكتبة

t.me/soramnqraa



www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb